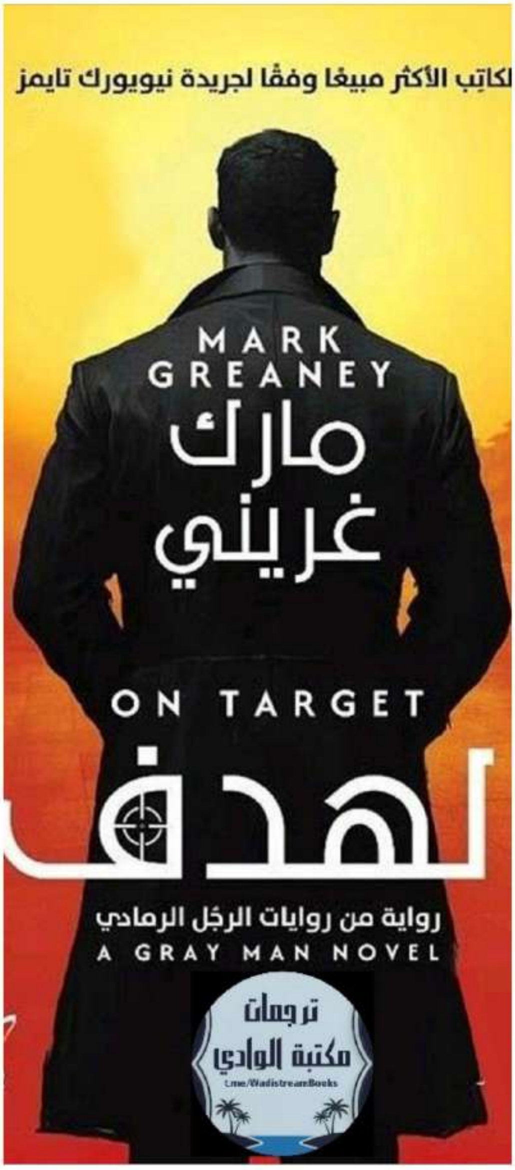
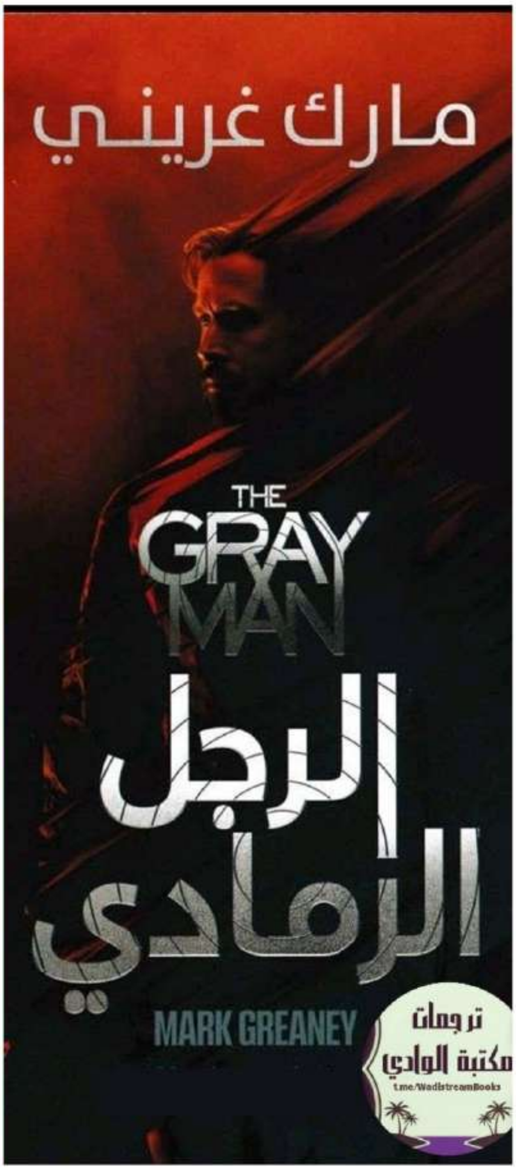

المؤلف الأكثر مبيعاً رقم
1 في نيويورك تايمز
مارك
غريني
"أعشق الرجل الرمادي."
لي تشايلد، المؤلف الأكثر مبيعاً رقم 1 في نيويورك تايم
انتقام
رواية من سلسلة الرجل الرمادي
ترجمات
مكتبة الوادي
t.me/WadistreamBooks


الكاتِب الأكثر مبيعًا وفقًا لجريدة نيويورك تايمز
MARK
GREANEY
مارك
غريني
ON TARGET
الهدف
رواية من روايات الرجُل الرمادي
A GRAY MAN NOVEL
ترجمات
مكتبة الوادي
t.me/WadistreamBooks


مـارك غريـنـي
THE
GRAY
MAN
الرجل
الرمادي
MARK GREANEY
ترجمات
مكتبة الوادي
t.me/WadistreamBooks

تعريف بالمؤلف

في عالم يتسارع فيه إيقاع الأحداث وتتشابك فيه خيوط السياسة والتجسس، يبرز اسم **مارك غريني** كواحد من أبرز فرسان أدب التشويق والإثارة المعاصرين. ليس غريني مجرد كاتب يروي قصصًا؛ بل هو مهندس عوالم معقدة، ينسج من الخيال والواقع نسيجًا متينًا يأسر القارئ من الصفحة الأولى حتى الأخيرة، ويتركه بلهفة للمزيد.

يُعدّ غريني خير وريث لمدرسة **التشويق العسكري- السياسي (Military-Political Thriller)**، وهو نوع أدبي سائد ومنتشر بكثرة في الولايات المتحدة الأمريكية، وله جذور عميقة في ثقافة الأدب الغربي.

هذه المدرسة الأدبية، التي لمع فيها عمالقة مثل توم كلانسي (الذي أكمل غريني كتابة بعض رواياته)، روبرت لودلوم، وفنسنت فلين، تجد في مارك غريني صوتًا جديداً وقويًا يضيف إليها بعداً عصريًا. قدرته على المزج بين الأكشن المثير، والمؤامرات المعقدة، والتحليل العميق لشخصيات تعاني من صراعات داخلية وخارجية، هي ما يميزه ويجعله يحتل مكانة مرموقة في هذا المجال.

في سلسلة "الرجل الرمادي (The Gray Man) "، والتي تُعد هذه الرواية جزءًا منها، يقدم لنا غريني تحفته الفنية: كورتلاند جنتري. إنه تجسيد حي للبطل المضاد (Anti-hero) الذي يعكس روح العصر؛ عميل سابق لوكالة المخابرات المركزية، يعيش في الظلال، ويقوم بالمهام التي لا يستطيع أحد غيره القيام بها، وغالبًا ما يجد نفسه وحيداً في مواجهة أنظمة بأكملها. أسلوب غرينيفي السرد يمتاز بالسرعة والحدة، مع لغة مباشرة تضع القارئ في قلب الحدث، وتفاصيل دقيقة تجعلك تشعر وكأنك تشارك جنتري كل خطوة وطلقة.

إن قراءة رواية لمارك غريني ليست مجرد تمضية للوقت؛ إنها تجربة غامرة تأخذك في رحلة حول العالم، من شوارع باريس الأنيقة إلى صحاري سوريا الموحشة، ومن أروقة السلطة الخفية إلى جبهات القتال المشتعلة. إنها دعوة للانغماس في عالم حيث الأخلاق رمادية، والنجاة هي الهدف الأسمى، والعدالة تُنتزع بقوة السلاح والذكاء الحاد. استعد لرحلة لا تُنسى في عالم "الرجل الرمادي"، حيث التشويق لا يعرف حدودًا.

المترجمة/ كاميليا وليد


مـارك غريـنـي
مكتبة
THE GRAY MAN
الرجل الرمادي
MARK GREANEY
ترجمة: كريم كيلاني

غريني، مارك
الرجل الرمادي: رواية /مارك غريني.
ترجمة : كريم الكيلاني.
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2024.
416 صفحة، 20 سم.
تدمك : 3-125-820-977-978
ا- القصص الأمريكية
أ- كيلاني، كريم (مترجم)
ب- العنوان : 823
رقم الإيداع : 19045 / 2022
الطبعة الأولى : يناير 2024.

t.me/soramnqraa

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم
هاتف أرضي: 0235918808
هاتف محمول: 01000405450 – 01001872290
بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com
info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

الرجل الرمادي

مارك غريني

ترجمة
كريم كيلاني

الجزء الاول
الرجل الرمادي

الإهداء

إلى إدوارد إف غريني جونيور وكاثلين كليغورن غريني: أمي وأبي، أفتقدكما كثيرًا

أود أن أشكر جيمس ييغر وكادره الرائع من المدربين في شركة الاستجابة التكتيكية في كامدن بولاية تينيسي على تمكيني من الاطلاع على البنادق والمسدسات وتكتيكات العمل الطبي الفوري وتكتيكات الفريق وخاصةً للمهارة التي أظهروها في إخماد الحريق الذي لحق بي، بارك الله فيكم، أمريكا مكان أكثر أمانًا بسبب كل ما تفعله أنت وطلابك، الآن اذهب واقضِ على بعض الكراهية.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى الكتاب الذين يقدرون القراء: جيمس رولينز وديفين جريني وكارين أوت ماير وجون وكاري إيكولز ومايك كوان وجريج جونز وأبريل آدامز ونيكول جير روبرتس وستيفاني وآبي ستوفال وجيني كرافت، إنني أقدركم جميعًا.

امتناني العميق والأبدي لوكيل أعمالي سكوت ميلر في مجموعة ترايدنت ميديا، والمحرر توم كولجان في بيركلي ، كان هذا ممتعا يا رفاق ، سنفعل ذلك مرة أخرى في وقت ما.

MarkGreaneyBooks.com

لفت انتباه سائق سيارة اللاند روفر الملطخ بالدماء وميضٌ يلمع بعيدًا في سماء الصباح، وحمى عينيه من أشعة الشمس الشديدة بنظارة أوكليز المستقطبة، وحدق عبر عدساتها المتوهجة يحاول يائسًا أن يحدد الطائرة المحترقة التي كانت تدور وتندفع نحو الأرض، مخلفةً وراءها ذيلًا من الدخان الأسود المتصاعد.

كانت طائرة هليكوبتر عسكرية كبيرة من طراز الشينوك. وبالرغم من كون الوضع مأساويًا لمن كانوا على متنها، فإن سائق اللاند روفر تنفس الصعداء، إذ كان من المقرر أن تكون وسيلة خروجه روسية الصنع من طراز **(KA-32T)**، وبها طاقم من المرتزقة البولنديين لينتقلوا فوق الحدود في تركيا، أحس السائق أن طائرة شينوك البالية مثيرة للإزعاج، ولكن هذا أفضل من أن يكون في طائرة **(KA-32T)** الموشكة على السقوط.

شاهد المروحية تدور في أثناء هبوطها غير المنضبط، وتلطخت السماء الزرقاء أمامه بالوقود المحترق.

أدار السيارة اللاند روفر بقوة إلى اليمين، وأسرع باتجاه الشرق. أراد السائق الملطخ بالدماء أن يبتعد بأسرع ما يمكنه، تمنى لو كان بوسعه أن يفعل شيئًا من أجل الأمريكيين على متن الطائرة الشينوك، لكنه كان يعلم أن مصيرهم ليس بيده، وأن أمامه مشكلاته الخاصة.

أسرع لمدة خمس ساعات عبر الأراضي المنبسطة في غرب العراق، هربًا من العمل القذر الذي تركه وراءه، والآن كان على بعد أقل من عشرين دقيقة من موقع انسحابه، وإسقاط مروحية يعني أنه في غضون دقائق سيعج هذا المكان بالمقاتلين المسلحين، سيمثِّلون بالجثث، ويطلقون رصاص بنادقهم في الهواء، ويقفزون مثل الحمقى الأغبياء.

لقد كانت حفلة لا يمانع السائق الملطخ بالدماء في تفويتها، إلا خشية أن يصبح هو نفسه هدية الحفلة.

غرقت طائرة شينوك على يساره، واختفت خلف سلسلة من التلال البنية المترامية، ثبت السائق عينيه على الطريق أمامه، وقال لنفسه: «ليست مشكلتي». لم يتدرب على البحث والإنقاذ، ولا على تقديم المساعدة، وبالتأكيد لم يكن مُدرَّبًا على التفاوض من أجل تحرير الرهائن.

لقد تدرب على القتل، وقد فعل هذا على حدود سوريا، والآن حان وقت الخروج من منطقة القتال.

مع ازدياد سرعة سيارته اللاند روفر عبر الضباب والغبار بأكثر من مائة كيلو متر في الساعة بدأ حوارًا مع نفسه، حدَّثتهُ نفسه بالعودة إلى الوراء، وأن ينطلق إلى موقع تحطم الشينوك للبحث عن ناجين، من ناحية أخرى، كان عقله أكثر واقعية، وقال له: «استمر في الحركة يا جينتري، لا تتوقف، انتهى أمر هؤلاء الرجال، لا يمكنك فعل أي شيء حيال ذلك».

كانت كلمات جينتري التي نطق بها عقلانية، لكن حديث نفسه لم يصمت.

1

لم يكن أول الواصلين إلى موقع الحطام من المسلحين ينتمون إلى القاعدة، ولا علاقة لهم بإطلاق النار، بل كانوا أربعة فتيان محليين ببنادق كلاشنكوف قديمة ذات كعب خشبي، يسيطرون على حاجز أمني صباحي مهمل على بعد عدة أمتار من موقع سقوط المروحية في أحد شوارع المدينة.

تدافعوا عبر حشد المتفرجين المتزايد، وأصحاب المتاجر، وأطفال الشارع الذين أسرعوا للاختباء عندما اندفعت المروحية ذات الدوار المزدوج لتسقط عليهم في الشارع، بينما انحرف سائقو عربات الأجرة عن الطريق لتفادي الطائرة الأمريكية.

اقترب الشباب المسلحون من الموقع بحذر، لكن دون أي شيء ينم عن مهارة عسكرية، دوت فرقعة من النيران المشتعلة، رصاصة مسدس فجرتها الحرارة أجبرتهم جميعًا على الاختباء، بعد لحظة من التردد، رفعوا رؤوسهم مرة أخرى، وصوبوا بنادقهم، ثم أفرغوا ذخيرة أسلحتهم المدوية في الآلة المعدنية المشوهة.

زحف رجل يرتدي زيًا عسكريًا أمريكيًا أسود خارجًا من الحطام، فتلقى عشرين رصاصة من أسلحة الفتيان، انتهت معاناة الجندي فور أن مزقت الرصاصات الأولى ظهره.

خرج الفتية من مخبئهم مدفوعين بالشجاعة التي أفرزها أدرينالين قتلهم شخصًا أمام صراخ حشود المدنيين، أعادوا تعبئة ذخيرة بنادقهم، ورفعوها ليطلقوا النار على الجثث المشتعلة لطاقم الطائرة في قمرة القيادة، لكن قبل أن يطلقوا الرصاص هرعت من الخلف ثلاث شاحنات، ذات دفع رباعي مملوءة بمسلحين عرب. إنهم من القاعدة.

انسحب الفتيان المحليون بحذرٍ من موقع الطائرة، ووقفوا بين المدنيين، علت أصواتهم بالتكبير، بينما انتشر الملثمون حول الحطام، سقطت جثتا جنديين آخرين من مؤخرة الطائرة الشينوك، وكانت هذه هي أولى الصور التي التقطها طاقم قناة الجزيرة المكون من ثلاثة أفراد، كانوا قد نزلوا من الشاحنة الثالثة إلى موقع الحطام.

على بعد ميل تقريبًا انعطف جينتري عن الطريق إلى مجرى نهر جاف، ودفع سيارة اللاند روفر بصعوبة عبر حشائش النهر البنية، ثم ترجل من الشاحنة، وأسرع إلى الباب الخلفي، تأرجحت على ظهره حقيبة، بينما أحكم قبضته على حقيبة عمل طويلة ذات لونٍ جملي.

وهو يبتعد عن الشاحنة ـ لاحظ لأول ـ مرة الدماء الجافة على ملابسه المحلية الفضفاضة، لم تكن دماءه، لكن بقع الدماء لم تكن لغزًا، كان يعرف دماء من هذه، بعد ثلاثين ثانية وصل إلى قمة التلال الصغيرة بجوار مجرى النهر الجاف، وزحف إلى الأمام بأسرع ما يستطيع، دافعًا عتاده أمامه، عندما شعر جينتري بأنه اختبأ بشكل جيد بين الرمال والقصب، سحب منظارًا من الحقيبة، ونظر من خلاله إلى عمود دخان أسود يتصاعد في الأفق.

انقبضت عضلات فكيه المشدودة.

كانت الطائرة الشينوك قد استقرت في أحد شوارع قرية الباعج، وقد هجمت عليها ـ بالفعل ـ عصابة من الغوغاء لتغنم ما فيها، لم يكن منظار جينتري قويًا بما يكفي ليظهر هذه التفاصيل؛ لذا زحف على جانبه وفتح الحقيبة ذات اللون الجملي، التي بداخلها بندقية آلية من طراز **باريت إم 107**، وهي بندقية من عيار خمسين، تُطلق قذائف بنصف حجم زجاجة بيرة، وينطلق رصاصها الثقيل من فوهة سرعتها تغطي تقريبًا تسعة ملاعب كرة قدمٍ في الثانية.

لم يُلقم جينتري سلاحه ذخيرةً، بل صوَّب بندقيته تجاه موقع الحطام لاستخدام عدساتها القوية ذات قوة ست عشرة درجة، ومن

خلالها استطاع أن يرى النار والشاحنات الصغيرة والمدنيين العزل والمسلحين، بعضهم لم يكن يرتدي قناعًا، بل كانوا من العصابات المحلية.

كان بعضهم يرتدي أقنعة سوداء، بينما يخفي بعضهم الآخر وجوههم بالكوفيات، كان هذا فريق القاعدة الأوغاد الأجانب الذين جاؤوا لقتل الأمريكان ومعاونيهم، واستغلال الاضطراب في المنطقة.

ارتفع بريق معدني في الهواء، ثم هوى إلى أسفل، كأنه سيف يخترق هيئةً ما على الأرض، حتى من خلال منظار القناصة القوي لم يعرف جينتري ما إذا كان الرجل الممدد أرضًا حيًّا أم ميتًا عندما اخترقه نصل السيف.

انقبض فكاه مرة أخرى، لم يكن جينتري جنديًّا أمريكيًّا فحسب، بل كان مواطنًا أمريكيًّا قبل ذلك، وعلى الرغم من أنه لم يكن مسؤولًا أو تربطه علاقة بالجيش الأمريكي، فقد شاهد على مدار سنوات صورًا تلفزيونية لمذابح كتلك المذبحة التي تحدث أمام عينيه، وأصابته بالغضب والاشمئزاز لأبعد ما يمكن أن تتحمله قدرته على ضبط النفس.

احتشد الرجال الذين تجمعوا حول الطائرة معًا كأنهم شخص واحد، احتاج لحظة ليفهم ما يجري عند الوهج الذي ينبعث من الأرض القاحلة، لكن سرعان ما ميَّز بهجة الجزارين الذين تجمعوا حول الطائرة المنكوبة، كان الأوغاد يرقصون فوق الجثث.

أبعد جينتري إصبعه عن زناد البندقية البيريت الكبيرة، وظل يحرك طرفه الناعم بأصابعه، أوضح له الليزر المسافة، وألهمته بضع خيام مصنوعة من الخيش رفرفت في النسيم بمسار الرياح، لكنه ما كان ليطلق النار من البندقية البيريت، فلو أنه ألقم سلاحه، وضغط على الزناد فسيقتل بضعة أوغاد بالفعل، ولكن المنطقة ستشتعل بأسرها، فضلًا عن انتشار خبر وجود قناص سيلاحقه كل ذكر بالغ يحمل

مسدسًا وهاتفًا قبل أن يبتعد لمسافة خمسة أميال ويهرب، وحينها ستُلغى عملية تسلل جينتري، وسيتعين عليه أن يشق طريقه بنفسه ليغادر منطقة القتال.

لا.

قالها جينتري لنفسه، من حقه أن يثأر قليلًا بالطبع، لكن هذا قد يثير عاصفة من المتاعب، وهو غير مستعد للتعامل معها، لم يكن جينتري مقامرًا، بل قاتلًا يعمل لحسابه الخاص، قاتلًا مأجورًا متعاقدًا، يمكنه أن يصيب ستة من هؤلاء الذين أمامه بالشظايا بنفس سرعة ربطه لحذائه العالي، لكنه يعلم أن مثل هذا الانتقام لن يستحق التكلفة.

بصق أمامه مزيجًا من اللعاب والرمال، ثم استدار ليضع بندقية البيريت مرة أخرى في حقيبته.

***

كان طاقم قناة الجزيرة قد تسللوا عبر الحدود السورية قبل أسبوع من أجل هدف واحد هو توثيق انتصار القاعدة في شمال العراق، سار كل من مصور الفيديو وفني الصوت والمراسل / المنتج على طريق يسيطر عليه تنظيم القاعدة، وناموا في بيوت آمنة تابعة للقاعدة بجوار خلية التنظيم، وقد صوروا إطلاق القذيفة التي اصطدمت بالطائرة الشينوك، وكذلك صوروا الكرة الملتهبة في السماء.

الآن يصورون مراسم قطع رأس الجندي الأمريكي الميت مسبقًا، رجل في منتصف العمر، اسمه مكتوب على شارة بخط اليد ملصقة بسترته الواقية «فيليبس ـ الحرس الوطني بمسيسيبي». لم يكن أحد من طاقم التصوير يتحدث الإنجليزية، لكنهم جميعًا اتفقوا أنهم سجلوا ـ بوضوح لتوهم ـ تدمير آلية من صفوة كوماندوز الاستخبارات المركزية الأمريكية.

علت التكبيرات التقليدية، بينما يرقص المقاتلون على وقْع إطلاق الرصاص في الهواء، وعلى الرغم من أن عدد أفراد الخلية كان ستة عشر رجلًا، فقد كان هناك أكثر من ثلاثين مسلحًا يتمشى بعضهم بجوار بعض أمام هذا العملاق المعدني المشتعل في الشارع.

ركز مصور الفيديو عدسته على المختار، وهو شيخ قبيلة يرقص في وسط الاحتفال، وصوره تصويرًا متقنًا أمام الحطام، فأظهر بياض دشداشته الانسيابي تباينًا ساحرًا مع الدخان الأسود الذي يتصاعد خلفه، وثب المختار على قدم واحدة فوق جثة الأمريكي مقطوع الرأس، ورفع يده إلى أعلى في الهواء ليلوح بسيف معقوف مضرج بالدماء.

كانت هذه هي أهم لقطة، ابتسم مصور الفيديو، وبذل قصارى جهده ليحافظ على احترافيته، يحذر أن ينساق وراء الألحان ورقصات الاحتفال بنصرة الله، التي شهد عليها هو والكاميرا.

صاح المختار عاليًا: «الله أكبر!».

راح يقفز بنشوة مع باقي المسلحين المقنَّعين، وانكشفت أسنانه من بين شعر لحيته الكثيفة وشاربه الكث إذ يضحك، بينما ينظر تحته إلى قطعة اللحم الأمريكية المحترقة الدامية الملقاة في الشارع.

صاح فريق الجزيرة أيضًا في نشوة، وسجَّل مصور الفيديو المشهد كله بيد ثابتة، كان محترفًا، فظل هدفه في المنتصف تمامًا، ولم تتحرك الكاميرا أو تهتز.

وفي تلك اللحظة، تمزقت رقبة المختار من جانبها، وانفجرت كالعنب المهروس، تناثرت الأوتار والدماء والعظام بعنفٍ في كل الاتجاهات.

وحينئذٍ اهتزت الكاميرا.

***

لم يتمالك جينتري أعصابه، فأطلق رصاصة تلو الأخرى على حشد المسلحين، وهو يطلق السباب بصوت عالٍ لعدم ضبط نفسه، إذ أدرك أنه يخاطر بوقته وبالعملية كلها، هذا لا يعني أنه قد سمع سبابه، فحتى مع سدادات الأذن كان صوت البندقية البيريت يصم الآذان، وقد أطلق على الهدف كمية هائلة من الرصاص، ومع توالي إطلاق النار انحل كعب البندقية، فاندفعت إلى وجهه وذراعه الحجارة والرمال التي ملأت الأرض من حوله.

توقف ليلتقط خزينة ثقيلة أخرى ليثبتها في البندقية، وقيَّم موقفه، من وجهة نظر احترافية، فهذه أشد الحركة غباء يمكن أن يؤديها، وعمليًّا كان يصيح في وجه المسلحين أن عدوهم اللدود موجود هنا بينهم.

ليته لم يعتقد أنها خطوة سديدة. أمَّن وضعية البندقية الآلية عند ثنية كتفه التي ارتجت بالفعل من أثر الارتداد، وشخَص ببصره نحو موقع سقوط المروحية، ثم واصل قصاصه العادل. رأى من المنظار الكبير أعضاء بشرية تدور في الهواء، في اللحظة التي استقرت رصاصة ضخمة أخرى في جسد ملثم من المسلحين.

كان هذا انتقامًا فحسب ليس أكثر. عرف جينتري أن أفعاله غيرت قليلًا حسابات المشهد، هذا بخلاف قتله بضعة أوغاد، واصل إطلاق النار على حشد القتلة وهم يتشتتون، لكن عقله انشغل بالفعل بمستقبله القريب، ضاعت فرصة الوصول إلى مهبط طائرات الآن، إن ظهور مروحية أخرى فرصة لن يتجاهلها الناجون من القاعدة.

لا. قرَّر جنتري. سيختبئ، سيبحث عن قناة للصرف الصحي أو وادٍ صغير، ويغطي نفسه بالتراب والطين، ويقضي طول النهار في الحرارة، ويتجاهل الجوع ولدغات الحشرات ورغبته في التبول. سيكون وضعًا سيئًا، ومع ذلك ظل يبرر أفكاره، بينما يثبِّت الخزينة الثالثة والأخيرة في البندقية الساخنة، كان لقراره الأهوج منَافع أيضًا، ففي النهاية يظل قتْل ستة أوغاد مكسبًا.

2

بعد أربع دقائق من إطلاق القناص آخرَ وابلٍ من الرصاص، مال أحد الناجين من القاعدة برأسه خارج مدخل محلٍّ تصليح الإطارات حيث كان يحتمي، بعد لحظات قليلة، كانت كل ثانية تمنحه ثقة متزايدة بأن رأسه سيبقى ملتصقًا برقبته، حتى خرج اليمني البالغ من العمر ستة وثلاثين عامًا بأكمله إلى الشارع.

سرعان ما تبعه آخرون، ووقفوا جميعًا حول المذبحة، أحصى سبعة قتلى، وحسبهم عن طريق تحديد عدد أرجلهم الملتوية في الوحل الدامي، ثم قسم عددها على اثنين، إذ لم يتبقَّ سوى القليل من الرؤوس والجذوع التي يمكن التعرف بها على الجثث، كان خمسة من القتلى من إخوانه في القاعدة، بمن فيهم الرجل الكبير في الخلية وكبير ملازميه، واثنان آخران من السكان المحليين.

على يساره استمر احتراق الطائرة، سار نحوها، ومر برجال يختبئون وراء السيارات وصناديق القمامة، اتسعت حدقات عيونهم من الصدمة، بينما فقد أحد السكان السيطرة على أمعائه بسبب الرعب فسقط على الرصيف يتلوى كالمجنون وقد لطخ سرواله.صاح فيه اليمني المقنع: «انهض أيها الأحمق!». ثم ركل الرجل في جانبه، وواصل طريقه ناحية المروحية. وقف أربعة آخرون من زملائه خلف إحدى شاحناتهم الصغيرة مع طاقم تصوير قناة الجزيرة. كان مصور الفيديو يدخن بيدٍ مرتجفةٍ كما لو كان في مرحلة متقدمة من الشلل الرعاش، بينما علّق كاميرتهُ إلى جانبه.

أحضِروا كل من بقي حيًّا إلى الشاحنات، سنعثر على القناص.

نظر إلى الحقول والتلال الجافة والطرق الممتدة جنوبًا، تعلوها سحابة من الغبار على ارتفاع ما يقرب من ميل واحد.

أشار اليمني قائلًا: «هناك!».

سأل فني الصوت في الجزيرة: «نحن. سنذهب إلى هناك؟».ـإن شاء الله. إن شاء الله.

عندها فقط نادى صبي محلي أحدَ ممثلي القاعدة طالبًا منهم أن يأتوا ويلقوا نظرة، كان الصبي قد اختبأ في كشك شاي على بعد خمسة عشر مترًا من مخروط مقدمة المروحية المثقوب. صعد اليمني واثنان من رجاله فوق جذع بشري غارق في الدماء لم يثبته بباقي الجسد سوى رداء أسود ممزق، كان هذا قائدهم الأردني، تشعّب مسار الدماء من حيث سقط على الجدران الخارجية ونافذة كشك الشاي، فاكتسى المبنى باللون القرمزي.

صاح اليمني باندفاع غاضب: «ما هذا يا فتى؟». وتحدث الطفل لاهثًا من فرط التنفس مجيبًا: «وجدت شيئًا!».

تبعَ اليمنيُّ واثنان من رجاله الصبيَّ إلى المقهى الصغير، بينما يخطون في الدماء، ونظروا حول طاولة مقلوبة، ثم عادوا خلف المنضدة. كان هناك جندي أمريكي شاب يجلس على الأرض وظهره إلى الحائط. كانت عيناه مفتوحتين وترمشان بسرعة، ويحتضن كافرًا آخر بين ذراعيه. كان هذا الرجل أسود، وبدا إما فاقدًا للوعي أو ميتًا، ولم يكن هناك أي أسلحة.

ابتسم اليمني وربت على كتف الصبي، استدار وصاح إلى من في الخارج: «أحضروا الشاحنة!». بعد اثنتي عشرة دقيقة افترقت شاحنات القاعدة الثلاث عند مفترق طرق.

توجه تسعة رجال إلى الجنوب في شاحنتين، وأجروا اتصالات عبر هواتفهم المحمولة للحصول على مساعدة المحليين في بحثهم عن القناص الوحيد، تولى اليمني واثنان آخران من القاعدة نقل السجينين الأمريكيين الجريحين إلى منزل آمن في مدينة الحضر القريبة، حيث اتصل اليمني بقيادته لمعرفة أفضل طريقة لاستغلال مكافأة صيده

الحديث، تولى اليمني عجلة القيادة، وركب شاب سوري في مقعد الراكب، بينما تولى مصري حراسة الجندي شبه المشلول وشريكه المحتضر في صندوق الشاحنة.

***

استفاق ريكي بايليس ذو العشرين عامًا من صدمة الحادثة بعض الشيء، عرف هذا لأن الارتجاج الثقيل الذي شعر به في عظمته المكسورة تحول إلى نوبات مؤلمة تصل سخونتها إلى درجة الانصهار. نظر إلى الأسفل نحو ساقه فلم يرَ سوى سرواله العسكري الممزق محترقًا، وحذاء معلق وممزق إلى اليمين يرقد خلفه الجندي الآخر، لم يكن بايليس يعرف الجندي الأسود، لكن شارة الاسم أوضحت أن اسمه كليفلاند، وكان كليفلاند فاقدًا للوعي، كاد بايليس يظن أن كليفلاند مات، لولا أنه لاحظ أن يتحرك ينتفخ قليلًا أسفل سترته الواقية.

في لحظة مفعمة بالأدرينالين ومدفوعة بالغريزة سحب ريكي الرجل بعيدًا عن موقع الحطام، بينما يزحف إلى متجر قريب من موقع الحادثة، لكن كشف أمرَه بعد عدة لحظات أطفال عراقيون ذوو عيون واسعة.

للحظة فكر في أصدقائه الذين ماتوا في الطائرة الشينوك، وشعر بحزنٍ خيّم عليه الذهول وعدم التصديق، تبدد الحزن سريعًا عندما رفع بصره ليرى الرجل الجالس في صندوق الشاحنة، أصدقاء ريكي الأوغاد كانوا محظوظين بموتهم، بينما كان هو البائس، هو وكليفلاند الذي لو استيقظ فسيُقطع رأساهما علنًا وعلى الهواء مباشرة.

نظر الإرهابي إلى الأسفل نحو بايليس، وداس بحذائه الرياضي ساقَه المحطمة، وضغط ببطء مع ابتسامة واسعة كشفت عن أسنانه المكسورة حتى بدت كأنياب مفترس.

صرخ ريكي.

***

انطلقت الشاحنة بسرعة على الطريق حتى بلغت منطقة مرتفعة خارج الباعج، ثم تباطأت فجأة قبيل حاجز على أطراف المدينة، كان كمينًا محليًّا اعتياديًّا نصبه المتمردون، عبارة عن سلسلة ثقيلة ملفوفة في عمودين معلقين على مستوى منخفض فوق الرصيف المغبر.

ظهر اثنان من رجال الميليشيات، يجلس أحدهما بكسل على مقعد بلاستيكي، ورأسه متكئ على جدار ملعب مدرسة ثانوية، ووقف الآخر عند أحد طرفي السلسلة بجانب شريكه الذي يقضي وقت القيلولة نائمًا، معلقًا على ظهره رشاش كلاشنكوف وُجّهت فوهته إلى الأسفل، وبين يديه صحن من الحمص والخبز المسطَح، وقد عَلِقَ الطعام في لحيته.

على الجانب الآخر من الحاجز، حث راعي ماعز عجوز قطيعه الهزيل على التحرك بطول الرصيف. وسبَّ رجل القاعدة ضعف عزيمة التمرد هنا في شمال غرب العراق. ألم يكن بوسعهم سوى حشد رجلين كسلانين مثلهما لنقطة تفتيش؟ بهذه الحماقة قد يسلم السُنَّة السيطرة للأكراد والإيزيديين.

أبطأ اليمني شاحنته، وأنزل زجاج النافذة، صرخ في العراقي الواقف: «افتح هذه البوابة أيها الأحمق! هناك قناص في الجنوب!».

ترك رجل الميليشيات غداءه، وسار بتباطؤ نحو الشاحنة الصغيرة في منتصف الطريق، ثم وضع يده على أذنه كأنه لم يسمع صياح اليمني.

وأكمل: «افتح البوابة وإلا...».

أدار اليمني رأسه بعيدًا عن المتمرد الذي يقترب من شاحنته ناحية الآخر الذي يجلس قبالة الجدار، وقد مال رأسه جانبًا، وظل معلقًا هكذا، بعد لحظة تدحرج جسده إلى الأمام وسقط من المقعد أرضًا، اتضح أن رجل المليشيات ميت، لقد قُطعت رقبته من الفقرة العنقية.

لاحظ ذلك أيضًا المسلح الذي يجلس في مؤخرة الشاحنة، ونهض بسرعة في الصندوق حين استشعر التهديد، لكن الموقف أثار حيرته،

عاود النظر، هو وقائده الجديد في المقعد الأمامي، إلى الرجل المحلي على الطريق، رفع عضو المليشيات الملتحي ذراعه اليمنى أمامه، فظهر أسفل كمي عباءته الفضفاضة مسدس أسود.

طلقتان سريعتان لا تردد بينهما أردتا المصري الجالس في صندوق الشاحنة قتيلًا.

***

استلقى بايليس على ظهره رافعًا بصره إلى الشمس الحارقة وقت الظهيرة، شعر أن السيارة تبطئ وتتوقف، وسمع صراخ السائق، والطلقات النارية السريعة بشكل لا يُصدق، وشاهد الرجل الملثم يسقط فوقه ميتًا.

سمع دوي وابل آخر من طلقات المسدس من حوله، ووقد رأى زجاجًا يتحطم، كما سمع صياحًا وجيزًا باللغة العربية، ثم ساد الصمت، راح ريكي يصرخ ويضرب بشكل محموم ليُبعد عنه الجثة الدامية، انتهى كفاحه عندما أبعِد الإرهابي القتيل من صندوق الشاحنة وألقاه في الشارع.

أمسك رجل ملتح يرتدي الدشداشة الرمادية ريكي من سترته العسكرية، ورفعه إلى أعلى مثبتًا إياه في وضعية الجلوس، طغت الشمس القاسية على رؤية بايليس وجهًا غريبًا، وسأله: «**هل يمكنك المشي؟**».

ظن ريكي أنها هلوسة ما بعد الصدمة، لقد تحدث الرجل باللغة الإنجليزية بلهجة أمريكية، ثم صاح الغريب مرددًا ما قاله: «أنت يا فتى! هل تسمعني؟ هل يمكنك المشي؟».

قال بايليس ببطء مجيبًا طيف ذلك الرجل : «ساقي مكسورة، وهذا الشخص مصاب بشدة».

فحص الغريب ساق بايليس المصابة وشخَّصها: «كسر في عظم الشظية. ستعيش».

ثم وضع يده على عنق الرجل الذي فقد وعيه وقدَّم تشخيصًا أوليًا محبطًا قائلًا: «لا أمل في نجاته».

التفت حوله بسرعة، وحتى هذه اللحظة لم يتمكن الشاب القادم من ميسيسيبي من رؤية وجهه.

ـ اتركه هنا، سنفعل من أجله ما بوسعنا، لكني أحتاج إليك في مقعد الراكب، لُفَّ هذه حول وجهك.

سحب الرجل الملتحي الكوفية من رقبة الإرهابي الميت وأعطاها بايليس إياها.

ـ لا يمكنني المشي على هذه الساق.

ـ تحمَّل! علينا أن ننطلق، سأحضر عتادي، هيا تحرك!استدار الغريب، وركض في زقاق مظلل، رمى بايليس خوذته الكيفلر في الكابينة، ولف غطاء الرأس مكانها، ثم نهض ونزل من صندوق الشاحنة على ساقه السليمة، سرى ألم مبرح من ساقه اليمنى إلى دماغه.

ازدحم الشارع بمدنيين من شتى الأعمار، يقفون على مسافة كأنهم جمهور يشاهد مسرحية عنيفة.

قفز بايليس إلى باب مقعد الراكب ثم فتحه، فسقط عربي يرتدي قميصًا أسود في الشارع، وقد أصيب برصاصة واحدة فوق عينه اليسرى، وكان هناك إرهابي ثانٍ ملقى على المقود، يقطر من شفتيه زبد دام وهو يلهث بخفوت.كانَ ريكي قد أغلق بابه لتوه عندما فتح الأمريكي الغريب باب السائق، وأخرج الرجل ثم تركه يسقط على الأسفلت، سحب مسدسه مرة أخرى، ودون أن يلتفت أطلق رصاصة واحدة على الرجل في الشارع، ثم التفت إلى الشاحنة ليلقي فيها حقيبة معدات بنية اللون، وبندقية كلاشنكوف **AK-47**، وبندقية **(M4)**، قفز خلف المقود، ومالت الشاحنة إلى الأمام، إذ تعبر فوق سلسلة الحاجز المنخفضة.

تحدث ريكي بهدوء، فما زال يحاول استيعاب ما يحدث حوله:ـ علينا أن نعود، ربما هناك آخرون على قيد الحياة.

ـ لا يوجد. أنت فقط.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ أنا أعرف.

تردد ريكي ثم قال: «لأنك كنت ضمن فريق القناصة الذي مزق هؤلاء الرجال في موقع الحطام؟».

ـ ربما.

كان هناك صمت لمدة دقيقة تقريبًا، نظر بايليس من الزجاج الأمامي إلى الجبال، ثم إلى أسفل حيث ترتعش يداه، وسرعان ما انتبه الجندي الشاب إلى السائق، فصاح الغريب: «لا تنظر إلى وجهي!».

أطاعه بايليس، وعاد ينظر إلى الطريق أمامه قبل أن يسأله: «هل أنت أمريكي؟».

ـ هذا صحيح.

ـ أأنت ضمن القوات الخاصة؟

ـ لا.

ـ أأنت ضمن القوات البحرية؟

ـ لا.

ـ هل أنت من العمليات الخاصة في البحرية؟

ـ لا.

ـ أأنت منتم إلى قوات المشاة البحرية؟

ـ لا.

ـ فهمت، ربما أنت تعمل في وكالة الاستخبارات المركزية أو شيء من هذا القبيل.

ـ لا.

كاد بايليس ينظر إلى الرجل الملتحي مرة أخرى، ولكنه منع نفسه.
سأله: «ماذا إذن؟».
أجابه: «فقط عابر سبيل».
ـ فقط عابر سبيل؟
ـ هل تمزح؟
ـ لا مزيد من الأسئلة.
واصلوا السير لنحو كيلو متر كامل، قبل أن يسأل ريكي: «ما الخطة؟».
أجابه: «لا توجد خطة».
ـ أليس لديك خطة؟ إذن ماذا نفعل؟ إلى أين نحن ذاهبون؟
أجابه:
ـ «كان لديَّ خطة لكن لم تكن جزءًا منها، فلا تبدأ في التذمر، وتؤنبني على ما يحدث بينما أمضي».
ظل بايليس هادئًا لبرهة ثم قال: «عُلِم! الخطط أمر مبالغ فيه».
بعد دقيقة أخرى من القيادة ألقى بايليس نظرة خاطفة على عداد السرعة، ورأى أنهم يسيرون بسرعة 60 ميلًا في الساعة على طريق يغطيه الحصى.
سأله الجندي: «ألديك أي مورفين في هذه الحقيبة؟ ساقي تؤلمني للغاية».
ـ آسف يا فتى، أحتاج إليك متيقظًا، يجب أن تقود.
ـ أقود؟
ـ عندما نبلغ التلال سنتوقف جانبًا. سأنزل أنا وستُكملان طريقكما وحدكما.
ـ وماذا عنك؟ لدينا قاعدة جوية في تلعفر، كانت هذه وجهتنا عندما تعرضنا للقصف، يمكننا أن نذهب إلى هناك.

قاعدة العمليات الأمامية ستكون بسيطة ومعزولة، لكنها مجهزة على نحو كافٍ لصد المهاجمين، وستكون أكثر أمانًا من شاحنة صغيرة على طريقٍ مفتوح.

ـ يمكنك أنت، أنا لا أستطيع.

ـ لماذا؟

ـ إنها قصة طويلة، لا مزيد من الأسئلة أيها الجندي، هل تذكر؟

ـ ما الذي يقلقك يا أخي؟ سيعطونك ميدالية أو هراءً من هذا القبيل نظير ما فعلته.

ـ سيعطونني هراءً.

بعد عدة دقائق وصلوا إلى سفوح تلال منطقة جبال سنجار، أوقف الغريب الشاحنة على جانب الطريق في بستانٍ تملؤه أشجار النخيل، وخرج وسحب البندقية الآلية M4، وحقيبته، ثم ساعد الجندي على الجلوس خلف المقود. تأوه بايليس ألمًا.

بعد ذلك تفقد الغريب الجندي الذي يرقد في صندوق الشاحنة، ثم قال بلا مبالاة: «لقد مات».

سارع بإزالة درع كليفلاند الواقية وزيه الرسمي، وتركه في صندوق الشاحنة مرتديًا سرواله وقميصه البنيين، انزعج بايليس من معاملة الجندي القتيل، لكنه لم يقلِ شيئًا، هذا الرجل، هذا. أيًّا من كان بالضبط، لم ينجُ هنا في بلد قُطاع الطرق هذا إلا باستغلال الفرص، وليس بالعاطفة.

ألقى الغريب المعدات بجوار جذع نخلة، وقال: «سيتعين عليك استخدام ساقك اليسرى للضغط على المكابح والوقود».

ـ عُلِم يا سيدي!

ـ إن قاعدتك في الشمال على بعد خمسة عشر كيلو مترًا، أبقِ هذا الرشاش في حجرك، والخزائن بجوارك، وإذا أمكنك فلتبقَ مختبئًا.

ـ ماذا تقصد بمختبئ؟

ـ اختبئ. لا تُسرع أو تظهر، ولا تنزع هذه الكوفية عن وجهك.

ـ عُلِم.

ـ لكن لو تحتم عليك الاشتباك، فلتطلق النار على أي شيء يثير ريبتك، هل تفهم؟ استخدم عقلك يا فتى، عليك أن تكون شرسًا بعض الشيء لتنجو في نصف الساعة المقبلة.

ـ حسنًا يا سيدي. وماذا عنك؟

ـ أنا شرس بالفعل.

جفل الجندي ريكي بايليس إذ يضرب الألمِ ساقه، نظر إلى الأمام وليس إلى الرجل عن يساره وقال: «أيًّا من كنتَ، شكرًا لك».

ـ اشكرني بأن تعود إلى المنزل، بحق الجحيم وأن تنسى أنك التقيتني.

قال: «عُلِم». ثم هز رأسه متمتمًا: «فقط عابر سبيل».

غادر بايليس البستان، وعاد بالشاحنة إلى الطريق، نظر إلى المرآة الخلفية ليلقي نظرة خاطفة أخيرة على الغريب، لكن سديم الحرارة، والغبار المنبعث من إطارات الشاحنة أعاقا الرؤية من الخلف.

3

في شارع بيزووتر بلندن يشرف مبنى تجاري من ستة طوابق على ريف وسط المدينة، وحديقة هايد بارك وحدائق كنسينجتون.

يضم الطابق العلوي من المبنى الأبيض جناحًا كبيرًا لمكاتب شلتنهام للخدمات الأمنية، وهي شركة خاصة تتعاقد مع ضباط لحماية المسؤولين، وأفراد لحراسة المنشآت، وخدمات الاستخبارات الاستراتيجية للشركات البريطانية، وغيرها من الشركات الأوروبية والغربية التي تعمل بالخارج. أشرف على تصميم (ش.خ.أ)[1] وتأسيسه وتشغيله يوميًّا رجل إنجليزي يبلغ من العمر ثمانية وستين عامًا، يُدعى سير دونالد فيتزروي.

قضى فيتزروي الجزء الأول من يوم الأربعاء منهمكًا في العمل، لكنه بعد ذلك أجبر نفسه على إخراج هذه المهمة من ذهنه، استغرق لحظة لتصفية أفكاره، دق بأصابعه على مكتبه المزخرف ذي الأدراج والخزائن الجانبية، لم يكن لديه وقت للرجل الذي ينتظر بأدب في الخارج مع سكرتيرته، ثمة مسألة ملحة تتطلب تركيزه الكامل، لكن لم يكن بوسعه إبعاد الزائر، على فيتزروي أن يؤجل أزمته اللحظية وحسب.

لقد اتصل الشاب قبل ساعة، وأخبر سكرتيرة السير دونالد بأنه يحتاج إلى التحدث مع السيد فيتزروي في شأن طارئ. مثل هذه المكالمات اعتيادية في مكاتب (ش.خ.أ)، لكن الغريب في المكالمة، والسبب الذي منع فيتزروي من أن يطلب من الشاب العنيد الحضور في يوم آخر، هو أن زائره يعمل لدى مجموعة لوران، وهي شركة فرنسية

---

(1) Cheltenham Security Services :CSS.

عملاقة، أدارت عمليات الشحن والنقل البحري والهندسة ومنشآت الموانى للنفط والغاز والصناعات المعدنية في جميع أنحاء أوروبا وآسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية. لقد كانوا أكبر زبائن فيتزروي، ولهذا السبب وحده لن يُصرف الرجل باعتذاراتٍ، بغض النظر عن مدى إلحاح الأمور الأخرى.

تولت شركة فيتزروي تأمين مواقع مكاتب مجموعة لوران في بلجيكا وهولندا والمملكة المتحدة، ولكن بالرغم من ضخامة عقد فيتزروي مع لوران مقارنة بحسابات الشركات الأخرى في (ش.خ.أ)، فقد أدرك السير دونالد أن الأمر لم يكن أكثر من قطرة في محيط المجموعة، مقارنة بالميزانية الأمنية السنوية الإجمالية للشركة العملاقة.

اشتهرت مجموعة لوران في دوائر الحماية بأنها تدير أقسامها الأمنية الخاصة بها بطريقة لا مركزية، وتوظف السكان المحليين لتأدية معظم المهام الثقيلة في الدول الثمانين التي تستثمر فيها الشركة.

قد يعني هذا شيئًا بسيطًا كفحص سكرتيرات في مكتب في كوالالمبور، لكنه قد يشمل أيضًا أمورًا شنيعة مثل كسر ساقي عامل ميناء غير مطيع في بومباي، أو تفرقة تجمع نقابي مثير للمتاعب في غدانسك.

بالتأكيد بعض الأزمات كانت تضطر المسؤولين التنفيذيين في مكتب لوران بباريس إلى السفر من وقتٍ إلى آخر في مهامٍ أطول أمدًا، وكان فيتزروي يعلم أن لديهم رجالًا مستعدين لذلك أيضًا.

هناك نقطة ضعف قذرة لدى معظم الشركات متعددة الجنسيات في جميع أنحاء العالم، إذ تعاملت مع بلطجية أكثر من تعاملها مع رجال شرطة، ومع جوعى يبحثون عن عمل أكثر من متعلمين يريدون التنظيم والإصلاح. نعم، استخدمت معظم الشركات متعددة الجنسيات أساليب لا تُحصى في جلسات إحاطة رؤساء الشركة، أو في بنود

الميزانية في التقرير المالي السنوي. لكن عُرف عن مجموعة لوران أنها شركة عملاقة، خصوصًا فيما يتعلق بعملاءَ العالم الثالث وموارده.

لم يؤثر هذا في أسعار السوق على الإطلاق.

أبعد دونالد فيتزروي عن رأسه قلقه بشأن الأمر الآخر، وضغط على زر الاتصال الداخلي طالبًا من سكرتيرته أن تُدخل الزائر، لاحظ فيتزروي أولًا البذلة الأنيقة التي يرتديها الشاب الوسيم، كان هذا عرفًا محليًّا في لندن، فالحكمة تقول: »تعرَّف إلى الخيَّاط تتعرف إلى الرجل».

علم أنه اشتراها من متجر هانتسمان في شارع سافيل رو، وقد أخبرت تلك الملاحظة فيتزروي الكثير عن زائره، السير دونالد نفسه كان من زبائن متجر نورتون وأبنائه[1]، ملابسه أنيقة لكنها بشكلٍ ما لا تناسب بيئة العمل، رغم ذلك فقد أعجبه ذوق الرجل.

بنظرة سريعة متمرسة توصل الرجل الإنجليزي إلى أن زائره محام، تلقى تعليمًا جيدًا، وأمريكي بالرغم من احترامه عادات المملكة المتحدة وآدابها.

قال فيتزروي وهو يقطع مكتبه بابتسامة لطيفة: «لا تخبرني سيد لويد، دعني أخمن، كلية حقوق هنا في مكان ما؟ كلية الملك في لندن؟ أعتقد ربما بعد الانتهاء من الجامعة في وطنك بالولايات المتحدة، سأغامر وأخمن، جامعة ييل، لكن يجب عليَّ أن أسمع منك أولًا».

ابتسم الشاب، ومد يده مقلمة الأظفار بقبضة قوية وهو يقول: «صحيح يا سيدي، كانت كلية الملك، لكني تخرجت في برينستون في وطني».

---

(1) Norton & Sons: متجر خياطة شهير في لندن أسسه والتر جرانت نورتون في عام 1821، واشتراه المصمم الأسكتلندي باتريك جرانت في عام 2005. (المترجم)

تصافحا، وأشار فيتزروي إلى مكان جلوس أمام مكتبه وهو يقول: «نعم، الآن أفهم. برينستون».

عندما جلس فيتزروي على المقعد المواجه لطاولة القهوة أمام ضيفه، قال لويد: «مذهل يا سير دونالد، أظن أنك تعلمت تقييم الناس من وظيفتك السابقة».

رفع فيتزروي حاجبيه الأبيضين الكثيفين، بينما يصب القهوة لكليهما من أدوات الخدمة الفضية على الطاولة وقال: «كان هناك مقال عني قبل عام أو نحو ذلك في الإكونومست، ربما عرفت شذرات عن عملي مع التاج[1] ».أومأ لويد، وأخذ رشفة من قهوته قبل أن يقول: «مذنب بحسب الاتهام، قضيتَ أغلب الأعوام الثلاثين التي أمضيتها في الاستخبارات العسكرية في أولستر[2] في أثناء الاضطرابات، ثم غيَّرت مهنتك لأمن المؤسسات، أثق أن هذا المقال الرائع قد ساعدك في عملك».

قال فيتزروي بابتسامة تدرب عليها جيدًا: «بالطبع».قال لويد: «ويجب أن أعترف أنني لم ألتقِ فارسًا نزيهًا من قبل».

ضحك فيتزروي بصوتٍ عالٍ ثم قال: «إنه لقب ما زالت زوجتي السابقة تسخر منه أمام أصدقائنا، إنها تحب أن تشير إلى أنه لقب يُمنح للكرماء وليس النبلاء، وبما أن كلا الوصفين لا ينطبق عليَّ، فقد رأت أنها تسمية غير مناسبة تمامًا».

قال فيتزروي هذا بلا ضغينة، بل بسخرية ذاتية مرحة، بينما ضحك لويد بشكل مهذب.

وقال: «في العادة أباشر الأعمال مع السيد ستانلي في مكتبكم بلندن، ماذا تفعل في مجموعة لوران يا سيد لويد؟».

---

(1) : التاج البريطاني. كنايةً عن الحكومة البريطانية

(2) : إحدى مقاطعات أيرلندا الأربع، تقع في أيرلندا الشمالية. (المترجم)

وضع لويد فنجانه على صحنه ثم قال: «أرجو أن تعذرني لطلبي المفاجئ لقاءك، وكذلك فظاظتي».

أجابه فيتزروي: «إطلاقًا أيها الشاب. على عكس العديد من الإنجليز وخاصة من جيلي، فإنني أحترم فطنة رجل الأعمال الأمريكي، لقد أضرت كثرة الشاي والكعك بالإنتاجية البريطانية ولا شك في ذلك، لذا اطلب مني ما تريد بكل جراة، كما تحبون أن تقولوا أيها اليانكيز». ورشف فيتزروي قهوته.

مال الشاب الأمريكي إلى الأمام وقال: «إن اندفاعي لا علاقة له بكوني أمريكيًّا بقدر الطبيعة الحرجة لاحتياجات شركتي».

ـآمل أن أُساعدك.

ـأنا واثق بهذا، أنا هنا لمناقشة حدث وقع قبل عشرين ساعة في الحسكة.

أطرق فيتزروي برأسه في حيرة وابتسم قائلًا: «نلت مني يا فتى، أعترف أنني لا أعرف الاسم».

ـإنها في شرق سوريا يا سيد فيتزروي.

تلاشت ابتسامة دونالد فيتزروي المتمرسة ولم يقل شيئًا. أنزل فنجانه ببطء إلى صحنه ووضعه أمامه على المنضدة.

قال لويد: «أعتذر مرة أخرى عن الطريقة التي أندفع بها، لكن الوقت في هذه المسألة ليس أمرًا مهمًّا فحسب، بل مؤثرًا وخطيرًا جدًّا».

ـ كلي آذان مصغية.

الآن ماتت ابتسامة الرجل الإنجليزي الدافئة قبل عشر ثوان ودُفنت.

ـفي الساعة الثامنة تقريبًا بالتوقيت المحلي مساء أمس، أنهى

قاتل مأجور حياة الدكتور إسحاق أبو بكر، ربما تعرف أنه كان وزير الطاقة النيجيري.

تحدث فيتزروي بنبرة أقل ودية بشكل واضح عن ذي قبل: «أثرتَ فضولي، هل لديك أي فكرة عما كان يفعله وزير الطاقة النيجيري في

شرق سوريا؟ الطاقة الوحيدة التي يمكن استخراجها هناك هي حماسة الجهاديين الذين يحتشدون قبل التسلل إلى العراق لتأجيج الصراع».

ابتسم لويد: «كان الطبيب الطيب مسلمًا ذا فكر متطرف، ربما كان في المنطقة لتقديم بعض الدعم المادي للقضية. لست هنا للدفاع عن أفعال الرجل، أنا قلق فقط بشأن قاتله الذي نجا وهرب إلى العراق».

ـ يا لسوء الحظ!

ـ ليس للقاتل، كان القاتل بارعًا، بل أفضل من بارع، كان الأفضل على الإطلاق، كان هو من يطلقون عليه الرجل الرمادي.

عقد فيتزروي ساقيه ومال إلى الخلف. وقال: «أسطورة!».

ـ ليس أسطورة بل رجلًا، رجلًا مهارته عالية، لكنه في النهاية رجل من لحم ودم.

خلا صوت فيتزروي من الحس الأبوي الذي حفلت به المحادثة السابقة وسأله: «لماذا أنت هنا؟».

ـ أنا هنا لأنك المسؤول عنه.

ـ أنا ماذا؟

ـ المسؤول عنه، أنت تنتقي له عقوده، توفر له الاحتياجات اللوجستية، تساعده بالمعلومات الاستخباراتية، تجمع الأموال من دافعيها، وتحول التعويضات إلى حساباته المصرفية.

ـ أين سمعت هذا الهراء؟

ـ سير دونالد، لو كان لديَّ وقت لقدمت لك كل المجاملات التي تستحقها، ويمكننا أن نتجادل، وأن نتبارز بالكلمات، فأضرب وتتفادى، كنا سنحوم حول الغرفة حتى يسجل أحدنا بسيفه ضربة قاتلة. لكن لسوء الحظ يا سيدي، أنا تحت ضغط هائل، مما يجبرني على الاستغناء عن المجاملات المعتادة.

ارتشَف قهوته مرة أخرى، وقد امتعض وجهه قليلًا من مرارتها.

وأكمل: «أعرف أن القاتل هو الرجل الرمادي، وأنا أعلم أنك مسؤول عنه، يمكنك أن تسألني: كيف أعرف هذا؟ لكنني سأكذب وحسب، وعلاقتنا في الساعات القليلة القادمة تعتمد على قدرتنا على التحدث بصراحة».

ـ أكمل.

ـ كما قلت، هرب الرجل الرمادي إلى العراق، لكنه أخطأ في عملية خروجه، لأنه اشتبك ـ بحماقة ـ مع قوة متفوقة من المتمردين في معركة بالأسلحة النارية، قتل أو جرح أكثر من عشرة رجال، وأنقذ أحد رجال الحرس الوطني الأمريكي، وأخرج جثة آخر، والآن هو هارب.

ـ كيف تعرف أن الرجل الرمادي هو من قتل الدكتور أبا بكر؟

ـ لم يكن ليُرسَل أي شخص آخر في العالم من أجل هذه المهمة، لأنه لا يوجد شخص آخر في العالم يمكنه توجيه هذه الضربة.

ـ ومع ذلك تقول إنه قد ارتكب خطأ أحمق!

ـ أقوى دليل على كلامي، أن الرجل الرمادي عمل لدى حكومة الولايات المتحدة، وارتكب خطأ ما فاستهدفته وكالة الاستخبارات الأمريكية، واختبأ من رؤسائه السابقين، بالرغم من علاقته المتوترة بلانجلي[1] فإن الرجل الرمادي يعتبر أمريكيًا وطنيًا، لم يستطع أن يترك تحطم طائرة مروحية، ومقتل أحد عشر أمريكيًا يمر من دون عقاب.

ـ أهذا هو دليلك؟

سوّى لويد طيّة معطف بذلته وقال: «نعلم منذ فترة أن الرجل الرمادي قَبِل التعاقد لتنفيذ اغتيال أبي بكر، عندما مات الطبيب الصالح غدرًا لَم يكن من الصعب التنبُّؤ بشخصية القاتل».

---

(1) : كناية دارجة عن وكالة الاستخبارات الأمريكية، التي يقع مقرها في منطقة لانجلي بولاية فيرجينيا. (المترجم)

ـ اعذرني يا سيد لويد؛ أنا رجل عجوز، عليك أن تعينني على الفهم، ماذا تفعل في مكتبي؟

ـ إن شركتي على استعداد لأن تعرض عليك عقودًا بزيادة قدرها ثلاثة أضعاف لو ساعدتنا على التخلص من الرجل الرمادي. ودون الخوض في تفاصيل غير ضرورية، فإن الرئيس النيجيري يطلب منا أن نساعده على القصاص، وأخذ حق أخيه من قاتله.

ـ لماذا مجموعة لوران؟

ـ سيتضمن ذلك تفاصيل غير ضرورية.

ـ ستكتشف أنها ضرورية إن أردتَ لهذه المحادثة أن تستمر.

4

تردد لويد ثم أومأ ببطء وقال: «ممتاز. هناك سببان: الأول أن شركتي تمتلك جهازًا أمنيًّا قويًّا وبعيد المدى، ويعتقد الرئيس أن لدينا الوسائل المتاحة للتعامل مع هذا الوضع نيابةً عنه. لقد نفذنا عمليات مشبوهة صغيرة للنيجيريين في الماضي، أنت تفهم مقصدي». ثم أضاف وهو يلوح بيده: «خدمة عملاء جيدة».

ارتفع حاجبا فيتزروي حتى تماسا.

«أما السبب الثاني فهو أن يوليوس أبو بكر يشعر بأن لديه بعض النفوذ علينا، لدينا عقدٌ واعِد ينتظر التوقيع، كان على مكتبه عندما قتل رجلك شقيقه، سيغادر الرئيس منصبه في أقل من أسبوع، وقد منحنا مهلة حتى ذلك الحين للانتقام لمقتل أخيه».

ـ ما نوع العقد الذي تنتظر موافقته عليه؟

ـ من النوع الذي لا يمكننا تحمل خسارته، هل تعلم يا سير دونالد، لا تنتج نيجيريا فائضًا من النفط فحسب، بل لديها أيضًا فائض من الغاز الطبيعي؟ هذا الغاز يُهدر بالكامل ويعلو على شكل فقاعات تخرج من آبار النفط التي يملكونها لتتبخر في الهواء، هدر كامل للطاقة والربح.

ـ وتطمع مجموعة لوران في الغاز؟

ـ قطعًا لا، الغاز مورد طبيعي يملكه شعب نيجيريا الطيب، لكن لدينا التكنولوجيا الكافية لأن تعمل في آبارهم، وتعبئ الغاز المُسال في أنابيب حتى يُشحن في لاجوس، ثم يُنقل إلى محطات التصفية في ناقلاتنا مزدوجة الهياكل، التي تخضع حرارتها للتحكم، ثم تكريره من أجل النيجيريين، لقد أمضينا أربع سنوات، وأنفقنا أكثر من ثلاثمائة

مليون دولار على بحث هذا المشروع وتطويره، بنينا السفن، وطورنا ترسانات السفن لبناء المزيد منها، وتفاوضنا على حقوق الأرض لمد خط الأنابيب.

قال فيتزروي ساخرًا: «كل ذلك دون عقد لتصدير المنتج؟ يبدو أن مجموعة لوران بحاجة إلى محامين جدد». أجابه لويد «محامي المجموعة» بغضب: «كان لدينا عقد مع أبي بكر، لكن شعبه عثر فيه على ثغرة فأصلحنا الخطأ المؤسف، واحتجنا فقط إلى إمضائه فوق المستند لإبرام الصفقة وبدء العمليات، حتى قتل رجلك أخاه».

ـ ما زلتُ لا أرى الصِّلة.

ـ الصلة ـ وسامحني على هذه الكلمات ـ هي أن الرئيس أبا بكر هذا وغد.

لاحظ فيتزروي شيئًا ما في هياج المحامي الشاب.

ـ أعتقد أنني فهمت، ارتكب مكتبك خطأً بسبب ثغرة في العقد، وأرسلك سادتك في هذه المهمة لإصلاح ما أفسدوه.

خلع لويد نظارته الرفيعة، وفرك عظمة أنفه ببطء.

ـ سهو ضئيل لن يبرر الاحتجاز خمس ثوان في أي قاعة محكمة في العالم المتحضر.

ـ لكنك تتعامل مع أكثر الدول فسادًا على وجه الأرض.

قال لويد: «ثالث أكثر الدول فسادًا في الواقع، لكن وجهة نظرك صحيحة».

ابتسم بصعوبة بعد أن رشف من القهوة، وأكمل: «أبو بكر يهدد بإسناد العملية لمنافسنا، شركة لم تسعَ حتى إلى الحصول على العقد، يحتاج منافسنا إلى نحو عشر سنوات قبل أن يصل إلى مستوى بنيتنا التحتية من عملاء وخبرة فنية، وستخسر نيجيريا مليارات الدولارات بعد سنوات».

ـ وكذلك مجموعة لوران.

ـ بالتأكيد، لسنا قسم خدمات اجتماعية داخل الحكومة النيجيرية. مصلحتنا الذاتية هي دافعنا. أنا فقط أذكر الفائدة المشتركة لفقراء نيجيريا البائسين الذين سيخسرون، إذا لم أجد الرجل الرمادي وأقتله.

ـ لو ظل هؤلاء البائسون المساكين فقراء بعد المليارات السنوية من الثروة النفطية التي تتدفق بالفعل إلى نيجيريا، فلا أظن أن بضعة خطوط من الغاز ستحسّن مصيرهم في الحياة كثيرًا.

هز لويد كتفيه وقال: «يبدو أننا نحيد عن موضوعنا الرئيس».

سأل فيتزروي: «ماذا عن مُموِّل المشروع؟ لماذا لا يطارده الرئيس؟ لو كانت معلوماتكم صحيحة، فالرجل الرمادي ما هو إلا أجير».

ابتسم لويد ببرودٍ وقال: «كما تعلم جيدًا، فقد قُتل مُموِّل المشروع في حادثة تحطم طائرة منذ أشهر. كان يمكن للرجل الرمادي أن يحتفظ بالمال الذي حُوِّل إليه بالفعل وينسى المهمة، لكن قاتلك واصل مهمته، يبدو أنه كان يعتقد أنه يفعل شيئًا نبيلًا».

ـ ماذا عني؟ إذا كنت تعتقد أنني متورط في التخطيط لموت إسحاق أبو بكر، فلماذا لا تتخلص مني أيضًا؟مكتبة سُر مَن قرأ

ـ نحن نعلم أن مُموِّل المشروع تصرف من خلال وسيط، هذا الوسيط ـ بدوره ـ كان لديه وسيط، وهو الذي تفاوض معك، الرئيس يوليوس أبو بكر ليس ممن يهتمون بمثل هذه المؤامرات، إنه فقط يريد رأس قاتل أخيه، هذا كل شيء.

ـ أفترض أنك حين تقول يريد رأسًا، فأنت تتحدث مجازًا.

ـ وهل كنت سأفعل ذلك؟ لقد أرسل الرئيس رجلًا من طاقمه الشخصي ليتحقق من إنجازي المهمةَ، يخبرني هذا الرجل أنه سيضع رأس الرجل الرمادي في صندوق من الثلج، ويسلمه لقائده في حقيبة دبلوماسية. أوغاد متوحشون.

بدا أن لويد كان يحادث نفسه في الجملة الأخيرة.

سأله فيتزروي: «ألا توجد طريقة أخرى يمكنك أن ترشو بها الرئيس أبا بكر؟». كان يعلم كيف تسير عقود القطاع العام في العالم الثالث.

نظر لويد إلى بقعة على الحائط، وشردت عيناه واتسعتا حتى أصبحتا أكبر من ملامحه، قبل أن يقول: «لقد رشوناه بالفعل يا سيد فيتزروي بالمال والعاهرات والمخدرات والمنازل والبواخر. إنه وغد لا يشبع، لقد قدمنا الغالي والنفيس من أجل عقد لاجوس، ومع ذلك يتفاوض مع منافسنا. ولكن أن نحضر له رأس قاتل أخيه فهو أمر لا يمكن لأحد آخر أن يفعله، وهو الشيء الذي يستخدمه ضدنا».

سأل فيتزروي: «إذا كان أبو بكر طاغية هكذا، فلماذا يتخلى عن الحكم طواعية؟».

لوَّح لويد بيده في الهواء، كأن الإجابة بديهية وقال: «إنه بالفعل رجل فاحش الثراء، لقد استنزف موارد بلاده والآن حان الوقت لينعم بغنائمه».

ـ ولهذا أنت هنا.

ـ بمنتهى البساطة يا سيد فيتزروي، واعذرني مجددًا على تدخلي الفظ، لكنني على ثقة أن العمل الذي سنوفره لشركة شلتنهام الأمنية سيعوض خسارة قاتل مأجور واحد، مهما تبلغ براعته.

قال فيتزروي: «سيد لويد، أنا أوظف شُبانًا يُعتمد عليهم اعتمادًا أساسيًا، يفهمون معاني الولاء والثقة والشرف. أحيانًا تضيع مثل هذه المعاني، لكنها بالرغم من ذلك تحفزهم. فإذا تخليت عن حياة رجل، بل أفضل رجالي، من أجل عقد مربح، فلن يخدم هذا مصالحي».

قال لويد: «على العكس، رجلك هذا ليس سوى منتج كباقي المنتجات، هذا النوع مدة صلاحيته قصيرة. ستة أشهر، سنة. بالتأكيد ليس أكثر من ثلاثة أعوام، وبعدها إما سيموت وإما سيصبح عاجزًا، أي بلا قيمة لك كونه مصدرًا للدخل، ما أعرضه عليك سيملأ خزائن شركتك ما بقيت.

ـأنا لا أضحي برجالي في سبيل العمل.
بعد لحظة صمت، قال لويد:
ـأفهمُك، سأتواصل مع باريس، ربما يمكنني تحلية العرض قليلًا.
ـالأمر لا يتعلق بمذاق ما تعرضه، أنا أرفض العرض برمته.
مال لويد مقتربًا، وكان ثمة تهديد خافت في صوته:
ـإذا لم أتمكن من تحلية العرض، فسأضطر إلى تقليبه، أريد إنهاء قاتلك، أود استخدام الجزرة، لكنني على استعداد لاستخدام العصا.
ـربما يجب أن تحذر يا فتى، لا أحب الاتجاه الذي تنحرف إليه هذه المناقشة.
حدق الرجلان أحدهما إلى الآخر لعدة ثوانٍ. قال لويد: «أعلم أن لديك فرقة إخلاء في الطريق لالتقاط الرجل الرِّمادي الليلة. أريدك أن تأمر رجالك بالقضاء عليه، بمكالمة هاتفية واحدة وحافز مالي يُمكن أن ينتهي هذا الأمر بسرعة وبصورة نظيفة».
ضاقت عينا فيتزروي وسأله: «أين سمعت هذا؟».
ـلا يمكنني الكشف عن مصادري الاستخباراتية.
ـأنت مخادع. أنت لا تعرف شيئًا.
ابتسم لويد: «سأعطيك لمحة سريعة عما أعرفه، وبعد ذلك قرِّر ما إذا كان الأمر كله خدعة. أظن أن ما أعرفه عن فتاك أكثر مما تعرفهَ. الاسم الحقيقي لقاتلك هو كورتلاند جينتري ولقبه كورت، يبلغ من العمر ستة وثلاثين عامًا، أمريكي وكان والده يدير مدرسة لفرقة التدخل السريع بالقرب من تالاهاسي بفلوريدا، حيث نشأ جينتري، تدرب الصبي مع الضباط المقاتلين يوميًّا، وفي السادسة عشرة من عمره كان يوجه فرق التدخل السريع لتقنيات العمليات القتالية المتلاحمة.
عندما كان في الثامنة عشرة من عمره، صاحب أصدقاء سوء في ميامي، وعمل لفترة مع عصابة كولومبية، واعْتُقِل في كي ويست؛ لمقتل ثلاثة من تجار المخدرات الكوبيين بالرصاص في فورت لودرديل.

تمكن مسؤول كبير في وكالة الاستخبارات المركزية ـ تدرب في ميدان رماية والد كورت ـ من تهريب الفتى من السجن، وأرسله للعمل مع وحدة سرية داخل إدارة العمليات. لسنواتٍ تولى تنفيذ مهمات سرية حول العالم، أغلبها عمليات تجسس، حتى 11 سبتمبر حيث نُقِل إلى قسم الأنشطة الخاصة، وعمل أحيانًا ضمن فرقة العمليات الخاصة في وحدة الترحيل السري، المعروفة رسميًا باسم كتيبة جولف سييرا الخاصة، التي اشتهرت بين القلة الذين عرفوا عنها على الإطلاق باسم فرقة الأشقياء».

ـ بالتأكيد أنت تختلق هذا.

تجاهله لويد وواصل: «لقد كانت فرقة هجومية مخصصة للعقوبات، مؤلفة مما نسميه في العمل: عملاء ذوي سرعة عالية وفعالية أكيدة. الأفضل على الإطلاق، وليس طراز جيمس بوند. كان هؤلاء الرجال يركزون أكثر على الضرب بالخنجر ويتجاهلون صيت دراما التجسس. لبضع سنوات كانوا أفضل وأشرس وحدة في وكالة الاستخبارات المركزية. لقد قتلوا من لم نتمكن من تسليمهم، وقتلوا من لم نكن نتوقع أن نعرف منهم الكثير من المعلومات المفيدة، وقتلوا أولئك الذين يزرع موتهم الخوف في قلوب الإرهابيين وعقولهم.

ثم ساءت الأمور قبل أربع سنوات. يقول البعض إن الحسابات السياسية كان لها شأن، والبعض الآخر مقتنع بأن جينتري أخطأ في عملية ما ولم يعد مفيدًا، ولا يزال آخرون يصرون على أنه أصبح قذرًا. أيًا كان السبب فقد صدر بحقه إشعار حرق[1]، ثم أمْر بقتله حال رؤيته. لقد استهدفه زملاؤه السابقون في قسم الأنشطة الخاصة. ولكن جينتري لم يستسلم قط، لقد قتل بعض زملائه في كتيبة أشقياء جولف سييرا الذين كانوا يعتزمون قتله، ثم توارى عن الأنظار.

(1) : بيان رسمي عن وكالة استخبارات إلى وكالات أخرى، يُعلَن فيه أن أحد العملاء أو مصدر استخبارات أصبح غير موثوق به لسبب أو لآخر.

أمضى فترة في بيرو وبنجلاديش وروسيا، وأماكن أخرى غير معلومة. في غضون ستة أشهر نفد ماله، فانخرط في العمل في القطاع الخاص، وعمل عندك، ليفعل كل ما يبرع فيه: من طلقات في الرأس، ونحر الأعناق، وبنادق قنص، ومطاوٍ».

كانت هناك دقات خافتة على باب المكتب، مالت سكرتيرة فيتزروي إلى الداخل.

قالت: «عذرًا يا سيدي، لديك مكالمة». ثم أغلقت الباب وراءها.

نهض فيتزروي ثم تبعه لويد. قال له الشاب الأمريكي: «يمكنني أن أنتظر بالخارج».

ـ لا داعي، لقد انتهت المقابلة.

ـ أنت ترتكب خطأ فادحًا بالتخلص مني، أحتاج أن تأمر فرقة الإخلاء التابعة لك بأن تصفّي الرجل الرمادي، وإذا لم يقنعك العرض الذي قدمته لك، فيمكنني أن أجري بضع مكالمات هاتفية، وسأبذل ما بوسعي، لكن ما ليس بوسعي فعله يا سيد فيتزروي هو رجوعي لمرؤوسيَّ دون حل لهذه الأزمة.

كان فيتزروي قد اكتفى.

ـ لقد أساءت شركتك الحكم، فلا يمكنهم رشوتي كما فعلوا مع ذلك الدكتاتور الإفريقي الوضيع.

حدجه الشاب الأمريكي بنظرةٍ ثم قال: «إذًا. أقدم إليك اعتذاري».

تصافح الرجلان، لكن نظراتهما كانت باردة. عندما سار لويد نحو الباب، انحرف إلى اليسار وتطلع إلى نسخة مؤطرة من مقالة الإيكونوميست معلقة على الحائط. جاء في العنوان: «مدير وكالة تجسس سابق يصبح رجل أعمال في مجال أمن الشركات»، أشار لويد إلى الإطار، وعاد إلى الرجل الإنجليزي الأكبر سنًّا.

وقال: «مقال رائع، به الكثير من المعلومات». ثم نظر إلى صورة على الحائط لابن فيتزروي مع زوجته وابنه المراهق.

وأكمل: «ابنك لديه ابنتان الآن، أليس كذلك؟ يعيش هنا في لندن، لديه منزل مستقل في حدائق ساسكس، إذا كنت أتذكر جيدًا ما قرأته في مجلة الإيكونوميست».

ـ لم يرد ذلك في مقال الإيكونوميست.

ـ حقًّا؟

هز لويد كتفيه ثم أكمل: «ربما التقطتُ هذا من مكان آخر. يومًا سعيدًا يا سير دونالد، سنكون على اتصال، قد تتوقع طردًا في غضون ساعة.

استدار واختفى من الباب.

وقف فيتزروي وحيدًا في مكتبه للحظة.

لم يكن السير دونالد ليفزع بسهولة، لكنه شعر برعشة خوفٍ لا ريب فيها.

5

قبل الفجر بساعتين كانت الحرارة قد ارتفعت بالفعل في المطار المهجور. كانت الطائرة العملاقة **لوكهيد إل-100** الجاثمة في نهاية المدرج متوقفة عن العمل، وقد أطفأت أنوارها حتى لا تُرى من مسافة بعيدة، لكن طاقم الطائرة جلسوا في مقاعدهم وأيديهم ترتعش بالقرب من الصمام الخانق، نفثت المراوح الغبار الجاف والرمال الحادة في وجوه الرجال الخمسة التي أرهقتها الرياح، بينما أصاب الجفاف حلوقهم، وهم يقفون في المطار عند نهاية مدرج الطائرة المنخفض.

كانت كل العيون تنظر نحو الجنوب، بعيدًا عن المطار الأشبه بكوخ صغير، وإلى الخارج عبر السياج المتشابك، وخارجه نحو الظلام اللامتناهي في غرب العراق.

وقف الرجال الخمسة متقاربين، لكن التواصل الطبيعي كان مستحيلًا. حتى في وضع الاسترخاء، ملأت محركات أليسون في الطائرة ذات الشفرات الأربع الهواء بطنين متواصل هز الأرض، لولا أجهزة راديو هاريس فالكون للمسافات القصيرة وميكروفونات الصوت لضاعت كلمات الرجال مثل المناظر الطبيعية التي لا تلتقطها نظاراتهم للرؤية الليلية.

أمسك ماركهام بيده اليسرى رشاشًا من طراز هيكلر وكوخ[1] متدليًا على صدره، وضغط بيمينه على زر الإرسال اللاسلكي على سترته متعددة الجيوب ثم قال: «لقد تأخر».

---

(1) Heckler & Koch GmbH: شركة ألمانية شهيرة لتصنيع المسدسات والبنادق والمسدسات الرشاشة وقاذفات القنابل اليدوية.

عض بيريني طرف الأنبوب المعلق فوق كتفه، وامتص الماء الدافئ من القربة نصف الفارغة في حقيبته، بصق معظمه على مهبط الطائرات الرملي أمام حذائه، تدلت بندقيته الآلية من طراز موسبرج من يده اليمنى.

وقال: «إذا كان هذا الوغد بارعًا، فلماذا لا ينفذ عملية الإخلاء في الوقت المحدد؟».

قال دولين: «إن الرجل الرمادي شخصٌ بارع، وإذا تأخر فلديه سبب وجيه»، بينما يضع يديه على وركيه، والرشاش ذو الماسورة القصيرة معلق أفقيًا على صدره، وأكمل: «كن حذرًا، إنها عملية صغيرة فحسب، سنأخذه ونعتني به حتى الحدود، ثم ننسى أننا رأينا هذا الوغد».

قال ماكفي ببعض التبجيل: «الرجل الرمادي، إنه الرجل الذي قتل ميلوسيفيتش، لقد تسلل إلى سجن تابع للأمم المتحدة وسمّم ذلك الوغد»، تدلى مسدسه الرشاش (إم بي5) من حمّالته، بينما يشير كاتم الصوت إلى الأسفل مباشرة باتجاه المدرج، ثبّت رسغه على كعب السلاح القصير.

قال بيريني: «لا يا أخي، لقد فهمتها بالعكس، لقد قتل الرجل الذي قتل ميلوسيفيتش. كان ميلوسيفيتش على وشك أن يكشف أسماء، مسؤولي الأمم المتحدة الذين ساعدوه في الإبادة الجماعية في البوسنة وكوسوفو. أرسلت الأمم المتحدة قاتلًا لتسميم سلوبو العجوز، ثم قتل الرجل الرمادي القاتل بعد الواقعة». شرب بشراهة ثم بصق الماء الدافئ من فمه، وقال: «الرجل الرمادي بارع للغاية، إنه لا يعبأ بشيء ولا يخاف».

كرر دولين ما قاله من قبل: «إنه متأخر للغاية، هو دومًا كذلك». ثم نظر إلى ساعته وهو يقول: «قال فيتزروي إنه قد يتعين علينا

الانتظار، وقد نضطر إلى القتال، فكل خمسين كيلو مترًا ينتظره صيَّاد ما ليصطاده بأبشع الطرق».

كان بارنز صامتًا، لكنه تحدث الآن: «سمعت أنه نفذ هذه العملية في كييف».

تمشى بعيدًا عن مدرج الطائرة، إذ يمسح الظلام بمنظار الرؤية الليلية الثلاثية على بندقيته الآلية القصيرة إم4 .

قال دولين: «هراء!». وعلى الفور اتفق معه الاثنان الآخران، إلا أن ماكفي أيَّد بارنز قائلًا: «نعم، هذا ما سمعته، هذا الشخص الرمادي نفذ العملية بمفرده».

قال ماركام: «مستحيل! ما كان لعمليةٍ كييف أن ينفذها رجل واحد، بل على الأقل فريق من اثني عشر رجلًا على أعلى مستوى».

هز بارنز رأسه في الظلام، وقال: «سمعت أنه كان صيادًا واحدًا. سمعت أنه الرجل الرمادي».

أجاب ماركهام: «أنا لا أومن بالسحر».

في تلك اللحظة دوت خشخشة في سماعات أذن الرجال الخمسة بالتزامن. رفع دولين يده لإسكات فريقه، وضغط على زر التحدث على جهاز صدره وقال: «كرر الإرسال الأخير».

سُمعت خشخشة أخرى، في النهاية ظهرت كلمات أخرى مفككة عبر جهاز الإرسال «ثلاثين ثانية. تحرك. مطارد!». لم يكن هناك إمكانية للتعرف إلى الصوت، ولكن من الواضح أن الرسالة كانت عاجلة.

سأل بارنز: «هل هذا هو؟».

لا أحد يمكنه التأكيد.

مرة أخرى دبَّت الحياة في جهاز الاتصالات بصورة أكثر وضوحًا الآن، نظروا نحو البوابة المفتوحة في مقدمة المطار الصغير.

ـ أنا قادمٌ بسرعة! لا تطلقوا النار!

رد دولين عبر جهاز الاتصالات: «إشارتك متقطعة. حدِّد موقعك مرة أخرى». سُمعت خشخشة إرسال: «شمال غرب».

عندها فقط سمعوا صوت اصطدام في الشمال وبوق سيارة. تطلع الجميع جنوبًا، وأداروا رؤوسهم وفوهات بنادقهم الآلية شمالًا باتجاه الضجة، ورأوا شاحنة دفع رباعي مدنية، أحد مصابيحها الأمامية مطفأ، تُحطم السياج وتخرج فجأة من الرمال إلى مدرج المطار. كانت الشاحنة تتحرك بسرعة مذهلة مباشرة نحو الطائرة **(L-100)**.

جاء الصوت عبر الاتصالات مرة أخرى: «لست وحدي!».

حينها فقط ظهرت إضاءة مصابيح أمامية بطول المسار الواسع خلف الشاحنة التي راحت تقفز بعنفٍ، في البداية ظهرت مجموعتان، ثم أربعة، ثم أكثر.

قيّم دولين الوضع في ثانية واحدة، ثم صاح في طاقمه وسط طنين المحرك: «إلى الطائرة!».

***

صعد الخمسة جميعًا إلى متن الطائرة، وكانت **(L-100)** تتحرك بالفعل على مدرج المطار عندما انطلق رجل مسلح يرتدي ملابس قذرة وسترة واقية وصعد إلى الباب الخلفي. أمسك ماكفي بيد «الرجل الهارب» المرتدي القفازات، وسحبه أعلى المنحدر الحاد، وضرب ماركهام يده على ذراع الرفع الهيدروليكي لإغلاق الباب الخلفي إذ أمر دولين الطيارين عبر نظام الاتصال الداخلي في المقصورة، وأطلقت المحركات الأربعة المروحية من أجل الإقلاع.

مع إغلاق المخرج الخلفي، سقط الرجل على واقيات الركبة التي يرتديها في منتصف المقصورة الخالية، علّق بندقيته **(إم4)** على حزام الأدوات حول صدره، لكنه فقد معظم ذخيرته، وسترة نومكس بنية

ممزقة في عدة أماكن، غطت نظارة واقية وجه الرجل الذي تلطخ بالشحوم والعرق.

خلع خوذته وألقاها على أرضية المقصورة، التي مالت في أثناء دوران الإقلاع، انبعث البخار من شعره البني الكثيف المتشابك، وظلت لحيته تقطر عرقًا كصنبور مسرب.

رفع دولين الرجل الرمادي عن الأرض، ووضعه على المقعد المثبت في جسم المقصورة، ثبّته على المقعد بحزام وجلس بجانبه.

سأل: «هل تتألم؟».هز الرجل رأسه.

صاح دولين وسط دوي المحركات: «دعني أساعدك على نزع معداتك».

ـ لن أنزعها.

ـ كما تشاء، مدة الرحلة أربعون دقيقة فقط، فور وصولنا تركيا سنمضي إلى مأوى آمن، ومساء غد سيطلعك فيتزروي على التعليمات، سنحميك حتى ذلك الحين.

قال الرجل المتسخ وقد شق عليه التنفس: «أقدّر ذلك». وتسمّرت عيناه في الأرض إذ يتحدث، وضم ذراعيه حول طرف البندقية التي تتدلى من رقبته.

جلس الأربعة الآخرون في المقعد الشبكي الأحمر الذي يبطّن جانب جسم الطائرة، وراحوا يحدقون جميعًا إلى الرجل، وحاولوا دون جدوى التوفيق بين العميل متوسط المظهر الذي يجلس بينهم وبين سمعته الخارقة.

جلس الرجل الرمادي، ودولين بجوار لوح لنقل المعدات مربوط بحزام إلى وسط الطائرة.

قال دولين: «سأتصل بفيتزروي وأخبره أننا أقلعنا، سأجلب لك ماء وأعود بسرعة».

استدار وجاهد ليصل إلى مقدمة المقصورة في أثناء الارتفاع الحاد للطائرة. أخرج هاتفه المتصل بالقمر الصناعي في أثناء مشيه.

***

كانت الساعة قد تخطت الثالثة صباحًا في لندن، وفي الطابق السادس من مبنى تجاري أبيض في طريق بيزووتر، طرق رجل مسن يرتدي بذلة مقلمة ومجعدة بأصابعه على مكتبه. كان وجهه شاحبًا والعرق يتصبب على رقبته المكتنزة، ليبلل بذلته الأكسفورد المصنوعة من الصوف المصري. حاول دونالد فيتزروي الاسترخاء لإزالة القلق البارز في صوته.

رن الهاتف الذي يعمل بالأقمار الصناعية مرة أخرى.

نظر مرة أخرى، للمرة العشرين، إلى الصورة المؤطرة على مكتبه، كانت لابنه. أنه في الأربعين الآن، جالس على أرجوحة على الشاطئ، بجواره زوجته الجميلة، بينما يجلس توأمان، فتاتان، على ساقي الأب والأم إذ تبتسمان بشدة.

أبعد فيتزروي نظره عن الصورة المؤطرة، ونظر إلى مجموعة من الصور المتفرقة بين يديه المكتنزتين وقد ألقى عليها عشرين نظرة أيضًا. كانوا الأربعة أنفسهم، العائلة نفسها، على الرغم من أن التوأمين قد صارتا أكبر سنًّا بعض الشيء.

كانت عملية مراقبة تقليدية: الأسرة في الحديقة، والتوأمان في مدرستهما بالقرب من ميدان جروسفينور، وزوجة الابن تدفع عربة التسوق في السوق. استنتج فيتزروي من الزوايا والمسافة من الأهداف رسالة المصور ومفادها: أن بإمكانه الوصول بسهولة إلى الأربعة والإمساك بكل واحد منهم.

كان تلميح لويد واضحًا: يمكن الوصول إلى عائلة فيتزروي في أي وقت.

رن الهاتف عبر الأقمار الصناعية مرة ثالثة. زفر فيتزروي بقوة ملقيًا الصور على الأرض، وأمسك الجهاز المزعج.

ـ ستاندستيل. هل تسمعني يا فولكورت؟

***

قال دولين: «أسمعك بوضوح، ستاندستيل». ضغط أذنه بقوة على سماعة هاتف القمر الصناعي ليتخلص من هدير المحرك. وأكمل: «كيف تسمعني؟».

ـ صوتك واضح وعال. أبلغ عن حالتك.

ـ ستانسدتيل. فولكورت، الرجل معنا، وأخلينا الموقع المستهدف.

ـ مفهوم. ما وضعه؟

ـ يبدو في حالة سيئة يا سيدي، لكنه يقول إنه على ما يرام.

قال فيتزروي: «مفهوم، انتظر لحظة».

فرك دولين وجهه بيده ذات القفاز، ونظر إلى الجزء الخلفي من طائرة الشحن إلى مساعديه الأربعة، ثم وقع بصره على الرجل الرمادي الذي جلس في نهاية المقعد، تُخفي وجهه نظارة واقية ولحية وشحم، ومع ذلك استطاع دولين أن يستنتج أن الرجل مرهق، إذ مال ظهره على جدار جسم الطائرة، واستند بذراعيه إلى بندقيته **(إم4)** وحدقت عيناه إلى الفراغ.

كان طاقم دولين على يمين الرمادي، وكانوا جميعًا مسلحين تسليحًا موحدًا، ولكن تفصلهم عنه بضع أقدام. أي مسافة مقعد.

بعد ثلاثين ثانية، عاد دونالد فيتزروي إلى الخط. وقال: «فولكورت، هذا ستاندستيل. هناك تغيير في العملية، سيُدفع أجرك أنت ورجالك بالطبع وفقًا لذلك».

اعتدل دولين في جلسته وقطب جبينه. وقال: «عُلِم يا ستاندستيل. تابع تحديث تفاصيل العملية».

ـ أحتاج إلى إلغاء تسليم الرجل.

أطرق دولين برأسه. وقال: «هذا أمر مرفوض يا ستاندستيل، لا يمكننا العودة إلى المطار، إنه يضج بعناصر المعارضة و...».

ـ ليس هذا ما أعنيه يا فولكورت، أحتاجك أن... تقضي عليه.

لحظة صمت، ثم قال: «ستاندستيل. فولكورت. كرر جملتك الأخيرة».

تغيرت نبرة الصوت عبر هاتف الأقمار الصناعية، فصارت أقل رسمية وأكثر إنسانية. قال: «لديَّ مشكلة. هنا، فولكورت».

قال دولين بينما فقدت نبرة صوته الإيقاع المقتضب لبروتوكول الراديو: «نعم، أظن أن لديك مشكلة بالفعل».

ـ أريد أن يُقضى عليه.

وضع دولين رأسه في يده التي ترتدي قفازًا. بدأ ينقر بأصابعه على جانب وجهه.

وسأل: «هل أنت واثق بهذا؟ إنه أحد رجالك».

ـ وأنا أعلم ذلك.

ـ أنا أحد رجالك.

ـ الأمر معقد، يا فتى هذه ليست الطريقة التي أدير بها الأمور عادة.

ـ لا يبدو هذا صائبًا.

ـ كما قلت، ستُعَوَّضون جميعًا عن هذا التغيير في العملية الأصلية.

ظلت عينا دولين على الرجل الرمادي وهو يسأل: «كم؟».

بعد خمس دقائق، نظر دولين إلى رجاله وهو يبحث عن مفتاح اختيار الراديو الخاص به على جهاز الصدر. أدار الاتصال الهاتفي بضع نقرات.

وقال: «لا تنطقوا شيئًا. فقط أومئوا برؤوسكم إذا سمعتم».

تطلع كلٌّ من بارنز وماكفي وبيريني وماركهام إلى أعلى ومن حولهم حتى استقرت نظراتهم على دولين عند الحاجز وأومؤوا في الوقت نفسه.

لم يدرك الرجل الرمادي ما يدور حوله، وحدق بهدوء إلى منصة تحميل المعدات أمامه.

قال دولين: «اسمعوا، أمَرنا ستاندستيل أن نتخلص من الرجل الرمادي».

رأى دولين الذهول على وجوه رجاله عبر ثلاثين قدمًا من المساحة الواسعة في المقصورة عالية الإضاءة، وهز كتفيه تملصًا: وأكمل: «لا تسألوني يا شباب، أنا فقط أعمل هنا».

نظر إليه الرجال الأربعة الجالسونِ على المقعد مع الرجل ، ورأوه الأقرب إلى الباب المنحدر، مربوطا، وبندقيته **(إم4)** على صدره، ووجهه الملتحي يحدق إلى أرضية المقصورة.

تطلعوا مرة أخرى إلى قائدهم، وأومؤوا برؤوسهم ببطء في حركة واحدة.

6

جلس كورت جينتري بمفرده بالقرب من مخرج الطائرة المغلق، واستمع إلى صوت المحركات محاولاً التقاط أنفاسه للسيطرة على مشاعره. كان جسده على مقعد شبكي في الجزء الخلفي من الطائرة، لكن عقله كان يهوي إلى الأسفل، في الظلام، في الرمال. في المتاعب.

نهض العميل الأقرب ليمينه وتحرك حول منصة المعدات، ثم جلس على المقعد المواجه له. نظر جينتري مكتوف اليدين إلى يمينه، ولاحظ قائد فريق الإخلاء وهو يضبط معداته. بدأ ينظر إلى الرجال الآخرين، لكن رأسه عاد إلى الرجل عند الحاجز.

شيء ما لم يكن على ما يرام.

كان ظهر قائد الفريق مستقيمًا، ووجهه جادًا، رغم أنه لم يكن ينظر إلى أي شيء محدد، كان رشّاش **(إم بي5)** على صدره، وعدَّل قفاز يده اليمنى في أثناء تحرك فمه، كان يبعث بإشاراتٍ عبر جهاز الإرسال القريب، يرسل الأوامر إلى رجاله.

نظر جينتري إلى جهاز راديو هاريس فالكون الخاص به، لقد كان على القناة نفسها مثل باقي الفريق، لكنه الآن لا يستطيع سماع الإرسال.

استدار كورت إلى الرجال الثلاثة بجانبه على المنصة، من وقفتهم وتعابير وجوههم توصل جينتري إلى أن شأنهم شأن قائدهم، لم يتخلصوا من التوتر بعد الإجلاء من منطقة الخطر. لا، لقد تحركوا وبدا كأنهم على وشك الشروع في العمل.أمضى جينتري ستة عشر عامًا في العمليات السرية، درس الوجوه وتقييم تهديدات الحياة. كان يعرف كيف يبدو المجند عند انتهاء المعركة، ويعرف كيف يبدو عندما يكون هناك قتال على وشك البدء.

حلَّ الشريط الذي يثبته إلى المقعد خلسةً، واستدار في مقعده لمواجهة الرجال حوله. كان دولين على الحاجز، لم يعد يرسل إشارات بل راح يحدق إلى جينتري.

صاح جينتري عبر هدير المحرك: «كيف الحال؟».وقف دولين ببطء، فصاح كورت مرة أخرى عبر المقصورة المزعجة: «أيًّا كان الذي تفكر في فعله، عليك فقط...».

استدار ماركهام بسرعة على المقعد، والتفت باتجاه الرجل الرمادي، شاهرًا مسدسه أمامه بالفعل. ضغط جينتري بحذائه المغبر بالرمال على الجدار وراء المقعد، وانطلق عبر المقصورة، حاول أن يستتر خلف منصة المعدات المثبتة على الأرض.

بدأ القتال. لم ينشغل كورت بمعرفة سبب انقلاب من أنقذوه عليه، لم يهدر خلية دماغية واحدة في تأمل مجريات الأحداث. كان كورت قاتل بشر، وهؤلاء كانوا بشرًا، وهذا كل ما في الأمر.

أطلق ماركهام رصاصة من مسدسه الألماني طراز سيج سوير، لكنه أخطأ الهدف قبل أن يختفي جينتري خلف شحنة بضائع، ورأى ماركهام وبارنز يفكان أحزمة مقعديهما بسرعة.

لم يكن هناك سوى ماكفي على يسار جينتري، حيث جثم الرجل الرمادي خلف المنصة مواجهًا أبواب قمرة القيادة على بعد ثلاثين قدمًا. وقف دولين بالقرب من الجدار الفاصل عند الأبواب، وكان المجندون الثلاثة الآخرون في المقدمة وإلى يمينه.

علم جينتري أنه إذا تخلص من الرجل على يساره، فسيقضي على أحد مراكز قوتهم؛ لذلك خرج من خلف المنصة، مستندًا إلى كتفه اليسرى، رافعًا البندقية الآلية **(M4)**، وأطلق وابلًا من الرصاص على المجند. ارتطم وجه الرجل الذي أخفته النظارة الواقية بالحائط، وسقط مسدسه الرشاش **(HK)** من أطراف أصابعه.

تراجع ماكفي مرة أخرى على المقعد ميتًا.

قتله جينتري، ولم يكن لديه أي فكرة عن السبب.

***

سرعان ما بدأ كل رجل في الجزء الخلفي من الطائرة يطلق النار من سلاحه. أربعة بنادق تنهال بالرصاص ناحية جينتري.

اختبأ جينتري خلف مخزن المعدات، وهنا بدأ جدار هيكل الطائرة خلفه يئن. سمحت الثقوب، التي أحدثتها العشرات من طلقات البنادق، للهواء المضغوط أن يخرج من الطائرة. لم يتمكن طاقم طائرة الشحن في المقدمة من سماع صوت الهيكل إذ يتحطم، لكن من الواضح أنهم سمعوا إطلاق النار من خلفهم، لأنهم وضعوا الطائرة في حالة هبوط للوصول إلى هواء أكثر سُمكا، ولخفض فرق الضغط على أمل أن يحافظوا على طائراتهم من التحطم إلى أشلاء.

يبدو أن هبوط الطائرة وفر بيئة منعدمة الوزن لجينتري وباقي القتلة الأربعة المحتملين.

تحرك كورت بعيدًا نسبيًا عن موقع منصة المعدات الآمن، وهبط أخيرًا على سقف المقصورة بقفزتين خلفيتين، ثم انطلق بسرعة على سطحها إلى السلم الخلفي، الذي صار أعلى نقطة في حجرة الشحن.

ارتفع اثنان من المسلحين في الهواء أيضًا وأطلقا النار إلى أعلى على هدفهما.

شعر جينتري برصاصتين يبلغ قطرهما تسعة ملليمترات من رشّاش **(MP5)** تنغرزان في درع سترته الواقية.

أفقدته قوة الاصطدام توازنه للحظة، لكنه رأى من موقعه ـ وقد انقلب رأسًا على عقب ـ مجندًا لم يفك حزام مقعده، وراح يركل الهواء بشكل محموم، مقيدًا إلى الحائط على يمين جينتري. هدف سهل، أطلق جينتري النار على رأس بيريني ببندقية **(M4)** القصيرة،

فترنح جسده، ورقصت ذراعاه وساقاه مع انعدام الوزن بسبب هبوط الطائرة السريع.

في الثواني العشر التالية، دار الأربعة الذين ظلوا على قيد الحياة بالمقصورة في الهواء مثل الجوارب في الغسالة. كان قائد الفريق دولين تحت الآخرين. لقد تمكن من الإمساك بجزء من الحزام على الحاجز الأمامي وربط ذراعه بأمان. والآن حاول توجيه مسدسه الرشاش نحو جينتري الذي يعلوه بثلاثين قدمًا.

لكن ماركهام وبارنز اصطدما بجينتري، إذ يحلّقون جميعًا في الهواء بلا سيطرة على الإطلاق. تطايرت أعقاب البنادق والأحذية والقبضات كلما تحرك الهدف للإمساك بالبندقية.

بالرغم من انعدام وزن الرجال، لكنهم كانوا في الواقع يندفعون نحو الأرض، ويسقطون من السماء بأقصى سرعة. لكن هناك طائرة تحملهم وتسقط أيضًا، لهذا لم يتمكنوا من رؤية أي نقاط استدلال ليدركوا بها أنهم يسقطون مثل الحجارة.

وسط الفوضى والصراخ والتشويش الناتج عن فقدان الأرض الثابتة، دار كورت عائدًا إلى الخلف مرة أخرى، وانزلقت يداه اللتان كانتا تقبضان على البندقية، فانخلعت حمّالتها من رأسه، وظل السلاح يبتعد، فأخرج مسدسه الجلوك وأطلق النار دون تصويب، لكنه شعر بلدغة الرصاصة وهي تخترق ساقه اليمنى، ارتدت ساقه إلى الوراء من أثر الرصاصة كأنها مطرقة، لكنه تجاهل الإصابة، وثبت قدميه على أرض السلم الخلفي. نظر إلى أعلى ـ الذي قد صار في الأسفل ـ ورأى دولين في محيط نظره، كان قائد فريق الإجلاء قد تعلّقت ذراعه بالشبكة الحاجزة، وبالذراع الأخرى أمسك بالرشاش الملفوف حول رأسه وصوّبه إلى الرجل الرمادي.

أطلق كورت ست رصاصات بسرعة ورأى كيف تفاعل جسد المجند مع اختراق الرصاص جذعه وفخذه، ثم التفت جينتري ليصوب باتجاه

بارنز وماركهام، هدفيه الأخيرين، لكن جثة ماكفي طارت عبر مرمى نيرانه. عندها فقط قرر الطيار ـ على ما يبدو ـ أنه رأى ما يكفي من الرمال في زجاجه الأمامي، وسرعان ما خرج من وضع الهبوط. طار جميع الركاب في الخلف، الموتى والأحياء معًا، في الهواء واصطدموا بأرضية الطائرة الفولاذية بقوة، ليتدحرجوا مثل كرات البولينج نحو حاجز الطائرة الأمامي.

طار مسدس كورت بعيدًا عن يده عند الاصطدام، وارتد هو إلى الأمام، حيث اشتعلت حرارة جرح الرصاصة في فخذه مع كل هزة. تدحرج كورت نحو شبكة الحاجز الأمامي في أثناء اعتدال الطائرة، وكاد يمسك به، لكن الطيار وضع الطائرة (**L-100**) مرة أخرى في وضع الصعود. استعان جينتري بقوة الدفع ليبقى في الأمام لبعض الوقت، لكن عندما أصبحت أرضية البضائع منحدرًا حادًّا يتجاوز خمسًا وأربعين درجة فقد آخر ما لديه من ثبات، وبصعوبة تمكنت أطراف أصابعه من لمس حزام النايلون بجوار دولين الذي تحجر مكانه.

عاد الرجل الرمادي إلى الخلف، وتدحرج مستقرًّا على كعبيه وسقط، ثم انزلق قبل أن يتدحرج، وأخيرًا أصبح كورت في الجو عندما انتصفت المسافة بينه وبين المقصورة. تفاقم ألم فخذه عندما هبط على وركيه عند مخرج الطائرة، لكن هذا الألم لم يكن يُقارن بألم ارتطام جسد ماركهام بصدر كورت.

واجه ماركهام الاتجاه الآخر وقد ذُهِل أكثر من جينتري نفسه من أثر الارتطام، لذلك كان من السهل على الرجل الرمادي أن يلف ذراعه حول رأس المجند، كَسرت رقبة ماركهام بالتواء بالغ، مما أدى إلى تدمير حبله الشوكي وقتله على الفور.

كان المجند الميت قد لف الرشاش حول عنقه بحمّالة ذات طرف واحد، وكأنها قلادة تتدلى منها تميمةٌ على هيئة سلاح آلي. حاول

كورت أن ينزعه لكن الحمّالة علقت بسترة المجند الثقيلة، سحب كورت السلاح من كتف الرجل الميت، وحاول بسرعة أن يلحق بآخر أعضاء فريق الإجلاء، الذي استعان بأرجل أحد المقاعد ليصعد من المقصورة إلى المطبخ الملحق بمنصة التحميل في الأمام.

ضغط كورت الزناد، لكن لم يطلق السلاح شيئًا. تحسس ذخيرة سترته بحثًا عن خزينة جديدة، وثبتها بعنفٍ في رشاش **(MP5)**، عندما استعد للتصويب على هدفه، كان الأخير قد اختفى في المطبخ. استقرت الطائرة مرة أخرى، فاستعاد كورت جاذبيته. اختبأ خلف منصة التحميل قرب الفتحة الخلفية، منتظرًا بارنز أن يخرج ليلقي نظرة.

فجأة سمع جينتري جلبة عالية، وشعر ببوابة الشحن الخلفي تتحرك، وعوت الرياح.

لقد فتح بارنز المخرج من المقصورة الأمامية، بعد ثانية أخرى بدأت الطائرة تهبط بحدة. وبينما كان كورت يندفع للإمساك بالشبكة فوق المنصة أمامه، ظهر بارنز بالقرب من الحاجز.

كان المجند يرتدي ملابس دكناء، وقد علّق على ظهره مظلة. يبدو أنه اعتقد أن هذه الطائرة قد نالت ما يكفي من الأضرار، أو ربما كان يشعر بالقلق من أن الطيارين قد لقوا حتفهم بنيران طائشة. أمسك بارنز بحزام الحاجزِ بكل قوته، وأطلق دفعة رصاص تلو الأخرى في اتجاه جينتري ممسكا بالبندقية القصيرة **(M4)** بيد واحدة، حيث انفتح المخرج المنحدر بالكامل خلف الرجل الرمادي.

تسلل كورت خلفه، وجرّد رقبة ماركهام من السلاح قبل أن تتدحرج جثته مباشرة من الطائرة إلى الظلام.

واصل الطيّار صعوده، وفور انزلاق جسد ماكفي أمام جينتري إلى ظلام الليل، كانت جثة بيريني مثبتة في مقعده، بينما لم تبرح جثة دولين مكانها في شبكة الحاجز.

لم ينجُ سوى جينتري وبارنز.

أمسك جينتري بالمسدس الرشاش في يده اليمنى، وضغطت يده اليسرى على شبكة منصة المعدات، فاعتصرت القفازات أصابعه، وعلم أنه لن يصمد أطول من ذلك. ركل بحذائه أرض الطائرة بكل قوته حيث أصبحت زاوية التسلق أكثر انحدارًا.

كان على بعد ثوانٍ من السقوط للخلف أسفل المخرج المنحدِر. لكنٍ جينتري كانتً لديه فرصة أخيرة. رفع بندقية ماركهام، وأطلق وابلًا طويلًا من الرصاص فوق منصة العدة صوب بارنز، فأصابه مباشرة في سترته، وضرب رأسه مرة أخرى على الحاجز بقوة كافية للقضاء عليه تمامًا.

انحدرت الطائرة بزاوية حادة، وفقد بارنز الجريح قبضته على الشبكة ليسقط على ركبتيه، ثم تدحرج بطول الطائرة نحو الفتحة الخلفية. كانت هذه هي رحلة خروج جينتري من الطائرة المتضررة، ولم يكن ليفوتها. ترك كورت المنصة حين تخطاه العميل العاجز، ودفع نفسه عن الأرض بحذائه وواقيات ركبتيه. قفز جينتري إلى الميمنة، وأمسك بالرجل الذي فقد وعيه من حزام مظلته، فأبحرا معًا عبر الكوة المفتوحة إلى سماء الليل.

***

ربط جينتري ذراعيه حول بارنز وعقد ساقيه خلف ظهره. اختفت الطائرة فوقهما، وسرعان ما تلاشى هدير المحركات، وحل مكانه عواء الريح.

راح كورت يصيح ويصرخ محاولًا أن يتشبث بقدر الإمكان. لم يجرؤ على الوصول إلى حبل فتح المظلة. فلو فقد قبضته الضعيفة فلن يجدها مرة أخرى في سماء الليل الحالك. كان واثقًا تمام الثقة أن هذه المعدات تحتوي على جهاز تشغيل أوتوماتيكي من شأنه أن

يطفو على ارتفاع سبعمائة وخمسين قدمًا إذا كان راكبها لا يزال في حالة سقوط حر.

ظل جينتري وقاتله المحتمل ينقلبان رأسًا على عقب عبر السواد البارد.

ثبت كورت إحدى يديه على حزام الكتف في المظلة، وحرر اليد الأخرى ليجد موضعًا ثابتًا آخر، وما إن تركه، سمع صوت نغمة واحدة استمرت أقل من ثانية. ثم انفتحت المظلة الاحتياطية. أمسك جينتري بيد واحدة. لم تكن هذه المظلة مخصصة لشخصين، أحدهما كان يركُل وينتحب، في محاولة يائسة للحصول على قبضة أقوى، لذلك سقط الرجلان بسرعة كبيرة، ودار أحدهما حول الآخر مثل دوامة.

استمر هذا لبضع ثوانٍ فقط قبل أن يبدأ جينتري بالتقيؤ من الدوار. لم يكن أمامه الكثير من السقوط، لكن غثيانه قد جف بالفعل قبل أن يصطدما بالأرض.

لم يتأثر جينتري بالاصطدام، إذ هبط مباشرة فوق الرجل المعلق بالمظلة. تفقّده وتبين أنه هبط بقوة على وجهه، بينما كان جينتري على ظهره. لم يعثر له جينتري على أي نبض.

ما إن وقف جينتري على أرض صلبة تحكم في غثيان معدته، وأمسك بفخذه، وتلوى من الألم للحظةً، ثم تعافي بما يكفي للجلوس. توهجت ألوان الصباح الأولى على يساره، مما دل على الشرق.

الآن بعد أن أصبح يعرف الاتجاهات، رصد محيطه. كان على أرض مستوية، في سفح وادٍ هادئ. ثمة جدول مياه قريب بما يكفي ليسمع ثغاء الماعز من بعد. رقد العميل الميت محطمًا والمظلة الاحتياطية ترفرف خلفه في النسيم البارد قبيل الفجر. فتش جينتري في معدات الرجل ووجد حقيبة إسعافات طبية على ساق بارنز.

جلس على العشب، وبذل أقصى ما بوسعه لعلاج جرحه في الظلام. أراد أن يعالج ساقه المصابة حتى تتمكن من تحمل الرحلة، إذ افترض

أن أمامه مسافة طويلة سيمشيها قبل أن يصل إلى الحدود. كان جرحًا نظيفًا، في الداخل والخارج. لم تتضرر الأوعية الدموية أو العظام؛ لذا فلم يكن هناك داعٍ للقلق إذا عالجه مبكرًا وعلى نحو جيد، وتحمل أيامًا أو أسابيع من الخفقان المزعج. تقيأ جينتري الصفراء مرة أخرى، لا يزال جسده وعقله يحاولان استيعاب فوضى الدقائق الخمس الماضية.

ثم نهض وبدأ يمشي ببطء شمالًا نحو تركيا.

7

جلس فيتزروي على أريكة مكتبه مواجهًا لويد. لم يُبعد عينيه الغاضبتين بعيدًا عن المحامي الشاب حتى عندما كان الرجل الأكبر سنًّا يستمع إلى الطرف الآخر من اتصال القمر الصناعي.

قال فيتزروي عبر الهاتف: «أفهمك، شكرًا لك».

أنهى المكالمة ووضع الهاتف برفق على المنضدة أمامه. بادله لويد التحديق متفائلًا، لكن فيتزروي كسر مسابقة التحديق بنظرة إلى السجادة، وقال: «يبدو أن جميعهم قد ماتوا».

سأل لويد وقد ازداد صوته تفاؤلًا: «من مات؟».ـالكل ما عدا طاقم الطائرة. قيل لي إن عراكًا قد نشب على متن الطائرة. لم يسقط كورتلاند بسهولة. لا عجب، وقد عثر الطيار على جثتين من رجالي في الخلف، ولم يكن هناك أي أثر للأربعة الآخرين. دماء على الأرض والجدران والسقف، وأكثر من خمسين ثقب رصاص في جسم الطائرة.

قال لويد دون اكتراث حقيقي بينما يتنحنح: «ستعوضك شركتي عن الأضرار. لكنهم لم يجدوا جثة جينتري؟ أيمكن أن يكون قد نجا؟».

ـلا يبدو. فُقد الكثير من المعدات، وحلقت الطائرة لأميال، بينما كان باب حمولتها الخلفي مفتوحًا، ومن بين المعدات مجهولة المصير مظلة، ولكن لا يوجد سبب للافتراض....

قاطعه لويد: «إذا فُقد هدفنا عند فتحة طائرة مع مظلة، فلا يمكنني إقناع النيجيريين بأن المهمة أُنجزت».

ـلقد كان الطاقم من الدرجة الأولى، ومكونًا من خمسة أفراد، بينما هو فرد واحد، وجميعهم من القوات الخاصة الكندية سابقًا. من

الواضح أنني أوفيت باتفاقنا حتى النهاية. أطلب منك الآن التفضل بتنفيذ الاتفاق أيضًا. أوقف تهديداتك لعائلتي.

لوَّح لويد بيد رافضة في الهواء. «يريد أبو بكر دليلًا. لقد طلب رأس جينتري في صندوق جليدي».

قال فيتزروي: «تبًّا يا رجل! لقد فعلت ما قيل لي!». كان فيتزروي غاضبًا، لكنه لم يعد خائفًا على عائلة ابنه. قبل وقت قليل من وصول لويد، اتصل السير دونالد بابنه، وطلب منه اصطحاب زوجته وطفلتيه، وأن يهرع إلى محطة سانت بانكراس في الوقت المناسب، ليأخذ قطار يوروستار الثاني في الصباح إلى فرنسا.

حاليًا عليهم أن يستقروا في الفيلا الصيفية للعائلة جنوب شواطئ نورماندي، شعر فيتزروي بالثقة يأن رجال لويد لن يجدوهم هناك.

ـ نعم، لقد فعلتَ ما قيل لك، وستواصل فعل ذلك. لديَّ مواطن نيجيري هادئ للغاية لكنه يتوعد بسوء شديد في مكتبي ولن يغادر بتأكيداتي وحسب. سأحتاج أن تتحقق من مسار رحلة من الطيارين، وسأحتاج إلى إرسال فريق للتحقيق....

رن الهاتف على مكتب فيتزروي برنة مميزة أقرب إلى ثغاء قصير، أدار السير دونالد رأسه إليه ثم عاد إلى لويد.

قال لويد: «إنه هو!». ردًّا على صدمة فيتزروي الواضحة.

ـ تلك هي رنته.

ـ أجِبْهُ إذن، وشغِّل مكبر الصوت.

قطع فيتزروي الغرفة وضغط على زر في وحدة التحكم على مكتبه. «أمن شلتنهام» كان الصوت الذي سُمع عبر الخط بعيدًا، خرجت الكلمات بين أنفاسه المجهدة: «هل تسمي هذا إنقاذًا؟».

ـ أمر جيد أن أسمع صوتك. ماذا حدث؟

سحب لويد دفتر ملاحظات من حقيبته بسرعة.

ـ كنت سأسألك الشيء نفسه.

ـ هل تأذيتَ؟

ـ سأعيش. لا، الفضل يرجع إلى فريق الإجلاء الذي أرسلته لاصطحابي.

نظر فيتزروي إلى لويد، كتب الشاب الأمريكي شيئًا ما في دفتر ملاحظاته ورفعه عاليًا: «نيجيريا».

ـ يا بني. سمعت من طاقم الطائرة عن المشاجرة، لم يكن هؤلاء موظفين دائمين لديَّ، إنهم وحدة مرتزقة فحسب، استخدمتها مرة فيما مضى، عليَّ أن أشكل فريقًا بسرعة بعد انسحاب البولنديين.

ـ بسبب ما حدث في العراق؟

ـ نعم، أصبح هذا القطاع بأكمله منطقة محظورة بعد احتجاجك الصغير أمس، رفض البولنديون الدخول. وبدلًا من ذلك أخبرني الرجال الذين أرسلتهم أنهم سيفعلون أي شيء مقابل المال مهما تكن المخاطر، ومن الواضح أن شخصًا ما وصل إليهم واشتراهم.

ـ من؟

ـ تخبرني مصادري أن الرئيس النيجيري يوليوس أبو بكر يلاحقك.

ـ كيف يعرف أنني من قتل أخاه؟

ـ سُمعتك بلا شك، لقد بلغتَ مكانة يصعب فيها على غيرك تولي المهام شديدة الصعوبة أو رفيعة المستوى.

قال الصوت عبر الخط: «تبًا!».سأل فيتزروي: «أين أنت؟ سأرسل فريقًا آخر لاصطحابك».

ـ مستحيل، لن يحدث!

ـ يمكنني مساعدتك يا كورت. سيترك أبو بكر منصبه في غضون أيام قليلة، سيغادر بثروة لا يمكن تصورها، لكن ستقل قوته ونفوذه ما إن يصبح مدنيًا. قريبًا سينتهي الخطر الذي تواجهه. اسمح لي أن أحضِرك، سأحميك حتى ذلك الحين.

ـ يمكنني أن أختبئ بمفردي. اتصل بي عندما تحصل على مزيد من المعلومات عمن يلاحقونني. لا تحاول أن تعثر عليَّ، لن تستطيع.

وهكذا انتهى الاتصال.

صفق لويد: «أحسنت اللعب يا سير دونالد. أداء رائع! لم يشُك فيكَ رجلك على الإطلاق».

قال فيتزروي بغضب: «إنه يثق بي. أربع سنوات تكفي ليقتنع بأنني صديقه».

تجاهل المحامي الأمريكي غضب السير دونالد وسأل: «أين سيذهب؟».

جلس السير دونالد على الأريكة ومرر يديه على رأسه الأصلع. نظر إلى الأعلى بسرعة. وقال: «شبيه! تريد رأسًا في صندوق متجمد؟ سأحضر لك رأسًا في صندوق متجمد! كيف بحق الجحيم سيعرف أبو بكر الفرق؟».

هز لويد رأسه وقال: «قبل أسابيع، قبل أن يطالب الرئيس بقتله، سألنا عن كل المعلومات الاستخباراتية التي كانت لدينا عن الرجل الرمادي. تصادف أن لديَّ صورًا وسجلات أسنان وتاريخًا كاملًا وما إلى ذلك. أرسلت ذلك إليه، معتقدًا أنه هذا الوغد سيقتل جينتري بنفسه قبل أن يُقتَل أخوه. أبو بكر يعرف وجه رجلك. لا يمكننا استخدام جسد شبيه، أو كما تقترح رأسَ شبيهٍ».

أطرق فيتزروي برأسه: «كيف حصلت على هذه المعلومات بحق الجحيم؟».

تأمل لويد السؤال هُنيهة، ثم التقط قطعة من الوبر على ركبة سرواله، وقال: «قبل انتقالي إلى باريس للانضمام إلى لوران، عملت أنا والرجل الرمادي معًا».

ـهل كنت تعمل في الاستخبارات المركزية الأمريكية؟ـسابقًا، قطعًا سابقًا، دعني أقل لك: إن الوطنية غير مربحة.ـلكن ملاحقة الوطنيين والتهديد بإيذاء الأطفال مربح؟

ـمربح للغاية. يتصادف أن العالم مكان غريب، لقد نسخت ملفات سرية في أثناء عملي في الوكالة، وعزمت على استخدامها ورقةَ مساومةٍ لو لاحقوني يومًا ما. إنها مصادفة بحتة أن تساعدني هذه الأوراق في موقفي الحالي.

نهض لويد، وبدأ يقطع مكتب فيتزروي جيئةً وذهابًا. وقال: «أريد أن أعرف أين جينتري الآن، إلى أين سيذهب، وما الذي يفعله عادة عندما يختبئ».

ـعندما يختبئ، فإنه يتلاشى، يمكنك أن تودع غازك الطبيعي، لن يتمكن أحد من رصد الرجل الرمادي مرة أخرى لعدة شهور.

ـغير مقبول، أريدك أن تقدم لي شيئًا، شيئًا لا أعرفه بالفعل عن جينتري، عندما كان يعمل لدينا كان كالآلة. بلا أصدقاء ولا عائلة يهتم لأمرها، ولا حبيبة عالقة بانتظاره بعد ليالي العمل الطويلة، ملفه الإداري هو الأكثر مللًا في قراءته، لا رذائل ولا نقاط ضعف لديه، إنه الآن أكبر سنًّا، وحتمًا أقام علاقات ذات طابع شخصي، وطوَّر ميولًا يمكننا أن نستنتج منها خطوته المقبلة، أثق أن بوسعك إطلاعي على شيء، مهما يبدُ تافهًا، يمكنني استخدامه للتخلص منه.

ابتسم فيتزروي قليلًا وقد أحسّ بيأس خصمه الشاب.

وقال: «لا شيء، لا شيء مطلقًا. إننا نتواصل عبر هاتف قمر صناعي غير قابل للرصد، أو عبر البريد الإلكتروني، لو كان لديه بيت أو حبيبة أو عائلة مختبئون في مكان ما، فأنا لا أعرفه حتى أخبرك به».

سار لويد إلى النافذة خلف مكتب فيتزروي، لم يبرح الرجل الإنجليزي أريكته وراح يشاهد ضيفه الذي كان يتحرك في المكتب كأنه هو مالك شلتنهام للأمن وفيتزروي ضيفه.

فجأة استدار الأمريكي وقال: «يمكنك أن تعرض عليه عملًا، مهمة سهلة ومربحة، حتمًا لن يرفض مهمة سهلة ومربحة للغاية، أرسل له بشأن مهمة جديدة، وسأرسل فريقًا إلى هناك ليقبضوا عليه».

ـ تبًّا! هل حسبتَ أنه نجا هناك كل هذا الوقت لكونه مغفلًا؟ إنه لا يعبأ حاليًا بجني المال، بل بالاختفاء في المكان المحيط به. كانت لديك فرصة واحدة للقضاء عليه، وقد أفسدتها، عد إلى مكتبك والعق جراحك، دعني أنا وعائلتي وشأننا.

لاحظ فيتزروي رعشة غاضبة في وجه لويد، تبدلت على مهلٍ إلى ابتسامة.

ـ حسنًا، إذا لم تساعدني على استخدام نقاط ضعف جينتري للقضاء عليه، فسأضطر إلى استخدام نقاط ضعفك أنت.

سحب هاتفه من جيبه مبتسمًا للسيد فيتزروي، بينما يتحدث عبر الهاتف. وقال: «اذهب، وخذ فيليب فيتزروي وأسرته، إنهم في منزلهم الصيفي في نورماندي، خذهم إلى قصر لوران».

هب فيتزروي واقفًا على قدميه وصاح: «أيها الوغد الحقير!».

قال: «مذنب وأعترف». كانت نبرة لويد تستهزئ بالرجل الإنجليزي. وأكمل: «شركائي سيحتجزون ابنك وأسرته في منزلٍ مترفٍ تابع لشركة لوران في نورماندي، سيتولون رعايتهم حتى تنتهي هذه المهمة، ستتواصل مع الرجل الرمادي وتعطيه موقعهم، وتخبره أن النيجيريين يحتجزون هناك ابنك الوحيد وزوجته الحبيبة وطفلتيه الصغيرتين، أخبره أن أولئك المتوحشين السود يتوعدون باغتصاب ماما العزيزة وذبح باقي العائلة خلال ثلاثة أيام لو لم تسلم موقع قاتلك المأجور».

ـ وما فائدة ذلك؟

ـ أنا أعرف جينتري، إنه وفيٌّ ككلب مخلص، فحتى لو تعرض للغدر عدة مرات، فسيظل يدافع عن صاحبه حتى الممات.

ـ لا لن يفعل!

ـ بل سيفعل، سيتحمل عبء إنقاذ الموقف، سيتفهم أن الشرطة لا جدوى منها، وسيفعل ما بوسعه للوصول إلى فرنسا. فكما ترى يا سيد دوني، لم يذهب كورت جينتري يومًا إلى الشمال، إنه قاتل مأجور بحق الله! وعلى الرغم من ذلك فكل عملياته، سواء كانت التابعة لوكالة الاستخبارات الأمريكية أو لحسابه الخاص، كلها ضد من حُكم باستحقاقهم الإعدام خارج القانون مثل: إرهابيين، ورؤساء مافيا، وتجار سلاح، وكل شرير يأتي بأعمال شائنة. كورت قاتل، لكنه يحسب نفسه حامي العدالة، أداة لتحقيق العدل، هذا هو عيبه القاتل، وسيكون هذا سبب سقوطه.

كان فيتزروي أيضًا يعلم ذلك عن كورت جينتري، كلام لويد منطقي. ومع ذلك حاول الرجل العجوز أن يناشد المحامي الشاب قائلًا: «لم تكن بحاجة لإقحام عائلتي، سأفعل ما تريد، وقد رأيتَ ذلك، لا ينبغي لك أن تحتجزهم حتى أخبر كورت أنهم محتجزون».

لوح لويد بيده في الهواء رافضًا عرض السير دونالد وهو يقول: «سنوليهم أفضل رعاية، وإن حاولتَ خداعي أو الاحتيال عليَّ، فسأكون في موقع أقوى منك، أليس كذلك؟».

نهض فيتزروي وقطع الغرفة ببطء باتجاه لويد متوعدًا، وبالرغم من أنه كان أكبر سنًّا من المحامي الأمريكي بثلاثين عامًا، فإن بنية العميل السابق في القسم الخامس بالاستخبارات العسكرية البريطانية كانت أضخم. تراجع لويد خطوة إلى الوراء وصاح مناديًا: «سيد ليري! سيد أونيل! فلتدخلا إن شئتما».

كان فيتزروي قد أعطى سكرتيرته عطلة اليوم، وكان بمفرده تمامًا في مكان عمله، إلا أن لويد كان قد أحضر زمليه. دخل المكتب رجلان بهيئة رياضية، ووقفا عند الباب، أحدهما كان أصهب ولون بشرته أبيض يناهز عمره الأربعين عامًا، يحمل حقيبة عمل بسيطة منتفخة عند ساقه، كأن بداخلها كعب مسدس. وكان الثاني أكبر سنًّا،

في الخمسين من عمره تقريبًا. قص شعره الرمادي بطريقة عسكرية، وسترته فضفاضة للغاية بحيث يمكنه أن يخفي بداخلها ترسانة أسلحة كاملة دون أن يلحظ أحد، كان بوسع فيتزروي التعرف إلى البلطجية ما إن يراهم.

قال لويد: «إنهما من الجمهوريين الأيرلنديين، أعداؤكم القدامى، مع أنهم لن يبذلوا جهدًا كثيرًا. أنا وأنت سنرى معًا الكثير في الأيام المقبلة، فلا داعي لأن تفقد علاقتنا ودها».

***

بلغت كلير فيتزروي الثامنة في الصيف الماضي. إنها نهاية نوفمبر الآن، وقد توقعت هي وشقيقتها التوأم كيت أن تبقيا في لندن طوال الخريف الممطر البارد والغائم دون أن تغير نظامها اليومي، فتستيقظ مبكرًا صباح كل يوم من أيام الأسبوع الأسبوع لتذهب إلى مدرستها الابتدائية في شارع أودري الشمالي، وبعد المدرسة ثمة درس بيانو ثلاث مرات أسبوعيًّا لكلير، وتمرينات غناء لكيت، أما العطلات الأسبوعية فتقضيها إما في التسوق مع أمها، أو مع أبيها في المنزل، أو في ملعب كرة القدم، وكل أسبوعين تدعو واحدة من الفتيات صديقتها من أجل سهرة مبيت، بينما تتحول سماء لندن الخريفية الكئيبة إلى شتوية أكثر كآبة، تهفو كل أحلام كلير إلى عيد الميلاد.

دائمًا ما تقضي عطلة عيد الميلاد في فرنسا في كوخ أبيها في بايو بعد القناة مباشرة في نورماندي. كانت كلير تفضل نورماندي على لندن، وكانت تتخيل مستقبلها في مزرعة، لذا كانت لحظة مفاجئة ومغامرة عظيمة عندما دخل مدير المدرسة إلى فصل الفتاتين صباح الخميس، بعد الصف مباشرة، لينادي كلير وكيت، ويدعوهما إلى مكتبه. وقال: «أحضرا كتبكما الدراسية يا آنستيَّ من فضلكما، آسف على المقاطعة سيدة ويلينج، من فضلك أكملي».

كان الأب في المكتب، وقد أمسك بيد كل فتاة وقادهما إلى سيارة الأجرة التي انتظرت بالخارج.

امتلك الأب سيارة جاكوار، بينما تقود الأم سيارة من طراز ساب؛ لذلك لم تعرف الفتاتان إلى أين سيذهبون في سيارة الأجرة. جلست الأم في المقعد الخلفي الشاسع، وكانت مثل الأب جادة ومنزوية.

ـ ابنتيَّ. نحن في عطلة صغيرة، سننزل إلى نورماندي بقطار يوروستار. وبالطبع لا توجد مشكلة، لا تكونا سخيفتين.

في القطار لم تجلس الفتاتان على مقعديهما إلا قليلًا. تناجى كلٌّ من الأم والأب تاركين كلير وكيت تركضان في العربة صعودًا وهبوطًا، سمعت كلير أباها يتحدث إلى الجد دون على هاتفه المحمول. بدأ يتحدث بصوت هادئ، لكنه غاضب. وهو صوت لم تسمعه من قبل مع الجد دون. توقفت عن متابعة أختها وهي تحاول القفز بطول العربة بالكامل على ساق واحدة.

نظرت إلى أبيها القلق، وسمعت نبرة صوته الحادة، والكلمات التي يستحيل سماعها، ولكن من المستحيل أن تكون سوى غضب. أغلق والدها الهاتف وتحدث إلى أمها. كانت المرة الوحيدة التي شاهدت فيها كلير والدها منزعجًا انزعاجًا واضحًا عندما صرخ في عامل يصلح الحوض في منزل بلدتهم، بعد أن قال شيئًا للأم جعل وجهها يتحول إلى اللون الأحمر كالفراولة.

بدأت كلير في البكاء، لكنها لم تُظهر الأمر. غادرت وعائلتها قطار يوروستار ليلًا، واستقلوا قطارًا آخر غربًا إلى نورماندي. بحلول الظهيرة كانوا في كوخهم. ساعدت كيت أمها في المطبخ بغسل الذرة الطازجة لتناول العشاء.

جلست كلير على فراشها بالطابق العلوي، وتطلعت إلى والدها إذ يقطع الممشى المفروش بالحصى ذهابًا وإيابًا بينما يتحدث عبر هاتفه

المحمول، ومن حين إلى آخر كان يضع يده على السياج الخشبي حول الحديقة.

أدى غضب والدها وذهولها إلى تلبُّك أحشائها الصغيرة، بينما لم تع أختها بالأسفل ما يحدث ولم تكن قلقة، لكن كلير اعتبرت كيت أقلَّ نضجًا منها.

أخيرًا وضع الأب هاتفه في جيبه، وانتفض من برودة سرت في الهواء، ثم استدار ليخطو على الممشى.

لم يكد يخطو خطوتين عندما توقفت خلفه سيارتان بنيّتان، التفت للسيارة في أثناء اندفاع الرجال منها. عدَّتهم كلير، فكانواَ ستة رجال ضخام البنية، يرتدون سترات جلدية بأكثر من لونٍ وطراز، ابتسم أقربهم لوالدها ومد يده، فصافَحه الأب.

وقف باقي الرجال حول أبيها، وتقدموا على الممشى باتجاه الكوخ، نظر الأب إليهم إذ يمرون، وللحظة رأت كلير تعبير وجهه، في البداية كانت حيرة، ثم رعبًا، قفزت كلير الصغيرة على قدميها في غرفتها الصغيرة. وعندما مد الرجال الستة أيديهم داخل ستراتهم مرة واحدة وسحبوا مسدسات سوداء وفضية ضخمة، صرخت كلير فيتزروي ذات الأعوام الثمانية.

8

كيرت ريجيل في الثانية والخمسين من عمره، طويل القامة وأشقر وعريض المنكبين كما يوحي اسمه الجرماني.

انضم إلى مجموعة لوران بعد خروجه من الجيش الألماني قبل سبعة عشر عامًا، وترقى من مساعد مدير الأمن في مكتب هامبورج، مرورًا بعشرات المواقع الأجنبية في العالم الثالث، كل موقع أقذر وأخطر من سابقه. والآن يستقر في مكتب منزله في باريس نائبَ رئيس عمليات إدارة المخاطر الأمنية. كان مسمًى وظيفيًا طويلًا يشرح وظيفته على نحو كاذب.

ريجيل هو من يهاتفونه إن أراد شخص أن يُحدث شرًا: كمشروعات مشبوهة، أو فن أسود، أو مشكلات الموارد البشرية التي تتطلب زيارة من أشخاص عنيفين. أو حقيبة سوداء وفرق سطو ومراقبة، وفرق تجسس للشركات، وخبراء في التضليل الإعلامي. إضافةً إلى القتلة المأجورين.

إذا جاء عملاء ريجيل إلى مكتبك، فهذا يعني إما أنهم جاؤوا لمساعدتك على حل مشكلة صعبة، وإما أنك أنت المشكلة الصعبة التي أرسلهم شخص لحلها.

أكدت قيادة «قسم الإجراءات الضارة» فعليًا أن ريجيل لن يصعد إلى أعلى سلم الشركة. لا أحد يريد أن يدير كبير البلطجية الشركة. لكن ريجيل لم يمانع السقف الزجاجي فوقه. على العكس من ذلك، فقد رأى أن منصبه ثابت تقريبًا، إذ أنشأ حوله أسرة أمنية. خلال السنوات الأربع التي قضاها في منصب نائب رئيس إدارة المخاطر. تخلص عملاؤه من ثلاثة مرشحين سياسيين في إفريقيا، وثلاثة من قادة

حقوق الإنسان في آسيا، وجنرال كولومبي، وصحفيين استقصائيين، وما يقرب من عشرين موظفًا في مجموعة لوران الذين فشلوا، لسبب أو لآخر، في الإذعان لإدارة الشركة.

كان ثمة رجل واحد فقط في لوران على علم بجميع العمليات؛ قسّم ريجيل من هم دونه جيدًا، أما من هم فوقه في الشركة فيعرفون ما يكفي من تكتيكاته، ليدركوا أنهم في الحقيقة لم يرغبوا في معرفة المزيد.

تظهر المشكلات فيُستدعى ريجيل، تختفي المشكلات فيُقدَّر بهدوء، مما جعل كيرت ريجيل رجلًا شديد القوة بالفعل.

كان مكتب الألماني الكبير، في المقر الرئيس بباريس، مكسوًّا بألواح من خشب الساج، يلائمه على نحو مثالي. كان مثل ريجيل نفسه، ضخمًا وأشقر ومتين البنية لكنه هادئ ومحافظ، ويقع بالقرب من قسم الذكاء الاستراتيجي وتكنولوجيا المعلومات في الجناح الجنوبي من شركة لوران، وقد علق على جدران مكتبه أكثر من اثني عشر تذكارًا للصيد.

هناك عامل تحنيط في مونمارتر يكسب عيشه فعليًّا من رحلات السفاري الإفريقية التي ذهب إليها كيرت وبعثاته إلى كندا. حدَّق وحيد القرن، والأسد، والوعل، والغزال في فراغات من أعاليهم على الجدران حول الغرفة. وهنا أيضًا يمارس تمارينه الرياضية اليومية بعد ظهيرة كل يوم في الخامسة.

كان على وشك الانحناء للمرة المائة على ركبته، وقد تعرق بشدة عندما رن خط هاتفه الخارجي، يمكنه أن يتجاهل عدة مكالمات حتى ينتهي من تدريباته، لكن هذا كان الرقم المشفر، الخط الساخن، وقد انتظر هذه المكالمة طوال اليوم تقريبًا. أمسك بفوطة وسار ناحية مكتبه، وشغَّل مكبر الصوت في هاتفه.

ـ ريجيل.

ـ مساء الخير سيد ريجيل، معك لويد من الشؤون القانونية.

رشف ريجيل من زجاجة ماء بالفيتامينات، بينما يجلس على حافة مكتبه.

وقال: «كيف يمكنني مساعدتك يا لويد من الشؤون القانونية؟». كان صوت ريجيل قويًّا كما يليق بضابط سابق في المدفعية.

ـ أبلغوني أنك تنتظر مكالمتي.

ـ تواصل معي الرئيس التنفيذي مارك لوران بنفسه، وأخبرني أن أترك كل شيء وأركز كل جهودي على مشروع ستقدمه لي. أخبرني أيضًا أن أمدك برجالٍ ومتخصصي اتصالات، أتمنى أن يكون الفني وفريق المرتزقة البيلاروسيين قد أعانوك على حل مشكلتك.

قال لويد: «نعم أشكرك، الفني معي هنا، والرجال في فرنسا في هذه اللحظة ينفذون ما أبلِغوا به».

ـ جيد، إنها المرة الأولى التي يتصل فيها مارك لوران بنفسه ليطلب مني أن أولي عملية ما اهتمامًا، عندي فضول أن أعرف أي فوضى أقحمتم أنفسكم فيها في الشؤون القانونية.

ـ حسنًا، هذه المشكلة بحاجة إلى حل سريع من أجل الصالح العام للشركة.

ـ إذن دعنا لا نفوت لحظة، ماذا تريدني أن أوفر لك بخلاف الفريق الذي أرسلته؟

توقف لويد للحظة ثم قال: «حسنًا أكره أن أصدمك بالآتي، لكنني أحتاج إلى قتل شخص ضروريًا».

لم يقل ريجيل شيئًا.

ثم أتبع لويد: «هل أنت معي؟».

ـ أنتظر أن تقول ما سيصدمني.

ـ أفهم من ذلك أنك فعلت هذا من قبل؟

ـ نحن هنا في قسم إدارة المخاطر نقول إن كل مشكلة لها حلّان، إما مشكلة يمكن حلها أو يجب إنهاؤها، إذا كان يمكن حل المشكلة يا سيد لويد فإن هاتفي لا يرن.

ـ هل أنت على دراية بعقد لاجوس للغاز الطبيعي؟

أجاب ريجيل على الفور: «أظن أن له علاقة بالنكبة النيجيرية. تقول الشائعات إن بعض المحامين الأغبياء هناك في الشئون القانونية نسوا مراجعة العقد، والنيجيريون يتراجعون عن صفقة قيمتها عشرة مليارات دولار استثمرنا فيها بالفعل مائتي مليون دولار. كنت أشعر أنه سيجري الاتصال بي بشأن هذه المسألة».

ـ نعم، الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك بقليل.

ـ لا يبدو الأمر معقدًا للغاية. أنا فقط بحاجة إلى عنوان هذا المحامي المؤذي، سنجعل الأمر يبدو كأنه انتحار، لا بد أن هذا الوغد الغبي مخلص بما يكفي للشركة، فيشرع في قتل نفسه، لكن لا تنتظر هذا النوع من الولاء من محام في الشؤون القانونية مع احترامي يا لويد.

ـ لا، لا، ريجيل لقد فُهمت الأمر فهمًا خاطئًا. نحن بحاجة لقتل شخص آخر.

تنحنح ريجيل. وقال: «أكمل إذًا».

أخبر لويد نائب رئيس عمليات إدارة المخاطر الأمنية باغتيال إسحاق أبو بكر، ورفْض الرئيس توقيع العقد المُعدَّل دون إثبات وفاة قاتل شقيقه.

قال كيرت ريجيل بسخرية: «نحن نولي ظهورنا لهؤلاء الطغاة، ثم نتفاجأ حين يطعنوننا في ظهورنا».

كانت إنجليزية ريجيل مثالية وباصطلاحات أمريكية. جلس خلف مكتبه وأمسك بقلم، وسحب ورقة من دفتر جلْدي ثم قال: «إذًا نحتاج إلى تحديد هوية القاتل والتخلص منه؟».

ـ لقد حددنا هويته بالفعل.

ـ تريد فقط أن تتخلص منه؟ كنت أتوقع شيئًا أكثر تعقيدًا من هذا بعد مكالمة السيد لوران الهاتفية.

ـ نعم، هذا القاتل ليس سهلًا.

ـ المشكلة مع القتلة المأجورين تكمن في تحديد هويتهم، إذا كنت تعرف من هو، فسأعثر عليه، وسيموت في غضون أربع وعشرين ساعة.

ـ سيكون هذا مثاليًا.

ـ أعني، ما لم نكن نتحدث عن الرجل الرمادي. إنه أصعب من غيره قليلًا.

لم ينطق لويد.

بعد تردد الأمريكي الطويل قال ريجيل: «آه إذًا! نحن نتحدث عن الرجل الرمادي، أليس كذلك؟».

ـ هل ستكون هذه مشكلة؟

سكت ريجيل في هذه المرة، ثم قال أخيرًا: «أمر معقد بلا شك، لكن ليست مشكلة. إنه بارع للغاية في التخفي، ومن هنا جاء لقبه. سيكون من الصعب العثور عليه، لكن الخبر السار أنه لا سبب يدفعه ليتوقع أننا سنلاحقه».

صمت لويد مرة أخرى.

ـ أم سيتوقع ذلك؟

ـ لقد رتبت محاولة لاغتياله الليلة الماضية. فشلت ونجا منها.

ـ كم عدد الرجال الذين قتلهم؟ ـ خمسة.

ـ أحمق!

ـ سيد ريجيل من الواضح أن الرجل الرمادي ليس بأحمق، يُظْهِر لنا تاريخه...

ـ ليس هو! بل أنت الأحمق! محام لعين يحاول تنظيم ضربة لأعظم قاتل بارز في العالم. حتمًا خُططت هذه العملية تخطيطًا سيئًا، ونُفِّذت

على عجل! كان يجب أن تأتي إليَّ على الفور. الآن سيكون على أهبة الاستعداد، متوقعًا أن كل من دبر محاولة اغتياله سيحاول مرة أخرى.

ـ أنا لست أحمق، ريجيل، رئيسه في عهدتي. لقد أقنعته بمساعدتنا على تحديد موقع جينتري.

ـ من جينتري؟

ـ كورتلاند جينتري هو الرجل الرمادي.

اعتدل ريجيل في جلسته، فبدا عريضًا ضخمًا مثل المكتب أمامه. وسأله: «كيف حددتَ هويته؟».

ـ لا يمكنني الإفصاح عن ذلك.

ـ من رئيسه؟

لم يرُق لريجيل أن يكون الطرف المتلقي لمثل هذه المعلومات داخل مجموعة لوران. كانت لديه شبكة استخبارات خاصة به. أن ينقل له محام أمريكي قذر هذه المعلومات كبديهيات جعله يضم قبضتيه في غضبٍ.

ـ اسم رئيسه هو دون فيتزروي. إنه بريطاني، ويعمل رسميًا هنا في لندن، إنه يؤدي بعض الأعمال من أجلنا. أحكم ريجيل إغلاق قبضتيه معًا بشكلٍ أقوى، وقال: «قل لي يا لويد من الشؤون القانونية إنك لم تختطف سير دونالد فيتزروي!».

ـ لديَّ ابنه وعائلة ابنه في مكانٍ تابع لمجموعة لوران في نورماندي.

أرخى ريجيل كتفيه العريضتين، ووضع رأسه بين يديه. بعد عدة ثوان نظر إلى مكبر الصوت الخاص به، ثم قال: «لقد أخبرتني بوضوح شديد أنك مسؤول عن هذه العملية، سأقدم لكم الرجال والعتاد والمعلومات، وأي نصيحة لديَّ».

ـ هذا صحيح.

ـ إذًا لماذا لا أبدأ ببعض النصائح؟

ـ ممتاز.

ـ نصيحتي يا لويد من الشؤون القانونية أن تعتذر للسير دونالد على سوء التفاهم الجسيم، وأن تطلق سراحه هو وعائلته، وارجع إلى بيتك، وضع مسدسًا في فمك، وشد الزناد! تجاوزك مع فيتزروي كان خطأً كبيرًا.

ـ يمكنك أن تستغني عن نصيحتك، وتكتفي بتزويدي بمزيد من الرجال، حاليًّا لا أعرف أين الرجل الرمادي، لكنني أعرف إلىَ أين سيذهب، سيرسله فيتزروي إلى نورماندي، سيسافر برًّا من الشرق إلى الغرب، لا أعرف نقطة انطلاقه بعد، لكن إن وفرت لي الدعم الكافي، فسأرسلهم إلى كل أنحاء أوروبا للإيقاع به في أثناء اقترابه.

ـ لماذا سيذهب إلى نورماندي؟ لينقذ عائلة فيتزروي؟

ـ بالضبط، سنخبره أن النيجيريين اختطفوهم، ويحتجزونهم لحين تسليم فيتزروي له، سيتعهد بإنقاذ الموقف.

نقر ريجيل على مكتبه ثم قال: «وأنا أتفق مع تقييمك. لديه سمعة بأنه نصير الحق، ولن يثق بالسلطات الفرنسية».

ـ بالضبط. أحتاج أن توفر لي فقط فريق مراقبة وفريق قتل. في الوقت الحالي، يحرس عائلته طاقمك من مينسك في فرنسا، لكني أود أن يموت جينتري قبل أن يصل إلى نورماندي، لأن الوقت مهم للغاية.

ـ إنه الرجل الرمادي. أنت بحاجة إلى أكثر من ذلك.

ـ ماذا تقترح؟ أعني، غير أن أقتل نفسي.

نظر ريجيل إلى أبعد حائط عن المكتب، حيث يحدق إيه رأس خنزير بري وكتفه، أومأ كيرت ببطء إلى نفسه.

ـ لإنجاز هذا في الوقت المسموح به ستحتاج إلى مائة مخبر.

هل يمكنك أن تحضر لي مائة خبير مراقبة؟ـ نطلق عليهم فناني أرصفة.

ـ أيًّا كان، يمكنك توفير ذلك؟

ـ بالطبع. وسنحتاج إلى توزيع عشرات الفرق من القتلة الصيادين؛ ليتمركزوا في كل طريق محتمل، بالتنسيق مع مقر قيادة مركزية، وأن تتحفز كل وحدة للعثورً على الهدف وقتله.

قال لويد بنبرة ذهول من حجم المهمة التي عرضها ريجيل: «عشرات الفرق؟».

ـ ليسوا من موظفي الشركة بالطبع، سيكون هناك الكثير من الأعمال الانتقامية ضد شركة لوران، ولا عناصر محلية كذلك، فهؤلاء تعرفهم الشرطة المحلية، وسيكشف هذا عملية المطاردة، لا. نحن بحاجة إلى عناصر أجنبية من مناطق مجهولة، أو كما تطلقون عليهم أيها الأمريكان «أشقياء» إذا كنت تفهمني يا لويد من الشؤون القانونية، فأولئك الأشقياء هم من يتولون المهام التي لا حل لها.

ـ هل تقصد مرتزقة؟

ـ قطعًا لا، فقد أفلت الرجل الرمادي من كل القتلة المأجورين الذي أُرسِلوا في إثره في الماضي أو قتَلهم. نحتاج تحديدًا إلى وحدات ميدانية، فرق قتل حكومية.

ـ لا أفهم، أي حكومة؟

ـ لدينا مكاتب لفروعنا في ثمانين بلدًا، ولديَّ علاقات جيدة مع رؤساء الأمن الداخلي في بضع عشرات من دول العالم الثالث، هؤلاء يديرون مجموعات من القتلة في بلادهم ليُبقوا مواطنيهم وأعداءهم تحت السيطرة.

توقف ريجيل لحظة متأملًا خطته.

وأكمل: «نعم سأتواصل مع زملائي في مكاتب بالعالم الثالث، في بعض الأماكن الخطيرة، إذ يمكنني أن أعثر على رجال أشقياء بلا ذرة ضمير واحدة، سأتصل بأولئك الرجال، وفي غضون نصف يوم من هذه اللحظة ستحلق عشرات الطائرات قادمة من تلك البلاد، كلٌّ طائرة ستمتلئ عن آخرها بأعنف الرجال وأكبر المسدسات، وسيُطلب

من كل فريق تنفيذ المهمة نفسها، سيتنافس جميعهم على فرصة قتل الرجل الرمادي».

ـ كمسابقة؟

ـ بالضبط.

ـ رائع!

ـ لقد فعلناها من قبل، على مستوى أصغر باعتراف الجميع، لكننا فعلناها، كان لدينا مبرر في الماضي لجمع عدة فرق ليتنافسوا على هدف واحد.

ـ لكنني لا أفهم لماذا قد تساعدنا هذه الحكومات؟

ـ ليست الحكومات نفسها، بل وكالات الاستخبارات. هل تتخيل ماذا ستفعل مكافأة عشرين مليون دولار تضاف إلى خزائن المباحث في دول مثل ألبانيا؟ أو الجيش الأوغندي؟ أو إدارة الاستخبارات الداخلية في إندونيسيا؟ تلك المنظمات تعمل باستقلالية عن رؤساء دولها من وقت لآخر كلما كان هذا يناسب أغراض المنظمة أو قادتها. أعرف أي دول تجيز أجهزة أمنها الداخلي لرجالها القتل مقابل المال. ليس لدي شك في ذلك.

كانت هناك وقفة قبل أن يرد لويد: «فهمت، وكالات الاستخبارات هذه لن تقلق بشأن الانتقام الأمريكي. سيعرفون أن وكالة المخابرات المركزية لن تلاحق قتلة الرجل الرمادي».

ـ لويد، من الوارد أن يخبر الفريق المنتصر وكالة الاستخبارات المركزية نفسها. إنهم يسعون إلى الحصول على مكافأة من الأمريكيين أيضًا. لانجلي تلاحق الرجل الرمادي منذ سنوات. لقد قتل أربعة منهم كما تعلم.

ـ نعم أنا أعرف. تعجبني خطتك يا ريجيل. لكن هل يمكننا فعل ذلك بهدوء؟ أعني، دون تأثير سلبي في مجموعة لوران؟

ـ يحتفظ مكتبي بشركات صورية من أجل إنكار المسئولية. سنستخدم الأطقم الجوية لمجموعة لوران في طائرات تحلق تحت القذائف، لتتسلل على متنها فرق القتل وأسلحتهم إلى القارة. سيكون ذلك مكلفًا، لكن مارك لوران أوصاني بالنجاح بأي وسيلة ممكنة.

لا يمكن إنكار اتصالات ريجيل بالمستويات العليا للشركة، لكن فراسة لويد السياسية دفعته إلى إعادة تأكيد موقفه. فقال: «ما زلت مسؤولًا عن العملية. سأنسق تحركات المراقبين والقتلة. أنت فقط أحضر لي هذه القوة البشرية».

ـ اتفقنا. سأرتب لمسابقتنا الصغيرة، سأجهّز الجميع، لكن سأدعك تقود الفرق. أطلعني على التطورات، ولا تتردد في طلب مشورتي. أنا صياد يا لويد. سيكون صيد الرجل الرمادي في شوارع أوروبا أعظم رحلة استكشافية في مسيرتي».

صمت للحظة. ثم أتبع: «كنت فقط أتمنى لو لم تعبث مع فيتزروي».

ـ اتركه لي.

ـ أوه، لا أنوي غير ذلك بالضبط. سيد دونالد وعائلته مشكلتك وليست مشكلتي.

ـ لا توجد مشكلة على الإطلاق.

9

اعترف جينتري لنفسه أخيرًا بأن حظه بدا كأنه يتغير. بعد أن خرج وهو يعرج شمالًا باتجاه الحدود التركية لمدة أقل من ساعة، التقطته دورية من الشرطة الكردية المحلية. الأكراد في شمال العراق يحبون الأمريكيين، وخاصة الجنود الأمريكيين. افترضوا من إصاباته وزيه العسكري الممزق أنه عامل في القوات الخاصة الأمريكية. ولم يحاول جينتري تغيير افتراضهم هذا.

اقتادوه إلى الموصل، وساعدوه على تنظيف نفسه، وأعادوا تضميد جرح ساقه في عيادة أنشأتها الحكومة الأمريكية. في غضون سبع ساعات من هبوطه من فتحة طائرة دون مظلة على ظهره، وجد القاتل الأمريكي نفسه مرتديًا بنطلونًا ضيقًا وقميصًا من الكتان، على متن طائرة تجارية متجهة إلى تبليسي، بجورجيا.

لم يكن تحسن ظروفه بسبب الحظ وحده، لكن تضمنت إحدى خطط جينتري الاحتياطية أن يجد طريقه للخروج من العراق، وقد استعد لهذا الاحتمال بتزوير جواز سفر ونقود وتأشيرات لجورجيا وتركيا، وغيرها من المستندات الضرورية في سرواله.

لا، لقد استفاد جينتري من الحظ قليلًا من حين إلى آخر، لكنه لم يعتمد عليه. لم يكن شيئًا إن لم يكن رجلا مستعدًا. بعد اجتياز الجمارك الجورجية بجواز سفر كندي يعرّف عن نفسه باسم مارتن بالدوين، صحفي مستقل، اشترى تذكرة إلى براغ، بجمهورية التشيك.

كانت الرحلة التي استغرقت خمس ساعات خالية تقريبًا من أي شيء، وهبط جينتري في مطار روزين بعد الساعة العاشرة مساءً بقليل.

كان يحفظ براغ عن ظهر قلب. عمل هنا مرة واحدة، وغالبًا ما استخدم الضواحي المجاورة مكانًا للاختباء.

بعد أن استقل سيارة أجرة، وركب المترو، سار في الشوارع المرصوفة بالحصى في منطقة ستير ميستو، ثم حجز غرفة في فندق صغير يقع على بعد ربع ميل من نهر فلتافا. قضى فترة طويلة في الاستحمام، ثم جلس أخيرًا لتضميد فخذه، حينئذٍ أصدر هاتف القمر الصناعي في حقيبة ظهره الجديدة صوت تنبيه.

نظر جينتري إلى الهاتف، ورأى أن فيتزروي يتصل به. راح يتحدث مع دون في ذلك الصباح، بينما يواصل تضميد جرح الرصاصة. وبدا غضب جينتري مفهومًا من فريق الإجلاء الذي انقلب عليه.

لم يفكر في احتمال أن يكون السير دونالد نفسه قد أمر رجاله بقتله. لا، لقد كان غاضبًا لأن عملية فيتزروي تعرضت لاختراقٍ واضح، لدرجة أن النيجيريين كان بوسعهم التسلل إلى مهمة قيد التنفيذ، وكادوا يفلحون في تحويل رجال الإنقاذ إلى قاتليه.

عارض فيتزروي جينتري بشدة لمهاجمة أبي بكر بعد وفاة مصدر التمويل، والآن يتساءل جينتري: هل وضع فيتزروي نصف هيكل دعمٍ وسيلةً يُبدي بها احتجاجه؟

أُطلِق على هيكل الدعم المنظم لفيتزروي اسم الشبكة، وكانت الشبكة بمنزلة شريان الحياة الوحيد لجينتري في هذا المجال. تألفت من أطباء شرعيين يضمدون جروح الرجل دون طرح أي أسئلة، وطياري شحن شرعيين يأخذون مسافرًا خلسة دون النظر إلى المعدات الموجودة على ظهره، وأشخاص قانونين يمكنهم طباعة المستندات وتغييرها.

تطول القائمة وتزداد بمرور الوقت، استخدم جينتري الشبكة أقل استخدام ممكن، أقل بكثير من الرجال الآخرين في وكالة فيتزروي. في النهاية كان الرجل الرمادي موظفًا سريعًا وفعّالًا. لكن يحتاج كل

من يعمل في مهنة جينتري الشاقة إلى بعض المساعدة من وقت إلى آخر، ولم يختلف الأمر مع كورت.

عمل جينتري لدى فيتزروي لأربع سنوات، وذلك بعد بضعة أشهر من الليلة التي قررت فيها الاستخبارات المركزية الاستغناء عن خدمات أفضل قاتل لديها وأكثرهم مهارة ونجاحًا. تذكر كورت تلك الليلة، حين عبّروا فورًا عن استيائهم منه بوضع قنبلة في سيارته، وإرسال فريق اغتيال إلى شقته، ومذكرة اعتقال دولية أصدرتها وزارة العدل، ووزعها الإنتربول على كل جهاز أمني في الكوكب.

كان جينتري حينئذ يبحث باستماتة عن عمل لينفق على نفسه، كونه هاربًا من حكومة الولايات المتحدة، ولهذا تواصل مع السير دونالد فيتزروي، ظاهريًّا كان الرجل الإنجليزي يعمل في مجال الأمن، لكن جينتري تعامل مع الجانب المظلم من شركة شلتنهام لخدمات الأمن، في أثناء تنفيذه لعمليات هجوم وتسليم سرية مع إدارة الأنشطة الخاصة في الاستخبارات المركزية. لذلك كان مكانًا مناسبًا لقاتل أصبح لتوه عاطلًا يبحث عن عمل.

ومنذ ذلك الحين ذاع صيته في عالم العملاء المأجورين، بالرغم من أنه ـ عمليًّا ـ لم يكن أحد يعرف اسمه الحقيقي، أو حقيقة أنه يعمل لدى فيتزروي، لكن الرجل الرمادي أصبح أسطورة بين العملاء السريين عبر العالم الغربي.

وكما هو الحال مع أي أسطورة، فقد زادت تفاصيلها وأُثريت أو حتى اختُلقت بالكامل. إلا أن إحدى تفاصيل أسطورة الرجل الرمادي كانت حقيقية، وهي مبدؤه الأخلاقي الشخصي بعدم قبول أي عقد إلا ضد أهداف يرى أنها تستحق الإعدام خارج القانون. كان هذا جديدًا تمامًا على عالم القتلة المأجورين، صحيح أنه عزز سمعتَه، لكن هذا جعله حريصًا للغاية بشأن العمليات التي يوافق عليها.

تولى جينتري أصعب العمليات، ذهب بمفرده إلى أعتى البلدان، وواجه جحافل الأعداء، وأسس ـ باعتراف الجميع ـ سمعة وثروة لا مثيل لهما، ودون أن يظهر في الصورة.

في أربع سنواتٍ نفَّذ اثنتي عشرة عملية على نحو مُرضٍ ضد إرهابيين والجهات التي تمولهم: تجار الرقيق الأبيض، مهرِّبي المخدرات والأسلحة غير القانونية، وزعماء المافيا الروسية. ثمة شائعة بأنه جنى من المال ـ بالفعل ـ ما يزيد على حاجته؛ لذا ساد الاستنتاج بأنه يفعل ما يفعله من أجل رد المظالم، وحماية المستضعفين، وتحويل العالم إلى مكان أفضل بفوهة مسدسه.

كانت الأسطورة خيالًا ولم تكن حقيقة، لكن عكس أغلب الخيالات، كان الرجل الذي تدور حوله هذه الأسطورة حقيقيًّا وموجودًا، أما دوافعه فكانت معقدة خلافًا للقصص الهزلية المثيرة التي نُسِبت إليه، لكن في أعماقه اعتبر نفسه بالفعل أحد الأخيار.

لا لم يكن في حاجة إلى المال، ولم يكن يتمنى الموت أيضًا، كان كورت جينتري هو الرجل الرمادي؛ لأنه آمن بأن هذا العالم به أشرار يستحقون الموت حقًّا.

اصطحب لويد وتابعاه الأيرلنديان المخلصان فيتزروي إلى سيارة ليموزين تابعة لمجموعة لوران، التي سارت في المدينة تحت المطرِ الغزير. لم تكن هناك أي محادثة، جلس فيتزروي في صمت، ممسكًا بقبعته بين ركبتيه، بينما يتأمل الليلة الممطرة عبر الزجاج كرجلٍ مهزوم.

انهمك لويد في هاتفه يرسل ويستقبل مكالمة تلو أخرى، ويتابع باستمرار مع ريجيل، الذي كان يتواصل ـ بدوره ـ مع رجال حول العالم لبدء تنفيذ العملية العاجلة.

وصلت الليموزين إلى فرع مجموعة لوران في المملكة المتحدة بعد الساعة الواحدة صباحًا. يقع مكتبٍ الشركة الفرنسية المحلي في مبنى من ثلاثة طوابق في فولهام. دخل كلٌ من لويد ورجاله وبضاعتهم من البوابة الأمامية، ومروا أمام صفين من الحرس المسلحين، ثم هبطوا عبر الطريق المؤدي إلى مبنى من طابق واحد بجانب مهبط للطائرات.

سيتوفر لك بيت بعد قليل يا سيد دونالد، أعتذر إن لم يرقَ إلى المستوى الذي اعتدته، لكن ـعلى الأقلـ لن تفتقد الصحبة، فأنا ورجالي لن نتركك حتى نسوي الأمور كلها، ويمكننا حينها أن نعيدك إلى شارع بيزووتر، ونتركك حيث أخذناك بعد أن نربت على رأسك الأصلع.

لم يقل فيتزروي شيئًا، بل اتبع الوفد الذي يحاوطه تحت المطر إلى المبنى، حيث عبر رواقًا طويلًا. مر برجلين آخرين، يرتدي كل واحد منهما بذلة، ويقفان في مطبخ صغير، وعلى الفور تعرف إليهما، فهما ضابطا أمن بملابس مدنية، للحظة شعر فيتزروي بومضة من الأمل لاحت على وجهه.

قرأ لويد أفكاره فقال على الفور: «آسف يا سيد دونالد، هؤلاء ليسوا من رجالك، بل بضعة أشقياء من مكتبنا في إدنبره، يدين هؤلاء الأسكتلنديون بالولاء لي وليس لك».

واصل فيتزروي المضي إلى القاعة، وتمتم: «أنا أعرف ألف شاب من هذا القبيل، هؤلاء الرجال ليس عندهم ولاء، إنهم ينضمون إليك من أجل المال، وسينقلبون عليك إذا كان السعر مناسبًا».

مرر لويد بطاقة فوق آلة المرور الإلكترونية بجانب آخر باب في القاعة وهو يقول: «حسنًا، من حسن حظي أنني أدفع جيدًا».

كانت قاعة اجتماعات كبيرة، فيها طاولة مصنوعة من خشب البلوط، ومقاعد بظهور عالية، وجدران مبطنة بشاشات مراقبة مسطحة وأجهزة كمبيوتر وشاشة (إل سي دي) كبيرة تعرض خريطة أوروبا الغربية.

قال لويد: «لماذا لا تترأس الطاولة بما أنك حاصل على لقب فارس نبيل؟ أعتذر لأننا لم نتمكن من توفير طاولة مستديرة، لم نوفق سوى في شراء هذه الطاولة البيضاوية». قهقه الأمريكي على مزحته.

وقف فردا الأمن الأسكتلنديان بالقرب من الباب، وتمركز الأيرلنديان الشماليان في زوايتين. دخل رجل أسود نحيف يرتدي بذلة بنية كستنائية وجلس إلى الطاولة وأمامه زجاجة ماء، فسَّر لويد الأمر قائلًا: «السيد فيليكس يعمل لصالح الرئيس أبي بكر». كان تقديمًا مختصرًا. وأكمل: «إنه هنا للتحقق من أننا قتلنا الرجل الرمادي».

أومأ السيد فيليكس برأسه إلى فيتزروي عبر الطاولة.

تشاور لويد مع شاب يربط شعره على هيئة ذيل حصان، ويضع حلقًا في أنفه، وتعكس نظارته ذات الحافات السميكة الضوء من أجهزة الكمبيوتر الموجودة على المكتب أمامه. نظر إلى لويد هامسًا، فالتفت لويد إلى السير دونالد وقال: «كل شيء له موعد محدد. سيكون هذا الرجل مسؤولًا عن جميع الاتصالات بيني وبين المراقبين والصيادين. سنسميه الفني».

وقف الشاب، ومد يده بأدب كأنه لا يعرف أنه يتعرف إلى إحدى ضحايا الاختطاف، فالتفت فيتزروي بعيدًا.

عندئذٍ تلقى الفني مكالمة في سماعة رأسه. تحدث بهدوء إلى لويد بلهجة بريطانية، فأجاب لويد: «ممتاز، أرسل دعمًا إلى هناك على الفور. حدد موقعه».

ابتسم لويد في وجه فيتزروي: «لقد حان الوقت لقليل من الحظ لي، شوهد جينتري في تبليسي، يستقل طائرة متوجهة إلى براغ. لقد هبطت الرحلة بالفعل؛ لذا لا يمكننا تتبعه من المطار، لكنْ لدينا رجال يفحصون الفنادق. نأمل أن يكون لدينا فريق ناجح هناك في انتظاره عندما يستيقظ في الصباح».

بعد مرور ساعة جلس لويد في مواجهة فيتزروي على الطاولة، كانت الأضواء خافتة، ووضع الفني وراء الأمريكي إضاءة خلفية، ثم دارت كاميرا معلقة بالسقف لتواجهه، وعرضت الشاشة صورة ظلية للويد غير واضحة تمامًا لدرجة أن المحامي الشاب اضطر إلى رفع ذراعه في الهواء ملوحًا للتحقق من أنه كان ينظر إلى نفسه بالفعل.

بعد ذلك، ظهرت شاشات (إل سي دي) بطول الجدار عبر الطاولة واحدة تلو أخرى، في الجزء السفلي من كل شاشة عنوان وتوقيت محلي.

اتصلت لواندا[1] وبوتسوانا أولًا بالإنترنت. جلس أربعة رجال في غرفة اجتماعات مماثلة لتلك الموجودة في إنجلترا. كانت مضاءة من الخلف وفي صورة ظلية على غرار لويد. ثم ظهرت جاكرتا، بإندونيسيا. هذه المرة، كان هناك ستة أشخاص دُكن البشرة يجلسون جنبًا إلى جنب على طاولة وينظرون إلى الشاشة. ثم طرابلس في ليبيا.

بعد دقيقة كاراكاس في فنزويلا، وبريتوريا في جنوب إفريقيا، والرياض في المملكة العربية السعودية، أضاءت كلها في وقت واحد. في غضون الدقائق الخمس التالية، كان البث يعمل من ألبانيا وسريلانكا وكازاخستان وبوليفيا. استغرقت مدينة فريتاون في سيراليون دقيقة أخرى حتى يتمكن الفني من توصيلهم، أخيرًا ظهر الإرسال من كوريا الجنوبية.

جلس رجل آسيوي على المكتب بمفرده. هذه هي فرق القتل الحكومية التي جهزها كيرت ريجيل للمطاردة. لقد تحدث ريجيل بالفعل إلى رئيس وكالة كل فريق، لذلك رفض التحدث إلى العملاء مباشرة. إنها مهمة لويد، كما قال ريجيل، كان فقط يساعد في الترتيبات والاستشارات.

---

(1) : عاصمة أنجولا.

قبل اتصال الصوت بالإنترنت، نادى لويد الفني عبر الغرفة: «أين باقي الكوريين؟». قرأ الفني ورقة على مكتبه بسرعة ثم قال: «لقد أرسلوا رجلًا واحدًا فقط. لا أظن أن الأمر يهم، فالإجمالي لدينا أكثر من خمسين رجلًا من مجموع الفرق الاثنتي عشرة».

أكد الفني للويد أن صوته سيتغير عبر كل الأجهزة والبرامج لتجهيله تمامًا. بعد لحظة أخيرة فحص فيها الفني اتصال الصوت مع المترجمين، الذين يجلسون بعيدًا عن الكاميرا في كل موقع يحتاجون إليه، تنحنح لويد، وأظهرت صورته الظلية يده إذ يضعها على فمه ثم ينزلها.

وقال: «أيها السادة، أعلم أنكم قد اطلعتم بشكل عام على المهمة التي نكلفكم بها، إنها بسيطة للغاية حقًّا. أحتاج إلى العثور على رجل، لكن هذه ليست مشكلتكم. لديَّ ما يقرب من مائة من فناني الأرصفة، إما متأهبون أو يمشطون بالفعل مسرح العمليات في هذه اللحظة تحديدًا. وما إن نعثر عليه، أحتاج إلى القضاء عليه، سيكون هذا هدفكم».

تغيرت الصورة في الشاشات في اثني عشر موقعا متفرقًا، وظهرت على الشاشة صورة ملونة لرجل حليق الذقن، يرتدي معطفًا رياضيًّا، ونظارة بإطار سلكي. أخذها لويد من جواز سفر مزور في ملف وكالة الاستخبارات المركزية.

ثم أكمل: «هذا هو الرجل الرمادي، كورت جينتري، التقطت صورته المعروضة أمامكم قبل خمس سنوات. لا أعرف كيف غيَّر مظهره. لا تدع حياته الطبيعية تخدعك. لقد كان أفضل قاتل عمل في وكالة الاستخبارات المركزية على الإطلاق».

تمتم شخص ما بشيء ما باللغة الإسبانية. فهم لويد كلمة واحدة فقط: «ميلوسيفيتش».

فقال: «نعم، كنت أتوقع أن بعضكم قد يعرف هذا الرجل بالفعل من خلال سمعته. تكثر الشائعات حول عملياته. يقول البعض إنه

قتل ميلوسيفيتش، والبعض يقول إنه لم يفعل. يقول البعض إنه كان مسؤولًا عن الأحداث في كييف العام الماضي. أغلب العقول المنطقية تحسب هذا مستحيلًا. ومع ذلك، فأنا أعرف ما يكفي عن العمليات المحددة التي نفذها، سواء مع الحكومة الأمريكية أو لحسابه الخاص، لأؤكد لكم أن السيد جينتري هو أروع عميل منفرد ستواجهونه على الإطلاق».

تحدث صوت جديد مجهول: «يبدو مخنثًا».

من اللكنة؛ حول لويد انتباهه على الفور إلى بث جنوب إفريقيا.

تردد صدى صوت لويد المجهَّل عبر مكبرات الصوت: «هذا المخنث سيمشي نحوك مباشرة، ويدس مخرز ثلج بين ضلوعك، ويفرقع رئتيك، ويقف فوقك، بينما تختنق حتى الموت في دمائك». كان هناك غضب في صوت المحامي الأمريكي. وأتبع: «اقتله، وبعد ذلك يمكنك أن تخبرني أي مزحة سخيفة هو، ولكن حتى تقتله فلتحتفظ بتعليقاتك الصبيانية لنفسك».

صمت بث جنوب إفريقيا.

تابع لويد وهو لا يزال يحدق إلى الصور الظلية التي تُبَث من بريتوريا: «الرجل الرمادي مُدَّرب على القنص لمسافات طويلة، وعلى المعارك القريبة، والقتال بالأسلحة البيضاء، وكراف ماغا[1]، فنون الدفاع عن النفس التي تستخدمها القوات الخاصة الإسرائيلية. يمكنه القتل بسلاح طويل أو سلاح قصير أو دون سلاح على الإطلاق. يمكنه أن يقضيَ عليك على بعد ميل، أو يمكن أن تموت وأنفاسه في أذنك. لديه

(1) فن قتالي للدفاع عن النفس يرجع أصله إلى قتال الشوارع الذي استُخدم للدفاع عن الحي اليهودي ضد الجماعات الفاشية في تشيكوسلوفاكيا في ثلاثينيات القرن الماضي. ثم طوره جيش الدفاع الإسرائيلي، ويضم تقنيات من الملاكمة والمصارعة والجودو والأيكيدو والكاراتيه. (المترجم)

تدريب مكثف على استخدام الذخائر المتفجرة وحتى السموم. هناك شائعة تدور في وكالة الاستخبارات المركزية مفادها أنه في لاهور بباكستان استخدم نبلة لقتل هدف في مطعم، دون أن يلاحظ أحد من العناصر الأمنية المرافقة للهدف».

توقف لويد للحظة، ثم أكمل: «كان جينتري على الطاولة المجاورة، وواصل تناول وجبته، بينما سقط الهدف ميتًا. ما إن ننتهي، ستصعدون جميعًا على متن الطائرات. سنرسل عشرات الفرق في اثنتي عشرة طائرة إلى اثني عشر مطارًا على طول الطريق الذي نتوقع أن يسلكه جينتري عبر أوروبا في الثماني والأربعين ساعة القادمة. سأشرف على التحركات، وأتولى التنسيق بينها من هنا، وسأنقل أي معلومات استخبارية قد أحصل عليها. سيحصل كل فريق يشارك في الصيد وينجو على مليون دولار، بالإضافة إلى أي نفقات يتكبدها. سيحصل الفريق الذي يقتل جينتري على مكافأة قدرها عشرون مليون دولار».

سأل رجل بصوت إفريقي جهوري: «ماذا ستفعل أمريكا إذا قتلناه؟».تحول لويد إلى البث القادم من سيراليون، لكنه لم يكن واثقًا. قال: «لقد ناقشنا هذا مع قادة منظماتكم. هذا الرجل محكوم عليه بالموت بالفعل من حكومة الولايات المتحدة، وهناك عقوبة في وكالة الاستخبارات المركزية تقضي بقتل المُدان عند رؤيته. ليس لديه أصدقاء ولا عائلة مقرّبة. لا أحد على هذه الأرض سيبكي عليه عندما يموت».

بعد ذلك تحدث شخص ما بلغة آسيوية، وعندما انتهى سأل المترجم: «أين هو الآن؟».

أجاب: «لقد طار إلى براغ الليلة الماضية. عملاؤنا يسألون عنه في الفنادق، لكن لا توجد طريقة لمعرفة ما إذا كان لا يزال هناك».

سأل أحدهم: «أي فريق سيذهب إلى براغ؟». أجاب: «الألبان، هم الأقرب».

صرخ الإفريقي الجنوبي: «هذا ليس عادلًا!». خلع لويد نظارته في الصورة الظلية، وفرك أرنبة أنفه ثم قال: «مع احترامي للألبان، لكنني لا أعتقد أن أول فريق سيواجه سيكون هو الذي سيقضي عليه».

كان هناك تذمر في البث الألباني، ولكن سرعان ما أُخمِد مع الهسهسة.

ثم أكمل: «سنقتل جينتري في اليومين المقبلين، نعم. لكن من المحتمل أن نفعل ذلك بالاستنزاف. قد يموت الكثير منكم». توقف للحظة في محاولة مصطنعة ليبدو كشخص يكترث بهذا. وقال: «ومع ذلك، لسنا على يقين من أن الألبان سيواجهونه أولًا. ربما يتحرك غربًا عندما تهبط طائرتكم. إذا حدث. إذا اقتفينا أثره بعد براغ، فسنعيدكم إلى طائرتكم، وستتخذون نقطة رصد جديدة أقرب إلى الوجهة النهائية. ما من ميزة في الوجود أقصى الشرق أؤكد للجميع».

استقام لويد على كرسيه. بدت صورته الظلية نحيفة لكنها رياضية. وقال: «اسمحوا لي أن أنهي بقولي هذا. افعلوا ما يلزم لإنجاز المهمة. لا أعبأ كثيرًا بالأضرار الجانبية. إذا كنتم لا تتحملون قتل بعض الأطفال أو المتقاعدين أو الجراء، فلا تصعدوا على متن طائرتي. مهمتكم هي قتل كورت جينتري. افعلوا ذلك تجنوا الملايين لمنظمتكم، وستشكركم وكالة الاستخبارات المركزية. وإذا فشلتم، فعلى الأرجح فستموتون على يده. وستنالون ما يكفي من التقدير لمحو مخاوفكم من أي شيء آخر. أي أسئلة؟».

لم تكن هناك أسئلة.

فاختتم: «إذًا أيها السادة. لقد بدأت المهمة».

***

في الساعة الثانية صباحًا، عرض ضابط أمن في مجموعة لوران، من مزرعة ضخمة تابعة للشركة في برنو بجمهورية التشيك، صورة جينتري لموظف مكتب فندق هادئ، في مبنى ضيق من أربعة طوابق في أحد

النُّزُل بستير ميستو في البلدة القديمة ببراغ. أطال الرجل العجوز الذي يقف خلف منضدة الاستقبال بالفندق النظر في الصورة، وقال إنه لا يستطيع التأكيد، ولكن بعد أن دفع الشخص الغريب ذو النظرات الثاقبة خمسمائة كرونة غيَّر العجوز نبرة حديثه.

كان على يقين من أن الرجل الحليق في الصورة والسائح الملتحي في غرفته العلوية هما نفس الشخص.

اتصل عميل المراقبة بلويد على الفور. كان موظفًا في مجموعة لوران، وقد أمر لويد بشكل صارم أن يُبعد موظفي الشركة عن أي إجراء مباشر، لذلك أمره لويد بالعودة إلى المنزل.

قال لويد: «هناك فريق في الطريق».

ـ إذا كنت تريده ميتًا، فسأفعل ذلك مقابل مائة ألف كرونة.

ضحك لويد في الهاتف وقال: «لا، لن تفعل».

ـ هل تقول إنني لا أستطيع التعامل...ـ نعم. هذا بالضبط ما أقوله.

ـ وغد أمريكي.

ـ أنا الوغد الأمريكي الذي أنقذ للتو حياتك التشيكية التافهة. اذهب إلى المنزل، وانسَ الأمر. ستحصل على مكافأة نظير عملك الجيد.

ـ كم أكره الأمريكان!

راح لويد يضحك بصوتٍ عالٍ عندما انقطع الخط.

10

استيقظ جينتري في الخامسة صباحًا، ظل جرح الرصاصة يخفق ويحرقه، لم ينعم بنوم هادئ الليلة على الإطلاق. اعتدل في جلسته ببطء وصعوبة، وانحنىً للأمام يمُط أسفل ظهره وأوتار ركبته، وانثنى بقوة للجانبين، أراد أن يمضي اليوم في التحرك. لم يحدد وجهته بعد، لكنه أدرك أنه كلما أسرع بمغادرة الفندق كان هذا أفضل.

بعد زيارة سريعة للحمام ليقضي حاجته، ويفحص ضمادة جرح ساقه، ارتدى الملابس نفسها التي كان يرتديها في الليلة الماضية، ثم تطلع عبر النافذة متفحصًا إذا ما كان أحد يراقبه، فلم يعثر على ما يثير القلق. هبط الدرج، وغادر المبنى في الساعة الثانية وخمسٍ وعشرين دقيقة.

حدد في عقله قائمة مهام، كانت المهمة الأولى أن يذهب إلى مخبأ أسلحة هنا في براغ ليحصل على مسدس صغير. لن يطير مرة أخرى، لم تكن الرحلات الجوية في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة مألوفة له. كره كورت تجرده من السلاح، فلم يكن يستقل الطائرات التجارية إلا مضطرًا، ولم يسافر سوى اثنتي عشرة مرة في السنوات الأربع الأخيرة. والآن وبينما يسير في شوارع براغ الحجرية الخالية، شعر بأنه عارٍ، لم يعوضه عن أسلحته سوى مطواة في حزامه اشتراها من ضابط كردي. كانت أفضل من لا شيء، ولكن أقل من أي نوع من الأسلحة النارية.

سيتعين عليه الخروج من البلد بعد أن يحصل على سلاحه من المخبأ، ويشتري دراجة نارية رخيصة، ثم ينطلق خارج براغ. ربما يقضي أسبوعًا أو نحو ذلك متنقلًا من قرية إلى أخرى في جمهورية

التشيك أو سلوفاكيا، كان يأمل أن يبقيه ذلك في أمان لحين مغادرة الرئيس النيجيري قصر الرئاسة، وأن يتركه في سلام.

لا أحد يستطيع التخفي بمهارة وسرعة مثل ذلك الأمريكي ذي الستة وثلاثين عامًا.

وبينما يمشي كورت باتجاه محطة المترو، قرر أن يضع في مقدمة أولويات قائمة مهامه أهم أمر علي الإطلاق. اشتم رائحة قهوة طازجة تنبعث من مقهى صغير كان قد فتح لتوه، وفي تلك اللحظة شعر أنه بحاجة إلى القهوة بقدر حاجته إلى مسدسٍ.

لكنه كان مخطئًا.

ملأ الضباب الكثيف الشارع أمام المقهى، وبدأت تُمطر عندما ارتقى كورت بضع درجات إلى المطعم الصغير. كانت الساعة الخامسة والنصف، وشعر أنه أول زبائن المكان. كان كورت يعرف من اللغة التشيكية ما يكفي ليُحَيي الفتاة الواقفة خلف منضدة الحساب. أشار إلى وعاء يتصاعد منه البخار وفطيرة كبيرة، وراح يشاهد الفتاة النحيفة الشاحبة تصب له كوبًا علته الرغوة، مليئًا بالقهوة الغنية السوداء، ووضعت إفطاره في حقيبة.

في تلك اللحظة دق جرس الباب خلفه، التفت للخلف ورأى ثلاثة رجال يدخلون، ويغلقون مظلاتهم، وينفضون عن معاطفهم مياه المطر. بدوا محليين، لكن كورت لم يستطع التأكد، رمقه الرجل الأول بينما يأخذ جينتري ما اشتراه باتجاه طاولة صغيرة، ومعه حليب وسكر ليضيفهما إلى قهوته.

نظر كورت إلى منشور ورقي معلق خلف زجاج على الحائط يروج لقراءة شعرية، وسرح ببصره في النافذة على يمينه، باتجاه الشارع المظلم والغارق في المطر.

خرج بعد ثوانٍ قليلة متجاهلًا الأمطار، وسار نحو محطة المترو في ماستِك. لم يكنْ هناك مشاة آخرون حوله بفضل البرد والمطر والوقت

المبكر. لم يتأفف كورت من الهواء المتجمد، بل استحسن قدرته على حقن الحياة في عضلاته المنهكة ورأسه المرهق. كان هناك عدد قليل من شاحنات التوصيل، نظر جينتري عبر الزجاج الأمامي المبلل لكل شاحنة تمر، ثم عثر على مدخل المترو، فنزل على الدرجات شديدة الانحدار.

تكيفت عيناه المرهقتان ببطء مع الإضاءة الكهربائية العالية حوله، والبلاط الأبيض البارد الذي يعكسها لأعلى. اتبع الإشارات أسفل نفق متعرج باتجاه القطارات. قاده سلم متحرك آخر إلى عمق أكبر أسفل المدينة النائمة، وقاده منعطف آخر إلى مسافة أبعد في أعماق محطة المترو ذات الإضاءة الساطعة.

سرعان ما انعطف إلى اليمين، ومر بصندوق قمامة. ألقى فيه قهوته التي لم يمسها، وحقيبة المعجنات الخاصة به. ثم اتجه إلى اليمين وسار خطوتين أخريين، وتوقف.مكتبة سُر مَن قرأ

ثنى عضلاته بسرعة؛ ذراعيه وظهره وساقيه ورقبته وحتى فكه المتوتر. ثم مد يده إلى حزام خصره ليسحب مطواته، نفضها ليفتحها، فعل هذا بسرعة وكفاءة مذهلتين، ثم استدار إلى الخلف، وخطا خطوة واحدة إلى الوراء في الطريق الذي جاء منه، وقفز في الهواء ليقطع أكبر مساحة ممكنة من الأرض بأقصى سرعة، ليهوي بالشفرة ذات البوصات الثلاث بعمق في حلق الرجل الأول الذي كان يتبعه.

كان رجلًا ممتلئًا وقويًا وطويلًا وعريضًا. قبضت يده اليمنى المكتنزة على مسدس آلي من الفولاذ المقاوم للصدأ. أمسك جينتري بكعب المسدس ووجّه فوهته إلى الأسفل وبعيدًا، خشية أن تتسبب تشنجات الرجل المحتضر في إطلاق النار.

لم يستغرق كورت الكثير من الوقت في النظر إلى عيني الرجل عريض الفكين، فلو فعل لرأى الصدمة والذهول قبل هجوم الذعر والألم، بدلًا من ذلك دفعه الرجل الرمادي إلى زاوية النفق في الخلف

ليصطدم بثاني القتلة المحتملين، أمسك بهذا الرجل الذي كان يحاول تبديل الأدوار وسحب مسدسه. قبض كورت على المطواة بيده اليمنى. كانت لا تزال عالقة في حلق الرجل الأول، فاستخدمها لدفع الأول إلى الثاني، واستخدم يده الأخرى لينتزع المسدس الذي في قبضة المحتضر الأول.

لم يتحرر المسدس، لكن استطاع كورت أن يرى الرجل الثالث الواقف خلف الرجل الثاني في أثناء سقوطه، وكان مسدس الثالث يرتفع استعدادًا لإطلاق النار. وضع جينتري رأسه في صدر الرجل غارزًا المطواة في حلقه، ودفعه على المأجور الذي يهوي أرضًا، وانطلق في إثر الرجل الأخير.

هزّت طلقة ناريّة النفق المكسو بالبلاط بصوتٍ يصم الآذان، وتضخّم ضجيج الانفجار الذي امتد بفعل السقف المنخفض والممر الضيق.

شعر جينتري بالرصاصة ترتطم بظهر الرجل الملطخ بالدماء بين ذراعيه، دوت رصاصة أخرى وثقبت شريك كورت في الرقصة. كان الأمريكي لا يزال يدفع الرجل إلى الوراء، وفي النهاية دفعه بأقصى قوة ممكنة. وعندما ألقى جثة العميل الدامية على الرجل الثالث، أخرج جينتري المطواة من حلقه ووصل أخيرًا إلى المسدس الذي يُحكم عليه قبضته الميتة.

استطاع أن يمسك بالمطواة، لكن الجثة اصطدمت بالعميل الثالث بيده الميتة التي لا تزال تمسك المسدس بقوة.

الآن يقف جينتري بين قاتلَين حيَّيْن، كلاهما مسلح، كل منهما على بعد أقل من عشر أقدام منه. خلف كورت كان المسلح ملقى على الأرض. من المؤكد أنه كان يزحف ليتمكن من التصويب، أمام كورت الرجل الذي كان لا يزال واقفًا، والآن يدفع شريكه الذي يتقيأ دمًا بعيدًا عن طريقه حتى يتمكن من إعادة التصويب على هدفه.

نفض كورت مطواته فأمسك بالشفرة، وسرعان ما ألقاها نحو المسلح الواقف. ضُرب النصل بشكل مثالي، ودُفِن في محجر عين الرجل اليسرى. تدفق الدم، وأسقط العميل مسدسه ليضع كلتا يديه على المطواة، ثم سقط على ركبتيه.

لم ينتبه جينتري إلى الخطر المحدق به من الخلف، بل تقدم إلى الأمام بذراعين ممدودتين، في محاولة يائسة لوضع يديه على السلاح الناري. وقبل أن يصطدم بالأرض، اخترقت رصاصة أخرى الممر. لم يشعر بأي تأثير، حيث افترض أن العميل الذي يقف خلفه كان يستهدف ظهره، لكنه أخطأ بسبب قفزته على الأرض.

ارتطم كورت بالبلاط البارد وانزلق إلى الأمام، ثم رفع مسدس المسلح الثالث. كان الرجل الذي غُرزت المطواة في عينه قد جثا على ركبتيه، يحتضر، ولكنه لم يمت بعد، ويصرخ بشدة. استلقى جينتري على ظهره بجانبه، واستدار لإطلاق النار على آخر عدو لا يزال في القتال. كان لهذا الرجل نصف فرصة لإطلاق النار لكنه تردد، إذ كان كورت يقف بجانب شريكه.

ومع ذلك، لم يتردد الرجل الرمادي، وأطلق رصاصة تلو الأخرى في أثناء انبطاحه على الرجل المسلح بين ساقيه الممدودتين، وشاهده وهو يترنح ويسقط ميتًا. عندما تأكد كورت أن الرجل الوحيد على قيد الحياة هو الرجل المصاب بجانبه والمطواة في عينه، وضع فوهة المسدس في صدغه، وضغط على الزناد دون تردد.

وقف الأمريكي فوق جثث ثلاثة رجال ممددة في الممر الأبيض الساطع. تلطخ الحائط ببقع الدم، وتسربت من الجثث بِرك من الدماء بلغت قدميه. شعر بصفير في أذنيه وألم نابض في جرح فخذه.

لقد كشفوا أنفسهم في المقهى. أدرك أنهم عملاء فيما يزيد قليلًا على ثانية واحدة عندما دخلوا من الباب، ولاحظ وميضًا لا لبس فيه على وجه الرجل الأول عندما ألقى نظرة على جينتري.

بعد التحقق من التهديد الذي يمثله هؤلاء الرجال الثلاثة، شاهدهم كورت في انعكاس لمنشور قراءة الشعر، في انعكاس نوافذ المقهى، وفي الشارع في الزجاج الأمامي للسيارات القليلة التي كانت تمر، وفي السلم المؤدي إلى المترو، شعر بهم يقتربون، ثم اقتربوا أكثر في النفق، وعندما بلغ المنعطف الأخير قبل القطارات، كان يعلم أن الوقت قد حان للعمل.

كان كورت أسرع، وأفضل تدريبًا، وأكثر برودًا، ولكن عندما وقف فوق الجثث الثلاث، تأكد أن هناك مبررًا واحدًا فقط لذبحهم هكذا، وواصل نبضه المتسارع ضخ الدم.

يا لسوء الحظ التَّعس!

لقد قرر هؤلاء القتلة التوقف لتناول القهوة قبل أن يتمركزوا خارج فندقه، وصادف وجود كورت في المقهى عندما وصلوا إلى هناك. وحدثت كل الأشياء الأخرى بعد ذلك تباعًا.

كان كورت محظوظًا، ويعلم أن الحظ السعيد مكسب. لكنه يعلم أيضًا أن حظه قد يتبدل في لحظة. فالحظ عابر، ومتعسف، ومتقلب.

نبش كورت في الجثث بسرعة ودون ذرة ندم. فهو يعلم أن أوائل ركاب الصباح سيظهرون قريبًا، وإما سيتجهونَ نحو القطارات أو سيهربون منها. بعد أقل من ثلاثين ثانية من آخر طلقة نارية، كان مع الرجل الرمادي مسدس تشيكي الصنع، ومجموعة صغيرة من اليورو والكرونه.

بعد دقيقة واحدة، كان قد عاد إلى الشارع، وارتدى سترة قماشية أخذها من أحد الرجال، في حين تكفلت الأمطار بإخفاء الدماء عن سرواله البني. مشى تحت الضباب، بخطى حثيثة، لكن من دون تسرع، نحو محطة للحافلات بالقرب من جسر تشارلز. كان يعرج قليلًا في أثناء مشيه، لكن لم يميزه شيء آخر عن الحشود المتزايدة من الناس في الشارع، حيث كان كل منهم يبدأ تنقلاته اليومية.

***

عُرِض على فيتزروي غرفة صغيرة مع سرير نقّال، لكنه رفض، وكان يغفو غفوات متقطعة في غرفة الاجتماعات على كرسي دوّار عالي الظهر.

انتقل الفني من جهاز إلى آخر بهيئته المنحنية، وأجرى لويد مكالمة تلو الأخرى على هاتفه المحمول، بينما وقف رجال الأمن خارج الغرفة وداخلها طوال الليل.

في السادسة والنصف استيقظ السير دونالد، واحتسى القهوة السوداء حين نادى الفني لويد عبر الغرفة: «سيدي. الألبان لم يسجلوا وصولهم».

جلس لويد على كرسي مقابل فيتزروي يشرب القهوة ويحدق إلى خريطة براغ. نظر إلى رجله، ثم هز كتفيه وزم شفتيه. «يصعب تسجيل الوصول عندما تكون ميتًا».

كان الفني ما زال متفائلًا: «لا يمكننا التحقق بعد».

لم يكن لويد ينصت، في الغالب يتحدث إلى نفسه. قال: «سقط واحد، تبقى أحد عشر. هذا سريع».

ابتسم فيتزروي وهو يشرب فنجان قهوته، ولاحظ لويد ذلك. نهض واقفًا على قدميه، ودار حول الطاولة المصنوعة من الماهوجني، وجثا أمام السير دونالد ثم قال بصوت خفيض: «قد نبدو أنا وأنت خصمين، لكن لدينا الهدف نفسه هنا. إذا كنت تحتفل سرًّا بانتصار الرجل الرمادي، فتذكر أنه كلما اقترب من هدفه زادت المخاطر. وكلما اقترب من قبره كان ذلك أفضل لك ولابنك ولزوجة ابنك وبنتيك الصغيرتين الغاليتين».

تلاشت ابتسامة السير دونالد.

بعد أكثرٍ من ساعة، رنَّ هاتف فيتزروي المتصل بالقمر الصناعي. صمت كلٌ من لويد ورجاله على الفور، وبعد الرنة الثالثة مباشرة ضغط السير دونالد على مكبر الصوت:

ـ كورت؟ كنت أحاول الاتصال بك، كيف حالك؟

ـ ماذا يجري بحق الجحيم؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ فرقة قتل أخرى حاولت القضاء عليَّ لتوها.

ـ أنت تمزح.

ـ هل أمزح؟

ـ لا يبدو هذا على الإطلاق. من كانوا؟

ـ أنا واثق أنهم لم يكونوا نيجيريين. ثلاثة رجال بيض، بدوا من وسط أوروبا. لم يتسنَّ لي التحقق من وثائق هوياتهم، كانوا ماهرين، ربما لم يحملوها على أي حال.

ـ لا بد أن أبا بكر ما زال يستخدم مأجورين. ليس غريبًا بالنظر إلى موارده الواسعة. هل أصبت على أي نحو؟

ـ نعم، أنا كذلك، ولكن ليس بسبب المهرجين. لقد تلقيت رصاصة في فخذي في الطائرة صباح أمس.

ـ تعرضتَ لإطلاق نارٍ؟

ـ لا يهم.

أخذ لويد المفكرة سريعًا، وراح يدوِّن هذه المعلومات.

ـ يا بني، كانت هناك تعقيدات.

ـ تعقيدات؟ اضطررتُ إلى القضاء على ثمانية رجال في الثماني والعشرين ساعة الماضية؛ بسبب بعض الخرق في شبكتك. أنت محق تمامًا بحق الجحيم كانت هناك تعقيدات!

ـ النيجيريون يعرفون أنك تعمل لديَّ.

توقف الاتصال بالقمر الصناعي للحظة. أخيرًا قال جينتري: «تبًّا يا دون! كيف حدث ذلك؟».

ـ كما قلتُ، تعقيدات.

ـ إذًا فأنت أيضًا في خطر مثلي، إنها مسألة وقت قبل أن يصلوا إليك.

بدا صوت الشاب قلقًا.

ـ لقد فعلوا ذلك بالفعل.

بعد صمت للحظات: سأله: «ماذا حدث؟».

أجاب: «لديهم عائلتي. ابني وزوجته وحفيدتايَ».

قال كورت بهدوء: «التوأمان؟».

ـ نعم. إنهم يحتجزونهم في فرنسا، ويقولون إن عليَّ أن أسلمك وإلا فسيقتلونهم. قبل ثلاثين دقيقة منحوني ثماني وأربعين ساعة لآتي بك حيًّا أو ميتًا. لديهم فِرق تبحث عنك، لكنهم يريدونني أن أقدم لهم معلومات عن مكانك.

ـ وهو ما فعلته على ما يبدو.

ـ لا يا بني، أنا لم أنطق، لقد كُشِفت في العراق بطريقة ما، رآك عميل نيجيري تستقل الطائرة في تبليسي. لم أخبرهم بشيء، ولا أنوي ذلك.

ـ وماذا عن عائلة ابنك؟

ـ أنا لا أسلِّم رجالي، أنت أيضًا من عائلتي.

تحوّلت تعبيرات وجه فيتزروي إلى اشمئزاز مؤلم من كلماته، لكنَّ عيني لويد اتسعتا بشكل كبير في دهشة من قدرة الرجل الإنجليزي الأكبر على التملق والخيانة في وقت واحد. كان فيتزروي يعزف ببراعة على ما تبقى من مشاعر قاتله. لكن لويد كان يحفظ ملف جينتري عن ظهر قلب، وكان يعلم ما سيحدث بعد ذلك.

ـ أين يحتجزونهم؟

ـ في قصر في نورماندي، بفرنسا، شمال بلدة بايو.

ـ منحوك ثماني وأربعين ساعة؟

ـأقل من ثلاثين ساعة. الموعد النهائي في الثامنة من صباح يوم الأحد. يقولون إن لديهم صلات بالشرطة الوطنية الفرنسية؛ أي تلميح إلى عملية هجومية على موقعهم سيؤدي إلى مذبحة.

ـنعم، رجال الشرطة لن ينفعوا في شيء. لديّ فرصة أفضل إذا ذهبت بمفردي.

ـكورت، لا أعرف ما الذي تفكر فيه، لكن من الخطر الشديد عليك أن تحاول أي...

ـدون، ثق بي. أفضل ما يمكنني فعله هو الوصول إلى هناك وتنظيف هذه الفوضى بنفسي. أريدك أن تعطيني كل المعلومات الممكنة عن هيكل قوتهم، لا تفصح عن أي معلومة عني، وسأستعيد عائلتك.

ـكيف؟

ـبطريقة ما.

هذه المرة كان دور السير دونالد للتوقف. فرك عينيه بأصابعه الغليظة وقال ببطء: «سأظل مدينًا لك إلى الأبد يا فتى».

قال: «كل شيء في وقته يا رئيس». ثم انقطع الخط.

لوَّح لويد بقبضته في الهواء انتصارًا. والتفت إليه فيتزروي قائلًا: «سأحضر لك الرأس الذي تبحث عنه، لكن عليك الالتزام بالصفقة حتى نهايتها».

سير دونالد، لا شيء يسعدني أكثر من أن أسحب رجالي وأتركك أنت وعائلتك وشأنكم.

11

عمل كورت جينتري عميلًا خاصًا لأربع سنوات، قبل ذلك كان في جولف سييرا أو ما يعرف بفرقة الأشقياء، وقبل هذا كان ينفذ عمليات بمفرده لصالح الاستخبارات الأمريكية، على الرغم من وجود بعض عملاء الوكالة شديدي الذكاء، فإن جينتري أمضى أغلب حياته بمفرده.

طوَّر ـ بلا شك ـ العلاقات اللازمة لإجراء مهامه في فترة اختبائه، لكن هذه المعاملات كانت عابرة وقائمة على مجموعة من الأكاذيب.

كانت حياته تزدهر في البرد. لم تكن هناك سوى فترة واحدة في الستة عشر عامًا الماضية لم يكن فيها كورت قاتلًا، ولم يكن جاسوسًا، أو شخصية غامضة تتحرك داخل المشهد وخارجه. قبل ذلك بعامين، ولأقل من شهرين، عيَّن فيتزروي الرجل الرمادي في وظيفة مميزة تمامًا عن أي شيء آخر في سيرته الذاتية، إذ تولى كورت منصبًا في الحماية الشخصية القريبة، إذ عمل حارسًا شخصيًّا لحفيدتي السير دونالد.

كان والدهما، نجل السير دونالد، مطورًا عقاريًّا ناجحًا في لندن. لم يتبع خطى والده في عوالم الاستخبارات الغامضة. لقد كان رجل أعمال نزيهًا، وعمل وفقًا لقواعد العمل. ومع ذلك، تورط فيليب فيتزروي مع بعض جوانب العالم السفلي الباكستاني، وذلك أمر له علاقة بضغط شركته ضد اقتراح من البلدية، الذي كان سيسمح بمزيدٍ من العمالة غير المعتمدة وغير المؤهلة في مواقع البناء الخاصة به.

اعترض فيليب فيتزروي أن من الأفضل للجميع في لندن أن يتولى العمال المدربون جيدًا فقط أمر بناء المساكن ومراكز التسوق، لكن العصابات الباكستانية ظلت تبتز السكان غير المسجلين لسنوات،

فقرروا استقطاع مقابل أكبر من المهاجرين، ما داموا سيحصلون على وظائف برواتب أعلى.

بدأ الأمر بتهديد عبر المكالمات الهاتفية. كان على فيليب أن يتراجع ويتوقف عن حملة الضغط. عثرت زوجة فيليب، إليز فيتزروي، على قنبلة أنبوبية مزيفة في صندوق البريد، أجرت شرطة سكوتلانديارد تحقيقًا. فرك المحققون الواجمون ذقونهم، ووعدوا بتكثيف جهودهم.

واصل فيليب معركته ضد قانون العمل، فناله المزيد من التهديدات، ووضعت الشرطة أمام منزلهم في بلدة ساسكس جاردنز سيارة مع ضابط يغلب عليه النعاس.

كانت إليز تنظف حقيبة ظهر كيت البالغة من العمر ست سنوات بعد ظهر أحد الأيام بينما تشاهد الفتاتان التلفاز. سحبت ورقة مطوية من جيب خارجي، معتقدة أنها رسالة إلى المنزل من السيدة بيلي. فتحتها، كانت مكتوبة بخط سيئ وحروف كبيرة للغاية: «يمكننا أن نحصل عليهما في أي وقت نشاء. توقف يا فيل!».

هاتفت إليز فيليب في حالة هيستيرية، واتصل فيليب بالسيد دونالد ولم يكن أقل هيستيرية، وبعد سبع ساعات وصل السيد دونالد إلى الباب وبرفقته رجل أمريكي.

لم يكن اليانكي[1] كبيرًا ولا صغيرًا، لكنه كان هادئًا، ولم يرفع بصره كثيرًا. اعتقدت إليز أنه كان في أواخر العشرينيات من عمره. وافترض فيل أنه يناهز الأربعين. كان يرتدي الجينز، وحقيبة ظهر صغيرة لا تفارق كتفه أبدًا، وسترة فضفاضة افترض فيليب أنه يخبئ تحتها أدوات خطرة لإلحاق الأذى بالآخرين.

(1) لقب يطلق على الأمريكان.

جلس فيتزروي مع إليز وفيليب في غرفة الرسم، بينما انتظر الرجل في الردهة. قال للوالدين القلقين إن الرجل اسمه جيم، وإنه تقريبًا الأكثر براعة في مجاله على مستوى العالم.

سأل فيليب: «ما هذا بالضبط يا أبي؟».

ـ دعني أخبرك أنه أفضل لك من اصطفاف الشارع كله بالشرطة لدرجة الانفجار، لست أبالغ.

ـ لا يبدو بهذه البراعة يا أبي.

ـ هذا جزء من وظيفته، إنه متخفٍ.

ـ أبي، وكيف يمكننا أن نتعاملَ معه بحق الجحيم!ـ قدم له شطيرة بضع مرات يوميًا، وأبقِ إناء القهوة في المطبخ ساخنًا، ثم انسَ أنه موجود.

لكن إليز رفضت أن تعامل الرجل على أنه جماد، لقد كانت مهذبة، ووجدته يبادلها الرد بلطفٍ. لم ينظر إليها يومًا، أكدت ذلك عندما سألها زوجها، قالت: «إنه ينظر عبر النافذة إلى الشارع، وإلى الحديقة الخلفية، أو عبر الباب إلى غرفة التوأمين، لكن لم ينظر إليَّ قط، وهذه سمة مشتركة بينكما يا فيليب، ستنسجمان معًا كثيرًا».

أدى إدخال رجل إضافي إلى أسرة فيتزروي ـ بلا شك ـ إلى خلافات بين الزوج والزوجة.

أحبت كلير وكيت جيم، وكانتا تقلدان لهجته الأمريكية، وتكيَّف هو مع الأمر. كان يذهب بهما إلى المدرسة يوميًا بالسيارة الساب، بينما تجلس إليز إلى جواره. ذات مرة مازحته كيتٍ الصغيرة بشأن قيادته السيئة، وفاجأ الأم والابنة بأن انفجر ضاحكا، واعترف بأنه يسافر عادة بالقطار أو الدراجة النارية. وفي ثانية واحدة عاد وجهه إلى جموده المعتاد، مثبّتًا عينيه مرة أخرى على المرايا والطريق أمامه.

لقرابة الشهرين لازم الفتاتين في كل لحظة كانتا فيها مستيقظتين، وكان ينام على سرير صغير أمام باب غرفتهما. أتت لحظة الإثارة

الوحيدة في الأشهر الثمانية يوم الأحد في الطريق إلى السوق، عندما أعاقت الطريق حادثة سيارة، فتوقفت حركة المرور، حينئذ دفع جيم السيارة على الرصيف. فتح معطفه الرياضي، ورأت إليز كعب مسدس تحت ذراعه. قاد السيارة على الرصيف بيده اليسرى، وسط الحشد المتدافع، بينما كانت يده اليمنى تمسك المسدس الموضوع في الجراب المعلَّق على كتفه. بعد عشر ثوانٍ كانوا في أمان. لم يقل لهن كلمة واحدة، كما لو كانت رحلة قصيرة أُخرى فحسب يوم الأحد لتناول الحليب والكعك. بينما حدقت إليه الأم والطفلتان بعيون متسعة طوال بقية الرحلة.

ثم رحل ذات صباح. ترك اللحاف مطويًّا على الفراش الصغير وفوقه الوسادة. نشرت الصحف أن رجال الشرطة ذوي الوجوه الصارمة في سكوتلاند يارد ألقوا القبض على رجال العصابات الباكستانيين، وكان الخطر قد انتهى، فأرسل السير دونالد رجله الأمريكي بعيدًا.

تنفس فيليب وإليز الصعداء في ذهول حين زال التهديد، وسقط القانون السخيف. لكن الفتاتين الصغيرتين بكتا عندما أخبرهما والدهما أن العم جيم يجب أن يعود إلى أمريكا، لا. ليس من المحتمل أن يعود.

***

بعد أقل من ساعة من مكالمته مع فيتزروي اشترى كورت دراجة نارية، كانت **هوندا سي إم 450** بمحرك قوي، وإطارين يوحيان بقدرتها على تحمل يومين من العمل الشاق.

كان البائع فتى محليًّا يعمل في محطة وقود على طريق سيبيروف جنوب شرق براغ. لقد اشتراها دون أوراق، عملية نقدية فحسب. بضع مئات إضافية من الكرونات لقاء خوذة وخريطة وبعدها أصبح كورت على الطريق.

لم يتردد للحظة منذ أغلق الخط مع دون. كان يعلم أن أمامه يوم سفر أو أكثر إلى نورماندي، يمكنه تجهيز خطة في أثناء التنقل، وفي طريقه سيتابع مع فيتزروي. لا، لا يوجد وقت للجلوس على مقعد في الحديقة هنا على بعد ستمائة ميل من أجل التفكير.

بعد شراء الدراجة النارية، عرج على مخبئه الخاص للأسلحة، في منطقة سكن بالإيجار طويل المدة، على بعد أربعة أميال من جنوب وسط المدينة. اضطر إلى كسر القفل بعد أن أضاع مفتاح الباب. يمكنه الآن تسميع رقم بطاقة الائتمان المستخدمة في دفع إيجاره الشهري إذا جرى استجوابه ولن يسمعه أحد. لقد أنشأ المخبأ منذ ما يقرب من ثلاث سنوات، ولم يعد إليه سوى مرة واحدة فقط، والآن أصبحت الغرفة الصغيرة المظلمة مغبرة ومتعفنة وباردة. كانت مساحتها ثماني أقدام مربعة، فارغة باستثناء أربعة أكياس من القماش الخشن مكدسة بعضها فوق بعض، كل واحدة ملفوفة في كيس قمامة أبيض يغطيه الغبار.

احتوى المخبأ على مسدسات وبنادق وذخيرة، وملابس وأغذية معلبة وإمدادات طبية. ألقى في إحدى الحقائب المسدس التشيكي، الذي التقطه في معركة الأسلحة النارية في المترو. وأخذ مسدس والتر **(P99)** صغير وخزينتين إضافيتين.

كان السلاح نظيفًا ومزيتًا بعناية، لكن لم يمنعه هذا من فحص الذخيرة وشريحة التشغيل وإبرة الإطلاق. متجاهلًا بقية بنادقه. كان يعلم صعوبة أن يعبر الحدود إلى الاتحاد الأوروبي وعلى ظهره ترسانة من الأسلحة.

يكفي المسدس.

بعد ذلك، مزق العدة الطبية فاتحًا إياها، وأنزل سرواله، وجلس على الأرض الباردة المتسخة. أدرك من خربشة جرذ على الجدران الألومنيوم مدى سوء هذه الظروف. لقد فحص إصابته التي أصيب بها

منذ يوم واحدٍ باحترافية مذهلة، لم يُصب كورت بالرصاص من قبل، لكنه أصِّيب بعشرات الإصابات الأخرى في أثناء عمله.

آلمته ساقه لدرجة لا تُحتمل، لكنه تعرض لإصابات أسوأ من الحروق وكسر العظامٍ، وكتل الشظايا في رقبته، هكذا كانت متطلبات وظيفته.

سكب رذاذًا غزيرًا من اليود حول الجرح، ومزق رزمًا مفتوحة من الضمادات وكريم مطهر، وضمد إصابته قدر الإمكان في الإضاءة المنخفضة، ثم كوّم كل إمداداته في كيس صغير دَسَّه في جيبه.

في الحقيبة السميكة الثانية وجد معداتٍ الطقس البارد. بدَّل ملابسه الخفيفة ليرتدي سروالًا قصيرًا سميكًا، لونه بني ملطخ بالدهون، وقميصًا قطنيًّا وسترة قماشية سميكة. ارتدى زوجًا من قفازات العمل على يديه فتوليا تدفئة أصابعه على الفور، وحذاء تنزه جلديًّا، وقبعة سوداء يمكن سحبها إلى أسفل عند وضع قناع التزلج على رأسه.

أغلق كل حقائبه، وتركها كما وجدها، وأغلق الباب، واستقل دراجته النارية مرة أخرى.

بعد دقائق وجد نفسه عند مفترق طرق جنوب المدينة. على بعد ساعات قليلة من الغرب كانت الحدود الألمانية، ثم الحدود الفرنسية، ثم نورماندي.

تنهد إذ يزأر صوت محرك دراجته النارية. وخرج البخار من زفيره في قناع التزلج المصنوع من الألياف الدقيقة ليغطي فمه.

لو كان الأمر فقط بهذه البساطة!

لا، كان عليه أن يتوقف عدة مرات ضرورية على الطريق. احتاج جينتري إلى بعض المعدات قبل وصوله إلى نورماندي. كان يعرف أين يحصل على ما يحتاج إليه، لكنه يعلم أيضًا أن الأمر سيستغرق نصف يوم إضافيًّا على الطريق.

أولًا، يحتاج كورت إلى «هروب» جديد، وأوراق هوية مزورة جديدة. لا يزال يحمل جواز السفر الذي استخدمه للدخول إلى جمهورية

التشيك، وكان يعرف أنه سيصل به إلى أوروبا الوسطى، حيث لم تكن جميع عمليات الهجرة الخاصة بهم محوسبة ومدمجة بعد.

لكنه كُشِف مرة واحدة باسمه المزيف مارتن بالدوين، الصحفي الكندي المستقل. فقط شخص متفائل يائس أو أحمق هو من قد يستخدمه للدخول إلى الاتحاد الأوروبي، ولم يكن جينتري هذا أو ذاك. لكن الأهم من دخوله إلى الاتحاد الأوروبي، أنه كان بحاجة إلى هروب سريع بما يكفي لإخراجه من أوروبا عندما يتوقف إطلاق النار. يدرك أن عليه التواري عن الأنظار بعد إتمام مهمته في نورماندي، في مكان بعيد، وستكون أوراق الهوية الجديدة أسهل طريقة لتحقيق هذه الغاية.

يعرف كورت رجلًا في المجر يمكن أن يدبر له الوثائق المطلوبة سريعًا، يمكنه أن يعبر إلى إحدى دول الاتحاد الأوروبي بسرعة، وعلى النحو المطلوب بأوراقٍ سليمة. وإذا اضطر في أثناء رحلته إلى استخراج أوراق أخرى لأي سَبب، فيمكنه أن يفعل ذلك بأمانٍ، وفور أن يُنهي مهمته يمكنه أن يتخلص من كل أسلحته وعدته، ويقفز في طائرة متجهة إلى أمريكا الجنوبية أو جنوب المحيط الهادئ، أو حتى أنتاركتيكا، إذا استمر الضغط الذي يواجه منذ يومين.

وقته لا يسمح له بالتجول وشراء وثائق مزورة بعد ما حدث في نورماندي، ومن المستحيل أن يغادر القارة دونها.

هبَّت رياح شهر نوفمبر الباردة من الغرب بينما يسلك طريق E65، وهو الطريق السريع الذي يربط مدينة برنو بسلوفاكيا، وقرب باتيسلافا، ثم جنوبًا إلى الحدود المجرية، ومن هناك سيصل سريعًا إلى بودابست، ست ساعاتٍ من السفر، متوقفًا بضع مرات للتزود بالوقود، وعند نقطتين حدوديتين بحراسة ضعيفة.

قاد بأقصى سرعة، وانحنى في وجه الريح الباردة. أجبر نفسه على التفكير في الثماني والأربعين ساعة القادمة. كان تفكيرًا قاتمًا،

لكنه ضروري وأفضل بكثير من البقاء في الثماني والأربعين الصعبة الماضية.

12

دخل جينتري عاصمة المجر في الثالثة بعد الظهر.

كانت الغيوم الممطرة منخفضة، ولونها رماديًّا باهتًا، تلامس أطراف تلال بودا الدائرية الخضراء على الجانب الغربي من نهر الدانوب، الذي يقسم المدينة البالغ عدد سكانها أربعة ملايين نسمة. مرت أربع سنوات منذ آخر زيارة لكورت إلى بودابست. حين كانت أول مهمة لحساب فيتزروي، وهي عملية محلية يسيرة ضد قاتل صربي كان قد وضع قنبلة في مطعم محلي لقتل مهرب أسلحة، لكنه بذلك قتل أيضًا شقيق رجل أمريكي.

كان لدى الأخ الناجي من تلك الحادثة أموال وعلاقات بعالم الجريمة؛ لذا لم يجد صعوبة في التواصل مع فيتزروي وتوظيف قاتل. وكان أمرًا يسيرًا بالنسبة لفيتزروي أن يرسل أحدث عملائه إلى بودابست ليجد الصربي المعتدي في بار برصيف الميناء، ويحثه على الشرب، ثم يغرس سكينًا في عموده الفقري، ويترك جسده الميت ينزلق بصمت في مياه نهر الدانوب السوداء.

عرف جينتري أيضًا بودابست قبل ذلك، في أثناء عمله مع وكالة الاستخبارات الأمريكية. كان يدخل ويخرج من المدينة مرة كل عامين منذ نحو عقد من الزمان؛ يتعقب دبلوماسيين، ويدير عمليات مراقبة وخطف لرجال الأعمال الروس المشبوهين في قصور بودا أو فنادق بيست. ذات مرة طارد قاتلًا طاجيكيًّا استهدف رئيس المقر المحلي للاستخبارات المركزية، إذ لم يكن هناك غيره لتنفيذ المهمة.

وخلال عمل كورت في المدينة، خاض عدة جولات مع أحد السكان المحليين، محتال اسمه لازلو سزابو. كان سزابو مخادعًا حقيرًا بلا

أخلاق، يفعل أي شيء لأي شخص يلوّح في وجهه بحزمة كافية من الفورنت المجري. تخصص في التزوير وشراء أوراق الهوية وبيعها وتعديلها لمن يريد تغيير هويته بسرعة. لقد ساعد عشرات من مجرمي الحرب الصرب المطلوبين وسط أوروبا على الفرار من محكمة العدل الدولية، وجمع الكثير من الأموال للتخلص من التبعات القذرة الواسعة لتلك الحرب وغيرها. ثم في عام 2004 التقى جينتري عندما وافق على إنشاء أوراق لإرهابي شيشاني تسلل من جروزني وهرب من الروس إلى بودابست في طريقه إلى الغرب، لكن تمكن كورت وفرقته من الأشقياء من اللحاق بالشيشاني في مستودع يملكه لازلو في إحدى الضواحي.

احتدمت الأمور، وفي المشاجرة انفجر حوض من المواد الفوتوغرافية الكيميائية الخاصة بسزابو، مما أسفر عن مقتل الإرهابي. اضطر كورت وفريقه إلى التواري عن الأنظار قبل وصول سيارات الإطفاء، تاركين لازلو يفلت من أيديهم.

بعد ذلك مباشرة أُرسِل كورت للإمساك بصيدٍ أكبر، لكنه لم ينسَ سزابو وظل مطلعًا على المزور في حال احتاج إلى خدماته يومًا ما. عادة ما يستخدم كورت الوثائق من شبكة السير دونالد فيتزروي، ولكن كانت ميزة إضافية أن يعرف رجلًا في بودابست يمكن أن يحوله بالسعر المناسب إلى أي شخص يريده، على الأقل على الورق.

كورت على يقين من أن لازلو سزابو حقير لا يمكن إصلاحه، لكنه يعلم أيضًا أن سزابو بارع في عمله.

كانت الساعة الثالثة والنصف عندما عبأ كورت خزان الوقود الخاص به، واشترى بوصلة جيروسكوب وعصير ليمون من كشك تركي صغير في شارع أندراسي. وأوقف دراجته على بعد مبنى واحد من مخبأ لازلو في بيست، على بعد كيلو متر واحد أو نحو ذلك من شواطئ نهر

الدانوب. تساقطت أوراق مجمدة من المطر البارد، لكن جينتري لم يفعل شيئًا لحماية نفسه من الطقس.

أُنهكت عضلاته من يوم طويل بالفعل. بلل المطر شعره ولحيته وملابسه، لكنه أبقاه في حالة تأهب. كان باب مبنى لازلو خادعًا. صفيحة حديدية صدئة، قد ثُبِّتَت على مفصلات غارزة في مبنى حجري في شارع إيوتفوس أوتكا، تغطيه نشراتٌ إعلانيةٌ صفراء ممزقة، ويبلغ ارتفاعه نحو خمس أقدام.

بدا الأمر كأن أحدًا لم يمر منذ الحرب العالمية الثانية. أنهى كورت لتوه وجبته التي بللها الماء، والمكونة من قطع لحم الضأن وصلصة الخيار مطوية في خبز بيتا، عندما انفتح الباب ليُحدث صريرًا ويخرج رجلان أسودان نحيفان. خمّن كورت أنهما صوماليان، موجودان في أوروبا وجودًا غير قانوني. من الواضح أن أي شخص لا يستطيع الحصول على أوراق رسمية يأتي إلى لازلو.

لكن كورت يدرك مدى سهولة هجرة الأفارقة والشرق ـ أوسطيين هجرة قانونية إلى القارة في هذه الأيام. هذان الأحمقان اللذان يمشيان أمامه تحت المطر، بطريقة لا توحي أنهما حصلا على أي ختم موافقة دولي من أي نوع، نبَّها جينتري إلى أنهما كانا مشبوهين خطرين.

في لحظة تدبر، أدرك الرجل الرمادي أن عددًا قليلًا من الأشخاص على وجه الأرض مطلوبون أكثر منه، لذلك كان كورت ـ بحكم طبيعته ـ ربما أكثر شبهة وخطرًا من هذين الصوماليين.

دق جينتري الباب الحديدي الصغير باسطًا كفه اليسرى، ويمينه فوق مسدس فالتر في حزام خصره المختبئ تحت سترته المبللة. لم يأتِه جواب بعد دقيقة، وطرقة أخرى. أخيرًا عثر كورت على زر اتصال داخلي بلاستيكي صغير مطوي في أعلى الزاوية اليسرى من المدخل.

«سزابو؟ أحتاج إلى مساعدتك. يمكنني الدفع».

جاءه رد مقتضب عبر خط الاتصال الداخلي: «ما توصياتك؟» كانت لهجته مجرية لا لبس فيها، لكن لغته الإنجليزية كانت جيدة، ونبرة صوته الرتيبة، كأنه موظف في محل دهانات. كورت هو خطوة تالية في صف طويل من العملاء الذين وصلوا إلى النافذة للاستفسار عن البضائع.

«أنا أحد رجال دونالد فيتزروي». على الرغم من أن سزابو لم يكن ضمن عملاء الشبكة، لكنه كان يعرف بالتأكيد السير دونالد. توقف للحظة امتدت بما يكفي لإثارة قلق كورت، وانتهى بأزيز ثم صوت فتح أقفال الأبواب التي يجري التحكم فيها عن بُعد. دفع كورت الباب الحديدي بحذر، وانحنى ليدخل إلى ردهة مظلمة تقع خلف الباب، تنبعث إضاءتها الطفيفة على بعد خمسين قدمًا.

يفضي الضوء إلى مدخل آخر، عثر كورت من خلاله على ورشة كبيرة تشتمل على مختبر علمي، ومكتبة واستوديو تصوير. جلس لازلو على مكتب مقابل للحائط، ثم التفت لمواجهة زائره. أرخى سزابو شعره الرمادي الطويل على كتفيه، وكان يرتدي سترة باهتة ذات طابع عسكري، وسروالًا جينز أسود، وقميصًا بوليستر مفتوحًا في المنتصف كاشفًا عن صدره النحيل.

يبلغ من العمر ستين عامًا، لكن بالمقاييس الشرقية، أي إن ملامحه توحي بأنه في الثمانين، بينما يبدو جسده في الثلاثين. حياة قوامها الحركة والمشقة. لقد بدا لكورت كنجم موسيقى الروك المسن الذي ما زال يشعر بتألقه.

حدق إلى كورت لفترة طويلة وقال: «وجه مألوف. ربما كنت سأعرفك دون اللحية ومياه المطر؟». كان كورت يعرف أن سزابو لم يرَ وجهه قط. لقد كان يرتدي قناع بالاكلافا عندما استولى على مخبأ سزابو مع فرقة الأشقياء في عام 2004، بالإضافة إلى أن الظلام كان دامسًا، والحركة سريعة ومربكة.

قال جينتري وهو ينظر في أرجاء الغرفة بحثًا عن أي تهديدات أمنية: «لا أظن».

الأسلاك معلقة على الجدران مثل اللبلاب، وبطول الحائط توجد طاولات ورفوف للمعدات وصناديق وكتب وخزائن الملفات المغلقة، وفي الزاوية استوديو تصوير كامل مع كاميرا على حامل ثلاثي القوائم يواجه كرسيًا على حامل خشبي.

قال: «أمريكي. عمرك خمسة وثلاثون عامًا، طولك 180، وزنك 71 كيلوجرامًا، لا يبدو من سلوكك أنك جندي أو شرطي، وهذا أمر جيد».

تذكر كورت شذرات من ملف الرجل. درّب السوفييت سزابو على المراقبة الإلكترونية والتزوير وغيرهما من الفنون السوداء غير المميتة. استخدمه الروس للتجسس على شعبه، لكنه عمل لمصلحة لكلا الفريقين، وأعطى موسكو معلومات عن مواطنيه، بينما يوفر للمقتدرين من أهل وطنه المجريين فرصًا للهروب عبر الستار الحديدي[1].

كانت مساعدته الهامشية والمشروطة وغير المخلصة لشعبه كافية لإبعاد السكين عن صدره بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، على الرغم من أن جينتري يذكر أنه قرأ ذات مرة كيف تعرض لازلو للأذى انتقامًا من ارتباطه بموسكو.

قال كورت: «أنا فقط رجل يحتاج إلى بعض ما تبيع وبسرعة».

وقف لازلو ومد يده نحو عصا مستندة إلى المنضدة. اتكأ عليها بشدة وهو يقطع الغرفة باتجاه زائره. ولاحظ كورت جسد المجري

---

(1) : حدود سياسية قسّمت أوروبا إلى منطقتين منفصلتين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في عام 1945 وحتى نهاية الحرب الباردة في عام 1991. (المترجم)

المتهدل، وعرجه الشديد. لقد اشتدت هذه الإصابة منذ أن رآه آخر مرة قبل خمس سنوات.

استغرق سزابو الكثير من الوقت حتى صار أمام كورت، وانحنى مقتربًا منه قدر ما استطاع. وضع يده على ذقن الأمريكي وأدار رأسه يمينًا ويسارًا.

سأله: «أي منتج تريد؟».

ـ جواز سفر سليمًا، وليس مزيفًا، أحتاج إليه الآن. سأدفع ثمن أي متاعب إضافية.

أومأ لازلو برأسه. وسأله: «كيف حال نوريس؟».

ـ نوريس؟

ـ ابن السير دونالد فيتزروي بالطبع!

ـ تقصد فيليب.

ـ نعم. أما زال لدى السير دونالد مكان صيفي في برايتون؟

ـ لا أعرف هذا.

اعترف سزابو في خجل رافعًا كتفيه: «ولا أنا صراحة». قال كورت: «أتفهم حاجتك إلى إثبات حسن نيتي، لكنني في عجلة من أمري».

أومأ سزابو برأسه، ومشى وهو يعرج حتى وصل إلى مقعد صغير من بين عشرة في الغرفة وكل واحد أمام طاولة أو مكتب مختلف مغطى بأجهزة كمبيوتر، وميكروسكوبيات، وأوراق، وكاميرات، وغيرها من المعدات.

ـ فيتزروي لديه شبكته الخاصة. وسطاء خصوصيون للتوثيق. ما الذي أنزله للتعامل مع لازلو؟ـ أحتاج إلى شخص بارع، شخص سريع. الكل يعلم أنك الأفضل.

أومأ المجري برأسه.

وقال: «ربما هذا تملق فحسب، لكنك محق تمامًا. لازلو الأفضل».

استرخى سزابو ثم أردف: «سأنفذ عملًا رائعًا من أجلك، ربما يمكنك أن تخبر فيتزروي بهذه الخدمة. قل عن لازلو خيرًا.. أنت تفهم».

كان كورت يكره من يشيرون إلى أنفسهم بصيغة الغائب. لكنه معروف أيضًا بكونه مهذبًا إذ اقتضى الأمر؛ لذا قال: «أخرجني من هنا بأوراقٍ سليمة في أقل من ساعة، وسأفعل هذا بالضبط».

سُرَّ سزابو على ما يبدو، وأومأ برأسه وهو يقول: «حصلت مؤخرًا على شحنة من جوازات سفر بلجيكية. أرقام تسلسلية جديدة، لم يُبلغ عن سرقتها. شرعية تمامًا».

هز كورت رأسه بحزم وقال: «لا. ثلثا جوازات السفر المسروقة في السوق بلجيكية، إنها تخضع لفحص إضافي. أحتاج إلى شيء أقل وضوحًا».

قال: «عميل مطلع، أحترم هذا».

وقف لازلو متكئًا على عصاه، وشق طريقه إلى مكتب آخر. كان يضغط بأصابعه على دفتر صغير مليء بخربشة قلم رصاص، ثم رفع بصره وقال: «نعم. أفترض أنك يمكن أن تمر ككيوي[1]. كان لديّ القليل من جوازات السفر النيوزيلندية لفترة طويلة. معظم زبائني هذه الأيام أفارقة أو عرب.. لا يمكن الإمساك بكيوي، وبالطبع كما قلت، مر عليها وقت طويل، لكن لازلو يمكنه معالجة الرقم التسلسلي عندما أدخل معلوماتك دون تشويه الصورة المجسمة، يستحيل تتبعه كونه جوازًا مفقودًا».

قال له: «لا بأس».

---

(1) بمعنى «نيوزلندي» مشتق من طائر الكيوي الذي لا يطير، وهو رمز وطني لنيوزيلندا.

جلس سزابو مرة أخرى وتنهد بعمق، ما أوحى لجينتري أن الحركة كانت متعبة وغير مريحة له.

أخبره: «خمسة آلاف يورو».

أومأ جينتري برأسه، وسحب المال من حقيبته وأظهره إلى لازلو، لكنه لم يسلمه له.

ـ ماذا عن مظهرك؟ يمكنني تصويرك كما أنت، أو يمكننا عمل شيء أكثر احترافية.

ـ أود أن أغتسل أولًا.

ـ لديّ حمام لتستحم وشفرة حلاقة ومعطف بذلة ورابطة عنق تناسبك. جهز أنت نفسك، بينما ينجز لازلو الأوراق.

مشى كورت في الردهة، وشق طريقه إلى الحمام الذي تفوح منه رائحة عفن بشري. كان الحمام مُجهَّزًا بالصابون وشفرات الحلاقة والمقص، كلها مصممة للعملاء والمهاجرين غير الشرعيين والمجرمين الذين يحتاجون إلى إخفاء قبحهم لبضع دقائق، من أجل التقاط صورة توحي لرجال الشرطة ووكلاء مراقبة الحدود أنهم اللورد الصغير فونتلروي[1].

لأول مرة منذ ثلاثة أشهر يحلق جينتري لحيته. لقد وضع مسدسه الفالتر على الرف الصغير بجوار الشامبو وشفرات الحلاقة، ومع انتهائه من الاستحمام كان المسدس قد غطته الرغوة. نظّف جينتري بقايا حلاقته، إذ رأى أن كل شعرة بنية دليل على حمضه النووي، لذلك أمضى وقتًا أطول في جمع لحيته أكثر مما أمضى وقتًا في حلاقتها.

---

(1) : رواية للكاتبة البريطانية فرانسيس هودجسون بورنيت. نُشرت في عام 1886. تمتعت بذلة فونتلروي التي أبرزتها رسومات الرواية بشعبية كبيرة في أمريكا بعد نشر الرواية، وكانت من الأزياء الرئيسة للأولاد حتى في القرن الحادي والعشرين.

نظر إلى نفسه في المرآة إذ يمشط شعره البني إلى اليمين فيجف بالتدريج. كان وجهه يشيخ، حُفرت في جلده تجاعيد من أثر الشمس والرياح والحياة نفسها. يمكنه أن يميز ما فقده من وزن منذ بدأ عملية سوريا، ومن الفراغات الدكناء الرخوة أسفل عينيه.

ذات مرة عندما كان في السادسة والعشرين من عمره لم ينم لأربعة أيام، بينما يترصد عميلاً في موسكو، وتعقبه حتى منزله الريفي، وهناك تعطّلت سيارة كورت اللادا الحقيرة ذات البابين في الثلج، فاضطر الرجل الرمادي إلى مواصلة التحرك برًّا كي لا يتجمد حتى الموت.

الآن وهو في السادسة والثلاثين من عمره، يشعر أن حالته أصبحت أسوأ بعد أربعة أيام من العمل، عكس ما كان عليه حينها، عندما أخرجه فريق الإجلاء شبه متجمد ونقلوه إلى المروحية.

بعدما جفف نفسه، ارتدى سرواله المبلل بالمطر مرة أخرى، وكان حذرًا لئلا يغير مكان الضمادة المبللة على ساقه، أوثق ربط حزامه مرتديًا جوربيه وحذاءه العالي. ارتدى قميصًا أبيض تركه له لازلو، لكنه كان ضيقًا عند الرقبة، وعقد رابطة العنق الرخيصة بحذر عقدة كبيرة تغطي الياقة، وسترة زرقاء توحي أن ثمة كرتونًا محشورًا عند كتفيه. لم يسعَ إلى إغلاق أزرارها، أنزل كورت المسدس على ساقه، وألقى الطلقات الإضافية وسكينه السويسري في جيبه، ثم عاد إلى معمل لازلو.

جلس سزابو أمام طاولةٍ رسم على كرسيه المتحرك، وقد انحنى أمامٍ جواز سفر مفتوح ممسكا بشفرة، ثم رفع بصره لينظر إلى زبونه مطولًا وقال: «يا له من تحول!».

ـ أجل.

ـ من فضلك، اجلس لالتقاط الصورة.

كان هناك مقعد بلاستيكي صغير على حامل أمام خلفية زرقاء معلقة في السقف، وكاميرا رقمية على حامل ثلاثي، وقد اتصلت بجهاز كمبيوتر على مكتب قريب.

صعد كورت على الحامل الخشبي الأجوف، وجلس على المقعد متحسسًا سترته ورابطة عنقه، بينما سحب سزابو الكرسي المتحرك خلف الكاميرا قائلًا: «علينا أن نفكر في اسم جديد لجواز السفر، اسم كيوي جيد».

أجابه: «سأترك الأمر لك. أي اسم جيد».

ومضت الكاميرا، فشرع جينتري في النهوض.

قال له: «صورتان أخريان من فضلك».

عاود الجلوس.

ـ لديَّ اسم لك. لا أعرف إذا كان سيعجبك.

ـ أي شيء.

ـ إنه لامع، درامي وغامض.

ـ حسنًا، لا أعتقد أنني بحاجة إلى...

ـ لماذا لا نسميك الرجل الرمادي؟

حدق جينتري بهدوء إلى الكاميرا وهي تومض في وجهه. تبًّا!

حملق سزابو إلى وجهه. بدأ جينتري ينهض، شعر بحركة في مقعده، إذ ينقل وزنه إلى قدميه، لكن شعر أن كعبيه يسقطان، قبل أن يتمكن من الرد، طارت ذراعاه إلى جانبيه، وارتفعت سترته المستعارة على رقبته، ورأى ركبتيه مرفوعتين أمام عينيه.

كان يسقط إلى الوراء، وكان الكرسي البلاستيكي ينزلق معه. اختفى الضوء من حوله، وسقط في الظلام. في النهاية هبط على جانبه، وخفف من وقع سقطته شيء ناعم ورطب.

على الرغم من أن التأثير خففته بطانة ما، لكنه لا يزال ينتفض، وكرد فعل هبَّ واقفًا على قدميه، وسحب المسدس من ساقه، يدور في جميع الاتجاهات لمواجهة أي تهديدات وليحدد كل وجهاته.

كانت حفرة مبطنة بالطوب، خزانًا من نوع ما. نظر إلى الأعلى فاكتشف أنه سقط في عمق اثنتي عشرة قدمًا أو نحو ذلك، حيث انفتح الحامل لابتلاعه. وقبل أن يتمكن من الوصول إلى الكرسي، كان قد ارتفع في الهواء، إذ رُبطت ساقه بسلسلة رفيعة، وترنح مرة أخرى عائدًا إلى الحامل ثم اختفى.

أغلِق فوقه باب سحري من الزجاج البلاستيكي. وحُجِز في الحاوية الرطبة.

انحنى سزابو ببطء على الجانب، ونظر إلى أسيره بالأسفل عبر البلاستيك مبتسمًا. صاح جينتري في إحباط شديد: «أنت تمزح!».

قال له: «أعتقد أنك مسلح. عادة ما تكون الوحوش مثلك هكذا، فكر جيدًا قبل أن تطلق النار عندك».

استخدم سزابو طرف عصاه ليضغط على الغطاء الشفاف فوق الحفرة وقال: «بوصتان من زجاج شبكي مقوى. ستضطر إلى تفادي شظايا سلاحك». ثم نقر على جبهته بإصبع نحيلة قائلًا: »لا تكن أحمق».

ـ ليس لديّ وقت لهذا يا سزابو!

ـ على العكس تمامًا، القليل من الوقت هو كل ما تبقى لديك.

ثم توارى سزابو عن ناظريه.

13

مزق جينتري السترة، ورابطة العنق والقميص، ونظر إلى الحفرة من حوله. كانت دائرة عرضها سبع أقدام، ويبدو أنها نوع من آبار الصرف الصحي القديمة. جدار أسطواني من الحجر شديد الانحدار واللزوجة بسبب العفن، بحيث يصعب تسلقه للغاية. وكانت رائحة المراتب التي سقط عليها كريهة ومتعفنة.

كانت هناك مشكلة في الصرف بلا شك. نظر تحت المراتب، واكتشف أنبوب ماء حديديًا قديمًا. لف يده حوله فوجده ساخنًا. الحمامات الحرارية في بودابست نقطة جذب سياحي. من المحتمل أن هذا الأنبوب يضخ مياه الينابيع الساخنة من مكان إلى آخر. يندفع الماء من خلاله، يقطر ويتبخر قليلا ثم يختفي في الحائط.

نظر كورت إلى أعلى وحوله. سيكون هذا مكانًا مروعًا للموت. بعد عشر دقائق، عاد سزابو، ووقف فوق كورت وابتسم. قال جينتري: «أيًا كان ما تخطط لفعله...».

قاطعه سزابو: «أنا أتذكرك. هل حسبت أنني قد أنسى؟ 2004، وكالة الاستخبارات المركزية.. فريق الوكالة شديد الخصوصية».

كان كورت يعلم أن سزابو لم يرَ وجهه في العملية في عام 2004 ومع ذلك صاح: «هذا صحيح، وفريقي الميداني يعرف مكاني الآن».

ـ هذا مثير للشفقة. لم تعد مع الوكالة.

ـ أين سمعت هذا؟

اختفى المجري الستيني دقيقة ثم عاد فوق الحفرة، ووضع ورقة ووجهها إلى أسفل على الزجاج على ارتفاع ست أقدام فوق رأس السجين. نظر جينتري إلى وجهه، صورة قديمة التقطتها وكالة

الاستخبارات المركزية لبعض الوثائق. وفوق الصورة كانت عبارة «يطلبه الإنتربول للاستجواب». كانت صورة ووصفًا فحسب. لم يُذكر اسمه.

ـ تمترس رجال الحكومة الأمريكية في سيارة بالخارج في الشارع لمدة سبعة أيام أسبوعيًّا طوال عام كامل بعد أن، دعنا نقل، استقلت من منصبك في الوكالة. لقد اعتقدوا في الواقع أنك ستأتي إلى لازلو طلبًا للمساعدة. لقد أضر وجودهم بعملي أيها السيد الرمادي.

ـ سزابو، هذا أمر جاد. حسنًا أنا أعرفك جيدًا، وأعلم أنك ستسمح لي بأن أدفع ثمن خروجي. فقط حدد السعر. ويمكنني الاتصال برجل ليدبر المال...

ـ السير دونالد لا يقدر على ثمن إنقاذك. لا أريد ماله.

نظر جينتري إلى الرجل فوقه وقال بصوتٍ منخفض: «أكره أن أوذي شخصًا مشلولًا».

ـ أنتَ من أصابني بالشلل!

ـ عمَّ تتحدث؟

ـ لقد أطلقت النار على غرفتي المظلمة. ظننت أنني سأنسى؟

ـ أنا لم أطلق النار عليك.

ـ لا، كنت تطلق النار على الشيشاني، فأصبت حاوية من كبريتات الأمونيوم، وأوقعت المسحوق في حوض من الألومنيوم المذاب، فوقع الانفجار! الشيشاني يقطر من السقف، ولازلو الفقير العاجز يحترق، وتضررت أعصاب الجزء السفلي من جسده بسبب استنشاق الأبخرة السامة.

هز كورت كتفيه استهجانًا وقال: «هذا هراء. ذنب من هذا؟ كنتَ تساعد إرهابيًّا على دخول الغرب. كان يجب على وكالة الاستخبارات المركزية أن تعيدني للتخلص منك».

أجابه: «ربما كان ينبغي أن يفعلوا ذلك، لكنني منذ ذلك الحين أقمتُ صداقات مع رجال طيبين في وكالة الاستخبارات المركزية. بعد أن جاءني مكتب التحقيقات الفيدرالي للتحدث معي، جاءت الوكالة، كانوا هم من أخبروني أنك كنت قائد المجموعة التي فجرت مستودعي ودمرت ساقي. صدق أو لا تصدق، في هذه الأيام، علاقة العمل بين محطة الاستخبارات المركزية المحلية ولازلو جيدة نسبيًا».

ـ ولماذا لا أصدق هذا؟ لطالما لعبتَ على كل الحبال.

ـ أعتقد أن علاقتنا ستتحسن الآن بعد أن اتصلت بهم وأخبرتهم أنني قد أسرتك. إنهم في طريقهم إلى هنا لاصطحابك.

انتفضت عضلات وجه جينتري وقال: «قل لي إنك لم تفعل هذا».

ـ بل سأسلمك إلى الاستخبارات المركزية مقابل هدنة بسيطة. علاقتنا معقدة لدرجة أن تسليمي لهدفهم الأول لن يجعل حياة لازلو أسهل.

ـ كم تبقى من الوقت حتى يأتوا إلى هنا؟

ـ أقل من ساعتين. رئيس المحطة يجهز طائرة هليكوبتر مليئة بالفرق الثقيلة من فيينا لاعتقالك. قلت له إن سمعتك مبالغ فيها، في النهاية أمسك بك لازلو العجوز الضعيف بنفسه، لكن هذا لم يردعه. أنت بحاجة إلى عملية كبيرة فقط للإمساك بك. عليك فقط أن تسلي نفسك في هذه الأثناء إلى حين...

ـ لازلو، عليك أن تنصت إليَّ بحذر.

ـ ها! إنه يرتجف! انظروا إلى الرجل الرمادي يرتجف كالطفـ...

ـ إنهم لن يرسلوا فريقًا ليأخذني بعيدًا، بل سيرسلون فرقة من القتلة. هناك أمر صادر ضدي بإطلاق النار عليَّ فور رؤيتي. وعندما يأتون إلى هنا للقضاء عليَّ، لا تتوقع منهم أن يرحلوا تاركين وراءهم شاهدًا. هذا ليس أسلوبهم في العمل.

مال لازلو برأسه، وبدا أنه يفكر في الأمر ثم قال: «لن يؤذوني. وكالة الاستخبارات المركزية بحاجة إليَّ».

قال جينتري: «لقد احتاجوا إليك فقط حتى إجراء تلك المكالمة الهاتفية أيها الوغد!».

بدأت أعصاب سزابو تفلت، وصرخ: «كفي كلامًا! إذا كنت تعتقد أن ملك الموت في طريقه إليك، فربما يجب أن تقضي الدقائق القليلة القادمة في طلب المغفرة من الله عن خطاياك».

رد عليه قائلًا: «وأنت أيضًا».

اختفى وجه لازلو سزابو المتغضن والمرتبك من الزجاج فوق كورت.

***

رن هاتف السير دونالد فيتزروي في الساعة الثالثة. ضغط لويد على زر مكبر الصوت، على الرغم من أن المكالمة لم تأتِ من هاتف جينتري الذي يعمل بالأقمار الصناعية.

ـ أمن شلتنهام.

ـ مساء الخير، أيها السير دونالد. أنا أتصل بخصوص مسألة تجارية مهمة.

ـ هل أعرفك؟

ـ لا أعتقد أننا تصادفنا، يمكنك أن تدعوني إيجور.

كان فيتزروي مقتضبًا مع المتصل. فلديه ما يكفي ليمنعه بلا ذنب من التعامل بكياسة مع محام بلكنة أجنبية واضحة.

وقال: «ويمكنك أن تدعوني غير مهتم. أنا مشغول، إذا كان لديك عمل حقيقي، فيمكنك الاتصال بسكرتيرتي وتحديد موعد».

ـ نعم، حسنًا. يبدو أن الرجل الرمادي يعتقد أنه يمثل لك عملًا حقيقيًا. أخبرني أن أتصل بك، ويصر على أنك ستدفع جيدًا مقابل عودته الآمنة.

ـ الرجل الرمادي معك؟

ـ بالفعل.

ـ مع أي فريق أنت؟

ـأي فريق! أنا فريقي الخاص يا سيدي.

نظر فيتزروي ولويد أحدهما إلى الآخر. ضغط لويد على زر كتم الصوت وقال: «لا أعتقد أن هذا أحد صيادينا».

نقر السير دونالد على الزر للسماح للمتصل بسماعه وقال: «دعني أتحدث معه».

أجابه: «هذا ليس ممكنًا في الوقت الحالي».

ضغط لويد على زر كتم الصوت مرة أخرى. التفت إلى الفني وكومة أجهزة الكمبيوتر المعلقة على الحائط. قال الشاب: «جاءت المكالمة من بودابست، من بيست. لديه بعض برامج التوجيه المحرف، سأحاول تحديده».

نظر لويد إلى الخريطة الكبيرة على شاشة الحائط وقال: «ماذا يفعل جينتري في بودابست بحق الجحيم؟».

تجاهله فيتزروي وضغط على صندوق السماعات في منتصف الطاولة، وأطفأ زر كتم الصوت مرة أخرى.

وقال: «قد أكون مهتمًا للغاية بخدمتك، إيجور. أحتاج فقط التحقق من أن رجلي في رعايتك حقًا».

رد قائلًا: «لم تعد هناك ثقة في هذا العالم، تلك هي المشكلة. حسنًا يا دونالد، أعطني لحظة. أنا لا أتحرك بالسرعة التي اعتدت عليها».

كان هناك تشويش في مكبرات الصوت لمدة دقيقة تقريبًا. ثم أخيرًا: «تفضل سيد فيتزروي، يمكنك التحدث».

سأل فيتزروي: «يا فتى؟ هل هذا أنت؟».

جاء صوت جينتري بعيدًا أو مكتومًا بشيء ما وقال: «لقد اتصل بالوكالة. فرقة قتل ستكون هنا في أقل من تسعين دقيقة، يا دون! أنا في...».

كان هناك المزيد من التشويش، والأصوات المتضاربة عبر السماعات. ثم عاد الصوت ذو اللكنة الأجنبية على الخط: «لديك

ساعة واحدة يا سير دونالد. أرسل خمسمائة ألف يورو، وسأدع ابنك يهرب وفي وقت يكفي لتفادي عرض مضاد من منافس. ها هو رقم الحساب، ألديك قلم؟».

بعد دقيقة انقطع الاتصال. نظر كل من فيتزروي ولويد إلى الفني، هز الشاب البريطاني الشاب الذي يضع حلقًا في أنفه رأسَه وقال: «بودابست، المنطقة السادسة. هذا ما نعرفه. لكن لم أتمكن من تحديده عن قرب. يوجد ربع مليون هاتف في الحي السادس. يمكنه الاتصال من أي واحد منها».

انزعج لويد بشدة، لكنه كان متعجلًا لدرجة أنه لم يُظهِر ذلك. التفت إلى أسيره وقال: «من يعرف في بودابست؟».

فرك فيتزروي جبهته وهزّ كتفيه.

وأتبع لويد: «تبًّا لك! فكِر، من قد يذهب إليه جينتري هناك؟».

رفع السير دونالد رأسه بسرعة وقال: «سزابو! ليس في شبكتي، كما ترى هو مزور قديم، كان يعمل لمصلحة الشيوعيين في...».

قاطعه لويد قائلًا: «هل لديك عنوان؟».

ـ يمكنني الحصول عليه.

ـ أقرب فرقة قتل في فيينا، على بعد مائة ميل. بأي حال من الأحوال يمكننا أن نرسلها هناك في ذلك الإطار الزمني. سيتعين علينا أن ندفع لسزابو لإبقاء جينتري بعيدًا عن أيدي وكالة الاستخبارات المركزية.

هز فيتزروي رأسه وقال: «انسَ هذا. سزابو خبيث، إذا اتصل بالاستخبارات المركزية فذلك ليكسب ودهم. لقد اتصل بي للتو لأن جينتري أخبره أنني سأدفع مقابل إطلاق سراحه. سيأخذ سزابو أموالي ومع ذلك سيسلمه لوكالة الاستخبارات المركزية. سيخدعني قبل أن يخدعهم بلا شك».

ـ هل ستأخذ الاستخبارات المركزية جينتري أم ستقتله؟

ـ غير مهم. إذا قتلوه فلن يتركوا أي آثار وراءهم. لن تظهر الجثة لأسابيع، هذا إن حدث. أبو بكر لن يوقع إذا أخبرناه أن جينتري محاصر، ستقتل عائلتي كما لو كان جينتري قد نجا.

ـ إذًا أمامنا أقل من ساعة لإرسال القتلة إلى موقع سزابو قبل أن يصل شباب الاستخبارات المركزية إلى هناك.

***

كانت رقبة جينتري تؤلمه بسبب تحديقه المتواصل إلى السقف البلاستيكي فوقه، سمع ضجة عند الفتحة فصاح: «كيف ستخرجني من هنا قبل أن يصل عملاء الوكالة لقتلنا؟».

ظهر وجه سزابو المتغضن بالأعلى وقال: «فور حصولي على أموال السير دونالد. الشخص الوحيد الذي سيخرج من هنا هو أنا».

ـ سيقتلك فيتزروي لخداعك إياه.

ـ ما زال لديَّ أصدقاء في الشرق، كنت أبحث عن مخرجٍ آمنٍ، سيكفي نصف مليون يورو من أجل بداية جديدة.

ناشده كورت: «انظر، هناك خطر أكبر مما تعرفه، لقد تعرضت أسرة للخطف، وهناك فتاتان توأمان، عمرهما ثماني سنوات. ستتعرضان للقتل إن لم أصل إلى فرنسا في الوقت المناسب. أخرجني من هنا، وأقسم لك أن أعطيك أموالك، ستحصل على كل ما...».

ـ فتاتان صغيرتان؟

ـ نعم.

ـ قتل؟

ـ إلا إذا تمكنت من الوصول إلى...

ضحك لازلو ساخرًا:

وقال: «حتمًا التبس عليك الأمر، وحسبت أنني ذو مشاعر، لقد أزالها الروس جراحيًّا قبل خمسة وثلاثين عامًا. في الحقيقة لا أعبأ بما تقول».

توارى لازلو عن نظر جينتري.

***

اتصل لويد بريجيل في مكتبه المكسو بألواح خشب الساج، أجاب الرجل الألماني قبل أن تنتهي الرنة الأولى. سأله الأمريكي: «هل لديك عملاء في بودابست؟».

ـ لديّ عملاء في كل مكان.

ـ قتلة من الدرجة الثالثة؟

ـ لا، فقط عدد قليل من فناني الأرصفة. يمكنني ترتيب بعض القتلة منخفضي الأجر، لكن لماذا؟ ألم أزودك بما يكفي من أكفأ القتلة في الاثنتي عشرة ساعة الماضية؟ حتمًا لم يأكلهم الرجل الرمادي كلهم بعد!

كانت هناك نبرة ساخرة في كلامه مع المحامي الشاب.

ـ لقد أرسلنا الفرق غربًا، لكن جينتري ذهب جنوبًا إلى المجر، على ما يبدو للحصول على جواز سفر لاستخدامه في الفرار من أوروبا بعد أن يصل إلى نورماندي.

ـ ذكي. متفائل لكن ذكي.

ـ نعم، لم يُوَفق تمامًا. خدعه المزور في بودابست. حبسه واتصل لتوه بالسير دونالد للمطالبة بفدية.

ـ دعني أخمن. لازلو سزابو؟

ـ كيف عرفت؟

ـ لا يمكنك أن تُذكر (بودابست) و(خداع) في الجملة نفسها دون أن يظهر اسم سزابو.

ـ هل يمكنك إرسال بعض الرجال إلى عنوانه في بيست؟

ـ بالطبع. هل لازلو وحده أم لديه أمن؟

ـ الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك. لقد سلّم سزابو كورت إلى وكالة الاستخبارات المركزية. لديهم فريق يتسابق إلى موقعه الآن، يُفترض أنهم على بعد ساعة.

تنهد ريجيل وقد بدا الإحباط في صوته وهو يقول: «إذا وقع في أيدي وكالة الاستخبارات المركزية، فانسَ عقد لاجوس. إذا أخذوه، فلن نستطيع أن نثبت لأبي بكر ما إذا كان حيًّا أو ميتًا بحلول يوم الأحد.

ـ إذًا لا يمكننا أن ندع ذلك يحدث، صحيح؟

ـ تريد إرسال فريق ليتبادل إطلاق النار مع الاستخبارات الأمريكية؟ هل أنت مجنون؟

ـ ستعتقد الاستخبارات المركزية أنهم رجال يعملون لصالح جينتري أو يعملون لصالح الخاطف. إذا كان رجالك بارعين، فلن يظلوا في أماكنهم لشرح دوافعهم.

فكر ريجيل لحظة، وعندما تحدث أخيرًا، بدا للويد كما لو أن الألماني يرسم الخطة في أثناء خروج الكلمات من فمه: «فريق القتلة الإندونيسي في الجو الآن. إنهم في طريقهم إلى فرانكفورت، لكن من المفترض أن يكونوا فوق جنوب وسط أوروبا الآن. ربما يمكننا تحويلهم، وإنزالهم على الأرض وإدخالهم إلى المدينة في الساعة التالية، ستكون مجازفة، لكنها فرصتنا الوحيدة».

ـ هل هم أكفاء.

ـ نعم. إنهم من الكوباسوس[1]، المجموعة الرابعة. أفضل رماة يمكن لجاكرتا أن تقدمهم. دعني أمضِ إلى العمل.

---

(1) : فرقة القوات الخاصة التابعة للجيش الإندونيسي، تأسست عام 1952، وتقوم بعمليات خاصة للحكومة الإندونيسية، كالحرب غير الرسمية، ومكافحة التمرد والإرهاب وجمع المعلومات الاستخبارية والاستطلاع الخاص.

***

راح الكابتن برنارد كيلزر يفحص الارتفاع على مقياس التحليق اللاسلكي.

لقد كانت من طراز فولفسبورج، فلم تكن مألوفة تمامًا له، بل استؤجِرَت، ولم تكن طائرته المعتادة. كان يطير من الغرب إلى الشمال الغربي على ارتفاع 37000 قدم. بومبارديه تشالنجر 605 هي أحدث ما توصلت إليه تكنولوجيا الطيران السلكي. واجباته ومسؤولياته كونه طيارًا هائلة، ولكن في هذه المرحلة، بعد سبع ساعات من رحلته التي تستغرق تسع ساعات من نيودلهي إلى فرانكفورت، لم يكن أمامه ومساعده الكثير سوى البقاء مستيقظين، ومراقبة الأنظمة الموجودة على متن الطائرة، ورصد السماء بعد الظهيرة.

حلق الطياران لمدة ست عشرة ساعة دون توقف تقريبًا. مسارهما في جاكرتا بإندونيسيا الساعة الثانية صباحًا بالتوقيت المحلي. سافرا غربًا، وتوقفا للتزود بالوقود في نيودلهي، ثم عادا على الفور إلى السماء.

في العادة، كان الكابتن كيلزر ومساعده، الضابط الأول لِي، يطيران برؤساء الشركات في جميع أنحاء جنوب شرق آسيا. هما أيضًا من نقلا علماء مجموعة لوران، وموظفي تكنولوجيا المعلومات ذوي الأهمية، وأي شخص في أي منشأة من خمس عشرة منشأة تابعة للشركة من الطرف الجنوبي لليابان إلى الحافة الشرقية للهند.

بالإضافة إلى رحلات العمل هذه، نقل كيلزر ولي أيضًا المديرين التنفيذيين وزوجاتهم في إجازات التنقل بين الجزر، أو إقامة حفلات فخمة في بروناي مع السلطان نفسه. حتى أنهما نقلا ذات مرة عملاء الشركة وعاملات الجنس الفلبينيات إلى جزيرة استوائية منعزلة يسكنها طهاة فرنسيون، ومدلكون سويديون ليستمتعوا لمدة أسبوع بالفجور والكسل.

نقل كيلزر جميع أطياف موظفي مجموعة لوران، لكنه لم ينقل مجموعة مثل تلك التي كان ينقلها الآن. خلفه في المقصورة كان ستة رجال. الإندونيسيون، بدوا كأنهم عساكر شبان، لكن في ملابس مدنية. كان عنبر الشحن في طائرة تشالنجر مليئًا بحقائب ظهر قماشية خضراء. التزم الرجال الصمت في معظم الأحيان. ألقى كيلزر نظرة على المقصورة التي يبلغ ارتفاعها ثماني وعشرين قدمًا في أثناء خروجه من قمرة القيادة إلى الحمام، فرأى الظلام مثقوبًا بالأقلام المضيئة، حيث انكب بعض الرجال فوق الخرائط بينما نام آخرون.

بدا أنهم مجموعة منضبطة، في طريقها إلى مهمة خطيرة، ولم يكن لدى كيلزر أدنى فكرة عن سبب تكليفه بنقلهم. مد الطيار الألماني الأصلع البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا يده وراءه ليُخرج صندوق غدائه. ومضت الشاشة متعددة الوظائف فقال مساعده: «لديك مكالمة أرض ـ جو من المكتب الرئيس على الرابط الآمن».

قال: «حسنًا». التفت كيلزر بعيدًا عن وجبته، وشغَّل وحدة التحكم المركزية لإرسال المكالمة المنتظرة إلى أذنيه وحده.

ـ نوفمبر. ديلتا. ثلاثة. صفر. ويسكي. حوِّل.

ـ ريجيل يتحدث، هل تسمعني؟

كان كيلزر يعلم أن ريجيل هو نائب رئيس العمليات في المجموعة بأسرها. عُرف عن ذلك الألماني أنه وغد وعنيف بشكل لا يُصدق. وفجأة تصور كيلزر مهمة أولئك الشباب الأقوياء في المقصورة خلفه على نحو أوضح.

ـ أسمعك بوضوح سيد ريجيل، كيف يمكنني مساعدتك؟

ـ ما مدى قربك من بودابست؟

ـ أعطني لحظة.

نظر كيلزر إلى مساعد الطيار، وهو آسيوي ذو لكنة بريطانية. قال: «إنه ريجيل. يريد أن يعرف إلى أي مدى نحن قريبون من بودابست».

فحص الضابط الأول لي موقع رحلته على نظام إدارة الملاحة. راح ينقر على لوحة المفاتيح على يساره وأجاب بعد بضع ثوانٍ: «نحن على بعد مائة وسبعة كيلومترات بين الجنوب والجنوبً الشرقي وارتفاع اثني عشر كيلومترًا».

نقل كيلزر المعلومات، فقال ريجيل: «لدينا تغيير في الخطط. أريدك أن تهبط هناك في أقرب وقت ممكن».

شعر كيلزر بقطرة عرقٍ تنساب حتى آخر رقبته. لم يشعر بالارتياح لتخييب أمل رئيس العمليات الأمنية.

ـآسف يا سيدي، هذا غير ممكن، لم نضع خطة طيران للمجر. سنواجه مشكلات جدية مع إدارة الهجرة والأمن.

ـ لا تقل لي ما هو ممكن. أنزِل الطائرة على الأرض، ووزع المعدات على الإندونيسيين، ثم اخرج من هناك.

لم يتراجع كابتن كيلزر على الفور وسأل: «كيف يفترض بنا أن نخرج من هناك؟ سنُلقى في السجن إذا هبطنا دون إذن، إذا...».

ـ أعلن حالة الطوارئ. بالتأكيد يمكنك أن تجد سببًا للهبوط بالطائرة أينما تريد. إذا احتجزوك لاستجوابك، فسأدفع ثمن خروجك، يمكننا تسوية الأمور مع المجريين بعد وقوع الحدث، هذا ليس شأنك. فقط تحقق من نزول الإندونيسيين من الطائرة قبل أن تبرح المدرج.

ـ هناك الكثير من الأمن في مطار بودابست. سيحاصرون الطائرة، وسنـــــ...».

ـ لا تهبط هناك إذًا، ابحث عن أي مطار إقليمي قريب، اهبط بالطائرة وأخرج من تنقلهم من الرجال، مفهوم؟

قلَّب الطيار بشكل محموم بين الصفحات على شاشته متعددة الوظائف. مر بين الخرائط الإلكترونية لجميع مطارات المنطقة. وقال: «توكول على بعد أربعين دقيقة بالسيارة من وسط المدينة. مدرجه طويل بما يكفي».

رد عليه: «بعيد للغاية! أحتاج إلى الإندونيسيين في وسط المدينة في أقل من ساعة!».

واصل كيلزر البحث، ثم قال: «هناك بودورس. الوصول إليها سيستغرق نصف الوقت، لكن المدرج غير مرصوف وقصير للغاية».

ـ إلى أي درجة؟

ـ هذه الطائرة بحمولة كهذه تحتاج إلى مدرج بمساحة ألف متر مرصوف على نحو مثالي، بودورس بالضبط ألف متر، لكنَّ هناك أمطارًا غزيرة، وكما قلت الطريق غير ممهد. سيكون مثل الطين!ـ إذًا يجب ألا تواجه مشكلات في الإبطاء قبل انتهاء المدرج. اهبِط بالطائرة!

ـ أنت تطالب بهبوط تحطم يا سيدي! لن يكون آمنًا على الإطلاق.

ـ إذا كنت تريد أن تكون في مأمن مني، أيها الكابتن، فستهبط بتلك الطائرة في بودروس. مفهوم؟

صرَّ كيلزر على أسنانه، فقال ريجيل: «سأرسل حافلة وسائقًا إلى هناك لاصطحابهم».

ـ سيدي، أريد أن أؤكد مرة أخرى، سيؤدي هذا إلى حادثة.

ـ سأتولى أنا هذا الأمر.

ـ عُلِم يا سيدي.

أنهى كيلزر المكالمة، وضغط بيديه على مقود التحكم في إحباط. سأله مساعد الطيار: «ماذا يحدث؟».

أجابه: «يبدو يا لي أننا على وشك أن نساعد إندونيسيا على غزو المجر».

شحب وجه الضابط الأول وقال: «ريجيل وغد!».

قال كيلزر: «هذا صحيح». ثم ضغط على بعض المفاتيح في وحدة التحكم المركزية الخاصة به، وأخرج الطائرة من نظام الطيار الآلي،

دافعًا مقود التحكم ببطء إلى الأمام. ثم تحدث في سماعة رأسه مناديًا: «النجدة. النجدة. النجدة. نوفمبر. دلتا. ثلاثة. صفر. ويسكي».

14

خلال تلك الساعة استخدم لازلو سزابو جهاز الكمبيوتر الخاص به كل خمس عشرة دقيقة، ليتفقد حسابه البنكي السويسري الذي أعطى رقمه لفيتزروي. وبين كل مرة وأخرى كان يحزم حقيبة مليئة بالأشياء الأساسية التي قد يحتاج إليها في رحلة برية دائمة. واتصل بخدمة سيارات محلية، حيث أمر سيارة ليموزين بالانتظار في الخارج عند الساعة الرابعة والنصف على أن تتجه إلى مطار بودابست. اشترى تذكرة سفر إلى موسكو من الدرجة الأولى، ثم اتصل بأحد معارفه في العاصمة الروسية لترتيب اصطحابه من المطار هناك.

وبالرغم من كل هذا النشاط، ظل يعرج كلما مضى إلى الحامل الخشبي لينظر من خلال الزجاج بين الحين والآخر، ليتحقق من وجود صيده.

جلس الرجل الرمادي نصف عارٍ على المرتبة في الحفرة الباردة، وحقيبته ملتصقة بالجدار اللزِج، وعيناه مثبتتان إلى الأمام.

لم يشعر لازلو بالذنب مطلقًا لتركه الشاب يموت، ولا لأنه سيأخذ نصف مليون يورو من السير دونالد الثري ثم يتراجع عن الصفقة، ولا للتأكيد السخيف بأن حياة فتاتين لا ذنب لهما، معلقة في ميزان مخططه الذي ضبطه بسرعة. لم يولد مختلًا اجتماعيًا، لكنه اكتسب هذا بطريقته، ونفذ مبادئ هذا الاضطراب بدقة شديدة، وبنفس اهتمامه بالتفاصيل الذي يفعله عند تزوير جوازات السفر.

لم يكذب حين قال إن الروس أزالوا مشاعره بعملية جراحية. لقد عاش وقتًا طويلًا مخبرًا، وعمل مع المقاومة الشعبية لتهريب منشقين خارج البلاد، ثم أبلغ الروس عن مسارهم نحو الغرب. لسنواتٍ ظل

يعمل مع الجانبين حتى انعدم الصواب والخطأ في نظر لازلو، إن هي إلا طرق لتحقيق مصلحته وعقبات يسعى إلى تجاوزها.

بعد مرور ساعة بالضبط تفقد حسابه. لم تُحوَّل الأموال بعد. اتصل بفيتزروي فعلم أن هناك تأخيرًا في مصرفه. يحتاج إلى بضع دقائق فقط. كانت الأموال في طريقها. ارتاب لازلو، وأقسم أنه سيفرغ الرصاص في رأس الرجل الرمادي بنفسه إذا لم يأتِ المال قريبًا، ثم هدد السير دونالد بأن الاستخبارات المركزية ستنتزع كل تفاصيل عملية شركة شلتنهام الحقيقية من أفضل قاتل فيها بالدم، وسيكون رأس فيتزروي نفسه على المحك في غضون يوم أو يومين من تسليم سزابو للرجل القابع في حفرة إلى الأمريكيين.

أخيرًا منح لازلو الرجل الإنجليزي المقنع خمس عشرة دقيقة إضافية، وتفقد سجينه في الحفرة، ثم اتصل بالسائق المنتظر في الخارج وأخبره أنه سيتأخر، ولكن عليه أن يُبقي المحرك يعمل.

عاش سزابو على المحك طوال حياته. إذا وصل قتلة وكالة الاستخبارات المركزية قبل مغادرته، فمن المحتمل أن يُقتل. إذا لم يفعلوا ذلك، فستكون بدايته الجديدة في روسيا.

***

التفت الكابتن برنارد كيلزر ببطء إلى الضابط الأول لي. دفعت الحركة العرق على جبهته إلى عينيه. نظر لي إلى الوراء نحو قائده ونثر عرقه بعيدًا. كان وجها كلا الرجلين شاحبين كلون الطباشير.

وقفت طائرة بومبارديه تشالنجر ثابتة في الوحل. يمكن للطيارين رؤية العشب والسياج الذي تحجبه أمطار غزيرة خلف الزجاج الأمامي. لقد استخدما كل سنتيمتر من المدرج، ثم ثمانين مترًا إضافية من الحقول المفتوحة المبللة.

لم يكن هناك المزيد. خفق قلب كيلزر وغلى دمه. أجبرهما ريجيل على هذا الموقف، وهو الموقف الذي حدث في غضون ثلاث ثوانٍ

من زمن الطيران الذي انتهى بشكلٍ سيئ للغاية، وعلى الرغم من أنه لم ينتهِ إلى حريقٍ وتعويضات تأمينية تُدفع لزوجته، فإن الكابتن الألماني كانَ لديه حدَس قوي بأنَّه سيحل ضيفًا لبعض الوقت خاضعًا لنظام العقوبات المجري.

ومع ذلك فقد نجوا. كانت هذه الطائرة مُجهَّزة بمكابح كربونية مانعةً الانزلاق، وبنظام لتفادي الأجسام الغريبة، وهي حواجز موضوعة حول ترس الدراجة ثلاثية العجلاتٍ لمنع حطام المدرج من تدمير الطائرة عند الهبوط. ومع ذلك، عَلِم كلٌّ من كيلزر ولي أن تشالنجر المستأجرة لن تطير من المجر بقوتها، فبالطبع تضررت التروس والمحركات، وسيستغرق الأمر بضع معدات قطْر هائلة لسحب هذه الطائرة التي تبلغ تكلفتها عشرين مليون دولار من حفرة الطين التي ترقد فيها الآن.

بعد بضع ثوانٍ أخرى للتعافي من إجهاد الهبوط وإرهاقه، أغلق كيلزر جميع الأنظمة، وهو إجراء روتيني عند نشوب حريق على متن الطائرة. الآن لم يعد هناك سوى صوت هطول الأمطار على جسم الطائرة ونوافذها.

في رسالة الاستغاثة إلى برج المراقبة في مطار بودورس، ادعى أنه اشتم رائحة الدخان في قمرة القيادة. ربما كان سيتوصل إلى خدعة أكثر إقناعًا لو تسنى له المزيد من الوقت. ولكن منذ أن تلقى مكالمة من ريجيل حتى هذه اللحظة، مرت خمس وثلاثون دقيقة فقط، في غضون ذلك كان ذكاؤه مشغولًا تمامًا، حيث أسقط طائرته من ارتفاع أربعمائة عقدة وسبعة أميال في الهواء إلى طريق مسدود، بعد حافة مدرج قصير للغاية، وغارق في المطر، وغير ممهد، في مطار لا يعرفه.

لقد أبلى بلاءً حسنًا، وكان يعرف ذلك. حتى أنه اعتقد ـ في أعلى لحظات التفاؤل الناتج عن ارتفاع الأدرينالين بعد الهبوط ـ أنه قد يتمكن من إقناعهم بالخروج من السجن إذا استمر في سلسلة انتصاراته لبضع دقائق أخرى. لكن هذا الحلم الكاذب تلاشى عندما أعادته إلى

الواقع حركةٌ خارج الزجاج الأمامي. اخترقت شاحنة سوداء السياج أمامه مباشرة. ظهر الإندونيسيون الستة حول ميمنة البومبارديه، يسحبون حقائب الظهر التي أخذوها من عنبر الشحن.

صعدوا بسرعة إلى السيارة. في حين جلس الكابتن كيلزر والضابط الأول لي في صمت يحدقان إلى الحركة أمام قمرة القيادة الخاصة بهما. كانت الشاحنة السوداء تسير في الوحل والعشب من حيث أتت، وانزلقت في مياه الأمطار في الجانب الآخر من الطريق، ثم انطلقت بسرعة عبر العاصفة.

كان كيلزر يعلم أن هذا الحدث الدرامي لن يمر دون أن يلاحظه أحد من برج المراقبة خلفه. وهذا الحدث الدرامي، على حد علم كيلزر، سيزج به هو ولي خلف القضبان حتى يتمكن هذا الأحمق ريجيل من إخراجهما.

وخطر ببال كيلزر وهو يضع قبعته على رأسه ويغادر الطائرة تحت المطر الذي انهمر على وجهه، ويصل إلى سمعه صوت صفارات الإنذار، أن السيد ريجيل سينشغل قطعًا بفوضى أخرى عليه أن يعتني بها قبل انتهاء اليوم؛ لذلك يجب أن يستعد هو ولي لنسيان أمرهما لبعض الوقت.

***

ظهر التحويل البنكي في حساب سزابو، بينما كان يُجري مكالمة ثالثة عنيفة مع فيتزروي. كان من المقرر أن تصل وكالة الاستخبارات المركزية في غضون عشر دقائق. بدا موقفه شديد الخطورة، ولكن الآن استلم الأموال، ويمكنه المغادرة. أغلق الهاتف في اللحظة التي أجاب فيها فيتزروي. بعد ذلك، عاد مرة أخيرة إلى الرجل الرمادي، ودَّعه وتمنى له حظًا سعيدًا، وانتهى من حزم حقيبته، ثم خرج من الاستوديو/ المختبر / ورشة العمل الخاصة به، مترنحًا في الردهة بسرعة بقدر ما يسمح جسده المشلول.

كان على وشك أن يبلغ الباب عندما رن جرس الهاتف. قرر أن يجيب معتقدًا أن رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية سيقدم له تحديثًا بشأن تقدم العملاء في الطريق، كان عليهم أن يتصلوا لو كانوا على بعد لحظات. رفع الهاتف. قال فيتزروي: «لقد أوفيت بالجزء الخاص بي من الصفقة. لقد حان الوقت لكي تفي أنت بالجزء الخاص بك».

ـ أنا مندهش يا سير دونالد. هواتفي مشوشة، كيف فعلتَ...؟

ـ لدي طرقي، لازلو الآن حرِّر الرجل الرمادي قبل أن يأتوا إليه! العرق الذي كان يقطر بالفعل على ظهر المجري الستيني تحول إلى جليد بارد. كان فيتزروي يعرفه جيدًا. أدرك سزابو أن الرجل الإنجليزي الماكر سيظل يطارده لبقية حياته. فقال: «سأطلق سراح فَتَاكَ على الفور».

ـ لن تخدعني، أليس كذلك؟ تخادعني وتخادع وكالة المخابرات المركزية؟

ـ أعدك كرجل نبيل.

ـ حسنًا لازلو، استمتع بالمال.

وانقطع الخط.

فكر سزابو في اتخاذ خطوة أخيرة على الحامل، ألقى نظرة أخرى إلى الحفرة، لكنه قرر عدم فعل ذلك. وعاد مسرعًا عبر الرواق والحقيبة في يده.

انطلق نحو الباب الحديدي الصغير، لكنه طار عائدًا إلى الداخل عندما وصل إليه. إذ سطعت أضواء باهرة في عيني المجري، على الرغم من أن الجو في الخارج كان مظلمًا وممطرًا. قفز للخلف مصدومًا، وتعثرت ساقه المصابة ليسقط على ظهره. نظر إلى الأضواء بعيدًا، ورأى فريقًا من الرجال يرتدون ملابس سوداء وأقنعة، وستة مسلحين بأسلحة ذات ماسورة قصيرة مثبتة على مستوى العين. كان يبرز من كل

بندقية كشّاف إضاءة قوي. هبط أقرب رجل له على واقي ركبة أسود اللون، ورفع سزابو من رقبته.

تحدث بهدوء باللغة الإنجليزية: «أتنوي الذهاب إلى مكان ما؟». كانوا من الاستخبارات المركزية. بصعوبة رأى سزابو العينين اللتين خلف نظارة العميل.

ـأنا.. كنت أنتظركم. كنت فقط سأضع الحقيبة في السيارة، كما ترى. سأخرج بعد أن تنتهوا يا رفاق.

ـبالتأكيد. أين الطرد؟

ساعدوا سزابو على النهوض على قدميه. أبقى جميع الرجال في القاعة الضيقة أسلحتهم مشهرة أمامهم.

قال: «إنه في الغرفة الأمامية، في نهاية الردهة. اصعد على الحامل، وانظر إلى أسفل. إنه على عمق اثني عشر قدمًا في الصهريج، مغطى بطبقة سميكة من...».

قال له: «أرِنا».

أدرك سزابو من نبرة الرجل أنه ليس هناك تفاوض. استدار وعرج مرة أخرى في الردهة مع القوات الأمريكية شبه العسكرية.

***

داخل الغرفة منخفضة الإضاءة. وجَّه قائد وحدة الأنشطة الخاصة رجاله الخمسة ناحية الجدران وصعد ببطء إلى الحامل. حثه لازلو على ذلك، وأخبره أنه لا يوجد ما يخاف منه، وحرص على ذكر اسم رئيس المحطة ما لا يقل عن ثلاث مرات كطريقة لإعلام مسلحي وكالة الاستخبارات المركزية بأنه «واحد منهم». أخيرًا صعد القائد المسلح على الحامل وحدق بحذر إلى الزجاج.

قال لازلو الذي لم يكف عن استجداء ودهم: «من المحتمل أن يكونِ معه مسدس، لكنه لا يستطيع استخدامه عندما يكون الغطاء مغلقًا. يجب أن يكون راقصًا بارعًا لكي يتفادى الارتداد في تلك

المساحة الصغيرة. رئيسك في العمل وعد لازلو بأنه سيجري الاعتناء به. ربما يجب أن أتصل به ويمكنكم جميعًا التحدث حتى تروا كل ما فعله لازلو من أجلكم. لازلو المخلص، هكذا يناديني».

انحنى قائد فريق العمليات إلى أبعد من ذلك، ثم أبعد. ووضع ركبته فوق الزجاج، ثم استدار ببطء وعاد إلى سزابو وصاح: «ما هذا بحق الجحيم؟».

لم يفهم لازلو فسأله: «ماذا تقصد؟ إنه الرجل الرمادي ملفوف في ربطة لطيفة لأصدقائي في الاستخبارات المركزية».

سأل العميل الأمريكي الذي كان قد وقف في هذه اللحظة واستدار لمواجهة المجري: «هل قتلته؟».أجابه: «بالطبع لا. لماذا تسألني هذا السؤال؟». سرعان ما عرج السيد المزور على عصاه نحو الحامل ليرى ما الخطأ.

***

لم يكن كورت مكتوف اليدين طوال السبعين دقيقة الماضية كما افترض سزابو. ما إن تركه المجري وشأنه سحبِ قلادته من رأسه، ومزق الطبقة الخفيفة ليستخرج منها سلكا شائكا، استخدمه ليقطع أنبوب الماء المكشوف أسفل المراتب. كان يقطعه من طرفين بحيث يفتح السلك بضعة ممرات أخرى في الأنبوب ويملأ الخزان بمياه الينابيع الساخنة في غضون دقائق.

مع انتهاء ذلك، سحب جينتري مسدسه، وأخرج الطلقة من غرفة الإطلاق، وأخذ الطلقات الاحتياطية من سرواله.

استعان بحذائه المضاد للماء كصندوق تجميع، وبكمّاشة من أداته متعددة الاستخدامات، فكَّ كل خرطوشة، وصب البارود الذي يحتوي على نترات البوتاسيوم في الحذاء العالي. بعد أن جمع المسحوق من ثلاثين رصاصة كان يحملها، ففكك إحدى خزائن الرصاص وأزال الزنبرك، وأعاد لصق الصفيحة، وأحكم ملأها بالبارود من حذائه،

ثم وضع المشط في الجزء العلوي ليصنع ضغطًا يحفز التفجير بشكل أكثر إحكامًا في الخزينة المعدنية.

استخدم كورت زنبرك الخزينة لربط المشط بأمان في مكانه. تفقده لازلو من وقت لآخر. أحدث العجوز الكثير من الضوضاء في أثناء التسلق على الحامل الخشبي، ولم يكن أمام الرجل الرمادي سوى أن يحشر مشروعه الفني وأدواته أسفل المرتبة العفِنة في الوقت المناسب لتجنب اكتشافه.

نزع جينتري جوربًا وملأه بالخراطيش الفارغة، لأن المسحوق لن يشتعل دون مساعدة من الفتيل الذي تحتويه كل خرطوشة. حشر الخزينة المليئة بالمسحوق في الجورب وربط كل شيء معًا بإحكام مع حذائه.

في قبضة يده جورب كبير وثقيل يضاهي القنبلة اليدوية قوة تقريبًا. مزَّق جينتري بعض القطع من القماش من المرتبة، وربطها معًا ليصنع حبلًا رفيعًا يبلغ طوله عشر أقدام تقريبًا. أعاد حشو مسدسه الفالتر بالرصاصة المتبقية، وترك الخزينة فارغة.

ربط المسدس بمزيد من خيوط المرتبة، إذ وضع فوهة الماسورة التي يبلغ قطرها 3 بوصات ونصف في بقعة فارغة داخل الجورب المليء بالفتائل والمتفجرات. ثم ربط الخيط الطويل بزناد المسدس.

في النهاية خلع جينتري سرواله، وربط رجليه بإحكام عند الكعبين ثم مرة أخرى عند الجذع، وفر له هذا فقاعتين مملوءتين بالهواء. لن تصمدا في المياه لفترة طويلة لكن ما يكفي لاحتياجاته. ثم استخدم رباط الحذاء الأخير لربط القنبلة اليدوية بالسراويل.

جلس وبنطلونه ملفوف على رجليه حتى لا يلاحظ لازلو بسهولة أنه خلعه. أخيرًا، سحب حشوات من الإسفنج المبلل من المرتبة لاستخدامها كسدادات للأذن عندما يحين الوقت.

هكذا كان كورت مستعدًّا. انتظر، وسرعان ما انحنى سزابو مودعًا ثم اختفى.

كانت هذه إشارة الرجل الرمادي. قطع الأمريكي أنبوب الماء بحدة. في غضون دقيقة امتلأ منسوب الخزان، لأعلى من الركبة، بالماء الساخن مثل حوض الاستحمام. نهض كورت حاملًا القنبلة والمسدس مثبت عليها، والسروال الذي يحوي غرف الهواء، كل هذا في يديه.

وقف هناك بملابسه الداخلية وانتظر ارتفاع الماء. في غضون ثلاث دقائق طاف مع الماء والمراتب، وثب في مكانه. بعد ست دقائق، امتلأ الخزان حتى القمة تقريبًا. حارب الذعر. كان يعلم أنه لا يوجد ما يضمن أن جهازه الغريب سيعمل أو حتى لو نجح هل سيكون قويًّا بما يكفي لفتح الباب المسحور؟

عندما كان الماء على بعد ثلاث بوصات من السقف الزجاجي، أجبر كورت نفسه على التنفس السريع في المساحة الصغيرة. ملأ كل رئتيه، ثم انبطح أسفل السطح، ووضع القنبلة العائمة في إحدى المفصلات. دفع المرتبة بينه وبين قنبلته، ثم سبح إلى أسفل الخزان، بيد واحدة ممسكة بخط قماش الفراش الذي يؤدي إلى زناد المسدس، واليد الأخرى ملفوفة حول أنبوب الماء لتثبيته في العمق.

نظر إلى أعلى ليتيقن من أن كل شيء في مكانه، ورأى أن جهازه الغريب قد طاف بعيدًا عن المفصلة. صعد بسرعة إلى الأعلى مستنفدًا احتياطي الهواء. الآن لم يكن هناك هواء للتنفس. أزاح المرتبة على الجانب بصعوبة، وأعاد وضع القنبلة، ثم صارع للوصول مرة أخرى إلى القاع. كان جرحه الحديث في فخذه اليمنى يؤلمه بشدة مع انثناء عضلاته. بدا أن الهلع والجهد المحموم ونفاد الأكسجين ينافس بعضها بعضًا للضغط على قلبه وسحقه بقوة داخل جسده.

أخيرًا وصل إلى أنبوب الماء وتمسك به. نظر إلى الخلف ورأى أن جهازه في مكانه.

وقبل أن يسحب الحبل، رأى هيئة دكناء لشخص يخطو على الحامل ويجثو على ركبته، قبل أن يلتفت إلى الخلف مواجهًا شخصًا ما في الغرفة.

***

قال قائد الفريق: «لا بد أنه مات. هذه الفتحة مليئة بالـ....».

مع فرقعة صامتة، طار العميل الذي كان يرتدي ملابس سوداء في الهواء. انفجر السطح الزجاجي تحت قدميه، وانهمر الماء الأبيض في جميع الاتجاهات، ومزقت قطع من البلاستيك الحاد السقف أعلاه. سقط العميل على يسار الحامل، واندفعت موجة مد من الماء الدافئ فوقه.

هرع المسلحون الآخرون بحثًا عن مخبأ، بينما سقط سزابو على ظهره في منتصف الغرفة. كان القائد على قيد الحياة. جثا على ركبتيه واستعاد سلاحه على الحامل إلى يساره.

صرخ: «يا يسوع! كل العناصر، قف سريعًا!». بينما تصفر طبلة أذنه من الانفجار.

في ذلك الوقت، تدفق عبر الردهة رجال صغار البنية يرتدون ملابس مدنية ويرفعون بنادقهم عاليًا إلى الغرفة، واندلع إطلاق نار في كل مكان.

كان لازلو سزابو أول من مات.

15

حتى مع سدادات أذنيه البدائية صرخت أذنا كورت من ضغط الانفجار. دفع قدميه إلى قاع الخزان، وأطلق النار على السطح. لم تكن لديه فكرة عما ينتظره بالأعلى. وكالة الاستخبارات المركزية؟ هل عاد (لازلو) ليتفقده للمرة الأخيرة؟ في النهاية، لم يكن الأمر مهمًا. كان بحاجة إلى الهواء.

دفع نفسه إلى أعلى، وعندما تخطى رأسه سِطح الماء، دفع الباب البلاستيكي ليفتحه. تحطم كلا المفصلين، وكسِر الحاجز الزجاجي. سحب نَفَسًا هائلًا من الهواء وتدافع إلى الجانبين، ليتدحرج من الحامل الخشبي إلى الأرض، محاطًا بموجة من الماء الدافئ.

وجد نفسه قبالة الجدار في الزاوية الخلفية للغرفة. دوى صوت إطلاق نار وصياح الرجال عن قرب في كل المكان، لكن كورت لم يرَ أحدًا حول حافة المنصة. جثا على ركبتيه وانحنى على الأرض، ثم انطلق نحو الردهة الخلفية، تضرب قدماه مشمع الأرضية من تحته. لم يُضِع وقتًا في النظر إلى الوراء.

أيًا كان ما يحدث في هذه الغرفة، لم يكن لدى جينتري أي نية لخوضه دون سلاح ناري، ولم يكن يعرف هوية اللاعبين.

تناثر مقبض الباب المؤدي إلى الردهة بنيران مسدس رشاش على بعد خطوة من وجه جينتري. ركض نحوها مباشِرة، عبر ضغط الذخيرة الأسرع من الصوت والشظايا المتطايرة، نزولًا إلى الردهة المظلمة وإلى الحمام حيث كان يحلق ذقنه قبل ذلك بساعة ونصف. اندفع بسرعة نحو حقيبته وألقاها على كتفه.

انطلق بسرعة إلى غرفة نوم صغيرة في نهاية القاعة، مرتديًا ملابسه الداخلية فقط وضمادة على فخذه. فوق السرير المزدوج المنخفض كانت توجد نافذة بها شبكة سلكية رفيعة. حطم الزجاج بطاولة ذات قوائم معدنية، ورفع المرتبة دافعًا إياها فوق حافة النافذة لتغطية أي شظايا متبقية، ثم زحف فوقها إلى فناء صغير. كان باب المبنى قد أُغلِق خلف لازلو، لذلك ركض كورت إلى أبعد زاوية في الفناء.

فوق نافذة في الطابق الأول استخدم قضبي الأمان الحديديين ليشق طريقه صعودًا إلى شرفة بالطابق الثاني، حيث حطم النافذة الزجاجية بعد أربع ركلات واهنة أو خمس من كعبه الأيسر.

استمر دوي الطلقات النارية تحته وخلفه. وحرص على تجنب الزجاج المكسور المتبقي في اللوح الزجاجي إذ يخطو عبر النافذة، لكن عندما صعد إلى الشقة، جرح كلتا قدميه وهو يطأ السجادة. صرخ من الألم، وسقط على ركبتيه، فجرحهما أيضًا.

مشى ببطء في غرفة النوم الصغيرة، وقف أخيرًا ليعرج نحو الحمام، وأخذ يفتش خزانة الأدوية.

بعد ثوانٍ جلس على كرسي الحمام وضمَّد إصاباته الجديدة. كانت قدمه اليمنى بخير، وخزة صغيرة سكب عليها مُطَهِّرًا ولفها بورق الحمام. لكن مشط قدمه اليسرى كان أسوأ حالًا؛ فكان به ثقب عميق نسبيًّا. غسله بسرعة وشد حوله منشفة يد لإيقاف النزيف. كان الجرح بحاجة إلى خياطة، لكن كورت علم أنه لن يحصل على هذا في أي وقت قريب.

على غرار قدميه، كانت ركبته اليسرى بخير، إلا أن إصابة الركبة اليمنى كانت بالغة. جفل بينما يسحب قطعة زجاج من جلده، علق نصل بائس بجسده في أثناء إزالته، فسالت دماؤه على الأرض.

«تبًّا!». تأوه وهو ينظف ويضمد جروحه قدر الإمكان، وبعد ثلاث دقائق، انتبه إلى أن إطلاق النار قد توقف في الفناء. سمع صفارات

الإنذار وصراخ طفل يبكي في الشقة المجاورة، أيقظته الحركة من غفوته.

في البدء ظن أن الشقة فارغة، وحين دخل غرفة المعيشة، كان لا يزال مرتديًا سرواله الداخلي الرطب، لكن بقدمين وركبتين مضمدتين. وجد سيدة مسنة تجلس بمفردها على الأريكة. نظرت إليه بعينين باسمتين وثابتتين وزرقاوين لا يملؤهما خوف. مد يده لتهدئتها، لكنه أنزلها ببطء.

قال: «لن أوذيكِ». لكنه لم يكن واثقًا ما إذا كانت تفهم. أشار بيده كأنه يشد بنطلونًا، فأشارت ببطء إلى غرفة في نهاية الردهة. هناك وجد ملابس رجالية. زوج ميت ربما؟ لا، ابن في عمل بعيد. وجد معاطف زرقاء وارتدى واحدًا، وأحذية ثقيلة ذوات طرف فولاذي. كانت كبيرة للغاية، لكنها ستناسبه مع زوجين من الجوارب البيضاء.

شكر جينتري السيدة بانحناءة وابتسامة، فبادلته إيماءة بطيئة. أخرج من حقيبته رزمة من اليورو ووضعها على المنضدة. قالت المرأة العجوز شيئًا لم يفهمه، انحنى مجددًا قبل أن يخرج من باب الردهة بالطابق الثاني.

خرج كورت جينتري في المطر المنهمر مصابًا، غير مسلح، ودون وسيلة النقل أو الوثائق التي قطع الطريق كاملًا إلى بودابست للحصول عليها. نظر في ساعته، كانت الخامسة بعد الظهر، ثماني ساعات ونصف الساعة منذ أن بدأ رحلته. والآن يشعر أنه أبعد مما كان عليه حين بدأ.

***

في مكتب مجموعة لوران في لندن، انتظر لويد وفيتزروي أخبار الإندونيسيين. جاءت الأنباء بعد الرابعة مساءً، لكن ليس من الفريق نفسه. رن هاتف السير دونالد.

كان جينتري.

ـ شلتنهام.

ـ هذا أنا.

كان على فيتزروي أن يستعيد هدوءه قبل التحدث، وأخيرًا قال: «الحمد لله! هل تخلصت من سزابو؟».

ـ نعم، منذ قليل.

ـ ماذا حدث؟

ـ لست واثقًا. يبدو أن فريقًا ميدانيًّا من إدارة الأنشطة الخاصة قد ظهر، لا بد أن سزابو كان لديه بعض الأمن الشخصي، لقد تفجر الوضع.

تبادل لويد وفيتزروي التحديق.

ـ أوه.. حسنًا، مفهوم. كيف حالك؟

ـ على قيد الحياة.

ـ أين أنت الآن؟

ـ ما زلت في بودابست.

نظر كل من لويد وفيتزروي إلى الفني. انحنى رأسه فوق جهاز حاسوب، لكنه أومأ إلى أعلى وإلى أسفل، مؤكدًا مصداقية الهدف عبر تحديد البرج الخلوي الذي يستخدمه الهاتف.

سأل فيتزروي: «وماذا الآن؟». كان السؤال موجهًا إلى الأمريكي على يمينه بقدر ما كان موجهًا إلى الأمريكي على الطرف الآخر من الخط.

ـ أنا أتجه غربًا. كل شيء لا يزال على المسار الصحيح. هل لديك مزيد من المعلومات لي؟

ـ نعم. الرجال الذين قابلتهم هذا الصباح في براغ كانوا ألبانيين، مرتزقة بسطاء، استأجرتهم الاستخبارات النيجيرية.

ـ لقد تعاقدوا على الأرجح مع فريق جديد الآن. هل هناك أي فكرة عما ينتظرني؟

ـ يصعب القول يا بني. أنا أعمل على ذلك.
ـ ماذا تعرف عن هيكل قوة الأعداء الذين يحيطون بعائلتك؟
ـ أربعة أنواع أو خمسة من الشرطة السرية النيجيرية. ليسوا من مسلحي الدرجة الأولى بأي حال من الأحوال، لكنهم قطعًا يثيرون ذعر أسرتي.
ـ كلما اقتربت، سأحتاج إلى الموقع المحدد.
ـ نعم. ستكون هناك بحلول صباح الغد؟
ـ لا. عليَّ أن أتوقف أوَّلًا لإجراء أمر ما.
ـ آمل ألا يكون هناك منعطف خطير آخر.
ـ لا، هذا أمر سريع.
تردد فيتزروي ثم قال: «حسنًا. هل تحتاج مني إلى شيء آخر».
ـ أي شيء آخر؟ ماذا أعطيتني حتى الآن؟ انظر، أنت مديري، فلتُدر أي شيء. أحتاج إلى معرفة ما إذا كنت سأواجه المزيد من الحمقى فَي طريقي. أريد أن أعرف كيف اكتشف النيجيريون اسمي، وكيف عرفوا عنك. هناك شيء معقد للغاية هنا، وأحتاج إلى معرفة أكبر قدر ممكن منه قبل أن أصل إلى نورماندي.
ـ أتفهم. أنا أعمل على ذلك.
ـ هل كان لديك أي اتصال مع الخاطفين؟
ـ بشكل متقطع. يعتقدون أنني أفتش كل مكان بحثًا عنك. أنا أتصل بجميع من في شبكتي، فقط لتجميل الصورة كما تعلم.
ـ استمر في ذلك. سأبقى بعيدًا عن الشبكة. اتصل بي إذا علمت أي شيء.
وانقطع الخط.
في غضون دقيقتين حصل فيتزروي ولويد على شرح أوفى لما حدث. اتصل ريجيل، وتمكن الثلاثة من ربط بعض التفاصيل ببعض. قُضيَ على الإندونيسيين الستة بالكامل، كلهم موتى. كانت الاستخبارات المركزية قد أضرمت النيران في المبنى لتغطية آثارهم. ولم يعرف ما إذا

وقع ضحايا في صفوف الوكالة. مات سزابو، واستعان جينتري بحياة أخرى من حيواته التسع، لكنه فر طليقًا.

سأل ريجيل: «إذًا أين هو الآن؟».

ـ يتجه غربًا من بودابست.

ـ عبر قطار؟ سيارة؟ دراجة نارية؟.

ـ لا نعرف. اتصل بنا من هاتف محمول على الأغلب اختطفه من أحد المارة، وتركه بعد أن أغلق الخط مباشرة.

سأل كيرت ريجيل: «أي شيء آخر للإبلاغ عنه؟».صاح لويد في الهاتف غاضبًا: «أبلغني أنت يا ريجيل! ماذا حدث لفرقة الكوباسوس الإندونيسية؟ ظننتُ أنك قلت إن جينتري لن يقدر على مواجهتهم!».

أجاب ريجيل: «جينتري لم يقتلهم. القوات شبه العسكرية التابعة للاستخبارات المركزية هم من فعلوا ذلك. انظر يا لويد، كلنا نعلم أن الرجل الرمادي لديه قدرة على التحمل. كانت خطتي طوال الوقت هي أن يستطيع فريق أو فريقان إفساد توازنه، ودفعه إلى التفاعل بدلًا من أن يكون استباقيًا. بهذه الطريقة سيتعثر في الفريق التالي ويكون غير مستعد».

قال لويد: «لدينا عشر فرق أخرى تنتظره. أريده ميتًا قبل انقضاء الليل».

أجابه: «اتفقنا على شيء ما إذن».

أغلق ريجيل الخط.

حول لويد انتباهه إلى الإنجليزي. كان وجه الرجل الأكبر سنًا يتلوى ألمًا.

سأله: «ما الأمر؟».

كان ألم فيتزروي شديدًا.

ـ ماذا دهاك؟

ـ أعتقد أنه قال لي شيئًا. لم يكن يقصد إخباري، لكني أدركت الأمر.

جلس لويد، واختفت مع حركته الثنيات القليلة في بدلته المخططة وسأله: «ماذا؟ ماذا أخبرك؟».

أجابه: «أنا أعرف إلى أين هو ذاهب».

اتسع وجه المحامي الأمريكي الشاب ببطء إلى ابتسامة.

وقال: «ممتاز!». ثم مد يده إلى هاتفه المحمول وأضاف: «أين؟».

ـ هناك مشكلة. هذا المكان الذي يذهب إليه، لم يعرف عنه سوى ثلاثة رجال فقط. أحد هؤلاء الرجال ميت، والآخر هو الرجل الرمادي، وأنا. سأخبرك أين، ولكن إذا لم تدمره مسابقة برنامجك الواقعي هذه هناك، فسيعلم أنني من أوقعت به. إن أخطأ فتيانك إصابته هذه المرة سينتهي الأمر.

ـ دعني أقلق بشأن ذلك. أخبرني إلى أين هو ذاهب.

ـ جراوبوندن.

ـ أين هذا بحق الجحيم؟

16

جلس سونج بارك كيم بلا حراك متأملًا في أثناء الطيران، لكن عينيه كانتا مفتوحتين، مستيقظتين ومنتبهتين عند الهبوط في مطار شارل ديجول. كان الراكب الوحيد في طائرة رجال الأعمال فالكون 50، استقرت يداه الصغيرتان الخشنتان على ركبتيه، واختبأت عيناه خلف النظارة الشمسية الأنيقة تناسب بذلته المخططة المفصَّلة بدقة بيئته تمامًا.

خُصصت المقصورة لسفر المسؤولين التنفيذيين، وبدا أنه مسؤول تنفيذي آسيوي شاب لكن ليس شديد الأهمية.

انزلقت الطائرة الفالكون على المدرج، ثم خرجت من الممر لتجاوز صفًا طويلًا من الطائرات المتوقفة في هيئة واحدة. فتح باب لتبدو الطائرة كمستودع مفتوح، حيث تنتظر فيه سيارة ليموزين، لا تزال مبتلة من رذاذ الأمسية الغائمة، ويقف بجانبها سائق. وما إن توقفت الطائرة تمامًا وهدأ محركها، عاد مساعد الطيار إلى المقصورة ذات السبعة مقاعد حاملًا حقيبة رياضية من النايلون.

جلس أمام سونج بارك كيم، وأنزل الحقيبة على طاولة خشب الماهوجني بينهما. لم يقل كيم شيئًا.

قيل لي أن أعطيك هذا عند الهبوط، جرى التعامل مع الهجرة. لا مشكلات جمركية. هناك سيارة في انتظارك.

أومأ الرجل الكوري قصير الشعر بإيماءة مقتضبة على نحو فظ، تكاد تكون غير ملحوظة. قال مساعد الطيار: «استمتع بباريس يا سيدي».

تراجع إلى قمرة القيادة، وأُغلِق الحاجز الصغير خلفه.

فتح سونج بارك الحقيبة، وسحب مسدسًا آليًّا من طراز هيكلر وكوخ **(MP7A1)**. تجاهل الدبشك المثبت عليه منظار، وأمسك بالسلاح أمامه كأنه مسدس عادي، وهو ينظر من خلال وحدة الرؤية البسيطة. به خزينتان طويلتان ورفيعتان، كل واحدة مليئة بعشرين طلقة مجوفة من عيار **4.6x30** مم- خراطيش نقطية، رُبط بعضها بعض بحزام من النايلون.

أعاد السلاح إلى الحقيبة.

بعد ذلك أخرج هاتفًا محمولًا وسماعة أذن. وضع سماعة الأذن في مكانها على جانب رأسه وشغَّلها، وكذلك الهاتف الذي فتحه قبل وضعه في جيب معطفه. وفي الجيب الآخر وضع جهاز استقبال محمولًا لتحديد المواقع. بقي في الحقيبة المزيد من خزائن سلاح **(MP7)**، كاتم الصوت، وبعض الملابس في الحقيبة لم يمسسها أحد. وأخرج من الحقيبة سكينًا قابلًا للطي بمقبض أسود، ووضعه في جيبه.

بعد دقيقتين جلس في السيارة الليموزين. نظر السائق إلى الأمام مباشرة بينما يقول كيم: «وسط المدينة». تحركت الليموزين إلى الأمام نحو أبواب المستودع.

كان كيم كوريًّا جنوبيًّا قاتلًا يعمل في جهاز المخابرات الوطني. كان أفضل من لديهم. تولى خمس عمليات خطرة داخل كوريا الشمالية، معظمها دون دعم على الإطلاق، حوَّله هذا إلى أسطورة في وحدته، إلى جانب تنفيذ سبع عمليات أخرى في الصين تجاه منتهكي العقوبات الكورية الشمالية، واثنتين في روسيا ضد مسربي الأسرار النووية، وعدد قليل من الضربات ضد زملائه الكوريين الجنوبيين الذين يحتاجون إلى تعديلات دائمة في المواقف تجاه جيرانهم الشماليين العدوانيين.

كل هذا جعل سونج بارك كيم، ذا الاثنين والثلاثين عامًا، الخيار الواضح عندما طُلب من قادته تجهيز قاتل لاصطياد آخر في باريس مقابل مبلغ نقدي.

لم يصرح كيم بآرائه بشأن مهامه. إذ كان يعمل بمفرده، ولم يكن لديه من يصرح له. ولكن لو طُلب رأيه، لقال إن هذه المهمة كانت مريبة حتى النخاع. عشرون مليون دولار لرأس الرجل الرمادي، وهو عميل سابق في وكالة الاستخبارات المركزية، وكما سمع من الإشاعات، لم يكن يستحق التخلي عنه كما فعل رؤساؤه.

عرضت شركة أوروبية العشرين مليون دولار. لم يشبه هذا العمليات القومية التي تولى أمرها كيم طوال حياته المهنية. ومع ذلك، كان كيم يعلم أنه أداة للسياسة الداخلية والخارجية لكوريا الجنوبية، لم يطلب أحد مشورته، وأولئك الذين تقرر تغليب حكمهم قرروا أن عليه أن يأتي هنا إلى باريس، ويستقر، وينتظر مكالمة تعطيه موقع الرجل الرمادي، ليفرغ الرصاص الساخن في ظهر ذلك الوغد البائس.

***

جراوبوندن هي مقاطعة في شرق سويسرا، تختبئ في مكان صغير بالقرب من الحدود الجنوبية الغربية للنمسا. تُعرف باسم مقاطعة المائة وخمسين واديًا، ويمتد أحد هذه الوديان من الشرق إلى الغرب في منطقة تسمى إنجادين السفلى.

هناك، تقع قرية جواردا الصغيرة فوق الحافة الحادة لتل شديد الانحدار أعلى الوادي، على بعد أميال فقط من الحدود النمساوية الإيطالية. لا يوجد سوى طريق واحد فقط ومتعرج يؤدي إلى القرية الصغيرة، ويربط المنازل نصف الخشبية بمحطة قطار غير ثابت التوقف ذات غرفة واحدة، وهي تستغرق أربعين دقيقة من المشي الشاق.

لا توجد في القرية سيارات تقريبًا، بل حقول يفوق عدد الحيوانات فيها عدد البشر المقيمين. تنتشر الطرق الضيقة المرصوفة بالحصى صعودًا بين المباني البيضاء، جنبًا إلى جنب مع أحواض المياه والحدائق المُسيَّجة. تنتهي المدينة فجأة، ويواصل التل انحداره

الشديد، وهو مرج يرتفع إلى غابة صنوبر كثيفة تفسح المجال أمام المنحدرات الصخرية التي تلوح في الأفق فوق المدينة، وتُشرف على قاع الوادي بالأسفل وكل من يمر أو يقترب.

يفهم القرويون اللغة الألمانية، ولكن فيما بينهم يتحدثون الرومانش، وهي لغة لا يكاد يتكلمها سوى واحد بالمائة من السبعة ملايين ونصف المليون سويسري، ولا يفهمها شخص آخر على وجه الأرض.

في الرابعة صباحًا، دارت بضع زوابع ثلجية حول الطريق الصغير من سفح الوادي إلى جواردا. يعرج على الطريق المتعرج شديد الانحدار رجل وحيد، يرتدي الجينز السميك، ومعطفًا ثقيلا، وقبعة قماشية سوداء، وقد علّق حقيبة ظهر صغيرة على كتفيه.

قبل عشر ساعات، وبعد دقائق من التحدث مع دون فيتزروي من هاتف خلوي وردي كان قد اختطفه من الحقيبة المفتوحة لطالبة جامعية ثملة للغاية، تترنح بمفردها على الرصيف. وجد جينتري متجرًا للملابس في الهواء الطلق في بودابست، واشترى خزانة ملابس كاملة، جديدة تمامًا، بداية من حذاء جلدي وحتى الجزء العلوي من قبعته السوداء القماشية.

في غضون ساعة من مغادرته مبنى سزابو، استقل حافلة في محطة نيبليجت متجهًا إلى بلدة هيجشالوم عند الحدود المجرية.

نزل من الحافلة على بعد نصف ميل من الحدود، وسار شمالًا خارج القرية إلى أحد حقل، ثم استدار يسارًا. لم تكن الليلة مقمرة، كان لديه مصباح يدوي ميداني في حقيبته، لكنه لم يستخدمه. بدلًا من ذلك، مشى متعثرًا إلى الغرب، وسار مسافة ميل واحد على قدميه المصابتين، وشعر بالوخز والدم الدافئ في جواربه وبين أصابع قدميه الباردة.

أخيرًا، قبل الساعة الثامنة مساءً بقليل، عبر حقلًا مليئًا بطواحين الهواء الحديثة، ووجد نفسه في بلدة نيكلسدورف النمساوية الواقعة على الحدود.

لقد وصل إلى الاتحاد الأوروبي. كانت مسافة ميل آخر ـ ظل يعرج بجرح من طلق ناري في الفخذ والقدمين، وركبتين مصابتين ـ قبل أن يجد الطريق. مشى غربًا رافعًا إبهامه لبضع دقائق. أوقف سائق شاحنة، لكنه كان متجهًا إلى الشمال ولم يستطع مساعدته. سائق ثان ثم ثالث كانا يسيران في الاتجاه المقابل.

في التاسعة والربع، أقلّه رجل أعمال سويسري متجه إلى زيورخ. أخبره كورت أن اسمه جيم. أراد رجل الأعمال أن يمرّن إنجليزيته، فامتثل له كورت، تحدثا عن حياتهما وعائلتيهما في الرحلة عبر النمسا. اختلق كورت قصته بالكامل، لكنه كان محترفًا. ابتدع له حكاية عن طلاق مرهق في فيرجينيا، والرغبة الدائمة في زيارة أوروبا، وسطو كلفه ممتلكاته في بودابست، وحظه الطيب بأنه لم يفقد محفظته وأمواله وجواز سفره، وصديق في شرق سويسرا يمكنه مساعدته حتى يدبر السفر عائدًا إلى الوطن في الأسبوع التالي.

راحا يتحدثان في أثناء رحلتهما بالسيارة طوال الليل، أبقى كورت جزءًا من تركيزه على المرآة الجانبية ليتيقن من أن أحدًا لا يتبعه، حريصًا ألا يلاحظه السائق. وفي خضم قصص الهراء عن الأماكن التي لم يزرها من قبل والأشخاص الذين ابتكرهم من نسج الخيال، لم ينسَ مهمته الحالية، وحاول أن يركز في أحداث الثلاثين ساعة القادمة.

كانت ليلة الجمعة، حركة المرور على الطريق السريع **(A1)** مزدحمة، لكن سيارة أودي التي يقودها رجل الأعمال كانت انسيابية وسريعة. لقد تجنبا شمال سالزبورج، ثم عرض كورت عليه القيادة، فحصل رجل الأعمال السويسري على ساعتين من النوم.

انعطفت الأودي إلى شارع إنجادينير وعبرت الحدود الشمالية الشرقية لسويسرا في الساعة الثالثة صباحًا. لم تكن هناك رقابة جمركية على الحدود السويسرية، على الرغم من أن سويسرا لم تكن رسميًّا عضوًا

في الاتحاد الأوروبي. توقف السائق السويسري في استراحة مبيت، وأصر على أن يجرب جيم البيرة السويسرية، وأن يعبر عن رأيه بصدق.

فعل كورت هذا، وأثنى على الشكل واللون والملمس، محتفيًا ببعض السمات الأخرى التي سمعها عن المشروبات الألمانية ذات مرة في بيرجارتن في ميونيخ. وفتن هذا رجل الأعمال بأن يأخذ جيم مباشرة إلى وجهته بدلًا من إنزاله ما إن يفترق طريقاهما.

سلكا طريق 180 جنوبًا ثم 27 غربًا عبر الوادي، إلا أن مصابيح السيارة الأمامية لم تكشف لهما شيئًا في الليل الملبد بالغيوم. أخيرًا في برج لافين، اختار جينتري منزلًا نصف خشبي قبالة الطريق الرئيس، وادعى أنه وجهته.

في الواقع كانت مغادرة السيارة الأودي الدافئة تعني أن كورت أمامه مسافة ميلين من المشي في الثلج، لكنه قرر ألا يعاقَب هذا الرفيق اللطيف على عمله الصالح بأن يقحمه في أي مشكلة قد تنتظره عند بلوغه وجهته النهائية.

قال له: «شكرًا على التوصيل. إلى اللقاء[1]».

نزل كورت من السيارة وصافح الرجل عبر النافذة. وقف في الطريق ملوحًا ومتمنيًا له ليلة سعيدة.

وبينما تختفي المصابيح الخلفية للسيارة الأودي عند زاوية الطريق. استدار الرجل الرمادي في الاتجاه المعاكس وبدأ يمشي غربًا فوق الثلوج الخفيفة.

تعمد أن يحثَّ خطاه بالرغم من إرهاقه الشديد. دفعه الأدرينالين والانضباط إلى الأمام دون توقف على مدار العشرين ساعة الماضية، وكل ما تبقى هو الانضباط. كان بحاجة إلى الراحة، وأملَ في أن ينال بضع ساعات منها على الطريق المنحدر في جواردا.

(1) بالألمانية في الأصل.

بحلول الساعة الرابعة وعشر دقائق، زاد تساقط الثلوج. كان كورت الآن في القرية أعلى التل، لكنه لم يرَ أي إنسان، في حين انبعثت إضاءة خافتة من الفندق الصغير، وأطفأ القرويون أنوار منازلهم، ونام الرعاة والحدادون وأصحاب الفنادق والمتقاعدون لبضع ساعات أخرى.

واصل مسيرته صعودًا إلى القرية. اجتاز أحواض المياه الحجرية القديمة لقطعان الأغنام، التي مرت عبر شوارع القرية المخصصة للمشاة فقط، مرورًا بالحقول المسيجة بأسوار منخفضة أمام المنازل الصغيرة. حتى قطع الطريق إلى الطرف الآخر من المدينة، وتسلق التل شديد الانحدار عبر طريق ترابي. تراكمت ثلوج المساء مبكرًا، وغطت سفح التل تقريبًا، على الرغم من أنه حتى في الليل غير المقمر، كان بإمكان جينتري رؤية بقع من الظلام، بقع عارية بارزة لم يغطِها ضوء القمر.

بعد التسلق عبر المروج البيضاء لمسافة ثلاثمائة ياردة أعلى جواردا، نقر جينتري على كشاف الإضاءة التكتيكي الصغير.

امتدت خلفه المراعي الشاسعة، لكنه دخل إلى غابة صنوبر، وبالرغم من الأشجار والليل الدامس، أخفت دوامات الثلج معالم الطريق أمامه، لكن ساعده ضوء الكشّاف. جاهد في السير إلى الأمام مائة ياردة أخرى حتى عثر على وجهته في الغابة، كوخ صغير.

وقف على بعد ثلاثين ياردة من الطريق الذي استمر ارتقاؤه عبر المنازل المهجورة. لم يكن هناك سبب لمرور أي شخص آخر، وإذا فعل أحد، فلا يوجد ما يدعو لأن ينظر إلى يمينه عبر الغابة ليلاحظ هذا البناء البسيط.

ثمة قفل ضخم صدئ معلق على الباب الأمامي، وقد أغلِقت من الداخل النوافذ الثلاث حول الكوخ المكون من غرفة واحدة، ونمت شجيرات الصنوبر المحيطة بلا تشذيب حتى حواف المبنى تقريبًا.

سار جينتري عبر الأشجار وطاف حول المبنى بضوء كشافه. في الجزء الخلفي من الكوخ كان هناك مخزن أدوات أُحكِم إغلاقه كذلك. فحصه ووجده آمنًا. وواصل السير حول المبني، فحص الجدران والشرائح الخشبية على السطح، وأخيرًا الباب الأمامي. خلع قفازاته، وأدار أصابعه ببطء حول حافات الباب، وفي الزاوية اليمنى العليا عثر على ما يبحث عنه، عود أسنان خشبي مغروس في الإطار. في حال ما إذا فُتح هذا الباب، يسقط هذا المُنبّه على الأرض ليُعلِم الرجل الرمادي بأن كوخه مُعرّض للخطر من بعض الزوار.

أدار كورت ظهره إلى الباب الأمامي بعدما أمَّن المكان، وسار ثلاثين خطوة نحو أشجار الصنوبر، دافعًا الأغصان المدببة. بعد ثلاثين خطوة، تحرك خمس ياردات إلى يمينه، وجثا على ركبتيه.

كان المفتاح مدفونًا في علبة قهوة معدنية، على بعد ست بوصات أو نحو ذلك، تحت نشارة الصنوبر والأوساخ المجمدة. حفرها بحجر مسطح. وبعد أن حصل على المفتاح عاد إلى الكوخ وفتح القفل.

كان الهواء بالداخل جافًا وعفنًا وباردًا تمامًا كما هو الحال خارج الباب. يوجد فرن فحم بارتفاع الركبة في الزاوية، لكن جينتري تجاهله، وأشعل مصباحًا على طاولة صغيرة في وسط الغرفة، وكان توهجه الخافت هو أقصى دفء يمكن الحصول عليه.

ثمة رفٌّ معلق على الحائط به أغلفة المؤونة العسكرية والوجبات الجاهزة للأكل. مزق الأمريكي البالغ من العمر ستة وثلاثين عامًا أول وجبة يحصل عليها بعد خروجه من المرحاض الكيميائي. التهم البسكويت والمكسرات بنهم وهو يجلس وحيدًا إلى الطاولة الصغيرة.

أنهى وجبته في تسعين ثانية. بعد ذلك، نهض ليدفع فرن الفحم الصغير بعيدًا عن الزاوية، ورفع الألواح الأرضية المخلوعة تحته.

وضع كشاف الإضاءة العسكري في فمه، ونزل على سلم خشبي، كُشف بعد إزالة ألواح الأرضية، إلى قبو محاط بجدران ترابية بارتفاع

ست أقدام وعرض عشر أقدام. عندما التفت بعيدًا عن السلم، واجه ثلاثة أكوام من الحقائب السوداء بارتفاع الصدر، كل واحدة بحجم صندوق أدوات ضخم. شغل هذا ما يقرب من نصف الغرفة في القبو تحت الأرض، وملأت طاولة عمل معدنية المساحة على يمينه.

كان الصعود والنزول على السلم الضيق صعبًا إذ يحاول التحرك بما يسمح له أن يتحكم في الحقائب. رفع كورت أول حقيبة في المجموعة الأولى، وألقاها على المنضدة بقوة، وفتح المزلاج.

في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، عندما أخبر كورت فيتزروي أنه سينقذ عائلته، قرر على الفور الذهاب إلى جواردا في سويسرا، إلى مخبأ أسلحته الضخم المختبئ في الغابة. كان لديه ستة مخابئ أخرى في جميع أنحاء القارة، لكن لا شيء يضاهي مخبأه في جواردا.

كان مخبأ جواردا هي الوريد الرئيس والمعدن النفيس.

احتوت الحقيبة الأولى على مسدس رشاش سويسري أسود من طراز بروجر وتوميت MP9. أخرجه من مرقده الإسفنجي، وركّب خزينة محشوة في المتعدد بسرعة، ووضع القاذفة في كعبه، ورفعه فوق رأسه دافعًا به خارج الباب السري إلى الأرض فوقه.

احتوت حقيبة أخرى على ذخائر إضافية، وهي عبارة عن منصة من النايلون والقماش مليئة بخزائن محشوة بالسلاح الذي من شأنه أن يُربط بين فخذه وحزام أدواته. ألقى هذا عبر الفتحة الموجودة فوقه أيضًا.

في الدقائق الخمس التالية، نظر كورت في حقيبة تلو الأخرى. ودس جميع أنواع الأسلحة الصغيرة والمتفجرات داخل حقيبة قماشية. ووضع سترة سوداء ضد الرصاص في حقيبة صغيرة، وقناعًا ونظارة باليستية، وماسحًا ضوئيًّا صغيرًا للمراقبة يسمح له بالتقاط اتصال قصير المدى، وزوجًا من المناظير.

أخيرًا، قبل الساعة الخامسة صباحًا بقليل، قفز جينتري من الطابق السفلي، دافعًا الحقيبتين إلى الخارج أمامه. وترك مدخل مخبأ الطابق السفلي مفتوحًا.

شرب من زجاجة ماء نصف مجمدة، وابتلع اثنين من مسكنات الألم الخفيفة لتخفيف ألم فخذه، واستخدم المرحاض الكيميائي للمرة الثانية، ثم أخذ حقيبة النوم من الرف، وبسطها على الأرض. فتح قُفل الباب الأمامي، وتفقد الوسائل الدفاعية في الكوخ قليلًا، ثم دخل فراشه. ضبط منبه ساعته على السابعة والنصف. يجب أن تكفيه ساعتان من النوم ليقضي يومًا طويلًا آخر.

انطلقوا في إثره بعد الخامسة بقليل. انزلقت الشاحنة الصغيرة حتى توقفت عند سفح التل. بالنسبة للركاب، بدا الأمر كما لو أن السائق خرج عن السيطرة في الشوارع الملساء تقريبًا طوال ساعتين ونصف الساعة بالسيارة من زيورخ.

افتقار السائق إلى المهارة في مثل هذه الظروف أمر مفهوم. هناك جليد أسود على الطريق، وانعدمت الرؤية في بعض الأحيان. بالإضافة إلى أن هؤلاء الشرق ـ أوسطيين أُمِروا أن يصلوا إلى وجهتهم المحددة على (نظام تحديد الموقع العالمي) بأسرع ما يمكن، وكان الفني يتصل بهم عبر هاتف الأقمار الصناعية كل عشر دقائق للحصول على تحديث.

كان خمسة منهم ضباط أمن ليبيين، انشقوا عن جهاز أمن الجماهيرية، وطاقم رماة من أفضل رجال القذافي. جميعهم من فرق كوماندوز الجيش السابق، كل منهم يعرف مسدسه الرشاش من طراز سكوربيون Vz 61 كصديق موثوق به.

بلغ قائدهم من العمر واحدًا وأربعين عامًا، وجهه صارم وملتح، يرتدي ملابس سفاري مدنية مثل باقي أعضاء فريقه. جلس بجوار

السائق، وراح يوجه أوامر وتحذيرات بلا رحمة لفرد الكوماندوز الذي تولى القيادة. على الرغم من أن الكل يعرف أن السائق كان أكثر اعتيادًا على التعامل مع الكثبان الصحراوية في سيارة جيب مدرعة أكثر من اعتياده على الجبال الجليدية في شاحنة صغيرة.

ومع ذلك، وصلوا إلى جواردا في الوقت المناسب، وأوقفوا شاحنتهم في الساحة بجانب محطة القطار أسفل الوادي. رفع السائق غطاء المحرك، وأزال بسرعة عمود ناقل الحركة الموزع، وألقاه في حقيبته الرياضية، ما يجعل السيارة عديمة الفائدة ريثما يعود. بعد ذلك عثروا على الطريق الصغير إلى أعلى التل، وانتشروا فيه على أوسع نطاق ممكن، وهم يصعدون سيرًا على أقدامهم.

حمل كل رجل مسدسًا صغيرًا في حقيبة رياضية، وطووا كعوبها، ومسدسًا احتياطيًّا في جراب الكتف. وكذلك قنابل يدوية وعبوات اختراق. ارتدى جميعهم قبعات قماشية وسراويل قطنية ثقيلة، ونفس السترات السوداء عليها علامة تجارية باهظة الثمن اعتاد عليها الرياضيون المحترفون.

وكان في حقائبهم الرياضية أيضًا نظارات للرؤية الليلية لم تُستخدم حتى الآن.

تسلق الليبيون الخمسة الطريق المنحدر والمتعرج المؤدي إلى القرية في الظلام. تحركوا بسرعة وكفاءة. سيعرف أي عابر سبيلٍ، من تجانسهم وتعبيرات وجوههم الجادة التي تتماوج صعودًا وهبوطا في بخار زفيرهم، أنهم أشرار. لكن لا يمشي أي من السكان المحليين على طريق التلال في الساعة الخامسة والنصف صباحًا في عاصفة ثلجية؛ لذا وصل الليبيون دون أن يكشفهم أحد في شوارع القرية السويسرية الصغيرة المرصوفة بالحصى.

لكل عميل راديو صغير محمول باليد متصل بحزامه وبسماعة أذن. تفرقوا بأمر واحد من قائدهم في الطرف الغربي من جواردا، وساروا فرادى إلى الشرق، كل واحد عبر ممر صغير مختلف.

يضمن هذا التكتيك ألا يرى أي شخص ينظر من نافذته إلا رجلًا واحدًا. إذا أُطلِق جرس الإنذار وبدأ القرويون يتحدثون عن الغرباء، فقد يحسب جميعهم أنهم رأوا نفس الشخص.

في الطرف البعيد من المدينة، أعادت فرقة القتل تشكيل صفوفها، كخلايا بيولوجية تلتحم تحت عدسة المجهر. نظر القائد إلى جهاز (الجي بي إس) الخاص به، واستدار يسارًا في طريق غير ممهد، يمتد من الحافة التي تقع عليها القرية الصغيرة، حتى أعلى التلال، وفي الغابة التي لا يمكن رؤيتها من مسافة بعيدة إلا بعد ارتدائهم أجهزة المراقبة الليلية الخاصة بهم.

زود القائد الفريق بإحداثيات من (الجي بي إس).

«أربعمائة متر».

تكوّم الثلج على نحو أكبر. وتحولت أشرطة الثلج الدوامة إلى صفائح سميكة من اللون الأبيض المتساقط. رأى الليبيون الثلج من قبل، في أثناء تدريبهم في لبنان أو في مهمات أخرى في أوروبا، لكن لم تكن أجسادهم معتادة على هذا البرد.

قبل ثمانٍ وأربعين ساعة، كان فريق العملاء هذا تحديدًا يجلس في شقة في طرابلس، ليتواصل مع فرقة مراقبة إلكترونية، لتتبع مصدر البث الإذاعي المنبعث من المدينة، الذي أدلى بتعليقات تنتقد العقيد القذافي.

كانت درجة الحرارة في تلك الغرفة الضيقة تقارب المائة، لذلك صدم برد الوادي السويسري الشرقي وظائف أجسادهم حقًا.

كادوا يمرون بالكوخ دون ملاحظته. وحدها إحداثيات (الجي بي إس) التي وفرها لهم الفني هي ما اختصرت عليهم ساعات من التجول

في الغابة. والآن أخرجوا مسدساتهم الرشاشة من حقائبهم الرياضية وعلقوها على ظهورهم، وبسطوا كعوبها المطوية. رُفعت إلى وضع الاستعداد المنخفض، وضُغطت الكعوب على الأكتاف، بينما كانت الرؤية عبر نظارات الرؤية الليلية أقل من وضح النهار قليلًا.

اتخذ كل رجل موضعًا ثابتًا حول الكوخ، وأبلغوا عن مواقعهم الواحد تلو الآخر.

كان القائد أولًا.

ـ واحد في الموقع، عشرة أمتار من الباب الأمامي. دون حركة. النوافذ مغلقة.

ـ اثنان مع واحد.

ـ ثلاثة على الجانب الغربي. نافذة واحدة. مغلقة.

ـ أربعة في الجانب الشرقي. نافذة واحدة. مغلقة.

ـ خمسة في الخلف. لا توجد نوافذ، ولكن يوجد مخزن معدات بجانب المبنى الرئيس. قفل آمن من الخارج. لا شيء آخر هنا.

قال القائد: «خمسة، ابقَ في الخلف. ابحث عن الغطاء وكن جاهزًا.. ثلاثة وأربعة، تعاليا إلى الأمام. سندخل فريقًا واحدًا».

أجابوا: «عُلِم».

***

ينام جينتري بلا أحلام في حقيبة نومه، بجوار الفتحة تحت ألواح الأرضية المؤدية إلى الطابق السفلي الترابي. خففت المسكنات من آلام فخذه، ومنحته الراحة اللازمة للاسترخاء. فكان نومه عميقًا ومريحًا.

لكن موجزًا.

***

أخرج القائد قنبلة يدوية من حزامه. سحب الدبوس وتحرك ببطء إلى الباب الأمامي ويده على رافعة الأمان. في المقدمة يجهّز رقم اثنين

عبوة ناسفة عندما لاحظ أن الباب لم يكن مغلقًا تمامًا. التفت إلى زعيمه وأشار إلى شرخ في الباب.

أومأ القائد برأسه واستدار نحو الرجلين الواقفين وراءه وهمس: «إنه مفتوح. استعد».

دفع رقم اثنين الباب بسرعة، وجثا على ركبتيه حتى تُصوِّب الأسلحة الأخرى على أي هدف بالداخل. كان مظلمًا تمامًا في البداية، حتى معدات الرؤية الليلية عجزت عن كشف ملامح المكان بالداخل.

ألقى رقم واحد القنبلة في الغرفة. أسرع رقم اثنين وثلاثة وأربعة إلى أطراف الكوخ لتجنب الانفجار. تركت القنبلة يد القائد واختفت في الظلام، لكن دوى ارتطام القذيفة بسطح صلب قبل الأوان. وبينما يحاول القائد الابتعاد عن الباب، ظهرت القنبلة مرة أخرى في نظارات الرؤية الليلية الخاصة به، وارتدت من الكوخ لتسقط في الثلج أمام الباب.

لحسن حظ الليبيين، رأى الأربعة القنبلة اليدوية في الوقت المناسب، فحاولوا البحث عن غطاء، إما على الأرض الثلجية أو حول أركان الكوخ. غبّش الانفجار نظارات الرجال الثلاثة الذين نظروا باتجاه تصويب السلاح، وأصيب الرابع في مرفقه لتسقطه شظية صغيرة.

تمالك القائد نفسه بسرعة، ونزع نظارته التي لا فائدة منها الآن، وعاد إلى حافة الباب، ودخل يطلق النار في الظلام. تبعه رقم اثنين وثلاثة، ولكن في غضون ثانيتين، حث صراخ القائد الآخرين على التوقف في أماكنهم فجأة.

إنه فخ!

17

قبل لحظات من سقوط جينتري على حقيبة نومه مرهقًا طوال الليل، حرك الجدار الشبكي الصدئ الكبير نحو قدمين داخل الباب الأمامي. بلغ ارتفاع هذه الأداة الغريبة سبع أقدام، وتزن أكثر من مائتي رطل، وتنزلق بطول ثلاث أقدام على الأرضية. على طرفي السياج كانت هناك مفصلات ذات أقفال على جانبي الباب. أدى هذا إلى إنشاء حاجز قادر على إبطاء فريق الاختراق بفاعلية، والتضييق عليه في أخطر مرحلة من أي اختراق، وهي مرحلة الدخول.

كان الفخ هنا عندما ورث كورت هذا المخبأ المؤقت، لكنه لم يعتبره ذا أهمية كبيرة، إذ كان من السهل تدميره بالمتفجرات، أو ضربه بالمدقٍ، أو حتى ببضع ركلات قوية من كعب الحذاء. ولكنه هب مستيقظًا من نومه بعد انفجار القنبلة اليدوية عند الباب الأمامي، وعرف على الفور أن الحاجز القديم الصدئ قد أنقذه بينما هو يغط في نوم عميق.

انتفض وركل حقيبتي العتاد عبر الحفرة إلى الطابق السفلي الصغير. أمسك بالمسدس الرشاش، وأطلق خزينة كاملة على الباب الأمامي بيدٍ واحدة قبل أن ينزلق إلى الحفرة. وفور وصوله القبو الذي يبلغ عمقه ست أقدام، رفع ذراعه إلى أعلى وسحب غطاء لوح الأرضية ليغلقه على نفسه.

***

في الجانب الأيسر من مدخل الكوخ جثا رقم ثلاثة فوق الثلج الملطخ بالدماء. أصابته شظية القنبلة مباشرة في مرفقه واخترقت لحمه وعظامه. لكنه كان جنديًا منضبطًا فلم يشتكِ كثيرًا، وسرعان ما اعترف

حفنة من الثلج ووضعها على جرحه، ولم يتأثر إلا بصدمة من البرد على الجلد، لأنه لم يستطع الشعور بالألم الذي علِم أنه وشيك.

تجاهل رقم واحد رجله المصابة عندما أمر رقم اثنين بإطلاق فتيل كل مخزونه من قنابل الاختراق وإلقائها في المدخل. بعد بضع ثوانٍ، ألقيت كتلة بحجم علبة مناديل من مادة السيمتكس المتفجرة على طرف سياج الفخ المعدني.

استدار الليبيون الثلاثة الذين لم يصابوا بأذى في مدخل الكوخ للركض، وأمسك كل من رقم اثنين وأربعة برقم ثلاثة من ذراعه ورفعاه عن الأرض، بينما كانوا يندفعون بحثًا عن ملجأ.

كانت الغابة السوداء هادئة لبضع ثوانٍ، ولم يكن هناك صوت إلا هسهسة رقاقات الثلج اللطيفة إذ تضربُ أوراق أشجار الصنوبر التي سقطت أرضًا. ولهاث فرقة القتل من طرابلس التي حوصرت خلف شجرة بلوط على الأرض.

تبدل الليل الأسود وهدوؤه بوميض أبيض وانفجار صم الآذان، حتى بدا صوت انفجار القنبلة اليدوية السابقة أشبه بصوت فرقعة سدادة الشمبانيا. وانفجر المدخل المؤدي إلى الكوخ، من الأرضية السفلية إلى ألواح السقف في الأعلى لتتحول إلى شظايا، وانفجرت أشجار الصنوبر والأخشاب اللينة، لتطير إلى الأمام، وتسقط على بعد مائة قدم من المبنى.

طفت قطع من الحطام المحترق مع تساقط الثلوج على أشجار الصنوبر، بينما يخترق رقم واحد واثنين وأربعة الكوخ المحطم. أطلق كل رجل دفعة أو اثنتين من الرصاص عندما دخلوا شق الجدار الأمامي. اتجه رقم واحد إلى اليمين، ورقم اثنين إلى اليسار، وانتقل رقم أربعة مباشرة عبر المبنى الصغير. استعانوا بضوء القماش المحترق والورق لتأمين موطئ أقدامهم فوق السياج المعدني المحطم، وخزانة كتب

وطاولة مهشمة، والعديد من الصناديق وأواني الطهي، وعدد ضخم من الأشياء التي لا يمكن التعرف إليها.

ما إن تيقن الثلاثة من عدم وجود أي شخص على قيد الحياة في الغرفة الرئيسة أو في الحمام الصغير، بدؤوا يركلون الحطام على الأرض، بحثًا عن الجثة المحترقة والممزقة التي حتمًا ترقد بين الأنقاض. سجَّل رقم خمسة الوصول للتحقق من أن كل شيء كان هادئًا في الجزء الخلفي من الكوخ، حيث بدأ الليبيون الثلاثة يشعرون بالقلق بالداخل. كان كوخًا صغيرًا، استغرق الأمر أقل من عشر ثوانٍ للتحقق من عدم وجود جثة بالرغم من قوة الحرائق.

نظر رقم واحد إلى السقف. في ثانية قرر أنه لا يوجد دور علوي ولا علية. نظر إلى قدميه ببطء. وقال: «ثمة باب سحري هنا. ابحث عنه».

عثر عليه رقم اثنين، بجوار الفرن المقلوب، بعد أن ركل بعض قوالب الفحم. أخذت النيران تخمد؛ لذا أشعل أحدهم مصباحًا كهربائيًّا سقط من أحد الأرفف لكن نجا بأعجوبة من الانفجار. وضعه على الأرض بجانب الباب المسحور.

وقال: «احذر. قد يحضر لنا مفاجأة. ما لم يكن هناك نفق عبر هذا الجبل، فهو محاصر».

أومأ رقم اثنين وأربعة، ازدادوا ثقة بعدما عرفوا أن الرجل الرمادي يختبئ مثل الفئران تحتهم. وقف رقم خمسة خلف خشب صنوبر سميك في الجزء الخلفي من المبنى. أمامه بنحو عشرين قدمًا مخزن الأدوات المغلق على ارتفاع خمس أقدام بجانب الكوخ، لكن من الواضح أنه منفصل عنه. أكد الوصول مع الرجال بالداخل. كانوا على وشك رفع الباب المسحور بعمود معدني طويل، حتى يلقوا القنابل اليدوية، ويتبعوها بنيران البنادق، وأخيرًا يتسلقوا لقطع رأس هدفهم.

لم يلحق رقم خمسة بكل هذه الإثارة. سبَّ الثلج الذي حاوطه بصوتٍ عالٍ، بينما يمسك الرشاش على مستوى منخفض. فجأة سمع

صوت محرك ينبض بالحياة داخل الكوخ. لا ليس داخله، بل في مخزن المعدات. ما إن تحركت عيناه نحو أبواب مخزن الأدوات انطلق صوت عالٍ عبر الغابة، وانفجر القفل وفُتِحت الأبواب على مصاريعِها. كان رقْم خمسة قد بدأ للتو برفع مسدسه الرشاش إلى عينه عندما صرخ ضجيج المحرك، وانطلق هيكل ضخم في الهواء من التجاويف المظلمة للمخزن الصغير.

لم يرَ الجندي الليبي الشاب عربة ثلجية من قبل. استقرت العربة على الأرض كالرصاصة، على بعد بضع أقدام أمامه، فقفز جانبًا، وسقط على الثلج ليرتطم ظهره بقوة ويرقد بجوار جذع شجرة. نظر إلى الأعلى في الوقت المناسب ليرى هيئة لبشري على ظهر العربة، يميل إلى الأمام بقناع على وجهه وحقيبة كبيرة على ظهره. كانت الصورة في نظارة الرؤية الليلية الخاصة به ضبابية، واختفى التشويش في ثانية واحدة.

صارع الليبي للإمساك برشاشه، لكنه فقده بين أوراق الصنوبر المتساقطة والثلج المتراكم. في الوقت الذي أمسك فيه سلاحه وصوبه إلى وجهه، اختفى ظل العربة الأسود على ارتفاع طفيف، ليمزق الثلج والشجيرات والشتلات الصغيرة ويقذف كل شيء في طريقه على يسار زلاجاته ويمينها.

سُمع الصياح من خلال سماعة الأذن: «خمسة! أجب!».ـإنه هنا! لقد عاد إلى هنا! إنه يتجه إلي أعلى الجبل!ـأطلق النار عليه!بدأ رقم خمسة يركض فوق التل قائلًا: «تعالوا لمساعدتي! إنه على دراجة نارية بزلاجات!».

***

اكتشف الرجل الرمادي أن عليه أن يدير عربة الثلج ويعود إلى الأسفل بعيدًا عن فرقة القتل. انتهت الغابة فجأة عند جدار صخري ضخم على قمة التل. ربما يمكنه أن يجد مكانًا للاختباء في الغابة لبعض الوقت،

لكنه يعلم أن كل سكان جواردا استيقظوا واتصلوا بالشرطة المحلية المتمركزة على بعد بضعة كيلومترات في خور[1].

سيستغرق الأمر منهم بعض الوقت للوصول إلى هناك، والكثير من الوقت للحصول على قوة حقيقية بطول الطريق من دافوس، لكن كورت لم يكن ينوي الانتظار لدقائق، فضلًا عن ساعات.

صرخ في الهواء المتجمد: «هراء!». لقد خلَّف وراءه بالفعل حقيبتي عتاد. لم يتمكن من نقلهما من الطابق السفلي ذي الجدران الترابية عبر النفق المائل إلى أعلى من عمق ثلاث أقدام إلى مخزن الأدوات حيث احتفظ بعربة الثلج. لقد أخذ بندقية قصيرة من عيار 12 من المخزن لتفجير القفل من الداخل، والآن يستقر السلاح القوي أمامه على مقود عربة الثلج.

كان غاضبًا أيضًا لأنه يعلم أن شخصًا واحدًا فقط يعرف بوجود هذا المخبأ. دونالد فيتزروي الأحمق. عرض السير دون على كورت موقع المخبأ الثابت بعد وقت قصير من انضمام الرجل الرمادي إلى مجموعته. اعترف المدير الإنجليزي الموقر في ذلك الوقت أن هذا المخزن أصبح متاحًا لأن صاحبه الذي بناه واستخدمه كوخًا للاختباء لم يعد بحاجة إليه، إذ عُثر عليه مذبوحًا في قبر غير عميق خارج فلاديفوستوك.

لم يكن جينتري قلقًا بشأن الفأل السيئ، وقد قبل المخبأ هديةً من فيتزروي. أحب موقعه المركزي، وعزلة القرية والوادي، وحقيقة أن أي عربة تقترب منه سيسمعها على بعد ياردات، أو أميال إن كانت قوة مدعمة.

كان مخبأً جيدًا، وأيقن جينتري أنه سيظل كذلك لو لم يفصح دون فيتزروي عن موقعه لمن يسعون إلى قتله.

---

(1) مدينة في سويسرا.

بعد أربعين ثانية من صعوده الجبل بعيدًا عن القتلة اختفت الثلوج أمام عربة الثلج. دار جينتري بقوة لتجنب جدار الجرانيت الذي يبلغ ارتفاعه عشر أقدام، الذي يمتد يمينًا ويسارًا. استخدم قدميه ودواسة الوقود لتحويل اتجاه العربة إلى الخلف، مواجهًا الغابة والكوخ بالأسفل ثم القرية التي خلفها. حينئذٍ تحصن كورت بحافة تلّ. لم يرَ المسلحين بالبنادق والقنابل، ولم يتمكنوا هم من رؤيته. لكنهم بالتأكيد يشقون طريقهم في هذه اللحظة فوق الطريق الجليدي غير الممهد.

لم تكن لديه أي فكرة ما إذا كان هناك رجلان أم خمسة أم خمسة عشر أم خمسون. لقد ألقى نظرة خاطفة فقط على واحد منهم في الجزء الخلفي من الكوخ، لكي يعرف ما إذا كان سيصادف مزيدًا من الرجال في الغابة، وعلى أي حال، لقد حدث الجزء الأكبر من الإثارة عند الباب الأمامي.

تأمل كورت خياراته للحظة. نظر حوله إلى مأزقه وأيقن على الفور أنه محاصر. ربما أمكنه أن يقاتل عددًا قليلًا منهم، لكن المساحة الواسعة أمامه، والتي حتمًا سيصلون إليها، كانت ثغرة بالنسبة له. إذا انتشروا عبر المرج المتجمد واقتربوا في وقت واحد في خط عريض، فلن يتمكن من الاشتباك مع الأهداف على يساره ويمينه ووسطه قبل أن يطلقوا هم النار عليه.

كان يُفترض بالأرض المرتفعة أن تكون ميزة تكتيكية، لكن جينتري رأى أن هذه الأرض المرتفعة لا لزوم لها.

كان هناك طريق آخر أسفل التل على يمينه. درب أغنام، لا يزيد عرضه على أربع أقدام، وهو شديد الانحدار لدرجة مذهلة، إذ ينحدر في خط مستقيم عبر الغابة باتجاه المرج على الجانب الآخر. لكن الدرب ضيق للغاية بحيث لا يمكن لعربة الثلج أن تشق طريقها فيه. المحاولة ستكون إيذانًا بالانتحار.

الآن سمع كورت أصواتًا تحته. صيحات الرجال مسعورة وراء صيدهم. كانوا يتحركون في الطريق المؤدي إليه، ويقتربون من موقعه المحاصر.

صاح رقم واحد: «ليس لديه مهرب!». لم يكلف نفسه عناء استخدام جهاز الراديو الخاص به، إذ أضعف سمعه وباقي رجاله ضجيج الانفجار وطلقات الرصاص طوال الليل. لقد صاح لتوه في الرجال الثلاثة حوله وهم يركضون على الطريق الزلق. تُرك رقم ثلاثة في الكوخ يلف الضمادات على إصابته، وكان يقظًا وجاهزًا رغم كونه خارج القتال.

ألقى الليبيون الأربعة، الذين اقتربوا من القمة التي تعلوهم، خزائن أسلحتهم الرشاشة، وبحثوا عن ذخيرة كافية. عمليًّا، أعادوا تثبيت الدبابيس، وأعادوا النقر عليها في مكانها، ثم غطت نظارات الرؤية الليلية عيونهم.

تساقُط الثلج المتواصل أعاق الرؤية أمامهم. أبطؤوا عند اقترابهم من القمة، وانتشروا بهدوء عبر الطريق دون انتظار تعليمات لفعل ذلك.

وفجأة دوى ضجيج محرك عربة الثلج من جديد. وارتفع صوته وسرعته، ثم ظهر مصباح أمامي واحد أمام الليبيين الأربعة وفوقهم، متوهجًا مثل شبح أخضر في نظارات الرؤية الليلية الخاصة بهم وهو يتجه نحوهم.

صاح رقم واحد مزمجرًا: «أطلق النار!». جثا القتلة الأربعة على ركبهم، وأطلقوا الرصاص على العربة القادمة. أطلقت البنادق الأربع عشرين طلقة من الرصاص المجوف في الثانية. قفزت الطلقات في اتجاه مقوس، وارتطمت وارتدت في السماء مثل اليراعات التي تعمل بالطاقة الصاروخية.

على بعد ثلاثين مترًا حلَّقت العربة فوق الأرض على ارتفاع خمسة وعشرين مترًا ثم هبطت بقوة، وارتدت مرة أخرى في الهواء، لكن هبطت على جانبها. ظل الضوء يعمل، بينما انزلقت العربة أسفل التل متجاوزة الليبيين الأربعة وتوقفت خلفهم بعشرين مترًا.

هدأ المحرك، وانبعثت منه الغازات الساخنة لتشوش على نظارات الرجال. ركض رقم واحد إلى عربة الثلج بعد إعادة تعبئة سلاحه. انزلق على الجليد وسقط على ركبتيه. مر بجانبه رقم اثنين عندما عاد، فتأكدت شكوك الرجال الأربعة بعد رصد سريع للطريق:

«إنه ليس هنا!».

ظن كورت للحظة أنه ربما كان ينزلق بسرعة خمسين ميلًا في الساعة. بدا كل شيء أسرع على مستوى الأرض بالطبع، وقد دفعه الثلج والجليد والجذوع المفتتة والعشب الذي طار في وجهه لإدراك سرعته.

ولكن مهما تكن السرعة الفعلية، عرف جينتري أنه يهوي في درب الأغنام بسرعة كبيرة.

كان من الصعب عليه أن يتخلى عن حقيبة العتاد الثانية، لكنه لم يجد بديلًا. لقد ألقى الأسلحة والقنابل اليدوية والمناظير هناك على الجليد. وربط البندقية القصيرة بالمقود ليبقى مستقيمًا، ثم استخدم سلكًا طويلًا لإبقاء الضغط على دواسة الوقود.

شاهد العربة وهي تقفز فوق الحافة وتنزل إلى الطريق، ثم ركض بأقصى سرعته عبر الثلج بطول الجرف بمحاذاة جدار الجرانيت، حيث بدأ مسار الأغنام وانخفض بزاوية عشرين درجة عبر الغابة، مرورًا بالحقل الأدنى، ثم إلى القرية الصغيرة التي ما زال يغشاها الظلام، فلن يبزغ الفجر على جبال الشرق قبل ساعة.

قفز جينتري في الهواء بكامل سرعته، وهبط على قدميه المصابتين على الثلج، ممسكا بحقيبة الخيش الكبيرة خلف ظهره. كان الطريق

منحدرًا تمامًا في بدايته، لقد فقد السيطرة على الفور، لكنه عثر على موطئ لقدميه مرة أخرى عند امتداد أقل خطورة، لكن تبين أنه قصير للغاية.

سمع صوت الرصاص ورأى وميض الضوء عند التل المنحدر على يساره. لكنه لم يستغرق في التفكير لأبعد من مائة ياردة تقريبًا، كان راضيًا عن خطته. انزلق بسرعة خارج منطقة القتل. وفي الحقيقة، لم تكن خطة سيئة تمامًا، بل اتضح أن تنفيذها مقصود. عندما انزلق إلى الغابة، قطعت جذور شجرة صنوبر مسار الأغنام، فانزلق بسرعة كبيرة حتى لم يعد بوسعه التوقف.

طار في الهواء نحو بركة جليدية فوق عقدة من الجذور، وطُرح جسده بزاوية قائمة في الهواء. هبط عموديًا على جانبه في الاتجاه الذي كان يسير فيه، ودفعه هذا إلى الدوران والتدحرج مرارًا وتكرارًا. تحملت ركبتاه المضمدتان وزن جسده في ضربة خاطفة بينما كان يدور، وتكومت الثلوج حول قدميه، فطوّح هذا جسده نحو تسعين درجة أخرى. لقد وجد نفسه مقلوبًا، فُقدت حقيبته المصنوعة من الخيش منذ فترة طويلة، وقد هوى من الغابة إلى بستان فوق قرية جواردا القديمة، ويداه أمامه مثل سوبرمان بلا سيطرة على اندفاعه.

استمر الانزلاق لما يزيد قليلًا على خمس وأربعين ثانية بدت لجينتري وكأنها دهر. وعندما انتهى، استلقى على ظهره في الثلج. استغرق بضع ثوانٍ للسيطرة على الدوار، جلس ليتحقق من أن وظائف جسده لم يصبها سوء، ثم وقف بثبات في الصباح الغائم ليتفحص جروحه. كان الجرح الذي أحدثته الرصاصة في فخذه اليمنى ينبض بشكل أكثر من المعتاد؛ كان على يقين من أنه أعاد فتح كل جرح كان قد التأم في اليومين الماضيين. ثمة وخز في ركبتيه، على الأرجح نزيف.

أصيب كعباه، لكن بدا أنهما جاهزان للعمل. شعر بألم في الجانب الأيمن من قفصه الصدري عندما أخذ نَفَسًا من هواء الجبل البارد. ظن أنه ربما كسرت إحدى ضلوعه، سيكون هذا مؤلمًا ولكن سيتحمله . بدا أن رسغه الأيسر قد أصيب بشيء ما أو بعدة إصابات، أو شيء ما على سفح الجبل، وقد تورمت منطقة العصب الزندي بشدة.

بعد تقييمه لكل ما سبق، أيقن الرجل الرمادي أنه محظوظ لكونه بخير، إذ لربما كان الانزلاق والتدحرج والقفز على منحدر التل الحاد في الظلام أسوأ بكثير، حتى دون تعرضه لإطلاق النار من مسلحين.

لكن حين فحص متعلقاته هبطت معنوياته من جديد. لقد فقد كل شيء ما عدا مسدس فالتر الصغير في جراب كعبه، محفظته مغلقة في جيبه الخلفي، وخنجر قابل للطي في جيبه الأمامي. لقد فقد كل شيء آخر: هاتفًا خلويًا، معدات طبية، ذخيرة إضافية مسدسات، قنابل يدوية، مناظير.

استغرق الأمر عشرين دقيقة أخرى لكي يصل إلى سفح الوادي، هبوطًا على طريق واحد ومسار سكة حديد. ثم إلى محطة القطار المكونة من غرفة واحدة. كان الثلج قد تحول إلى جليد. ارتجف، ودفن يديه اللتين لا تغطيهما قفازات في جيبيه.

رأى حافلة صغيرة، السيارة الوحيدة التي تقف في ساحة الانتظار الصغيرة. ظن أنها عربة فرقة القتل. كسر النافذة الجانبية للسائق ودخلها بسرعة، ثم حطم عمود التوجيه بركلتين من كعب حذائه. في ثوانٍ أخرج أسطوانة التشغيل، وفي أقل من دقيقة أشعل أسلاك التشغيل. لكن محرك الشاحنة لم يعمل. راح يفتش حوله عن مفتاح تشغيل تحت لوحة القيادة، لكنه لم يجد شيئًا، قفز مرة أخرى من الشاحنة، أغلق الباب، وغرس خنجره في أحد الإطارات الأربعة.

كان يعلم أن التخريب سيكشف للمسلحين أنه نجح في الوصول إلى هذا الحد، وأنه حتمًا انطلق على الطريق الآن، لكنه قرر أن عليه

مغادرة جواردا فورًا، وستصل الشرطة في غضون دقائق. لن يتمكن فريق القتل من البحث عنه في الغابة طوال الصباح؛ لذلك ليس مجديًا أن يسعى إلى تضليلهم بأنه لا يزال على الجبل.

في أثناء وقوفه اعتقد أنهم لا يبعدون أكثر من عشر دقائق أو ربما عشرين، اعتمادًا على مدى قلقهم من أن يكشفهم القرويون أو مدى قلقهم من مقابلة أولى سيارات الشرطة التي كانت تصعد التل المنحدر.

حطم كورت زجاج نافذة صغيرةٍ في باب محطة القطار وفتح المزلاج. أولًا، فحص جدول مواعيد معلقًا على الحائط لجميع القطارات في البلاد. ثم سحب معطفًا بنيًّا ثقيلًا من حامل المعاطف. انزلق جينتري فيه. كان ضيقًا قليلًا عند الكتفين، لكن سيبقيه على قيد الحياة.

كانت هناك دراجة نسائية بإطارات سميكة مائلة على الحائط، أخذها جينتري، وأغلق الباب خلفه، وعبَس حين شعر بألم في قفصه الصدري عندما رفع إحدى ساقيه ليركب الدراجة. تخطت الساعة السادسة، وكان يعلم أن القطارات لن تبدأ بالعمل عبر الوادي حتى السابعة. عليه أن يصل إلى قرية أكبر ليأخذ أول قطار سريع في الصباح إلى زيورخ.

لذلك سار بالدراجة غربًا على طِريق إنجادين بعيدًا عن أفق الفجر البرتقالي الخافت خلفه. آلمه كلٌ من ظهره السفلي وفخذه اليمنى وركبته اليسرى كلما أدار البدَّال. لسع البرد وجهه فانحنى بينما يتساقط الثلج، كان متعبًا بشدة وجريحًا ومحبطًا. لقد أضاع يومًا كاملًا في ملاحقة الوثائق والأسلحة، ولم يحصد شيئًا سوى الإصابات. ومع ذلك، قليل من الرجال على وجه الأرض يمكنهم استدعاء العزيمة في مواجهة الشدائد؛ وهكذا كان الرجل المنهك الذي ينزف في معطفٍ على غير مقاسه راكبًا دراجة نسائية.

لم تكن لديه خطة، ولا معدات، ولا مساعدة، وهو الآن على يقين أنه لا أصدقاء لديه. لقد كذب عليه فيتزروي وأوقع به. علم كورت

أن له كل الحق في الاختفاء وترك دون لمن جعله يتخلى عن عميله الأول أيًّا كان ليطبق عليهلكن كورت قرر المواصلة غربًا، على الأقل في الوقت الحالي. كان يعلم أنه بحاجة إلى أن يفهم ما يحدث فهمًا أفضل، ولم يكن يعرف لهذا إلا سبيلًا واحدًا.

18

قبل الساعة السادسة صباحًا بقليل بتوقيت لندن، نظر السير دونالد فيتزروي من نافذة طائرة سيكورسكي إلى حقل أخضر.

عندما كانت المروحية تطير على ارتفاع منخفض، انحسر المنظر الطبيعي وظهرت أمواج البحر والمياه الدكناء على ارتفاع ألف قدم. ظهرت تحته منحدرات دوفر البيضاء ونهاية الجزر البريطانية وبداية القناة الإنجليزية. سافر هو ولويد والسيد فيليكس، ممثل الرئيس أبي بكر، جنبًا إلى جنب مع الفني وموظفي مجموعة لوران الأربعة جنوبًا نحو نورماندي. لم يكن الرجل الإنجليزي البالغ ثمانية وستين عامًا يعرف السبب. «حافز إضافي» هذا ما قاله لويد قبل ساعة.

قال: «إذا فشل الليبيون في المهمة في سويسرا وغيَّر كورت رأيه، وأخبرك أنه بالرغم من كل ما يهتم لأمره، يمكن لعائلتك أن تذهب إلى الجحيم، سيكون لديّ إغراء آخر سأستخدمه للإيقاع به».

قبل أن يتمكن فيتزروي من الاستفسار أكثر، كان لويد يتحدث عبر الهاتف. طلب إرسال مروحية تعمل بالوقود على الفور لرحلة عبر القناة إلى مهبط طائرات باترسي.

سافر السير دونالد إلى دول قارة أوروبا كثيرًا، أحيانًا بالطائرة من جاتويك أو هيثرو، وأحيانًا بواسطة قطار يوروستار فائق السرعة عبر القناة، لكنه فضل كثيرًا الطريق البري والبحري. القطار جنوبًا عبر شاتهام ثم إلى دوفر، على متن عبَّارة إلى كاليه في فرنسا أو أوستند أو زيبروجي في بلجيكا. كانت هذه هي الطريقة التقليدية، طريقة شبابه، ولا يمكن مقارنة خطوط الطيران السريعة والسهلة، ولا الوسائل العصرية كنفق يمر تحت بحر الشمال، بالفخر والحب اللذين شعر

بهما عندما عاد إلى إنجلترا على متن العبَّارة. وفي الضباب البعيد فوق الماء، استطاع أن يرى منحدرات دوفر البيضاء بكل جلالها.

هل من شيء يعجب الرجل الإنجليزي أكثر من هذا؟ وقد حلقت الطيور البيضاء، مرحبة بالمسافرين عبر القناة مثلما رحبت بعودة الطائرة التابعة لسلاح الجو الملكي قبل سبعين عامًا، كانت هياكل الطائرات الرفيعة مثقوبة ومليئة بالشباب الصغار الذين قتلوا وماتوا وخاطروا بكل شيء، من أجل صاحبة الجلالة في الحرب الجوية ضد الفاشية. الآن يحدّق دونالد بحزن عبر النافذة الجانبية.

شاهد جمال دوفر يبتعد خلفه في الفجر المقمر، وأدرك أنه ـ على الأرجح ـ لن يرى هذا المنظر مرة أخرى.

كان لويد يتحدث عبر الخط الداخلي: «تلقيت للتو الخبر من ريجيل. لقد فشل الليبيون». وكان صوته يرن عبر سماعات الأذن التي تضغط على خصلات الشعر الأبيض على جانبي رأس السير دونالد.

نظر فيتزروي حوله في الطائرة ووجد لويد على الجانب الآخر مواجهًا له. التقت أعينهم في الوهج الأحمر الخافت لأضواء المقصورة. لاحظ فيتزروي أن بذلة الشاب الأمريكي قد تجعدت في الأربع وعشرين ساعة الماضية، وقد حل رباط عنقه ليتدلى من ياقة مفتوحة.

سأل الإنجليزي: «كم عدد الأرواح التي فقدت؟».

أجابه: «صفر، على نحو مدهش. أصيب رجل. يقولون إن الرجل الرمادي شبح».

قال فيتزروي في ميكروفونه: «المقارنة في غير محلها».

ـ «للأسف لا. ماتت الأشباح بالفعل».

أخذ لويد نفسًا عميقًا ثم قال: «سأرسل الليبيين إلى بايو لدعم التغطية هناك، في حال إذا كسب جينتري التحدي».

هز فيتزروي رأسه وقال: «انسَ ذلك. كنت الوحيد الذي يعرف عن المخبأ المؤقت في سويسرا. سيعرف أنني كنت من أبلغ القتلة. إذا علم أنني كنت أخدعه طوال الوقت، فلن يميل إلى إنقاذ عائلتي».

ابتسم لويد للتو: «لقد أعددتُ لهذا الأمر الطارئ».

ـ هل أنت أبله؟ لن يأتي لإنقاذي. ألا يمكنك فهم ذلك؟

ـ لم تعد هذه خطتي.

ثم التفت لويد بعيدًا، واستشار الفني.

أسرعت المروحية فوق القناة، بدا وميض ضوء القمر على الماء أدناها كصينية من الألماس السائب. في السابعة صباحًا عبرت الطائرة مباشرة فوق شاطئ أوماها، أكثر مواقع الإنزال دموية منذ نورماندي[1] ما يقرب من ثلاثة آلاف شاب أمريكي لقوا حتفهم في الماء وعلى الرمال وفي الجروف قبالة الشاطئ تحتها. لم ينظر لويد من النافذة. كان يتحدث إلى الفني عبر الراديو الداخلي للمروحية؛ استمع السير دونالد لكنه لم يقل شيئًا. صاح لويد بجدية مطلقًا أوامره، وراح ينسق تحركات خبراء المراقبة مثل البيادق على رقعة الشطرنج .

أمر الفني بإرسال جميع فرق القتل شرق جواردا إلى الغرب من جواردا: زيورخ، لوسيرن، برن، بازل. وإذ قصُرت المسافة بين نقطة انطلاق جينتري وهدفه، أصبحت المساحة محدودة أمام فرق القتلة العشر الذين ما زالوا يقاتلون على الأرض.

قال: «فلننقل الفنزويليين من فرانكفورت إلى زيورخ. وجِّه الأفارقة الجنوبيين إلى برن حال اتجه جنوبًا. من في ميونيخ؟ إذًا فقد اجتاز جينتري البوتسوانيين بالفعل. فلنعدهم إلى باريس. يمكنهم دعم السريلانكيين في الموقع هناك. الكازاخيون في ليون صحيح؟ ليون

(1) : ترمز إلى انتصار الحلفاء عند غزو نورماندي في عملية أوفرلورد خلال الحرب العالمية الثانية.

بعيدة للغاية في الجنوب، سنثبتهم هناك حتى نحصل على المزيد من المعلومات. تيقن من أنهم بالقرب من الطريق السريع وعلى استعداد للتوجه شمالًا. أرسل تفاصيل أخرى عن المراقبة إلى زيورخ وتحقق جيدًا من قائمة شركاء جينتري المعروفين. مَنْ أيضًا في باريس؟ حسنًا، لا يهمني كم هو بارع؛ رجل واحد لا يكفي. تاريخ جينتري هناك حافل، أريد ثلاث فرق في باريس بالإضافة إلى الكوري. الكوري لم يسجل وصولًا؟ لا تقلق. فقط استمر في إرسال التحديثات إليه. إنه عميل منفرد ولن يتصل ليشكو الوحدةَ».

***

جلست كلير في قلقٍ على حافة فراشها. كانت الساعة السابعة والنصف صباحًا، قبلٍ نصف ساعة من اكتمال شروق الشمس.

نالت قسطًا من النوم فقط لأن والدتها جعلتها تتناول القليل من دواء السعال الأخضر الفظيع الليلة الماضية. عندما استيقظت، كان الظلام لا يزال مخيمًا. في البداية تساءلت عن مكانها، وبالتدريج تذكرت الأحداث المروعة التي وقعت في اليوم السابق، والتي بلغت ذروتها في رحلة قصيرة بالسيارة من فيلا العائلة في بايو إلى القصر القديم الكبير مع البوابة الضخمة والممر الطويل والعشب الأخضر. تذكرت الرجال الضخام ذوي المعاطف الجلدية، الذين يتحدثون لغة غريبة، ونظرات الخوف على وجهي أبيها وأمها على الرغم من تأكيدهما المستمر أن كل شيء على ما يرام.

تفقدت كلير أختها التي نامت بجوارها. كانت كيت هناك، تجرعت هي أيضًا دواء السعال. جلست كلير على حافة الفراش ونظرت من النافذة فلم تجد حركة إلا من الرجل الضخم الموجود بالأسفل في ساحة انتظار السيارات بجانب القلعة. علّق مسدسًا كبيرًا حول رقبته، وكان يخرج من معطفه سيجارة تلو الأخرى ويدخن باستمرار.

بين الحين والآخر كان يتحدث في جهاز اتصال لا سلكي. تعرفت إليه كلير، وتذكرت جيم، الأمريكي الذي أقام مع عائلتها عندما كانت صغيرة. كان لديه جهاز راديو، وقد أوضح لها ولأختها كيفية الضغط على الزر والتحدث فيه مثل الهاتف، بينما ترد والدتها عبر الطرف الآخر من الحديقة الخلفية.

لم يشبه هؤلاء الرجال حولها الأمريكي جيم. على الرغم من أنها لا تتذكر كل شيء من الفترة التي أمضاها في منزلها، لكنها تذكر كم كان لطيفًا وودودًا، في حين كان لهؤلاء الرجال وجوه غاضبة عابسة.

الليلة الماضية قبل أن تجعل الأم الفتاتين تشربان دواء السعال، أرادت كيت أن تستكشف جميع أنحاء القلعة. ذهبت معها كلير، لكنها لم تكن تلعب مثل أختها السخيفة. تجاهلهما الرجال العابسون وهما تسيران في المطبخ. قرعت كيت على القدور والمقالي بالملعقة فتردد صداها بقوة في القصر الضخم. تجولتا على ممرات ذات أرضيات خشبية لا نهاية لها، ولم تكملا السير في بعضها، لأنها كانت مُخِيفة ومظلمة للغاية.

عثرتا على قبو مليء بزجاجات نبيذ متربة، ووجدتا مكتبة كبيرة مليئة بالمجلدات الضخمة، وغرفة بعد غرفة اصطفت على جدرانها رؤوس حيوانات كبيرة مخيفة، بالفراء والقرون والأسنان الضخمة. ركضت قطة برتقالية في القاعة، وتبعتاها نزولًا إلى الطابق السفلي، وشاهدتاها تفتح نافذة صغيرة عالية على جدار فوق رف، وتنطلق إلى الخارج في الحديقة الخلفية.

بعد ذلك اكتشفت الفتاتان سلمًا دائريًّا يُفضي إلى أعلى ثم أعلى ثم أعلى، فصعدتا إلى قمة برج. وهناك أشعلتا الضوء، ورأتا رجلا على طاولة يجلس على كرسي وينظر من إحدى النوافذ المفتوحة إلى الظلام. بجواره جهاز راديو وأمامه مسدس كبير. لقد صرخ في الفتاتين بلغة أجنبية غليظة، فضحكت كيت وركضت لتهبط الدرج.

تبعت كلير أختها، لكن قلبها خفق في صدرها. صاح الرجل في جهاز الراديو الخاص به، وسرعان ما جاء الرجال وأخذوا الفتاتين وجذبوهما من أذرعهما إلى غرفة والديهما. طلب أحد الرجال الضخام من والدهما باللغة الإنجليزية أن يضع فتاتيه في الفراش، وقد صاح الأب في وجه الرجل، وطلب منه إبعاد يديه، ثم اقتحم الشرفة، بينما أحضرت الأم كيت وكلير لتدخلا الحمام وتشربا الدواء.

لقد كان يومًا فظيعًا وليلة مروعة، والآن بعد أن استيقظت كلير، عرفت أنه لم يكن حلمًا سيئًا، ومن المحتمل أن يكون اليوم بنفس القدر من الرعب.

وبينما تجلس كلير مضطربة على حافة سريرها في الإضاءة الخافتة، ظنت أنها سمعت ضجيجًا غريبًا يأتي من بعيد. سرعان ما ارتفع صوته واقترب من القصر. امتلأت السماء فوق منزلها في لندن بطائرات الهليكوبتر، لذلك لم تستغرق وقتًا طويلًا لتتعرف على صوت المروحية المميز.

نهضت لتنظر عبر النافذة. حلَّقت المروحية فوق الغابة على الجانب البعيد من النافورة الكبيرة في الحديقة الخلفية الشاسعة. تدور دوّاراتها السوداء فوق جسمها الأبيض بينما تقترب من الحافة البعيدة لموقف السيارات المفروش بالحصى، ثم استدارت إلى الجانب وهبطت على عجلاتها واستقرت. انفتح الباب الجانبي ليخرج منه أربعة رجال يرتدون بدلات.

طار معطف أحد الرجال بفعل زوبعة الرياح التي أثارتها المروحية، وحتى من بعد ستين مترًا رأت كلير جراب المسدس ملتفًا حول قميص الرجل الأبيض. المزيد من الرجال المدججين بالسلاح.

وبينما كانت شفرات المروحية تدور فوقهم، خرج أربعة رجال آخرون. كان الرجل الأول أسود البشرة ويرتدي بذلة بنية. بينما حمل الرجل التالي الذي يربط شعره الطويل على هيئة ذيل حصان، حقيبتين

وركض نحو القصر. ثم جاء رجل يحمل حقيبة. كان نحيفًا ويرتدي بذلة سوداء فوقها معطف واقٍ من المطر. كان شعره الأسود اللامع قصيرًا أشعث من أثر الرياح، أدركت كلير حتى من بُعدٍ أنه شخص مهم. من تلفته حوله، واندفاعه إلى الأمام على باطن قدميه، وإشاراته لمن حوله.

الرجل التالي الذي خرج من المروحية كان أكبر وأصلع باستثناء الشعر الأبيض الطويل حول أذنيه، والذي تموَّج أسفل المراوح الدوَّارة. ضغطت كلير وجهها على الزجاج، تجاهد لإلقاء نظرة أفضل. ثم صرخت بصوت عالٍ، في البداية أيقظت كيت التي كانت قد تمكنت بطريقة ما من النوم حتى مع اقتراب المروحية وهبوطها.

«جدي!».

سُمح لفيتزروي بدقيقة واحدة مع ابنه وزوجة ابنه في مطبخ في الطابق الأرضي من القصر. كان فيليب وإليز مذعورين ومرتبكين، حتى أن خوفهما لم يفسح مجالًا للغضب. نُقِل فيتزروي إلى غرفة كبيرة بالطابق الثالث أقيمت على غرار غرفة الاجتماعات في فرع مجموعة لوران في لندن. كان له مقعد خاص، كرسي كبير بذراعين من طراز لويس الخامس عشر، وكان للويد كرسيه الخاص أيضًا، ذو تصميم عصري أنيق أسود اللون.

حضر الفني بالفعل، وجهَّز المعدات على مجموعة طويلة من الطاولات التي نُقِلت من غرف أخرى، وجُمِعت معًا لتناسب احتياجاته. كان الآن يضغط على مفاتيح أجهزة الكمبيوتر المحمولة وأجهزة الراديو، ناقلًا مركز العمليات الجديد عبر الإنترنت.

للغرفة ثلاثة أبواب، أحدها يؤدي إلى الحمام المجاور، والثاني إلى القاعة الرئيسة، والثالث كان مدخلًا لسلم دائري صغير يتجه حتمًا إلى البرج فوقهم، ويستمر نزولًا إلى الطوابق السفلية، أو هكذا لاحظ

فيتزروي حين جاء منه أحد أفراد الحراسة البيلاروسية وتحدث على انفراد مع لويد.

استقر الوافدون الجدد من لندن في أماكنهم حتى اهتز هاتف السير دونالد على المنضدة بجوار كرسيه. امتد منه سلك إلى صندوق مكبر صوت على المنضدة.

عندما ضغط لويد على الزر للرد، صاح الفني في الغرفة بأنه لم يكن مستعدًّا بعد لتتبع المكالمة.

قال السير دونالد بصوتٍ متعب ومبحوح: «أمن شلتنهام».

قال الرجل الرمادي: «هذا أنا».

سأله: «كيف حالك يا فتى؟».

كانت هناك وقفة طويلة، وأخيرًا قال: «أخبرتهم عن جواردا».

لم ينكر فيتزروي ذلك. قال بهدوء وملل: «نعم فعلت. أنا آسف حقًّا».

رد عليه: «لست آسفًا كما ستكون عندما تموت عائلتك. مع السلامة، أتمنى لك التوفيق، يا دون».

وقف لويد في منتصف الغرفة. مشى بسرعة إلى الطاولة وانحنى على الهاتف وتحدث: «صباح الخير، كورتلاند».

لم يكن هناك رد على الخط لفترة طويلة لدرجة أن لويد التقط الهاتف الصغير ونظر إليه ليرى ما إذا كانت المكالمة لا تزال قائمة.

ـ من هذا بحق الجحيم؟

ـ كورت، ربما يجب أن ترأف بالفارس النبيل هنا. أخشى أني وضعته في موقف لا يُحسد عليه إطلاقًا.

ـ من أنت؟

ـ أنت لا تعرف صوتي؟

ـ لا.

ـ كنا نعمل معًا. أنا لويد.
لم يكن هنالك رد.
تابع لويد: «من لانجلي، منذ أيام هالسيون أنت تعرف».
ـ لويد؟
ـ هذا صحيح. كيف حالك؟
ـ أنا لا أتذكر أي لويد.
ـ بربك يا سيد جينتري. لم يمضِ وقت طويل. لقد عملت لصالح هانلي، وساعدت في إدارتك وبعض العملاء الآخرين في أصعب العمليات في فترة فرقة الأشقياء.
ـ أذكر هانلي لكن لا أتذكرك.
استطاع فيتزروي أن يرى أن لويد تعرض للإهانة حقًّا.
قال: «حسنًا، كونك بلطجيًّا فلم تكن معروفًا قط بذكائك الاجتماعي». نظر إلى السير دونالد، محرج ربما؟ لوح بيد رافضة. قائلًا: «لا يهم. المهم هو أنه بالرغم من رفضك المجيء إلى هنا إلى نورماندي لمساعدة قائدك المغوار، لكن ربما عليك أن تفكر في الحفاظ على خط سير رحلتك الحالي فأؤكد لك، ما زال هناك شيء تريده هنا».
ـ لست أرغب في شيء لدرجة أن أوقع نفسي في الفخ عمدًا. وداعًا يا فلويد.
ـ إنها لام مشددة، وليس فاء.. لويد، وربما من الأفضل لك أن تبقى على الخط لتسمع عرضي.
سأل جينتري: «هل كنت أنت من وجَّه إليَّ إنذار الحرق قبل أربع سنواتٍ؟». وبدا صوته هادئًا عبر الهاتف، لكن فيتزروي كان يعلم أن سؤالًا كهذا حتمًا ينطوي على مشاعر ثقيلة.
ـ لا، أنا لم أتخلص منك. لم أوافق على القرار آنذاك. اعتقدت أنه لا يزال من الممكن أن تكون مفيدًا لنا.

ـ إذن من حرقني؟ هانلي؟
ـ دع هذه المناقشة ليوم آخر. ربما سنتحدث عنها حين تأتي إلى هنا.
ـ إنه موعد إذًا. وداعًا.
ـ في الوقت الحالي عليك ألا تقلق كثيرًا بشأن من حرقك في 2006، وأن تقلق أكثر ممن سيحرقك غدًا إذا لم تأتِ في زيارة.

استنشق جينتري الهواء بصوتٍ عالٍ في الهاتف ثم قال: «لا يمكن حرقي مرتين».

ـ بالطبع يمكن. عندما غادرتُ الوكالة، حصلت على بوليصة تأمين. رأيت ما حدث لك ولبعض الرجال الآخرين. كنت أعرف مدى وحشية السياسيين الذين يديرون الهيئة إذا لم يدعموا عملية ما، مهما تكن ناجحة، مع الرجال والنساء الذين يتعين عليهم الإدلاء بشهاداتهم أمام الكونجرس. قلت لنفسي، لويد، أنت أذكى من أن تسقط مثل كورت جينتري العجوز الغبي والآخرين، لذلك فعلت ما كان عليَّ فعله لضمان بقائي ـ لقد سرقت الأسرار.
ـ كما قلت، أنا أنجو بنفسي.
ـ أنت خائن.
ـ سيان. لقد نسخت المستندات التي توضح بالتفصيل العمليات والمصادر والأساليب وملفات الموظفين.
ـ ملفات الموظفين؟
ـ نعم. بحوزتي الآن.
ـ هراء.
ـ لحظة واحدة.

شاهد فيتزروي لويد يقلّب بإصبعه بعض الأوراق في مجلد ذهبي على الطاولة. كانت هناك كومة من المجلدات المماثلة إلى جانب تلك التي التقطها الشاب الأمريكي. ويتلو: «جينتري، كورتلاند أ. ولد في

74/18/4 في جاكسونفيل، فلوريدا. الوالدان جيم وليلي جينتري. توفي أخ واحد. التحق بالمدرسة الثانوية في...».

ـ هذا يكفي.

ـ لديّ المزيد. لقد حصلت على كل شيء: تاريخ وكالتك مع قسم الأنشطة الخاصة وبرنامج تطوير العملاء المستقلين. بطولاتك في جولف سييرا. شركائك المعروفين. الصور وبصمات الأصابع وسجلات الأسنان، إلى آخره.

ـ ماذا تريد؟

ـ أريدك أن تأتي إلى نورماندي.

ـ لماذا؟

ـ سنناقش ذلك عندما تصل.

استمر التوقف لفترة طويلة بما يكفي لكي يسمع فيتزروي بعض ما يجري في الطابق الثاني تحته. كانت إليز تصيح في فيليب. السير دونالد كان يعلم أن زواجهما لم يكن مستقرًّا، وكان يعلم أن هذا الضغط هو آخر شيء يحتاجان إليه.

أخيرًا تحدث جينتري: «افعل ما شئت يا لويد. انشر المستندات الخاصة حتى، أنا لا أكترث. لقد انتهيت من هذا».

ـ ممتاز. سأنشر بياناتك على العالم. في غضون أسبوع، كل رجل عصابة أسأت إليه، وكل وكالة عدو واجهتها، وكل قاتل غاضب تغلبت عليه للحصول على عقد، سيلاحقونك جميعًا. سيجعل هذا الثماني والأربعين ساعة الماضية تبدو كأنها كانت عطلة نهارية في منتجع صحي.

ـ يمكنني تحمل الأمر.

ـ وفيتزروي سيموت. وكذلك عائلته. هل يمكنك تحمل هذا؟

قال بتردد طفيف: «ما كان يجب أن يخدعني».

قال لويد: «حسنًا. أنت رجل صلب يا كورت، فهمت. لكنَّ هناك شيئًا واحدًا آخر نسيت أن أذكره. لم تكن ملفاتك هي ملفات الموظفين الوحيدة التي جمعتها من الوكالة. إذا لم تأتِ إلى نورماندي، فسأوزع الأسماء والصور وملفات الشركاء المعروفين لجميع العملاء في قسم الأنشطة الخاصة، النشطين أو غير النشطين أو المتقاعدين أو المستبعدين بأي طريقة. سيصبح كل قاتل مثلك تمامًا، محروقًا، مُطاردًا، معلقًا حتى يجف لأن خدماته أصبحت عديمة الفائدة، وأسماءَهم تظهر في كل محرك بحث على الإنترنت».

مر وقت طويل قبل أن يتكلم جينتري: «ما جدوى كل هذا بحق الجحيم؟ هل تفعل كل هذا فقط لتصل إليَّ؟».

أجابه: «لا يتعلق الأمر بك وحسب أيها الأحمق المتغطرس! أنت تافه بالنسبة للهدف الحقيقي. لكني أحتاج إليك هنا. أحتاج إليك هنا، أو سأحرق أفضل العملاء السريين الأمريكيين الموجودين على الأرض. سأحرص على أن ترى كل وحدة الأنشطة الخاصة وجميع شركائهم المعروفين أنهم كلاب مطاردة فحسب!».

لم يقل كورت جينتري شيئًا. اقترب فيتزروي برأسه، ظنًّا منه أنه يستطيع سماع إيقاع طقطقة قطار فوق القضبان في خلفية الاتصال.

بعد ذلك قال لويد: «بالطبع، سيستغرق الأمر بضعة أيام لأنشر جميع ملفات الموظفين الخاصة بك أنت وفتيان وحدة الأنشطة الخاصة على الإنترنت، إنها كثيرة للغاية بحق الجحيم، سأبدأ بشيء آخر. إذا لم تكن هنا في الصباح الباكر غدًا، فأول من يسجل المغادرة هم عائلة فيتزروي في الطابق السفلي. أعتقد أنني سأبدأ بالصغار. على مبدأ الوارد أولًا يصرف أولًا. تعرف ما أعنيه؟ سأقتل الطفلتين، وأقتل الوالدين، ثم سأقضي صباحي في قتل العجوز فيتزروي هنا».

تحدث جينتري في النهاية: «إذا لمست كلير أوكيت، فسأصل إليك، وسأعذبك ببطء شديد، حتى تكون أمنيتك الوحيدة هي أن تموت بسرعة».

صفق لويد بيديه وقال: «هذا ما أحب أن أسمع! المشاعر! عاطفة! حسنًا، من الأفضل أن تأتي إلى هنا في الوقت المناسب للحصول على البيض والبسكويت غدًا، لأن قطع عنقي هاتين الفتاتين الصغيرتين الجميلتين سيكون أول طلب بعد الإفطار!».

كان فيتزروي صامتًا، متجهمًا. لقد جلس منزويًا في أثناء المحادثة مثل كلب منسي. ولكن عندما قال لويد جملته الأخيرة، هبَّ السير دونالد من كرسي لويس الخامس عشر- واندفع نحو الأمريكي وأمسك بحنجرة الشاب. علقت الأسلاك التي جرى توصيلها حديثًا بأجهزة الكمبيوتر ومكبرات الصوت في أرجلهما، فانتُزعت المعدات من الطاولة. انقلب كرسي لويد الدوار إلى أعلى بينما يسقط الاثنان على الأرض. كسر السير دونالد نظارة لويد المعدنية الرفيعة. وضرب بقبضتيه وجنتي خصمه. استغرق الأمر ما يقرب من عشر ثوانٍ لدخول الحارسين الأيرلنديين الشماليين إلى الغرفة وإبعاد الرجل الإنجليزي الثقيل عن المحامي الأمريكي الشاب.

عندما جرى فصلهما أخيرًا، دُفع فيتزروي إلى كرسيه. هرع الحارسان الأسكتلنديان بعد ذلك وأمسكا برأسه وذراعيه. ترددت أصداء الصيحات والصراخ في جميع أنحاء الطابق الثالث عندما جاء أحد البيلاروسيين بسلاسل عثر عليها في المرأب بجانب بيت النباتات الزجاجي. قُيد فيتزروي تقريبًا في كرسيه، لكنه ظل يقاتلهم جميعًا بينما يربطون السلاسل على ذراعي وساقي كرسي لويس الخامس عشر، ويُحكمون ربطها حول ذراعي وساقي السير دونالد. عُلقت الحلقات الحديدية الباردة حول رقبته وجبهته. وصار كل شيء مؤمَّنًا بقفل ضخم.

ظل لويد طوال الوقت على الأرض. كان يجلس ويتنفس بصعوبة، ويسوي شعره، ويعيد عقد رابطة عنقه. وجد نظارته على الأرض، ثنى ذراعيه قليلًا ليعيدهما إلى وحالتهما الأصلية قدر الإمكان، ثم عاود ارتداءها. تعرض وجهه لخدوش طفيفة، وأصيب ذراعاه وذقنه ورقبته بكدمات، لكنه لم يصب بأذى.

أخيرًا جلس مرة أخرى على كرسيه ودفعه عائدًا إلى المكتب بالقرب من الهاتف.

قال: «عفوًا كورت هناك بعض الصعوبات الفنية. لقد عدنا إليك. هل ما زلت هنا؟».

لكن جينتري أغلق الخط.

نظر لويد إلى فيتزروي ونظر فيتزروي إلى لويد، إذ لم يستطع أن ينظر في أي مكان آخر ورأسه مشدود بالسلاسل.

ـ من الأفضل أن يظل على المسار الصحيح يا دون، من الأفضل أن يظل على المسار الصحيح، وإلا فستموت أنت وعائلتك موتًا بطيئًا وبائسًا! هل تظن أنني أحمق أو ساذج؟ هذا ما ظنته وكالة الاستخبارات المركزية. كنت أخلط الأوراق السياسية بينما يحصل المهاجمون على كل المجد. حسنًا، تبًّا لهم، وتبًّا لك! يمكنني اللعب بقذارة تفوق أفضل الحيل قذارةً. يمكنني، وسأفعل ما أحتاج إليه لأتيقن من توقيع أبي بكر على العقد، وسنكون جاهزين لعملية الغاز الطبيعي بحلول ظهر الغد. سأنسى أمرك أنت وعائلتك. حتى ذلك الحين يمكنك أن تعيش أو تموت، لا يمكنني أن أحدد على الإطلاق. هذا قرارك يا دوني الصغير. إن أسأت معاملتي مرة أخرى، فربما لا أمنحك فرصة ثالثة.

ـ سيبقى كورت على المسار الصحيح. سيأتي وسيقتلك.

ـلن يصل إلى هنا. ولكنٍ حتى لو فعل، فالرجل الرمادي الذي سيصل إلى هنا سيكون رجلًا مختلفًا تمامًا عن الرجل الذي تعرفه. سيكون جريحًا، استنفد وقته، ينقصه النوم والمعدات.

ـ معدات؟

ـ نعم. هذا النوع هالك دون معداته.

ضحك السير دونالد بغضب ثم قال: «ليس لديك فكرة عما تتحدث عنه. إن أغلى شيء بالنسبة لكورت في رأسه. السلاح الوحيد الذي يحتاج إليه هو عقله. كل شيء آخر: البنادق والسكاكين والقنابل.. مجرد كماليات».

ـ سخيف. لقد صدقت خرافات العملاء المتخصصين. لكنه في النهاية ما هو إلا بلطجي ذائع الصيت.

ـ إنها ليست خرافة، ولا مجد فيما يفعله. إنه موثوق به في العمل، وبارد ووحشي وكفء مثل جزار الحي. اعترض طريقه وسترى.

ـ أوه، أنوي اعتراض طريقه بكل ما أستطيع.

اكتسى وجه فيتزروي باللون الأحمر الفاتح والعرق بعد مصارعته خمسة رجال. لقد قُيِّد مثل الوحش إلى الكرسي مع حلقات سميكة تغطي ثلث رأسه. مع ذلك، ظل مبتسمًا.

ثم قال: «لقد تعاملت مع من يثرثرون من قبل، أوغاد صغار يحركون أفواههم عندما يكونون في مأمن بجوار الحائط، حمقى يملكون السلطة. لقد رأيت الكثير من الرجال مثلك يأتون ويذهبون في شبابي. ستأتي فرصتك لكنها سرعان ما ستختفي. أنت لا تخيفني».

ارتجف وجه لويد وهو يميل بالقرب من فيتزروي ويقول: «حقًا. ما رأيك لو مشيت في الطابق السفلي ورحت أدندن إيني.. ميني.. مايني.. مو؟ ثم عدت هنا بجائزة صغيرة لها ضفائر؟ ماذا لو قتلتُ...».

أجابه فيتزروي: «أيها الأحمق الصغير. هل تخاف من الرجل المقيد بالسلاسل فتهدد طفلتين؟ كلما حاولت أن تُظهر لي مدى خطورتك،

طابقت انطباعي عنك عندما رأيتك للمرة الأولى. مخنث صغير ضعيف. أحمق مثير للشفقة. لا يمكنك التعامل مع رجل عجوز مقيد بكرسي، لذلك عليك أن تلاحق هدفًا أضعف. خائن جبان!».

ضاقت عينا لويد غضبًا، وكانت أنفاسه ثقيلة في وجه فيتزروي. جلس الأمريكي ببطء وابتسم قليلًا. رفع خصلة من شعره بعيدًا حيث تدلت فيه على جبهته، وضغطها مرة أخرى على فروة رأسه المخدوشة.

وقال: «سأريك ما يمكنني فعله. فقط أنا وأنت». مد يده خلفه، إلى أحد رجال الأمن من مينسك عند الباب. وأتبع: «فليعطِني أحدكم سكينًا».

19

استيقظ سونج بارك كيم عند الفجر في جناحه في فندق بلازا أثينا الفاخر.

أثار فيه الحي المحيط مشاعر الترف، لكنه لم ينم على الفراش، ولم يشرب من الثلاجة الصغيرة، ولم يشترك في خدمة الغرف. كان ينام في خزانة خلفية على الأرض بعد أن ثبَّت أسلاكًا وأجهزة تنبيه حوله في كل مكان.

غادر غرفته في الساعة السادسة صباحًا، وبدأ يمشي في شوارع باريس، متذكرًا الطرق المؤدية من الضفة اليمنى، فوق الجسور، إلى الضفة اليسرى، مقلدًا مظاهر الغربيين وسلوكياتهم، بينما يحفظ نقاط الاختناق لحركة مرور السيارات والمشاة.

لقد تلقى قائمة على جهاز (جي بي إس) تحوي أسماء وعناوين لزملاء معروفين للرجل الرمادي في باريس: زميل عمل سابق في وكالة الاستخبارات المركزية، ويرأس الآن شركة استخبارات خاصة في ناطحة سحاب بمنطقة لاديفونس. وفي غرب المدينة، مترجم أفغاني استخدمه قسم الأنشطة الخاصة في كابول في عام 2001، ويملك الآن مطعمًا شرق ـ أوسطيًا رائعًا في الناحية اليسرى في شارع سان جيرمان، مخبر في شبكة فيتزروي كان أيضًا موظفًا فيدراليًا للقلم في وزارة الداخلية في مكتب بالقرب من ساحة الكونكورد، طيار ذو مهارة مشهورة سافر في مأمورية لوحدة الأنشطة الخاصة في أوروبا ويقيم الآن إقامة شبه دائمة في الحي اللاتيني.

استخدم الكوري وسائل النقل العام لإلقاء نظرة سريعة على كل موقع، والتحقق منها جميعًا، الوصول إلى المباني، ومواقع وقوف السيارات

القريبة، وطرق النقل العام من وإلى كل منطقة. كان يعلم أن هناك مراقبين محليين وظفهم الأشخاص الذين طلبوا من حكومته إرساله، وفي الواقع رأى رجالًا ونساءً في كل موقع على قائمته، رجالًا ونساءً غير قادرين على البقاء دون أن يكتشفهم عامل مدرب تدريبًا جيدًا. لم يساوره شك أن الرجل الرمادي سيراهم أيضًا. عرف كيم أنه عليه استبدال دعمهم بمهاراته في التتبع.

بعد ذلك، أجرى كيم جولات في وسط المدينة، ولا يزال يدرس الخريطة. كان مستعدًا للانطلاق إلى أي من مواقع زملاء الرجل الرمادي المعروفة إذا شوهد، لكنه لم يتوقع أن يستخدم خصمه كمساعد في مهمته الحالية. أيقن كيم أنه ربما تجاوز باريس تمامًا. كانت منطقة مزدحمة للغاية، بها عدد كبير للغاية من رجال الشرطة والعديد من الكاميرات والكثير من المعارف القدامى الذين سيكونون دائمًا تحت المراقبة.

كيم يعرف أنه إذا أُجبر القاتل الأمريكي على الذهاب إلى المدينة لأي سبب، فسيبذل قصارى جهده للحصول على ما يحتاج إليه من مصادر أخرى غير أولئك الذين يمكن تتبعهم. أدرك كيم هذا لأنه هو نفسه كان قاتلًا منفردًا. وحيدًا. لقد كان هو نفسه مُطارَدًا مثل الكلب، وقد أُجبر على تجنب كل من يتوقع أن يساعدوه.

لكن كيم كان يعلم أيضًا أن العزلة والإرهاق والإصابة والضرورة واليأس أدت جميعها إلى أخطاء، وكان يعلم أنه إذا وصل هدفه بطريقة ما إلى باريس، واحتاج إلى شيء ما في المدينة، فسيكون الرجل الرمادي حيوانًا يائسًا حقًا، ولن يتوقع أحد تصرفه ورد فعله.

ربما كان هذا العميل بالفعل أخطر رجل في العالم، لكن تخليه عن الخوف الواضح وسباقه المحموم مع الزمن قد يوقعه في الخطأ. لكنه سيجعله أيضًا أكثر خطورة على من حوله. كيم يعرف أنه إذا جاءت

مكالمة تفيد بوجود الرجل الرمادي هنا، فسيتدفق الدم مثل النهر عبر شوارع مدينة الأضواء.

***

ركب جينتري دراجته المسروقة فجرًا في أثناء تساقط الثلوج، ثم توقف عند محطة القطار في قرية أرديز.

كان عدد قليل من السكان المحليين يستعدون للسفر، في انتظار القطارات الصباحية الأولى المتجهة غربًا إلى زيورخ أو شرقًا إلى الحدود الإيطالية أو النمساوية. استعار الأمريكي هاتفًا خلويًا من طفل ينتظر القطار المتجه شرقًا، ودفع للصبي المراهق ما يعادل أربعين دولارًا للاتصال بفيتزروي لمدة خمس دقائق حتى يواجه مديره بشأن تسليمه.

مشى عشرين ياردة أسفل المنصة الخرسانية ليحصل على بعض الخصوصية ووقف في الثلج بينما يمر قطار متجه إلى إنترلاكن. أغلق الهاتف أخيرًا عندما اندلع شجار على الطرف الآخر من الخط، ومسح الرقم الموجود في ذاكرة الهاتف، وأعاده إلى الطفل مع النقود.

بعد بضع دقائق، صعد كورت على متن القطار الأول في الصباح إلى زيورخ. كان يوم سبت، لذلك كان الراكب الوحيد في مقصورته لأغلب مدة السفر عبر الوادي الضيق، التي استغرقت ساعة وخمسًا وأربعين دقيقة. تهادى القطار الأحمر اللامع على محطات السكك الحديدية عبر القرى الواقعة على طول مساره.

في القطار استعد جينتري وفحص جروحه بعدما أنزل سرواله في العربة الخالية، ووخز بأطراف أصابعه القروح على ركبتيه، ومداخل الجروح اللاذعة ومخارجها في فخذه. خشي أن تُصاب جروح الرصاصة بعدوى. وبالتأكيد، لم تساعده السباحة في خزان سزابو.

بخلاف ذلك، كان بخير. لقد سار كثيرًا على قدميه المتهتكتين، فأخذتا تخفقان بوتيرة منتظمة، تمامًا مثل ضلعه المكسورة.

كان يعلم أنه عليه الاستمرار في طريق نورماندي، على الرغم من شعوره بتضاؤل فرص نجاحه مع كل ميل يجتازه نحو الفخ الذي ينتظره. فيتزروي حقير لخداعه كما فعل. لكن، كان على جينتري أن يعترف، لقد وضع لويد السير دونالد في موقف صعب. تساءل كورت إلى أي مدى كان سيذهب هو نفسه، ومن كان سيبيع. فكر لو كانت التوأمان من عائلته وتعرضت حياتهما للخطر من حفنة من القرود المسلحة الذين لا يندمون على قتل الأطفال الأبرياء.

التفكير في لويد جعل دم جينتري يغلي. إنه بصراحة لم يتذكر الرجل، لكن وكالة الاستخبارات المركزية لم تخلُ قط من الأوغاد التافهين الذين يجلسون خلف المكاتب في الجزء الخلفي من العمليات السرية، وقتما كان الرجل الرمادي وأمثاله على خط النار. لم يكن باستطاعة كورت أن يتخيل أي وجوه، ولكن بين الحين والآخر كان رؤساؤه يعرّفونه بأحد هؤلاء الموظفين المتأنقين في لانجلي. لا بد أن لويد هو أحد هؤلاء، قبل أن يأخذ سجلات موظفي وحدة الأنشطة الخاصة بالغة السرية تاركًا الوكالة للالتحاق بالقطاع الخاص.

يا له من وغد!

أراد كورت أن يتذكر لويد، وأن يعثر على شيء ما في بنوك ذاكرته يمكن أن يساعده بطريقة ما على الخروج من مأزقه الحالي، لكن إيقاع حركة القطار على القضبان شجعه على النوم. بالرغم من كل الجروح والكدمات والعضلات المشدودة والثقوب الإضافية، كان الاسترخاء واجبًا ثقيلًا، لكن يبدو أنه كان متعبًا للغاية حتى لم يعد يشعر بالألم. لقد نام قبل دقائق قليلة من وصوله إلى زيورخ، واستيقظ من النوم بسبب تباطؤ القطار والإعلان المسجل عن التوقف الوشيك. وبينما ينهض ليشق طريقه إلى المخرج، انتقد نفسه لقلة انضباطه، بسبب نعاسه في الوقت الذي يتربص به القتلة من كثب.

في محطة زيورخ المركزية، اشترى تذكرة سفر إلى جنيف. يعني ذلك ساعتين أخريين على القضبان، لذلك شق طريقه إلى منضدة النقانق واشترى شطيرة كبيرة وفنجانًا من القهوة. مزيج غريب، لكنه كان يأمل أن تُبقي جرعة الكافيين ونصف باوند من البروتين الصلب جسده في حالة تأهب.

نزل عبر المصعد إلى مركز تسوق كبير على مستويين أسفل المحطة، قبل عشرين دقيقة من مغادرة قطاره، ووجد حمامًا بأجرة، فدخل إحدى الكبائن. جلس بملابسه الكاملة على الخزف، وأرجع رأسه إلى الحائط البارد خلفه. سحب مسدسه وأمسكه واضعًا إياه على ساقه.

***

كانت محطات القطار مواقع يسهل فيها على أعدائه مطاردته. لم تعجبه ندرة طرق الهروب من كابينة المرحاض، ولكن مع ذلك، كان أفضل له أن يختبئ في المرحاض من أن يقف في محطته لمدة ربع ساعة فقط وكأنه يطلب من القوة المعارضة أن تتعرف إليه. لو عثر عليه بلطجية لويد هنا، فسيفرغ خزينتي سلاح في باب المرحاض أمامه ويشق طريقه إلى الخارج.

لم تكن خطة حكيمة، لكن اعترف كورت لنفسه بأن شروعه في هذه العملية من البداية يعتبر تنازلًا عن أي حكمة مزعومة. الآن كان كل ما عليه فعله هو أن يحاول تجاوز هذا الموقف العصيب، على أمل أن يعيش فقط حتى الساعة الثامنة صباح يوم الأحد.

قبل أقل من دقيقة من المغادرة، صعد جينتري إلى الرصيف المحاذي للمسار السابع عشر، وانسل بصمت إلى القطار المتجه إلى جنيف حينما بدأ يتحرك.

***

رن هاتف ريجيل في التاسعة وأربعين دقيقة صباحًا. كان في مكتبه، يقضي يوم سبت مزدحمًا، بعد أن ألغى ـ على مضض ـ رحلة صيد طيور في نهاية الأسبوع في أسكتلندا.

ـ ريجيل.

ـ سيدي. كروجر يتحدث.

كان كروجر رئيس الأمن السويسري لمقر مجموعة لوران في زيورخ. قال: «لديّ معلومات عن الهدف. تلقيت تعليمات بالاتصال بالسيد لويد، لكنني اعتقدت أن عليَّ أن أبلغك بذلك».

ـ حسنًا يا كروجر. سأمرر المعلومات. ماذا لديك؟

ـ إنه عندي يا سيدي. لقد استقل للتو قطار 9:40 المتجه إلى جنيف. حجز تذكرة درجة ثانية، دون حجز.

ـ جنيف؟ لماذا يذهب جنوبًا؟ يجب أن يتجه غربًا.

ـ ربما كان يهرب، أقصد أنه يستسلم.

ـ ربما. ربما لا. هذا مستبعد، لكن لديه معارف هناك.

ـ يمكنني أن أجهز المراقبة في جنيف لاعتراضه في المحطة.

ـ لا. سنرتِّب حفلة ترحيب مختلفة له هناك لو كانت هذه وجهته الفعلية. قد يكون هذا تمويهًا. قد ينزل في الطريق، ويستقل قطارًا آخر إلى فرنسا. أريدك أن تثبّت تغطية في كل محطة يتوقف فيها هذا القطار بين زيورخ وجنيف. تأكد أيضًا من أنه لن ينزل قبل مغادرة القطار.

ـ أنا في القطار بنفسي الآن. سأتولى أمره طوال الطريق وأطلعك على آخر المستجدات كلما اقتربنا.

ـ حسنًا[1]. أحسنت.

---

(1) بالألمانية في الأصل.

بعد ذلك اتصل ريجيل بالفني في قصر نورماندي: «وجِّه الفنزويليين جنوبًا لمتابعة قطار 9:40 من زيورخ إلى جنيف. الرجل الرمادي على متن القطار، لكنه قد يحاول النزول في الطريق. يجب أن يستعد الفنزويليون للإمساك به في أي لحظة».

مفهوم.

فحص ريجيل خريطة كبيرة لسويسرا على مكتبه وقال: «أحضِر الأفارقة الجنوبيين في بازل إلى جنيف. لو وصل جينتري إلى المحطة على قيد الحياة، يجب عليهم تتبعه والتخلص منه في الشارع. سيكون هناك الكثير من الكاميرات ورجال الشرطة في المحطة».

***

لم يستغرق كورت سوى خمس عشرة دقيقة. وجد مقعدًا بجانب النافذة في المستوى العلوي في نهاية عربات الدرجة الثانية. كان قد خلع معطفه ولفه على جسده. وثبّت تحته مسدسه في حجره، وأمسك بالمقبض.

ثم غرق في النوم.

أرني هويتك[1].

استيقظ ببطء ورأسه متكئ على النافذة. وبالرغم من رؤيته المشوشة بسبب احتقان عينيه بالدماء، لكنه شاهد هبات ثلجية تضرب النافذة المجاورة لوجهه. أراد أن يخرج لسانه ويتذوق ندف الثلج الثقيل على الزجاج. كان الريف قد اكتسى باللون الأبيض، تألقت الجبال الصخرية باللونين الرمادي والبني، حيث لم تثبت الثلوج على الجرف بسبب انحداره الشديد.

كانت السحب منخفضة ورمادية، ورأى أمامه قرية. كان صباحًا شتويًا جميلًا.

(1) بالألمانية في الأصل.

سمع صوتًا قريبًا من يمينه: «أرني هويتك![1]». استدار كورت ونظر بسرعة، واستطاع أن يميّز السلطة في أسلوب الأمر.

وقف أمامه في الممر أربعة ضباط شرطة سويسريين يرتدون الزي الرسمي. كانوا يرتدون سراويل رمادية وسترات ذات درجتين من الرمادي. كانوا من شرطة المدينة، وليسوا الفيدراليين المدربين تدريبًا عاليًا، وتدلت على أرجلهم مسدسات جلوك 17 كبيرة. بينما يمد أكبر شرطي سنًّا ذراعه إلى الأمام.

سـأله: «أرني هويتك، من فضلك».

فهم كورت الألمانية بشكل سطحي، أراد رقيب الشرطة ذو الشعر الأبيض أن يرى بطاقة هوية وليس تذكرة قطار.

هذا ليس مبشرًا.

حرّك جينتري المسدس المخبأ تحت معطفه، وحشره بين الوسادة البلاستيكية وجدار عربة القطار وهو جالس. لم يكن بحوزة جينتري هوية، فقط تذكرة. ما إن أصبح السلاح بعيدًا عن الأنظار، اخترق معطفه وأخرج التذكرة وسلمها.

لم ينظر الشرطي حتى في الأمر. بل تحول إلى اللغة الإنجليزية. وقال: «أريد بطاقة هويتك من فضلك».

أجاب: «فقدتُ جواز سفري. أنا ذاهب إلى السفارة في جنيف للحصول على واحد آخر».

اتضح أن جميع رجال الشرطة الأربعة يفهمون اللغة الإنجليزية، لأن الأربعة نظروا إلى كورت كأنه يستخف بهم.

سأل الضابط الأكبر سنًّا: «أأنت أمريكي؟». أجابه: «كندي». علم كورت أنه في ورطة. قد يُلقي المسدس، لكن سيظل الجراب الجلدي ملصوقًا حول كعبه.

---

(1) بالألمانية في الأصل.

بدا هؤلاء الرجال على درجة من الحدة. سيفتشونه بلا شك. عندما وجدوا الجراب الفارغ في ساقه، راح رجال الشرطة يفحصون مقعده ويبحثون عن مسدسه.

ـ أين أمتعتك؟

ـ سُرِقت. لقد أخبرتك بهذا.

لا جدوى من تكوين صداقة معهم. عرف كورت أنه قد يضطر إلى العراك مع هؤلاء الرجال قبل أن ينتهي كل شيء.

لم يكن يشعر بالرضا حيال تحطيم رؤوس مجموعة من رجال الشرطة الأبرياء، لكنه لم يرَ أي وسيلة للتحايل على الأمر، على الرغم من أنها ستكون معركة بأربعة مقاتلين، فإن العميل الأمريكي أيقن أن المفاجأة والسرعة والتعامل بعنف هو ما سيضمن له السيطرة في مثل هذه المساحة الصغيرة في ممر القطار.

لقد فعلها من قبل.

عندها فقط، فُتح باب العربة، ودخل ثلاثة رجال شرطة آخرين. ظلوا عند الباب، بعيدًا عن بقية الحشود. تبًّا! سبعة على واحد، لم يخاطروا. لم يتخيل جينتري غير تعطيل أربعة رجال، ثم التقدم خمسًا وعشرين قدمًا وإسقاط ثلاثة آخرين، قبل أن يطلق النار باتجاههم.

قال الشرطي ذو الشعر الرمادي: «قف من فضلك».

ـ لماذا؟ ماذا فعلت؟

ـ قف من فضلك، سأشرح لك.

ـ أنا ذاهب إلى...

ـ لن أطلب مرة أخرى.

أرخى كورت كتفيه ونهض ثم تحرك خطوة واحدة في الممر. اقترب منه شرطي شاب وأداره. سرعان ما قُيدت يداه خلف ظهره. كان الركاب الآخرون في العربة ينظرون إلى ما يحدث بذهول. وظهرت الهواتف المزودة بكاميرات، وبذل جينتري قصارى جهده للابتعاد عنها.

فتشه الضابط الشاب، الذي سرعان ما اكتشف في جيبه السكين القابل للطي، وجراب كعبه في ساقه. راحوا يُفتشون مقعده، ورُفع المسدس عاليًا في الهواء مثل الكأس ليراه جميع من في العربة.

قال كورت: «أنا عميل فيدرالي للولايات المتحدة». قال هذا لأنه لم يكن لديه شيء آخر. لم يكن يتوقع أنٍ يسلموه مسدسه ويربتوا على مؤخرته، لكنه كان يأمل أن يسترخوا قليلًا فيمنحوه فرصة للهروب.

سأل الضابط المسؤول: «أأنت بلا هوية؟».أجابه: «لقد فقدتها».

سأله أحد رجال الشرطة: «لقد قلت هذا. هل كنت في جواردا هذا الصباح؟». لم يجبه الرجل الرمادي، الذي أحاطت به كاميرات الهواتف ونظرات التحديق الواسعة، فلم يشعر أنه رمادي بما يكفي. لم يرد. تحدث أحد رجال الشرطة الجدد عند المدخل عبر جهاز الاتصال اللاسلكي. بعد لحظة أبطأ القطار.

20

تلقي ريجيل المكالمة في الساعة الحادية عشرة وثمانٍ والثلاثين دقيقةً صباحًا.

ـ سيدي، كروجر مرة أخرى. لقد نُقِل جينتري من القطار في قرية صغيرة تسمى مارناند. ليست محطة توقف مجدولة.

ـ من استوقفه؟

ـ الشرطة. إنه مقيد بالأصفاد ويجلس على الرصيف محاطًا بالشرطة. سمعت أحد رجال الشرطة يطلب وسيلة نقل، ستُرسل عربة من لوزان. يجب ألا يستغرق الأمر أكثر من ثلاثين دقيقة.

ـ هل نزلت من القطار أيضًا؟

ـ لم يُسمح لأي ركاب آخرين بالخروج. سأنزل في لوزان وأذهب مباشرة إلى مركز الشرطة؛ أنتظر وصوله.

حدق ريجيل إلى خريطة على جهاز الكمبيوتر الخاص به، بينما أنهى المكالمة واتصل بلويد. وقال: «أخبر الفنزويليين أن جينتري في مارناند، على بعد ثلاثين كيلومترًا تقريبًا شمال لوزان، إنه في قبضة الشرطة».

رد الأمريكي على الفور: «لا يجب أن يحصلوا عليه! نحن بحاجة إليه!». نظر ريجيل عبر مكتبه، إلى رؤوس عشرات الحيوانات اللامعة، تذكارات صيده التي تبادله النظرات. قال: «أعرف ذلك. أخبروا الفنزويليين أن لهم مطلق الحرية في استخدام السلاح. يمكنهم تدمير كل من يعترض طريقهم».

ـ هذا هو المطلوب! هل هم بارعون؟

ـ إنهم من مكتب الاستخبارات العامة، الشرطة السرية لهوجو تشافيز. إنهم أفضل ما يمكن لكاراكاس أن تقدمه.

ـ حسنًا، هل هم بارعون؟

ـ سنعرف في أقرب وقت، أليس كذلك؟

***

جلس جينتري يرتجف على مقعد خشبي على الرصيف الوحيد بمحطة القطار الصغيرة. قُيدت يده اليسرى إلى ذراع المقعد الحديدي. وقف حوله خمسة من رجال الشرطة في البلدية وسط تساقط الثلوج الخفيف. وظل الباقون في القطار.

شعر أن أوصافه انتشرت بعد المشاجرة الصباحية في جواردا. وخمَّن أن الدراجة المسروقة قد شوهدت في محطة القطار في أرديز مما جعل الشرطة تُخضع فتاة التذاكر للاستجواب. لا بد أنها ستتذكر أجنبيًّا في أول قطار متجه إلى زيورخ في ذلك الصباح، فزيورخ مركز النقل الرئيس في الدولة الصغيرة، ولا يحتاج الأمر سوى تنبيه كل شرطي للتحقق من كل قطار وحافلة وطائرة من زيورخ بحثًا عن رجل ذي شعر بني، في الثلاثينيات من عمره، يسافر وحده.

دلّت العلامة على الرصيف على مارناند. لم يكن لديه أي فكرة عن موقع هذه البلدة على الخريطة، لكنه شعر أنه ربما نام لمدة ساعتين، لذلك شك أنه لم يبتعد عن جنيف. كان عليه أن يجد طريقة للتخلص من هؤلاء الرجال والعودة إلى الطريق. أحسَّ أن هناك ساعة تدق بالعد التنازلي في عقله.

جلس بجواره قائد الشرطة، شعره أبيض مثل قمة جبل مغطاة بالثلوج، وتفوح منه رائحة مرطب ما بعد الحلاقة.

ـ ننتظر سيارة من لوزان. سيأخذونك إلى المحطة. يأتي المحققون ويتحدثون إليك بشأن القتال في جواردا والمسدس الذي معك في القطار.

ـ نعم، يا سيدي.

كان جينتري يحاول أن يتعامل بود الآن، وباستراتيجية مسالمة، لأنه لم يكن يعرف ماذا يفعل. لن يؤدي ذلك إلى إطلاق سراحه، ولكن قد يساعده على أن يحتوي غضب الشرطة، مما يجعلهم يقللون من حذرهم بما يكفيه لاستغلال الفرصة.

مع ذلك، كان حمل أحد مسدسًا في سرواله في سويسرا يعادل خطورة القتل الجماعي في أمريكا.

ـ هل يمكنني الذهاب إلى الحمام؟

ـ لا. احبس بولك.

ضحك رجال الشرطة الأصغر سنًّا.

تنهد كورت، كان الأمر يستحق المحاولة.

كان الطريق المتعرج إلى يساره، أسفل الرصيف، ذا حارتين، ويرتفع إلى أعلى، وكان رطبًا ونظيفًا وأسود مثل عرق السوس، ويشطره تساقط الثلوج البيضاء على التل. كانت هناك شاحنة ذات ألواح خضراء دكناء على ارتفاع أعلى التل، على بعد خمسين ياردة من حافة المحطة، ومائة ياردة أو نحو ذلك من حيث يجلس كورت ورجال الشرطة على رصيف المحطة الوحيد.

انفجرت أبخرة العادم من كاتم صوت السيارة وارتفعت في الهواء.

نظر كورت إلى يمينه، ما زال يحاول إيجاد فرصة قبل ظهور المزيد من رجال الشرطة. على يمينه كانت حافة القرية نفسها. وكانت هناك بيوت طينية تشبه عيش الزنجبيل متناثرة بين الأبنية الأكثر حداثة، وتصاعدت خيوط الدخان الناتجة عن احتراق الخشب في الهواء فوق البيوت، لتتلاشى في السماء الرمادية فوقها.

تهادت شاحنة خضراء قادمة من القرية، مماثلة لتلك التي على يمينه، ودخلت محطة وقود على بعد ثلاثين ياردة حيث يجلس كورت، ثم وقفت في ساحة انتظار السيارات بعيدًا عن المضخات.

توصل الرجل الرمادي في ثوانٍ إلى أنه تعرض للحصار. صاح مناديًا الشرطي المسؤول على الفور: »أيها الرقيب!». كان الرجل الأكبر سنًا يتحدث مع مرؤوسيه، لكنه سار باتجاه كورت على الرصيف.

قال جينتري: «أرجو أن تنصت إليَّ بعناية. لدينا مشكلة. على جانبينا شاحنتان خضراوان. في هاتين المركبتين أو بالقرب منهما هناك رجال قد أُرسِلوا لقتلي. لن يترددوا في قتلك وقتل رجالك للوصول إليَّ».

تلفّت الشرطي يمينًا ويسارًا باتجاه كلتا الشاحنتين ثم عاد إلى جينتري.

ـ أي هراء تنطق به؟

ـ سيكونون قتلة مدربين تدريبًا عاليًا. عليك أن تنقلنا جميعًا إلى الداخل، في المحطة. أسرع!

سحب الشرطي جهاز الاتصال اللاسلكي الخاص به من حزامه ببطء ووضعه أمام فمه. لم تبتعد عيناه عن جينتري. أمر رجاله بالألمانية أن يأتوا، ثم تحول إلى اللغة الإنجليزية: وقال: «توجد شاحنتان خضراوان. واحدة في الشمال والأخرى في الجنوب. هذا الرجل يقول لي إنهما تحملان رجالًا جاؤوا هنا لإنقاذه».

رد قائلًا: «لا، ليس إنقاذًا! بل قتلًا!».

نظر الخمسة جميعًا إلى أعلى الرصيف وأسفله صوب الشاحنتين اللتين لم يصدر عنهما أي تحرك. قال ضابط شاب أشقر بينما يفك صمام الأمان عن مسدسه: «إنها خدعة».

سأل رجل آخر: «من أنت؟». لم يجب كورت. بدلًا من ذلك قال: «علينا أن ندخل بسرعة».

قال الشرطي الرئيس لضباطه: «انتبهوا له. سأتحقق من هذا». واستدار ليمشي على الرصيف باتجاه الشاحنة في نهاية محطة الوقود.

صاح كورت: «أيها الرقيب! أنت حقًا لا تريد أن تفعل ذلك». لكن الشرطي ذا الشعر الفضي والمعطف الثقيل تجاهله، ونزل درج

الرصيف واتجه صوب محطة الوقود الصغيرة. كانت الشاحنة الخضراء ذات نوافذ مظللة، ثابتة مكانها، يتدفق الدخان من شكمانها، وينجرف بعيدًا في الهواء خلفه. عندما اقترب ضابط الشرطة من الشاحنة، تحدث جينتري إلى الرجال الأربعة المتبقين.

وقال: «سيموت. لا تفزعوا، سيتعين علينا جميعًا العمل معًا. إذا حاولتم الركض فسيطلقون عليكم النار. إن أردتم النجاة، فقط افعلوا ما أقوله».

قال أحدهم: «اخرس»، وكان الأربعة كلهم ينظرون إلى الرقيب وهو يقترب من النافذة الجانبية للسائق، واستخدم جهاز الاتصال اللاسلكي الخاص به لينقر على الزجاج الملون.

توسل كورت إلى الضباط الذين يرتدون الزي الرسمي ويراقبونه، قائلًا: «لا تنسوا أن هناك شاحنة أخرى!». كرر الشرطي: «اخرس». لاحظ جينتري قلقهم المتزايد حيث تلتفت رؤوسهم ذهابًا وإيابًا بين الشمال والجنوب.

نقر الرقيب بقوة على الزجاج، بينما راقب جينتري والآخرون الوضع. بدا أن الرجل ذا الشعر الفضي ينظر من كثب عبر الزجاج المعتم. لا بد أنه رأى شيئًا ما، بعض الحركة أو مؤشرًا آخر على الخطر، إذ سرعان ما تراجع رجل الشرطة السويسري ومد يده إلى المسدس المعلق في حزامه.

حطمت طلقات الرصاص النافذة الجانبية للسائق، تراجع الشرطي على الفور، وفُتح الباب حيث نزل رجل يرتدي بذلة سوداء وقناع تزلج من خلف عجلة القيادة إلى الرصيف، وفي يده مسدس آلي صغير. أطلق ثلاث طلقات أخرى على جسد الرقيب المترنح، وسقط الضابط السويسري على ظهره ميتًا.

سحب جميع رجال الشرطة السويسريين الأربعة حول كورت مسدساتهم على نحو مرتعش. سيكون من الصعب عليهم التصويب

بدقة من بعد ثلاثين ياردة، لكن الشباب أطلقوا الرصاص بينما يصرخون من الصدمة، وسقطوا بحثًا عن ملجأ.

صاح كورت وهو ينزل على الأرض الأسمنتية: «الشاحنة الأخرى! الشاحنة الأخرى!». استلقى على الرصيف البارد بجوار المقعد، وذراعه اليسرى فوقه مقيدة بذراع المسند.

نظر رجال الشرطة خلفهم، ورأوا أربعة رجال ملثمين يسيرون على الطريق الأسود باتجاه مواقعهم. يحملون جميعًا بنادق مماثلة لتلك التي كان يحملها الرجل في محطة الوقود، والذي انضم إليه الآن ثلاثة حلفاء. اقترب الثمانية جميعًا بثقة، كما لو كان لديهم متسع كبير من الوقت.

صرخ كورت: «فُكَّ قيدي! علينا أن نتوارى بالداخل!». لكن رجال الشرطة أُجبِروا على الاختباء بالأسفل في المنصة الأسمنتية، ما بين جلوس القرفصاء مختبئين خلف عربة دفع خشبية أو الاستلقاء في العراء، وأطلقوا رصاصًا لم يصب المسلحين، بينما اقترب ذوو الثياب السوداء مهدِّدين، عبر دوامات الثلج المتساقط، من اتجاهين متعاكسين.

صرخ شرطي شاب أصلع في الميكروفون المثبت على كتف سترته، إذ يجثم على بعد خمس عشرة قدمًا من جينتري، خلف عربة أمتعة وفرت له غطاءً واهنًا أمام الرجال على التل الشمالي، ولم توفر له أي غطاء من الرجال في محطة الوقود جنوبًا.

شاهد كورت رشقات نارية تصطدم بخرسانة رصيف القطار، وتتسابق نحو الشرطي الشاب إذ ينظر في الاتجاه الآخر ويصرخ في الميكروفون، لم يكن يدرك اقتراب كل انفجار من الأسمنت والغبار منه، حتى اخترقت طلقات المسدس الآلية الأسرع من الصوت ساقيه وظهره. استدار على جانبه وانتفض على الخرسانة، ثم توقفت آلام الموت بالسرعة التي بدأت بها.

صاح جينتري: «فليعطِني أحدكم مسدسًا!». تجاهله رجال الشرطة الثلاثة المتبقون. أطلقوا النار إطلاقًا غير دقيق، وأعادوا حشو الطلقات ببطء وأيدٍ مرتجفة.

التف كورت حول الخرسانة الباردة. وضع حذاءه على الأرجل الحديدية للمقعد وركل بأقوى ما يستطيع. حاول يائسًا كسر الطرف الحديدي الكبير الذي قُيِّد إليه، وأن يفصله عن بقية المقعد الخشبي الذي يبلغ طوله اثنتي عشرة قدمًا. قضم القيد المعدني معصمه الأيسر وهو يركل ويسحب. سرعان ما صار الأمر يحدث بشكل منتظم؛ يركل بقدميه، يُحدِث شقوقًا في الخشب القديم، يشعر بألم شديد في معصمه ويده.

أصاب وابل من نيران الأسلحة الآلية النافذة التي تعلوه، مما أدى إلى كسر الزجاج على المقعد وعلى الأرض في كل مكان. وبينما كان يركل نظر إلى الخلف إلى يمينه. وأصيب شرطي ثانٍ في كتفه ووركه. ألقى مسدسه وتلوى على الأسمنت في عذاب.

استغرق الأمر أكثر من ثلاثين ضربة متزامنة بكلتا قدميه لفصل الطرف الحديدي عن المقعد الخشبي. في آخر ركلة للأسفل بكعب حذائه جذب نفسه بذراعه. كان الألم في معصمه الأيسر شديدًا، لكن المقعد تحطم. زحف جينتري على ركبتيه، وجثا فوق زخارف معدنية ثقيلة ورفعها. ثلاثون رطلًا ما زالت مربوطة بمعصمه الذي تورم وجُرح بشدة. ثبَّت ذراعه المقيدة بالأصفاد فوق المشغولات المعدنية ورفعها من الرصيف. وأمام خط النار من كلا الاتجاهين، ركض نحو الشرطي المصاب وهو يتلوى ألمًا في منتصف الرصيف.

ألقى القطعة الحديدية أمامه على بعد عشر أقدام أسفل الرجل، وانزلق عليها. تشققت على الأسمنت بنفس قدر الضجيج الذي كانت تنبح به طلقات الرصاص في كل مكان. وتورم معصمه داخل الأصفاد المعدنية.

وصل إلى الرجل وانحنى على الضابط السويسري. صرخ الشرطي إلى منقذه: «فخذي! لقد أصبت بشدة في...».

قال كورت: «آسف». وسحب مفتاح الأصفاد من حزام الأدوات الخاص بالشرطي الذي تلطخ بدم الشاب.

ربض بالأسفل مواجهًا أنينًا أسرع من الصوت على بعد بوصات من أذنه اليمنى. دفع القاتل الأمريكي مسند الذراع الحديدي المزخرف أمامه باتجاه حافة المنصة، وراح يزحف، ثم دفعه مرة أخرى.

حاول الشرطي المصاب أن يمسك بساق كورت إذ يبتعد الأمريكي، وهي محاولة بائسة لطلب المساعدة من المنقذ واستعادة السيطرة على سجينه، كما لو أن ذلك لا يزال يمثل مشكلة. ركل جينتري يد الرجل المحتضر، وأخذ مسدس الشرطي من الرصيف، ثم واصل الزحف. طاردت كورت رشقات من رصاص الأسلحة شبه الآلية بطول الطريق المؤدي إلى حافة الرصيف ولم تصبه، بينما يتدحرج هو والمرساة الحديدية.

انخفض جينتري أربع أقدام على الأرض خلف حافة الرصيف التي استعملها غطاء حماية. شعر بالذعر ووصل الأدرينالين إلى دماغه عندما فقد المفتاح للحظة في الثلج، لكنه سرعان ما استخرجه. نهضِ على ركبتيه، وحافظ على ثبات أصابعه الحمراء المجمدة في أثناء فكِه الأصفاد من معصمه الأيسر.

من بين رجال الشرطة الخمسة الذين أنزلوه من القطار، ظل اثنان فقط يقاتلان. جثم كلاهما على الرصيف غير مستترين بدرجة كافية.

لم يشأ كورت وضع رأسه في مرمى البصر، أو أن يشاهده أحد وهو يسقط من الرصيف، فتحرك إلى أسفل على بعد بضع أقدام قبل أن يحدق مرة أخرى لأعلى. صاح في رجلِي الشرطة، وطلب منهما كسر الغطاء والتقدم إليه. صاح أحدهما قائلًا إن ذخيرته نفدت، وأصيب

الآخر في يده اليمنى بينما يطلق النار على أصيص حجري بيده اليسرى، ما أكد لجينتري أن الرجل بارع في التصويب بيده اليمنى.

لفتت بعض الحركة في محطة القطار أنظار جينتري. كان المدنيون القلائل في المحطة قد هربوا منذ فترة طويلة أو انبطحوا أرضًا، لذلك عندما رأى رجلين يركضان نحو المنصة داخل المبنى، علم كورت أن بعض المهاجمين تمكنوا من تطويق موقعه.

فتح باب رصيف المحطة رجلان ملثمان بقناعين أسودين فوق الشرطي الذي أصيبت يده.

رفع كورت مسدس بيريت في يده اليمنى؛ كانت اليسرى عديمة الفائدة مع إصابته الجديدة. على مسافة اثنتي عشرة ياردة، أطلق جينتري النار في وجه الرجلين الملثمين. تسبب اندفاعهما إلى جانب تأثير الرصاص في تعثر أحدهما بالآخر، والسقوط من الباب معًا على الرصيف البارد.

لم يطلق مسدس بيريتا 92 الذي استعاره كورت الرصاصة الثانية.

فرغت ذخيرته.

قال: «أنت! مرر لي تلك البندقية!».

كانت هذه المرة الثالثة التي يطلب فيها سلاحًا. الاختلاف هذه المرة بالطبع هو أن أول مرتين كانتا قبل أن يرى الشرطيان الناجيان ما فعله. على الفور مرر الشرطي الشاب ذو اليد الملطخة بالدماء إحدى بنادق المسلحين السوداء الصغيرة عبر الرصيف إلى جينتري. أمسكها كورت وانبطح لأسفل.

كانت من طراز **(إم بي 5)** الأكثر انتشارًا في العالم. أمسكها الرجل الرمادي بأريحية. سحب الأمريكي الخزينة وكانت محشوة بثلاثين طلقة من عيار تسعة ملليمترات.

صاح قائلًا للشرطي المصاب أن يمرر البندقية الأخرى للرجل غير المصاب. وعندما حدث هذا قال كورت: «شغِّل الوضع شبه الآلي!

أطلق طلقة واحدة في كل مرة في كل اتجاه! افعل ذلك حتى يفرغ! هل تفهم؟».

صاح الشرطي: «نعم[1]!». ـ هيا!أسرع كورت منحنيًا بطول حافة الرصيف، ثم تحرك شمالًا، وطوى المسافة بينه وبين الأربعة الذين أتوا من الشاحنة على التل. اقترب قطار من الشمال. سمع كورت صفارات الإنذار من اتجاه القرية، فحاول أن يفرغ عقله من أي شيء وهو يزحف إلى الأمام بمحاذاة مسار القطار عبر الثلج. الآن سيحاصر الرجال الذين يعرفهم الرصيف بالقرب من الزاوية الأسمنتية في المقدمة.

خفق معصمه، شعر بوخز في ركبتيه من تمزقات زجاج النافذة التي تلقاها في أثناء هروبه من لأزلو سزابو في بودابست بعد الظهر في وقت سابق. كان ألم فخذه المتواصل، إثر إصابته في أثناء إطلاق النار يوم الخميس، أقل متاعبه في الوقت الحالي.

سمعهم على بعد عشر أقدام من زاوية الرصيف الأسمنتية؛ رجال يتحدثون الإسبانية. الإسبانية؟ هل يسعى كوكب الأرض بالكامل لقتله؟ لقد أخفتهم الدرجات حتى بلغوا الرصيف. وبالرغم من الرنين في أذني جينتري، فإنه استطاع تحديد أصوات النقر، وشدَّ الزنبرك، وسُمعت أصوات أحدثها تغيير خزينة مسدس **(إم بي 5)**

عندما نهض، واجه رجلين ملثمين يقفان أيضًا. أطلق جينتري بيد واحدة دفعة أوتوماتيكية كاملة، في مسافة أقل من عشر أقدام. سقط كلا المهاجمين، وأطلق دفعة قصيرة أخرى على كل جسم يرتجف. ألقى المسدس الرشاش من يديه، وأخذ مسدسًا جديدًا من مسلح ميت، ثم دار حوله وركض عائدًا إلى الرصيف.

---

(1) بالفرنسية.

لم يفكر قط في الهروب، بالرغم من أنه كانت لديه فرصة مثالية للهروب من فرقة القتل الناطقة بالإسبانية والشرطة السويسرية. ولكن كانت هناك معركة محتدمة، وقد تورط فيها كورت بالفعل، ولا يبدو فض الاشتباك في هذه المرحلة صائبًا.

ما زال اثنان من رجالِ الشرطة الأبرياء على قيد الحياة، لكن لن يصمدا بمفردهما طويلًا. مع اقتراب صفارات الإنذار، ضربت الأضواء الساطعة الألواح الزجاجية القليلة المتبقية في محطة القطار. ركض كورت جينتري إلى الوراء لمساعدة الشرطيين، ممسكًا بمسدس **(IIK)** بذراعه السليمة، باحثًا عن أهداف جديدة.

21

جلست كلير فيتزروي على سريرها ونظرت من النافذة إلى الحديقة ثم الغابة الكثيفة وراءها. كانت السماء باهتة ورمادية منذ وصلوا القصر بعد ظهر اليوم السابق، ولكن خلال الصباح تشتت الغطاء السحابي المنخفض، والآن يمكنها أن ترى أفقًا واسعًا.

كان غداؤها بجانبها لم يُمَس. وأختها في الطابق السفلي في المطبخ مع أمها وأبيها والرجال ذوي المعاطف الجلدية الذين يتبعون والدها أينما ذهب، ولكن كلير أُعفيت من الجلوس معهم على الطاولة. أخبرت والديها بآلام بطنها، واستأذنت أن تعود إلى غرفتها.

كانت آلام البطن حقيقية، وذلك بسبب القلق الذي انتابها بشدة لأكثر من يوم، والخروج العاجل من المدرسة، ووجهي والديها الوجلين، والشجار في الهاتف بين والدها وجدها، ووصول الرجال المسلحين، والرحلة في السيارات السوداء الكبيرة إلى القصر في الريف.

لفت انتباهها شيء في الخارج. انحنت بالقرب من نافذة غرفة النوم وحدقت، ثم وقفت بحماسة. يمكنها أن ترى الأبراج من مكانها. إنها تتذكر تلك الأبراج! إنها أبراج كاتدرائية نوتردام الضخمة في بايو، وكانت تعلم أن بايو لديها مركز شرطة، بالقرب من عجلة المياه الكبيرة التي أخذها والدها وأختها إليها. تذكرت رجال الشرطة بزيهم الرسمي وهم يبتسمون لها في الصيف الماضي.

ربما يمكنها أن تركض عبر الحديقة الخلفية الشاسعة وبستان التفاح إذا استطاعت أن تخرج من المنزل على الفور، وتشق طريقها عبر الغابة إلى بايو في هذا الجو البارد. ما إن تصل، ستعثر على مركز الشرطة وتخبرهم بما يحدث. يمكن أن يأتوا للمساعدة، ويجبروا الرجال ذوي

المعاطف الجلدية الذين يتحدثون لغة أجنبية قبيحة على أن يسمحوا برحيل عائلتها.

سيفرح والداها كثيرًا.

كانت مسافة بعيدة للغاية، لكنها على يقين أن بمقدورها تحقيق ذلك. كانت أسرع لاعبة جناح في فريق كرة القدم. يمكن أن تنزلق إلى القبو وتخرج من النافذة الصغيرة المفتوحة، التي هربت منها القطة التي طاردتها هي وأختها في الليلة السابقة.

حسمت كلير فيتزروي ذات الأعوام الثمانية أمرها. أغلقت أزرار معطفها، وسحبت قفازاتها، ثم فتحت باب غرفة النوم. ما إن دخلت الرواق الطويل ذا الإضاءة الخافتة، سمعت أصواتًا عند أسفل السلم، لكنها تأتي من الطابق العلوي. اندفعت بسرعة عبر الممر وصعدت إلى السلم. تحركت قدماها الصغيرتان برفق لتجنب إحداث ضوضاء، فخف وزنها مع كل خطوة.

سمعت صرخة مفاجئة فوقها. توقفت مكانها ونظرت إلى الأعلى. كانت هناك صيحة أخرى. جاءت من الطابق الثالث.

عاودت النزول مرة أخرى، لكنها نظرت مرة أخرى إلى مصدر الضوضاء، وسمعت صوتًا منخفضًا.

كان الجد دونالد، بدا كأنه يبكي. سرعان ما شقت طريقها إلى الطابق الأول متجاوزة المطبخ وقاعة الطعام بحذر، لأن والديها وأختها ما زالوا يتناولون الغداء، وسيغضب والدها لو رآها، وسيطلب منها العودة إلى غرفتها فورًا.

انحرفت عن القاعة إلى اليمين إلى درجات حجرية تؤدي إلى قبو النبيذ. تحركت كلير بسرعة، لكنها حرصت على تجنب أي ضجة قد تفضحها. استدارت وركضت إلى زاوية، وكادت تصطدم بحارس ضخم من الخلف.

توقفت كلير فجأة. كان الرجل يرتدي سترة طويلة العنق لونها بني، واستطاعت من الخلف أن ترى حزام البندقية الأسود يتدلى على صدره. بينما ثبت مسدسًا وجهاز راديو على حزامه. كان يتفقد القاعة بعيدًا عنها، صامتًا تمامًا في تحركاته.

لم تجرؤ كلير الصغيرة على العودة أو الاستدارة والهرب. لقد وقفت في صمت، في منتصف الردهة خلفه. مشى ببطء. على بعد خمس أقدام في البداية. ثم عشر، ثم عشرين. فتح الحارس بابًا على يساره، علمت كلير من استكشافاتها مع أختها في الليلة السابقة أن هذا هو الحمام الصغير.

دخل وأغلق الباب وراءه.

سمعت خلفها مزيدًا من الرجال يتحدث بعضهم مع بعض. أسرعت لتتجاوز باب الحمام حتى بلغت درجات القبو الحجري. بعد دقيقة واحدة صعدت إلى الرف، ودفعت جسدها الصغير عبر النافذة، وضغطت نفسها للخارج فسقطت على عشب الحديقة الخلفية.

نهضت بانحناءة والتفتت يمينًا ويسارًا. رأت من مسافة رجلًا يصطحب كلبًا كبيرًا بحبل. كان يتحرك في الاتجاه المعاكس تمامًا كالرجل في الردهة. نظرت كلير إلى ما وراء النافورة الحجرية البيضاء، متجاوزة أشجار التفاح عبر الأفق.

إنها الأبراج؛ أبراج كاتدرائية بايو.

نظرت مرة أخرى حولها ثم غادرت. نهضت وركضت بسرعة قدر ما استطاعت ساقاها الصغيرتان. كان الجو باردًا، وتقطّعت أنفاسها وهي تتخطى النافورة حتى وصلت إلى الجانب الآخر، ثم ركضت كأنها تركض للمرة الأولى في حياتها.

منذ بضعة أسابيع سجلت هدفًا في مباراة ضد مدرسة وولنت تري ووك الابتدائية. كانت على الجهة اليسرى عندما استحوذت على الكرة بعد تشتيت سيئ من الدفاع. استعادت الكرة باتجاه المرمى بأقصى

سرعة، وراوغت بالقرب منه، وركلت على مسافة منخفضة، وكان هذا هدفها الأول هذا الموسم.

كان والدها سعيدًا للغاية حتى أنه اصطحب الفتاتين لتناول البيتزا في طريقهم إلى المنزل. ظل يذكر هذا كل يوم منذ ذلك الحين.

ركضت كلير عبر العشب الأخضر المشذب كما لو كانت تركض بالكرة أمام المرمى. كان عليها فقط أن تتجاهل الهواء البارد الذي يلدغ صدرها، ووخز الألم الخفيف في ساقيها. عليها فقط أن تصل إلى البستان، حيث لا يستطيع الأشرار القبض عليها. عليها فقط أن تصل إلى أبراج الكنيسة حتى تعثر على مركز الشرطة. عليها فقط أن تخبر شخصًا ما بما يحدث في القصر. عليها أن تنقذ عائلتها وحسب.

كانت على بعد بضع ياردات فقط من بداية البستان، يمكنها أن تشم بالفعل رائحة التفاح الحلو، وحينها طقطق انفجار البندقية الذي يصم الآذان عبر العشب الواسع خلفها، وتردد صداه ممتدًا لأبعد من خط الأشجار أمامها. تعثرت وسقطت بين الشجيرات المنخفضة عند حافة البستان.

***

صرخ لويد مذهولًا: «ما هذا بحق الجحيم؟»، رغم أنه يعرف رصاصة البندقية إذ سمعها. أخرج رأسه من مركز القيادة. من الواضح أن الحارس في نهاية القاعة في الطابق الثالث كان جاهلًا مثل السائل.

اندفع لويد بعيدًا عنه على الدرج. لم يكن الشاب الأمريكي يرتدي معطفه، وقد حل رابطة عنقه حول رقبته، وياقته مفتوحة. شمر كميه بينما غطى العرق إبطه ووجهه وشعره. كان مزيجًا من العرق والدم الذي لطخ قميصه، حيث نظف مؤخرًا جرحًا حديثًا.

عندما هبط إلى الطابق الثاني كاد يصطدم بأحد البيلاروسيين كان قادمًا من أجله.

سأل لويد: «ماذا يحدث؟ من يطلق النار؟».أجابه: «تعالَ، من فضلك أسرع!».

اندفع لويد وراء الرجل ونزل إلى الطابق الأول. كان هناك صراخ من منطقة المعيشة، صوت إليز فيتزروي قادمًا من المطبخ. يبادلها رجال مينسك الصياح. ظهر السيد فيليكس وسأل لويد عما حدث، لكنه أوصِيَ بشدة بالعودة إلى المكتبة وإغلاق الباب. همَّ لويد بالدخول إلى المطبخ، لكن الحارس الذي سار أمامه أمسكه من ذراعه وقال شيئًا لكن لغته الإنجليزية كانت ضعيفة. أبعد لويد يد الرجل عنه، لكنه تبعه خارج الباب الخلفي. في البداية لم يرَ المحامي الأمريكي سوى النافورة الحجرية البيضاء، والعشب الأخضر، وبستان التفاح البعيد، والسماء الزرقاء الصافية.

تبع الحارس حول النافورة، ووجد ثلاثة بيلاروسيين وكلبًا يقف فوق جسم ما على العشب.

جينتري؟

لم يصدق لويد، كيف نجح في ذلك بهذه السرعة، تنحى الرجل وكلبه جانبًا، مما أعطى لويد رؤية واضحة للجسد ووجهه المستلقي على العشب. تشنج فك لويد. وقال: تبًّا! تبًّا! هذا آخر شيء أحتاج إليه اليوم!».

بعد ذلك ظهر رجل أمن آخر من البستان، على بعد مائة وخمسين ياردة أخرى. كان يمسك بحبل كلب صيد أسود كبير في يده اليمنى، وعلى صدره بندقية، بينما أحكم قبضة يده اليسرى حول معصم فتاة صغيرة ذات شعر بني، إحدى التوأمين. لم يستغرق لويد الوقت الكافي لمعرفة اسميهما، فضلًا عن التمييز بينهما.

سحب لويد الراديو من ساق البيلاروسي الذي قاده إلى الفناء. ضغط على زر الإرسال. وقال: «أنت. اصحبها إلى المدخل الأمامي. لسنا بحاجة إلى طفلة هستيرية بيننا».

قال الرجل البعيد عبر جهاز الاتصال اللاسلكي الخاص به: «حسنًا يا سيدي». جذب الفتاة بقوة، وسحبها بطول حافة البستان، بعيدًا عن جسد والدها الذي انكفأ على وجهه وسط العشب الكثيف، وفي مؤخرة رأسه ثقب امتد ليحفر حفرة في وجهه.

***

تراجع جينترى إلى الطريق السريع واتجه جنوبًا إلى لوزان، ثم تجاوز الطريق ليدور حول بحيرة جنيف غربًا. كانت شاحنته الخضراء تحتوي على عدد قليل من الثقوب التي يبلغ قطرها تسعة ملليمترات، لكن مؤشرات الزيت والوقود ظلت ثابتة. في محطة القطار وراءه مات ما لا يقل عن أربعة من الأمريكيين الجنوبيين في الثلج. أما البقية فقد حاصرهم ثمانية رجال نزلوا من عربات الشرطة الأربع التي وصلت لتوها إلى مكان الحادثة. كان كورت قد عبر القضبان لحظة مرور القطار الكبير بين المدن. ثم عاد من أعلى التل، وصعد إلى الشاحنة الخضراء التي وجد بداخلها المفاتيح وأدار المحرك، والآن كان يفر مبتعدًا.

قبل خمس عشرة دقيقة كان أحد أهم المطلوبين في سويسرا، وعلى الرغم من أن الجنود اللاتينيين الذين أطلقوا النار عليه في محطة القطار قد احتلوا المركز الأول الآن، فإن كورت أدرك أنه ما زال في المركز الثاني، وسرعان ما ستعلن السلطات المحلية أن رجلًا مطلوبًا بشدة، يقود شاحنة خضراء مثقوبة بطلقات الرصاص.

22

لم يبلغ أحد البيلاروسيين في قصر لوران عن المروحية. ونتيجة لذلك، حدث هرج ومرج عندما ظهرت مروحية سيكورسكي **(76S)** أعلى الغابة في الجنوب، وانحرفت بقوة لتهبط عند مهبط طائرات الهليكوبتر بجوار موقف السيارات المفروش بالحصى.

لويد وحده هو من أُبلغ بوصول الطائرة المروحية من باريس. جلس في غرفة التحكم، واستمع إلى صوت دوران مراوح الطائرة بجوار النافذة الزجاجية. لقد أرسل الفني إلى الطابق السفلي لقضاء استراحة غداء، ودفع كرسي فيتزروي الذي قيد به السير دونالد إلى الحمام المجاور.

جلس لويد وحده وحدق إلى الجدار الحجري أمامه. بعد ثلاث دقائق، فُتح الباب خلفه. لم يلتفت لويد على الفور.

لويد؟ لويد؟

أدار المحامي الأمريكي كرسيه الدوار ببطء لمواجهة أحدث ضيف في القصر. كان ريجيل رجلًا ضخمًا، يبلغ طوله مائة وخمسة وتسعين سنتيمترًا على الأقل. كان شعره أشقر مموجًا، وحاجباه الكثيفان بهما بقع شقراء ورمادية.

كان يرتدي سروالًا سميكًا بلونٍ كاكي ومعطفًا رياضيًّا من جلد الغزال، وقد فتح ياقة قميصه. كانَ يكبر لويد بنحو عشرين عامًا أو أكثر، لكنه لم يترك جسده يترهل، وقد علم لويد بالفعل أن صوته القوي وملامحه الحادة سيجعلان الظهيرة صعبة ومرهقة.

لم ينهض لويد. وقال: «سيد ريجيل. أهلًا بك في قصر لوران». كان ريجيل غاضبًا. وقال: «ألم يخطر ببالك أن تذكر للحراس أنني سأصل؟ أخبرني ثلاثة بيلاروسيين أنهم كادوا يطلقون النار على طائرتي».

أجابه: «لو حدث هذا لكان أمرًا مؤسفًا».

بدا ريجيل كأنه سيواصل الجدل، لكنه تراجع عن ذلك.

ـأين ممثل أبي بكر؟ـالسيد فيليكس في الطابق السفلي. لقد وضعناه في غرفة مجاورة للمكتبة. أخبرته أنني سأتصل إذا كان لديّ أخبار.

ـ سمعت أن جينتري نجا من حبل المشنقة مرة أخرى.

ـ سمعت.

ـ رغم ذلك جنيف تحت سيطرتنا، إذا ظهر هناك فسنمسك به.

ـ هذا ما تواصل قوله.

ـ ربما لم نرده قتيلًا في الشارع برصاصة واحدة، لكننا نضربه ضربات متقطعة، سرعان ما ستنفد أسلحته وذخيرته وطرق هروبه ووقته ودمه.

ـ أتمنى أن تكون على حق. يكاد رهائني ينفدون.

جلس ريجيل على كرسي الفني وقال: «كما أخبرتك عبر الهاتف في الطريق، أمرني مارك لوران بأن أقدم خدماتي على أرض الواقع. لا تنظر إليَّ هكذا؛ أنا لا أريد أن أكون هنا مثلما لا تريد أنت هذا. هذه الفوضى التي خلقتها وضاعفتها لن تساعد حياتي المهنية، بغض النظر عن النتيجة. أنا فقط أنظف، أنا الرجل الذي يمنع تحول الوضع المأساوي إلى ما هو أسوأ. عندما سمع لوران عن إطلاق أحد الحراس النار على الرهينة. حسنًا، قال على الفور: كيرت، اذهب هناك. افعل ما ينبغي لك فعله».

كان رد لويد مشوبًا بالسخرية والإرهاق: «لا داعي للقلق يا سيد لوران. أشك أنه سيحدث مرة أخرى. لا مزيد من الآباء هنا ليموتوا».

ـ أين عائلة فيتزروي الآن؟.

ـ محتجزون في غرفة بالأسفل في الطابق الثاني.
ـ هل يعرفون عن إطلاق النار؟
ـ الطفلتان لا تعرفان، الأم تعرف.
ـ كيف تجاوبَتْ؟
ـ حقنها أحد حراسي المقربين بما يكفي من المسكنات لتسهل السيطرة عليها لبعض الوقت.

أومأ ريجيل. وسأل: «وأين السير دونالد؟».

أشار لويد إلى باب عبر الغرفة وقال: «هناك».

سأله: «ما الذي أدى إلى إطلاق النار؟».

هز لويد كتفيه، وبدا للحظات غير مهتم بالعملية برمتها ثم قال: «إحدى القاذورات الصغيرات هربت. رآها قناص على السطح، وأطلق عليها النار. كنت مشغولًا في ذلك الوقت، وأغلقت الراديو الخاص بي. عندما طاردها الحراس جُنَّ فيل، وظن أنهم سيؤذونها على ما أعتقد. اندفع بلا أمل في وجه الفتيان المسلحين من مينسك في الردهة، وانطلق من الباب الخلفي لإحضار ابنته».

ـ ثم؟ـ ثم أطلق القناص النار عليه.

نظر ريجيل من النافذة إلى الحديقة الخلفية وقال: «كان الوغد البائس يحاول فقط حماية أسرته. كان سيعيدها، لن يتخلى عن الآخرين. لا يتخلى أب عن عائلته».

ـ لا أعتقد أن قناصنا رجل عائلة.
ـ هل يعلم السير دونالد؟
ـ نعم، أخبرته.
ـ كيف استقبل الأمر؟
ـ بلا عاطفة على الإطلاق. فقط ظل جالسًا في مكانه.
ـ حسنًا. سأتحدث إليه وأحاول أن أوضح أن هذه كانت حادثة.

ـ حظًّا سعيدًا.
ـ لماذا لا تأخذ استراحة يا لويد؟ تبدو في حالة بشعة.
نهض لويد. رأى ريجيل الدم على قميصه، لكنه لم يقل شيئًا.
قال لويد: «ما زلتُ المسؤول».
هز كيرت ريجيل رأسه استخفافًا: «لا مشكلة لديّ. لا أريد أن أتحمل المسؤولية عن هذه الكارثة أكثر من هذا. أنا هنا فقط للمشورة. ربما أقدم اقتراحات مفيدة من قبيل ألا تفقد أثر فتيات يبلغن من العمر ثماني سنوات، وألا تطلق النار على الرهائن الذين لا يشكلون أي خطر أو تهديد بالفرار، وألا تنسى أن تخبر حراسك بأن مروحية صديقة ستهبط بينهم. اقتراحات من هذا النوع».
وقف لويد وتوجه صوب السلم المؤدي إلى المطبخ دون أن ينطق بكلمة.
عبر ريجيل الغرفة وفتح الباب الذي قال لويد إنه سيجد السير دونالد خلفه. فوجئ الألماني عندما نظر إلى حمام كبير مزين بالبلاط. كان فيتزروي جالسًا على كرسي في منتصف الغرفة المضاءة بالشموع. نظر إلى ريجيل وقد اغرورقت عيناه بالدموع، واحتقنت بالدماء. كان رأسه ويداه وكعباه مثبتة إلى الكرسي بسلاسل حديدية سميكة، وقد تمزق قميصه الملقى على الأرض بجانبه، ليجلس في قميص داخلي ملطخ بالعرق والدماء. تلقى وجهه ضربات، وامتلأ سرواله الصوف الممزق ببقع سميكة من الدم ظن كيرت ريجيل أنها ثقوب.
قال ريجيل: «تبًّا!». خرج من الغرفة، وانعطف ليخرج إلى الردهة، ونادى الحارسين الأسكتلنديين بالقرب من الدرج قائلًا: «أريد إزالة قيود السجين. أريد تنظيفه. ضمدوا ساقيه، وليجد أحدكما ملابس جديدة! تبًّا يا رجل! تحرك!».
بعد خمس عشرة دقيقة، جلس ريجيل على كرسي بجانب حافة فراش مغطى في مهجع بالطابق الثاني. استلقى السير دونالد على

الفراش وحدق إليه. أُطلِقت يدا الرجل الإنجليزي واغتسل، ثم ارتدى ملابس جديدة. وُضعت ضمادة مبللة على صدغه الأيسر حيث أصابته ضربة ضعيفة. ولم تكن الكدمات على ذقنه وعينيه خطيرة.

لم يتحدث أيٌّ من الرجلين في البداية، على الرغم من أن فيتزروي رفض القهوة بهز رأسه. ظلت نظراته واهنة وناقمة.

أخيرًا عثر ريجيل على نقطة لبدء الحديث: «سيد دونالد. اسمي هير ريجيل. أولًا اسمح لي أن أعتذر ـ بصدق ـ عن المعاملة التي تعرضت لها. لم يكن لديّ أي فكرة أن لويد سيـ...حسنًا، لا أعذار. أنا أتحمل المسؤولية عن هذا. سأصحح الأمور».

لم ينطق فيتزروي بكلمة، على الرغم من أن نظرته لم تحمل أي تقدير.

وأكمل ريجيل: «لقد أمرت بإحضار الطعام والماء إليك. ربما شيء أثقل؟ براندي ربما؟ أنتم الإنجليز غالبًا ما تستمتعون برشفة بعد الظهر، صحيح؟».

واصل السجين المسن صمته.

ثم أتبع: «علاوة على ذلك. خالص التعازي في وفاة ابنك. لا يمكنني قول أو فعل أي شيء...».

قال فيتزروي: «إذًا لا تزعج نفسك بحق الله». كان صوته جافًّا كورق الصنفرة والحصى.

قال ريجيل: «مفهوم. أنا فقط أريدك أن تعرف.. لم ينوِ أحدٌ حدوث هذا. أؤكد مرة أخرى لا أعذار. كان يجب أن أكون هنا في الموقع طوال الوقت. ما إن سمعت عن الحادثة جئت على الفور. فعل ابنك ما كان سيفعله أي أب. ما كان يجب إطلاق النار عليه». ثم قال مرة أخرى: «لقد فعل فقط ما كان سيفعله أي أب في مثل هذه الظروف».

بدا أن فيتزروي يفكر في هذا، لكنه لم يرد.

ـ من الآن فصاعدًا، سأشرف على رعايتك ورعاية أسرتك. سيتولى السيد لويد تنسيق عملية للعثور على الرجل الرمادي وهزيمته. سأكون أيضًا مسؤولًا عن الدفاعات هنا، لتجهيز الأمور حال تمكن السيد جينتري من تجاوز قتلتنا في الميدان، وإن كنت أستبعد هذا.

ـ سيكون هنا قريبًا يا فريتز[1].

ابتسم ريجيل قليلًا وجلس قائلًا: «لقد هزم ـ أو تسبب في هزيمة ـ الألبان، والإندونيسيين، والفنزويليين، وفقد الليبيون ضحية غير مقصودة في أثناء هروبه منهم. بمعنى أنه تسبب في تدمير ثلاث فرق قتل بالكامل واستنزاف القوة البشرية لفرقة رابعة. ومع ذلك، تفصل بيننا وبينه تسع فرق. أربعون رجلًا أو نحو ذلك. بالإضافة إلى مائة فنان رصيف يبحثون عنه، وأربعة عشر فرد أمن يطوقون هذا القصر. هذا بخلاف الفني هنا الذي يراقب هواتف وأجهزة الكمبيوتر الخاصة بجميع شركاء جينتري المعروفين بطول طريقه المحتمل. وهناك كلام أنه مصاب. من المؤكد أنه مرهق وموارده تتقلص».

قالها فيتزروي بلهجة واثقة: «سيكون هنا». ابتسم الألماني من باب اللطف. وقال: «سنرى» ثم ضاقت عيناه وأتبع: «أيها السير دونالد، أنت محترف. بالتأكيد أنت تعي وضعك. لا أرغب في الاستهانة بذكائك وأخبرك أننا سنطلق سراحك عندما ينتهي الأمر مع الرجل الرمادي، كما تعلم مثلما أعلم، لا يمكننا فقط أن نفتح البوابات ونسمح لك بالخروج. لا أريد أن أكون دراميًا، لكن كما يقولون في الأفلام، أنت تعرف الكثير. لا، بغض النظر عن النتيجة مع عقد جينتري ولاجوس، لن تنجو من قصر لوران، آه أنت تعرف ذلك؛ أنا سعيد لرؤية هذا في عينيك.

(1) جندي ألماني.

لكنني سأقطع لك وعدًا بين اثنين محترفين؛ لن تتعرض التوأمان وزوجة ابنك للأذى. لقد مررن بما يكفي. أحتاج فقط إلى الاحتفاظ بهن هنا حتى يصل السيد جينتري وبعدها هن أحرار. ما لم يطلب الرجل مساعدة آخرين، أو يجلب الشرطة أو الجيش إلى قصرنا الصغير هذا، فلن يكون هناك خطر على المرأة والطفلتين، سواء وقّع الرئيس أبو بكر العقد أم لا.

.. أعدك أيضًا بأنك لن تعاني بعد الآن إهانات السيد لويد».

أومأ فيتزروي برأسه ورفع ذقنه ثم قال: «أريد تكريم جثة ابني».

أجابه ريجيل: «هذا أمر مفروغ منه. سأضمن إحضار النعش المناسب، وسننقل فيليب إلى بريطانيا بطائرة هليكوبتر إلى المكان الذي تختاره زوجته ما إن تعود إلى الوطن».

أومأ فيتزروي ببطء وقال: «افعل هذا، أوجد طريقة لإبعاد الفتاتين عن خط النار عندما يظهر الرجل الرمادي اللَيلة، وسأكون مدينًا لك، ولن أكون عائقًا لمهمتك».

عندما يظهر الرجل الرمادي الليلة. حاول ريجيل أن يمنع ابتسامة صغيرة وتمكن من ذلك. وقال: «أعدك بهذا بكل شرف. هل من شيء آخر يمكنني فعله، لأريحك أكثر حتى معركة القلعة؟».

لم يستطع أن يمنع القليل من السخرية.

ـ أود بشدة أن أتحدث مع كلير إذا استطعت. إنها نوعًا ما كثيرة القلق، يرهقني أن أتكهن بما يدور في رأسها الآن. مجرد دردشة قصيرة بين الجد وحفيدته على انفراد.

ـ كلير واحدة من التوأمين؟ بالتأكيد يمكنني تدبير ذلك.

ـ سيكون هذا رائعًا، شكرًا لك.

***

بعد عشر دقائق، وقف ريجيل مواجهًا لويد في المطبخ. شربا القهوة وتجاهلا السندويتشات على طبق فوق طاولة مطبخ حجرية كبيرة.

ـ لماذا عذبت فيتزروي؟
ـ لم يأخذ الوضع على محمل الجد.
ـ أنت مجنون يا لويد. أظن أن هذا الجنون كان رسميًّا، جرى تشخيص حالتك، ربما في طفولتك، وتمكنت من إخفاء تفاصيل تخصك عن وكالة الاستخبارات المركزية ومارك لوران.
ـ العصي والحجارة يا ريجيل.
ـ دع فيتزروي وشأنه.
ـ لديك مشكلة أكبر مني يا كيرت، نحتاج إلى عملاء في سويسرا لتنظيف الفوضى التي أحدثها جينتري.
ـ بمعنى؟
ـ تلقى الفني للتو خبرًا من مراقب في لوزان. يخبرنا أن السويسريين اختطفوا عميلين فنزويليين على قيد الحياة. نحتاج إلى تأكيدات بأنهما لن يتحدثا.
ـ إذًا تريدهما قتيلين؟
ـ كيف يمكننا التيقن من صمتهما بغير ذلك؟
هز ريجيل كتفيه وقال: «دون مجموعة لوران، يتوقف النفط الفنزويلي عن التدفق. دون مجموعة لوران، لن يُصدِّر نفطهم عبر البحر إلى المصافي. يحتاج شافيز إلينا بقدر ما نحتاج إليه. إن اثنين من الرماة اللذين لم يوفقا في مهمتهما أو ماتا في أثناء ذلك، لن يعرضا العلاقة الجيدة التي نتمتع بها مع هذا المجنون للخطر. سأتصل بمدير مكتب المخابرات العامة في كاراكاس، أخبره بذلك على الرغم من فشلهما في مهمتهما، سأرسل له جائزة تُرضيهِ إذا حرص على ألا يفصح عميلاه عن أي معلومات. عندما يسمح السويسريون لمسؤولين من السفارة الفنزويلية بمقابلة باقي العملاء الذين ظلوا على قيد الحياة في السجن، لا أشك في أن الرسالة التي سيتلقاها هؤلاء الأوغاد ستصف بدقة ما سيحدث لعائلاتهم في الوطن إذا لم يتحملوا عبء العملية.

فإن ألمحوا للشرطة فقط بتجنيد شركة متعددة الجنسيات لعدة فرق اغتيال تابعة لوكالات استخبارات العالم الثالث من أجل قتل رجل كان يجتاز أوروبا، فستُلقى زوجات هؤلاء الرجال وأطفالهم وأولياء أمورهم وجيرانهم في النسخة الفنزويلية من معسكرات العمل».

انبهر لويد وقال: «هذا أحد أسباب عدم استخدامك للمرتزقة، أليس كذلك؟».

أجاب ريجيل: «ليس لدى المرتزقة من يردون عليه إلا أنفسهم. أفضِّل استخدام الرجال الذين يخضعون لسبل أخرى للتأثير يمكنني التلاعب بها».

أومأ لويد برأسه وقال: «لذا علينا الآن أن نعثر فقط على جينتري».

قال ريجيل: «عملاء مجموعة لوران في كل نقطة مفصلية في جنيف، وفي موقع كل شركائه المعروفين، وفي كل مستشفى. الفني هنا يراقب هواتف وأجهزة راديو للشرطة. لدينا الأفارقة الجنوبيون في وسط المدينة، جاهزون للانتشار. إذا رأى أحد مراقبيّ الرجل الرمادي، فسيكون لدينا فرق قتل في غضون خمس عشرة دقيقة».

***

لم يأكل فيتزروي، على الرغم من أنه تجرع زجاجتين من البراندي وبعض المياه المعدنية. كانت المعاملة التي تلقاها من لويد قد تركته في حالٍ أسوأ، لكنه لم ينكسر. ضربات السكين على الفخذ، وضربات الكف المفتوح على الرأس. كانت تصرفات رجل يائس لا أكثر.

عندما كان ضابط مخابرات شابًّا يعمل في أولستر[1] في السبعينيات، اختطفتْ دون سيارة أجرة بجانب سيارة مليئة بمقنعين من الجيش

(1) مقاطعة في أيرلندا الشمالية.

الجمهوري الأيرلندي المؤقت. اقتادوه إلى أحد المخازن، وأمضوا تسعين دقيقة في ضربه بأنابيب طويلة.

بحلول الوقت الذي انزلقت فيه قوات التدخل السريع التابعة للقوة الجوية الخاصة من المروحية، وقُتِل ثلاثة من رجال الجيش الجمهوري الأيرلندي الخمسة في المعركة التي تلت ذلك، وأُعدِم الاثنان الآخران عند جدار المستودع، أصيب الجاسوس البالغ من العمر ستة وعشرين عامًا بكسور في ست عظام، وضعف دائم في الرؤية في عينه اليسرى.

لم يشبه الضرب الذي ناله من لويد مثل ذلك.

كان الأمريكي متحمسًا لكنه ليس بارعًا في توجيه الألم. بالإضافة إلى أنه لم يكن لديه سبب أو قضية كبرى، بل جزء منه خلل عقلي، والجزء الأكبر قلق ناجم عن اليأس من مأزقه.

في هذه العملية برمتها، قرر فيتزروي أن الشاب لويد ربما يكون مُعرَّضًا للخطر قدر كورت جينتري. افترض فيتزروي أن لوران قد يأمر ريجيل هذا بقتل المحامي الأمريكي إذا لم يوقع يوليوس أبو بكر العقد صباح الغد في الثامنة صباحًا.

أما السير دونالد فقد تعرض للضرب لكنه قطعًا لم ينهر. كانت لديه خطة من نوع ما، وينوي استخدام ذكائه ومهاراته وخبرة حياته في التلاعب بمن حوله لتحقيق ما لا يستطيع تحقيقه بمفرده. على الرغم من تقييده بالفراش، خطط السير دونالد فيتزروي للانتقام القاسي من هؤلاء الذين تجرؤوا عليه هو وعائلته وكبير قاتليه.

فُتح باب غرفة النوم الرئيسة ببطء. جرع فيتزروي آخر ما تبقى من البراندي، ووضع الكأس بسرعة على طاولة بجانب الفراش. دخلت كلير بحذر. إذ لم تكن واثقة. ثم رأته وركضت عبر الغرفة إلى جدها. عانقته بشدة والتفت ذراعاها حول رقبته السميكة.

ـ مرحبًا، عزيزتي. كيف حالكن؟

ـ أنا بخير، جدي دونالد. لقد تأذيتَ!

ـ سقطة صغيرة على الدرج، حبيبتي. لا تقلقي. كيف حال أختك؟
ـ كيت بخير. إنها تحب المكان هنا.
ـ ألا يعجبك أنت؟
ـ لا، أنا خائفة.
ـ خائفة من ماذا؟
ـ من كل الرجال. إنهم يسيئون معاملتنا، ومعاملة أمي وأبي.
ـ هل أحسنتِ التصرف؟
ـ نعم، يا جدي دونالد.
ـ فتاة مطيعة.

نظر فيتزروي عبر النافذة للحظة، ثم قال: «كلير، عزيزتي، أود أن ألعب لعبة صغيرة معك. أتودين هذا؟».

ـ لعبة؟
ـ نعم. أحد الرجال هنا.. يراقبنا. لقد جاء معي في الهليكوبتر هذا الصباح. لقد سمعت أن زملاءه ينادونه باسم ليري. أيرلندي. هل تعرفين أي واحد أتحدث عنه؟
ـ ذو الشعر الأحمر؟
ـ هذه هي فتاتي!
ـ نعم يا جدي. يجلس على كرسي في أسفل الدرج.
ـ حقًا؟ حسنًا، كلير، لقد لاحظت أن السيد ليري لديه هاتف مثبت في جيب سترته الزرقاء الكبيرة. لا أعتقد أنه يرتدي سترته في المنزل. من المحتمل أنها في خزانة، أو على الأرض، أو ربما ملقاة على أريكة في الطابق السفلي. كنت أفكر أنه ربما يمكننا أن نلعب قليلًا مع السيد ذي الشعر الأحمر، ويمكنك التسلل مثل قطة صغيرة وإخراج الهاتف من سترته. هل يمكنك فعل ذلك؟

ـ رأيت سترته على معطفه. رأيت الهاتف. عندما يذهب إلى المطبخ لتناول الشاي، ربما يمكنني أن آخذه.

ـ فتاة طيبة! أرجوك افعلي هذا من أجل الجد دونالد. وبعد أن تحصلي عليه، أريدكَ أن تخفيه في جيبك أو في سترتك، ثم أخبري الحراس أنك تريدين أن تأتي لرؤيتي.

ـ ماذا لو لم يسمحوا لي؟

ـ يمكنك أن تخبريهم أنك كيت. هل يمكنك التظاهر بأنك كيت؟ أخبريهم أن أختك يجب أن تأتي لرؤيتي؛ لذا فهذا عادل.

ـ أنا لا أبدو مثل كيت، يا جدي.

ـ صدقيني يا عزيزتي، بالنسبة لهؤلاء الرجال أنتما متشابهتان تمامًا. ما عليك سوى تغيير ملابسك، وأخبريهم أنك كيت، وترغبين في التحدث مع جدك العجوز العزيز.

ـ حسنًا. سأحاول سرقة الهاتف من أجلك وأدخله لك خلسة.

ـ إنها ليست سرقة. إنها فقط لعبة يا حبيبتي.

ـ لا، ليست كذلك. إنها ليست لعبة. لستُ طفلة صغيرة. أنا أعرف ما يجري.

ـ نعم، بالطبع يمكنك أن تستوعبي كل هذا. هكذا اعتقدتُ. من فضلك لا تقلقي. سيصير كل شيء على ما يرام.

سألته: «أين أبي؟».

توقف فيتزروي للحظة، وجهه غير منزعج. كان السير دونالد يكذب على عملائه لما يقرب من نصف قرن. لم يجد بُدًّا من الكذب على أقاربه. فأجابها: «إنه في لندن، يا حبيبتي. ستعودين إلى المنزل قريبًا أيضًا. اركضي الآن، وكوني حذرة».

23

أوقف كورت الشاحنة عند محطة القطار الرئيسة في جنيف جار دي كورنافين، الواقعة على الجانب الشمالي من المدينة. كان وقوف السيارات في محطات القطار عبارة عن خدعة تقليدية بسيطة. عندما عُثِر على السيارة في أسرع وقتٍ كما ظن كورت، كان على أتباعه أن يفكروا في احتمالية أنه قفز للتوّ في أول عربة إلى خارج المدينة، مما يستنزف وقتهم وجهدهم البشري للتحقق من وجهته.

لم يكن الأمر مهمًّا، ولكن وقوف السيارات في محطة القطار أقل فداحة من أن يأخذ سيارته المسروقة إلى الباب الأمامي لهدفه الحقيقي.

كان الطقس باردًا، لكن الشمس مشرقة، وتطايرت آخر أوراق الخريف في شوارع المدينة الواسعة. سار جنوبًا من المحطة، متجاوزًا بائعات الهوى في الشوارع ومحلات الجنس في منطقة ريدلايت، اجتاز الجسر الذي يعبر القناة إلى بحيرة جنيف الضخمة، مرورا بمصرفيين ودبلوماسيين في منتصف العمر متجهين نحو كل شوارع بائعات الهوى ومتاجر الجنس وراءه.

على بعد خمس دقائق جنوب الجسر، أفسحت الشوارع الواسعة والحديثة المجال لممرات غير مستوية مرصوفة بالحصى، وتحولت المتاجر الأنيقة التي تصطف على جانبي الطرق فجأة إلى جدران حجرية من العصور الوسطى، حيث ارتفع بعيدًا عن المدنية الحديثة تل شديد الانحدار، نحو المباني العتيقة الخلابة في البلدة القديمة.

استرشد جينتري بخريطة سياحية معلقة على جدار بهو الفندق، وأخفى معصمه الأيسر المخدوش والمتورم عن الزوجين اليابانيين

بجواره، ثم عاد إلى الشارع البارد بعد دقيقة أو دقيقتين من ارتقاء زقاق أوصله إلى الساحة أمام كاتدرائية سانت بيير.

هناك بعد ظهر يوم السبت، وقف السياح مولين رؤوسهم وعيونهم وكاميراتهم جميعًا إلى الواجهة الرائعة للكاتدرائية التي يعود تاريخها إلى ألف عام. سار كورت خلف أكثر من عشرين متفرجًا، ثم اختفى في شارع جانبي يمتد بطول الجانب الجنوبي من الكنيسة. على يساره جدار أبيض بارتفاع ست أقدام وبوابة حديدية كبيرة في المنتصف. وبينما كان يمشي عبر البوابة، نظر إلى الداخل. كان هناك منزل أبيض له حديقة أمامية صغيرة، وشجرة كستناء كبيرة على جانبي ممر ضيق يؤدي إلى الباب الأمامي.

كانت كاتدرائية سانت بيير شاهقة الارتفاع حتى أنها حجبت الضوء عن الأشجار. سار كورت في ممر مرصوف بالحصى يمتد من الشارع الصغير ذي الحارة الواحدة، وتتبع ممر المشاة المتعرج عبر نفق ضيق أنزله إلى الجزء الخلفي من البيت الأبيض.

هناك كان الجدار بارتفاع طابقين. بجانبه مبانٍ حديثة؛ مبنى سكني به صالون عناية بالأظفار في جانب، ومدرسة وحضانة في الجانب الآخر. تجول عدد قليل من السياح في اتجاه شارع تسوق ضيق يمتد نزولًا إلى التل الخلفي.

لمح جينتري المخبر على الفور. امرأة جذابة ذات شعر أشقر طويل ومضفر، جلست على طاولة في ساحة صغيرة بجانب شارع السوق. كان كورت يبعد عنها خمسًا وعشرين ياردة، لكن عينيها كانتا على البيت الأبيض على يمينه.

استدار جينتري، وسار عائدًا عبر نفق المشاة لأعلى، ثم دار حوله باتجاه جدار البيت الأبيض. هناك سور حديدي مدمج في الجدار لمساعدة المشاة على اجتياز الممر شديد الانحدار. تشبث به كورت، وسحب نفسه إلى أعلى الجدار بذراعه اليمنى غير المصابة. رفع إحدى

ساقيه ثم الأخرى قبل أن ينزل إلى الأسفل، امتصت ساقه اليسرى غير المصابة أغلب الصدمة، ومع ذلك فقد آلمه التسلق بيد واحدة والسقوط بشدة.

رأى جينتري كاميرات المراقبة داخل الحديقة الصغيرة عبر الزجاج. كان يعرف كيف يتحايل على جميع أنواع الإجراءات المضادة، لكن هذا بدا معقدًا للغاية بالنسبة له. سيحتاج إلى مخططات وأدوات ووقت.

تحرك كورت أسفل النافذة، ثم ارتفع مرة أخرى عند باب جانبي. سحب مسدس بيريتا التقطه من رصيف القطار قبل فترة وجيزة من الفرار من موقع الحادثة، وتركه هناك رجل شرطة سويسري ميت. أخفاه بجانبه وهو يجرب بابًا جانبيًا، لم يكن مغلقًا.

دخل رواقًا ثم مطبخًا مجهزًا على أكمل وجه. كانت الأنوار مطفأة، استطاع أن يميز بسهولة أصوات التلفزيون من الغرفة المجاورة. انعكس وهج الشاشة على مرآة في الردهة على الجانب الآخر من المطبخ، واستخدم كورت الضوء الوامض ليشق طريقه.

رأى مسدسًا على منضدة المطبخ. كاليبر **1911** عيار **45**، سلاح أمريكي.

عبر جينتري المطبخ الطويل بحذر. أحكم قبضته على السلاح وثبته في سرواله من الخلف. رد معصمه المتورم الحركة بتيار كهربائي امتد حتى مرفقه. انتقل جينتري إلى الردهة، ونهض بثقة الآن ليدخل غرفة جلوس واسعة.

عُلِّقت شاشة بلازما فوق مدفأة كبيرة تفرقع بها جذوع شجر الصنوبر.

جلس رجل وحيد على أريكة جلدية، ظهره إلى كورت وعيناه تحدقان إلى التلفاز الذي انطلقت منه لغة فرنسية، لكن الصور كانت مألوفة بما يكفي لجينتري. قبل أقل من ساعتين، وقف على رصيف القطار ذاته، وتحدث إلى ذلك الشرطي الشاب الذي يرقد الآن ميتًا

مُنكبًّا على وجهه فوق الأسمنت الثلجي، تعرض صور الفيديو اللحظة التي وُضعت فيها قطعة قماش صفراء فوق جسده الساكن.

وضع كورت مسدسه في جرابه. لم يكن هناك أي شخص آخر بالجوار.

قال: «مرحبا، موريس».

نهض الرجل واستدار. كان شاحبًا متغضن الوجه، بملامح سبعينية واضحة ومظهر يفتقر للصحة. لو كان ظهور جينتري في شقته مفاجأة للرجل العجوز، لأظهر ما ينم عن ذلك، لكنه وقف على ساقين هزيلتين.

وأجاب: «مرحبًا، كورت». قالها بإنجليزية ذات لكنة أمريكية.

قال جينتري: «لا تضيع وقتك في البحث حولك. لديَّ مسدسك».

ابتسم موريس. وقال: «لا. معك أحد مسدساتي». سحب الرجل العجوز مسدسًا صغيرًا من تحت قميصه وصوبه نحو صدر جينتري. قائلًا: «لكن ليس لديك هذا».

ـ لم أظن أنك من النوع المصاب بجنون العظمة. لم تكن بهذا الحرص في الأيام الخوالي.

ـ مع ذلك، كان عليك أن تُشهر سلاحك نحوي حتى تتيقن من كوني أعزل.

ـ على ما يبدو.

تردد الرجل العجوز عدة ثوانٍ، لكن المسدس لم يتردد. وقال: «تبًّا يا ولد! لقد علَّمتك أن تفعل أفضل من هذا».

قال جينتري بخجل: «هذا صحيح، أنا آسف، سيدي». ـ تبدو في حالة يرثى لها.

ـ مررت ببضعة أيام صعبة.

ـ سبق أن رأيتك بعد أيام عصيبة. لم تكن بهذا السوء من قبل.

هز كورت كتفيه وقال: «أنا لست طفلًا بعد الآن».

نظر الرجل العجوز إلى جينتري نظرة طويلة ثم قال: «لم تكن قط».

أدار موريس مسدسه في يده، وقذفه عبر الغرفة إلى الشاب الأمريكي. أمسكه كورت ونظر إليه.

ـ مسدس سميك، من عيار ثمانية وثلاثين من الشرطة الخاصة، والآخر **1911**. أنت تعرف يا موريس أنه لا قانون يلزمك أن تكون أسلحتك في مثل عمرك.

ـ كفاك هراءً. هل تريد بيرة؟ألقى جينتري المسدس على الأريكة الجلدية.

وأجابه: «أكثر من أي شيء آخر في العالم».

بعد دقيقتين جلس كورت على طاولة المطبخ. كان قد أحاط معصمه الأيسر بكيس منتفخ من التوت الأزرق المتجمد، شعر بلسعة البرودة القارسة على جلده، لكنها قللت من التورم. لا يزال بإمكانه تحريك أصابعه، لذا كان يستطيع استخدام يده، ولو استخدامًا طفيفًا.

كان يعرف أن مُضيفه هو موريس، موريس فقط. لم يكن كورت يعرف اسمه الحقيقي، لكنه يعلم يقينًا أن اسمه ليس موريس. كان من أقدم رجال الوكالة، مدرب جينتري الأساسي في مركز تدريب برنامج تطوير العملاء المستقل، والتابع لقسم الأنشطة الخاصة في هارفي بوينت بولاية نورث كارولينا. عرف كورت حكايات عن الرجل وتاريخه. كان يعلم أنه فقد أسنانه في فيتنام، ونفذ عمليات استهداف في برنامج فينيكس، ثم أمضى السنوات العشرين التي تلت ذلك في الحرب الباردة في موسكو وبرلين.

لقد سُرِّح من الجيش لسنوات، فكان مدربًا لوكالة الاستخبارات المركزية حين أُحضِر قاتل عشريني مُدان إلى فصله الدراسي المصنوع من الألومنيوم، الذي يطل على المحيط الأطلسي. كان جينتري مغرورًا وهادئًا، فجًا لأقصى درجة، لكنه تمتع بالذكاء والانضباط والنخوة.

أنهى موريس تدريبه في أقل من عامين، وأعلن لقيادة العملية أن هذا الفتى أفضل من خرَّجهم وأقواهم على الإطلاق.

كان ذلك قبل أربعة عشر عامًا، ونادرًا ما تقاطعت طرقهما منذ ذلك الحين. أُغري موريس بالعودة إلى ممارسة نشاطه بعد 11 سبتمبر، كما كان الحال بالنسبة لمعظم العملاء المتقاعدين ذوي المستوى الرفيع ممن بقوا على قيد الحياة. ونظرًا لسنه وصحته غير المستقرة، أُرسِل إلى جنيف للعمل في قسم الشؤون المالية بمديرية الخدمات السرية التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية. خبرته بالمصارف والمصرفيين السويسريين التي تراكمت خلال أربعين عامًا من استخدام الحسابات المرقمة لشركات صورية تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية في عملياته قد أهّلته ليصبح مسؤول رواتب فعّالًا للعملاء والعمليات في جميع أنحاء العالم.

كان عملًا سهلًا ونظيفًا، مقارنة ببعض الوظائف التي شغلها في شبابه. لكن لم يخلُ هذا من الخطر أو الجدل. بعد فترة وجيزة من طرد كورت من الوكالة، استطاعت مراكز القوى أن تعزل موريس. شيء يتعلق باختلاس أموال، على الرغم من أن كورت لم يصدق القصة الرسمية على الإطلاق.

جاء الأمر من لانجلي أن يتقاعد موريس تمامًا تاركًا وكالة الاستخبارات المركزية. بالطبع لم يكن كورت يعلم ذلك، ولم يكن واثقًا بنسبة مائة بالمائة أن موريس لن ينقلب عليه، الأمر الذي أوضح شكوك التلميذ الأولى بشأن معلمه.

***

أعطى موريس جينتري زجاجة من الجعة الفرنسية، لذلك احتضن الشاب كيس التوت المجمد في حجره وترك معصمه يرتكز عليه. خدرت البرودة اللاذعة الألم ببطء. سأل الرجل العجوز: «هل تأذيت بشدة؟».

ـ ليس تمامًا.

ـ لطالما كنت وغدًا قاسيًا.

ـ تعلمت من أفضلهم ألا أتذمر. لم تقبل بذلك يومًا.
ـ لم أرك منذ ست سنوات. قبرص، أليس كذلك؟
ـ نعم يا سيدي.
ـ هل رأيت المراقب في الخارج؟
ـ نعم. الفتاة ذات الضفائر.
ـ فتى بارع. إنها جميلة، تتنكر في هيئة سائح. نستقبل الكثير من السياح هنا في البلدة القديمة. أنا أكره السياح.
ـ وجوه انتقالية.
ـ هذا صحيح. أسد لنفسك معروفًا يا كورت. إذا وصلت إلى التقاعد، فانتقل إلى مكان لاَ يطؤه أي سائح.
ـ سأفعل.
سعل موريس وتنحنح: «تدور أخبار في الأرجاء، غير مترابطة بعد، تنتقل في الهواء وحسب، في انتظار أن يتصل بعض النقاط ببعض. براغ، بودابست، ثم هذا الصباح بالقرب من الحدود النمساوية. كنت أعرف أن شيئًا ما يحدث، ولم أدرك أني أعرف أيًّا من اللاعبين حتى بدأت مراقبة منزلي في نحو الساعة 11:30. بعد نحو ساعة من ظهورها، بدأت جميع المحطات المحلية تبث أخبار تبادل إطلاق النار شمال لوزان، في تلك المرحلة، علمت أنك تسير في هذا الاتجاه».
ـ كيف عرفت أنه أنا؟
ـ ربطتُ بعض الخيوط ببعض. رجل مطارد ظل على قيد الحياة مخلفًا وراءه الموت والدمار. عندما اقتربت الجثث، قلت لنفسي: ها هو كورت يقترب.
أكد جينتري، وهو ينظر إلى الزجاجة في يده: «هأنذا».
ـ أخبرني أنك لم تطلق النار على رجال الشرطة المساكين.
ـ أنت تعرفني. لن أقتل شرطيًّا.
ـ كنت أعرفك. الناس يتغيرون.

ـ أنا لم أتغير. احتجزتني الشرطة عندما ظهر فريق من القتلة. حاولت إقناعهم أنني لم أعد أكبر مشكلاتهم، لكنهم لم ينصتوا.

ـ كثيرون يريدونك ميتًا يا كورت.

ـ أنت نفسك لست من المفضلين. لقد تخلصت منك وكالة الاستخبارات المركزية أيضًا.

ـ لا توجد تعليمات بإطلاق النار عليَّ عند رؤيتي. أنت من دمروه حقًا.

ـ ومع ذلك كان تلفيق التهم ضدك خاطئًا يا موريس. كنت من المخلصين. كان يجب أن يتركوا سمعتك نظيفة كما هي.

لم يقل موريس شيئًا.

سأل كورت: «ماذا تفعل هذه الأيام؟». أجاب موريس: «تمويل، القطاع الخاص. انتهيت من الأعمال المريبة».

جال كورت بعينيه متفحصًا العقارات باهظة الثمن من حوله، وهو يقول: «يبدو أنك بخير».

قال موريس: «العمل في قطاع المال مربح للغاية، ألم تعرف ذلك؟».

استشعر كورت القليل من الحذر في حديثه. كان يشرب الجعة، ويدير ذراعه ليخفف من تورم معصمه. قال: «هل تذكر رجلًا في لانجلي اسمه لويد؟».

ـ بالتأكيد. مخنث أنيق صغير، شهادة في القانون من لندن. كلية كينجز على ما أعتقد. لقد أعاق عملية مالية اشتغلت بها في جزر كايمان قبل فترة وجيزة من عزلي. ولدٌ ذكي لكنه وغد.

ـ إنه الرأس المدبر لكل هذه الأشياء التي تحدث لي الآن.

ـ لا تمزح؟ كان يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا في ذلك الوقت. لا بُدَّ أنه في الثانية والثلاثين أو نحو ذلك الآن. سمعت أنه غادر لانجلي قبل نحو عام.

سأل كورت بطريقة بلاغية: «ماذا حدث لجميع الأخيار؟». أجاب كورت: «قبل 11 سبتمبر كنا سلة بها عدد قليل من التفاح الفاسد. بعد ذلك، أصبحنا بستانًا. يوجد الآن ما يكفي من التفاح الفاسد لملء السلال. نفس الهراء، لكن بمقاييس مختلفة. لا عجب».

احتسى كلاهما الجعة لمدة دقيقة في صمت، مسترخيين في صحبة بعضهما بعضًا، كما لو أنهما يقضيان ظهيرة كل يوم سبت معًا.

أصاب موريس سعال جاف متقطع بشدة، وعندما انتهى سأله جينتري: «ما خطبك؟».

نظر موريس بعيدًا للحظة، وأجاب بلا عاطفة: «الرئتان والكبد، اختر ما شئت».

ـ الوضع سيئ؟

ـ الخبر السارِ هو أنني قد لا أموت من سرطانِ الرئة لأن مرض الكبد قد يصيبني أولًا. على العكس من ذلك، قد أُدفَن مع كبد جيدة إذا مُت من سرطان الرئة. شرب الكحوليات والتدخين لأكثر من خمسين عامًا.

ـ آسف.

ـ لا عليك. إذا اضطررتُ لإعادة ما سبق، فلن أغير أي شيء.

ضحك وتحول هذا إلى نوبة سعال جافة أيضًا.

ـ كم من الوقت لديك؟

ـ يقول الطبيب العجوز هيني يونج مان إن أمامي ستة أشهر للعيش. قلت له: لا أستطيع دفع فاتورتك. فمنحني ستة أشهر أخرى.

تحولت ضحكة موريس إلى أزيز ثم سعال جاف عنيف.

ـ ستة أشهر إذًا؟

ـ هذا ما قالوه. قبل سبعة أشهر.

سخر كورت قائلًا: «لا تدفع لهم». لقد كانت من المضحكات المبكيات، إلا أن جينتري لم يعجبه المزاح مع معلمه حول موت وشيك.

ـ دعنا نعُد إليك. ما الذي تورطتَ فيه؟

ـ إنه متعلق بمهمة خضتها الأسبوع الماضي. أعتقد أنني أغضبت شخصًا ما.

ـ الرجل الملون الذي قُتل في سوريا. علي بابا أو أيًا كان اسمه. كان هذا أنت، أليس كذلك؟

صحح له كورت: «أبو بكر»، لكنه لم يؤكد أو ينفي تورطه.

هز موريس كتفيه وقال: «كان يجب التخلص منه. لقد تابعت مسيرتك المهنية كونك قاتلًا خاصًا. عملياتك دائمًا تغلِّب الخير على الشر. ليس أداءً جيدًا وحسب، ولكن أيضًا أخلاقي وعادل».

ـ قل ذلك للويد.

ـ كثير من الناس يقولون إن هذا الشيء في كييف يخصك.

ـ هذا ما يقولونه.

ـ و...؟رن هاتف موريس. مد الرجل العجوز يدًا رفيعة كالقصبة ليمسك بسماعة الهاتف على الحائط ورد على المكالمة. اتسعت عيناه الرماديتان قليلًا عندما نظر إلى ضيفه الشاب.

وقال: «هذا لك».

24

«تبًا!». أمسك جينتري السماعة وقال: «أجل».

ـ كورت؟ أنا دون.

ـ ماذا تريد؟

ـ إنهم لا يعرفون أنني أتصل. لقد جعلت كلير تنشل هاتفًا من أحد الحراس الذين يحرسون القصر. هذا الشبل من ذاك الأسد، أليس كذلك؟

جز جينتري على أسنانه. أعطاه موريس زجاجة جديدة من الجعة الباردة. وقال: «ما خطبك يا دون؟ كلير ليست مخبرة من بلفاست! لا يمكنك تشغيلها مثل أحد عملائك! إنها فتاة صغيرة! إنها عائلتك!».

ـ إجراءات يائسة للأوقات اليائسة يا صديقي. كانت رائعة.

ـ أنا لا أحب ذلك.

ـ هل تريد المعلومات التي أملكها أم لا؟

ـ كيف يمكنني الاستعانة بأي شيء لديك؟ كيف لي أن أعرف أنك ما زلت لا...

ـ قتلوا فيليب يا كورت. ركضت كلير. أطلق الأوغاد النار على ابني عندما ذهب لحماية طفلته.

ـ يا إلهي!

ـ لا يسعنا إلا أن نأمل.

ـ أنا آسف.

توقف كورت مؤقتًا. ثم سأل: «كيف عرفت أنني هنا؟».

ـ لويد يعلم أنك في جنيف.

ـ لقد اعتقدت أن تبادل إطلاق النار في الطريق من زيورخ سيجذب انتباهه.

ـ تمامًا، لقد أرهقت بالي فيما كنت تفعله هناك. علمت أنك أذكى من أن تقترب من شخص ما في شبكتي. ثم تذكرت أن هناك مصرفي وكالة قديمًا في جنيف، في إدارة الأنشطة السرية، أجرى تدريبًا صعبًا للعملاء. اعتقدت أنك قد تعاملت معه في حياتك السابقة. اتصلت ببعض المعارف وحصلت على الرقم.

ـ كيف يمكنك إجراء مكالمات هاتفية دون علمهم بذلك؟

ـ يعتقدون أنني استسلمت. أنا ملقًى على سرير بجروح وأسنان مكسورة بفعل ذلك المخنث لويد. لقد حاول تعنيفي لكنه فشل. لا يمكنه أن يعذب رجلًا بطريقة غير لائقة. ألقوني على سرير في الطابق العلوي، كأني عجوز معتوه وخانع مصدوم، وربطوني في السرير كحزمة ذابلة من الخضراوات. لكنني لم أستسلم يا كورت. عندما اعتقدت أن الأمل الوحيد لعائلتي هو موتك، كانت هذه هي نيتي. سأعترف لك بذلك. الآن أعرف جيدًا أن الأمل الوحيد لعائلتي هو أن أحضرك إلى هنا. لمساعدتك بأي طريقة يمكنك أن تصل بها إلى هذا المكان بأقصى ما تستطيع وبكل ما لديك.

ـ فقط أبعد الفتاتين عن الأمر من الآن فصاعدًا. هل تستطيع فعل ذلك؟ إنهما طفلتان فحسب.

ـ أعدك.

ـ هل لدى لويد بالفعل الوثائق التي يدّعي امتلاكها؟

ـ لديه ملف موظفي وكالة الاستخبارات المركزية الخاص بك، بضع عشرات آخرين أيضًا. أوراق وأقراص كمبيوتر. لقد أتى بنا من لندن لإضافة إغراء آخر، للتيقن من قدومك.

ـ لماذا يفعل هذا؟

أخبر فيتزروي كورت بكل شيء عن مجموعة لوران. بمطالب أبي بكر. وأخبره عن ريجيل وقوات حراسة مينسك وفناني الأرصفة. وعن التحدي المتمثل في عشرات فرق الاغتيال، من اثنتي عشرة وكالة استخبارات في اثنتي عشرة دولة من العالم الثالث، ارسلت جميعًا وراءه للحصول على مكافأة قدرها عشرون مليون دولار.

بينما ينقل السير دونالد جميع المعلومات التي كانت بحوزته عن العملية إلى جينتري، سحب موريس صندوقًا أزرق من الخزانة وأحضره إلى طاولة المطبخ حيث كان يجلس كورت. راح الممول المسن والمدير السابق للخدمات السرية ينظف الجروح على معصم ربيبه الشاب بمطهر، ثم ضغط أكياسًا من الهلام البارد لإحداث تفاعل كيميائي، ممًا أدى إلى تحول الكمادات إلى اللون الأبيض الفاتر في ثوانٍ. لفها حول معصم جينتري الأيسر المتورم، متبوعًا بضمادة ضاغطة لتثبيت كل شيء في مكانه ومنع المزيد من التورم. كانت عملية مُحكمة وسليمة نفذها شخص من الواضح أنه تدرب على رعاية الجرحى.

عندما أنهى فيتزروي تقريره، قال جينتري: «لا أصدق أنهم سيخوضون كل هذا من أجل العقد فقط. لقد فهمت، عشرة مليارات دولار مبلغ كبير، ولكن لكي يقدم أبو بكر بكل ثقة طلبًا مثل هذا، يجب أن أعتقد أن هناك دافعًا آخر وراء الأمر هنا».

قال فيتزروي: «أنا موافق. تبادل إطلاق النار مع رجال الشرطة السويسريين؛ هذه مخاطرة لا تصدق من شركة مثل مجموعة لوران، حتى لو فعلوا ذلك بالوكالة مع القتلة الفنزويليين».

قال جينتري: «إن الأمر أكبر من كونه عقدًا على المحك. فلتتبين هذا الأمر، حسنًا يا دون؟».

ـ سأتحدث إلى ريجيل. إنه أكثر وضوحًا من لويد.

ـ حسنًا. احتفظ بهذا الهاتف معك. واكتم رنينه.

ـ كيف يمكنني الاتصال بك في أثناء تنقلك؟

نظر جينتري إلى موريس: «ألديك هاتف محمول يعمل بالقمر الصناعي يمكنني شراؤه منك؟». ضحك الرجل الأكبر سنًّا، واختفى في ممر طويل. دفعته نوبة سعال جديدة للانبطاح تقريبًا في مرحلة ما. عاد بعد لحظات بهاتف قمر صناعي. لقد كان موتورولا إيريديوم عالي التقنية، وهو نموذج يعرفه جينتري جيدًا. استخدمه الجواسيس والجنود والمغامرون المعرضون لمخاطر عالية، ولم يكن أكبر بكثير من الهاتف الخلوي العادي. وضعه في علبة بلاستيكية شفافة مقاومة للصدمات، ومقاومة للماء، ومقاومة للقنابل عمليًّا. أومأ كورت برأسه تقديرًا عندما أخذه. كُتِب الرقم على شريط في ظهره، وقرأه كورت على دونالد قبل أن يضع الجهاز في جيبه الأمامي.

بعد أن أعاد قراءة الرقم، توقف فيتزروي للحظة، ثم قال: «كورت يا ولدي، أمر أخير. عندما ينتهي كل هذا، عندما تقتل آخر شيء حي يمثل تهديدًا لك، سأتصل بك وأعطيك عنوانًا. سيكون صغيرًا للغاية، مكان يسهل عليك الدخول إليه والخروج منه دون قلق. ستجد كوخًا صغيرًا من غرفة واحدة، وسأكون فيه، جالسًا على كرسي، مُجَرَّدًا من قميصي الداخلي ويداي مبسوطتان على طاولة. سأنتظرك، وسأكون أعزل تمامًا. فما ورطتك فيه، وما فعلته من أجلي، سأرده لك بحياتي، سيمنحك القليل من الراحة وحسب، لكن ربما يساعدك. أنا آسف لما فعلته بك في الثماني وأربعين ساعة الماضية، لقد كنت يائسًا. لم أفعل ذلك من أجلي، لقد فعلت ذلك من أجل عائلتي. أنقذهم، وسأمضي لحتفي لأعطيك قدرًا من السلام.

كورت؟ هل ما زلت هنا؟».

أجابه كورت: «حافظ على سلامة الفتاتين يا دون. افعل هذا الشيء من أجلي وسنسوي باقي الأمور عندما ينتهي هذا».

أغلق جينتري الخط.

***

بعد أن أعاد كورت الهاتف إلى موريس، أنهى قارورة الجعة الثانية. مسح بصمات أصابعه عنها بخرقة على المنضدة، ومشى إلى الجزء الخلفي من المنزل لينظر من خلال الستائر الطويلة.

ـ عندما أغادر، هل يمكنك التعامل مع المراقبة؟

ـ إنها تجلس هناك وحسب. أعتقد أنني أستطيع تولي ذلك. لم أمت بعد.

ـ ستعيش أكثر منا جميعًا.

ـ لا يريحني أن أسمع هذا الكلام منك تحديدًا.

كانت لهجته قد تغيرت فصارت أكثر أبوة، سأله: «كيف يمكنني مساعدتك؟».

ـ يجب أن أفعل «شيئًا» في شمال فرنسا. يجب أن أنهض وأنطلق صباح الغد.

ـ حالتك لا تسمح لـ...

ـ لا يهم. يجب عليَّ أن أذهب.

ـ هل تحتاج إلى بعض المال؟

ـ قليلًا، إذا كان في مقدورك.

ـ بالطبع، يمكنني منحك بعض النقود. ماذا تريد أيضًا؟

ـ سآخذ مسدسًا من طار خمسة وأربعين، وإذا كان لديك بعض الرصاص.

ضحك موريس وانتابه سعال جاف. بدا أن المرض في رئتيه ينمو مع المحادثة. وقال: «من المحتمل أن تؤذي نفسك بسلاح رجولي كبير كهذا، لقد كفوا عن تصنيعه. أنت ابني، سأوفر لك شيئًا أكثر عصرية».

ـ كنت أتمنى أن يكون لديك حقيبة طوارئ تحتفظ بها ليوم ممطر. ليس لديَّ شيء؛ لذا فأي معدات يمكنك توفيرها ستكون محل تقدير كبير.

ـ لديَّ مخبأ طوارئ على بعد شارعين من هنا، حال وقعت أي مصيبة. مما تخبرني إياه، أعتقد أنك قد تحتاج إليه.
ـ أنا أقدر هذا حقًّا.
ـ أي شيء لأفضل تلاميذي.
اختفى موريس في الردهة الخلفية. عاد بعد دقيقة ومعه حزمة من اليورو في ظرف ومفتاح في سلسلة. كتب عنوانًا على الظرف وسلمه إلى تلميذه. وقال: «أظن أنك ستفرح بالمعدات».
وضع كورت الأشياء في جيبه.
ـ بيرة أخرى؟
ـ كنت أود هذا، لكن من الأفضل أن أتحرك.
ـ مفهوم.
سكب موريس في يد جينتري العديد من الأقراص المضادة للالتهابات من زجاجة في الخزانة. بلعها كورت بآخر جرعة من زجاجته. ثم سارا معًا نحو الباب الخلفي.
قال كورت: «أتمنى أن أقول إنني سأراك مرة أخرى. إذا نجحت في ذلك غدًا، فسأضطر إلى الاختفاء لبعض الوقت. ربما إذا لم تدفع فاتورة طبيبك، فيمكننا الحصول على بيرة أخرى يومًا ما».
ابتسم موريس، لكنه لم يضحك هذه المرة. وقال: «أنا أحتضر يا كورت، لا داعي لتجميل الأمر. لا يمكنني أن أجعله أجمل مما هو عليه».
ـ هل هناك أي شيء يمكنني فعله من أجلك؟ أي شخص تريدني أن أراه أو أرعاه بعد رحيلك؟
ـ لا يوجد أحد. لا عائلة. لا أصدقاء. لم يكن لديَّ سوى الوكالة.
قال كورت: «أعرف هذا الشعور».
كان قضاء الوقت مع معلمه أمر جيد، فمن النادر أن يجد جينتري فرصة للتحدث إلى شخص مر بنفس الأمور التي مر بها في الحياة.

لكن الأمر كان محبطًا كذلك. إذ رأى كورت قدرًا من نفسه في عيني الرجل المرهقتين المتشائمتين اللتين واجهتاه في غرفة المعيشة. وعلم أنه بالرغم من أن أحدًا لا يحب التقدم في السن، لكن في مهنة جينتري، فإن البقاء على قيد الحياة هو أفضل ما يمكن للمرء أن يأمل فيه.

وهل حدث ذلك حقًّا؟

ابتسم موريس وهو يتحدث: «يمكنك أن تفعل شيئًا واحدًا من أجلي. عندما تتخلص من هذه الفوضى التي تعيشها، أريدك أن تهرب إلى جزيرة استوائية في مكان ما. عندما تقرأ في الجريدة عن مصرفي أمريكي أكبر سنًّا من الأرض يموت في سويسرا، أريدك أن تذهب إلى أفضل بار تعرفه، وتلتقي فتاة جميلة، وتشرب معها طوال الليل. أنا جاد. تجاوز هذا واخرج من هذه الحياة. لا تزال هناك أجزاء من العالم لا يهتم فيها أحد بما فعلته. فلتذهب هناك. التقِ شخصًا ما. عش إنسانًا. افعل ذلك من أجلي يا فتى».

ـ سأحاول.

ـ يومًا ما ستتعلم. كل الأشياء التي فعلتها، كل الأشياء في الماضي التي كنت تعتقد أنها ماتت ودفنت واعتقدتَ أنك تركتها وراءك لم تتركك. لقد خزَّنتها بعيدًا. خَزَّنتها للوقت الذي لا يوجد فيه غيرك وغرفة هادئة وذكرياتك والشياطين الذين قتلتهم.

ـ يجب أن أذهب، موريس.

ـ أعلم أنني لا أستطيع منعك من فعل ما يتعين عليك فعله، لكن فكر فيما أقوله. كل الهراء الذي علمتك إياه في هارفي بوينت. كلما نسيت ما علمتك إياه واستمعت إلى ما أقوله لك الآن، أسرعت في التصالح مع القتل والموت، انتهت الخطبة يا فتى.

تصافحا.

ظهر وجه كورت الجاد مرة أخرى في ومضة. حشر رزمة النقود في جيب بنطلونه، وهاتفه في سترته وتوجه إلى الباب الخلفي. أطل من خلال الستائر من النافذة الأمامية إلى ممر من القرون الوسطى. وسرعان ما شعر أن شيئًا ما لم يكن على ما يرام.

سأل موريس: «ما الأمر؟». وقد راعه عدم ارتياح تلميذه.

قال كورت: «تحقق من الخلف. انظر إذا كانت الفتاة لا تزال هناك».

سار موريس في القاعة إلى غرفة المعيشة الخلفية ونادى كورت: «لقد ذهبَت».

ـ سحبوها.

ـ من؟

ـ القتلة.

ـ لأنهم يريدونها أن تبتعد عن الطريق عندما تحدث ضجة.

ـ بالضبط.

سأل موريس إذ يعود إلى صف جينتري: «هل هم هنا؟». أجاب الرجل الرمادي: «ليسوا هنا لكنهم قريبون. يمكنني أن أشم رائحتهم بحق الله!». ضاقت عينا جينتري وأكمل: «قل إنك لم توقع بي يا موريس».

أجاب موريس: «لم يحدث لمرة واحدة في حياتك يا كورت».

مرت لحظة صامتة. ثم قال: «أصدقك، أنا آسف».

سأل موريس: «من هناك؟ ألديك أي فكرة؟».

راح كورت وموريس يحصنان الباب مستخدمين دولابًا وخزانة كتب. وأجابه: «يعلم الله أن الكل كان يسعى إلى قتلي في الأيام الثلاثة الماضية. لا ينقصني سوى الصياد المريخي[1]».

---

(1) :إحدى شخصيات دي سي كوميكس.

قال موريس: «لا بُدَّ أن هؤلاء صيادون مريخيون إذًا. سمعت أنهم أوغاد حقيقيون. يمكنك أن تخرج من السقف. هناك ألواح في السندرة تميل على فتحة التهوية. ادفع فتحة التهوية إلى الخارج، يفترض أن تسعك. ستنقلك هذه إلى علية الحضانة خلف منزلي. إنها مغلقة أيام السبت. لديهم قبو يؤدي إلى صالون تقليم الأظفار المجاور. يبدو أنك قد تحتاج إلى عمل مانيكير، ولكن حاول أن تقاوم رغبتك في ذلك. انزلق من بابهم الأمامي إلى شارع بورجاتوار، ثم أسفل الزقاق الصغير إلى شارع إنفير، سيخرجك هذا بأمان».

ـ ماذا عن رجال الشرطة؟

ـ أقرب محطة لهم في قصر العدل، لكننا لا نتحدث عن جنود في الخطوط الأمامية. من الأفضل ألا ننبههم على الإطلاق لئلا يندلع صراع دام.

وقف جِينتري بلا حراك وحدق إلى موريس. ضحك الرجل المسن بحرارة وهو يجاهد ضيق أنفاسه ثم قال: «لقد أعددت طريق الهروب منذ فترة طويلة. في أيام إدارتي، كان لدي صبي من الحي يختبر السندرة، حتى بضعة أشهر مضت فما من مشكلة. امضِ في طريقك إذًا».

ـ تعالَ معي.

ـ لن أستطيع المرور من تلك السندرة. لا أحد يطاردني، اذهب الآن.

ـ موريس، في غضون ثوانٍ سيأتي فريق محترف عبر تلك الأبواب. سيعرفون أنك ساعدتني. سيفعلون كل ما يلزم ليحصلوا منك على معلومات.

ابتسم موريس متجاهلًا وقال: «لم أخشَ الموت قط يا كورت. الموت عبثًا هو ما يخيفني حقًّا. لو كنتُ تلقيت رصاصة في فيتنام مثل كل صديق لي هناك، لكانَ لهذا قيمة. إذا توفيت في أثناء العمل مع المؤسسة فسيكون هذا مشرفًا. أعني، اعتمادًا على ما كنا نفعله في ذلك

الوقت، فأنت تعلم ما أقوله. لكن أجلس هنا في منزلي في جنيف، أقلب قنوات التلفزيون، وأنتظر اللحظة التي تسعل فيها رئتي أو تتبول كليتي. ليس هناك نبل في هذا».

ـ ماذا تقول؟

ـ أنا أقول إنني سأموت من أجلك، يا فتى. لقد نفذت عمليات ناجحة أكثر من الوكالة بأكملها في السنوات الأربع الماضية. أنت تستحق أن يساعدك شخص ما إذا وقعت.

لم يدرِ جينتري ماذا يقول، لذلك لم يقل شيئًا.

ـ لا تفسد الأمر يا فتى. اخرج من هنا. سأبطئهم، ربما واحد أو اثنان في هذه العملية. لا توجد وعود، لكنني سأحاول تقليل عددهم بعض الشيء.

ـ لن أنساك أبدًا.

ابتسم موريس وأشار إلى الأعلى. وقال: «إذا تجاوزت الأمن ووصلت إلى الجنة، سأنتظرك هناك، فلنرَ ما إذا كنت ستلحق بي في الآخرة أيضًا».

تعانق الرجلان في حرج، كان كلاهما متوترًا ومشغول الذهن بسبب التحرك الوشيك. قال موريس: «شيء آخر. أتمنى أن تتذكرني بشكل إيجابي. لا تظن بي سوءًا إذا... إذا علمت أنني ارتكبت خطأً أو اثنين في الطريق».

ـ أنت بطلي. هذا لن يتغير أبدًا.

ـ شكرًا يا فتى.

كان هناك صوت فرامل شاحنة من الخارج. قال موريس: «اذهب!».

أومأ جينتري. ضغط الرجل الضعيف على كتفه وقفز إلى العارضة دون أن ينطق بكلمة. سرعان ما سحب نفسه إلى العلية، بينما تئن ضلعه المكسورة ومعصمه المتورّم ألمًا. كان قد أزال البلاط لتوه عندما

وقع اصطدام في الباب الأمامي تسبب في سقوط الدولاب لمسافة قدم في الغرفة.

دار موريس وانتقل إلى المطبخ بأقصى سرعة بساقيه الهزيلتين ورئتيه المشوهتين. حدث اصطدام آخر حطم الباب خلفه. أمسك بالموقد الضخم، وسحب جهاز الغاز القديم إلى الخلف بضع بوصات مرتعشًا.

جاهد للوصول وراء المدفأة، ومد جسده المسن إلى أقصى حد، لكنه لم يستطع الإمساك بهدفه. نظر في جميع أنحاء الغرفة بحثًا عن شيء يوسع به نطاقه.

***

كان الأفارقة الجنوبيون فرقة كوماندوز من وكالة المخابرات الوطنية في بلادهم. وقف قائد الفرقة المكونة من ستة أفراد في الفناء الأمامي للبيت الأبيض، وعلى كتفه بندقيته من طراز بينيلي. دخل باقي أعضاء فريقه أخيرًا من الباب المحصن. انتقلوا بمهارة هجومية عالية التدريب في جميع أنحاء المبنى ذي الطابقين. في منتصف الغرفة الأولى انقسموا إلى وحدتين، اتجه أحد الفريقين إلى المطبخ ووجد رجلًا عجوزًا جالسًا على طاولة، يداه فوق رأسه وأصابعه متشابكة، يواجه الحائط البعيد، صورة الاستسلام. سحبه أول رجل في الفرقة إلى الأرض بعنف وفتشه في ركن الإفطار الضيق.

وجد مسدسًا في حزام خصر الرجل العجوز وألقاه إلى أعلى في الحوض.

قال أكبر الرجال سنًّا: «هذه المسدس قديم أيها الأحمق!». بينما راح اثنان من الأفارقة الجنوبيين يدفعانه بقوة علي كرسيه إلى الغرفة الرئيسة، وانتظرا حتى أعلن الأعضاء الأربعة الآخرون في الوحدة إخلاء المنزل.

عندما عاود الفريق بأكمله الالتفاف حول السجين، نظر الأمريكي العجوز إلى جميع الوجوه، ومن الواضح أنه سمع لهجاتهم إذ قال: «أفارقة جنوبيون».

سأل القائد: «أين الرجل الرمادي؟».

تجاهل موريس سؤال القائد.

وقال: «انظروا يا رفاق. ثلاثة سود، ثلاثة بيض. عاج وأبنوس. في سالف الأيام كنتم أيها البيض تضربون هؤلاء السود، أليس كذلك؟».

لم يكن هناك رد.

«أنتم أيها الأولاد البيض لا بُدَّ أنكم تفتقدون أيام الفصل العنصري تلك، أليس كذلك؟».

كرر القائد سؤاله: «أين الرجل الرمادي؟».

قال موريس: «آه، لكن رئيس العملية أبيض. أنتم يا أولاد ما زلتم ضمن القائمة هكذا؟ وضع أصحاب المزارع العبيد في الرئاسة، لكنهم ما زالوا يصدرون الأوامر. ألست على حق؟».

فك أحد العملاء السود عقدة الرشاش الخاصة به من جهاز العدة على صدره، ورفعه ليحطم بعقبه فك موريس. قائلًا: «توقف!».

صاح الزعيم: «إنه فقط يحاول إبطاء سرعتنا حتى يتمكن ابنه الحبيب من الفرار. لن يحدث أيها الرجل العجوز. الآن، أين الرجل الرمادي؟».

ابتسم موريس: «هذا هو الجزء الذي أقول فيه: من هذا؟».

قطب القائد جبينه، وتحدث بلهجة إفريقية ثقيلة، وقال: «وهذا هو الجزء الذي يضربك فيه رجلي على وجهك لإساءتك التصرف بدلًا من تقديم إجابة». أومأ برأسه إلى العميل الأسود الذي كان لا يزال واقفًا فوقه. صدمت مؤخرة الرشاش فك الأمريكي العجوز، ودفعت رأسه إلى الوراء.

وكرر سؤاله: «الآن أيها الأحمق، لنجرب مرة أخرى، إلى أين ذهب؟».

بصق موريس الدماء وجزءًا من شفته السفلى على الأرض أمام، ثم قال: «لا أتذكر. لقد وصلت إلى سن متقدمة حيث تبدأ الذاكرة في التعثر. كثير النسيان، أنت تفهم. التقدم في العمر سيئ».

بعد عدة ثوانٍ من الانتظار، صرخ القائد في وجه الرجل: «لن أسأل مرة أخرى. كانَ الرجل الرمادي هنا. أين هو الآن؟».

أجاب موريس: «آسف أيها الشاب، أنا مريض. هل تمانعون إذا استخدمتُ دورة المياه؟».

نظر زعيم القتلة إلى مرؤوسه وقال: «اضرب هذا الأحمق مرة أخرى».

قال موريس على الفور: «لقد رحل ولن تجده».

سخر الإفريقي الجنوبي من الرجل النحيل قائلًا: «سأجده. سأجده وسأقتله. سمعة الرجل الرمادي ليست سوى هراء».

ضحك موريس وسعل وهو يقول: «هل لديك أي فكرة عن عدد الرجال الذين قالوا هذا الشيء تحديدًا والآن يتعفنون إلى الأبد في صندوق من الصنوبر؟».

أجاب: «هذا لن يكون مصيري يا صديقي».

أومأ موريس برأسه تقديرًا: «سأضطر إلى الاعتراف لك بهذه. لن يتبقى منك ما يكفي لصندوق الصنوبر. لكن لا داعي للقلق، فأنا أسمع أن شركات الدفن هنا في جنيف مجتهدة للغاية. بقليل من الحظ قد يجدون نصف رفاتك لملء نصف جرة ووضعها على رف والدتك».

مال الإفريقي الجنوبي برأسه وقال: «ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم، أيها المفكك؟».

أجابه موريس: «أنا فقط أقول، مستقبلك يبدو قاتمًا يا صديقي، لكنْ ثمة أخبار سارة».

نظر الإفريقي الجنوبي إلى رجاله. من الواضح أنه كان يتحدث إلى عجوز مجنون؛ لذا قال: «سأجاريك يا رئيس. ما البشارة؟».

قال موريس: «مستقبلك الكئيب سيكون قصير الأجل».

ثم ابتسم، وبدأ يصلي في هدوء استغفارًا لخطاياه. عندها فقط جاء صوت الفني عبر الراديو. وضع الرجال الستة أيديهم على سماعات الأذن الخاصة بهم ليصغوا جيدًا.

أخبرهم الفني: «مراقب رقم ثلاثة وأربعين أفاد أن الهدف خرج للتو من صالون الأظفار خلف مبنى سكني خلف المنزل. إنه يسير على قدميه متجهًا غربًا».

أومأ الزعيم الإفريقي الجنوبي برأسه، وأعاد انتباهه إلى موريس.

وقال: «أخبار سارة في كل مكان يا جدي. لن نضطر إلى تعذيبك لنعرف أين ذهب».

لم تنحرف نظرات موريس عن صلاته. هز قائد الفريق الإفريقي الجنوبي كتفيه، وأنزل بندقيته على صدر الرجل الجالس، وأطلق النار بيد واحدة.

عندما غادرت الرصاصة الماسورة متجهة نحو هدفها، انطلق الرجل الإفريقي الجنوبي في الهواء، وارتد إلى المطبخ. كُسِرت رقبته، واحترق جلد وجهه ويديه. عاني الخمسة الآخرون المصير نفسه، رغم أن مساحة غرفة المعيشة كانت أقل من أن تسع طيران هؤلاء الرجال.

توفي موريس على الفور من انفجار رصاصة من عيار اثني عشر في صدره من مسافة قريبة.

بعد دقائق عرف رجال الإطفاء في موقع الحادثة أن الدمار نتج عن تسرب غاز هائل، ربما من الوصلة بين الجدار وفرن المصانع الكبير. كان هذا أمرًا نادر الحدوث، لكنه شائع للغاية في المنازل القديمة كهذا المنزل، ولم تكن مفاجأة. بعد ساعات فقط، أطفئت النار، وانخفضت مستويات الماء والرغوة إلى حيث يمكن فحص الجثث، لكن احتار المحققون، ولم يستدلوا على شيء من الجثث السبع المبللة والمحترقة التي لا يمكن التعرف إليها، لكنهم لاحظوا الكم الهائل من الأسلحة النارية المحيطة بجميع الضحايا باستثناء واحد، وهو حدث غير مألوف إلى حد كبير في جنيف المعروفة بالهدوء.

25

بعد خمس دقائق من خروجه من صالون الأظفار، سار الرجل الرمادي غربًا في شارع دو مارشيه، باحثًا عن العنوان المدون على بطاقة الملاحظات في يده. تساقطت أمطار خفيفة، مما أعاق رؤيته للأرقام على المباني. كان قد انعطف للتو شمالاً في شارع رو دي كوميرس عندما وقع خلفه انفجار.

توقف عن المشي كما توقف المشاة من حوله على الرصيف. ومع ذلك لم يستدر جينتري كما فعلوا هم.

بعد بضع ثوانٍ من الوقوف بلا حراك تحت المطر، تقدم خطوة إلى الأمام. عادَ النشاط إلى جسده، واستمر في ذلك، وأخفض رأسه وكتفيه قليلًا. اكتشف مراقبًا، فراوغ هاربًا عبر شارع رو دو رون، إلى ممر صغير مختبئ، حيث فقد أثره في حركة السير بالقرب من مطعم ماكدونالدز.

بعد دقائق، وجد مرأبًا لسيارة واحدة في الجزء الخلفي من ساحة انتظار تحت الأرض في شارع الكونفدرالية. كان ذلك بعد ظهر يوم السبت، فلم يكن هناك أحد، فتح الباب المنزلق بالمفتاح الذي أعطاه إياه موريس فأصدر صريرًا، واختلط الغبار من داخل المساحة في أنفه برائحة زيت المحرك.

تحسس الجدران بحثًا عن إضاءة لمدة نصف دقيقة قبل أن يصطدم بجسم كبير في منتصف الأرض. وفوقه كان هناك سلك متصل بمصباح كهربائي معلق في منتصف الغرفة. انبهر جينتري بتألق اللمبة الوحيدة، وسرعان ما سحب باب المرأب ليغلق على نفسه الغرفة، ثم استدار

ليجد أن الشيء الموجود في وسط المرأب كان سيارة مغطاة بقطعة قماش كبيرة.

لم يقل موريس شيئًا عن إعارته سيارة. ظن كورت لثانية أنه دخل إلى مكان خاطئ.

نزع القماش وتركه يسقط على الرصيف، فكانت سيارة مرسيدس سيدان سوداء كبيرة، من الفئة (إس) بأربعة أبواب مصممة داخليًّا بالكامل من الجلد الأسود.

فكر كورت أن السيارة لا بُدَّ أنها تكلف أكثر من مائة ألف دولار.

تمتم قائلًا: «شكرًا يا موريس».

فتح باب السائق غير المؤمَّن، رأى الرجل الرمادي أن المفاتيح كانت في مكان التشغيل. نظر إلى لوحة القيادة ولاحظ أن السيارة تحركت أقل من أربعة آلاف ميل. لقد كانت جميلة، ومن المؤكد أنها ستجعل قيادة الساعات الثمانية إلى نورماندي أسرع وأكثر راحة، ولكن كانت هناك طرق أخرى للسفر. لا، ما كان يحتاج إليه حقًّا هو أسلحة. في أوروبا، كان الحصول عليها أكثر صعوبة من وسائل النقل الفعالة.

فتح صندوق المرسيدس بشغف، ومشى إلى الخلف. كانت هناك أربع علب كبيرة من الألومنيوم بعضها بجانب بعض. سحب كورت الأولى فوق الأخرى وقلبها ليفتحها.

انتفضت زوايا فمه لأعلى.

معدن ثقيل.

قال: «بطلي يا موريس».

مسدس **(MP5)** جرى تزييته جيدًا، وخُزِّن في غلاف من الإسفنج. أربع خزائن، حُشيت بالفعل بثلاثين رصاصة من عيار تسعة ملليمترات، وُضع بعضها بجوار بعض في الإسفنج، وقنبلتان يدويتان بجوار مسدس **(MP5)**.

عبأ المسدس الرشاش، وجهّزه لإطلاق النار، ثم ألقاه في المقعد الأمامي للسيارة المرسيدس مع باقي الخزائن الاحتياطية. أما العلبة الثانية، فقد احتوت على قنبلتين يدويتين، وقنبلتين صاعقتين، واثنتين من عبوات اختراق المداخل، ومكعب صغير من مادة سيمتكس البلاستيكية المتفجرة مع جهاز تفجير عن بعد. ترك هذه المعدات في صندوق الأمتعة في الوقت الحالي.

احتوت العلبة المصنوعة من الألومنيوم المصقول على وحدة (GPS) محمولة وجهازي اتصال لا سلكي متطابقين، وجهاز كمبيوتر محمول. ذهبت كل هذه العدة إلى المقعد الخلفي للسيارة. في العلبة الأخيرة، عثر كورت على مسدسين من طراز جلوك 19 عيار 9 ملم وأربع خزائن معبأة بالرصاص.

أيضًا في هذه الحاوية وجد كورت حزام أدوات للخصر، وحزام معدات للفخذ. كان أحدهما لحمل مسدس جلوك على وركه اليمنى، والآخر يُعلَّق على ساقه اليسرى ويحمل خزائن للمسدس الرشاش ومسدس جلوك.

حثَّه حدسه على رفع فرش أرضية صندوق المرسيدس. هناك اكتشف سلاحًا آخر، بندقية هجومية من طراز **(AR-15)** ، وبجانب الإطار الاحتياطي، كانت هناك علبة بلاستيكية بها ثلاث خزائن محملة بذخيرة من عيار 223 ومجموعها تسعون طلقة.

أمضى كورت بضع دقائق في تشغيل هاتف الأقمار الصناعية والتعرف إلى نظام تحديد المواقع العالمي **(GPS)**. في الوقت نفسه استمر عويل إنذار الشرطة والمطافئ وسيارات الإسعاف على بعد ربع ميل من منزل موريس.

أنبأ مخبأ الأسلحة الضخم هذا جينتري بشيئين عن معلمه السابق. الأول أنه رغم تركه وكالة الاستخبارات المركزية، فإن ثمة ما دفعه للاعتقاد بأنه قد يحتاج إلى الهروب من وضع صعب ذات يوم.

وثانيًا، من مظهر السيارة المتميز، وهذا الكم المتنوع والهائل من المعدات، اتضح لجينتري صحة الشائعات حول معلمه. من المحتمل أنه اختلس من الحسابات التي كان يحتفظ بها لوكالة الاستخبارات المركزية.

موريس كان يعرف بالتأكيد أن جينتري سيصل إلى هذا الاستنتاج، لكنه بالرغم من هذا عرض مخبأه على تلميذه الشاب. كانت آخر أمنية للرجل المحتضر أن يستخدم هذا الكنز للفرار والنجاح في مهمته، وليس أن يحكم عليه بقسوة شديدة بسبب ذلك.

عندما انسحب جينتري من المرأب، ونظر إلى الأمام مباشرة من خلال النوافذ الدكناء، ومر بالمزيد من المتفاعلين الأوائل مع الانفجار، في طريقهم إلى مسرح الجريمة في شارع رو دو ليفيش، كانت مشاعره متضاربة.

لم يختلس كورت سنتًا واحدًا في حياته. لم يسبق له أن طلب رسومًا في العمليات والمهام المشبوهة لرجال العصابات وتجار المخدرات. لا، لقد كان قاتلًا، لكنه لم يكن لصًا. كانت سرقة موريس من الشركة أمرًا مخيبًا للآمال، لكن في النهاية خطط كورت لاستغلال جزء كبير من تلك الأموال المسروقة على النحو الصائب. كورت مثالي وواقعي في آن واحد. كانت سرقة موريس خاطئة، لكنه قال لنفسه إنه لن يقسو في حكمه على مدربه القديم. وبدلًا من ذلك، سيسترد شرف الرجل العجوز، ويستخدم كل رصاصة ومسدس لإنقاذ الأبرياء الثلاثة في نورماندي واستعادة سجلات عملاء قسم الأنشطة الخاصة.

***

وقف ريجيل وراء الفني، ووقف لويد إلى يساره. جلس الشاب ذو ذيل الحصان على مكتبه أمام شاشات الكمبيوتر، ضاغطًا سماعات الرأس على أذنيه.

من تعبيرات وجه الشاب البريطاني، يمكن للرجلين المسؤولين عن العملية أن يفهما أن الأخبار لم تكن سارة.

قال الفني: «لدينا تأكيد من مصادرنا المحلية بأن جميع الأفارقة الجنوبيين ماتوا. كان هناك انفجار كبير في الموقع المستهدف. كان تسرب غاز على ما يبدو. ولا شك أنه نَجَم عن إطلاق النار أو أي استخدام آخر للذخائر. لا تزال إدارة الإطفاء تعمل على إطفاء الحريق. ليس لديهم حصر لعدد الجثث حتى الآن، لكنهم يؤكدون فقط عدم وجود ناجين، بل عدد من الوفيات».

قال لويد: «جينتري؟».

هز الفني رأسه وقال: «شوهد وهو يغادر المبنى قبل دقائق من الانفجار».

ـ من شاهده؟

ـ مراقب فقده وسط الحشد.

صرخ لويد: «بربك! هل يجب أن أقتله بنفسي؟».

سحب ريجيل هاتفه من جيبه وأجرى مكالمة، انتظر لحظة قبل أن يقول: «نعم هذا أنا. أحتاج إلى طائرة هليكوبتر. التقط الأدوات التالية، ولتصل هنا قبل حلول الظلام. اكتب كل هذا: وحدات تصوير حراري وكاشفات حركة وأجهزة استشعار عن بعد وشاشات وكابلات. هل دونت كل هذا؟ اعثر أيضًا على سيرج وألان وضعهما على متن تلك المروحية. أخبرهما أن يأخذا أي شيء آخر يلزمهما لوضع جدار إلكتروني ثلاثمائة وستين درجة حول قصر لوران».

أنهى ريجيل المكالمة. حدق إليه لويد، وسأله: «ما كل هذا؟».

ـ معدات المراقبة الإلكترونية، ورجال لتثبيتها ومراقبتها.

ـ من أجل ماذا؟

ـ من أجل جينتري. من أجل الليلة.

ـ لا يزال هناك ثلاثمائة ميل وخمسة وثلاثون قاتلًا بينه وبيننا. تعتقد حقًّا أنه سيبلغ القصر، أليس كذلك؟

ـ إنها مسؤوليتي أن أتيقن من وفاته. وسواء مات في جنيف، أو على طريق في جبال الألب الفرنسية، أو هنا في الحديقة، فإن وظيفتي هي إنقاذ عمليتك. سأستخدم كل أداة وكل ميزة تقنية وكل جسد حي وكل بندقية يمكنني وضعها بين موقعه الحالي ووجهته.

نظر الفني إلى الرجلين خلفه. لأول مرة، تظهر عاطفة ما على الشاب الإنجليزي؛ الخوف. وقال: «لم يذكر أحد شيئًا عن قدومه إلى هنا بالفعل. أنا لست رجلًا ميدانيًّا بحق المسيح».

نظر ريجيل إليه بحزم وقال: «فلتعتبر أنك حصلت على ترقية».

عاد الفني إلى محطته.

بعد ذلك، استدعى ريجيل رجال البرج، وانضم إليهم القناص البيلاروسي ولويد في الحديقة الخلفية. قابلهم القناص بالقرب من النافورة، وكانت بندقيته الكبيرة دراجونوف معلقة على صدره.

ساروا معًا ببطء فوق العشب الملطخ بالدماء، باتجاه بستان التفاح الذي بدأ في نهاية الفناء الخلفي، واستمروا لمسافة عدة مئات من الأمتار إلى الجدار الحجري المرتفع الذي يحيط بالمبنى كله. استنشق ريجيل والقناص الهواء، ثم جثوا على العشب ووضعا أيديهما فيه. نظرا إلى كل شيء حولهما بعناية. بدا أن لويد يشعر بالملل والانزعاج.

تحدث ريجيل إلى القناص باللغة الروسية. حدق لويد باتجاه البستان. وسأله: «هل تفهم قواعد الاشتباك؟».

ـ إذا تحرك الهدف نحو القصر، فأطلق عليه النار.

ـ هذا صحيح.

ـ بسيط للغاية.

ضغط حذاء ريجيل العالي على العشب المشذب بعناية. استنشق الهواء مرة أخرى ثم قال: «هل كان هناك ضباب هذا الصباح؟».

ـ نعم. الرؤية لا تزيد على مائتي ياردة. لم أستطع الرؤية لأبعد من أشجار التفاح حتى الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا.

ـ لا ينبغي أن تكون مشكلة. إذا وصل هنا من الأساس، فسيكون ذلك قبل شروق الشمس.

أومأ البيلاروسي برأسه وهو يتفحص البستان من خلال منظاره. قال ريجيل: «ما كان يجب أن تطلق النار على الأب».

هز القناص كتفيه وهو يتفحص المسافة القريبة ثم قال: «لو كنتَ في موقع الحادثة لما فعلتُ ذلك. حقيقة الوضع أنني لم يكن لديّ قيادة. لقد اتخذت قرار إطلاق النار. هذا ما أفعله ما لم أُكلَّف بخلاف ذلك».

أومأ ريجيل برأسه. نظر إلى قناصه للحظة ثم قال: «رأيت الجثة، الجرح الخارجي. وسواء أكان القرار صائبًا أم لا، لقد كانت ضربة موفقة».

أنزل البيلاروسي عينيه عن سلاح الدراجونوف، لكنه واصل تفحص البستان، وقال بلا ذرة عاطفة: «نعم. كانت كذلك».

سَئِم لويد تجاهله وقال: «انظر يا ريجيل. أنت تضيع الوقت. حتى لو نجح جينتري في الوصول إلى هنا، وهو ما لن يفعله، هل تعتقد حقًّا أنه سيأتي راكضًا في منتصف الفناء؟».

ـ ربما. سيفعل كل ما يرى أنه خياره الأفضل.

ـ هذا جنون. لن يقتحم القلعة بنفسه.

ـ يجب أن أستعد كما لو كان سيفعل. ستكون خياراته محدودة.

ـ حسنًا، لماذا لا تملأ الحديقة بالألغام الأرضية؟

قوبلت سخرية لويد باستخفاف تام.

أطال ريجيل النظر فيه للحظة قبل أن يقول: «هل تعرف أين يمكنني الحصول على بعض الألغام الأرضية؟».

في هذه اللحظة بالضبط، رن هاتف لويد في جيبه.

ـ نعم؟

ـ معك الفني. جينتري يتصل على هاتف السير دونالد. يمكنني إعادة توجيه المكالمة إليك.

ضغط لويد على مكبر الصوت في وحدته. وقال: «افعل هذا».

ـ مرحبًا يا لويد.

كان صوت جينتري متعبًا.

ـ إذًا فقد انزلق حبل المشنقة مرة أخرى. كنت أتمنى أن أقف فوق رفاتك المتفحمة في وقت ما هذا المساء.

ـ لا. بدلًا من ذلك، قتل المرتزقة المستأجرون بطلًا أمريكيًّا يبلغ من العمر خمسة وسبعين عامًا.

ـ نعم. جاسوس على وشك الموت جرى تسريحه. اسمح لي أن أمسح الدموع من عينيّ.

ـ تبًّا لك يا لويد!

ـ هل أنت في جنيف؟

ـ أنت تعلم أنني هنا.

ـ هل تريدني أن أرسل إليك خريطة بالفاكس؟ يقع شمال فرنسا في شمال فرنسا، وليس جنوب سويسرا. لا أعرف لماذا ذهبت لرؤية موريس. مال، وثائق، أسلحة، مسلح آخر، أيًّا كان. لن يصنع أي من هذا الهراء فارقًا كبيرًا على المدى الطويل. الشيء الوحيد الذي يجب أن تقلق بشأنه الآن هو الوقت، لأنه في صباح الغد عندما يشير عقرب الساعة الصغير إلى الثامنة ويشير العقرب الكبير إلى الثانية عشرة، ستواجه الفتاتان البريطانيتان الصغيرتان وقتًا عصيبًا هنا!

ـ لا تقلق يا لويد. سأكون هناك قريبًا.

ـ لماذا تتصل؟

ـ كنت أجلس هنا قلقًا من أن تبدأ في الاسترخاء اعتقادًا منكٍ أنني مت في الانفجار. إن احتمال قضائك فترة ظهيرة مريحة كان حقًّا يثير غضبي، لذلك قررت أن أهاتفك، وأن أخبرك أن تنتظر قدومي الليلة.

تنفس لويدٍ بغضب في الهاتف وقال: «أردتَ فقط أن تتيقن من أنني لم أتخلَّ عن المهمة، ولم أذهب إلى الطابق السفلي وأقتل عائلة فيتزروي لأنني لم أعد بحاجة إليهم».

ـ وهذا أيضًا. لا أعرف عدد فرق القتل بينك وبيني، لكن كل الحمقى على وجه الأرض لن يمنعوني من الإمساك بحلقك في غضون ساعات قليلة.

ركض الفني إلى الرجال الثلاثة في الحديقة الخلفية لاهثًا، رفع ورقة كتب عليها كلمات على عجل: «هاتف قمر صناعي، غير قابل للتتبع».

عبس لويد وقال: «كورت، إن موتك حتمي. لماذا لا توفر علينا بعض الوقت، وتجعل الأمور أسهل على الجميع وتقتل نفسك، ثم ضع رأسك في صندوق ثلج واشحنه لي».

ـ سأعقد معك صفقة. سأجلب لك الرأس. وأنت احصل على صندوق الثلج. بعد فترة وجيزة، سأمنحك الفرصة لوضع الاثنين معًا.

ـ تبدو كأنها خطة، يا صديقي.

ـ صباح الغد، سيتعين على يوليوس أبو بكر أن يعثر لنفسه على عاهرة جديدة ليساوم بها، فعندما تفشل، وسوف تفشل، فإما أن أقتلك وإما سيقتلك شخص آخر.

ارتجف وجه لويد في حالة من الغضب وقال: «أنا لست عاهرة أحد، أيها الوغد الأحمق. لقد رأيت الكثير من المستغلين المتعجرفين يأتون ويرحلون طوال حياتي، أنت لست مختلفًا. عليك أن تتذكر أنه حتى مع سمعتك ولقبك المخيف، فأنت بلطجي ممجد فحسب، ستموت في غضون ساعات قليلة، وسأنسى أمرك قبل أن يقضي عليك الدود».

كانت هناك وقفة قصيرة.

ـ اسمح لي أن أخمن يا لويد. كان والدك شخصًا مهمًّا.
ـ في الحقيقة، والدي شخص مهم.
ـ ليس غريبًا. أراك قريبًا.
أغلق جينتري الهاتف.

أخفى ريجيل ابتسامته عن لويد. لا يزال الفني يقف ويداه على ركبتيه، لاهثًا من الركض. قال: «يبدو أن جينتري يعتقد حقًّا أنه سيصل إلى هنا». كان هناك رعب واضح في صوته بين شهقاته من أجل الهواء.

صرخ لويد في وجهه: «عد إلى العمل. أريد طائرات هليكوبتر في الهواء، أريد رجالًا في القطارات، وأريده ميتًا قبل أن يصل إلى باريس!».

***

بعد ساعة، وقف ريجيل على سور مسطح يحاذي الجزء الخلفي من سقف القصر. نظر إلى الخارج من خلال الأسوار المزخرفة في الظهيرة رغم سطوع الشمس، سارت ثلاث فرق من البيلاروسيين في تقاطعات، تتألف كل فرقة من رجلين يحملان بنادق هجومية وأجهزة راديو. كان القناص ومراقبه على يسار ريجيل، في البرج العالي مع رؤية شبه مثالية تبلغ 360 درجة للحديقة الخلفية والحديقة الأمامية. أبلغت المروحية المزودة بمعدات التصوير الحراري للتو عبر اللاسلكي أنها في طريق عودتها من باريس، ومعها جميع المعدات وفريق من مهندسيْن اثنيْن يمكنهما إعدادها في أقل من ساعة.

وضع الفني فريقًا ناجحًا على متن القطار فائق السرعة من جنيف إلى باريس. لم يبلغوا عن مشاهدة جينتري. اتخذت ثلاث فرق أخرى ومعظم المراقبين المتاحين مواقع على الطرق السريعة عبر جبال الألب الفرنسية التي كان على الرجل الرمادي اجتيازها إذا كان مسافرًا بالسيارة أو الدراجة النارية، وفي باريس كانت هناك ثلاث فرق قتل أخرى. لقد

كانت منطقة تجمع مألوفة، ومدينة مليئة بأعوانه المعروفين، مدينة قد يتوقف فيها للحصول على الإمدادات أو الدعم.

***

لم يكن أمام كيرت ريجيل الكثير ليفعله في الوقت الحالي سوى الانتظار.

ومع ذلك، أزعجه أمر ما.

بدأ الأمر كصداع شديد في الجزء الخلفي من عقله، وزاد مع مرور الوقت وهو يتصالح مع حقيقة أنه رتب كل نهايات العملية قدر إمكانه في الوقت الحالي، لكن هذا تم بعدما لم تعد هناك أي استعدادات أخرى يمكنه اتحاذها.

أخيرًا، اقترب من سبب ضيقه؛ أمر قاله الرجل الرمادي للويد. بالتأكيد، اكتشف جينتري أن هذا الهجوم ضده له علاقة باغتياله إسحاق أبو بكر. ولكن ماذا عني بقوله إن لويد عاهرة أبي بكر؟ كيف عرف جينتري أن لويد لم يكن موظفًا عند أبي بكر وحسب، أو في وكالة الاستخبارات المركزية، يؤدي عملًا ما؟ بل أدى عمله لسبب آخر، صفقة من نوع ما.

قرأ ريجيل نص محادثة هاتفية سابقة بين جينتري ولويد كتبها الفني بخط اليد قبل أن يأتي ريجيل للموقع. أيٌّ من لويد أو فيتزروي لم يذكر مجموعة لوران أو الأسباب الحقيقية وراء هذه العملية. لماذا بحق السماء يفترض الرجل الرمادي أن هذه العملية تضمنت نوعًا من الصفقة بين الأطراف، التي من الواضح أن المقصود بها ضمنيًا مساومة؟ لماذا بحق السماء يفترض الرجل الرمادي أن حياة لويد سيحدد مصيرها نجاحه؟

مرت دقيقة أخرى كاملة من التكهنات، وعندما جاءته الإجابة كانت كالعلامة كما لو كان يصطاد فريسة في رحلة سفاري. عند تتبع حيوان ما، يمكن للصياد الماهر أن يجد مؤشرًا على مسارات الحيوان،

وإشارات إلى أنه يعرف أن أحدًا يسعى وراءه. لقد اشتمَّ رائحة، أو لمح حركة. تتغير المشية عندما تشعر الفريسة بالمتاعب، ولا يتمكن سوى صياد ماهر مهارة فريدة من التقاط هذا التغيير الدقيق في المسارات الواقعة في محيط بصره.

كيرت ريجيل كان صيادًا حقيقيًّا.

لدى جينتري أكثر من رائحة تشير للعملية الحقيقية ضده. كانت لديه تفاصيل محددة لم يكن ليحصل عليها إلا بطريقة واحدة. دار كيرت ريجيل حول الأسوار ودخل القصر. مرَّ على لويد الذي كان يخرج من الحمام، واستمر في النزول إلى الممر كأنه جندي غاضب.

رأى لويد تصميم الصياد. وسأل: «ما هذا؟ ماذا دهاك؟».

لم يقل ريجيل شيئًا. سار في القاعة وهبط الدرج الواسع المغطى بالسجاد المؤدي إلى الطابق الثاني. اقتحم

هذا المدخل إلى الشمعدانات واللوحات، بعد باب غرفة إليز فيتزروي، ثم عبر غرفة النوم حيث حُبست الطفلتان. وفور وصول لويد، اجتاز ليري أحد المجرمين الأيرلنديين الشماليين الذين أحضرهم لويد من مجموعة لوران.

صدم الألماني البالغ من العمر 52 عامًا بكتفه الباب الثقيل الذي كان يحرسه ليري، وفتحه. في الغرفة الكبيرة خلفها، استلقى سير دونالد فيتزروي على ظهره في فراش من الكتان الأبيض مواجهًا الباب، وحدق مرة أخرى إلى موكب الرجال الذين دخلوا الغرفة.

قطع ريجيل الغرفة إلى فراش السير دونالد. لم يُظهر أيًّا من المجاملات التي أظهرها في اجتماعهما السابق. كانَ وجهه وجه رجل مخدوع متعطش لدماء ترد اعتباره. سأل ريجيل سؤالًا من كلمة واحدة بصوت خافت يتعارض مع سلوكه: «أين؟».

وقف لويد وليري في وسط الغرفة. نظرا إلى بعضهما بعضًا، يحاولان فهم ما كان يحدث.

سأل دونالد: «عم تتحدث؟».

سحب ريجيل مسدسه من طراز ستير، وضغط بقوة على جبهة رأسه الأصلع وقال: «فرصتك الأخيرة». كان صوته لا يزال همسًا. ثم سأله: «أين هو؟».

بعد وقفة وجيزة، تحركت ذراعا السيد دونالد فيتزروي ببطء تحت الأغطية. سرعان ما ظهر هاتف محمول. سلمه إلى الألماني الكبير. ريجيل لم ينظر إليه. فقط أدخله في جيبه، وقال: «من؟» الآن يسأل بصوت خافت وغاضب.

لم يقل السير دونالد شيئًا.

«سيستغرق الأمر مني ثواني لتحديد مالك هذا الهاتف. يمكنك أن توفر على نفسك قدرًا من البؤس بأن تعطيني الإجابة بنفسك».

نظر السير دونالد بعيدًا عن ريجيل، عبر الغرفة إلى لويد، ثم انحرفت عيناه إلى الحارس الأيرلندي الشمالي.

قال دونالد: «عمل بادريك ليري عندي في الأيام الخوالي، في بلفاست. لقد كنت واحدًا من أفضل مخبريَّ يا بادي». عاد ينظر إلى كيرت ريجيل. وأكمل: «ومع ذلك، أخذ مني الوغد مبلغًا كبيرًا لإجراء بضع مكالمات فاشلة».

عندما تحول غضب ريجيل من الرجل الإنجليزي إلى الأيرلندي، صرخ فيتزروي للحارس المذهول: «آسف أيها الشاب. لا أعتقد أنه يمكنني الحصول على عشرة آلاف جنيه استرليني في النهاية، سيكون عليك فقط الاكتفاء بعزاء أنك ستظل خادمًا مخلصًا لأحد النبلاء في التاج البريطاني».

نظر ليري إلى ريجيل وصاح: «كذبة مفتراة! إنه شخص بريطاني يكذب عليك! إنه يكذب كذبًا فجًا! منذ يومين لم أنظر قط إلى اللقيط العجوز الوغد!».

أخرجه ريجيل من جيبه وأمسك به وسأله: «هل هذا هاتفك؟». ثم نظر إليه ليري لعدة ثوانٍ، ثم بدأ في السير نحو فيتزروي في فراشه.

وسأله: «كيف بحق الله وصلت بيديك الضعيفتين الباليتين إلى...».

دوى طلق ناري في الغرفة الصغيرة. انطلق رأس ليري إلى الأمام، وسقط منكبًا على وجهه عند قدمي ريجيل. سقط الألماني على ركبته فجأة ورفع سلاحه في ومضة وهو يجثو.

وقف لويد في منتصف الغرفة وذراعه ممدودة تمسك بمسدس فضي صغير. كان لا يزال يصوب إلى حيث كان الجزء الخلفي من رأس الأيرلندي مكانه قبل أن تدفعها الرصاصة المجوفة من عيار 0.380 للتأرجح إلى الأمام.

صرخ ريجيل في صيحة جرمانية: «لا!». بينما كان لويد يتحدث، لوح بالمسدس في جميع أنحاء الغرفة، واستخدمه ليشير به في كل الاتجاهات مع إيماءاته اللاإرادية. وقال: «لدينا ما يكفي من المشكلات.. لسنا بحاجة إلى القلق من أعداء بيننا». ثم أشار إلى ريجيل الذي كان لا يزال على ركبتيه، وعيناه على المسدس الذي يتراقص في الغرفة في نهاية ذراع لويد. وأكمل: «أردت أن تعامل دوني الصبي مثل رجل نبيل، وهذه هي الطريقة التي يكافئك بها. كنت متساهلًا للغاية، وقد استخدم ذلك ضدك. لقد كان يتلاعب بالناس من قبل ولادتي. هذا ما يفعله! فلتعرف بمن اتصل وماذا قال له. افعل هذا الآن، أو سأتصل بمارك لوران وأخبره أنك تعوق مهمتي!».

أنزل لويد المسدس واستدار ليغادر الغرفة. بعد بضع ثوانٍ أخرى جثا على ركبته ومسدسه مرفوع لا يزال يبحث عن هدف، ووضع ريجيل سلاحه في جرابه ونظر إلى فيتزروي قائلًا: «أشعر بخيبة أمل».

كان ثبات صوت فيتزروي يثير الدهشة. وقال: «أرى اليأس يا ريجيل. أراه في عينيك وكذلك في صوت لويد. لا يتعلق الأمر فقط بعقد شفط الغاز الطبيعي وشحنه. لدى أبي بكر شيء آخر يمتلكه في

مجموعة لوران. بعض الأوساخ عن ماضيك، ممارساتك. شيء ما إذا عُرِف فستنهار مؤسستك».

نظر ريجيل في مرآة معلقة فوق دولاب كبير. صفف شعره الأشقر الشائب بأطراف أصابعه، وقال: «نعم أيها السير دونالد. لقد سمحنا لأنفسنا بأن نقع في مأزق لا نحسد عليه. اعتاد والدي أن يقول: إذا استلقيت مع الكلاب فستستيقظ مع البراغيث. لقد استلقينا مع العديد والعديد من الكلاب لسنوات عديدة. أبو بكر من أسوئهم وهو يعرف جيدًا ما يمكن أن يفعله مارك لوران من أجل المال والسلطة. منذ إنهاء الاستعمار في إفريقيا، أصبحت موارد القارة جاهزة للاستغلال من أي شخص مستعد للرقص مع طاغية. أبو بكر في جيبنا الخلفي منذ سنوات، والآن صرنا نحن في جيبه الخلفي. إنه يهدد بفضح المدة التي قضاها مارك لوران في استنزاف موارد إفريقيا. ليست قصة جميلة. نفضل أن يكتم الرئيس المنتهية ولايته فمه».

بعد ذلك، اتجه ريجيل نحو الباب. دون أن ينظر إلى الوراء، وقال لسجينه: «سأرسل شخصًا لتنظيف آثار الجثة».

ـ لا تزعج نفسك. عندما يصل كورت إلى هنا، سيمتلئ المنزل بالجثث.

26

حلَّق خمسة جنود من المخابرات العامة السعودية، أو رئاسة الاستخبارات العامة، غربًا فوق جبال الألب بطائرة يوروكوبتر **EC145** مسروقة. كانت المروحية تابعة لمالك محلي حقق أرباحًا جيدة من نقل المتزلجين على الجليد إلى قمم يتعذر الوصول إليها في مون بلان[1] والجبال الأخرى في المنطقة.

الآن قُتل مالك يوروكوبتر الأسود الأنيق في قمرة طائراته، وهو رائد سابق في الجيش الفرنسي، نال رصاصة واحدة في القلب بمسدس كاتم للصوت، وحلَّق السعوديون بمركبته شمالًا على الطريق السريع.

كان الطريق متعرجًا فارتفع بهم وهبط، وتقاطع واختفى في أنفاق جبال الألب، متجاوزًا الغابات الخضراء الباهرة والبحيرات التي لم تضاهِ زرقتها الساطعة السماء المشرقة.

الطيار السعودي وحسب هو من يتحدث الإنجليزية. ظل على اتصال متقطع بالفني، وهو اتصال مفتوح ثنائي الاتجاه بين سماعة رأسه ومركز القيادة، وقد تقطع مع القمم الحادة التي حاوطت الطائرة. في الوقت نفسه أدار الفني فرقًا أخرى ناجحة في المنطقة، ونقلوا تقارير من المراقبين في محطات الحافلات ومواقف سيارات الأجرة. لم يُبلغ عن أي علامة على الرجل الرمادي منذ اجتاز مراقبيه بعد مغادرة منزل الخبير المالي في جنيف.

يعد الطريق السريع **A40** هو الاختيار الأسهل لأي مسافر من جنيف سويسرا، عبر جنوب غرب فرنسا، إلى قلب فرنسا.

هناك في مدينة فيريات، يمكن للمرء أن يبقى على الطريق **A40** إلى **A6**، أو يمكن للمرء أن يتجه إلى الشمال الشرقي على الطريق **A39**

(1) الجبل الأبيض على الحدود الإيطالية الفرنسية.

إلى ديجون. في كلتا الحالتين، تستغرق الرحلة نحو خمس ساعات بالسيارة إلى باريس، مقارنة بست ساعات أو أكثر إذا جرى تجنب هذه الطرق.

يعرف السعوديون في المروحية أين يبحثون عن هدفهم إذا جاء عبر هذه الطرق، فسوف يمر أسفلهم على الطريق **A40**.

لم يعرفوا نوع السيارة التي كانوا يبحثون عنها. تمركز ثلاثون مراقبًا على الجسور العلوية، وتوقفوا للاستراحة بطول حارات الطوارئ على الطريق السريع بعد أن غطوا سياراتهم. وقاد آخرون عبر حركة المرور. راقب كل فنانٍ رصيف الطريق، ورصدوا ركاب أكبر عدد ممكن من السيارات بحثًا عن مواصفات أساسية محددة.

كانت العملية أكبر من أن تجهلها الشرطة، ولهذا السبب وغيره، كان ريجيل ضد المشروع تمامًا. عندما أصبح واضحًا أن جينتري لم يستقل القطار أو الحافلة، أراد ريجيل سحب جميع المراقبين وجميع فرق القتل وجميع العملاء إلى باريس. كان على يقين من أن الرجل الرمادي لن يتجاوز باريس. افترض ريجيل ـ ولم يعارضه لويد ـ أن المسؤول المالي في الاستخبارات المركزية، الذي التقاه كورت في جنيف ربما زوده ببعض المعدات والأسلحة وعربة ورعاية طبية ونقود على الأرجح.

افترض ريجيل أيضًا أنه إذا كان لدى الرجل الرمادي الوقت الكافي لانتظار مكالمة من سير دونالد فيتزروي، فلا بُدَّ أن لديه الوقت للتواصل مع أطراف أخرى من معارف المصرفي النافذ، والعميل السابق بوكالة الاستخبارات المركزية. إذا كان كورت قد اتخذ الترتيبات اللازمة لالتقاط الرجال أو المعدات، فلن يكون لديه الوقت للذهاب إلى أي مكان آخر غير المواقع الموجودة بالفعل في طريقه.

باريس هي آخر مدينة كبرى في طريقه، وكانت مكتظة بالقتلة ومزوري الوثائق، وتجار السلاح في السوق السوداء، وعملاء سابقين في وكالة الاستخبارات المركزية، وطيارين، وجميع أنواع الأعمال الطائشة الأخرى التي يمكن أن يستغلها الرجل الرمادي، لمساعدته

على إنقاذ عائلة فيتزروي، واستعادة ملفات الموظفين التي سرقها لويد من الاستخبارات الأمريكية.

أراد ريجيل أن تنصب جميع موارد العملية على باريس، لكن لويد طالب بنصب كمين أخير عند نقطة اختناق الطريق السريع الرئيسي إلى الشمال، لإيقاف جينتري قبل أن يقترب من القصر.

***

لكن جينتري لم يسلك الطريق A40 إلى A6 أو A39، كانت أكثر الطرق عملية بلا جدال، لكن حسبما رأى كورت، كانت عملية فقط لأولئك المسافرين غير المستهدفين من عشرات القتلة بطول هذه الطرق.

لا، قرر كورت أن العملية ضده سبب كاف لإثقال جسده المرهق والمتألم بساعتين أو أكثر من القيادة. سيكون أمرًا مزعجًا، سبع ساعات كاملة خلف عجلة القيادة فقط للوصول إلى باريس، لكنه لم ير بديلًا. لم يكن خيار الحافلات والقطارات واردًا مع كل المعدات الموجودة في صندوق السيارة، والتي كان عليه أن ينقلها. لا بُدَّ أن يقود. على الأقل كان يقود أحدث طراز. كانت سيارة مرسيدس **S550** أنيقة وصلبة، وقد ملأ الفرش الداخلي الجديد أنفه برائحة الجلد الفاخر. محركها بقوة **382** حصانًا يخفق بسرعة خمسة وثمانين ميلًا في الساعة، وسماعات تعمل بالأقمار الصناعية آنَسَت كورت.

فمن وقت لآخر شغل الراديو المحلي، وجاهد لالتقاط المعلومات باللغة الفرنسية حول المعارك بالأسلحة النارية في بودابست وجواردا ولوزان، وشيء عن انفجار منزل في المدينة القديمة في جنيف.

بحلول الخامسة بعد الظهر، هدد إرهاق جينتري بطرده من الطريق، فتوقف للاستراحة قبل بلدة سانت ديزييه. تزود بالوقود واشترى شطيرة لحم وجبنًا فرنسيًّا في خبز فرنسي كبير. شرب اثنين من المشروبات الغازية واشترى زجاجة ماء ضخمة بعد زيارة الحمام. بعد خمس عشرة دقيقة عاد إلى الطريق. أخبره GPS المثبت على لوحة القيادة أنه لن يصل إلى باريس قبل الساعة التاسعة مساءً.

قدَّر جينتري كل ما يتعيَّن عليه فعله قبل التوجه إلى نورماندي، وخلُص إلى أنه سيصل إلى القصر الساعة الثانية والنصف صباحًا تقريبًا. واعترف لنفسه أن هذا مرهون بعدم وقوع متاعب في باريس.

***

قال ريجيل: «حان الوقت لإعادة الجميع إلى العاصمة». وقف خلف لويد والفني، إذ عاد لتوه إلى مركز القيادة بعد العمل لمدة ساعتين مع مهندسي الأمن الفرنسيين على الطوق الإلكتروني حول القصر.

أومأ لويد وكرر كلمات الألماني للفني الجالس بجانبه. ثم عاد إلى نائب رئيس إدارة المخاطر الأمنية.

ـ أين هو بحق الجحيم؟

ـ كنا نعلم أنه من المحتمل أن يسلك طريقًا آخر. بوسعه استخدام مئات الطرق. رحلته عبر الريف ستؤخر وصوله إلى باريس، لكنها ستوصله إلى هناك.

ـ هذا في حال ذهب إلى باريس.

ـ نفترض أنه لن يهاجم بنفسه حصنًا محميًا مليئًا بالمسلحين والرهائن. سيتعين عليه الحصول على بعض المساعدة قبل أن يأتي إلى هنا، ولديه شركاء معروفون في باريس أكثر من أي مكان آخر. إذا توقف لأي ظرف، فسوف يتوقف في باريس. جميع شركائه خاضعون للمراقبة. ولأنه مُصاب فلديَّ رجال في كل مستشفيات باريس لمراقبته.

ـ لن يذهب إلى المستشفى.

ـ على الأغلب لا. لن يفضح نفسه على هذا النحو.

ـ طبيب في شبكة فيتزروي، ربما؟

ـ ربما. لكن فناني الأرصفة موجودون في كل مكان، ويراقبون في كل جهة اتصال معروفة.

ـ لا أريده أن يخرج حيًا من باريس.

ـ لقد حشدتُ ما يكفي يا لويد.

27

اقتحم جينتري الحافة الشرقية لباريس بعد الساعة التاسعة من مساء يوم السبت. أنساه التعب الشديد آلام قدميه وركبتيه وفخذيه ورسغه وأضلاعه، لكن لم يثنه عن تقدمه إلى المدينة، وعثر على موقف سيارات باهظ الثمن في مرأب تحت الأرض بجوار محطة قطار سان لازار. وضع كل الأسلحة في المقعد الخلفي، وأغلق السيارة وتوجه إلى الشارع.

كان لديه متسع من الوقت لوضع خطة عمله في باريس في أثناء القيادة واستخدم الـ GPS للعثور على متجرين في المنطقة. بعد بضع دقائق سيرًا على قدميه خلال المساء البارد الضبابي، عثر على مطعم ماكدونالدز، وتقدم عبر حشد من الأطفال من جميع الجنسيات، وشق طريقه إلى الحمام. أمضى دقيقة ونصف الدقيقة في غسل وجهه المرهق، وصفف شعره الأشعث، واستخدم المرحاض، ومسح ملابسه بسائل صغير من معطر الجو.

كانت محاولة تنظيف بائسة، لكنها كانت أفضل من لا شيء.

بعد خمس دقائق، دخل متجر ملابس رجالي في شارع روما بينما يوشك البائع أن يدير لافتة «مغلق» عند الباب. التقط كورت بذلة سوداء مقلمة باهظة الثمن، وقميصًا أبيض، ورابطة عنق زرقاء مصمتة، وحزامًا وحذاءً، دفع ثمنها عند طاولة المشتريات. ثم اتجه عبر الشارع إلى متجر للسلع الرياضية، إذ يضع البذلة على كتفه. وهناك اشترى خزانة ملابس كاملة من الملابس الخارجية السميكة ذات اللون البني الخافت.

عاد إلى الشارع في الوقت الذي أغلقت فيه آخر متاجر الملابس التي تعمل ليلًا أبوابها، ووجد صيدلية على الجانب الآخر من المحطة فاشترى ماكينة حلاقة كهربائية وشفرة حلاقة، ومقصًا، وكريم حلاقة، وبعض الحلوى. أخذ من الرف نظارة ذات إطارين أسودين وجربها، وقرر أنها تناسب احتياجاته. ما إن اتجه إلى طاولة المدفوعات، رأى مظلة سوداء طويلة مميزة تتدلى من الرف، بمقبض معقوف جيد الصنع.

جذب المنتج انتباهه. تحسس بضاعته الجديدة وحقائبه الأخرى، ثم انتزع المظلة ودفع للآسيوي الملول على طاولة المدفوعات.

بعد العاشرة بقليل، نقل جينتري كل بضاعته إلى محطة القطار، وبقي قريبًا من الجدران، وأخفض رأسه بعيدًا عن الكاميرات الأمنية المنتشرة في القاعة الطويلة المفتوحة. تجاهل عشرات النساء البوسنيات اللاتي يتوسلن من أجل فكة، ودخل حمامًا فارغًا أسفل الردهة من رصيف كان يستقبل آخر قطار في المساء. وضع كل حقائبه في المرحاض واستعد للعمل.

سرعان ما تجرد من ملابسه الخارجية وقص شعره. حاول أن يُسقط أكبر قدر في المرحاض، لكنه وضع أيضًا الأكياس البلاستيكية التي حوت ما اشتراه من ملابس على الأرض لتجمع الباقي.

بعد ذلك، استخدم ماكينة الحلاقة الكهربائية ليحلق رأسه حتى يصل إلى الدرجة الخفيفة. أنهى كريم الحلاقة والشفرة المستقيمة المهمة. خرج من المرحاض مرتين للتحقق من عمله في المرآة، لكنه كان يتراجع إلى مساحته الخاصة بسرعة لتجنب إثارة الشك إذا دخل أحدٌ.

عندما انتهى، رمى أكياس قصاصات شعره بعناية في سلة المهملات، ثم غسل المرحاض من الشعر. بعد أن حلق رأسه تمامًا اغتسل مرة أخرى في الحوض، وسرعان ما ارتدى البذلة والقميص وربطة العنق

والحذاء. وضع نظارته على وجهه بسلاسة، وثبَّت مظلته المميزة، ثم حمل باقي حقائبه.

بعد ثماني عشرة دقيقة من دخول جينتري إلى الحمام، خرج رجلًا مختلفًا.

تغير شعره وملابسه بالطبع، لكن مشيته أيضًا كانت أسرع، ووقفته أكثر انتصابًا. قاوم كورت رغبته في أن يعرج على ساقه اليمنى. نزل النبيل الذي يرتدي بذلة على الدرج عائدًا إلى مرأب السيارات وترك حقائبه في السيارة. أخذ مسدس جلوك ثم عاد إلى الشارع. ها هو رجل باريسي يرتدي ملابس أنيقة يمشي بمفرده في طريقه إلى المنزل من مطعم جميل. تتأرجح بجواره مظلته، إذ ينتقل مع المارة في ضباب نوفمبر. استقل سيارة أجرة في شارع سان لازار في الساعة 11:30، وأمر السائق بفرنسية متعثرة أن ينقله إلى حي سان جيرمان دي بري في الضفة اليسرى.

***

رصد سونج بارك كيم الكازاخيين بجوار كاتدرائية نوتردام. تيقن من كونهم قتلة يسعون وراء الهدف نفسه الذي كان يسعى إليه. كان من الصعب أن يفلتوا من مراقبته الحادة، ولم يكن لدى الكوري شك في أن الرجل الرمادي سيتعرف إليهم بالسهولة نفسها. كما أنه اجتاز ثلاثة -أو أربعة- عناصر مراقبة ثابتة، واستطاع أن يرصدهم رغم زحام مساء السبت، لكنه مع ذلك أقر أنهم على قدرٍ كافٍ من المهارة.

فهم كيم هدفه. لو تعين على الرجل الرمادي التوقف في باريس، لكان وصل الآن. احتدت حواسه الفائقة بالفعل أكثر قليلًا كلما ألقى الفني على سمعه تقريرًا غير مبشر. سار الكوري من شارع إلى شارع، وبدا غير مبالٍ، لكنه ظل على مسافة متساوية من المواقع المتداخلة والمعروفة.

سار كيم في صمت تام في الشارع الخالي. حانة أيرلندية وحسب أضاءت الأحجار المرصوفة أمامه؛ وبخلاف ذلك كان الظلام حالكًا، واستغل الكوري الليل باعتباره صديقه الصدوق. يتحرك بسرعة وبطريقة مريحة مثل صياد ليلي. عند تقاطع شارع سانت ميشيل وشارع سوميرارد، توغل في زقاق، ووجد مخرج طوارئ رآه في وقت سابق عندما تجول ليوم كامل في المدينة، وقفز عاليًا للانفراد به. تأرجحت حقيبة الظهر علىً ظهرهً، ومالت حقيبته الخضراء الزيتونية إلى الأسفل بسبب المسدس الآلي من طراز إتش كي والخزائن الإضافية، بينما يصعد القاتل الكوري الدرج.

ارتقى السلالم المعدنية في صمت حتى بلغ الطابق السادس. رفع ذراعيه القويتين مرة أخرى فأصبح فوق القمة، على السطح. من هنا كان يرى برج إيفل على بعد أكثر من ميل أمامه، ونهر السين على يمينه، والحي اللاتيني يمتد إلى يساره. استمرتٍ أسطح المنازل بطول شارع سان ميشيل، ولامس بعضها بعضًا، فشكلت طريقًا أعلى من الشوارع أدناها.

ستكون هذه نقطة انطلاق كيم في المساء. إذا غامر جينتري في أي مكان على الضفة اليسرى، يمكن لكيم التحرك بسرعة وهدوء فوق هذا الصف من المباني أو غيرها من المباني المماثلة. إذا ظهر الرجل الرمادي على الضفة اليمنى، يمكن لكيم أن يصل هناك في غضون دقائق من خلال النزول والركض عبر أي من الجسور، لمسافة بضعة مبانٍ إلى الشمال، التي تمتد عبر النهر البارد الجاري الذي تتلألأ صفحة مياهه، إذ يتدفق عبر أضواء المدينة.

***

قفز كورت جينتري من سيارته الأجرة إلى مقهى إنترنت في شارع سان جيرمان. طلب ساعة لاستخدام الإنترنت وكوب إسبريسو مزدوجًا من البار. دفع حسابه ثم شق طريقه بأدب عبر حشود الطلاب باتجاه

جهاز كمبيوتر مفتوح في الخلف. أنزل نظارته على أنفه، وأمسك بالكوب والصحن، وعلّق مظلته الفاخرة على ذراعه.

ما إن اتصل بالإنترنت، فتح محرك بحث وكتب: «أملاك مجموعة لوران في فرنسا». نقر فوق أحد مواقع الويب التي تعرض عقارات الشركة الضخمة: الموانى والمكاتب والمزارع الصغيرة وصفحة الويب الخاصة بأماكن الاستجمام التابعة للشركة. هنا وجد قصر لوران، منزل عائلي تستخدمه الشركة شمال شرق قرية ميزون الصغيرة في نورماندي.

فور حصوله على الاسم بحث على الويب للحصول على مزيد من المعلومات حول العقار، وعثر على موقع يعرض قصورًا خاصة في أوروبا، وألقى نظرة على اللقطات الساحرة لمنزل العزبة من القرن السابع عشر. احتفظ في ذاكرته بالعديد من المعلومات، وتجاهل حقائق أخرى لا تبدو شديدة الأهمية، مثل حقيقة أن ميتران أطلق النار على الأرانب على الأرض، أو أن بعض كبار ضباط روميل قد ضربوا زوجاتهم هناك في أثناء وجودهم في المدينة لاتخاذ الاستعدادات النهائية لجدار الأطلسي.

كتب العنوان بقلم استعاره من صبي أسمر يجلس بجانبه، ثم تصفح موقع ويب شركة لوران. استغرق الأمر منه بضع دقائق حتى عثر على العنوان ضمن ممتلكات الشركة، كان القصر مُدرجًا كونه مكتبًا فرعيًا وحسب، وليس موقع استجمام تابعًا للشركة، قاد هذا كورت للعثور على رقم الهاتف المدرج للمبنى. كتب هذا على ساعده بينما ضحك الطفل الصغير الذي أقرضه القلم إذ يقدم له ورقة، لكن جينتري رفضها.

بعد ذلك استغرق الأمريكي بضع دقائق لإلقاء نظرة على خريطة القمر الصناعي للمنطقة المحيطة بالقلعة. رسم يوضح الغابة، وجداول المياه التي تجري بالقرب منها، والبساتين خلف المبنى الحجري

الذي يبلغ عمره 300 عام، والطرق الريفية المرصوفة بالحصى خارج الجدار المحيط.

ألقى نظرة أخرى على الصور التي التقطت للمبنى. كان البرج الكبير هو أعلى نقاطه. عرف كورت أن القناص حتمًا سيختبئ هناك.

كان يعلم أيضًا أن هناك 200 ياردة من المساحة المفتوحة بين قصر لوران وبستان التفاح الخلفي. وأمام المبنى مسافة أقصر، لكن هناك جدارًا حجريًا أعلى، وإضاءة أقوى. تخيل أنه سيكون هناك رجال يجرون دوريات بصحبة كلاب، ومخبرون في القرية، وربما حتى مروحية في الهواء.

من الواضح أن لويد كان لديه كل الموارد المتاحة لحماية القصر من مهاجم خائب يعرج.

لم يكن التحصين منيعًا؛ قليل من الأماكن وحسب يصعب على جينتري اختراقها. لكنه لو غادر باريس في هذه الدقيقة تحديدًا، فلن يصل إلى بايو قبل الساعة الثانية صباحًا، وكان أمامه حتى الثامنة لإنقاذ فيتزروي قبل موعد لويد النهائي.

لكن لم تكن هذه سوى راحة خادعة، لقد أدرك أن أي فرصة لنجاح خطوته يجب أن تكون في جوف الليل، عندما تترنح قوة الحراسة، ويتأخر رد فعلها.

لذلك بالرغم من وجود طرق مؤكدة، أدرك كورت أن اختراق قصر لوران صعب دون انتظار ساعات وساعات حتى يألف الإجراءات الأمنية.

لكن لم تكن أمامه ساعات وساعات، بل ساعة على الأكثر قبل حلول ضوء النهار.

ومرة أخرى، كان هذا مرهونًا فقط بمغادرته باريس الآن، ولم تكن هذه خطته.

***

في الواحدة صباحًا، جلس جينتري في مقهى لوكسمبورج وشرب ثاني إسبريسو مزدوج له في المساء بين الفتيات الجميلات في شارع سوفلوت. ظلت شطيرة لحم الخنزير الصغيرة على طبق أمامه دون أن يمسها. كانت القهوة مُرَّة، لكنه يدرك أن الكافيين سيساعده خلال الساعات القليلة القادمة، هذا إلى جانب شرب الماء، لذلك استهلك زجاجة المياه المعدنية الثانية بخمسة يورو، بينما كان يتظاهر بقراءة نسخة أمس من جريدة لوموند، شردت عيناه لكنهما ظلتا تعودان إلى المبنى المقابل لشارع 23.

في الحقيقة أراد كورت فقط أن ينهض ويمضي خارج المدينة دون السعي وراء هدفه في باريس. كان يعلم أنه سيخوض مخاطرة هائلة لزيارة الرجل في المبنى السكني المقابل للشارع الصغير، لكنه احتاج إلى المساعدة، ليس فقط لنفسه ولكن أيضًا إلى وسيلة لإطلاق سراح عائلة فيتزروي.

يُدعى الرجل الساكن في المبنى فان زان، هولندي، ربان مركب سابق متعاقد مع وكالة الاستخبارات المركزية، وطيار بارع للمروحيات الصغيرة. خطط كورت ليجري زيارة مفاجئة له، ولإغرائه ببعض النقود، وهو ما يشكِل خطرًا أقل من الذهاب في رحلة في الخامسة صباحًا إلى بايو لالتقاط عائلة مكونة من أربعة أفراد وكورت نفسه، ثم نقلهم على ارتفاع منخفض فوق قناة إلى المملكة المتحدة.

كان فان زان شريكًا معروفًا، لذلك كان لويد يتنصت على هاتفه في غضون دقائق من بدء هذه العملية ووضع مخبره خارج بابه. أدرك كورت أن الاتصال بفان زان غير وارد، لكن ظن أن بمقدوره اجتياز مخبر أو اثنين ويزوره شخصيًا.

نعم، لقد كانت خطة جيدة، قال كورت لنفسه وهو يبتلع إسبريسو مريرًا ويوجه عينيه الشاردتين إلى الصحيفة أمام وجهه.

لكنه أدرك ببطء أن هذا لن يحدث.

عَلِم كورت بلا شك أنه بمقدوره الإفلات من اثنين من المخبرين الأشقياء وأن يمضي للقاء فان زان.

اثنان، نعم.

لكن ليس العشرات.

في أثناء احتسائه قهوة الإسبريسو، كشف خمسة مخبرين مؤكدين، وشخصًا آخر غير مؤكد في الزحام.

تبًّا! فكر كورت. ليس لأنه تيقن من عدم وجود سبيل إلى فان زانٍ ليقدم له عرضه، ولكنه بدأ يشعر بالضيق الشديد والضعف، محاطا بعشرات المراقبين النسور.

تسكع زوجان شابان في كوالتي برجر في الجهة المقابلة من الشارع. راحا يفحصان كل ذكر أبيض من المارة، ثم رفعا رأسيهما نحو مدخل الفتحة المؤدية إلى منزل فان زان. ثم كان هناك رجل وحيد في سيارته المتوقفة. شرق ـ أوسطي ينقر بأصابعه على لوحة القيادة كما لو كان يستمع إلى الموسيقى، ويراقب جموع المارة.

وقف رقم أربعة عند محطة الحافلات أمام حدائق لوكسمبورج، كما لو كان ينتظر الحافلة، لكنه لم يُلقِ نظرة حتى على واجهة أي من الحافلات التي توقفت ليعرف اتجاهها.

وقف رقم خمسة على شرفة بالطابق الثاني، يحمل كاميرا بعدسة بحجم الخبز الفرنسي، وتظاهر بالتقاط صور لتقاطع الشوارع المزدحمة، لكن كورت لم يصدق الأمر ولو لثانية. لم تبعد «صوره» التي يلتقطها عن الرصيف تحته، ولا عن المدخل الواقع في الجهة المقابلة من الشارع، لم يلتفت لمقبرة العظماء عالية الإضاءة في الطريق إلى يساره، ولا أكشاك المنتجات الفرنسية النموذجية والسياج الحديدي الجميل حول حدائق لوكسمبورج.

رقم ستة كان امرأة بمفردها في المقهى، على بعد بضع طاولات فقط من جينتري. تعمد أن يحصل على طاولة في الخلف ولكن بالقرب

من النافذة الممتدة بطول المطعم. من هنا استطاع أن يراقب كل من في الغرفة معه في أثناء تغطية وجهه بالصحيفة، ومع ذلك لا يزال ينظر إلى يمينه حيث مبنى فان زان وما حوله. لقد فعلت الشيء نفسه في أثناء جلوسها أمامه.

رقم ستة كانت ماكرة. أمضت 80% من وقتها في النظر إلى قهوتها الموكا الرغوية الكبيرة، ولم تقفز نظراتها إلى النافذة بين الحين والآخر. لكن خطأها كان لباسها وسلوكها. كانت فرنسية ـ عَرف هذا من الملابس والوجه ـ لكنها كانت وحيدة ولا يبدو أنها تعرف أي شخص في المقهى. فتاة فرنسية جميلة في العشرينيات من عمرها، قضت ليلة السبت بمفردها، بعيدًا عن الأصدقاء، لكنها ما زالت في الحشد، في مقهى غير مألوف لها، في جزء من البلدة لم تكن تعرفه.

لا، قرر كورت أنها فنانة رصيف، ومخبرة ومترصدة، استُؤجِرت للجلوس هناك وإبقاء عينيها الكبيرتين مفتوحتين.

بعد أن أكل شطيرة صغيرة وانتهى من قهوته، وبعد تخليه عن خطته الرائعة لرسم طريق هروب مضمون بعد إنقاذ عائلة فيتزروي، قرر أنه بحاجة إلى الهرب خارج المدينة، وأن يمضي إلى بايو لتدبير أمر ما. هبطت معنوياته إلى أدنى مستوياتها منذ صباح أمس، كان أكثر حزنًا مما كان في الحفرة المتعفنة بمعمل لازلو.

لكن جينتري عرف أن أسوأ شيء يمكن أن يفعله الآن هو أن يجلس مغتمًا. فألقى رزمة من أوراق اليورو على طاولته، وانزلق من القاعة الخلفية إلى الحمام. بعد أن أراح نفسه، واصل النزول إلى القاعة، واقتحم المطبخ كما لو كان يعمل به، وسار مباشرة إلى الباب الخلفي ثم اجتازه إلى شارع مسيو لو برينس. لم يلتفت أحد في المطبخ إلى الرجل الذي يرتدي البذلة السوداء.

كان لدى الرجل الرمادي تلك القدرة.

***

بعد خمس دقائق، وقف ريجيل مرة أخرى على الممشى أعلى السطح وحدق إلى جدران الحدائق المقمرة. امتزجت رائحة بستان التفاح من بعيد بالظلام البارد. كان ريجيل يأمل في تصفية ذهنه قليلًا، والابتعاد عن لويد والفني والبيلاروسيين والتقارير الإذاعية المستمرة من المراقبين في باريس الذين لم يرصدوا أي شخص بعد، وفرق القتل التي لم تقتل أي شخص بعد.

رن هاتفه في جيبه. في البداية أراد أن يتجاهل المكالمة. ربما كان أحد زعماء المخابرات الأجنبية يتساءل: لماذا لم يسجل فريقهم الوصول؟ وكيف قُضي عليهم جميعًا في أثناء العمل في وظيفة تجارية؟

عرف ريجيل أنه سيقضي شهورًا أو سنوات في التخفيف من خسائر هذه الكارثة، وذلك في حال تم توقيع عقد لاجوس بحلول الساعة الثامنة صباحًا، لم يشأ ريجيل حتى أن يفكر في الأمر، ولكن إذا لم يحدث ذلك، فمن المحتمل أن يفقد وظيفته أو على الأقل منصبه. كان لوران يأمل في كثير من المكاسب من وراء هذه العملية ولم يبخل عليها بأي جهد ممكن.

شعر ريجيل أنه في خطر مثل لويد. ليس تمامًا، إذ أيقن ريجيل أن لوران سيأمره في النهاية بقتل لويد إذا فشلت العملية. لن يموت ريجيل بسبب هذا الفشل الذريع مثل الشاب الأمريكي، ولكن مع ذلك، ستدمر حياته المهنية إذا كشف عن تجاوزات شركته في إفريقيا الوغد يوليوس أبو بكر.

رن الهاتف مرة أخرى. سحب الهاتف من جيبه بتنهيدة تنفث بخار الليل.

ـ ريجيل.

ـ سيدي، الفني معك. هناك مكالمة لك على الخط الأرضي. يمكنني إرسالها إلى هاتفك المحمول.

ـ الخط الأرضي؟ هل تقصد هاتف القصر؟

ـ نعم، يا سيدي. لا أعرف من كان، إنه يتحدث الإنجليزية.
ـ شكرًا.
نقرة، ثم سأل ريجيل: «من يتكلم من فضلك؟».
أجاب المتصل: «أنا الرجل الذي يبدو أنك لا تستطيع قتله».
سرت قشعريرة في عمود كيرت ريجيل الفقري. لم يكن يعلم أن فيتزروي أعطى اسمه للرجل الرمادي.
بعد لحظة استجمع فيها شتات نفسه قال: «سيد جينتري، إنه لشرف لي أن أتحدث معك. لقد تابعت مسيرتك وأعتبرك خصمًا له كل التقدير».
ـ الإطراء لن ينفعك.
ـ كنت أقرأ ملفك.
ـ مثير للاهتمام؟
ـ كثيرًا.
ـ حسنًا، اقرأ يا كيرت، لأنني أنوي سحب ملفي من يديك الباردتين الميتتين.
ضحك كيرت ريجيل بصوت عالٍ قبل أن يقول: «ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟».
ـ أردت فقط إجراء مكالمة ودية.
ـ لقد اصطدت كل أنواع الفرائس في حياتي، كبيرها وصغيرها، بما في ذلك عدد غير قليل من البشر. هذه هي المرة الأولى التي أجري فيها محادثة ودية مع فريستي قبل وقت قصير من قتلها.
ـ وأنا كذلك.
كانت هناك وقفة قصيرة، ثم ضحك ريجيل. انتشرت ضحكاته عبر الامتداد المظلم للحديقة الخلفية للقصر. قال: «أوه، أنا فريستك الآن؟».

ـ أنت تعلم أنني قادم من أجلك.

ـ لن تنجح، وإذا تمكنت بطريقة ما من الوصول إلى نورماندي، فقطعًا لن تصل إليَّ.

ـ سنرى.

ـ نعلم أنك في باريس.

ـ باريس؟ عم تتحدث؟ أنا أقف خلفك مباشرة.

قال ريجيل بضحكة خافتة: «أنت رجل مضحك، وهذا يفاجئني». لكنه لم يستطع منع نفسه من النظر إلى الخلف بطرف عينه وإلى الممر الفارغ حول سطح القصر. وأكمل: «عشرات المخبرين يراقبون جميع شركائك المعروفين».

ـ حقًّا؟ لم أكن أعرف.

ـ نعم. لا بُدَّ أنك تنتقل من صديق قديم إلى آخر. أنت ترصد فرق المراقبة الخاصة بي لأنك بارع، لكنك لست بارعًا بما يكفي لتتلاشى. لذلك يجب عليك الابتعاد عن مصدر المساعدة المحتمل. الماء، الماء في كل مكان، لكن لا توجد قطرة واحدة تصلح للشرب.

ـ فخور بنفسك، أليس كذلك؟

ـ ما إن نراك، سننقض على الأرض. لديّ عدد من الأسلحة في باريس يقارب عدد ما لديّ من مراقبين.

ـ محظوظ أنني لست في باريس.

توقف ريجيل مؤقتًا، وتغيرت لهجته عندما عاود الحديث: «أريدك أن تعرف، موت فيليب فيتزروي كان حادثة مؤسفة. كنت بعيدًا في ذلك الوقت. لم يكن ينبغي أن تحدث».

ـ لا ترهق نفسك وتسعى إلى إغوائي باحترافيتك، فهذا لن ينقذك عندما آتي. أنت ولويد كلاكما ميت.

ـ هذا ما تواصل قوله. يجب أن تعلم، لقد استعدت الهاتف الذي أخذه السير دونالد من الحارس. لقد قضينا على مصدر استخباراتك داخل القصر.

لم يقل كورت شيئًا.

ـ يبدو وضعك محبطًا يا صديقي.

ـ صحيح، ربما سأغادر وحسب.. أستسلم.

فكر ريجيل في هذا وقال: «لا أعتقد ذلك. عندما اتجهتَ جنوبًا إلى جنيف، اعتقدتُ أنك ربما تترك المطاردة. لكن لا، أنت صياد مثلي، يجري الأمر في دمك، أليس كذلك؟ لا يمكنك الابتعاد. لديك فريستك.. هدفك، سبب وجودك. دون استهداف رجال مثل لويد وأنا، ستكون روحًا حزينة، حقًا. لن تمشي في الصباح. ستأتي من أجلنا، وستموت في الطريق، يجب أن تعرف هذا. لكنك تفضل أن تقتل على يد فريستك بدلًا من التخلي عن المطاردة».

قال جينتري: «ربما يمكننا إجراء اتفاق بديل».

ابتسم ريجيل وقال: «آه. الآن وصلنا إلى سبب مكالمتك. إذن، ليست مكالمة ودية في النهاية. أنا أنصت يا سيد جينتري».

ـ ستخسر العقد. عندما أكون على قيد الحياة في غضون سبع ساعات، سيعطي أبو بكر صفقة الغاز الطبيعي الخاصة بك لمنافسك، وسيستخدم ضدك كل ما لديه على مجموعة لوران. لا يمكنك تجنب ذلك. لكن إذا سمحت للفتاتين وأمهما بالرحيل، اصْحَبْهُنَّ فقط إلى مكان آمن، عندما آتي غدًا بعد الموعد النهائي، سأقتل لويد، وأتولى عمل عملك نيابة عنك وأعفو عنك.

ـ تعفو عني؟

ـ أعدك.

ـ لطالما تصورتك مفترسًا محدود الفكر، مسلحًا ليس أكثر. لكنك في الحقيقة زميل ذكي، أنا وأنت يمكن أن نكون صديقين في ظروف أخرى.

ـ هل تتودد إليَّ؟

ـ تدفعني إلى الابتسام يا جينتري، لكنك ستجعلني أبتسم أكثر عندما أقف فوق جثتك، تذكار آخر لصندوقي.

ـ يجب أن تفكر في عرضي حقًا.

ـ أنت تبالغ في تقدير نفوذك التفاوضي يا سيدي. سنتواصل معك في غضون ساعة.

كان هناك لحظة صمت. ثم قال جينتري: «فلتتمنَّ ذلك، نم جيدًا سيد ريجيل».

ـ قد أبقى مستيقظًا بعض الوقت. أتوقع بعض الأخبار الجيدة من زملائي في باريس. عمت مساء[1] يا كورت.

ـ إلى اللقاء[2] يا كيرت، أراك قريبًا.

ـ أمر واحد فقط يا سيد جينتري. ثمِّة فضول مهني، لكن لم يكن أنت من كان بكييف، أليس كذلك؟انقطع الخط، وارتعش ريجيل في البردِ الذي بدا وكأنه قد وصل من الساحل، على بعد أربعة كيلو مترات شمالًا.

(1) بالفرنسية في الأصل

(2) بالفرنسية في الأصل.

28

كان المراقب يشعر بالملل، لكنه اعتاد عليه. لقد أمضى اثنتي عشرة ساعة في زاوية الشارع نفسها، واحتسى قهوة الإسبريسو في ثلاثة مقاهٍ مختلفة، أول اثنين على طاولات بالخارج في الصباح المشرق وفي أوقات الظهيرة الباردة الغائمة، ثم أخيرًا في الداخل على طاولة بجوار نافذة، حين عبأ البخار الهواء، وفقد الشارع والرصيف دفأهما.

في التاسعة انتقل إلى سيارته، سيارة سيتروين صغيرة تقف عند عداد بالساعة ظل يطعمه طوال اليوم مثل حيوان أليف جائع.

كان المراقب ماهرًا. ولم يؤثر ملله في مهنته. أدار المحرك من أجل الدفء لكنه لم يُشغِّل الراديو، إذ ربما تلتقط أذناه أي تلميح من طريدته مثلما تفعل عيناه. كان الراديو يسرق من صوابه الحدة اللازمة لالتقاط رجل لم يره من قبل من بين حشد يضم الآلاف.

لم يعرف الصورة الأكبر لهذه المهمة، عرف دوره وحسب. كانت مراقبته ثابتة. وخلافًا لباقي المراقبين الآخرين في تلك المهمة، لم يُثبَّت في مكان معروف، بل حددت حراسته عند نقطة اختناق مزدحمة. كان لديه صورة لرجل، وعليه أن يقضي اليوم في محاولة مطابقة الصورة ثنائية الأبعاد، التي مضى عليها خمسة أو سبعة أعوام، مع هدف حي يتنفس ويتحرك. ومن المحتمل أن الهدف خضع لتدريبات على المراقبة المضادة، ولا شك أنه سيختلط بحشدٍ من شأنه أن يعوق رؤية المراقب.

لكن المراقب ظل متفائلًا. لم تكن هناك طريقة أخرى للعمل، كان يعلم أنه إذا شك أنه سيرى الرجل، فسينتقص هذا من حدة حواسه التي يحتاج إليها في مهمته الصغيرة.

لم يكن المراقب قاتلًا، بل كان فقط عينين مدربتين تدريبًا جيدًا. منذ فترة طويلة كان شرطيًّا في نيس، ثم عمل لفترة في مكافحة التجسس الفرنسي فنان رصيف، تابعًا للروس أو أي شخص حوله في فرق المراقبة النوعية، أدنى درجات سلم التجسس. عمل في الآونة الأخيرة محققًا خاصًّا في ليون، لكنه أصبح الآن رجل المهام الغريبة بالدرجة الأولى، ويعمل لدى ريجيل في باريس.

دائمًا ما تكون هناك حاجة لمراقبة شخص ما في القارة، وعادة ما كان هذا المراقب أحد أفراد الفريق. على الرغم من أنه كان أكبر سنًّا من معظم البقية، لكنه لم يكن قائدًا. كان أفضل من البقية عندما يكون يقظًا، إذ كان سكيرًا دائمًا، فلم يكن الاعتماد عليه لفترة طويلة أمرًا ممكنًا. بالرغم من أنه توقف الليلة عن الشرب في أثناء المهمة.

نظر المراقب إلى الصورة التي في يده مرة أخرى، للمرة الألف. لم يشغله ما اقترفه صاحب الوجه أو المصير الذي ينتظره. لم يكن الوجه رجلًا، بل كان مجرد هدف. لم يكن الوجه حيًّا، لم يتنفس أو يفكر أو يشعر أو يؤذِ أو يحتاج أو يحب. كان الوجه هدفًا فحسب، وليس إنسانًا.

إن التعرف إلى الهدف في الميدان له مكافأة من ريجيل، فلم يجلب ذرة من الأسف أو الذنب للمراقب.

بعد الواحدة والنصف بقليل، تبول المراقب في زجاجة بلاستيكية دون أن يفوت أي قطرة، وأيضًا دون أن يرمش رمشًا على حماقة تصرفاته بين الأشخاص ذوي الهيئة الحسنة الذين يمرون فجأة على بعد أقدام منه في بوليفارد سان جيرمان. أحكم غلق الغطاء وألقى الزجاجة الدافئة على أرضية السيارة، ونظر إلى أعلى حين ظهر رجل في ضوء مصباح الشارع الخافت. سار مع مجموعة أخرى من المارة، لكنه جذب انتباه المراقب بطريقة ما.

كان أصغر سنًّا من الآخرين، ولم يكن مقترنًا بأحد كما كانوا، تعارضت بذلته قليلًا مع ملابسهم الأقل رسمية. كان على بعد خمسة وعشرين مترًا عندما لاحظه الجالس في السيارة السيتروين.

كلما اقترب اتضحت صورته، النظارة والرأس الحليق وملامح وجهه العامة.

لم يحرك المراقب أي عضلة، بل نظر فقط إلى الصورة وقد طُويت وتغضنت وأصبحت رطبة في يده، ثم عاد إلى الهيئة ثلاثية الأبعاد التي تقترب منه في ضباب المساء.

ربما. على بعد خمسة عشر مترًا، حدَّق المراقب، ظنَّ أنه لاحظ عرجًا خفيفًا في الخطوة. نعم، هذا الرجل كان يفضل ساقه اليمنى. سبق أن قال البريطاني الذي يتحدث الفرنسية ويرسل التحديثات طوال اليوم، إن الهدف قد يكون مصابًا في إحدى فخذيه.

نعم. عندما انتقل الهدف إلى أقرب نقطة له من السيارة السيتروين، التي لا تبعد أكثر من خمسة أمتار، لاحظ المراقب أمرين في وجه الرجل، مما أكسبه يقينًا بأن اختياره لنقطة المراقبة المزدحمة هذه، ووقوفه الذي استمر اثنتي عشرة ساعة قد أتيا بثمارهما. كان خد الرجل يجفل مع كل خطوة، بل كلما لامست قدمه اليمنى الأرض.

وهناك أيضًا عيناه؛ كان المراقب ماهرًا ومدربًا، حيث رأى نظرات الشاب المندفعة وهو يمشي. وفي الوقت الذي صورت لغة جسده رجلًا يتجول عبر الضفة اليسرى دون اكتراث بالعالم، لم تكف عيناه عن الحركة.

هذا الرجل يراقب المراقبين، وما إن لاحظ فنان الرصيف في السيتروين، قطع المراقبة، ونظر إلى يديه حتى يجتاز الرجل تمامًا.

انتظر عدة ثوانٍ ثم نظر عبر مرآة الرؤية الخلفية وقلبه ينبض بشدة، لم يلتفت أو يرفع كتفيه أو حتى يثنِ رقبته لفعل ذلك. فقط رفع عينيه

والتقط الرجل الذي يرتدي البذلة في أثناء تقدمه غربًا في شارع سان جيرمان.

أدار المراقب سيارته إذ يضغط على زر في سماعة أذنه. بعد صوت تنبيه يشير إلى إجراء مكالمة سمع: «هنا الفني، تفضل».

كان المراقب مدربًا وبارعًا، لكنه لم يستطع إخفاء الحماسة في صوته، فهذا ما عاش من أجله، أكثر حتى من الأموال التي اكتسبها من باقي المهام.

قال: «أيها الفني، هنا ثلاثة وستون». سكت سكتة موجزة للغاية وأتبع: «إنه هنا. يتحرك شرقًا سيرًا على قدميه».

لا يحتاج إلى قول المزيد. سيحدد الفني موقعه على **(GPS)**.

أثارت مثل هذه اللحظات المراقب، وأبعدته عن الشراب حتى اكتمال مهمته. لقد أبلى بلاءً حسنًا، وكان يعرف هذا. والآن سيعود إلى المنزل ويحتفل مع دورق نبيذ. كان يحتفل بالطريقة نفسها التي يعمل بها وحيدًا.

***

كانت المكالمة تبث عبر شبكة يشترك في الاستماع إليها جميع فرق القتل الخمسة في باريس في وقت واحد. كان هذا خطأً من جانب الفني، إذ رسخ الخصومة بين المتنافسين، ولم يسمح بوجود فرقٍ احتياطية أو تغطية لطرق الهروب. لكن الشاب البريطاني لم يستطعْ مقاومة ذلك، لقد مر نصف يوم دون رؤية مؤكدة للهدف، وكان ذهابه إلى باريس على الإطلاق تنبُّؤًا فحسب، لذلك عندما تم حُددت الهوية، أرسل كل رجل يحمل مسدسًا صوب موقعه.

منذ اختفاء الهدف في جنيف يجاهد الفني لئلا يفتضح ذعره الشديد أمام لويد أو ريجيل. لقد كان يدير عمليات، وعمليات قذرة، وعمليات مشبوهة، وأشرف على إمدادات العملاء الخطرين، ولكن لم يكن يعرض نفسه لأي خطر. إنها المرة الأولى التي يُعد فيها رؤساؤه

خطة يكون الرجل المطارد فيها قاتلًا خارقًا، يعرف جيدًا أين مركز العمليات البغيض وكيفية الوصول إليه. لقد مُنح الرجل الشرير دعوة ذهبية للحضور إلى الموقع الفعلي للفني، وكان ذلك محض غباء. ومع ذلك، تحتم على الرجل ذي ذيل الحصان الجالس أمام طاولة الأجهزة الضخمة أن يعترف، أن هذا الخوف دفعه للتركيز الشديد في المسألة المطروحة أمامه.

تحفز الفني تحفزًا شخصيًا للإمساك بهذا الوغد قبل وصوله إلى القصر، ولهذا السبب كان يبث الإحداثيات الحالية للهدف بمجرد وصول التأكيد.

فجأة ظهر لويد خلفه، في الوقت الذي يعترف لنفسه بأنه اتخذ خطوة غبية. كاد يقفز في مكانه حين اقترب منه رئيسه، تصيبه العملية كلها بالتوتر.

ـ سمع ريجيل عبر الراديو! هل حصلنا عليه؟

ـ رصده أحد المراقبين في شارع سان جيرمان، وهو محارب قديم من الدرجة الأولى، في نقطة الاختناق. كان احتمالًا ضعيفًا في الحقيقة، لا أستطيع أن أقول من قائمة شركائه المعروفين إلى أين سيذهب بحق الجحيم.

ـ لن نفقده، أليس كذلك؟

ـ سأرسل المزيد من المراقبين إلى المنطقة. ليس الكثير، من المؤكد أن الرجل الرمادي سيرصد أي شخص غير محترف.

ـ مفهوم. أي فريق قتل سترسله لملاحقته؟

تردد الفني محرجًا. بالتأكيد سيغضب لويد حين يعلم أنهم جميعًا في طريقهم. ولكن قبل أن يتمكن الفني من الإجابة، قال لويد: «تبًّا!، يجب أن ينتهي الأمر الآن. أرسل كل سلاح لديك وراء هذا اللقيط. من يعبأ بحق السماء إذا ساءت الأوضاع، يجب أن نمسك به هناك».

تنفس الفني الصعداء مما أدى إلى تفريغ رئتيه وقال على الفور: «أجل يا سيدي».

***

كان البوتسوانيون والكازاخيون هم الأقرب؛ ركضوا من أطراف مختلفة في الحي اللاتيني، وقد أنزلوا أذرعهم إلى الأسفل بجانبهم لكيلا تنفتح معاطفهم في أثناء الركض فتُكشف أسلحتهم. ثبتوا أعينهم على العقبة التالية أمامهم وهم ينصتون بتركيز لسماعات الراديو التي في آذانهم.

أرسل الفني آخر مكان معروف للهدف. لقد أصبح خارج مجال رؤية المراقب الأول الآن، لكن فناني الأرصفة كانوا يقتربون، وستُنقل معلوماتهم.

كان البوتسوانيون خمسة رجال، يحملون أسلحة نارية من عيار 32، وهي رصاصة ضعيفة نسبيًّا، لكنهم عززوا قوتهم النارية المحدودة بأساليبهم القتالية. لقد تدرب هؤلاء الرجال على تنفيذ ثلاث جولات من الرصاص مرة واحدة تسمى مثقاب موزمبيق: زوج من الطلقات السريعة على الصدر ثم الثالثة رصاصة الرحمة في الجبهة. جاء المصطلح والتكتيك من القتال في موزمبيق، عندما اكتشف جندي روديسي أن مسدسه من طراز كاليبر الصغير لا يكفي لقتل شخص إفريقي بطلقات في صدره وحسب، لذلك أضاف تسديدة في الرأس لإضفاء المزيد من التأثير.

علَّق الكازاخيون الأربعة تحت معاطفهم الشتوية مسدسات من طراز إنجرام آلية صغيرة، بكعوب معدنية قابلة للطي. وأثار ركضهم انتباه أحد الشرطيين فناداهم إذ يركضون عبر الشارع، لكنه حسبهم سياحًا أجانب وأشار لهم أن يبطئوا.

حمل أحد أعضاء كل فرقة قتل أيضًا كاميرا فيديو رقمية متصلة عبر البلوتوث بهواتفهم المحمولة، هكذا يثبتون لمن في مركز القيادة

أنهم الوحدة المسؤولة عن إنهاء الهدف والفريق الذي يستحق الجائزة الكبرى.

في النهاية ما زال الأمر مسابقة.

علم كل فريق من سماعات الأذن الخاصة بهم أن الفريق الآخر يقترب من آخر مكان معروف للهدف في الاتجاه المعاكس. كان هذا يدفعهم للإسراع من أجل محاصرة الهدف قبل أن يختفي. كانت أكثر من مطاردة، لقد كانت منافسة، وبالنسبة لهذه الفرق، لا يقل الفخر المهني قدرًا عن الربح المادي.

«كل العناصر، الفني معكم. لدينا مراقبان على بعد ثلاث بنايات شرقًا. لم يبلغ أي من المراقبين عن أي علامات على الهدف. ربما دخل إلى فندق أو مقهى في الشارع، أو اتجه جنوبًا إلى الحي اللاتيني، أو شمالًا باتجاه كوبري 9 لعبور النهر».

أبطأ الفريقان اللذان اقتربا من اتجاهين متعاكسين، وتشاوروا فيما بينهما بعد ورود آخر معلومات من الفني. ثم واصل كلاهما الركض في شارع سان جيرمان حيث اتجه البوتسوانيون شرقًا والكازاخيون غربًا. انتشرا ليغطيا جانبي الشارع في مجموعات من شخصين أو ثلاثة، يبحث كل فريق صغير من القتلة في المداخل والأزقة والمقاهي والفنادق بطول الطريق.

***

ركض سونج بارك كيم على أسطح المباني، واجتاز آخر موقع شوهدت فيه فريسته، ثم عادت الحياة إلى سماعة أذنه. عرف الكوري من أصوات التنبيه المميزة أن الإرسال لم يكن مفتوحًا لباقي الفرق والمراقبين الآخرين. كان هو الوحيد الذي يتلقى الرسالة.

ـ من الفني إلى بانشي1 هل تسمعني؟

ـ أسمعك.

ـ اذهب إلى الشارع وسأرشدك إليه. سيكشف باقي الفرق الأخرى والمراقبين ويحاول الابتعاد. سيجبرونه على الفرار ولن يتوقع قاتلًا واحدًا. سأضعك في موقع يسمح لك بإيقافه.

ـ نعم.

صعد كيم إلى حافة سطح مبنى سكني من ستة طوابق، وهبط بسلاسة على حافة النافذة. أنزل جسده ووصل إلى ماسورة الصرف، وقفز فوقها، كان الأنبوب ملتصقًا بشكل سيئ بالجدار، لذلك استخدمه فقط ليشق طريقه كمخرج طوارئ، وتبعه لأسفل، وقفز الأقدام القليلة المتبقية على الأرض، ستة طوابق من الهبوط في أقل من دقيقة.

ـ بانشي 1 في الشارع أيها الفني، أرشدني إلى الهدف.

ـ هناك فريقان أقرب منك يا بانشي 1. نعتقد أنه انعطف إلى شارع بوسي، ليحتمي بالحشود. يمكنك أن تتحرك مسافة بنايتين إلى الشمال، وحينها ستقطع طريقه إذا لم يكشفك.

قال كيم: «حسنًا». لكنه لم ينوِ اتباع هذا الاتجاه.

شعر الكوري أنه يستطيع قراءة أفكار الرجل الرمادي. تعرض كيم للمطاردة عدة مرات، ومن خبرته شعر أن بوسعه التنبؤ بكل يخطوها هذا الرجل المطارد. كيم سيلاحظ إذا كانت فرق العملاء الأجانب تلاحقه عبر وسط باريس ليلة السبت، وكذلك الرجل الرمادي. إذا ثُبِّت عشرات المراقبين في طريقه، فسيعلم كيم ذلك على الفور، وكذلك الرجل الرمادي. قد لا يتعرف إلى كل خصم، لكن الفني ألقى العديد من الجثث في العملية، عميل بارع كالرجل الرمادي لا بُدَّ أن يدرك أنه يواجه عملية قتل صريحة وكاملة، وأن عليه أن يودع كل محطات وقوفه، وقواعد الاشتباك العادية وضبط النفس.

لن يكون بمأمن وسط حشد من الناس، فحتمًا سينتهز المسلحون الذين رآهم الرجل الرمادي أول فرصة لتدمير هدفهم، وستكون الأضواء الساطعة والمارة عائقًا للرجل المطارد أكثر من كونهم ساترًا.

نعم، كان كيم يشعر بما يشعر به الرجل الرمادي الآن، وقد سمح لهذا التعاطف أن يوجهه بدلًا من توجيهات الفني. هذا الاندماج العقلي بين كيم الصياد والرجل الرمادي المطارد قاد القاتل الكوري عبر الليل الضبابي، على بعد ثلاث بنايات شرقًا، إلى زقاق مظلم يبعد مسافة نصف بناية من الضوضاء والأضواء وأسراب رواد المطاعم والمحتفلين. كان يعلم أن نهر السين يقع على بعد مائة متر فقط إلى الشمال، ما يعني أنه إذا اكتشف الرجل الرمادي المراقبة الشديدة، فسيضطر إلى الالتفاف جنوبًا ليذوب في الليل؛ لن يوفر له الشمال سوى جسر أو اثنين، نقاط الاختناق الطبيعية التي سيتجنبها بأي ثمن.

وجد سونج بارك كيم أظلم بقعة في الزقاق الصغير، على بعد خمسة وعشرين مترًا شمال شارع سان جيرمان، وعشرين مترًا جنوب شارع دي بوسي. يمكنه أن يتحرك في أي من الاتجاهين في ثوانٍ إذا رصد المراقبون الهدف في مكان قريب. لكن كيم شعر أن هذا الزقاق الصغير سيكون موقع مواجهته الأخيرة مع خصمه.

على بعد أمتار قليلة من موقع اختبائه المظلم ثمة مطاعم ونوادٍ ليلية تعج بالرواد. بالإضافة إلى فرق قتل متنافسة في مكان قريب. لم يرغب في لفت الانتباه إلى ما يفعله باستخدام سلاح ناري، لذلك ترك رشاش (MP7) في حقيبة الظهر على كتفيه وسحب سكينه القابل للطي من جيبه الأمامي، وفتح الشفرة السوداء غير اللامعة، واختبأ في الظلام منتظرًا فريسته.

***

شعر كورت جينتري أن بذلته السوداء تتبلل من العرق الذي تدفق على ظهره بينما يمشي شرقًا في شارع دي بوسي. تتأرجح في يده اليمنى مظلته مع كل خطوة، وقد قاوم رغبته في استخدامها كعصا لأن قدمه كانت تؤلمه من التمزقات التي أصيب بها في بودابست قبل يومٍ.

لكن لم يكن المشي هو ما جعله يتعرق، بل كانت عيناه اللتان ترصدان الشارع أمامه. على بعد ثلاثين ياردة، رأى زوجين شابين تكوما على مقعد واندمجا في الحديث، لكنهما يراقبان الرجال من المارة. رأى كورت شخصًا أصلع في مثل سنه فقرر أن يتبعه؛ أبقى عينيه على الرجل ليتبين ما إذا كان مظهره مثيرًا للاهتمام، فيتضح حينها لجينتري هل رصدته فرق المراقبة الأخرى في المنطقة وتعرفت إليه عبر الراديو.

فور تحديق العاشقين الصغيرين إلى الرجل الأصلع لبضع ثوان، بدا أن أحدهما يتحدث مع الآخر عنه، ثم تحركت أعينهما، راضيين أنه لم يكن هدف مراقبتهما.

علم كورت على الفور أنه كُشِف. لقد رأى ما لا يقل عن عشرة مراقبين حتى الآن وكان واثقًا إلَى حد ما بأنه أفلت منهم جميعًا، لكن لا بُدَّ أن هناك شخصًا واحدًا لم يتجاوزه، أو بعض العملاء الثابتين في نافذة مظلمة أو سيارة في الشارع أو في مكان ما لم يتمكن جينتري من تحديده، وقد أرسل هذا العميل صورة كورت لكل مراقب وقاتل في المدينة.

وبسرعة، ألقى كورت نظرة خاطفة إلى الوراء. تحرك بسرعة ثلاثة رجال ذوو بشرة داكنة وراحوا ينظرون عبر نافذة متجر لا يبعد أكثر من عشرين مترًا خلفه. في الناحية الأخرى من الشارع كان هناك اثنان آخران. كلهم ضمن مجموعة واحدة، وكانوا يفحصون الجانب الشمالي من الشارع، وينظرون إلى طاولات مليئة بالرواد أمام أحد المقاهي.

تبًّا!

استدار كورت إلى اليسار ليهبط ممرًا صغيرًا قبالة شارع لانسايان كوميدي وتتبعه في الظلام. انبعث من نهايته ضوء خافت في ممر هادئ على بعد عشرين ياردة.

سيتشتت المراقبون في الطريق الرئيسي للضفة اليسرى ما داموا لم يعرفوا أنه كشف مراقبتهم. سار كورت في الظلام، وعيناه على الضوء أمامه، يخدش طرف مظلته الأحجار المبللة، تردد صدى الضوضاء في الممر الأسود المستتر.

احتاج كورت أن يستقل سيارة أجرة إلى سان لازار ليأخذ سيارته المرسيدس ويتجه إلى بايو. لم يختلف توقفه في باريس عن توقفه في بودابست بعد ظهر أمس، وكذلك في جواردا الليلة الماضية، كلها محطات غير مجدية. على الأقل هذه المرة ابتعد دون أن يصاب بأذى، وكان هذا مهمًا، مع أنه يحتاج بالفعل إلى مزيد من المساعدة قبل...

ثمة وميض من الحركة في الظلام القريب، سرعان ما ظهرت هيئة شخص على يساره. وقبل أي رد فعل خاطف من كورت، شعر بمزيدٍ من الحركة، ذراع تتأرجح نحوه. حرك جينتري ذراعه اليمنى لتفاديها، لكنه كان بطيئًا للغاية.

ولم يكن قط بطيئًا للغاية.

شعر كورت جينتري بطعنة السكين في بطنه إذ تجزّ اللحم الناعم فوق عظم الفخذ الأيسر.

29

في الثانية صباحًا، تدفق الضوء في غرفة النوم القاتمة بالطابق الثاني حيث استلقى السير دونالد مستيقظًا. كان باقي أفراد الأسرة قد انتقلوا إلى غرفته لكي يكتفي حارس واحد فقط بمراقبتهم. نامت كلير نومًا متقطعًا على يسار جدها، بينما غطت كيت في نوم عميق على يمينه. كانت إليز مخدرة لدرجة لم يتضح معها إذا كانت هنا أم لا، إذ استلقت على كرسي ومتكأ في الجانب الآخر من الغرفة.

رأى دونالد ظل الحارس الأسكتلندي الذي يدعى ماكسبادن. لقد اعتقد أنه جاء ليضربه سرًا، تساءل: هل بإمكانه تحمل المزيد؟ مشى ماكسبادن إلى الفراش وتجاهل الفتاتين الصغيرتين، وهمس لفيتزروي: «سأعقد معك صفقة، أيها الرجل العجوز. هذا هاتف، أخذته من إحدى حقائب مجموعة إيفان. كلهم في مراكز القتال الآن. أنا الوحيد في الطابق».

قال فيتزروي: «اغرب عن وجهي. أحاول النوم».

ـ لديك متسع من الوقت لهذا لو متّ صباحًا».

ـ ألا تعتقد أن بإمكاني أن أشم رائحة فخ؟ لماذا قد يعطيني وغد مثلك هاتفًا ملطخًا بالدماء؟

ـ لأن.. لأنني أريد بعض التقدير.. عندما ينتهي كل هذا.

أدار فيتزروي رأسه الضخم وضغط به على الوسادة ليستمع جيدًا إلى الرجل الذي يقف فوقه. وسأله: «أي نوع من التقدير؟».

فأجابه الأسكتلندي: «الرجل الرمادي، سمعت أنه من نفذ عملية كييف. إذا نفذها، ونفذ نصف العمليات الأخرى التي يقولون إنه نفذها، ولو كان تخلص من الفريق في براغ وبودابست والفرق في سويسرا، فيا للجحيم، لو فقط وصل هنا وكرر ما فعله، سأرمي سلاحي،

سأهرب، لن أحارب ذلك اللقيط بارد القلب. لديّ بضعة أمور أعيش من أجلها، حقًّا، هل تفهمني؟ أجل، إذا جاء سأهرب، ولا أريد أن يطاردني دونالد فيتزروي المجروح أو كلب حراسته المجنون، هل تفهمني؟».

أعطى الأسكتلندي الهاتف لفيتزروي فأخذه.

سأل فيتزروي: «هل أنت صادق؟».

ـ قد تموت في الصباح سيد دونالد. أنا لا أخاطر بنفسي كثيرًا، ولكن إذا نجحت، فتذكر أن إيوان ماكسبادن هو من ساعدك.

ـ سأفعل ذلك يا إيوان.

ـ اتصل بكلبك، وأخبره إذا نجح، فأنا الرجل ذو القميص الأخضر والسروال الأسود. سأتخلى عن سلاحي. لا داعي للقلق بشأن ذلك.

ـ أيها الفتى الطيب، ماكسبادن.

تراجع الأسكتلندي إلى الظلام. وظهر عمود الضوء من جديد ثم ضاق وانطفأ خلفه.

***

غُرز السكين أعمق في معدة جينتري. كان الألم مروعًا.

ثمة ضعف في الركبة، وارتخاء في الأمعاء. هناك خطب ما لم يفهمه جينتري، لذلك نظر إلى الأسفل، ورأى أنه أمسك معصم المهاجم بخطاف المظلة. سُحب جينتري إلى أسفل وبعيدًا على عمود المظلة، لكن لم يقوَ على سحب السكين من جسده، إلا أن جهده على الأقل منع النصل من الغوص أكثر من بضع بوصات. مؤلم، مؤلم بشكل رهيب، لكنه أفضل بكثير من حفر السكين حتى المقبض أو ما هو أسوأ: تقطيع أمعائه كشرائح السمك.

أنزل كورت يده اليمنى بكل قوته على المظلة. ومد يسراه نحو المهاجم. لكمه في صدره بضعف، لقلة القوة الاحتياطية بعد مجهود

ذراعه اليمنى والألم العميق في بطنه. بادله القاتل اللكمات، وحاول أن يضربه برأسه، لكن ابتعد عنه كورت في الوقت المناسب.

وصل كورت إلى حزام خصره، وأمسك بمسدس جلوك بيده اليسرى الضعيفة، لكنه سحبه على أي حال من حزامه، ضربه القاتل. رن صوت السلاح المصنوع من الفولاذ والبوليمر بالحصى، واختفى مجلجلًا في الظلام.

تعارك الاثنان بأيديهما، وتصدى المهاجم في الظلام لمحاولة اقتلاع عينه، بينما شتت جينتري انتباهه بضربة في حلقه من شأنها أن تقتله حتمًا على الرغم من أنه ما زال مطعونًا بالعمود المعدني الصلب.

تخلى المهاجم عن محاولته سحب السكين إلى عظمة الصدر أو دفعها إلى عمقٍ؛ منعه خطاف المظلة على ذراعه من إنجاز أي من المهمتين. وبدلًا من ذلك، شق النصل لأسفل حتى استقر على عظم الورك، وظل يحفر فيه.

خنق جينتري صرخته، كان على وشك أن يفقد عقله من الألم.

لكنه يعرف أن المزيد من القتلة كانوا على بعد ياردات. قد تختفي أقل فرصة للنجاة من السكين المحشور فيه والرجل الذي يتلاعب بها، إذا سمع صرخاته المزيد من الرجال العازمين على قتله.

غير كورت خطته بنفسه. دفع ساقيه إلى الأمام، ودفع صدره بالرجل الآسيوي الأصغر الذي أصبح يراه بوضوح الآن. لقد صدمه في الحائط، ما أدى إلى وخز السكين بداخله لنحو بوصة أعمق.

أعقب كورت ذلك بضربة رأس صدمت جبهتي الرجلين معًا بصوت فرقعة أعلى من أي صوت آخر في الزقاق منذ بدء القتال. ما زالت المظلة تقيد يد الآسيوي اليمنى. دفع كورت مرة أخرى بجسده، وتعثر الآسيوي إلى الوراء بطول الطريق عبر الزقاق واصطدم بالجدار الآخر. كان نصل السكين ما زال محشورًا في كورت، لذلك تحرك مع مهاجمه. الضوء أفضل هنا، وبالرغم من الألم الذي هدد بتغييب عقله،

رأى كورت أربطة حقيبة الظهر فأدرك أن الرجل يحاول الآن السيطرة على شيء ما خلفه في الحقيبة بيده الحرة.

أمسك كورت معصم الكوري بيده فقط، ودفعه مرة أخرى ليصطدم بجدار من الطوب.

سأله كورت بصوت يرتعش من الألم والإرهاق: «ماذا لديك؟ ماذا يوجد في الحقيبة؟». كان هناك ما يكفي من الضوء ليتبادل الاثنان النظر على جانب الزقاق المستتر. لم ينقطع التواصل البصري على الرغم من ارتعاش جفوني الرجلين مع بذل الجهد. اندفع أحدهما إلى الأمام بينما عاد الآخر إلى الخلف. وكرر: «ماذا يوجد في الحقيبة؟».

انتزع جينتري المظلة فأفقد الآسيوي توازنه بسرعة، واستغل ذلك ليصل خلف الرجل إلى الحقيبة المضغوطة على الحائط. كان على الأمريكي أن يشد بطنه لفعل

ذلك، فتحشرج صوته وهو يئن من الألم.

أدار الآسيوي السكين. أدى الالتواء لفتح الجرح بعمق بوصتين، وشعر جينتري بالدم يجري بسلاسة بين فخذيه، وإلى الأسفل حتى باطن الساقين.

آه!.

كانت أقل من صرخة، لكنها رغم ذلك ترددت في الزقاق. سيطر كورت على الحقيبة الآن ووضع يده على السحَّاب. ضرب كيم يده بجانب رأسه، لكن فوجئ القاتل بضربة رأس أخرى من جينتري، وسرعان ما فتح كورت الجزء العلوي من حقيبة الظهر ومد يده اليسرى إلى الداخل.

سأل عندما بدأت الدموع تنهمر على وجهه: «ما هذا؟ ما هذا؟». ليقطعها تناثر اللعاب من فمه، إذ ينشج وهو يتكلم. تطاير اللعاب في وجه مهاجمه، إذ يقول: «هذا ما تريد؟ هذا ما تبحث عنه حقًا؟».

سحب كورت من الحقيبة كعب مسدس آلي أسود صغير، وحدق إلى الخوف الجديد في عيني خصمه. حاول كيم العودة إلى الوراء، ومد يده ليمسك بكاتم صوت المسدس، ثم ضغط بقوة على مقبض السكين، وحاول كورت التراجع عن النصل، لكنه لم يستطع، فغُرِز ملليمترًا آخر في أحشائه.

أنزل كورت إصبعه على الزناد وأطلق النار من الرشاش **(MP7)** . ترك كيم مفتاح محدد إطلاق النار في وضع شبه تلقائي، تمامًا كما يفعل جينتري، صوب فوهته نحو جدار من الطوب خلف كيم، واخترق الرصاص البناء، فتناثر الحطام حولهما. سحب جينتري الزناد بأقصى سرعة. تسبب اشتعال كل خرطوشة في الفجوة إلى ارتدادها، مما جعل جسد كورت يرتعش، وأدى ذلك إلى نهش السكين لبقعة جديدة من اللحم والعظام في أمعائه.

ثلاث رصاصات، خمس رصاصات، عشر رصاصات، عشرون رصاصة. صرخ كيم في معاناة حتى ترك كاتم صوت السلاح الذي تفحمت فوهته تقريبًا من حرارة إطلاق النار. لف يده الملسوعة حول اليد التي كانت تحمل السكين، يحاول بكلتا قبضتيه وبكل قوته دفع النصل دفعة أخيرة سريعة وهائلة حتى العمود الفقري للرجل الرمادي.

تدفق دم الأمريكي على أصابعه المحروقة.

أمسك جينتري الرشاش الفارغ بحركة سريعة، وضرب وجه كيم بفوهته الساخنة فكسر أنفه.

سقط كلا الرجلين على الحصى، وانقطعت علاقتهما أخيرًا.

استلقى كيم على ظهره، ورأسه على الجدار المليء بالثقوب، وتدفق الدم من أنفه، ويده المحترقة في حضنه، وصدره يئن من الإجهاد. استلقى جينتري على جانبه في وسط الزقاق، وصدره يئن أيضًا، بينما يبرز المقبض الأسود للسكين السوداء بشكل فاضح من أسفل بطنه.

حاول كورت سحب السكين، وصرخ في أثناء ذلك. نهض الآسيوي على ركبتيه بعدما أنهكه الارتجاج وصدمه، وزحف محمومًا عبر الحجارة الباردة ليهجم عليه. قفز في الهواء على ارتفاع خمس أقدام في محاولة يائسة لوضع يده على السكين قبل أن يخرجها الرجل الرمادي من بطنه.

قبل لحظة من هبوطه على هدفه، ظهر الطول الكامل لنصل السكين السوداء في الضوء الخافت، زلِق ومبلل بالدم. شق به كورت حلق الآسيوي ذي العينين الواسعتين، فتدفق الدم من أحد شرايينه.

انسحق سونج بارك كيم في الزقاق ومات في ثوانٍ، واستقر جذعه السفلي فوق جسد الرجل الرمادي.

ألقى جينتري السكين على الحصى، ودفع عنه ساقي الرجل الميت اللتين لا تزالان تتشنجان. تدحرجت الجثة بشكل مهين على ظهرها حتى توقفت حركتها. حل كورت ربطة عنقه بيد واحدة ولفها على هيئة كرة. أخذ نفسًا عميقًا ليثبّت نفسه، ثم ضغط الكرة إلى أسفل في الثقب الموجود في بطنه. نزل الدم على قميصه الأبيض على الرصيف.

صرخ: «يا إلهي!». بينما اختفى وجهه الملتوي ألمًا خلف الدموع والبصق والمخاط. شعر بالغثيان من شدة الألم، لكنه أخمده بالتركيز على عمله.

في العادة كان حريصًا على عدم ترك أثر لحمضه النووي، لكنه الآن لم ينشغل بالأمر.

سيحتاج هذا إلى مغطس من مادة التبييض، وطاقم تنظيف مكون من خمسة أفراد، ويوم كامل لتطهير هذا المشهد، ولم يكن لدى كورت أي شيء من هذا.

قلل ضغط رابطة العنق المحشوّة من شعوره بالألم عندما ثنى عضلاته، لولاها ما استطاع الوقوف. لكنه نهض وتعثر، واستقر على حائط الزقاق، وراح يمشي. سمع خلفه أصواتًا. انتبه المارة لضجيج

المشاجرة. سيحضر كلٌّ من الشرطة والقتلة هنا في ثوانٍ؛ لذا تعثر عند الزاوية متجهًا إلى ممر التسوق.

كانت المتاجر مغلقة طوال الليل، ولم يكن هناك متسوقون أمام الواجهات. ترنح بجسده المتهدل ووجهه الشاحب بعيدًا عن عربدة الدم خلفه. انتقل شمالًا في الليل البارد، ودمه يسيل من ساقه ويقطر على حجارة الرصف عند قدميه.

***

بعد ثلاثين ثانية، شق أحد البوتسوانيين طريقه وسط الحشد المذعور ووجد جثة الكوري في الزقاق المظلم، بدا كأنه عرض رعب دام، في شعاع الضوء المنبعث من كشاف إضاءة القاتل الإفريقي، الذي اتصل بالفني:

أخبره: «يوجد رجل ميت هنا. إنه آسيوي. لقد نُحِر تقريبًا». وقف لويد وريجيل وراء الفني بينما يستمعان لحديث القاتل البوتسواني بإنجليزية ذات لكنة مميزة عبر مكبرات الصوت. دخل السيد فيليكس الغرفة ووقف في الظل يراقب باهتمام.

أدار الفني مفتاحًا في صفوف الإلكترونيات الخاص به أمامه وقال: «بانشي 1 هل تسمعني؟ بانشي 1، هل تسمعني؟».

اختلطت الأصوات في السماعة، فبدا الأمل على لويد وريجيل.

قال صوت إفريقي ساخر: «لا يمكنه الوصول إلى الهاتف الآن، لا تكلف نفسك عناء ترك رسالة». من الواضح أن البوتسواني قد سحب الراديو من الكوري الميت وتحدث من خلاله.

قال ريجيل: «كان الكوري أفضل رجل لدينا في هذه المهمة. ستغضب منظمته لفقدانه في هذه العملية».

انفجر لويد قائلًا: «تبًّا لهم! كان عليهم أن يرسلوا إلينا شخصًا يمكنه إكمال المهمة. عندما قدموا لنا رجلًا واحدًا، عرفت أنهم لم يشاركوا في المهمة بإخلاص».

ـ أنت أحمق يا لويد. هل لديك أي فكرة عما فعله ذلك القاتل في حياته المهنية؟ـ بالتأكيد. لقد ترك بقعة دهنية في أحد أزقة باريس. الباقي لا يهمني.

عندها فقط عاد القاتل البوتسواني عبر مكبرات الصوت. وقال:

«هناك مسار دم يقود إلى الشمال. سنتبعه. سنعثر عليه».

قال ريجيل: «كما ترى لقد أدى بانشي 1 مهمته».

بعد ثلاث دقائق، جاء أحد المراقبين عبر الشبكة. قال: «أربعة وخمسون للفني».

ـ تحدث يا أربعة وخمسون.

ـ أنا في الطابق الرابع بالقرب من ميدان سان ميشيل، أعتقد أنني رصدت الهدف على الكاميرا. يمكنني إرسالها إليك للتحقق.

استغرق الأمر عشر ثوان لإجراء الاتصال. عندما دبت الحياة في شاشة البلازما في غرفة التحكم، سطعت أضواء باريس مما أدى إلى ظهور صورة ظلية لكاتدرائية نوتردام. كان نهر السين شريطًا لامعًا يشطر المدينة. لا يبدو أن الكاميرا التقطت وجهًا محددًا.

صاح ريجيل بحس الصياد: «أين هو؟». وقد أصابته المطاردة بالتوحش الآن، باحثًا بشكل محموم عن طريدته. وأكمل: «أربعة وخمسون، قرّب الصورة على الهدف!».

قال: «حسنًا، سيدي[1]». كُبرت الصورة عند الكوبري التاسع الذي يعبر النهر إلى الكاتدرائية. شخص وحيد يرتدي بذلة دكناء يتعثر ويعرج ويتوقف وينحني في منتصف الجسر. من الواضح أن الرجل أصيب، وهو يفر، يحاول العبور من الضفة اليسرى إلى إيل دو سيتي، الجزيرة الصغيرة في وسط نهر السين التي تستقر عليها كاتدرائية نوتردام.

صاح لويد بحماسة: «انظر إليه لقد فقد قوته! من قريب منه؟».

---

(1) بالفرنسية في الأصل.

أجاب الفني قبل أن ينتهي لويد من طرح السؤال: «الكازاخيون على بعد ثلاثين ثانية. ستراهم الآن يقتربون من الجسر من الجنوب. البوتسوانيون قريبون من ورائهم، والبوليفيون شمال نهر السين. لا يزال السريلانكيون على بعد عشر دقائق غربًا».

اتسعت صورة الفيديو بما يكفي لرؤية المباني على جانبي «كواي دي سان أوجوستين»، طريق الضفة اليسرى الذي يطل على نهر السين.

انطلق عدة رجال بطول الطريق، وانعطفوا يمينًا نحو الجسر.

انزلق أحدهم على الأحجار المبللة وسقط، لكن الآخرين ثبّتوا أقدامهم وتسابقوا نحو الجسر التاسع.

أعلن ريجيل منتصرًا: «انتهى الأمر! قل لهم أن يقضوا عليه، وأن يضعوا الجثة في السيارة ويرجعوا إلى مهبط طائرات الهليكوبتر. سننقلها إلى هنا حتى يراها السيد فيليكس عن قرب».

قال فيليكس وهو يقف مثل تمثال خلف الرجال المتحركين أمام أجهزة المراقبة: «سيكون ذلك كافيًا يا سيد ريجيل، شكرًا لك».

ثُبّتت كاميرا المراقب مرة أخرى على جينتري. لقد استدار وأصبح يواجه الكازاخيين الذين اجتازوا الأربعين ياردة الآن. وقف الأمريكي المصاب منتصبًا، رغم أن ذلك آلمه. نظر إلى الخلف بطرف عينيه إلى الناحية الأخرى من الجسر.

قال لويد: «لن تنجح يا كورت. لا يمكنك الهرب بعد الآن. لقد انتهى أمرك تمامًا». كان هناك بهجة في صوته.

لكن ريجيل تمتم: «تبًا!».

سأل لويد: «ماذا دهاك؟». كرر ريجيل بالألمانية: «تبًّا![1]».

كرر لويد سؤاله: «ما مشكلتك؟ لقد أمسكنا به!».

---

(1) بالألمانية في الأصل.

بعد ذلك مباشرة، صعد الرجل الرمادي إلى السياج الأسمنتي. نظر إلى الخلف إلى الرجال الذين اقتربوا منه، على بعد خمس وعشرين ياردة.

قال لويد، متفهمًا قلق ريجيل: .»لا! لا! لا! لا! لا!».

جذب كيرت ريجيل الميكروفون من طاولة الفني، وضغط الزر إلى أسفل، وصرخ: «أطلق عليه النار فورًا[1] !». وجد نفسه يتحدث الألمانية في حماسته. صرخ: «أطلق عليه الآن!».

ولكن بعد فوات الأوان. انقلب كورت جينتري بنفسه فوق السور، وسقط على مسافة ثلاثين قدمًا في المياه المتلألئة، فانفجرت صفحتها البلورية عندما اصطدم جسده بها، واختفت هيئته الدكناء مع إعادة تشكيل التيار إلى مرآة تتدفق بسرعة.

استدار لويد مبتعدًا عن الشاشة. وضع يديه على رأسه في حالة صدمة. ثم التفت إلى فيليكس الذي بقي صامتًا وراءه.

ـ هل رأيت ذلك! هل رأيته! إنه ميت!

ـ الوقوع في الماء لا يقتل رجلًا يا صديقي. أنا آسف. أحتاج إلى تأكيد لرئيسي.

عاد لويد إلى الفني وصرخ بما يكفي ليُسمع صوته في جميع أنحاء القصر: «يا إلهي! قل لهم أن يلقوا أنفسهم في الماء! نحن بحاجة إلى جثته!».

وأظهرت الصورة على شاشة البلازما أن الكازاخيين يقتربون من الجسر التاسع الذي أخلاه الهدف قبل خمس ثوانٍ فقط. نظروا جميعًا إلى الجانب. كان خمسة من الرجال على الجسر. قفز اثنان من فوق السور وسقطا في الماء الأسود البارد، بينما ركض ثلاثة عائدين إلى الضفة اليسرى.

---

(1) بالألمانية في الأصل.

صاح ريجيل بتعليماته إلى الفني: «لقد أصيب بجروح بالغة، وهذا السقوط لن يساعده. قل للبوتسواني أن يذهب هناك، انقل البوليفيين والسريلانكيين أيضًا. ضع شخصًا ما في قارب في حالة لم تظهر جثته على الفور. كلِّف الجميع بالبحث في كلتا الضفتين. انقل كل المراقبين في اتجاه مجرى النهر للبحث عن المكان الذي قد يظهر فيه. نحن بحاجة إلى جثته، نحتاج إليها الآن!».

30

في الثانية والنصف بدأ هطول مطر خفيف. كان الظلام في حديقة تينو روسي حالكا، على بعد خمسمائة ياردة من الشرق إلى الجنوب الشرقي من كاتدرائية نوتردام، على الضفة اليسرى من نهر السين. وبعد خمسين قدمًا من الرصيف المرصوف بالحصى، يمتد جسر عشبي بجوار جدار حجري منخفض. هناك، بين الشجرة والحائط، استلقى شخص على ظهره، وركبتاه مرفوعتان قليلًا وذراعاه معوجان. سيتضح لأي شخص يمشي نحو الجسد المشبع بالمياه أنه جاء من النهر. ربما سمحت هزة أخيرة من القوة لذراعيه الواهنتين بالزحف بعيدًا عن حافة النهر إلى العشب الناعم الرطب؛ ربما وجدت قدماه موطئًا للحظة، ولكن لا بد أن الذراعين والساقين قد تعطلت بالكامل، وانهار الجسد على الأرض الباردة.

لم يُبدِ الجسد أي حركة، ولم يكن هناك صوت أيضًا، حتى بدأ ضجيج إلكتروني يزقزق، مكتومًا بملابس مبللة.

لم يستطع تحريك جسده مرة واحدة. أخيرًا شد كتفيه، رفع رأسه قليلًا ليتعرف إلى محيطه الجديد. بعد أن تدحرج مرة أخرى مد ذراعه ببطء إلى جيب المعطف، وجذب علبة بلاستيكية، وتحسسها بيد واحدة. فتح الهاتف، وسقط هاتف القمر الصناعي على العشب وظل موجهًا إلى السماء.

بعد أن قفز من فوق الجسر، اصطدم جينتري بالماء بقوة. سلب البرد ما تبقى من هواء في رئتيه بعد الاصطدام. لقد غرق بعمق، وعندما بلغ السطح، كان تيار النهر قد سحبه بعيدًا، تحت الجسر التاسع باتجاه

الغرب. امتص الهواء والماء، بينما كان يتمايل لقرابة الدقيقة، حتى رأى عبّارة منزلية صغيرة تتجه نحوه.

بالرغم من ضعف كورت لدرجة أنه كان على وشك أن يفقد وعيه، فقد ربط ذراعًا حول الدرجة السفلية من السلم الذي تدلى من جانب الزورق الأسود في أثناء مروره ببطء. أمسك بإحدى يديه، وأبقى رأسه منخفضًا في زبد الماء الذي خلفته حركة القارب، وسحبه مرة أخرى تحت الجسر الذي سقط منه لتوه.

سمع صراخ رجال في الماء من حوله وهم يغوصون في الأسفل بحثًا عن جثة أو يوجهون مصابيحهم الكهربائية حول امتداد الجسر.

بعد عشر دقائق، لم يعد كورت مهددًا بالكشف الفوري. حاول تسلق السلم للصعود على متن القارب بآخر ما لديه من قوة، لكنه سقط. لم تساعده ساقاه الضعيفتان، ولا الألم في أمعائه، ولا حذاؤه المبلل، والبرد المخدِّر، وعاد إلى التيار المتجمد. مد يده إلى الزورق، فلم يمسك شيئًا سوى ماء النهر، بينما كانت السفينة السوداء تبتعد إلى أعلى النهر.

لحسن حظ جينتري، لم يكن بعيدًا عن حافة المياه. وصل إلى الضفة اليسرى، وصارع على الرصيف، وصعد على قدميه. لكنه سقط مرة أخرى على العشب الرطب بجوار شجرة في حديقة تينو روسي. وهنا رقد لمدة عشرين دقيقة، عيناه مفتوحتان لكنهما زائغتان، إذ تتساقط قطرات المطر الناعمة لتصطدم وتنفجر في حدقتي عينيه.

رن الهاتف مرة أخرى، فرفعه عن العشب، وعيناه لا تزالان تراقبان سحب المطر المنخفضة بشدة التي أضاءتها أنوار المدينة من حوله.

كان صوته ضعيفًا وبعيدًا.

ـ أجل؟

ـ مساء الخير، هذه كلير فيتزروي. هل يمكنني التحدث مع السيد جيم من فضلك؟

تراجع جينتري بعيدًا عن المطر. وبدلًا من ذلك امتلأت عيناه بالدموع. كان يتحكم في صوته بأقصى ما يمكنه، وفعل ما في وسعه، لإخفاء الألم والإرهاق واليأس والشعور المطلق بالفشل. وقال: «لقد فات موعد نومك».

ـ نعم سيدي. لكن الجد دونالد قال إنه يمكنني الاتصال بك.

ـ هل تتذكرينني؟

ـ أوه، نعم سيدي. أتذكر كيف قدت بنا إلى المدرسة، نمت على سرير الأطفال الصغير في الردهة، لكن أمي قالت إنك لم تنم حقًا، لقد انتظرتنا طوال الليل. شربت القهوة، وأعجبك البيض الذي تصنعه ماما.

ـ هذا صحيح، كثير من الجبن.

كان كورت قد تعرض للطعن في عظمة الحوض، فثقب جدار بطنه. لم يكن يعتقد أن السكين غُرزت عميقًا بما يكفي لتقطيع أمعائه، لكن الألم الذي يحترق في مركز كيانه لا يوصف. افترض أنه لا يزال ينزف، لكنه لم يفعل شيئًا لإيقاف النزيف منذ أن سقط في النهر قبل ساعة تقريبًا.

مرت صفارات إنذار سيارات الطوارئ على يمين جينتري، لكنه استتر عن أنظارهم بالجدار الحجري والظلام.

قالت كلير: «سيد جيم، قال الجد دونالد إنك قادم لإنقاذنا».

انهمرت الدموع على وجه الأمريكي. لم يكن ميتًا، لكن هذا جعله يشعر أقرب ما يكون إلى الموت. كان يعلم أنه لا يستطيع الوصول إلى بايو، وحتى لو استطاع بطريقة ما، ما الذي يمكنه فعله إلا أن ينزف حتى الموت على عتبة القلعة؟

ـ أين جدك؟

ـإنه في غرفة النوم. لا يستطيع المشي الآن. قال إنه سقط على الدرج، لكن هذا ليس صحيحًا. الرجال هنا يؤذونه. أعطاني الهاتف وقال لي أن أذهب إلى الحمام وأتصل بك.

توقفت. ثم قالت: «لهذا السبب عليَّ أن أهمس. أنت قادم، صحيح؟ من فضلك قل لي إنك قادم. إذا لم تأتِ، أنت فرصتنا الوحيدة، منذ أن ذهب أبي إلى لندن. سيد جيم. هل أنتَ هنا؟».

أمر متوقع من فيتزروي. لو كان السير دونالد هو من أجرى هذه المكالمة بنفسه، لأخبره كورت بأن كل شيء قد ضاع. لكن الوغد القذر كان يعلم أن جينتري سيكون في حالة يرثى لها الآن، فمن سيغريه لمواصلة القتال أكثر من التوأمين؟

قال جينتري: «سأفعل ما بوسعي».

سألته كلير: «هل تعدني؟».

استلقى كورت هناك في الظلام، وبذلته المتجمدة المبللة غير مستوية على جسده، وقد التصق الطين البارد بنهاية رقبته وحلقه. قال ببطء وبصوت واهن: «سأكون هناك في أقرب ما يكون».

كررت كلير: «هل تعدني؟».

نظر كورت إلى الجرح في بطنه وضغط عليه بشدة ثم قال: «أعدك». وبدا أنه يستجمع القليل من القوة في صوته. وأتبع: «وعندما أصل إلى هناك، أريدك أن تعديني بأن تفعلي شيئًا من أجلي».

ـنعم، يا سيدي؟

ـعندما تسمعين الكثير من الضوضاء، أريدك أن تذهبي إلى غرفتك، وتزحفي تحت فراشك وتبقي هناك. هل يمكنك أن تفعلي ذلك من أجلي؟

ـضوضاء؟ أي نوع من الضوضاء؟ هل تقصد مسدسات؟ـأعني المسدسات.

ـحسنًا.

ـ ابقي هناك حتى آتي لأخذك. فلتفعل أختك الشيء ذاته، حسنًا؟
ـ شكرًا لك يا جيم. كنت واثقة أنك ستأتي.
قال: «كلير».
ثمة ذرة جديدة من القوة في صوت جينتري الآن.
ـ أريدك أن تعطي الهاتف لجدك خلسة. يجب أن أطرح عليه سؤالًا شديد الأهمية.
ـ حسنًا يا جيم.
ـ كلير، شكرًا لاتصالك. كان من الجيد أن أسمع صوتك.

***

بعد ست عشرة دقيقة، ترنح جينتري بطول شارع دي كاردينال ليموان. تساقط المطر، ولحسن حظ الرجل الرمادي لم يكن هناك أحد في الجوار. سار وكلتا يديه على الجانب الأيسر من بطنه، وتيبست ساقه اليسرى بينما يركلها إلى الأمام. توقف كل خمس وعشرين ياردة أو نحو ذلك، متكئًا على حائط أو سيارة أو عمود إنارة، انحنى إلى الأمام من الألم. بعد عدة ثوانٍ استعاد عافيته لكي يبتعد ويختبئ مسافة بضع خطوات أخرى، قَبل أن يلتمس من جديد ملجأً من الإجهاد الناتج عن نزيفه.

عثر على العنوان الذي أعطاه إياه فيتزروي. كان الباب مغلقًا بالقفل كما توقع. وجد بالأسفل فجوة مظلمة بعد عدة مداخل فاندس فيها، ثم جلس على قطعة من الورق المقوى كالمشرد، واتكأ برأسه ليستريح على المنحدر.

دوت صافرات الإنذار الرتيبة التابعة للشرطة من بعيد، ربما صارت على بعد ميل واحد. من المؤكد أن رجال الشرطة والقتلة والمراقبين بطول نهر السين يبحثون عنه، وعلى الرغم من ذلك، من مصلحته أنهم كثفوا بحثهم في الأسفل وليس المنبع، ومن مصلحته أيضًا أن يعوق بعضهم بعضًا.

كان على وشك النعاس بينما يضغط بقبضته على بطنه الملطخ بالدماء، عندما سمع ضجيجًا من العنوان الذي أعطاه إياه فيتزروي. أطل من الكوة ورأى الباب المغلق يُفتح ببطء.

توقع أن يأتي شخص ما بالسيارة، لكن يبدو أن أيًا من كان يعمل في الموقع يعيش في شقة بالأعلى في المبنى نفسه. ظهرت امرأة على الرصيف، بصعوبة يمكن رؤيتها في ضوء مصباح الشارع الذي يبعد عشرين مترًا. نهض كورت واقفا على قدميه وترنح إلى الأمام.

همست منفعلةً: «هيا! أسرع»[1].

تجاوزها وهو لا يزال مذهولًا، ووجد نفسه في ردهة طويلة.

ثبّت جسده الواهن الذي تأرجح بين جدران الممر، ورأى على الفور أنه كان يلطخ الجدران بيديه وهو يمشي. ثبتته المرأة بسرعة ولفت ذراعه حول رقبتها. كانت طويلة ونحيفة لكنها قوية. بعد كل خطوة شعر أنه يستسلم لها أكثر فأكثر.

دلفا مدخلًا إلى غرفة مظلمة قبل أن تتمكن من إشعال الضوء، مثقلة بالرجل البالغ وزنه 170 رطلًا. ذُهل كورت حين نبح كلب قريب. ثم آخر، ثم عشرة كلاب أو أكثر تنبح في وقت واحد، كلها حوله.

عندما أُنير الضوء فوق رأسه أدرك على الفور أن عيادة الطوارئ التي أرسله دونالد إليها كانت في الواقع مكتب طبيب بيطري. انزلقت ركبتاه وهبط وزنه على الفتاة بجانبه. دفعته إلى الأمام ثم إلى أسفل على كرسي صغير.

سألته بينما تنظر إليه من أعلى: «هل تتحدث الفرنسية؟»[2]. نظر إلى أعلى فرأى دون سبب أنها كانت جميلة إلى حد ما.

---

(1) بالفرنسية.

(2) بالفرنسية.

ـ هل تتحدثين الإنجليزية؟[1]

ـ نعم قليلًا. أنت إنجليزي؟

كذب قائلًا: «نعم». لكنه لم يكن ينوي محاولة تزييف اللكنة.

ـ سيدي. حاولت إخبار السيد فيتزروي أن الدكتور قد سافر، لكنني اتصلت به، إنه الآن في طريقه إلى هنا. سيصل في غضون ساعات قليلة. معذرة لم أكن أعرف مدى الضرر الذي أصابك. لا أستطيع مساعدتك. سأتصل بسيارة إسعاف. أنت بحاجة إلى مستشفى[2].

ـ لا. أنت في شبكة فيتزروي. لديك على الأقل دواء ودم وضمادات.

ـ لا يوجد هنا، أنا آسفة. يمكن للدكتور ليبين أن يدخل أي عيادة قريبة، لكنني لا أستطيع ذلك. أنا أعمل هنا فقط مع الحيوانات. أنت بحاجة إلى مستشفى. أنت بحاجة إلى مساعدة طارئة. يا إلهي! أنت بارد. سأجد لك بطانية.

التفتت بعيدًا عنه وغادرت الغرفة، عادت ببطانية من الصوف السميك تفوح منها رائحة براز القطط. ولفتها على كتفيه.

سألها كورت بأضعف طبقات صوته الآن: «ما اسمك؟». ـ جوستين.

ـ انظري جوستين. أنت طبيبة بيطرية. هذا قريب بما فيه الكفاية. أنا فقط بحاجة إلى بعض الدم و...

ـ أنا مساعدة بيطري.

ـ حسنًا، هذا أيضًا قريب بما يكفي. يمكننا إتمام الأمر. ساعديني من فضلك.

ـ أنا أُحَمِّم! أنا أحمل الكلاب من أجل الطبيب، لا أستطيع مساعدتك. الطبيب في طريقه، لكن لا يمكنك انتظاره. أنت شاحب تمامًا.. أنت بحاجة إلى الدم، وإلى السوائل.

---

(1) بالفرنسية.

(2) تتحدث بإنجليزية ركيكة.

ـليس لديّ وقت للانتظار. انظري، أنا أعرف طب المعارك. يمكنني أن أصف لك ما أحتاج إليه. سأحتاج إلى بعض الدم، فقط بضع وحدات من فصيلة O موجبة، وبعض مضادات حيوية، ويديك. عندما يكون الضعف والألم أكثر من اللازم، لن أكون قادرًا على فعل ما يجب فعله.

ـ طب المعارك؟ هذه ليست ساحة معركة. هذه باريس!

قال كورت ساخرًا: «قولي هذا للرجل الذي فعل ذلك». فتح البطانية وسحب يده من جرح سكينه. كان ضغط دمه قليلًا بما يكفي الآن ليتوقف تدفقه من خصره، لكنه كان ينزف ويتلألأ دمه في الضوء العالي لغرفة العلاج.

شهقت جوستين وقالت: «يبدو هذا سيئًا».

ـ يمكن أن يكون أسوأ. لقد اخترق العضلات بحق الله، لكنني سأكون بخير إذا تمكنت من الحصول على بعض دماء من فصيلة O موجبة. إذا كان بوسعك مساعدتي، فسأنطلق في طريقي. سيدفع لك فيتزروي أنت وطبيبك مقابل هذا الإزعاج.

ـ سيدي، ألا تسمعني؟ أنا أعمل مع الكلاب!

أغمض عينيه، وبدا وكأنه يفقد وعيه قليلًا، لكنه قال: «فقط تخيليني مكسوًّا بالفراء».

ـ كيف يمكنك المزاح؟ أنت تنزف حتى الموت.

ـ لأننا نتجادل وحسب. أين هذه العيادة؟ يمكننا أن نذهب هناك وأحصل على ما أحتاجه. لا أستطيع الذهاب إلى المستشفى. لا توجد طريقة أخرى.

أطلقت تنهيدة طويلة، أومأت برأسها، وربطت شعرها البني على هيئة ذيل حصان خلف رأسها.

وقالت: «دعني أضع ضمادة على هذا حتى لا تفقد المزيد من الدم».

وهدأ نباح الكلاب.

***

كان المركز الجراحي الصغير في عيادة الطبيب البيطري قذرًا. لم يُنظَّف جيدًا بعد انتهاء العمل يوم الجمعة.

«أنا آسفة يا سيدي. إذا علمت أنك قادم...».

قال: «لا بأس». جَرَّ كورت نفسه صوب الحامل المعدني في منتصف الغرفة، لكن جوستين أوقفته، وأمسكت بزجاجة رذاذ، ورطبت بشكل روتيني، ثم مسحت سطح الألومنيوم المصقول بينما اتكأ مريضها على رف من الضمادات. ركضت عبر الباب وعادت ومعها وسادة من الأريكة في غرفة الانتظار.

ـ يجب أن تدع ساقيك تتدليان من الجانب. إنه ليس مخصصًا للأشخاص.

ـ حسنًا.

لقد استخدم آخر ما تبقى لديه من عزم لفتح قميصه. طارت الأزرار وارتدت فوق بلاط أرضية الغرفة . سحبت جوستين حذاءه المنقوع بمياه المطر، واستخدمت مقصًا لتقطع سرواله فبقي بلباسه الداخلي. قالت: «أنا لا خبرة لي مع البشر».قال جينتري: «أنت تؤدين عملا رائعًا».

لقد قاومت خجلها ونظرت إلى جينتري من الرأس إلى أخمص قدميه.

ـ ماذا حدث لك؟

ـ لقد أصبت في ساقي قبل يومين.

ـ بمسدس؟

نظرت إلى الجرح المفتوح في فخذه، الذي مرَّ عليه ثلاثة أيام، ثم عادت إلى وركه النازفة. ارتدت على الفور قفازات مطاطية في يديها الصغيرتين وهي تقول: «يا إلهي!»[1].

قال جينتري: «وبعد ذلك جرح الزجاج المكسور ساقي وقدمي».

ـ أرى ذلك.

ـ ثم كسرتُ ضلعًا في أثناء تدحرجي هبوطًا من جبل في سويسرا.

ـ جبل؟

ـ نعم. ثم خلعت بعض الأصفاد من معصمي.

كانت جوستين صامتة. وقد فغرت فاها بعض الشيء.

ـ ومعدتك؟

ـ جرح سكين.

ـ أين؟

ـ هنا في باريس. منذ نحو ساعة، على ما أعتقد. ثم سقطت في نهر السين.

هزت رأسها. وقالت: «سيدي، أنا لا أعرف ماذا تعمل، ولا أريد أن أعرف. ولكن مهما يكن الأمر، أعتقد أنه يجب عليك العثور على وظيفة جديدة».

ضحك كورت قليلًا، فاشتعل ألم جرح الطعنة. وقال: «مهاراتي لا تنفع في الأعمال الصالحة».

ـ آسفة. أنا لا أفهم هذه الكلمات.

ـ لا تهتمي يا جوستين، يمكننا إيقاف جرح السكين بهذه الضمادة، بطريقة أو بأخرى، ولكن إذا لم أدخل بعض الدم إلى عروقي فسأفقد الوعي.

---

(1) بالفرنسية في الأصل.

ـ العيادة قريبة لكنها مغلقة.

قال كورت: «سنفتحها. دعينا نذهب، يجب أن أنطلق في أقل من ساعة».

لفت جوستين ضمادة ضاغطة بإحكام حول خصر كورت لتثبيت مربع الشاش السميك الذي وضعته فوق جرح السكين. وقالت: «تنطلق؟ لست بحاجة إلى التحرك على الإطلاق! لأيام. ألا تفهم مدى خطورة إصابتك؟».

قال جينتري: «أنت لا تفهمين. لديّ مكان يجب أن أكون فيه! أنا فقط بحاجة إلى الراحة حتى أتمكن من المغادرة!».

ضغطت على أسنانها واتسعت عيناها وهي تقول: «سيدي، أنا لست طبيبة، لكن يمكنني أن أعدك بأنه لا يوجد مكان تحتاج إليه الآن بخلاف الرعاية الطبية. قد تموت في غضون ساعة».

قال لها: «سأكون بخير، يجب أن أكون بخير».

انحنت جوستين وفتحت خزانة قريبة، وبدأت في سحب المعدات منها. وقالت: «هذا مستحيل! إذا نقلنا الدم إليك، فسيتسرب من معدتك إذا تحركت. أنت بحاجة إلى خياطة جرحك. وإذا تحركت فستنقطع غُرز الخياطة».

فكر كورت في الأمر أكثر. نظر إلى ساعة يده ليجد أنها الساعة الثالثة صباحًا. قال: «أنا.. يجب أن أصل إلى بايو في نورماندي».

ـ الليلة؟ هل أنت مجنون؟

ـ إنها حياة أو موت، جوستين.

ـ نعم، موتك يا سيدي.

سحب كورت ظرف موريس النقدي من جيبه. كان مبللًا، لكنها معجزة أنه نجا من النهر، وكذلك مفاتيح سيارته. سلم الظرف الممتلئ إلى جوستين. سألها بينما هي تحدق إليه: «كم سيكلفني؟». ثم عادت نظراتها إلى عينيه وقالت: «الكثير».

ـ كله لك. فقط ساعديني في الوصول إلى بايو قبل الثامنة صباحًا.
ـ إذا كنت لا تستطيع قيادة السيارة، فماذا تتوقع أن تفعل عندما تصل إلى هناك؟
ـ يمكنني قيادة السيارة، لكني أريدك أن تخيطي جرحي وتضمديه في أثناء القيادة. يمكننا إجراء عملية نقل الدم في الطريق.
نهضت ببطء وقالت كل كلمة على حِدَة: «الخياطة؟ في... الـ... سيارة؟».
أومأ كورت.
ـ بينما تقود الـ.. سيارة؟
ـ أجل.
تمتمت بشيء باللغة الفرنسية لم يفهمه كورت. لكنه التقط كلمة أقرب لـ «كلاب»، وظن أنها كانت تقول إنه بسبب لحظات كهذه، فضلت أن يكون مرضاها من النوع ذي الأرجل الأربع.
ربطت الضمادات حول خصره وساعدته على إعادة قميصه المبلل فوق كتفيه. لم ترفع نظرها عن عملها في أثناء حديثها.
ـ ما الذي يحدث في بايو في وقت مبكر من صباح أحد أيام الأحد ولا يمكنك أن تفوته مطلقًا؟ ـ هل ستصدقينني إذا أخبرتك أنني أغني في جوقة الكنيسة؟هزت رأسها دون أن تبتسم وقالت: «لا».
قال جينتري: «حسنًا. سأخبرك إذن».
أخبرها ما حدث، وما يجب عليه فعله بحلول الساعة الثامنة صباحًا لكن بحبكة فجوتها تسمح بمرور طائرات جامبو. حكى لها عن الفتاتين المخطوفتين والأب الذي مات وهو يحاول حمايتهما. أخبرها عن فرق العملاء الأجانب التي تطارده، ولأن فقدان الدم والإرهاق عبثا بصوابه أخبرها مرة أخرى عن المكالمة الهاتفية من كلير ومرة أخرى عن الطفلتين الصغيرتين اللتين كان عليه حمايتهما.

ارتعدت عندما تحدث عن القتلة والقتل، خطر الموت الذي يحدق بفتاتين صغيرتين من أجل سمعة بعض الشركات البلطجية. نعم، تعمل جوستين لدى طبيب بيطري بمواعيد سرية أحيانًا وبعض المرضى المشبوهين للغاية. أخبرها الطبيب عن فيتزروي والشبكة لئلا تطرح المزيد من الأسئلة. لكنها لم تتخيل قط ولو بعد مليون عام أن ثمة متوحشين وقساة مثل أولئك الذين يحكي عنهم هذا الغريب.

سأل كورت: «إذن.. ما رأيك؟».ـ لماذا تثق بي؟ـ اليأس. لقد كنت ميتًا على ضفة النهر قبل 45 دقيقة. منذ تلك اللحظة، أصبحت أملي الوحيد. إن غدرتِ بي، فلن يكون حالي أسوأ مما كان في أثناء استلقائي هناك.

ـ ماذا عن الشرطة؟ـ يقول لويد إنه سيقتل الرهائن إذا ذهب أي شخص سواي إلى المنزل. أنا أعرف أمثاله، سيفعلون بالضبط ما يهددون به. عليَّ أن أذهب وحدي بمساعدتك. سأتركك في بايو. وجهتي على بعد بضعة كيلو مترات شمال القرية. يمكنك أن تستقلي أول قطار يعود إلى باريس في الصباح. ستكونين على بعد أميال من أي خطر، أعدك.

سألته: «ماذا أسميك؟».

ـ جيم.

ـ حسنًا جيم. سنذهب بشرط واحد.

ـ ما هو؟

ـ دعني أعطِك القليل من مسكن الآلام، فقط من أجل العملية، سنجد شيئًا في العيادة يمكننا تقديمه لك، وما إن يرتفع ضغط الدمَ بعد نقله إليك سنأخذ سيارتي. سأقود إلى جار سان لازار لتحصل على سيارتك، ثم يمكننا الذهاب. لن تكون هناك حركة مرور على الطريق ما إن نغادر المدينة. سأعالج إصابتك في أثناء القيادة.

فكر كورت في ذلك. كانت كل ذرة من كيانه تعارض تناول أي دواء من شأنه أن يغيِّب عقله ويضعف حواسه، ويتركه في حالة أقل من التركيز الكامل على المهمة التي يسعى إلى إنجازها. شعر أنه يستطيع تحمل الألم.

لا، لم تعجبه خطة جوستين، لكنه يثق بها لسبب ما. وبينما كان ينظر إلى الفتاة اللطيفة الشقراء التي تقف أمامه، ولا تزال جميلة، وشعرها مربوطًا كذيل حصان مبعثر من نومها، ودون مساحيق تجميل في وجهها، وقد تكوم العرق على شفتيها من مشقة إبقاء شخص غريب مخيف على قيد الحياة، اعترف بأنه ليس في وضع يسمح له بالمجادلة على الإطلاق.

ساعدت جوستين كورت على الوقوف على قدميه، واندفع الاثنان معًا ببطء خارج غرفة العلاج وأسفل القاعة باتجاه الجزء الخلفي من العيادة. جفل جينتري مع كل خطوة، ما إن تمايل رأسه للأسفل كما لو كان سيغشى عليه.

أسندته جوستين إلى الحائط في الفناء بينما كانت تتحسس مفاتيحها.

سأل جينتري: «ماذا هذا بحق الجحيم؟».

ـ إنها سيارتي.

ـ هذه سيارة؟

ـ ما الخطأ في هذا؟

ـ إنها صغيرة.

ـ عندما اشتريتها، لم أكن أعرف أنني سأنقل المرضى في مقعد الراكب.

ـ هذا معقول. لا بأس. من المؤكد بحق الجحيم أنها لن تلفت الكثير من الانتباه.

ابتسم كلاهما قليلًا، لكن الابتسامات اختفت وهي تحاول المساعدة في إنزاله إلى المقعد. صرخ كورت من الألم، صرخة بلغت ذروتها باللهاث الشديد.

استغرق الأمر منها ما يقرب من دقيقة لتشغيل المحرك الصغير. بحلول ذلك الوقت كان كورت قد نام. لقد أخفض مقعده إلى حيث يمكن أن يستلقي بشكل مسطح تقريبًا. تمكنت بعد مجهودٍ من رفع ساقيه على لوحة القيادة للمساعدة على حمايته من التعرض لصدمة. عندما انعطفت شمالًا في شارع مونج، رأت طائرات هليكوبتر تحلق في الهواء على مسافة فوق النهر.

أوقفت جوستين سيارتها على بعد بضعة أمتار من العيادة قبالة شارع دي إيكول. في الثالثة والنصف، لم يكن هناك أحد في الجوار على الإطلاق. تقلب كورت في مقعده، ونظر حوله للحظة، ثم طلب منها قلمًا وقطعة من الورق. دست يدها في حقيبتها للحظة ثم أعطته مظروفًا وقلم رصاص.

ـ هناك دواء آخر أريدك أن تعثري عليه. لا بُدَّ أنه ضمن أدوية الأطفال.

ـ إحدى التوأمين بحاجة إلى دواء؟

ـ لا إنه لي.

دوَّن شيئًا ما وسلم المظروف إلى جوستين فنظرت فيه.

ـ ديكستروستات؟ فيمَ يستخدم؟

ـ سيساعد، إنه مهم للغاية، ابحثي عنه.

هزت كتفيها، ووعدت كورت بالبحث عنه دون أن تقول كلمة أخرى. قفزت من السيارة الأونو الصغيرة ورجعت إلى صندوق السيارة.

لم يستطع جينتري الالتفات ليرى ما كانت تفعله. بعد ثوانٍ سارت إلى الباب الزجاجي للمبنى وتلفتت حولها بسرعة في كلا الاتّجاهين، ثم حطمت الزجاج بإطار حديدي في يدها اليمنى، ومدت يدها عبر

الشظايا الحادة لتفتح الباب من الداخل. راقبها كورت في عجز تام، اختفت في العيادة المظلمة حيث ملأ الإنذار المدوي الشارع.

سقط كورت في النوم مرة أخرى في السيارة بالرغم من الخطر الوشيك. استيقظ مع هزة السيارة الصغيرة ذات البابين، إذ تنطلق إلى الأمام. وحين ألقى نظرة على وجه المرأة الشابة، في وهج مصابيح الشوارع التي تومض فوقهما وهما يبتعدان عن أجراس الإنذار، لمح فيه الشدة والتصميم.

سأل: «علام حصلتِ؟».

ـ ثلاث وحدات منة فصيلة O موجبة، وحقيبتان من سكر العنب، ومورفين، وفيكودين، ومعدات نقل الدم، ومطهرات، ومجموعة خياطة.

ـ و...؟ ـ والدواء الذي سألت عنه.

ـ أحسنتِ.

قالت بابتسامة صغيرة: «نعم.. كان هذا ممتعًا».

في مرأب السيارات أسفل جار سان لازار، استقل كورت وجوستين السيارة المرسيدس الكبيرة. استلم جينتري عجلة القيادة، وجلس هناك مشوشًا ومقطبًا جبينه من الألم. بدأت جوستين بنقل الدم وعبوات التغذية بالحقْن، حيث جلسا معًا في مرأب مظلم وفارغ. لقد علقت العبوات في مفتاح الإضاءة فوقهما للحفاظ على استمرار التنقيط، بينما أفسح الجزء الداخلي المصنوع من الجلد الأسود اللين المجال لتحركات الفتاة الفرنسية، فانحنت فوق كورت، وسكبت المطهر بحرية على خصره لتمتصه ضماداته وجروحه.

أمرت جوستين كورت بالاستلقاء والاسترخاء، وغادرت السيارة. اختفت عن نظره وهو جالس بمفرده، فحاول التفكير في المهمة التي لا تزال قيد التنفيذ. كان يعلم أن هذه التأخيرات تعني أنه لن يصل إلى القصر قبل السادسة صباحًا. لن يكون لديه أي وقت تقريبًا

لاستكشاف وتقصي المنطقة. لا، كما هو الحال الآن، سيكون لديه الوقت فقط للقيادة حتى الباب الأمامي وبدء هجومه إذا أراد فعل ذلك تحت جنح الظلام. تبًّا!

أدرك كورت أن فرصه في النجاح لم تكن جيدة على الإطلاق، ولكن بعد تعرضه للطعن في باريس، أصبحت فرصه الآن ضئيلة للغاية.

عادت جوستين بعد ذلك ومعها كيس من المعجنات وكوبان كبيران من القهوة. سحب من يدها أحد الكوبين المملوء بالرغوة، شرب بشراهة حتى لسع فمه.

طالبته: «توقف![1]. توقف. ارشف ببطء».

أخذ كورت كرواسون ومزقه بشراسة، حاولت دهنه له بالزبدة بينما كان يأكل، لكنه أخذ القليل من الزبدة من يديها والتهمها أيضًا.

عنفته جوستين. قائلةً: «لن تفخر بك والدتك هكذا، استرخ، أنت تحصل على السوائل والتغذية التي تحتاج إليها من الوريد. هذا كثير من الطعام مع المورفين، سيجعلك تتقيأ، اشرب القهوة ببطء. هل يمكنك القيادة؟».

قال كورت بإصرار عابس: «سنكتشف حالًا». وأرجع المرسيدس إلى الخلف، ثم خرج من المرأب تحت الأرض ببطء، وانطلق في الليل.

أخذا الطريق السريع **(A15)** شمالًا خارج المدينة، وكما أكدت جوستين، لم تكن هناك حركة مرور تقريبًا في الرابعة من صباح يوم الأحد.

سبَّت بصوت عالٍ عندما لاحظت أن كيس الدم قد فرغ بعد خروجهما من المدينة بدقائقٍ. بدَّلت به كيس لتر كامل آخر، وبدَّلت الدكستروز فقط حتى تظل السوائل تقطر في الوريد بأسرع معدل ممكن.

(1) بالفرنسية في الأصل.

كان الطريق (A13) هو الطريق المباشر إلى بايو، لكن كورت تجنبه. كان يعلم أنه من السهل تثبيت المراقبة على الطريق الرئيسي للقصر. بدلًا من ذلك، سلك كورت سلسلة من الطرق الخلفية التي من شأنها أن تضيف نصف ساعة أو نحو ذلك إلى رحلته.

أخيرًا المحتوم ساعة. تحدثت جوستين عن عائلتها وأصدقائها، وقططها الست. اتضح توترها لكورت من حديثها العشوائي. وقبل ساعة من الوصول إلى القصر، هدأت جوستين، وحقنت وريد جينتري بعناية بجرعة صغيرة من المورفين. إذا انخفض ضغط دمه للغاية، وعاد إلى نفس معدلاته حين كان في العيادة البيطرية، لكان المورفين أوقف قلبه. ولكن بعد وحدتين ونصف من الدم، قررت أن حقنة صغيرة من مسكن الآلام القوي تستحق المخاطرة، مع الأخذ في الاعتبار ما كان على وشك أن يواجه.

في أثناء قيادته السيارة في الظلام، بدأ كورت يشعر بالتحسن، إذ عزز مسكن الألم والدم والماء المحلى بالسكر قوته ومعنوياته. تحدثا عن العملية، واستغرقت جوستين عدة دقائق لتجهيز الغرز والضمادات على لوحة القيادة أمامها. كانت متوترة، بينما تربط الإبرة المعقوفة الحادة لتغمسها في زجاجة من المطهر، ثم تضعها على شاش معقم.

فتحت قميصه، وقطعت ضماداته، وسكبت نصف محتويات الزجاجة على بطنه، فارتجف من اللدغة.

فك كلاهما أحزمة المقاعد، ونهضت على ركبتيها في مقعد الراكب. وضع جينتري يديه عاليًا على عجلة القيادة للسماح لها بالوصول إلى بطنه. ابتلع آخر رشفة من القهوة الباردة، وألقى الكوب خلفه. ثم استخدمت جوستين شريطًا لاصقًا لربط كشاف إضاءة كورت الصغير بالجزء السفلي من عجلة القيادة، مما أدى إلى إضاءة منطقة تركيزها تمامًا، طالما حرصت على منع يديها من أن تظلل فوق جرح الطعنة.

قالت جوستين: «لم أفعل هذا من قبل مع إنسان، حتى في الظروف الصحيحة، لكني خيطت جروح قطط».

قال كورت: «ستؤدين عملًا جيدًا». أدركا أن كلًّا منهما يحاول تهدئة أعصاب الآخر.

لكن عزيمة جوستين تعثرت أولًا. نظرت إلى الأمريكي وسألته: «هل أنت واثق؟ سأضطر إلى التعمق في العضلات لإغلاق الجرح. إذا اكتفيت بثقب الجلد فسيتمزق ما إن تتحرك».

أومأ كورت وعيناه تدمعان بالفعل تحسبًا للألم. قال بهدوء: «جوستين.. مهما أقل أو أفعل، فلا تتوقفي».

أومأت برأسها، واستجمعت رباطة جأشها وقالت: «هل أنت جاهز؟».

أومأ برأسه بعد قليل، سحب حزام الأمان من صدره ووضعه في فمه ليعض عليه بشدة.

كان الطريق مسطحًا ومستقيمًا كما كشفته المصابيح الأمامية.

اخترقت جوستين لحم مريضها بعد نصف بوصة من جرح السكين الدموي. وجدت الإبرة المعقوفة مسارها الخاص في عمق عضلات بطنه. مرت عبر الشق، وتناثر الدم الطازج في شعاع المصباح. أدى تقوس السن الحاد إلى خروجه من جلده، على بعد نصف بوصة، من الجانب الآخر من جرح الطعنة.

صرخ كورت عاضًا حزام المقعد المثبت في فمه. أخذت جوستين الخيط بيدها التي ارتدت عليها قفازًا، وجذبت الأداة إلى الخلف مرة أخرى، وأعادت خيط الإبرة. حتى مع مرور ربع جرعة من المورفين عبر مريضها، شعرت بقطرات دموعه على ذراعيها وهي تصنع الغرزة الثانية بالقرب من الأولى.

واصلت ذلك لمدة عشرة كيلو مترات. لم تلتفت بعيدًا عن عملها في أثناء تخييطها الجرح، لكنها تحدثت إليه بفرنسية باعثة على الهدوء طوال الوقت، تمامًا كما لو كان كلبًا مصابًا. وفوقها جفل مريضها وتأوه.

تعجبَت من مواصلته القيادة، وقيامه بانعطافات سلسلة كلما احتاج، حتى أنه لم يستخدم المكابح إلا مرة واحدة. افترضت جوستين أن امتداد الطريق أمامهٍ وحاجته إلى التركيز فيه هما الشيئان الوحيدان اللذان جعلاه متماسكًا.

استخدمت الشاش لمسح الدم في أثناء عملها، وسكبت المطهر من الزجاجة التي وضعتها بين ساقيه للحصول على رؤية أفضل للجرح الذي يضخ دمًا.

أخيرًا قالت: «أوشكت على الانتهاء. ليس أمامي سوى سحبها بإحكام وربطها. بضع ثوانٍ فقط الآن». سمعته يلهث وينتحب فوقها. أثار إيقاع صوته قلقها. علًمت أنه قد يصاب بصدمة في أي وقت. وأكملت: «ها نحن، سأكون خفيفة قدر الإمكان». شدت الخيط، وأغلقت الجرح ببراعة، وتوقف آخر نزيف على الفور. وقالت: «نعم ممتاز. الآن أنا فقط سأربطها و...».

مرت الإطارات فوق سلسلة من المطبات، لكن ثبات المرسيدس كان رائعًا. لم تكد تشعر بالسطح الخشن. ولكن عندما لم تتوقف المطبات بعد عدة ثوان، نظرت إلى الأعلى للاطمئنان على مريضها.

ذعرت حين رأت رأسه يتدلى فوقها مباشرة، وعيناه مغمضتان.

فقد جيم وعيه.

انحرفت المرسيدس السوداء عن الطريق، وتحطمت في الخامسة والنصف صباحًا.

31

كان جميع الحراس البيلاروسيين العشرة في مواقعهم حول العقار: ستة في الخارج، واثنان عند نوافذ الطابق الأرضي، واثنان أعلى البرج. جلس سيرج وألن، مهندسا الأمن الإلكتروني، في مكتبة الطابق الأرضي، تتفحص عيونهما الحمراء الشاشات دون كلل، وتشاهد صور الأشعة تحت الحمراء حول محيط المبنى.

كانا يجريان اتصالات لا سلكية كل خمس دقائق للتواصل مع الدوريات. الليبيون هم فرقة الصيد والقتل الوحيدة التي لا تزال في المنطقة. كانوا يعانون إرهاقًا شديدًا بينما تجري شاحنتهم دوريات في بايو. أيقنوا أنهم استبعدوا من الفوز، أرسِلت الفرق الأخرى التي كانت في المنطقة منذ ذلك الحين إلى باريس للبحث عن الهدف، كذلك فعل كل فنان رصيف على بعد 300 ميل.

مُنح الليبيون فرصة واضحة للهدف مرة أخرى عند سفح التل في سويسرا، وقد فشلوا، لذلك أُمروا الآن أن يلزموا مكانهم وينتظروا، كان تكرار فرصتهم ضد الرجل الرمادي أمرًا غير محتمل.

لم يتوقع أحد وصول جينتري إلى بايو الآن.

جلس ريجيل ولويد والفني وفيلكس في غرفة التحكم ذات الإضاءة المنخفضة، يرتشفون القهوة أمام الصور المتذبذبة المتأرجحة في شاشات الكمبيوتر، التي تبثها كاميرات الفيديو الرقمية، تلك التي يحملها المراقبون وفرق القتل في باريس.

ما زال الفني يدير عملية البحث حول نهر السين. في الوقت الحالي، اعترف كل من ريجيل ولويد بنجاح جينتري في الخروج من الماء في

اتجاه مجرى النهر، وأنه ترنح مبتعدًا. لذلك جرى توسيع نطاق البحث ثم توسيعه مرة أخرى على جانبي النهر.

بحلول الخامسة والنصف صباحًا، جاءت أخبار جديدة في باريس أدت إلى فورة من النشاط حول القصر. علم مراقب يستمع إلى راديو الشرطة باقتحام شخص عيادة طوارئ صغيرة في الدائرة الخامسة. كان هذا عكس تيار المياه حيث سقط الهدف في النهر، لكن الفني أرسل مراقبًا لمعرفة ما في مقدوره أن يعرفه. وكان أصحاب العيادة قد وصلوا وأعلنوا أن الأدوية والدم والمعدات المسروقة كلها أدوات ضرورية لعلاج الجروح.

وقف ريجيل وراء الفني وقال: «يجب أن نقسِّم البحث. أبقِ البوليفيين والسريلانكيين في باريس. قل للبوتسوانيين أن يأتوا إلىَ هنا عبر الطريق السريع، واعرف هل بإمكانهم رصده في الطريق. أرسل مروحية لالتقاط الكازاخيين، إنهم أمهر رماة المدفعية. أريدهم هنا. يمكنهم إجراء دوريات في الطرق الخلفية حول العقار وكشف أي شيء يتحرك. ونبِّه الليبيين في بايو! يجب أن يبقوا هناك لمراقبة محطة القطار والطَرق عبر المدينة. إذا كان الرجل الرمادي لا يزال يقاتل بطريقة ما، فسيصل هنا قبل الفجر».

تمتم الفني في نفسه: «رأيناه بحق الله، رأيناه يتألم بحق الله، رأيناه يسقط في الماء بحق الله».

صفعه لويد على رأسه من الخلف قبل أن يخرج من الغرفة، متجهًا إلى الطابق السفلي ليخبر الرجال الذين يراقبون كاميرات الأشعة تحت الحمراء أن هدفهم قد يكون في الطريق.

***

«أرجوك! من فضلك يا جيم! يجب أن تستيقظ!».

فتح كورت جينتري عينيه، وفوقه يلوح أحد في الظلام. بشكل غريزي، مد يده وجذب رقبته وأمسكها بقوة وطرحها أرضًا بجانبه وهو يحاول التدحرج فوقها.

سقط كورت على جوستين في العشب الممتد الرطب.

«آسف». كان هذا هو كل ما يمكن أن يقوله وهو يبتعد عن الفتاة الفرنسية.

كانت حركته بطيئة، ومن الواضح أن جسده قد أعاقته المخدرات. كان بطيئًا أيضًا حين نهض في الظلام، ورغم ذلك استطاع أن يميز تمامًا عينيها الواسعتين. جلست بجانبه في النهاية، فيما نظر هو بعيدًا بانزعاج إذ يتفقد محيطه.

جلسا على العشب الرطب، واتكأ كل منهما بظهره إلى المرسيدس. كانا في حقل، فقد اقتحمت السيارة ا السوداء غابة. افترض جينتري أن الطريق كان على الجانب الآخر، حيث انبسط وهج القمر بسبب الضباب فوقه، لكنه ميَّز حركة الأبقار المتثاقلة في الحقل الموحل قرب السيارة.

كان الهواء باردًا.

ـ ماذا.. ما هو.. أين نحن؟

ـ لم أستطع إيقاظك. نحن غرب كاين، ما زلنا نبعد ثلاثين دقيقة عن بايو.

ـ تبًّا! كم الساعة؟

تذكر الأمريكي مهمته ببطء، كما لو أنها ظهرت من ضباب دماغه المخدر.

ـ إنها السابعة تقريبًا. ستشرق الشمس في أقل من ساعة.

ـ اصطدمنا، أليس كذلك؟

ـ لا سيدي، لم نصطدم. أنت من اصطدم.

كان يستعيد وعيه ببطء. وضع يده على بطنه المصاب، على الرغم من أن ألمه كان خفيفًا في الوقت الحالي. كان يرتدي قميصًا بنيًّا نظيفًا، شعر من خلاله بالضمادات مشدودة بإحكام.

نظر إلى أسفل لسرواله الجديد وقال: «هل ألبستني؟».

نظرت جوستين بعيدًا صوب الحقل المظلم وقالت: «وجدت الملابس في حقيبة في السيارة، بعد الاصطدام».

سأل: «هل أُصبتِ؟».أجابت جوستين: «ليس بشدة. بعض الكدمات. كنا محظوظين. خرجتَ عن الطريق إلى مسار أبقار عبر السياج. لقد اصطدمنا بتلك الأشجار. السيارة عالقة، بعد الحطام أعطيتك القليل من الدواء وضمدتك وألبستك. بقينا هنا منذ ذلك الحين. قبل فترة وجيزة حلقت طائرة هليكوبتر بالأعلى. لقد أخافتني. اعتقدت أنهم ربما يبحثون عنا».

بدأ رأس جينتري ينتبه في هذه اللحظة، لقد استرد وعيه الآن.

ـ لن أصل في الموعد المحدد أبدًا.

ـ قلت لي إنه في الثامنة صباحًا، ما زال بوسعنا فعل ذلك قبل الموعد.

ـ كان يجب عليَّ أن أصل موقعي قبل شروق الشمس.

تنهد جينتري وزفر الهواء، ثم نهض فكان وقوفه أصعب مما توقع.

ـ ماذا أعطيتني؟

ـ أعطيتك بعض المسكنات، ووضعت ضمادات ضيقة للغاية حول خصرك لتخفيف الألم.

فحص جينتري الضمادات من فوق القميص وهو يتحدث: «جيد. أنا لا أشعر بالسوء».

ـ لن يدوم. سيعود الألم قريبًا. أنا لم أعطك المخدر الآخر، الديكستروستات، قرأت المكتوب على الزجاجة. إنه من الأمفيتامين شديدة القوة، إذا تناولت إحدى هذه الحبوب فسيرتفع ضغط دمك.

وإذا لم تكن الغرز مثالية فستنزف بشدة. وقد تنزف داخليًا كذلك. سيكون من الجنون أن تبتلع واحدة من تلك الحبوب.

ـلن أبتلع واحدة من تلك الحبوب، بل سأكسر ثلاثة منها، أفرغ المحتويات في كوب من القهوة الساخنة. فأحرر المادة الفعالة من الغلاف، وأحصل على كل التأثير فورًا.

قالت: «هذا انتحار! لستُ طبيبة، لكنني أعرف ما سيفعله هذا بجسمك».

قال جينتري: «سيساعدني هذا على البقاء يقظًا لمدة نصف ساعة أو نحو ذلك. إذا نزفت بعد ذلك، فلا بأس. أنا فقط يجب أن أنجز مهمتي أولًا».

حين بدأت في الاعتراض قاطعها قائلًا: «نحن بحاجة إلى وسيلة نقل جديدة. شيء محلي، شيء لن يلفت الانتباه».

هزت جوستين رأسها من الإحباط وقالت: «ثمة مزرعة هناك مباشرة. ربما يمكنك استعارة عربتهم».

نظر جينتري إلى السياج الذي أحاط بالمزرعة، على بعد خمس وسبعين ياردة. بالفعل كان هناك ضوء في النافذة. سيارة قديمة لونها أبيض، بأربعة أبواب، منخفضة ويتناثر حولها الطين والسماد، وتتوهج في ضوء النافذة. قال: «نعم، سأذهب لاستعارة سيارتهم». وصل ببطء إلى صندوق السيارة المرسيدس وأخذ مسدس جلوك الثاني، إذ فقد الأول في ممر باريس.

سحب الشريحة إلى الوراء شبرًا واحدًا دون أن ينظر، واستخدم طرف إصبعه ليتحقق من تعبئة المسدس.

وقال لها: «سأعود حالًا».

***

في الساعة الأخيرة قبل الفجر، تمركزت قوات ريجيل كافة في القصر في كل محطات القتال. إذ توقع أن يأتي الرجل الرمادي في التو، هذا

إذا جاء. قُسِّم المسلحون العشرة من مينسك إلى ثلاث مجموعات من فردين، يجرون دوريات في الحديقة والممر المؤدي إلى البوابة الرئيسية، ممسكين ببنادقهم الكلاشينكوف. واثنان آخران في الطابق الأول من القصر؛ أحدهما يراقب من نافذة بالسيارة والآخر من نافذة باتجاه الحديقة الخلفية.

كان آخر اثنين من البيلاروسيين أعلى برج القصر؛ قناص واحد ببندقية دراجونوف، إنه الرجل نفسه والسلاح اللذان أنهيا حياة فيليب فيتزروي. وحارسٍ يضع بندقية **(15AR)** على ظهره، بينما ينظر في كل الاتجاهات ليلًا بالمنظار.

بالإضافة إلى البيلاروسيين العشرة، كان هناك رجال لويد الثلاثة من لندن، والأيرلندي الشمالي والأسكتلندي. يرقد الأيرلندي الشمالي الآخر الآن مهملًا في الطابق السفلي بجوار جثة فيليب. وهناك اثنان في المطبخ بأجهزة راديو في آذانهما وبنادق رشاشة معلقة في رقبتيهما، وينتظران احتياطيًّا أن يرسلهما ريجيل نفسه إلى أي مكان يظهر فيه الرجل الرمادي.

والثالث ماكسبادن، كان في القاعة خارج غرفة نوم الطابق الثاني، يحرس عائلة فيتزروي.

هناك أيضًا مهندسان فرنسيان في مكتبة الطابق الأول، يراقبان شاشات كاميرا الأشعة تحت الحمراء المثبتة حول الفناء. كلاهما جندي مشاة سابق في الأربعينيات من عمره. ثبتا مسدسات على أرجلهما، وهما ممن يجيدون استخدامها.

أخيرًا كان هناك الفني ولويد وريجيل وفيلكسٍ، في غرفة التحكم. كان ريجيل الوحيد بين الأربعة الذي يُعدُّ مقاتلًا حقيقيًّا. إذ يضع مسدسه في حافظة كتف تحت سترته الجلدية، وسواء مثَّل خطرًا على الآخرين أم لا، كان لويد مسلحًا بمسدسه الآلي الصغير، بينما يضع رشاش الأوزي المعبأ دائمًا على مكتب الكمبيوتر الخاص بالفني،

بالرغم من أن البريطاني ذا ذيل الحصان لم يقترب يومًا من سلاح معبأ.

جعل هذا الأفضلية لتسعة عشر مدافعًا مقابل مهاجم واحد، لكن هذا فقط الخط الداخلي للتغطية حول القصر. كان عملاء جهاز الأمن في الجماهيرية الليبية الأربعة على اتصال لا سلكي مستمر بالفني، على بعد عشرة كيلو مترات في بايو. رأوا أن الطريق من المدينة إلى القصر ومحطة القطار التي أوشك افتتاحها، أقرب الطرق إلى باريس.

حلقت طائرة يوروكوبتر السوداء الأنيقة بالتدريج على ارتفاعات عالية، وعلى متنها خمسة سعوديين. أطلت المروحية على الطرق السفلية من كاين إلى الشرق بطول الساحل إلى الشمال، تحسبًا لظهور الرجل الرمادي بطريقة سحرية على شاطئ نورماندي من أجل إعادة تنفيذ عملية نورماندي[1] برجل واحد.

قام الكازاخيون الأربعة القادمون من باريس بدوريات في سيارة ستروين زرقاء صغيرة، وكانت بنادقهم الكلاشينكوف في أحضانهم مطوية الكعوب. قادوا سيارتهم عبر الريف، وتوقفوا وراء أول سائقي النهار، وفحصوا لوحات سياراتهم، وسلطوا أضواء ساطعة في السيارات ليتفرسوا في ملامح ركاب السيارة.

لم يستخدم الكازاخيون أجهزة الراديو الخاصة بهم. نعم استمعوا إلى اتصال الفني مع الفرق الأخرى، لكنهم لم يقروا قط أو يستجيبوا لطلبات الفني لهم بأن يؤكدوا وصولهم. لقد كانوا هناك لقتل الرجل الرمادي وكسب المال والعودة إلى ديارهم. ما كانوا ليتواصلوا مع الرجال في القصر إلا عندما يلقون جثة جينتري أمام البوابة الأمامية ويطالبون بأموالهم.

---

(1) المعركة التي مهدت لانتصار الحلفاء على الألمان في الحرب العالمية الثانية.

أشرف ريجيل على العملية كلها من غرفة التحكم في الطابق الثالث، سيكون هو أول من يعترف بأنها لم تكن معركة عادلة، أكثر من ثلاثين رجلًا مسلحًا ضد خصم مصاب بجروح مروعة، ومعه أقل الإمكانات، ولم يحصل سوى على القليل من النوم. لكن ريجيل كان صيادًا، فلم يألف المعارك العادلة.

32

أشرق وهج الصباح الباكر قبالة القناة الإنجليزية، ولامست درجات ألوان الصباح الأولى كتفي جوستين، بينما تقود السيارة البيضاء القذرة ذات الأبواب الأربعة غربًا على الطريق الساحلي. التزمت بالسرعة المحددة، وقرأت اللافتات بعناية.

كان مقعد الراكب ومقعدها الخلفي فارغين باستثناء عدة حقائب مصنوعة من الألومنيوم. قادت بمفردها وانعطفت يسارًا إلى قرية لونج سومير الساحلية، ولم تسرع أو تبطئ عندما انقضت طائرة هليكوبتر سوداء على مسافة بضع مئات من الأقدام فوقها. دارت مرة ثم الثانية ثم الثالثة قبل أن تختفي عن نظرها متجهة إلى الجنوب الغربي.

خلا لها الطريق كله لفترة من الوقت، ولكن بعد وقت قصير من اختفاء المروحية، انطلقت خلفها سيارة سيتروين زرقاء من ممر مليء بالحصى إلى يسارها، يتصاعد الغبار والعادم من خلفها. ألقت نظرة خاطفة على منظرها الخلفي، ولم تر سوى المصابيح الأمامية الساطعة. ظلت على مقربة وراءها لبضع مئات من الأمتار، ثم تقدمت بجوارها.

أمسكت جوستين بعمود التوجيه الرفيع بشدة حتى اعتقدت أنه سينخلع في يدها، عندها أضاء شعاع كشاف يدوي داخل سيارتها ليرصد المقعد الخلفي، ثم انطفأ، وابتعدت عنها السيارة السيتروين. كانت على يقين من أنها ستشاهد أضواء المكابح تضيء لتُجبَر على التوقف. لكن السيارة انطلقت، واختفت المصابيح الخلفية أمامها في الضباب بعد دقيقة أخرى.

بعدما توجهت جنوبًا لبضعة كيلو مترات، نظرت إلى الخريطة في حجرها، ولاحظت علامات القلم الرصاص التي وضعها لها جيم هناك.

انعطفت يسارًا بعد أن أطفأت أضواءها. كان الطريق الضيق مستقيمًا. امتدت أسيجة شجرية عالية على كلا الجانبين. بعد ثلاث دقائق من القيادة عبر الظلام، امتد الطريق جنوبًا، لكنها أبطأت وصدمت السيارة الصغيرة بالرصيف، وأسرعت بما يكفي لتصل بالسيارة إلى الغابة العميقة.

ارتفع جدار حجري كبير من الأرض على الجانب الآخر من الغابة مسافة ثلاثة أمتار. ملأ الزجاج الأمامي وبدا وكأنه يصل إلى السماء اللانهائية. لقد صدمت المصد الأمامي للسيارة به، وأوقفت تشغيل المحرك.

كان الظلام دامسًا بسبب الأشجار العالية على جانبي الطريق الضيق. قفزت بسرعة من مقعد السائق، وحرصت ألا تغلق الباب خلفها. طرقت أربع مرات ببطء على الصندوق الخلفي للسيارة الفيات، في إشارة متفق عليها مسبقًا إلى أن كل شيء على ما يرام.

بعد لحظة، رفعت غطاء صندوق السيارة. نظر إليها جيم المحشور في الداخل، وكوب قهوة فارغ بجانبه وبندقية سوداء بين ذراعيه.

سأل وهو يقفز إلى الخارج ببطء: «لا مشكلات؟». استطاعت أن ترى على وجهه ألم تأثير الحركة في إصاباته. ترك البندقية في صندوق السيارة، ومشى حولها إلى الجانب، وتمدد بعد أن عانى ضيق مساحة صندوق السيارة.

قالت جوستين وهي تقف خلف السيارة على الطريق: «هناك رجال في الجوار، هناك سيارة وطائرة هليكوبتر، أنا واثقة أن هناك المزيد داخل المبنى. لا بُدَّ أنهم يعتقدون أنك رجل خطير للغاية حتى يكلفوا كل هؤلاء الناس بانتظارك».

دفع الأمريكي الشجيرات الطويلة على جانب باب الراكب ليفتحه ويصل إلى المقعد الخلفي وهو يقول: «سمعتي مبالغ فيها».

ـ ماذا؟

ـ لا تهتمي. أود أن أشكرك على كل ما فعلتِه. تستحقين كل سنت من هذا المال. لم أكن لأفعل هذا من دونك.

ابتسمت جوستين في الإضاءة الخافتة وقالت: «لم تفعل أي شيء بعد حقًّا، يا جيم».

قال: «هذه إشارة سديدة».

سألت: «كيف حالك الآن؟».

أجابها جينتري: «كما لو أنني ابتلعت جرعة ثلاثية من منشط مع إسبريسو مضاعف. غرزك تثبت جيدًا».

دون سابق إنذار، انطلقت المصابيح الأمامية لسيارة في جسد جوستين. التفتت لتنظر إلى الضوء، ثم عادت بسرعة للنظر إلى جيم في حيرة، لكنه كان قد رحل.

بعد ثوانٍ، توقفت السيتروين الزرقاء خلفها، وخرج منها أربعة رجال بسرعة.

وقفت جوستين في الضوء الساطع، ورفعت يدها لتحمي عينيها. غمرها الضوء الساطع حتى شعرت أنها عارية. تحرك الرجال الأربعة أمام الأضواء فكانوا ظلالًا، رأت ملامح البنادق الطويلة بين أذرع الرجال.

صاح فيها أحدهم، لكنها لم تفهم، وعجزت عن الكلام. بدلًا من ذلك التفتت يمينًا ويسارًا، في ظلام الفجر الذي خيم على المكان.

أيقنت أنه بعيد عن أعمدة الضوء، وفي مكان آمن، هرب جيم وتحرر من الرجال الذين وقفوا أمامها. لا بُدَّ أنه شق طريقه فوق الجدار الحجري. لقد تركها هنا لتبرر وجود صناديق المعدات في السيارة، وتتوصل إلى سبب معقول لوجودها هنا الآن.

كاد قلبها ينفجر رعبًا داخل صدرها.

قالت للظلال الأربعة بصوتها الرقيق الأقرب إلى الأنين: «صباح الخير[1]».

اقتربوا منها في خطوة واحدة، مصوبين بنادقهم إلى الأمام.

خمسة عشر مترًا، عشرة أمتار، تقاربت الظلال وهم يحاصرونها.

ثم تحركت الظلال الثابتة إلى الأمام فجأة، ظل سريع من اليسار انحرف نحو الحركة، وارتفع معه مسدس طويل، ثم صرخة مفاجأة من الأشباح أمامها حين تكومت أمامهم هيئة طويلة اتخذت شكل كرة.

رجعت إلى الوراء بسرعة واصطدمت بصندوق السيارة بينما تشاهد حركة رقص الضوء والظلام أمامها. استطاعت أن تميز عبر الفوضى في الطريق أمامها ملامح الذراعين والساقين حيث تمطر اللكمات والركلات، وتدور البنادق في الهواء وترتطم بالحصى المغبر وسط الصياح وشق اللحم وارتطام العظام.

سقطت الهيئة الثانية دون حراك تحت إضاءة المصابيح الأمامية. رأت أنه ليس جيم. مزيد من التقارب للظلال في سحابة الغبار الصاعدة، وهيئة رجل مظلمة يمسك برأس ورقبة شخص آخر من الخلف ويدور، ثم يرفع الظل من الرصيف، ثم سمعت جوستين طقطقة عنق بينما تحطمت فقرات عنق بالتواء شديد.

شاهدت جوستين معارك بالأيدي في برامج الحركة التلفزيونية. لكن هذا لم يشبه ما رأت، كانت الحركات أسرع وأكثر وحشية وقسوة. لم يكن هناك مشاعر أو رقة فيما بين الخصوم، لا لقد كان اصطدام صلب بصلب، وردود أفعال ارتجاجية، ووحوش برية تصرخ وتنخر، وصعوبة التنفس من الإجهاد والذعر. أصوات الصدمات وهيجان

(1) بالفرنسية في الأصل.

القتال بلا رحمة، كانت واثقة بأن جميع الرجال سيُمزق بعضهم بعضًا في الشارع أمامها.

سقط ثلاثة رجال، وهرب رابع من بين أعمدة الضوء ليحضر بندقية سقطت وانزلقت بعيدًا عن القتال. رأت جوستين جيم وهو يلاحق رجلًا آخر في الشارع المغبر ويطرحه أرضًا. تعارك الاثنان، وسقط جيم على ظهره في الطريق البارد. استدارت المرأة الفرنسية بسرعة إلى صندوق السيارة لرفع البندقية التي تركها الأمريكي هناك، رغم أنها تجهل تمامًا كيفية تشغيلها حتى تستخدمها. عندما التفتت بعيدًا عن القتال، سمعت صرخة ألم رهيبة. رفعت البندقية الكبيرة واستدارت لتجد جيم على ركبتيه بينما يتدحرج الرجل الرابع بعيدًا عنه ويداه فوق عينيه.

نهض جيم مرة أخرى وفي يده مسدس طويل اقترب به من رأسه، راقبت جوستين جيم وهو يضرب الرجل المتألم بكعب المسدس مرة تلو الأخرى، مثل فأس تقطع الخشب، سقطت الضربات على ظهر الرجل المكافح. يداه مرفوعتان للدفاع عن نفسه، لكن كعب المسدس يشق طريقه إلى عينيه اللتين مُلئتا رعبًا.

احتقنت عيناه بالدماء وانكسر فكه وفُتح بشكل مقزز. لا بد أنه تلقى عشرات الضربات القاسية على رأسه المحطم حتى يبقى على ظهره في الطريق البارد، ولم تستطع جوستين أن تنظر بعيدًا.

عندما انتهى كل شيء، أنزلت الفرنسية مصدات السيارة أرضًا ببطء، وضعت البندقية أمامها، وارتجفت يداها الفارغتان وهي تغطي وجهها وتبكي.

***

لهث كورت إذ يُبعد الجثث الأربع عن الطريق، وسمع طائرة هليكوبتر بالأعلى في ضوء الصباح. كان على المروحية أن تحلق فوقه مباشرة لتحديد موقعه، بسبب السياج على كلا الجانبين والجدار العالي

المحيط بقصر لوران. لكن جينتري كان يعلم أن كل ثانية يبقى فيها مكشوفًا على الطريق الترابي كانت مخاطرة.

هَمَّ بالبحث في صندوق السيارة عن أي معدات يمكنه استخدامها. وجد على الفور أربع مجموعات من الدروع الواقية للبدن من المستوى **(A3)**. كل ذلك بلا قيمة أمام رصاص البنادق، لكنها فعالة في إيقاف نيران المسدس. سرعان ما دفع رأسه من خلال سترة، ولف الألواح الجانبية بإحكام حول خصره. وفي الخلف كانت هناك واقيات ركبة صلبة ووسادات للمرفق، ارتدى كل هذا أيضًا، واعتقد أن خدشًا في المرفق سيكون أقل مخاوفه وطأة في الدقائق القليلة القادمة، لكن لم يكن هناك أي معنى لترك أقل المعدات الواقية وراءه.

جلس في مقعد السائق في السيارة السيتروين الصغيرة، ودفعها نحو شجرة سميكة محاولًا إخفاءها. نظر إلى أسفل، وأدرك أن بعض الغرز التي استخدمتها جوستين لخياطة جُرح معدته قد انقطعت، إن لم تكن كلها. نزف جرح السكين ونزفت ضماداته وقميصه تحت السترة الواقية من الرصاص. سالت الدماء من بطنه وأسفل سرواله، وعلى مقعد السيارة فصاح: «تبًّا!». لقد كان وقته ينفد مرة أخرى.

بعد أن أخفى الجثث والسيارة وألقى بنادق الكلاشنكوف في الأدغال، ذهب إلى جوستين، التي كانت لا تزال جاثية بجوار السيارة. مسحت الدموع وخيوط الشعر الأشعث من عينيها، ووقفت ببطء على قدميها.

نظرت نحو الجثث المخبأة في الأدغال بإهمال، فتباعدت الذراعان والساقان تباعدًا غير طبيعي. وقالت: «كانوا أشرارًا، صحيح؟».

أجابها جينتري: «أشرار للغاية. كان عليَّ أن أفعل ذلك، والآن عليَّ أن أعبر هذا الجدار وأفعل الكثير من ذلك».

لم تستجب جوستين.

بدأ كورت يفتح علب الألومنيوم، وربط حزام الأدوات بإحكام حول خصره معلقًا جراب المسدس حول فخذه الأيمن، وحاملة الخزائن الإضافية حول فخذه اليسرى.

وقال: «نفد الوقت. عليَّ أن أذهب». علّق البندقية القصيرة حول رقبته وذراعه اليسرى وربط الرشاش الصغير (MP5) في سترة العدة التي أخذها من السيارة السيتروين الزرقاء لتتدلى فوهته إلى الأسفل. أدخل مسدس جلوك عيار 19 في جراب فخذه، وربط قنبلتين يدويتين في مكانهما على السترة، ثم أخذ هاتف القمر الصناعي من المقعد الأمامي للسيارة ووضعه في جيبه الخلفي.

في أقل من ثلاث دقائق كان جاهزًا. عاد إلى جوستين التي وقفت خلفه في صمت، فما زالت تنظر إلى الأرجل المكشوفة للجثث الأربع الممزقة. وقال: «سأحتاج إلى استخدام غطاء السيارة لتسلق السياج. ما إن ألقي نظرة على الجزء العلوي، أريدك أن ترجعي إلى الخلف، وتستديري وتعودي بالسيارة إلى الساحل، ثم تتجهين غربًا لا شرقًا. وأوقفي السيارة عند أقرب محطة قطار، واستقلي أول قطار صباحي إلى باريس، ثم عودي إلى المنزل. شكرًا لك مرة أخرى على كل ما فعلتِه من أجلي».

كانت نظرات جوستين شاردة. علم جينتري أن قتل الرجال الأربعة في قتال مباشر أمامها قد هزَّها بشدة. فكر أن هذا من المفترض أن يزعج أي شخص، على الأقل أي شخص عادي لا يعيش الحياة التي يعيشها هو.

سأل بلطف: «هل ستكونين بخير؟».سألت وعيناها ما زالتا شاردتين من أثر القتال: «هل أنت رجل سيئ يا جيم؟».

وضع يده على ذراعها، وأمسكها برفق وإن لم يبدُ لها هذا مريحًا. قال: «لا أعتقد ذلك. لقد تعلمت بعض الأشياء السيئة. أفعل بعض.. بعض الأشياء السيئة، لكن للأشرار وحسب».

قالت: «أجل». بدتٍ كأنها استرخت قليلًا. «أجل». نظرت إليه ثم قالت: «أتمنى لك حظًا سعيدًا».

قال: «ربما، عندما أنتهي من هذا، يمكننا التحدث ـــــــــــــ».

قاطعته قائلة: «لا». وأشاحت بنظرها. وأكملت: «لا. من الأفضل أن أنسى ذلك».

قال لها: «أفهم».

عانقته لفترة وجيزة، ولكن بدا لجينتري أنها تشعر بالحيرة، كما لو أنها تعامله الآن كحيوان بعد عرضه الوحشي للعنف.

من الواضح أنها أرادت فقط أن تبتعد عنه وعن كل هذا الجنون.

صعدت إلى مقعد السائق في السيارة بدون كلمة أخرى، بينما تسلق هو غطاء المحرك. منحته المسكنات التي أعطته إياها في أثناء نومه بعض الراحة. ومع ذلك، كان تسلق الجدار معاناة شديدة لرجل مصاب بمثل هذا الجرح الحاد في بطنه، فضلًا عن معصمه وساقه وقفصه الصدري.

انزلق جينتري فوق الجزء العلوي من الجدار الحجري، وأنزل قدميه إلى أسفل ليسقط على العشب الناعم، وسمع السيارة السيدان الصغيرة تنسحب بعيدًا وتنعطف إلى الطريق. نظر كورت في ساعته، كانت السابعة وأربعين دقيقة صباحًا. حجب الضباب الكثيف القصر تمامًا. كل ما كان يراه هو بداية بستان تفاح أمامه. فرشت الأرض بفاكهة حمراء زاهية تحت صفوف لا نهاية لها من الأشجار الصغيرة ذات الجذوع الضيقة.

تفقد كورت معداته للمرة الأخيرة، وأخذ نفسًا عميقًا للسيطرة على آلامه وأوجاعه، وراح يركض عبر البستان في الضباب الرمادي الكثيف.

33

قال ريجيل: «أغلقوها».

امتثل الفرنسيان اللذان كانا يحدقان إلى صف الشاشات في المكتبة لمدة اثنتي عشرة ساعة متواصلة لما قيل لهما. بدآ في تقليب المفاتيح من اليسار إلى اليمين، وإيقاف تشغيل الصور من كاميرات الأشعة تحت الحمراء حول القصر.

ظهر لويد خلفهم جميعًا عند باب المكتبة وسأل: «ماذا تفعل؟».

أجاب ريجيل: «كاميرات الأشعة تحت الحمراء تعمل في الليل يا لويد. لقد انتهى الليل».

ـ قلت إنه سيأتي في الليل.

ـ نعم فعلت.

ـ لكنه ما زال سيأتي، أليس كذلك؟

أجاب ريجيل الصياد: «لا يبدو الأمر كذلك». وصوته مشوب بالارتباك والغم.

سأل لويد: «لدينا خمس عشرة دقيقة للحصول على جثة لفيليكس. ماذا سنفعل بحق الجحيم؟».

التفت ريجيل إلى الأمريكي الأصغر وقال: «لدينا مروحية فوقنا، وأكثر من مائة رجل وامرأة يبحثون عنه. لدينا ثلاثون بندقية هنا في القصر، في انتظاره. لقد أطلقنا النار عليه، طعناه، أرسلناه إلى سفح جبل من أعلى الجسر. لقد قتلنا أصدقاءه، وجعلناه ينزف حتى جَفّ. ماذا يمكن أن نفعل غير ذلك؟». حينها فقط صدر صوت الفني عبر خاصية الاتصال اللاسلكي من هاتفي الرجلين.

قال الفني: «لدينا مشكلتان».

سأل ريجيل: «ما هما؟». أجاب الفني: «لقد خرج البوليفيون من المنافسة. اتصلوا للتو من باريس ليخبرونا أنهم استقالوا».

رد لويد قائلًا: «يا للمصيبة!».

وأتبع الفني: «والكازاخيون لا يسجلون وصولهم».

رفع ريجيل هاتفه عن حزامه. «إنهم لا يسجلون الوصول مُطلقًا».

قال الفني: «لا يمكننا العثور على مروحية السعوديين على الطريق».

تحدث لويد عبر هاتفه الآن: «كنا سنسمع طلقات نارية لو كانوا في معركة مع الرجل الرمادي. لا تقلق بشأن ذلك. ربما هرب الأوغاد مثل البوليفيين».

سار لويد وريجيل عائدين إلى الطابق الثالث. كان كلا الرجلين متعبًا بشدة، لكن لن يسمح أي منهما للآخر برؤية أي علامة ضعف. وبدلًا من ذلك، تجادلا حول ما كان يمكن فعله بطريقة مختلفة، وما الإجراءات التي لا يزال من الممكن اتخاذها في اللحظة الأخيرة.

دخلا غرفة التحكم، ولاحظا على الفور أن فيليكس يقف بالقرب من النافذة، وهاتفه المحمول على أذنه. بعد ثوانٍ، أنهى الرجل الأسود النحيل الذي يرتدي البذلة مكالمته، واستدار ليواجه الغرفة. لم ينطق بكلمة واحدة منذ ساعات. ثم قال: «أيها السادة، يؤسفني أن أقول إن وقتكم قد انتهى».

اندفع لويد نحوه بنظراتٍ منفعلة.

ـ لا! لدينا عشر دقائق. عليك أن تمنحنا المزيد من الوقت. رأيته يسقط في الماء. لقد قتلناه. نحن فقط بحاجة إلى وقت للعثور على أي خندق زحف إليه ليموت. أخبر أبا بكر أنك رأيته يسقط.

ـ كانت تعليماتك أن تحصل على جثة، لقد فشلت في هذا التعهد. وأبلغت رئيسي بهذا. أنا آسف. إنه واجبي، أنت تفهم.

ارتخت كتفا ريجيل العريضتان، ونظر بعيدًا. لم يصدق أن الرجل الرمادي، إذا كان على قيد الحياة، لم يأتِ لإنقاذ الطفلتين.

قال لويد: «سيصل في أي ثانية. لا يجبَ أن يوقّع أبو بكر على العقد حتى يغادر منصبه في غضون ساعة أخرى».

قال فيليكس: «إنها الآن نقطة خلافية. لقد أبلغت الرئيس عن تقدمك. أو بالأحرى، عدم إحرازك لأي تقدم. لقد وقع عقد منافسك في أثناء مكالمتنا، تلقيت تعليمات بالعودة إلى باريس في انتظار المزيد من التعليمات».

أومأ ريجيل برأسه ببطء وقال لفيليكس: «يمكنك العودة مع المهندسين الفرنسيين. سيغادران إلى باريس في غضون ساعة».

بادله فيليكس إيماءة تقدير وقال: «أنا آسف أن هذه المهمة لم تنجح معك. أنا أقدر مهارتك، وآمل أن تلتقي مصالحنا مرة أخرى ذات يوم».

انحنى الألماني والنيجيري لبعضهما بعضًا. تجاهل فيليكس الأمريكي، وترك الغرفة استعدادًا للمغادرة.

نظر ريجيل إلى الفني وقال: «أبلغ الفرق أن المهمة انتهت، لقد فشلوا. دعهم يعرفون أنني سأتصل برؤساء وكالاتهم بعد ظهر اليوم لأقدم لهم نوعًا من الـ.. مواساة».

نفذ الفني ما قيل له. أغلق الشاشات أمامه، نزع سماعات رأسه ووضعها على المنضدة ببطء، وتخللت أصابعه شعره الطويل.

جلس باقي الرجال الثلاثة في غرفة التحكم بمفردهم شاردين لبضع دقائق. سطع ضوء الصباح عبر النافذة، بدا كأنه يزحف على الأرض تجاههم، ويسخر من فشلهم. كان عليهم أن يحصلوا على رجلهم مع شروق الشمس، في حين يسخر شروق الشمس منهم الآن.

نظر لويد إلى ساعته وقال: «إنها الثامنة وخمس دقائق الآن. لا داعي للمماطلة بعد الآن».

كان كيرت ريجيل ينظر إلى قاع فنجان قهوته، منهكًا. سأل بشرود: «المماطلة في ماذا؟».

قال لويد: «الالتزامات في الطابق الثاني».

انتبه ريجيل وقال: «تقصد السير دونالد. سأتولى الأمر. أنت ستستغرق اليوم كله».

هز لويد رأسه وقال: «ليس دون فقط، كلهم، الأربعة».

نهض ريجيل من كرسيه وقال: «عم تتحدث؟ تريد قتل المرأة؟ الطفلتين؟».

ـأخبرت جينتري أنه إذا لم يظهر فسوف يموتون، وهو لم يظهر. لا تبدُ متفاجئًا هكذا بحق الله.

ـلم يظهر؟ هذا يعني أنه ميت. لماذا تعاقب ميتًا أيها الأحمق؟

ـ كان يجب أن يبذل جهدًا أكبر.

سحب لويد مسدسه الآلي فضي اللون من وركه وتركه يتدلى من يده.

ـأفسح الطريق يا ريجيل. لا تزال عمليتي.

ـليس بعد الآن.

كان ثمة تهديد في صوت الألماني الكبير.

قال لويد: «مهما يكن الأمر، لا يزال لديّ عمل لأقوم به، ولا يمكنك منعي. يمكنك أن تنافق تلك العائلة، لكنك تعلم أن بوسعهم التعرف إلينا، وتحديد هذا المكان. يجب أن يموتوا».

تخطى ريجيل ودخل الرواق. رن هاتف سير دونالد فيتزروي على مكتب الفني. سرعان ما ظهر لويد في المدخل، وجلس الفني الشاب على الفور واضعًا سماعاته فوق أذنيه، وعاد فيليكس إلى الغرفة من باب الفضول، حقيبته الدبلوماسية في يده وعلى ذراعه معطفه الواقي من المطر ذو اللون الجملي.

أوصل الفني المكالمة بمكبرات الصوت العلوية. قال لويد: «أجل؟».

ـصباح الخير يا لويد. كيف الأحوال؟

***

ـ فات الأوان يا كورت، لقد خسرنا العقد، مما يعني أنك فشلت. لست بحاجة إلى نفوذ فيتزروي بعد الآن. كنت متجهًا إلى الطابق السفلي لإطلاق بعض الرصاص عليهم. هل تريد الاستماع؟

ـ أنت بحاجة إليهم أحياء أكثر من أي وقت مضى.

ابتسم لويد. «أوه حقًا، ولماذا؟».

ـ تأمينًا لحياتك.

ـ نعم.. كورت، شاهدتك تسقط من فوق ذلك الجسر الليلة الماضية. أنا لا أعرف أين أنت بحق الجحيم، لكنك لست في وضع يسمح لك بـ....

ـ انسوا العقد مع أبي بكر، لا تقلق بشأن طرد رئيسك إياك من العمل، وانسَ احتمال ظهور أتباع ريجيل عند بابك ذات ليلة باردة. تجاهل كل مشكلاتك المستقبلية في الوقت الحالي، الخطر الوحيد في عالمك هو أنا.

ـ كيف تكون خطرًا على...

ـ لأنني مدجج بالسلاح، وغاضب بشدة، وأقف بالخارج.

دبَّت نوبة نشاط صامتة في غرفة التحكم. انتقل ريجيل إلى النافذة بسرعة، ودفع ستائر الدانتيل جانبًا بأطراف أصابعه، ودقق النظر في الضباب الكثيف الذي غطى الحديقة الخلفية. ترنح الفني عبر المكتب إلى جهاز الراديو المحمول الخاص به وبدأ يهمس بالأخبار للحراس في ذعر. أخرج فيليكس هاتفه المحمول واندفع نحو الردهة، وهو يضغط على الأزرار بينما يتحرك.

وحده لويد لم يجفل. وقف كما لو أن قدميه عالقتان في الأرض. وقال: «أنت مخادع. هل تتوقع أن أسمح لأسرة فيتزروي بالرحيل فقط لأنك تقول إنك بالخارج؟ أي نوع من الحمقى تحسبني؟».

أجاب جينتري: «أحمق منتهي الصلاحية. وأفترض أن حاصد الأرواح في مجموعة لوران يستمع إليَّ. ريجيل، الأمر نفسه ينطبق عليك. إن مسست شعرة من رأسي الطفلتين أو السيدة فيتزروي، فستموت في هذا المنزل».

تحدث ريجيل: «صباح الخير سيد جينتري. إذا كنت في الخارج، فلماذا لا تأتي إلى الباب الأمامي؟ فُقِد عقد لاجوس. لقد تلاشى حافزنا لقتلك. لقد ألغينا للتو فرق القتلَ. انتهت اللعبة. إذا كنت هنا حقًّا، فلِم لا نذهب لاحتساء القهوة؟».

قال جينتري: «إذا كنت تشك أني قريب فربما يجب أن تحاول التحقق من الرجال الأربعة ذوي الرائحة الكريهة في السيارة السيتروين الزرقاء».

كانت هذه مفاجأة، لم يعرف ريجيل السيارة التي قادها الكازاخيون، لكن الفني المتلهف عاود الاتصال بهم. وعندما فعل ولم يتلقَّ أي رد، نظر إلى رؤسائه برعب. أخيرًا قال ريجيل: «هذا مثير للدهشة. لا يزال بمقدور رجل في وضعك القضاء على أربعة عملاء من الدرجة الأولى دون إطلاق رصاصة. كما قلت، لم يعد لدينا خلاف معك بعد الآن. من فضلك تعال وسنـ...».

قال جينتري: «أطلقوا سراح أسرة فيتزروي وسلموا ملفات إدارة الأنشطة الخاصة، وإلا أقسم أنني سأقتل كل شيء حي في ذلك المنزل!».

كان لويد هادئًا، ويداه على ساقيه وقد شمّر كُمَّيه المتعرقين إلى مرفقيه. لكنه تحرك الآن. اندفع عبر الغرفة إلى مكتب الفني، وانحنى إلى ميكروفون الهاتف المحمول وقال: «فلتأتِ أيها الأعرج القذر، في غضون ذلك سآخذ شفرة حادة لأذهب بها إلى الكلبتين الصغيرتين السخيفتين في الطابق السفلي...».

سحب ريجيل المحامي الأمريكي بعيدًا عن الهاتف ودفعه بقوة في الحائط الحجري. انحنى بنفسه وتنحنح قائلًا: «نعم كورت، هل تسمح لنا بلحظات لمناقشة اقتراحك؟ أنت تعرف كيف هي الشركات، يجب أن ندعو إلى اجتماع لمناقشة كل شيء».

أجاب جينتري: «بالتأكيد يا ريجيل، سأعود بعد قليل. خذ وقتك، لا داعي للاستعجال».

وانقطع الاتصال.

***

صاح لويد في الفني: «أحضِر جميع الفرق هنا، الآن!».

رفع ريجيل يده ليُبقي الفني مكانه. عندما تحدث، كان صوته أكثر منطقية: «لأي غرض يا لويد؟ لم يعد العقد على المحك بعد الآن. انتهت اللعبة».

ـ لكن ما زال لدينا الرجل الرمادي!ـ هذه مشكلتنا، وليست مشكلة مجموعة لوران. لن ينفق مارك لوران سنتًا واحدًا على فرق القتل الأجنبية لحمايتنا. لا يوجد أكثر من عشرين مليون دولار مكافأة يتعين دفعها.

من الواضح أن لويد لم يفكر في هذا. هز كتفيه. وقال: «لا يجب أن نخبر القتلة بذلك».

هز ريجيل رأسه وقال: «لذا بدلًا من محاربة رجل جريح الآن، تريد أن تزعج مارك لوران وأجهزة أمن ست دول، وتحارب مؤسستنا وست دول لاحقًا؟ أعلم أنك مجنون يا لويد، تيقنتُ من هذا، لكن هل أنت انتحاري أيضًا؟».

كان الفني ينظر إلى مديريه في انتظار التعليمات. ثم أمال رأسه إلى جانبًا ووضع يده على سماعة الرأس.

وقال: «مهلًا! كل الفرق قادمة إلى هنا على أي حال!».

قال لويد سعيدًا بتسوية الأمر: «جيد».

سأل ريجيل: «لماذا؟».قال الفني: «اتصل بهم فيليكس. إنه يعرض عشرين مليون دولار نقدًا من أبي بكر للفريق الذي يقتل الرجل الرمادي».

صاح لويد: «رائع! متى يبدؤون...».

قال الفني: «ليس رائعًا! لقد أخبرهم أن يقتلوا أي شخص يعترض طريقهم. بما في ذلك الفرق الأخرى! بما في ذلك نحن. سيقاتلون بعضهم البعض من أجل رأس جينتري هنا في القصر!».

لم يتردد كيرت ريجيل: «اسحب كل حراس مينسك إلى داخل المبنى! ألبرت سيرج وألن، والحراس البريطانيين الثلاثة. يجب أن ندافع عن هذه الجدران ضد كل التهديدات! الرجل الرمادي أو فرق القتل».

نظر الفني إلى ريجيل وقال: «سيصل الليبيون إلى هنا خلال لحظات! والسعوديون فوق رؤوسنا الآن!».

نظر ريجيل من النافذة للمرة الأخيرة وصاح: «اتصل بمجموعة لوران في باريس، فليأتوا بمروحية الإخلاء لإخراجنا من هنا! ثم شكِل فرق القتل، وأخبرهم أنه لا يزال بإمكاننا العمل معًا. قل لهم كورت بالخارج. أخبرهم أننا لن نسمح لأي شخص بالدخول إلى القلعة. يجب أن يقتلوه قبل أن يدخل».

دار الفني في كرسيه وأجرى اتصالًا بالمقر الرئيسي.

***

لم يكن لدى جينتري أي نية للاتصال بريجيل مرة أخرى. أمام كل ثانية أجَّل فيها هجومه على القصر هناك ثانية أخرى يمكن للمدافعين أن يجهزوا فيها أنفسهم، ويبحثوا عنه، ويحضروا المزيد من التعزيزات. وقد حان الوقت لقتل الفتاتين.

لا، كان عليه أن يتحرك الآن. كانت الأرض قد غمرها ضوء الصباح وهو يرقد في بستان التفاح في الجزء الخلفي من المنزل. بصعوبة

يمكنه أن يميّز حدود البناء الكبير الذي يلوح أمامه على ارتفاع في الضباب الرمادي. لقد قطع ربع ميل منذ سقط فوق الحائط، وكان لا يزال على بعد مائتي ياردة فقط من قصر لوران.

المساحة المكشوفة أمامه هي مصدر قلقه الأكبر. ما إن يتحرر من تغطية صفوف الأشجار والضباب الكثيف العالق في الهواء، سيكون مكشوفًا تمامًا. كما حلقت طائرة هليكوبتر في حلقات عالية في الجو. لم يستطع رؤيتها، لكن المروحة الخفّاقة أعلنت وجودها فوق العقار.

سيكون هذا صعبًا بما يكفي حتى لو لم تكن إصاباته كثيرة، ولكن بغض النظر عن ظروفه الشخصية السيئة، كان يعلم أنه لا وقت ليضيعه. نهض كورت على واقيات ركبتيه، ثم انحنى ببطء. شعر بالدم على ساقه اليسرى، وعرف أنه كان يتدفق مرة أخرى من جرح السكين. جرعة المنشط التي أدخلها في مجرىٍ دمه ستزيد فقد الدم فقدانًا كبيرًا.

قال بصوت عالٍ: «تبًّا!». فكَّ رشاش (M4) وثبته بين ذراعيه. ثم نهض وركض إلىً الأمام بكل ما تبقى لديه من قوة.

ما إن نبه الفني الطوق الأمني حول القصر بأن الرجل الرمادي بالخارج، اندفع سيرج من المطبخ إلى المكتبة وقلب الشاشات مرة أخرى، إذ يعلم أن كاميرات الأشعة تحت الحمراء ستلتقط أي شخص يختبئ في الضباب. حدق باهتمام إلى شاشة واحدة ثم التالية. يرصد ذهابًا وإيابًا. سرعان ما ثبَّت عينيه على صورة. اندفعت يده للراديو على مكتبه.

وجَّه البث لجميع العناصر في القصر. مناديًا:

«حركة في الخلف! حركة في الخلف! رجل واحد، يتقدم بسرعة!».

جاء صوت لويد عبر الراديو: «أين؟ أين هو بحق الجحيم؟».

أجاب: «في البستان. يا إلهي! يمكنه الركض!».

صرخ لويد عبر الراديو: «أين في البستان؟». أجاب سيرج: «إنه يركض حتى المنتصف!».

اقتحم مراقب البرج الموجة نفسها. كان صوته السميك ذو اللكنة البيلاروسية هادئًا، عكس صرخة لويد.

وقال: «ليس لديّ هدف. لا نرى أي شيء، انتظر، نعم. رجل واحد، يأتي بسرعة! سنقتله!».

***

ترك موريس مجموعة رائعة من المعدات لجينتري، لكن موريس كان بالتأكيد من الطراز القديم، ولم يكن العتاد الذي اضطر كورت لاستخدامه مثاليًّا لتلبية احتياجاته. منظار بندقية كولت في يديه حديدي. لم تكن هناك رؤية ثلاثية الأبعاد مثل التكنولوجيا الفائقة ذات اللمسات السحرية التي يفضلها جينتري.

تتضح ملامح القصر أمامه شيئًا فشيئًا، إذ يركض بسرعة مخترقًا الضباب بمشقة، وقد رصد البرج أعلاه. كان يعلم أن هذا سيكون مخبأ قناص، ويعلم أن هذا الرجل سيكون لديه أفضل مهارة وأفضل نطاق وأفضل بندقية وأفضل فرصة لوضع حد لهجوم الرجل الواحد الهزلي الذي يجريه كورت.

لذلك رفع الرجل الرمادي بندقيته على كتفه، ولا يزال في طريق مسدود. كان من المستحيل إطلاق النار بمنظار حديدي في أثناء الجري؛ هدفه ببساطة هو ضخ أكبر قدر ممكن من الرصاص في البرج لإلهاء أعدائه ريثما يصل إلى جدار المبنى. علم كورت أنه لا يوجد شخص في المنزل لديه القدر نفسه من التدريب أو الخبرة في المعارك عن قرب مثله. عليه فقط البقاء على قيد الحياة لفترة طويلة بما يكفي لتصبح معركة عن قرب، فيحصل على أي نوع من فرص النجاح.

***

رأى القناص الهدف يطلق النار من الضباب أمامه. تطايرت خصلات من البخار في دوامة خلفه وهو يركض. عدّل البيلاروسي ذو الثلاثين

عامًا تصويبه ووجَّهه نحو صدر الرجل الجريء. وضع إصبعه على الزناد من أجل طلقة سريعة في منتصف الصدر.

لقد لاحظ الدروع الواقية للبدن تحت السترة الحربية، وأنزل كعب بندقية القنص الكبيرة ملليمترًا للتصويب على جبهة الرجل السريع. عندما بدأت أطراف أصابعه في الضغط على الزناد الضيق، شعر بسلاح هدفه الأساسي يرتفع أمامه، لكنه لم يرَه. ومضات من فوهة السلاح وطقطقة نيران البندقية. ثم سمع القناص أصوات فرقعات وانفجارات في حجارة وخشب البرج، وامتلأ الهواء من حوله بغبار دخاني حيث اصطدمت قذائف فائقة السرعة مغطاة بغطاء معدني بحجارة عمرها مئات السنين. صرخ المراقب إلى يساره، لكن القناص كان منضبطًا. لم يرفع خده عن البندقية، ولم يرفع عينه عن المنظار، وضغط الزناد بثقة تجاه الرجل الذي انطلق نحوه.

34

أطلق جينتري ما يقرب من ثلاثين رصاصة كاملة على البرج الذي يلوح فوقه بينما يقترب منه بأسرع ما يمكن. لقد أراد إنهاء الخزينة ببضع طلقات أكثر دقة في اتجاه البرج، لذلك ثبت البندقية السوداء في مستوى العين أمامه، وحاول أن يحصل على تصويب عبر فتحة المسدد الدائرية فوق مقبض البندقية. وحين فعل ذلك ارتدت البندقية مرة أخرى في وجهه، وأفلت بقوة من بين يديه، وانقلبت في الهواء.

ركض كورت دون سلاح.

بعد نحو أربع خطوات أو خمس عبر العشب المبلل، كان وجهه يحترق ألمًا من أثر ضربة الكعب أسفل عينه، أدرك أن بندقيته (M4) لا بُدَّ أنها أصيبت بقذيفة من بندقية عالية القوة. على أي حال فقد سلاحه الأساسي، أدرك أن البندقية قد أنقذت حياته، مما أدى إلى تحريف اتجاه رصاصة القناص إلى رأسه.

مد يده إلى أسفل، وسحب المسدس الرشاش من مكانه على صدره دون أن يفقد اتزانه. أطلق النار مرة أخرى على البرج الذي لا يبعد عنه أكثر من مائة ياردة. كان مسدس (MP5) فعالًا مثل مضرب ذباب يحمله رجل يركض عبر أرض مكشوفة، ويطلق النار على نافذة صغيرة بعيدة دون تصويب، لكنه كان يأمل في أن يؤدي ذلك على الأقل إلى إلهاء بعضهم.

***

رأى القناص الرجل الذي يركض يترنح من أثر رصاصته، فرفع رأسه بعيدًا عن المنظار ليدعم زميله، لقد تلقى وجهه ضربة من قطعة حجر، فكسِرت نظارته ونزفت جبهته، لكنه كان متماسكا ولم يصب بأذى

شديد. عندئذ اندلع المزيد من إطلاق النار من الحديقة الخلفية. وفجأة نظر القناص البيلاروسي إلى أسفل، ورأى الرجل الذي أيقن أنه أطلق عليه رصاصة، يواصل مهمته.

علم الرجل في البرج من التقارير الواردة عن وجود البندقية في يده، أن الرجل الرمادي قد انتقل إلى مسدس رشاش عيار 9 ملم. سرعان ما جلس على الطاولة ببندقية القنص. تولى موقعه خلف المنظار في أقل من ثانيتين. فجأة اندلعت فرقعة جديدة من نيران البندقية، هذه المرة من خلفه على الجانب الآخر من القصر. لم يفهم للحظة ما كان يحدث، حتى جاء صوت أحد أبناء موطنه عبر الراديو على المنضدة: «إنهم الليبيون! إنهم عند البوابة الأمامية! تخلص منهم أيها القناص!».

بتردد رفع القناص بندقية الدراجونوف الكبيرة من الطاولة وأخذها إلى البوابة الأمامية للبرج. أصبح الرجل الرمادي مشكلة شخص آخر الآن، عليه أن يشتبك مع الأهداف البعيدة، الليبيين.

ولم يعد الرجل الرمادي بعيدًا. كان قريبًا.

خارج برج القناص مباشرة حلقت مروحية اليوروكوبتر السوداء على ارتفاع منخفض فوق ممر السطح. اندفع أربعة عملاء سعوديون مدججين بالسلاح والمعدات العسكرية، وقفزوا من ارتفاع ست أقدام في الجانب الشرقي من السطح المنبسط، لقد تجاهلوا المعركة التي تدور عند مدخل المبنى، وبدلا من ذلك، اتخذوا جميعًا مواقع خلف الأسوار المزخرفة التي تطل على الحديقة الخلفية، وعلى الرجل الوحيد الذي يركض نحوهم في المساحة المكشوفة.

عندما أوشك جينتري على بلوغ هدفه، أعاد تصويب نيرانه من البرج فوق القصر إلى نافذة في الطابق الأول حيث ومضت فوهة سلاح عدة مرات، أفرغ جينتري خزينته الأولى في النافذة أمامه. حُطمت الجدران حول النافذة، وانكسر الجرانيت إلى قطع مغبرة، وتحطم الزجاج،

وخفقت الستائر الدانتيل يمينًا ويسارًا حين وصلت إلى المكان بضع طلقات رصاص من بندقية كورت.

كان من الصعب إطلاق النار بسرعة كاملة، وكذلك يستحيل التصويب بدقة. لم يَرَ كورت المزيد من ومضات الفوهة من النافذة، لكنه لاحظ بدلًا من هذا طائرة اليوروكوبتر السوداء الأنيقة فوقه وأمامه، والرجال الذين قفزوا منها.

تبًّا!.

لا يزال على بعد سبعين ياردة من أقرب غطاء، لقد دفع ساقيه بقوة أكبر ليقترب من القصر قدر الإمكان قبل أن يحصل الرجال ـ الذين يغادرون الآن المروحية السوداء ـ على وضع يسمح لهم بالانقضاض عليه. هنا على العشب المسطح سيكون هناك بطة جالسة أم نيران مصوبة.

جذب جينتري قنبلة يدوية من سترته في أثناء ركضه، ونزع الفتيل بأسنانه، وتركها تطير.

ظهرت أمامه مباشرة هيئة ضخمة بشعر أشقر من نافذة في الطابق الثالث، رفع مسدسًا وأطلق النار عبر الزجاج. طار كورت إلى الأمام على العشب الأخضر الرطب لتجنب النار، وسقط على كتفه اليمنى، وتدحرج بسرعة إلى الأمام. عندما أنهى تدحرجه، نهض على قدميه.

منح الركض والوثب جسده دفعة هائلة، قوة دفع استخدمها لإلقاء القنبلة اليدوية عاليًا وبأقصى قوته. على بعد خمس وأربعين ياردة انطلق أزيز قنبلة بحجم حبة بطاطس في الهواء في حركة دائرية، وارتفعت فوق حافة الحواجز، ثم انفجرت، لكنها لم تصب مروحية اليوروكوبتر التي هربت إلى السماء، لقد هربت من القتال بأسرع ما يمكن. أسفر الانفجار فوق رؤوس السعوديين عن مقتل رجل على الفور وإصابة آخر في رقبته وظهره. وجد الاثنان الآخران الغطاء في

الوقت المناسب، لكنهما أضاعا فرصتهما في الحصول على تسديدة مفتوحة على هدفهما في الحديقة.

عند مدخل المنزل، لقي اثنان من بيلاروسيا وليبيان حتفهما بالفعل. قُتل الحراس من مينسك بالقرب من البوابة الأمامية. كانوا يركضون عائدين إلى القصر الآمن عندما تعطلت شاحنة عملاء طرابلس أمام البوابة الحديدية، أطلق الشرق ـ أوسطيون النار من مسدساتهم الآلية من طراز سكوربيون من السيارة المتحركة. قُتل الليبيان عندما أصدرت الشاحنة صريرًا حتى توقفت في الطريق المرصوف بالحصى.

قتل قناص البرج العميل الجالس في مقعد الراكب الأمامي برصاصة في وجهه، ونال الرجل الأول الذي انزلق من الخلف ثلاث طلقات من البيلاروسيَّيْن الوحيدين اللذين ما زالا خارج القصر.

قتل الليبيان المتبقيان الرجال في الممر، وأغلقا باب القصر الأمامي. أطلقا الرصاص الآلي من مسدسات سكوربيون الآلية على نوافذ كلا الجانبين، وحافظا على مسافة منضبطة بين أحدهما الآخر، وصاحا مطالبين بالاختباء في أثناء إعادة تعبئة السلاح وإعادة تموضعهما.

أطلق رقم اثنين نصف خزينة على مفصلات الباب المصنوع من خشب البلوط الثقيل، ثم فتحه. وفي أثناء إعادة تعبئة السلاح، اصطدم بالمبنى أمامه، وأصيب بدفعتين من الرصاص من حارس أيرلندي شمالي في الردهة، مما أردى الليبي قتيلًا على الأرض. رد الليبي الآخر الذي ما زال على قيد الحياة على الأيرلندي بالسكوربيون؛ فتناثرت الدماء والأنسجة على الجدار الأبيض خلف الرجل في الردهة في أثناء سقوطه.

***

لم يَرَ ريجيل شيئًا مثل هذا من قبل. كان الرجل الرمادي في مرمى البصر، يرتدي قميصًا بنيًا أدكن عليه بقع دماء عند خصره، وجراب مسدس ينسدل على وركه اليمنى، ويضع خزينتين في وركه اليسرى.

وتزين صدره سترة سوداء ومسدس رشاش. حليق الرأس، وحتى على بعد خمسين ياردة، ظن كيرت أنه لاحظ الشراسة في عينيه.

عندما سحب ريجيل مسدسه ووجهه نحو الرجل الراكض، كان يعلم أنها كانت تسديدة بعيدة المدى بالنسبة لمسدس، لكن بالنسبة لرام ماهر كالألماني، ما كان يجب أن يخطئ هدفه. لكن الرجل الذيَ يركض انخفض بعيدًا عن رصاصاته، وتدحرج إلى اليمين تمامًا لينهض على قدميه، وألقى قنبلة يدوية في الهواء.

اختبأ ريجيل تلقائيًا بجوار مكتب الفني، مفترضًا أن القنبلة كانت تستهدفه. ودوى الانفجار فوقه على السطح. سمع صراخًا وصياحًا عبر النافذة، وسرعان ما استعاد موقعه ليطلق بضع رصاصات أخرى على جينتري في أثناء اقترابه.

لكن عندما نظر إلى الخلف عبر النافذة، كان الرجل الرمادي قد اختفى، والآن لا توجد طريقة لمنعه من دخول المبنى.

رائع. تمامًا كما وعد جينتري عبر الهاتف في الليلة السابقة، أصبحت الفريسة هي المفترس.

اصطدم ظهر كورت بجدار القصر، وأعاد تعبئة سلاحه بخزينة جديدة من حزام الأدوات المعلق على فخذه. كان الرجل الأشقر الضخم يحمل مسدسًا فوقه بطابقين مباشرة. ويعلوه مباشرة من يطلقون النار من المروحية. أيقن بطريقةٍ ما أنه أضعف صفوفهم بعض الشيء، لكنه لم يتوهم أنه أزال التهديدَ الموجود على السطح.

على يساره ويمينه كانت هناك نوافذ في مستوى خصره.

تحطم الزجاج بِمسدس جينتري الرشاش فأصبح من الخطر الدخول دون الاستعداد أولًا. على يساره كانت هناك درجات تصعد إلى الباب الخلفي الرئيس، وقرب الزاوية على يساره كان ثمة معركة محتدمة في مدخل السيارات الأمامي، وإلى يمينه الجدار الخلفي الطويل مبطنًا

بالنوافذ، ثم مجموعة صغيرة من الأبواب. انطلق منحنيًا بطول الجدار، تحتك كتفه بالحجر ليبقى بعيدًا عن أنظار الصيادين فوقه.

كان بالقرب من الباب عندما فُتح للخارج. رفع سلاحه لإطلاق دفعة من النيران عبر الباب الخشبي، لكنه تردد في الثانية الأخيرة. ماذا لو كان أحد أفراد أسرة فيتزروي، أدرك كورت أنه لم يكن أفضل رجل لتنفيذ عملية الإنقاذ.

وقت القتال يفضل أن يطلق النار على أي شيء يتحرك؛ الآن كان عليه أن ينتظر لحظة إضافية لتحديد هدفه.

أطل رأس من حافة الباب، فكان كبيرًا وسلافيًّا، وعندما رأى ماسورة البندقية تمر من حافة الباب، اقتنع جينتري نفسه بصحة هدفه. أرسل ثماني طلقات عبر الباب إذ يركض نحوه. وأغلق الباب، لكن البلطجي الذي مات لتوه ترك حاجز الباب مفتوحًا أمام جينتري ليدخل ردهة مظلمة.

***

مع أول صوت لإطلاق النار في الحديقة الخلفية، ركضت كلير وكيت فيتزروي إلى أمهما النائمة لتهزَّاها وتصيحا في وجهها لتستيقظ. تعثرت إليز فور وقوفها على قدميها، فساعدتها الفتاتان على التوازن بأيديهما، وقادتاها إلى الجانب الآخر من غرفة النوم، حيث جلس الجد دونالد منتصبًا على السرير المغطى ذي الأعمدة الأربعة.

أبلغتهم كلير أن جيم يريدهم جميعًا تحت الفراش، ووافق الجد دونالد.

نزلت الأم بسرعة متمددةً ووجهها إلى أسفل على الخشب الصلب. تكومت كلير وكيت معًا في خوف، واسترقتا النظر تحت مفرش السرير باتجاه باب الردهة، بينما ظل الجد دونالد فوقهما.

بعد انفجار مدوٍّ على السطح من طابقين بالأعلى، نادى الجد دونالد الحارس: «ماكسبادن! ماكسبادن!».

رأت كلير حذاء الحارس الأسكتلندي يتحرك إلى الغرفة، وسمعت المحادثة فوقها، رغم أنها لم تفهم كل الكلمات.

ـ يا فتى، من الأفضل أن تركض الآن، لكن كن شابًا مطيعًا واترك لنا سلاحًا.

ـ تبًا لك يا فيتزروي! فات أوان الجري. سأحتاج إلى سلاحي لمحاربة كلبك المهاجم. يقولون عبر الراديو إنه موجود بالفعل في المنزل.

ـ ماكسبادن، إذا رأيت كلبي المهاجم، فسيكون آخر شيء ينقذك هو مسدس في يدك. قد تخلع لباسك الداخلي الأبيض وتلوح به استسلامًا إذا لم تكن لطخته بالفعل. هيا يا فتى. أنت تفهم ما الذي تواجهه. لا يمكنك إنقاذ نفسك إلا بمساعدتنا.

رأت كلير الرجل يجر حذاءه كما لو كان على وشك الهرب، لكنه عوضًا عن ذلك عاد إلى جدها. مد يده إلى أسفل، ورفع إحدى ساقي سرواله، وجذب منه مسدسًا فضيًا لامعًا.

وضعت كلير يدها على فم كيت لتمنعها من الصراخ.

ـ سأترك لك النسخة الاحتياطية الخاصة بي. فقط ست رصاصات صغيرة.

ـ إنها رائعة يا بطل. الآن انطلق، اخرج من الباب، لتحرسنا في حال ما إذا جاء ريجيل أو ذاك المعتوه لويد للتحقق. وإذا رأيت الرجل الرمادي، فأخبره أنك معي.

ـ حسنًا، سيكون هذا جيدًا لو أراد الدردشة معي أولًا. لقد انتهى أمري يا فيتزروي.

ابتعدت قدما الحارس وغادر الغرفة. بعد ثوانٍ قليلة، انزلق الجد دونالد من الفراش وزحف تحته، وبرز المسدس اللامع في يده المكتنزة.

كل شيء على ما يرام، سيداتي. لن يمر وقت طويل الآن. الفتى جيمي في الطريق.

***

بقي ريجيل ولويد والفني في غرفة التحكم بالطابق الثالث.

وقف لويد بالقرب من الباب المفتوح الذي يؤدي إلى الردهة ومسدسه يتدلى في يده اليمنى، وياقة قميصه الزرقاء الدكناء مفتوحة، وقد عُلِّقت تحتها عقدة ربطة عنقه.

وقف كيرت والفني أمام أجهزة الكمبيوتر، بالقرب من النافذة المحطمة في منتصف المسافة بين مخرجي الغرفة. استخدما أجهزة الراديو للتواصل مع من تبقى من البيلاروسيين في جميع أنحاء المبنى، والمهندسين الفرنسيين في الطابق الأول. فُقد أحد الأسكتلنديين، لكن الأسكتلندي الآخر والأيرلندي كانا لا يزالان في موقعيهما.

اندلع إطلاق نار فجأة على السطح، وافترض الألماني الكبير أنهم السعوديون في المروحية اليوروكوبتر يشتبكون مع فريق القناصة عبر نوافذ البرج. فاتصل بضابط الأمن الأسكتلندي وأمره بالصعود إلى الطابق الثالث لتغطية القاعة أمام مخرج الغرفة الرئيس.

عندئذٍ أعلن أحد البيلاروسيين عن وصول السريلانكيين وتقدمهم عبر المَدخل الأمامي. حاول التحدث إلى فريق القناصين على السطح لكن لم يرد عليه أحد.

ولا أحد يعرف أين ذهب الرجل الرمادي.

أيقن ريجيل أن مهمته الوحيدة الآن هي بقاؤه على قيد الحياة. لم يكن بحاجة إلى الرجل الرمادي ميتًا؛ انتهت هذه المهمة. ومع ذلك، إذا دخل جينتري إما من باب القاعة على يمينه، أو من مدخل السلم الدائري إلى يساره، إذا جاء أي شخص من أي مكان، فسيطلق ثلاث رصاصات من سلاح شتاير الكبير في وجهه قبل أن يزعج نفسه بمعرفة هوية المقتحم.

عليه فقط أن يصمد حتى وصول طائرة الإنقاذ من مقر الوطن.

***

أراد كورت أن ينحني ويتحرك خفية عبر المنزل، لكن ألم بطنه حال دون هذا. إن اضطُر إلى الحركة، وهو ما سيحدث بالتأكيد، يمكن حينها أن يسقط، يتدحرج، يزحف، أيًّا كان ما سيتعين عليه فعله. لكنه يخشى أنه إذا اضطر إلى الانبطاح أو الاختباء فقد لا يتمكن من النهوض. لذلك سار منتصبًا بشكل كامل، يكاد يجر ساقه اليسرى المخدرة خلفه.

سمع إطلاق نار فوقه في المطبخ الضخم، في الطابق الثالث أو السطح ربما. في الطابق الأول، بالقرب من الردهة، بدا الأمر لأذني الرجل الرمادي المتمرستين كأن معركة فرد ضد مجموعة قد انتهت للتو، والآن وصل تهديد جديد، ربما أربعة ضد أربعة.

استطاع أن يميز دوي رصاص بنادق الكلاشنكوف وبنادق عيار 12، وصياحًا روسيًّا بدا أنه من أحد أطراف القتال. اجتاز كورت المطبخ. كاد يصل إلى باب باتجاه الجزء الخلفي من القصر، بعيدًا عن إطلاق النار، عندما ظهر أمامه عند المدخل رجل أسود يرتدي بذلة بنية.

صوب كورت المسدس الرشاش على الرجل واسع العينين وسأله: «من أنت؟».

أجاب: «فقط الخادم الشخصي، سيدي. ليس لي دور في هذا».

أمسك جينتري بالرجل من حلقه وقاده باتجاه الحائط. ضغط فوهة سلاحه الساخنة على رقبته النحيلة، وفتش الأمريكي أسيره بسرعة فلم يجد سلاحًا واحدًا. ألقى كورت هاتف الرجل الخلوي في إناء من الماء على الموقد المجاور له. لم يعثر على أي هوية معه.

ـ ما اسمك؟

ـ فيليكس.

ـ دعني أخمن. فيليكس كبير الخدم النيجيري؟

ـ لا سيدي. أنا من الكاميرون.
ـ بالطبع يا صديقي.
دفع كورت الرجل باتجاه الباب من نهاية المطبخ. أبقى الرجل الأسود يديه في الهواء وهو يمشي وخلفه جينتري بعدة أقدام. عبرا غرفة طعام مزخرفة مع مدفأة مطلية بالذهب وطاولة ضخمة من خشب البلوط. اصطفت الجداريات واللوحات على الجدران. عندما دخلا إلى ممر صغير له باب على يساره مباشرة، همس جينتري مرة أخرى للرجل أمامه: «ماذا يوجد هناك؟».
قال بتردد: «إنها... إنها غرفة نوم».
ـ أنت غير واثق؟ خادم لا يعرف غرف المنزل؟
ـ أخبرتك.. غرفة نوم. أنا جديد هنا يا سيدي. أنا خائف.
ـ افتحه. دعنا نرَ ما إذا كنت على حق.
سحب كورت مسدسه الجلوك وأمسكه خلفه بيده اليسرى إذ يمشي في الردهة، بينما يصوب المسدس الرشاش إلى رأس فيليكس بيمينه.
فتح الرجل ذو البذلة الباب، وعاد إلى الرجل الرمادي. نظر كورت بطرف عينه، حيث تكدست ملاءات وبطانيات في الأرفف من الأرضية إلى السقف. لم تكن غرفة نوم. بل كانت خزانة أغطية كبيرة.
قال كورت: «إذا كنت كبير الخدم، فأنت فاشل».
لم يقل فيليكس شيئًا. واستمر إطلاق النار في مدخل المنزل دون توقف.
ثبت كورت الجلوك على وركه، وأخذ آخر قنبلة يدوية من سترته. سحب الدبوس ووضعه في جيبه، وأمسك بالمسمار إلى أسفل، ووضعه في يد فيليكس المتعرقة. عندما تيقن القاتل الأمريكي من استسلام أسيره قال: «لا تسقطها. ولا تحسب أن بوسعك استخدامها ضدي. يوجد فتيل مدته ست ثوان.. متسع من الوقت لأرديك قتيلًا وأدخل غرفة لأتفادى الانفجار».

قال فيليكس بصوتٍ واهن. «ماذا أفعل...؟».

أجاب كورت: «استمر في السير أمامي وحسب. سآخذها منك وأدعك تغادر ما إن أصل إلى هدفي. لا تقلق، ستعود إلى وطنك في الكاميرون في أسرع وقت».

انعطف الممر إلى اليسار وانتهى عند مجموعة كبيرة من الأبواب المزدوجة. دفع كورت الرجل المرتبك إلى الأمام، حاول الرجل التحدث مرتين لكن جينتري كتم لهجته الإفريقية القوية، وأمره قائلًا: «افتح تلك الأبواب». بينما لا يزال في الخلف عند انعطاف الممر.

قال فيليكس: «لكنني...».

صوب جينتري مسدسه الرشاش نحو رأس الرهينة، فاستدار فيليكس ببطء، وفتح الباب الأيمن، بينما يخبئ القنبلة خلف ظهره بيده اليسرى.

تردد على الفور صدى فرقعات نيران المسدس خارج الغرفة أمامه، وتناثرت شظايا البلوط من الأبواب الثقيلة. دار فيليكس في مكانه وسقط على وجهه في المدخل. في حين خرج كورت من خط النار، وسقط على واقيات ركبتيه وهو يلهث، وراح يعد إلى ستة.

***

تحرك سيرج وألن نحو باب المكتبة في وضع القتال مصوبين مسدسات بيريتا في أيديهما الممدودة.

تعرف ألن إلى الرجل الذي قتله للتو. «إنهم النيجيريون».

قال سيرج: «تبًّا!». وضغط على زر جهاز الاتصال اللاسلكي الخاص به في اللحظة التي انفجرت فيها القنبلة اليدوية الموجودة على الأرض بجوار جثة الرجل الميت.

***

قفز كل من لويد والفني عند سماع صوت القنبلة اليدوية على مسافة طابقين أسفلهما مباشرة. لم تأتِ الضوضاء من تبادل إطلاق النار

المحتدم في الردهة، بل ارتدت إلى مؤخرة المبنى. جاء الصوت أيضًا عبر مكبرات الصوت في أجهزة الراديو الخاصة بهم.

ألقى كيرت ريجيل نظرة خاطفة من النافذة مرة أخرى. لقد رأى الطائرة السوداء من طراز يوروكوبتر تنجرف داخل ضباب الصباح وخارجه في أثناء تحليقها جنوبًا. تحرك رجلان في انحناء بالأسفل قرب النافورة الرخامية في الحديقة. كانا صغيري البنية ذوي بشرة سوداء، يحملان مسدسات آلية، ويرتديان سترتي تزلج سوداوين.

قال ريجيل في الغرفة ببرود: «وصلت فرقة القتل من بوتسوانا، أو ربما هؤلاء هم الليبيريون»..

قال لويد من ورائه: «إنها أمم متحدة افتراضية من المتسكعين هنا».

شاهد الألماني الأفارقة يقطعون الحديقة باتجاه سلم الباب الخلفي. لم يطلق عليهم النار، فمع وجود الرجل الرمادي في المبنى، شعر كيرت أن هناك فرصة أفضل لأن يكون هؤلاء البوتسوانيون عونًا أكثر من كونهم عائقًا.

قال ريجيل: «لنتحصن في هذه الغرفة. سيتعين علينا نحن الثلاثة أن نتمسك بالجميع حتى تصل المروحية من باريس».

سأل لويد: «حتى لو نجوت من هذا ستقتلني، أليس كذلك؟».أجاب ريجيل وهو يضع مسدسه في جراب كتفه تحت سترته: «جينتري كان على حق. عليك أن تقلق أكثر مني الآن. تعالَ وساعدني». رفع كرسيًا ليضعه أمام باب السلم الدائري.

قال لويد: «مهما يكن الأمر، أفضِّل التعامل مع أي تهديد في أقرب فرصة ممكنة».

كان ريجيل يولي ظهره للويد، فتوقف وأنزل الكرسي وساوى كتفيه، ثم استدار ببطء. صوَّب المحامي الأمريكي المسدس الآلي الفضي إلى صدر كيرت على مسافة عشرين قدمًا. وقال:

«أنزل هذا المسدس. هيا يا زميل! ليس لدينا وقت لهذا. سيكون لدينا متسع من الوقت بعد العملية بعد أن نخرج من هنا».

جلس الفني على المكتب وراقب الرجلين بحدة دون أن ينطق بكلمة.

قال لويد: «كان بوسعي أن أمسك بالوغد، وأن أحتفظ بالعقد. عمليتك فشلت، وليست عمليتي».

ـ كما تشاء يا لويد.

ـ لا، أريدك أن تقول ذلك. أخرج هاتفك ببطء، اتصل بالسيد لوران وأخبره أن خطتك قد فشلت. تحمل المسؤولية.

ـ وبعد ذلك ستطلق عليَّ النار؟ فكر يا لويد! سيعرف أنني كنت أتحدث مكرهًا.

لأول مرة يسمعون طلقات نارية في الطابق الثالث، بعيدًا عن الممر من موقعهم.

أكمل ريجيل: «يجب أن نغلق الغرفة الآن! سنتحدث فيما بعد!».

ـ أخرج هاتفك، أجرِ المكالمة، لا تخدعني!

تنهد كيرت ومد يده اليمنى ببطء إلى سترته.

رمق لويد بنظرة ثاقبة بدلاً من النظر في الهاتف، وضع ريجيل يده حول عقب المسدس. عندما بدأ يسحب المسدس من مخبئه، واستعد للاختباء جانبًا لتفادي إطلاق النار الحتمي من المحامي، لاحظ أن عيني لويد قد ابتعدتا عنه وركزتا على شيء خلفه. انتهز كيرت الفرصة لسحب المسدس، وصوبه في صدر الأمريكي، وحين كان على وشك إطلاق النار على لويد المشتت، نادى صوت من الخلف.

هل جئتُ في وقت غير مناسب؟

35

قال لويد: «أنت تنزف بشدة يا كورت». ظل مسدسه مصوبًا إلى ريجيل، وظهره إلى المدخل المفتوح في الطابق الثالث. لكن عينيه كانتا على الرجل الملطخ بالدماء في عتاده العسكري. ظهر الرجل الرمادي في صمت عبر باب السلم الدائري، وبينما ثبَّت لويد نظره على يد كيرت داخل سترته، باغته جينتري بمسدس رشاش عنيف المظهر في مستوى النظر، مصوبًا فوهته إلى صدر لويد.

قال جينتري: «ألقوا أسلحتكم».

سأل كيرت بينما يولي ظهره للرجل الرمادي: «إلى من تتحدث؟». ولكي يرى جينتري كان عليه أن يرفع عينيه عن لويد، ولم يكن على استعداد لفعل هذا.

أجاب كورت: «إذا كان لديك سلاح في يدك، أيها الأحمق، فأنا أتحدث إليك».

قال لويد: «لن تصمد طويلًا يا كورت، أيها الصديق القديم. وجهك شاحب، لقد ضعفت كثيرًا، دمك يلطخ الأرض».

قال كورت: «سأعيش طويلًا بما يكفي لركل مؤخرتك. ألقِ أسلحتك. أنت هناك عند الطاولة. انهض ببطء».

كان الفني هو أول من نفذ ما قيل له. وقف ويداه مرفوعتان فوق رأسه وهو يرتجف خوفًا.

بدأ لويد بإنزال مسدسه. تبعه كيرت ريجيل، إذ حول الألماني نظره من لويد إلى الفني للحظة.

وحينئذٍ أطلق لويد رصاصة في صدر كيرت ريجيل.

أمسك الألماني الضخم بمكان الجرح ثم سقط على جانبه. تدحرج مسدس شتاير بعيدًا على الأرضية الخشبية فصرخ الفني ذعرًا. أطلق الرجل الرمادي سلسلة من الطلقات النارية على لويد حين اختفى في مدخل القاعة. عانى كورت نوبة دوار، نتيجة حتمية لانخفاض ضغط دمه. تأرجح على ركبتيه وعيناه تلمعان.

***

بدا أن عقله يستعيد تشغيله، وعندما استعاد تركيزه، أدرك أنه قد أنزل المسدس الرشاش إلى جانبه، لكنه سرعان ما صوبه نحو الرجل ذي ذيل الحصان وسماعات الرأس الذي وقف بجوار مكتب أجهزة الكمبيوتر. لم يُبدِ الرجل أي حركة سوى ارتعاش يديه فوق رأسه. أدرك جينتري أنه كان من الممكن أن يجري إسقاطه بسهولة هناك في بضع ثوانٍ بأخف حركة، ففرح لأن خوف الرجل ذي ذيل الحصان كان أكبرَ من أن يحاول فعل ذلك.

سأل كورت: «من أنت؟».

ـ فقط.. فني، يا سيدي. أدير الاتصالات وما إلى ذلك. ليس لديّ أي مشكلات معك.

ـ على الأقل لم تحاول أن تقنعني بأنك خادم شخصي.

ـ عفوًا، سيدي؟

قطع كورت الغرفة نحو الرجل، وفي الطريق أبقى سلاحه مصوبًا إلى باب الردهة المفتوح، وركل مسدس شتاير بعيدًا عن جسد ريجيل في أثناء مروره. وجد كورت الملفات السرية لإدارة الأنشطة الخاصة على مكتب الفني.

ـ هل هذا كل شيء؟

ـ حسب معرفتي يا سيدي.

ـ ألا توجد نسخ احتياطية؟ ألا توجد نسخ أخرى؟

ـ لا أعتقد هذا.

أطاح بهم كورت وألقاها في المدفأة، ثم أمر الفني بإشعال النار فيها.

ما إن بدأت الملفات تحترق، أدار الرجل الرمادي الفني ودفعه مرة أخرى إلى مقعده، في مواجهة الأجهزة أمامه. وسأله: «أنت من تتواصل مع الرجال الذين يطاردونني؟».

ـ أوه لا يا سيدي! لست أنا! أنا فقط أحافظ على الكهر...

ـ أعتقد أنني لست بحاجة إليك إذن، أليس كذلك؟

أومأ الفني بسرعة وغير نبرته فجأة وهو يقول: «نعم، سيدي! أنا مسؤول عن جميع الاتصالات والتنسيق بين فناني الأرصفة وعملاء الحكومة».

ـ جيد. اتصل بهم جميعًا. قل لهم إنني قفزت للتو من النافذة وأهرب عبر البستان في الخلف.

ـ حالًا، يا سيدي.

اهتزت يدا الفني بشدة عندما قلب مفاتيح وحدة التحكم اللاسلكية الخاصة به لتشغيل كل موجات الراديو في الوقت نفسه. قال: «كل العناصر، هنا الفني. تسلل الهدف إلى القصر. إنه يتحرك إلى الشمال، عبر البستان سيرًا على قدميه».

قال كورت: «أحسنت. والآن، اخلع حزامك».

نفذ الفني ما قيل له بسرعة وقدمه للرجل الرمادي.

ـ عض عليه بقوة.

ـ عفوًا سيدي؟

ـ نفذ!

اتسعت عينا الفني ووضع حزامه في فمه.

سأل جينتري: «هل تعض؟». أومأ الفني برأسه.

قال كورت: «جيد».

ثم ضرب صدغ الرجل بكعب مسدسه، فسقط الفني من كرسيه، لكن جينتري أمسك برأسه بعدما فقد وعيه ووجهه إلى أسفل على المنضدة أمامه. ثم أطلق جينتري خزينة كاملة على أجهزة الكمبيوتر، وأجهزة الراديو على المكتب.

تعثر كورت إثر نوبة دوار أخرى، لكنه استرد البندقية وأعاد حشوها، دقق في الوثائق المحترقة في المدفأة. وارتضى بنجاح هذا الشق من العملية، ثم خرج إلى ممر الطابق الثالث، وبندقيته الصغيرة أمامه.

***

كانت كلير فيتزروي هي أول من سمع صوت وقع الأقدام خارج الباب.

دوى إطلاق النار عن قرب، حتى في الخارج مباشرة قبل بضع دقائق، ولكن الأجواء هدأت منذ ذلك الحين، غير أن شخصًا آخر كان يتقدم. لقد ضغطت كلير على كتف الجد دونالد بقوة من الخوف.

رمشت عيناها الصغيرتان بشدة من التوتر، لكنهما تسمرتا على الجزء السفلي من الباب المؤدي إلى الرواق.

سمعت رنين المعدن على الخشب، والمزيد من المراوغات، ثم قعقعة المزلاج. فُتح الباب ببطء، وشعرت كلير أن ذراع جدها السميكة تضغط بقوة على المسدس في يده، الذي صوبه الآن على قدمين تدخلان الغرفة.

كان حذاء الرجل الأيسر مبتلًا وأحمر.

أنا إيوان يا سيد دونالد. لا تطلق النار.

بدأت كلير بالزحف مع الجد دونالد، لكنه دفعها إلى الخلف ونهض بعدها مباشرة.

قال الجد: «من الجيد رؤيتك يا بني!».

أين الفتاتان؟

تعرفت كلير إلى صوت السيد جيم، والآن لا شيء يمكن أن يمنعها من الزحف من تحت السرير. عندما وقفت، ركضت نحوه واصطدمت بساقه وخصره، وعانقته بقوة أكبر مما يمكنها أن تعانق أي شيء في حياتها. مرت بضع ثوانٍ قبل أن تبتعد وتنظر إليه. كان يرتدي سترة سوداء على صدره ومعه بنادق وحقائب على حزام يتدلى من ساقيه. في يده بندقية، ووجهه ورأسه الأصلع كانا أبيضين مثل ورق الكتابة، وقد غرق سرواله البني في الدماء.

كانت عيناه حمراوين ودامعتين. يقطر العرق من وجهه مثل ماء المطر.

لاحظ الجد دونالد أيضًا بقعًا على ملابس جيم.

ـ أهذا دمك يا فتى؟

ـ لا، ليس كذلك. اقترضته.

ـ بحق الجحيم يا رجل. أنت بحاجة إلى طبيب.

ـ أنا بخير.

أشار جينتري إلى الحارس الأسكتلندي الذي يقف بجانبه وقال: «يقول هذا الرجل إنه معك».

ـ إيوان كان متعاونًا للغاية.

ـ هل تثق به بما يكفي لأعطيه سلاحًا؟

صمت للحظة ثم قال: «أثق به». ثم أضاف: «فقط احترس لنفسك يا ماكسبادن».

أجاب: «أجل، سيدي».

خلع جينتري المسدس الرشاش **(MP5)** من رقبته وسلمه إلى ماكسبادن. سحب جينتري مسدس جلوك الخاص به من العدة حول ساقه، وأمسكه بجانبه. وسأل: «أين لويد؟ أعتقد أنني أصبته، لكنه ابتعد عني. ظننت أنه سيكون هنا في الأسفل ليأخذ رهائن».

قال الجد دونالد: «لم أرَ ذلك البغيض». فنظر جينتري إلى كلير وكيت.

ـ دون، أمسك عليك لسانك.

ـ آسف.

نظر كورت حوله وسأل: «أين إليز؟».

سحب ماكسبادن وسير دونالد السيدة فيتزروي من أسفل الفراش من ذراعيها. ثبتها ماكسبادن على كتفه ممسكا بالمسدس الرشاش أمامه بينما يتحرك. قاد إيوان الطريق، وكان سير دونالد يعرج خلفه متأثرًا بجراحه، شاهرًا المسدس الفولاذي الصغير.

تبعت الفتاتان جدهما، وترنح وراءهم جينتري ببطء، مثبتًا نفسه على جدران الممر وحاجز السلالم، حاولت كلير أن تسنده في أثناء صعوده، لكنه ابتسم لها، وقال لها إنه بخير، ويجب عليها أن تظل قريبة من جدها.

تحركت القافلة ببطء، وكانت تتكون من طفلتين، وشخص مصاب، وامرأة أخرى فاقدة للوعي تمامًا. بعد فترة، نزلوا السلم إلى بهو الطابق الأول، وصاح جينتري من الخلف: «أيتها الفتاتان! فلتنظرا مباشرة إلى ظهر جدكما. إلى الأمام مباشرة، هل تفهمان؟ لا تنظرا حولكما في الغرفة».

كانت ثمة مذبحة هائلة حولهم في مدخل ضخم من الخشب الصلب والأحجار. أربع جثث داخل الأبواب المفتوحة، وجثتان داميتان في منتصف الغرفة، واثنتان أخريان على الدرج بجوارهم في أثناء نزولهم.

بدأت كلتا الفتاتين الصغيرتين في البكاء. سعلت كيت من الرائحة الكريهة الكثيفة لغبار الكوردايت والحجر المتفجر والخشب المحروق. في نهاية الدرج هناك شخص ممدد على الأرض، يتحرك ويتلوى. رجل شرق أوسطي ملتحٍ ما زال على قيد الحياة، تجاوزه

ماكسبادن وكذلك البقية. كان كورت آخر من يمر بجوار الرجل المصاب.

التقت عيونهما لثانية واحدة، لكن كورت لم يبطئ لكي يساعده.

لم يُظهر الرجل الرمادي أي رحمة لأعدائه.

انتقلوا من البهو إلى غرفة جلوس مفتوحة، بمنأى عن ساحة المعركة. مُلئت الجدران بصور عائلية كبيرة. توقف ماكسبادن مؤقتًا ليُحكِم الإمساك بامرأة فيتزروي، ومال جينتري إلى الحائط للحظة من الراحة. بعد ذلك، دخل رجل بلا قميص من المدخل البعيد، إنه أحد الحراس البيلاروسيين، يعاني إصابة في رقبته لفها بمنشفة، لكن بقي رشاشه في يده اليمنى. متفاجئًا من المجموعة التي رآها أمامه، رفع سلاحه بسرعة. أطلق السير دونالد النار من مسدسه، وفجر الرجل عاري الصدر عبر المدخل وأسقطه على ظهره.

غطت الفتاتان أعينهما وصرختا.

رفع كورت رأسه ببطء عندما انتهى الأمر. لم يلحظ حتى التهديد. التفت حوله بسرعة على يقين من أن لويد سيكون واقفًا خلفه، لكن لم يكن هناك أحد.

أصاب الوهن ركبتا كورت، وسقط إلى الوراء، وتعثر في طاولة صغيرة ثم سقط عليها لتتحطم على الأرض. ركض فيتزروي والفتاتان نحوه، وجذبوه من قدميه، ثبتوه في أثناء استعادة توازنه.

قال كورت: «أنا بخير. استمروا في الحركة».

خرج الستة من باب جانبي إلى طريق دائري يقود إلى مدخل السيارات المرصوف بالحصى في الخلف. ومع ذلك، قاد الأسكتلندي الطريق، وعلى كتفه المرأة فاقدة الوعي، عبر بستان التفاح الضبابي. سمعوا دوي طلقات نارية. يبدو أن فرق القتل كانت يشتبك بعضها مع بعضٍ في الضباب. عثر السير دونالد على سيارة بي إم دبليو ذات

صالون سوداء كبيرة، ورأى المفاتيح فيها، فأمر الجميع بالركوب بأقصى سرعة.

تأخر كورت في الخلف، واستدارت كلير وركضت عائدة إليه، أسندته فلم يعترض هذه المرة. نظر جينتري خلفه مرتين بحثًا عن أي علامة على لويد، وفي المرتين عاد رأسه مكانه دون نتيجة.

ترنح كالحلزون، ولم يتمكن من ذلك إلا بمساعدة بسيطة من فتاة تبلغ من العمر ثماني سنوات.

***

جاهدت كلير لرفع جيم. بدا الأمر كما لو كان يضع ثقلًا أكبر على كتفيها مع كل خطوة. راح يلهث ويجفل عندما تحركوا بطول ممر الحصى نحو السيارة السوداء الكبيرة. أعطى الحارس الأسكتلندي سلاحه إلى الجد دونالد ووضع الأم في المقعد الخلفي، وصعدت كيت معها. جلس الحارس خلف عجلة القيادة، وجلس الجد في مقعد الراكب الأمامي. دار المحرك، فدفع جيم كلير أمامه، وحثها على الركض إلى السيارة.

فعلت ما قيل لها، صعدت إلى المقعد الخلفي، واستدارت للمساعدة على جذب المنقذ الذي كان وراءها. كان جيم على بعد خطوات قليلة، لكنه يقترب.

ابتسم ابتسامة واهنة عندما التقت أعينهما، وانطلقت رصاصة واحدة من القصر. كانت كلير تنظر، اتسعت عيناه ومال جسده إلى الأمام، كاد يدفعه نحو السيارة ولكن ليس تمامًا. سقط الأمريكي على واقيات ركبتيه فوق الحصى، ونظر إلى الأسكتلندي الجالس خلف عجلة القيادة وصاح: «انطلق!».

ترنحت السيارة الكبيرة نحو الأمام، وأُغلِق باب كلير بقوة الحركة. صرخت إذ تستدير لتنظر من النافذة الخلفية، وتضرب زجاج النافذة بيديها الصغيرتين.

ترنَّح خلفهم جيم نحو الأمام منهارًا على واقيات ركبتيه فوق الحصى، ثم سقط بقوة على وجهه. حجبت سحابة الغبار الناتجة من أثر حركة العجلات على الحصى رؤية كلير الرجلَ الذي تركوه وراءهم.

36

زحف كورت نفس عبر ممشى الحصى مستندًا إلى ذراعيه.

تحركت ساقاه بصعوبة، والتصق الحصى بالدماء على ذراعيه ووجهه وفروة رأسه المتعرق. كان على بعد خمس ياردات من العشب الرطب الذي يفصله مائتا ياردة عن حافة بستان التفاح. بالسرعة التي كان يتحرك بها، سيحل الظلام قبل أن يصل إلى حافة البستان.

لقد كان ميؤوسًا منه، لكنه تحرك دون سبب منطقي، فقط بالفطرة.

اخرج من منطقة القتل. لا تعبأ بالوجهة.

جاء صراخ لويد من الخلف: «أنت! أيها الرجل القوي؟ إلى أين أنت ذاهب بحق الجحيم؟». يتبعه سحق الأحذية للحصى. اقترب وقع خطواته بسرعة.

وأكمل: «عليّ أن أعترف.. أنت ترقى إلى مستوى الضجيج الذي تحدثه. لقد أحرقت ملفات إدارة الأنشطة الخاصة وحصلت على آل فيتزروي. يبدو أنك تمكنت من إنقاذ الكل إلا أنت».

ظل كورت يزحف على ساعديه الملطخين بالدماء في الحديقة الباردة الرطبة. أخيرًا داس لويد على ظهره لإيقافه. نظر الرجل الرمادي وراءه متألمًا. أمسك المحامي بمسدس صغير من نوع بيريتا مصوبًا إياه أمامه. كانت ذراعه اليسرى وكتفه تنزفان وقد أصبحتا واهنتين، ولم يبدُ لويد منزعجًا من جروحه.

قال لويد: «لقد أطلقت عليك النار في الخلف. ليس فعلًا نبيلًا للغاية على ما أعتقد. لم أكن أعلم أنك ترتدي سترة. لكن أراهن أن هذا ما زال يؤلمك، أليس كذلك؟».

استلقى كورت ببطء على ظهره. كانت سماء الصباح شديدة الزرقة منذ دخل القصر قبل خمس عشرة دقيقة تقريبًا. وقف لويد فوقه ونظر إلى الأسفل مباشرة. علم كورت أن مسدسه الجلوك قد انزلق بعيدًا في مكان ما عندما سقط. لم تكن لديه القوة لرفع رأسه للبحث عنه.

قال جينتري بينما يسعل بشدة: «ما زلت لا أتذكرك يا لويد».

قال لويد: «حسنًا، سوف تتذكرني في الجحيم، أليس كذلك؟ سيكون وجهي آخر شيء تراه».

رفع لويد المسدس إلى وجه كورت جينتري، وانطلقت رصاصة.

حرك لويد رأسه، وقد بدا عليه الارتباك. تقدم المحامي الشاب نصف خطوة إلى الأمام. ظهر الدم على شفتيه ومن أنفه، ظلت عيناه على كورت، رغم أن جفونه بدأت ترتخي. ووجَّه المسدس مرة أخرى إلى صدر كورت.

جاءت رصاصة أخرى من الخلف، ثم أخرى. تشنج لويد مع كل ضربة. انطلق الرصاص من مسدس بيريتا، لكنه كان قد نزل إلى جانبه الآن. أطلقت الرصاصة رذاذًا من الحصى الأبيض بين ساقي جينتري، بينما كان الرجل الرمادي مستلقيًا على ظهره يراقب.

ألقى لويد مسدسه على الحصى، ثم انهار فوقه ميتًا.

حدق كورت لعدة ثوانٍ في السماء. أخيرًا دفع رأسه إلى أعلى، ونظر إلى القصر. كان ريجيل في نافذة بالطابق الثالث، وقد تحطم الزجاج أمامه، ومسدسه مصوب الآن نحو جينتري.

أنزل الألماني مسدسه ببطء إلى جانبه.

تبادل الرجلان النظر لبضع ثوانٍ، كلاهما أضعف من أن ينطق، وأبعد من أن يتواصلا بصريًّا. لكن هذا التقدير المطول أظهر إحساسًا بالاحترام المتبادل؛ محاربان، يعترف كل منهما بجهود الآخر.

تراجع كيرت ريجيل إلى الوراء واختفى عن الأنظار.

ألقى كورت رأسه إلى الوراء في العشب. جعله الطنين الواصل إلى أذنيه يميز صوت طائرة مروحية مألوفًا. لم تكن طائرة يوروكوبتر سوداء. كانت طائرة أكبر تقترب بثبات من جهة الشرق.

لم يرفع رأسه عن العشب الندي، لكنه وجَّهه إلى اليمين في الوقت المناسب ليرى السيكورسكي البيضاء الكبيرة تهبط على بعد 75 ياردة. كُتب: «مجموعة لوران» باللون الأزرق على جانبها. اندفع منها رجال مسلحون، ما يقرب من ستة أفراد، بدؤوا في التحرك نحو القصر بحذر. ثم أنزلت الطائرة ثلاثة رجال يرتدون سترات برتقالية ويحملون حقائب ظهر، قد يكونون أطباء أو مسعفين أو أي نوع آخر من أفراد الطوارئ. أخيرًا، انحنى ثلاثة رجال يرتدون بدلات في أثناء مرورهم تحت المراوح الدوارة. كان أحدهم يحمل مفكرة من نوع ما، وآخر يحمل حقيبتين كبيرتين، والثالث يبدو أكبر سنًّا منه بكثير، يرتدي معطفه على ظهره مثل معطف الرأس، يبدو فرنسيًّا.

فقد كورت الاهتمام بما يجري وعاود الاستمتاع بالسماء الجميلة. بعد دقيقة واحدة، أو ربما عشر دقائق، وقف فوقه رجل ببندقية، لكن بدا أنه كان مهتمًا أكثر بجثة لويد التي ترقد بجانبه. صاح الفرنسي في الراديو.

بعد ذلك بوقت قصير، ظهر الرجال الثلاثة الذين يرتدون بدلات، واستند كورت على مرفقيه مشرئبًا عندما اقتربوا.

لم يتعرف جينتري إلى الرجل الأكبر سنًّا الذي يرتدي معطف الرأس، لكن كورت استنتج من تأثيره وسيطرته على الاثنين الآخرين أن هذا لا يمكن أن يكون سوى مارك لوران.

قال الرجل: «أفترض أنك السيد جينتري؟».

لم يقل كورت شيئًا. تقدم الرجل الصغير على يمين لوران الذي يحمل مفكرة، وركله بحذاء يبدو باهظ الثمن. لم يشعر كورت بالضربة. لقد تخدر جسده بالكامل.

قال الرجل الصغير: «عندما يسألك السيد لوران سؤالًا عليك أن تجيب!».

قال لوران: «لا بأس، بيير، إنه مريض». ثم نظر حوله إلى الجثث والزجاج المكسور والدخان المتصاعد من سقف القصر. وأتبع: «بيير.. ضع في قائمة مهامك أننا سنحتاج إلى نقل مكان اجتماع عيد الميلاد السنوي لمجلس الإدارة هذا العام. لا أعتقد أننا سننظف المنزل في الوقت المناسب».

ـ حسنًا، يا سيد لوران[1].

ـ سيد جينتري. أرى السيد لويد الشاب هناك. يبدو مفيدًا كعادته دومًا. هل تعرف أين يمكنني أن أجد هير ريجيل؟تحدث كورت بهدوء ناعس: «قتله لويد، وقتل هو لويد. حدث بعض التنافس بين إدارات مؤسستك قبيل وصولك».

هز لوران كتفيه قائلًا: «فهمت». كما لو أن رجاله يموتون طوال الوقت، ولم يكن ذلك ليثير قلقه على نحو خاص.

قال لوران: «لم أكن أعرف شيئًا عما يجري هنا». لم يجب جينتري. قيلت الجملة بالطريقة ذاتها التي يكذب بها رجل ذو سلطة بشكل فاضح. لم يعبأ إذا كان الرجل الرمادي سيصدقه أم لا، بدا فقط كما لو أنه يفي بالتزامات قانونية وحسب.

إنكار غير معقول.

فاجأت كلمات لوران التالية كورت حين قال: «أنا بحاجة إلى رجل». نظر حوله إلى الصباح المشرق. وقال: «إنها مشكلة، كما ترى. زميل تربطني به علاقة عمل طويلة الأمد انتهت قيمتها. وإذا لم يكن ذلك سيئًا بما يكفي، فهو يمتلك معلومات قد تكون محرجة لي ولمن

(1) بالفرنسية في الأصل.:

يلاحقني. والسماح له بالاستمرار في مسار عمله الحالي لن يخدم مصالح أحد».

بدا أن مارك لوران يشعر بالملل تقريبًا. نظر إلى طلاء أظافره الحديث وقال: «وكما يحدث، أعرف أنك الرجل الذي يجب أن ألجأ له بشأن مشكلات كهذه. هل يمكن أن تكون متاحًا؟».

كان كورت مستندًا على مرفقيه على العشب الرطب. أدار رأسه إلى اليسار واليمين وتفرس لدقيقة في جثة لويد.

قال جينتري: «أنا مشغول بأمر ما في الوقت الحالي».

لوح لوران بيده باستخفاف وقال: «أوه، يمكنني أن أرى ذلك».

رد كورت باستخفاف شديد: «سيكون ذلك جيدًا».

قال لوران: «وكما أفهم، قد يكون من مصلحتك الشخصية أن يموت الرئيس السابق والآن المواطن العادي، يوليوس أبو بكر. الإشاعة تقول إنك قضيت على شقيقه، والآن يخطط الرئيس السابق للقضاء عليك».

تراجع كورت مرتين قبل الرد: «لقد سمعت هذه الشائعات أيضًا يا سيد لوران».

أومأ لوران برأسه وقال: «وجَّه أبو بكر ضدي ادعاءات محددة، كلها أكاذيب بالطبع. أدير عملًا تجاريًا نزيهًا وصادقًا لا غبار عليه».

لم يتغير تعبير وجه جينتري وهو يقول: «دون شك».

ـ ومع ذلك، في بعض الأحيان يمكن للادعاءات المثيرة أن تنتشر، وتثير مخاوف غير ضرورية، وتؤدي إلى تحقيقات مزعجة. أود تجنب ذلك إن أمكن.

ـ لذلك تريدني أن أقتله.

أومأ لوران برأسه وقال: «سأدفع جيدًا مقابل خدماتك».

تردد كورت ثم قال: «أرى مشكلة واحدة صغيرة في اقتراحك».

ارتفع حاجبا الفرنسي وسأله: «وماذا تكون؟».

أجاب جينتري: «أنا أنزف حتى الموت».

قهقه لوران وفرقع أصابعه، فظهر الرجال الثلاثة الذين يرتدون سترات برتقالية ومعهم نقالة.

قال لوران: «لا مشكلة أيها الشاب». بينما سقط كورت مغشيًّا عليه بعد أن خانه مرفقاه. لقد عاش هذه المحادثة مرة أخرى في حلم، وفيما بعد ظن أنه واحد من أغرب الأحلام وأكثرها خيالًا على الإطلاق.

الخاتمة

لم يتبقَّ سوى أربعة أيام حتى عطلة عيد الميلاد، وأخبرت الأم الفتاتين أن بإمكانهما الانتظار حتى العام الجديد قبل العودة إلى المدرسة. قبلت كيت عرض أمها، لكن كلير رفضته، فالروتين مهم للطفل، وقد أرادت العودة إلى دورة الأشياء. ربما يساعدها هذا على النسيان.

أرادت أن تنسى جنازة أبيها، والقصر في فرنسا، والضجيج والخوف والبنادق والدم. كانت تود أن تنسى كيف تركت السيد جيم وراءها. أكد لها الجد دونالد أن جيم هرب، لكنها لم تعد تصدق شيئًا مما يقوله الجد دونالد بعد الآن.

كانت تعلم أن جيم مثل أبيها، ميت.

دخلت هايد بارك، اعتادت أن تقطع طريقها من هناك إلى المدرسة، وتمشي قاصدةً الشرق في نورث كاريدج درايف، دخلت ممرًّا إلى نورث رو، ثم بعد ذلك بقليل إلى مدرستها في شمال شارع أودري. أرادت والدتها اصطحابها إلى المدرسة، لكن كلير رفضت. أرادت أن يكون كل شيء كما كان عندما كان والدها موجودًا. كانت تمشي بنفسها إلى المدرسة، وتمشي بنفسها إلى المنزل.

جلس رجل على مقعد عند الرصيف. لم تعره أي اهتمام حتى ناداها باسمها أثناء ابتعادها:

«مرحبًا كلير».

توقفت خطواتها، واستدارت لمواجهة جيم. أصاب الوهن ركبتيها من الصدمة، وأسقطت كتبها المدرسية على الرصيف.

قال جيم: «لم أقصد أن أخيفك. أخبرني جدكِ أنك لا تصدقين أنني بخير. أردت فقط أن آتي وأكشف لك أنني حقًا بخير».
عانقته، لكن عقلها كان يأبى الاعتراف بوجوده وسألت بابتهاج شديد:أنت. لقد تأذيتَ بشدة. هل تشعر بتحسن؟». أجابها جيم: «أنا أفضل».
نهض وابتسم وصعد بضع خطوات على الرصيف ثم عاد إليها وقال: «انظري، أنا حتى لست بحاجة إلى مساعدة على المشي بعد الآن».
ضحكت كلير وعانقته مرة أخرى. ملأت الدموع عينيها وهي تقول: «يجب أن تأتي إلى المنزل على الفور. ستحب ماما أن تراك. إنها لا تتذكر وجودك هناك في فرنسا».
هز جيم رأسه وقال: «أنا آسف. يجب أن أذهب، لديَّ بضع دقائق فقط».
عبست وسألته: «أما زلتَ تعمل مع جدي؟».
نظر جيم بعيدًا وقال: «أعمل لدى شخص آخر الآن. ربما سأسوي أنا ودون الأمور يومًا ما».
قالت: «جيم؟». ثم جلست على المقعد ففعل مثلها. وسألته: «الذين قتلوا والدي.. لقد قتلتهم، أليس كذلك؟».
ـ لن يؤذوا أي شخص آخر، كلير. أعدك.
ـ هذا ليس ما سألته. هل قتلتهم؟
ـ مات الكثير من الناس. طيبين وأشرارًا. لكن هذا انتهى الآن. هذا كل ما يمكنني أن أخبرك به حقًا، لا يمكنني مساعدتك في فهم كل شيء. ربما يمكن لشخص آخر، أنا آمل ذلك، ولكن ليس أنا، آسف.
نظرت كلير عبر الحديقة وقالت: «أنا سعيدة لأن الجد دونالد لم يكذب بشأنك».
قال جيم: «أنا أيضًا».
ساد الهدوء للحظة، وتململ جيم في المقعد.

قالت كلير: «عليك أن تذهب الآن، أليس كذلك؟».

ـ أنا آسف. يجب أن ألحق بالطائرة.

ـ حسنًا. عليَّ الذهاب إلى المدرسة. لا مفر من الروتين.

ـ نعم.

ثم نهض وقال: «أعتقد ذلك».

وقف كلاهما، وتعانقا مرة أخرى. وأوصاها جيم قائلًا: «اعتني بأختك وأمك يا كلير. أنت فتاة قوية ستكونين بخير».

قالت كلير: «أعرف يا جيم. عيد ميلاد سعيد».

ثم ودع كلٌ منهما الآخر.

***

سار كورت ببطء خارج المتنزه إلى ميدان جروسفينور العلوي. عاوده العرج الذي تمكن من إخفائه عن كلير،

وجفل مع كل خطوة. خارج البوابة تقف سيارة بيجو سوداء، فانحنى ليدخل إلى المقعد الخلفي دون أن يخبر الركاب.

استدار اثنان من الفرنسيين يرتديان بذلتين لمواجهته من الأمام. سلمه أحدهما حقيبة بينما تدخل السيارة في حركة المرور. فتحها كورت بهدوء وفحص محتوياتها، ثم أغلقها.

قال فرنسي في منتصف العمر يجلس في مقعد الراكب: «الطائرة تنتظر في ستانستيد. ثلاث ساعات طيران. يجب أن تكون في مدريد في وقت مبكر بعد الظهيرة».

لم يرد كورت، فقط نظر من النافذة.

ثم أكمل الرجل الفرنسي: «سيصل أبو بكر إلى فندقه في الساعة السادسة. هل أنت واثق بأن لديك الوقت الكافي للاستعداد؟».

لا يزال لا يوجد رد من الأمريكي.

لقد حجزنا لك غرفة في الطابق أسفل جناحه مباشرة.

حدق جينتري للتو إلى الحديقة في أثناء مروره. مشى الأطفال مع والديهم، وتشابكت أذرع العشاق.

طقطق الفرنسي في مقعد الراكب بأصابعه بوقاحة أمام وجه جينتري، كما لو كان يوجه اللوم إلى خادم غافل. وسأله:

«سيدي، هل تستمعني؟».

التفت الرجل الرمادي ببطء إلى الرجل. أصبحت عيناه أكثر وضوحًا الآن.

وقال: «مفهوم، لا مشكلة. الكثير من الوقت».

صاح الفرنسي: «لا أريدك أن تفسد هذا الأمر».

ـ وأنا لست بحاجة إلى نصيحتك. إنه استعراضي الخاص. أنا أحدد الوقت والمكان.

ـ أنت مِلكي يا سيدي. لقد أنفقنا الكثير من المال على شفائك، ستنفذ ما قيل لك.

امتعض كورت، وهمَّ بأن باتخاذ خطوة متهورة لكنه تراجع عن ذلك.

قال: «أجل، سيدي». رغم أنه أراد أن يقول المزيد. التفت إلى النافذة، وألقى نظرة أخيرة على الطرف الجنوبي من الحديقة، حيث تختلف حياة العشاق والأطفال والأسر وحياة الآخرين اختلافًا لا يصدق عن حياته.

انعطفت البيجو يسارًا إلى بيكاديللي بعيدًا عن الحديقة، واختفت في زحام لندن المروري في الصباح.

مقتطفات من رواية الرجل الرمادي القادمة

الانفجار الخلفي

شارع خافت الإضاءة في وسط واشنطن هاي لاندزكان مكانًا رهيبًا للتجول ليلًا، تقع هاي لاندز في الزاوية الجنوبية الشرقية للمنطقة، تطل على نهر أناكوستيا في الحي الثامن، حيث تزدحم بها المباني الحكومية العالية ومجمعات الشقق ذات الدخل المنخفض، والمنازل العائلية المهملة على مسافات متقاربة تعج بالقمامة، كان الحي الثامن هو ثاني أكثر الأحياء خطورةً في المنطقة بعد الحي السابع، لكنه استعاد مؤخرًا الصدارة بفضل جريمة قتل ثلاثية في الأسبوع الأخير خلال الفترة المشمولة بالتقرير، و على الرغم من تأخر الوقت والسمعة السيئة للمنطقة، تجول أحد المشاة بهدوء في المساء الضبابي، متجهًا شمالًا إلى شارع أتلانتيك الجنوبي الشرقي، سار على رصيف مكسور، كأنه لا يهتم بشيءٍ في هذا العالم، ينظر إلى وهج معظم أعمدة الإنارة التي لم يطلق عيها النار أو لم تحرق وتترك سوداء، مدينة لا تهتم بأفقر سكانها، كان يلبس سروال جينز وسترة رسمية زرقاء مجعدة، شعره البني الأدكن كان مسرحًا ورطبًا، ووجهه الحليق كشف عن بشرته البيضاء، ووجوده في هذا المكان وفي هذا الوقت من الليل لربما يعني أنه لا يفعل شيئًا جيدًا، الساعة العاشرة مساءً، وبدا الحي خاليًا من أي حياة بخلاف عابر السبيل هذا، الذي تتبعت حركاته عيون المسنين المندهشين من وراء قضبان حماية نوافذ شققهم، أم عازبة تسهر مع طفلها المريض وتراقب من خلال بابها الزجاجي الشبكي المقفل في منزلها الدوبلكس، تظهر على وجهها علامات الأسف، عالمة تمامًا أن الأحمق في الشارع سيتعرض بأفضل الأحوال للسطو وبأسوأ الأحوال

للقتل، وفتى يحمل هاتفًا خلويًا على سطح مظلم لمبنى سكني يراقب الرجل بعناية، ويبلغ ما يراه لصديق في الطرف الآخر من الاتصال على أمل جمع رسوم الباحث إذا ظهر صديقه مع فريقه وسلب كل ما له قيمة من المتطفل البائس، ولكن لم يكن الفتى وصديقه محظوظين، لأن مجموعة أخرى من المفترسين وضعت عيونها على هذا الصيد الثمين واقتربت منه أكثر، راقب الرجل الأبيض ثلاث هيئات ظلية بشرية حيث وقفوا في مدخل سيارة، أمام برميل سعته خمسة وخمسون جالونًا، مليء بالقمامة المشتعلة.

مارفين الأكبر سنًّا بين الثلاثة، هو في الحادية والثلاثين من عمره، وقد جرى توقيفه أحد عشر مرة، معظمها بسبب الاقتحام والسرقة المسلحة، فقط توقيفان حقًا تركا أثرًا، الأول حصل على إدانة لمدة أحد عشر شهرًا وتسعة وعشرين يومًا في مركز احتجاز المدينة، ثم، في الداخل، تسبب مارفين لنفسه بالسجن عشر سنوات في هاجرستاون بتهمة القتل غير العمد، قضى منها ست سنوات قبل أن يطلق سراحه لسلوكه الجيد ـ وهو مصطلح نسبي في السجن ـ والآن عاد إلى الشوارع، ولم يبحث عن عمل، بل بحث عن فرصة، وفي سعيه هذا، ضم معه شابين، هما دريوس وجيمس البالغان من العمر ستة عشر عامًا، وبسبب فارق السن، ولأن مارفين قضى وقتًا في السجن وقتل رجلًا، فقد احترماه وأطاعاه في كل شيء، ومارفين، أحب مارفين قيادة فريق من المراهقين لأنهم يستطيعون المخاطرة؛ وأي إدانات تسجل بحقهم على الأرجح ستُمحى في عيد ميلادهم الثامن عشر، حمل مارفين مسدسًا في حزام خصره تحت سرواله الواسع، مسدسًا من نوع لورسين آرمز إل 380 صدئ، قطعة بالية، حتى بالمقارنة بالمسدسات المعدنية الأخرى التي تملأ هذا المكان، حيث الجريمة في أسوأ مستوياتها هنا في «منطقة خالية من الأسلحة» في واشنطن، لم يطلق النار من السلاح قط، فهو للعرض فقط، مما يعني أنه أبقى قبضة سلاحه معروضة ، تخرج من أسفل سترته المصنوعة من جلد

صناعي، ولكن فقط عندما لا يكون رجال الشرطة في الجوار، فإذا رأى سيارة دورية، سيسقط المسدس الصغير داخل سرواله الدافئ، ثم إلى الأرض، ثم يمكنه ركله أو إخفاؤه تحت شيء ما، أو يمكنه فقط الجري، هرب مارفن من المشكلات قبل فترة طويلة من قدوم هذين الولدين الواقفين معه إلى الحياة، حمل المراهقان سكاكين رفيعة قابلة للطي، سرقاها من محل رئيس في هاياتسفيل، بالرغم من أنها سكاكين رخيصة وتدعو إلى السخرية إذا قورنت بالأسلحة، لكن لم يعرف الولدان أفضل من ذلك، وظنا أن قوتهما لا تضاهى لحملهما هذه الخردة داخل جيوبهما.

وضع كل من داريوس وجيمس أيديهما على السكاكين المخبأة تحت ملابسهما، وهما يراقبان الرجل الأبيض يختفي في الضباب، قرب سياج متداع مليء بالقمامة المبعثرة، نظر كل منهما إلى الآخر في الوقت ذاته، مُبتسمين بالدهشة من الثروة الباهظة التي ظنا أنهما سيحصلان عليها هذه الليلة، يبدو أن الرجل لم يدرك حقيقة خطر مروره بجانب الرجال الثلاثة الواقفين أمام النار، مما جعلهم يعتقدون أن هذا الأحمق إما سكران وإما مخمور، أو ربما كلاهما، فهم نادرًا ما يرون البيض يتجولون في هذا الجزء من هايلاندز في واشنطن في الليل، والرجال والنساء من جميع الأعراق يأتون إلى هذا الحي لشراء المخدرات في كل وقت، خصوصًا في الليل، ولذلك لا يستطع الشابان الصغيران تخيل سببًا آخر لوجود هذا الأحمق سوى شراء المخدرات، ومن ثم، فهو إما يملك نقودًا وإما مخدرات، ولا يهم أيهما، لأن المخدرات هي النقود هنا، نظر داريوس وجيمس إلى ما وراء ألسنة النار الخارجة من برميل النفط، في اتجاه زعيمهما، فأومأ مارفين برأسه إلى فريقه، مما أعطاهم الحافز الذي ينتظرانه، خرج الثلاثة جميعًا مبتعدين عن دفء البرميل، وتوجهوا إلى الرصيف، يتبعون الرجل الأبيض وأيديهم قريبة من الأسلحة التي احتفظوا بها داخل ملابسهم.

في اللحظة نفسها التي طارد فيها ثلاثة صيادين فريستهم في شارع 8 جنوب شرق واشنطن، حلقت طائرة هيلوكوبتر من نوع يوروكوبتر بقيمة 24 مليون دولار عاليًا فوق العاصمة، قادمة من ماريلاند في الشمال الشرقي ومتجهة نحو فرجينيا في الجنوب الغربي، ناقش الرجال على متنها احتمال وجود شخص ما أسفلهم يستعد لإطلاق صاروخ أرض-جو محمول باليد باتجاه الذيل الدوار الخلفي، أو ربما يتعقبون مقدمة الطائرة بالمنظار المقرب لقاذفة قنابل صاروخية، ولذلك اتخذت التدابير الدفاعية على متن الطائرة، وأجرى الطيار مناورات دفاعية، وتركزت جميع الأعين على الخارج، تمسح الشوارع بحثًا عن توهج إطلاق صارخ ما تجاههم، إلا أنهم لم يلحظوا أي توهج أو إطلاق، مع أن الرجُل الذي يخشونه، في الواقع، كان في مكانٍ ما أسفلهم، لكنه لا يحمل صاروخ سام، ولا حتى قاذفة آر بي جي، ولم يملك مسدسًا أو أي نقود، سار كورت جينتري وحيدًا في أخطر مناطق واشنطن، مدركا خطوات أشخاص يريدون الإطباق عليه، بالإضافة إلى الألم الذي يشعر به في ذراعه اليمنى والحكة المجنونة تحت الجص الملفوف حول كوعه ومعصمه، عرف أن ثلاثة رجال يتبعونه، زعيم محدد بجانبه تابعان أصغر سنًّا وخاضعان تمامًا له، وقد حدد جينتري كل ذلك خلال نصف ثانية من نظرة ألقاها عليهم عندما مر بهم، بالإضافة إلى أصوات خطواتهم، فالرجل في المنتصف أكثر ثقة، الشابان على كل جانب غير مستقرين، يتباطؤون من حين لآخر، ثم يهرعون للحاق بزعيمهما.

كان كورت مطلعًا على علم نفس الجريمة، لم يكون هؤلاء البلطجية يبحثون عن معركة؛ بل يبحثون عن ضحية، وستنعكس قوة إصرار المهاجمين في مدى سرعة تصرفهم، فإذا أفسدوا الأمر على أنفسهم وتتبعوه لعدة مبانٍ، فمن المحتمل ألا ينجحوا في مرادهم، من ناحية أخرى، إذا تحدوه الآن، فهذا يعني أن ثقتهم عالية وأنهم لن يتوقعوا أي مقاومة، وهذا سوف يدل جينتري إلى أنهم مسلحون وأنهم فعلوا

أشياء كهذه من قبل، في هذه اللحظة، وعلى بعد نصف مبنى من التقاطع التالي، ناداه الرجل الذي في المنتصف: «أنت! هل تعرف هذا، ليس عليك أن تصاب»، سرّ كورت أن هذا الرجل كان يتحدث مباشرةً، فهو ليس لديه وقت، توقف، لكنه لم يستدر، فقط توقف ووجهه ينظر بعيدًا، اقترب من ورائه الشباب الثلاثة، قال زعيمهم: «استدر، أيها الأحمق! ببطء»، أخذ كورت بضعة أنفاس بهدوء، لكنه لم يلتفت، «أنت، أيها الأحمق! أتحدث معك!» هنا استدار كورت ببطء لمواجهة التهديد، وقف المهاجمون الثلاثة على بعد ست أقدام على الرصيف، فحص كورت عيونهم، هذا هو الحال دائما في وضع التهديد، تحديد الإرادة وتحديد المهارة، لاحظ أن الزعيم مغرور ومتأهب بسبب الإثارة وليس القلق، حاول الآخران إظهار الثقة، لكن نظرتهما الخافتة خانتهما، حمل الثلاثة أسلحة، لدى الزعيم مسدس صغير من اللون الأزرق المعدني، والشابان اللذان معه ـ في الحقيقة هما بالنسبة لكورت الآن، يبدوان مراهقين ـ يحملان سكينًا، تحدث كورت بهدوء: «مساء الخير، يا سادة».

دهش الزعيم من رده، ثم بعد ثانية، قال الرجل الأسود الرفيع: «أريد تلك المحفظة وذلك الهاتف» ونظر حوله إلى الشارع، ثم سأل: «أين سيارتك؟».

تجاهل كورت صوت الرجل، وركز على المسدس في يده، وسأله: «ماذا لديك هنا؟»

إنه مسدس، يا غبي!

حسنًا. ما نوع المسدس؟

إنه نوع المسدس الذي سيطلق النار عليك إذا لم تسحب المحفظة وتنزلها ببطء.

رفع الرجل المسدس إلى مستوى العين، مباشرةً في وجه كورت، على الرغم من سوء الإضاءة، تمكن كورت من تحديد نوعية السلاح

بسرعة، وعلى بعد ثلاث أقدام من أنفه، تنهد كورت بخيبة أمل وقال: «L380؟ بحق الإله، ماذا يفترض أن أفعل بهذه الخردة؟»

شد الرجل زناد مسدسه، ثم ابتسم قائلًا: «أوه، فهمت، أنت تحاول الموت الليلة.»

نظر كورت حوله إلى الشابين وسألهما: «هل لديكما أي فرصة أيها الطفلان المقيدان؟» نظر الولدان إلى رئيسهما بارتباك، بعد ثانية، رفعا سكاكينهما إلى أعلى، تابع كورت: «لم أعتقد ذلك»، ثم نظر إلى السماء الرطبة بابتسامةٍ خفيفة وقال: «حظي العاثر.»

• • •

كان مارفين يوجه السلاح إلى الناس قبل أن يبلغ الثالثة عشرة، وبعد كل هذا الوقت لم ير أحدًا مثل هذا الرجل، عادةً ما تتوسع عيون الناس لتصبح بحجم الطبق، وتركز على فوهة سلاحه، ويغض النظر عما يفعلونه بقية اللقاء، فالشخص تحت تهديد السلاح لا يبعد عينيه أبدًا عن الأداة في يده، ونادرًا ما يرمش بعينيه، ولكن هذا الرجل الواقف أمامه التفت نحو الشابين الآخرين، ونظر حوله في الشارع، وإلى السماء، وحتى إلى نوافذ البيوت ذات الطابقين المتناثرة في كل مكان، لم يبدُ قلقًا على الإطلاق لوجود مسدس مصوب إلى وجهه، ولم يبدُ الرجل الأبيض مخمورًا، فرائحة الكحول لا تفوح منه، وعيناه الخاملتان واضحتان، وجسده المسترخي لا يترنح، لسبب ما، لم يكترث بتاتًا، وهذا أثار غضب مارفن، فليس لديه خطة بديلة لتخويف الضحية، دار الولدان حول فريستهما، ومارفين يوجه مسدسه نحو جبين الرجل، وصبياه يصوبان السكاكين إليه عن يساره ويمينه، غير أن الرجل الأبيض يهتم بشأن السكاكين أيضًا، ببساطة تأفف بعمق، وأرخى كتفيه وقال: «هل هناك أي فرصة لإقناعكم بالابتعاد؟ ليس لدي نقود، ولا هاتف، ولا سيارة... ليس لدي شيء يمكنني تقديمه لكم سوى المشاكل، وأعدكم أنا أمثل مشكلة أكثر مما يستحق

الأمر، ماذا تقولون إذًا لننهي الليلة و...». شعر مارفين بالضجر من هذا الأحمق، وخطا نصف خطوة إلى الأمام، رفع المسدس عاليًا لتوضيح موقفه، وبينما فعل ذلك، ارتفعت يد الرجل الأبيض اليسرى بسرعة إلى الأعلى وإلى الأمام ودار على قدمه اليسرى في لمح البصر، وابتعد بجسده عن خط النار، تفاجأ مارفين بالحركة، وعندما لف الرجل، ثبت يده القوية على سبطانة المسدس، خلف الفوهة، ودفع السلاح جانبًا وأسفل، سحب مارفين غريزيًا الزناد، صدح مسدس لورسين بصوته العالي في الشارع الخالي، لكن الرجل الأبيض ما إن أطلق مارفين النار دار بجسده بعيدًا عنه إلى اليمين ودفع السلاح لأسفل إلى يسار مارفين، أدرك مارفين على الفور أنه أخطأ، قفز جيمس في الهواء، ووقع سكينه على الأرض بينما يمسك بأسفل ساقه بيديه، سقط على العشب بجانب الرصيف وبدأ بالعويل، أصابت الرصاصة الجوفاء أعلى قدم الولد، عرف مارفين أنه ارتكب خطأ، لكن المسدس لا يزال في يده، ولسبب غير مفهوم، أرخى الضحية يده عن السلاح.

تحول الرجل بعيدًا عن مارفين الآن، حيث كان اهتمامه بداريوس ونصله، تاركا ظهره معرضا للخطر، على بعد قدمين فقط من مسدس مارفين، لم يصدق مارفين غباء هذا الأحمق ليتجاهل مسدسًا ذا ذخيرة ويدير ظهره له، رفع مارفين السلاح وسدده نحو مؤخرة رأس الأحمق، مستعدًا لقتل الرجل قبل أن يفعل أي شيء لداريوس، ثم سحب الزناد، سُمع صوت النقرة.

لم يلقِ كورت بالًا لحامل السلاح الأحمق خلف ظهره، لأنه يعرف أن الرجل خارج المعركة للحظات القادمة، فعندما أمسك بالجزء الخلفي من المسدس، منعه من العمل بعد إطلاق النار، فهناك طلقة مستهلكة داخل خزينة المسدس، ويمكن للرجل الذي وراءه أن يسحب الزناد طوال اليوم ولن يحدث شيء، حتى يسحب الجزء الخلفي من سلاحه لإخراج الطلقة المستهلكة وتحميل طلقة جديدة من الخزينة، لم يعتقد كورت لحظة واحدة أن الرجل سيفهم ما يجري لمدة ثوانٍ، فمعركة

المهاجم الآن من أجل حياته، والأدرينالين سيجعله عصبيًا وغير قادر على معالجة المعلومات المتدفقة إليه، تعلم كورت منذ زمن بعيد أنه في أي معركة بالأسلحة النارية، لا يرتقي المرء إلى المستوى المطلوب، بل يتخلف عن المستوى الذي يتقنه، وحامل السلاح التعس هذا لم يتقن شيئًا يتعلق بالأسلحة النارية، وإلا لما حمل مسدسًا سيئًا كهذا، الآن لدى كورت الوقت للتصرف مع الخنجر أمامه، فقد حاول الولد طعنه مباشرة، فاندفع بجسده لتسديد ضربة له، رفع كورت ذراعه اليمنى، واخترق السكين الجبس على ذراعه، ثم استخدم كورت يده اليسرى للإمساك بمعصم الولد التي تحمل السكين ولفها حتى سقط سكينه.

واصل كورت لف يده إلى الخلف، ثم دفعها بالاتجاه المعاكس للأربطة التي تربط الجزء العلوي من ذراع الولد بالسفلي، ثم سحبها إلى الخلف بزاوية خمس وأربعين درجة، مما لوى الذراع بعيدًا عن مفصل الكوع، متسببًا بتمزق الأربطة، بعد كل ذلك الألم استوعب الولد أن الدفاع الوحيد المتاح له هو السقوط على ظهره على الرصيف، ففعل ذلك، ثم سقط على الأرض الباردة وهو يتألم من ذراعه، اعتقد كورت أن الرجل الذي خلفه سيكون في منتصف حل مشكلة مسدسه، فعاد إليه، ووجد الرجل النحيل يضع يده أعلى المسدس، وبدأ للتو بسحب الزلاقة، أطلق في الهواء الطلقة المستهلكة، لكن قبل أن تنطلق الزلاقة إلى الأمام، لف كورت يده اليسرى مرة أخرى حول البارود المكشوف الإطار المسدس، مما منع تقدم الترس إلى الأمام، ثم ضغط إصبعه على زر إطلاق الخزينة، مما أدى إلى سقوط الخزينة التي كانت مليئة بالرصاص على الرصيف، ترك كورت المسدس.

لا تزال قبضة مارفين على السلاح وإصبعه على الزناد، قبل أن يفهم ما يحدث، ضغط على الزناد، ضغط المهاجم على زناد خزينة فارغة، ولم يصدر سلاحه إلا صوت النقرة مرة أخرى، نظر مارفين إلى الرجل الأبيض، وعيناه اتسعتا كالطبق، نظر «ضحيته» إليه، بهدوء يميل إلى الضجر، نظر مارفين إلى مسدسه الفارغ وخزينة الطلقات على الأرض،

لم يفهم ما حدث للتو، ولكنه متأكد تمامًا أن سلاحه أصبح عديم النفع، لديه سكين قابل للطي في جيبه الخلفي، إلا أن ذلك غاب عن تفكيره، في الواقع، لن يتذكره حتى وقت لاحق، أما حاليًا فتفكيره يجثم عليه الذعر.

استدار وركض، بعد كل شيء اختار مارفين الركض كما فعل طوال حياته، هرب وترك طاقمه المراهق وراءه.

شاهد كورت الرجل النحيل وهو يركض بسرعة إلى الضباب، فانحنى فوق الولدين المصابين، حيث جلس المراهق الذي يمسك ذراعه المتضررة على الرصيف، لكن الولد الذي تلقى رصاصة في قدمه لا يزال يتألم على العشب، وأسلحتهما بعيدةً عن متناولها في مكان ما في الظلام، تفحص كورت المباني في جميع الاتجاهات، والنوافذ والأبواب والطرق التي يمكن رؤيتها من خلال الضباب، وبينما يفعل ذلك تحدث بلطف: «إنه رجل رائع، زعيمكم الشجاع»، فلم يجب أي من الولدين؛ فقط نظر كلاهما برعب إلى الرجل الهادئ الذي ينحني فوقهما. انتظر كورت أي رد فعل، ولكن عندما لم يفعلا شيئًا، هز كتفيه، وقال: «كم تحملان من النقود؟» نظر الولدان إلى بعضهما البعض بدهشة، ثم عاودا النظر إلى كورت، الذي أخذ نفسًا عميقًا وقال: «كيف ذلك؟ أنا أسرقكما، يا للسخرية! صحيح؟» مد يده، و تحسس ثياب الولد الذي لديه ثقب في قدمه، وأخرج ورقة من فئة عشرة دولارات من جيبه الأمامي، فمد الولد ذو الذراع المصابة يده المرتجفة التي تحمل مجموعة من أوراق النقود المتجعدة من فئة دولار واحد ، دسها كورت في جيب بنطاله الجينز، ثم أمسك بقدم الولد المصابة ونظر إلى الثقب الدموي في مقدمة حذائه الرياضي الأبيض، بصوت خافت قال: «يبدو أسوأ مما هو عليه، لذلك لا تنظر إليه»، ثم التفت إلى الولد صاحب الذراع الملتوية وساعده على الوقوف مرة أخرى، قال له: «أنت بخير، ستؤلمك لبضعة أيام، على الأكثر، إذا وضعت الثلج عليها، مهمتك الآن هي مساعدته، اصطحبه

إلى المستشفى، وعندما تصل هناك، قل للشرطة إن غبيًا ما كان يلهو بمسدسه وخرجت منه رصاصة أصابته، سوف يزعجونكما، لكن اثبتا على هذه القصة، سيصدقونها ويدعونكما تذهبان».

أومأ الولدان بالموافقة ببطء، ثم عبس وجه كورت وأصبح صوته قاتمًا: «ولكن إذا كنتما ستخبرانهم عني، وتعطيانهم وصفا، أي معلومات... فسأعود إلى هنا، سأجد ما تحبان في هذا العالم... وسأقتله، هل هذا واضح؟»، أومأ الولدان مرة أخرى، بسرعة أكبر هذه المرة، قال لهما: «ليلة سعيدة».

أسند الولد ذو الذراع المصابة صديقه ذا القدم الجريحة، و مضيا معًا يتعثران خلال ظلام الليل، لاحظ جنتري أنهما ذهبا في اتجاه مختلف عن رئيسهما، واعتبر ذلك إيجابيًا، لكنه لاحظ أيضًا أن أحدًا لم يخرج من أي من المنازل القريبة للتحقق من إطلاق النار، وهذا جعله يشعر بالاكتئاب قليلاً، ابتعد كورت عن الولايات المتحدة لمدة خمس سنوات، وها هي أمريكا أمامه لا تختلف كثيرًا عن بعض أخطر الدول النامية التي عمل فيها، كان يعتقد دائمًا أن الولايات المتحدة هي بيته، وملاذه، ومكانه الآمن، ولكن هذا كان وهمًا، والحقيقة التي عرفها هي عكس ذلك تمامًا، هذه هي بلاد الهنود الحمر، وهو مطلوب هنا... والخطر والتهديد يتربص به في كل منعطف.

بعد لحظة، سار كورت جينتري، جامعًا سترته حوله لدرء الهواء البارد.

THE GRAY MAN

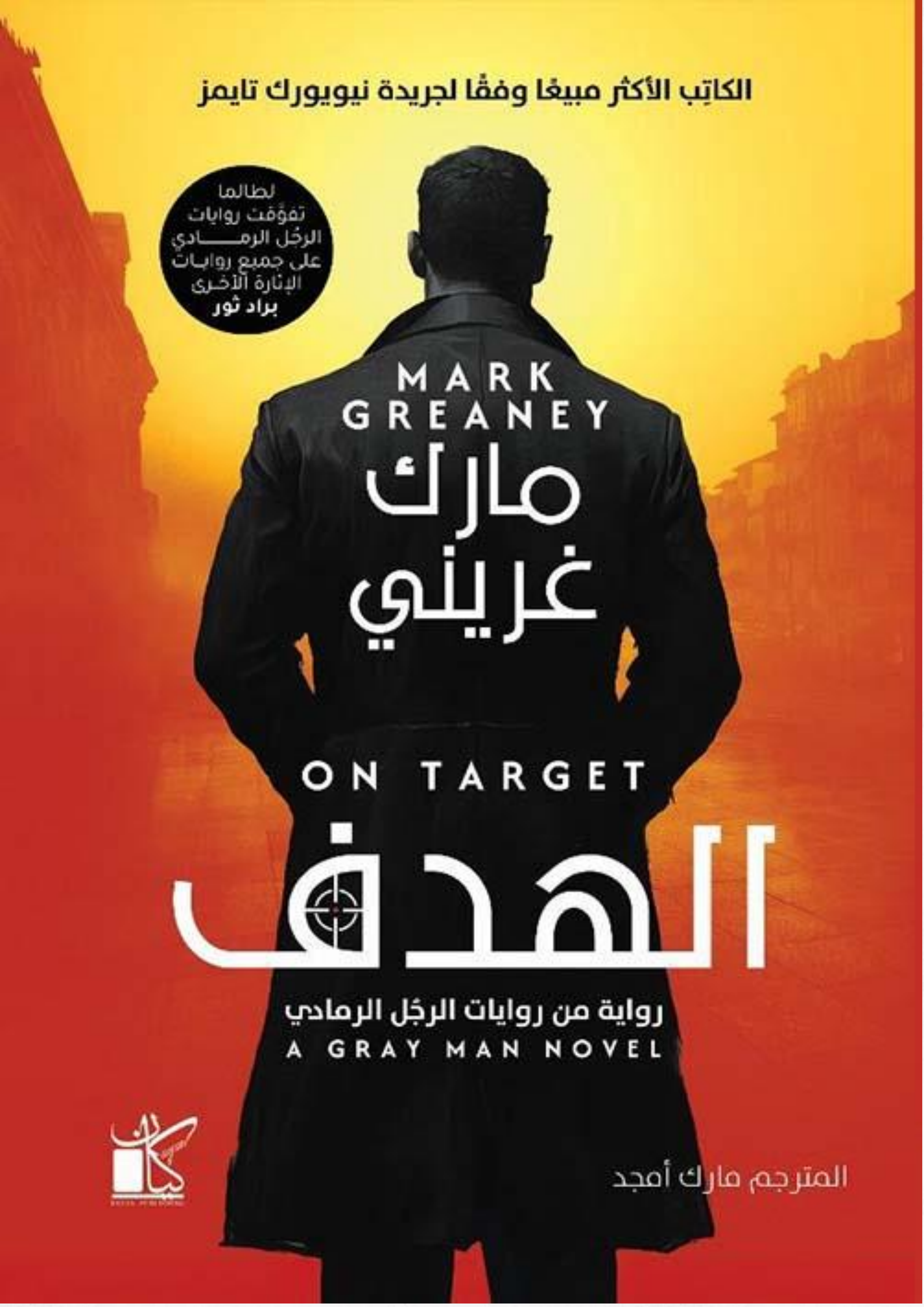
الرجل الرمادي

مارك غريني

"لم تكن هناك سوى فترة واحدة في الستة عشر عامًا الماضية لم يكن فيها كورت قاتلا، ولم يكن جاسوسًا، أو شخصية غامضة تتحرك داخل وخارج المشهد. قبل ذلك بعامين، ولأقل من شهرين، عيّن فيتزروي الرجل الرمادي في وظيفة مميزة تمامًا عن أي شيء آخر في سيرته الذاتية، إذ تولى كورت منصبًا في الحماية الشخصية القريبة، كحارس شخصي لحفيدتيْ السير دونالد".

يواجه جينتري، أعتى قاتل مأجور في العالم، إطارًا زمنيًا ضيقًا بالإضافة إلى جيش من القتلة المأجورين، الذين يعترضون طريقه إلى باريس للقضاء عليه قبل أن يصل إلى مقر احتجاز فتاتين صغيرتين، فيصارع إطلاق النار مع إصاباته الشديدة واقترابه الوشيك من الموت، ليثبت أن أسطورة الرجل الرمادي حقيقية، فلا شيء يعترض طريقه، ولا حواجز تمنعه.

9 789778 201253



الكاتِب الأكثر مبيعًا وفقًا لجريدة نيويورك تايمز

لطالما تفوَّقت روايات الرجُل الرمـــادي على جميع روايات الإثارة الأخرى
براد ثور

MARK GREANEY

مارك غريني

ON TARGET

الهدف

رواية من روايات الرجُل الرمادي

A GRAY MAN NOVEL

المترجم مارك أمجد

ON TARGET

الهدف

ما القتل إلا وظيفة كورت جنتري، لكنه يتحول لمسألة شخصية في الجزء الثاني من رواية الرجل الرمادي لصاحبها مؤلف النيويورك تايمز الأكثر مبيعًا مارك غريني.

قبل أربع سنوات تعرّض كورت جنتري للخيانة من قبل رؤسائه في جهاز السي آي إيه وكي ينجو بحياته لم تكن أمامه سوى التضحية ببعض زملائه. الآن باعتباره قاتلًا محترفًا معروفًا باسم الرجل الرمادي فهو يكسب عيشه من تصفية آخرين، لكن حين يظهر فجأة زميل قديمٌ له ظنّه ميتًا يطارده ويريد تجنيده لصالحه، فتنقلب حياته الدموية بشكل تراجيدي بائس.

ما يريده الزميل القديم من الرجل الرمادي تحويل عملية اغتيال لاختطاف مما يجعلها شبه مستحيلة، لكن المهمة الأصعب هي محاولة إعادة انتمائه لجهاز السي آي ايه بعد انقلابه عليه.
وهكذا بين مافيا الروس التي لا ترحم وتريد خدماته القتالية من جهة، وبين خطط واستراتيجيات أجهزة الأمن الأمريكية من جهة أخرى، يشعر الرجل الرمادي أنه ينازع فصيلين داخله طوال مهمته، وكي يخرج من هذه المعمعة سليمًا أو حيًا عليه أن يُريق الكثير من الدماء.

هذه الرواية هي Bourne الألفية الحالية.
مؤلف النيويورك تايمز الأكثر مبيعًا جيمس رولينز

كتابة مصقولة مثل نصلٍ حادٍّ.
مؤلف النيويورك تايمز الأكثر مبيعًا ديفيد ستون

تصميم الغلاف
إياد إسماعيل

9 789778 202656

الجزء الثاني
الهدف

ON TARGET

MARK GREANEY

JOVE BOOKS, NEW YORK

تمهيد

تدلت الغيوم القاتمة مثقلة برطوبة هواء الصباح فوق **البحر الأيرلندي**، وتحركت ببطء فوق القاتل الذي كان يقف على مقدمة السطح الخشبي لقارب صيد. حامت بعض طيور النورس الفضي الصاخبة حول القارب بينما كان لا يزال على بعد أميال من الساحل؛ ومع دخوله القناة المؤدية إلى المرفأ، أحاط به سرب منها يقرب من اثني عشر طائرا، يخوض الضباب بأجنحته البيضاء.

صرخت الطيور البحرية في وجه القارب، مطلقة صيحات تحذر الساحل الأيرلندي من وصول قاتل إلى شواطئه.

لكن تحذيراتها ضاعت سدى في الضباب.

رسا القارب في موقفه بالمرفأ قبيل الثامنة صباحا. نزل القاتل من السطح إلى الرصيف دون أن يلقي نظرة على فردي الطاقم. لم تنطق كلمة واحدة خلال الساعات الثلاث منذ أن أقل قارب "لوكين" بطول 40 قدما راكبه من سفينة شحن ليتوانية في المياه الدولية. ظل على السطح، يتحرك ذهابا وإيابا، يمسح بيقظة البحر المضطرب حوله، ومعطفه الأسود ذو القلنسوة يحميه من رذاذ الماء المالح وزخات المطر المتقطعة، وكذلك من أعين الفضول للأب وابنه اللذين كانا يشغلان القارب. بقي الطاقم في غرفة القيادة طوال الرحلة، متبعين تعليمات صارمة. لقد تلقوا أوامرهم أن يقلوا راكبا ثم يبتعدوا عنه، وأن يعودوا به إلى **مرفأ هوث**، شمال **دبلن** مباشرة. وبعد تسليم "صيد اليوم" الغريب هذا، كان عليهم أن يستمتعوا بمكافأتهم وأن يطبقوا أفواههم.

سار القاتل عبر القرية الساحلية إلى محطة القطار الصغيرة واشترى تذكرة إلى **محطة كونولي** في وسط **دبلن** .ولأن لديه نصف ساعة لينفذ عملية القتل، نزل درج المحطة ودخل الحانة

الكائنة في القبو. كانت حانة **الصرخة الدامية** تقدم وجبة إفطار أيرلندي كامل للصيادين في المرفأ؛ وكانت القاعة الطويلة الضيقة ممتلئة بأكثر من نصفها بالرجال الذين كانوا يلتهمون أطباقا من البيض والسجق والفاصوليا المطبوخة، ويتبعونها بأكواب كبيرة من بيرة غينيس ستاوت الداكنة ذات الرغوة الكثيفة. كان القاتل يعرف كيف يندمج في محيط غير مألوف؛ لذا اكتفى بالهمهمة والإيماءات لإخفاء لكنته الأجنبية، وطلب نفس ما طلبه من حوله. التهم طبقه وجرع بيرته قبل أن يغادر حانة **الصرخة الدامية** ليلحق بقطاره.

بعد نصف ساعة، كان يسير بخطى مثقلة عبر شوارع **دبلن** .أطلق لحيته البنية الكثيفة، واعتمر قبعة صوف زرقاء شدها فوق أذنيه وجبهته، ولف وشاحا ضيقا حول عنقه، وارتدى معطفا أزرق داكنا دس في جيبيه يديه المقفزتين عميقا، هربا من الهواء القارس. وعلى كتفه، تدلت حقيبة قماشية صغيرة تتأرجح مع خطواته. اتجه جنوبا بعيدا عن محطة القطار، ثم انعطف يمينا عند رصيف **نهر ليفي** وسار بمحاذاته بينما بدأ مطر بارد بالهطول.

واصل القاتل سيره.

كان يتطلع إلى إنهاء هذه المهمة. لم يكن مرتاحا في البحر، ولم يكن مرتاحا الآن وسط حشود الصباح المتزايدة حوله مع اقترابه من **شارع أوكونيل**.

لكن، كان هناك رجل في **دبلن**، قرر شخص آخر ما ذو مال ونفوذ أنه يجب أن يتوقف عن الوجود.

وقد أتى **كورت جنتري** ليتكفل بذلك.

الفصل الأول

في صيدلية، اشترى علبة من أقراص الأسيتامينوفين وزجاجة ماء. كان قد أصيب قبل بضعة أشهر، برصاصة اخترقت فخذه ونصل سكين في أحشائه. أخذ الألم يتضاءل مع مرور الأسابيع. للجسد قدرة مذهلة على الشفاء، تفوق بكثير قدرة العقل. أصبح **كورت** معتمدا على الحبوب والحقن: فيكودين وأوكسيكونتين، ديميرول وديلوديد. كان جراح في **نيس** يزوده بها منذ العملية التي أجراها لتنظيف وإغلاق جرح بطنه، وكان **جنتري** يتناول الحبوب كل يوم منذ ذلك الحين. لكنه تركها عمدا خلفه عندما صعد على متن سفينة الشحن؛ لقد مضى عليه الآن أكثر من أسبوع بدون أدويته، وهذا التطهير الذاتي من السموم كان يجعله في حالة بائسة.

لم يكن الأسيتامينوفين بديلا عن مخدر قوي، لكن عقله وجد بعض الراحة في طقوس ابتلاع الأقراص على أي حال.

بعد ثلاث ساعات من مغادرته القارب، سجل دخوله في فندق اقتصادي يديره صينيون في زقاق ضيق متفرع من **شارع بارنيل**، على بعد نصف ميل شمال النهر. كانت غرفته مظلمة ورطبة وتفوح منها رائحة العفن والشحم المقلي؛ فالمطعم الذي يقع تحته بطابقين كان ينفث الرائحة الكريهة عبر فتحات التهوية. كان مطر شبه أفقي يضرب النافذة المتسخة باستمرار لكنه فشل في تنظيفها؛ كانت الأوساخ الزيتية تغطي السطح الداخلي للزجاج.

استلقى **جنتري** على ظهره فوق الفراش المترهل وحدق في السقف، وأفكاره مشتتة. لقد كان على متن قارب لأكثر من أسبوع؛ كان شعورا غريبا ألا يتأرجح ذهابا وإيابا، صعودا وهبوطا ببطء.

استغرق الأمر ساعات قبل أن يغلبه النعاس، والمطر البارد لا يتوقف عن الهطول على زجاج النافذة بجوار رأسه.

في منتصف الظهيرة، جلس في المطعم الصيني في الفندق الصغير، وأكل المعكرونة ولحم الخنزير، واستخدم هاتفا محمولا اشتراه من متجر لتسجيل الدخول إلى الإنترنت. دخل إلى لوحة إعلانات على موقع إلكتروني يبيع جولات مغامرات في جبال الأورال، وأدخل كلمة مرور لتسجيل الدخول إلى منتدى للموظفين؛ وباستخدام رمز إضافي، تمكن من الدخول إلى موضوع محادثة مع مشاهد واحد آخر.

كتب **كورت** على هاتفه بإبهامه بينما كان يشرب عصير برتقال فاترا.

أنا هنا.

بعد بضع ثوان، تم تحديث النافذة الصغيرة في الهاتف. رد شخص ما في المنتدى.

في بانكوك، آمل؟ كان هذا هو الرمز الذي يؤكد هوية الطرف الآخر. تم إثبات هوية **جنتري** من خلال رده.

لا . سنغفورة .فقط من خلال هذا الخطأ الإملائي اكتمل التحقق من الهوية.

رحلة سعيدة يا صديقي؟ جاء الرد التالي. قرأه **كورت**، وقضم قطعة من فطائر الونتون المقلية التي كانت دهنية مثل نافذة غرفته في الطابق العلوي.

حاول ألا يقلب عينيه.

لم تكن رحلة سعيدة، ولم يكن **جريجور إيفانوفيتش سيدورينكو** صديق **كورت جنتري** .لم يكن لدى **كورت** أصدقاء. ومن غير المرجح أن يكون لدى **سيدورينكو**، أو **سيد** كما يعرفه

كل من في الغرب، أي أصدقاء هو الآخر. كان من المافيا الروسية، زعيم كبير في **سانت بطرسبرغ** .كان يدير منظمة تسيطر على القمار غير القانوني والمخدرات والبغايا والقتلة المأجورين و... بدافع من يأس القاتل الأمريكي، أصبح الآن يدير **كورت جنتري**، الرجل الرمادي.

بينما كانا ظاهريا في نفس مجال العمل، لم يكن **جريجور سيدورينكو** مثل **دونالد فيتزروي** . كان السير **دونالد** مسؤولا عن **كورت** لسنوات، منذ أن طاردت وكالة المخابرات المركزية **جنتري** خارج الولايات المتحدة بمذكرة حرق [1]وأمر بإطلاق النار فور رؤيته[2]. استقبله **فيتزروي**، وقدم له وظائف جيدة ضد رجال سيئين، ودفع له بسخاء مقابل عمله، بل واستأجره ذات مرة لحماية عائلته. ولكن بعد ذلك، تم حشر **فيتزروي** في زاوية، وانقلب على **كورت**، ورغم أنه اعتذر بغزارة بل وعرض حياته على موظفه الأمريكي كتعويض، علم **جنتري** أنه لا يمكنه الوثوق به مرة أخرى أبدا.

لن يثق بأحد مرة أخرى أبدا.

كان **سيد** حثالة، لكنه كان واضحا . كان **كورت** يعلم أنه لا يستطيع أن يثق بالروسي اللعين ذي اللسان المتشعب قيد أنملة، لكن **سيد** كان قادرا على توفير الوصول إلى بعض أكثر العقود ربحا في هذا المجال. ووافق **سيد** على شرط **جنتري** بأنه لن يقبل إلا تلك العمليات التي يعتبرها مبررة، أو على الأقل تلك التي تميل قليلا إلى الجانب الجيد من فئة "المحايدة أخلاقيا."

---

[1] **مذكرة حرق :(Burn Notice)** هو مصطلح استخباراتي يعني أن الوكالة قد تخلت عن أحد عملائها رسميًا .عند صدور "مذكرة حرق"، يُعتبر العميل غير موثوق به، ويتم قطع جميع علاقاته بالوكالة، ويُحرم من جميع الموارد والاتصالات الرسمية، وغالبًا ما يصبح هدفًا لأعدائه أو حتى لوكالته السابقة.

[2] **أمر بإطلاق النار فور الرؤية :(Shoot-on-sight order)** هو أمر عسكري أو استخباراتي يقضي بقتل شخص معين بمجرد رؤيته دون الحاجة إلى انتظار أوامر إضافية أو محاولة اعتقاله .وهو يُعتبر أقصى درجات العقوبة ويصدر ضد أهداف شديدة الخطورة أو عملاء سابقين تم اعتبارهم خونة.

وهو ما قاد **كورت** إلى هنا، إلى **أيرلندا**.

كانت هذه الرحلة إلى **دبلن** أول عملية لـ**كورت** مع **سيد** .قرأ ملف الهدف، ووافق على المهمة، وجادل عبر الإنترنت حول الأجور المنخفضة المعروضة للعقد، ثم قبل على مضض.

كان بحاجة إلى البقاء نشطا. فترة التوقف والجروح والمخدرات كانت تضعفه، وهو رجل لا يستطيع تحمل الضعف على الإطلاق.

حفظ **كورت** الأجزاء ذات الصلة من ملف الهدف. إجراء عملياتي معياري قبل عملية تصفية. الاسم :**دوجال سلاتري** .العمر: أربعة وخمسون عاما. الجنسية: أيرلندي. الطول: ضخم. الوزن: سمين. كان ملاكما في شبابه لكنه لم يستطع الخروج من القائمة المتوسطة لمواهب الملاكمة المحلية. ثم وجد عملا كـ"رجل قوي"، حارس في النوادي الليلية في **دبلن** . توسع في عمله، وقام ببعض الأعمال الخشنة لصالح عصابة محلية، حيث كان يصفع البغايا البولنديات الكسولات ويضرب رؤوس تجار المخدرات الأتراك ببعضها البعض لعدم تحقيقهم الحصة المطلوبة. تدرج إلى بعض عمليات القتل منخفضة المستوى: حروب عصابات، لا شيء مميز حتى تم إرساله في مهمة إلى القارة. في **أمستردام** حقق النجاح الكبير، حيث قتل منافس رئيسه في وابل من الرصاص بعد استخدام قبضتيه المشققتين لتحطيم وجوه اثنين من حراسه الشخصيين.

ومن هناك، صعد إلى المستوى الثاني في تجارة القتلة المأجورين. عمليات تصفية في أنقرة، وفي سردينيا، وفي كلكتا، وفي طاجيكستان. لاحظ **كورت** في ملفه أنه لم يكن يعمل منفردا؛ لم يكن العقل المدبر لعملياته، لكن سيرته المهنية تضمنت بعض عمليات القتل المحترمة. ليست محترمة بالمعنى الأخلاقي؛ لا، فقد ورد أنه قتل محققا في الشرطة، ورجل أعمال

نزيها، وصحفيا أو اثنين. لكن **كورت** قدر أن العمليات نفسها كانت، إن لم تكن مذهلة، فعلى الأقل تم تنفيذها بكفاءة.

لكن آخر عملية قتل له مسجلة في الملف كانت قبل ست سنوات. لم يستطع **كورت** إلا أن يلاحظ أن ملف **سيد** عن **سلاتري** أصبح هزيلا جدا بعد ذلك. باستثناء بعض الاستنتاجات التخمينية، كل ما كان معروفا عن حياته منذ ذلك الحين هو أنه كان يعزف على الطبل في فرقة أيرلندية تقليدية تقدم عروضا خمس ليال في الأسبوع في منطقة **تيمبل بار** السياحية في **دبلن**.

بالكاد يكون هذا عملا يجعل اسمك يُدرج في أمر تصفية.

وجد **جنتري** أن هذه واحدة من عملياته الأكثر حيادية من الناحية الأخلاقية. الرجل كان قاتلا، ولكن كذلك كان **كورت**. برر **كورت** الفرق؛ لقد فحص أهدافه، وتأكد من أن أفعالهم تستدعي القتل خارج نطاق القضاء. من الواضح أن **دوجال سلاتري** لم يكن كذلك. وفقا لـ**سيد**، كان الأيرلندي الآن يعمل لحساب منظمة إجرامية دولية يديرها إيطاليون. قد تكون ضحيته التالية عاهرة متمردة أو صاحب مطعم فشل في دفع أموال الحماية للمافيا.

قرر **كورت** أن قتل **دوجال سلاتري** لن يحسن كثيرا من طرق العالم الشريرة، لكنه بالتأكيد لن يضر.

حسنا، لن يضر أي شخص لا يحمل اسم **دوجال سلاتري**.

مرحبا؟ هل ما زلت هناك؟ مر على منشور **سيد** السابق ثلاث دقائق. كان **كورت** قد شرد عن المهمة للحظة. أجبر نفسه على التركيز على شاشة هاتفه الصغيرة.

أنا هنا. لا توجد مشاكل.

كم من الوقت ستحتاج؟

غير معروف. سأقيم الوضع الليلة. سأتحرك في أول فرصة مناسبة.

أتفهم يا صديقي. لا تستغرق وقتا طويلا. لدي المزيد من العمل بعد ذلك.

كان هناك دائما المزيد من "العمل"، كان **كورت** يعلم ذلك. لكن معظم "العمل" كان يتضمن عقودا لن يقبلها **جنتري** أبدا. سيكون **كورت** هو الحكم فيما إذا كان هناك "المزيد من العمل بعد ذلك". لكنه لم يجادل **سيدورينكو** في هذه النقطة.

بدلا من ذلك، أجاب فقط، ***حسنا.***

أتطلع إلى أخبار جيدة. وداعا يا صديقي.

قام **كورت** بتسجيل الخروج ببساطة. أطفأ الهاتف ووضعه في الجيب الجانبي لمعطفه. أنهى وجبته، ودفع الحساب، وغادر الفندق.

في وقت متأخر من بعد الظهر، تجول في الأحياء المحيطة بـ**شارع جرافتون** .قضى ساعة في دراسة ملابس وسلوكيات السكان المحليين، محاولا الاندماج. لن يكون الأمر صعبا على محترف مدرب؛ فـ**دبلن** مدينة دولية مليئة بالبولنديين والروس والأتراك والصينيين وأمريكيي الجنوب... وحتى عدد قليل من الأيرلنديين هنا وهناك. لم يكن هناك مظهر أو مشية أو سلوك واحد لتقليده؛ ومع ذلك، دخل **كورت** متجرا للملابس المستعملة في **داوسون لين** وخرج بحقيبة. في حمام متجر متعدد الأقسام، غير ملابسه إلى بنطال جينز أزرق بالٍ، وسترة بقلنسوة، وسترة سوداء من قماش الدنيم. أكمل المظهر بحذاء رياضي أسود وقبعته الصوفية الزرقاء الداكنة.

بحلول الليل، كان يبدو كأحد السكان المحليين، يتحرك مع الجماهير. أجرى مسحا أمنيا، وعاد على أعقابه، وصعد ونزل من بضعة قطارات على خط "دارت" ـ نظام النقل العام في **دبلن** - كل ذلك للتأكد من عدم تعقبه. كان عدد الأشخاص في هذا العالم الذين يريدون **كورت جنتري** ميتا أكثر بكثير ممن قد يهتمون بأمر **دوجال سلاتري**، وأبقى **كورت** هذا الأمر في ذهنه، فقط ليضع عمليته في منظورها الصحيح. كان هدفه الثانوي هو قتل الأيرلندي؛ أما الهدف الأساسي، كما هو الحال دائما، فهو الحفاظ على حياته ليوم آخر. كان عليه أن يبقي أمنه الشخصي في مقدمة أفكاره.

بعد أن اطمأن إلى أنه لم يكن متبوعا، توجه إلى حي **تيمبل بار** على الضفة الجنوبية لـ**نهر ليفي**.

في الساعة العاشرة، جلس على منضدة البار في حانة **أوليفر سانت جون جوجارتي** .على الرغم من أنها كانت ليلة أربعاء، إلا أن الحانة السياحية كانت مكتظة بالكامل. أمريكيون، أوروبيون قاريون، آسيويون. الأيرلنديون الوحيدون في الحانة كانوا على الأرجح النادلات والسقاة والفرقة الموسيقية.

لم يقض **كورت** وقتا طويلا في الحانات الصاخبة في الأشهر القليلة الماضية. لقد توارى عن الأنظار في جنوب **فرنسا**، وعاش في غرفة علوية صغيرة في كوخ صغير في قرية صغيرة على سفح تل، ونادرا ما غادرها إلا للذهاب إلى المتجر الصغير في الزاوية لشراء الأطعمة المعلبة والمياه المعبأة. حتى زياراته القليلة إلى **نيس** لرؤية طبيبه كانت هادئة. كان فصل الشتاء؛ النوادي الليلية والمتاجر المبتذلة على كورنيش الإنجليز، التي تكون دائما مكتظة خلال الموسم السياحي، كانت شبه فارغة أو مغلقة. هكذا أحبها **كورت** .كانت حانة **أوليفر سانت جون جوجارتي** نقيض أساليبه المهنية المعتادة؛ فقد سألته النادلة بالفعل عن اسمه، وحاولت امرأتان إنجليزيتان بجانبه الدخول معه في حديث قصير.

تجاهل محاولاتهما، وارتشف من بيرة غينيس الخاصة به، ومسح الغرفة بنظره، وتمنى لو كان لديه أربعة ملليجرامات من الديلودية لتهدئته، ثم قال لنفسه بغضب أن يلملم شتات نفسه ويعيد تركيزه على هذه المهمة.

هناك نوعان فقط من الناس في العالم. نوعان لا ثالث لهما. الخراف والذئاب.

كان **كورت** ذئبا، وكان يعلم ذلك. لقد أضعفته الأشهر القليلة الماضية إلى حد ما، لكن الذئب يظل دائما ذئبا، ولم يكن الأمر أكثر وضوحا له من هنا في الحانة، محاطا كما كان بمئة خروف. لم يكن أحد في الحشد يمسح المكان بحثا عن تهديدات كما فعل هو. لم يحدد أحد في الحشد المخارج والرجال الأقوياء في الغرفة ونوع الزجاج في النافذة الأمامية. لم يلاحظ أحد في الحشد ندرة وجود سلطات إنفاذ القانون في الشارع أو نظام الإضاءة في الزقاق الخلفي. لم يعرف أحد في الحشد أين يجلس حتى لا يعكس انعكاس المرآة صورته في أنحاء الغرفة.

لم يكن لدى أي شخص في الحشد خطة للهروب بحياته إذا لزم الأمر.

ولم يكن لدى أي شخص في الحشد خطة لقتل كل شخص آخر في الحشد إذا وصل الأمر إلى ذلك.

نعم، كان في حشد مليء بالخراف، ولكن كان هناك، في الواقع، ذئب آخر في الغرفة. وفقا لملف **سيد**، كان عازف الطبول على المسرح رجلا قويا أيضا. كانت الفرقة التقليدية تتكون من خمسة أفراد، ورغم أن **جنتري** لم يكن خبيرا في مثل هذه الأمور، فمن رد فعل الزبائن، افترض أنهم لا بد أن يكونوا جيدين جدا. الرجل الضخم ذو الشعر الأبيض الجالس على مقعد جانبي على المسرح كان يعزف على "البودران"، وهو طبل أيرلندي تقليدي محمول باليد. كان يأخذ عمله على محمل الجد، ورأسه منحن إلى الأمام كما لو كان يلتقط خفايا الموسيقى. بدا لـ**كورت** أشبه بموسيقي في منتصف العمر أكثر من كونه قاتلا مأجورا في

منتصف العمر. ربما مضى وقت طويل منذ أن عمل في "وظيفته الأساسية". بجانبه، كان شاب نحيل يعزف على صافرة من الصفيح في الميكروفون الخاص به، وعازفو الجيتار يعزفون ويغنون في انسجام، وهاج حشد الخراف. لم يستطع **كورت** تمييز الكثير من كلمات الأغنية، لكنها كانت تدور حول امرأة شابة جميلة وموسم بطاطس سيء وزوج مات من شرب الخمر.

أنهى **كورت** بيرة الستاوت الخاصة به واتجه خارجا من الباب.

الفصل الثاني

ودّع **دوجال سلاتري** زملاءه في الفرقة في الحادية عشرة والنصف، وغطى شعره الأبيض الكثيف بقبعة مشي من صوف **دونجال**، ثم غادر حانة **أوليفر سانت جون جوجارتي** حاملاً طبلته في حقيبتها الجلدية على كتفه. كانت أمسية باردة لكنها صافية، كألف ليلة أخرى عزف فيها في الحانة، ومثل معظم الليالي الأخرى أيضًا، اشتهى كوبًا من الجعة قبل العودة إلى شقته. كانت هناك ثلاث دزينات من الحانات على بعد دقائق قليلة سيرًا على الأقدام، لكن شقته كانت على بعد ميل واحد على الجانب الآخر من محطة **بيرس** .سيفعل ما يفعله عادةً: يتجه إلى حانته المحلية لتناول كأس أخير.

كان **سلاتري** يمشي وهو يعرج بسبب ركبة مصابة . في الواقع، كانت إحدى ركبتيه سيئة والأخرى أسوأ، لكن العرج على كلتا الساقين كان أمرًا مستحيلاً، لذا كان يميل على أفضل المفصلين الضعيفين، وجسده الضخم يتهادى في ليل الشتاء القارس.

استغرق الأمر من الرجل الأيرلندي الضخم قرابة ثلاثين دقيقة للوصول إلى حانة **بادريك بيرس**، التي سميت على اسم الزعيم الكاثوليكي الأيرلندي الذي أعدمه البريطانيون في ثورة عيد الفصح عام 1916. كانت حانة كاثوليكية أصيلة؛ تزين صور وآثار الثورة نوافذ المكان الصغير.

دخل **دوجال** وهو يعرج، ووضع معطفه وطبلته (البودران) في مقصورة زاوية، وتوجه إلى المنضدة لتناول كوب **الجينيس** الذي كان يُسكب بالفعل من الصنبور.

عثر **كورت جينتري** على مدخل مظلم وجلس على عتبته. لقد مشى اليوم أكثر مما مشى في أشهر، وتفاجأ بالشعور بالألم في عضلات فخذيه وساقيه، وظن أنه أحس بلسعة خفيفة حيث اخترقت الرصاصة ساقه اليمنى في ديسمبر الماضي. تمنى لو كان لديه حبة فيكودين، لكنه كان يعلم أنه لا يمكن أن يكون تحت تأثير المخدر وجاهزًا للعمل في نفس الوقت، لذلك جلس هناك وحدق في الباب الأمامي للحانة عبر الشارع. الليلة كانت للاستطلاع فقط؛ سيتبع هدفه إلى المنزل ثم يقرر أين ومتى يتحرك بعد ذلك.

كان اسم الحانة **بادريك بيرس** .تبدو من الخارج صالونًا صغيرًا. من المحتمل أنها كانت الملاذ المعتاد **لسلاتري**، نظرًا لأنه توجه مباشرة إلى هنا متجاوزًا فرصًا لا حصر لها للجلوس والشرب. كان عدد الحانات للفرد هنا في **دبلن** أكثر من أي مدينة أخرى في العالم. الأيرلنديون يعشقون حاناتهم، ولم يتفاجأ **كورت** عندما وجد نفسه يقضي جزءًا من أمسيته يراقب الباب الأمامي لحانة، في انتظار أن يفرغ هدفه من كوبين من الجعة.

نهض **جينتري** متيبسًا. أراد أن يحرك عضلاته، فقد كان يشعر بالبرد والألم معًا، وكان بحاجة إلى مرحاض أو زقاق خلفي. كان يعلم أن أنسب مكان لشاب محلي مثله ليُضبط وهو يقضي حاجته سيكون الممر الضيق بجانب حانة **بادريك**، لذا عبر الشارع الخالي وتوجه نحو الظلام. بمجرد وصوله، تتبع برائحة البول جدارًا بجوار بعض صناديق القمامة، فك حزامه، ثم سرعان ما أعاد ربطه. كان ضجيج في نهاية الزقاق قد لفت انتباهه: رجلان يخرجان من باب خلفي، وشعاع من الضوء على بعد خمسين قدمًا منه، وصوت رجال آخرين يتحدثون من داخل المبنى. ذهب الرجلان إلى جدار خلفي وقضيا حاجتهما، ثم عادا إلى الداخل بعد دقيقة دون أن يدركا أن غريبًا يقف في مكان قريب في الظلام.

كان من الواضح أنه باب خلفي لحانة **بادريك بيرس** الذي مروا من خلاله. إذن فالحانة أكبر بكثير مما ظن **كورت** في البداية. قضى حاجته على الجدار المبني من الطوب ثم سار إلى الباب الخلفي. على الجانب الآخر، سمع صوت ارتطام عصا البلياردو بكرة، وأصوات رجال

أجشة، مسموعة ولكن غير مفهومة. نظر **جينتري** أمامه فرأى أن الزقاق الخلفي يؤدي إلى شارع جانبي، وتساءل عما إذا كان **سلاتري** قد غادر الحانة بالفعل عبر هذا الطريق. ربما يكون قد لاحظ حتى من يراقبه، لكن **كورت** لم يلحظ أي إشارة لذلك خلال نصف ساعة من المشي من منطقة **تمبل بار**.

اللعنة. أدرك **جينتري** أنه إما بحاجة لإنهاء المراقبة الليلة والمحاولة مرة أخرى غدًا، أو الدخول إلى الحانة وإلقاء نظرة ليرى ما إذا كان رجله لا يزال هناك. خطر الانكشاف في حانة بهذا الحجم سيكون ضئيلاً؛ بدا وكأن هناك العشرات في الداخل، و "الرجل الرمادي" كان يعرف كيف يذوب في محيطه في الداخل كما في الخارج.

عاد إلى الباب الأمامي، وأخفى رقبته في سترة الجينز ليبدو أقصر ببوصة، ثم دفع الباب الأمامي لحانة **بادريك بيرس**.

دخل **جينتري** الحانة وأدرك على الفور أنه ارتكب خطأً فادحًا. كانت صغيرة بشكل لا يصدق. منطقة البلياردو التي سمعها من الخلف كانت مغلقة بباب وصول على الجدار الخلفي للحانة مع لافتة كبيرة كتب عليها "للأعضاء فقط". الغرفة التي دخلها **كورت** لم تحتوي إلا على منضدة بار صغيرة، وثلاث طاولات، وبعض المقصورات المنعزلة على طول الجدار. سار إلى المنضدة وجلس على مقعد، لم يلتفت يمينًا أو يسارًا، بل أخرج محفظته وحدق مباشرة في الزجاجات خلف المنضدة. شعر بأعين حوالي عشرة من الزبائن، لكنه لم يكن يعلم بعد ما إذا كان **سلاتري** في الغرفة معه.

كان هناك طابع قاسٍ للحانة وزبائنها. شعر **كورت** بذلك على الفور. العداء يملأ الهواء.

هذا ليس مكانًا للغرباء.

أخيرًا، نظر إلى المرآة خلف المنضدة. كل رجل في الحانة، بما في ذلك **دوجال سلاتري** والشابين الجالسين معه، كانوا يحدقون به من خلال الزجاج.

"جمهور صعب المراس"، فكر **جينتري**.

لفتت انتباهه لافتة ملصقة على المرآة: "ممنوع الغناء."

"مكان متشدد."

اللعنة.

نظر إليه النادل فوق جريدته للحظة طويلة، وأخيرًا وضعها جانبًا ورفع حاجبيه الحمراوين قليلاً.

"كوب من الجينيس"، قال **كورت**.

ارتشف **سلاتري** من جعة، واستمع إلى الشابين في مقصورته وهما يشتكيان من قرار سيء في مباراة الرجبي في الليلة السابقة بين فريقي **كلونتارف** و**ثوموند** .كان **دوجال** نفسه من مشجعي فريق **واندررز**، ولم يكن يهمه أمر **كلونتارف** اللعينة التي سرقها الحكم اللعين، لكنه استمتع بصحبة الشابين المعتادين على أي حال. رفع نظره عندما سمع الباب يفتح؛ كان الوقت متأخرًا لدخول أي شخص لتناول كأس، لكن الأمر لم يكن غريبًا. أمال رأسه إلى الجانب. تتبعت عيناه الغريب وهو يتجه إلى المنضدة.

سرعان ما تجاهل **دوجال** رفيقيه على الطاولة.

دقت أجراس الإنذار في جسد **دوجال سلاتري** الضخم بصوت عالٍ كأجراس برج كاتدرائية **كرايست تشيرش** على بعد ميل واحد إلى الغرب. كان وجود غريب في حانة **بادريك بيرس** مشهدًا غريبًا بما فيه الكفاية، لكن هذا الرجل كان بين الحضور في حانة **أوليفر** في وقت سابق من المساء. علاوة على ذلك، كان شابًا وفي صحة جيدة، ويبدو غير مبالٍ أكثر من اللازم مما يروق **لسلاتري**.

لم يكن محليًا. صحيح أنه كان يرتدي ملابسهم، لكن **سلاتري** رأى من خلال ذلك بطريقة ما. عندما جلس الرجل على مقعد البار، بحث الرجل الأيرلندي بجد عن أي دليل على وجود سلاح في ملابسه، إما شكل مسدس مطبوع على القماش أو تلك الحركة الخاصة التي يجب على الرجل الذي يحمل سلاحًا جانبيًا أن يقوم بها ليتكيف مع وجود القطعة الحديدية على وركه أثناء جلوسه. لم ير **دوجال** شيئًا، لكن جانب الرجل الأيمن كان محجوبًا عنه.

سمع الرجل يطلب" .**كوب من الجينيس** —— "لا شيء غريب أو أجنبي في ذلك. حتى أنه بدا أيرلنديًا بعض الشيء، لكن صوته كان منخفضًا وناعماً.

هل كان من الشرطة؟ الإنتربول؟ كان **دوجال** يعلم أن رجال الشرطة في نصف دزينة من البلدان يودون وضع الأصفاد في يديه وجره بعيداً عن جزيرته المباركة. لا. هذا الرجل لم يبدُ كشرطي؛ بدا مرتاحًا أكثر من اللازم لمثل هذا النوع من العمل.

كما أنه كان يعرف كيف يطلب **الجينيس**، وهذا أمر مهم. يميل الأجانب غير المطلعين إلى الإمساك بالكأس بمجرد وضعه على المنضدة، وهو خطأ فادح. يتطلب هذا الشراب الداكن صبًا على مرحلتين؛ يترك النادل الرغوة لتهدأ لبضع دقائق، وفي ذلك الوقت يكون الكوب قريبًا بشكل مغرٍ من الزبون، ويدعوه لإظهار جهله بسحب الكأس إليه.

لكن هذا الغريب كان يعرف أصول الشرب.

لمح **سلاتري** نظرة من الرجل عبر المرآة، مجرد نظرة سريعة، جامدة، وعابرة. كان الزبائن المعتادون الآخرون في الحانة يحدقون جميعًا في الغريب أيضًا. تفحصهم قبل أن يعيد انتباهه إلى النادل. لم يكن **جورج** أكثر سعادة برؤية غريب في حانته من **سلاتري**، لكنه قدم الكوب وأخذ المال وعاد إلى جريدته.

انحنى **دوجال** إلى الأمام نحو الرجلين على طاولته. تحدث إليهما بهدوء. كان هناك تظاهر بالمرح، لكن الكلمات قيلت دون أي ابتسامة.

"اسمعا يا رفاق. ما رأيكما في بعض الإثارة الليلة قبل أن تضعكما أمهاتكما في الفراش؟"

تم كشف أمر **كورت**، وكان يعلم ذلك. جلس على منضدة البار، محدقًا في كوبه، جسده يتظاهر بالاسترخاء ولكن عقله كان متوترًا، يستعرض بروتوكول التعامل مع اثني عشر رجلاً في غرفة لا تزيد مساحتها عن حافلة مدرسية. لا شك لدى **جينتري** في أن هذا الحشد يمتلك شفرات. وقبضات حديدية أيضًا، على الأرجح. ربما حتى بندقية صيد مزدوجة الماسورة معلقة خلف المنضدة. كان **كورت** يرتدي مسدسًا في جراب عند حزامه، لكنه لم يكن سلاحًا دفاعيًا فعالاً. مسدس ماكاروف روسي. مع كاتم الصوت في جيب معطفه، يمكنه أن يجعله أداة قاتل فعالة، لكن رصاصة عيار 380. كانت أضعف من أن يعتمد عليها كأداة فعالة لإيقاف رجل، وبدت سعة المخزن المكون من ثماني طلقات غير كافية بشكل مؤسف لكتلة اللحم من حوله في الغرفة، كما أن آلية تحرير المخزن كانت في مكان سيء وغير فعالة. نعم، كان **كورت** يعلم أنه يستطيع أن يحدث ثقوبًا دامية في عدد قليل من هؤلاء الأيرلنديين إذا وصل الأمر إلى ذلك، لكن إذا تحركوا نحوه بقوة وبدافع، فسيكون في ورطة حقيقية.

أخذ جرعة كبيرة من **الجينيس** .لم يبدُ كوب جعة كبيرًا هكذا من قبل. ظن أنه لن يتمكن أبدًا من إفراغ كأسه حتى القاع ليتمكن من الخروج والعودة إلى الشارع المظلم. خلفه سمع

سلاتري يهمس بشيء للرجلين معه. لم يرفع **كورت** نظره إلى المرآة. لقد رآه **سلاتري** في وقت سابق في حانة **أوليفر سانت جون جوجارتي**؛ كان ذلك واضحًا بما فيه الكفاية. والآن سيُطلع أصدقاءه على الوضع. مع قليل من الحظ، سيهرب **سلاتري**، وينصب نوعًا من المواجهة في الشارع. سيرسل رجاله إلى الخارج للاختباء في الظلام ويغادر معهم. ومع سوء الحظ، سيحدث الأمر هنا والآن. سيقف **دوجال** ويعلن للغرفة أن الرجل الذي يلقي بالغريب من النافذة الأمامية سيكسب إمدادًا من **الجينيس** لمدة عام.

"اللعنة"، فكر **كورت** .أثناء تعافيه في **فرنسا**، كان يريد حقًا العودة إلى العمل، لكن هذا كان أكثر من اللازم.

بدأ **كورت** بالوقوف. كان كوبه نصف ممتلئ، لكنه فكر أنه إذا كان بإمكانه مغادرة هذه الحانة بقواه الخاصة في أي وقت، فسيكون ذلك الآن، قبل أن يضع **سلاتري** خطته. ولكن قبل أن يتمكن **جينتري** من الانزلاق تمامًا عن مقعده، خفض النادل جريدته.

"ألا يعجبك شرابك، هاه؟"

لا بد أن الرجل الستيني أحمر الشعر ذا الصدر العريض قد شعر بالتوتر في الغرفة بين **سلاتري** والغريب.

لم يرغب **كورت** في قول الكثير. بدلاً من ذلك، تحرك على مقعده، كما لو كان يعدل جلسته، ورفع كأسه. أومأ به إلى النادل وأخذ جرعة أخرى. قال" :**إنه رائع فحسب** ."ظن أنه يبدو أيرلنديًا لكنه لم يكن متأكدًا.

إلى يساره، وقف الرجلان في المقصورة مع هدفه وغادرا من الباب الأمامي. ووقف رجلان آخران على طاولة خلفه؛ تتبعهما **كورت** عبر المرآة وهما يقتربان. جلسا على جانبيه بشكل مهدد.

تحدث الرجل الذي على اليسار أولاً. كانت أنفاسه ساخنة برائحة الويسكي الأيرلندي والتبغ.

"من أين أنت؟"

نظر **كورت** إلى الأمام مباشرة. تخلى عن محاولة تقليد اللكنة الأيرلندية" **.أعمل على متن سفينة شحن تابعة لشركة ميرسك. لقد رسونا بعد ظهر هذا اليوم. ونغادر في الصباح**."

"من أين أنت؟ "كرر الرجل الآخر سؤال زميله.

"لقد أخبرتك."

"هل ولدت على متن سفينة الشحن؟ 'من أين أنت' تعني من أي بلد أتيت؟"

"يا شبان. دعوا الرجل يستمتع بشرابه في سلام ."كان هذا صوت **دوجال سلاتري** .لقد وقف، وسار نحو المنضدة بعرجته، وتواصل بالعينين عبر المرآة" **.من الجيد دائمًا رؤية وجه جديد هنا. والمسافرون مرحب بهم. لا تؤاخذ الشباب يا صديقي**."

تساءل **كورت** لماذا كان الجميع ينادونه "صديقي" اليوم.

الفصل الثالث

بعد خمس دقائق، غادر **جنتري** حانة **بادريك بيرس** .كان **سلاتري** قد غادر أولاً، مباشرة بعد إنقاذه للغريب من الشابين المحليين، اللذين عادا إلى طاولتهما دون أن ينبسا بكلمة أخرى. أما الساقي فلم يرفع نظره عن صحيفته طوال ما حدث.

سار **كورت** شرقًا في **شارع بيرس**، متحركًا ببراعة في الظلال على بعد مئة ياردة خلف الرجل الأعرج الذي يحمل الطبل على كتفه. لقد تغير كل شيء الآن؛ تسارعت العملية برمتها بسبب قرار **كورت** بالدخول من الباب الأمامي للحانة. لم يعد بإمكانه مجرد إجراء استطلاع هادئ كما كان يخطط في الأصل. لا، لقد أثار ريبة هدفه، وهدفه سيهرب أو سيبني دفاعاته. لا يتطلب الأمر عقلاً فذاً في أساليب العمل لإحباط هجوم وشيك من رجل واحد. اهرب بعيداً أو اجمع رجالك ووزع الأسلحة. كانت تلك هي الصفحة الأولى من دليل "كيفية تجنب الاغتيال"، ولم يكن لدى **جنتري** شك في أن **دوجال** قد قرأه.

إذا كان "الرجل الرمادي" سينجز عقده، فقد علم أنه سيتعين عليه القيام بذلك الليلة. انعطف **سلاتري** يميناً إلى البوابات الأمامية المفتوحة لمبنى سكني كئيب ولم ينظر خلفه بينما بدأ يصعد مرآبًا مائلاً للسيارات نحو أحد الأبواب. تحرك **كورت** عبر الظلام، مقتربًا من فريسته، فريسة ستكون في انتظاره، نعم، ولكن على أمل ألا يكون ذلك بهذه السرعة.

خرج شاب ممتلئ يرتدي قميص رجبي أسود إلى الشارع من مخبئه خلف حاوية نفايات كبيرة على بعد خمسة وعشرين قدمًا أمام **كورت** .أبطأ **جنتري**، ثم توقف، وواجه الرجل، ويداه منسدلتان على جانبيه. كان أحد الشابين اللذين كانا مع **سلاتري** في حانة **بادريك بيرس** .كشف الأيرلندي عن سلسلة طويلة من خلف ساقه، وبدأ يؤرجحها ببطء مثل البندول.

"ما الذي تنويه بحق الجحيم وأنت تتبع صديقي؟ "كانت لهجته غير مفهومة تقريبًا، لكن ذلك لم يكن مهمًا. لم يكن **كورت** يستمع. بدلاً من ذلك، كان كل انتباهه مركزًا على الأصوات الخافتة، متأهبًا لسماع خطوات الأقدام التي ستقترب من الخلف في أي لحظة. كان رفيق فتى الرجبي هذا في مكان ما بالخارج، وسيقوم بحركته من الخلف، لم يكن لدى **كورت** أدنى شك. قد يحاول خنقه، أو على الأرجح، سيلوح بسلسلة أو قطعة معدنية على ظهر هدفه المكشوف. في العادة، كقاتل مأجور من النخبة، كان **كورت** يتعامل مع أعداء أكثر تصميمًا وذوي تدريب ومعدات أفضل. لكن أثناء العمل متخفيًا في أحواض السفن أو التسكع في حانات رثة في أجزاء قذرة من بلدات بائسة، كان قد شهد ما يكفي من عمليات الضرب والاعتداء على أيدي بلطجية أغبياء ليحفظ إجراءات التشغيل المعتادة.

لم يكن يهم أين كنت، حقًا. كان هناك ما يشبه لغة عالمية لتلقي علقة ساخنة.

صاح الرجل الذي يرتدي قميص الرجبي الأسود شيئًا آخر، وهذه المرة كان غير مفهوم تمامًا، ثم حدث ما توقعه: خطوات أقدام خافتة، تعلو وتتسارع خلفه كلما اقتربت. أجبر **كورت** نفسه على النظر مباشرة إلى فتى الرجبي ذي القميص الأسود وتظاهر بأنه ليس لديه أي فكرة أنه على وشك أن يُهاجَم من الخلف، حتى اللحظة الأخيرة الممكنة.

كانت الخطوات فوقه الآن، وتحرك **كورت** بسرعة البرق، منفذًا أول مواجهة عنيفة له منذ أشهر. في حركة واحدة، انخفض واستدار وتحرك إلى الجانب، ورأى شابًا أصلع يرتدي قميص رجبي برتقاليًا يتحرك في ومضة ويلوح بقضيب حديدي ملتوي في المساحة الفارغة حيث كان ظهر **جنتري** قبل ثلاثة أرباع الثانية. وزن الحديد والتأرجح نفسه بالإضافة إلى قوة اندفاع الأيرلندي حملته عبر المساحة، واستمر في التحرك إلى الأمام لفترة طويلة بعد أن أدرك عقله أن هدفه قد تفادى ضربته. وقف **كورت** بسرعة بينما مر الرجل بجانبه، واستخدم يده اليسرى لتوجيه الرجل الطائر ليمر من جانبه، ثم أطلق قبضة مشدودة عبر الليلة المظلمة مثل مكبس إطلاق، لتصيب بدقة المنطقة الواقعة تحت أذن الرجل اليمنى، محطمة فكه ومسببة

انحراف رأسه جانبًا وجاعلة الرجل فاقدًا للوعي حتى بينما كانت طاقته غير المنضبطة تدفعه إلى الأمام.

ارتطم قضيب الحديد بالشارع وتبعه الأيرلندي، سقط على صدره أولاً ثم تدحرج، وأطرافه تتخبط، ليتوقف عند قدمي رفيقه.

لم يتحرك. الدم على وجهه من السحجات التي أصيب بها عندما احتكت بشرته بالأسفلت كان يلمع تحت أضواء الشوارع الزرقاء.

أخذ الرجل ذو قميص الرجبي الأسود يلوح بسلسلته بعنف الآن، وعيناه تهبطان لتفقد صديقه ثم تعودان بسرعة إلى الأعلى، بمزيج متساو من الغضب والرعب، إلى الرجل الملتحي أمامه. سار **كورت** نحو الرجل، وذراعاه منخفضتان، وعيناه وكتفاه مسترخيتان.

رجل في تمام الهدوء .

انطلقت السلسلة إلى الأمام.

تقدم "الرجل الرمادي" في مسار السلسلة، والتقطها ببراعة بيده اليسرى، وسحبها بقوة، مما أخل بتوازن الشاب ذي قميص الرجبي، وجذبه إليه بهزة عنيفة.

طعنة باليد اليمنى في الحلق أطاحت بالأيرلندي على ظهره. تدحرج في الشارع، يختنق ويشهق، بينما كان يحدق في الرجل الملتحي الذي يجلس الآن القرفصاء فوقه. عندما تحدث، بدا الأمريكي هادئًا، ومسيطرًا تمامًا، كما لو كان هو من خطط لهذا الكمين في الظلام.

"رقم شقة سلاتري، من فضلك. سأسألك مرة واحدة فقط".

بعد أربع دقائق، دفع طرف كاتم صوت مسدس باب شقة ستة وستين غير الموصد في **مباني كوينز كورت السكنية** .خلف كاتم الصوت كان مسدسًا روسيًا آليًا من طراز بايكال ماكاروف. وخلف الماكاروف كان "الرجل الرمادي". كانت جميع حواسه في حالة تأهب، خاصة وأن الباب قد تُرك مفتوحًا بشكل مغرٍ، وكان ذلك غريبًا، بالنظر إلى حقيقة أن الرجل الذي يعيش هناك كان يدرك بالتأكيد أن شخصًا ما قادم من أجله.

عندما دخل **جنتري** غرفة المعيشة المضاءة جيداً خلف الباب، لم يضطر إلى التساؤل طويلاً عن مكان هدفه. كان **سلاتري** جالسًا على طاولة خشبية بسيطة في منتصف الغرفة الصغيرة، مواجهًا للباب، وأمامه زجاجة ويسكي أيرلندي وثلاثة أكواب صغيرة. لاحظ **كورت** أن الرجل قد غير قميصه. كان يرتدي الآن قميص رجبي أزرق على أسود، مفتوحًا عند الياقة ومشدودًا حول خصره الممتلئ. ربما فريق مفضل؟

نظر **سلاتري** إليه لفترة طويلة. أخذ أحد الأكواب الصغيرة وقلبه رأسًا على عقب. كان يتوقع ضيفين، لا شك أنه توقع الرجلين اللذين تركهما للتو ملقيين في الشارع. استعاد **دوجال** رباطة جأشه، ورفع كأسًا ثانيًا ببطء.

"هل ترغب في شراب يا فتى؟ "كان متوترًا بشكل واضح؛ فقد اهتز صوته المنخفض.

مسح **كورت** الغرفة بسرعة. ظل سلاحه موجهًا إلى جبهة هدفه وهو يفعل ذلك. تحدث بهدوء ولكن بقناعة تامة.

"يداك حيث يمكنني رؤيتهما".

امتثل **سلاتري" .هل قتلتهما؟"**

"فتيا الرجبي؟ لا، سيكونان بخير ".وأضاف، **"في النهاية"**.

أومأ **سلاتري** برأسه. وهز كتفيه" .**مثل سكين في زبدة، أليس كذلك؟"**

"لم تكن هناك مشكلة كبيرة، لا".

"ما كانا ليكونوا ندًا لك حتى لو لم يكونا ثملين. اجلس أولاً، ألا تفعل؟ لدي بعض الويسكي الفاخر هنا".

واصل **كورت** تفتيش الغرفة بحثًا عن تهديدات، وكل حواسه في حالة تأهب. بدا هدفه مستسلمًا بشكل غريب لما يحدث، لكن ذلك قد يكون نوعًا من الخداع.

"لا".

هز الرجل الضخم كتفيه مرة أخرى" .**إذن ربما ستدعني أتناول شرابًا أولاً** ".لم ينتظر. سكب ويسكي "أولد بوشميلز" في كأس صغير، وجرعه دفعة واحدة، ووضع الكأس أمامه مرة أخرى، وأعاد ملأه.

تحرك **كورت** إلى النافذة. أطفأ الضوء العلوي وهو في طريقه. محاطًا بالظلام الآن، نظر إلى الشارع بالأسفل.

قال **سلاتري" :لا أحد قادم. فقط الاثنان اللذان قابلتهما بالفعل. وحتى لو كانا لا يزالان يستطيعان المشي، فلن يسيرا في هذا الاتجاه، أعدك بذلك"**.

فحص **كورت** غرفة النوم، الحمام، المطبخ. كانا بمفردهما. بقي الأيرلندي جالسًا على الطاولة، مواجهًا للمدخل. جرع كأس ويسكي آخر. وملأ الكأس مرة أخرى.

منتظرًا بصبر.

عندما عاد **جنتري** ووقف أمامه، وضع **سلاتري** يده حول الزجاجة، وأمالها نحو ضيفه. قال : **"متأكد أنك لن تتناول قطرة صغيرة؟ لطالما وجدتها مفيدة عندما كنت في الخدمة "**.هز **كورت** رأسه. مركزًا بالكامل على هدفه، ارتفع مسدسه الماكاروف. تحدث **دوجال سلاتري** بسرعة" **.اسمع يا صديقي. أعلم أنه يجب عليك أن تفعلها. لا جدال لدي. كنت في الخدمة ذات مرة، وأنا أعرف اللعبة. هناك شيء واحد فقط. معروف صغير. لدي ابن. ليس طفلاً، عمره حوالي ثلاثين عامًا الآن، على ما أظن. هو في غالواي".**

"هل أبدو وكأنني أهتم؟"

"لديه متلازمة داون. فتى طيب، لكنه لا يستطيع الاعتناء بنفسه. لا أم له——كانت عاهرة عجوز في بلفاست، ماتت بجرعة زائدة منذ عشرين عامًا ونيف. لقد وضعته في رعاية خاصة. أنا كل ما يملكه الفتى".

"لا يمكنني أن أهتم أقل من ذلك".

"أنا أقول فقط. أرسل له المال، ما يكفي لإبقائه خارج رعاية الدولة".

سحب **كورت** مطرقة الماكاروف بإبهامه.

واصل **دوجال** الحديث، بشكل أسرع" **.بدون المال سيذهب إلى رعاية الدولة. إنها فوضى عارمة، صدقني. ابني هو عقابي على حياتي. يمكنك أن تأخذ حياتي اللعينة يا صاح، لكن لا تجعله يدفع ثمنها".**

خطر لـ**كورت** أنه كان يجب عليه أن يطلق رصاصة في رأس الرجل عندما دخل من الباب.

"الجميع يتركون أحداً خلفهم. لا يمكنني مساعدتك".

"لا، لا يمكنك مساعدتي. لكن يمكنك مساعدته. أنا أطلب أربعًا وعشرين ساعة. يومًا لعينًا واحدًا، وسأقوم بسرقة بنك أو محل صرافة أو شيء من هذا القبيل. هناك سيارة مصفحة تتوقف صعودًا ونزولًا في شارع داوسون بعد الظهر. الكثير من الخيارات لعملية سريعة. لو كان لدي وقت فقط لكسب بعض المال، يمكنني أن أرسله إلى الدار ليكون في أمان. لو كان لدي أي فكرة أنك قادم من أجلي، لكنت فعلتها بالفعل، لكن هذه مفاجأة بعض الشيء. لقد ابتعدت عن العمل لفترة طويلة. ظننت أنني خرجت منه. انظر. لن أهرب. سأرسل للدار في غالواي مئة بالمئة عن طريق الحوالة بعد ظهر الغد ثم سأعود إلى هنا ويمكنك أن تقتلني. أقسم بقبر أمي. ستحصل على أجرك مقابل رأسي، وسأحصل لابني على المال الذي يحتاجه ليعتنى به عندما أرحل. أنا جالس هنا الآن أظهر لك الاحترام. أريك أنني لست هاربًا. لست مقاتلاً. ليس بعد الآن. أنا جالس هنا أسلم نفسي إليك، آملاً أن تفعل الشيء الصحيح وتعطيني يومًا لعينًا واحدًا لترتيب مستقبل لائق لولدي ".كان الرجل على وشك البكاء. يائسًا.

لم يكن لدى **كورت** شك في أن القصة كانت حقيقية.

ومع ذلك، تشدد. رفع السلاح إلى مستوى عينيه" .**آسف يا صاح. هذا لن يحدث".**

بدأت عينا **سلاتري** تدمعان قبل أن يجرع كأسًا آخر. لم يملأ الكأس مرة أخرى هذه المرة .
"ظننتك رجلاً ذا روح. خطأي. إذن إلى رعاية الدولة سيذهب ولدي ".ابتسم قليلاً" .**لكن لم يضع كل شيء. هناك عزاء صغير. أعلم أن سيد سيرسل يومًا ما وغدًا خلفك".**

خفض **كورت** المسدس قليلاً.

"سيد؟"

"أنت فتى سيد الجديد، أليس كذلك؟ أنا فتى سيد القديم، لذا فأنت ترى مستقبلك أمام عينيك، ألا ترى؟ لقد أرسلك في هذه المهمة الصغيرة لتفسح لنفسك مجالاً في منظمته. هذا هو اختبار قبولك لتحل محلي، أتعلم ".عندما لم يتحدث **كورت** لعدة ثوان، اتسعت عينا **سلاتري** الدامعتان" .**لم يخبرك، أليس كذلك؟ يا له من وغد! هل ظننت أنه ينقل لك عقداً من شخص آخر يريدني ميتاً؟ لا يا صديقي، هذا من فعل سيد، كله".**

خفض **جنتري** المسدس أكثر" .**لماذا؟"**

صب **سلاتري** كأساً آخر وجرع محتوياته في حلقه" .**قبل خمس سنوات، جاء سيد ليراني. كنت أقوم ببعض... بعض الأشياء لروسي آخر. أخبرني سيد أنه معجب بعملي، ويريدني أن أعمل لديه. قلت: 'ما هي الخدعة؟' الجميع يعلم أن سيدورينكو يحصل على العقود الدسمة. أخبرني أن الشيء الوحيد الذي يجب أن أفعله هو تصفية الرجل الذي يشغل الوظيفة التي أردتها. أن أخلق الشاغر بنفسي، هل تفهم؟ يبدو أن هذا الرجل، الإسرائيلي، قد طال بقاؤه. لا أعرف لماذا. أخبرني سيد أنه بمجرد أن أتخلص من زميله اليهودي، سأكون أنا الفحل الأفضل في إسطبله".**

"إذن قتلته".

"بالتأكيد فعلت. هذا هو العمل الذي نحن فيه، أليس كذلك؟ والآن أنا كبير في السن، ومحطم ومهزوم جداً لتنفيذ العقود الكبيرة بعد الآن. أنا لا أجني المال الذي كنت أجنيه في السابق، لذا فهو يرسلك لتصفيتي، حتى تتمكن من تولي الأمر. إنه يظن أنه إذا كانت هناك فرصة واحد بالمئة أن أتحدث، أو أتصل بصحيفة أو بالإنتربول وأشي به، فمن الأفضل له أن يقتلني تحسباً".

صُدم **كورت** .لقد كذب **سيد** بشأن وجود عقد على الهدف من الأساس. كان قتل هذا الرجل يخدم المصالح الشخصية لمسؤوله فقط. استعاد رباطة جأشه قليلاً وذكر نفسه

ببعض الأجزاء القذرة من ملف **سيد** عن **سلاتري**" .**أخبرني أنك قمت ببعض عمليات القتل البشعة في ماضيك** ".ارتفع الماكاروف مرة أخرى بعزيمة جديدة.

أمال **سلاتري** رأسه، متفاجئًا بصدق" .**عمليات قتل بشعة؟ عمليات قتل بشعة؟ ما هي عملية القتل الجميلة بحق الجحيم؟**"

توقف **كورت** للحظة" .**لقد قتلت أبرياء، أعني**".

"هراء. هل ستجلس هناك وتحكم علي، بناءً على ما أخبرك به سيد؟ يا لك من مزحة. هيا إذن، انتهِ من الأمر. أطلق رصاصة في أنفي واشعر بالرضا عن نفسك! عمليات قتل بشعة؟ أبرياء؟ ألست أكثر وغد متكلف من بين كل القتلة المأجورين الذين لوثوا هذا الكوكب الملعون"!

اتسعت فتحتا أنف **دوجال سلاتري** وهو يحدق في كاتم الصوت في نهاية فوهة مسدس الماكاروف الصغير. ظهر أثر الكحول في عينيه، ولكن ليس ذرة من الخوف.

بعد وقفة طويلة، خفض **كورت** المسدس إلى جانبه. سحب الكرسي الخشبي وجلس ببطء على الطاولة مقابل الأيرلندي.

"أعتقد أنني سأقبل هذا الشراب الآن".

لم يرفع **سلاتري** عينيه عن الأمريكي وهو يصب لكليهما.

الفصل الرابع

بعد عشر دقائق، كان **كورت** قد أعاد سلاحه إلى جرابه. قرر ألا يقتل الرجل الذي أمامه، وقد أخبره بذلك. لم يبتسم الأيرلندي أو يتنفس الصعداء، لكنه مد يده وتصافحا. جلسا في صمت تام تقريبًا في الضوء الخافت المنبعث من مصابيح الشارع خارج الغرفة الصغيرة. حرص **كورت** على ترك يديه على الطاولة الخشبية الصغيرة ليبقي **سلاتري** هادئًا.

بعد فترة، قال **دوجال" :لن يكون سيد سعيدًا بك."**

"كان بيننا اتفاق. أخبرته أنني لن أنفذ سوى العقود التي أوافق عليها. إذا أعطاني معلومات خاطئة، فأنا أحتفظ بحق الانسحاب. فليذهب إلى الجحيم."

رفع **سلاتري** كأسًا من الويسكي في الهواء.

"سأشرب نخب ذلك. فليذهب سيد إلى الجحيم"!

"سيرسل شخصًا آخر خلفك، كما تعلم."

"أجل. أعتقد أنه سيفعل. ربما يجب أن أطلب منك أن تجهز عليّ الآن، فقط لأرتاح من الأمر."

قال **كورت" :أنا لا أقبل الطلبات."**

ضحك الأيرلندي الضخم من قلبه" **.هذه نكتة جيدة يا صاح. ربما يكون ولداي قد خرجا من المستشفى بحلول وقت وصول القاتل التالي. آمل أن يرسل سيد سيدورينكو اللعين شخصًا يمكنهما التعامل معه."**

ضحك **كورت** قائلًا" :**أشك في ذلك."**

صب **دوجال سلاتري** جرعة أخرى من ويسكي "أولد بوشميلز" لنفسه، ثم، وكأنها فكرة طرأت عليه، سحب كأس **جينتري** الصغير إلى جانبه من الطاولة وبدأ يملؤه.

حاول **كورت** منعه" .**لا. لقد اكتفيت."**

واصل **سلاتري** الصب" .**إنها الثالثة يا فتى. الجرعة الصغيرة الثالثة ستصنع منك رجلاً، أقسم لك."!**

هز **كورت** كتفيه ورأسه، ومد يده عبر الطاولة نحو الكأس، آملًا أن يكون المشروب الكحولي القوي بديلاً عن مسكنات الألم التي كان جسده يتوق إليها. قال" :**قد ترغب في التفكير في مغادرة المدينة حتى"...**

ارتفعت الطاولة في الهواء لتصطدم بوجه **كورت** .ارتطم الكأس الصغير بفمه قبل أن يتمكن من الإمساك به، وضربته حافة الطاولة الخشبية مباشرة على ذقنه. ارتد رأس **جينتري** إلى الخلف، وطار إلى الوراء ساقطًا عن كرسيه.

لقد قلب الأيرلندي الضخم الطاولة عليه. اندفع **سلاتري** فوقها، وأمسك **بكورت** قبل أن يرتطم ظهره بالأرض، وانطبقت يدا **دوجال** المكتنزتان حول عنق الأمريكي المفتول العضلات.

حاول **كورت** أن يصرخ لكنه لم يتمكن من إصدار أي صوت. شعر بإبهامين يغوصان في حنجرته، ويضغطان على تفاحة آدم لديه إلى حد سحقها. ورغم أنه كان مذهولاً من ضربة الطاولة، إلا أن غريزته دفعته إلى إدارة رأسه بحدة لتخفيف قبضة خصمه. لوّح بذراعه لأعلى محاولاً إبعاد اليدين تمامًا، لكن ذراعي الرجل الضخم بالكاد تحركتا.

"توقف "!غرغر **جينتري** .كان ينوي تمامًا ترك **دوجال سلاتري** على قيد الحياة. إما أن **دوجال سلاتري** لم يصدق ذلك، أو أنه شعر، لسبب ما، أن **سيدورينكو** لن يفعل شيئًا سوى إقناع هذا القاتل بالعودة يومًا ما، وأراد الأيرلندي أن يحول دون ذلك هنا والآن بينما رأى الفرصة سانحة.

مستلقيًا على ظهره، بينما الأيرلندي الضخم فوقه ويداه تخنقان الحياة منه، لم يرَ **كورت** سوى خيار واحد. تحرك بجسده على أرضية المشمع الرخيصة، مستخدمًا كعبي حذائه ليدير نفسه ومهاجمه حتى أصبحت ساقا **كورت** مثنيتين على باب الشقة الصغيرة. ومن هنا، وبينما لا يزال يستخدم يديه لمحاولة دفع القبضة الحديدية عن حلقه، بدأ يمشي بقدميه على الباب. ست بوصات، قدمان، ثلاثة أقدام. أدى ذلك إلى رفع الجزء السفلي من جذعه عن الأرض وتسبب في تدحرج وزن **دوجال** الثقيل إلى الأمام على وجه **كورت** وكتفيه. بسرعة، وبكل قوته، دفع **جينتري** الباب بمشط قدميه، ونفذ وقفة رأس غير متقنة، ثم شقلبة خلفية. تحرر رأسه من قبضة **سلاتري** عندما دار فوقه. هبط **كورت** على ركبتيه فوق الطاولة المقلوبة، وقفز إلى الوراء للابتعاد عن أي لكمات عشوائية من الملاكم السابق المطروح أرضًا.

في ثانية واحدة، كان كلا الرجلين على قدميه. نظر **كورت** إلى مهاجمه؛ كان وجه الأيرلندي السمين أحمر قانٍ ولامعًا من العرق، وعيناه متوحشتين من الغضب. صرخ بشيء ما؛ ربما كانت باللغة الغيلية، حيث لم يستطع **كورت** فهمها.

أراد **جينتري** أن يخبر الرجل أن هذا خطأ، وأنه يريد المغادرة فقط، لكن لم يكن هناك فائدة. اتخذ **سلاتري** خطوة إلى الأمام وسدد لكمة يمينية مباشرة أصابت عظمة وجنة **كورت** اليسرى جزئيًا. لسعته وأذهلته، وعلى الفور امتلأت عينه اليمنى بالدموع وتشوشت رؤيته.

لقد استهان **كورت** إلى حد كبير بالقوة الغاشمة والسرعة المذهلة للرجل المترهل. كان خطأً يمكن أن يدفع ثمنه بحياته بسهولة.

تراجع **كورت** إلى زاوية، وخلق مساحة كافية بينه وبين الرجل الضخم للوصول إلى مسدس الماكاروف، لكنه وجد جرابه فارغًا. كان على يقين من أنه سقط عندما قام بوقفة الرأس، وأنه في مكان ما على الأرض تحت الطاولة المقلوبة أو الكرسي المكسور.

لاحظ **سلاتري** جراب **كورت** الفارغ. اتسعت ابتسامة متوحشة ومجنونة على وجهه **" أنت ميت لا محالة يا فتى !."**أطلق الأيرلندي لكمة مباشرة أخرى. هذه المرة انحنى **جينتري** بعيداً عنها وتجنبها تمامًا باستثناء احتكاك خفيف بذقنه.

جاءت خطافية يسارية بعد ذلك، أطلقها **دوجال** بجسده، حيث تحرك جذعه وساقاه مع اللكمة ليضع قوته الكاملة خلفها. صدها **جينتري**، لكنها أسقطته أرضًا. لم تصبه القبضة، لكن مجرد القوة التي امتصها **كورت** في ساعده أدت إلى تعثره في غرفة المعيشة الصغيرة. انتهى به الأمر على ركبتيه مستنداً إلى الحائط.

نهض بسرعة، في الوقت المناسب تمامًا ليتعرف على لكمة مباشرة ثم ينحني تحتها. ثم انتقم **جينتري** بسرعة بطعنة بأصابعه في ضفيرة **دوجال** الشمسية، تلتها ركلة بمشط القدم بين فخذي الأيرلندي الضخم.

لم يتأثر **سلاتري" .يا للمسيح، اللعنة عليك، إنك تقاتل كالنساء."!**

ثم تذكر **كورت** نقطة ضعف **سلاتري**؛ لقد تبع الرجل الأعرج لمدة نصف ساعة خلال الليل وشاهده يكافح لوضع وزنه على ركبته اليسرى. ركل **كورت** بقوة داخل الركبة، فانثنت للخارج. صرخ **دوجال** وتعثر لكنه لم يسقط. بدلاً من ذلك، استمر في التقدم، على الرغم من أن هجوم الأمريكي تسبب في كشف حركته التالية.

انخفض **كورت** إلى الأسفل وإلى يمينه، وتفادى القبضة اليمنى وهي تصفع الهواء فوق أذنه اليسرى. تحرك الأمريكي نحو مهاجمه بكل سرعته، وقفز عن الأرض، ووضع ذراعه اليمنى فوق كتف الأيرلندي الأيمن. من هنا، في حركة خاطفة وبإتقان تام، مد **جينتري** ذراعه اليمنى عاليًا، وأدار كتفه للأمام ليلوي أصابعه للداخل. جاءت يده خلف عنق **سلاتري** وعادت من أمامه من جانبه الأيسر، ثم التفت حول ذقنه. أمسكت يد **كورت** بياقة قميص الرجبي الأيمن **لدوجال**، وسحبته عبر حلقه، وشده بقوة حول رقبته من الخلف، وسلمته إلى يد **كورت** اليسرى.

"قاتل كرجل لعين، أيها"...

استُبدلت كلمات **دوجال** بغرغرة اختناق. أحكم **جينتري** الياقة كخناق ملتوٍ، مستخدمًا قميص الرجل نفسه لخنقه. لف ذراعه اليمنى حول عنق **سلاتري** كما لو كان يعانقه بشغف، ولف كلتا ساقيه حول ظهر الرجل، وتمسك به بكل قوته بينما كانت يده اليسرى تسحب وتسحب وتسحب قميص الرجبي الذي يغوص في حلق الملاكم السمين.

في خضم ذعر فقدانه للهواء، تحرك **سلاتري** عبر الشقة، يترنح على ركبته السيئة، وصدم ظهر القاتل الأمريكي بالنافذة الزجاجية، ودفعه بقوة على الحائط بما يكفي لتشقيق ألواح الجبس وإسقاط لوحات مقلدة رخيصة لملاكمين عراة الأيدي بشوارب على الأرض، ثم أداره جانبًا ليصطدم بالباب الخشبي الثقيل.

في تلك اللحظة، فوق أصوات التحطيم واللهاث والصراخ، جاء طرق على الجانب الآخر من الباب. صرخت امرأة في حالة من الهلع، تسأل السيد **سلاتري** إذا كان بخير. سألت عما إذا كان يجب أن تذهب لطلب المساعدة. لم يستطع **دوجال** الكلام. حاول الوصول إلى مزلاج الباب بيده اليسرى، لكن قوته كانت تخونه مع نضوب الأكسجين في رئتيه. بمجرد أن وضع

إصبعه على المزلاج، مد **كورت** يده اليمنى للخلف، وأغلق مزلاج الأمان، ثم استخدم ساقيه للدفع بعيداً عن الباب.

سقط كلا الرجلين على الأرض في منتصف الشقة.

لم يكن **سلاتري** لا يزال قادرًا على التنفس، لكن كان لا يزال لديه الكثير من القوة للقتال، وتمكن من استخدام ساقيه كرافعة ليقلب نفسه فوق **كورت** .لكن **كورت** لم يتركه، ولن يتركه. أجبر زخم التدحرج على الاستمرار ووجد نفسه مرة أخرى فوق هدفه.

لمدة ثلاثين ثانية، تذمروا وركلوا بعضهم البعض وسط حطام الأثاث المكسور ومفروشات الشقة الصغيرة. وضع **جينتري** كلتا ساقيه فوق إحدى ذراعي **سلاتري**، لكن القبضة الأخرى كانت تهوي على ظهر **كورت** وأعلى رأسه بتكرار محموم.

حاول الأيرلندي الضخم نطح **جينتري** برأسه أيضًا، لكن رأسيهما كانا مضغوطين على بعضهما البعض بالفعل؛ لم تكن هناك مساحة له ليرجع جمجمته للخلف حتى يتمكن من دفعها للأمام.

ثم تباطأ القتال. ثم توقف القتال.

أبقى **كورت** الضغط على حلق ضحيته، لكنه انحنى قليلاً إلى الوراء ليتفحص وجه **سلاتري** . كانت عيناه قد جحظتا، وتحول وجهه إلى لون أحمر مستحيل وكان مغطى بعرق تفوح منه رائحة الويسكي والخل ورائحة الجسد. كان **كورت** فوقه، وكان يرى دمه يقطر من شفتيه حيث جرحهما الكأس الصغير. لطخت البقع الحمراء جبين الأيرلندي وصبغت جداول العرق التي تسيل في عينيه باللون الأحمر.

رمشت العينان الجاحظتان بضعف.

أرخى **كورت** قميص الرجبي قليلاً. سرعان ما شهق **دوجال** هواءً، واختنق، وشهق.

كان وجه **كورت** على بعد بوصات منه. تحدث **جينتري** بلهث من إرهاق القتال الوحشي . **"الفتى. ابنك... المصاب بمتلازمة داون؟ هل هو حقيقي؟"**

كان لسان **سلاتري** متورمًا، وحلقه شبه مغلق. سعل بصاقًا دمويًا" .**أقسم لك**."

أومأ **كورت** .مسح العرق عن جبينه. كان لا يزال يتحدث بلهث من حالته التي كادت أن تكون فرط تهوية" .**حسنًا... حسنًا. لا تقلق. سأعتني به. سيكون بخير**."

التفتت عينا الأيرلندي الجاحظتان نحوه. رمش بدموع ممزوجة بالدماء التي سالت على جانبي وجهه. تناثر المخاط من أنفه وهو ينتحب. أومأ برأسه. تحدث من خلال حنجرة مشدودة" .**هذا رائع يا فتى. أنا أسترجع كلامي. لديك روح. أنت رجل صالح**."

"**أجل** ."أوصل **كورت** أطراف أصابعه إلى جبين الأيرلندي" .**هذا أنا** ."أرجع شعر الرجل الرمادي المبلل بلطف.

أومأ مرة أخرى.

"أنا قديس لعين."

في حركة واحدة سريعة، التقط **كورت جينتري** مسدس الماكاروف من مكانه على الأرض بجانبه، وغرز كاتم الصوت في عنق **دوجال سلاتري** الممتلئ، وأطلق رصاصة واحدة صاعدة عبر ذقنه، عبر لسانه، عبر سقف فمه، عبر تجويفه الأنفي، وإلى دماغه. رقص المقذوف ذو الرأس المجوف من عيار 380. داخل جمجمة الأيرلندي البالغ من العمر أربعة وخمسين عامًا قبل أن يستقر خلف أذنه اليسرى. تحولت عينا **سلاتري** البارزتان إلى زجاجيتين وظلتا مفتوحتين على وسعهما في الموت.

تدحرج **كورت** عن صدر **سلاتري** وأنزل نفسه على ظهره على الأرض بجانب الرجل الميت. كان منهكًا، مستنزفًا، مسلوبًا من كل طاقة وعاطفة. كان وجهه يؤلمه حيث تعرض للكم، وكانت معدته وساقه تؤلمانه حيث تعرض للطعن والطلق الناري في الشتاء الماضي.

معًا، استلقى هو و**سلاتري** وسط الحطام المتناثر للشقة الصغيرة وحدقا معًا بذهول في السقف المنخفض.

الفصل الخامس

خرج زورق الإنزال من ستار الضباب على بعد نصف ميل من الشاطئ. خلفه، وقد ضاعت في الضباب، كانت سفينة الشحن الليتوانية التي كانت وسيلة نقل **كورت** ذهابا وإيابا من **الجزيرة الزمردية** قد استدارت بالفعل نحو الشمال، وأوصلت محركاتها إلى أقصى طاقة، وبدأت تبحر نحو مينائها الأصلي. وقف **كورت** في مقدمة الزورق الصغير، محدقا بعينين مغمضتين جزئيا نحو أرصفة حوض بناء السفن في **غدانسك** أمامه. كان هو الراكب الوحيد على متن القارب.

واصل الحديث في هاتفه الذي يعمل بالأقمار الصناعية.

"باولوس، أريد أن أكون واضحا جدا. باستثناء عمولتك، كل سنت فيهم يذهب لهذا المريض. لا يهمني كيف تفعل ذلك. فقط افعله".

"لا مشكلة في ذلك. يمكننا إنشاء صندوق ائتمان صغير. سحب تلقائي منتظم للمؤسسة. لقد تحققت من الأمر كما طلبت. إنها أفضل مؤسسة في أيرلندا للأشخاص الذين يعانون من مثل هذه الحالات".

"جيد".

توقف. شعر **كورت** بعدم ارتياح في المكالمة" .**سيدي. أنت تفهم أنني سأحتاج إلى الاتصال بالسير دونالد".**

"تفضل. ولكن بما أنك ستتحدث إليه على أي حال، أخبره بهذا. هذا المال ليس له. وليس لي. إنه يعود للفتى. إذا لمسه... فسوف أقوم"ـــ

"سيد لويس. أرجوك لا تهدد السير دونالد. إنه صاحب عملي. ومن واجبي أن أنقل كل ما تقوله"—

"أنا أعتمد على ذلك. أريدك أن تخبره كلمة بكلمة. إذا لمس الحساب، أو اطلع عليه بأي شكل من الأشكال، فسأظهر عند بابه".

"سيد لويس، أرجوك"—

"لقد وصلتك الرسالة، يا باولوس".

"أعلم أنه سيحقق رغباتك. وسأتعامل مع الحساب كما اتفقنا. ستطبق عمولتي المعتادة على الأموال".

"شكرا".

"على الرحب والسعة. السير دونالد معجب بك جدا، سيد لويس. لست متأكدا لماذا افترقتما، لكنني آمل ربما يوما ما أن تجلسا معا و"—

"وداعا، باولوس".

توقف محبط. ثم وداع مهذب" .**وداعا، سيد لويس".**

وضع **جنتري** هاتفه الفضائي في حقيبته القماشية. ثم ركز كل انتباهه على تهديد جديد أمامه.

لاحظ **كورت** الأمر من على بعد ثلاثمئة ياردة: سيارة سوداء كبيرة على الأرصفة. على بعد مئتي ياردة، تمكن بصعوبة من تمييز رجال يتكئون على السيارة، جميعهم يرتدون ملابس رمادية داكنة. على بعد مئة وخمسين ياردة، عد أربعة منهم، واستطاع أن يخمن أنهم ضخام

الجثة. على بعد خمسين ياردة، تأكد أنهم سلافيون، يرتدون بدلا، وأن سيارتهم ليموزين من نوع ما.

لا بد أن هؤلاء رجال **سيد**، أتوا لاصطحابه في جولة، وهذا ما أثار غضب **كورت** .كان قد خطط للنزول هنا في **غدانسك**، والاختفاء لبضعة أيام على **الساحل البولندي**، ثم الاتصال بـ**سيد** عبر موقع "جولات جبال الأورال" عندما يكون مستعدا لذلك .**السير دونالد**، مديره السابق، لم يجبره قط على العمل وجها لوجه، لكن هؤلاء البلطجية، الذين أرسلهم مديره الذي سيصبح سابقا قريبا، أتوا بلا شك في مهمة جليسة أطفال للتأكد من أن **جنتري** سيأتي بسلام ليركع أمام عرش سيده.

"تبا لهذا الهراء"، قالها **كورت** بصوت عال من على بعد خمسة وعشرين ياردة. نهض الرجال من على غطاء سيارة الليموزين؛ ألقيت السجائر على الأرض وسحقت. استطاع **كورت** أن يرى بريق سلاسل ذهبية رفيعة حول أعناقهم. فتيان المافيا الروسية. من غيرهم؟ تقدم الرجال إلى حافة الرصيف، واقتربوا من حافة الماء لمنعه من الهرب عندما ترسو العبارة.

وكأن ذلك ممكن.

نظر **كورت** طولا وعرضا على الرصيف ليرى ما إذا كان هناك أي مكان ليهرب إليه.

كلا. اللعنة.

نزل **جنتري** من الزورق المتمايل وصعد إلى الرصيف العائم. وقف أمام البلطجية الأربعة. لم تتبادل أي كلمات. كانت لغة التواصل الوحيدة بينهم هي نظرات خمسة رجال مفعومين بهرمون التستوستيرون، جميعهم في مهمة، ولم يكن أي منهم هنا برغبة خاصة. قائد فريق **كورت** القديم في قسم الأنشطة الخاصة بـ**وكالة المخابرات المركزية**، وهو جندي سابق في

قوات "سيل" الخاصة بذيء اللسان يدعى **زاك هايتاور**، كان يطلق عليها اسم "التحديق اللعين"، وهو وصف فج ولكنه دقيق لرجال يقيمون بعضهم البعض ويستعرضون قوتهم وبراعتهم من خلال نظراتهم الباردة في آن واحد.

ببطء، فتح **كورت** معطفه ليكشف عن قبضة مسدس ماكاروف عيار 380. عند وركه. تقدم أحد الشبان الروس وانتزع المسدس من حافظته، مستهزئا بـ**جنتري** أثناء سحبه للسلاح للخلف وكأنه اكتشف السلاح بنفسه. ثم فتش **كورت** من الأمام إلى الخلف، وسحب سكينا من جيب الأجنبي، ووضعها في جيبه. نظر في الحقيبة القماشية على كتف **جنتري**، وانتزع الهاتف الفضائي ووضعه في جيبه، لكنه لم يجد شيئا آخر مثيرا للاهتمام. بعد أن اطمأن إلى أنه نزع سلاح "الرجل الرمادي"، تراجع الروسي، وبإشارة نافدة الصبر، أشار للأمريكي بالتقدم نحو السيارة.

أنزل **كورت** حقيبته عن كتفه، ثم ألقاها من تحت يده إلى أحد الرجال ليحملها. ارتطمت الحقيبة بصدر الرجل الضخم، فتركها تسقط على الأرض أمامه؛ لم تتزحزح نظرته "التحديقية اللعينة" ولم تضعف.

لم يتمالك **كورت** نفسه. رسم ابتسامة، وتقدم، والتقطها بضحكة خافتة، ثم سار إلى سيارة الليموزين السوداء وفتح الباب الخلفي للسيارة وصعد إليها.

بعد ساعة، كان في الجو. كانت طائرة أعمال خفيفة من طراز "هوكر 400" تنتظر حاشيته في **مطار ليش فاونسا الدولي** .لم تجر أي عمليات تفتيش لجوازات السفر أو الجمارك على مرأى من **كورت**؛ بالتأكيد لم يسأله أحد أي أسئلة أو يطلب منه أي وثائق. انطلقت طائرة الهوكر عاليا عبر السحب الرطبة إلى سماء **بولندا** الصافية في منتصف الصباح. معه في المقصورة ذات المقاعد السبعة كان الرجال الأربعة الذين أخذوه من الرصيف. أروه أين

يخزن الطعام والشراب على متن الطائرة، وقالوا بلغة إنجليزية ركيكة أن الرحلة ستستغرق ساعتين فقط. لم يخبروه إلى أين يتجهون، لكنهم لم يكونوا بحاجة إلى ذلك.

كان **كورت** يعلم. كان يؤخذ إلى الزعيم، والزعيم يعيش في **سانت بطرسبرغ**، **روسيا**.

استلقى **جنتري** واسترخى، وارتشف ماء معبأ، واستمع إلى ثرثرة أتباع **سيدورينكو** .كان فهم **كورت** للغة الروسية بالكاد مقبولا ، قبل اثني عشر عاما، لكنه كان صدئا للغاية في الوقت الحالي. من خلال التركيز على دردشة الرجال حوله وعيناه مغمضتان لأكثر من ساعة، شعر وكأنه يعيد ضبط دماغه على اللغة التي تكاد تكون مستعصية على الفهم.

كان واثقا تماما من أن **سيد** ورجاله ليس لديهم أدنى فكرة عن أنه يتحدث كلمة واحدة من الروسية، واعتقد أنه قد يتمكن من استغلال جهلهم لصالحه في الساعات القادمة.

مالت طائرة الهوكر بأحد جناحيها وهبطت، لتحط بعد الظهر بقليل. تأكد افتراض **كورت** بأنه سيتجه إلى **سانت بطرسبرغ** لمقابلة صاحب عمله عندما لمح، أثناء هبوطهم، **خليج فنلندا** من نافذة جانب الميناء. تعرف على المطار أيضا. كان **مطار رجيفكا** يقع شرق **سانت بيت**، أقل ملاءمة للوصول إلى وسط المدينة من المطار الدولي الرئيسي، لكن **كورت** كان قد زار هذا المطار أكثر من مرة.

في الأيام الخوالي، قبل عشر سنوات أو أكثر، عمل **جنتري** كعميل منفرد لـ**وكالة المخابرات المركزية** يعيش متخفيا ووحيدا في الخارج. نظريا، كانت مهماته يمكن أن تكون في أي مكان على وجه الكوكب، سواء في أراضي الأصدقاء أو الأعداء، لكنه في الواقع كان يعمل بشكل أو بآخر باستمرار في الاتحاد السوفياتي السابق .**روسيا**، **أوكرانيا**، **ليتوانيا**، **جورجيا**، **طاجيكستان**——كان لدى **وكالة المخابرات المركزية** أسباب لإرسال عملاء من "برنامج

الأصول المستقلة[3] (Double A-P) "إلى المناطق النائية في الشرق، لتعقب ومطاردة وأحيانا حتى قتل تجار الأسلحة أو الأسرار النووية. لفترة من الوقت، بدا وكأن الأشياء الوحيدة الجديرة بالبيع من خلف الستار الحديدي السابق هي بقايا آثار يوم القيامة التي خلفتها الإمبراطورية الشريرة السابقة، ولفترة من الوقت بدا وكأن الشيء الوحيد الذي كان يطلب من **كورت جنتري** وغيره من رجال برنامج (Double A-P) القيام به هو التوجه إلى هناك، وتعقب هدف، وكتابة تقرير عن نشاطه، و/أو زرع أجهزة تنصت في منزله، و/أو شراء ذمم أصدقائه، و/أو زرع أدلة لإدانته بجريمة.

و/أو قتله.

لكن تلك كانت التسعينيات. الأيام الخوالي الجميلة.
قبل أحداث 11 سبتمبر.

كان قد زار **سانت بطرسبرغ** مرة واحدة فقط منذ ذلك الحين، في يناير 2003. بحلول ذلك الوقت، كان عضوا في فريق عمل "جولف سييرا"، فريق البلطجية(Goon Squad) ، وهو فريق عمليات سوداء شبه عسكري تابع لقسم الأنشطة الخاصة/مجموعة العمليات الخاصة في **وكالة المخابرات المركزية**، كان يطارد الإرهابيين وشركاءهم حول العالم. سافر **كورت** وفريق البلطجية إلى هذا المطار بالذات على متن طائرة تابعة للوكالة. بقي جزء من الفريق في منزل آمن في الريف بينما أقام **كورت** و**زاك هايتاور** في مبنى سكني متهالك على بعد بضع بنايات من الفنادق الفاخرة في **شارع نيفسكي بروسبكت** .ثم، في أسبوعهم الثالث في المدينة، صعد فريق البلطجية على متن زوارق "زودياك" مطاطية هجومية وداهموا سفينة شحن تغادر **ميناء سانت بطرسبرغ** .كان من المفترض أن تكون على متنها مواد نووية متجهة إلى **صدام حسين** و**العراق** .بدلا من ذلك، كانت أسلحة تقليدية، أشياء تحدث دويا ولا تحدث

---

[3] **برنامج الأصول المستقلة (Double A-P - Autonomous Assets Program):** هو برنامج سري داخل وكالة المخابرات المركزية (CIA) يستخدم عملاء يعملون بشكل فردي ومنفصل تمامًا عن الهياكل الرسمية للوكالة .هؤلاء العملاء، مثل كورت جنتريفي بداياته، يتمتعون بدرجة عالية من الاستقلالية لتنفيذ مهام حساسةفي الخارج.

انفجارا، كما أفاد **زاك هايتاور** لـ**لانغلي** من هاتفه الفضائي في ذلك الوقت. أمروا بترك الأسلحة خلفهم، والنزول من القارب، والخروج من **روسيا**.

أمر محير، لكنه أصبح منطقيا فيما بعد، إلى حد ما، عندما "كشفت" تلك الشحنة ذاتها من البضائع في **البصرة**، **العراق**، وعرضت أمام وسائل الإعلام، بتغليفها الروسي وكل شيء. تم تعقب السفينة طوال الطريق إلى **العراق** ورصدت الشحنة بالأقمار الصناعية. أخبر مشاة البحرية الذين عثروا عليها أين يجدونها، وأدى الإحراج لـ**روسيا** إلى دفعهم قليلا في دعمهم لمهمة الولايات المتحدة هناك. ليس كثيرا، حقا، لكنه قليل.

كانت سياسة، والسياسة لم تكن مهمة فريق البلطجية المعلنة. لم يعجب **كورت** الأمر، لكن كما قال رئيسه، **زاك**، في ذلك الوقت، لم يدفع له ليعجب به، بل ليقوم به.

من طائرة **سيدورينكو**، اقتيد **كورت** عبر مئة متر من مدرج المطار المتجمد إلى سيارة ليموزين سوداء طويلة. قاده حراسه إلى مقعد الراكب الأمامي. قال أحد الرجال" :**أنت تجلس في الأمام. الخلف لكبار الشخصيات** ".ابتسم، وكان هناك ما يكفي من المعادن حول عنقه وفي أسنانه لالتقاط محطات راديو AM المحلية" .**أنت مجرد شخص** ".ضحك بصوت عال، ثم ترجم نكتته لزملائه، فضحكوا هم أيضا.

هز **كورت** كتفيه وصعد إلى المقعد الأمامي. أما الحراس، الذين لم يكونوا من كبار الشخصيات أنفسهم، فقد جلسوا في الخلف الفاخر. انتهاك أمني سخيف: جلس **كورت** في الأمام مع سائق في أواخر منتصف العمر فقط، لكن رجال أمن **سيدورينكو** لم يبدوا من أذكى الحراس.

بينما كانوا يتجهون غربا نحو **سانت بيت**، بذل **كورت** قصارى جهده لاحتفاظ المعلومات عن الرحلة، في حال احتاج إلى إيجاد طريقه بنفسه للعودة إلى المطار. كان يخطط لجعل هذه الرحلة قصيرة جدا. ثلاثون ثانية ليخبر **سيد** أنه لم يعجبه جره إلى هنا، في انتهاك لاتفاقهما،

وثلاثون ثانية أخرى ليخبره أنه لم يعجبه خداعه بشأن العملية التي قام بها للتو، وعشر ثوان أخيرة أو نحوها ليخبر مديره الروسي أنه يستقيل، وأنه إذا حاول أصحاب السلاسل الذهبية والرؤوس الحليقة والأنفاس الكريهة من أتباع **سيدورينكو** منعه من المغادرة، فستكون هناك قريبا شواغر أخرى لتملأ في منظمة **سيدورينكو**.

لكن، في النهاية، لم تسر الأمور تماما كما تصورها **جنتري**.

الفصل السادس

بعد ساعة على الطريق، أُخذ **كورت** إلى منزل ضخم على الأطراف الشمالية لمدينة **سانت بطرسبرغ** .لم يسبق له أن زار هذه الضاحية واعترف لنفسه بأنه لا يستطيع حتى تحديد موقع هذا المكان على الخريطة. كانت الشوارع واسعة ومزينة بالأشجار، والممتلكات كبيرة ومنسقة، والمنازل قديمة وفخمة.

انعطفت سيارة الليموزين إلى ممر خاص، وركز **جينتري** على الفور على المنزل أمامه. كان المنظر من بعيد يأسر الأنفاس. ومن الناحية المعمارية، كان رائعًا.

ولكن كلما اقتربوا، بدا **لكورت** وكأن طاقم **سيد** من الأتباع الأغبياء يعملون أيضًا كمنسقين للحدائق ومدبرين للمنزل، وهي مهام كانوا أقل كفاءة فيها حتى من مهام الأمن. كانت هناك خيام منصوبة على الأرض، تشبه ثكنة عسكرية صغيرة ، مع نيران مدخنة وشبان يقفون حولها، لا يفعلون شيئًا يذكر على ما يبدو. كانت عدة مركبات رباعية الدفع، مغطاة بالطين وسيئة الصيانة، متوقفة على العشب الممزق على جانبي الممر.

كانت واجهة القصر مغطاة بطلاء متقشر، وكانت مساحة وقوف السيارات الدائرية المرصوفة بالحصى مغطاة بالزجاجات وأعقاب السجائر وغيرها من القمامة. نزل **جينتري** من سيارة الليموزين واقتيد عبر مطبخ بدا وكأنه من منزل أخوية هربت منه مدبرة المنزل بعد انهيار عصبي: أطباق فوق أطباق في الحوض، وصواني طعام بلاستيكية جاهزة تغطي كل مساحة مسطحة، وزجاجات فودكا تحيط بالأرضيات كنوع من الزخرفة الزجاجية الرثة.

لم يكن **كورت** مهووسًا بالنظافة، لكنه لم يستطع إلا أن يتساءل عن احتمالات وجود حياة برية في هذا المطبخ خلال الصيف، وشعر بالامتنان للهواء البارد الذي تسلل عبر نافذة

المطبخ الرقيقة ليمنع تكاثر الحشرات، وللقطط السمينة الثلاث أو الأربع التي لاحظها تتجول داخل وخارج القصر لإبعاد الهوام ذات الفراء.

بعد ذلك، صعد طابقين عبر درج دائري واسع. كان الرجال يجلسون على الدرج، يلعبون ألعاب فيديو محمولة، ويتحدثون على الهواتف المحمولة، ويقرؤون الصحف، ويدخنون، وكل رجل منهم يحمل رشاشاً على حجره أو مسدسًا آليًا في جراب كتف تحت ذراعه. ارتدى بعضهم بدلات رجال العصابات الروسية التقليدية، لكن معظمهم كانوا يرتدون ملابس مموهة أو خضراء عسكرية، وإن لم تكن في أي نوع من الزي الرسمي المتناسق —— بل كانت أشبه بملابس خبراء البقاء على قيد الحياة أو الصيادين.

وكانوا جميعًا من حليقي الرؤوس. حدق معظمهم في **جينتري** بحقد. افترض أن شعره الطويل ولحيته غير المهندمة كانا بمثابة مؤشرين على أنه ليس من نفس جماعتهم. حتى أنه تساءل عما إذا كانوا يعتقدون أنه عضو في أي مجموعة عرقية معينة يلومونها على كل المشاكل في حياتهم البائسة.

"اللعنة عليهم"، فكر **كورت** .كان يعلم أنه يستطيع أن يبرح خمسة منهم ضربًا دون أن يتصبب عرقًا.

المشكلة الوحيدة في ثقته الذكورية المفرطة، كما أدرك، هي أنه رأى حتى الآن ما لا يقل عن عشرة أضعاف هذا العدد من الرجال في المكان. من الواضح أن نظام أمن **سيدورينكو** يعطي الأولوية للكمية على حساب الجودة.

أخيرًا، مر **جينتري** عبر باب مزدوج ضخم مذهب ودخل إلى مكتب خارجي. كان سكرتير يجلس خلف مكتب. كان أنيق الملبس وبدا **لكورت** على الفور أكثر كفاءة في وظيفته بما لا يقاس من الخمسين مهرجًا الآخرين الذين يتسكعون في هذه الحفرة القذرة الفخمة.

"هل لي أن آخذ معطفك يا سيدي؟ "سأل الرجل باللغة الإنجليزية وهو يقف خلف مكتبه ويتقدم لتحية **كورت**.

"لن أبقى طويلاً."

بدا السكرتير مرتبكًا للحظة، لكنه استعاد رباطة جأشه بسرعة" .**كما تشاء يا سيدي. تفضل، من خلال تلك الأبواب"**، أشار بابتسامة لطيفة، لكنه بعد ذلك تحدث إلى الحراس الأربعة . **"ابقوا بالقرب منه** ."كانت باللغة الروسية، لكن **جينتري** فهمها.

كان هناك بابان مذهبان آخران، وعلى الجانب الآخر كان الظلام يلف قاعة كبيرة، وكان الضوء الوحيد يأتي من مدفأة على يمين مكتب ضخم في الطرف البعيد من الغرفة ذات الأرضية الخشبية. لم يكن هناك أثاث آخر في الغرفة، وكانت باردة كثلاجة لحوم، حتى مع وجود مدفأة مشتعلة. كان صدى الغرفة يتردد كالكنيسة بينما كان **جينتري** يتحرك عبر الظلام نحو الرجل الجالس خلف المكتب.

"من الرائع أن ألتقي بك أخيرًا، سيد جراي ."تعرف **جينتري** على صوت **جريجور إيفانوفيتش سيدورينكو** .كان صوته حادًا وأنفيًا، ويتناسب مع وجهه بطريقة ما. كان الرجل صغير البنية، بعينين صغيرتين وملامح دقيقة؛ وبدت نظارته هشة كبقية جسده.

لكنه كان أصغر مما تخيله **جينتري** .ربما في منتصف الأربعينيات، على الرغم من أنه لم يبدُ بصحة جيدة. جعله وجهه النحيل يبدو وكأنه يعاني من سوء التغذية، وكانت وجنتاه الغائرتان شاحبتين حتى في ضوء الغرفة الخافت.

مد **سيد** يده إلى **كورت** .تجاهلها **كورت** .كان يعلم أن كل شيء منذ **غدانسك** —الرجال، الطائرة، سيارات الليموزين، الأسلحة، السلوك — كان منظمًا ليُظهر سلطة **سيد** وسيطرته على **جينتري** .الرجال الصغار ذوو السلطة الكبيرة يمارسون أحيانًا هذه السلطة بشكل غير

متناسب للتعويض عما يعتبرونه نقائصهم. لم يكن شيئًا لم يره **جينتري** من قبل، لكنه كان يعلم أنه يجب أن يواجه النار بالنار، وأن يفرض هيمنته الخاصة على الموقف.

"كان بيننا اتفاق. ألا نلتقي وجهًا لوجه. لقد انتهكت هذا الاتفاق. أنا لست مثل الآخرين الذين تسيطر عليهم. لا يمكنك إثارة إعجابي بطاقم من الدرجة الثالثة يرتدون سلاسل ذهبية ويحملون أسلحة نارية سيئة التزييت. لقد جئت طوعًا فقط لأخبرك بهذا، ولأخبرك أنني أستقيل."

لم يفهم الحراس الشباب حول **كورت** لغته الإنجليزية، لكن من لهجة الأجنبي الغاضبة والعدوانية اقتربوا منه ونظروا إلى سيدهم طلبًا للتوجيه. أوقفهم بيد مرفوعة، ثم حرك أطراف أصابعه نحوهم، كما لو كان يدفعهم إلى زوايا الغرفة. امتثلوا. استطاع **كورت** سماع خطواتهم المتراجعة خلفه.

لم يرفع **سيدورينكو** عينيه عن **كورت** .بدلاً من ذلك، تراجع ببطء خلف المكتب وجلس. ارتشف شايًا أرجوانيًا من كأس مطلي بالذهب. ظن **كورت** أن الرجل خائف، لكن الكلمات التالية التي خرجت من فم زعيم المافيا الروسي جاءت بهدوء وبدون أي رعشة ملحوظة.

"هل رأيت رجلاً يُسلق حيًا في حوض من الحمض؟"

"هل هذا سؤال بلاغي؟"

"زميل لي ."مد **سيد** يده وكأنه يهدئ مخاوف ضيفه" **.أنا لم أفعل ذلك. كان ذلك بعد فترة وجيزة من بيع ممتلكات الدولة بالمزاد العلني؛ عام ثلاثة وتسعين على ما أعتقد. كنت مع فريق من المحاسبين والمحامين أعمل لدى رجل عصابات في موسكو. لم يكن من الأوليغارشية، ولم يكن عبقريًا عظيمًا أيضًا. لكنه أحب المال فوق كل شيء، وشق طريقه بالقوة إلى عدة سلاسل متاجر كبرى ثم أخاف المالكين المشاركين أو قتلهم. على أي**

حال، قرر أن أحد موظفيه كان يختلس الأموال من ممتلكاته المشروعة، فجمعنا جميعًا في اجتماع في منزله الريفي في أوديسا. وهناك، في انتظارنا، كان بعض الرجال الأشداء جدًا: قوات شبه عسكرية من السبيتسناز يعملون كأتباع لهذا الأحمق. أُخذنا —— كنا تسعة —— جميعًا إلى حظيرة، جُردنا من ملابسنا، وقُيدنا إلى عوارض السكك الحديدية. تعرضنا للضرب ورُشِشنا بالماء البارد لمدة يومين. كان شهر أكتوبر. توفي أكبرنا سنًا، وهو محامٍ، في تلك الليلة الأولى. خلال الليلة الثانية، دخل صاحب العمل إلى الحظيرة وأخبرنا أنه إذا اعترف أحدنا، فإنه بذلك سينقذ حياة الآخرين. لم يتكلم أحد. استمر الضرب لمدة اثنتي عشرة ساعة أخرى."

نظر **كورت** حول الغرفة بينما كان **سيدورينكو** يتحدث.

"في اليوم الثالث، مات رجل آخر. لا أستطيع تذكر وجهه، كان خبيرًا في الشؤون التنظيمية، إن لم أكن مخطئًا. عاد صاحب العمل مرة أخرى وقدم نفس العرض السابق. مرة أخرى، لم يعترف أحد. كنت على يقين من أنه سيقتل الجميع، ولكن لحسن حظ بقيتنا، كان لدى الأوليغارشي عدم ثقة عميق باليهود. لاحظ، وهو يرقد هناك في الوحل والدماء، أن أحدنا كان مختونًا. ناتان بوليتشوفا. اعتبره يهوديًا، وقرر أنه هو المخادع، وأمر بإحضار حوض خشبي للماء من الخارج. مُلئ بمذيب يستخدم لإزالة الطلاء المحتوي على الرصاص، مادة قوية، وأُلقي بناتان على الأرض بجانب الحوض. لمدة ساعة تقريبًا، استخدم معذبونا من السبيتسناز الجواريف لرش الحمض على ناتان المسكين وهو يتلوى على القش.
تحول لونه إلى الأحمر، ثم بدأ الجلد ينتفخ ويتقشر عنه، تاركًا إياه مغطى بأبشع القروح. أُجبر بقيتنا على المشاهدة. أخيرًا، ولأن الرجال الذين يحملون الجواريف تعبوا من العمل، أمسكوا بخطافات تستخدم لرفع بالات القش، وغرسوها في ذراعي ناتان وساقيه. ألقوه مباشرة في حوض الحمض. بقيتنا، أصدقاء وزملاء ناتان، تمنينا له أن يموت بسرعة، لمصلحته ومصلحتنا. صرخ صرخة لن أنساها أبدًا، حتى غاص وجهه الذائب أخيرًا تحت السائل ولم يظهر مرة أخرى. كانت تجربة مروعة."

أدرك **كورت** أن **سيد** يستمتع بسرد القصة. لم يعرف ماذا يقول، فقال" :**يبدو أن السرقة من هذا الرجل لم تكن فكرة جيدة."**

هز **سيد** كتفيه، ومد يده نحو الشاي وهو يرد ببرود" :**أوه، كان ناتان بريئًا تمامًا. أنا من اختلس المال. استخدمته في النهاية لأبدأ عملي الخاص. سمح صاحب العمل لبقيتنا بالمغادرة. أما هو فقد قُتل في عام أربعة وتسعين، أُطلق عليه النار في ظهره أثناء تفصيل بدلة في موسكو."**

تنهد كورت" .**هل هناك مغزى من هذه القصة؟ لأنه إذا كان هناك، فأنا لا أفهمه. أم هل من المفترض أن أخاف منها؟ لأنني لست خائفًا."**

الفصل السابع

"المغزى هو، أريدك أن تفهم من أنا. يمكنني أن أكون صديقك. أريد أن أكون صديقك. لكن إذا أتيت إلى منزلي وتحدثت إلي كما تحدثت للتو، إذا لم تظهر لي أي احترام، يمكنني أن أكون عدوك. لا تدع نظرتي اللطيفة تجاهك تسمح لك بالاعتقاد أنه يمكنك عدم احترامي في منزلي. أنا رجل تطورت إلى ما أنا عليه الآن. لم أبدأ هكذا. لكي تكون ناجحا في روسيا، تحتاج إلى مقدارين متساويين من شيئين: الذكاء والوحشية. رجل العصابات هذا الذي تحدثت عنه، كان وحشيا. قتل رجل مثله كان فعالا، ولكن أن تخرج بنفسك بعد ذلك لشراء بدلة وتتعرض لإطلاق النار... بالتأكيد لم يكن لديه الذكاء لفهم عواقب وحشيته. رجال آخرون، محاسبون مثلي على سبيل المثال، تورطوا في الجريمة لأن لديهم الذكاء للنجاح، ولكن في هذه البيئة الشرسة من المنافسة والفساد المؤسسي والبحث المتعطش للدماء عن المال بأي ثمن... تم إزالة المجرمين المحاسبين من رقعة الشطرنج أسرع حتى من الحمقى المتوحشين".

"أدركت أنه لا يوجد أحد يمتلك الذكاء والجرأة معا. شخص لديه ذكاء العمل وجرأة العنف يمكنه البقاء والازدهار في روسيا الجديدة بشكل لا مثيل له. كان لدي الذكاء... هذا كنت أعرفه. لكن الجرأة؟ استغرق الأمر بعض الوقت لتطويرها".

"إذن، هل ترمي موظفيك في الحمض؟"

"لا، موظفي يعاملون جيدا من قبلي. إنهم اشتراكيون قوميون، إذا لم تكن قد خمنت بعد. يضربون المهاجرين من أجل المتعة. يعتقدون أنك من القوقاز بسبب بشرتك وشعرك... لذا فهم ليسوا من معجبيك. لا، أنا لا أهددهم؛ أترك هؤلاء الشبان يعيشون كما يحلو لهم، وأمنحهم حرية التصرف في منزلي، وأدفع لهم بسخاء شديد".

"بسلاسل ذهبية؟"

ضحك **سيد**، مستمتعا بصدق" .**ها. لا، ليس بسلاسل ذهبية. باليورو. كان الأمر بالدولار ولكن، حسنا، الزمن يمضي. يمكنك أن تأتي إلى هنا، غاضبا كما أنت، ويمكنك أن تخبرني أنك لا تريد العمل معي بعد الآن. لكن، يا سيد جراي، أعدك، أنا خيارك الأفضل لما تحتاجه".**

على الجدار إلى يسار **جنتري** ويمين **سيد** كانت هناك لوحة ضخمة في إطار مذهب هائل. في ضوء الغرفة المدخن، كان الوجه المربع والعينان الثاقبتان لـ**جوزيف ستالين** تحدقان في **كورت.**

قال **كورت** وهو يجلس على كرسي خشبي غير مريح ذي ظهر مرتفع أمام مكتب **سيد** : **"صورة لطيفة".**

نظر **سيدورينكو** إلى الصورة وكأنه لاحظها للتو" .**نعم. أنا أحترم السلطة التي توحي بها".**

"لا تبدو لي كأحد رجال الحرس السوفييت القديم".

"ماذا تقصد بذلك؟"

"شيوعي. ظننت أن جميعكم أيها المليارديرات رجال العصابات خنازير رأسمالية مثل بقية العالم المتحضر".

ضحك **سيدورينكو** وفمه مفتوح مع قرقرة عالية في مؤخرة حلقه" .**أوه نعم، أنا خنزير، ولكن ليس خنزيرا أيديولوجيا** ".حدق في الصورة وهو يقول" :**لقد كان رجلا فظيعا، نعم، لكن العم جو قال ربما أروع الكلمات التي قيلت على الإطلاق. قال: 'الموت يحل كل المشاكل"ـــــ'**

أكمل **كورت** الاقتباس" **"لا رجل، لا مشكلة"**.

ابتسم **سيدورينكو** بتقدير" **بالطبع كنت ستعرف هذا الاقتباس. إنها تتخذه كمهمتك الشخصية، أليس كذلك؟"**

"ليس كذلك".

هز **سيد** كتفيه" **عقيدة عملياتية، إذن؟** "لم ينتظر إجابة **كورت" ستالين، آل رومانوف، الحرب الوطنية العظمى، ظاهرة حليقي الرؤوس القوميين الحالية. لدي، كما ترى، ميل للأشياء الفظيعة، الفظيعة جدا. أنا من محبي قوة القسوة. الرجل الذي لديه القدرة على إيقاع الموت والبؤس برفاقه من البشر هو أقوى من الأغنياء، والمشاهير، والصالحين".**

"عقيدتك العملياتية؟"

"ليس حقا. هواية، لا أكثر. معظم اهتماماتي التجارية حميدة إلى حد ما: عاهرات، غسيل أموال، سيارات مسروقة، بطاقات ائتمان، مخدرات... تجلب المال، نعم، لكن المال ليس شغفي الحقيقي. لا يوجد، كما ترى، شيء يرضيني أكثر من أن أكون لاعبا في الصناعة التي تمارس فيها مهنتك. أنا أتحدث عن صناعة الموت. أنا روسي. تاريخنا كآبة ودمار. هناك الكثير من المعانين وقليل فقط من تجار المعاناة. اخترت أن أكون واحدا من هؤلاء.
فظيع، لكنه أفضل من البديل، أليس كذلك؟"

لم يقل **كورت** شيئا. كان معتادا على العمل لصالح، ومع، وحول، وضد المجانين تماما. هذا الروسي الغريب كان مجرد أمر طبيعي في الملعب الذي يلعب فيه.

واصل **سيد" :أنت أداتي. أنت آلتي".**

"إذا اخترت أن أكون كذلك".

ابتسم **سيدورينكو" .نعم. إذا اخترت. ولهذا السبب أحضرتك إلى هنا اليوم".**

"ظننت أنك أحضرتني إلى هنا لترهيبي".

"هل أنت مرعوب؟"

"ليس على الإطلاق".

ابتسم **سيد" .آه، حسنا، من الجيد أن لدي سببا آخر. لدي عمل "**.أخذ رشفة طويلة أخرى من شايه الأرجواني وانحنى إلى الأمام على مكتبه كما لو كان سيبدأ في صلب الموضوع" .**إذا كان بإمكانك قتل أي شخص في العالم الآن، فمن سيكون؟"**

"جريج سيدورينكو".

ضحك **سيد** .**كورت** لم يفعل. تحولت خفة دم **سيد** إلى برود ثم إلى ابتسامة خفيفة" .**أفضل قاتل على وجه الكوكب يريد قتلي. يجب أن أكون خائفا. لكنني لست كذلك، لأنه بمجرد أن أخبرك من هو هدفك الجديد، سوف تشكرني، وسنكون أنا وأنت أفضل الأصدقاء".**

وقف **كورت** واستدار على عقبيه. بسرعة، ابتعد الرجال الأربعة بجانب الباب خلفه عن الحائط واقتربوا. قال **كورت** لـ**سيد" :أنا راحل. إذا حاول هؤلاء الرجال إيقافي، فسوف يتأذون. لدي انطباع بأنك قد تستمتع بمشاهدة ذلك، لكن سيتعين عليك أن تجد لنفسك طاقما جديدا من البلطجية".**

" الرئيس بكري عبود .."

صاح **سيد** بالاسم، تردد الاسم في القاعة الطويلة، وتوقف "الرجل الرمادي" في مكانه. لم يستدر على الفور.

قال **كورت"** :**لا أمانع الصعوبة، طالما أن الهدف. أما هذا فإنه هدف مستحيل** ".بدأ يمشي مرة أخرى.

"في العادة، نعم، سيكون الأمر كذلك. لكن لدي طريقة للدخول، لدي جدوله الزمني، لدي وصول إليه، ولدي طريقة للخروج".

ضحك **كورت** باستهزاء" .**إذن افعلها بنفسك".**

"لم أقل إنها ستكون سهلة. لكنك... أنت تستطيع فعلها. فقط استمع إلى خطتي. لا يزال بإمكانك الانسحاب، بالطبع، إذا لم تعجبك. لكنني متأكد من أنك ستكون راضيا".

استدار **كورت** وعاد بضع خطوات إلى المكتب" .**رئيس السودان يعلم أنه رجل مطلوب. هناك مذكرة توقيف بحقه من المحكمة الجنائية الدولية في لاهاي بتهمة الإبادة الجماعية في دارفور. رجل مطارد محاط بحراس شخصيين، يسيطر على قوة شرطة وطنية، وكالة مخابرات، جيش، قوة جوية، قوة بحرية... من يحكم أمة لعينة بأكملها؟ لا يمكن لرجل واحد الوصول إليه".**

ارتشف **سيد** من شايه ببطء مرة أخرى" .**بعد تسعة أيام من الآن ستغادر طائرة نقل روسية بيلاروسيا بمعدات عسكرية لجيش الرئيس عبود. وجهة الطائرة هي الخرطوم، العاصمة. إنها رحلة سرية. لا بيان حمولة، لا جمارك، لا مشاكل. بعد أربعة أيام من ذلك هو 10 أبريل، عيد ميلاد عبود، الذي يقضيه دائما في مسقط رأسه سواكن، وهي مدينة ساحلية قديمة لا توجد بها حامية عسكرية ولا منشآت حكومية رئيسية. سيسافر إلى هناك مع فريق حمايته المقرب، حوالي عشرين رجلا أو نحو ذلك، ولكن هذا كل شيء. ستكون مزرعته محروسة جيدا، بالتأكيد، لكنه سيذهب إلى المسجد المحلي ثلاث مرات في اليوم أثناء وجوده هناك. في الصباح، عند الفجر، سيؤدي الرئيس أذان الصلاة بنفسه من مئذنة**

المسجد. سواكن محاطة أيضا بأبراج ومبان قديمة مدمرة من زمن الرومان. رجل كفؤ مجهز ببندقية قنص يمكنه أن يجد العديد من الأماكن الجيدة ليتمركز فيها، أليس كذلك؟"

"لا أعرف"، قال **كورت**، بتصنع الانزعاج في صوته، لكنه كان يستمع.

"سيد جراي، يمكنني إيداع مليوني دولار في حسابك المصرفي غدا. يمكنني أن أضعك على متن طائرة النقل تلك إلى السودان في غضون تسعة أيام، ويمكنني ترتيب خروجك من منشأة المطار دون أن يتم اكتشافك. لدي رجل يمكنه أن يقودك إلى سواكن. بعد أسبوع من هذا، بافتراض أنك أنجزت مهمتك، يمكنني بالمثل ترتيب عودتك إلى المطار دون أي مشكلة من السكان المحليين، والعودة إلى روسيا على متن طائرة روسية. بمجرد عودتك، ستجد مليوني دولار أخرى في حسابك".

"أربعة ملايين. بالإضافة إلى أي حصة تحتفظ بها لنفسك. لا بد أنك كلفت من قبل طرف مهتم للغاية بإنهاء حياة الرئيس عبود".

"بالفعل".

"من؟ "جلس **كورت** مرة أخرى في الكرسي غير المريح.

أمال **سيدورينكو** رأسه لكنه لم يبد متفاجئا جدا" .**كان في فهمي أنك عادة لا تهتم بمن هو الدافع، فقط ما إذا كان الهدف يستحق العقاب الذي تتقاضى أجرا لتنفيذه أم لا".**

"لست في مزاج يسمح بالثقة بعد العقد الأخير".

الآن أظهر **سيد** مفاجأة حقيقية" .**سلاتري؟ لقد كان بالضبط من قلت إنه هو".**

"لكن الدافع لم يكن من زعمت أنه هو"، رد **كورت** ببرود.

وزن الروسي التعليق بعناية، وعيناه الخرزيتان كادتا تنقلبان على نفسيهما وهو يفكر. تراقص بؤبؤا عينيه في ضوء جذوع الأشجار المشتعلة في المدفأة. في البداية ظن **جنتري** أن **سيد** سيجادل، يتظاهر بالارتباك، وينكر. لكن بدلا من ذلك، رفع الروسي يديه في استسلام خجول، وهز كتفيه، وقال" :**نعم، صحيح. لقد خدعتك. أنا آسف. ولكن ردا على سؤالك، الحكومة الروسية نفسها تريد موت عبود. هم من يدفعون المال. هم من يكلفون بالعقد. من خلال وسطاء، بالطبع**".

"**أنت تكذب مرة أخرى. روسيا والصين هما عمليا البلدان الوحيدان اللذان لديهما علاقات جيدة مع عبود. لماذا قد ترغب روسيا"—**

"**لأن علاقة روسيا مع السودان ليست جيدة مثل علاقة الصين مع السودان. قبل ثلاث سنوات، منحت الصين حقوقا موسعة للتنقيب عن المعادن في صحراء دارفور، وتحديدا قطاع كبير يسمى القطاع 12A. في ذلك الوقت لم تهتم موسكو؛ كانت مجرد أرض صحراوية قاحلة على الحدود التشادية**".

"**لكن الصين وجدت شيئا**"، قال **كورت**.

"**ليس مجرد 'شيء'. أقوى 'شيء' على الإطلاق**".

"**نفط**".

"**نعم. كمية هائلة. الصينيون ينتشرون في جميع أنحاء القطاع 12A ونحن نتحدث. يجلبون المعدات والخبراء. سيبدأ الحفر قريبا جدا. وعبود سمح بذلك. ولكن إذا تمت إزاحة عبود، فإن أعضاء نافذين في المجلس البرلماني السوداني، أشخاصا داخل حزب عبود نفسه، أوضحوا لموسكو أن القيادة الجديدة ستطرد الصينيين وتعطي القطاع 12A للروس بترتيب مفيد لكلا البلدين**".

"إذا كان لدى السودانيين بالفعل اتفاق مع الصينيين، فكيف يمكن للرئيس الجديد أن يتجاهل هذا ببساطة؟"

بدا **سيدورينكو** محبطا للحظات من قاتله. أجاب وكأن سؤال الرجل كان ساذجا بشكل خطير" .**هذه هي أفريقيا"**.

أومأ **كورت" .وماذا سيفعل هذا الرجل الجديد حيال الإبادة الجماعية في دارفور؟"**

"لا يمكن للمرء أن يجزم بالتأكيد؛ يجب أن تعرف ذلك. لكن من المنطقي أنه بدون الرئيس عبود، سيتحسن الوضع. لدى عبود عبادة شخصية تحته، وأتباعه ينفذون أوامره، وليس لديه خليفة مماثل. أيضا، أصبحت دارفور مهمة لشيء آخر غير إبادة شعب محطم ويائس. قد ينهي خليفته الإبادة الجماعية لكي يجعل الأمم المتحدة تبحث في مكان آخر لإهدار أموال الغرب ".ابتسم **سيد" .وبعد ذلك سيأتي مواطنوي لينقذوا الموقف "**.

لم يقل **جنتري** شيئا، فقط نظر إلى يساره، إلى المدفأة المشتعلة تحت صورة **جوزيف ستالين**.

ضغط **سيد" .إذن فعلك هذا سيخلص هذا العالم من رجل قوي جدا وسيئ جدا. علاوة على ذلك، من الممكن أن يقطع شوطا طويلا في إنهاء الإبادة الجماعية التي ارتكبت هناك على مدى العقد الماضي أو نحو ذلك"**.

"هذا ما تقوله أنت"، تمتم **كورت**، وما زال ينظر إلى النار. كان يعلم أن **سيد** لا يهتم قيد أنملة بالإبادة الجماعية أو برجل شرير يمشي على الأرض؛ كانت مجرد محاولة منه لخلق حماس للعملية في ذهن قاتله، الرجل الذي لا شك أن **سيد** يعتقد أنه قديس متصنع.

ابتسم الروسي خلف المكتب" .**سيكون من الجيد لو وثقت بي، لكن علاقتنا جديدة. الثقة ستأتي مع الوقت، أنا على يقين. في هذه الأثناء، لا تتردد في البحث في هذا الأمر بنفسك،**

قم ببحثك الخاص. سأجعل رجالي يأخذونك إلى فندق لطيف. يمكنك قضاء المساء في تصفح المواد التي أعددتها لك، والتعرف على اللاعبين، والانتماءات، ودراسة الخرائط. يمكنك العودة إلى هنا صباح الغد وتعطيني إجابتك. أنا واثق من أنك ستتخذ القرار الصحيح، لذلك بعد ذلك، يمكننا أن نبدأ على الفور في إعداد العملية لتناسب متطلباتك".

أومأ **كورت** ببطء. سأل" :**رجالك... هل أفترض أنهم تحت أوامر بالبقاء إلى جانبي؟"**

ابتسم **جريجور سيدورينكو**، لكن عينيه كانتا جادتين" .**يمكنك أن تفترض ذلك، نعم. سانت بطرسبرغ ليست مكانا آمنا لغير المطلعين. سوف يراقبونك** ".ثم قال، وحاجباه مرفوعان وابتسامة خبيثة بعض الشيء على وجهه الغائر" :**سيكون لديك الكثير لتفعله الليلة، لكن يمكنني أن أوفر لك الرفقة. لقد كنت تعمل بجد؛ لا عيب في القليل من... دعنا نقول، الترفيه، قبل أن تبدأ عمليتك التالية".**

"عاهرة، تقصد؟"

"رفيقة".

تدلت كتفا **كورت** .كان هذا مجرد شيء آخر يجب التعامل معه" .**سيد، لا ترسل عاهرة إلى بابي".**

"كما تشاء يا سيد جراي. ظننت فقط أنها ستحسن من مزاجك ".قال شيئا بالروسية للحراس وضحك معهم عندما انتهى. لم يلتقط **جنتري** كلمة واحدة منه. بحركة من يده، مضى **سيد** قدما" .**حتى الغد، إذن".**

الفصل الثامن

تناول **جينتري** العشاء بمفرده في مطعم روسي لا يوجد به زبائن آخرون. جلس في الخلف، بينما جلس حراسه في المقدمة وكانوا يصدون أي زبائن محتملين، في حين جلس النوادل بمفردهم يدخنون بتجهم لكنهم لم يشتكوا. بعد وجبته، أُخذ إلى **قصر نيفسكي** في شارع **نيفسكي بروسبكت** .توقفت سيارة الليموزين عند رصيف تحميل، وقام خمسة من رجال **سيد** بإدخال الأمريكي عبر مدخل الموظفين. صعد بهم مصعد الموظفين بسرعة إلى الطابق الثاني عشر، وواصلوا السير في ممر طويل ومشرق حتى وصلوا إلى غرفة في الزاوية. أُدخل **كورت** إلى جناح صغير وأُخبر أن حراسه سيكونون خارج الباب وفي الغرفة المجاورة طوال الليل. سيوقظونه في السابعة لتناول الإفطار ثم يعيدونه بالسيارة إلى **سيد** ليعطيه جوابه.

أغلق شاب حليق الرأس الباب وهو يغادر.

بالنسبة لجناح صغير، كان فخمًا، وبشكل بشع، وكان من الواضح أنه تم تعديله من قبل رجال **سيدورينكو** .أدت منطقة جلوس كبيرة إلى شرفة ضيقة. كان الهاتف غائبًا بشكل واضح. أدى ممر متفرع من غرفة المعيشة إلى غرفة نوم كبيرة —— مرة أخرى، بدون هاتف —— والتي كانت متصلة بحمام كبير وحديث. وجد **كورت** مخزونًا هائلاً من أدوات النظافة على منضدة الزينة، يكفي لفريق كرة قدم للاستعداد لقضاء ليلة في المدينة. على السرير وجد طقم ملابس واحدًا: بدلة رياضية من الحرير، متعددة الألوان —— سوداء مع حواف سميكة باللون الأرجواني وشكل V ذهبي تحت الياقة المخملية. بدلة صارخة في أي مكان في العالم باستثناء البلدان التي كانت خلف الستار الحديدي سابقًا.

بالعودة إلى غرفة الجلوس، رأى كومة سميكة من الأوراق والكتب والكتيبات، مفتوحة ومحددة بعلامات وفي خدمته. من المفترض أن **سيد** وضعها هنا حتى يتمكن من التحقق

من كل ما قاله رجل العصابات الروسي عن **السودان** والروس والصينيين والقطاع 12A في صحراء **دارفور**.

تجاهل **كورت** واجباته المنزلية وبدلاً من ذلك خرج إلى الشرفة وراقب حركة المرور الكثيفة التي تسد الطريق بالأسفل. أمضى دقيقة يتفحص المباني المحيطة، ويضيق عينيه لينظر إلى وهج أضواء الشوارع. ثم عاد إلى الحمام. التقط علبة من رغوة الحلاقة ومنشفة صغيرة ووضعهما في جيوب سترته قبل العودة إلى الشرفة. ببراعة، تجاوز السياج بساق واحدة ثم الأخرى. انزلق عبر أنبوب التصريف المزخرف الممتد على طول الجدار بجوار الشرفة، ونزل إلى الطابق الذي تحته مباشرة، وتأرجح مرتين لاكتساب الزخم، ثم دفع ساقيه إلى الأمام. فور هبوطه على شرفة الطابق الحادي عشر، أدرك أن الغرفة المقابلة كانت مشغولة. كانت الأضواء مضاءة والملابس مبعثرة، لكن لا يبدو أن أحداً بالداخل في الوقت الحالي. ربما، كما فكر، كانوا في الخارج لتناول العشاء. كان باب الشرفة مغلقاً. سرعان ما هز علبة رغوة الحلاقة ثم ضغط على الزر لتفريغ الرغوة البيضاء على الباب الزجاجي المنزلق، مركزًا إياها بجوار مقبض الباب مباشرة. بحلول الوقت الذي فرغت فيه العلبة، كانت رغوة الحلاقة قد كونت غطاءً سميكًا على الزجاج بحجم طبق عشاء. لف يده اليمنى بالمنشفة ولكم بسرعة عبر الرغوة الكثيفة، محدثًا ثقبًا بحجم قبضة اليد مع صوت طقطقة مسموع ولكن بدون صوت التحطم العالي للزجاج المكسور، حيث امتصت الرغوة الصدمة وكتمت صوت ارتطام الزجاج بأرضية البلاط. ترك المنشفة تسقط من يده داخل الغرفة ثم مد يده وفتح قفل الباب.

دخل الغرفة، وتفحص الملابس في الحقائب وعلى الأرض، وخاب أمله عندما لم يجد شيئًا يناسبه. خاب أمله، لكنه لم يتفاجأ. لم يكن أي شيء في حياته سهلاً للغاية؛ نادرًا ما نجحت أي من خططه دون عائق واحد. غادر من باب الغرفة وسلك الممر إلى بئر السلم. نزل أربعة طوابق ثم سار في ممر آخر، ودخل بئر سلم آخر، ثم خرج إلى الردهة. ومن هنا وجد مدخلاً للموظفين فقط أدى به إلى غرفة غسيل الملابس. لم يلتفت إليه أحد عندما دخل.

بعد ثلاثين دقيقة من إلقاء ساقه فوق شرفة الطابق الثاني عشر، كان **جينتري** يرتدي ملابس جديدة ويدخل نزلًا صغيرًا على بعد ربع ميل من **قصر نيفسكي** .تذكر **كورت** المكان من رحلته الأخيرة إلى هنا. كان هذا هو الفندق المتواضع الذي أقام فيه عام 2003 مع **زاك هايتاور**، قائد فريق **فرقة البلطجية**، بينما كانا ينتظران الاستيلاء على سفينة الشحن المليئة بأسلحة **صدام** .آنذاك، كما الآن، كان المكان قذرًا إلى حد كبير، لكنه كان هادئًا ومنعزلاً وفي نهاية طريق مسدود ضيق يوفر رؤية جيدة لجميع من يأتي ويذهب.

دفع لسيدة عجوز باليورو مقابل ليلة واحدة. طلبت جواز سفر، لكنه هز كتفيه ولوح بورقتين إضافيتين من فئة عشرين يورو. هزت كتفيها هي الأخرى، وأخذت المال. طلب غرفة في الطابق الثاني تطل على الشارع، فأخذته عبر درج ضيق، مرورًا بالمرحاض المشترك، ونزولاً في ممر بالطابق الثاني بعرض الكتف كان يصدر صريرًا مع كل خطوة. فتحت الباب بالمفتاح ثم استدارت وعادت بخطى متثاقلة إلى الدرج دون أن تلتفت.

فضل **كورت** قضاء الليلة هنا، بدلاً من أن يكون أسيرًا في جناحه في **قصر نيفسكي**، محاطًا بأتباع من حليقي الرؤوس. كل ما أراده هو أن ينام، ويستلقي في السرير، ويفكر في خياراته فيما يتعلق بالهرب أو العمل مع **سيدورينكو** للدخول إلى **السودان**، وربما حتى العودة إلى جناحه في الوقت المناسب لتصفح بعض الوثائق التي تركت هناك لمساعدته على اتخاذ قراره.

دخل **كورت** غرفته المظلمة وضغط على مفتاح الإضاءة. لم يحدث شيء. حفرة قذرة. تنهد تنهيدة خفيفة من الإحباط وتحسس طريقه إلى الأمام، مستخدمًا الإضاءة الخافتة من مصابيح الشارع خارج الستائر المصنوعة من الفينيل. تخطى السرير المزدوج الصغير وفتح الستائر واستدار ليتفحص غرفته.

واجهه خمسة رجال في الضوء الخافت. كانوا كالتماثيل، متمركزين على الجدران، لكنهم جميعًا كانوا على بعد خطوات قليلة من "الرجل الرمادي."

انطلق رد فعل الكر والفر لدى **كورت** في نبضة قلب واحدة، وهاجم. انحنى واندفع نحو الرجل في أقصى يمينه، واصطدم به بينما كانت ذراعا الرجل الضخم تهويان بقوة على مؤخرة رأس **كورت** .اصطدما بالجدار معًا. رفع **جينتري** ساقه اليسرى لتوجيه ركلة إلى منطقة الفخذ لمن سيهاجم بالتأكيد من الخلف. أصابت الركلة الجزء الداخلي من الفخذ، لم تكن ضربة معوقة، وبينما كان يرفع راحة يده اليمنى بقوة لتوجيه لكمة صاعدة مفتوحة اليد على الرجل الذي يعانقه، شعر بجسد يطير في الهواء ويصطدم به بقوة من اليمين. ارتطمت راحة **كورت** بوجه الرجل الأول في نفس اللحظة التي استدار فيها بعيداً، وسقط على السرير على ظهره، وشعر برجلين آخرين يمسكان بساقيه ويثبتانهما.

بذراعه الحرة الوحيدة، وجه لكمة عنيفة إلى الضفيرة الشمسية لرجل كان يتحرك نحوه. شعر بوجود سترة من الكيفلار تحت ملابسه الداكنة وأدرك أنه لم يلحق به أي ضرر.

بينما كان يكافح ويقاتل، أدرك بوضوح أن الرجال الذين يهاجمونه كانوا أكفاء. لا، بل كانوا بارعين للغاية. كانوا سريعين وأقوياء ومدربين جيداً. والأهم من ذلك، أنهم عملوا معًا ولم يصرخوا أو يذعروا وهم يقاتلونه. تمكن من توجيه ضربة قوية بمرفقه إلى جانب رأس رجل أصغر حجمًا، مما أدى إلى ارتطامه بلوح السرير الأمامي ثم سقوطه على الأرضية الخشبية. لكن الآخرين ملأوا الفجوة التي تركها رفيقهم الجريح في لحظة، وثقل أجسادهم يثبت أطرافه على السرير بينما كان يصارع بيأس للتحرر.

نظر إلى يساره، فرأى أحد الرجال قد أحضر شيئًا من مكان ما في الظلام واقترب الآن بثقة حذرة. رأى **كورت** اللمعان الحاد لمعدن رقيق، وقطعة قصيرة من البلاستيك الشفاف. حتى في الضوء الضئيل تعرف على شكل الحقنة. اقتربت الإبرة، وأي مادة لزجة ضارة كانت

مملوءة بها كانت في طريقها إلى مجرى دمه ما لم يتمكن من إيقاف الرجل الذي يحاول غرزها في جلده.

على الفور، قرر **جينتري** أن هؤلاء هم ضباط العمليات شبه العسكرية في قسم الأنشطة الخاصة بوكالة المخابرات المركزية، فريق ميداني كامل، وأدرك أنه في ورطة عميقة. كان هناك أمر بتصفيته. لقد تفاداهم لسنوات، لكنهم وجدوه الآن.

كان لا بد أن يحدث ذلك عاجلاً أم آجلاً.

أرخى **كورت** ذراعه اليسرى للحظة، مانحًا الرجل الذي يثبتها لحظة راحة من الصراع. نجحت الحيلة، وأطلق **جينتري** ذراعه للأسفل، تحت قبضة الرجل وإلى جانبه. من هنا كانت حرة، وأطلق لكمة شرسة على وجه حامل الإبرة. ارتد رأس حامل الإبرة إلى الخلف، وأسقط الحقنة وهو ينثني على ساقيه ويمسك أنفه، لكن العميل الذي يثبت ساقه اليسرى مد يده والتقط الأداة من على الأرض، وغرز طرفها في فخذ **كورت**، وضغط على المكبس بينما حاول **جينتري** وفشل في تحرير نفسه بالركل.

"اللعنة "!صرخ **كورت**، دون أن يعرف بماذا تم حقنه ولكنه أدرك أنه، بغض النظر عما يفعله الآن، فقد خسر المعركة للتو.

توقف عن الحركة على الفور. لم يكن هناك فائدة. كان في حكم الميت.

دخل رجل سادس الغرفة ـــــ ببطء، ولكن بخطى واثقة لا تخطئها العين. حاول **كورت** التركيز عليه، لكنه شعر بالفعل بأن المخدر بدأ يسيطر على جهازه العصبي المركزي. أيًا كان ما أعطوه إياه، فقد كان قويًا؛ لقد عمل مع السموم والمخدرات المعوقة بما يكفي ليعرف أنه قد تم حقنه بمهدئ قوي وفعال. استرخت عضلاته؛ شعر وكأن جسده يذوب في الفراش.

انحنى الرجل الجديد في الغرفة فوقه بينما ابتعد الآخرون. سقط اثنان من الخمسة الأصليين؛ أما الثلاثة الآخرون فكانوا يعتنون بهدوء بإصابات زملائهم، بينما كان الزائر الجديد للغرفة المظلمة ينظر إلى **كورت** بفضول. حاول **جينتري** التركيز على الرجل، ومقاومة التشويش المتزايد من المخدرات في دمه. للحظة، ظن أن الوجه يبدو مألوفًا، لكن موجة من الدوار أزالت الصورة من ذهنه.

تحدث الرجل الذي فوقه" .**أهلاً، كورت."**

من خلال الضباب، عرف **جينتري** الصوت بطريقة ما. أمسك الرجل بخدي **كورت** وقرصهما حتى انفتح فمه. سال اللعاب من فمه متجاوزًا لسانه البارز ونزل على ذقنه.

"عشرون ثانية ويفقد وعيه"، قال الرجل الذي فوقه للرجال الواقفين حوله. ثم أعاد انتباهه إلى **جينتري"** .**متوقع. كنت أعلم أنك ستتسلل خارج الفندق وتأتي إلى هنا. ألم تتعلم أي حيل جديدة للسفر في السنوات الثماني الماضية؟** "ابتسم" .**لسوء حظك، تذكرت هذه الحفرة القذرة بالصدفة."**

استدار مرة أخرى إلى زملائه" .**لم يكن سييرا ستة يومًا أوفر الرجال حظًا. كنا نقول إن كورت جينتري لو تاجر في الأكفان لما مات أحد."**

سييرا ستة؟

بينما شعر **كورت** بنفسه يغوص في الظلام، تحرك فمه المخدر، وهمس بكلمة واحدة قبل أن تنطفئ الأنوار تمامًا" .**زاك؟."**

الفصل التاسع

"أتذكرني، أليس كذلك يا جنتري؟"

لم يكن **جنتري** يتذكر حتى أن اسمه هو **جنتري** .كانت عيناه مفتوحتين تماما عندما استعاد وعيه، وتساءل عما إذا كان واعيا لبعض الوقت أم أنه أفاق للتو. لم يكن ميتا، من هذا كان متأكدا، على الرغم من أن البقية كانت غير واضحة. ثم شعر بالبرد، ونظر إلى صدره العاري وملابسه الداخلية، ليجد نفسه جالسا على كرسي. أحاطت به أربعة جدران، وكان معصماه مقيدين خلف ظهره. رأى أربعة رجال يقفون حوله، فوقه، وشعر بعدائهم، لكن كان من الصعب التركيز على وجوههم، فالمخدرات ما زالت تسري في جسده. في تدريبه في برنامج تطوير الأصول المستقلة السري التابع لـ**وكالة المخابرات المركزية** في **هارفي بوينت، نورث كارولينا**، تم حقنه أو تبليعه أو تشميمه ما يقرب من خمسة وعشرين مادة مغيرة للمزاج لاختبار وتحسين براعته وخفته وقدرته المعرفية تحت تأثيرها. حتى أنه نجح ذات مرة في تسلق سلم حبلي من ثلاثة طوابق وفتح قفل بينما كان مخدرا تماما بعقار الفيرسيد، على الرغم من أنه لم يتذكر أداءه للتمرين بعد عشرين دقيقة. لقد تعلم الكثير عن المواد الأفيونية والمخدرات الأخرى في تدريبه، ولكن كل ما يمكنه قوله الآن على وجه اليقين هو أنه كان في ورطة كبيرة.

في ومضة، أدرك أنه لم يتناول أي حبوب قوية منذ ما يقرب من ثلاثة أسابيع وبدا أنه تغلب على إدمان مسكنات الألم الذي كان يعاني منه منذ شهور في جنوب **فرنسا** .الآن تساءل عما إذا كان إجبار هذه المخدرات على دخول مجرى دمه سيلغي كل العمل الذي قام به لتجاوز مشكلته.

بالطبع، قدر أنه إذا فعل أحد هؤلاء الرجال ما كان من المفترض أن يفعله وأطلق رصاصة في دماغه، فسيتم حل المشكلة في وقت قصير.

الموت يحل كل المشاكل.

تراجع ثلاثة من الرجال الأربعة عبر باب صغير في الغرفة، تاركين فقط من تحدث. قال الرجل الواقف" :**انتظر لحظة. لقد أوقفنا عنك المحلول قبل بضع دقائق. ستفيق في لمح البصر. أخبرني عندما أكون مسموعا بصوت عال وواضح، حسنا يا صاح؟"**

عرف **كورت** الصوت قبل أن يعرف الوجه. قاوم المخدرات، هز رأسه ليزيل خيوط العنكبوت. رمش بقوة. ثم عرفه. تجعدت عيناه. أمال رأسه" .**ألم أقتلك ذات مرة؟"**

"كلا يا كورت. لماذا قد تقتلني؟ كان لدينا سوء تفاهم بسيط في الماضي، لكن لا شيء كبير".

"هايتاور. زاك هايتاور"، قال **كورت** اسم الرجل كما لو أن الرجل نفسه لا يعرفه. لم تخرج كلمات **كورت** من لسانه بالوضوح الذي قصده.

سأل الرجل الواقف" :**هل أنت مصاب؟"**

"لا... كلا".

"دعني أصلح ذلك. الآن انتبه جيدا يا صاح. لقد انتظرت أربع سنوات لهذه اللحظة. سأكره حقا أن تفوتها ".فرقع أصابعه أمام وجه **جنتري**" .**هل ما زلت معي؟ ممتاز. الآن... هذه من أجل بول لينش "**.لكم **هايتاور جنتري** في فكه.

سقط **كورت** من الكرسي على الأرض مع انفجار نجمي باهر في عينيه.

قال **كورت"** :**اللعنة"!**

قال **زاك"** :**اللعنة ."!**نظر **كورت** إلى الأعلى ورأى الرجل الآخر يمسك بقبضته، متألما بشكل واضح. لعق **كورت** شفته السفلى وبصق دما. سحب **زاك** شعره ليعيده إلى الكرسي. كانت حركات **جنتري** بطيئة بسبب المخدرات، لكن اللكمة قطعت شوطا طويلا نحو تركيز حواسه.

"وهذه، يا كورت، من أجل دينو ريدوس ".ضرب **هايتاور كورت** مرة أخرى في وجهه.

سقط **جنتري** مرة أخرى على الأرض، وشعر بعينه اليسرى تتورم على الفور، وسمع **هايتاور** يسب مرة أخرى من الألم.

بعد لحظة قال **كورت"** :**ريدوس حاول قتلي! كلكم فعلتم"!**

"أغلق فمك اللعين يا جنتري! لم ننته هنا بعد"!

تدحرج **كورت** ليصبح على ركبتيه، صارع توازنه للحظة، ثم صعد مرة أخرى إلى الكرسي دون مساعدة **زاك** .كانت عينه اليسرى قد أغلقت بالكامل تقريبا، والدموع تنهمر وتزيد من تشويش رؤيته" .**هو، لينش، مورغان، أنت، أنتم يا رفاق هاجمتموني! ماذا كان من المفترض أن أفعل بحق الجحيم؟ فقط أدعكم تقتلونني؟"**

قال **هايتاور"** :**كان ذلك ليكون مفيدا. زوجة كيث مورغان كانت ستقدر ذلك بالتأكيد" .**
حطم **هايتاور** يده اليسرى في رأس **كورت** .لم تكن بنفس القوة هذه المرة، لكنه هز يده مرة أخرى ليبردها بعد الاصطدام.

ترنح **كورت** لكنه حافظ على مقعده هذه المرة. بصق ملء فمه دما على الأرض وقال" :**من المؤسف أن لديك أصدقاء أمواتا حثالة أكثر من قدرة يديك علي تحمل المزيد من اللكم".**

"لقد كانوا أصدقاءك أيضا يا كورت! قبل أن تقتلهم "!قبض **هايتاور** يده اليسرى مرة أخرى، وتراجع ليوجه لكمة أخرى.

صاح **كورت"** :**هيا! أنا أعرف بشأن أمر التصفية! إنه إطلاق نار فور الرؤية! إذا واصلت ضربي هكذا، فسنبقى هنا طوال الليل اللعين! أخرج مسدسك وقم بعملك الملعون"!**

أبقى **زاك** قبضته عالية فوق وجه **جنتري** .ثم ببطء انخفضت القبضة. اشتد فكه. أومأ ببطء. مد يده خلف ظهره وسحب مسدسا دوارا قصير الفوهة مطليا بالنيكل من حزامه.

أرجح **زاك** المسدس وضغطه على جبين **كورت جنتري** في حركة واحدة.

رمش **كورت**، ارتعش خداه، لكنه نظر بعد ذلك إلى **زاك**، إلى أعلى فوهة المسدس الصغيرة. كان صوته خافتا" .**الأفضل أن تخبرني بالسبب. ما الذي سيضير الآن؟"**

تجاهل **زاك** السؤال، فقط أبقى المسدس ثابتا على رأس **جنتري** لمدة خمس، عشر، عشرين ثانية. ثم قال" :**فقط لكي تعلم. مهما حدث بعد هذا يا سييرا ستة... لبقية حياتك. كل شيء من الآن فصاعدا... هو هدية مني "**.بنظرة قاسية في عينيه خفض المسدس، وأعاده إلى أسفل ظهره.

أزال **كورت** برمشة عين حبة عرق كانت قد تسللت إلى عينه اليمنى.

وضع **زاك** يديه على وركيه، وما زال ينظر إلى سجينه. من خلال أنفاس ثقيلة ناتجة عن النشاط البدني للضرب وشدة اللحظة، سأل" :**هل اشتقت لي يا كورت؟"**

رمش **كورت** مرة أخرى. قال بتردد" :**مثل ثقب في الرأس".**

ابتسم **زاك** بسخرية" .**يمكن ترتيب ذلك بسهولة".**

دون كلمة أخرى، غادر **هايتاور** الغرفة، مما أتاح لـ**كورت** فرصة لتهدئة أعصابه قليلا وتقييم محيطه. قرر على الفور من الطلاء الأبيض السميك والأثاث المتواضع للمساحة الصغيرة أنه على متن قارب. بالقرب من غرفة المحرك، كما خمن، من الطنين في الجدران. لم يستطع الشعور بحركة الماء، لكنه كان يعلم أن توازنه قد اختل في الوقت الحالي، لذلك لم يكن ذلك يعني الكثير.

عاد **هايتاور** بكيس بلاستيكي شفاف مليء بالثلج وسكين خدمات صغير. وقف خلف كرسي **كورت**، وبحركة واحدة متمرسة، قطع الأصفاد البلاستيكية التي كانت تقيد معصمي **كورت** .ثم أمسك **زاك** بكرسي آخر من الردهة، وجره عبر الأرض بصوت صرير مؤلم، وجلس في مواجهة **جنتري**، وألقى كيس الثلج في حجر سجينه. وضعه **كورت** على الفور على عينه وشفته لتخدير الألم المتزايد هناك.

تفحص **جنتري** الرجل بعينه اليمنى. لقد مرت أربع سنوات منذ أن عملا معا آخر مرة في وحدة "جولف سييرا" التابعة لـ**وكالة المخابرات المركزية**، والمعروفة بشكل غير رسمي، لأولئك القلائل الذين يعرفونها على الإطلاق، باسم "فريق البلطجية". كان **هايتاور** هو "سييرا واحد"، قائد الفريق. وكان **جنتري** "سييرا ستة"، الأصغر والأقل رتبة في الفريق، ولكنه دائما أول من يدخل من الباب.

كان **هايتاور** يبلغ الآن الخامسة والأربعين تقريبا، لكن عينيه كانتا لا تزالان ساطعتين وزرقاوين كعيني طفل رضيع. كان نحيلا كالشفرة ومربع الفك. كانت قصة شعره عسكرية كلاسيكية قصيرة من الجانبين وطويلة من الأعلى؛ تومض الآن بقع فضية في شعره الأشقر الرملي. كان طوله ستة أقدام وبوصة ووزنه مئتي رطل، ليس منها أونصة واحدة من الدهون الزائدة. كان يتحرك بثقة، ويمشي وصدره العريض يقود الطريق. كان **كورت** يعلم أن **زاك** ولد وتربى في تكساس، وانضم إلى البحرية بعد أن لعب البيسبول في الكلية، وأمضى عقدا في فريق "سيل ستة" الأسطوري قبل أن ينضم إلى قسم الأنشطة الخاصة في **وكالة المخابرات**

المركزية كضابط عمليات شبه عسكرية. كان **زاك** ذكيا وصلبا وواثقا من نفسه، وساحرا بشكل استثنائي مع السيدات، وشعبيا مع الرجال.

باختصار، جندي "سيل" نموذجي.

"كيف حالك؟ "سأله **هايتاور** وهو ينظر إلى إصابته، يد متورمة عند المفاصل. فكر **كورت** لفترة وجيزة في القفز من الكرسي وطعن قصبة الرجل الأضخم الهوائية، لكنه كان يعلم أن المخدرات في جسده ستظل تبطئ ردود أفعاله. لم يبد **زاك** قلقا من هجوم **كورت**، وظن **كورت** أن **زاك** سيعرف أفضل منه ما الذي لا يزال يضخ في مجرى دمه.

"أيام أفضل من أيام أخرى، على ما أعتقد".

"الإشاعات تقول إنك تبلي بلاء حسنا. لقد نفذت ما بين ثلاث إلى خمس عمليات في السنة على مدى السنوات الأربع الماضية. في كل مكان. ويقال إنك تجني أموالا جيدة. لانغلي تعتقد أنك قتلت كلا الأخوين أبو بكر، أحدهما في سوريا والآخر بعد بضعة أسابيع في مدريد. المخابرات الفرنسية تقول إن شخصا يطابق وصفك العام فجر نصف أوروبا الناطقة بالفرنسية في ديسمبر الماضي. حتى الأوكرانيون يركضون قائلين إنك فعلت تلك القذارة في كييف. لم تفعل، أليس كذلك؟"

"لا تصدق كل ما تسمعه. كيف وجدتموني يا رفاق؟"

هز زاك كتفيه" .**التقط نظام إيكيلون[4] بعض حركة الهواتف المحمولة من بلطجية سيدورينكو. لديهم اسم رمزي لك، على ما أعتقد، لكن أحد الحمقى المغفلين أشار إليك بـ 'سيري موجتشينا' على خط مفتوح".**

[4] **نظام إيكيلون :(ECHELON)** هو نظام مراقبة عالمي ضخم تديره الولايات المتحدة بالتعاون مع المملكة المتحدة وكندا وأستراليا ونيوزيلندا .يُستخدم لاعتراض الاتصالات الإلكترونية مثل المكالمات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني والفاكسات من جميع أنحاء العالم وتحليلها.

""الرجل الرمادي""، ترجم كورت بتنهيدة محبطة" .رائع".

قال زاك بسخرية" :عباقرة لعناء هؤلاء الأيفانات. قالوا إنك ستأتي لرؤية الزعيم اليوم. أرسلت وكالة الأمن القومي الخبر إلى لانغلي؛ مررتها لانغلي إلي".

أومأ كورت" .إنه إطلاق نار فور الرؤية يا زاك. هل خدرتني فقط لتحضرني إلى هنا وتصفعني أولا؟"

"كلا، أمر إطلاق النار فور الرؤية معلق رسميا، على الأقل بينما نجري أنا وأنت مناقشة صغيرة. أما الضرب؟ فهذا أمر شخصي".

"هل تسمي ذلك ضربا؟"

"ومن قال إنني انتهيت؟"

تقطبت حواجب كورت البنية" .في فرجينيا. أطلقت عليك النار، من مسافة قريبة. عيار أربعة وأربعين. رأيتك تسقط للخلف من نافذة. طابقين إلى الأسفل".

ابتسم زاك .مثل الضبع، ابتسم لكنه لم يبد سعيدا" .لا تذكرني. سترتي امتصت الطلقة، لكنني سقطت بقوة لعينة على وحدة تكييف هواء. كسرت حوضي في مكانين. عظمة الترقوة وبضعة أضلاع زيادة في الخير ".تجهم زاك كما لو كان يتذكر الحدث، حتى خطر بباله شيء ما. أضاف" :لم أعرف أبدا أنك تحمل مسدس ديرينجر".

"لم يكن هناك سبب لذكره. من الجيد أنني لم أفعل".

هز زاك كتفيه" .يعتمد على وجهة نظرك. لأقول لك الحقيقة، كنت سأحب أن أعرف عنه".

"إذن لماذا كنتم هناك يا رفاق؟ ماذا فعلت؟"

هز **زاك** كتفيه، وكأن الإجابة واضحة" .**أمر تصفية من جهات عليا. أنت تعرف كيف تسير الأمور".**

"لا. في الواقع، لا أعرف. ما الخطأ الذي ارتكبته بحق الجحيم يا زاك؟ "كان صوت **كورت** متوسلا.

هز **هايتاور** كتفيه مرة أخرى" .**لا أعرف. أنا مجرد نحلة عاملة. تلقيت أمر التصفية بحقك، وذهبت إلى العمل في ذلك اليوم، تماما مثل أي يوم آخر".**

"هراء. لقد أعطوك سببا".

"يا فتى، متى احتجت سببا لاتباع أمر ما؟ أنا لست مثلك، كل همك التأمل والتفكير في الذات. أنا أقوم بعملي اليومي القذر بابتسامة على وجهي".

كان **كورت** متأكدا من أن قائد فريقه السابق كان يكذب؛ لن يأمر أحد في **وكالة المخابرات المركزية** قائد فريق ميداني في قسم الأنشطة الخاصة بتصفية رجله دون أي تفسير، لكنه قرر أن يترك الأمر" .**الرجال، الرجال الذين كانوا معك والذين هاجموني الليلة، هل هم فريق البلطجية الجديد الخاص بك؟"**

"إلى حد ما. ليس 'جولف سييرا' بل 'ويسكي سييرا'، لذا ما زلت 'سييرا واحد'. من الناحية البيروقراطية، نحن منظمون بشكل مختلف عن العصابة القديمة. المهمة وقواعد الاشتباك أكثر تقييدا هذه الأيام. لكنها نفس الفكرة بشكل أساسي. طاقمي الجديد يتكون من اثنين من جنود 'سيل' السابقين، وعنصر سابق من 'دلتا'، ورجلين من القوات الخاصة انتقلا إلى عمليات السي آي إيه السوداء منذ زمن بعيد. مجموعة جيدة جدا، ولكن بالتأكيد ليست

من عيار كورت جنتري. ستظل دائما أفضل من يقتحم الأبواب لدي ".ابتسم" **.لقد أذيت تود بشدة: أنف مكسور وفك مخلوع".**

رد **كورت" :آسف"**، لكنه لم يكن يعنيها.

"هذه الأمور تحدث ".هز **زاك** كتفيه. من الواضح أنه لم يكن يعنيها هو الآخر.

"إذن لماذا أنا هنا؟"

مد **زاك هايتاور** يده نحو كيس الثلج، وأخذه من وجه **جنتري**، ولفه حول قبضته المتورمة .
"عبود. الرئيس بكري علي عبود".

الفصل العاشر

"وماذا عنه؟"

"ستذهب لتصفيته في عملية لصالح سيد."

لم يرَ **كورت** أي جدوى من التظاهر بالغباء. إذا كانت وكالة المخابرات المركزية (CIA) تعرف كل هذا، فمن المحتمل أنها تعرف تفاصيل أكثر عن عملية **سيد** في هذه المرحلة أكثر مما يعرفه **جينتري** نفسه" .**لم أوافق على أي شيء**."

"أجل، حسنًا، ستوافق. نحن نريد منك أن تفعل ذلك."

"وما الذي يجعلك تعتقد أنني أهتم بما تريد؟"

"فقط استمع لعرضي يا فتى. إما هذا أو أمر التصفية، فلمَ لا؟"

سحب **كورت** كيس الثلج مرة أخرى، ووضعه في مكان أدنى، تاركًا عينه المتورمة مكشوفة ولكنه هدّأ الألم المتزايد في شفته. قال من خلف الكيس" :**أنا أستمع**."

انحنى **هايتاور** إلى الأمام" .**إليك تقرير الموقف يا فتى** ."كان **جينتري** يبلغ من العمر ستة وثلاثين عامًا، لكن **هايتاور** كان يناديه بـ"فتى" منذ أول يوم التقيا فيه، قبل ثماني سنوات .
"نريدك أن تقبل مهمة سيدورينكو، وأن تستخدم الروس للدخول إلى السودان. لديهم عملية محكمة لإدخالك، أفضل من أي شيء يمكننا تدبيره دون استخدام وسائل النقل والأصول اللوجستية للوكالة، وهو أمر غير مسموح لنا بفعله."

"وبعد ذلك؟"

"بعد ذلك تتصرف وكأنك ستصفي عبود، ولكن في اللحظة الأخيرة، نريدك أن تختطفه."

"أختطفه؟"

"بالضبط ."

"وبعد ذلك؟"

"بعد ذلك تسلمه لي ولرجالي. سنكون في الموقع، بعيدًا عن الأنظار ولكن على مقربة. تسلمه لنا وتنسحب عبر الماء مع فريقي."

"لماذا تريد الولايات المتحدة عبود؟ واشنطن تريد إنهاء مسألة دارفور بقدر ما يريد أي شخص آخر، وعبود هو المسؤول الوحيد عنها تقريبًا."

"أجل، هو كذلك، لكن الرئيس ورجاله يريدون إرسال عبود إلى المحكمة الجنائية الدولية(ICC) ؛ يريد أن يسلمهم عبود على طبق من ذهب. هناك مذكرة توقيف من المحكمة الجنائية الدولية بحقه منذ ثلاث سنوات."

"أعلم. لكن تصفيته ستنجز الأمر بشكل أسرع وأنظف، ودون أي عواقب على وكالة المخابرات المركزية .كان بإمكانكم أن تتركوني أنفذ الضربة لصالح الروس."

ضحك زاك" .أعلم يا كورت. وصفتك لأي مرض هي جرعة مضاعفة من الرصاص في الرأس. لكنه عصر جديد في العاصمة واشنطن يا صاح. الرئيس وطاقمه في البيت الأبيض مهتمون بتلطيف الأجواء مع أوروبا، وتعزيز المؤسسات الدولية وكل تلك التفاهات. يريدون أن ينسبوا الفضل لأنفسهم."

لم يستطع كورت تصديق ما يسمعه" .لا بد أنك تمزح. البيت الأبيض يريد حقًا إنقاذ حياة عبود ليتم تسليمه للأوروبيين؟"

هز زاك كتفيه" .الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك. خذ وهات، ومقايضة، ومجموعة من العبارات الأخرى التي لا أتقاضى ما يكفي لفهمها ولكن... بشكل أساسي... نعم."

هز كورت رأسه، "ليست كالأيام الخوالي، هاه؟"

"أجل، أليس كذلك؟ قبل خمس سنوات كنا نصفي من نحتاج إلى تصفيته. إلى الجحيم بالمحكمة الجنائية الدولية . اسمع، أنا أتفق معك؛ يبدو هذا عملاً كثيرًا لمجرد تسليم الرجل إلى الأمم المتحدة اللعينة أو أيًا كان، لكن شخصًا ما في لانغلي أقنع شخصًا ما في البيت الأبيض، الذي أقنع الرئيس، بأن لدينا طريقة مضمونة للقبض على عبود وتسليمه إلى المحكمة الجنائية الدولية دون أي تبعات علينا إذا لم تسر الخطة كما هو مخطط لها."

"وهذه الطريقة هي أنا"، قال كورت.

"بالضبط. كل وكالة استخبارات محترمة تعرف أن وكالة المخابرات المركزية تريد الرجل الرمادي ميتًا. وهذا يجعلك مثالاً للإنكار المقبول. إذا ساءت هذه الصفقة، فلن تبدو كعملية لوكالة المخابرات المركزية."

"هل كانت هذه فكرة وكالة المخابرات المركزية ؟"

"مئة بالمئة. قسم الأنشطة الخاصة (SAD)[5] كان هادئًا جدًا أكثر مما يروق لنا. طائرات وكالة المخابرات المركزية والطائرات العسكرية بدون طيار تحوم على ارتفاع ثلاثين ألف

---

[5] قسم الأنشطة الخاصة :(SAD – Special Activities Division) هو أحد أقسام وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA)المسؤول عن تنفيذ العمليات السرية والعمليات شبه العسكرية .، ويتم اختيار أعضاؤه غالبًا من وحدات القوات الخاصة العسكرية السابقة مثل قوات "سيل (SEALs) "وقوة "دلتا(Delta Force) "

قدم، وتقضي على الأشرار يمينًا ويسارًا بصواريخ هيلفاير، لكن فرق العمليات شبه العسكرية مثل فريقنا تجلس مكتوفة الأيدي. لقد قيّد البيت الأبيض كل ما نفعله. حتى نظام تدريبنا تضرر. نحن لا نقتل الإرهابيين، ولا نعمل في البلدان الصديقة، ولا نمسح مؤخراتنا إلا إذا استخدمنا ورق تواليت فائق النعومة. قسم الأنشطة الخاصة بحاجة إلى المضي قدمًا في هذه العملية، ليُظهر للرئيس أن مجموعة العمليات الخاصة التابعة للقسم لا تزال قادرة على أن تكون فعالة في ظل وكالة مخابرات مركزية أكثر لطفًا ورقة. أنت وكيلنا يا فتى؛ ستتحمل المخاطر، ستسلمنا عبود، وسنسلمه نحن إلى وزارة العدل، وسيسلمونه هم إلى محكمة جنائية دولية ممتنة. الرئيس وأتباعه المتجنبون للمخاطرة سيعطون قسم الأنشطة الخاصة المزيد من العمل إذا رأوا كيف يمكننا أن نجعل أصدقاءه الأوروبيين الناعمين يشعرون بالدفء والرضا من خلال إعطائهم عبود مع شريط هدايا. لا توجد طائرة مسيرة (UAV) يمكنها اختطاف شخص ما. على الأقل، ليس بعد."

"وماذا عن سيدورينكو؟"

"إذا نجحنا، سيعتقد سيد أننا قمنا بتصفيتك وأننا اختطفنا عبود في نفس العملية. أنت لا تريد أن تعمل مع ذلك السايكوباتي مصاص الكافيار لفترة أطول، صدقني. حتى بالمقارنة مع بقية المافيا الروسية، فإن جريج سيدورينكو وأتباعه النازيين مجانين تمامًا."

أمال كورت رأسه إلى الجانب" .إذا كنتم ستتواجدون في مسرح العمليات للتسليم، فكيف ستضمنون عدم وجود أي تبعات على وكالة المخابرات المركزية ؟"

لوّح زاك بيده" .تفاصيل. سنتوارى عن الأنظار، وسنقضي معظم وقتنا في المياه الدولية، وندخل بسرعة لتنفيذ العملية. ستقوم أنت بالعمل الشاق، وسندعمك. لدى محطة وكالة المخابرات المركزية في السودان مخبر في سواكن يعرف جدول عبود لرحلته إلى هناك.

هذا الرجل مشارك في التخطيط للطوارئ لأي حالة طارئة؛ إنه يعرف أوامر العمليات لحراس الرئيس الشخصيين وتكتيكاتهم."

"وكيف يساعدني ذلك؟"

ابتسم زاك" .لدى فريق الأمن بروتوكول لهجوم عندما يقوم الرئيس بمسيرته الصباحية إلى المسجد. إذا كان هناك تهديد أثناء وجودهم في الساحة أمام المسجد، فإنهم يأخذون عبود إلى البنك المحلي ويحبسون أنفسهم في الخزنة حتى وصول المساعدة."

"وأظن أن لديك طريقة لجعلهم يعتقدون أن هناك نوعًا من التهديد؟"

"محطة السودان لديها. لديهم قوة من مئة متمرد من جيش تحرير السودان يخططون لضرب سواكن في السادسة وخمس وثلاثين دقيقة صباح يوم الأحد، العاشر من أبريل. بالضبط عندما يصل عبود وحاشيته إلى الساحة. سيدخل الرئيس وبعض من فريق حمايته المقرب إلى البنك، والذي سيظنون أنه فارغ ."

"لكنه لن يكون فارغًا."

ابتسم زاك وأومأ برأسه بقوة، "أصبت. ستكون أنت هناك، مستعدًا لتعطيل قوة الحراسة واختطاف عبود، وإخراجه من المدينة بينما يقوم جيش تحرير السودان بتفجير بعض الأشياء والقفز هنا وهناك لبضع دقائق، مما يشتت انتباه السكان المحليين وبقية فريق عبود. ثم تلتقي بي للتسليم ."كان من الواضح أن هايتاور كان متحمسًا للعملية؛ لم تتوقف يداه وجسده عن الحركة منذ أن بدأ شرحه.

جلس كورت هناك بصمت للحظة، ثم سأل" :هل هذا هو الجزء الذي يفترض أن أبدأ فيه بالتصفيق؟"

"هذه خطة جيدة يا سييرا ستة. عملية 'نوكتورن سافاير'، هذا ما نسميها."

"لقد سرت قشعريرة في ساقي"، قال كورت بسخرية، لا يزال غير متأثر بحماس زاك.

"لكن الجزء الأفضل هو الصفقة التي فُوضت لي لأعرضها عليك."

نظر جينتري إلى قائد فريقه السابق لفترة طويلة قبل أن يتكلم" .وكالة المخابرات المركزية تريدني جثة هامدة منذ أربع سنوات. أي نوع من الصفقات يمكنك أن تعرضها وتهمني؟"

"سيتم تبرئتك ، بدايةً. سنسحب الكلاب. ليس فقط وكالة المخابرات المركزية، بل والإنتربول أيضًا."

"الإنتربول لا يخيفني."

"أعلم أنهم لا يفعلون. أنت لا تخاف بسهولة. لم تكن كذلك قط. لكنني أعرف ما الذي يخيف الرجل الرمادي."

"ما الذي يخيفني يا زاك؟"

"نحن نخيفك. ألا تود أن تتحرر منا؟ أن تتحرر من عقوبة إطلاق النار فور رؤيتك؟ أعرف كيف هي حياتك يا صاح. يتحدث الناس عن الرجل الرمادي وكأنك نوع من جيمس بوند المبهرج، تتنقل حول العالم، وتحتفل في أفضل النوادي، وتشرب المارتيني مع الأشخاص الجميلين على شاطئ الريفييرا الفرنسية. لكنني أعرف كيف هي حقًا: العيش هاربًا، والتنقل من بلدة قذرة إلى أخرى، لا أحد يحبك، لا أحد معجب بك، لا أحد يعرفك بحق الجحيم. دائمًا تبحث في الظلال عن مجانين مثلي يطاردونك. تأكل الفاصوليا من علبة في بئر سلم في فندق رخيص موبوء بالصراصير بينما يتناول حشد المتأنقين ذوي البدلات الحقيقية عشاء جراد البحر في فندق فور سيزونز القريب."

لم تكن هناك كلمات أصدق من هذه قد قيلت، لكن **كورت** لم يكن على وشك أن يمنح **زاك** الرضا بالاعتراف بأنه على حق.

"أنا أحب الفاصوليا."

"لا، أنت لا تحبها. أنت لا تحب أيًا من ذلك، باستثناء العمل. العمل هو أنت. الباقي مجرد مأزقك المؤقت اللعين. أعرف الحقيقة يا سييرا ستة. كونك الرجل الرمادي أمر مقرف."

"إذن دعني أخمن. أنت هنا لتخرجني من كل ذلك؟"

"بالتأكيد. يمكنني أن أبقيك في العمل، لكن لن تتم مطاردتك بعد الآن، على الأقل من قبلنا."

"في العمل؟ أعمل لمن؟"

"وكالة المخابرات المركزية ، بالطبع ."مد **زاك** يده وأمسك بوجه **كورت** من ذقنه، وأداره من جانب إلى آخر" .**ظننت أننا قد غطينا ذلك للتو. ماذا، هل ضربتك بقوة أكثر من اللازم؟** "أخذ كيس الثلج من **جينتري** وأعاده إلى يده.

قال **كورت**" :**أقوم بهذه المهمة في السودان من أجلك، ولكن بعد ذلك، هل تعرض عليّ عملاً بدوام كامل؟ كأن السنوات الأربع الماضية لم تحدث؟ كل شيء يعود إلى ما كان عليه في الأيام الخوالي؟"**

"بالطبع لا. أنا أعرض عليك عملاً بعقود. يبقي أيدي لانغلي نظيفة، ويدفع أفضل بكثير من راتب حكومي حقيقي ."ابتسم" .**نريدك أن تعود** ."ثم هز كتفيه" .**حسنًا، دعني أعيد صياغة ذلك. أنا لا أتحدث عن مكتب وموقف سيارات محجوز في لانغلي. هذا لا يحدث**

لأشخاص مثلك. لن تعترف وكالة المخابرات المركزية بالعمل مع الرجل الرمادي. لكن من وقت لآخر نواجه مواقف أسمع فيها الناس يقولون: 'كم أتمنى لو كان سييرا ستة لا يزال هنا، بدلاً من أن يكون في مكان مقفر، ينفذ عمليات اغتيال خاصة للقوادين وتجار المخدرات'. أقسم لك، نفتقدك أحيانًا."

توقف قبل أن يقول" :كنت دائمًا الأفضل. نريدك حيًا يا كورت. تقوم بالأعمال القذرة تحت غطاء زائف."

"وكيف أعرف أنكم لن تقتلوني عندما تنتهي عملية السودان؟"

"لأننا بحاجة إليك. نحن لا نطلب منك أن تذهب لزراعة النرجس في أيوا في برنامج حماية الشهود هنا. نريدك أن تستمر في فعل ما تفعله، تعيش هنا في العراء، وسنحافظ على واجهة أننا ما زلنا نلاحقك. انظر، هذا الشيء في دمك، والوكالة لا تزال تستطيع استخدامك، على الرغم من ورطتك في عام 2006. لن تسمح واشنطن لقسم الأنشطة الخاصة (SAD) بتوسيخ أيديهم هذه الأيام. لكن إذا لعبناها بشكل صحيح، يمكننا أن نجعلك أنت من يوسخ يديه، ويمكننا أن ندعمك. إنه أمر مثالي يا رجل. مثل الكوكايين على مؤخرة عاهرة. هل تفهم ما أقول؟"

هز كورت رأسه ببطء" .ليس حقًا، لا."

"انظر، أنت تتصرف بسخرية، لكنني أعرفك. أنت وطني يا فتى. أنت تتبول أحمر وأبيض وأزرق. البيت الأبيض لديه حاجة، وأنا لدي حاجة، وأنت لديك حاجة. يمكننا جميعًا مساعدة بعضنا البعض ."ابتسم" .الجميع يفوز."

تطرق النقاش إلى العملية المحتملة لعدة دقائق. كان لدى زاك إجابة جاهزة لكل سؤال طرحه جينتري .عندما لم تتبق أي تفاصيل عملياتية أخرى لمناقشتها، استعاد كورت كيس الثلج

من **هايتاور** وضغطه على اللحم المتورم في وجهه. نظر إليه **زاك** بشوق للحظة لكنه لم يمد يده إليه. قال **كورت** من خلف كيس الثلج" :**أحتاج أن أسمع هذه الصفقة من شخص أعلى منك."**

"مثل من؟ "سأل **هايتاور** دون أي مظهر من مظاهر المفاجأة.

"سأكتفي بماثيو هانلي. أظن أن مشرفنا القديم يدير الآن قسم الأنشطة الخاصة(SAD) ، إن لم يكن في منصب أعلى من ذلك."

"مات خارج قسم الأنشطة الخاصة .(SAD) يعمل في وظيفة مكتبية في أمريكا الجنوبية آخر ما سمعت. باراغواي، ربما؟"

لم يخفِ **كورت** حيرته" .**كان يُعتبر النجم الصاعد للعمليات السوداء**[6]**. ماذا حدث؟"**

"أنت حدثت يا أحمق. أن يقوم أحد رجالك الميدانيين بالجنون وإطلاق النار على فريقه لم يساعد في صعوده إلى القمة."

"إذن أنا أُلام على ذلك أيضًا؟"

"التاريخ يكتبه المنتصرون. ربما تكون قد نجوت، نوعًا ما، لكن وكالة المخابرات المركزية لا تزال موجودة لكتابة الرواية الرسمية لما فعلته ولماذا."

فكر **كورت** للحظة. أخيرًا كرر نفسه" :**أحتاج أن أسمع هذه الصفقة من شخص أعلى منك."**

أومأ **هايتاور**" .**لا بأس. ابق مكانك، وسأعود."**

---

[6] **Black Ops عمليات سوداء** : عمليات سرية للغاية تنفذها الحكومات أو وكالات الاستخبارات، غالبًا ما تكون غير قانونية أو غير معترف بها رسميًا.

أُعيدت ملابس **كورت** إليه. ارتدى ملابسه، ثم انتظر.

الفصل الحادي عشر

بعد أكثر من ساعة، عاد اثنان من رجال **زاك** إلى الغرفة التي كان **كورت** محتجزا فيها. كان قد قضى وقته في تدليك وجهه بالثلج. تساءل كيف سيشرح الكدمات الواضحة لزملائه/خاطفيه الروس. قاده اثنان من رجال **زاك**، أحدهما ضخم وأسود والآخر أكبر سنا وأبيض، عبر ممر ضيق ومنخفض، مرورا بأنابيب المياه والبخار، وصعودا على درج ضيق، وإلى غرفة على السطح العلوي. لم يكن رجال **زاك** يحبون **كورت**، كان ذلك واضحا من نظراتهم الحاقدة والطريقة التي كانوا يصطدمون به بأجسادهم المفتولة ليجعلوه يدخل الغرفة الجديدة. أدرك **جنتري** أن إسقاط أحد أفراد فريقهم بضربة قاصمة في الوجه لن يجعله محبوبا لدى هؤلاء الفتيان الأشداء.

لكنه لم يهتم. لم يكن يسعى لتكوين صداقات، حتى لو كانوا سيعملون جميعا معا في المهمة القادمة. هؤلاء الرجال سيكونون محترفين، مثله تماما، وستكون للعملية الأسبقية.

لم يكونوا بحاجة لأن يحب بعضهم بعضا ليؤدوا وظائفهم.

بمجرد أن جلس **كورت** في الغرفة الجديدة، لاحظ شاشة زرقاء على مكتب أمامه. دخل **زاك** بعد لحظة، واضعا هاتفا فضائيا في جعبة على وركه وهو يفعل ذلك.

"حسنا. ستتحدث إلى شخص ما. لقد اطلع على هذه العملية، ويعرف من أنت، ولكن لجميع المقاصد والأغراض، أنت لست عميلا غير رسمي، ولست موظفا في وكالة المخابرات المركزية، ولست موظفا سابقا في وكالة المخابرات المركزية، ولست مواطنا أمريكيا. أنت عميل أجنبي وسيتم التعامل معك على هذا الأساس. سيكون اسمك الرمزي هو إشارة ندائك القديمة في فريق البلطجية، سييرا ستة".

أومأ **كورت**.

"والاسم الرمزي للرئيس عبود سيكون أوريكس".

"ما هو الأوريكس؟"

"اضطررت للسؤال بنفسي. إنه نوع من الظباء الأفريقية أو شيء من هذا القبيل".

هز **كورت** كتفيه. كان هذا النوع من بروتوكول الكلمات الرمزية هو حياته لسنوات عديدة. عندما كان في فريق البلطجية كان "سييرا ستة"، على الرغم من أنه استخدم العشرات حرفيا من الأسماء المستعارة لمهامه. وقبل العمل لصالح **زاك**، عندما كان في برنامج الأصول المستقلة، كان اسمه الرمزي هو "فايوليتور Violator" أو "المنتهك" . كان من المفترض أن يتم اختيار الكلمات الرمزية عشوائيا بواسطة الكمبيوتر، لكن "فايوليتور" بدت دقيقة بشكل غريب. كانت **وكالة المخابرات المركزية** قد أخرجت **جنتري** من سجن في جنوب فلوريدا، حيث كان يقضي عقوبة السجن المؤبد بتهمة القتل الثلاثي من الدرجة الثانية لثلاثة من مهربي المخدرات الكولومبيين، وقدمت له عرض عمل لا يمكنه رفضه.

لم يصدق للحظة واحدة أن الكمبيوتر هو من أطلق عليه لقب "فايوليتور."

توهجت الشاشة أمامه.

ظهرت صورة رجل يرتدي بدلة رمادية وربطة عنق من "بروكس براذرز" بعقدة وندسور كاملة. كان عمره فوق الستين، ونظارات رفيعة منخفضة على أنفه. وجه وهيئة جندي. بعد لحظة قصيرة تعرف **جنتري** على الرجل.

تفاجأ **كورت** .صدم، حتى.

"**سيرا ستة. هل تعرفني؟** "كان صوته حادا ومقتضبا. لم تكن هناك ابتسامة ولا أي نوع من المشاعر.

أجاب **جنتري** على الفور" .**نعم يا سيدي "**.التفت لينظر إلى **زاك** .ابتسم **هايتاور** ورفع حاجبيه، فخورا بوضوح بالنفوذ الذي يمتلكه ليأمر بإجراء اتصال فيديو مع هذا الرجل الآخر.

كان الرجل هو **ديني كارمايكل**، المدير الحالي لدائرة العمل السري الوطنية الأمريكية، ورئيس قسم الأنشطة الخاصة مؤخرا. كان أسطورة في الوكالة، متخصصا في شؤون الشرق الأقصى ورئيس محطة لفترة طويلة في **هونغ كونغ**.

ديني كارمايكل كان، باختصار، الرجل الأول في عمليات **وكالة المخابرات المركزية** .كان **كورت** يعلم أن هذه المهمة كبيرة، لكن هذا النوع من العمل القذر عادة ما يتم دون بصمات كبار المسؤولين في مجتمع المخابرات الأمريكي.

"أفهم أن سييرا واحد قد عرض عليك اقتراحنا بخصوص التسليم الاستثنائي[7] لأوريكس. أنا مستعد لإعادة تأكيد تفاصيل 'نوكتورن سافاير'".'

كرر **كورت"** :**نعم يا سيدي** ."كان هذا كل ما يمكنه التفكير فيه ليقوله. لم يتحدث أبدا إلى أي شخص بهذه المرتبة العالية في السلسلة الغذائية. وجد نفسه شبه منبهر. كان شعورا غريبا، ومضاعفا لأن **كارمايكل** كان من المؤكد أنه أحد الموقعين على أمر إطلاق النار فور الرؤية ضده والذي كان ساريا منذ عام 2006.

عرض **كارمايكل** الخطة العامة التي ناقشها **زاك**، على الرغم من أنه تحدث بعبارات أكثر تلطيفا. سيقوم **كورت** بـ "احتجاز عبود بالقوة"، وليس "اختطافه"كما أمره **هايتاور** .سيقوم بـ

---

[7] **Extraordinary Rendition التسليم الاستثنائي** : عملية نقل الأفراد سرًا (غالبًا المشتبه بهم بالإرهاب) من دولة إلى أخرى، بهدف الاعتقال أو الاستجواب، وغالبًا ما يتم ذلك خارج نطاق الإجراءات القانونية المعتادة.

"تحييد جميع التهديدات من فريق حماية عبود المقرب"، على عكس اقتراح **زاك** بأن "يطلق رصاصة مجوفة أو اثنتين في مخاط أنف كل حارس شخصي".

كان هذا التباين في اللغة العامية تمييزا شائعا بين العمال والإدارة في هذه الصناعة. كان **كورت** معتادا على سماع المزيد من أمثال **زاك** وأقل من رجال مثل **كارمايكل**، لكنه كان يعلم أن النتائج لن تختلف اعتمادا على الصواب السياسي للمفردات المستخدمة. ستكون العملية هي نفسها، بغض النظر عن مدى لطف أو حدة شرحها.

سيموت رجال.

بينما كان **كارمايكل** يتحدث، استند **هايتاور** إلى جدار السفينة، وكان يقوم أحيانا بإيماءة بيد مفتوحة ومغلقة للسخرية من إطناب الرجل على الشاشة. لكن فيما عدا ذلك، حافظ "سييرا واحد" على آدابه.

عندما أنهى **كارمايكل** شرحه للعملية، انتقل إلى الجزء الأكثر أهمية من الصفقة بالنسبة لـ"الرجل الرمادي" ."**إذا فعلت هذا لنا يا سييرا ستة، فإن عمليتنا لتصفيتك ستختفي ببساطة. وهذا يعني أن أي عقوبات أو توجيهات قائمة ضدك داخل الوكالة سيتم إسقاطها. سيتم إلغاء أوامر الاعتقال الحالية عبر الإنتربول. ستتوقف المراسلات الحالية من ضباط اتصال المخابرات المركزية إلى وكالات المخابرات الأجنبية بخصوصك. سيسمح بانتهاء صلاحية طلب وكالة المخابرات المركزية للحصول على معلومات إيكيلون وغيرها من بيانات التنقيب بخصوصك من وكالة الأمن القومي. سيتم تسوية الأطراف الأخرى السائبة. مكتب التحقيقات الفيدرالي، قيادة العمليات الخاصة المشتركة[8]، إدارة الهجرة**

---

8 **قيادة العمليات الخاصة المشتركة :(JSOC - Joint Special Operations Command)** هي قيادة تابعة للجيش الأمريكي مسؤولة عن دراسة وتطوير وتنفيذ متطلبات وتكتيكات العمليات الخاصة لجميع أفرع القوات المسلحة الأمريكية .تشرف على وحدات النخبة مثل قوة "دلتا" وفريق "سيل ستة."

والجمارك، وزارة التجارة... لن تكون بعد الآن شخصا موضع اهتمام لأي إدارة أو وكالة فيدرالية أمريكية".

لم يكن **كورت** يعلم أن قيادة العمليات الخاصة المشتركة (JSOC) كانت متورطة في مطاردته JSOC .تعني قوة دلتا، "الوحدة"، و"الوحدة" تعني بعض الرجال الأشداء. أما وزارة التجارة، من ناحية أخرى، فلم تملأه بنفس الشعور بالرهبة.

قال **جنتري" :أنا أفهم".**

"حسنا. إذن هل لدينا اتفاق؟"

"هل ستخبرني عن ماذا يدور كل هذا؟"

بدا **كارمايكل** منزعجا قليلا. من المفترض أنه لم يشعر بالراحة في عقد صفقات مع الخارجين عن القانون. لكنه أومأ وقال" :**الرئيس عبود مطلوب من قبل المحكمة الجنائية الدولية"——**

"عفوا يا سيدي. قصدت... هل يمكنك أن تخبرني عن ماذا يدور أمر إطلاق النار فور الرؤية؟ لماذا طاردتموني في المقام الأول".

كان هناك صمت طويل. نظر **ديني كارمايكل** خارج الكاميرا إلى شخص ما بجانبه، ربما طلبا للتوجيه. أخيرا رد بنبرة جادة" :**يا بني. إذا كنت حقا لا تعرف ما فعلته، فمن الأفضل على الأرجح من أجل الجميع ألا أخبرك".**

"أنا لا أفهم".

"دعنا نمضي قدما. انس أمر إطلاق النار فور الرؤية. نحن مستعدون لنسيان أمر إطلاق النار فور الرؤية. هل لدينا اتفاق بخصوص الرئيس عبود؟"

نظر **كورت** إلى **زاك** .نظر **زاك** إليه. أخيرا، قال **جنتري" :نعم يا سيدي. سأبذل قصارى جهدي للوفاء بنصيبي من الصفقة. وسأعتمد عليك وعلى سييرا واحد للوفاء بنصيبكما".**

أومأ **كارمايكل** لكنه لم يبتسم" **.حسنا جدا. لن نتحدث مرة أخرى يا سييرا ستة. سيكون سييرا واحد هو قائد الفريق والقائد الميداني لعملية 'نوكتورن سافاير'، وهي تسليم الرئيس بكري علي عبود من السودان إلى المحكمة الجنائية الدولية في هولندا. سيتم اتخاذ الترتيبات لعمليات أخرى، بافتراض أن كل شيء يسير على ما يرام في أفريقيا، في الوقت المناسب، عبر ضابط الحالة[9] المخصص لك من مجموعة العمليات الخاصة التابعة لقسم الأنشطة الخاصة".**

"مفهوم. شكرا لك".

إيماءة مقتضبة من الرجل على الشاشة، وانطفأت الشاشة.

قال **زاك** على الفور" **:ظننت أن هذا الرجل لن يصمت أبدا".**

وقف **كورت**، ونظر إلى ساعته.

"إذن، هل نحن متفقون يا سييرا ستة؟ "سأل زاك.

وقفة استسلام من جانب **كورت جنتري** .كان سيفعل هذا، لكنه لن يكون سهلا. قال" **:من الأفضل أن تعيدني إلى الفندق. لا يمكن أن يمسك بي بلطجية سيد".**

---

[9] **ضابط الحالة :(Case Officer)** هو موظف في وكالة استخباراتية يكون مسؤولًا عن تجنيد وإدارة وتوجيه العملاء أو المصادر (الأصول) في الميدان لجمع المعلومات الاستخباراتية.

ابتسم زاك" .مفهوم. سيأخذك اثنان من رجالي ويعيدانك إلى فراشك. لا تهتم إذا لم يكونا ودودين جدا في البداية. إنهم غاضبون قليلا من كل هذا. لقد حصلوا بطريقة ما على انطباع بأنك الوغد الذي قتل العديد من الرجال في وحدتك ثم هرب سعيا وراء الشهرة والثروة في القطاع الخاص".

"من أين حصلوا على فكرة كهذه يا زاك؟"

رفع "سييرا واحد" يديه مستسلما" .قد أتحمل بعض المسؤولية عن عدم ثقتهم بك. أيضا، لقد أخرجت تود من الخدمة في هذه العملية ".ثم ابتسم، وربت بيده على ظهر كورت، بقوة زائدة قليلا" .مهلا، من الجيد أن أعمل معك مرة أخرى. آخر شيء. دعنا نتحدث عن المعدات".

"ماذا عنها؟"

"سيكون لدي كل المعدات المحددة لـ'نوكتورن سافاير' في السودان. سأقابلك هناك لأسلمها لك في الليلة التي تسبق العملية. ولكن فيما يتعلق بالمعدات الشخصية، أخبرني بما تحتاجه، وسأرى ما يمكنني فعله لتكون جاهزة بحلول الأسبوع المقبل".

"هاتف فضائي يمكنني الوصول إليك من خلاله. شيء يعمل جيدا في شمال أفريقيا. هاتف هيوز ثريا سيكون جيدا. وإمداد جيد من البطاريات. هذا يجب أن يكون كافيا".

نظر هايتاور إلى جنتري" .هل ستضرب الأشرار بهاتف فضائي على رؤوسهم؟ كنت أتحدث عن الأسلحة يا سييرا ستة".

"سأحصل على كل الأسلحة التي أحتاجها من سيد. لديه أشياء أفضل منكم يا رفاق".

"أوه، هذا مؤلم. لكن مهلا، ستوفر على دافعي الضرائب بضعة دولارات، لذا أعتقد أنني موافق على ذلك".

الفصل الثاني عشر

وصل **كورت** إلى جناحه في **قصر نيفسكي** في الساعة الرابعة وخمس وأربعين **دقيقة** صباحًا. كان هو و**هايتاور** قد ناقشا تفاصيل العملية لمدة ساعة أخرى، ثم أُخرج من بطن اليخت وعبر جانبه إلى قارب صغير مع اثنين من رجال **زاك** .لم تُنطق أي كلمات بين الثلاثة وهم يشقون طريقهم عبر مياه خليج **فنلندا** السوداء المتجمدة، ووصلوا إلى اليابسة في حوالي الرابعة صباحًا. كانت سيارة تنتظرهم على الرصيف، وأُدخل **كورت** إليها، وأُعيد بالسيارة إلى الفندق، وسُلم إلى غرفة. كان **هايتاور** قد فكر في كل شيء، حتى أنه استأجر جناحًا فوق جناح **جينتري** مباشرة. ومن هنا ذهب رجال قسم الأنشطة الخاصة (SAD) إلى الشرفة، وأسقطوا حبلاً من الجانب، وأعطوا **كورت** مفكرة صغيرة تحتوي على معلومات الاتصال بالفريق.

"يا رجل"، قال العميل الأسود. كان قد قُدم باسم **سبنسر**، والرجل الآخر، وهو شاب بلكنة عرفها **كورت** بأنها كرواتية، باسم **ميلو"** .**الناس يتكلمون. شائعات وكلام فارغ. عادة لا أستمع... ولكن... هل كنت أنت الرجل في كييف؟ نعم أو لا فقط."**

أخذ **جينتري** المفكرة، ووضعها في جيبه الخلفي، ونطق بعبارته الوحيدة في الساعة الماضية من النقل" .**اللعنة عليك** ."تجاهل الحبل وركل ساقيه فوق جانب السور. تأرجح إلى شرفته بالأسفل دون مساعدة وهبط بصمت.

انحنى **سبنسر** فوق السور ونادى للأسفل، **"اللعنة عليك أيضًا يا سييرا ستة. سنراك بعد أسبوعين في المكان النتن."**

استحم **جينتري**، وحدق في مرآة الحمام الضبابية في وجهه المتورم، ونظر إلى الساعة على منضدة الزينة. الخامسة صباحًا. في غضون ساعتين، سيكون عليه أن يقدم بعض التفسيرات حول كيفية حصوله على عين متورمة وشفة منتفخة أثناء قراءة الأوراق بمفرده على سرير في جناح صغير. عاريًا، استدار **كورت** لمغادرة الغرفة، لكنه توقف، واستدار مرة أخرى، وفتح خزانة الأدوية بناءً على حدس. نظر إلى الداخل، وفي نفس الوقت تسارع نبض قلبه وتهدلت كتفاه. كان رجال **سيد** قد ملأوا الخزانة بأكثر من عشرة أنواع من الأدوية الموصوفة: مزيلات الاحتقان، والمضادات الحيوية، وأدوية للراحة المؤقتة من ضعف الانتصاب. كل هذه الأدوية لم يكن من الممكن أن تكون أقل صلة بوضعه الحالي. لكنه رأى مسكنات الألم على الفور تقريبًا. أقراص ديلوديد، أربعة ملليغرامات. تسارع نبض قلبه ترقبًا للراحة التي ستمنحها له حبة واحدة. لكن كتفيه تهدلتا استسلامًا لأنه لم يكن يعاني من أي ألم حقيقي، كان يعلم أنه يريد ولكنه لا يحتاج إلى المادة الأفيونية القوية، وكان يعلم أن أسابيعه الثلاثة من التخلص من السموم الذي فرضه على نفسه ستنتهي في حوالي خمس ثوانٍ.

ابتلع **كورت** حبتين، وابتلعهما بالماء من الصنبور، ثم في لحظة من الغضب والخجل، سكب الباقي في مصرف حوض الزينة الجاري.

بعد ذلك ارتدى بدلة التدريب الرياضية الأرجوانية القبيحة التي تركها له رجال **سيد**، واستلقى على السرير. لن يكون عقله مفيدًا له قريبًا؛ كان عليه أن يفكر قبل أن يأخذ الدواء مفعوله الكامل.

فكر في الرئيس **عبود** .إذا نجحت عملية "نوكتورن سافاير"، فسيعيش المستبد القاتل. أزعج هذا الأمر **جينتري** بشدة. ربما كان الأمر بسيطًا جدًا، لكن اقتباس **سيد** من **ستالين** كان يحمل حقيقة واضحة ترددت أصداؤها لدى **كورت**، حتى لو لم يعترف أبدًا بوجود أرضية مشتركة مع العم جو" .**الموت يحل كل المشاكل. لا رجل، لا مشكلة** ."لا، لم يكن هذا تفكير **كورت** بالضبط؛ قليل من المشاكل حُلت بالاغتيال السياسي. ولكن بالتأكيد تم

تحقيق العديد من الأهداف قصيرة المدى. وبالتأكيد، فإن قتل ممثل شرير ينهي ارتكاب الممثل الشرير للفعل الشرير.

قتل **عبود** سيقتل **عبود** .بخلاف ذلك، لم يهتم **كورت جينتري** بالأمر.

بدأ مفعول الديلوديد فجأة. اجتاحت موجة من الرضا غير المسموع دماغه، مثل بيضة تكسر على جبهته وتتساقط حول جمجمته. للحظة استلقى هناك، محدقًا في المظلة فوق السرير ومستمتعًا بالأنماط المبطنة في القماش. "اللعنة"، قال لنفسه، سعيدًا في نفس الوقت بالراحة التي يسببها المخدر لعقله المثقل وغاضبًا لاستسلامه لإغراء الأقراص.

قاوم الموجة التالية من الاسترخاء وعاد إلى التفكير في مأزقه.

لا، لم تعجبه فكرة اختطاف أكثر رجل مكروه على هذا الكوكب. كانت عملية **سيد** بالتأكيد أكثر إرضاءً له من عملية **هايتاور**، لكن عملية **هايتاور** قدمت مكافأة أكثر إرضاءً. إلغاء توجيه إطلاق النار فور الرؤية من قبل قسم الأنشطة الخاصة (SAD) لن يحل جميع مشاكل **كورت**، لكنه سيكون أفضل من امتلاك أربعة ملايين دولار في البنك. المال لا فائدة منه إذا لم يكن موجودًا لإنفاقه، ومع مطاردة وكالة المخابرات المركزية (CIA) له على مدى السنوات الأربع الماضية، لم يتمكن من إبطاء رحلته حول العالم هربًا من مطارديه.

نعم، كان يود أن يستعيد حظوته لدى وكالة المخابرات المركزية .(CIA) مهما كان ما فعله واستحق عليه عقوبة إطلاق النار فور الرؤية، فربما يمكنه التكفير عنه بتسليم **عبود** إلى **زاك** وفريقه على طبق من ذهب.

طرق على الباب. نظر **كورت** إلى الساعة على الطاولة الجانبية ورأى أنها السابعة صباحًا.

اللعنة. لم يكن يعرف ما إذا كان قد نام على الإطلاق، أم أن المخدرات والقلق قد استهلكاه لمدة ساعتين كاملتين.

سمع **كورت** الباب في غرفة الجلوس يفتح. بعد ثوانٍ، دخل ثلاثة رجال غرفته. كانوا من نفس فئة البلطجية الذين أوصلوه الليلة الماضية. كانت بدلاتهم مجعدة؛ ربما ناموا فيها في الممر أو في الغرفة المجاورة. أو ربما ظلوا مستيقظين طوال الليل يحتفلون. وقف ببطء، وفرك عينيه، وشعر بالأدوية في دمه تبطئ حركاته وتؤثر على توازنه. لاحظ الرجال ينظرون بإعجاب إلى بدلته الرياضية السوداء والذهبية والأرجوانية. ثم ارتفعت أعينهم إلى وجهه. حتى من خلال لحيته، كان على يقين من أنهم يستطيعون رؤية شفته المنتفخة الأرجوانية، وكانت عينه المتورمة مكشوفة لهم تمامًا.

"ماذا حدث لك؟ "سأل الرجل الأول باللغة الروسية. فهم **كورت**، وبدأ في الرد، لكنه أمسك بنفسه قبل أن تخرج الكلمة الأولى من فمه. اللعنة. كان تأثير الديلوديد ثقيلاً على دماغه؛ لم يستطع العمل بفعالية.

هز كتفيه، ربما بشكل مبالغ فيه، وانتظر حتى يدرك الرجل خطأه ويسأل مرة أخرى باللغة الإنجليزية. عندما فعل ذلك، قال **كورت" :سقطت من السرير. هذه الملاءات الحريرية زلقة."**

الفصل الثالث عشر

أخذ **كورت** مرة أخرى لمقابلة **جريجور سيدورينكو** مباشرة بعد الإفطار. هذه المرة، كان زعيم المافيا الروسي في الخارج في فناء منزله، صباح رمادي بارد ورذاذ خفيف ولكن ثابت من إبر الصقيع المتجمدة من السماء لم يمنعه من تناول شاي الصباح مرتديا رداءه في حدائقه الجرداء. جلس على طاولة حانة معدنية صغيرة تحت مظلة حمراء، وسروال بيجامة ذهبي وحذاء رقيق. وقف شابان مسلحان بمسدسات رشاشة وسط الشجيرات التي جردها شتاء **سانت بطرسبرغ** الطويل من أوراقها. راقب الرجلان **كورت** عن كثب، لكن **كورت** كان يعلم أنه من المسافة التي يبقيانها بينهما وبينه، إذا شعروا بالحاجة إلى إطلاق النار عليه بأسلحتهم الآلية الصغيرة، فسيصيبون بلا شك رئيسهم بنفس سرعة إصابتهم لهدفهم.

تجهم الأمريكي في وجه هذا البروتوكول الأمني الرديء. بالنسبة له، كانت مشاهدة مثل هذه التكتيكات الهاوية من قبل رجال يحملون أسلحة مثل سماع صوت أظافر على سبورة.

اقترب **جنتري** من **سيد** مع اثنين من حراسه. كان قد قضى مع الرجلين ساعة منذ مغادرة الفندق ولم يقل لهما كلمة واحدة منذ مغادرة جناحه. بإيماءة مقتضبة لصاحب عمله قال : **"لنقم بذلك"**.

"ماذا حدث لوجهك؟"

"لا شيء. هل سمعت ما قلته للتو؟"

تردد **سيد**، ثم أومأ، وصفق بيديه، وأعطى إبهامين لأعلى، وهو ما فقد شيئا ما بطريقة ما في الترجمة من الإنجليزية إلى الروسية.

"ممتاز. هذا سيجعل حكومتي سعيدة للغاية".

واصل **كورت" :افهم هذا. هذه عمليتي أنا. تتبع تعليماتي حرفيا، أو أنسحب".**

اعتدل **سيد** في جلسته، وأومأ بسرعة.

"أغادر من هنا وحدي. أحتاج إلى وقت للتحضير والبحث، ولا أحتاج إلى مهووسيك النازيين يراقبونني. في غضون أيام قليلة سأتصل بك وأعطيك عنوانا. يمكن لفتيانك أن يأتوا ويأخذوني ".سحب **كورت** ورقة مكتوبة بخط اليد وسلمها عبر طاولة الحانة إلى **سيد**، الذي أخذها عن طيب خاطر" .**سيكون لديهم هذه المعدات معهم. سيأخذونني إلى الريف، مكان من اختيارك، وسأختبر إطلاق البندقية، وأتفحص بقية العتاد. من تلك اللحظة فصاعدا، أكون في وضع العمليات. سأتبع تعليماتك فيما يتعلق بالدخول إلى السودان. عندما أغادر المطار في الخرطوم، سألتقي بعميلك. معا سنذهب أنا وهو إلى الساحل. سأبقى خارج نطاق الاتصال، في الظل، حتى تكتمل العملية. سأخطرك عبر هاتف فضائي، هاتفي الفضائي الخاص، بأن المهمة قد أنجزت، وبعد ذلك يمكننا التحدث عن الإجلاء".**

كاد **سيد** يطير من الإثارة" .**رائع. سأفعل بالضبط كما تقول".**

خلال الأسبوع التالي، قام **جنتري** باختبار وتصفير الأسلحة، وتمرن بقوة على التلال وفي الغابات شرق **سانت بطرسبرغ**، وبذل قصارى جهده لزيادة قدرته على التحمل عن طريق الجري، وتسلق الأشجار العالية، وحمل حقيبة ظهر مليئة بالحجارة. قام بزيارات يومية إلى صالون لتسمير البشرة في **بوشكين**، وهي ضاحية ثرية جنوب **سانت بطرسبرغ** .عكف على دراسة الخرائط والكتب والمطبوعات المتعلقة باللاعبين في منطقة السودان، من أصغر الجماعات المتمردة وأسوأها تجهيزا إلى هيكل وتكتيكات وتدريب جهاز الأمن والمخابرات

الوطني السوداني المخيف .(NSS) درس التاريخ، القوانين، البنية التحتية، الطرق، الموانئ، وموقع وتوزيع المطارات والحاميات العسكرية.

أولى اهتماما خاصا بساحل البحر الأحمر في البلاد، لأن هذا هو المكان الذي سيتصرف فيه، أولا كقاتل مأجور يعمل لصالح المافيا الروسية ثم كعميل تسليم استثنائي يعمل لصالح **وكالة المخابرات المركزية.**

قد يصبح هذا معقدا، قال لنفسه بتهكم ساخر.

التقى مرة أخرى بـ**زاك هايتاور** بعد أن غادر بقية فريق "ويسكي سييرا" للانضمام إلى يخت مملوك لـ**وكالة المخابرات المركزية**، اسمه **هانا**، تم تخصيصه لاحتياجاتهم وهو موجود بالفعل في **إريتريا**، على وشك الإبحار إلى **بورتسودان**، على بعد ثلاثين ميلا شمال **سواكن** . قضى **زاك** و**كورت** يوما كاملا معا في مراجعة الرموز والخرائط والمعدات والخطط العملياتية. لم يكن هناك جانب من هذه المهمة صغيرا جدا بحيث لا يمكن مناقشته أو تافها جدا بحيث لا يمكن استكشاف الأخطاء وإصلاحها. شرح **هايتاور** كيف سيقوم جيش تحرير السودان - (SLA) وهو قوة متمردة مناهضة للعرب ومناهضة لعبود ــ بخلق تشتيت في صباح يوم اختطاف الرئيس عبود من شأنه أن يشتت انتباه غالبية حراسه ويجبر الرئيس نفسه على الدخول إلى البنك. كان لدى محطة **وكالة المخابرات المركزية** في السودان عميل كان عضوا سابقا في فريق حماية عبود المقرب، وقد أشار إلى أن الإجراء العملياتي المعتاد لهجوم أثناء السير إلى المسجد في **سواكن** هو الدخول إلى البنك والدفاع عن الحرم الداخلي حتى تتمكن قوات الهليكوبتر من القدوم من **بورتسودان** .كان يعتبر موقعا منخفض الاحتمال لهجوم على الرئيس. لم يكن لجيش تحرير السودان وجود في المنطقة، وقد زار عبود المدينة عشرات المرات دون وقوع حوادث.

سيكون **كورت** منتظرا في البنك لاختطاف الرئيس ثم إخراجه من المدينة، بينما يبقى فريق "ويسكي سييرا" على مشارف المدينة، باذلين قصارى جهدهم للامتناع عن العمل المباشر إن أمكن. سيتم بعد ذلك نقلهم جميعا بواسطة قارب زودياك مطاطي ونقلهم إلى **هانا**، وعندها سيرفعون المرساة ويتجهون شمالا. بعد ذلك، سيضع **هايتاور** عبود في غواصة صغيرة متصلة بأسفل اليخت، ومن هناك سيلتقي "سييرا واحد" و"أوريكس" بسفينة صيد تابعة لـ**وكالة المخابرات المركزية** في المياه الدولية. بهذه الطريقة، إذا صعدت قوارب خفر السواحل السودانية على متن **هانا**، فلن يكون هناك أي دليل على تورط هذه المجموعة في عملية الاختطاف.

بعد ذلك، سيبحر **هانا** ببساطة على طول ساحل البحر الأحمر ويرسو في النهاية في **الإسكندرية** .بحلول ذلك الوقت، سيكون عبود مسجونا في منشأة المحكمة الجنائية الدولية في **لاهاي، هولندا**.

كانت خطة جريئة ومقدامة. لم يتمكن **كورت** من رؤية أي جزء محدد بدا مستحيلا أو سيئ التفكير. ومع ذلك، كان هناك عدد هائل من الأشياء التي يمكن أن تسوء. قد يؤدي الخطأ البشري أو الإخفاقات إلى إخراج العملية عن مسارها في أي وقت. وكذلك يمكن أن تفعل الإخفاقات الاستخباراتية. وكذلك يمكن أن تفعل ظاهرة "هذه الأمور تحدث"، قانون مورفي.

ولكن أكثر من أي شيء آخر، كانت هذه تبدو كعملية، على الرغم من أنها قد تتم تماما كما هو مخطط لها، إلا أنها من بنات أفكار إدارة يائسة للبقاء قائمة في ظل إدارة تم فيها استبعاد العمليات السرية شبه العسكرية بالكامل تقريبا.

في الليلة الثالثة لـ**كورت** بمفرده، اتصل برقم أعطاه إياه أتباع **سيدورينكو** .أجاب سكرتير **سيد**، وأخبره **كورت** أنه تعرض لإصابة طفيفة أثناء التدريب للمهمة. أعلن **كورت** أنه

سيحتاج إلى زجاجة صغيرة من مسكنات الألم الخفيفة لتجاوز فترة تعافيه. ذهب **كورت** إلى ممر مظلم في **محطة مترو فيتيبسك**، حيث التقى بأحد بلطجية **سيد** الشباب من حليقي الرؤوس. تم تبادل كيس ورقي دون كلمة واحدة.

ابتلع **كورت** حبتين من الدارفوسيت بينما كان لا يزال على الرصيف في انتظار رحلة المترو للعودة إلى فندقه في **شارع زاجورودني بروسبكت** .كان قد أقنع نفسه، نوعا ما، بأنه يتألم. بدا أن جرح المعدة الذي أصيب به قبل أربعة أشهر قد تفاقم إلى حد ما بسبب تمارين البطن التي قام بها ــ عقدة النسيج الندبي شدت العضلات وجعلتها تتصلب احتجاجا ــ لكنه في الحقيقة لم يكن ألما كان ليرف له جفن لو لم يطور ميله للمخدرات.

كان **كورت** يعرف هذا، وتساءل عما إذا كان ــ على الرغم من كل الرجال الكبار والأشرار في هذا العالم الذين يريدونه ميتا ــ في الواقع، ذلك الطبيب العجوز الودود في **نيس** الذي ورطه في المورفين سينتهي به الأمر ليكون الرجل الذي سيقضي عليه في النهاية.

الفصل الرابع عشر

كانت طائرة النقل الروسية، وهي من طراز إليوشن76-Il ، ضخمة، حيث بلغ طولها من المقدمة إلى الذيل أكثر من 150 قدمًا، وعرضها مماثل من طرف الجناح إلى طرف الجناح الآخر. وقف **كورت** أمام الطائرة قبل الفجر وتفحصها في ضوء القمر الخافت البارد. وبجانبه وقف **جريجور سيدورينكو** .كان قد طار مع **جينتري** من **سانت بطرسبرغ** إلى **غرودنو، بيلاروسيا**، في طائرة هوكر وهبط في المطار الرئيسي هناك قبل ثلاثين دقيقة فقط.

لم يكن هناك، بشكل قاطع، أي سبب عملي لوجود **سيد** هناك؛ كان ذلك مخالفًا لكل إجراء وتكتيك ملائم تعلمه **كورت** في ستة عشر عامًا من العمل كعميل سري. لكن مديره الروسي أراد أن يرافقه في هذا الجزء من الرحلة. على الرغم من أن درجة الحرارة كانت تحت الصفر هنا على مدرج المطار، إلا أن **سيد** بدا سخيفًا وهو ملفوف بالصوف والقطن والجلد والفراء، وأنفه النحيل وذقنه المدبب يبرزان من كومة القماش والحيوان الميت الذي يغطيه.

كان **كورت** في حيرة من أمر الإثارة الغريبة التي أبداها مديره تجاه العملية. كان الأمر مختلفًا تمامًا عن المسافة الباردة التي كان يحافظ عليها صاحب عمله السابق، رئيس الجواسيس الإنجليزي السابق السير **دونالد فيتزروي** .لم يكن السير **دونالد** ليطير ليقف في نقطة انطلاق إحدى عمليات **كورت** الدموية أكثر مما كان لينفذ العملية بنفسه. لكن **سيد** كان من محبي —— بل مهووسًا، في نظر **كورت** ——بهذا النوع من الأشياء.

كسر صوت **سيد** الروسي السكون" .**كل شيء جاهز. الإقلاع في العاشرة صباحًا.**"

"**أعلم.**"

"**سبع ساعات وخمس عشرة دقيقة إلى الخرطوم.**"

أومأ **كورت** برأسه فقط.

"يقولون إن طيارك جيد جدًا."

لم يقل **كورت** شيئًا.

"سيكون الإقلاع باتجاه الجنوب. تلك هي بولندا خلفنا، لذلك من المحتمل أن يطير جنوبًا حتى يصل إلى الحدود مع"...

"سيد. لا يهمني حقًا أي طريق نسلكه."

صمت الروسي للحظة. ثم قال" :**لا أعرف كيف يمكنك أن تكون هادئًا هكذا. كل ما يجب أن يدور في ذهنك. كل ما يجب أن تفعله في الأيام القادمة. الاخطار، والمكائد. وأنت تقف هناك ببساطة، وكأنك تنتظر قطارًا ليأخذك إلى مكتبك."**

ظلت عينا **كورت** على الطائرة أمامه. لم يكن **سيد** يعرف نصف الحقيقة، بالطبع. كانت عملية **سيد** سهلة نسبيًا —— و "نسبيًا" هي الكلمة الدالة هنا —— مقارنة بما كان عليه أن يفعله حقًا. إطلاق النار على رجل من مسافة خمسمائة ياردة ثم الاختباء في التلال لمدة أسبوع أو نحو ذلك حتى يتمكن من المشي عبر بوابات المطار وركوب طائرة خارج البلاد بدا أبسط بكثير من التظاهر بالتحضير لاغتيال ولكن بدلاً من ذلك تنفيذ اختطاف في جزء من الثانية وموعد محفوف بالمخاطر في أراضي العدو لنقل سجين.

تمنى **كورت** بشدة لو أنه يستطيع فقط إطلاق النار على ذلك اللعين القاتل **بكري عبود** في رأسه وينتهي الأمر.

"كيف يمكنك أن تظل هادئًا هكذا؟ "سأل **سيد كورت.**

التفت الرجل الرمادي إلى رجل المافيا الروسي، وهي المرة الأولى التي يلتقي فيها بنظرات مديره طوال الصباح.

"هذا ما أفعله."

تشكلت ابتسامة واسعة على فم **جريجور سيدورينكو** الضيق. حتى في ضوء الفجر، كانت تتوهج" .**رائع."**

كانت الطائرة عملاقة، وتُولي الأهمية للكفاءة على الشكل. أطلق عليها قوات الناتو اسم "كانديد"، وكانت طائرة إليوشن Il-76 ذات أجنحة ضخمة وعالية تتدلى قليلاً عندما تكون في حالة سكون. بدت الطائرة كبيرة وسمينة ونائمة هناك في الظلام. أراد **كورت** أن يمشي ويركلها لإيقاظها، لكنه كان يعلم أن الطاقم الروسي سيتولى ذلك قريبًا، وستقوم الطائرة بنقله وأي بضائع حربية تحملها إلى **الخرطوم** بفعالية. لم تكن رحلة عسكرية بالمعنى الدقيق للكلمة. كانت الطائرة والطاقم ملكًا لشركة **روسوبورون إكسبورت**، وهي كيان تصدير عسكري مملوك للدولة الروسية. كانت **روسوبورون إكسبورت** تشغل طائرات شحن في جميع أنحاء العالم، إلى **السودان**، وإلى **فنزويلا**، وإلى **ليبيا**، وإلى **الهند**، وتنقل الأسلحة الروسية المصدرة إلى حوالي ستين دولة في المجموع، مما يؤجج ويشعل النيران في بؤر التوتر في جميع أنحاء الأرض.

بفضول عابر فقط، سأل **جينتري سيد"** :**ما هي الشحنة؟"**

"غيرك؟ صناديق من رشاشات كورد الثقيلة والذخيرة ومعدات الدعم."

"وهل يسمح لهم بالدخول من قبل الأمم المتحدة؟ وماذا عن العقوبات؟"

شخر **سيد** في هواء الصباح البارد" .**العقوبات غبية. يُسمح لروسيا ببيع معدات عسكرية إلى السودان، طالما أن المعدات لن تُستخدم في منطقة دارفور في البلاد."**

"إذا كانت روسيا تشحن رشاشات إلى السودان، فيمكنهم التأكد من أنها ستُستخدم في دارفور. هذا هو مكان الحرب."

"بالضبط يا صديقي"، ابتسم **سيد**، دون أن يلاحظ سخرية **كورت** من الترتيب" **.موسكو تأخذ كلمة الرئيس عبود. ويبدو أن ذلك يرضي الأمم المتحدة."**

"لا يصدق"، قال **كورت**، لنفسه تقريبًا.

ربت **سيدورينكو** على ظهره" **.نعم. جيد جدًا، أليس كذلك؟** "استدار الروسي وعاد إلى دفء مبنى المطار.

استلقى **كورت** على ظهره على أربعة من مقاعد الإليوشن البلاستيكية الحمراء. بجانبه في المساحة الضيقة على الأرض بين مكان راحته على طول جدار جسم الطائرة وصناديق الشحن الضخمة في وسط الطائرة، وُضعت حقيبة ظهر واحدة متعددة الألوان. كان **جينتري** خبيرًا في حزم الأمتعة الخفيفة. داخل الحقيبة التي تزن خمسين رطلاً كانت هناك بندقية قنص ألمانية مفككة من طرازBlaser R 93 ، عيار 300. وينشستر ماغنوم، وعشرون طلقة ذخيرة. وأيضًا منظار، وقنبلتان يدويتان، وقنبلتان دخانيتان، وإمدادات صغيرة من الطعام المجفف والماء وأملاح الإماهة الفموية. تم تضمين مجموعة إسعافات أولية للإصابات الكبيرة، لكنه لم يحزم شيئًا للجروح والكدمات. على حزامه وفي بنطاله كان يرتدي مسدس جلوك عيار تسعة مليمترات، وسكين قتال، وأداة متعددة الاستخدامات، ومصباحًا يدويًا.

كان مغطى بثوب أبيض طويل، وهو رداء معتاد في **السودان** .تركه طاقم الطائرة وشأنه. كان رؤساؤهم في **روسوبورون إكسبورت** قد أمروهم بنقل رجل إلى **الخرطوم**، لكن هذا كل ما كانوا يعرفونه. كان **جينتري** قد أخبر قائد الطاقم باللغة الروسية قبل الإقلاع أنه لا يجب

إزعاجه إلا في حالات الطوارئ، لذلك عندما ظهر أحد أفراد طاقم الطائرة المكون من خمسة أفراد فوقه وصرخ فوق صوت المحركات الحاد، علم أن الوقت قد حان إما للغضب أو القلق. استدعاه الرجل إلى قمرة القيادة، وتبعه **جينتري** في القناة الضيقة بجانب صناديق الشحن الخشبية الرمادية، التي كانت معلقة من بكرات متصلة بقضبان على السقف تمتد على طول الطائرة. لم تكن هناك نوافذ في المقصورة؛ بدلاً من ذلك، كانت هناك حشوات مبطنة وشبكات ومعدات مثبتة معلقة من جدران جسم الطائرة. ذكّر هذا الأمريكي بطائرة شحن أخرى كان فيها، قبل أربعة أشهر، فوق شمال **العراق** .لم تنته تلك الرحلة بشكل جيد بالنسبة **لجينتري**؛ كان فخذه ينبض حيث اخترقت الرصاصة العضلة، لكنها انتهت بشكل أسوأ بالنسبة للرجال الخمسة الآخرين الذين كانوا معه في عنبر الشحن.

كانت قمرة القيادة في الإليوشن واسعة؛ جلس أربعة رجال في منطقة الطاقم في المستوى العلوي، وجلس الملاح في الأسفل في المقدمة بين بحر من الأقراص والأزرار وشاشات الكمبيوتر. أشار إليه الطيار، وهو روسي أحمر الشعر في الأربعينيات من عمره يدعى **جينادي**، يرتدي نظارات طيار كبيرة جداً على وجهه ويبدو **لجينتري** نحيفاً بشكل غير صحي. مرر مهندس طيران شاب وضخم للأمريكي سماعة رأس لاسلكية حتى يتمكن هو والطيار من التواصل بشكل مريح مع بعضهما البعض.

"**ما الأمر؟** "سأل **كورت** باللغة الروسية.

"لقد اتصل بنا مراقبو الحركة الجوية السودانيون. هناك مشكلة."

"أخبرني."

"لقد تم تحويل مسارنا. لم نعد ذاهبين إلى الخرطوم."

"إلى أين نحن ذاهبون؟"

"الفاشر."

"لماذا؟"

"لا أعرف، لكنني أعتقد أن الجيش السوداني ربما يحتاج إلى البنادق هناك على عجل."

سحب **كورت** خريطة مغلفة من طاولة مهندس الطيران. نظر إليه الرجل لكنه لم يحتج" **.أين تقع الفاشر بحق الجحيم؟** "سأل **جينتري** وهو يفتح الخريطة.

استدار الطيار الروسي ونظر من فوق كتفه وأجاب على السؤال بكلمة واحدة، قيلت بنبرة خطيرة" **.دارفور** ."وضع إصبعه ذو القفاز على الحافة البعيدة، عبر البلاد تمامًا من حيث خططت عملية **كورت.**

رفع **كورت** نظره عن الخريطة" **.اللعنة."**

"هل هذه مشكلة بالنسبة لك، أليس كذلك؟"

"مهمتي ليست في دارفور."

قال **جينادي"** :**لا شيء يمكنني فعله. يجب أن أحول مساري؛ ليس لدي تصريح بالهبوط في الخرطوم."**

"اللعنة "!قال **جينتري** الآن. ألقى سماعة الرأس مرة أخرى على الكونسول واستدار لمغادرة قمرة القيادة، ساحبًا الخريطة معه.

بعد خمس دقائق، كان على هاتف الأقمار الصناعية الخاص به من طراز **هيوز ثريا** ، يتحدث مع **سيدورينكو** .كان قد أمضى الوقت في انتظار إنشاء الاتصال وهو يتفحص الخريطة" **.هذا غير مقبول! كيف من المفترض أن أخرج من مطار الفاشر، وأعبر مئة ميل**

من الصحراء المليئة باللصوص، بالإضافة إلى ثلاثمائة ميل أخرى من الأراضي السودانية؟ لدي الآن نهر النيل اللعين بيني وبين هدفي."

"نعم يا جراي، أنا أفهم. إنها مشكلة. يجب أن تدعني أفكر."

"ليس لدي وقت لتفكر! أحتاج منك أن تعيد هذه الرحلة إلى مسارها الصحيح"!

"لكن هذا غير ممكن. نفوذي مع موسكو، وليس الخرطوم. سيتعين عليك الهبوط حيث يوجهك السودانيون."

"إذا لم تتمكن من حل هذا، فهذه العملية ميتة، هل فهمت؟" في الواقع، كان **كورت** قلقًا بشأن عملية **زاك**، نوكتورن سافاير، وليس عقد **سيد**، لكنه لم يذكر ذلك.

"سأبذل قصارى جهدي ."أغلق **سيد** الخط، وواصل **كورت** السير جيئة وذهابًا في الممر الضيق بين جدار جسم الطائرة وصناديق البنادق.

كان هذا الخطأ من نوع "هذه الأشياء تحدث". لم يكن خطأ أحد، لكن **كورت** كان يعلم من خبرة طويلة أنه لا يلزم إلقاء اللوم علي هذا الخطا عندما تفشل أي عملية فشلاً ذريعًا وكاملاً.

وللإنصاف، اتصل **سيدورينكو** مرة أخرى أسرع بكثير مما توقعه **جينتري**.

"سيد جراي، لدينا حل. يجب أن تطير مرة أخرى مع الطائرة بعد تفريغها في الفاشر. عد إلى القاعدة الجوية في بيلاروسيا. ستكون هناك رحلة أخرى إلى الخرطوم في غضون ثلاثة أيام. ستكون معدات إصلاح طائرات هليكوبتر، بضائع من غير المرجح أن يتم تحويلها إلى الفاشر. كل شيء سيكون على ما يرام ."بدا **سيد** راضيًا عن الترتيبات الجديدة.

"بعد ثلاثة أيام؟"

"صحيح."

"قبل يوم واحد من ذهاب عبود إلى سواكن؟ هذا ليس وقتًا كافيًا للوصول إلى هناك والاستعداد ."كان من الممكن أن يكون كافيًا، فكر **كورت**، لو كانت عملية **سيدورينكو** هي الخطة الفعلية التي كان ينوي تنفيذها. لم يكن وقتًا كافيًا، في تقدير **جينتري**، لاستطلاع المنطقة بشكل كافٍ لزيادة فرص النجاح في عملية **زاك** .مرة أخرى، لم يستطع أن يشرح هذا جيداً للرجل على الطرف الآخر من اتصال القمر الصناعي.

صرخ **سيد** عبر الخط، وتوتره يتغلب عليه" .**لا أستطيع فعل شيء! لم يكن لدي طريقة لتوقع هذا. الحكومة الروسية لم تتوقع هذا. فقط ابق مع طاقم الطائرة وعد. سنحاول مرة أخرى في غضون ثلاثة أيام."**

أغلق **كورت** الهاتف وواصل السير في الممر الضيق للطائرة بجوار الأسلحة" .**اللعنة."**

بعد ذلك استخدم هاتفه للاتصال **بزاك** .رد **هايتاور** على المكالمة من أول رنة. من الواضح أنه تفاجأ بسماع صوت **جينتري**" .**أنت متقدم على الجدول الزمني بحوالي أربع وعشرين ساعة يا سييرا ستة."**

"أنا على وشك أن أتأخر عن الجدول الزمني ."أخبر **كورت سييرا** واحد بما كان يحدث. عندما انتهى، سأل" :**هل تعرف أي شيء عن هذا المطار؟ أي طريقة يمكنني بها الخروج من هنا والوصول إلى سواكن؟"**

"قد تكون في الجانب المظلم من القمر. إنها منطقة حرب في كل مكان حول الفاشر. الصليب الأحمر، ووكالات الإغاثة غير الحكومية الخاصة، وقوات الاتحاد الأفريقي العاملة لصالح يوناميد، بعثة الأمم المتحدة في دارفور، هم تقريبًا الأجانب الوحيدون في المنطقة. قد تتمكن من شراء رحلة إلى الشرق من بعض السكان المحليين الشجعان بما

يكفي لمواجهة ميليشيا الجنجويد وقوات حكومة السودان التي تقوم بدوريات في الأراضي الوعرة، لكنني لا أوصي بذلك. التزم بتغيير سيد لأوامر العملية، وانسحب من السودان مع طاقم الطائرة، وأعد الدخول في غضون ثلاثة أيام. هذا هو أفضل ما يمكننا فعله في هذه المرحلة. سيتعين علينا فقط الإسراع في الأمور عندما تصل إلى هناك. سأخبر كارمايكل بما يحدث."

"مفهوم يا سييرا ستة، انتهى."

"انتظر لحظة"، قال زاك، **"مجرد نصيحة. لا أعرف ما هو وقت الاستعداد لديك في الفاشر، لكن ابق داخل أرض المطار بحق الجحيم. إذا قبضت عليك السلطات هناك، فسيأخذونك إلى بيت الأشباح."**

"يبدو هذا ساحرًا"، قال **كورت** فوق صوت محركات الإليوشن المتغير النغمة. كانوا قد بدأوا للتو في الانعطاف جنوبًا والهبوط بالتدريج .

"إنه أي شيء إلا ساحر. إنه الاسم الذي يطلقه السكان المحليون على سجون الحكومة السرية في جميع أنحاء البلاد، لكن السجن الموجود في الفاشر مميز للغاية. إذا دخلت بيت الأشباح في الفاشر، فلن تخرج، ولن تموت بسرعة. إنه بائس بشكل أسطوري."

"مفهوم. سأتجنب الجولة المحلية إذن. ستة، انتهى."

الفصل الخامس عشر

ارتفعت معنويات **إيلين والش** المنخفضة على الفور عندما رأت شعاعا من شمس وقت متأخر من الظهيرة يلمع على معدن في السماء البعيدة. كانت طائرة، كبيرة ومتباطئة، تستدير في اقترابها النهائي، على ارتفاع ألف متر فوق السهل المرتفع البني في شمال **دارفور** .هبوط طائرة هنا في **مطار الفاشر** كان يعني مخرجا محتملا من هذا المكان البائس.

كانت **إيلين** عالقة هنا منذ وصولها على متن طائرة نقل تابعة للأمم المتحدة كانت تنقل عمال الإغاثة. كانت هناك مشكلة في وثائق **والش**؛ كان تصريح السفر الخاص ببعثة **يوناميد**[10] يفتقر إلى الختم المطلوب الذي كان سيسمح لها بالدخول إلى مخيم الأمم المتحدة للنازحين داخليا في **زمزم** .هذا السهو كان يعني أنه لم يسمح لها بمغادرة المطار، إلا على متن طائرة تغادر **الفاشر**.

لذا، انتظرت لمدة ثلاثة أيام رحلة تعيدها إلى مكتبها. وصلت طائرات تابعة للأمم المتحدة، لكنها بقيت متوقفة على مدرج المطار الحار في انتظار إعادة تزويدها بوقود الطائرات من ناقلة تابعة للأمم المتحدة. جاءت وذهبت طائرات تابعة لشركة النفط الصينية المملوكة للدولة، لكنها عادت إلى **بكين** وليس إلى **الخرطوم**، وأوضحوا لها أنها لا تستطيع الذهاب معهم. وصلت وغادرت أيضا رحلات عسكرية سودانية، لكنها لم تكن تقدم خدمة سيارات أجرة لامرأة بيضاء.

لكن هذه الطائرة الجديدة، هذا الوصول الغامض الذي يطفو في السراب الضبابي إلى الشمال ويصطف على المدرج، يمكن أن يكون تذكرتها للخروج من هنا. لم تكن عسكرية، ولم تكن

[10] **UNAMID يوناميد** : بعثة حفظ السلام المشتركة بين الأمم المتحدة والاتحاد الأفريقيفي دارفور.

مطلية باللون الأبيض الخاص بالأمم المتحدة، ولم يكن لها نفس شكل الطائرات الصينية التي رأتها. كانت **إيلين** تعرف الطائرات، وعادة ما كان بإمكانها التعرف على طائرة شحن في ثانية، لكن هذه الطائرة في المسافة كانت تميل الآن عبر شمس وقت متأخر من الظهيرة وبالتالي كان من المستحيل عليها تحديد هويتها. لكنها لم تهتم. أيا كان نوع الطائرة، وأيا كان من يقودها، وأيا كانت وجهتها التالية، فقد صممت على بذل كل ما في وسعها لتكون على متنها عند مغادرتها.

لم تكن **إيلين** مغرورة ولا عبدة للموضة، ولكن حتى قبل أن تهبط الطائرة المتباطئة في الطرف البعيد من المدرج، أسرعت بالعودة إلى مبنى المطار إلى دورة المياه. مرت بزوج من نساء القبائل الدارفورية المحلية في طريقهن للخروج، يرتدين من الرأس إلى أخمص القدمين أقمشة برتقالية زاهية، ويدفعن ثلاثة أطفال صغار أمامهن. كانت أغطية رؤوس السيدات عالية وعريضة، وأدركت **إيلين والش** الآن أنها كانت بمثابة حاجز فعال لكل الغبار في الهواء. عندما اقتربت من المرآة لتلقي نظرة على نفسها، كادت أن ترتد رعبا. بدا شعرها الكستنائي رماديا من الغبار الرمادي العائم، وكانت التجاعيد الخفيفة حول عينيها على وجهها البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاما مبالغا فيها بسبب الغبار والأوساخ والملح من العرق الذي جف هناك.

بسرعة، فكت القميص الأبيض من خارج حقيبة ظهرها وغمرته في الماء العكر المتدفق من الصنبور. مسحت وجهها بقطعة القماش المؤقتة. كانت قد استخدمت نفس القميص لنفس المهمة مرات عديدة في الساعات الاثنتين والسبعين الماضية لدرجة أنه أصبح مخططا وباهتا من القذارة التي كشطتها عن جلدها. ابتعدت عن الصنبور، وأحنت رأسها إلى الأمام نحو أرضية الحمام المتسخة، واستخدمت أصابعها لتمشيط شعرها وهي منحنية، ساحبة سحابة من الغبار من خصلاتها التي يصل طولها إلى الكتفين. نهضت، ونفخت على خصلات شعرها لإبعادها عن عينيها، وأعادت ربطة شعرها.

نظرة أخرى في المرآة لم تملأها بالارتياح، لكنه كان تحسنا. أعادت ربط القميص المبلل بحقيبة ظهرها ورفعتها على كتفها، ثم غادرت الحمام لتعود إلى مدرج المطار.

سمعت المحركات الضخمة قبل وقت طويل من رؤيتها للطائرة. تحركت ببطء إلى مكان وقوف على الجانب الآخر من المدرج من طائرات الأمم المتحدة الأربع، على بعد حوالي أربعمئة متر من الباب الذي خرجت منه **إلين**. في مسافة الظهيرة المغبرة لم تستطع تحديد هوية الطائرة ذات المحركات الأربع، لكنها رأت أنه لا توجد علامات لشركة طيران أو تحديد بلد. ومع ذلك، من شكلها استطاعت أن تعرف أنها طائرة شحن. علقت للحظات في زحمة الحركة عندما بدأت تسير نحوها. مر بها العديد من رجال الجمارك وطاقم المطار الأرضي سيرا على الأقدام، وكذلك عشرين جنديا يتعلقون بجوانب شاحنة بيك أب وشاحنتين مسطحتين متهالكتين. فكرت في ترك كل هذا النشاط المقترب من الوافد الجديد يهدأ قبل أن تقترب، لكنها قررت الاستمرار في السير. لم تكن لديها أي فكرة عن المدة التي ستبقى فيها هذه الرحلة على الأرض. كان من المشكوك فيه أن تكون أياما؛ فكل من هبط حتى الآن كان يغادر **الفاشر** في أسرع وقت ممكن إذا كان لديهم الوقود للقيام بذلك. من المرجح أن تكون ساعات إذا كانوا سيفرغون البضائع. دقائق فقط إذا كانوا هنا فقط للتزود بالوقود.

لم تكن لتضيع فرصتها.

بينما كانت **إيلين** تسير نحو الطائرة في الطرف البعيد من المدرج، كانت محجوبة جزئيا في ضباب سراب الحرارة المتصاعد من المدرج المتشقق، وكان هواء وقت متأخر من الظهيرة يخفت قليلا ولكن لم يبرد بعد. كان الهواء فوق جسم الطائرة الضخم يرتجف بينما كانت الأبخرة تتدفق من المحركات الخاملة.

بعد لحظة، أطفأ الطيار محركاته. تم استبدال أزيز المحركات النفاثة التوربينية الأربعة الكبيرة بأصوات الجنود في المسافة وصوت الحشرات الذي لا يتوقف في الشجيرات الرملية التي تمتد على جانبي ممر الطائرات.

كانت حاشية الجيش المحلي وعمال المطار بينها وبين الطائرة، يتحركون بنشاط عبر ممر الطائرات الحار، وقد استحوذوا على انتباهها لمعظم مسيرتها. ترددت أكثر من مرة، موازنة بين إيجابيات وسلبيات انتظارهم ليقوموا بعملهم ويغادروا الطائرة مقابل شق طريقها مباشرة عبر حشد الرجال السود، بعضهم يرتدي الزي الرسمي، وبعضهم يرتدي بدلات عمل، وبعضهم يرتدي أثوابا بيضاء فضفاضة، للتحدث فورا إلى طاقم الرحلة. لم يبد أي من الخيارين واعدا بشكل خاص، لكنها سرعان ما وصلت إلى استنتاج مفاده أن الخيار الأخير يبدو أفضل من الجلوس وانتظار طائرة قد تقلع مرة أخرى إلى السماء بدونها.

لذا قررت أن تسير مباشرة نحو الباب الخلفي الذي كان ينخفض وتجرب حظها. هذا القرار جعلها تنظر إلى ما وراء الرجال على بعد خمسين ياردة أمامها وتحول تركيزها بالكامل إلى الطائرة على بعد عشرين مترا آخر خلفهم، وعندها فقط تباطأت مشيتها الواثقة قليلا. بعد بضعة ياردات تباطأت أكثر.

ثم توقفت فجأة في مكانها على مدرج المطار الملتهب.

وعيناها ثابتتان على الطائرة، أنزلت حقيبة ظهرها ووضعتها عند قدميها، فتحت سحابها بسرعة، وتركت بضع بلوزات ملطخة بالعرق تسقط على الرصيف بينما كانت تسحب ملفا أسود صغيرا بثلاث حلقات. ركعت على حقيبة ظهرها وهي تقلبه بسرعة؛ كانت ركبتاها ستصابان بالبثور لو وضعتهما مباشرة على الأرض. ثلاث نظرات سريعة إلى طائرة الشحن، وبضع لحسات من أطراف أصابعها الجافة تماما ساعدتها في العثور على الصفحة التي كانت تبحث عنها.

نظرة أخرى إلى أسفل الصفحة. نظرة أخرى إلى الطائرة أمامها.

نعم. تمتمت بتعجب لم يغط عليه صوت الجراد والصراصير من حولها بالكامل" .**يا إلهي**".

كانت من طراز إليوشنIl-76 ، ومن مظهرها المترهل على هيكلها السفلي ذي العشر عجلات، كانت مليئة بالبضائع. كانت Il-76 طائرة نقل شائعة للغاية من صنع روسي، في خدمة وكالات الإغاثة وخدمات النقل والجيوش في جميع أنحاء نصف الكرة الأرضية. ولكن ما لم تكن عينا **إيلين** تخدعانها، كانت هذه من طرازIl-76MF ، وهي نسخة مطورة بهيكل أطول.

ببطء، أشاحت بنظرها عن الطائرة وهي تجمع ممتلكاتها من على المدرج. وببطء أشد استدارت وبدأت تسير عائدة إلى مبنى المطار.

نما حماسها أكثر فأكثر وهي تسير بلا مبالاة في حرارة الظهيرة، متتبعة خطواتها قبل لحظات. كان هذا الحماس يخففه علمها بأنها لن تكون قادرة على إجراء مكالمة هاتفية داخل المبنى، حيث لم يكن هناك هاتف عمومي واحد، وقد قيل لها إن الخط الإداري كان معطلا طوال الساعات الاثنتين والسبعين الماضية. كان مديرو المطار يكذبون، لم يكن لديها شك، لكن التأثير كان هو نفسه. لم تستطع الاتصال بمكتبها.

الحماس، على الرغم من تخفيفه، ساعدها على التفكير بسرعة بينما كان عقلها يسابق الزمن لصياغة خطة متسرعة. لا يمكن المبالغة في حجم الفرصة التي أمامها، وصممت على التحكم في عواطفها والتركيز على الفرصة المتاحة.

بالتأكيد في حياتها المهنية، وتقريبا بالتأكيد في حياتها كلها، لم تشعر **إيلين والش**، المحققة الخاصة للمحكمة الجنائية الدولية، بهذا القدر من التصميم من قبل.

ولا بهذا القدر من الوحدة.

الفصل السادس عشر

هذه المرأة البيضاء ستكون مشكلة.

غير **كورت** ملابسه إلى بدلة طيران إضافية ليتماشى مع بقية طاقم الطائرة، ونزل من المنحدر الخلفي للطائرة مع الآخرين، فصفعته الحرارة ورائحة الأرض الجافة في وجهه بقوة، وضيّق عينيه على الفور في ضوء شمس الأصيل الخافت، ماسحًا المنطقة ليتعرف على محيطه. إلى يساره رأى طائرة بيضاء قديمة تابعة للأمم المتحدة جاثمة على الرمال، وذيلها مكسور عن جسم الطائرة مع وجود أدلة على حريق على متنها من النوافذ المغطاة بالسخام والمحركات الذائبة جزئيًا والملطخة بالدخان بالكامل. وإلى يمينه، كانت هناك صف من مروحيات الأمم المتحدة تقبع في الضباب الحراري الناتج عن حرارة محركات طائرته، وشيفرات المروحيات تتدلى منخفضة وكأنها تذوب. وخلفها كانت هناك عدة طائرات متوقفة وأطراف أجنحتها متلاصقة. بدت وكأنها يمكن أن تكون طائرات نقل صغيرة تابعة للأمم المتحدة. كان هناك مبنى مطار صغير وجديد المظهر على بعد عدة مئات من الياردات. وإلى يمينه كان هناك خط سياج في الرمال يمتد بمحاذاة طريق، مع وجود عدة طائرات أخرى محطمة ومتهالكة ملقاة في مكان قريب.

كانت الحشرات في كل مكان: ذباب، بعوض، جراد لم يستطع رؤيته ولكنه كان يسمعه بسهولة في الأحراش بجانب ممر الطائرات المترب.

ثم لاحظها على مسافة متوسطة؛ كان من الصعب عدم ملاحظة امرأة بيضاء بمفردها على مدرج مطار مشمس في غرب **السودان** .من على بعد خمسين ياردة، شاهدها تلاحظ طائرته وتنحني إلى حقيبتها، وتسحب كتابًا، وتقلب صفحاته. شاهدها تتوقف لتقرأ الصفحة، ثم تقف ببطء ويداها على وركيها. ثم بدأت تتراجع، ببطء ولكن بشكل لا لبس فيه، نحو مبنى

المطار، مدركة تمامًا، كما كان لدى **جينتري** شك قوي، أن الطائرة التي خلفها لم يكن من المفترض أن تكون هناك.

أجل، هذه المرأة البيضاء ستكون مشكلة بالتأكيد.

بقي **كورت** في خلفية المحادثة واستمع إلى الطيار **جينادي** وهو يتحدث الإنجليزية مع المسؤولين العسكريين السودانيين عند أسفل المنحدر. كانت الشاحنات القادمة لتفريغ البنادق متأخرة عن موعدها؛ سيستغرق الأمر ساعة أخرى قبل وصولها إلى المطار. كان وقود طائرة الإليوشن متاحًا وسيتم توفيره على الفور، وسيرشد مسؤول المطار الرجال إلى دورات المياه والمطعم.

كانوا قد توقفوا بمفردهم في الطرف البعيد من ممر الطائرات. كان هذا لإبقاء المدنيين القلائل وعمال الإغاثة الأجانب الذين يتجولون في مبنى المطار بعيدين بما يكفي عن طائرة الشحن غير المميزة ليروا شيئًا لا ينبغي لهم رؤيته. ومع ذلك، دعا السودانيون **جينادي** وطاقمه للاستمتاع بوسائل الراحة في مبنى المطار أثناء انتظارهم لتفريغ الطائرة وتزويدها بالوقود.

بعد أن ابتعد السودانيون، طلب **جينتري** من **جينادي** أن يبقي رجاله على متن الطائرة. من منظور أمني، لم يرَ **كورت** أي فائدة في تجول الرجال الروس بين المدنيين. لكن الطيار كان هو المسؤول، وليس الراكب المتسلل، وأخبر رجاله أنهم سيقلعون في غضون ثلاث ساعات وسيحتاجون إلى العودة إلى الطائرة في غضون ساعتين، ولكن حتى ذلك الحين يمكنهم أن يفعلوا ما يحلو لهم.

بعد عشرين دقيقة، خرج **كورت** وطاقم طائرة الإليوشن من حرارة الأصيل الخانقة ودخلوا إلى بئر سلم عند مدخل جانبي لقاعة المطار. كاد **كورت** أن يبقى في الخلف، لكنه أراد أن يبقي عينيه على الروس ليتأكد من أنهم يتصرفون بلباقة. لم يكن معه أي معدات على الإطلاق. بقي مسدسه على متن الطائرة في حقيبته. لم يكن لديه أي فكرة عن الإجراءات الأمنية التي قد يجدها هنا ولم يرغب في المخاطرة بتفتيشه من قبل نسخة محلية من إدارة أمن النقل. فقط محفظته المليئة باليورو والروبل والجنيهات السودانية كانت تبرز من خطوط بدلة طيرانه ذات اللون الزيتي. أدت السلالم إلى طابق واحد علوي إلى قاعة فارغة تقريبًا، أصغر من سوبر ماركت أمريكي نموذجي. كان عدد قليل من السكان المحليين يتجولون، وجلس جنود حكومة **السودان** على الأرض أو تجولوا وبنادقهم الهجومية تتدلى مقلوبة على ظهورهم. وجد طاقم الطائرة، مع الأجنبي السري المخبأ بينهم، دورات المياه واستخدموها، ثم وجدوا المطعم الصغير وجلسوا. استقبلهم نادل أعلن أنه مصري، وكأن هؤلاء الروس يهتمون، بحماس ووزع عليهم قوائم الطعام. لم يكن أي من الروس يتحدث العربية. أما **كورت**، فقد قضى وقتًا أكثر من كافٍ في العالم الناطق بالعربية لطلب وجبة، لكنه التزم الصمت. لم يكن على وشك أن يميز نفسه عن بقية طاقم الطائرة بأن يصبح مترجمهم.

طلب **جينادي** الطعام للطاولة. لقد كان هنا في **الفاشر** عدة مرات من قبل، وهو الأمر الذي أدرك **جينتري** أنه ما كان يجب أن يكون مفاجئًا. كان التجاهل الصارخ للعقوبات الدولية من قبل حكومة طاغية أفريقي أمرًا معتادًا، وكذلك حرص الروس على الاستفادة منه، وكذلك صدمة وغضب الأمم المتحدة في كل مرة يدركون فيها ذلك.

بينما كانوا ينتظرون طعامهم، واصلت عينا **كورت** مسح البيئة المحيطة. كانتا لا تزالان تتكيفان مع الضوء الخافت داخل مبنى المطار مقارنة بالضوء على المدرج. نظر من فوق كتفه إلى أسفل الممر وانكمش في داخله.

اللعنة. ها هي المرأة البيضاء قادمة.

لم يكن بحاجة إلى هذا.

"**عذرًا. هل يتحدث أي منكم أيها السادة اللغة الإنجليزية؟** "ابتسمت **إيلين** ابتسامة عريضة، موجهة سؤالها نحو الطيار وهي تركع بجانبه على رأس الطاولة. استطاعت أن تعرف أنه القائد من هيئته ومشيته؛ كان يجلس منتصبًا على الطاولة المليئة بالرجال الذين يرتدون بدلات طيران مبللة بالعرق. كان هناك خمسة رجال في طاقم الطائرة؛ جميعهم يرتدون زيًا أخضر متطابقًا، بدون أسماء أو شعارات أو علامات من أي نوع. لم يكن أي من الرجال يبدو عسكريًا بشكل خاص في تسريحات شعرهم أو مستويات لياقتهم البدنية، لكن **إيلين** كانت أذكى من أن تستخلص الكثير من الاستنتاجات بسرعة كبيرة. قد يكون هؤلاء طيارين عسكريين يعملون لصالح **روسوبورون إكسبورت** أو عسكريين روس سابقين. في كلتا الحالتين، لم يكن الأمر مهمًا.

"**نعم، أتحدث قليلاً** ."ابتسم لها الطيار أحمر الشعر، ثم ببطء وبإيحاء، نظر إليها من الأعلى إلى الأسفل. أدركت **إيلين** أن أفعاله كانت لتسلية زملائه؛ كانت تعلم أنها ليست منظرًا يستحق المشاهدة في هذه اللحظة. على الفور قررت أن الرجل خنزير، لكنها قالت لنفسها أيضًا إنها يمكن أن تستخدم هذا الإلهاء لصالحها. انحنى بعض الرجال الآخرين أقرب إليها أيضًا.

"**عظيم**"، قالت بابتسامة عريضة وودودة مصممة لتهدئة الرجال، على الرغم من أنهم لم يبدوا متيقظين بالتأكيد" .**إيلين والش، الأمم المتحدة** ."كانت كذبة، لكنها قيلت دون أن يرف لها جفن" .**أنا سعيدة حقًا برؤيتكم يا رفاق. لقد علقت هنا في الفاشر لمدة ثلاثة أيام. أبحث عن وسيلة نقل للخروج من هنا، إلى الخرطوم، بورتسودان... في هذه المرحلة سأذهب إلى**

أي مكان تقريبًا لمجرد الخروج من هذا المبنى. سأكون سعيدة بدفع مبلغ نقدي لكم مقابل المتاعب، وأنا متأكدة من أن مكتبي يمكنه تسوية الأمر مع صاحب عملكم."

من الواضح أن الطيار الشبق لم يفهم كل كلمة. أمال رأسه مرتين. كانت تعلم أنها تتحدث بسرعة بعض الشيء؛ بدا أن وتيرة كلماتها تتماشى مع ارتفاع معدل ضربات قلبها.

"ربما يمكننا التوصل إلى ترتيب. انضمي إلينا لتناول العشاء أولاً، من فضلك، وسنناقش هذا."

"يسعدني ذلك ."جلست **إيلين** وابتسمت، لكنها كانت تعلم أن هذا الرجل لن يسمح لها بالسفر على طائرته. كان يماطلها لأسباب شخصية. كانت تعرف الآن أن رحلة على متن هذه الطائرة الغامضة كانت أملًا كبيرًا جدًا، لكنها ستماطل هذا اللعين أيضًا، لترى ما إذا كان بإمكانها استخلاص معلومات منه أو حتى مجرد إلقاء نظرة أقرب على طائرة الإليوشن أو حمولتها.

يمكن لاثنين أن يلعبا اللعبة التي كان يلعبها. انحنت قريبة منه.

جاء صوت من نهاية الطاولة يقول" : **Chto vy delaete? ؟** "(ماذا تفعل؟). نظرت **إيلين** إلى المتحدث، ورأت أنها بطريقة ما أخطأت في عد الروس من قبل. كان هناك ستة رجال على الطاولة، وليس خمسة، وهذا الرجل السادس كان يطرح سؤالاً على الطيار. كان، مثل غالبية هؤلاء الرجال، ذا لحية كثيفة وشعر أشعث؛ كان شعره أطول من الآخرين. بدا أكثر رياضية من البقية، وأغمق بشرة. عندما لم يجبه الطيار، كرر سؤاله.

" Chto vy delaete?"؟

"ماذا تقصد، ماذا أفعل؟ "رد **جينادي** باللغة الروسية" .**أنا أدعو هذه السيدة الجميلة لتناول العشاء معنا."**

"يجب ألا تسمح لها بالصعود إلى الطائرة"، قال **كورت** بحدة، مجهداً قدراته في اللغة الروسية لفعل ذلك.

نظر إليه **جينادي** وأجاب" :**أنت لا تخبرني من يمكنني ومن لا يمكنني السماح له بالصعود على متن طائرتي. لا أعرف من أنت، لكنني أعرف من أنا. أنا الطيار. أنا المسؤول."**

أشاح **كورت** بنظره. انجرفت عيناه مرة أخرى فوق القاعة. مبتعداً عما بدأ يبدو أكثر فأكثر وكأنه فوضى لعينة على وشك الحدوث.

قدمت المرأة الكندية نفسها باسم **إيلين** .صافحت يد كل رجل بابتسامة. لم يجرِ **كورت** أي اتصال بالعين عندما صافح يدها برخاوة وهمهم باسم **"فيكتور."**

"إذاً، من أين أنتم يا رفاق؟"

"نحن روس"، قال **جينادي**.

"روس. واو. رائع."

استدار **كورت** لدراسة وجه المرأة بعناية الآن، كطالب فن يدرس ضربات فرشاة لوحة زيتية على جدار متحف.

"ما الذي أتى بكم أيها السادة إلى دارفور؟"

"تصرف بهدوء يا **جينادي**"، قالها **كورت** لنفسه باللغة الروسية.

"ما هي وظيفتك مع الأمم المتحدة؟ "سأل الطيار الروسي بحذر، رادًا على سؤال بسؤال وليس بالضبط "يتصرف بهدوء" في نظر **كورت**.

ابتسمت المرأة للروسي، وطلبت منه أن يكرر كلامه، على الرغم من أن **كورت شعر أنها** فهمته جيداً. كان **جينتري** مدربًا على البحث عن أدلة في الجهاز الحوفي، وهو جزء من الدماغ يتحكم في الأفعال اللاواعية. عرف **كورت** كيف يميز الحركات والتعبيرات والمواقف التي كانت مؤشرات على الخداع. ألقت هذه المرأة نظرة سريعة إلى اليمين عندما سُئلت عما تفعله، وبالنسبة **لكورت** كانت هذه إشارة إلى أنها ستحاول الخداع بالكلمات التالية التي ستخرج من فمها. وأن تأخيرها بطلبها منه تكرار كلامه كان مجرد مؤشر إضافي على أن إجابة خادعة أو غير صحيحة يتم إعدادها وستكون في طريقها قريبًا.

أخيرًا أجابت" :**أوه، أنا مجرد مسؤولة إدارية لإمدادات الإغاثة** ."هزت كتفيها، **"الخدمات اللوجستية وما شابه. لا شيء مثير للاهتمام** ."مدت ذراعها اليمنى عبر جسدها وفركت ذراعها اليسرى.

"هراء"، فكر **كورت** .أما **جينادي**، من ناحية أخرى، بدا مرتاحًا لجوها غير المبالي.

"نعم. حسنًا، نحن نجلب معدات نفطية إلى دارفور"، قال الطيار بينما أحضر النادل المصري أكوابًا من الشاي الساخن إلى الطاولة.

لم يكن **كورت** راضيًا عن إجابة **جينادي**؛ كان يفضل كثيرًا لو قال إن الأمر لا يعنيها. لكن على الأقل لم يقل إنه كان ينقل أطنانًا من الرشاشات التي تتغذى بالحزام والذخيرة.

بدت المرأة في حيرة، وارتفع مؤشر المتاعب المدمج لدى **جينتري** أعلى على المقياس.

"فهمت"، قالت، لكن لغة جسدها أشارت إلى أنها لم تفهم. كشف تعبير دقيق على وجهها عن الإثارة، وليس الحيرة" .**كنت أعتقد أن الصينيين سيستخدمون معداتهم الخاصة."**

"الصينيون؟ لماذا تتحدثين عن الصينيين؟ نحن الروس خبراء في النفط. الكثير من النفط في سيبيريا"، قال **جينادي** بابتسامة اعتقد على الأرجح أنها مثيرة.

أتاح بحث **كورت** عن **السودان** والوضع النفطي خلال الأسبوعين الماضيين له معرفة، من الواضح، أن هذه المرأة **إيلين والش** ستمتلكها أيضًا. كان الصينيون يسيطرون على جميع مواقع التنقيب عن النفط في منطقة **دارفور** .كان من الواضح أن **جينادي** لم يكن يعرف هذا.

"أوه ."تظاهرت بالدهشة، لكن **كورت** التقط أدلة على أنها أدركت أن الطيار الروسي كان يكذب عليها بشأن الشحنة. تركت الأمر وبدأت تضع السكر الرمادي المتسخ في الشاي حتى عندما وضعه النادل أمامها.

هل كانت يدها ترتعش؟

"لماذا أنت في الفاشر؟ "سأل **جينادي**.

ترددت، مرة أخرى مدت يدها عبر جسدها لفرك ذراعها الأخرى، مغطية نفسها ومريحة نفسها بهذا الفعل. علامات واضحة على القلق والخداع لخبير في لغة الجسد مدرب مثل "الرجل الرمادي."

"أتيت لتفقد مخيم زمزم للنازحين داخليًا. لسوء الحظ، لم يكن لدى موظفي جميع وثائقي وتصاريحي جاهزة، لذا لن يسمحوا لي بالخروج من المطار. أنا يائسة حقًا للحصول على وسيلة للخروج من هنا ."نظرت إلى الطيار مرة أخرى، وهو نظر إليها. رفع حاجبيه بإيحاء لكنه لم يعرض عليها مقعداً على متن طائرته.

لم يقل **جينادي** شيئًا.

"هل زرت دارفور من قبل؟"

"**نعم**"، أجاب الطيار بغرور" .**مرات عديدة.**"

أومأت المرأة برأسها، ولا تزال تبتسم" .**الأمر فظيع هنا. أربعمائة وخمسون ألفًا قتلوا في السنوات الثماني الماضية، ولا نهاية في الأفق. ملايين آخرون في المخيمات، إما هنا أو عبر الحدود في تشاد.**"

"**نعم**"، قال **جينادي**" .**الحرب سيئة جدًا.**"

أراد **كورت** أن يمد يده عبر الطاولة ويصفع هذا التصنع عن وجهه.

بعد بضع ثوانٍ، قالت **إيلين**" :**طائرتك تلك رائعة. إنها إليوشن، أليس كذلك؟ تبدو كبعض الطائرات التي لدينا في مخزوننا** ."أضافت بسرعة" :**أنا أشحن الكثير من البضائع في وظيفتي، على الرغم من أنني لم أكن أبدًا في طائرة شحن.**"

"**إنها إليوشن. طائرة روسية ممتازة**"، قال **جينادي**، وأومأت **والش** معه، وبدت وكأنها تتملق كلماته.

"**إليك بعض المعلومات الطريفة عن الطيران**"، قالت **إيلين** بابتسامة متحمسة" .**هل تعلم أن أميليا إيرهارت هبطت هنا في الفاشر في محاولتها للدوران حول العالم؟**"

أمال **جينادي** رأسه قليلاً" .**من؟**"

"**أميليا إيرهارت. الطيارة الأنثى؟ الطيارة الأنثى الشهيرة التي اختفت وهي تطير حول العالم عام 1937.**"

نظر إليها **جينادي** فقط.

"**بالتأكيد سمعت**"...

"لم أسمع قط بهذه المرأة، لكنني لست متفاجئًا باختفائها. النساء لا يصلحن كطيارات جيدات"، قال، كما لو كانت هذه أبسط حقيقة في علم الطيران. تبع تعليقه تلويحة رافضة بيده ورشفة عالية من الشاي. لاحظ **كورت** المرأة وهي تسقط قناع إعجابها بالرجل الروسي وتكشف عن مشاعرها الحقيقية بالاشمئزاز.

لكن القناع ارتفع مرة أخرى على الفور تقريبًا.

"حسنًا، لقد سمعت أشياء رائعة عن الطائرات الروسية. وعن الإليوشن. طائرات الأمم المتحدة لدينا تؤدي الغرض، لكنها مملة بعض الشيء. هل تعتقد أنه يمكنني إلقاء نظرة أقرب على طائرتك الجميلة؟ لا تقلق، لن أحاول قيادتها. ربما سأختفي فقط."

كانت ابتسامتها عريضة وودودة، وأدرك **كورت** أنها خدعة تامة.

ابتسم لها **جينادي** لفترة طويلة دون أن يجيب. هز كتفيه، لكنها كانت هزة كتف تشير إلى أن أي شيء ممكن.

سألها بعض الروس الآخرين أسئلة باللغة الإنجليزية المكسرة. هل كانت متزوجة —— لا. من أين هي —— **فانكوفر** .منذ متى وهي في **السودان** ——شهر. لم يرَ **كورت** أي خداع في أي من الإجابات التي قدمتها. لكنه لاحظ أنها تنظر إليه، ربما التقطت تدقيقه فيها، وهذا جعل **جينتري** يشيح بنظره مرة أخرى.

"جميعهم يصدقونها باستثناء ذلك الرجل الأسمر. إنه يشك. إنه يعلم أنني أكذب."

حاولت **إيلين** أن تبتسم ابتسامة عريضة للرجل في نهاية الطاولة، لكنه استدار بعيدًا، شاعرًا بالملل. على عكس بقية أفراد الطاقم، لم يحدق بها. لا، بخلاف تعليقه السابق **لجينادي**، لم

يكن جزءًا من المحادثة، لكن كان من الواضح لها أنه كان يستمع. إما أنه فهمها تمامًا أو كان يكافح لفعل ذلك.

لكن الأهم من الرجل الهادئ في نهاية الطاولة كانت الطائرة الكبيرة في نهاية ممر الطائرات. كان عليها فقط أن تلقي نظرة أقرب عليها، وتلتقط صورة أو صورتين، وبطريقة ما تحصل على مزيد من المعلومات الاستخباراتية حول هذه الرحلة إلى قلب شمال **دارفور** .تساءلت عما إذا كان جيش حكومة **السودان** يقوم الآن بتفريغ الشحنة من الطائرة.

"هل سيتعين عليكم تفريغ طائرتكم بأنفسكم، أم أن لديكم شخصًا من شركة النفط للقيام بذلك؟"

"السودانيون سيفعلون ذلك"، قال **جينادي**، وتابع على الفور" :**سيستغرق الأمر ساعة أخرى، على الأقل. سيذهب رجالي ويعودون لمساعدتهم، لكن يمكنني البقاء معك والاستمتاع بكوب شاي آخر** ."ابتسم، فابتسمت هي، ونظر الرجل الهادئ في نهاية الطاولة إلى طياره. تحدث إليه باللغة الروسية؛ لم تفهم **إيلين** كلمة واحدة.

"أنا لا أثق بها. أسئلتها كثيرة جدًا"، قالها **كورت** باللغة الروسية ولم يكن قلقًا على الإطلاق من أن المرأة ستتعرف على عدم ثقته من نبرته.

أشاح **جينادي** بنظره عن المرأة ونحو **جينتري** .كان رده باللغة الروسية أيضًا" .**لست بحاجة إلى الثقة بها. لن أتزوجها. سأضاجعها. ستبدو جيدة مع حمام وبعض المكياج."**

تنهد **كورت"** .**سنغادر في غضون ساعتين."**

"لا أقصد الآن، على الرغم من أن هذا وقت كافٍ. أقصد في رحلتي القادمة إلى الخرطوم. أنا أجهز الطاولة الآن. عندما أذهب إلى الخرطوم في المرة القادمة، سآكل وجبتي."

تابعت **إيلين** المحادثة حول الطاولة بعينيها. من الواضح أنها لم تفهم.

تنهد **كورت** مرة أخرى. فكر في ذكر اسم **سيدورينكو** .من المحتمل أن يرعب هذا **جينادي** ويجعله يمتثل لراكبه غير المصرح به. لكنه لم يفعل" **.دعنا فقط نأخذ طعامنا ونعود إلى الطائرة."**

"هذه فكرة جيدة. أنت والشباب اتركاني أنا والآنسة كندا بمفردنا ."ضحك **جينادي** من قلبه، وكذلك فعل الرجال الآخرون.

أشاح **كورت** بنظره، غاضبًا لكنه يسيطر على غضبه.

"لماذا يراودني شعور بأنكم تتحدثون عني؟ "سألت **إيلين والش** بابتسامة.

وقف **كورت** دون كلمة وبدأ يتجه عائداً إلى الطائرة. لن ينتظر طعامه. سيأكل فقط الحصص الجافة في حقيبته.

الفصل السابع عشر

توقف **جنتري** مرة أخرى في دورة المياه. غسل وجهه ببطء ليهدأ. قرر أن يتناول بعض الهيدروكودون عندما يعود إلى حقيبة ظهره؛ سيساعده ذلك على الاسترخاء في رحلة العودة إلى **بيلاروسيا**، ولن يضر أي شيء؛ فلن يكون في وضع التشغيل مرة أخرى لبضعة أيام.

ولكن أولا كان عليه أن يحذر من هذه المرأة الكندية. شخصيا، كان يؤيد تماما أن يلاحظ شخص ما ما يفعله الروس هنا، ويتصل بصحيفة، أو منظمة دولية، ويكشف انتهاكات العقوبات. ولكن ليس الآن. سيحتاج **كورت** إلى استمرار هذا الترتيب المشبوه على الأقل حتى تكتمل عمليته. لا يمكن التسامح مطلقا مع غربية تثير المشاكل لرحلات "روسوبورون إكسبورت"، وبالتالي تعرقل وسيلة دخوله إلى **السودان**.

كان قد أغلق الصنبور للتو وجفف يديه في بذلة عمله عندما دخل الملاح خلفه. أومأ للأمريكي وقال" :**جينادي يأخذ الفتاة ليريها الطائرة** ".استطاع **كورت** أن يعرف أن الملاح لم يكن متحمسا للفكرة، لكن الروسي هز كتفيه ببساطة ودودة" .**أنا وفلادي لدينا رهان. أعتقد أنه سيفعلها معها في قمرة القيادة، فلادي يقول إن جينادي سيتلقى صفعة على وجهه. هل تريد المشاركة في الرهان يا صديقي؟"**

على عكس الملاح، لم تكن لدى **جنتري** أي نية لأخذ خرق الطيار الفاضح للأمن العملياتي ببساطة. اقتحم طريقه متجاوزا الرجل الضخم وخرج إلى الردهة. رأى المرأة و**جينادي** يسيران نحو الدرج المؤدي إلى المخرج الجانبي، هي وحقيبة ظهرها على كتفها، وهو وطبق طعامه في يده.

قال **كورت** بهدوء" :**بحق الله** ".فكر في إمساك **جينادي** من خصلة شعره الحمراء، وجره إلى زاوية، وإخباره أنه سيتصل بمافيا **سانت بطرسبرغ**، التي رتبت مهمته في المقام الأول. مكالمة واحدة من **كورت**، وسيجعل **سيد** عائلة **جينادي** تُلقى في شاحنة في غضون نصف ساعة بالضبط. سيفعل **جينادي** ما يؤمر به فقط إذا ذكر **جنتري** اسم **سيدورينكو**.

ثم رأى **كورت** مسؤولي أمن المطار، يقفون بملل خلف منضدة عالية.

نعم، كان هذا هو الخيار الأفضل. يمكنه أن يوضح للسودانيين أن هذه الناشطة الخيرية من الأمم المتحدة تزعج رحلة الأسلحة الروسية السرية. سيسبب ذلك مشاكل للمرأة، لا شك في ذلك، ولكن فقط حتى يقلع هو والروس. إذا أمكن فقط كبح فضولها حتى إقلاع الطائرة، يمكن لـ**كورت** أن يواصل طريقه ويترك هذا اليوم الضائع خلفه.

سيظل أمن **كورت** العملياتي قائما، ولن تعرف المرأة من الأمم المتحدة شيئا يعيق هذه الرحلة أو رحلته التالية في غضون ثلاثة أيام، ولن يعرف طاقم الطائرة الروسي أي شيء لا يحتاجون إلى معرفته عن **جنتري** وأصحاب عمله.

سأل **كورت** شرطي أمن المطار الشاب الممل" :**إنجليزية؟** ."هز الأفريقي رأسه، وكذلك فعل الرجل بجانبه.

"**فرنسية؟** "مرة أخرى، هزا كلا رأسيهما.

قال **كورت** بالإنجليزية" :**حسنا**"، قبل أن يتحول على مضض إلى العربية" .**السلام عليكم**".

جاء الرد المهذب ولكن الرسمي من كلا الرجلين" :**وعليكم السلام**".

واصل **كورت** بالعربية" **.يجب أن أتحدث إلى رئيسك".**

"ما هي المشكلة؟"

"أنا مع الطائرة الروسية. هناك مشكلة أمنية صغيرة".

أومأ الشرطي، وتحدث بهدوء في جهاز لاسلكي محمول. لم يستطع **كورت** فهم العربية السودانية السريعة. نظر الشرطي مرة أخرى إلى **جنتري" .انتظر لحظة واحدة".**

في أقل من دقيقة ظهر رجلان ملتحيان صغيري البنية يرتديان معاطف وربطات عنق سوداء. ربما لم يبلغ أحدهما الثلاثين بعد، والآخر يكبره بعقد من الزمان أو نحو ذلك. كانت بدلاتهما موحدة؛ لاحظ **جنتري** بصمة مسدسات على وركيهما، واشتبه على الفور في أن هؤلاء الرجال من جهاز الأمن الوطني، الشرطة السرية السودانية.

أوبس. فكر **كورت** .ليس هؤلاء الأوغاد. لم يكن ينوي إثارة كل هذه الضجة حول المرأة.

كان كلا رجلي جهاز الأمن الوطني يتحدثان الإنجليزية، وأخذ **كورت** الضابط الأقدم جانبا. كان صغيرا ونحيلا، ويرتدي نظارات سميكة بإطارات أوسع من وجهه البيضاوي. لم يكن هناك شيء مهدد أو خطير فيه، لكن الحقيقة هي أنه ومرؤوسه كانا يملكان السلطة على كل من حولهما. حراس الأمن، مسؤولو المطار، الشرطة المحلية، حتى ضباط وجنود حكومة السودان هنا كانوا يعرفون أن عليهم الابتعاد عن طريق جهاز الأمن الوطني.

قال **كورت" :المرأة. المرأة البيضاء. من هي؟"**

هز الرجل كتفيه ولوح بيده بازدراء" **.إنها كندية. قيل لنا ألا ندعها تخرج من أرض المطار ولكن ألا نعتقلها. إنها مجرد عاملة إغاثة في يوناميد؛ كل أوراقها سليمة، باستثناء أنها لم يكن لديها الختم في وثائقها للسماح لها بالدخول إلى مخيم زمزم".**

"أعتقد أنها تريد أن تسبب لنا المشاكل".

"إنها ليست مهمة؛ إنها مجرد خواجة عالقة هنا في المطار، تنتظر العودة إلى الخرطوم".

"خواجة؟"

"شخص أبيض. آسف".

"إنها تسأل أسئلة عن الطائرة والشحنة".

لفت ذلك انتباه رجل جهاز الأمن الوطني. بدا أنه يربط بين حقيقة أن رحلة "روسوبورون إكسبورت" لم يكن من المفترض أن تكون في **دارفور**، وأن هناك غربية هنا، تربط هي نفسها بين هذه الحقائق. شعر **كورت** بالسوء لتسليم المرأة لعملاء جهاز الأمن الوطني. كانوا أوغادا من الدرجة الأولى، كان **كورت** يعلم. كان يأمل فقط في إثارة اهتمام أمن المطار. ولكن الآن، شاء أم أبى، تورط جهاز الأمن الوطني. إذا تصرفوا بناء على معلوماته، فسيتم احتجازها لساعات بلا شك. من يدري، فكر **كورت** في نفسه، قد يتم طردها من البلاد إذا كانوا قلقين بما فيه الكفاية بشأن اهتمامها بالروس.

لا مزيد من توزيع البطانيات والمياه المعبأة لها.

ومع ذلك، كان عليه أن يمضي في مهمته؛ كانت مهمته ذات أهمية قصوى، ولم يكن فوق استخدام هؤلاء البلطجية من جهاز الأمن الوطني لمساعدته على إبعاد هذه الحشرة الصغيرة المزعجة عن وجهه.

نظر رجل جهاز الأمن الوطني من النافذة المتسخة نحو المدرج. كان ضوء النهار يتلاشى بسرعة، وكانت طائرة Il-76 بعيدة عن الأنظار، على بعد عدة مئات من الأمتار إلى اليسار . **"كانت أوامرنا إبعاد أي رحلات لمنظمات غير حكومية أثناء وجودكم على الأرض. لم**

يقل أحد أي شيء عن الأشخاص الذين كانوا هنا بالفعل ".بدا الرجل قلقا على نفسه. لم يزعج هذا **كورت**؛ سيكون بالتأكيد دافعا كبيرا له.

قال **كورت**" :**أقترح أن تأخذها فقط إلى مكتبك حتى نغادر. لم تر الشحنة، ولا تعرف شيئا. ليس لديها أي فكرة عن أننا من روسوبورون إكسبورت** ".لم يكن **كورت** سيذكر أنها اقتربت في البداية من طائرة الإليوشن وكادت تتوسل للسماح لها بالصعود، لأن ذلك قد يسبب لها مشاكل أكثر مما يحتاج إليها. لا، قليل من القلق من جانب هذا الرجل كان كل ما هو مطلوب لنزع فتيل الموقف وإنهاء الأمر. بدأ **جنتري** يشعر بالثقة في أن كل شيء سيسير على ما يرام.

أومأ الرجل بتقدير إلى حد ما" .**حسنا. نعم، حسنا. سنتحدث معها**".

بعد عشر دقائق، اصطحب رجلا جهاز الأمن الوطني **إيلين والش** التي كانت تبدو قلقة للغاية ولكنها مطيعة إلى مكتب صغير متفرع من الردهة الرئيسية للمطار. تبعهما إلى الغرفة الطيار الروسي و**كورت جنتري** .أراد **كورت** فقط الصعود إلى الطائرة مع الطاقم والرحيل من هنا، لكن **جينادي** أصر على المجيء لحضور مقابلة المرأة مع جهاز الأمن الوطني، ولم يكن هناك أي طريقة سيسمح له **جنتري** بالقيام بذلك بمفرده. كان **جينادي** غاضبا من السودانيين لمقاطعة إغوائه للمرأة الجذابة، لكنه على ما يبدو ظن أنه إذا استطاع مساعدتها في الاستجواب، والوقوف في وجه هؤلاء البلطجية من العالم الثالث، فستقع في حبه وتنام في سريره في رحلته التالية إلى **الخرطوم**.

لكن **كورت** استطاع أن يرى أن الروسي كان غاضبا منه. تبادلا نظرات حاقدة بينما وقفا على جانبي **والش** .من الواضح أن **جينادي** استنتج أن الأمريكي هو من أبلغ الأمن عن **إلين** .ربما

ظن الروسي، كما خمن **كورت**، أن هذا ليس أكثر من عرقلة نابعة من غيرة الأمريكي لاهتمام المرأة الكندية بالروسي.

يا له من يوم ملعون تماما، فكر **كورت** وهو يقف هناك، يتبادل نظرات تهديدية مع **جينادي** .من الأفضل ألا يزداد هذا الأمر سوءا.

قضى رجل جهاز الأمن الوطني الأكبر سنا، صاحب النظارات المضحكة، بضع دقائق في تفتيش ممتلكات **والش** .ظن **كورت** أن الأمر مجرد استعراض، ولكن عندما أخرج الدفتر الأسود الذي رآه **جنتري** تقلب فيه في وقت سابق على المدرج، بدأ يقلق. كان يأمل ألا يكون هناك أي شيء قد يسبب المزيد من المتاعب للمرأة. تصفح الرجل الصفحات وتوقف عند رسم تخطيطي مرسوم باليد ووصف لطائرة الإليوشن. نظر إلى الفتاة" .**لماذا تسألين أسئلة عن رحلة الشحن هذه؟ ما هو اهتمامك بهذه الطائرة؟"**

"أنا أحب الطائرات. هل هذه جريمة في بلدكم؟"

حدق الرجل فيها طويلا. في أمة لا يسمح فيها إلا لعدد قليل من النساء بالعمل خارج المنزل، كانت سيدة بيضاء ترد الكلام بمثابة شيء مثير للدهشة، ومن الواضح أنه لم يكن متأكدا من كيفية التعامل معها.

وجدت **إيلين** نفسها لم تعد خائفة. لقد أنجزت الكثير في الساعة الماضية، وعلى الرغم من أنها لم يكن لديها دليل مصور على أن الروس ينتهكون العقوبات، إلا أن تصرفات جهاز الأمن الوطني الآن أعطتها كل الدليل الذي تحتاجه للتأكد من أنها على المسار الصحيح.

لقد أحسنت صنعا للوصول إلى هذا الحد، وكانت تعرف ذلك. تحت غطاء كونها موظفة في الأمم المتحدة، سحرت الطيار تماما ليأخذها على متن الطائرة، ووصلت إلى مسافة خمسة

وعشرين ياردة من المنحدر الخلفي للطائرة عندما جاءت سيارة جيب من الجنود وأخذتهم. أصر الروسي على الذهاب معها؛ أراد أن يتظاهر بأنه فارسها في درع لامع، على الرغم من أنه كان من الواضح أنه يريد فقط استخدام هذا كوسيلة للدخول في سروالها.

عندما عادوا إلى مبنى المطار، رأت ضابطي جهاز الأمن الوطني اللذين استجوباها قبل أيام يقفان مع عضو الطاقم الروسي المتشكك ذي البشرة الداكنة المسمى **فيكتور** .من الواضح أنه أبلغ هؤلاء الرجال عنها لإبعادها عن الرحلة.

وغد. كانت تعرف ما كان يحاول إخفاءه، ولن يفلت من العقاب.

قاطع جينادي" .**انظر، إنها تشحن بضائع للأمم المتحدة. الأمم المتحدة لديها طائرات-Il 76 في أسطولها. يجب أن تعرف كم هي كبيرة وكم تقطع من مسافة وكم يمكنها أن تحمل. لم ترتكب أي خطأ بطلبها جولة في طائرتي** ".مد يده عبر الطاولة وأخذ ورقة من الدفتر المفتوح، ورفعها لتوضيح وجهة نظره.

نظر الشرطي السري في تعليقات الطيار الروسي للحظة، ثم قال" :**ربما أنت على حق** ".نظر مرة أخرى إلى **والش**" .**من قلت إنك تعملين لديه في الخرطوم؟**"

تنهدت **إلين**، وقلبت عينيها. فركت ذراعها الأيسر العلوي بيدها اليمنى" .**لقد أخبرتكم عشرات المرات، وكما تقول بطاقة هويتي، أعمل لدى يوناميد في قسم النقل والخدمات اللوجستية. جئت إلى هنا لمقابلة عمال المخيمات حول احتياجاتهم و**"——

سأل الشرطي السري" :**ما هو اسم مديرك؟** ."التقط كتيبا كان قد أحضره معه إلى غرفة المقابلة.

"**تشارلز ستيفنز** ".ابتسمت **والش** لفترة وجيزة" .**زميل كندي**".

نظر الرجل في الكتاب لعدة ثوان، وأومأ بمرارة، ثم وضعه جانبا.

كان **كورت** قد بدأ للتو في الاسترخاء مرة أخرى عندما ألقى نظرة على **جينادي** على الجانب الآخر من المرأة قيد الاستجواب. كان الطيار قد لاحظ شيئا على الصفحة التي تحتوي على الرسم والمعلومات حول طائرةIl-76 ، وحدق فيها باهتمام. نما الارتباك على وجهه الآن، وبالنسبة لـ**كورت** لم يكن ذلك يعني سوى المتاعب.

تحدث **جينادي** بهدوء" .**إلين. الطائرة الممثلة هنا هي من طراز".MF**

هزت كتفيها. بسرعة وبلا مبالاة أكبر من أن ترضي ذوق **كورت** .بدا رد فعل مصطنعا.

"**هل هي كذلك؟**"

"**نعم. الأمم المتحدة لا تستخدم طائرات Il-76MF** ." كان الروسي ينظر إليها الآن، لكن عينيها بقيتا إلى الأمام، نحو ضباط جهاز الأمن الوطني.

"**ألا يفعلون؟**"

"**لا... لا يفعلون**".

اللعنة، فكر **كورت** .**جينادي** أصبح متشككا الآن. الجحيم، **كورت** أصبح متشككا الآن بنفسه. لماذا قد يكون لدى ناشطة خيرية من الأمم المتحدة رسم تخطيطي مرسوم باليد للطائرة الروسية؟ كان يأمل حقا أن تتمكن من الخروج من هذا المأزق لأنه لم يكن هناك شيء لعين يمكنه فعله لمساعدتها.

"**من أنت، ولمن تعملين؟** "سأل **جينادي**، بصوت أعلى الآن، ومد يده وأدار المرأة من كتفيها لتواجهه.

الفصل الثامن عشر

أدارها الطيار الروسي. لقد اكتشف أمرها، وعرفت أنها لا تستطيع التظاهر بالغباء معه كما فعلت مع جهاز الأمن القومي.

حان الوقت لردة فعل.

عندما كانت طفلة، كان والدها يقول قولاً مأثوراً، وقد حولته إلى شعارها" .**إما أن تفعلي شيئًا عظيمًا أو تعودي إلى منزلك** ."طوال حياتها، دفعت نفسها إلى أقصى حدود قدراتها، ولم تقبل بالمرتبة الثانية أو الحلول الوسط. والآن، من الواضح أنها وجدت أدلة على عمليات نقل أسلحة غير قانونية بين **روسيا** و**السودان**، وهو بالضبط ما كانت تعرف أنه يحدث، وما أرادت منعه بالضبط من خلال الانتقال إلى **هولندا** والانضمام إلى المحكمة الجنائية الدولية.

لم يكن هذا وقتًا لتكون خجولة، أو مطيعة، أو لتهرب وتختبئ. ستستخدم ثقل منصبها، وقوة منظمتها، وقوة المجتمع الدولي لإخراج نفسها من هنا، بعيدًا عن هؤلاء البلطجية، والعودة إلى مكتبها، حتى تتمكن من الكشف عما اكتشفته. **في الخرطوم**، واجهت مسؤولينفي الحكومة السودانية أعلى منها في السلم الوظيفي بنصف دزينة من المراتب، ولم تكن لتسمح لهؤلاء الرجال بإخافتها. وكان الطيار الروسي وغدًا متعجرفًا يحتاج إلى أن يرى أن النساء لم يوضعن أمامه فقط ليرضخن لإرادته.

إما أن تفعلي شيئًا عظيمًا أو تعودي إلى منزلك؟

لم تكن **إيلين** ستعود إلى المنزل حتى يتم الكشف للعالم عن هذا السر المظلم، السر الذي اشتبه فيه الكثيرون.

كانت على وشك أن تفعل شيئًا عظيمًا.

"قولي شيئًا يا سيدة"، قال **كورت** لنفسه. وقفت هناك، تحدق في الروسي الطويل. احتاج **كورت** إلى إنهاء هذا الأمر، وإلقاء هذه المرأة في الزنزانة الصغيرة هنا في المطار حتى يتمكن هو ورحلته التي تضيع الوقت من الإقلاع والخروج من هنا.

"قولي شيئًا! أي شيء"، توسل **كورت** بصمت إلى المرأة، لكن عندما كسرت الصمت، ندم على الفور على فتحها فمها.

"حسنًا جدًا أيها السادة. اسمي إيلين والش. أنا لست موظفة في اليوناميد. أنا، في الواقع، مفتشة في المحكمة الجنائية الدولية، هنا في السودان للتحقيق في انتهاكات العقوبات المتعلقة بمبيعات الأسلحة من الخارج."

"يا للهول، يا امرأة، لقد حكمت على نفسك بالموت للتو"، فكر **كورت**، وهو يكاد لا يصدق ما يسمعه. كيف يمكنها أن تكون بهذا الغباء؟

اتسعت عينا رجلي جهاز الأمن القومي بشكل لا يصدق، ونظر **جينادي** بعيداً عن **والش** ونحو **جينتري**، وتعبير على وجهه وكأنه قد ضُرب للتو بفأس.

واصلت **والش" :كنا نعلم بأمر هذه الرحلة منذ فترة طويلة. أُرسلت إلى هنا لأرى ذلك بنفسي. يمكنني أن أؤكد لكم أن وكالتي بأكملها، في الخرطوم وهولندا على حد سواء، على دراية تامة بوجودي هنا. إذا لم يُسمح لي على الفور بالتواصل مع طاقمي، فستكون هناك"...**

صرخ عليها **جينادي**" :**أنت تكذبين! لم يكن من المفترض أن نأتي إلى الفاشر. لقد تم تحويل مسارنا في اللحظة الأخيرة فقط. لم يرسلك أحد إلى هنا للتجسس علينا**"!

استعاد رجال الشرطة السرية وعيهم من مفاجأتهم واقتحموا حول الطاولة، متجهين مباشرة إلى **إيلين والش**.

"**المحكمة الجنائية الدولية** "!بدأ **جينادي** بالصراخ خارج الغرفة لبقية طاقم الطائرة، الذين كانوا يقفون في صالة المطار. لم يستطع **كورت** منعه من فعل ذلك. واجهها رجلا جهاز الأمن القومي على الفور، وأداروها، ووضعوا ذراعيها خلف ظهرها. لم يكن لدى هؤلاء الرجال أكثر من وضعين —— إيقاف وتشغيل —— وقد نقرت للتو مفتاح تشغيلهم. لا شك أنهم كانوا قلقين على حياتهم المهنية، بل وحياتهم الخاصة، بالسماح لهذه المرأة بالتجول في المطار بينما كانت طائرة **روسوبورون إكسبورت** متوقفة على مدرج المطار.

"**أيتها العاهرة الكندية اللعينة** "!صرخ **جينادي**، ملتفتًا إلى المرأة مرة أخرى.

صفع الروسي الضخم وجهها بيده القوية. بدأ **كورت** بالتحرك إلى الأمام بهدف كسر فك **جينادي** ودفع ضباط جهاز الأمن القومي إلى الوراء، لكنه تمالك نفسه. كان متخفيًا في شخصيتين في نفس الوقت، ولن يكون لأي من هاتين الشخصيتين أي حافز لمنع الشرطة السرية من احتجاز هذه المرأة. لم يستطع أن يُظهر للسودانيين أنه أكثر من مجرد فرد من طاقم طائرة شحن روسية، ولم يستطع أن يُظهر للروس أنه أكثر من مجرد عميل غير مبالٍ كانوا يدخلونه إلى البلاد.

لذلك وقف هناك، يشاهد، بينما قام رجال جهاز الأمن القومي بتكبيل يديها، وهي تركل **جينادي** وهو يقف أمامها يصرخ باللغة الروسية. سرعان ما اقتحم أربعة جنود مسلحين من حكومة **السودان**، تم تنبيههم بلا شك بالصراخ والمصارعة في غرفة الاستجواب. تراجع

زملاء **جينتري** الروس خارج الباب، وألقى اثنان من الروس الآخرين نظرة خاطفة إلى الداخل، بنظرات فضولية بل وحتى متسلية.

أمسك رجل الشرطة السرية الأكبر سنًا بذقنها وأدار وجهها نحوه" .**هناك مكان نأخذ إليه الضيوف غير المرغوب فيهم. أعدك أنه في غضون دقائق من وصولك إلى بيت الأشباح، ستندمين على تجسسك ضد جمهورية السودان."**

"تجسس؟ أنا لست جاسوسة! لدي كل الحق كعضو في المجتمع الدولي أن"...

"لا تقولي كلمة أخرى يا سيدة "!صرخ **كورت** بصوت عالٍ، دون أي محاولة الآن لإخفاء لهجته الأمريكية والبقاء متخفيًا. كانت هذه الحمقاء تجعل وضعها أسوأ كل ثانية" .**فقط اخرسي وافعلي ما يُطلب منك. أنت لا تعرفين أي شيء. اخرجي من هنا وافعلي ما عليك فعله، لكن لا تظهري أنك تعرفين أي"...**

"هل تتحدث الإنجليزية؟ "نظرت إلى **جينتري**، وحل الارتباك محل غضبها.

حاول **كورت** أن يتفاهم مع المرأة بعبارات قصيرة حتى لا يفهمها الآخرون. تحول إلى اللغة الفرنسية. تمنى بشدة أنها، ككندية، تفهمها وتمنى، بشدة أيضًا، ألا يفهمها السودانيون" .**أنت لست من المحكمة الجنائية الدولية! لا تقولي إنك من المحكمة الجنائية الدولية، وإلا سيقتلونك! أخبريهم أنك كنت تكذبين. أخبريهم أنك لا أحد. الأمم المتحدة، هذا كل شيء** ."نظر إليه أحد رجال جهاز الأمن القومي بدهشة لكنه كان مشغولاً جدًا بمحاولة سحب المرأة القوية إلى كرسي ليتوقف عما كان يفعله.

بدأت **إيلين** تبكي وتصرخ في نفس الوقت" :**أنا لا أتحدث الفرنسية يا أحمق! هل تتحدث الإنجليزية أم لا؟ ساعدني"!**

بعد أن قُيدت إلى الكرسي، ويداها الصغيرتان لا تزالان مكبلتين خلف ظهرها، غادر بعض الجنود، وغادر أحد رجال جهاز الأمن القومي الغرفة لاستخدام الهاتف. كان جميع الروس قد عادوا إلى الصالة، شاعرين بأن العرض قد انتهى.

بقي **كورت** في الغرفة مع الفتاة، يسير جيئة وذهابًا. وقف أمامها وانحنى قريبًا. كانت شفتها تنزف حيث صفعها **جينادي**، وكانت بلوزتها ذات اللون الصدئ ممزقة عند الكتف من معاملة الجنود الخشنة.

تحدث إليها بهدوء، بسرعة، حتى لا يلتقط جهاز الأمن القومي كل شيء" .**استمعي بعناية. لا تقاوميهم، لكن كوني حازمة. اطلبي التحدث إلى شخص من اليوناميد. لا تقولي أي شيء آخر. أنت لست في المحكمة الجنائية الدولية. لم تري شيئًا. أنت لا تعرفين شيئًا** ."
نظر **جينتري** إلى الأرض. ليس إلى عينيها" .**ستكونين بخير** ."استدار وخرج ببطء .
"ستكونين على ما يرام."

"من أنت؟ "نادته.

أبطأ لكنه لم يلتفت وينظر إليها" .**لا أحد."**

سار **جينتري** وبقية طاقم الإليوشن معًا عبر المدرج المظلم نحو الطائرة الضخمة.

كان **كورت** غاضبًا وقلقًا، وشعر بالسوء تجاه المرأة الكندية. تهدلت كتفاه وهو يسير في مؤخرة المجموعة، ورأسه منحنٍ. حاول أن يخبر نفسه أن انفجارها هو الذي أدانها، وأن ذلك كان خطأها، وليس خطأه، وأنه لا يستطيع فعل أي شيء حيال ذلك. لقد أخبرها أنها ستكون على ما يرام، ولكن من كل ما يمكن أن يراه ويخمنه عن الموقف، كان على يقين من أنها ستُقتل. سيكون من السهل جدًا جعلها تختفي هنا والآن، ومن الضار جدًا تركها ترحل

لتكشف ما تعرفه. عرف **كورت** أيضًا أنه إذا كان بإمكانه التوصل إلى هذا الاستنتاج، فمن غير المنطقي تمامًا أن يتوصل جهاز الأمن القومي أو حكومة **السودان** إلى أي استنتاج آخر.

الآنسة **إيلين والش** ميتة.

"خطأك يا جينتري ."قالها بصوت عالٍ، بهدوء، وهو يسير في الليل مع طاقم الطائرة.

كانوا لا يزالون على بعد بضع مئات من الياردات من الطائرة. بدأ **كورت** يتباطأ. نظر لأعلى ورأى أن الآخرين كانوا أمامه بعدة ياردات الآن. تباطأ أكثر. ثم ارتفعت كتفاه المتدليتان وتصلبتا. رفع رأسه من عبوسه وقال" :**جينادي. لا تتركني."**

استدار الطيار، وواصل المشي للخلف" .**ماذا؟ أتركك أين؟"**

"فقط انتظرني. يجب أن"...

"نحن ذاهبون الآن. خمس عشرة دقيقة للتحضير قبل الرحلة، ثم سنكون في الجو. لا أعرف ما الذي تتحدث عنه، لكنني لن أنتظرك. هيا."

وقف **كورت** ثابتًا في الظلام؛ كانت الحشرات تصر وتطن وتغرد وتصدر أصوات نقر في الشجيرات من حوله. نظر من فوق كتفه نحو مبنى المطار المظلم. توقفت سيارة سيدان سوداء بأربعة أبواب عند باب دخول الموظفين.

"اللعنة "!صرخ في الليل.

"هيا بنا "!صاح **جينادي**، بغضب أكبر هذه المرة.

نظر **كورت** إلى الأمام إلى الطائرة التي لا تزال على بعد مائتي ياردة. فكر في معداته التي تزن خمسين رطلاً. تمنى لو كان لديه بعض منها معه الآن.

سأل **جينادي**" :**ما الأمر مع**"...

قاطعه **كورت** .أشار بإصبع مهدد في وجهه" .**لا تتركني! سأعود حالاً. لا تقلع حتى أعود "!** كان يعلم أنه إذا ذكر اسم **جريجور سيدورينكو** فإن هذا الطيار سيفعل بالضبط ما يقوله، لكنه لم يكن على وشك انتهاك أمن العمليات إلى هذا المستوى بعد. بدلاً من ذلك ألقى بكلمة "**من فضلك "!**لم ينتظر ردًا. بدلاً من ذلك، استدار على عقبيه وبدأ يركض عائداً إلى مبنى المطار.

"اللعنة"!

الفصل التاسع عشر

انطلق **الرجل الرمادي** راكضا لمئة ياردة عبر الليلة الدافئة، دون خطة حقيقية سوى العثور على المرأة وإيجاد طريقة ما لمساعدتها. لم يكن سيفتعل شجارا مع مطار مليء بالشرطة السرية والجنود، لذلك لم تكن لديه أي فكرة حقيقية إلى أين يتجه بهذا الاندفاع المتهور، لكنه قضى وقتا طويلا بما يكفي ليثق في قدراته على الارتجال. رأى أمامه شعاعا ساطعا من الضوء الاصطناعي من فتحة باب دخول الموظفين في مبنى المطار. ظهر رجلا جهاز الأمن الوطني في الشعاع، وخلفهما، دفع رقيبان مسلحان من جيش حكومة السودان **إيلين والش** إلى الأمام وإلى المقعد الخلفي لسيارة السيدان ذات الأربعة أبواب. صعد الجنديان على جانبيها، وركب رجلا جهاز الأمن الوطني في المقدمة. انطلقت السيارة، في الاتجاه المعاكس لركض **جنتري**، تماما عند وصوله إلى المدخل الجانبي للمبنى. كان يعلم أنهم يتجهون إلى مخرج المطار، آخذين المرأة بعيدا.

وكان يعلم إلى أين يذهبون.

مركز احتجاز جهاز الأمن الوطني في **الفاشر**.

بيت الأشباح.

صاح مرة أخرى وهو يتوقف عن الركض" :**اللعنة**."**!**نظر إليه حارسان من حراس المطار من المدخل، ربما بفضول غامض، لكنهما لم يخرجا.

نظر **جنتري** حوله بحثا عن سيارة لكنه لم يجد شيئا. بدلا من ذلك، استدار وبدأ يسير عائدا نحو الطائرة. بمجرد أن غادر الأضواء الخافتة القادمة من مبنى المطار واختفى عن أنظار الحراس، بدأ يركض مرة أخرى. هذه المرة استدار حول جانب المبنى وانطلق بين عدة

حاويات شحن كانت قد رصت لتكون بمثابة مكاتب متنقلة لمنظمة غير حكومية يبدو أنها رحلت منذ فترة طويلة. بعد تجاوزها، غادرت قدماه مدرج المطار الدافئ وغاصت في رمال مغطاة بالقش وتراب صلب. ارتفع تل صغير نحو نهاية ممتلكات المطار، على بعد خمسين ياردة أخرى. كان هناك سياج معدني هنا. كان **كورت** قد لاحظ أنه يمتد بمحاذاة طريق مزدحم بشكل معقول، عندما كان لا يزال هناك ما يكفي من الضوء لرؤية هذه المسافة. الآن لم ير أي مصابيح أمامية، لكنه لم ير أي حراس هنا في الظلام الموحش. ركض متجاوزا حطام طائرة ضخمة ذات أجنحة عالية ومروحتين من الواضح أنها تحطمت ثم سحبت إلى هنا لانتظار الدفن النهائي في الرمال الذي سيحدث على مدى سنوات من الرياح الدوامة.

توقف **كورت** فجأة عند قاعدة السياج. كان ارتفاعه عشرة أقدام وتعلوه لفائف سميكة من الأسلاك الشائكة. فك رباط حذائه لكنه تركه في قدميه، ثم تسلق السياج بسرعة وبراعة. في الأعلى تمسك بيد واحدة أسفل الأسلاك الشائكة مباشرة، وخلع حذاء واحدا ثم الآخر. كافح لوضع يديه في الحذاءين، مرة أخرى واحدا تلو الآخر، احترق الجلد بين أصابع قدميه وهي تنحشر في حلقات السياج المعدني، وتدعم كل وزن جسده الذي لم يستطع رفعه بيد واحدة. ضغط على الأسلاك الشائكة بيديه المغطاتين بالحذاء، باذلا قصارى جهده لتغطية أوسع مساحة ممكنة. ضغط على الأشواك الخطرة بقوة على قمة السياج المعدني بالنعال المطاطية السميكة. ثم، مع إبقاء الحذاءين ثابتين، واصلت قدماه الصعود على السياج حتى اقتربتا من القمة، واضعا جسده مثل سباح على منصة البداية ينتظر طلقة البداية. من هنا نقل كل وزن جسده إلى ذراعيه، وركل ساقيه لأعلى حتى أصبح في وضع وقوف على اليدين غير متقن على قمة السياج، ثم ترك ساقيه تتقدمان. أكمل الشقلبة وطار في الهواء، وتطاير الحذاءان من يديه وهو يترك الأسلاك الشائكة، وهبط في كومة متدحرجة في التراب خارج أراضي المطار.

لم يصب بأذى، ربما كدمة صغيرة أو اثنتين على ذراعه وظهره، ووجد حذاءه الأول على الفور في الظلام. استغرق الأمر بضع ثوان ليدرك أن الآخر لا يزال عالقا في الأسلاك الشائكة، وكان

عليه أن يتسلق مرة أخرى وينزعه بقوة. ثلاثون ثانية أخرى لإعادة ربط أربطته، واتجه أسفل التل الصغير نحو الطريق.

لم يكن **كورت** قد درس خريطة **الفاشر**، ولم يكن متأكدا من أنه سمع حتى باسم المكان قبل تلك الظهيرة. لكنه جلس في قمرة القيادة وانتبه إلى التضاريس والمنطقة المحيطة بينما كانت طائرة Il-76 تحلق في مرحلة الاقتراب الأساسية بمحاذاة المطار. من هذا علم أن الطريق الذي تسلكه سيارة جهاز الأمن الوطني يتجه شمالا لمسافة ميل أو نحو ذلك قبل أن يلتقي بالطريق السريع الذي يمتد شرقا وغربا. عند هذا التقاطع سينعطفون يمينا، وسيستغرقهم الأمر عدة دقائق أخرى للوصول إلى مدينة **الفاشر**.

عرف **كورت** أنه إذا استطاع الاستيلاء على نوع ما من المركبات، فيمكنه أن يسبقهم ويعترضهم قبل الوصول إلى **بيت الأشباح**. في البداية ملأه ضوء أمامه على الطريق بالتفاؤل. في غضون ثوان رأى المصباح الأمامي الوحيد لما افترض أنها دراجة نارية تقترب. كان هذا مثاليا. لم يكن **كورت** ليرغب في شيء أفضل من الحصول على دراجة. يمكنه أن يتسلل عبر حركة المرور بسرعته الخاصة ويجد **إيلين والش** وآسريها.

انحنى عائدا إلى الظلام في انتظار وصولها.

بالطبع لم تكن لديه أي فكرة عن مكان العثور على **بيت الأشباح**، لكنه كان يعلم أن كل شخص تقريبا في هذه المدينة سيعرف موقع السجن السري للشرطة السرية. شك في أن أي شخص سيسير معه إلى الباب الأمامي ويطرقه، لكنه لم يتوقع الكثير من المتاعب في الحصول على الاتجاهات من أحد السكان المحليين على زاوية شارع إذا أخرج **كورت** رزمة صغيرة من الجنيهات السودانية.

أسرع **كورت** إلى جانب الطريق الآن. كانت خطته شبه وحشية، وقاسية بالتأكيد، لكنه لم يشك في فعاليتها. سينتظر حتى يقترب سائق الدراجة النارية بضعة ياردات منه، ثم سيخطو

إلى الطريق ويطيح بالرجل ومركبته. استعد لهذا الإجراء، لكنه لاحظ أن الدراجة كانت تتحرك أبطأ مما ينبغي مع وجود الكثير من الطريق المفتوح. ثم افترض أنها مجرد سكوتر، والتي ستظل مركبة فعالة للتنقل عبر الشوارع الضيقة وحركة مرور العالم الثالث الكثيفة، حتى لو لم تكن ستتحرك بسرعة كبيرة، حتى مع فتح دواسة الوقود بالكامل.

ولكن بعد ذلك، بعد دهر، ظهرت المركبة خلف مصباحها الأمامي الوحيد، وسب **جنتري** بصوت عال. كانت عربة ريكاشة صغيرة بمحرك، سكوتر بمقعد مغطى بثلاثة مقاعد خلف السائق، ومحرك ثنائي الأشواط ضعيف، ومحور خلفي عريض من نوع الدراجة ثلاثية العجلات.

غضب **جنتري** .كانت هذه على الأرجح أبطأ مركبة موجودة باستثناء عربة حمار. ومع ذلك، أدرك أنها ستكون أفضل بكثير من الركض، لذا خطا إلى الطريق المظلم. لم يحاول الإطاحة بالمركبة الصغيرة؛ بدلا من ذلك، أشار إليها بالتوقف.

توقفت الريكاشة. جلس رجل أسود يرتدي عمامة خلف المقود. سأل" :**تاكسي؟**"، دون صدمة أو مفاجأة عند رؤية رجل أبيض ملتح يرتدي بذلة عسكرية الطراز. على ما يبدو لم يكن **كورت** أول أجنبي يتجول بغباء في ضواحي **الفاشر** المظلمة. صعد على عجل، وأدار السائق دواسة الوقود إلى الأمام على مقوده، مرسلا الآلة ببطء مرة أخرى في طريقها مع أنين مثل جزازة العشب في عشب كثيف ومبلل.

أخبر **كورت** السائق أن يأخذه إلى سوق **الفاشر** .كل مدينة لها سوق، افترض، وعلى ما يبدو لم تكن هذه المنطقة النائية مختلفة، حيث لم يضغط عليه السائق أكثر. بدلا من ذلك، بينما انطلق رجل القبائل الدارفوري الأربعيني إلى المدينة، التفت إلى راكبه وعرض عليه أن يبيعه مشروبا من مبرد صغير كان يحتفظ به في المقعد الخلفي. تفحصه **كورت**، ورأى نصف دزينة من زجاجات الماء الفاتر، وأختام أمان أغطية الزجاجات مكسورة. اعترف **جنتري**

لنفسه بأنه كان عطشانا، لكنه لم يكن على وشك شرب زجاجات بلاستيكية قديمة أعيد تعبئتها بماء الصنبور المحلي. وجد أيضا على الأرض مجموعة أدوات إصلاح صغيرة للريكاشة في كيس من الخيش. لم يكن هناك شيء يثير اهتمامه في المجموعة، باستثناء شعلة طريق حمراء واحدة ومفك براغي صغير صدئ.

وضع **كورت** الشعلة والأداة في جيبه بينما بدأت أولى ملامح فكرة تتشكل في ذهنه.

اتجهوا شرقا لمدة لا تزيد عن ثلاث دقائق قبل أن يصلوا إلى صخب المدينة. ما يقرب من ربع المركبات على الطريق كانت تجرها الحمير بدلا من المحركات، وفجأة لم يعد المحرك ثنائي الأشواط تحت مقعد الريكاشة يبدو ضعيفا جدا بالمقارنة. ثلث آخر من المركبات على الطريق كانت تابعة لمنظمات غير حكومية من نوع ما: الأمم المتحدة، اليونيسف، كير، الصليب الأحمر. بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك بعض المركبات العسكرية التابعة لبعثة **يوناميد** على الطريق ورجال من جيش حكومة السودان على دراجات نارية. كانت نسبة 10 في المئة الأخيرة من حركة المرور من السكان المحليين في سيارات وشاحنات. كانوا أقلية واضحة في شوارعهم الخاصة.

ضغط على السائق للإسراع أكثر من مرة، ولكن حتى مع السرعة البطيئة تخيل أنه لا يزال متقدما بفارق كبير على سيارة جهاز الأمن الوطني، التي قطعت مسافة طويلة في اتجاه مختلف للالتقاء بالطريق السريع. كان يعلم، مع ذلك، أن الأمر لن يتطلب سوى ازدحام مروري واحد أو منعطف خاطئ لجعل هذا سباقا متقاربا.

توقفوا عند السوق" .**هذا هو السوق. عشرون جنيها**".

قال **كورت**" :**أريدك أن تأخذني إلى بيت الأشباح** ".لم يفاجأ إطلاقا بأن الرجل أدار رأسه لينظر إلى راكبه. لا أحد يريد الذهاب إلى منشأة استجواب الشرطة السرية. كان **كورت** قد سحب بالفعل رزمة سمينة من النقود من محفظته. رفعها ليراها الرجل.

ولكن، مهما كانت قيمة العملة في يده، لم تكن كافية" .**لا أعرف هذا المكان. هذا هو السوق. هل تريد مشروبا؟ الكثير من أكشاك الصودا لا تزال مفتوحة. أكشاك الشاي. إنه لطيف جدا"**.

"لا أريد صودا لعينة أريد مقر جهاز الأمن الوطني. فقط أوصلني بالقرب من هناك. أرني أين هو. سأمشي بقية الطريق ".رفع **كورت** الآن كتلة أخرى من الأوراق النقدية المجعدة من محفظته. من ضوء واجهة متجر تعمل بمولد غاز صاخب ومدخن، نظر **جنتري** في عيني سائقه الواسعتين. أومأ ببطء على المال، ثم إلى الأعلى نحو الأمريكي المجنون.

"سآخذك على بعد بنايتين من هناك. سآخذك إلى ملعب كرة القدم".

"ملعب كرة القدم على بعد بنايتين من بيت الأشباح؟"

"نعم"، قال الرجل بإيماءة. استطاع **كورت** أن يرى التوتر العصبي؛ شعر باليقين أن الرجل يقول الحقيقة.

"جيد. المزيد من المال إذا ذهبت أسرع "!استدار الرجل مرة أخرى لمواجهة الطريق أمامه، انحنى إلى الأمام على مقوده، وبدا أنه يستخرج حصانا أو اثنين آخرين من الآلة الضعيفة.

في تلك اللحظة سمع **جنتري** ضوضاء عالية في السماء فوقه. عرف ما هي على الفور؛ لم يكن عليه حقا حتى أن ينظر. لكنه نظر ورأى خيال طائرة إليوشن Il-76MF تتسلق إلى السماوات المرصعة بالنجوم.

تمتم" :**الروس أولاد العاهرات"** لكنه لم يستطع أن يقول إنه يلومهم.

شعر **كورت** بوحدة لا تصدق، لكن لم يكن هناك وقت للتفكير في ذلك الآن. كان بحاجة إلى خطة.

في ثوان كانوا عالقين في حركة المرور المسائية مرة أخرى. ثابتون في منتصف الشارع. ضاع صوت بوق سائق **كورت** في لحن أبواق السيارات الأعلى صوتا. تقدمت عربة حمار على يمين الريكاشة بضعة أقدام، وألقى **كورت** لمحة على الممشى غير المعبد الذي يمتد بمحاذاة الطريق. هناك، تحت ضوء لمبة عارية تتدلى من نافذة في الطابق الثاني، جلس رجل على دلو معدني مقلوب يستريح على الأرض. بجانبه كانت حاوية بحجم برميل بيرة، مع خرطوم مطاطي يلتف من أعلاها وينزل على الجانب. أمام هذا الاختراع وقفت لافتة خشبية مكتوبة بخط اليد، الكتابة باللغتين العربية والإنجليزية: بنزين. كان الرجل ينقر في عشائه من الأرز بأصابعه.

على الفور انحنى **جنتري** إلى مقدمة الريكاشة، ومد يده متجاوزا السائق، وسحب المفاتيح من مكانها. قال **كورت" :سأعود حالا"**، لكن هذا لم يمنع الرجل من الصراخ عليه عندما تركه **جنتري** خلفه في وسط الشارع المزدحم وهو يركض إلى رجل البنزين.

سحب **كورت** محفظته على عجل، وانتزع طية أخرى من الجنيهات السودانية، وسلمها للرجل. أخذها بائع البنزين المسن ووقف، وأومأ بسرعة، لكنه نظر بعد ذلك إلى الغربي المتعجل بفضول. لم يفهم **كورت** للحظة، فقال" :**بنزين "!**مشيرا إلى البرميل. خلفه بدأت السيارات والدراجات النارية في إطلاق أبواقها، وبدأ أولئك الذين يركبون عربات الخيول والبغال في الصراخ على الريكاشة الثابتة التي تسد حركة المرور. صرخ **كورت "بنزين "!**مرة أخرى، ثم أدرك أن البائع كان ينظر ليرى ما الذي من المفترض أن يصب فيه البنزين بحق الجحيم. لم يكن لدى **كورت** أي حاوية، ولم يكن يقود أي مركبة. سحب **كورت** ورقة نقدية أخرى من محفظته وأشار إلى الدلو المعدني الذي كان الرجل يستخدمه كمقعد. التقطه **كورت** بنفسه، وقلبه. كان سيتسع لنحو جالونين. نظر إليه الرجل وكأنه مجنون، لكنه مع ذلك بدأ يمص الخرطوم لسحب البنزين إلى الدلو الصفيح.

استغرق الأمر دقيقة ونصف لسحب الوقود وإتمام الصفقة، وبحلول الوقت الذي عاد فيه **جنتري** إلى سكوتره التاكسي الصغير، كان على يقين من أنه أكثر رجل مكروه في كل **الفاشر** . دقت الأبواق في جوقة خلفه. سلم المفاتيح مرة أخرى إلى السائق، الذي واصل توبيخه بينما كان يعيد تشغيل محرك المركبة الصغير المتقطع.

حشر **كورت** الدلو المعدني على الأرض بين قدميه. ثم أمسك بقبضة من المال من محفظته، ومد يده، ولوح بها بجانب رجل القبائل الدارفوري المشتكي. صمت الرجل ومد يده لأخذها، لكن **جنتري** سحبها إليه، وربت على ظهر الرجل بدلا من ذلك كما لو كان يقول : **"قريبا يا صديقي".**

ضغط السائق على دواسة الوقود. وبينما كان يفعل ذلك، فتح **كورت** مبرد الماء المعبأ بجانبه على المقعد. حتى في الإضاءة الضعيفة من المباني أثناء مرورهم بها ومصابيح السيارات الأخرى في الشارع، كان بإمكانه رؤية رواسب سوداء في السائل. كان شربه سيصيبه بالدوسنتاريا على الأرجح، لكنه لم يكن سيشربه. بدلا من ذلك، غمر نفسه به، مغطيا وجهه وذراعيه وملابسه بالكامل. سحب زجاجة ثانية وفعل ذلك مرة أخرى، مغرقا نفسه بالماء.

نظر السائق إلى الخلف فوق كتفه إلى هذا الراكب الغريب، لكن **كورت** أشار له أن يبقي عينيه موجهة إلى الأمام.

فتح **كورت** زجاجة ثالثة ثم رابعة، وسكب الماء في جميع أنحاء ملابسه وشعره ووجهه.

سرعان ما توقف الرجل الدارفوري بجانب ملعب كرة قدم كبير ولكن قديم. أشار إلى التقاطع المزدحم أمامه ثم أشار بيديه إلى أنه على اليسار فقط. استدار بالكامل في مقعده ويده ممدودة لماله الآن، ومد **كورت** يده عميقا في محفظته. سحب الأمريكي رزمة من الأوراق النقدية بلون مختلف عما توقعه الرجل السوداني، لكن الدارفوري عرف اليورو عندما رآه. أومأ ببطء،

ثم أصبح أكثر جدية عندما رأى المبلغ الذي كان يسلم له. أدرك السائق أن أربعمئة يورو كانت كافية لشراء ريكاشة جديدة تماما، ولم يستطع منع نفسه من بلع ريقه بصعوبة.

استغرق الأمر بضع ثوان أخرى ليدرك السائق ذو العمامة أن هذا هو بالضبط ما كان الخواجة يطلب منه القيام به. بعد أن أخذ السائق المال، خرج الرجل الأبيض المبتل بالماء مع دلو البنزين الصفيح من الخلف، وفتح سحاب بذلته، وتجرد إلى شورت وقميص مبللين، وسلم البذلة إلى السائق. لم يستغرق الأمر وقتا طويلا ليدرك الرجل السوداني أنه يطلب منه ـ لا، يجبر ـ على تبديل ملابسه مع الرجل الأبيض. خرج من مركبته على مضض ولكن بسرعة وخلع ملابسه هناك على جانب الشارع. توقف المارة وحدقوا. ارتدى الخواجة الثوب الطويل والسروال البني، ووضع مفك البراغي والشعلة في جيبه، وشد السروال بحزام جلدي، ومد يده وأخذ العمامة من رأس الدارفوري واستخدمها للف وجهه ورأسه في قناع أبيض. دون كلمة أو إيماءة، أزال الرجل الأبيض غطاء خزان الوقود للسكوتر المغطى وألقاه في الطريق. ثم صعد على عجل خلف المقود ووضع الدلو بإحكام بين ركبتيه. فتح زجاجة ماء أخرى وغمر ملابسه الجديدة بها، ثم ضغط على دواسة الوقود إلى الأمام، وقفزت الآلة الحمراء الصدئة إلى الأمام وعادت إلى حركة المرور.

وقف السائق الدارفوري في التراب تحت مصباح شارع بجانب ملعب كرة القدم، بلا قميص على ظهره، يحك رأسه بينما تجمع حشد حوله بفضول جامح.

أمل **كورت** ألا يكون قد فات الأوان. بمجرد إدخال **إيلين والش** عبر البوابات الأمامية لـ**بيت الأشباح**، سيكون من الانتحار حتى محاولة الوصول إليها، ولن يساعد ذلك في تحسين فرصها. كان عليه فقط أن يفعل شيئا قبل أن تصل سيارة جهاز الأمن الوطني.

أمام التقاطع الأخير مباشرة رأى ازدحاما مروريا آخر من سيارات خردة، وحيوانات جر تسحب خشبا وعربات صدئة، ومركبات لمنظمات غير حكومية. أدار المقود إلى اليسار وصعد على رصيف صغير، وقاد مباشرة عبر رجال يسيرون إلى منازلهم من العمل أو يخرجون لتناول العشاء أو التنزه المسائي. قفز رجال يرتدون عمامات بيضاء إلى الجانب كما لو كانوا ينجون بحياتهم، على الرغم من أن الريكاشة ربما لم تكن كبيرة أو قوية بما يكفي لتسبب أكثر من كدمات أو بضعة كسور للمشاة.

حاول أن يتخيل المشهد أمامه لأنه لم تكن لديه فكرة حقيقية عما سيجده حول الزاوية. لكنه رأى ما يكفي، أكثر من نصيبه، من مقرات الشرطة السرية في بؤر استعمارية سابقة في العالم الثالث. سيكون هناك مبنى منخفض بجدار محصن حوله، وبوابة أمامية مع كشك حراسة ونوع من الحاجز المتحرك. غالبا ما يكون هناك موقع أو موقعان مدعمان بأكياس الرمل لمدافع رشاشة، أو حتى ناقلة جند مدرعة في المقدمة.

من الأفضل أن تقدر هذه المحققة الكندية هذا، فكر في نفسه. ثم تذكر أنه لولاه، لما كانت قريبة من المأزق الذي يحاول الآن إخراجها منه.

كان عند المنعطف الأيسر الآن، تاركا المزيد من الصراخ والصياح وأبواق السيارات خلفه.
سحب بقوة للانعطاف، وتأرجحت الآلة الصغيرة ذات المحرك ثنائي الأشواط عاليا،
وعجلتها الخلفية اليسرى مرتفعة عن الأرض لبضع ثوان قبل أن ترتطم مرة أخرى بالرصيف المغبر، مما تسبب في احتكاك مقصورة المركبة بالأرض مع صوت خدش يصم الآذان.
انسكب البنزين على ساقه، لكنه تمكن من إنقاذ ثمانين بالمئة من محتويات الدلو برفع ركبته المعاكسة للتعويض عن الميلان في مقعده.

ثم كان هناك، أمامه مباشرة وعلى اليمين. كان الجدار أقل ارتفاعا مما توقع، وكان المبنى أطول وأكثر زخرفة قليلا مما تصور. كانت هناك بوابة دخول مع غرفة حراسة على الجانب القريب من الطريق، ونوع من الأكواخ الصفيح على الجانب البعيد.

وهناك كانت سيارة جهاز الأمن الوطني، على وشك الانعطاف يمينا عند التقاطع أمامها، خلف مدخل **بيت الأشباح** مباشرة.

اللعنة، فكر **كورت** .لن ألحق.

لكنه ضغط على دواسة وقود الريكاشة الصغيرة وانحنى إلى الأمام، آملا عكس كل أمل أن يبطئ شيء ما تقدم سيارة السيدان نحو المدخل.

دخل حمار يجر عربة محملة فوق طاقتها بعلب سقي بلاستيكية التقاطع أمام سيارة جهاز الأمن الوطني، مما تسبب في إبطائها وإطلاق بوقها. كانت المسافة خمسة وعشرين ياردة على الأكثر إلى مدخل **بيت الأشباح**، وعرف **كورت** أن هذه هي فرصته، سيصل إلى سيارة السيدان في الوقت المناسب، على الرغم من أن فرصه في النجاح في أي جزء من خطته بعد ذلك كانت لا تزال سيئة للغاية. أمسك دلو البنزين من مقبضه المتهالك، وأبقى الريكاشة مستقيمة بواسطة دواسة الوقود، وانطلق نحو السيارة الثابتة. تماما عندما بدأت عربة الحمار تتدحرج بعيدا وبدأت سيارة السيدان تتحرك إلى الأمام مرة أخرى، ترك **جنتري** المقود، واستدار من مقعده، وقفز من الريكاشة. على الرغم من أنه تعثر إلى الأمام وسكب خمسة وعشرين بالمئة أخرى من البنزين من الدلو، إلا أنه ظل على قدميه، وركض في حركة مرور صاخبة ومزمجرة.

اصطدمت الريكاشة بباب الراكب الأمامي لسيارة جهاز الأمن الوطني بسرعة عشرين ميلا في الساعة، محدثة هزة وضاغطة السيارة مع صوت تحطم قوي ودافعة إياها لتصطدم بالعربة الخشبية أمامها.

الفصل العشرون

أطلقت السيارات أبواقها على **جينتري**، وعلى الحادث نفسه، بغضب من التأخير الذي سيسببه هذا بالتأكيد. نهقت الحيوانات من الضوضاء العالية للاصطدام والأبواق الاحتجاجية التي تلت ذلك.

توقفت سيارة جهاز الأمن القومي في منتصف التقاطع، وأضواءها الأمامية تنعكس على البخار المتصاعد من شبكتها. ارتدت العربة بعيداً وانقلبت على جانبها في الشارع. تدفق الوقود من خزانها المفتوح.

وصل **كورت** إلى باب الراكب في نفس اللحظة التي ركله فيها قائد جهاز الأمن القومي المذهول. أمسك **جينتري** بالرجل الصغير ذي النظارات من ربطة عنقه وسحبه من الحطام ثم تركه، مستخدمًا كلتا يديه الآن لصب دلو البنزين على رأس الرجل.

كان الجنديان يخرجان من مؤخرة السيارة، وكان السائق يخرج ببطء من جانبه، عندما سحب **كورت** شعلة الطريق من جيب بنطاله، ونزع الغطاء عن الأعلى، وأشعل الفتيل على الرأس. بانفجار من النار والشرر، أمسك بالشعلة بعيداً عن جسده بيده اليسرى. وبيده اليمنى أمسك بقائد جهاز الأمن القومي من ياقته وسحبه بقوة في خنق للرأس.

صوب الجنود من مؤخرة السيارة بنادقهم وصرخوا عليه.

تحرك مساعد قائد جهاز الأمن القومي حول السيارة، ومسدسه مرتفع في يديه، وصرخ عليه.

رفع ثلاثة حراس يرتدون الزي الرسمي الخاص ببيت الأشباح اقتربوا من الحطام بنادقهم إلى أكتافهم وصرخوا عليه.

وقف **كورت** في منتصف التقاطع، ممسكًا بالقائد بإحكام من رقبته. تحدث بهدوء في أذنه باللغة الإنجليزية.

"مد يدك إلى مسدسك، وسأحرقك."

لم يقل الرجل شيئًا، لكن يديه امتدتا بعيدًا عن جسده، بعيدًا عن جراب مسدسه على وركه تحت سترة بدلته.

لوح **كورت** بالشعلة المتلألئة بالقرب من الرجل ثم سحبها بسرعة" .**إذا أطلقوا النار علي، سأسقط هذه. إذا أسقطت هذه، ستموت. هل تفهم؟"**

من الواضح أن الرجل فهم. رفع ذراعيه عاليًا وبدأ بالصراخ في الفوضى من حوله. فهم **كورت** اللغة العربية السودانية" .**اخفضوا أسلحتكم! أنزلوها! أنزلوها! لا تطلقوا النار"!**

لم يخفض أحد منهم سلاحه، لكن لم يطلق أحد النار أيضًا. واصل **كورت** سحب رجل جهاز الأمن القومي الصغير إلى اليسار وإلى اليمين، محاولًا إبقاء نفسه هدفًا متحركًا على أمل أن يفكر قناص ما على سطح بيت الأشباح أو حارس متحمس أو شرطي عابر مرتين بدلاً من الشعور بالثقة الكافية لإطلاق رصاصة في اتجاهه. بينما كان يفعل ذلك، حريصًا على إبقاء شعلة الطريق المشتعلة قريبة بما يكفي من قائد الشرطة السرية لتكون خطيرة ولكن ليست قريبة جدًا لتبدأ حريقًا، ألقى نظرة خاطفة على مؤخرة سيارة السيدان السوداء. لم تتحرك **إيلين والش** .حدقت فيه، وعيناها الواسعتان المذهولتان واضحتان تحت ضوء السيارة الداخلي.

"هل أنت بخير؟ "سأل. تحرك بسرعة إلى الجانب الآخر من السيارة، لا يزال يحاول منع أي طلقات ساخنة من الشعور بالحظ" .**هل أنت بخير؟** "سأل من يسار السيارة الآن. أومأت برأسها في ذهول، وقلق من أنها قد تكون في حالة صدمة" .**انتبهي! اجلسي في مقعد السائق!**

بسرعة! الآن! تماسكي "!تحرك إلى الأمام والخلف بضعة أقدام. انحنى، وكاد أن يسحب الشرطي السري إلى الرصيف. استمرت أبواق السيارات والشاحنات الصاخبة وثغاء حيوانات العربات المزدحمة في التداخل دون هوادة. عرف **كورت** أن شعلة الطريق لن تدوم دقيقة أخرى. في ستين ثانية، كان عليه إما أن يغادر المشهد أو يكون مستعداً لإضرام النار في المشهد.

كان يفضل بشدة الخيار الأول.

أخيرًا خرجت **إيلين** من المقعد الخلفي. بدت مرتبكة أكثر من كونها مرعوبة. صرخ عليها بلا رحمة، في سيل من الشتائم مصمم لتركيزها وإعادتها إلى هنا والآن، لإقناعها بأن كل الخطر من حولها حقيقي، وأن أفعالها هي الشيء الوحيد الذي سينقذها منه.

"هذا صحيح"، خفت نبرته وهي تجلس خلف عجلة القيادة" .**أنت تبلي بلاءً حسنًا. انظري ما إذا كان المحرك سيعمل** ."تراجع نائب رجل جهاز الأمن القومي من المطار بعيدًا عن السيارة ببطء، متجهًا إلى يسار **كورت** .قلق **جينتري** من أن الرجل كان يفكر في إطلاق النار، ويخطط أولاً للابتعاد عن كرة النار التي ستتبع بالتأكيد. سيموت رئيسه، لا شك، ولكن على حد علم **جينتري**، كان هذا المهرج هو التالي في قائمة الترقيات ورأى فرصة لخلق الشاغر الذي يحتاجه لتحقيق ذلك.

خلف هذا الرجل، وصل ما يقرب من عشرة من قوات حفظ السلام التابعة للاتحاد الأفريقي، قفزوا من مؤخرة ناقلة جند مدرعة. بدأوا يلوحون ببنادقهم في المشهد بشكل استعراضي ولكن بحذر، غير متأكدين مما يحدث بحق الجحيم ولكنهم متأكدون تمامًا من أنهم لن يسمحوا لأي شخص في الحشد باستهدافهم دون تفجير الحشد اللعين بأكمله بوابل من الرصاص.

مثالي. كان هناك الآن ما لا يقل عن خمسة وعشرين مسدسًا موجهًا إلى **جينتري**، ولم يكن لديه أدنى شك في أن الغالبية العظمى من الأشخاص الذين يوجهون هذه الأسلحة لا يهتمون حقًا إذا احترق هذا الرهينة الصغير اللعين حيًا.

حان وقت الرحيل!

شغلت **إيلين** السيارة، وسحب **كورت** أسيره من جهاز الأمن القومي إلى الجزء الشمالي الجنوبي من التقاطع بضعة أقدام، وأخبر **إيلين** أن تقود بجانبه. أرجعت السيارة السيدان بعيدًا عن عربة الحمير، ودفع المصد الخلفي العربة المدمرة بضعة أقدام قبل أن تضعها في وضع القيادة. ترك **كورت** عنق الشرطي السري لكنه استمر في التلويح بالشعلة فوقه بينما مد يده عبر جسد الرجل وسحب المسدس من جراب رهينته. جهز السلاح بيد واحدة عن طريق تعليق البصريات الخلفية على حزامه ودفع المسدس لأسفل وللأمام. صوب **كورت** الآن هذا المسدس على رجل جهاز الأمن القومي الآخر، الذي بدا أنه قد فكر بشكل أفضل في خطته لفتح النار. تخيل **جينتري** أن هذا التقاطع المجنون المليء بالأسلحة سيحتاج فقط إلى صوت طلقة واحدة لإطلاق كل بندقية لعينة على المشهد تلقائيًا. ربما اعتقد رجل جهاز الأمن القومي الآخر أن قوات حفظ السلام خلفه ستقضي على كل كائن حي أمامهم إذا أطلق رصاصة من مسدسه على الرجل الأبيض.

بينما كانت **إيلين** تقود إلى الأمام وبجانب "الرجل الرمادي"، أمرها بالاستمرار ببطء. سار للخلف، بجانب الباب الخلفي الأيسر المفتوح، تاركًا قائد جهاز الأمن القومي في التقاطع بالقرب من العربة المكسورة وعربة الحمير المحطمة والمركبات الأخرى العالقة في حركة المرور خلف الحطام من ثلاثة جوانب. صوب **كورت** المسدس بيده اليمنى، وأمسك بآخر شعلة الطريق المشتعلة بيده اليسرى، لكنه سرعان ما ألقى بالشعلة فوق الشرطي السري ونحو العربة. في حركة واحدة سريعة، بينما كانت الشعلة المشتعلة تقترب من السكوتر وخزان وقوده المتسرب، انخفض **كورت جينتري** إلى وضع القرفصاء، وأطلق رصاصتين من المسدس،

واحدة في صدر كل من عملاء جهاز الأمن القومي. ثم استدار منخفضًا وغاص في المقعد الخلفي للسيارة السيدان" .**انطلقي! انطلقي! انطلقي! انطلقي "!**صرخ.

اشتعلت النيران في العربة وتقاطع الشارع المترب. كان صوت اشتعال الوقود مسموعًا من خلال باب السيارة المفتوح. داست قدم **إيلين والش** على دواسة الوقود.

انطلقت السيارة السيدان إلى الأمام نحو الشمال.

لم يطلق أحد النار عليها قبل أن تنعطف إلى اليسار بعد أربعين مترًا، وتختفي في شارع جانبي في الظلام، وكرة نارية ترتفع في السماء خلفها.

"إلى أين نحن ذاهبون؟"

كان فرد الطاقم من طائرة النقل العسكرية الروسية، الذي من الواضح أنه ليس روسيًا، يجلس في المقعد الخلفي للسيارة بينما كانت **إيلين** تشق طريقها عبر شوارع ضيقة ومزدحمة، مرورًا بمبانٍ صفيحية رمادية متهالكة وجدران بلون الطين من طابق واحد تمتد على كلا الجانبين، على ما يبدو في جميع الاتجاهات، وعلى ما يبدو لأميال. قادت عبر تقاطع تلو الآخر، وفي بعض الأحيان تصل سرعة السيارة ذات الأربعة أبواب إلى أربعين كيلومترًا أو نحو ذلك، ولكن غالبًا ما تبطئ إلى زحف شبه كامل حيث استخدمت الشبكة الأمامية لتشق طريقها عبر الازدحام المسائي أو لدفع مجموعات من الأبقار أو الأغنام من الطريق.

"إلى أين تريدني أن أذهب؟ "صرخت هذه المرة؛ لم يبدُ الرجل الذي خلفها منتبهًا.

أجاب أخيرًا، وصوته أهدأ مما كان عليه في التقاطع" .**فقط استمري. أنت تبلي بلاءً حسنًا."**

نعم، سمحت لنفسها بإدراك ذلك. أنا أبلي بلاءً حسنًا. لم تختبر في حياتها صدمة من قبل، واحتفظت بحضورها الذهني الآن لتتساءل عما إذا كان هذا هو الشعور الغريب بالهدوء الذي بدأت تشعر به.

"لم تقتل أي شخص هناك، أليس كذلك؟ "سألت **إيلين** .كان صوتها مهتزًا، مرتبكًا، وبذلت قصارى جهدها لابتلاع فيضان المشاعر الذي هدد بالتدفق في أي ثانية.

"بالطبع لا. مجرد بضع طلقات تحذيرية. كان عليّ أن أبطئهم حتى نتمكن من الابتعاد."

صدقته. بالتأكيد لم يبدُ أو يتصرف كرجل قتل للتو إنسانًا آخر.

"إلى أين نحن ذاهبون؟"

"لا مكان محدد. فقط استمري في هذا الاتجاه."

"من أنت؟"

"ليس الآن"، كان كل ما قاله.

"أنت لست روسيًا"، قالت، وهي تنظر إليه من خلال مرآة الرؤية الخلفية.

"اكتشفت ذلك؟ الان تأكدت أنك محققة خاصة في محكمة الجنايات الدولية"، أجاب بسخرية بطريقة غامضة بحيث لم تستطع **إيلين** تمييز ما إذا كان يحاول أن يكون مرحًا أم قاسيًا.

"أمريكي؟ "عرفت أنه كذلك من لهجته.

لكنه كرر فقط" :**ليس الآن."**

واصلوا السير شمالًا لمدة نصف ساعة؛ تحدثوا قليلاً. تمتم الأمريكي شيئًا عن الحاجة إلى تغيير السيارة التي كانوا فيها، لكنه أخبرها فقط بالاستمرار، كما لو أنه لا يستطيع أن يجبر نفسه على التوقف في هذه المدينة حتى لبضع دقائق للعثور على وسيلة نقل أخرى. بقي في المقعد الخلفي. في البداية اعتقدت أنه بقي هناك لمراقبة النافذة الخلفية بحثًا عن أي شخص يتبعهم، لكنها لاحقًا ألقت بضع نظرات في مرآتها الخلفية ورأته جالسًا هناك في الظلام، ينظر فقط من النوافذ الجانبية، كما لو كان ضائعًا بشأن إلى أين يذهب. بدا حازمًا بما فيه الكفاية عندما كان مع الشعلة والمسدس والأوامر الصارخة والرجل الصغير الذي كان يخنق رأسه. لكنها الآن قلقة من أنه قد أرهق نفسه بطريقة ما، إما جسديًا أو عاطفيًا، والآن سيتعين عليها اتخاذ القرارات.

قالت" :**أحتاج إلى الوصول إلى هاتف. الاتصال ببعض الأشخاص الذين يمكنهم المساعدة."**

"لا "، أجاب بحدة" .**فقط استمري في القيادة** ."كان صوته قويًا بشكل غير متوقع الآن.

"سنكون في الصحراء قريبًا."

"ليست صحراء. الساحل."

نظرت إلى الأعلى في المرآة الخلفية" .**ال ماذا؟"**

"إنها أراضٍ عشبية. بين السافانا في الجنوب والصحراء في الشمال. قليلة السكان، حارة كالصحراء، لكنها ليست نفسها. تبدأ الصحراء على بعد مئة ميل شمالًا من هنا."

"حسنًا، مهما كانت الجغرافيا، هل نحتاج حقًا إلى الخروج إلى هناك؟"

"نعم."

"لن تكون هناك هواتف هناك."

"لا"، وافق" .لن تكون هناك. نحتاج فقط إلى الابتعاد عن الخطر الآن. سنجد طريقنا للعودة إلى مكان آمن لاحقًا. سيبحث جهاز الأمن القومي عنا بجدية. سيستمعون إلى خطوط الهاتف؛ سيكون لديهم مروحيات في الجو؛ سيغطون الشوارع والأسواق والأزقة والفنادق في الفاشر بالمخبرين. نحتاج فقط إلى الخروج إلى العراء. الاختباء الليلة، ثم شق طريقنا إلى أحد مخيمات النازحين التي تديرها الأمم المتحدة في الصباح."

"ليس لديّ وثائق للدخول إلى مخيمات الأمم المتحدة"، احتجت.

"لم يكن لديكِ وثائق لاعتقال طاقم من مهربي الأسلحة الروس أيضًا، وحاولت ذلك."

هزت رأسها" .ماذا كنت أفكر بحق الجحيم؟"

"لا فكرة لدي يا سيدة"، قال الرجل" .يجب أن أسأل فقط. هل كانت لديك خطة، بخلاف تهديدهم باتهام دولي ثم طلب استخدام الهاتف حتى تتمكني من تسليمهم؟"

"كان هذا كل شيء تقريبًا"، اعترفت إيلين، وهي تهز رأسها مرة أخرى من أفعالها" .أنا محامية بالتدريب. لقد عملت مع المحكمة الجنائية الدولية لبضعة أشهر فقط. لقد زورت وثائق الأمم المتحدة بنفسي؛ لقد سئمت من الجلوس في مكتبي وعدم القيام بأي شيء. أردت فقط أن أخرج إلى هنا وأرى دارفور بنفسي. لا أحد من مكتبي يعرف أين أنا، وماذا أفعل."

"حسنًا، لديك شجاعة. سأعترف لك بذلك ."تلاشت كلمات الرجل في النهاية، وتكونت لديها فكرة أنه لا يريد التحدث أكثر.

الفصل الحادي والعشرون

اتجهوا شمالا لمدة عشر دقائق أخرى. محاولاتها لإشراك الرجل الهادئ في محادثة إما تم صدها ببراعة أو تجاهلها تماما. على الطريق المفتوح، خارج المدينة، زادت سرعتهم. وجهها الرجل أخيرا للتوقف وتشغيل السيارة في منحدر لطيف بجانب الطريق. سألت عن الحيوانات البرية، واعترف بأنه ليس لديه أي فكرة، لكنه وعدها بأنها ستكون آمنة. لم تكن تثق به—لم تكن لا تزال تعرف بالضبط في أي جانب يقف هذا الرجل—لكنها كانت تعلم أنه ليس لديها أي خيارات أخرى في الوقت الحالي. ستفعل ما يقوله.

قادهم المنحدر المنخفض إلى أخدود يمتد نحو مجرى نهر صخري جاف. خلال موسم الأمطار، بعد شهرين آخرين، سيكون من الانتحار الاختباء في هذا الخندق. ستؤدي الجداول الصغيرة التي تخترق الأراضي الشجرية من كل مكان إلى إرسال مئات الآلاف من جالونات المياه المتدفقة إلى هنا بعد دقائق فقط من هطول أمطار غزيرة مركزة. لكن في الوقت الحالي بدا آمنا بما فيه الكفاية. ارتفعت الشجيرات المغطاة بالقش عدة أقدام على جانبي الأخدود المغبر. تداخلت قمم بعض الشجيرات، مما خلق مظلة ضيقة في الأعلى. كان ارتفاعها ستة أقدام أو نحو ذلك فقط، لكن **كورت** وجهها لدفع السيارة في الشجيرات وإطفاء المحرك.

أصدر المعدن الساخن طقطقة وقرقعة عندما فعلت ذلك.

"**تحققي من صندوق القفازات. أي ماء؟** "سأل. فتحته ووجدت فقط كيسا بلاستيكيا من حلوى الليمون. خرج **كورت**، وبحث في الشجيرات، وتفقد صندوق السيارة لكنه لم يجد شيئا هناك أيضا.

"**سنكون بخير الليلة. سنحصل على بعض الماء في الصباح**".

"ماذا نفعل الآن؟ "نظرت إلى الخلف نحو الرجل؛ كان غير مرئي في الظلام الآن. سمعته يعيد تموضعه، ويرفع ساقيه إلى المقعد الخلفي الصغير.

"حاولي أن تنامي قليلا".

"بماذا أناديك؟"

"أنا الشخص الآخر الوحيد هنا. إذا كنت تتحدثين، سأفترض إلى حد كبير أنك تتحدثين إلي".

قالت" :**لمسة ذكية"**، على الرغم من أنها لم تحب المتذاكين. بذلت قصارى جهدها لتجعل نفسها مرتاحة في المقعد الأمامي. أدارت جسدها بحيث كان ظهرها إلى باب الراكب. كان قد تحطم من الخارج بسبب الريكاشة، لكن الإطار الداخلي كان سليما. فعلت هذا لمحاولة أن تكون وجها لوجه مع الرجل في الخلف الذي كان مستلقيا وظهره على جانب السائق.

"أنا إلين، إذا كنت قد نسيت".

"نعم".

صمت طويل" .**ألن تتحدث إلي؟"**

"كلانا بحاجة إلى الراحة. لن نقود السيارة للخروج من هنا غدا. خطر جدا. سنصعد إلى الطريق سيرا على الأقدام ونحاول إيقاف مركبة متعاونة".

"كيف نعرف ما إذا كانت متعاونة قبل أن نوقفها؟"

سمعت أكثر مما رأت أنه يهز كتفيه. قال" :**لا فكرة لدي، لأكون صريحا معك "**، ومرة أخرى، استطاعت أن تعرف أنه كان يحاول إنهاء المحادثة.

"هل أنت حقا عضو طاقم في روسوبورون إكسبورت؟"

لا إجابة.

"نوع من المرتزقة؟"

لا إجابة.

"جاسوس؟"

"اذهبي إلى النوم يا إلين".

أطلقت تنهيدة محبطة" .**فقط أعطني اسما. اختلقه إذا أردت، لكن أعطني شيئا يمكنني أن أناديك به".**

قال بعد عدة ثوان" :**ناديني ستة".**

ردت" :**يا إلهي. هل هذا يعني أن هناك خمسة آخرين هناك مثلك تماما؟"**

قال مرة أخرى" :**اذهبي إلى النوم يا إلين"**، وهذه المرة سعت إلى تركه وشأنه.

بعد دقيقة واحدة أدركت أنها لا تستطيع النوم. بعد ما حدث في الساعة الماضية، من يستطيع النوم؟ بالإضافة إلى ذلك، كان الوضع بائسا في السيارة ذات الرائحة الكريهة.

"ستة، هل يمكننا فتح بعض النوافذ؟"

"كلا".

"كلا؟ لماذا لا تقول 'لا' ببساطة؟"

"لا".

اعتدلت في جلستها، واقتربت قليلا من الرجل في الظلام" .**لا، لا يمكننا فتح النوافذ؟"**

"لا يمكننا فتح النوافذ".

"لماذا لا؟ الجو حار جدا هنا. لا يمكنني النوم في هذا الحر".

أجاب **ستة** ببرود" :**العقارب، عناكب الجمل، الثعابين، السم"—**

"حسنا، حسنا! سنبقي النوافذ مغلقة".

لم يقل **ستة** شيئا.

"لماذا عدت من أجلي؟"

"لا أعرف".

"نعم، أنت تعرف. يمكنك التحدث إلي ".ثم قالت" :**أرجوك تحدث إلي. أنا خائفة، قلبي لا يزال ينبض بسرعة، لا يمكنني النوم هكذا. أحتاج فقط إلى التحدث لبضع دقائق. ليس عليك أن تخبرني أي شيء سري للغاية أو أي شيء، لكن أرجوك ساعدني هنا".**

بقي الرجل صامتا. بالكاد كانت تستطيع رؤية خياله في الظلام، ولم يتحرك خياله عضلة واحدة. عن تعابير وجهه، حتى ما إذا كانت عيناه مغلقتين أم لا، لم يكن لدى **إيلين** أي فكرة.

كانت متأكدة جدا من أن الرجل قد تحول إلى تمثال لدرجة أنها فوجئت عندما استجاب أخيرا.

"عدت من أجلك لأنه خطأي أنك هنا".

"خطأك؟ كيف؟ لماذا؟"

"جئت إلى هنا لأقوم بعمل. عمل مهم. عمل جيد، في الواقع، عمل كنت ستوافقين عليه".

لم يقل شيئا آخر. بدا أنه اختار تلك الكلمات القليلة التي قالها بعناية فائقة، متعبا في كل عبارة. شجعته" :**وبعد؟"**

"وبعد ذلك اعترضت طريقي. حاولت إبعادك عن طريقي بأسهل طريقة يمكنني التفكير فيها. لم ينجح الأمر".

"أو نجح أكثر من اللازم".

"نعم، أعتقد أن هذا هو الأمر. لم أكن أعرف أنك من المحكمة الجنائية الدولية. ظننت أنك مجرد متطفلة مزعجة".

كانت ممتنة للمحادثة، لشعورها بأنها فتحت زاوية من القشرة الصلبة لهذا الأمريكي الغامض لإلقاء لمحة صغيرة على ما بداخله. قالت" :**هذا في الواقع ليس وصفا سيئا لعملي مع المحكمة الجنائية الدولية".**

رأت **إيلين** الخيال يتغير، حركة في شعيرات اللحية على جانب وجهه، وتخيلته يبتسم. كان من الصعب القيام بذلك.

"على أي حال، أردت فقط إبعادك حتى نقلع. ثم تورط جهاز الأمن الوطني. كانوا سيقتلونك".

"هل تعتقد ذلك؟"

"أنا أعرف ذلك".

"كيف تعرف؟"

"أنا أعرف رجالا مثل هؤلاء. سيكونون قلقين على أعناقهم أكثر من أي شيء آخر. سيدركون مدى فداحة خطئهم بالسماح لك بالاقتراب إلى هذا الحد، وسيفعلون الشيء الوحيد الذي يعرفون كيفية فعله لتحسين الوضع".

مع إعلان الغريب الهادئ أنها نجت من الموت بأعجوبة، بدا أن ثقل كل ما حدث في الساعات الثلاث الماضية يسحقها دفعة واحدة. وضعت **إيلين** رأسها بين يديها، وشعرت بوخز واهتزاز في أصابعها. ارتخى جسدها بالكامل، متعبا، ومتألما. نظرت مرة أخرى إلى الرجل في الظلام.

"أنا... أنا فقط "...ترددت **إيلين والش**، لكنها بعد ذلك استدارت بسرعة في المقعد الأمامي، وكافحت بجنون للوصول إلى مقبض باب سيارة السيدان، ولفت أصابعها حوله وسحبته لفتحه بينما كانت تدفع بقوة الباب المحطم بيدها الأخرى. أطلقت جذعها العلوي في الشجيرات الكثيفة المظلمة، قاذفة القيء على طول الطريق وهي تفعل ذلك. بعد عدة ثوان هدأت موجة الغثيان، وسعلت وبصقت في نباتات مجرى النهر. هاجمتها موجة ثانية من المرض، واستسلمت، وتقيأت مرة أخرى بصوت عال في الليل، واستمر جسدها في تشنجاته على الرغم من عدم وجود شيء متبق لإخراجه. بصقت مرة أخرى لتنظيف فمها، وبدأت تبكي علانية، ورأسها لا يزال متدليا خارج السيارة.

وخلفها لم يتحرك الغريب.

"أنا... أنا آسفة جدا"، كان كل ما استطاعت قوله. جعلها إحراجها تشعر بالغباء فقط.

"لا تقلقي"، جاء صوت ناعم بشكل مفاجئ من خلفها.

مسحت فمها بكم بلوزتها.

قال ستة" :**يحدث لي هذا طوال الوقت".**

استغرق الأمر دقيقة كاملة لإعادة جسدها إلى داخل السيارة، وإغلاق الباب، ولف نفسها في وضع مائل على المقعد الأمامي. بدأت دموعها ونحيبها في الانحسار. مسحت وجهها عدة مرات أخرى، مدركة لنظرة الرجل الهادئ في الظلام، على الرغم من عدم وجود طريقة لديها لمعرفة ما إذا كانت عيناه مفتوحتين حتى.

أخيرا، عندما تعافت تماما باستثناء بضع شهقات مبللة، سألت" :**هل تعتقد أننا سنخرج من هذا بخير؟"**

"نعم، ستكونين سالمة وآمنة بحلول هذا الوقت غدا".

الفصل الثاني والعشرون

يبدأ صباح أوائل أبريل على الساحل حارًا ومشمسًا، ويزداد حرارة وشمسًا مع مرور كل ساعة، مع صياح الطيور وصوت الحشرات السائد والحيوي في موسم الجفاف. في سيارة السيدان الخانقة، تحت الشجيرات البنية والخضراء الكثيفة في الوادي، أبعد **جينتري** حشرة أم أربعة وأربعين عن طرف أنفه، وحاول العودة إلى النوم، لكنه لم يستطع.

فرك عينيه، ومسح العرق الجاف الذي تكون على رموشه وجبهته أثناء الليل. فتح نافذته قليلاً. دخل الهواء النقي على الفور إلى الداخل، واستنشقه بعمق. لقد تمكن بالفعل من النوم لبضع ساعات، ليست متتالية، لكن جسده تكيف خلال نصف عمر من القيلولات المتقطعة للحصول على أقصى فائدة من أقل قدر من الراحة.

في ضوء الصباح الخافت تحت غطاء الشجيرات الذي يلف السيارة، حاول التخطيط ليومه. لم يكن لديه هاتفه الفضائي، لذلك لم يستطع إبلاغ **سييرا واحد** بما حدث. لا يعني ذلك أنه كان يتطلع إلى تلك المكالمة. كان الهبوط في **دارفور** خطأً لم يكن في الحقيقة خطأ أحد وكان من الممكن التعامل معه بسهولة نسبية. لكن كل ما حدث منذ ذلك الحين؟ كل التهديدات التي واجهت العملية منذ الهبوط في **الفاشر**؟ كان **كورت** يعلم جيدًا أن كل ذلك يقع على عاتقه. سلسلة من الأخطاء الفادحة من جانبه وضعته هنا، الآن، ووضعت عملية وكالة المخابرات المركزية "نوكتورن سافاير"، التي كان جزءًا حاسمًا منها، في خطر مميت.

إذًا ماذا الآن يا **جينتري**؟ نظر إلى المرأة. لم يكن بهذا القرب من أنثى منذ فترة طويلة، باستثناء ممرضة أو اثنتين محترمتين في **فرنسا** ومساعدة بيطرية أنقذت بلا شك حياته وحياة أولئك الذين أنقذهم في ديسمبر الماضي بفضل مهارتها في الخياطة.

كان هذا مختلفًا. كانت نائمة على بعد أقدام قليلة منه، هادئة وصامتة الآن، وبقدر ما يمكنه أن يستنتج من خبرته المحدودة مع النساء، راضية. لقد سمعها تتقلب وتستدير لساعات الليلة الماضية. وفي بعض المرات صرخت من الخوف، مما أيقظ **كورت**، لكنه لم يفعل شيئًا لمساعدتها.

لم يكن لديه أي فكرة عما يجب فعله. لم يتلق أي تدريب على توفير الراحة.

كانت جميلة. في مثل عمره، بشعر قصير بني محمر مبعثر على وجهها وهي نائمة. احترم وجودها هنا، في منطقة حرب، حتى لو لم يكن يكن احترامًا كبيرًا للمحامين أو المنظمات الدولية. بدت المحكمة الجنائية الدولية على وجه الخصوص، لرجل مثل **كورت**، مجرد قاعة احتفالات مليئة بالمتذمرين والشاكين المثقفين بشكل مفرط وقليلي الخبرة الذين ليس لديهم ذراع إنفاذ حقيقي أو تفويض للقيام بما وعدوا به. بالنسبة لرجل مثل **كورت**، الذي يجمع بين سلطة القاضي وهيئة المحلفين والجلاد، بدت المحكمة الجنائية الدولية غير ذات صلة على الإطلاق هنا في العالم الحقيقي.

لكنه لم يستطع إلا أن يحترم المرأة. الطريقة التي نفخت بها صدرها الصغير وأعلنت أنها محققة في المحكمة الجنائية الدولية كانت غباءً مطبقًا، لكنها كانت جريئة بلا شك. كانت الفتاة قوية، حتى لو لم تكن تملك الحس الكافي لضبط نفسها عن الكلام الزائد.

لقد كذب عليها بشأن قتل رجلي جهاز الأمن القومي، لكنه شعر أنه فعل ذلك من أجل مصلحتها. استطاع أن يعرف من سؤالها له عن الأمر أنها ما كانت لتتحمل هذه المعلومة في تلك اللحظة، وكان بحاجة إليها لتقود وتحافظ على رباطة جأشها. كان عليه أن يقتلهما، كما كان يعلم، لأنه حتى مع العمامة الملفوفة حول وجهه وتغيير الملابس، كان من السهل عليهم التعرف عليه كفرد من طاقم طائرة الإليوشن الذي يتحدث الإنجليزية والفرنسية ويصرخ على

المرأة. كان من حظه أن **إيلين والش** لم تر إطلاقه النار عليهما، ولم ير أي سبب لإثقال كاهلها بهذه المعرفة.

بدأت تتحرك قليلاً، لعقت شفتيها وفركت أنفها. للحظة أراد أن يمد يده ويبعد الشعر عن وجهها. كان شعورًا قويًا. ذكره بالشعور الذي كان ينتابه عندما ينظر عبر الغرفة إلى زجاجة مسكناته في غرفته في **نيس** .كان يعلم أنه لا ينبغي أن يمد يده، ولكن اللعنة إذا لم يكن يريد ذلك.

على عكس تلك الأيام في **نيس**، وبعض الأيام منذ **نيس**، لم يمد يده إلى **إيلين والش**.

لقد تحدث كثيرًا الليلة الماضية. تذكر هذا فجأة، وأغضبه ذلك. استمرت المحادثة لمدة ساعة، بسهولة. لقد تمكنت من الحصول على مزيد من المعلومات عنه، معلومات حقيقية أكثر عنه، أي أكثر من أي شخص آخر كان على اتصال به منذ فترة طويلة جداً. تسعون بالمئة من المحادثة كانت عنها، وعن عائلتها، وأصدقائها، وتجاربها مع المحكمة الجنائية الدولية في **هولندا**، لكن في العشرة بالمئة من الوقت الذي كان يتحدث فيه، أو على الأقل الخمسة بالمئة من الوقت الذي كان يتحدث فيه ويقول الحقيقة، قال الكثير. لم يقدم أي معلومة عملياتية، كان متأكدًا من ذلك. لكنه اعترف بأن والديه تطلقا عندما كان صغيرًا، وأن لديه أخًا توفي قبل بضع سنوات، ولماذا أخبرها بهذا لم يكن لديه أي فكرة. تخيل أنها محققة ممتازة، تستخلص الحقيقة من أولئك الذين تقابلهم، وتغرس فيهم ثقة بأن الاثنين كانا يتجاذبان أطراف الحديث بينما كانت هي، في الواقع، تمتص كل كلمة، وتقيمها، وتتجاهل تلك التي لا تتناسب، وتبني بتلك الكلمات المتبقية انطباعًا، صورة للأشخاص الذين تتحدث إليهم، فهمًا لمن هم. وما الذي يحاولون إخفاءه.

كان لديه هذا الشعور غير المريح والذي لا يتزعزع بأن هذه المرأة النائمة على بعد ثلاثة أقدام منه في السيارة الحارة، مفصولة فقط بظهور المقاعد الأمامية، قد نظرت بطريقة ما

بعمق في داخله وعرفت تاريخه، وماضيه، وشياطينه التي تمكن حتى من إخفائها عن نفسه. كان شعورًا مقززًا، شعورًا بالانكشاف، بالضعف. ومع ذلك، في نفس الوقت، منحه تقاربًا مع هذه المرأة، وجعله يشعر بالقرب منها بطريقة ما، وأعطاه إحساسًا لم يكن معتادًا عليه على الإطلاق.

نظر إليها **كورت** لفترة طويلة. شاهد صدرها يرتفع وينخفض مع أنفاس النوم البطيئة.

ثم استدار عنها فجأة وجلس مستقيمًا في المقعد الخلفي.

"استجمع نفسك يا **كورت** !استجمع نفسك في هذه اللحظة!" صرخ على نفسه داخليًا. "أنت غارق في ورطة في أرض العدو. ركز عقلك اللعين على المهمة!" على الفور كره هذه المرأة؛ كانت تهديدًا له الآن، نقطة ضعف يمكن أن تقتله.

كان يستطيع تغيير مفتاح في دماغه بهذه الطريقة. أبقاه وحيدًا، بلا شك، لكنه أبقاه حيًا أيضًا.

خرج **كورت** من السيارة، دون محاولة أن يفعل ذلك بهدوء حتى لا تستيقظ **إيلين** .راحتها ليست مشكلته اللعينة. زحف من بين الشجيرات التي تخفي سيارة السيدان، ووقف في الوادي، ثم مزق الجلباب المحلي الذي أخذه من سائق العربة في الليلة السابقة، كاشفًا عن قميصه الداخلي البني.

سحب المسدس الذي أخذه من قائد جهاز الأمن القومي في الليلة السابقة، ونظر إليه بعناية في ضوء الصباح. كان من طراز .Bul Cherokee وجد أنه من المفارقة إلى حد ما أن يحمل شرطي سري يتحدث العربية مسدسًا إسرائيليًا، وربما الأكثر إثارة للسخرية أن المسدس قد استخدم لقتله. لم يكن ضمن أفضل عشرة خيارات للمسدسات لدى **كورت**، لكنه بالتأكيد أدى المهمة على بلطجيي جهاز الأمن القومي الليلة الماضية.

تسلق من الوادي، ونظر إلى الطريق على بعد ربع ميل، عبر أراضٍ عشبية جافة، تعصف بها الرياح وتغطيها الرمال. لم ير أي سيارات على الطريق. كان الطريق يمتد مسطحًا ومستقيمًا إلى الغرب، ولكن إلى الشرق، عائدًا نحو **الفاشر**، تحول الطريق السريع إلى مسار متعرج واختفى في منحدر لطيف.

لم تكن المناظر الطبيعية قاحلة بالمعنى الدقيق للكلمة. لم تكن هذه صحراء كبرى من الكثبان الرملية؛ كانت هناك خصلات متفرقة من الأشجار، السنط والباوباب، وأعشاب وشجيرات متقطعة بقدر ما يمكن للعين أن ترى فوق القشرة الترابية البنية، سطح بدا صلبًا كالحجر وبطريقة ما أقل جاذبية.

سمعها تخرج من السيارة في الأسفل وخلفه. استغرقت دقيقة لتستعيد توازنها وتجده هناك على قمة الوادي. ظهرت بجانبه بصمت، أقرب مما كان يود، وتابعت نظره إلى الامتداد الشاسع إلى الشرق.

"لا أظن أنك ترى مطعم وافل هاوس أفتقده هناك في الأفق."

هز **كورت** رأسه.

"هل نلت قسطًا من الراحة؟"

"قليلاً."

"رأيت بعض الكوابيس المروعة. لكنني أشعر أنني بخير. شكرًا لتحدثك معي الليلة الماضية."

لم يقل **كورت** شيئًا.

"تكون لدي انطباع أنك لا تفعل الكثير من ذلك. وأنك كنت تتحدث لمساعدتي على الاسترخاء."

لا يزال لا شيء.

"على أي حال... أقدر ذلك."

ظل **كورت** ينظر إلى الامتداد الشاسع من الأرض أمامه، متمنيًا أن تتراجع بضع خطوات.

كان يمسح الطريق، باحثًا عن مركبات في الأفق الضبابي.

"هل استيقظ أحدهم بمزاج سيء هذا الصباح؟"

أدرك أنه كان يتصرف بحماقة، ويحول غضبه من انفتاحه الليلة الماضية إلى سوء أدب اليوم. شعر بأنه أكثر طفولية الآن مما كان عليه عندما استيقظ. لان، واستدار نحوها، لكنه لم يجرِ اتصالاً بالعين" .**أنا بخير. أفكر فقط في اليوم."**

"أين نحن بالضبط؟ هل نعرف حتى؟"

"نحن على بعد حوالي خمسة وعشرين كيلومترًا من ضواحي الفاشر. هذا كل ما يمكنني إخبارك به."

"إلى أين نحن ذاهبون؟"

نظر **كورت** من فوق كتف **إيلين** ورآها في الأفق. شبح ضبابي ودخاني على الأفق الزائف على بعد بضعة أميال إلى الغرب. ارتفعت من المسار الصحراوي، ما يمكن اعتباره طريقًا هنا في مناظر **دارفور**، ومن حجم سحابة الغبار عرف أنها نوع من قافلة شاحنات كبيرة. استغرق الأمر بعض الوقت للتأكد، لكن بعد فترة تعرف على الطلاء الأبيض على المركبات. لم تكن

تابعة لحكومة **السودان**؛ لم تكن وسائل نقل بضائع خاصة. لا، كانت تابعة لنوع من منظمات الإغاثة غير الحكومية.

أشار إلى الغبار المتصاعد في الأفق" .**نحن ذاهبون إلى حيث يذهبون."**

تحركت **إيلين** و**كورت** بسرعة معًا نحو الطريق. بدأت المرأة الكندية تمرر أصابعها عبر شعرها، محاولة ترتيب نفسها قليلاً. نظر إليها **جينتري** بارتباك.

"لا يضر أبدًا ترك انطباع أول جيد ."قالتها بابتسامة، وواصلت فعل ما في وسعها لنفض الغبار عن ملابسها الآن" .**كنت سأسألك إذا كان لديك مرآة، لكنني أتخيل أن حظي سيكون أفضل في العثور على مطعم وافل هاوس ذاك."**

كان **كورت** مفتونًا بالسلوك الغريب للأنوثة.

"اسمع"، قالت له **إيلين** .استطاع أن يعرف قبل أن تتكلم مرة أخرى أنها غير مرتاحة قليلاً . **"هل سيكون من المقبول أن تقف بعيدًا، ربما خلف إحدى تلك الأشجار الصغيرة أو شيء من هذا القبيل، بينما أطلب منهم التوقف لنا؟ لا أريد أن أخيف ما قد يكون فرصتنا الوحيدة."**

لم يمانع **كورت** على الإطلاق. كان رجلاً أبيض أشعث المظهر، هنا، مع مسدس كبير مدسوس بشكل سيء في بنطاله. افترض أن القافلة سيكون لديها وحدة من جنود **اليوناميد**، قوات الاتحاد الأفريقي المعارة إلى الأمم المتحدة، ولم يكن لديه شك في أنهم سيوقفون القافلة لامرأة بيضاء جميلة على جانب الطريق. سيُنظر إلى **كورت** على أنه تهديد، ومما تعلمه عن تردد **اليوناميد** في قتال أي شخص هنا، لم يرغب في المخاطرة بإخافتهم" .**نعم، هذه ليست فكرة سيئة. لكن لا تفسدي الأمر. استلقي في الطريق أمام تلك الشاحنات إذا لزم الأمر، لكن تأكدي من توقفهم. ولا تخبريهم أنك مع المحكمة الجنائية الدولية وكنت**

متورطة في الشجار مع الشرطة السرية. هذه المنظمات غير الحكومية لا تبحث عن التورط في هذا النوع من المشاكل. أخبريهم"...

"ما رأيك أن أخبرهم أنني مراسلة وأنت مصوري؟ لقد ضللنا الطريق في الفاشر بحثًا عن فندقنا ثم تعرضنا للسرقة، وأُخذنا إلى هنا، وأُلقينا على جانب الطريق."

كان **كورت** مستعدًا لرفض فكرتها مقابل فكرة خاصة به، لكنه أوقف نفسه، وفكر في الأمر، وأدرك أن قصتها كانت جيدة جدًا في الواقع. محاولاً قدر الإمكان إخفاء مدى إعجابه، قال : **"قد ينجح ذلك. لنعتمد ذلك."**

ابتعد **جينتري** عن الطريق، ونزل إلى مجرى صغير ودخل بعض الشجيرات. سارت **إيلين والش** على الطريق لمسافة خمسين مترًا لخلق مسافة أكبر.

بعد عشر دقائق، كان **ماريو بيانكي** البالغ من العمر واحدًا وستين عامًا يتفحص المرأة الكندية على طول الطريق الترابي الرملي، عائدًا عبر صف الشاحنات نحو زميلها، مصور أمريكي، أو هكذا أبلغته للتو. قصف ذباب سمين بحجم نصف قطعة يورو وجهه. نزع قبعته السفاري وأبعدها، لكنها كانت معركة خاسرة سرعان ما استسلم لها. سيكون الجو حارًا اليوم، بالفعل في التاسعة صباحًا كانت درجة الحرارة تقترب من سبعة وثلاثين درجة. أراد أن تصل قافلته إلى **ديرة** بحلول الظهر؛ لقد تأخروا، حتى قبل هذا الحدث المفاجئ الذي عثر عليه للتو.

اعتقد **ماريو** أنه رأى كل شيء على الطريق من **الفاشر** إلى **ديرة** .بحق الجحيم، لقد قام بهذه الرحلة التي يبلغ طولها 125 كيلومترًا أكثر من مئة مرة في السنوات الثماني الماضية وهو يعمل لصالح وكالة الإغاثة التي تتخذ من **روما** مقرًا لها، **سبيرانزا إنترناسيونالي**، ثم يصبح

مديرها. كان **بيانكي** ينقل الأفراد والإمدادات من جميع أنحاء **أوروبا** إلى المخيمات التي تديرها الوكالة على هذا الجانب من **ديرة**، وقد اعتاد جيداً على الحرارة والرائحة والحشرات والحيوانات ومخاطر هذا الطريق.

لقد واجه متمردين سكارى، ولصوص طرق، ودوريات عسكرية تابعة لحكومة **السودان**، و "قوات حفظ سلام" تابعة للاتحاد الأفريقي، وبالطبع ميليشيا **الجنجويد** المخيفة.

ولكن في كل رحلاته على هذا الطريق الذي لا يستحق هذا الاسم، لم يصادف أبدًا أي غربيين بيض يتحدثون الإنجليزية سيرًا على الأقدام.

يا للجنون.

تمتع **ماريو بيانكي** بسمعة لا تشوبها شائبة في صناعة وكالات الإغاثة. لقد زرعها في مسيرته المهنية التي استمرت أربعين عامًا في جميع أنحاء القارة الأفريقية. كان الإيطالي معروفًا بأنه الرجل الذي يستطيع إنجاز المهمة، ويتفاوض ببراعة ليس فقط على حقول الألغام بالمعنى الحرفي للكلمة ولكن أيضًا على حقول ألغام الدبلوماسية على مستوى الشارع. بغض النظر عمن كان يعمل لصالحه أو أين، كانت قوافله تمر، ومخيماته للإغاثة تُبنى، وعياداته تُزوّد، وموظفوه يتقاضون رواتبهم. فعل كل هذا دون مشاكل ملحوظة من البلطجية المحليين. بدا الأمر أقل من معجزة، بالنظر إلى أين كان وماذا فعل، لكن بطريقة ما مر عليه متمردو ADFLالمغيرون للوران كابيلا، ولم يضايق مجانينRUF في **سيراليون** جهوده لإجلاء المدنيين من أراضيهم، حتى عصابة المراهقين الليبيرية، **ويست سايد بويز**، الذين ذبحوا بشكل أساسي معظم من رأوهم لمجرد المزاح والتسلية، تركوه يفعل ما يفعله في المناطق التي يسيطرون عليها.

فاز بجائزة تلو الأخرى في جميع أنحاء العالم الأول. بالكاد يمر موسم من أي عام دون أن يرى **ماريو بيانكي** يرتدي بدلة توكسيدو يسير عبر مسرح مضاء بالأرضية وسط تصفيق

متحضر ولكن حماسي من النخبة، الذين يرتدون هم أنفسهم بدلات توكسيدو وفساتين سهرة. تراكمت نجاحاته على مر السنين قبل **دارفور**، ودعت فظائع **دارفور** السيد **ماريو بيانكي** كما تدعو الشعلة الفراشة.

هنا في **دارفور**، وصلت سمعته إلى أبعاد أسطورية تقريبًا. بطريقة ما، عندما لم تجرؤ الأمم المتحدة على تسيير قوافل بدون حراسة، وعندما كانت هيئات الإغاثة الخاصة متحصنة في **الخرطوم**، مضرجة بالدماء ومحطمة من المذابح العشوائية في **دارفور** لدرجة أنها لم تذهب بالفعل إلى **دارفور** للعمل، استمرت قوافل **سبيرانزا إنترناسيونالي** في المنطقة؛ وظلت مخيماتها للنازحين وعياداتها ومستودعاتها ومحطات المياه التابعة لها تعمل. بالطبع، كانت هناك غارات متفرقة من قبل **الجنجويد** وحتى المتمردين المحليين، لكنها كانت جزءًا صغيرًا مما شهدته أي مجموعة أخرى في المنطقة عندما تجرأت على فتح متجر في دارفور.

كان يُعتقد أن نجاحات **بيانكي** كانت نتيجة لشخصيته القوية، وأنه تمكن بطريقة ما من تملق شياطين **أفريقيا** لعقود للسماح بتعايش منظمته.

لكن لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق. كان **بيانكي**، وراء القشرة الزائفة لسذاجة فاعل الخير، في الحقيقة، رجلاً ساخرًا بعمق. نصف قرن في **أفريقيا** سيفعل ذلك بأي شخص، لكن مظهر سخريته كان سياسة واقعية باردة ووحشية، والتي يتفق معظمهم على أنه لا مكان لها في عالم منظمات الإغاثة.

حقيقة نجاح **ماريو بيانكي** نبعت من فعل واحد بسيط وشائع.

كان **ماريو** يدفع رشاوى.

رشاوى كبيرة.

للجميع.

لم تضايق عصابة **ويست سايد بويز** في **ليبيريا** عملياته المحلية لأنه دفع لهم عشرات الآلاف من الدولارات للسماح له بالعمل. بالتأكيد لو علم الأمريكيون والأوروبيون حسنو النية الذين تبرعوا بالمال لمنظمته أن جزءًا كبيرًا من تبرعاتهم المعفاة من الضرائب تم تحويله على الفور إلى رشاوى استخدمها مسلحون ليبيريون يبلغون من العمر أربعة عشر عامًا لشراء الحشيش والرصاص والأشرطة الإباحية، لتم إغلاق صنبور المساعدات المتبرع بها من القطاع الخاص على الفور. لو كان لدى هؤلاء المتبرعين نفسهم أي فكرة أنه بعد أن تلقت فرق الموت الكونغولية مدفوعات للوصول من **سبيرانزا إنترناسيونالي**، طالبوا على الفور بالدفع من جميع المنظمات غير الحكومية العاملة في منطقة نفوذهم، وعندما رفض أصحاب المبادئ منهم المساهمة، تم استهدافهم وذبحهم، وبالتالي تركوا **سبيرانزا إنترناسيونالي** كوكالة الإغاثة الوحيدة تقريبًا في شرق **الكونغو**، حسنًا، يمكن مسامحتهم على شعورهم بالتشويه إلى حد ما بسبب تمويلهم حسن النية للذبح.

وهنا في **دارفور**، استمر الأمر. أنشأ نجوم السينما الأمريكية إعلانات في مخيمات **سبيرانزا إنترناسيونالي**، وتدفقت الأموال، وذهبت الأموال، في جزء ليس بالقليل، إلى قتلة **الجنجويد** الذين جابوا شمال **دارفور** واغتصبوا وقتلوا وحرقوا، وفعلوا ذلك على ظهور أفضل الجمال من **تشاد**، وبأفضل بنادق AK-47 من **مصر**، وتواصلوا بأفضل هواتف الأقمار الصناعية من **اليابان**، وكلها مدفوعة بأموال أمريكية وأوروبية.

برر **بيانكي** ذلك بسهولة. كان هنا، وكان يعمل. فعل ما كان عليه أن يفعله، ومن أنتم بحق الجحيم لتحكموا عليه من كراسيكم المريحة بينما كان يطرد الذباب من أنفه في حرارة أربعين درجة مئوية على طريق ترابي في قلب الجحيم؟

والآن طبق سخريته على وضعه الحالي. صحفيان أمريكيان بمفردهما، هنا في الساحل؟ لو كان صادقًا مع نفسه، لاعترف أنه تمنى الآن لو أنه أمر سائقيه بالاستمرار، بترك المرأة البيضاء على جانب الطريق. كان المراسلون المستقلون الذين يعملون بدون مرافقين من

حكومة **السودان** في **دارفور** مثيرين للمشاكل بشكل جدي، فيما يتعلق بعمل مؤسسة **بيانكي** .كان عليه أن يعمل مع قادة **السودان** —أوغاد واحدًا تلو الآخر— وليس ضدهم. حتى التقاط هذه المرأة، وأخذها إلى **ديرة**، كان خطيرًا على منظمته. إذا اكتشفت حكومة **السودان** بطريقة ما ما فعله، فلم يكن لديه شك كبير في أنه ستكون هناك تداعيات من **الخرطوم** يمكن أن تضر بتدفق المساعدات إلى مخيماته. بالتأكيد، كان بإمكانه رشوة طريقه للخروج منها، لكن الانكماش الاقتصادي في العالم الأول أثر على التبرعات، ولم يكن هناك سوى قدر معين من الرشاوى يمكنه توزيعه في هذا الاقتصاد.

رأى **بيانكي** الرجل الأبيض أمامه.

"أين كاميرته؟ قلت إنه مصور."

"هو كذلك. كما قلت، سرق اللصوص سيارتنا الليلة الماضية. كان كل شيء فيها. لقد كنا هنا لساعات ننتظر الأشخاص المناسبين ليأتوا."

"أنت على بعد خمسة وعشرين كيلومترًا خارج الفاشر"، أخبرها.

"مرحباً، لا تنظر إلي، لم أكن أنا من يقود."

لم يشك **ماريو** في المرأة. كان لصوص الطرق يعملون على الطريق بين **الفاشر** و**ديرة**. في موسم الأمطار، عندما تكون الطرق بطيئة والأعطال شائعة، حاولت **سبيرانزا إنترناسيونالي** السفر بحراسة مسلحة من **اليوناميد** كلما أمكن ذلك، حيث كان من المستحيل رشوة كل مزارع أو راعٍ في **دارفور** لديه بندقية .AK لكن في هذا الوقت من العام، كان بإمكانهم، إلى حد ما، التسابق وتجاوز أي مجموعة صغيرة من الرجال عازمة على إلحاق الأذى بهم.

باستثناء **الجنجويد**، الذين دفع لهم جيداً حتى يتركوا قوافله وشأنها.

كان الإيطالي على بعد خطوات قليلة من الرجل الأمريكي الآن، الرجل الأبيض الوحيد يتحدث إلى بعض سائقي **سبيرانزا إنترناسيونالي** الأفارقة وعمال الشحن الذين غادروا مركباتهم للتدخين على جانب الطريق. لم يكن لدى الأمريكي أي معدات معه، ولا حتى حقيبة على ظهره. كان يرتدي قميصًا بنيًا ملطخًا بالعرق وبنطالًا أسود محليًا. ارتفع قميصه على ظهره عندما استدار.

كان الرجل ملتحيًا وأسمرًا، وغطت الأوساخ من الساحل أجزاء وجهه التي لم تغطها اللحية. تحدث بالفرنسية إلى السكان المحليين. لم تكن الفرنسية غير شائعة هنا، حيث كانت لغة شائعة في **تشاد**، وكانت **تشاد** على بعد مئة ميل فقط إلى الغرب.

كان الأمريكي يواجه الاتجاه المعاكس. عندما مد يده لمصافحة موظف آخر من موظفيه، وهو عامل شحن شاب من **دارفور**، رأى **ماريو** مقبض مسدس على وركه الأيمن.

انفتح فم منسق الإغاثة الإيطالي على مصراعيه. لم يستطع تصديق أن هذا الرجل تجرأ على حمل مسدس. راعي بقر أمريكي! وكان يتوقع أن يركب ببساطة على إحدى شاحنات **سبيرانزا إنترناسيونالي** ويحصل على توصيلة من هنا إلى بر الأمان؟ لن يجلب سوى الخطر بهذه الأداة الشريرة المدسوسة باستهتار في سرواله ذي الرباط.

دون كلمة للأمريكي، سار **ماريو بيانكي** بغضب خلفه ومد يده لنزع سلاحه.

وتبين أن ذلك، كما اتضح لاحقًا، كان فكرة سيئة للغاية.

الفصل الثالث والعشرون

وضع يد المرء على السلاح الشخصي لرجل يتمتع بتدريب ومزاج **جنتري** ربما لم يكن خطيرا تماما مثل وضع ذراع المرء في فخ دببة صدئ، لكنه كان قريبا جدا من ذلك. بمجرد أن شعر **كورت** بالضغط، قبل وقت طويل من التفاف أصابع **ماريو** بالكامل حول القبضة، وقبل وقت طويل من أن يبدأ في سحب المسدس من سرواله، استدار القاتل الأمريكي نحو التهديد، واستخدم قوة الدفع في جذعه الدوار ليضرب بذراعه الأيمن للخلف لأعلى بقوة وسرعة لا تصدق، مبعدا ذراع التهديد لأعلى وبعيدا عن مسدسه. استمر في دورانه، وبيده اليسرى تنطلق عبر جسده، وصل إلى أمام وجه التهديد، ومد ساقه اليسرى خلف ساقي تهديده، وضرب بيده اليسرى بقوة تحت ذقن التهديد. أدى ذلك إلى ترنح الرجل للخلف، فوق الساق التي خلفه، وسقوطه على ظهره وفي سحابة الغبار التي أثارها وابل حركات **جنتري**.

سحب **جنتري** مسدسه كطيف شبح، ووجهه نحو التهديد على الأرض، ثم مسح المنطقة بحثا عن المزيد من المهاجمين.

وقفت **إيلين** على بعد عشرة أقدام، ووجهها أبيض من الرعب.

بعد خمس دقائق، لم يتم الصفح ولا النسيان، لكن الإيطالي البالغ من العمر ستين عاما قد تم رفعه مرة أخرى على قدميه، ونفض عنه الغبار، وأعيدت قبعته إلى رأسه. احتاج إلى دقيقة ليتماسك، فجلس على عتبة إحدى الشاحنات، يشرب صودا برتقال باردة ويدخن سيجارة. جلست **إيلين والش** معه وأمطرت عليه بالاعتذارات، أشبه بدبلوماسية منها بالمحامية التي

هي عليها، أو الصحفية التي ادعت أنها هي. وقف **كورت** على جانب الطريق بمفرده، منبوذا من الجميع، لما رآه مجرد جرأة على حمل مسدس لعين في وسط حرب لعينة .

"**لا أسلحة! لا أسلحة** "!وقف أحد سائقي الإغاثة الأفارقة، وهو رجل في منتصف العمر بشعر فضي، على بعد عشر ياردات من الأمريكي ولوح بيده في إشارة "لا ـ لا" مرارا وتكرارا وهو يوبخ.

قال **كورت** بحزم" :**لن تحصل على مسدسي**".

"**لا أسلحة. لا أسلحة** "!استمع **كورت** إلى ما كان، على ما يبدو، الكلمتين الإنجليزيتين الوحيدتين اللتين يعرفهما هذا الرجل، مرارا وتكرارا، وشاهده يهز إصبعه ذهابا وإيابا.

صرخ **كورت**" :**قل ذلك مرة أخرى يا وغد** ".فعل الرجل ذلك تماما ـ مرتين أخريين في الواقع ـ قبل أن يتوقف ويتنحى جانبا ليسمح لرئيسه والمرأة البيضاء بالمرور. من مشيتهما وتعبيراتهما الثابتة، استطاع **كورت** أن يرى أن **إيلين** و**السنيور بيانكي** لا يزالان غاضبين.

نظر **كورت** إلى **إلين** .قال" :**لا تضع يدك على سلاح شخص آخر**".

ردت بغضب" :**لقد ذكرت ذلك بالفعل يا ستة. انظر. أنا ذاهبة إلى ديرة معهم. سيأخذونك معهم، كخدمة شخصية لي، فقط وفقط إذا أعطيت السنيور بيانكي المسدس**".

"**ماذا سيفعل به؟**"

تحدث **ماريو بيانكي** عن نفسه. كان لا يزال يفرك مؤخرة رقبته. تساءل بصوت عال عما إذا كان هناك معالج فيزيائي أو مقوم عظام في عيادته في **ديرة** يقوم بعمل تطوعي اليوم. ثم قال : "**سأرمي المسدس في الصحراء. ماذا كنت ستفعل بمسدس؟**"

قلب **كورت** عينيه" .**ربما كنت سأبتكر شيئا ما".**

"لا نحتاج إلى أسلحة في قافلتنا. نحن لا نبحث عن المشاكل".

حدق **كورت** في الإيطالي الأكبر سنا لفترة طويلة. أخيرا قال" :**هذا هو الشيء المضحك في المشاكل. أحيانا تأتي هي لتبحث عنك".**

كانت نظرة **بيانكي** بنفس حدة نظرة **جنتري**؛ نقلت نفس القدر من الكراهية للرجل الذي أمامه" .**لن تصعد إلى إحدى شاحناتي ومعك هذا المسدس".**

كان هذا مضيعة خطيرة للوقت، وكان **كورت** يعلم ذلك. لم تمر أي سيارة أخرى في الدقائق العشر التي قضوها في الطريق مع قافلة "سبيرانزا إنترناسيونالي". إذا أراد الخروج من هنا قبل أن يمر بهم قطاع الطرق أو جيش حكومة السودان أو الشرطة السرية، فسيتعين عليه أن يلعب اللعبة. بتنهيدة يائسة سحب سلاحه. مد **بيانكي** يده لأخذه، لكن **جنتري** ابتعد عنه، عائدا نحو مجرى نهر جاف ضحل على الجانب الجنوبي من الطريق. أفرغ الخزنة من المسدس وأخرج الرصاصات بإبهامه على الأرض، وركلها إلى أسفل المنخفض. سقط بعضها في شقوق الأرض الجافة، وظل بعضها مرئيا. ثم أخرج الرصاصة من الحجرة وفكك السلاح، ساحبا المزلاق، ومخرجا نابض المزلاق، والسبطانة. ألقى هذه الأجزاء إلى أبعد ما يمكن في المسافة.

اقتربت **إيلين** منه. كان صوتها أكثر نعومة؛ أرادت أن تضع الأمر خلفهما" .**حسنا الآن. هل كان ذلك صعبا جدا؟"**

نظر **كورت** إلى المشهد الطبيعي الشاسع وحك لدغة برغوث رمل جديدة على معصمه الأيسر.

"سأخبرك في غضون ساعتين".

بعد عشر دقائق كان **كورت** في المقعد الأوسط للشاحنة الثالثة من أصل أربع في القافلة. لم يكن يرى سوى القليل من الزجاج الأمامي أمامه باستثناء غبار المركبتين اللتين أمامهما. كانت **إيلين** مع **ماريو** في المركبة الأمامية. كان الإيطالي قد فصل بينهما، ربما، فكر **كورت**، حتى يتمكن العجوز من مغازلة الكندية المغطاة بالغبار ولكنها لا تزال جذابة. في الكابينة مع **جنتري** كان **رشيد**، السائق ذو الشعر الأبيض، و**بشارة**، عامل تحميل شاب في "سبيرانزا إنترناسيونالي". كان **بشارة** يتحدث الإنجليزية بشكل جيد بشكل مدهش، حتى لو لم تكن جغرافيته بنفس الممارسة. سأل **كورت** عما إذا كان من نفس مدينة **ديفيد بيكهام**. قال **كورت** لا، وتجاهله في الغالب، وأبقى عينيه مفتوحتين على النوافذ. كان يعلم أنهم لم يتخلصوا من جهاز الأمن الوطني بعد. سيستغرق الأمر ساعتين أخريين للوصول إلى **ديرة**، كما أخبرهم **ماريو** .يجب أن يصلوا في منتصف النهار تقريبا. بمجرد وصولهم إلى هناك، سيأخذ **إيلين** إلى بر الأمان في مخيم "سبيرانزا إنترناسيونالي" للنازحين داخليا. سيكون لديها إمكانية الوصول إلى الاتصالات هناك ويمكنها ترتيب طريقة ما للخروج من هنا إما عن طريق الجو بطائرة هليكوبتر أو برا بمرافقة قوات **يوناميد** .أما **كورت**، من ناحية أخرى، فقد خطط لاستئجار سيارة وسائق ليأخذه مباشرة إلى **الفاشر**. في المدينة سيجد شخصا يمكنه أن يبيعه هاتفا محمولا من السوق السوداء، وسيتصل بـ**سيد**، ويلقي أكبر قدر ممكن من اللوم على طاقم الطائرة الروسي لتفويته رحلة الإليوشن، وعلى مغازلة الطيار للفتاة من المحكمة الجنائية الدولية، وسيجعل **سيد** يجد له طريقة أخرى للخروج من **الفاشر** .إذا استطاع فعل كل هذا في يوم ونصف، فسيظل قادرا على الوصول إلى **سواكن** في الوقت المناسب للعملية هناك.

سيكون الأمر حرجا كما هو، وكان يأمل فقط ألا تكون هناك المزيد من العقبات على طول الطريق.

ارتشف **كورت** من زجاجة ماء فاتر كان **بشارة** قد مررها له. كان قد فحصها بعناية قبل فتحها للتأكد من أنها ليست حاوية أعيد تعبئتها. كان الدارفوريان من "سبيرانزا إنترناسيونالي"

يستمعان إلى موسيقى فظيعة على راديو ترانزستور سيئ الضبط كان معلقا خلف رأس **جنتري** مباشرة على مزلاج بوابة الوصول المنزلقة إلى عنبر الشحن في الشاحنة. كادت الاتصالات اللاسلكية بين الشاحنات أن تضيع وسط عويل امرأة ما. غنى **بشارة** بمفرده للحظة حتى ضحك **رشيد** الأكبر سنا وانضم إليه.

واصل الرجال الغناء في الأغنية التالية، ثم التي تليها. تمنى **كورت**، للحظة، لو كان لا يزال مسدسه على وركه ولا يزال ينتظر في الحر على جانب الطريق لركوب سيارة.

توقف **بشارة** عن الغناء فقط ليسأل **كورت** عن مختلف فناني الهيب هوب الأمريكيين، وهو موضوع لم يكن **الرجل الرمادي** ملما به جيدا. واصل تجاهل الفتى، الذي عاد أخيرا إلى موسيقاه.

من وقت لآخر، كان راديو القافلة يصدر طقطقة مع انبعاث الحروف الإنجليزية ذات اللكنة الإيطالية للسنيور **ماريو بيانكي** في المركبة الأمامية، عادة ما يبلغ عن شيء أو آخر لمن في القافلة خلفه. تشكل كبير من الجذور المجمعة من بقايا شجرة باوباب ميتة قد انفصل عن التربة الصلبة بجانب الطريق ويحتاج إلى التعامل معه، واد جاف يعبر الطريق السريع يتطلب النزول إلى ترس أقل لعبوره بأمان، جمل أعرج قرر التوقف أمامهم، لذلك سيكون هناك تأخير قصير.

كان **كورت** سيشعر بتحسن كبير لو كان لهذه القافلة حراسة مسلحة. سأل **بشارة**" :**لماذا ليس لديكم جنود من يوناميد معكم هنا؟"**

هز الشاب كتفيه ببساطة وهو يتحرك مع الموسيقى الرديئة. ثم قال" :**دارفور بحجم تكساس في أمريكا، وهناك فقط عشرة آلاف جندي من يوناميد. معظمهم في المخيمات. لا يكفي الباقون لكل قافلة صغيرة "**.ابتسم مرة أخرى" .**لا مشكلة. الجنجويد لا يهاجمون سبيرانزا إنترناسيونالي. الجميع يعرف ذلك".**

نظر **كورت** إلى الشاب، متفاجئا" .**ولماذا هذا؟**"

"**السيد ماريو صديق للجنجويد**".

نظر **كورت** ببساطة من النافذة إلى الغبار" .**مثالي**".

لم يلاحظ **كورت** أن **بيانكي** لم يرسل أي رسالة منذ بعض الوقت. بالكاد كان يسمع على أي حال مع الموسيقى والغناء الجماعي في الكابينة الخانقة. ولكن عندما عاد صوت الإيطالي الرنان أخيرا على الراديو، اعتدل **كورت** على الفور في جلسته. كان هناك شيء مختلف في نبرة الرجل. لفتت وتيرته وبروتوكوله المفاجئ انتباه الأمريكي، ومد يده وأدار القرص لرفع الصوت بسرعة.

"**مخيم سبيرانزا إنترناسيونالي للنازحين داخليا في ديرة، هذه قافلة سبيرانزا إنترناسيونالي، الشاحنة 1، انتهى**".

أسكت **كورت** الغناء في الكابينة معه، ومد يده للخلف، وتلمس راديو الترانزستور لخفض صوته.

"**تفضل يا شاحنة 1، انتهى** ".صوت أنثوي. أسترالي.

"**مارجي**"، بدا صوت **بيانكي** الجاد رسميا وجادا. درس **كورت** أنماط توتر الصوت لأكثر من عقد. كان يعلم أن هذا الإرسال اللاسلكي يعني مشكلة حتى قبل أن يتحدث الإيطالي .
"**لقد أقلت قافلتنا امرأة تدعي أنها محققة للمحكمة الجنائية الدولية. إنها مع زميل لها. هل يمكنك الاتصال بمكتبهم والخرطوم وتأكيد أوراق اعتمادها؟ إذا كانت هي من تقول إنها هي، فنحن بحاجة إلى أن يرسلوا طائرة هليكوبتر**"——

صرخ **كورت**" :**اللعنة** ."**!**حدق فيه رجلا القبائل المحليان في الكابينة معه.

أدرك **كورت** أن هذه الإرسالات سيتم التقاطها بالتأكيد من قبل جهاز الأمن الوطني، الذين، على الرغم من أنهم بالتأكيد ليسوا منظمة استخبارات من الدرجة الأولى، إلا أنهم بالتأكيد يستطيعون استنتاج أن الأشخاص الذين أقلتهم قافلة "سبيرانزا إنترناسيونالي" للتو هم نفس الشخصين اللذين يقتلان عملاء الحكومة ويفجران الأشياء أمام **بيت الأشباح** في الليلة السابقة.

العاهرة المحامية اللعينة، فكر **جنتري**، لكنه تدارك نفسه. لم يكن لديها أي سبب للثقة به أكثر من السنيور **بيانكي** .لا بد أنها شعرت بالأمان هناك مع رئيس منظمة الإغاثة هذه وأفضت إليه بالخطر. كان الأمر مفهوما، حتى لو كان قد خلق كارثة محتملة.

بدأ عقل **جنتري** يعمل بأقصى طاقته. ما هي احتمالات أن يكون جهاز الأمن الوطني قد التقط ذلك الإرسال؟ ما هي احتمالات أن يربطوا بين الأمرين؟ ما هي احتمالات أن يتمكنوا من حشد أصول في المنطقة وإما اعتراض القافلة أو انتظارها خارج مخيم النازحين في **ديرة؟** ما هي احتمالات، في حالة فشل ذلك، أن يسمح لهم بالمرور مباشرة بجانب حراس **يوناميد** في المخيم والإمساك بالفتاة؟

نظر **كورت** إلى الضباب والغبار. فكر في نفسه في صرخة عقلية شبه محمومة، فكر**!** فكر يا **جنتري** !ماذا سيفعلون؟ كافح لتوجيه عملية التفكير لقيادة المخابرات السودانية. لا يمكنهم السماح لـ**إلين** بالدخول ببساطة إلى المخيم في **ديرة** .ستكشف كل شيء عن انتهاكهم للعقوبات. لن ينتظروا حتى تلتقي قوات حفظ السلام التابعة لـ**يوناميد** بقافلة المساعدات. عندئذ سيكونون أقل تسليحا، حتى لو لم يكن المسلحون أنفسهم متحمسين بشكل خاص لاستخدام أسلحتهم.

لا، فكر **كورت**، لو كان يدير جهاز الأمن الوطني، لضربهم في أسرع وقت ممكن، هنا في العراء. يقتل الجميع في القافلة الصغيرة حتى لا يتم التركيز على امرأة المحكمة الجنائية الدولية كهدف للهجوم.

فكر في كل هذه الاحتمالات لمدة تقل عن دقيقة. معالجتها في دماغه الخصب، دماغ مكيف على الخطر، المعركة، المؤامرة، الخداع، والتهديد.

قد يتمكن جهاز الأمن الوطني من حشد فصيلة من جنود جيش حكومة السودان في المنطقة في الوقت المناسب لقطع طريق القافلة. لكن ذلك لم يبد محتملا. كانوا على بعد ساعات قليلة فقط من وجهتهم.

لا، كان لدى جهاز الأمن الوطني اتصالات وسيطرة على قوة مقاتلة أخرى ستكون في المنطقة مباشرة ومستعدة لتنفيذ أوامرهم.

يا إلهي، فكر. ليس هؤلاء الأوغاد.

بقدر ما كره الاعتراف بذلك، لم يستطع **جنتري** رؤية سوى نتيجة واحدة محتملة. أومأ لنفسه. انقبضت عضلات فكه بعزم. نظر إلى **بشارة**.

"أعطني خريطة".

تلمس **بشارة** بعض الأوراق على أرضية السيارة. وبينما كان يفعل ذلك، ضحك" .**لماذا تحتاج إلى خريطة؟ هناك طريق واحد فقط. لا يمكنك أن تتوه هنا يا رجل** ".ومع ذلك، سحب الخريطة المطوية، وأخذها **جنتري** منه بسرعة وبدأ يدرسها.

كانت شبه خالية من الملامح، ولكن كانت هناك بعض الممرات القاتلة في المشهد، شقوق ضحلة ووديان ضيقة سيتعين عليهم تجاوزها في طريقهم إلى **ديرة** .أي من هذه الأماكن سيكون مكانا جيدا للتعرض لهجوم.

"استمع إلي يا فتى. سنتعرض للهجوم. هنا، على الطريق".

اتسعت عينا **بشارة** البنيتان الساطعتان" .**هجوم؟ من سيهاجمنا؟"**

نظر **كورت** متجاوزا الشاب الدارفوري، من نافذة الراكب، وإلى المشهد اللامتناهي تقريبا. ارتفعت التضاريس إلى الجنوب، أشجار أكاسيا سمينة بحجم عربات البضائع وسط تلال جافة تبرز في المسافة.

كان صوت **كورت** قويا، لكن الأعصاب ظهرت في نبرته" .**الجنجويد".**

أمال الشاب الأسود رأسه. لوح بيده في الكابينة كما لو كان يطرد ذبابة" .**كلا يا رجل".**

التفت **جنتري** إلى السائق" .**مسدسك .أحتاج إلى مسدسك".**

أجاب **بشارة** عن الرجل الأكبر سنا، الذي لم يكن يتحدث الإنجليزية" .**ليس لدينا مسدس يا رجل".**

"هيا! أعرف أنكم يا رفاق لا بد أنكم تخبئون شيئا ما في حال جاء الجنجويد. أنا لست مع الأمم المتحدة، لن أخبر أحدا. سنتعرض لهجوم، وأنا بحاجة إلى بندقيتك الكلاشينكوف، لأراقبهم".

"لا يوجد مسدس يا رجل. ولن يأتي أي جنجويد. نحن من سبيرانزا إنترناسيونالي".

قال **كورت"** :**لا يهم اليوم "**.فكر في خياراته. يمكنه الاتصال بالراديو، والاتصال بمقدمة القافلة ليوقفها **بيانكي** .ثم يمكنه إخباره بالخطر الذي تسبب فيه للتو، وجعله يبتعد عن الراديو، والعودة إلى **الفاشر**.

لا، متغيرات كثيرة جدا. ماذا لو لم يمتثل **بيانكي**؟ ماذا لو كان جهاز الأمن الوطني أو جيش حكومة السودان يتسابقون من **الفاشر** على طول هذا الطريق بالذات للحاق بهم، وفي هذه الحالة فإن التباطؤ للدردشة أو العودة لن يؤدي إلا إلى تعريض القافلة لمزيد من الخطر.

لا، أفضل شيء يمكنهم فعله هو المضي قدما، ومحاولة الوصول إلى الأمان النسبي لمخيم النازحين بالقرب من **ديرة** قبل أن يظهر المغيرون على قمة تل. كان شيئا يؤمل فيه، لكنه بالتأكيد لم يكن يعني أن **الرجل الرمادي** سيجلس مكتوف الأيدي.

حاول الآن أن يتخيل عقل قائد عصابة من الفرسان المسلحين هنا في الصحراء. ماذا ستكون خطته؟

اللعنة. لم تكن لديه أي فكرة. امتلك **جنتري** بعض التدريب على تكتيكات الوحدات الصغيرة. ولكن ليس وحدات على ظهور خيول بحق الجحيم . كانت هذه منطقة جديدة بالنسبة له. حاول أن يتذكر أفلام جون واين التي استمتع بها هو وشقيقه ووالده عندما كان أصغر سنا، فقط ليرى ما إذا كانت أي تكتيكات تخطر بباله.

كلا، ليس حقا. لم يكن الدوق ليقبض عليه ميتا هنا في بلد الهنود بدون بندقية وينشستر ذات ذراع، لذلك لم تكن لتلك الأفلام الغربية القديمة أي صلة بمأزقه الحالي.

توقف **كورت** عن محاولة معرفة أفضل التكتيكات التي ستستخدمها قوة مهاجمة. لم تكن هذه هنودا ضد الفرسان. كانت هذه الجنجويد ضد منظمة غير حكومية. لن يبحث الفرسان

عن أرض مرتفعة، عن تضاريس عسكرية سليمة. اللعنة، سيهاجمون قافلة لا حول لها ولا قوة. يمكنهم الانقضاض في أي مكان وزمان.

مما يعرفه عن الجنجويد، فإنهم عادة لا يهاجمون قوافل الأمم المتحدة، أو أي قوافل، في هذا الشأن. لا، ميليشيا الجنجويد تغير على القرى، تحرق الأكواخ، تغتصب وتذبح. ثم ينهبون.

ينهبون! نعم. سيرغبون في إبقاء الشاحنات سليمة حتى يتمكنوا من سرقة كل ما بداخلها.

استطاع **كورت** أن يتخيل الآن الحدث الوشيك. من المحتمل أن يوقفوا الشاحنات، ويخرجوا الجميع، ويبدأوا المذبحة.

في **هارفي بوينت**، حاول مدربو **وكالة المخابرات المركزية** تعليم **كورت** كل شيء، لكن لم يعلمه أحد قط كيفية منع إعدام جماعي وهو أعزل.

دار رأسه عائدا إلى باب الشحن خلفه. سأل **بشارة**، الذي كان منزعجا بوضوح من إصرار الأمريكي على أنهم يتجهون إلى نوع من الكمين" :**ماذا يوجد في الخلف؟"**

"لا شيء يا رجل. لا أسلحة. لا أسلحة. لماذا تقول إن الجنجويد"—

سأل **كورت** مرة أخرى، أكثر إصرارا هذه المرة" :**ماذا نحمل؟"**

"فقط أشياء للمخيم. أسرة، أجهزة راديو، مصابيح، مكاتب، أشياء من هذا القبيل لمكتب الموظفين وأماكن المعيشة. وأدوات لبناء برج مياه جديد. لماذا تقول إن الجنجويد"—

"دعنا نلقي نظرة ".استدار **كورت** في مقعده وحرك باب الوصول الصغير من الكابينة إلى عنبر الشحن الضخم. كان هناك مساحة كافية فقط للضغط من خلالها، وتسلق الأمتعة وأكياس الدخن ونوع من الرفوف المعدنية للوصول إلى قمة كومة البضائع المخزنة.

صاح **كورت** في الشاب الذي كان يطل برأسه من الكابينة" :**ناولني مصباحا يدويا".**

سأل **بشارة**" :**أناولك ماذا؟"**

"شعلة. ناولني شعلة. الإنجليزية البريطانية اللعينة"، قال تحت أنفاسه.

بعد دقيقة كان **بشارة** و**كورت** على أيديهما وركبهما فوق العتاد. كان الأمر أشبه بمساحة زحف ضيقة فوق سقف. كانت درجة الحرارة بسهولة مئة وخمس عشرة درجة والظلام دامس بدون ضوء. كانا يرتدان بعنف مع كل مطب في الطريق. لا بد أن السائق تساءل عما يحدث بحق الجحيم، لكنه واصل القيادة في القافلة وكأن شيئا لم يكن.

"لماذا تعتقد أن الجنجويد قادمون؟ "تمكن الشاب الدارفوري أخيرا من طرح سؤاله.

بحث **كورت** في الصناديق والأكياس وهو يتحدث، ملقيا بالأشياء فوق كتفيه يسارا ويمينا بينما كان **بشارة** يمسك له بالضوء. شرح **جنتري**" :**جهاز الأمن الوطني يبحث عن المرأة البيضاء. يريدون قتلها. بث بيانكي اللاسلكي أخبرهم أين كنا. أعتقد أن جهاز الأمن الوطني ليس لديه قوة ضاربة هنا على الطريق، لذا من المحتمل أن يتصلوا بالجنجويد ليأتوا إلينا. إذا فعلوا ذلك، فربما سيقتلونني أنا والمرأة الكندية فقط، لكنني لن أراهن على أنهم لن يقتلوا الجميع، فقط للتستر على حقيقة أنهم يعملون مع جهاز الأمن الوطني".**

أومأ **بشارة**، مدركا تداعيات كلمات هذا الأمريكي المتوتر" .**ماذا يمكنني أن أفعل؟"**

"أنا وأنت سنضطر إلى العمل كفريق هنا. نعمل معا، ويمكننا إخراج أنفسنا وبعض هؤلاء الآخرين من هذا. هل تفهم؟"

أومأ الفتى.

"السائق، رشيد. هل تثق به؟"

هز **بشارة** كتفيه" .**أنا من قبيلة الزغاوة، وهو من المساليت. لكنه رجل طيب. سأخبره أن يفعل ما تقوله** ".ثم سأل **بشارة**" :**ماذا سنفعل؟"**

"أولا، سندعو أن أكون مخطئا".

هز الشاب **بشارة** رأسه" .**الدارفوريون يصلون طوال الوقت. لكن الجنجويد لا يزالون يأتون ويقتلوننا".**

واصل **كورت** الحفر بشراسة في البضائع التي تحته. كان قد سحب بالفعل ولاعة سجائر وساعة منبه ميكانيكية من كومة الصناديق الكرتونية. أمسك بلفافة من أكياس القمامة البلاستيكية الثقيلة في يده ورفعها في شعاع مصباح **بشارة** اليدوي. ثم حفر أعمق، متجاوزا أكوام أكياس الدقيق وبراميل صغيرة من زيت الطهي. ألقى بسلة منسوجة من الملابس بعيدا عن طريقه ومد يده إلى عامل التحميل، وأخذ الضوء بنفسه، وسلطه على صندوق خشبي ثقيل على أرضية عنبر الشحن. فتح الغطاء ليجد مجموعة من معدات اللحام، جهاز أسيتيلين وأكسجين، خوذة لحام، وصلات حديدية، شعلة.

نظر **كورت** إلى **بشارة** في قمة الشحنة. قال" :**إذا أتوا، فسنقاتل".**

"أيها الأمريكي، أنا أعرف الجنجويد؛ لقد دمروا قريتي، واغتصبوا شقيقتي، وقتلوا واحدة، وتركوا الأخرى تعيش، لكنها مجنونة الآن بعد ما فعلوه. لقد قتلوا والدي أيضا. لم يبق سوى أمي وأنا، وهي في مخيم ديرة. إذا جاء الجنجويد، فلا شيء يمكننا فعله. لديهم أسلحة، جمال، خيول. إذا أتوا، فسنموت جميعا".

هز **كورت** رأسه" .**يمكننا فعل هذا. هؤلاء الجنجويد قتلة، لكنهم جبناء. لا يأتون للقتال؛ يأتون للذبح. نجعل الأمر صعبا عليهم، ندمي بعض الأنوف، نقتل اثنين منهم حتى،**

وسينكسرون ويهربون. إنهم لا يبحثون عن معركة، صدقني. هؤلاء الرجال يقتلون النساء والأطفال من أجل المتعة. يمكننا فعل هذا".

"لا يهم إذا لم يكونوا جنودا حقيقيين، لديهم أسلحة! ليس لدينا أي شيء لإيقافهم به".

"بلى، لدينا".

"ماذا لدينا؟"

"لديكم أنا".

اتسعت عينا الفتى. قال بابتسامة صغيرة تنمو على وجهه" :**أنت مجنون يا رجل".**

الابتسام في وقت كهذا كان يعني أن **بشارة** كان مجنونا بعض الشيء بنفسه. استطاع **كورت** أن يعرف على الفور أنه سيكون قادرا على العمل مع هذا الفتى.

"ماذا يوجد في الشاحنات الأخرى؟"

"أوه، الشاحنة الأولى بها طعام في الغالب. أشياء للعمال، ليس دقيقا للنازحين. أيضا قطع غيار لإصلاح البئر"—

"انس الأمر. ماذا يوجد في الشاحنة التي أمامنا؟"

"تلك بها لفائف القماش، بالإضافة إلى الماء، المولدات، ستة مولدات صغيرة للمخيم. وهناك أيضا شيء مثل مضخة للبئر".

دار الجزء التكتيكي الضخم من دماغ **جنتري** بسرعة كبيرة جدا بحيث لم يستطع بقية عقله مواكبته" .**لا يصلح. حسنا، الشاحنة التي في الخلف؟"**

"أوه"، فكر **بشارة** لمدة دقيقة" .**أدوات، أدوات يدوية، خشب ومسامير وأخشاب لبناء مرحاض جديد. أوه، وبنزين للمولدات"**.

سلط **كورت** الضوء على رجل القبائل الشاب" .**بنزين؟"**

"نعم".

أمال **الرجل الرمادي** رأسه" .**عن كم لتر بنزين نتحدث؟"**

الفصل الرابع والعشرون

تفاجأ **بيانكي** برؤية الرجال يسدون الطريق أمامه. كان عددهم لا يقل عن عشرة، جلس بعضهم عاليًا على خيول رمادية مرقطة كبيرة، والبعض الآخر أعلى على جمال ضخمة سمراء أو بنية اللون. كانت بنادقهم تتدلى منخفضة على صدورهم أو بجانبهم، وعمائم بألوان مختلفة مكدسة عالياً على رؤوسهم، تغطي وجوههم وشعرهم. ارتدى معظمهم نظارات شمسية، وارتدى بعضهم زيًا قتاليًا مموهًا غير متطابق. كان لدى اثنين منهم أحذية عسكرية، لكن معظمهم ارتدى صنادل فقط. كانت هناك معاطف خنادق طويلة على عدد قليل من الرجال، بينما كان الآخرون شبه عراة الصدر باستثناء ستراتهم التكتيكية المليئة بمخازن البنادق.

كان هؤلاء هم **الجنجويد** .يأتي المصطلح من الكلمات العربية "جن" و"جواد". كانوا فرسان الشر. رجال قبائل عرب سود، تم اختيارهم في الأصل من أفضل الفرسان العرب في
السودان :رعاة الماشية أو رعاة الجمال. الآن، يمكن لأي قروي عربي لديه حصان أو جمل أو، أحيانًا، شاحنة بيك آب، أن يصبح عضوًا في الميليشيات التي ترعاها الحكومة والتي كانت تعيث فسادًا ضد السكان غير المسلمين في غرب **السودان** على مدى السنوات الثماني الماضية، مما أسفر عن مقتل مئات الآلاف، وتشريد الملايين، واغتصاب وتشويه وترويع أعداد لا تحصى.

إذا كان هناك شر في العالم، ومن يستطيع أن يقول إنه لا يوجد، فإن **الجنجويد** كانوا شرًا.

لكن **ماريو بيانكي** لم يكن خائفًا. كان يعرف هؤلاء الرجال.

كانت هذه الفئة المعينة من الشر على قائمة رواتبه.

كان الإيطالي منزعجًا من مواجهة تأخير آخر لكنه لم يكن قلقًا على الإطلاق. كان قد أجرى ترتيبات مع قادة هؤلاء الرجال، ترتيبات سمحت له بالسفر على هذا المسار الصحراوي دون إزعاج. من حين لآخر، كان يتم إيقافه من قبل فرقة أو أخرى من رجال القبائل العرب. لم يكونوا غير مهذبين؛ كانوا يأمرونه فقط بالخروج من مقصورة شاحنته بينما كان الرجال الأفارقة الذين يعملون لديه يُسحبون بعنف أكبر من المركبات. لكن **ماريو بيانكي** كان يعلم أنه عليه فقط التحدث مع القائد الذي يقود المجموعة، وإسقاط بعض الأسماء باحترام، بل وعرض هاتفه الفضائي إذا كان مرؤوس **الجنجويد** غير مدرك للترتيب المعمول به وأراد التحقق من رؤسائه مباشرة للتأكيد.

وكانت تلك دائمًا نهاية الأمر.

أمر **بيانكي** سائقه بالتوقف. نظر إلى المرأة الكندية، التي كانت عيناها واسعتين ومثبتتين على الرجال في الغبار أمامه" .**لا مشكلة. أعرف قائد هؤلاء السادة. لا داعي للقلق** ."مسح بيده على خدها وابتسم.

"**يا بشارة؟** "صرخ **كورت** من مؤخرة الشاحنة. كان يحمل أداة يدوية من الخشب والحديد؛ كان يثبت إطارًا من أعمدة صنوبر مقاس أربعة في أربعة معًا بنهاية المطرقة من الجهاز. كان الجانب الآخر من الأداة فأسًا حادًا، وكان هناك خطاف عتلة على الجانب" .**لماذا نتوقف؟"**

"**رجال في الطريق "!**صرخ بشارة مرة أخرى. بالكاد استطاع **كورت** سماعه. لقد حفر كخلد في المعدات والأمتعة، وتأثر سمعه وحركته بالأكياس والحقائب ومنصات زجاجات المياه ولفائف القماش المشمع الكبيرة فوقه. تدفق العرق من خط شعره إلى أذنيه وعينيه. حتى أخذ نفس عميق كان تحديًا في الظلام، والمكان الضيق الخانق في مؤخرة الشاحنة. كان بشارة معه في الخلف يساعده لفترة، لكن رجلين يركلان ويدفعان ويحفران عبر الشحنة أثبتا أنهما عائق

أكثر من كونهما مساعدة. بعد أن دفن كل منهما الآخر بحركاتهما مرة أكثر من اللازم، أرسل **جينتري** الشاب مرة أخرى إلى الأمام إلى المقصورة مع تعليمات للسائق. حاول **كورت** بعد ذلك استخدام المصباح والمطرقة في نفس الوقت أثناء عمله، لكنه استسلم أخيرًا. تسبب التلويح بمطرقة في الظلام الدامس في إصابة إبهامه وساعده أربع مرات في خمس دقائق، لكن عدم الحاجة إلى العبث بالضوء في نفس الوقت سرّع من معدل عمله، على الرغم من أنه كان جحيمًا على أطرافه.

بعد تأخير طويل، رد بشارة" .**إنهم الجنجويد"!**

"اللعنة"، قال **جينتري** لنفسه. توقف عن الطرق، وأمسك بمصباحه، وبدأ يزحف عائداً إلى أعلى الشحنة. شيء آخر كان عليه أن يفعله. كان يفهم فقط نظرية هذا المشروع، ولم يبنِ شيئًا كهذا من قبل. كان القيام به على عجل، في ضوء خافت، كابوسًا. كانت هناك أشياء كثيرة يمكن أن تسوء، كثيرة جدًا، في الواقع، لدرجة أن الطريقة الوحيدة التي كان يعرفها لمكافحة غالبيتها هي بالخطأ بعيدًا على الطرف الآخر من الطيف لدرجة أن مشروعه كان لديه حقًا خطر رئيسي واحد فقط في هذه المرحلة. لم يكن قلقًا بشأن ما إذا كان سيعمل أم لا؛ بل كان قلقًا من أنه قد يعمل جيدًا جدًا.

كان **كورت** خائفًا من إمكانية مشروعِه الحقيقية جدًا، والحرفية جدًا، للإفراط في القتل.

الأسيتيلين والأكسجين، المكونان الضروريان لمشعل اللحام، قابلان للاشتعال بشكل غير عادي عند وضعهما في الخليط الصحيح واحتوائهما في مساحة محصورة. كان **كورت** قد أوقف الخزانين الكبيرين، وملأ ستة أكياس مقاول سعة أربعين جالونًا بهذا الخليط، وربط الأكياس بإحكام مثل البالونات، ثم وضعها فوق الشحنة، شاغلاً الغالبية العظمى من المساحة الفارغة فوق حمولة الشاحنة. استخدم المنبه، والولاعة، وكمية جيدة من الشريط اللاصق لصنع مفجر موقوت للأكياس. كان قد اختبره مرتين، قبل ملء الأكياس، بالطبع،

ووجد أن مطرقة الساعة المتحركة يمكن أن تنشط ضارب الولاعة وتخلق لهبًا من البوتان المحترق.

أراد أن يحدث دويًا كبيرًا، مع الكثير من الضوضاء والوميض، ولكن ليس قدرًا كبيرًا من الشظايا، لئلا يقتل نفسه، و**إيلين والش**، وبقية قافلة **سبيرانزا إنترناسيونالي** .لا، أراد فقط تحويلًا، قنبلة صوتية وضوئية ضخمة الحجم. لتحقيق هذا التأثير، وضع الأكياس في أعلى الحمولة، على أمل أن ينفجر سقف الشاحنة ولكن لن تندفع كل الشحنة بالداخل بمئات الأميال في الساعة. كما أنه لم يرغب في اشتعال خزان الوقود الضخم للشاحنة، مما سيخلق قنبلة يمكن أن تقتل الجميع بسهولة. لم يكن لديه أي فكرة حقًا عما إذا كان جهاز الارتجاج بحجم شاحنته سيكون له التأثير المطلوب —— كانت هناك العشرات من المتغيرات في اللعبة —— لكنه لم يكن لديه أيضًا أي خيارات أخرى يمكنه رؤيتها.

كان **كورت** قد أنشأ أيضًا مرحلة ثانية لتحويله، مفترضًا أن بضع ثوانٍ من الارتباك من قبل العدو لن تكون كافية له للاستفادة من أي نوع من المزايا. كافح وقاتل وسحب ودفع خزان الأسيتيلين الحديدي إلى أعلى حمولة الشحنة، ووضعه في الخلف بجانب الباب المنزلق، وفوهته تواجه أكياس المواد الكيميائية القابلة للاشتعال وقاعدته غير الحادة نحو الباب. وجهه قليلاً إلى الأسفل، ثم بنى قفصًا خشبيًا بدائيًا للغاية حوله، بشكل أساسي قضبان فوق وأسفل يمكن أن يسافر عليها، مثل صاروخ على منصة إطلاق.

أخيرًا، بعد توقف الشاحنة، فتح فوهة الخزان قليلاً وبدأ يتراجع من عنبر الشحن، محركًا الأكياس أمامه وهو يفعل ذلك. في نهاية عنبر الشحن عند المقصورة، ضبط المنبه، وفحص الولاعة ثلاث مرات للتأكد من أن مطرقة الساعة ستلامس عجلة صوان الولاعة، ثم تركها هناك بجانب إحدى قنابله الأكسجينية.

تراجع من فتحة المقصورة، مغطى بالعرق ومنهكًا بشكل لا يصدق، تمامًا كما تراجع السائق بمركبته عدة أمتار ثم أطفأ المحرك.

مر رجل معمم على حصان بجانب نافذة السائق، وصرخ بأمر للسائق، الذي فتح الباب. على الفور ضرب فارس **الجنجويد رشيد** عدة مرات بسوط ثقيل ومضفر قبل أن يعود إلى الشاحنة الأخيرة لمضايقة ذلك السائق أيضًا.

تبع **جينتري رشيد** وأخرج بشارة من المقصورة، قلقًا الآن من اختراعه بقدر قلقه من قوة العدو المسلحة من حوله.

نزل **بيانكي** من المركبة الأمامية بينما طوق **الجنجويد** القافلة ببطء. نزل نصفهم وسحبوا خيولهم من زمامها وهم يلوحون بالبنادق بأيديهم الأخرى. ظل النصف الآخر، ربما كبار رجال فرقة المداهمة، على ظهور خيولهم وهم يركبون على جانبي المركبات الأربع على الطريق الحار.

تعرف **بيانكي** على القائد من قامته ومن قلادة التمائم الثقيلة المعلقة على صدره فوق مخازن بندقيته. كانت هذه التمائم البنية المربعة الطينية شائعة بين **الجنجويد**، لكن الرجل على أكبر جمل، الذي ارتدى زيًا مموهًا بنقشة رقائق الشوكولاتة الأحدث مظهرًا وأطول لحية، ارتدى أيضًا القلادة التي تحتوي على أكبر عدد من التمائم. كانت التمائم مباركة من قبل رجل دين ويُزعم أنها ترد الرصاص.

كان هذا الرجل هو المسؤول، وخاطبه **بيانكي** بأدب" .**السلام عليكم** ."وضع يده على صدره علامة على السلام.

"وعليكم السلام"، رد الرجل بإيماءة طفيفة. كان رأسه على ارتفاع عشرة أقدام في الهواء وهو يجلس على ظهر الجمل الضخم. لم يبدِ أي علامة على السلام.

واصل **بيانكي** بالعربية" .**يا أخي، لماذا توقفوننا؟ القائد إبراهيم صديق. يسمح لنا بالمرور إلى ديرة."**

نظر إليه الرجل على الجمل فقط. ثم ارتفعت عيناه إلى الأشخاص الآخرين من الشاحنات، الذين كانوا يُقادون إلى جانب الطريق. استدار **بيانكي** للتأكد من أن الجميع موجودون ويتصرفون بلباقة. سائقوه الأربعة، وعمال الشحن الأربعة، والمرأة الكندية، التي لا يزال تعبير الرعب على وجهها، والرجل الأمريكي. كان غارقًا في العرق، وشعره ملتصق بجبهته، ووجهه منخفض إلى الأرض في تضرع. نظر إليه **بيانكي** لفترة طويلة. كان شجاعًا جدًا ومعه مسدس في يده ويواجه رجلاً عجوزًا. الآن، مع هؤلاء المحاربين الحقيقيين من حوله، بدا وكأنه يريد فقط أن يختفي.

قبل أن يستدير مرة أخرى إلى قائد **الجنجويد**، لمح **ماريو بيانكي** الأمريكي وهو يلقي نظرة سريعة على ساعته. غريب في وقت كهذا، فكر الإيطالي، وهو يبدأ مرة أخرى في شرح علاقة عمله باحترام مع **الجنجويد** للرجل غير المطلع على ما يبدو على الجمل.

"لن يكون هذا جيدًا"، تمتم **كورت** تحت أنفاسه. لم يكن يتحدث عن المغيرين على ظهور الخيل؛ كان يتحدث عن المشروع الذي كان يعمل عليه لمدة خمس وثلاثين دقيقة. كانت حياته وحياة كل شخص في القافلة في خطر، وليس فقط من المتهورين ذوي الخيول ذات الرائحة الكريهة والجمال المليئة بالبراغيث. تقدم بشارة إلى **كورت** على الطريق ووضع يده على ظهره.

"هل سينجح الأمر؟ "سأل بهدوء.

استدار **كورت** إليه" .**لا أعرف ما إذا كان سينجح. لكنه بالتأكيد سينفجر** ."أعطى **كورت** نبرة ونظرة في عينيه سعت إلى نقل الخطر الذي كانوا فيه جميعًا.

كان من الواضح للرجل الرمادي أن الشاب بشارة فهم تمامًا.

"حظًا سعيدًا يا رجل."

أومأ **كورت" .أنت أيضًا يا فتى."**

أراد أن يتحدث إلى **إيلين**، ليحذرها مما هو قادم، لكن في تلك اللحظة كانت أبعد على الطريق، تُقاد مع بقية أفراد **سبيرانزا إنترناسيونالي**، جميعهم في مجموعة واحدة. عندما اقترب منها بما فيه الكفاية لم يستطع التحدث. كانت اللغات الشائعة التي كان يمكنه استخدامها، الإنجليزية أو العربية البدائية، من المرجح أن يفهمها شخص ما في فرقة مداهمة **الجنجويد** .لذلك فعل ما في وسعه ليكون بجانبها. كانت قريبة من **بيانكي**، الذي كان يقف تحت زعيم **الجنجويد** .انزلق **كورت** خلف الإيطالي. لم يكن الأمر صعبًا مع **الجنجويد** الذين يجمعون الجميع في هذه العقدة الضيقة بجانب الطريق. كانوا على بعد خمسين قدمًا أو نحو ذلك من الشاحنة الثالثة، جهاز تحويل **كورت** المصنوع بسرعة. بذل قصارى جهده ليقود موظفي **سبيرانزا إنترناسيونالي** بضعة أقدام أبعد، لكن **الجنجويد** استمروا في إعادتهم. كان الجميع في دائرة ضيقة؛ كان بإمكانه حرفيا شم رائحة التوجس في هذه المجموعة البشرية المقيدة التي تقف معًا في التراب. كانت كل العيون على قائد **الجنجويد** عاليًا على جمله، ورجل آخر على ظهر حصان يحمل قاذفة قنابل صاروخية مربوطة بسرجِه. استخدم كلاهما وحوشهما الغاضبة لضغط أفراد القافلة. وقفت **إيلين** بجانب **كورت**، الرجل الذي عرفته باسم ستة.

"هل هم هنا لأنني أخبرت بيانكي من أنا؟ "سألت لاهثة. كانت على وشك البكاء، كما لو كانت تعرف الإجابة بالفعل.

"أخبرتك ألا تفعلي ذلك"، قال **كورت** بحدة. كان لديه شيء آخر يزعجه في الوقت الحالي ولم يكن لديه طاقة للتركيز على مشاعر المرأة الكندية أو مخاوفها في الوقت الحاضر.

"أنا... اعتقدت أن ذلك سيجلب قوات اليوناميد إلى هنا."

"آه"، قال **جينتري**، ناظرًا إلى ساعته مرة أخرى. نظر بقلق إلى **الجنجويد** .كانوا يقفون حول أو يجلسون عاليًا في سروجهم، كما لو كانوا ينتظرون شيئًا ما.

كان **كورت** ينتظر شيئًا أيضًا. لكنه لم يكن يعرف ما الذي سيأتي أولاً. أو أي من الحدثين سيثبت أنه الأكثر كارثية.

اللعنة.

لأول مرة، استمع إلى ما كان يقوله **ماريو بيانكي** للقائد العربي. لم يصمت الإيطالي العجوز منذ أن نزل من شاحنته. كان يتحدث العربية، لكن المحادثة من جانب واحد كانت الآن بالفرنسية.

"كما أقول، يمكنك استخدام هاتفي للاتصال بالقائد إبراهيم. سيخبرك أنني صديق."

"أنت صديق لهؤلاء الأوغاد؟ "سأل **كورت** باللغة الإنجليزية.

نظر **بيانكي** حوله إلى الأمريكي، الذي كان الآن خلفه مباشرة على جانب الطريق. أومأ برأسه وقال" :**لدي ترتيب مع الجنجويد في هذه المنطقة."**

"نعم؟ كيف يسير ذلك معك؟"

تجاهل **بيانكي** الأمريكي واستدار مرة أخرى إلى القائد" .**إذًا، هل تريد هاتفي؟**"

قال قائد **الجنجويد**، الذي كان عاليًا بشكل لا يصدق على ظهر جمله الضخم" :**لا. لدي هاتف.**"

أومأ **بيانكي**" .**هل يمكنك الاتصال بالقائد إبراهيم**"...

"**اتصل بي القائد إبراهيم.**"

أمال **بيانكي** رأسه" .**فعل؟ إذن أخبرك أنه يمكننا المرور، أليس كذلك؟**"

هز القائد على الجمل رأسه ببساطة، مرة واحدة، ببطء شديد.

كانت كلمات **بيانكي** التالية أهدأ، وغير متأكدة بشكل غير معهود.

"**ماذا أخبرك؟**"

"**أخبرني أن أفعل هذا** ."أطلق القائد أمرًا قصيرًا بالعربية. بسرعة تحرك فارس ملفوف بعمامة أرجوانية على فرس كستنائي كبير حول وخلف مجموعة أفراد القافلة المحتشدة. فقده **كورت** عن الأنظار للحظة خلف بعض الفرسان الثابتين، ولكن عندما ظهر الرجل ذو العمامة الأرجوانية مرة أخرى كان في يده حبل معقود. ببراعة ألقى به من الأسفل. سقط بقوة على عنق **ماريو بيانكي**، الذي كان يستدير للتو إلى صوت حوافر الخيل المهرولة خلفه. لف الفارس الطرف الآخر من الحبل حول قرن سرجه، وركل كعبيه بقسوة في جانبي حصانه. انطلق الحيوان إلى الأمام، بعيدًا عن الطريق ونحو الصحراء الصخرية إلى الشمال.

بصرخة مفاجئة، انطلق **ماريو بيانكي** إلى الأمام بالحبل المشدود، وسُحب إلى الأرض من رقبته، وجُرّ إلى الأمام. اصطدم بشكل غريب بثلاثة أو أربعة من موظفيه، مما أدى إلى دوران

الرجال بعيدًا عن الطريق أو سقوطهم مثل دبابيس البولينج. صرخت **إيلين والش** بينما كان الإيطالي يُجرّ بعيدًا. أحدثت حوافر الخيل وارتطام جسده السمين بقشرة الأرض الصلبة العنيدة والأحجار المسننة والجذور الجافة الصلبة مثل أعواد الجوز أصواتًا عنيفة لم تتضاءل إلا عندما تم سحب الرجل عشرة، ثم عشرين، ثم خمسين، ثم مئة ياردة بعيدًا، حيث أخيرًا كل ما يمكن رؤيته منه في الأفق كان سحابة غبار معلقة في الهواء الساكن.

الفصل الخامس والعشرون

نظر **كورت** إلى ساعته. بدأ يدفع الحشد من حوله بسرعة أبعد عن الطريق، أولا بنكزات ثم بدفعات. ثم صرخ قائد الجنجويد بشيء لرجاله الراجلين. كانت لهجة عربية سودانية، لكنها قريبة بما يكفي من العربية الخليجية التي فهمها **جنتري**.

"اضربوهم جميعا حتى الموت".

رفعت البنادق وقلبت رأسا على عقب. ثم استخدمت أعقاب الأسلحة لتضرب بوحشية في الحشد من جميع الاتجاهات. نصف دزينة من الرجال انهالوا على أجساد تسعة رجال وامرأة واحدة؛ قاموا بعملهم القاسي وسط صرخات وصيحات وتوسلات من الضحايا. في نفس الوقت، بدأ أولئك الجنجويد على الخيول والجمال في تضييق الخناق على المجموعة أكثر فأكثر، مستخدمين الأجساد الضخمة للحيوانات السمينة لسحق مجموعة المدنيين العزل البائسة حرفيا.

تلقى **كورت** ضربة عابرة بعقب بندقية في كتفه الأيمن بينما كان ينظر في الاتجاه الآخر. دفعته جانبيا وأوقعته على وركي الجمل الذي كان يجلس عليه القائد. نظر قائد الجنجويد إليه بعينيه السوداوين الفاحمتين الظاهرتين من خلال طيات عمامته. تجهم **كورت** من الألم لكنه نظر مرة أخرى إلى ساعته.

ثم التفت إلى **إلين** .تعثرت إلى الوراء فوق رجل ساقط ثم تدحرجت على بطنها عند قدمي **كورت** .بدأت في النهوض مرة أخرى كما لو كانت ستهرب، لكن لم يكن هناك مكان للهرب إليه. كانوا محاطين بالكامل بالمسلحين السودانيين .

وفقط **كورت جنتري** كان يعلم أن أسلم مكان في العالم لها الآن هو حيث كانت تماما، ووجهها في التراب.

انقض عليها، واستخدم جسده ليطرحها أرضا وذراعيه لتغطية أذنيها.

ها نحن ذا، فكر في نفسه وهو يشد جسده.

من الشاحنة الثالثة، المركبة التي كان يركبها **كورت** و**بشارة**، جاء صوت انفجار مكتوم، مثل صوت انفجار سيارة من خلال كاتم الصوت. كان مسموعا، حتى فوق الصرخات وصوت تكسر أعقاب البنادق على الأذرع والأرجل النحيلة، لكنه لم يكن عشر حجم الصوت الذي توقعه **كورت**.

هاه؟ رفع رأسه، ونظر إلى الوراء، ولم تكن لديه أي فكرة عما أخطأ فيه. كان الأداء الضعيف هو أقل ما يقلقه.

توقف الضرب للحظات بينما نظر الجنجويد إلى المركبة. حتى موظفو "سبيرانزا إنترناسيونالي"، الذين كانوا مستلقين أو في وضع الجنين على الأرض حول **جنتري** و**والش**، نظروا حولهم في حيرة.

تصاعد الدخان من نوافذ الكابينة ومن خلال شقوق باب الرفع المنزلق في الجزء الخلفي من عنبر الشحن. لكن السقف لم ينفجر، ولم يكن هناك انفجار مدوٍ، وبالتأكيد لا شظايا.

صدرت الأوامر بالعربية، وترجل رجلان على حصانين، وسلما زمامهما لآخرين واقفين حولهما، وركضا نحو الشاحنة. عرف **كورت** أن هؤلاء الرجال كانوا يخططون لنهب البضائع. كانوا بحاجة إلى معرفة سبب تصاعد الدخان الآن من حمولة إحدى الشاحنات.

صرخ قائد الجنجويد بأمر آخر لبقية رجاله، ومرة أخرى فهم **كورت**.

"اقتلوهم جميعا".

تحرك الرجال، وشكلوا صفا واحدا غير منتظم في مواجهة ضحاياهم المستلقين.

رفعت بنادق الكلاشينكوف، ونقرت أذرع الأمان لأسفل إلى وضع الإطلاق الآلي الكامل.

وقف **كورت** بسرعة. رجل واحد ضد عشرات، مد يده خلف ظهره وتحت قميصه ليمسك بشيء مخبأ هناك.

ثم حدث ذلك. لأي سبب كان، كانت المرحلة الأولى من تحويل انتباه **جنتري** شبه فاشلة.

لكن المرحلة الثانية؟

المرحلة الثانية كانت تحفة لعينة .

عندما اقترب الرجال من الجزء الخلفي للمركبة، كان هناك انفجار عال آخر، ثم صرخة شيطانية عالية النبرة لإطلاق صاروخ. انطلق خزان الأسيتيلين من الخلف، ونفث من اللهب خلفه. أسرع تقريبا من أن تلتقط العين صورته، اصطدم بزاوية هابطة بالزجاج الأمامي للشاحنة الرابعة ودفن نفسه في عنبر الشحن للمركبة الخلفية.

ارتجفت الشاحنة الكبيرة ذات الأربعة أطنان على هيكلها.

استدار **كورت** مرة أخرى نحو **والش**، وطرحها أرضا مرة أخرى.

انفجرت الشاحنة في ومضة من النار، واعتدي على طبول الأذن برعد يصم الآذان، وارتطمت الأدمغة داخل الجماجم بارتجاج مثل ضربة طوبة على الصدغ. شعر **كورت** باللهب يلف جسده ثم يتبدد في لحظة. امتص الاحتراق السريع الأكسجين من الهواء وجوع رئتيه. شهق وتأوه، ولم يستنشق شيئا حتى تحرك هواء جديد وتمكن من التقاط نفس جديد.

قاوم الألم في صدره والدوار في رأسه، ونظر ليرى أن الارتجاج قد قتل أحد الجنجويد على الفور، بينما سقط ثلاثة آخرون من خيولهم وصعقوا. مقاتل آخر، أحد الرجال الذين تحركوا للتو بين المركبتين الثالثة والرابعة، اختفى ببساطة. فقط حصانه المذعور الذي يركض في المسافة أعطى أي دليل على أنه كان هناك. أصيب عربيان آخران بحروق وجروح من المقذوفات التي أطلقت من المركبة المنفجرة.

بعد ست ثوان من الانفجار، كانت بقايا الحطام المشتعلة لا تزال تتساقط وتتناثر حولهم. ذعرت الخيول والجمال على حد سواء؛ رقصت وركضت وتمايلت على أرجل مهتزة.

أصيب كل فرد من طاقم "سبيرانزا إنترناسيونالي" بالدوار على الأقل والارتجاج في أسوأ الأحوال، لكنهم كانوا جميعا على الأرض وبالتالي تأثروا بشكل أقل بالانفجار. نجا **جنتري ووالش** أفضل من أي شخص آخر لأنه غطى أذنيه بذراعيه العلوية وأذنيها بيديه. ومع ذلك، ترنح وهو ينهض على ركبتيه. ألقى نظرة على الشاحنة الرابعة، ونظر متجاوزا الرجال الذين يترنحون كالسكران. كانت كابينتها منحنية ومسودة وملتوية ولكنها سليمة، وكانت عجلاتها وهيكلها وخزانات وقودها وسقفها لا تزال في مكانها، لكن جوانب وسقف حاوية الشحن قد اختفت ببساطة، وكانت أكياس الوقود الموجودة هناك قد تحولت إلى دخان، والبضائع الأخرى التي كانت موجودة في عنبر الشحن الآن في جميع أنحاء الطريق وتحترق، أو حتى لا تزال تطفو في الهواء. استدار **كورت** الآن، لا يزال غير مستقر بعض الشيء، واتخذ خطوة كاملة وغير متقنة نحو القائد، الذي تمكن بطريقة ما من البقاء في السرج على جمله الوحشي. كان الجمل وحصان آخر هما الحيوانان الوحيدان اللذان لم يتشتتا بعد الانفجار. رفع قائد الجنجويد بندقيته الكلاشينكوف ذات الأخمص السلكي نحو **جنتري** .كان الرجل الأبيض هو الشخص الوحيد من القافلة على قدميه الآن، لكن القائد نفسه كان بطيئا ومشتتا. رفع فوهة بندقيته للتو عندما أطاح بها **كورت** جانبا بيده اليسرى المفتوحة. في يده اليمنى استعاد **جنتري** الأداة التي أبقاها مخبأة تحت قميصه في أسفل ظهره.

كانت مجموعة المطرقة والفأس، وقد استخدم الجانب الحاد، وأرجحها **جنتري** من فوق رأسه بكل القوة في كتفه وظهره، وغرس نصل الفأس مباشرة في ركبة قائد الجنجويد راكب الجمل.

لم يصدر صراخ من الرجل، لكن ركبته ارتفعت، وأمسك بها في عذاب. بقيت الفأس مغروسة في عظم الركبة وعميقا في عظم الفخذ، وانخلع المقبض من قبضة **كورت** .انزلق الرجل من السرج على الجانب المقابل لمهاجمه، وسقط مسافة ستة أقدام أو نحو ذلك إلى الوراء، واصطدمت رقبته وظهره بالأرض المغبرة، وسقطت بندقيته معه.

ابتعد **كورت** عن الجمل الذي أصبح الآن بلا راكب واستدار نحو **إيلين والش**، التي كانت تزحف بعيدا عن الرجال والشاحنات على يديها وركبتيها. من خلفه سمع نيران آلية كاملة من بندقية كلاشينكوف. على الرغم من أنه غطى أذنيه قبل انفجار الشاحنة، إلا أن صوت إطلاق النار بدا خافتا وبعيدا. انتقلت عيناه بعد ذلك إلى المركبة الخلفية. كانت النيران مشتعلة حولها من الانفجار الهائل. كان يعلم أن خزانات الوقود يمكن أن تنفجر في أي وقت، وكانوا جميعا ضمن نطاق الانفجار، ويمكن أن يقتل كل كائن حي إذا كانوا بهذا القرب عندما تنفجر ويتحول الهيكل ومجموعة القيادة إلى ألف قذيفة أسرع من الصوت من المعدن الساخن.

دفعة أخرى من نيران الكلاشينكوف خلفه شجعت **جنتري** على إيجاد سلاح لنفسه. ستكون بندقية قائد الجنجويد ملقاة على الجانب الآخر من الجمل. بدأ **كورت** في الاستدارة للذهاب ورائها، لكن بعد ذلك اصطدم شيء ضخم بظهره، كما لو صدمته حافلة مسرعة. انهار إلى الأمام مع وزن لا يصدق عليه من الخلف. سقط **جنتري** على وجهه على الأرض مع تأوه، وذراعاه في وضع غير مرتب. على الفور عرف أنه مثبت على الأرض الصلبة بشيء ضخم وغير قابل للتحريك.

بالنظر فوق كتفه رأى الجمل الضخم ملقى فوقه، يغطيه من خصره إلى أسفل. كان رأس الوحش المشعر قد تمايل في سكرات الموت وانتهى به الأمر مواجها لـ**كورت** :عينان فارغتان برموش طويلة بشكل غريب، وأسنان مكشرة، ولسان رطب متدلٍ. كان الحيوان قد قتل ببندقية هجومية، وبعد ثانية أو اثنتين فقط من الحفر في التراب بأصابعه ويديه أدرك **جنتري** أنه لا توجد طريقة سيتمكن من الخروج من تحت ما يقرب من ألف وخمسمئة رطل من الوزن الميت بنفسه.

مد يده خلف ظهره، وحاول الإمساك بأي شيء مثبت على سرج الجمل يمكن أن يساعده في تحرير ساقيه أو، في حالة فشل ذلك، على الأقل شيء من شأنه أن يساعده على القتال من حيث هو ملقى.

لكن لم يكن هناك شيء في متناول يده الغريب.

واستمر القتال من حوله. على بعد خمسة أقدام من وجهه، نهض سائق من "سبيرانزا إنترناسيونالي" على ركبتيه، والدم يسيل من أذنيه من ارتجاج قنبلة **جنتري** المبالغ فيها. خلفه كان رجال آخرون، من "سبيرانزا إنترناسيونالي" والجنجويد على حد سواء، يتحركون جميعا في اتجاهات مختلفة وبسرعات مختلفة، كل رجل في نقطة فريدة في الجدول الزمني للتعافي من موجة الصدمة الوحشية. حاول جنجويد، أصابه الدوار هو الآخر من الانفجار، وفشل في الصعود مرة أخرى على جمله. كان الوحش يرفض ذلك، متراجعا للابتعاد عن العربي، الذي استسلم أخيرا. بدلا من ذلك، انتزع قاذفة القنابل الصاروخية من غمدها على جانب الجمل. استدار. شاهد **كورت** لكنه كان عاجزا عن فعل أي شيء بينما رفع الرجل السلاح. بدا غير متأكد من الهدف لفترة طويلة. عرف **جنتري** أنه بالتأكيد قريب بما فيه الكفاية من ضحاياه المقصودين، الرجال في التراب على جانب الطريق، لدرجة أنه سيفجر نفسه بلا شك في محاولة لتدميرهم. لكن الرجل كان خارج وعيه، مشوشا. وجه قاذفة القنابل الصاروخية وسحب الزناد، ويبدو أنه نسي أن الأنبوب على كتفه يمتلك مطرقة خارجية يجب تصويبها

حتى يطلق السلاح. نظر إلى القاذفة. شاهده **كورت**، وساقاه مثبتتان تحت الجثة التي يبلغ وزنها ألف وخمسمئة رطل، وسرعان ما بدا أن الجنجويد قد اكتشف خطأه. شحن السلاح وأعاده إلى حشد الرجال المترنحين.

دفعة من نيران البنادق من الجانب الآخر للجمل أجبرت رأس **كورت** على الانحناء إلى عنقه مثل سلحفاة تهرب إلى ملجأ قوقعتها. تعثر الجنجويد الذي يحمل قاذفة الصواريخ إلى الوراء، وأطلق سلاحه في الهواء، والانفجار الخلفي في غبار ورمل مسار الساحل غلف الرجل وهو يسقط ميتا.

انطلق الدخان الرمادي من القنبلة الصاروخية إلى الأعلى في السماء الزرقاء لكنه انحرف بشكل غير ضار نحو الجنوب.

نظر **كورت** فوق كتفه مرة أخرى، تماما عندما قفز الشاب **بشارة** فوق الجمل الميت، وانحنى على جانب **كورت** ليحتمي، وبندقية كلاشينكوف مدخنة في يديه.

استقبلت **كورت** ابتسامة بيضاء ضخمة على وجهه.

"يا رجل، لقد فجرت تلك الشاحنة يا أمريكي "!نهض وأطلق دفعة قصيرة فوق بطن الجمل البني على هدف لم يستطع **جنتري** رؤيته، وهو مثبت ووجهه في التراب. كان الرد الناري متقطعا، لكن **جنتري** رأى الغبار يتطاير بين موقعه والشاحنات في الطريق. سحب **رشيد**، سائق "سبيرانزا إنترناسيونالي" من شاحنة **كورت**، الكلاشينكوف من جمل رجل قاذفة القنابل الصاروخية الميت ورد النيران دون أي مهارة حقيقية في القيام بذلك. أمسك الكلاشينكوف أمامه، وأغمض عينيه وهو يسحب الزناد، وقفزت البندقية في كل مكان بينما انطلقت رصاصات عيار 7.62 ملم في الهواء فوق رأس **جنتري** مباشرة. انحنى **بشارة** من هذا التهديد الجديد، واستدار، وصرخ في الرجل الأكبر سنا. أمل **كورت** أن يكون يخبره بأن ينتبه إلى أين يوجه سلاحه اللعين.

"هل ستقاتل يا أمريكي؟ "سأل **بشارة كورت**، وما زال يبتسم. بدا أنه يستمتع بهذه الفرصة لقتل قتلة الجنجويد الذين دمروا الكثير من وطنه بأوامر من الرئيس عبود.

رد **كورت** وهو لا يزال يحاول تحرير نفسه" :**أنا عالق ".**لم يشعر بألم في ساقيه، فقط بضغط شديد، ودعا ألا يجد أي شيء مكسور عندما يتم إخراجه أخيرا من تحت الجمل.

أطلق **بشارة** دفعة أخرى فوق الحيوان الميت. قدم جسده الطويل والسمين غطاء ممتازا، لكن **كورت** كان يعلم أن فرسان الجنجويد على الجانب الآخر يمكن أن يلتفوا حول موقعه وموقع **بشارة** في أي لحظة.

علق الشاب من قبيلة الزغاوة الكلاشينكوف حول رقبته، وأمسك **جنتري** بكلتا ذراعيه، وبينما كان لا يزال منحنيا خلف الجمل، سحب بكل قوته. لم يتحرك **كورت** .زحف أحد رجال "سبيرانزا إنترناسيونالي" الآخرين وشارك **بشارة** في المهمة، كل منهما يمسك بذراع، وهذه المرة شعر **كورت** بأن جسده بدأ يتحرر. حاول **جنتري** أن يحفر ركبتيه في التراب للمساعدة في إخراجه من الوزن القاسي لجثة الحيوان الضخمة فوقه. دفعات أخرى من الكلاشينكوف من قبل الجنجويد بجانب الشاحنة الأولى أرسلت كلا الرجلين السودانيين إلى التراب بجانب **جنتري**، لكنهما نهضا مرة أخرى بعد لحظة لسحبة أخرى للرجل الأبيض المتعرق المثبت تحت الجمل. نجحت محاولتهما الثالثة؛ شعر **كورت** بساقيه ثم قدميه تتحرران. كانتا متخدرتان وتؤلمان، لكنه كان يستطيع تحريكهما. لم يكن هناك شيء مكسور بشكل واضح، لذا أبقى رأسه منخفضا ونهض على ركبتيه.

رفع **جنتري** رأسه ليرى السائق الذي سحبه يبقي رأسه منخفضا على الأرض، لكن **بشارة** كان في وضع نصف قرفصاء، يسحب بندقيته الكلاشينكوف مرة أخرى إلى وضع إطلاق النار، وعيناه مثبتتان على تهديد على الجانب الآخر من الجمل ونظرة عازمة على وجهه.

دفعة من نيران آلية من خلف **كورت**، وبكل بساطة، استدار الشاب **بشارة**، وصرخ في مفاجأة، وانهار على التراب، ميتا في لحظة.

ولكن في اللحظة التالية انتزع **كورت** الكلاشينكوف الملطخة بالدماء والغبار من الطريق الترابي الصلب واستدار على ركبتيه. نظر فوق الجمل، ورأى ستة من الجنجويد يفرون على ظهور الخيل. كانوا يعبرون خلف الشاحنة الأولى في المسافة، مغادرين خط رؤيته. تمكن من إطلاق طلقة واحدة موجهة، أصابت أسفل ظهر آخر فارس. سقط رجل الجنجويد من سرجه في الرمال.

الفصل السادس والعشرون

أنّ الرجال وصرخوا. دخنت المركبات والحطام واحترقت. امتلأ الهواء الحار برائحة الكوردايت ووقود الديزل والورق المحروق والمطاط والبلاستيك. بحث **كورت** عن **إيلين والش** بين أكوام البشر الملقاة في كتل حوله. كانت بعض الأكوام تتحرك، مصابة؛ والبعض الآخر كان ساكنًا، ميتًا. رآها أخيرًا من خلال الدخان المتصاعد والغبار المعلق. كانت على قدميها، على بعد خمسين ياردة، متجهة نحو جثة **ماريو بيانكي** البعيدة عند سفح شجرة باوباب ذات جذع سمين. بدت غير مصابة. بعد ذلك، نظر إلى بشارة. كانت جثته ملقاة على شكل كرة، مثل كومة من خرق المتاجر المتسخة جاهزة للغسيل، وجداول الدم تجري في الأرض الجافة من حوله. لقد مات قبل أقل من دقيقة، وبالفعل احتشد الذباب على جرح رقبته، وطار حوله، مسعورًا بنعمة الدم الرطب الطازج، وهي غنيمة لهم ليمتصوها حتى ترتوي قلوبهم القذرة.

مات رجل آخر من **سبيرانزا إنترناسيونالي**، ووجهه لأسفل، على بعد بضع ياردات. نجا الستة المتبقون، على الرغم من أن اثنين منهم كانا ينزفان من أذنيهما بفضل قنبلة شاحنة **كورت** .خمّن أنه ستكون لديهم درجة ما من مشاكل السمع لبقية حياتهم، لكن على الأقل لديهم حياة. أصيب اثنان آخران بجروح دموية في أذرعهما أو ساقيهما، إما شظايا بفضل **جينتري** أو إصابات بالرصاص أو بعقب البندقية بفضل **الجنجويد** .كانت الخيول والجمل الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة يتجولون حولها. لم تتفرق أكثر من خمسين ياردة من الشاحنات؛ كانت هذه الحيوانات معتادة جيداً على إطلاق النار والانفجارات، على الفوضى التي من شأنها أن تجعل المخلوقات غير المبادرة تهرب في حالة من الذعر حتى تسقط من الإرهاق أو الجفاف. كانت الحرائق لا تزال مشتعلة في جميع أنحاء الطريق، وكانت الشاحنة الرابعة الآن محاطة بالكامل باللهب. سينفجر خزانها في غضون لحظات.

يا لها من فوضى لعينة.

أمسك **كورت** بأقرب رجل" .**حرك أول شاحنتين. أخرج الجميع وجميع الحيوانات من الطريق. سينفجر خزان الوقود في الشاحنة الأخيرة. ومن المحتمل أن يشعل الشاحنة الثالثة أيضًا."**

بعد دقيقة، وصل **كورت** خلف **إيلين والش** .كانت راكعة بجانب جثة عامل الإغاثة الإيطالي، ملقاة بمفردها في التراب على بعد مئة متر من الطريق. كانت ملابسه ممزقة، ووجهه ممزقًا بالأرض الصلبة والحجر الأصلب. كان الحبل السميك لا يزال ملفوفًا حول رقبته.

بكت **والش** بنحيب خافت.

"هل أصبت؟ "سأل **جينتري** .لم يكن ليكون لطيفًا مع هذه المرأة. لو اتبعت تعليماته، لما حدث أي من هذا.

"أنا بخير"، قالت، وقد لاحظت للتو الأمريكي" .**لكن ماريو مات."**

"اللعنة عليه"، قال **كورت**، ناظرًا إلى الجسد الملتوي بشكل غير طبيعي" .**لقد جلب هذا القرف على نفسه."**

لم تقل **إيلين** شيئًا، بل نظرت إليه بمزيج من الصدمة والازدراء.

بعد بضع ثوانٍ من الوقوف هناك، كان هناك دوي عالٍ بشكل لا يصدق. اشتعل خزان وقود الشاحنة الرابعة وانفجر في زئير. شعر **جينتري** بالحرارة حتى على بعد مئة ياردة. أحرق اللهب الهواء؛ ارتفع دخان أسود متصاعد إلى السماء الزرقاء مثل منطاد هواء ساخن ينطلق. شاهدته

إيلين بجانب **كورت** .بعد لحظة صمت، اشتعلت الشاحنة الثالثة في كرة من النار أيضًا، وهو مشهد مثير للإعجاب بنفس القدر.

شهقت **إيلين" .إلى أين يذهبون؟** "صعد رجال **سبيرانزا إنترناسيونالي** الناجون إلى الشاحنتين المتبقيتين، ظاهريًا لسحبهما إلى الأمام خارج نصف قطر الانفجار. استمرت المركبة الأولى في التحرك على الطريق، وسحابة من الغبار خلفها وهي تتسارع في الأفق" **.إلى أين يذهبون؟** "صرخت مرة أخرى.

"على الأرجح إلى ديرة"، قال **كورت** .كانت الشاحنة الثانية متوقفة في الطريق. كان جميع الرجال المتبقين في الداخل. بدا وكأنهم ينتظرون **إيلين** و**كورت**، لكن **جينتري** تخيل جدالًا حادًا يدور الآن داخل تلك المقصورة حول ما إذا كان يجب ترك "الأجانب" وراءهم ليموتوا في الشمس. لم يتفاجأ **كورت** ولم يرتعب من فكرة تركه وراءه من قبل المركبة. بدأ يمشي عائدًا إلى الطريق" **.اهدئي؛ كل شيء على ما يرام"**، قال لها، لكنه لم يكن متأكدًا كما اوحي صوته القوي

"اللعنة"، ركع **كورت** بجانب بشارة بعد دقيقة. أحرق انفجار الغاز جسده وأحرق معظم ملابسه. اعتداء آخر غير ضروري على الشاب الذي ساعده كثيرًا. تمنى **كورت** أن يكون الذباب الذي كان يتغذى على جرح رقبة بشارة القاتل قد احترق في الانفجار.

"ماذا؟ "سألت **إيلين.**

"لقد كان فتى رائعًا."

"عرفته لمدة ساعة"، قالت. لم تكن تجادله؛ هي حقًا لم تفهم هذا الشعور المفاجئ تجاه رجل واحد من بين كل من ماتوا للتو، خاصة بالنظر إلى الطريقة التي تعامل بها مع **بيانكي** قبل دقائق. أحصت ثماني جثث ملقاة في التراب، باستثناء الجثة التي ركع بجانبها ستة.

"لقد أنقذنا كلانا. لقد كان أكثر الأوغاد تركيزًا تشرفت بالعمل معه منذ فترة طويلة."

انطلقت الشاحنة المتبقية الوحيدة وأجرت انعطافًا واسعًا على شكل حرف U خارج الطريق، متجاوزة الأشخاص البيض في الغبار. بدأت **إيلين** تركض نحوها، تلوح بذراعيها بشكل محموم. مرت بها وتسارعت عائدة إلى الغرب.

"لا "!صرخت.

خمّن **كورت** الآن أن أي جدال داخل المقصورة لم يكن حول ما إذا كان يجب تركهم أم لا؛ ربما كانوا جميعًا يؤيدون ذلك. كان الأمر ما إذا كان يجب عليهم التوجه شرقًا إلى **ديرة** أو غربًا إلى **الفاشر** .من الواضح أنهم قرروا الخيار الأخير.

"ماذا سنفعل؟ "صرخت **إيلين** إلى **جينتري** .سار على الطريق بضعة أمتار، ونزل على ركبتيه، وبدأ يفتش جثة قائد **الجنجويد** الميت. سحب قربة ماء صغيرة على سلسلة وعلقها على ظهره. استخرج مخزنًا كاملاً لكلاشينكوف من سترة صدر سوداء من القماش. رفع سكينًا مزخرفًا في غمده، وسحبه لتفقد النصل، ثم أعاده إلى غمده وأسقطه مرة أخرى على الرجل الميت.

"ماذا سنفعل؟ "سألت مرة أخرى، وهي تبكي هذه المرة، وهي تشاهده يستخدم حذاءه لقلب سائق **سبيرانزا إنترناسيونالي** الميت على ظهره. ركع وسحب نظارات شمسية من جيب صدر قميص الرجل الملطخ بالدماء. وضعها على عينيه ونظر إلى الحيوانات التي تتجول.

"هل يمكنك ركوب حصان؟"

"أنا... أعتقد ذلك. ولكن إلى أي مدى؟"

ألقى نظرة على ساعته. كان بها نظام تحديد المواقع العالمي(GPS) ، لكنه لم يكن يعمل في الوقت الحالي. مثالي. خمّن" .**خمسة وعشرون إلى ثلاثين ميلاً** ."الآن سحب كلاشنكوف آخر من التراب. طوى السلك المعدني أسفل البندقية، مما قصر طولها بشكل كبير" .**ثلاثون ميلاً ليست مستحيلة** "، أعلن. علق البندقية على كتفه وعلى ظهره، والفوهة متجهة لأسفل. نكز مقاتلاً آخر من **الجنجويد** بحذائه، باحثًا عن شيء مفيد لجمعه. تأوه الرجل. كان مصابًا لكنه على قيد الحياة" .**ما لم نصطدم بالمزيد من هؤلاء الأوغاد."**

وقفت هناك بينما كان يعمل" .**إذا كان الراديو في إحدى هذه الشاحنات لا يزال سليمًا، يمكننا الاتصال للمساعدة."**

"نعم ."نظر إليها **كورت**" .**لقد نجح ذلك بشكل جيد في المرة الأخيرة، فلماذا لا نفعله مرة أخرى بحق الجحيم؟** "لان، لكن قليلاً فقط" .**كيف تعتقدين أن هؤلاء الجنجويد عرفوا أننا في هذه القافلة؟ كان جهاز الأمن القومي يستمع. لم يكن هذا عشوائيًا. أرسلوا الجنجويد إلى هنا لقتلنا. أمروهم بذبح الجميع حتى لا يبدو وكأنه اغتيال مدبر من قبل الحكومة. صدقيني، نحن أفضل حالاً بعدم البث. مع قليل من الحظ سيعتقدون أننا متنا. عندما تصل تلك الشاحنات إلى الحضارة، يمكنك أن تكوني متأكدة من أن موظفي سبيرانزا إنترناسيونالي لن يعترفوا بتركنا هنا على قيد الحياة عن عمد. نحن أموات بالنسبة للعالم، ويمكننا استخدام ذلك لصالحنا."**

الآن ركع **جينتري** فوق فارس جنجويد جريح آخر. كان العربي مستلقيًا على ظهره، يتنفس بشكل سطحي في أنفاس خافتة. سحب **كورت** قارورة ماء من حول رقبته، وسكينًا طويلاً من حزامه. فحص السلاح. اجتاز هذا النصل الفحص، وأخذ الحزام والغمد والسكين وربطها كلها بجسده.

"وماذا عنهم؟ "سألت **إيلين** عندما عاد **كورت** إلى قدميه.

"ماذا عن من؟"

"هذان الرجلان من الجنحويد. إنهما مصابان وعلي قيد الحياة."

"وماذا عنهم؟"

"هل يمكننا مساعدتهم؟"

"هل أنت طبيبة؟"

"لا، لكن"...

"وأنا كذلك. اختاري أحد الخيول. يجب أن نتحرك."

نظرت إلى الأمريكي الملتحي لعدة ثوانٍ" .**لكن هذين الرجلين. ماذا لو لم يمر أحد قبل حلول الظلام؟ هناك حيوانات برية هنا. هؤلاء بشر يا ستة. لا يمكنك فقط تركهم وراءك ليموتوا."**

"شاهديني. اركبي على حصان. أود أن آخذ الجمل، فلن يحتاج إلى ماء مثل الحصان، لكن إذا واجهنا عصابة جنجويد أخرى في الصحراء، فسنرغب في سرعة الخيول للهروب منهم ."سحب عمامتين من رؤوس اثنين من الفرسان الموتى ووضعهما في الحزام الذي عثر عليه للتو.

صرخت **إيلين** بغضب" :**نأخذ هذين الرجلين معنا، وإلا فلن أذهب يا ستة. هذا نهائي تمامًا"!**

تجاهلها **جينتري**، واستمر في الكلام، لنفسه أكثر من للمرأة" .**الجمال في الواقع سريعة جدًا، لكن إذا كنت لا تعرف كيفية التعامل معها، وأنا لا أعرف، فمن السهل أن تفقد"**...

"استمع إلي! إنهم بحاجة إلى مستشفى"!

توقف **كورت** عن الكلام ونظر إلى الرجال الجرحى" .**أكثر شبهاً بمشرحة."**

"إنهم على قيد الحياة! وأنا لن أذهب إلى أي مكان بدونهم"!

الآن التفتت عيناه إلى المرأة الصارخة. تنهد" .**بجدية؟"**

"بجدية. لا يمكننا فقط ترك رجلين على قيد الحياة هنا في الصحراء."

تأوه أحد الجرحى بهدوء.

تصلب فك **كورت**، وبرز إلى الأمام قليلاً وهو يحدق في المحامية الكندية. أومأ برأسه، ورفع البندقية المعلقة من رقبته، مما جعل المرأة تجفل من الخوف. دون أي تردد على الإطلاق، استدار وأطلق النار على الرجلين الجريحين، مرة واحدة لكل منهما في الصدر. اهتزت جذوعهم بعنف مع الصدمات، وتطاير دم أسود في الهواء فوقهم، وسكن كلا الرجلين على الفور.

بعد أن تلاشى صوت الطلقة الثانية في الصحراء، ترك **جينتري** بندقيته تتدلى بحمالتها أمامه . **"حُلت المشكلة. هيا بنا."**

ابيض وجه **إيلين والش** من الرعب، ثم بعد ثوانٍ احمر من الغضب. اندفعت نحو الأمريكي. ابتعد عنها، متجهًا نحو أحد الخيول، لكنها أمسكته من ظهر قميصه، وأدارته حرفيًا. لم يجرِ اتصالاً بالعين معها؛ بدلاً من ذلك، واصل السير إلى الأمام بجانب الشاحنة المشتعلة.

"أيها الوغد! أنت لست أفضل منهم "!وبخته وهي تركض بجانبه، محاولة أن تكون أمامه.

"إنهم أموات؛ أنا على قيد الحياة. أود أن أقول إنني أبلي بلاءً أفضل بكثير ."قالها بلا مرح، وواصل التقدم. لكنها تمكنت أخيرًا من الوقوف أمامه، ووضعت يدها على صدره. قبضت أصابعها الصغيرة المصابة بحروق الشمس على قميصه البني المبلل بالعرق. بيده اليسرى الحرة، أمسك **جينتري** بيدها، ولفها للخلف في لوي للمعصم، ودفعها للخلف، بعيدًا عنه. رفع بغضب عقب الكلاشنكوف نحوها بيده الحرة كما لو كان سيضربه في وجهها.

لم تكن **إيلين** خائفة؛ لقد دفعها غضبها إلى ما هو أبعد من القلق على سلامتها الشخصية .
"آه، أنت تضرب النساء أيضًا، أليس كذلك؟ أيها الحيوان اللعين! تعدم الجرحى! تفتش جثث الموتى مثل النسر! تفجر"...

"كيف بحق الجحيم كنا سنسحبهم عبر ثلاثين ميلاً من الصحراء؟ كانوا سينزفون حتى الموت على أي حال، وكنا سنموت ونحن نحاول."

"كنا نستطيع حملهم على الخيول"!

"ونتحرك بنصف السرعة! هل تريدين أن تكوني هنا عند حلول الظلام؟"

"لا تختلق الأعذار! فقط اعترف بذلك، أردت أن تقتلهم"!

خفض البندقية وترك يدها" **.سأعترف بهذا. لا يهمني أمر هذين الرجلين، بشأن الجثث الملقاة هنا. بخلاف بشارة، لا يمكنني أن أهتم أقل."**

نظرت إلى الجثث، ثم عادت إليه" **.ماذا؟ ما أنت؟"**

"أنا ما تريدينني أن أكون. الوغد الذي يطلق النار على الجرحى، أو الرجل الذي أنقذ مؤخرتك من النار مرات أكثر في الثمانية عشر ساعة الماضية مما أود أن أتذكر"، قال، وهو يصعد إلى سرج فرس عربية رمادية كبيرة" .**يمكنني إخراجك من هذا على قيد الحياة، لكن عليك أن تدعيني أقوم بعملي."**

"وظيفتك هي إطلاق النار على الرجال المصابين؟"

"ليس إذا كان بإمكاني المساعدة، لكننا كنا بحاجة إلى الذهاب، وكان التخلص من هذين الأحمقين وسيلة لتحقيق هذه الغاية. كان بإمكاني الانتظار ثلاثين دقيقة حتى يموتوا بأنفسهم، لكنني لم أرغب في الانتظار. كان بإمكاني تركهم وراءنا، مع العلم أنه إذا عاد الجنجويد وكان أحدهم لديه ما يكفي من القوة للإشارة إلى الاتجاه الذي سلكناه، فقد يؤدي ذلك إلى مقتلنا، لكنني لم أرغب في فعل ذلك أيضًا. هل تعرفين حتى ما يفعله هؤلاء الأوغاد؟ يغتصبون ويذبحون النساء العزل، ويحرقون الأطفال أحياء في حفر النار أمام آبائهم لمجرد المزاح والتسلية. أربعمائة ألف قتيل. هل هذا مجرد رقم لعين لك؟ يمكنك البكاء على الجنجويد إذا كان ذلك يجعلك تشعرين بالصلاح الذاتي، لكنني لن أرف جفنًا بعد إطلاق النار على قتلة النساء والأطفال."

حدقت فيه لفترة طويلة. سالت الدموع على وجه لا يزال متوحشًا بالغضب والكراهية. خطوط نظيفة في الغبار المتكتل على خديها. قالت" :**حسنًا، إنهم قتلة نساء وأطفال؛ أنا أفهم ذلك. ولكن ماذا يجعلك هذا؟"**

وضع **كورت** الكلاشنكوف في حزام على مؤخرة السرج، ثم شد قبضته على لجام الفرس الكبيرة. نظر إلى **إيلين والش** وركل خاصرة الحيوان. كان الحصان يركض بالفعل نحو الشرق عندما أجابها.

"أنا قاتل رجال."

الفصل السابع والعشرون

بعد ثلاثين دقيقة، كانت **إيلين والش** و**كورت جنتري** على بعد ميل شمال الطريق الصحراوي المؤدي إلى **ديرة**، متجهين شرقا عبر واد ضيق يمتد بموازاة الطريق البعيد. كادت فرس **والش** الكستنائية أن تقذفها مرتين؛ فقد كانت معتادة على يد أثقل تتحكم في اللجام. قاد **جنتري** حصانه ببراعة، وقاد الطريق دون أن يتكلم.

شعر بغضب المرأة خلفه، وأحس بالعيون الكارهة تخترق ظهره مثل حرارة أشعة الشمس الحارقة. بين الحين والآخر كانت تتكلم، وتواصل توبيخه" .**أنت مجرم حرب الآن. أنت تدرك ذلك، أليس كذلك؟ وحقيقة أنك أعدمت أسيرين جريحين أمام محققة من المحكمة الجنائية الدولية مباشرة تدفعني إلى التساؤل عما تفعله عندما لا يكون هناك أحد ليحاسبك على جرائمك".**

نظر **كورت** عميقا في ضباب الظهيرة، باحثا عن أي سحب غبار ثابتة أو تتحرك ببطء في الأمام، وهي علامات تدل على اقتراب الخيول. رأى سحب غبار هنا وهناك، لكنها كانت تتحرك بسرعة عبر المناظر الطبيعية، مما يشير إلى أنها ناجمة عن الرياح وليس عن حوافر أو أقدام أو إطارات.

"أتيت إلى السودان للمساعدة في تقديم رجل مطلوب إلى العدالة. لكن أتعرف ماذا؟ التقيت بشخص آخر، شخص ربما ليس خطيرا بنفس القدر، من حيث الحجم، مثل الرئيس عبود، لكنه شخص لا يكترث بالحياة البشرية بنفس القدر. هذا أنت يا ستة. سأتأكد من تقديمك للعدالة على ما حدث اليوم".

أدار حصانه قليلا نحو الشمال الآن. كان المسار الذي يسلكه يعود أقرب إلى ما يمكن اعتباره طريقا هنا، وأراد أن يبقى بعيدا عن الأنظار عن أي حركة مرور عابرة. تمتم **كورت** لنفسه : **"ألا تأخذين استراحة أبدا؟** ."الطريق إلى الأمام، خارج الوادي وعائدا إلى الأراضي الشجرية في الساحل، بدا واضحا، في الوقت الحالي. تحدث بصوت أعلى" .**أتعرفين ما الذي قتلهم؟ أنت قتلتهم. عدم فعلك لما أخبرتك أن تفعليه. هنا، إذا أردت أن تعيشي، تفعلي ما أقوله. إذا كنت في محاكمة في وينيبيغ أو أيا كان المكان اللعين، سأستمع إليك، ولكن هنا، في أراضي العدو؟ أنت تستمعين إلي".**

على ما يبدو أن ملاحظته فاجأتها، فقد اعتادت على تجاهله لها.

استغرقت وقتا للرد، وحتى ذلك الحين، بدت كلماتها غير فعالة" .**أنا لست محامية مرافعة. وأنا من فانكوفر".**

لم يرد **كورت**، فقط نظر إلى الأمام، باحثا عن تهديدات.

"كيف يمكنك أن تفعل ذلك؟ كيف يمكنك أن تقتل هكذا؟"

"تدريب".

"تدريب عسكري؟"

لم يجب.

قالت" :**أنا بحاجة إلى معرفة من أنت** ".استطاع أن يسمع العجلات تدور في رأسها. لقد أصبح الآن موضوع تحقيقها.

"لا، لست بحاجة إلى ذلك".

"هل تعمل حقا لصالح الروس؟"

"فعلت مرة، لكن ذلك لم ينجح".

"بسببي؟"

"نعم".

"ولكن... أنت أمريكي. هل أنت من وكالة المخابرات المركزية؟"

"كلا".

"إذن ماذا؟"

"أنا عاطل عن العمل حاليا".

"حسنا ".لم تصدقه" .**إذن كل هذا ليس عملا؟ إنه مجرد متعة؟"**

قال **كورت** وهو يرتشف من القربة التي أخذها من أحد الرجال الذين قتلهم" :**أكثر متعة من برميل من الجنجويد".**

"أنا جادة يا ستة. لدي كل النية لكتابة تقرير عما حدث هناك".

"افعلي ما يحلوا لك".

"ألا تصدقني؟"

"لا يهمني".

"ألا تخاف من المحكمة الجنائية الدولية؟"

ضحك بقسوة" .**مرعوب، لكنني سأتغلب على ذلك".**

"أنت رجل خطير يجب إيقافه".

لم يبطئ من سرعة حصانه، لكنه سحب اللجام إلى اليسار حتى يتمكن من التواصل البصري مع المرأة" .**لكنني لست خطيرا لدرجة أنك لن تقبلي مساعدتي. ولست خطيرا لدرجة أنك لا تخافين من أن تكوني وحدك معي في الصحراء بينما أحمل سلاحين ناريين، ولست خطيرا لدرجة أنك لا تخافين من إخباري بأنك ستفعلين كل ما بوسعك لإلقائي في السجن. ماذا يخبرك هذا يا والش؟ يجب أن يخبرك أنك ترينني كمخلص أكثر من كوني شيطانا".**

فكرت في الأمر للحظة" .**العدالة التي أريد أن أطبقها عليك ليست هي نفسها التي طبقتها على أولئك الناس هناك. أنا أحترم سيادة القانون".**

"حسنا، لم تحترميها بما يكفي لجعل كل أولئك الأوغاد يتوقفون عن تحطيم الرؤوس ويجلسون في قاعة محكمة صغيرة مؤقتة في التراب ليحاكموا بشكل صحيح. احترمي سيادة القانون كما شئتي، ولكن هنا، سيادة القانون لن تنقذ مؤخرتك مثل هذه الكلاشينكوف الصدئة وقبضة من الرصاصات القذرة".

"أنا لست حمقاء، أنا"——

"هذا بالضبط ما أنت عليه! كلكم يا أهل القانون الدولي حمقى. أغنام ساذجة وحمقاء تعتقدون أن الطريقة لجعل حكومة السودان تضع أسلحتها وتوقف الإبادة الجماعية هي صياغة لوائح اتهام في هولندا وإرسال محامين خيرين إلى هنا ليتجولوا في الصحراء ويكتبوا تقارير لعينة. يمكنك أن تشعري بالرضا كما شئتي، لكنك لن تغيري شيئا لعينا".

لقد ركزت على شيء قاله" .**وما تفعله أنت هنا ، هل سيغير الأمور؟"**

أراد **كورت** أن يبقي فمه مغلقا، لكنه لم يستطع" .**بكل تأكيد، سيفعل"**.

"إذن أنت تهرب أسلحة مع الروس وتطلق النار على الجرحى. هل هذا كله جزء من خطتك لجعل العالم مكانا أفضل؟"

"لا، ليس كذلك. كل هذا مجرد إلهاء".

"إذن ما هي مهمتك؟"

"لن أخبرك".

"لماذا لا؟"

"لأنك مجرد عقبة أخرى في طريقي".

"ربما يمكننا العمل معا".

قال **كورت"** :**بالتأكيد لا أبدو بهذا الغباء، أليس كذلك؟ حتى نصل إلى ديرة، نحن في نفس الجانب. بعد ذلك، تذهبين في طريقك، وسأذهب في طريقي، وسنترك الأمر عند هذا الحد "**.كانت هناك نهاية في تعليقه أدركتها **والش**، وتركته وشأنه.

قطعوا ثلاث ساعات أخرى من الأرض الصعبة دون كلمات بينهما.

بعد الخامسة بقليل بعد الظهر، نظر **جنتري** فوق كتفه ليتفقد المرأة. كانت محترقة من الشمس ومرهقة لكنها لا تزال منتصبة على ظهر حصانها. أوقف حصانه، وانزلق من الجانب، وفك قربة من السرج. أعطى الحصان العربي الرمادي ماء دافئا، شربه الحيوان

بشغف. بعد ثلاثين ثانية كرر العملية مع حصان **إلين** .وبينما كان يفعل ذلك، نظرت **إيلين** حولها، كما لو كانت نائمة وهي منتصبة ولم تتعرف على محيطها إلا الآن.

بعد لحظة نظر **كورت** إليها، ولاحظ نظرة غريبة على وجهها.

سألت بصوت يغلب عليه الفضول أكثر من القلق" :**ما هذا بحق الجحيم؟"**

اتبع **جنتري** نظرتها إلى المسافة، إلى الخلف حيث أتوا.

أجاب **جنتري** بجدية" :**هبوب. عاصفة ترابية".**

حدقت إيلينفي رهبة من المشهد. كان الأمر كما لو أن جبلا ضخما قد ارتفع من الأرض المسطحة التي عبروها للتو. والجبل ينمو ويتحرك نحوهم.

"هذا يبدو سيئا".

أجاب **كورت"** :**إنه ليس جيدا".**

"هل ستلحق بنا؟"

أعاد **كورت** ربط القربة الفارغة بنسبة ثلاثة أرباعها على عجل على ظهر سرج حصانه. ثم رفع قدمه مرة أخرى إلى الركاب وصعد مرة أخرى" .**انزلي من حصانك. اركبي معي. أسرعي"!**

قالت" :**لا** ".لكنها سألت بعد ذلك" :**لماذا؟"**

"سوف نفترق إذا كنا على حصانين، ولا يمكننا أن نفترق هنا. اركبي معي، الآن"!

ترددت **إيلين** لكنها سرعان ما انزلقت من فرسها الكستنائية، وأمسكت بقربة الماء من ظهرها، وذهبت إلى **كورت** .سحبها خلفه، وأحكمت ذراعيها حول خصره. أعطاها إحدى العمامات البنية التي أخذها من فارس جنجويد ميت. قال" :**غطي وجهك. حتى عينيك**".

"**ماذا عنك؟ كيف سترى؟**"

ألقى **كورت** لفة مماثلة على وجهه" .**لن أرى. سأحاول أن أبقينا متجهين في الاتجاه الصحيح. لكن أهم شيء هو أن نبقى على الحصان. لا يوجد مكان هنا للاحتماء وانتظار انتهاء هذا. علينا فقط أن نخترقه مباشرة**".

من الناحية المثالية، كان **جنتري** سينزل وينتظر انتهاء العاصفة، لكن التصرف المنطقي كان ترفا لا يستطيع تحمله. لقد رأى هبوبا في العراق استمرت ثلاثة أيام، وعرف أن كل دقيقة يقضونها هنا في الأراضي الوعرة هي دقيقة أخرى لدى جهاز الأمن الوطني لإرسال المزيد من الرجال لمطاردتهم. آخر شيء أراده هو أن يتعثر حصانه بشكل أعمى في واد أو يتجول في مخيم لمقاتلي الجنجويد، لكن محاولة الاستمرار، والمخاطرة بهذه المخاطر، بدت أفضل من مجرد البقاء في العراء مع القليل من الماء وعدم وجود حماية.

ضربتهم نسمة أبرد بعد دقيقة، وكان الرمل والغبار عليهم بعد ذلك بوقت قصير. فجأة تحول النهار إلى ليل؛ حجبت أشعة الشمس فوقهم في لحظة، ثم حوصروا، وغلفوا. سيطر شعور بالخوف من الأماكن المغلقة على **إلين**، لكن كل ما كان بإمكانها فعله هو إحكام وجهها في العمامة ثم ضغط وجهها في القميص المتعرق للرجل الذي أمامها. الرجل الذي أبقاها على قيد الحياة لكنه اعتبر نفسه حكما على حياة الآخرين.

رفع **كورت** ساعته إلى عينيه، تحت غطاء الرأس مثل خيمة صغيرة. بالكاد كان يرى، وغطت حبيبات ساخنة قرنيتيه في ثوان. بدت خاصية GPS في الساعة لا تزال معطلة، لكن البوصلة على الأقل كانت تعمل. اتجه شرقا ــ شمال شرقا. كانت **ديرة** في هذا الاتجاه، لكن لم تكن

لديه أي فكرة عن مدى اقتراب العاصفة ، لذلك كان قلقه الرئيسي هو المرور مباشرة بجوار المدينة في الغبار أو حتى في الليل. بالتأكيد ستكون هناك أضواء من القرية، حتى لو كانت الطاقة الكهربائية غير موجودة تقريبا، ولكن كانت هناك تلال منخفضة ومجاري أنهار جافة متدلية وتكوينات صخرية شبيهة بالجدران يمكن أن تحجب بسهولة أي مصدر ضوء بعيد، حتى لو هدأت العاصفة الترابية.

شعر **كورت** بأن الجفاف يؤثر على أدائه. شعر بالدوار والتعب، وحتى بالثمالة قليلا. كان بحاجة إلى تناول المزيد من السوائل بسرعة. على الرغم من أنه لم يستطع رؤية شبر واحد أمامه، إلا أنه سحب القربة من سرج الحصان، وفتحها، ووضعها على فمه. اختلطت الحبيبات والأوساخ والرمال في الهواء وعلى فمه على الفور بالماء الساخن والنتن، مما أدى إلى تكوين رشفة من الطين المائي. ابتلعها على أي حال، مدركا مدى أهمية الترطيب له الآن، حتى لو لم يستمتع بامتصاص هذا الوحل الساخن.

مد يده للخلف ووضعها في يد **إلين** .استغرقت دقيقة لتدرك ما هي وماذا يطلب منها أن تفعل. أخذت رشفة بنفسها، ثم بدأت تسعل على الفور.

"إنها مليئة بالتراب".

"وجهك مليء بالتراب. اشربيها. أنت بحاجة إليها".

قالت وهي تحاول إعادتها إليه" :**أنا بخير".**

"اشربي. عليك أن تبقي رطبة هنا في درجات الحرارة هذه".

"لكنها مليئة بالتراب".

قال **كورت** ببرود" :**ستتبرزينها".**

"هذا مقرف. لا أريد أن أتبرزها".

"هل تريدين أن تموتي بضربة شمس؟ اشربي الماء اللعين "!صرخ فيها.

على مضض، وبغضب، ابتلعت عدة رشفات أخرى. جعلتها الحبيبات والطين تسعل عدة مرات أخرى، لكن السائل بقي في معدتها. عندما أفرغت القربة، أسقطتها في التراب واستمر الحصان في التحرك.

استمر الهبوب حتى وقت متأخر من الليل، وتمكن **كورت** بطريقة ما من إبقاء الحيوان يتحرك في الاتجاه الصحيح. عندما تحركت سحابة الغبار، نزل هو و**إلين** وواصلا سيرا على الأقدام، بينما قاد **جنتري** الحصان الكبير من لجامه. أثبت الحيوان أنه موثوق به بشكل لا يصدق، وأراد أن يريحه بتخفيفه من وزن راكبين لمدة ساعة أو ساعتين.

كانت أجسادهما مغطاة بالكامل بالأوساخ. كان من الممكن أن يكونوا أفارقة سودا أو آسيويين أو كائنات فضائية تحت طبقة من اللون البني، ولن يعرف أحد. أدرك **كورت** أن هذه النتيجة غير المقصودة قد تعمل لصالحهم طالما لم يقترب أحد كثيرا. كان مخطئا، مع ذلك. قد لا يظهر جلدهما الأبيض، لكن مظهرهما الغربي كان من المستحيل إخفاؤه.

لقد ابتعدوا عن المسار الصحراوي الوحيد بين **الفاشر** و**ديرة**، ولم يقطعوا سوى أرض شاسعة ومقفرة لساعات، ولكن مع اقترابهم من هدفهم، بدأوا يمرون عبر قرى صغيرة وعبر طرق ترابية، وزادت حركة المرور من حولهم. مرت بهم عربات حمير وشاحنات بيك أب صغيرة، وحدق بهم قرويون دارفوريون بلا خجل، خواجان قذران يقودان حصان جنجويد، الرجل يحمل بندقيتي كلاشينكوف مربوطتين به والمرأة ترتدي عمامة كرجل. بالكاد يكون هذا حدثا يوميا هنا في هذه الأرض البرية.

قلق **كورت** بشأن السكان المحليين. كان يعلم بوجود ظاهرة في أماكن كهذه، يشار إليها باسم تلغراف الأدغال، حيث تنتقل الأخبار بطريقة ما، وبشكل غير مفهوم، من مجتمع إلى مجتمع بثبات وسرعة هاتف فضائي. عرف **جنتري** أنه في أي لحظة يمكن أن يلتقي بالجنجويد أو جهاز الأمن الوطني أو جنود حكومة السودان ويجد نفسه محاطا بمن يفوقونه عددا في معركة بالأسلحة النارية هنا في الظلام. أو يمكن أن يجد نفسه محاطا بجنود **يوناميد** من الاتحاد الأفريقي، الذين سيعتقلونه ويضعون حدا لعمليته.

لكن لم يكن هناك شيء يمكنه فعله سوى الاستمرار؛ كان عليه أن يوصل المرأة إلى بر الأمان. بذل قصارى جهده لتجنب المستوطنات، تجنب اشعال أو الاقتراب نيران الطهي التي تعمل بوقود روث الجمال ، وانتظر مرور المركبات بدلا من العبور أمام مصابيحها الأمامية.

كانت **إيلين** متعبة للغاية. الحرارة والتوتر واليوم الطويل ونقص الطعام والماء كلها تضافرت لتضعها في نشوة مؤقتة، كانت تفيق منها من حين لآخر لمحاولة إشراك **كورت** في محادثة. تماما مثل المساء السابق، وجد **جنتري** نفسه يتحدث معها أكثر مما قد يفعل مع أي شخص آخر. على الرغم من أنها كانت ضده بنسبة 100 في المئة الآن، خصما بعد أن أهدر قطعتي القمامة عديمتي القيمة هاتين مع القافلة، إلا أنه استمر في التحدث معها، وهذا أغضبه. لكنه لم يغضبه بما يكفي ليتوقف.

برد الهواء أخيرا حوالي الساعة الحادية عشرة، وبدا أن **إيلين** قد استعادت نشاطها من هذا. أعطاها **كورت** ما تبقى من الماء، ومثل نبتة بنية عطشى في الزاوية، بدا أن الترطيب جعلها تعود إلى الحياة أمام عينيه.

"كم بقي من المسافة؟"

"ليس طويلا. نصف ساعة أخرى أو نحو ذلك".

"هل يمكننا العودة إلى الحصان؟"

"كلا. نحتاجها مرتاحة في حال واجهتنا مشكلة واضطررنا إلى الهروب".

قالت" :**حسنا. هذا منطقي** ".سارا جنبا إلى جنب عبر عشب منخفض وتحت أشجار أكاسيا كبيرة جدا لدرجة أنها حجبت النجوم. نظرت إليه عدة مرات. استطاع أن يعرف أنها تفكر في شيء ما. تجاهلها، آملا أن تمر فكرتها، لكنها لم تفعل.

"ستة، أعتقد أن الكثير من الناس السيئين جدا بدأوا كأناس طيبين، ألا تعتقد ذلك؟"

"لا أعرف".

"احذر أن تصبح ما تكرهه".

"ليس لدي أي فكرة عما تتحدثين عنه".

"بلى، أنت تعرف. أنا أصدقك. أعتقد أنك تعتقد أنك هنا للأسباب الصحيحة. ربما في رأسك أنت كذلك. لكن هذا المكان يحتاج إلى أناس ينقذون الأرواح، لا يأخذون الأرواح".

منعها **كورت** من التعثر في تل نمل في الظلام. قادها حوله من ذراعها، ثم تركها على الفور . **"إنقاذ حياة وأخذ حياة ليسا نقيضين. أحيانا يكونان وجهين لعملة واحدة. قد آخذ أرواحا من وقت لآخر، لكنني لن أفعل ذلك ما لم أشعر أنني أنقذ البعض أيضا".**

"يبدو أنك تحاول تبرير ذلك لنفسك".

"يجب أن أبرره لنفسي. لكن ليس علي أن أبرر أي شيء لك. أناس مثلك لن يفهموا أبدا. مضيعة للوقت محاولة إقناعك".

"ستتهم بجرائم حرب على ما حدث اليوم".

كانت هناك نبرة في صوتها التقطها **جنتري** .بدت محبطة منه لما حدث لكنها متضاربة في مشاعرها.

"أعتقد أنك ذكرت ذلك".

"سنقبض عليك".

"حسنا. لقد كنتم تحاولون القبض على عبود لمدة ثلاث سنوات، ولديكم عنوانه اللعين".

استوعبت ذلك للحظة" .**نحن نحاول. المحكمة الجنائية الدولية ستحصل على عبود، عاجلا أم آجلا".**

"ليس إذا كانت المحكمة الجنائية الدولية ترسل نساء كنديات إلى دارفور بمفردهن. أنتم يا قوم ستحتاجون إلى الكثير من المساعدة لإسقاطه".

استطاع أن يرى أن هذا التعليق أثار فضولها" .**هل ستساعدنا؟ هل هذه هي خطتك؟"**

قال **كورت** أكثر من اللازم، وعرف ذلك" .**لو كنت هنا من أجل عبود، هل تعتقدين أنني سأكون في دارفور؟ لا ، سأكون في الخرطوم، حيث يوجد عبود** ".أمل أن يكون قد أقنعها بذلك.

هزت كتفيها. قالت **إلين**" :**عبود ليس من شأني على أي حال. أنا أعمل على انتشار الأسلحة غير المشروع. واردات الأسلحة هي العرض. عبود هو المرض".**

"هل تعتقدين أنه مسؤول بمفرده عن الإبادة الجماعية هنا؟"

فكرت في الأمر" .**مسؤول؟ ليس بالكامل. لكن يمكنه إيقافها. أعتقد ذلك. لديه القوة".**

"يجب على شخص ما أن يطلق عليه النار في رأسه؛ هذا سيوقفها ".لأول مرة اليوم، اهتم **كورت** بالمحادثة. أراد أن يرى كيف سترد على التعليق.

"سلاحك هو الجواب على كل سؤال، أليس كذلك؟"

"ليس سلاحي. كما قلت، أنا لست في الخرطوم".

"حسنا، ليس سلاحك، لكن هل تعتقد حقا أن قتله سيصلح الأمور؟"

"ألا تعتقدين ذلك؟"

"لا ، لا أعتقد ذلك. يمكن لأتباعه مواصلة الحرب لسنوات، عقود حتى. إذا مات، فكل المكاسب التي حققتها المنظمات غير الحكومية، بمجرد السماح لها بالدخول هنا، ستضيع على الأرجح. من يتولى السلطة لن يرغب في أعين الغرب المتطفلة في دارفور، خاصة إذا استمرت حملة الوحشية".

"إذن عبود رجل طيب؟ "كان يستدرجها للحصول على المزيد من المعلومات حول المشهد السياسي.

"بالطبع لا! إنه شرير بلا شك. أنا أقول فقط إن موته قد يؤدي إلى بعض العواقب غير المقصودة".

عرف **كورت** عن نتيجة مقصودة كان لدى الروس في أذهانهم. أرادوا إزاحة عبود حتى يفقد الصينيون الوصول إلى القطاع 12A.

لكن بأي ثمن للمنطقة؟

ضغط عليها قليلا، محاولا سحب المزيد من المعلومات منها. كانت تعرف عن السودان أكثر منه، وكان يحترم معرفتها، حتى لو افترض أن استنتاجاتها ساذجة في أحسن الأحوال وغبية في أسوأها" .**ماذا عن الجهات الفاعلة الأخرى في المنطقة؟ الروس، الصينيون، الولايات المتحدة، الاتحاد الأفريقي".**

"ماذا عنهم؟"

"هل تعتقدين أن أيا منهم لديه مصلحة فيما يحدث هنا؟"

التفتت إليه، على الرغم من أنهما كانا لا يزالان يسيران، معتبرة سؤاله بتنهيدة مدروسة. شخر الحصان العربي خلفهما" .**لدى الصينيين حقوق تنقيب في شمال دارفور. حتى الآن لم يجدوا الكثير، لكن إذا وجدوا شيئا، فستكون كل الرهانات ملغاة بشأن كيفية تغيير ذلك للمشهد السياسي".**

"ماذا تقصدين؟"

"لدى الصينيين تحالف هش مع عبود. لدى الروس تحالف هش مع"——

حاول **كورت** إكمال الجملة" :**نائب الرئيس، الذي سيخلف عبود إذا تم إخراجه من الصورة".**

"لا. نائب الرئيس ضعيف الإرادة جدا . كنت سأقول إن لدى الروس تحالفا هشا مع الحكومة في تشاد. إذا قتل عبود، يعتقد بعض الناس أن صراعا على السلطة سينشب، وستنتشر الحرب الأهلية إلى الأمة بأكملها. ستستغل تشاد تلك الفرصة لغزو دارفور بمساعدة روسية. ستبدأ عاصفة نارية، مع تورط قوتين عظميين نوويتين في النتيجة. شخصيا، لا أعتقد ذلك، طالما لم يتم العثور على رواسب نفطية كبيرة في دارفور. هذه

المؤامرة الكبيرة تبدو أكبر من أن تعبث بها روسيا ما لم يتبين أن هناك شيئا مهما حقا هنا تحت التراب".

بدت وكأنها تعرف ما تتحدث عنه، مما أعطى **كورت** شعورا غامرا بأن **جريجور سيدورينكو** قد كذب عليه. أراد الروس موت عبود ليس لأن موته سيمنحهم القطاع 12A ولكن لأن موته سيسبب فوضى، يمكن لتشاد أن تغزو فيها وتأخذ القطاع 12A للروس عبر حرب بالأسلحة النارية.

ابن العاهرة .

خطر لـ**كورت** فكرة" .**لكن أنتم يا رفاق تريدون اعتقال عبود؟ ألن يكون لذلك نفس تأثير قتله؟ سيكون خارج السلطة ولن يتمكن من إيقاف حرب أهلية".**

"التفكير في المحكمة الجنائية الدولية هو أنه إذا استطعنا إعطاء عبود سببا لاستخدام نفوذه وسلطته لصالحنا، فإن أتباعه لن يقعوا في فخ استخدامهم كبيادق من قبل الصينيين والروس".

مثيرة للاهتمام، فكر **كورت**، لكنه لم ير أي طريقة ممكنة لامتثال عبود للمحكمة الجنائية الدولية.

وصلا إلى قمة ارتفاع لطيف، وأشجار نخيل عند القمة. على الجانب الآخر رأوا مخيمات النازحين الضخم منتشرة في الوادي أسفلهم على مساحة عدة أميال مربعة. كان مسطحا ومظلما في الليل، آلاف الخيام ذات الغرفة الواحدة. كانت هناك أضواء حول المحيط، وعدد قليل من مركبات **يوناميد** في الأفق. كانت نيران روث الجمال تحترق مثل مئة يراعة في المسافة، وخزات صغيرة من العنبر عبر أرضية الوادي الواسعة.

قالت **إيلين** ويداها على وركيها" :**إنه أمر لا يصدق".**

سأل **كورت** مشيرا نحو مدخل في السياج، محمي من كلا الجانبين بناقلات جند مدرعة بيضاء" :**هل ترين البوابة؟"**

"نعم ".نظرت إليه" .**أنت لن تأتي معي، أليس كذلك؟"**

امتطى **كورت** حصان الجنجويد.

"كلا".

"بسبب ما قلته عن محاكمتك؟ انظر، أنت أكثر أمانا هناك من هنا. لن يتم احتجازك هنا في ديرة، أعدك. نحن نتبع القانون. لم يتم توجيه الاتهام إليك حتى الآن".

"أنا لن أدخل إلى هناك لأن لدي عملا لأقوم به هنا. وسأقوم به".

"إذن ستغادر هكذا راكبًا نحو الغروب ؟[11]"

"إنها الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل".

هزت **والش** رأسها، وأبعدت الحشرات الطنانة عن عينيها" .**أراهن أنك تعتقد أنك راعي بقر. لكنك لست كذلك. أنت خارج عن القانون. أنت"—**

"أحتاج إلى ثلاثة أيام يا إلين. بعد ثلاثة أيام من الآن يمكنك أن تفعلي كل ما عليك فعله. قدمي تقريرك، أرسلي فرقا للبحث عني".

"لماذا لا تخبرني بمهمتك؟ ماذا سيحدث في غضون ثلاثة أيام؟ لمن تعمل؟ إذا تقاطعت أهدافنا، أعدك بأنني سأحاول مساعدتك".

---

[11]« **راكبًا نحو الغروب** :إشارة ساخرة لعبارة شهيرة تتردد في نهاية أفلام الغرب الأمريكي النمطي حيث يرحل البطل وحيداً نحو الأفق بعد إنجاز مهمته.

"لا أقصد الإهانة يا آنسة والش، لكنني لست بحاجة إلى أي مساعدة يمكن أن تقدمها منظمتك".

نظرت إلى البندقية على صدره ولوحت بيد مرهقة إليها" **.مرة أخرى، هذا كل المساعدة التي تحتاجها؟"**

"أنا لست هنا لقتل الناس. في الأربع والعشرين ساعة الماضية كنت خارج المهمة. كما قلت، ستوافقين بنسبة مئة بالمئة على ما أفعله. أحتاج فقط إلى ثلاثة أيام للقيام بذلك. انتظري وسترين النتائج".

لم ترد **والش** .استطاع **كورت** أن يتخيلها تعطيه ثلاثة أيام، فقط من باب الفضول. استطاع أيضا أن يتخيلها تركض إلى البوابة الأمامية لمخيم "سبيرانزا إنترناسيونالي" وتصرخ في جنود **يوناميد** ليصعدوا إلى سيارات الجيب الخاصة بهم لمطاردة الفارس الأبيض عبر الليل. **إيلين والش**، مثل كل النساء، كانت لغزا كاملا لـ**كورت جنتري**.

"ثلاثة أيام. أرجوك ".سحب لجام الحصان بقوة، وأدار الحيوان الكبير، ثم انطلق ناهبا في الظلام.

الفصل الثامن والعشرون

جلس **كورت** في غرفته الفندقية الصغيرة في **الفاشر** .خارج النافذة المفتوحة فوق فراشه الممزق والمتسخ على الأرض، كانت ضجة المدينة الصباحية تهتز وتصفر وتثغو وتصرخ، بينما كان الرجال والحيوانات والمركبات يمرون.

كان قذرًا وأراد الاستحمام، لكن لم يكن هناك دش هنا. مجرد حفرة مقطوعة في أرضية خزانة أسفل الممر تستخدم كمرحاض. كان قد أمضى المساء يحك لدغات البراغيث الدامية ولم ينل الكثير من النوم، لكنه سأل نفسه، ماذا كان يتوقع مقابل لا شيء من المال؟

استغرق الأمر يومًا ونصف اليوم ومعظم ما تبقى من جنيهاته السودانية للحصول على سيارة وسائق لنقله مرة أخرى إلى عاصمة شمال **دارفور** .اشترى **كورت** هاتفًا فضائيًا بما تبقى من نقوده، مستخدمًا ساعته وبندقيتي AK لتغطية الفرق. كان الرجل الذي أقله من **ديرة** لديه ابن عم يمتلك نزلًا قذرًا في **الفاشر** لعمال البناء الدارفوريين الذين يعملون في أي مشروع تدفع لهم المنظمات غير الحكومية لبنائه، وقد تحدث السائق وابن عمه وعرضا على **كورت** غرفة مجانية. حتى أن الرجلين اصطحبا **كورت** للتسوق لشراء بعض السلع المحلية ودفعا ثمنها من جيوبهما الخاصة. لاحظ **كورت** خلال يومه على الطريق وفي المدينة أن العديد من السودانيين يتمتعون بلطف شديد واستعداد لتقديم أنفسهم وممتلكاتهم الضئيلة لغريب تمامًا.

لم يكن لدى **كورت** الكثير ليقدمه في المقابل سوى امتنانه، وبضع كلمات شكر بالعربية، وفهم للغة الجسد في الثقافة. وضع يده على قلبه وأومأ بعمق مرات عديدة في اليوم الماضي لدرجة أنه كاد يشعر أنه يمكن أن يمر كدارفوري، لولا لون بشرته.

كان **كورت** قد عمل في عشرات الأماكن المختلفة في حياته المهنية، إما كعميل منفرد في وكالة المخابرات المركزية، أو كضابط عمليات شبه عسكرية في وكالة المخابرات المركزية، أو كقاتل في القطاع الخاص، وكانت العديد من تلك الأماكن، لعدم وجود مصطلح أفضل، سيئة للغاية. لكن من وقت لآخر كان يجد نفسه في مكان بعيد، جغرافيًا وثقافيًا، ومأخوذًا تمامًا بالمناظر الطبيعية أو الناس أو طريقة الحياة بطرق بقيت معه بعد أن أنجز عمله وغادر المكان.

شعر بهذا الشعور تجاه **دارفور** .لم يكن من المفترض أن يكون هنا. كان هناك الكثير مما يكرهه. كان الجو حارًا كالجحيم ومليئًا بالحشرات ويسيطر عليه طاغية وعصابات من المغيرين القتلة، لكن **كورت** شعر بشيء ما تجاه هذا المكان، والناس، والعناد والانضباط اللازمين لمواجهة يوم بائس مسلحين فقط بوسائلهم الخاصة. لم يستطع إلا أن يحترم الناس على كدحهم للحصول على ما لديهم من وجود، وقدر لطفهم معه.

كان يود أن يرد لطفهم بإزالة الرجل من السلطة الذي يقتلهم بشكل منهجي.

مد يده عبر الفراش، وأخذ هاتفه، واتصل برقم في **سانت بطرسبرغ**.

لم ينم **جريجور إيفانوفيتش سيدورينكو** .اختفى رجله في أعماق **دارفور**، على الجانب الآخر من البلاد من حيث كان يجب أن يكون، ولم يسمع منه منذ ما يقرب من اثنتين وسبعين ساعة. علاوة على ذلك، كانت قنوات الأخبار الدولية تبث تقارير من **دارفور**، تقارير عن هجوم على قافلة مساعدات على بعد تسعين دقيقة بالسيارة من حيث شوهد **جينتري** آخر مرة. كانت التفاصيل غامضة، لكن الأمور لم تكن تبدو جيدة.

جلس **سيد** على طاولة إفطاره في البرد، وقضم بيضة مسلوقة، وحدق في هاتفه. بالكاد أبعد عينيه الخرزيتين عنه في ثلاثة أيام. لكن للمرة الأولى رن، وأذهله ذلك.

أمال رجل العصابات الروسي كأسًا من الميموزا في كأس كريستال مخدد بينما اندفع إلى الأمام للإمساك بالهاتف، وانسكب عصير برتقال فلوريدا الطازج، وغراند مارنييه كوفي دو سنتينير، وشمبانيا كروغ غراند كوفي على رداءه الصوف السميك المبطن بالذهب. تجاهل الفوضى الباهظة الثمن وأجاب على الهاتف.

"أنا أستمع."

"إنه جراي. هل تسمعني جيدًا؟"

"سيد جراي، أين أنت؟"

"لقد عدت إلى الفاشر. أنا في أمان في الوقت الحالي، لكن لا يمكنني البقاء هنا لفترة طويلة."

"ماذا حدث؟"

"لا شيء يدعو للقلق. لقد انحرفت عن مساري."

"انحرفت؟... سيد جراي، هذا غير مقبول! لقد عرضت كل شيء للخطر! جهاز الأمن الفيدرالي الروسي مستاء للغاية."

"لم يكن بالإمكان تفادي ذلك."

"تحدث رجالي إلى الطيار. لقد غادرت المطار لإنقاذ امرأة. امرأة"!

"ما كان ينبغي لطياركم أن يتركني وراءه."

"امرأة"!

"الأمر أكثر تعقيدًا"...

"هذا ضرر خطير للغاية لجدولنا الزمني."

"لا مشكلة."

"كيف يمكنك أن تقول إنه لا توجد مشكلة؟ ليس لدينا رحلة أخرى إلى الخرطوم مجدولة إلا بعد رحلة عبود إلى البحر الأحمر! كيف ست"...

"هل يمكنك إعادة طائرة إلى هنا إلى الفاشر؟"

"نعم، لقد رتبت رحلة. ستغادر اليوم من بيلاروسيا. لكن يمكننا فقط إخراجك من البلاد بهذه الرحلة. لن تهبط مرة أخرى في السودان."

"ليس عليها أن تهبط."

"لا أفهم."

"أحضر قلمًا وورقة. سأحتاج إلى الطائرة لإحضار بعض المعدات التي سأحتاجها إذا كنت سأستمر في العملية. اطلب من جهاز الأمن الفيدرالي الروسي مساعدتك في تجميعها. فقط استرخِ. سيتم نسيان هذه العثرة الصغيرة على طول الطريق."

"إذا لم يهبطوا، كيف ست"...

"سيحتاجون إلى مسار طيران خارج البلاد يأخذهم فوق البحر الأحمر. يمكنهم ترتيب ذلك. الآن، اكتب كل هذا."

كان هناك هرج ومرج على الطرف الآخر من الخط" .**انتظر... حسنًا. أنا مستعد."**

أملى **كورت** قائمة على زعيم المافيا الروسي، الذي خربش مثل سكرتير محموم. عندما انتهى، أطلق **سيدورينكو** نفسًا طويلاً" .**يمكنك فعل هذا؟"**

"بالتأكيد."

"الطيار... هل يستطيع فعل ذلك؟"

"ستتحدث إليه عندما نكون في الجو. شجعه على اتباع تعليماتي بالحرف الواحد."

"نعم، بالطبع ."لم يعد **جريجور سيدورينكو** غاضبًا. كان هناك نبرة حماس عالية النبرة في صوته" .**سيكون هذا... خطيرًا عليك."**

"هل أنت قلق على سلامتي؟"

"بالطبع. أنا... أريد فقط أن أفعل ما بوسعي للمساعدة."

"أي شيء آخر؟"

"كان لدي رجل كان سيأخذك بالسيارة من الخرطوم إلى سواكن. إذا واصلت كما تقترح، سيتعين عليك عبور الأراضي بمفردك وعلى الأقدام. أنت لا تبدو كرجل قبيلة سوداني."

"هناك قبيلة من العرب ذوي البشرة الفاتحة في المنطقة. الرشايدة. لن أتمكن من إتقان الأمر عن قرب، ولكن مع غطاء رأس وملابس محلية، فإن أي شخص يراني أقود سيارة أو أسير عبر حقل سيظنني من الرشايدة قبل أن يظنني فتى أبيض."

"هل أنت على استعداد للمراهنة بحياتك على ذلك؟"

أجاب القاتل بلا مبالاة" :**هذا ما أفعله."**

رد **سيدورينكو** لاهثًا" :**أنت مدهش."**

كان هناك صمت طويل على الخط. اعتقد **سيد** أن الأمريكي سيرد على تعليقه، لكنه قال بدلاً من ذلك" :**الخطة لا تزال سارية. بعد أن أكون على الأرض، لا يوجد اتصال حتى يتم إنجاز المهمة."**

"نعم. لكن الرجل الذي كان سيأخذك إلى سواكن. إنه ضابط شرطة هناك في مدينة سواكن. إنه مخبر جاسوس لجهاز الأمن الفيدرالي الروسي. قد يكون قادرًا على تزويدك بمعلومات استخباراتية ستكون مفيدة. يمكنني ترتيب اجتماع."

فكر **كورت** في الأمر. فيما يتعلق بعملية **سيد**، لم يكن بحاجة حقًا إلى مخبر شرطة. ولكن بالنسبة لمهمة **زاك**؟ يمكن لعملية "نوكتورن سافاير" أن تستفيد بالتأكيد من مصدر استخباراتي آخر حول توزيع القوات في المنطقة.

"موافق."

قال **سيد" :سيد جراي، من فضلك تذكر. لدي نساء هنا من أجلك. العديد من النساء الجميلات. اترك اللواتي تجدهن في الصحراء في الصحراء؛ عندما تعود، لن تحتاج إلى نساء مرة أخرى"!**

تنهد **كورت" .لماذا لم أفكر في ذلك؟"**

أمال **كورت** رأسه إلى الخلف على جدار الخشب الرقائقي في غرفته. كان يعلم أنه بحاجة للاتصال **بزاك**؛ لقد أجل ذلك قدر الإمكان. كان يعلم أنه سيتلقى توبيخًا من الطراز الرفيع. كان على حق.

بعد ثلاث رنات، أجاب **زاك** على الهاتف بغياب ملحوظ للمجاملات المعتادة**" .ماذا بحق الجحيم يا رجل؟"**

"لقد تأخرت."

"لقد تأخرت؟ حقًا؟ تأخرت؟ جيد. أنا سعيد لأن هذا كل ما في الأمر، لأنه للحظة هناك، كنت قلقًا من أن ساعتي ربما كانت تسبق بيومين لعينين"!

"لقد وقعت في مشكلة مع جهاز الأمن القومي. والجنجويد."

"جهاز الأمن القومي والجنجويد؟ لقد غادرت المطار."

"نعم."

"ألا علاقة لهذا بتلك العاهرة الكندية التي تعمل لصالح المحكمة الجنائية الدولية، أليس كذلك؟"

"لقد نشرت الخبر، هاه؟"

"لم تنشر الخبر؛ سحابة فطر فوق قوافل المنظمات غير الحكومية نشرت الخبر! لا بد أنك سحرتها تمامًا؛ تقول إنها لا تتذكر حتى كيف تبدو، لكن الدارفوريين يقولون إن وغدا أبيض كالحليب فجر اثنتين من شاحناتهم وقتل عددًا كبيرًا من الجنجويد. ماذا كنت تفعل بحق الجحيم؟"

"كانت بحاجة لمساعدتي."

"نعم؟ رائع. لكن أتعلم ماذا؟ أنا بحاجة لمساعدتك أيضًا. أحتاج منك أن تقوم بعملك اللعين! مطاردة الفتيات عبر الصحراء عندما من المفترض أن تكون هنا تستعد لأهم عملية لقسم الأنشطة الخاصة/مجموعة العمليات الخاصة في العقد الماضي لن يلغي أمر إطلاق النار فور رؤيتك يا ستة."

"لم أكن أطارد الفتيات. كانوا سيقتلونها."

"ابكِ لي نهرًا لعينًا! في الواقع، ابكِ لي نهر النيل اللعين، لأنني والشباب كدنا أن نسبح في النيل اللعين للوصول إلى هناك وسحب مؤخرتك من دارفور."

كان **كورت** يعلم أن احتمال إرسال وكالة المخابرات المركزية فريق ويسكي سييرا إلى **دارفور** لإنقاذ **سييرا ستة** لم يكن مطروحًا على الإطلاق. كان تأكيدًا سخيفًا. ومع ذلك، كان يعلم أيضًا متى يكون من الأفضل ترك **سييرا واحد** ينهي نوبة غضبه الصغيرة دون معارضة. مثل حريق غابة يحرق الجبل تمامًا لدرجة أنه لا يتبقى وقود لتغذيته، فإن نوبة غضب **زاك** ستنطفئ في غضون دقيقة إذا لم يقاوم **كورت**.

"انظر"، قال **كورت**، وقد سئم بالفعل من التحدث إلى **زاك**" .**كل شيء على ما يرام. سيرسل سيد طائرة إلى هنا إلى الفاشر الليلة. سأكون في سواكن بحلول مساء غد. سأعود**

إلى الهدف في الوقت المناسب لعملية صباح الأحد في السادسة والنصف. كل شيء يسير كما هو مخطط له."

"من الأفضل أن تتأكد من ذلك يا رجل. من الأفضل أن تعود إلى الهدف على عجل. هناك الكثير مما يعتمد على هذا."

"نعم، مفهوم. ستة، انتهى."

الفصل التاسع والعشرون

أبقى **كورت** عينيه على جهاز تحديد المواقع (GPS) الذي يعمل بكفاءة على ساعة يده الجديدة، بينما كان يجلس على مقعد في مؤخرة طائرة الأنتونوف. زوّده الجهاز بموقعه فوق الأراضي التي يحلق فوقها، وكان عليه أن يراقبها باستمرار ليتأكد من أن الطيار يتبع الأوامر المُعطاة له.

كانت الطائرة من طرازAN-26 ، وهي طائرة نقل أصغر بكثير من تلك التي استقلها إلى السودان قبل ثلاثة أيام. تساءل عن عدد الأشخاص الموجودين على متنها. لم يرَ أو يتحدث إلى أي شخص في قمرة القيادة منذ صعوده على متن الطائرة قبل ساعتين تقريبًا. كان قد انتظر عند نهاية مدرج مطار **الفاشر**، وأمضى أربع ساعات وهو يطرد الذباب ويركل العقارب الصغيرة وعناكب الجمال التي بحجم طبق عشاء، مختبئًا خلف أحد الأجنحة المكسورة لطائرة محطمة كانت ترقد كالطيور المذبوحة على طول المدرج. كان قد خطط للانتظار داخل مقصورة الحطام المهجور، لكنه وجدها شديدة الحرارة والاختناق لدرجة لا تُحتمل، ولم يكن لديه أدنى شك في أنه سيواجه الثعابين أيضًا. كانت زجاجة المياه الأخيرة لديه قد أوشكت على النفاد عندما تسلق السياج ليدخل المطار ذلك المساء، وشرب آخر قطرة منها قبل ساعة من هبوط الطائرة الروسية، والتي أقلعت بعد ثلاث ساعات تقريبًا من هبوطها.

صعد عبر الفتحة التي تُركت مفتوحة بناءً على أوامره التي نُقلت عبر **سيد**، ثم إلى جهاز الأمن الفيدرالي الروسي ، ومنه إلى طاقم شركة **روسوبورون إكسبورت** .عندما شق طريقه إلى مقصورة الشحن المعتمة، وجد كل المعدات التي طلبها مربوطة بإحكام إلى مقعد شبكي. كانت نفس الحقيبة التي حملها معه في رحلته السابقة، مع بعض الإضافات الجديدة، وهي معدات حيوية للتغيير الذي طرأ على عمليته بسبب زيارته التي استمرت ثلاثة أيام إلى

دارفور .لم يكلف طاقم طائرة الأنتونوف أنفسهم عناء الخروج من قمرة القيادة للتحقق من وصوله أو من حصوله على كل ما يحتاجه.

لم يكن هؤلاء الروس يكترثون به أو بمهمته. من المحتمل أنهم كانوا منزعجين من خطة الطيران غير العادية التي أُمروا باتباعها، وبالتأكيد كانوا غاضبين من المناورة غير المعتادة التي سيتعين عليهم تنفيذها، ولا شك أنهم سيلومونه على تدخل رجال جهاز الأمن الفيدرالي الروسي في شؤونهم وإخبارهم بكيفية أداء عملهم.

أما بالنسبة للرجل الجالس في مؤخرة طائرتهم الآن، فقد أوضحوا موقفهم بنسبة مئة بالمئة من خلال ترك الفتحة مفتوحة دون رقابة وعدم وجود أي ترحيب عند صعوده. لم يرغبوا في معرفته.

وهذا ما ناسب رجلًا مثل **الرجل الرمادي**.

أمضى الساعة الأولى من الرحلة في فحص جميع المعدات وإعادة فحصها بشكل مهووس. لم يكن يثق بهؤلاء الروس ليأتمنهم على حياته، لذلك لم يثق بهم ليفحصوا بشكل صحيح الأجهزة التي سيحتاجها للحفاظ على حياته وإنجاز أهدافه خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة. بمجرد أن اطمأن إلى أن كل شيء يعمل على ما يرام، عاد للجلوس على المقعد وحاول الاسترخاء.

سرعان ما شرد ذهن **كورت** بعيداً عن المهمة. شعر برغبة في تناول مسكن للألم، رغم أنه لم يكن يشعر بأي ألم. كان مستوى الأدرينالين لديه مرتفعًا، وهو ما يحدث دائمًا عندما يكون على وشك القيام بمثل هذه الأمور، لكنه مع ذلك، كان يفكر، ويقلق، ويجزع الآن أكثر مما كان عليه في بداية مسيرته المهنية.

لقد كان يومًا ما آلة تعمل بكفاءة عالية، في أيام عمله مع **SAD** وقبلها. بطريقة ما، تمكنت تلك المرأة الكندية من التسلل إلى داخله. كان يعلم أنه من الأفضل عدم الدخول معها في حديث، أو محاولة تبرير نفسه لها، ولكن كان هناك شيء فيها أثار حفيظته بطرق إيجابية وسلبية على حد سواء. لن يعترف أبدًا باحترامه لها — فمجال عملها وتقواها المصطنعة أمران لم يوافق عليهما إطلاقًا — لكنه لم يقابل الكثير من الأشخاص الحقيقيين في هذا العالم المظلم، في الجانب المعتم. وعلى الرغم من أنها كانت على الأرجح حمقاء محبة للأشجار ، تفعل الخير، وممن يرددون أغاني "نحن العالم" وتدافع عن الدلافين، إلا أنها كانت على الأقل حمقاء واجهت أخطار العالم الحقيقية وجهًا لوجه.

بدأت الطائرة هبوطًا حادًا، مما دفع معدته إلى الارتفاع نحو صدره، ففك **كورت** حزام الأمان.

لقد أثارت **إلين والش** بعض مكامن ضعفه خلال اليوم الذي قضياه معًا، وعلى الرغم من أن هذه المرأة كانت على الأرجح تعد الآن لائحة اتهام وتفتح تحقيقًا وتكرس كل طاقاتها لتعقبه ورؤيته يُلقى به في سجن ما، لم يستطع **كورت** أن ينكر أنه لا يريد رؤيتها مرة أخرى.

هز رأسه" .**تبًا يا رجل، استفق من هذا"**.

استوت طائرة الأنتونوف بسرعة، مما تسببفي اضطراب معدة **كورت** في الاتجاه المعاكس. ومع صوت أزيز معدني، انفتح باب التحميل الخلفي خلفه. ظهرت سماء الليل الباردة خلف أضواء المقصورة الحمراء. كان دوي الهواء مسموعًا، وبصوت عالٍ ومؤلم، لكنه بالكاد كان محسوسًا، حيث حافظت الديناميكا الهوائية للطائرة على بقاء الرياح خارج المقصورة.

نعم، لقد كان يومًا ما آلة تعمل بكفاءة عالية.

وقف **كورت**، وتحسس بصعوبة المعدات المربوطة بجسده، وبدأ يتحرك ببطء نحو ظلمة الليل.

كان لا يزال آلة، هكذا أخبر نفسه، وكان يصدق ذلك. كان يعرف ذلك. كل مافي الأمر أنه أصبح آلة تحتاج إلى قليل من الزيت أكثر من الأيام الخوالي.

أعطى **الرجل الرمادي** شدة سريعة لاختبار العتاد على صدره، وبين ركبتيه، وعلى ظهره، ثم سار ببطء على المنحدر، وسقطفي السماء السوداء.

كان هواء الليل باردًا هنا بالقرب من الساحل الشرقي للسودان؛ فالنسائم اللطيفة القادمة من المحيط كانت السبب في ذلك. ترتفع هذه المنطقة من **تلال البحر الأحمر**، وهي التكوين الطبوغرافي الشاذ غرب **بورتسودان** وشمال غرب **سواكن**، ألف قدم فوق منطقة الساحل، كتشوه صخري بني في منظر طبيعي مسطح.

بعد منتصف الليل بنصف ساعة، لم يكن هناك ضوء يسطع على سفوح التلال سوى خيط رفيع من ضوء القمر، ولم يكن هناك أي مصدر كهربائي على بعد عشرات الأميال في أي اتجاه، لكن هذه التلال لم تكن غير مأهولة. عاش هنا **البجا** و**الرشايدة** .كانوا يرعون الماعز أو يديرون مزارع صغيرة على الهضاب، ويتاجرون في أسواق **بورتسودان** أو **سواكن**، ويعيشون على زراعة الكفاف حيثما أمكنهم ذلك، معتمدين على الأرض القاحلة، ويبذلون قصارى جهدهم للابتعاد عن طريق العرب، القبائل التي كانت تملك السلطة وتقود حكومة السودان.

كان هناك ذهب في هذه التلال ذات يوم. منذ العصور الفرعونية، كان يتم البحث عن خام الذهب وتعدينه ونقله برًا إلى **الإسكندرية** و**القاهرة** .لقد نضب تعدين المعادن الثمينة في

المنطقة تقريبًا، لكن الجبس وخام الحديد والحجر الجيري ما زالوا يُستخرجون من الصخور ويُرسلون إلى أماكن تحتاج بالفعل إلى المواد الخام المستخدمة في بناء المدن والمباني.

بالتأكيد لم تكن هناك حاجة إليها هنا.

اندلعت حرب قبل بضع سنوات. وكما هو الحال في الحرب في **جنوب السودان** والحربفي **دارفور**، حاولت قبائل الأقلية الشرقية ذات مرة التخلص من نير القمع. كانوا سيئي التنظيم، ومعدومي التمويل تقريبًا، وتم إخضاعهم بالقوة في صراع لم يصبح أكثر من مجرد هامش بعد الصراعات الأهلية الأكبر والأشد ضراوة في الأطراف الأخرى من هذه الدولة الكبيرة.

الآن، على سفح تل بارد ومظلم وهادئ على الحافة الشرقية لهضبة تطل على السهل الساحلي المسطح الذي يمتد عشرين ميلًا إلى **بورتسودان** ثم إلى خط المياه نفسه، لم يكن هناك سوى ماعز نحيل، تركه رجال قبائل **البجا** دون رعاية أثناء الليل. كانت العديد من الحيوانات تنام واقفة، بينما كان القليل منها يمضغ العشب الأخضر بكسل.

ثغت عنزة من ماعز الساحل الرمادي بصوت عالٍ. تبعتها أخرى، ثم أخرى. وسرعان ما علت أصوات الماعز معًا في جوقة واحدة، ثم انقسم القطيع الصغير، وركض مبتعدًا عن المركز، تاركًا فجوة على سفح التل العشبي.

تحطمت حقيبة ظهر بنية كبيرة في المساحة الخالية، وارتدت، وتدحرجت أسفل التل، ساحبة خلفها حبلًا بطول خمسة وعشرين قدمًا.

وبعد ثانيتين، هبط رجل يرتدي ملابس داكنة على كلتا قدميه، وبدا أنه يستعيد توازنه بعد انزلاق قصير، لكن المظلة فوق رأسه تشوهت ثم أعادت تشكيل نفسها أمامه، وسحبتها الرياح أسفل التل باتجاه الأراضي المنبسطة، مما أفقده توازنه. فقد ثبات قدميه على التل، وسقط إلى الأمام، وهو يشد ويسحب خيوط المظلة بينما كان يتدحرج.

استقر على بعد عشرين مترًا أسفل التل. انكمشت المظلة وتم سحبها، وتلاشى ثغاء الماعز، وعادت جماعته لتتجمع مرة أخرى وكأن هذا الاقتحام الغريب لم يحدث قط.

جلس **جنتري** على مؤخرته، واحتضن المظلة المرفرفة إلى صدره، ونظر حوله في الظلام.

"**اللعنة،** "قال بهدوء وكأنه لا يكلم أحدًا، ثم انحنى على مرفقه الأيسر وتقيأ على العشب الجاف.

بمجرد أن استجمع نفسه، ارتشف الماء من قربة في حقيبته، وبصقه لتنظيف فمه الحامض بشكل سطحي، نظر إلى البعيد. كان وجهه متجهًا شرقًا، وإلى الشمال الشرقي كان بإمكانه رؤية أضواء **بورتسودان**، على بعد حوالي عشرين ميلًا عبر السهل الساحلي. التفت إلى يمينه قليلًا، نحو الجنوب. كان يعلم أن **سواكن** تقع هناك في الظلام، على بعد خمسة وعشرين ميلًا منه الآن. كان بحاجة للوصول إلى هناك في أسرع وقت ممكن.

كان يود لو أنه كان هناك بالفعل، يستطلع المنطقة، ويستخدم التضاريس الفعلية بدلاً من الخريطة لصقل خطته.

وقف **كورت**، وشعر بألم وكدمات وتيبس في أردافه اليسرى، لكنه تجاهل الأمر. كانت هناك مسكنات للألم في حقيبته. الكثير منها. لقد دسها في أعماق الحقيبة في معركة واهنة مع نفسه، راغبًا في الصمود لأطول فترة ممكنة دون تناولها.

نجحت المعركة في الوقت الحالي؛ لم يمزق الحقيبة ليبحث عنها. بدلًا من ذلك، وقف، وأمضى عدة دقائق بين الماعز النحيل، يخفي مظلته والحقائب الأخرى التي لم يعد بحاجة إليهافي الأعشاب التي تذروها الرياح والشجيرات المتناثرة على سفح التل. غير ملابسه، وارتدى سروالًا بسيطًا أزرق داكنًا وقميصًا أخضر داكنًا قصير الأكمام، كلاهما اشتراه في اليوم السابق من **الفاشر** .خطط لاستخدام غطائين .**الرشايدة**، وهم عرب أفتح بشرة وشائعون

في المنطقة، غالبًا ما يتجنبون الأرواب والعباءات الطويلة ويفضلون الملابس التقليدية الغربية. وإذا اضطر للاقتراب من أي شخص، كان يعلم أنه لن يصدقه أحد أنه من **الرشايدة؛** فلن يصدق أي متحدث أصلي للغة العربية إتقانه الضعيف للغة، وما كان يعرفه من العربية كان لهجة مختلفة تمامًا. لذلك كانت خطته هي تجنب الاتصال الوثيق إن أمكن، ولكن إذا لم يكن ذلك ممكنًا، فسيدعي أنه مسلم **بوسني** كان يدرس اللغة العربية في **مصر** لكنه قرر إتمام الحج، الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو الحج المطلوب من كل مسلم إلى **مكة** في **المملكة العربية السعودية** .لم تكن **سواكن** معروفة بالكثير، لكنها كانت معروفة، على الأقل بين مسلمي شرق إفريقيا، بأنها الميناء الذي يمكن فيه العثور على عبّارة تعبر البحر الأحمر إلى **جدة**، ومنها يمكن للمرء أن يشق طريقه إلى **مكة** .كان **كورت** قد اشترى سجادة صلاة بسيطة من سوق **الفاشر** لدعم هذه القصة.

ربما كان هذا أضعف غطاء هوية حاول **جنتري** استخدامه على الإطلاق، لأسباب كثيرة توقف **كورت** عن عدها. لم يكن يتحدث كلمة واحدة من اللغة الصربية الكرواتية، لغة **البوسنة** .لم يخترع سببًا جيداً، ولا حتى سببًا سيئًا، يجعل **بوسنيًا** يدرسفي **مصر** يحتاج إلى التسلل عبر الحدود السودانية للعثور على ممر إلى **المملكة العربية السعودية** .لن يكون قادرًا على تبرير حقيبة ظهره الكبيرة، وبالتأكيد ليس بندقية القنص والأشياء الغريبة الأخرى بداخلها، ولا المبلغ الضخم من المال في محفظته وحزام نقوده. لن يكون قادرًا على تحديد الطريق الذي سلكه إلى السودان أو حتى الحي الذي يفترض أنه يعيش فيه في **القاهرة**.

في أي استجواب حقيقي، سيتعين عليه أن يتظاهر بالغباء، والذي سيكون بوضوح أسهل جانب من جوانب هذا الغطاء بالنسبة له.

لا، هذه القصة الخاصة لن تنجح إلا في اللقاءات العابرة للغاية. إذا أوقفته الشرطة أو الجيش أو أي مسؤول حكومي أعلى رتبة من الرجال الذين يجمعون روث الجمال من الشوارع، فعلى

الرغم من قصة غطائه، سيبدو لهم شيئًا واحدًا فقط لا غير: قاتل كافر سقطفي بلادهم من السماء.

قبيل الساعة الواحدة صباحًا، حمل **الرجل الرمادي** حقيبته القماشية على ظهره وبدأ يسير أسفل التل.

بحلول الساعة الثامنة صباحًا، كان **كورت** جالسًا القرفصاء على كومة من القش مكدسة عاليًا على عربة حمار ذات عجلتين يجرها صبيان من **البجا** .كان الصبيان، بالكاد في سن المراهقة، بشعرهما الأفريقي الكثيف والفوضوي، ويرتديان ملابس متطابقة من سراويل بيج فضفاضة وسترات بنية، وبشرتهما بلون الشوكولاتة بالحليب محمرة تحت أشعة شمس الصباح التي لا تهدأ. روى لهما **كورت** قصة الحاج **البوسني**، وصدقاها، فأعطاهما بضعة جنيهات سودانية، فأخذاها. كانا متجهين إلى **سواكن** إلى منزل عمهما، لتسليم الحمار والقش، وعلى الرغم من أن وسيلة السفر هذه لم تكن أسرع من سير **كورت** على قدميه، إلا أنه بالتأكيد فضل هذه الوسيلة على المشي.

أخبر الصبيين أنه لا يريد أي مشاكل مع السلطات المحلية، كونه أجنبيًا، فاقترحا عليه، عبر كلمات عربية مشتركة وإيماءات، أن يدفن نفسه وحقيبته في القش إذا مرت سيارات أو اقتربت نقاط تفتيش. جعل الصبيان من الأمر لعبة، فاشترى لهما الغداء والشاي في كشك على جانب الطريق أُعد للمتوجهين إلى **سواكن** للحاق بعبّارة **جدة** .حتى أنه اشترى للحمار غداءه الخاص من الكشك، مطابقًا لما أكله البشر، وهو ما وجده الأطفال مضحكًا للغاية.

في فترة ما بعد الظهر، عندما ظهر خط ساحل البحر الأحمر في الأفق الضبابي، دفن **جنتري** نفسه عميقًا في القش وبقي هناك. حاول ألا يختنق من الغبار وتجنب التفكير كثيرًا في الإحساس المستمر بالزحف في سرواله وقميصه. زادت حركة المرور على الطريق بشكل

كبير: حافلات، عربات حمير وخيول، رجال يسيرون على الأقدام، وأحيانًا سيارة خاصة غريبة. حتى أن شاحنات نقل عسكرية مرت مرتين. كان **سيدورينكو** قد زود **جنتري** بقدر كبير من القراءات عن **سواكن** .تجاهل **كورت** معظمها، باستثناء خريطة؛ لم يبدُ المجلد الخاص بالمدينة الساحلية القديمة ذا صلة بمهمته. لكنه قرأ مقالًا موجزًا عن المدينة، وأذهله تاريخها الغني. فبالإضافة إلى شهرتها بعبّارتها اليومية إلى **جدة** في **المملكة العربية السعودية**، كانت **سواكن** تُعرف أيضًا بأنها آخر ميناء نشط لتجارة الرقيق في إفريقيا، ولم تتوقف حركة تجارة البشر فيها إلافي عام 1946. كانت **سواكن** مفتاح تجارة الرقيق في إفريقيا، سواء كان **المصريون** أو **العثمانيون** أو **البريطانيون** يسيطرون على المدينة. تم بناء العديد من المباني الكبيرة والجميلة في المدينة، وجميعها تقريبًا في حالة سيئة، لخدمة هذه الصناعة القاسية والمربحة.

كان يعلم أنه لا ينبغي أن يتوقع الكثير فيما يتعلق بالبنية التحتية هنا، ولكن الرئيس **عبود** كان يمتلك مزرعة قريبة وكان يستمتع بأداء أذان الفجر في الشرفة العالية لبرج المسجد الذي يطل على البحر الأحمر.

وهذا ما وضعها على خط سير رحلة **كورت جنتري**.

الفصل الثلاثون

مع حلول الظلام، وجد **الرجل الرمادي** نفسه شمال **سواكن** مباشرة، متأملاً مياه البحيرة الشاطئية. كان البحر الأحمر نفسه يقع على بعد ثلاثة أميال أو نحو ذلك إلى الشرق. هذا اللسان البحري الضيق كان يحمي الميناء الصغير وجعل الممر المائي طريق نقل طبيعيًا لقرون، حتى عام 1907، عندما جعل افتتاح **بورتسودان**، على بعد أربعين ميلاً إلى الشمال، **سواكن** بلا أهمية. كان **جنتري** لا يزال يرتدي ملابسه السودانية، ذات المظهر الغربي ولكنها ليست غريبة على الإطلاق هنا. ببشرته السمراء ولحيته وشعره الداكنين، ومع غبار وأوساخ يوم كامل من السفر، وطاقية صلاته البيضاء، كان يمكن أن يمر من بعيد وفي الليل على أنه عربي، ربما من قبيلة الرشايدة، إذا لم ينظر إليه أحد عن كثب. كانت قصة الغطاء كحاج بوسني جاهزة دائمًا لاستخدامها عند الضرورة، على الرغم من أنها لم تكن أكثر منطقية هنا مما كانت عليه على بعد عشرين ميلاً إلى الغرب.

كان قد خبأ حقيبته في عمق الصخور على بعد عشر ياردات من حافة المياه الدافئة. وجد فجوة تشبه الكهف المظلم في الصخور، وجعل منها نقطة تمركز مؤقتة.

لم يكن النسيم القادم من المحيط باردًا، لكنه كان هواءً متحركًا، وبالتأكيد أقل حرارة واختناقًا مما كان عليه في **الفاشر** أو خلال ساعاته الست على عربة الحمار. مقارنة بمعظم الساعات الست والتسعين الماضية، كانت تيارات الهواء المستمرة القادمة من الماء هنا في الظل الداكن للصخور أشبه بلمسة امرأة ناعمة، وإن لم يكن لدى **كورت** خبرة كبيرة في ذلك في السنوات العديدة الماضية. استلقى على ظهره، وترك عقله يشرد، وترك قدميه الحافيتين تتدليان في بركة من مياه البحر بينما كان رأسه يستريح على حذائه، وتمنى لو كان لديه مسكن للألم ليساعده على الاسترخاء للمرة الأخيرة قبل أحداث ومخاطر صباح الغد.

لكن لم يكن لديه وقت للاسترخاء الآن؛ كان عليه الاتصال بـ**زاك**، وكان بحاجة لمقابلته للحصول على بعض المعدات التي سيحتاجها في صباح اليوم التالي. كان عليه أيضًا أن يلتقي بـ**محمد**، الشرطي في **سواكن** الذي كان على كشوف رواتب المخابرات الروسية.

أخرج هاتف الثريا، وضغط على بضعة أزرار، ثم انتظر.

"**هل أنت هنا؟** "كان **زاك** مركزًا تمامًا على المهمة الآن. كان لا يزال غاضبًا من **كورت** بسبب ما حدث في دارفور، وقد اختفت المزاحات الرجولية التي طبعت محادثاتهما السابقة تمامًا.

"**نعم**".

"**لنتقابل في "إيكو" بعد خمسة وأربعين دقيقة**".

"**مفهوم. "إيكو" بعد خمس وأربعين دقيقة**".

"**واحد، انتهى**".

كانت **إيكو** هي الاسم الرمزي لمبنى وزارة المالية المتهدم في **سواكن** القديمة، وهي جزيرة من المباني المحطمة من المرجان والحجر متصلة بجسر بري بـ**الجيف**، أو مدينة **سواكن** الجديدة، التي تقع على شاطئ البر الرئيسي. تجاهل **كورت** الجسر؛ وبدلاً من ذلك، وضع حذاءه وسرواله ومسدسه في حقيبة ظهر صغيرة، وعلقها حول رقبته، ثم سبح عبر البحيرة عند أضيق نقطة فيها، ولم يستغرق العبور أكثر من خمس دقائق. كانت قناة البحيرة على الجانب الآخر من الجزيرة أعمق وأوسع. كان بإمكانه رؤيتها في الأفق تحت ضوء سجن كبير ولكن يبدو عتيقًا على الشاطئ البعيد. كانت عدة قوارب صيد خشبية صغيرة راسية في الماء بالقرب من الجسر؛ وعلى مسافة أبعد، كانت يخوت ترفيهية راسية في المياه السوداء، ومولداتها

تضيء مقدماتها وأشرعتها، وتشغل أجهزة ستيريو تصدح منها موسيقى غربية صاخبة، ولا شك أنها توفر الكهرباء لمطابخ على متنها أكثر حداثة من أي شيء في المدينة المظلمة التي تقع خارج مدى أضواء صواريها.

على جزيرة **سواكن** القديمة المتهدمة نفسها، غمره الظلام، باستثناء إضاءة خافتة من هلال القمر. حطام مباني الحجر المرجاني القديمة، التي شيدت في القرن الثاني عشر، عندما كان هذا ميناءً رئيسيًا في شمال أفريقيا، قد تدهور إلى أكوام من الركام تحت جدران مهيبة، وسلالم لا تؤدي إلى أي مكان، وأروقة وأعمدة ملكية بجانب شجيرات متضخمة وطرق من التراب والحجر المكسور. كان السكان البشر الوحيدون في الجزيرة هم عدد قليل من الحراس في أكواخ خشبية على الجانب البعيد. أما بقية السكان فكانوا من ذوات الأربع. كاد **كورت** أن يحاط بالقطط قبل أن يقطع خمسين قدمًا داخل الجزيرة. اتبع مسارًا صاعدًا لتل، وبقي منخفضًا في الظلام حتى لا يُرى، وتبعته القطط من جميع الجوانب. لكنها كانت هادئة ومتخفية مثله؛ باستثناء خرخرة مدوية من حين لآخر، لم تكشف عن حركة هذا الموكب الغريب. بعد خمسين ياردة أخرى، اقترب **جنتري** من مبنى الخزانة القديم بحذر وسمع ضجيجًا في الأدغال أكبر من أن يكون أصوات أقدام قطط. سحب مسدس غلوك 19 مزودًا بكاتم للصوت من حقيبته، ليجد نفسه يحدق عبر منظاره في جمل جاثم يمضغ طعامه بكسل وينظر إليه بدوره.

أعاد **كورت** سلاحه إلى جرابه وراقب المبنى من بين عمودين مرجانيين كبيرين ساقطين، وأذناه متيقظتان لأي ضوضاء غير الموسيقى القادمة من القوارب في الأفق، والجمل خلفه، والقطط من حوله. بعد فترة قصيرة، أومض مصباح قلم مرتين من الطابق الثاني للمبنى، فنهض **جنتري** واقترب عبر طريق ترابي ضيق.

لم يكن المبنى أكثر من واجهة من طابقين، ودرج حلزوني في إحدى الزوايا، ومئتي قدم مربعة من الأرضية في الطابق الثاني. كل شيء آخر —— السقف، الجدران الجانبية والخلفية، بقية

الطابق الثاني ـــــ كان كومة ضخمة من الحجارة والخشب القديم مكدسة حيث كان ينبغي أن يكون الطابق الأول. عند أسفل الدرج، رأى **كورت** "سييرا اثنان"، الرجل الثاني في قيادة **زاك** .كان **براد**، الأكبر سنًا في فريق **ويسكي سييرا**، يرتدي لحية يختلط فيها الشيب بالسواد ويرتدي زيًا محليًا: عمامة بيضاء على رأسه، وبندقية كلاشينكوف في ذراعيه.

أومأ "سييرا اثنان" برأسه، دون أي ود في التحية. قال**" :اصعد".**

بدت الدرجات الحجرية مستقرة بما فيه الكفاية، لكن **كورت** رأى دليلاً في كل مكان على أن هذا الهيكل لم يتم بناؤه ليدوم. صعد بحذر على الدرج، ووجد **زاك هايتاور** في الأعلى في الركن الجنوبي الغربي من الطابق الثاني، وهو الركن الوحيد في الطابق الثاني من المبنى الذي له أرضية. جلس **زاك** متربعًا في الظلال، يرتدي ملابس وسلاحًا مشابهًا لـ"سييرا اثنان". كان قد أطلق لحية قصيرة في الأيام الثمانية الماضية ولكن بخلاف ذلك بدا كما كان في سانت بطرسبرغ.

جلس **جنتري** بجانبه، وتجولت عدة قطط حولهما. تزحزح **زاك** إلى الخلف أكثر في الظلام، وتبعه **كورت**، حتى لم يعد بإمكانهما رؤية بعضهما البعض.

"أنت لست مبتلاً"، لاحظ **كورت.**

"أخذنا قارب زودياك من اليخت، ودخلنا من الجانب المظلم للبحيرة. سفينة هانا راسية على بعد خمسة عشر كيلومترًا شمال شرق"، قال **زاك.**

"في المياه السودانية؟"

"نعم. صعد على متننا زورق دورية وتم تفتيشنا بشكل سطحي. يعتقدون أننا أستراليون نبحر على طول ساحل أفريقيا، ننتظر وصول قطعة غيار للمحرك يتم شحنها عبر DHL إلى بورتسودان. أعطيناهم بيرة وسجائر وصادقناهم".

رفع **كورت** قطة سوداء عن ساقه، وأرسلها في طريقها برمية لطيفة نحو الدرج.

"هل دخلت المدينة بعد؟ "سأل **زاك** وهو يقرب مؤخرته من **كورت** على الأرضية المتهدمة للمبنى القديم حتى يتمكن من التحدث بصوت أخفض. كانت أصواتهم تنتشر بشكل خادع في الليل.

"سلبي. وأنت؟"

أومأ **زاك** برأسه. استطاع **كورت** بالكاد رؤية طرف ذقنه يرتفع وينخفض" .**بؤرة جحيم عفنة . وأنا أعرف بؤر الجحيم حينما أراها . لها طابع الغرب الأمريكي القديم. الطاقة الوحيدة في المدينة تأتي من المولدات. هناك سطح معبد واحد في المدينة. جميع الشوارع والأزقة الأخرى هي أرض صلبة، روث حمير، روث ماعز، وروث جمال في كل مكان تطأه قدمك. المباني مصنوعة من الحجر الجيري والمرجان المتصدع، مثل هذه الخردة هنا. لا يوجد هيكل في المدينة لا أستطيع أن أسويه بالأرض بحجر ونصف ساعة. ربما خمسة وسبعون بالمائة من المباني هي أكواخ صغيرة، مصنوعة من الأخشاب الطافية والصفيح وبراميل سعة خمسة وخمسين جالونًا صدئة".**

"إذًا، لا يوجد غطاء محصن عندما تندلع الفوضى"، قال **جنتري**، مكملاً نقطة **زاك** الواضحة.

"تبًا، إذا اندلعت الفوضى صباح الغد، ستسقط المباني فوقك من الموجات الصوتية ".هز **زاك** كتفيه. سمع **كورت** الحركة في الظلام، لكنه لم يستطع رؤيته في الظلال" .**وهو ما لن يكون سيئًا جدًا للسكان المحليين. هذا المكان بحاجة إلى بعض التجديد الحضري".**

"التواجد الشرطي؟"

"ضئيل خلال استطلاعنا. بضع بنادق كلاشينكوف صينية على رجال بملابس مدنية يقومون بدوريات. ثلاث أو أربع شاحنات صغيرة ومدفعان عمرهما مئة عام أمام مركز الشرطة".

"مدفعان؟"

"للزينة فقط".

أومأ **كورت** برأسه.

قال **زاك" :فقط لكي تعلم، محطة السودان لا تزال ترتعد خوفًا بسبب أفعالك في شمال دارفور.كأن الجميع يقول إن "سييرا ستة" قد تمرد؛ إنه ينفذ عمليته الخاصة على بعد أربعمائة ميل من هدفه. لقد أفسدت الأمر حقًا. لم أسمع منك لمدة ثلاثة أيام، وعندما فعلت أخيرًا، لم تقدم الكثير من التوضيحات لكل إطلاق النار هذا في الصحراء ".**نظر إلى **جنتري** منتظرًا ردًا.

"نعم"، اعترف كورت بتنهد" **.لقد أصبح الأمر غريبًا".**

هز **زاك** كتفيه" **.البيت الأبيض يضغط على ديني كارمايكل بشدة لمعرفة ما يجري. وأنا أشاركهم قلقهم".**

"لقد أخبرتك بما حدث".

"هذه المرأة من المحكمة الجنائية الدولية. الكندية. هل يمكنها التعرف عليك؟"

"إنها لا تعرف من أنا".

"هل ستسبب مشاكل؟"

"ربما لي، في المستقبل. ولكن ليس لهذه العملية".

"هل أنت متأكد من ذلك؟"

فكر **كورت** في الأمر وقال" :**نعم. أنا متأكد. إنها تعتقد أنني تجسيد الشر... لكنها تؤمن بأن مصالحنا تتوافق فيما يتعلق بما أفعله هنا".**

جلس **زاك** هناك في الظلام لفترة طويلة. بدا أنه ترك الأمر، وإن كان ببطء" .**غدًا في السادسة والنصف صباحًا سيغادر عبود المنزل الذي يقيم فيه. إنها مسيرة عشر دقائق إلى المسجد. خمس دقائق إلى الساحة، ودقيقة أخرى ليصل مباشرة أمام مبنى البنك. سيهاجم جيش تحرير السودان (SLA) الساحة من الشمال في السادسة وست وثلاثين دقيقة بالضبط".**

"هل لديهم ساعات؟"

"محطة السودان تقول إن لديهم".

"ويسكي سييرا ليست على اتصال مباشر بالمتمردين؟"

"سلبي. لدى محطة السودان ضابط حالة في المدينة؛ هو الذي يدير جيش تحرير السودان ".هز كتفيه. كانت إيماءة تعني "ماذا عساك أن تفعل؟" ."**أحتاج أن تكون في موقعك في البنك عندما تندلع الفوضى".**

"مفهوم".

"عندما تخطف أوريكس، خذه بناية واحدة جنوبًا وثماني بنايات غربًا من خلف البنك. هناك سيارة سيدان سكودا أوكتافيا سوداء بأربعة أبواب في موقف سيارات مصنع طوب.

وضعتها محطة السودان هناك، ودفعت لأحد مشغلي الأفران لقضاء الليلة على غطاء المحرك لمراقبتها. ها هي المفاتيح".

أخذها **كورت** .سأل" :**أين ستكونون بين الآن ووقت التنفيذ؟"**

"أنا وبراد وميلو ودان سنبقى على متن هانا. سنكون في مواقعنا صباح الغد".

"أين "سييرا خمسة"؟"

"سبنسر موجود بالفعل في المدينة. هو وضابط الحالة من محطة السودان يقيمان في فندق يسمى قصر سواكن. يؤكد لي سبنسر أنه ليس قصرًا على الإطلاق. لكن ما هو عليه، هو موقع مراقبة جيد في الطابق الثالث يطل على الساحة. سيغادر ضابط الحالة الليلة ليبتعد عن الطريق، لكن سبنسر سيبقى هناك، ليكون عيننا".

"هذا جيد ".تفاجأ **كورت** بسرور بوجود مجموعة أخرى من العيون في موقع الهدف في الصباح، على الرغم من أنه تفاجأ أيضًا بأن **زاك** يريد أحد رجاله قريبًا جدًا من الأحداث. لم يضغط على حظه الجيد بالسؤال عن ذلك. بدلاً من ذلك، استجوب **هايتاور** عن المتمردين" .**هل جيش تحرير السودان في موقعه ومستعد للانطلاق؟"**

هز **زاك** كتفيه" .**من الأفضل أن يكونوا كذلك. دفعت محطة السودان أربعمائة ألف دولار لتأمين مشاركتهم. هناك خمسة وثلاثون متمردًا سيهاجمون من الشمال بأمرنا صباح الغد".**

"خمسة وثلاثون؟"

أومأ **زاك** برأسه.

"ماذا حدث للمئة؟"

كان **هايتاور** قد وعد **كورت**، عندما كان يحاول إقناعه بالموافقة على العملية، بأن قوة من المتمردين قوامها مئة رجل ستبقي أمن **عبود** والشرطة المحلية مشغولين. لكن **زاك** لم يظهر أي ندم في شرح التناقض. لقد لوح بيده فقط، وكأنه أمر بسيط" .**كان ذلك سيكون مبالغة في القوة. بضع شاحنات في الساحة، وبضع شاحنات أخرى في مركز الشرطة، وبضع شاحنات أخرى على الطريق المؤدي إلى المدينة. نحن نعلم أنه إذا كان فريق أمن عبود الشخصي قريبًا بما فيه الكفاية من البنك عند وقوع الهجوم، فإنهم سيدفعونه إلى داخل البنك، بغض النظر عن حجم إطلاق النار. لا نريد أو نحتاج إلى معركة كبرى. خمسة وثلاثون متمردًا هو العدد المثالي"**.

"يبدو أن أحدهم أقنعك بذلك، والآن تحاول إقناعي به".

ابتسم **زاك** قليلاً، وهي المرة الأولى التي يكون فيها أي شيء سوى الغضب الشديد تجاه **كورت** منذ محادثتهما عبر الهاتف الفضائي عندما كان يطير إلى **الفاشر**، قبل أربعة أيام. بعد تفكير لثانية، رفع يديه مستسلمًا" .**نعم. أخبرتني محطة السودان بمئة متمرد. ثم أخبروني بخمسة وثلاثين. كان تفسيرهم تمامًا كما قلت. إنه منطقي، خاصة بعد النظر إلى مخطط المدينة، لكني بالتأكيد لا أحب التخطيط لعملية تحت مجموعة من الافتراضات ثم تنفيذها تحت مجموعة أخرى من الافتراضات"**.

أومأ **كورت** برأسه في الظلام" .**لكنك لا تزال تريد المضي قدمًا؟"**

"بالتأكيد"، قال "سييرا واحد" دون تردد" .**نحن بخير"**.

جاء أذان المساء من مئذنة المسجد إلى الغرب. إذا سار كل شيء وفقًا للخطة، فسيكون **كورت** على بعد بضع بنايات من ذلك المسجد بالذات غدًا قبل شروق الشمس. نظر إلى **زاك" .هل لديك الأغراض لي؟"**

استخدم **زاك** إبهامه للضغط على زر إرسال لاسلكي مثبت على جانب سبابة قفازه. تحدث في سماعة رأس صغيرة مائلة حول خده الأيمن" .**براد، أحضر الحقيبة".**

ظهر "سييرا اثنان" في أعلى الدرج بعد بضع ثوانٍ. كانت حقيبة الظهر بالحجم الذي توقعه **كورت** تقريبًا، نفس حجم حقيبته الأخرى، المخزنة عند حافة الماء على بعد ثلاثمائة ياردة شمال هذا الموقع.

"أنا بحاجة إلى حمال لعين".

"يا رجل، أنت تدير عمليتين رسميًا؛ لذلك تحتاج إلى مجموعتين من المعدات".

بعد ذلك، سلم **زاك** صندوقًا بلاستيكيًا صغيرًا، وفتحه **كورت** .كان نظام راديو C4OPS ، وهو نفس النظام الذي سيستخدمه فريق **ويسكي سييرا** في صباح اليوم التالي. كانت تقنية جديدة، وتحتوي على كل شيء تقريبًا. راديو، وGPS ، وأزرار PTT لاسلكية للتثبيت على قفاز أو سلاح، وسماعات أذن توفر أيضًا تقليلًا للضوضاء أثناء إطلاق النار، وسماعة رأس بميكروفون سري غير مرئي تقريبًا عند ارتدائه على وجه ملتحٍ. كان **زاك** قد أعطاه لمحة موجزة عن نظام C4OPS في سانت بطرسبرغ، ولكن قبل ذلك لم يسمع به **كورت** من قبل.

"كيف هو التشفير؟ هل هناك أي فرصة لأن يلتقط الخصم الإرسالات؟"

"سأريك ".شغل **زاك** الجهاز، وضغط على زر الإرسال اللاسلكي. تحدث في الميكروفون بهمس" .**مساء الخير يا كل النحفاء وأصحاب العمائم. اسمي زاكاري بول هايتاور. رقم ضماني الاجتماعي هو 413ـ555ـ1287. الرئيس عبود يمص قضبان الجمال".**

كان "سييرا اثنان" في أعلى الدرج. استدار إلى **هايتاور"** **.هذا رقم ضماني الاجتماعي"**.

ابتسم **زاك** .هز كتفيه" **.حقًا؟ خطئي يا برادلي** ".استدار إلى **كورت"** **.يمكنك الاستماع إلى إرسالاتنا على هذا. فقط لكي تعرف ما يجري من جانبنا. لكني لا أريدك أن تشغل الشبكة. لا ترسل. إذا كنت بحاجة إلى التحدث معي، فاستخدم الثريا. سأبقيه مفتوحًا في جميع الأوقات، وموصولاً بسماعة رأسي، حتى لو كنا في اشتباك عنيف"**.

"لماذا قد تكونون في اشتباك عنيف؟ ظننت أنكم ستكونون بعيدين عن الطريق حتى نلتقي في المستنقع".

"يا صاح، تحدث المصائب. إذا ساءت الأمور، من يدري ما الذي سيحدث؟ نحن جميعًا مستعدون للنزول إلى الشاطئ للدعم إذا تطلب الوضع ذلك. لدى محطة السودان شاحنة صغيرة جاهزة لنا إذا احتجنا إلى التحرك إلى المدينة في الصباح. كما أحضروا لنا ملابس محلية. أحضرنا معدات مستعملة. لن ندخل بكل المعدات الأمريكية، لضمان إمكانية الإنكار[12]. لدينا أسلحة من ألمانيا وروسيا، وأحذية من كرواتيا، وحقائب من الصين، ودروع واقية من أستراليا".

تفاجأ **كورت** بوجود الكثير من التحضيرات لفريق **ويسكي سييرا** ليكونوا مستعدين للدخول في القتال، لكن مر وقت طويل منذ أن كان جزءًا من عملية كبيرة. كعميل منفرد، كان عادةً يرتب كل المعدات والخدمات اللوجستية بنفسه.

انحنى **زاك** إلى الأمام في ضوء القمر الخافت. مد يدًا مقفزة في الظلام، وصافحه **كورت**.

[12] هو مبدأ في العمليات السرية والاستخباراتية يهدف إلى خلق مسافة كافية بين صانعي القرار (مثل القادة السياسيين أو رؤساء الوكالات) وبين العمليات المنفذة، بحيث يمكنهم إنكار معرفتهم بها أو مسؤوليتهم عنها بشكل معقول ومقنع إذا تم كشف العملية.

"حظًا سعيدًا غدًا. سأراك، وأوريكس، عند الانتهاء. سنحتفل كنجوم الروك على متن هانا بمجرد انسحابنا".

"تبدو خطة جيدة. لكن أولاً ما رأيكم يا رفاق أن تقلوني عبر البحيرة".

"لا مشكلة".

بحث **كورت** في وجه وجسد **هايتاور** عن أي علامات للخداع. رأى قلقًا، وتوترًا بشأن العملية نفسها، لكن لم يكن في لغة جسده ما يعطي **كورت** أي سبب للشك في وجود خداع. أراحه أن يعرف أن "سييرا واحد" لا يبدو أنه يعمل على هدف مختلف في هذه العملية.

الفصل الحادي والثلاثون

في العاشرة من مساء ذلك اليوم، وقف **جنتري** عند زاوية أحد الشوارع، على بعد بضعة مبانٍ غرب المكان الذي أنزله فيه قارب **زاك** المطاطي من طراز زودياك الذي يتسع لستة رجال. كان يقف متواريًا في الظلام، لكن العديد من رجال المنطقة مروا على بعد أقدام منه. نظر إليه بعضهم بفضول، ولكن دون شك أو خوف. من خلال معلومات **سيد** عن المدينة، كان قد علم أنه غالبًا ما يُسمح لركاب وأطقم المراكب الشراعية واليخوت الغربية التي ترسو في الميناء بالتسوق أو تناول الطعام في المدينة، طالما أنهم يدفعون ثمن هذا الامتياز ولا توجد في جوازات سفرهم أختام دخول إسرائيلية. خمّن **كورت** أن رؤية البيض كانت أمرًا نادرًا ولكن ليس غريبًا تمامًا، لذلك، حتى لو أثار لون بشرته بعض الدهشة، لم يكن هناك سبب كبير للقلق من أنه سيثير أي إنذار.

توقفت سيارة مرسيدس سيدان بيضاء قديمة عند الزاوية. بقيت متوقفة ومحركها يعمل، وكان محركها سيئ الضبط يسعل في هواء الليل بينما كان السائق ينتظر. لا بد أن هذا هو **محمد**، الشرطي المحلي الذي يعمل لحساب المخابرات الروسية. لم يخرج **كورت** من ظله في البداية؛ بل بحث عن أي دليل على أن السيارة كانت متبوعة. في النهاية، قرر أنه ما لم تكن تتبعها عربة يجرها حمار وتحمل برميل ماء سعته خمسة وخمسون جالونًا، فهو في أمان. لم تكن هناك أي مركبات أخرى في الأفق.

صعد **كورت** إلى مقعد الراكب، وانطلقت السيارة في الشوارع المتربة والمظلمة.

كان وجه السائق خاليًا من التعابير، جامدًا. شعر **جنتري** أنه حتى لو كان هناك ضوء داخل السيارة، حتى لو سُلّط أكبر وأسطع مصباح من أكبر ملعب كرة قدم في الولايات المتحدة على

وجه هذا الرجل العقيقي، لما كشف عن تفاصيل أكثر مما يمكن لـ**كورت** تمييزه الآن هنا في الظلام.

تحدث الشرطي أولاً باللغة الإنجليزية. كان صوته منخفضًا وأجشًا.

"هل أنت روسي؟"

هذا الرجل كان يعمل لصالح الروس؛ لم يكن هناك سبب لإرباكه.

"هذا صحيح".

"جيد. أخبر جماعتك أنني أريد المزيد من المال".

"أنا لست ضابط اتصالك. أخبرهم بنفسك".

لم يتحرك من الرجل سوى شفتيه. لقد رأى **كورت** آلات بيع ذاتية تتمتع بحيوية أكثر من هذا المخبر" .**أنا في وضع خطير بمقابلتي لك، وبمساعدة جهاز الأمن الفيدرالي الروسي (FSB) في هذا الأمر. الوضع الآن أخطر بكثير مما كان عليه عندما وافقت. أريد المزيد من المال قبل أن أستمر".**

لم يقتنع **كورت** بذلك. من واقع خبرة **جنتري**، كانت القاعدة وليست الاستثناء أن يطلب المخبر المزيد من المال في اللحظة الأخيرة. غالبًا ما يصرون على أن الأمور أصبحت أكثر تعقيداً كوسيلة لتحقيق هذه الغاية. بقدر ما يهم **كورت**، فإن الاستخدام الرئيسي لهذا الرجل كان يتمثل في نقله من **الخرطوم** إلى **سواكن**، وبما أن **كورت** لم يكن بحاجة إلى هذه الخدمة بالذات، فإنه لم يكن يبالي حقًا ما إذا كان **سيد** أو الـ FSB قد دفعوا للرجل أم لا. ومع ذلك، فقد جاء الليلة ليرى ما إذا كان هذا الشرطي يمكن أن يكون له أي فائدة على الإطلاق.

بدا بالفعل أن هذا الرجل لا يستحق العناء.

"ليس معي أي مال ".كانت كذبة، لكن **كورت** لم يكن يرغب في إنفاق مخزونه من النقود

على هذا الوغد" .**إذا كانت لديك معلومات قيمة بالنسبة لي، سأخبر رؤسائي بأنك كنت مفيدًا".**

أوقف الرجل ذو الوجه الحجري السيارة على جانب الطريق. كان الظلام دامسًا من جميع جوانب السيارة، وسلطت المصابيح الأمامية ضوءها على سحابة الغبار التي أثارتها إطارات السيارة. نظر **محمد** في عيني **كورت** .تمنى **كورت** أن يبدو مظلمًا ومُهدِدًا مثل هذا الأحمق .

"هذا لا يكفي".

"إذًا، أعتقد أننا انتهينا. سأخبر الـ FSB أنك غيرت رأيك. أنا متأكد من أنك ستسمع منهم قريبًا ".تظاهر **كورت** بأنه على وشك الخروج، لكنه كان يعرف ما هو قادم.

"انتظر".

استقر **كورت** مرة أخرى في مقعده الجلدي المتشقق. غاص مسدسه في وركه الأيمن وهو يفعل ذلك.

"هناك تطورات جديدة في سواكن".

اعتقد **كورت** أنه على وشك سماع خطبة أخرى حول الخطر لتبرير رغبة **محمد** في المزيد من المال. تنهد، لكن تعليق المخبر التالي لفت انتباهه.

"كنت أعتقد أن عبود سيصل فقط مع حراسه الأمنيين المعتادين. حوالي خمسة وعشرين رجلاً أو نحو ذلك. عادة عندما يأتي، هذا كل ما في الأمر. نعم، هناك دائمًا المزيد في بورتسودان —— يبقون مع طائرته الهليكوبتر —— ولكن عندما يأتي إلى سواكن، عادة ما يكونون فقط الحراس الخمسة والعشرين".

"إذًا... ما المختلف هذه المرة؟"

"جهاز الأمن والمخابرات الوطني (NSS) وصل بعد ظهر اليوم".

"الشرطة السرية هنا؟"

"صحيح".

"كم عددهم؟ "نظر **كورت** إلى يديه. أخذ ينكأ أظافره.

"رأيت خمسة رجال ".ثم قال الرجل في الظل، وكأنها فكرة طارئة" :**ولكن هناك الكثير من الجيش في المدينة أيضًا. عليك أن تحذر منهم".**

"ماذا تقصد بالكثير؟"

"سرية، على الأقل. مشاة".

هذا جعل **جنتري** يرفع نظره إلى السائق مرة أخرى" .**هل لديك فكرة عن السبب؟"**

"يقولون إن مجموعة من المتمردين قد تم تعقبها إلى مزرعة خارج المدينة".

في لحظة، أدرك **كورت** أن عملية وكالة المخابرات المركزية (CIA) قد كُشفت.
"متمردون؟"

"نعم. جيش تحرير السودان .(SLA) هذا غريب. لم ينشطوا من قبل في هذا المكان البعيد شرقًا".

"هل لديك فكرة عن عدد أفراد جيش تحرير السودان؟"

لوّح بذراعه، وهي إيماءته الأولى" .**ليسوا كُثُر. مجرد اثني عشر رجلاً أو نحو ذلك".**

اثنا عشر رجلاً. كان **زاك** قد وعد في البداية بمئة، ثم خفض العدد إلى خمسة وثلاثين. والآن، كانت أدق المعلومات التي لديه حول هذا الموضوع هي أن العدد الحقيقي هو اثنا عشر. لم يلم **زاك**؛ فمن المؤكد لو أن **سييرا واحد** علم أن مقاتليه بالوكالة قوة عاجزة إلى هذا الحد، لما كان مضى قدمًا في العملية. لا، لقد رأى **كورت** هذا النوع من الحسابات المتدهورة من قبل. لقد ألقى باللوم على مكتب الـ CIA المحلي، محطة السودان، على الوعود المبالغ فيها والتنفيذ الضعيف. ربما لم يكن هناك مئة من مقاتلي جيش تحرير السودان في **سواكن** أبدًا؛ كان خمسة وثلاثون هو أفضل تخميناتهم، والآن اتضح أن أفضل تخمينات محطة السودان كانت سيئة للغاية.

اثنا عشر من مقاتلي جيش تحرير السودان، مكشوفون بالفعل للسلطات المحلية، لن يخدعوا أحدًا. إذا مضت محاولة اختطاف الرئيس قدمًا الآن، فإن الجيش سيسحق تلك القوة الصغيرة البائسة من المتمردين في غضون دقائق.

لا يزال بإمكان **كورت** اغتيال الرئيس لصالح **جريج سيدورينكو**، لكن اختطافه لصالح الـ CIA كان أمرًا مستحيلًا بدون هجوم المتمردين. كان من الواضح لـ**جنتري** الآن أن مهمة **زاك** سيتم إلغاؤها.

"لذلك أريد المزيد من المال لمساعدتك غدًا".

كان **كورت** بحاجة إلى التحدث إلى **زاك** قبل أن يعرف حتى ما إذا كانت ستكون هناك عملية غدًا. لكنه أدرك الآن أنه قد يحتاج إلى مساعدة **محمد** في الخروج من المنطقة. إذا كانت عملية "نوكتورن سافاير" قد فشلت، فقد ترغب الـCIA في أن يقوم بمهمة **سيد** وينسحب كما هو مخطط له عبر اتصالات الـFSB.

"لدي ألفا يورو".

"أريد عشرة".

توقف **كورت** للحظة. لم يكن ماله، ولم يكن يهمه المبلغ الذي سيتقاضاه هذا الرجل، لكنه كان يساوم على شيء أو آخر في العالم الثالث طوال الخمسة عشر عامًا الماضية، وكان يعرف ما يفعله. أومأ برأسه" .**ثلاثة الآن، وثلاثة بعد ذلك** "**.**ستة آلاف كانت على الأرجح ثلاثة أضعاف ما يكسبه هذا الوغد المخيف في عام. بافتراض أن الروس قد وافقوا بالفعل على دفع هذا المبلغ أو أكثر له، فإن هذا المهرج كان يجني مبلغًا كبيرًا من المال.

نظر **محمد** إلى **جنتري** طويلًا. أخيرًا، أعاد السيارة إلى الشارع وبدأ في القيادة" .**موافق"**.

ناقش هو و**كورت** الترتيبات لعدة دقائق بينما كانت المرسيدس تتحرك ببطء في أنحاء المدينة. حاول **كورت** استطلاع المكان أثناء حديثهما بالنظر من النوافذ القذرة، لكنه لم يستطع فهم أي شيء من الشوارع المربكة والأزقة الترابية.

أخيرًا، توقف **محمد** مرة أخرى. تفاجأ **كورت** عندما وجد نفسه في نفس المكان الذي أقله منه قبل نصف ساعة. قال الشرطي" :**صباح الغد سأكون في الموقع المتفق عليه في الوقت المتفق عليه. سآخذك إلى منزل في الخرطوم حيث يمكنك الانتظار حتى يصبح الذهاب إلى المطار آمنًا"**.

أدخل **جنتري** يده في جيبه الأمامي وأخرج لفافة من اليوروهات مغطاة بشريط مطاطي. كان مال **سيد** بالطبع؛ لم تمنحه الـ CIA أي نقود.

عاد **كورت** إلى مخبئه الليلي في الحادية عشرة. تأكد من عدم المساس بأي شيء في حقائبه، وفتح زجاجة ماء فاترة وشربها بالكامل. ثم التقط هاتف هيوز ثريا وأجرى مكالمة.

أجاب **زاك** بعد الرنة الثالثة" .**كنت أحاول الحصول على قسط من الراحة يا "ستة"، آمل أن يكون الأمر مهمًا** ".تحدث **هايتاور** بنعاس.

"عليك إلغاء عملية "نوكتورن سافاير". المتمردون مكشوفون".

عندما تحدث **هايتاور** مرة أخرى، كان مستيقظًا تمامًا" .**من قال ذلك؟"**

"مخبر الـ FSB يقول ذلك. إنه شرطي محلي. طاقم من جهاز الأمن الوطني وسرية من مشاة حكومة السودان موجودون في المدينة لأنه تم تعقب اثني عشر من مقاتلي جيش تحرير السودان إلى هنا".

"اثنا عشر؟"

"مؤكد".

"اثنا عشر. واحدـ اثنان مقاتل متمرد؟"

"معلوماته تبدو موثوقة".

صمت طويل" .**اللعنة على محطة السودان".**

"هذا ما أفكر فيه. إما أن الـ CIA المحليين بالغوا في تقدير قدرة جيش تحرير السودان على إدخال رجال إلى مسرح العمليات، أو"ـــ

"أو أن جيش تحرير السودان كذب، وتلاعب بالأرقام للحصول على راتب من العم سام. ثم يذهبون ويكشفون مؤخراتهم الهاوية"!

"أوغاد".

"مؤكد ".خرجت ضحكة **سييرا واحد** من هاتف **كورت"** .**لم أظن أنني سأقول هذا أبدًا، ولكن الحمد لله على وجود سيدورينكو ومصدره المحلي"**.

"نعم، أليس كذلك؟ كان يمكن أن يصبح الأمر فوضويًا".

"دعني أتصل بـديني وأبلغه".

"أخبره أنك بحاجة للإلغاء".

"لنرى ما سيقوله".

"عاود الاتصال بي في أسرع وقت ممكن يا "واحد". لا يزال بإمكاني تنفيذ عملية اغتيال "أوريكس"؛ لن تمنعني المعارضة في المنطقة من ذلك".

"لنرى ما سيقوله ديني"، كرر **زاك**.

كان مخبأ **كورت** الليلي، من الناحية العملياتية على الأقل، موقعًا شبه مثالي لتخزين معداته والراحة ليلًا. مع فتح حقيبتي الظهر الكبيرتين وفرز المعدات ووضعها في موضع يسهل عليه الوصول إليها بسرعة، وجد صخرة دافئة كبيرة ومسطحة بما يكفي ليستلقي عليها. كان صوت أمواج البحيرة الشاطئية وهي تدغدغ صخور الشاطئ بلطف هادئًا وسيساعده على الراحة عندما يحين الوقت.

انتظر أكثر من ساعة لرد **زاك** .جاء الاتصال بعد منتصف الليل، تمامًا عندما أغمض **جنتري** عينيه وغفا.

كان قد وصل الهاتف الفضائي بنظام C4OPS الخاص به، لذلك عندما رنّت سماعة الأذن في أذن **كورت**، ضغط ببساطة على زر في الهاتف لتحويل المكالمة مباشرة إلى سماعة الرأس.

أجاب **جنتري** بسرعة" .**نعم؟"**

"كارمايكل يقول امضِ قدمًا".

"مع خطة سيد لاغتيال عبود، صحيح؟"

"سلبي. سنلتزم بعملية "نوكتورن سافاير". اخطف "أوريكس" وانسحب عبر الماء".

"كيف بحق الجحيم يمكنني خطفه مع كل هذه المعارضة في الـ"——

"محطة السودان لا تصدق ذلك. يعتقدون أنها إما معلومات هراء يزودك بها مصدرك، أو معلومات هراء تزودنا بها أنت. وكارمايكل يقف في صف المحطة المحلية. نمضي قدمًا في الوقت الحالي، ونتجاهل هذا المصدر الوحيد الذي لديك، لأن الـ CIA المحلي يقول إن هناك خمسة وثلاثين من مقاتلي جيش تحرير السودان هنا، ولا توجد تقارير عن تحركات كبيرة لجهاز الأمن الوطني أو حكومة السودان. يقول مقاتلو جيش تحرير السودان إنهم سيهاجمون الساحة في السادسة وست وثلاثين دقيقة صباح الغد، لا توجد مشاكل".

"أنا لا أزود أحدًا بالهراء يا زاك".

"أعلم أنك لست كذلك. اسمع، يقول كارمايكل إنه مخول لي باتخاذ قرار في وقت التنفيذ. يمكنني إيقاف العملية في أي لحظة إذا لم يبدُ الوضع جيدًا صباح الغد. لقد أعطاني الضوء الأخضر لأكون في الموقع".

"هل ستكون في البنك معي؟"

"لا، لكننا سنكون قريبين. لقد أعطى الضوء الأخضر لـ"ويسكي سييرا" للتدخل المباشر إذا تطلب الوضع ذلك".

استنشق كورت الهواء الرطب" .بجدية؟ أنتم يا رفاق ستشتبكون مع الحراس الشخصيين وقوات حكومة السودان؟ ماذا حدث لكل هذا الهراء حول إمكانية الإنكار؟ لماذا تستخدمونني في هذا الأمر أصلًا إذا كان لديكم ضوء أخضر لـ"——

"كورت، كارمايكل في موقف حرج. لقد قطع بعض الوعود التي يجب عليه الوفاء بها بأي وسيلة ضرورية. لقد وعد البيت الأبيض بأننا نستطيع تسليم "أوريكس" إلى الأوروبيين. هذا يعني، بشكل أساسي، أنه يجب علينا تسليم "أوريكس" إلى الأوروبيين. مستقبل مجموعة العمليات الخاصة يعتمد على هذه العملية".

"مستقبل مؤخرتي يعتمد على هذه العملية. لقد وعدت أن الأمر سيقتصر على عدد قليل من حراس عبود الشخصيين ضد مئة من قوات المتمردين. الآن أصبحوا الحراس الشخصيين، وسرية من قوات حكومة السودان، ووحدة من جهاز الأمن الوطني بحجم غير معروف، كلهم ضد بضع شاحنات صغيرة مليئة بالحمقى غير المدربين الذين تم كشفهم بالفعل"!

"قلت لك، محطة السودان لا تعتقد أنهم كُشفوا. وحتى لو كانوا كذلك، فإن "ويسكي سييرا" ستكون القوة المضاعفة. سننجز المهمة".

"هذه الخطة كارثية يا زاك".

"يا فتى، في الأيام الخوالي، كم عدد عمليات "فرقة البلطجية " التي سارت وفقًا للخطة؟"

فكر **كورت** .هز كتفيه" **.لا أذكر واحدة، لكن"——**

"بالضبط. هذه الخطة هي أفضل ما لدينا، وإذا ساءت الأمور، سنتوصل إلى شيء آخر على الفور. تمامًا كالعادة".

"لا تعجبني".

"سأدون اعتراضك، وسأضعه في ملف "من يهتم برأي كورت اللعين "."ضحك **زاك** من نفسه" **.ماذا قلت لك في الأيام الخوالي يا "ستة"؟ ليس عليك أن يعجبك الأمر"——**

"عليك فقط أن تفعله"، أكمل **كورت** الفكرة. كان غاضبًا، لكنه كان رجلًا مهزومًا في هذه النقطة. سيؤدي وظيفته، و**هايتاور** كان يعرف ذلك.

"هل تريد العودة إلى الحظيرة؟ التزم بدورك في عملية "نوكتورن سافاير". ستجعل كارمايكل رجلًا سعيدًا وممتنًا للغاية. لا تقلق يا صاح. "ويسكي سييرا" ستكون موجودة لمساعدتك".

بعد صمت طويل، تمتم **جنتري" :ستة، انتهى".**

الفصل الثاني والثلاثون

استيقظ **كورت** ونظر إلى ساعته. كانت عقاربها المضيئة، بفضل أنابيب دقيقة مملوءة بغاز التريتيوم، تخبره أن وقت النهوض قد حان.
كانت الساعة الرابعة والنصف فجرًا، والهواء باردًا بفعل نسيم المحيط. اعتدل في جلسته وملأ رئتيه بالهواء.

لم ينم إلا لساعتين على الأكثر، وكان نومه متقطعًا. فالعملية التي تنتظره أبقته يتقلب في فراشه، وعقله يموج بالتفاصيل والاحتمالات وبفيض من الفرضيات المتشعبة التي لم يستطع التوفيق بينها. ومهما قلّب الأمر في رأسه، لم يستطع أن يتخيل هذا اليوم إلا كارثة محققة. شعر وكأن قطارًا يوشك أن يخرج عن مساره، وهو على متنه، وقد فات أوان القفز.

من الحقيبة التي سلمه إياها **زاك** في الليلة السابقة، أخرج لوح طاقة "سولجر فيول" بزبدة الفول السوداني، وهو لوح مدعّم بالفيتامينات والبروتين من ابتكار خبراء التغذية في الجيش الأمريكي. فتح الغلاف وأكله بسرعة وكفاءة، بينما تصلبت ملامحه الجادة دقيقة بعد دقيقة مع اقتراب موعد عملية اليوم. وأتبعها بجرعة ماء من قِربة "كامل باك" التي يحملها.

تسلل **جنتري** بحذر بين الصخور وصولًا إلى حافة المياه. وبينما كان يقضي حاجته في البحيرة، فكر في تغيير ملابسه إلى شيء أكثر ملاءمة للمهام القتالية، لكنه عدل عن الفكرة. كان يتمنى لو كان يرتدي سروالًا بجيوب أكثر —— فالجيوب مهمة لأي عميل ميداني —— لكن ملابسه المحلية القذرة والمهترئة —— تلك التي ارتدها في الترحال والسباحة والنوم، وحتى أثناء ركوبه عربة يجرها حمار —— كانت تبدو حقيقية جدًا بحيث لا يمكنه استبدالها بملابس نظيفة وغريبة عن البيئة المحيطة.

زحف نحو حقيبة ظهره الروسية، تلك التي أعطاها له **سيد** .حملها على كتفه وخطا نحو مياه البحيرة السوداء الباردة. كانت الحقيبة الثقيلة منيعة للماء ومصممة بغرفة هوائية تسمح لها بالطفو، فتمسك بها **جنتري** وهو يسبح عابرًا.

بعد عشرين دقيقة، ظهر رأسه عند قمة المئذنة في **جزيرة سواكن القديمة** .صعد إلى شرفة البناء، وهي الغرفة المفتوحة الواقعة تمامًا تحت قمة البرج. في الماضي، عندما كانت الجزيرة تعج بالحياة والمسجد مفتوحًا، أي قبل مائتي عام على أبعد تقدير، كان المؤذن يرفع من هنا الأذان خمس مرات في اليوم. أما الآن، فقد أصبحت مهجورة ومأوى للطيور. أثار وصول **كورت** الحمام من نومه، فتطاير مبتعدًا، لكن الضجة والحركة لم تثر قلقه. فالقطط المنتشرة في المكان كانت تضايق تلك الكائنات ذات الريش بما يكفي لجعل تطاير سرب صغير منها في جوف الليل أمرًا لا يثير الشكوك. زحف **كورت** بحذر عبر أرضية المئذنة، ملطخًا ركبتيه وقفازيه بفضلات الحمام الطازجة، وهو يجر حقيبته خلفه. لم يكن قلقه من أن يراه أحد بقدر قلقه من أن ينهار البناء ويتهدم، آخذًا إياه معه. لكنه صمد، ففتح **جنتري** سحّاب حقيبته وأخرج أجزاء بندقية القنص من طراز "بلايزر" وبدأ في تجميعها.

كان كل هذا مجرد تمويه. فهو لن يستخدم البندقية، ولن يقنص أحدًا اليوم. كان كل هذا يهدف إلى إقناع **سيدورينكو** بتصديق قصة أن قاتله المحترف قد كُشف أمره بطريقة ما، وأنه وقع في الأسر أو قُتل على يد قتلة وكالة المخابرات المركزية. فعندما يظهر **عبود** حيًا، مكبلًا بالأصفاد على شاشات التلفاز من **لاهاي**، سيتساءل **سيد** عما حدث للقاتل الذي أرسله للتخلص منه. وكان **كارمايكل** قد وعد بأن **لانغلي** ستُسرّب خبرًا مفاده أن فريق عمليات شبه عسكرية تابعًا لقسم الأنشطة الخاصة قد تمكن أخيرًا من الإمساك بأشهر المطلوبين لديهم، وقتله على ساحل البحر الأحمر، قبل لحظات من ارتكابه جريمة أخرى.

لم يكن لدى **كورت** أي طريقة ليعرف على وجه اليقين ما إذا كانت هذه الخدعة ستنجح؛ فـ**سيد** ليس أحمق. لكن **جنتري** قرر أنه كلما زادت الأدلة التي يمكنه زرعها في الموقع، والتي

تشير إلى أنه كان بالفعل في مكانه لتنفيذ عملية اغتيال **عبود**، زاد احتمال أن تصل إلى **سيدورينكو** وعملائه أخبار تفيد بأن القصة المسربة تتطابق مع الآثار المادية في آخر موقع معروف لـ**جراي**.

لذلك، تمهّل الأمريكي في عمله، وجهّز مسرح الجريمة تمامًا كما لو كانت عملية القنص ستحدث بالفعل. وُضعت البندقية في موقعها على مسندها ثنائي الأرجل، وفُتح غطاء المنظار، وضُبطت العدسات بدقة لتصويب طلقة من مسافة 400 متر في رياح شبه منعدمة. تم تلقيم السلاح، ووُضعت الخراطيش الإضافية في صف أنيق على يمينه.

أخيرًا، عندما اطمأن إلى أن حيلته قد اكتملت، ألقى **كورت** نظرة أخيرة على مخبأ القنص الذي أعده. كم كان من السهل عليه اغتيال الرئيس **عبود**، ثم يشق طريقه إلى قارب سريع عند الحافة البعيدة للجزيرة، وينطلق به بأقصى سرعة فوق مياه البحر الأحمر الهادئة نحو سفينة أكبر تنتظره، ليبحر بعدها مبتعدًا نحو المياه الدولية. بالطبع، كان لدى السودانيين زوارق حربية —— وقد يسوء حظه ويصطدم بأحدها أثناء هروبه —— لكن فرصة تجنب البحرية السودانية كانت على الأرجح أفضل بكثير من فرصة نجاح عملية "نوكتورن سافاير". هز **كورت** رأسه ببطء. كان نجاح المهمة يتطلب أن تسير سلسلة طويلة من الأمور الخارجة عن سيطرته على ما يرام خلال الساعات القليلة القادمة.

نزل **جنتري** على الدرج متراجعًا. وعندما خرج مجددًا إلى طرقات **جزيرة سواكن القديمة** الترابية قبل الفجر، سار إلى الخلف قاطعًا ثلاث بنايات وصولًا إلى حافة المياه، ليضمن عدم ترك أي أثر يدل على قدوم شخص ومغادرته. رفع حقيبته التي أصبحت أخف بكثير، وخطا مجددًا نحو المياه الدافئة. كانت هادئة كبركة سباحة، رغم أن رائحتها المالحة لم تترك مجالًا للشك في أنها لم تُعقّم كيميائيًا.

عندما وصل الماء إلى عنقه، وهو ممسك بحقيبته الطافية بكلتا يديه، نظر خلفه إلى الجزيرة. عندما يُعثر على الأدلة التي زرعها، سواء بعد ساعات أو أيام، سيتم ربطه بمسرح الجريمة. سيبدو للجميع أن القاتل قد وصل إلى عش القنص، وجهّزه وفقًا لمتطلباته، ثم كمن في انتظاره فريسته.

ثم سيبدو للجميع كما لو أن القناص قد تلاشى ببساطة في الهواء.

ابتسم **الرجل الرمادي** ابتسامة قاتمة وهو يستدير، ثم بدأ يركل الماء بقدميه بهدوء، طافيًا نحو الشاطئ على بعد مائة متر.

لم يكن هناك أي إنسان في شوارع **سواكن الجديدة** الترابية في الخامسة صباحًا. لم يكن ضوء الفجر الأول ليبزغ قبل ساعة أخرى، ولن يمر **أوريكس** قبل تسعين دقيقة، لكن **كورت** كان قد اتخذ موقعه بالفعل، متواريًا في عمق الظلال في سوق السمك الطويل ذي السقف الصفيحي الذي يحتل الركن الجنوبي الشرقي من الساحة. كانت معه حقيبة ظهره الخاصة بوكالة المخابرات المركزية، وبداخلها معدات تزن قرابة الخمسين رطلًا. كان هاتفه المتصل بالأقمار الصناعية مثبتًا على الجانب الأيسر من حزامه تحت قميصه الفضفاض، ومتصلًا بجهاز راديو من طراز C4OPS بجانبه. كانت السماعات اللاسلكية في كلتا أذنيه، بينما استقر الأنبوب الرفيع المصنوع من المطاط والسلك على خده، ملتفًا نحو فمه، مما جعل سماعة الرأس السرية شبه مخفية بين شعر رأسه ولحيته.

تحت قميصه، على حزامه، كان يحمل مسدس "غلوك 19" مزودًا بكاتم للصوت ومخزني ذخيرة إضافيين. ما مجموعه ست وأربعون طلقة من عيار 9 ملم. لم يكن ذلك كثيرًا لخوض معركة، لكن من المفترض أن تدور أحداث هذا الصباح من حوله، لا فوق رأسه.

ومع ذلك، كان يتمنى بكل جوارحه لو كان لديه المزيد من القوة النارية.

أخذ **كورت** وقته ليتآلف مع محيطه. كانت الجمال طليقة تتجول في الشوارع، بينما كانت الحمير في حظائرها أو مربوطة إلى أوتاد خشبية. بدت البلدة من حوله، حرفيًا، وكأنها مشهد من الأزمنة التوراتية، باستثناء واحد كبير هو المسجد القديم المتهالك أمامه. لم تكن هناك مساجد هنا في زمن المسيح، لكن من المؤكد أن هذا المنظر الذي يراه، وهو جالس في كشك بائع السمك في الهواء الطلق، لم يتغير قيد أنملة منذ القرن الثاني عشر. تخيل نفسه عائدًا إلى تلك الأيام، وتساءل عما إذا كان جاسوس أو قاتل ما قد قبع في هذا المكان بالذات في هذا الوقت من الصباح، وهو يضمر نوايا شريرة لهدف في ذلك المسجد أو في ذلك المبنى العتيق على الجانب الآخر من الساحة.

حينها فقط لاحظ بعض المفارقات الزمنية القليلة في المشهد. كانت هناك عدة عربات تجرها الحمير على مرمى البصر، لكنها جميعًا كانت ذات إطارات مطاطية سميكة بدلًا من عجلات العربات الخشبية القديمة. والكثير من الأسقف والجدران المعدنية للأكواخ كانت براميل نفط صدئة أو حتى علب قهوة صفيحية كبيرة. وكان هناك دلو بلاستيكي أزرق مكسور يتدلى من حبل خارج نافذة في الطابق الثاني.

فجأة، وبدون سابق إنذار، تحدث صوت قريب. أثار فزعه، فمد يده إلى مسدسه ونهض، ليصطدم رأسه برف خشبي سائب فوقه في الكوخ قبل أن يدرك أن الصوت كان صوت **زاك** وأنه أتى عبر سماعة الرأس. عاد إلى جلسته، غاضبًا من نفسه.

"صباح الخير يا ستة ، أينما كنت. أنا والشباب انتهينا للتو من فنجان القهوة الثاني، ثم سنتجهز ونتجه إلى الشاطئ ".تلا ذلك صوت تَمَطٍّ طويل وتنهيدة. كان التأثير الدرامي واضحًا" .**اللعنة. كم هو رائع بحق أن تعمل لصالح الحكومة، بدلًا من أن تعمل منفردًا خارج القوانين، جالسًا في الظلام خائفًا في مكان ما، وتأمل بكل جوارحك ألا يعضك ذلك الجرذ الذي يتسلق ساقك في خصيتيك لأنك لا تستطيع التحرك وكشف موقعك".**

نظر **كورت** إلى ساقه. لم يكن هناك جرذ. لام نفسه لأنه نظر.

"قريبًا يا صديقي، ستعود للعمل معنا. بالطبع ستظل الدخيل، لكني أعدك بأنني سأسمح لك بالانضمام إلينا لتناول فنجان قهوة من وقت لآخر".

أومأ **جنتري** برأسه. سيكون من الجيد أن يكون جزءًا من فريق مرة أخرى، حتى لو كانت هناك بعض التحفظات على هذه العلاقة.

"لكن، لننجز مهمة هذا الصباح أولًا. انتهى".

"علم،" همس **كورت** لنفسه، دون أن يبث رده إلى **هايتاور** .نهض ببطء، متفاديًا الرف الذي فوقه، وعبر الزقاق الصغير نحو المدخل الجانبي للبنك. فتح القفل في أقل من ثلاثين ثانية؛ فقد كان قفلًا بسيطًا ذا أسطوانة دوارة لا يتطلب سوى أداتين رفيعتين وبضع هزات من مفتاح العزم لفتحه.

في الداخل، كان الظلام دامسًا، ورائحة الغبار العالقة تفوح في ضوء القمر المتسلل عبر النوافذ الدائرية والمقوسة. أخرج **كورت** مصباحه الصغير من جيبه وأضاءه، ثم وضعه في فمه وعبر رواقًا صغيرًا يمتد على طول الجانب الشرقي من المبنى الكبير المفتوح. كان بإمكان **جنتري** أن يرى أن هذا المكان قد شُيِّد قبل مئات السنين، لكن يبدو أن الأعمال المصرفية لم تعد ذات شأن في **سواكن** .كانت معظم المساحة مفتوحة وفارغة، مع بعض المكاتب والهواتف، وخزائن ملفات خشبية، ودرج ينزل إلى قبو. واصل **كورت** طريقه إلى المدخل الرئيسي ووجده تمامًا كما هو مرسوم في المخططات التي زوده بها **زاك** .كان هناك سلّمان على يسار ويمين الأبواب المزدوجة الأمامية. كانا يصعدان إلى ردهة ضيقة فوق الأبواب، حيث تطل نوافذ كبيرة على الساحة. أمضى **جنتري** بضع دقائق في تجهيز معداته، متنقلًا بسرعة صعودًا وهبوطًا على السلالم الحجرية الحلزونية عدة مرات لوضع المعدات في

الأماكن التي سيحتاجها فيها عندما يقتحم **أوريكس** وحراسه الباب، ظنًا منهم أنهم ينقذون أنفسهم من هجوم في الساحة.

نظر **كورت** من النوافذ المفتوحة للردهة، ملقيًا نظرة جيدة على الساحة لأول مرة. لم تكن تبدو كساحة بالمعنى الذي يعرفه **كورت** من أسفاره في أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية. كانت بحجم ملعبي كرة قدم، غير معبدة تمامًا، ولا أثر فيها لعرق أخضر، مجرد مساحة شاسعة ومسطحة من الأرض الصلبة. على الجانب المقابل للبنك، كانت هناك بعض المباني المتهالكة المكونة من طابقين، ذات طراز معماري استعماري مطلي بالأبيض، لكنها كانت قذرة، وبدا اتساخها واضحًا حتى في ضوء القمر. إلى الشمال الشرقي، على الجانب الأيمن من الساحة، لم يكن هناك سوى أكواخ —— مصنوعة من الأخشاب الطافية، والخشب الرقائقي، والصفيح، والخردة، مثبتة بالمسامير أو مربوطة ببعضها، أو، كما تخيل **كورت** ببعض المبالغة، مسنودة إلى بعضها البعض بالدعاء لله والأمل في الأفضل. امتدت الأكواخ نزولًا على تلة لعدة بنايات وصولًا إلى حافة المياه والجسر المؤدي إلى جزيرة **سواكن القديمة**.

على يسار موقع **كورت**، الجانب الغربي من الساحة، رأى أرقى المباني التي يمكن أن تقدمها **سواكن** .كان هناك فندق **قصر سواكن** .نظر **كورت** إلى الطابق الثالث وتساءل عما إذا كان **سييرا خمسة** يراقبه. كان **جنتري** يقف في ظلام دامس داخل البنك، لكنه خمّن أن **سبنسر** يمتلك نوعًا من أجهزة الرؤية الليلية. رفع يده بتردد.

"من سييرا خمسة إلى سييرا واحد، "جاء الإرسال عبر الشبكة بعد ثانية.
"تفضل يا واحد ، "رد صوت **زاك** المعدني.
"سييرا ستة في موقعه".
"لم أشك في ذلك قط، "قال **هايتاور** .أنزل **كورت** يده. شعر بغرابة أن يكون مراقبًا، خاصة في وقت كهذا. واصل مسح بقية مباني الساحة. كانت من الحجر الجيري والمرجان المطلي

بالأبيض، تبدو قديمة قدم **متوشالح**، فكر **جنتري**، ثم تساءل عما إذا كان **متوشالح** من هذه الأنحاء.

ألقى نظرة على الشارع الذي من المفترض أن تأتي منه شاحنات جيش تحرير السودان، هذا إذا أتت أصلًا. وإذا لم تأتِ، افترض **كورت** أنه سيترك كل معداته هنا وينسحب بهدوء من الباب الجانبي للبنك. سيجد السودانيون مجموعة غريبة من الأدوات ملقاة في المبنى الذي كان من المقرر أن يأتي إليه رئيسهم إذا حدثت أي ضجة، لكن لن يتم توريط وكالة المخابرات المركزية بشكل قاطع في أي نوع من الهجوم أو الكمين المحتمل. فكل هذه المعدات كانت متوفرة خارج الولايات المتحدة الأمريكية، وقد تم شراؤها جميعًا من خارج الولايات المتحدة الأمريكية.

لكن المكتب الميداني المحلي لوكالة المخابرات المركزية، محطة السودان، كان قد أكد لجميع المشاركين، بعبارات لا لبس فيها، أن متمرديهم سيأتون. وصدقهم جميع المشاركين، لدرجة أن مصدر **كورت** اعتُبر غير موثوق به لتقديمه معلومات استخباراتية تقول عكس ذلك.

"اللعنة،" فكر **كورت**" .لم أكن أعمل هكذا في مهامي الفردية".
كان كل شيء أبسط بكثير حينما كان يعمل كقاتل مأجور مستقل.

الفصل الثالث والثلاثون

أنهى **الرجل الرمادي** عمله داخل البنك بحلول السادسة وعشر دقائق. كان قد عاد لتوه إلى مجثمه في الطابق الثاني عندما وصله إرسال من **زاك" .ويسكي سييرا في موقعها. العميل ثلاثة على سطح مبنى في الركن الشمالي الغربي من الساحة؛ والعميل خمسة في نافذة الطابق الثالث من قصر سواكن في الركن الجنوبي الغربي. بقيتنا معًا ومتحركون، على بعد ثلاث بنايات شمال شرق الساحة. نحن في شاحنة... لحظة... ما طراز هذة الخردة بحق الجحيم؟ شاحنة فورد إيكونولاين بيج. سيهاجم جيش تحرير السودان (SLA) من الغرب. يفترض أنهم يتخذون مواقعهم الآن تمامًا. أول من يرى أو يسمع أي إشارة منهم، فليبلغ فورًا "**.تبع الإرسال صوتان متقطعان من رجاله في الساحة يقولان" :**مفهوم"**.

بعد عشر دقائق، بدأ الفجر يطل من الشرق. كانت المدينة تنحدر من الساحة نزولاً إلى الماء، لذا من موقعه في الطابق الثاني، استطاع **كورت** أن يرى البحر البعيد يتوهج بنور الصباح حيث يلتقي بالسماء. سيظهر **أوريكس** على الجانب الآخر من الساحة في غضون دقائق، ومع ذلك لم ير أحد أي أثر لـ **جيش تحرير السودان** .كان ينبغي أن يكونوا على الأقل في مكان ما يستعدون للتحرك، وكان من المفترض أن يكون عميلا **ويسكي سييرا** غرب الساحة قد سمعاهم أو رأياهم الآن.

ولكن لم يكن هناك شيء.

رأى **جنتري** ما كان يعنيه **زاك** عندما قال إن المدينة لها طابع الغرب الأمريكي القديم. بالنظر من النافذة إلى التراب، والمباني البسيطة، وأعمدة ربط الخيول وأحواض المياه، وعربات الحمير والمظلات الخشبية، والأسلحة الجاهزة لتبادل إطلاق النار، أدرك **كورت** أنه يمكن أن يكون في عالم آخر وزمن آخر.

ارتشف **جنتري** الماء في مجثمه المرتفع. تفقد ترتيب الأغراض في حقيبة ظهره للمرة الرابعة.

تصاعد التوتر بسرعة في جوفه.

"واحد إلى خمسة"، قال **زاك** في الميكروفون.

"تفضل يا واحد، هنا خمسة"، أجاب **سبنسر**، عضو الفريق الأسود مفتول العضلات الذي كان رقيبًا في القوات الخاصة بالجيش قبل أن ينتقل إلى العمليات السوداء في وكالة المخابرات المركزية.

"لا جديد في قطاعك؟"

"لا أرى شيئًا هنا بالقرب من الفندق".

"ثلاثة؟"

"لا همس في الشمال الغربي يا زعيم".

تردد من **هايتاور** .تساءل **كورت** عما إذا كان على وشك إلغاء المهمة" .**حسنًا. يبدو أننا سنضطر للمضي قدمًا في الخطة برافو".**

في بهو البنك المظلم، تقطّب حاجبا **كورت جنتري** حتى كادا يتلامسان. ماذا بحق الجحيم كانت "الخطة برافو"؟ إذا كانت هناك خطة بديلة، فمن المؤكد أن **كورت** لم يتم إطلاعه عليها.

"مفهوم يا زعيم"، قال ثلاثة" .**قاذفة الـ RPG جاهزة لدي".**

قاذفةRPG ؟ تكوّن عرق بارد على صدغي **الرجل الرمادي**.

بدأ **كورت** يمد يده لأسفل ليضغط على زر في هاتفه الفضائي للاتصال بـ**زاك** ومعرفة ما الذي يجري بحق الجحيم.

لكنه لم يضطر لذلك.

"حسنًا يا ستة. دعني أطلعك على الأمر قبل أن ينفجر لك شريان ".بدا صوت **زاك** المجرد من الجسد نادمًا إلى حد ما" **.كنت أنا و ديني قلقين من أن جيش تحرير السودان قد لا يتمكن من الوفاء بالتزامه. ظلت محطة السودان تعد... لكنك رأيت كيف كانت أعدادهم تتضاءل أمام أعيننا. مصدرك، الشرطي، ومعلوماته بأن جيش تحرير السودان قد كُشف، حسمت الأمر تقريبًا".**

"يا أخي، حتى بدون جيش تحرير السودان، سنمضي قدمًا. أنت لا تحتاج إلى معركة، أنت فقط بحاجة إلى إلهاء، هجوم صغير لدفع أوريكس للتحرك إلى نقطة تجمع فريقه الأمني. حسنًا يا ستة، سنمنحك ذلك الهجوم الصغير، أليس كذلك يا ثلاثة؟"

"مفهوم يا واحد".

"سيقوم ثلاثة وخمسة بشن بعض النيران المباشرة، فقط ما يكفي لدفع أوريكس وحراسه الشخصيين المقربين عبر باب البنك. ثم سنضرب بقية الرجال في الساحة من الشمال الشرقي، فقط لإبقاء رؤوسهم منخفضة لدقيقة أو دقيقتين. بعد ذلك سيكون طريقك سالكًا، انتهى ".ساد صمت طويل" **.هذه خطة ديني، بالمناسبة. لم أرغب في إخبارك قبل الآن لأن... حسنًا، اللعنة، كنت آمل أن يظهر جيش تحرير السودان. آمل ألا تكون غاضبًا جدًا".**

لم يكن **كورت** غاضبًا؛ بل كان غضبه قد بلغ حد الغليان. مئة متمرد تحولوا إلى صفر، وأهمل **زاك** ذكر سرية المشاة التي كان من المفترض أن تكون في المنطقة. كان **كورت** يعتقد

أنه سيكون لديه متسع من الوقت لإيصال **أوريكس** إلى السيارة والخروج من المدينة بينما يتقاتل الحراس الشخصيون مع المتمردين. لكن الآن لم يكن لديه سوى دعم خمسة رجال في الساحة، وسينسحبون على الفور تقريبًا، مما لا يمنح **كورت** أي وقت تقريبًا لإخراج **أوريكس** من البنك، ونقله عشر بنايات إلى السيارة، ثم الانطلاق به على الطريق وخارج المدينة.

كان **كورت** قد أُمر بعدم الإرسال على راديوC4OPS ، لكنه لم يهتم. ضغط على زر التحدث في حزامه" .**يا لك من وغد! لا يمكنني إخراجه في الوقت المناسب"——**

"اخرج من الشبكة يا ستة "!أمر **زاك** .بصفته قائد الفريق، كان الراديو الخاص به مضبوطًا لتجاوز إرسالات جميع الآخرين" .**أوريكس وحراسه على مرمى البصر. إنهم يدخلون الساحة من الركن الشمالي الشرقي. استعد لضرب مؤخرة المجموعة يا ثلاثة".**

"ثلاثة لديه الأهداف في مرمى البصر"، قال **دان** بصوت منخفض.

نظر **كورت** من النافذة إلى الفجر. بالكاد استطاع تمييز حركة، كتلة من الرجال يرتدون بدلات داكنة في الأفق، يظهرون في الساحة. نظر إلى الدرج، وفكر في الهروب، على الرغم من أنه لم يكن يعرف حقًا إلى أين سيذهب. فات الأوان للاستمرار في عملية **سيد** الآن؛ لم يكن هناك طريقة للعودة إلى بندقية بلايزر وإطلاق النار على **عبود**، وإذا لم يكمل هذا الهدف، فإن **سيدورينكو** لن يساعده على الخروج من البلاد.

وعلى العكس، إذا لم يمضِ قدمًا في عملية "نوكتورن سافاير"، فإن **زاك** ووكالة المخابرات المركزية لن يساعداه على الخروج من البلاد أيضًا.

لقد عَلِق، وتجاوز نقطة اللاعودة، وهذا هو السبب الذي جعل **هايتاور** لم يخبره بالتغيير في المهمة إلى العمل المباشر.

سيتعين عليه الاستمرار في عملية "نوكتورن سافاير" الآن.

"مئتا ياردة إلى البنك"، قال خمسة" **.سأضربهم عندما يمرون بجوار الباب"**.

"مفهوم".

ألقى **جنتري** نظرة أخيرة على معداته من حوله في البهو؛ كان كل شيء في مكانه. هدأ من روعه. كان هذا مختلفًا عن معظم عملياته الأخرى، لكنهم كانوا قد أمسكوا ببعض الإرهابيين في أيام "فرقة البلطجية "، لذا لم يكن **كورت** غريبًا على هذا النوع من العمل. ومع ذلك، كان هذا أمرًا كبيرًا. كانت هذه أكبر وأعقد وأكثر مهمة حساسة للوقت شارك فيها على الإطلاق. كانت مهمة تفوح منها رائحة اليأس من جانب وكالة المخابرات المركزية.

كان **موريس**، معلم **كورت**، يخبره دائمًا" :**أي مهمة لا يمكنك تحمل تكلفة الانسحاب منها، هي مهمة يجب أن تفر منها"**.

"مئة وخمسون ياردة"، جاء النداء من سييرا خمسة.

كان لدى **موريس** قول آخر قفز إلى ذهن **كورت** في تلك اللحظة" .**الخطة ليست سوى قائمة طويلة من الهراء الذي لن يحدث "**.وجد **كورت** أن هذا هو الثابت الوحيد في مهامه، وفي حياته. الخطط جيدة. الخطط ضرورية، لكن في النهاية، معظم الخطط كانت هراء.

"سييرا ثلاثة إلى واحد".

"تفضل يا ثلاثة".

"زعيم، هناك شاحنة تمر أسفل موقعي".

"جيش تحرير السودان؟ "استطاع **كورت** سماع نبرة الأمل في صوت **هايتاور**.

"انتظر لحظة، انتهى ".توقف قصير. ثم، **"سلبي. إنهم جنود من قوات حكومة السودان"**.

"خمسة إلى واحد... لدي جنود هنا أيضًا. على بعد بنايتين غربي متجهين نحو الساحة".

"اللعنة"، قال **زاك** كرد.

تبًا، فكر **كورت** .قوات حكومة السودان قريبة، لكن جيش تحرير السودان ليس كذلك. عن من كانت تبحث قوات الحكومة؟

ضيق **كورت** عينيه عبر الساحة. إلى يمينه بدأت الشمس تشرق فوق الماء كبثرة حمراء جديدة. أضفى ضوء الفجر توهجًا غريبًا على المباني المطلية باللون الأبيض إلى يساره. اقترب موكب **عبود**، حوالي عشرين رجلاً أو أكثر، من موقعه.

"واحد، هنا ثلاثة. ماذا سنفعل يا زعيم؟ "كانت سماعة أذن **كورت** تعج باتصالات **ويسكي سييرا**، على الرغم من أنه كان تحت أوامر بعدم الإرسال بنفسه.

همس **كورت** لنفسه في البهو البارد المظلم، متمنيًا بكل ذرة من الإسقاط السحري المتخيل الذي يمكنه حشده" .**ألغِ. ألغِ** ".بقي عند النافذة، لكنه كان مستعداً للركض الي الدرج والخروج من الباب الخلفي للمبنى. يمكنه الهروب، ليس إلى السيارة المتروكة له، ولكن إلى الماء. كانت هناك قوارب صغيرة مربوطة في جميع أنحاء الميناء؛ يمكنه الاستيلاء على واحدة والذهاب.

جاء صوت **هايتاور** عبر الشبكة. كان **كورت** يعرف كل نبرة للرجل، لدرجة أنه استطاع سماع التوتر المخبأ بين الكلمات" .**أعطِ عدد الأهداف، انتهى"**.

"واحد، هنا ثلاثة. قد يكونون حوالي ثلاثين. ثلاثةـ صفر، انتهى. شاحنة مسطحة طويلة واحدة. شوهدت أسلحة صغيرة وقاذفاتRPG ، انتهى. قد تكون هناك بعض رشاشات

PKMأيضًا يا زعيم، انتهى ".كانت رشاشات PKM رشاشات روسية ضخمة تتغذى بحزام طلقات.

"مفهوم"، قال **زاك** ببرود.

"خمسة إلى واحد. لدي نفس العدد تقريبًا هنا. إنهم يقومون بدوريات في طوابير، لا يبدو أنهم مستعدون جدًا للمشاكل".

عندما لم يقل **زاك** أي شيء آخر لبضع ثوان، عادت الشبكة إلى الحياة مرة أخرى" **.واحد، هنا ثلاثة. يمكنني الاشتباك الآن. بمجرد أن يتفرقوا سيكون الأمر صعبًا"——**

"مفهوم يا ثلاثة. انتظر لحظة"، قال **زاك**.

"ألغِ"، همس **جنتري** مرة أخرى. ثم، مرة أخرى تحت أنفاسه، قال مرارًا وتكرارًا جملة كان قد استخدمها عدة مرات في الماضي عندما كانت الحياة والموت كلها بيد **سييرا واحد**، وكان **كورت** على رأس الحربة في انتظار القرار" **.حافظ على هدوئك يا زاك. حافظ على هدوئك يا زاك. حافظ على هدوئك يا زاك".**

عرف **كورت** أن كل شيء، حياته حرفيًا، يعتمد على الأرجح على إرسال **سييرا واحد** التالي؛ انسحاب آمن وهادئ، ثم تحقيق في كيفية تفكك عملية "نوكتورن سافاير" تمامًا.

أو البديل.

حرب عالمية ثالثة لَعينة.

"حافظ على هدوئك يا زاك".

ثم جاء الأمر" **.سييرا واحد إلى جميع العناصر".**

حافظ على هدوئك يا زاك.

تردد طويل" .**لنوقف العملية. الجميع ليتوقف. حافظوا على مواقعكم حتى يدخل موكب أوريكس إلى المسجد؛ ثم أريد انسحابًا هادئًا للخروج من المنطقة"—**

أطلق **كورت** واحدة من أطول تنهيدات الارتياح في حياته.

ظهر كل عضو من أعضاء **ويسكي سييرا** على الشبكة، على التوالي، وأكد أنه فهم أمر التوقف. كان هؤلاء الرجال محترفين بارعين؛ لم يظهروا أي عاطفة، لا ارتياحًا ولا خيبة أمل، لأن المهمة قد أُلغيت في الثانية الأخيرة.

ألقى **جنتري** نظرة أخيرة على الرئيس **عبود**، وهو يسير بخطى حثيثة عبر الساحة مع موكبه نحو موقعه. كان من المخيب للآمال أن يكون قريبًا جداً ومع ذلك بعيداً جداً، لكن **جنتري** كان محترفاً أيضًا. لقد كان هنا من قبل، قبل ثانية أو اثنتين من نقطة اللاعودة ولكنه غير قادر أو غير راغب في المضي قدمًا. لم يضيع **كورت** أي وقت في الابتعاد عن النافذة والتحرك عائداً نحو الدرج من البهو إلى مدخل الباب الأمامي للبنك. سار في القاعة المظلمة ذات الأعمدة. كاد يصل إلى الباب الخلفي عندما عادت سماعة رأسه إلى الحياة مرة أخرى مع اشارة راديو **ويسكي سييرا**.

أراح **زاك هايتاور** بندقيته بين ركبتيه وأسند رأسه إلى مسند رأس مقعد الراكب في إحباط بينما وضع **براد/سييرا اثنين** الشاحنة البيج المتسخة في وضع الحركة. خلفهم، في مؤخرة الشاحنة، كان **ميلو**، سييرا أربعة. جلس مواجهًا للباب الخلفي المغلق للمركبة، مع رشاش HK21ضخم بين ساقيه. كان الرشاش الذي يُحمل على الكتف يحمل نفس الخرطوشة القوية مثل العديد من بنادق الصيد والقنص، لكنه كان يطلقها بشكل أسرع ومن مخزن

ذخيرة صندوقي يسع 100 طلقة. كان **ميلو** هو الرجل المستعد لإطلاق النار من الأبواب الخلفية لإبعاد أي مطاردة. كان متواريًا الآن، مع إغلاق الأبواب وعدم وجود أهداف لإطلاق النار عليها، ولكن لو استمرت العملية، فمن المحتمل أن يكون **سييرا أربعة** هو الرجل الذي يرسل أكبر قدر من الجحيم نحو العدو.

كانت الشاحنة تنتظر في الظلال العميقة لزقاق على بعد بضعة مبانٍ من الساحة، بعيدًا عن المكان الذي أُبلغ عن وجود مشاة حكومة السودان فيه. باستثناء الدجاج والماعز في الطريق، لم يروا أي حركة على الإطلاق، لذا خرجوا من مخبئهم وبدأوا في التحرك جنوبًا. كان هذا في اتجاه الساحة، لذا قام **براد** بأول منعطف إلى اليسار، مما سيقربه من الميناء ويسمح له بتجنب قوة حراسة **عبود**.

لكن الزقاق تحول إلى طريق مسدود عند حظيرة جمال. كان هيكلًا دائريًا كبيرًا مصنوعًا من الأخشاب الطافية والخردة المعدنية، مع عدد قليل من الحيوانات الضخمة جاثمة في التراب، ولم يكن هناك طريق حوله.

بدأ **براد** في الرجوع بالشاحنة. نظر هو و**سييرا واحد** في مرايا الرؤية الخلفية.

رآهم **زاك** أولاً وصرخ في الشاحنة وعبر الراديو الخاص به للفريق.
"جنود"!

ضغط **سييرا اثنين** على المكابح بقوة. على بعد عشرين مترًا خلفهم، عند مدخل الزقاق الذي دخلوا منه للتو، وقف نصف دزينة من الجنود يرتدون الزي الأخضر، وبنادقهم الصينية الصنع من طراز 81 مرفوعة أمامهم وموجهة نحو الشاحنة. صرخ أحد الجنود بأمر ما.

"ماذا نفعل يا زعيم؟ "سأل **براد** من مقعد السائق.

كان تأخير **زاك** وجيزًا. عندما تحدث، أرسل إلى الفريق بأكمله.

"إلى جميع العناصر. ألغوا أمري الأخير. العملية مستمرة. أكرر، نفذوا! أشعلوهم"!

في مؤخرة الشاحنة، ركل **ميلو** الأبواب الخلفية بحذائه ففُتحت على مصراعيها. رفع رشاشه وأطلق رشقات متقطعة على الجنود الستة عند مدخل الزقاق.

مات ثلاثة جنود في مكانهم. قفز الباقون على الأرض وردوا بإطلاق النار.

خلف **ميلو**، فك **زاك** حزام الأمان واستدار بين المقاعد، رافعًا بندقيته الهجومية من طراز Tavor TAR-21 وأطلق النار فوق كتف **سييرا أربعة** الأيسر. **دفع براد** مقبض ناقل الحركة إلى الأمام، من الرجوع إلى القيادة، وداس على دواسة الوقود، واصطدمت شاحنة الفورد الكبيرة بسياج الحظيرة، مما أدى إلى تدافع الجمال البنية الضخمة للابتعاد عن الطريق.

سقط كتفا **الرجل الرمادي** استسلامًا.

كانت أطراف أصابعه على بعد قدم من مزلاج الباب الخلفي للبنك. على الجانب الآخر من الباب سيكون هناك زقاق مظلم. بعد ذلك بضع لفات ومنعطفات هادئة، وسيكون في الميناء، في مياه البحيرة أو على متن قارب صغير. سيكون خارج الخطر في دقائق.

لكن إرسال **زاك** وإطلاق النار في الشمال غيرا كل شيء.

الآن كان ثلاثة على الشبكة" .**ثلاثة يبدأ العمل** ".ثم دوي انفجار قاذفةRPG ، بالقرب من موقع **جنتري**.

والآن كان **سبنسر** ينضم إلى المعركة" .**خمسة على الزناد**".

انبعث صوت إطلاق نار من مدفع رشاش من **قصر سواكن**.

لقد بدأت. سيقتحم **عبود** المدخل خلف **كورت** في ثوانٍ.

استدار **الرجل الرمادي**، ومد يده إلى مسدس غلوك 19 المزود بكاتم للصوت والموجود في جراب على وركه.

في الخارج مباشرة، دبت الحياة في الساحة مع إطلاق نار من مسدسات رجال **عبود** .استنشق **كورت** الهواء العفن لمبنى البنك القديم، وأعاد كتفيه إلى الوراء، وشد فكه قبل أن يقول**"** :**ها قد بدأنا".**

ركض صاعداً الدرج واتخذ موقعه.

بعد ثوانٍ، انفتحت الأبواب المزدوجة في الردهة أسفله بعنف.

أهلاً بكم في الحرب العالمية الثالثة اللعينة.

الفصل الرابع والثلاثون

صرخ الرجال في الأسفل وصاحوا، لكن ليس جزعًا. لا، لقد كانوا حراسًا شخصيين مدربين. كانت أوامرهم موجهة إلى الشخصية التي يحمونها، رئيس جمهورية السودان. كان **كورت** يعرف الإجراء المتبع: سيدفعونه إلى داخل الغرفة في طوق أمني محكم، و**أوريكس** في المنتصف. وما إن يدخلوا، سيؤمّنون الباب ثم يقتادونه إلى الجزء الأكثر أمانًا في المبنى، والذي يرجح أن يكون القبو المحصّن. لم يكن **جنتري** يعرف عدد الحراس الذين دخلوا مع **عبود**؛ فالأمر يعتمد على مواقعهم عند بدء إطلاق النار، وما إذا كان أي منهم قد أصيب برصاص "سييرا خمسة" أو "ثلاثة"، وعلى عوامل أخرى لا حصر لها. لكن في النهاية، لم يكن يهم إن كان في الأسفل رجلان أو عشرون؛ فقد كان لدى **كورت جنتري** مفاجأة لهم.

ضغط **كورت** على زر في جهاز تحكم عن بعد كان قد تركه على حافة النافذة. وبفعله هذا، شغّل مغناطيسات كهربائية على قفلين بمزلاج كان قد ثبّتهما على جانبي الباب المزدوج في الأسفل، مطلقًا مزاليج حديدية بطول ثلاث بوصات عبر الفراغ بين البابين، فأحكم إغلاقهما. وبهذا ضمن عدم دخول أي شخص آخر.

بعد ذلك، رفع جهازًا يزن اثني عشر رطلًا من أرضية الردهة الرخيصة المكسوة بالمشمع، ممسكًا به من مقبضه، ثم دس إبهامه تحت غطاء مفتاح وضغط الزر. بعد ثانية واحدة، ألقى به فوق السياج الجانبي. سقط الجهاز باتجاه البهو، لكنه كان مربوطًا بالسياج نفسه بحبل طوله ستة أقدام، لذا عندما وصل جهاز الصعق الصوتي البصري غير الفتاك[13] إلى مستوى نظر جميع الرجال في البهو، وبدأ مؤقته التنازلي لمدة ثانيتين يصدر صفيرًا ويومض، ضامنًا

---

[13] هو سلاح غير قاتل مصمم لإحداث صدمة حسية مؤقتة للأهداف من خلال إصدار وميض ضوئي شديد السطوع وصوت انفجار يصم الآذان. الهدف هو إرباك وتشتيت وتعطيل الأفراد دون التسبب في إصابات دائمة يشبه قنبلة الصوت والضوء Flashbang

بذلك أن تتجه إليه كل الأنظار، سيُحدث أقصى تأثير. ألقى **كورت** بنفسه على أرض الردهة، متكورًا في وضعية الجنين، مغمضًا عينيه بإحكام وواضعًا يديه على سماعتي.C4OPS

كان الجهاز نموذجًا أوليًا من صنع مديرية العلوم والتكنولوجيا في وكالة المخابرات المركزية، وكان **زاك** يشير إليه ببساطة باسم "بيج بانج". صُمم الجهاز لإحداث تشويش فسيولوجي ونفسي في آنٍ واحد، من خلال أضواء وأصوات مذهلة. وقد حرصت العقول المدبرة في **لانغلي** على استخدام مكونات متاحة في الأسواق فقط في صناعة الجهاز، معظمها من اليابان وفرنسا وألمانيا، لتجنب وضع علامة "صنع في أمريكا" الافتراضية على هذه الأداة.

حتى مع عينيه المغمضتين، انعكس وميض الضوء الساطع على الجدران من حوله وكوى عينيه، ورغم وجود سماعة C4OPS العازلة للضوضاء في أذنيه وتغطيتهما بيديه، كان عويل صفارة الإنذار الحادة الذي استمر لثانية واحدة يصم الآذان. كان تأثيره البصري المعلن عنه أشبه بالتحديق في الشمس لمدة 110 أجزاء من الثانية، أما صوتيًا، فقد صكّ طبلات الأذن بل وتسبب في ارتجاج لمن هم في نطاق عشرين قدمًا منه عند تفعيله في مكان مغلق. شعر **كورت** بأسنانه تصطك في فكه، وتناثرت عليه من السقف قطع من المرجان ومواد أخرى، لكنه تجاهل الألم والحطام المتساقط، ونهض على قدميه في الحال.

لم يكن لديه وقت ليهدره.

وبينما كان يركض نازلًا على الدرج، رفع سلاحه أمامه، وهو غير متأكد تمامًا مما سيجده. دخل **جنتري** البهو بسرعة. وجدهم جميعًا عاجزين بدرجات متفاوتة، ستة رجال في المجموع، من المؤكد أن أحدهم هو **أوريكس** .كان أحد الحراس جاثيًا على ركبتيه، وكلتا يديه تتحسس السجادة بحثًا عن سلاحه. أطلق **كورت** النار على مؤخرة رأسه، فسقط الرجل إلى الأمام، وارتطم وجهه بالمسدس الذي كان يبحث عنه على الأرض. ثم تخطى جسدي حارسين فاقدي الوعي ليصل إلى رجل أكبر سنًا، كان مستلقيًا على ظهره. نعم، كان هذا هو

هدفه. كان **أوريكس** فاقدًا للوعي تمامًا، وبجانبه، كان حارسان أصغر سنًا واعيين لكنهما مشوشان بالكامل. كانا مستلقيين على ظهريهما يتلويان في قيئهما. على الفور، مزّق **جنتري** قميص الرئيس الأبيض السميك وأرخى ربطة عنقه. تقدم أمامه، وركع، ثم أدخل يديه تحت إبطيه ورفعه حتى تلامس صدراهما. انحنى **كورت**، وترك الجسد الثقيل يستقر على كتفه الأيمن، ثم استخدم ساقيه للنهوض مجددًا في وضع الوقوف، رافعًا **أوريكس** معه على كتفه. سار الأمريكي بالرجل السوداني الضخم فوق ساقي حارس شخصي آخر وخرج من الغرفة. وعند الباب الخلفي الموصد، أنزله برفق وسحب مسدسه مرة أخرى.

أسرع **كورت** عائدًا نحو البهو. ورغم أن أذنيه كانتا تطنان من صفارة الإنذار التي أطلقها للتو، كان بإمكانه سماع دوي إطلاق نار كثيف في الخارج. كان ممتنًا لأن القتال العنيف كله كان يتركز في الشمال والغرب، مما لن يعيق طريق هروبه.

داخل البهو، رفع **جنتري** مسدسه وأطلق طلقة واحدة كاتمة للصوت في كاحل كل من الحراس الأربعة الأحياء. نظر حول الغرفة آملًا في العثور على بندقية أو مدفع رشاش، لكنه لم ير سوى بضعة مسدسات من طراز "لادو"، فتجاهلها.

في الخارج، كان الرجال يطرقون الأبواب الأمامية، وهم يصرخون ليُسمح لهم بالدخول. غادر **جنتري** البهو والرجال المصابين خلفه. سيتعافون قريبًا، بعضهم ربما في أقل من دقيقة، وسيعانون من صداع رهيب لساعات أو أيام. أما كواحلهم فستشل حركتهم لفترة أطول، والأهم من ذلك، أنهم سيحتاجون إلى رعاية فورية، رعاية ستتطلب المزيد من الحراس والشرطة والجنود وغيرهم من المستجيبين الأوائل لتنظيمها وتنفيذها، مما يقلل من عدد المتاحين لمطاردة الخاطف.

عاد **جنتري** إلى الباب الخلفي وهو يعيد تلقيم مسدسه، وهناك وضع **أوريكس** على عربة نقل يدوية ذات عجلتين كان قد أعطاها له **زاك** .كانت العربة صغيرة وقابلة للطي وخفيفة الوزن،

ومصنوعة بشكل أساسي من أنابيب PVC متداخلة مع لوح أرضي من البلاستيك الصلب على شكل خلية نحل وإطارات مطاطية سميكة. وضع الجسد الثقيل على العربة، وأخذ لحظة ليدس ذراعيه داخل الحبل المطاطي المرفق، ثم توقف للحظة ليلتقط أنفاسه.

استمر إطلاق النار في الخارج على شكل رشقات متقطعة. بدا الصوت مشوشًا ومنتشرًا.

بدا وكأنه نذير شؤم، لكنه لم يسمع شيئًا حول جانبه من المبنى.

فتح **كورت** مزلاج الباب الخلفي وفتحه، ناظرًا أولاً إلى اليسار، باتجاه الساحة. كان الطريق خاليًا.

ثم نظر إلى اليمين. كان هناك رجلان مدنيان يقفان في الطريق الترابي. كانا يبدوان من صيادي **البجا**، وكانت أيديهما خالية من الأسلحة. وجّه **كورت** مسدسه نحوهما، فرفعا أيديهما على الفور. قال لهما بالعربية أن يذهبا، لكنهما بقيا واقفين في مكانهما. ولكن عندما لوّح بالمسدس وكاتم صوته الطويل، في حركة تحاكي إبعادهما عن الشارع، بدا أنهما فهما، واختفيا في ثوانٍ.

بعد دقيقة، كان **جنتري** يهرول في الظلال، دافعًا أمامه عربة النقل التي تحمل الرئيس. كان قد قطع بنايتين جنوبًا ولم ير سوى المدنيين الحائرين، اللذين لم يفعلا شيئًا لعرقلة تقدمه. ثم ركض **كورت** مرورًا بجدار طويل منخفض وانعطف داخل بوابة مفتوحة لمنزل خاص. في فناء ترابي صغير، أنزل العربة على الأرض وركع بجانبها. كان على بعد مائة ياردة من الباب الأمامي للبنك الآن. كان قد انعطف يمينًا مرة واحدة ثم يسارًا عبر ممرات ضيقة، وكان شبه واثق من أنه لم يُرصد ولم يترك أي أثر لأقدامه أو عجلاته.

استمر أزيز إطلاق النار من الساحة.

وكأنها إشارة، بدأ رأس **أوريكس** يتمايل يمينًا ويسارًا. فك **كورت** وثاق الرئيس وأجلسه، ثم صفعه عدة مرات على وجهه. أخرج أصفادًا بلاستيكية من حقيبة ظهره وقيّد ذراعي الرئيس السوداني أمامه. مد يده إلى زجاجة ماء وضعها ليسهل الوصول إليها في جيب جانبي من حقيبته، فتحها، ورش الماء بسخاء على وجه الرجل الأسمر الضخم وسكب القليل منه على رأسه الأصلع.

استعاد **أوريكس** وعيه بالكامل. كان لا يزال مشوشًا، وكانت حدقتا عينيه متسعتين. جعله **جنتري** يرتشف بضع جرعات من الماء، ثم صفعه مرة أخرى. بصق **أوريكس** الماء على الفور، وسقط معظمه على وجه **كورت** .ثم حاول **عبود** أن يمد يده ليبعد الأضواء الساطعة الوهمية التي تراءت أمام عينيه.

صاح **جنتري** متجاوزًا الطنين الحتمي في أذني **عبود" :استيقظ! مرحبًا. افتح عينيك! انظر إليّ! انظر إليّ"**.

لقد استحوذ على انتباه الرجل بالكامل الآن. كانت عيناه متسعتين لكن من الواضح أن بؤبؤيهما أبيضا من وهج ضوء " بيج بانج ". استوعب المشهد والرجل الذي أمامه بالنظر إليه بنظرة جانبية. كان مصدومًا بشكل واضح ولكنه كان يتعافى مما بدا قبل ثوانٍ مجرد حلم.

هز **أوريكس** رأسه، محاولًا إزالة التشويش، والأضواء الساطعة المتراقصة، والطنين المتواصل في أذنيه.

كان **كورت** قد تعرض لقنابل ضوئية صوتية عدة مرات في التدريب، لكن الأداة التي استخدمها على **أوريكس** وحراسه كانت جديدة، وفظيعة. كان **جنتري** سعيداً لأنه لم يكن قط في الطرف المتلقي لجهاز صعق صوتي بصري بهذا الحجم.

صاح **أوريكس** بالعربية" :**من أنت؟ أين... ماذا يحدث لـ"...**

أجاب **جنتري** بالإنجليزية" **:اسمع جيداً. لقد أُرسلت لقتلك. كانت تلك هي مهمتي. لكن شخصًا آخر أراد مني أن أختطفك بدلًا من ذلك. هل تفهم؟"**

أومأ الرئيس ببطء، وكأنه لا يزال غير متأكد من أن هذا كله ليس خدعة قاسية. حدّق فيه **كورت** لعدة ثوانٍ، ثم لمعت موجة من الذعر في عيني **أوريكس**.

"سأحاول اختطافك، لكن إليك الاتفاق. إذا أصبح الأمر معقدًا للغاية، سأعود إلى الخطة أ. الخطة أ عائدها أكثر بكثير من الخطة ب على أي حال. إذا ازدادت الأمور صعوبة، أو سببت الكثير من المتاعب عندما نحاول الخروج من هنا، فستكون الخطة أ هي الحل الوحيد. الخطة أ هي رصاصة بين عينيك الجاحظتين، وأتركك في الشارع، وأعود إلى دياري لأعد أموالي".

"هل فهمت؟"

أومأ **أوريكس** مرة أخرى. كان الذعر موجودًا، ولكن كان هناك إذعان في تعابير وجهه. لقد فهم الآن.

"إذًا مهمتك هي التأكد من أن الخطة أ ليست الخيار السهل بالنسبة لي. مفهوم؟ يجب أن نكون في نفس الفريق هنا، حتى يسير كل شيء بسلاسة، حسنًا؟"

"أمريكي؟ هل أنت أمريكي؟"

"بكل تأكيد ".قالها **كورت** بفخر. لقد مر وقت طويل منذ أن عمل لصالح الولايات المتحدة.

"جيد. ما هي رتبتك؟"

"لا رتبة".

"لا رتبة؟ أنت ضابط، أليس كذلك؟"

ضحك **كورت** وهو يدفع العربة اليدوية نحو الحائط لحجبها عن أنظار أي شخص يسير في الشارع بالخارج" .**مجرد جندي عادي يا هذا. كان الخيار بين هذا وتقشير البطاطس، وسحبني الحظ العاثر".**

لم يفهم **أوريكس** النكتة. هز رأسه مرة أخرى ليطرد الأضواء وأعلن" :**أرغب في الاستسلام لقائدك الأعلى".**

ضحك **جنتري**" .**آسف، أنا كل ما لديك في الوقت الحالي".**

"حسنًا جدًا ".قالها بنبرة خائبة" .**رأسي"——**

أخرج **جنتري** حبتين من جيبه الأمامي" .**خذ هاتين في الوقت الحالي".**

أخذ **أوريكس** الحبتين في يده، ونظر إليهما، لكنه لم يضعهما في فمه.

"إنهما مجرد مسكنات خفيفة. أعدك بأنك ستشكرني في غضون دقائق قليلة".

وضع **عبود** الحبتين في فمه ببطء، وابتلع جرعة أخرى من الماء واختنق بها، لكنه تمكن من إبقاء الحبتين في جوفه.

"هل تستطيع الركض؟"

"أركض؟ بالكاد أستطيع أن أرى"!

"هل يمكنك التحرك بسرعة إذن؟ قل لا، وستكون الخطة أ هي أفضل رهان لي، لأننا سنضطر إلى الإسراع لإخراجك من هنا".

أومأ **أوريكس** برأسه متعاونًا" .**أستطيع الركض"**.

"رجل جيد. الآن، سأساعدك على الوقوف".

نظر **أوريكس** حوله. بدا وكأنه لاحظ للتو كل إطلاق النار هذا" .**من الذي يطلق النار؟ ما كل إطلاق النار هذا ؟** "أدرك **كورت** أن سجينه لم يستوعب بعد ما كان يحدث. لم يكن ذلك مفاجئًا.

"أصدقاء لي. إنهم يشغلون أصدقاءك. سنتجه عبر الجزء الخلفي من هذا المنزل هنا، ونتجه جنوبًا لبضع بنايات، ثم نستقل قاربًا. هل أنت مستعد؟"

أومأ **أوريكس** مرة أخرى. كان متعاونًا بشكل مثير للريبة في عملية اختطافه. ورغم أنه كان لا يزال مشوشًا بوضوح، إلا أنه أدرك البديل ولم يكن لديه أدنى شك، وهو ينظر إلى الرجل الأمريكي الجاد أمامه، أنه لن يتردد في تنفيذه.

"لنتحرك، "قال **كورت** .ودفع **أوريكس** أمامه، دفعة قوية ليوجهه نحو المنزل الحجري الصغير.

كان **سييرا واحد واثنان وأربعة** يتقافزون داخل شاحنة البضائع وهي تهوي وترتطم بالأرض، ثم ترتد في الهواء وتبدأ في صعود تلة صغيرة. كانت الأبواب الخلفية مفتوحة على مصراعيها، لكن أربعة كان قد ربط نفسه بحزام مربوط بالمقاعد المركزية المثبتة وموصول به بإبزيم سريع الفك. لم يكن أحد يعرف أين هم بالضبط، على الرغم من أنهم أمضوا جميعًا أسابيع

في دراسة خرائط البلدة. حتى أن **براد** كان قد ألصق صورة من القمر الصناعي لـ**سواكن** على عجلة القيادة أمامه. لكن كل الشوارع بدت متشابهة، وكل الأزقة بدت متشابهة، والبحر اللامتناهي من أكواخ الخيش والأخشاب المتهالكة بدا متشابهًا، ويبدو أن جميع لافتات الطرق قد استُخدمت منذ زمن طويل كمواد للأسقف أو كحطب.

أمضى الرجال الثلاثة الدقائق الثلاث الماضية في الدخول والخروج من اشتباكات صغيرة مع جنود حكومة السودان من القوات المسلحة السودانية. بدت وحدات الحكومة في البلدة غير منظمة إلى أقصى حد. وفي كثير من الأحيان، كان **براد** ينعطف بشاحنتهم في طريق ليجدوا أنفسهم خلف طابور من الرجال. مرتين وجدوا أنفسهم وجهًا لوجه مع شاحنات عسكرية، وفي كلتا المرتين لم تُطلق رصاصة واحدة حيث تراجعت كلتا المركبتين للخروج من دائرة الخطر.

كان هذا كمينًا مشوشًا، إن كان كمينًا أصلًا، لكن ما افتقرت إليه القوات الحكومية من تنظيم، عوضته بالأعداد الهائلة. بينما كانت شاحنة "ويسكي سييرا" تنطلق عبر الشوارع الصغيرة التي تصطف على جانبيها مشاهد لا تنتهي من الأكواخ في الجانب الشمالي من البلدة، بدا أن المزيد والمزيد من القوات السودانية تظهر من كل حدب وصوب. كان **سييرا أربعة** قد أفرغ مخزن ذخيرة كاملًا من سلاحه على تهديدات العدو أثناء ومنذ اختراق الحاجز، والآن كان **ميلو** يعيد التلقيم بسرعة، متأكدًا من أن المزيد من القتال قادم.

جاء صوت **سييرا خمسة** عبر الشبكة بين رشقات نيران آلية على بعد ربع ميل من الشاحنة.

"مرحبًا يا واحد. أحتاج إلى بعض المساعدة هنا. تراجعت قوات الحكومة خارج مدى رؤيتي، وقد انتقلت إلى نافذة في الطابق الثاني، لكن لن يمر وقت طويل قبل أن يعودوا ويفجروا هذا الفندق".

"علم يا سبنس، "قال **زاك" .نحن قادمون لنقلك في أسرع وقت ممكن؛ نحن فقط تائهون قليلًا هنا".**

"فقط اتبع صوت إطلاق النار. لدي حوالي عشرة من حراس أوريكس يطلقون عليّ النار من الساحة. يجب أن تكون قادرًا على تحديد موقعك بذلك".

"نحن نحاول، "أجاب **زاك**، بينما قام **سييرا اثنين** بانعطافين سريعين إلى اليسار، ليصبح خلف سيارة جيب عسكرية مباشرة مثبت على صندوقها الخلفي مدفع رشاش روسي غير مأهول.

انعطف **براد** يمينًا على الفور.

"من سييرا واحد إلى سييرا ثلاثة، أعطني تقريرًا عن موقفك".

لم يتوقف **دان** عن إطلاق النار ليتواصل" .**إنهم يهاجمونني من زقاقين** ".شوهت طلقتان من بندقيته الإرسال في سماعة **زاك"** .**نيران غير منسقة، وأنا في موقع مرتفع على السطح هنا، لكن عددهم كبير بحق الجحيم. إذا وصلوا إلى أسفلي، فسأنتهي. هل تسمعني؟** "أخرت عدة طلقات أخرى رد **هايتاور**.

"أسمعك بوضوح. نحن في الطريق".

"عدو في الخلف "!صرخ **ميلو** من خلف **زاك**. في المساحة المعدنية الصغيرة للشاحنة، بدا صوت مدفعه الرشاش كمطرقة ثقب تضخمها مكبرات صوت فرقة هيفي ميتال. استدار **زاك** ليشتبك ببندقيته "تافور"، لكن **براد** قام بانعطاف سريع آخر أخرجهم من خط النار.

"واحد، هذا ثلاثة. أرى مروحية تقترب من الشمال".

"مروحية؟ مدنية أم عسكرية؟"

"آآآ، انتظر لحظة. إنها عسكرية. ضخمة جدًا. تبدو على بعد سبعة أو ثمانية كيلومترات، تحلق على ارتفاع منخفض وبسرعة، متجهة نحونا وكأنها في عجلة من أمرها... تبدو كأنها Mi-17."

"الـ Mi-17 هي هيب. السودانيون لا يملكون مروحيات هيب ".كانت "هيب" هي التسمية التي يطلقها الناتو على مروحية MI-17 الروسية الصنع.

"متأكد تمامًا أنها هيب يا سيدي".

"علم، اللعنة، "تذمر **زاك** .لم يكن هناك الكثير مما يمكنه فعله حيال هجوم جوي في الوقت الحالي.

"خمسة ينادي ون"!

"تفضل يا خمسة".

"أسمع نيران أسلحة خفيفة إلى الغرب مني. ليس على موقعي. سييرا ستة ليس على بعد كيلومتر واحد غرب الساحة، أليس كذلك؟"

"لا ينبغي أن يكون. ستة ، إذا كنت قادرًا على الإرسال، فأخبرني إن كان هذا أنت".

"من ستة إلى واحد. "جاء صوت **كورت** عبر الشبكة. كان صوته واثقًا وموجزًا" .**سلبي. أوريكس معي، ونحن جنوب شرق الساحة. نحاول الوصول إلى الميناء".**

فكر **زاك** في الأمر بينما قامت الشاحنة بانعطاف حاد آخر، هذه المرة إلى اليسار" .**لابد أنهم متمردو جيش تحرير السودان. أن تأتي متأخرًا خير من ألا تأتي أبدًا، على ما أعتقد. سأقبل أي مساعدة في الوقت الحالي. هل يبدو عددهم كبيرًا يا خمسة؟**"

"**لست منبهرًا. لا يبدو نصف ما يحدث فوق رأسي مباشرة**"!

"**انتظر لحظة،** "قاطع **سييرا اثنين** من خلف عجلة قيادة الشاحنة" .**هذا هو الزقاق الذي يؤدي إلى الركن الشمالي الشرقي من الساحة**".

"**هل أنت متأكد؟** "سأل **زاك** .لم تكن لديه أي فكرة. فقد بدا الزقاق مثل العشرات من الأزقة التي مروا بها.

"**نعم. إذا بقينا على هذا الطريق، فسنكون في الساحة في غضون ثلاثين ثانية. هل نريد أن نفعل ذلك؟**"

فكر **زاك** في الأمر لثانية، ثم قال" :**فليكن. لا نريد أن نتوه مرة أخرى، وستنفد ذخيرة سبنس ودان إذا لم نتمكن من إجلائهما**".

"**سيكون هناك جنود في الساحة. وقوة حرس عبود،** "أشار **سييرا اثنين** وهو يواصل القيادة.

أومأ **هايتاور** برأسه. بدأ في الإرسال" :**ثلاثة وخمسة، سندخل الساحة في غضون عشرين ثانية، ونخترقها ونحن نطلق النار، ثم نلتف خلف البنك وننقلكما من خارج مواقعكما في الزقاق على بعد بناية واحدة غرب الساحة. ابقيا رؤوسكما منخفضة**"!

جاء ردان بـ "علم".

"**أربعة ، سيصبح الأمر جنونيًا،** "صاح **زاك** إلى ميلو.

"أنا جاهز "!جاء الصراخ من الجالس في الصندوق خلفه.

كان **جنتري** على بعد أقل من خمس بنايات من الساحة عندما مرت شاحنة "ويسكي سييرا" عبرها. سمع صرير الإطارات، تلاه تبادل لإطلاق النار من البنادق والمسدسات استمر بلا هوادة.

كما سمع إطلاق نار متفرقًا أبعد إلى الغرب، على الأرجح خارج **سواكن**، بنادق كلاشينكوف تطلق النار وتتلقاه، واعتبر هذا المعركة غير المتكافئة بين جزء من قوات الحكومة ورجال جيش تحرير السودان الذين تمكنت وكالة المخابرات المركزية من إجبارهم على الحضور. كان من الواضح من الأصوات أنهم يتلقون هزيمة نكراء. من المحتمل أن يمر بعض الوقت قبل أن تقنع محطة السودان جيش تحرير السودان بخوض المزيد من المعارك بناءً على طلبها.

مع كل هذه الأحداث التي تعصف بالبلدة في الصباح الباكر، كان قطاعه خاليًا، على حد ما استطاع **كورت** أن يتبين. كان هو و**أوريكس** جاثيين على ركبهما تحت سقيفة مظللة تغطي فرنًا قديمًا من الطوب وتعمل كمخبز صغير في الهواء الطلق. كانا على بعد خمسين ياردة فقط من القوارب. كان بإمكانه رؤية القوارب الخشبية الصغيرة على مياه الخليج الساكنة، وهياكلها الحمراء تتأرجح جيئة وذهابًا بإغراء. خمسون ياردة فقط، نعم، لكنها خمسون ياردة من الأرض المكشوفة. قلق **جنتري** من وجود رجال الحكومة في الشمال على طول الشاطئ أو الجسر المؤدي إلى **جزيرة سواكن القديمة**، لكن أكثر من هذا، أقلقته الأنباء عن وجود مروحية في الأعلى. حتى لو تمكن هو و**أوريكس** من التسلل إلى القارب، فإن التحرك فوق الماء سيتركهما مكشوفين تمامًا لتلك المروحية.

فكر في الأمر لبضع ثوانٍ أخرى" .**دعك من القارب،** "قال بصوت عالٍ، ثم التفت إلى **أوريكس" .لدي سيارة، على بعد ثماني بنايات جنوب غرب الساحة. إلى هناك سنتجه. الآن "!**دفع **كورت أوريكس** إلى الزقاق، وبدأ كلاهما بالركض.

لم يكد يقطعا بناية واحدة في الزقاق حتى انعطف **أوريكس** فجأةً إلى اليسار، منحرفًا نحو زقاق أضيق يصعد تلة صغيرة. طارده **كورت**، ومد يده ليمسك بالرجل الضخم من عنقه ويعيده إلى المسار الصحيح، لكن فرقة من خمسة جنود حكوميين راجلين خرجت من الباب الخلفي لمبنى مرجاني صغير، على بعد لا يتجاوز خمسة عشر قدمًا من رئيسهم. رفعوا أسلحتهم في حيرة، وأخذوا لحظة لتقييم الموقف الذي وجدوا أنفسهم فيه فجأة. استغل **كورت** هذا التردد. وضع نفسه بين الجنود و**أوريكس** ودفع الرئيس بعيدًا بقوة، رافعًا سلاحه في نفس اللحظة. أطلق رصاصتين من مسدسه على صدر أول رجل في الفرقة، وأحكم يده الحرة حول ربطة عنق **أوريكس**، وجذب أسيره إلى خارج الزقاق الضيق بينما أسقط جنديًا آخر برصاصة في جبهته.

هرع الجنود الباقون للاحتماء في المبنى الذي خرجوا منه للتو، فترك **كورت أوريكس** وانطلق نحو البندقية الملقاة بجانب جثة أحد الجنود القتلى. لكن رشقة طويلة من بندقية مطلق نار غير مرئي انهمرت على بعد أقدام قليلة أمام **جنتري**، لذا استدار وتراجع خلف الزاوية، وأمسك بأسيره مرة أخرى، وفر هاربًا بأقصى سرعة ممكنة، وإحدى يديه على سلاحه والأخرى على عنق رئيس السودان.

الفصل الخامس والثلاثون

تمتلئ **سواكن** بقبائل الرشايدة والبجا في الغالب، ولكن بما أنها كانت سوقًا ومدينة ساحلية، ولا تزال تحتفظ ببعض سمات الميناء، فقد كانت موطنًا لنازحين من جميع أنحاء البلاد. الدينكا، والفور، والنوبة، والمساليت، والنوير، معظم القبائل تقريبًا أتت إلى هنا للتجارة والعيش. كان هناك أيضًا بعض النوبيين، وهم غير عرب داكنو البشرة للغاية يتجمعون بشكل أساسي حول نهر النيل غربًا.

عاشت إحدى هذه العائلات النوبية في كوخ مصنوع من الخيش والأخشاب الطافية والصفيح إلى الجنوب الغربي من الساحة. كان الكوخ أيضًا مقر عملهم، حيث كان رجل البيت يصنع صنادل من جلد الماعز بنعال من إطارات السيارات ويبيعها في الزقاق الترابي أمام كوخهم.

كان ابن الرجل قد مات، لذلك ساعد صانع الصنادل في تربية أحفاده الأربعة: ثلاث فتيات وصبي واحد.

انكمش الرجل فوق الفتيات في محاولة يائسة لحمايتهم، ونادى على حفيده **عدنان** البالغ من العمر اثني عشر عامًا ليأتي إلى جانبه من الكوخ ويستلقي في الظلام مع بقية أفراد الأسرة، لكن **عدنان** رفض أن يجبن. بدلاً من ذلك، فتح **عدنان** صندوقًا قديمًا بجوار بساط النوم، وأخرج منه أغلى ممتلكات والده المتوفى، وهو قوس طويل. بينما كان جده يصرخ فيه، التقط **عدنان** الشاب ثلاثة سهام قبل أن يركض خارج المنزل ونحو صوت إطلاق النار.

كان كوخه على تل، ومن الباب الأمامي كان بإمكانه رؤية الدخان وومضات الضوء باتجاه الساحة. كان هناك المزيد من إطلاق النار خلفه إلى الغرب، لكنه كان أبعد. ركض **عدنان** إلى مجموعة من السلالم المتهالكة التي تؤدي إلى أسفل تله. قفز على السلالم، نازلاً ثلاث وأربع

درجات في كل مرة، وكانت ساقاه الشابتان المفتولتان، بلون الفحم الأسود، معتادتين على هذا الجهد. مع إطلاق النار من حوله، دس رأسه غريزيًا بإحكام في عنقه وهو يركض.

مر برجل عجوز على عكازين خشبيين يقف أمام كوخه. صرخ الأعرج في الطفل، وطالبه بالعودة إلى منزله، لكن **عدنان** لم يكن يستمع.

كان **عدنان** ذاهبًا لإنقاذ عائلته ومدينته من أي شخص يهددها.

كان النوبيون محاربين شجعانًا وشرسين منذ زمن الفراعنة، وكان سلاحهم المفضل دائمًا هو القوس. بلاد النوبة نفسها تعني "أرض القوس". خدم الرماة النوبيون كمرتزقة مرغوب فيهم بشدة في الحروب القديمة في أماكن بعيدة مثل بلاد فارس.

تنحدر عائلة **عدنان** من اثني عشر جيلاً من صانعي الأقواس، لكن الأقواس لم تعد تجلب لهم المال، حيث كانت بنادق AK-47 والنسخة الصينية المقلدة منها، Type 81، تتدلى من أكتاف كل من له سبب لحمل سلاح في هذه الأنحاء. إن بندقية AK أقوى من القوس، وأسهل في إتقانها من القوس، ويمكن القول إنها أكثر تعقيداً من الناحية التكنولوجية بشكل طفيف فقط. لهذا السبب تحول جد **عدنان** إلى صناعة الصنادل، لكن **عدنان** تعلم في طفولته كيفية استخدام القوس الخيزراني الكبير ذي المقبض الجلدي، مع ترصيعات من العظم والقرن عند الأطراف وفوق اللفافة الجلدية مباشرة.

اندفع **عدنان** عبر بوابة صغيرة مصنوعة من الأخشاب الطافية وأسلاك التبن، إلى زقاق مترب آخر. تردد صدى إطلاق النار من الساحة على الجدران ووصل إليه. دس عنقه بإحكام أكثر وهو يستدير ليسرع نحو مصدر الصوت، وسلاح والده في يده اليمنى والسهام في يسراه.

كان سكان المدينة الآخرون في الخارج الآن، يهربون في الغالب. مر **عدنان** بهم وهو يعدو نحو موقع الحدث.

استدار عند ممر ضيق وتوقف فجأة. على بعد ثلاثين مترًا أمامه، عند مدخل هذا الزقاق، انطلق رجل أسود يرتدي بدلة سوداء حول الزاوية، كما لو أنه دُفع من الخلف. كانت يداه مقيدتين أمامه، وقد انزلق وتعثر إلى الأمام على ألمع حذاء رآه **عدنان** في حياته. انحنى الصبي السوداني الشاب بسرعة إلى مدخل مهجور خلف محل جزارة متداعٍ، واختبأ في ظل صباحي، وظهره إلى الحائط، ثم نزل إلى وضع القرفصاء. أطل برأسه من حول الزاوية ورأى الرجل الأسود يُدفع نحوه من قبل رجل أبيض ملتحٍ.

كافر.

كان الرجل الأبيض يحمل مسدسًا طويلًا في يده اليمنى، وكان يصرخ بينما كان الرجلان يركضان في الزقاق باتجاه مخبأ **عدنان" .تحرك! تحرك! تحرك"!**

لم تعنِ الكلمة الأجنبية شيئًا لـ**عدنان** الشاب، لكن النبرة أخبرته أنه يجبر الرجل الأسود على التقدم.

لم ير **عدنان** رئيس بلاده من قبل ولم يكن لديه أي فكرة عن هوية الرجل الضخم المقيد اليدين.

ها هي لحظة **عدنان**. في غضون ثوانٍ سيمران، ولم يكن لديه شك في أنه يستطيع أن يغرس سهمًا ذا رأس فولاذي في ظهر الكافر. كان عليه فقط الانتظار بضع ثوانٍ والإطاحة به من الخلف.

مع اقتراب خطى الأقدام والصراخ الأجنبي الغاضب من موقعه، حوّل **عدنان** تركيزه إلى الجانب الآخر من المدخل، على بعد متر واحد من أطراف قدميه الحافيتين. كان هناك ديك ميت يرقد في الظل، وجثته المغطاة بالريش موبوءة بالديدان وتتعفن. ضاقت عينا الصبي السوداني عزمًا. اختار سهمًا ووضع السهمين المتبقيين على العتبة المتربة بجانبه. وجه طرف

السهم الحاد الشبيه بالشفرة في يده نحو أكثر قطعة متعفنة من الطائر الميت وغرزه بعمق، وأدار الرأس يمينًا ويسارًا كمفتاح في قفل.

غطت ابتسامة ملؤها التصميم وجه الصبي الشاب وهو يغطي طرف قذيفته بالبكتيريا.

مر الرجل الأسود ذو البدلة بالمدخل، وكاد يسقط مرة أخرى إلى الأمام. وخلفه بخطوات قليلة كان الكافر الصارخ، ومسدسه الأسود الطويل يبدو ضبابيًا وهو يركض.

نهض **عدنان** وخطا إلى الزقاق خلف هدفه. أدخل سهمه في القوس، وسحب الوتر بإحكام وهو يرفع الطرف إلى مستوى العين، ومركزه على الرجل الأبيض الراكض، الذي كان يقترب من المنعطف خلف المبنى. كان الرجل يرتدي حقيبة ظهر، لذا عدّل **عدنان** تصويبه بحيث يصيب سهمه عنق هدفه في الأعلى.

"الله أكبر ".ومثل ألفي عام من الرماة النوبيين الفخورين من قبله، أطلق **عدنان** قذيفته.

"انعطف يسارًا! يسارًا "!صرخ **كورت** في الرئيس **عبود** .تعثر الرجل الأكبر سنًا؛ لا شك أن توازنه تأثر بقيوده، ولكن أيضًا لا شك، قرر **كورت**، أن الرجل كان ماكرًا بما يكفي لعرقلة هروبهما عمدًا. لكن **جنتري** لم يكن ليسمح بذلك، فرفع ذراعه اليمنى عاليًا ليضرب الرجل في مؤخرة رأسه، ليقنعه بمدى إلحاح الموقف.

تمامًا عندما ارتطم عقب مسدسه برأس الرئيس المتعرّق، شعر **كورت** بألم مبرح في لوح كتفه الأيسر فوق قمة حقيبة ظهره، على بعد ثلاث بوصات فقط من عموده الفقري. أطاحت به الصدمة إلى الأمام وأدارته قليلاً، ليس إلى الأرض ولكن كاد، وتعثر متجاوزًا الرئيس لكنه تمالك نفسه وهو يتبع الرجل حول الزاوية.

"آه "!تأوه من أثر الصدمة؛ لم يتبدد اللسع الحارق وهو يبطئ وينظر خلف كتفه.

كان سهم بني طويل يبرز من لوح كتفه.

تباطأ ركض **كورت** وهو يحدق فيه. واجه دماغه صعوبة في معالجة ما كان أمام عينيه للحظة طويلة. نظر إلى صدره ليتأكد من أنه لم يخترق جسده بالكامل. لم يفعل. ثم حاول الوصول إليه وفشل. أخيرًا، بدأ يهرول إلى الأمام مرة أخرى، ولا يزال ينظر إلى السهم. تمتم بهدوء : **"مستحيل"!**

ضغطت الشاحنة البيج على مكابحها بقوة عند المدخل الجانبي للفندق المكون من ثلاثة طوابق، وهو مبنى على الطراز الاستعماري لا بد أنه كان تحفة معمارية قبل مئة عام. بشرفاته الخشبية، وأقواسه الجملونية فوق النوافذ، ومصارعه البيضاء، وأعمدته الشبكية المزخرفة، بدا الفندق أقرب إلى طراز نيو أورلينز منه إلى الطراز العربي الأفريقي. نظر **زاك** من خلال الزجاج الأمامي، باحثًا عن أهداف، لكنه لم يستطع إلا أن يلاحظ الحالة المتهالكة لهذا المبنى وتلك التي على جانبي الطريق. انحنى **سبنسر** داخل الباب الجانبي للمركبة، وانطلقت مرة أخرى إلى الأمام. أطلق **ميلو** رشقتين من الرصاص في الشارع لإبقاء رؤوس جنود المشاة منخفضة، ولكن بدا أن هجوم جيش تحرير السودان إلى الغرب قد جذب العديد من القوات بعيدًا عن الركن الجنوبي الغربي من الساحة.

كان **سبنسر** يتجول في **سواكن** متخفيًا لمدة يومين، لذلك كان يرتدي الزي المحلي ويحمل فقط مدفعًا رشاشًا صغيرًا من طراز .Uzi سرعان ما أمسك بصفائح صدرية مع درع واقٍ كانت تنتظره داخل الشاحنة. كافح لارتدائها في الخلف بينما كانت شاحنة الإيكونولاين ترتج على الطريق السيئ.

انعطفت مركبة **ويسكي سييرا** شمالًا وتسارعت بسرعة على طريق أوسع غير معبد. كان يمكن رؤية رؤوس المدنيين في النوافذ والمداخل ويختلسون النظر من خلال بوابات المباني المسورة. كان السكان المحليون يبتعدون عن الطرق نفسها، وهو ما كان جيدًا لهم وجيدًا لـ**زاك** .لم يكن لديه شك في أن الجيش السوداني لن يفكر مرتين في الأضرار الجانبية، على الرغم من أنه ورجاله كانوا يبذلون قصارى جهدهم لتجنبها.

بعد أقل من ثلاثين ثانية من التقاط سييرا خمسة من الفندق، ضغطت الشاحنة مرة أخرى على مكابحها بقوة، هذه المرة عند مدخل مبنى من طابقين. فتح **سبنسر** الباب.

كانوا قد توقفوا لأقل من ثانية قبل أن يرسل **زاك"** :**ثلاثة، لن نجلس هنا طوال اليوم اللعين من أجل"ـــــ**

هز ارتطام على سطح الشاحنة هيكلها بالكامل، وكان تأثيره كضربة مكتومة على طبول آذان الركاب المنهكة. كان **دان**، يقفز من سطح المبنى. انزلق على جانب المركبة وانحنى داخل بابها المفتوح. أغلق سييرا ثلاثة الباب خلفه، ومرة أخرى داس سييرا اثنين على دواسة الوقود.

نادى **زاك** في سماعة رأسه لـ**كورت"** :**سييرا واحد إلى سييرا ستة، انتهى. لقد التقطت رجالي، وسأخرج من هنا بحق الجحيم. أنت وحدك الآن. حظًا موفقًا، واحذر من تلك المروحية اللعينة. واحد، انتهى"!**

لم يقطعوا أكثر من خمسين ياردة في الشارع المعبد عندما صعد ثلاثة من رجال الشرطة يرتدون الزي الداكن إلى حافة سطح ورشة حدادة صغيرة. ألقى كل رجل كتلتين خرسانيتين كبيرتين من فوق السطح. تقوست الكتل الإسمنتية الثقيلة في الهواء أمام الشاحنة، مما أجبر **براد** على حرف عجلة القيادة يمينًا، وكاد يخدش الطلاء من الجانب الأيمن وهو يمر بسيارة

شيفروليه سيدان قديمة متوقفة. عاد إلى اليسار وتفادى بصعوبة زوجًا من عربات الريكشا الفارغة بجانب الطريق.

كانت مجموعة أخرى من السكان المحليين في الأعلى على سطح مبنى آخر مع كتل أسمنتية وإطارات كبيرة، مستعدين لرميها على الشاحنة. عرف **هايتاور** أنه سيكون من الخطر محاولة القيادة تحتهم.

صرخ **زاك** من مقعد الراكب الأمامي" :**يسارًا هنا يا براد، يسارًا بقوة "!**انعطفت الشاحنة بحدة إلى زقاق أضيق من الطريق الذي غادروه للتو.

قبل أن يكمل انعطافته، صرخ **براد** لركاب الشاحنة" :**اشتباك من الأمام"!**

تفرقع الزجاج الأمامي للشاحنة وتشقق. لم يتحطم بالكامل، لكن خطًا من ثقوب الرصاص ذات الحواف البيضاء رسم عليه من اليمين إلى اليسار، من الأسفل إلى الأعلى.

شعر **زاك** بسحبة عنيفة في ساعده وبلسعات في وجهه ورقبته. رفع بندقيته فوق لوحة القيادة وأطلق النار من خلال الزجاج بشكل آلي بالكامل، مفرغًا مخزنه ذا الثلاثين طلقة على أهداف في الطريق أمامه ومحولاً الزجاج الأمامي إلى قطع من الرمل الأبيض.

انحرفت الشاحنة بحدة إلى يسارها. عرف **زاك** أنه لا مجال للخطأ بهذه السرعة في زقاق ضيق كهذا. استعد للاصطدام، وجاء الاصطدام، هزة قوية إلى اليسار، ثم ارتدت المركبة بقوة إلى اليمين، وهذه المرة عرف **هايتاور** أن الاصطدام الوشيك سيكون عنيفًا ومباشرًا على جانبه. سحب ساقيه لأعلى تمامًا عندما اصطدمت الشاحنة الكبيرة بمبنى أبيض على اليمين، وتباطأت، وتوقفت على بعد أربعة أقدام من الجدار المكسور من الكتل الخرسانية.

تصاعد البخار من المبرد في الهواء أمام النافذة المكسورة. ماتت الشاحنة.

صرخ **زاك** دون تردد" :**اخرجوا! اخرجوا! اخرجوا**"!

بعد أن أمر فريقه بالنزول، تدحرج **هايتاور** من باب الراكب الأمامي، وسقط على الأرض الصلبة، وهبط على كتفه ووركه، ووجد نفسه يواجه الاتجاه للمعاكس للاتجاه الذي جاء منه إطلاق النار. نظر خلف كتفه. كان أحد رجاله قد ألقى بالفعل قنبلة دخان بيضاء لحجب رؤية الرماة أمامهم في الطريق. كان مبنى من الحجر المرجاني متداعٍ ولكنه مأهول على بعد أقدام قليلة من رأسه، ونافذة على ارتفاع الخصر فوقه مباشرة، ولم يضيع **زاك** أي وقت في النهوض على قدميه، مطلقًا نفسه من الشارع في الهواء، متكورًا، ومحطمًا الزجاج، ومرتطمًا بقوة مرة أخرى الآن على الطابق الأرضي للمبنى. كان مكتبًا مظلمًا من نوع ما. كان هناك طابع حكومي في التجهيز، لكن لم يكن أحد بالداخل في هذا الوقت المبكر، ولم تكن مولدات الإضاءة تعمل.

تدحرج **زاك** بسرعة على ركبتيه وبدأ في إعادة تلقيم بندقيته. لم يستطع إلا أن يلاحظ الدم؛ كان على ذراعيه وقفازاته والزجاج المحطم والأرضية التي هبط عليها، وكان ملطخًا في جميع أنحاء بندقيته ذات اللون البني. لكنه واصل عمله، ولم يتوقف لحظة لتفقد خطورة إصاباته.

استمر إطلاق النار في الخارج في الشارع بلا هوادة. تمامًا عندما أدخل طلقة جديدة في الحجرة وبدأ في الوقوف، طار سييرا اثنين عبر نفس النافذة. اصطدم جسداهما، ضربة خاطفة، وسقط **براد** على الأرض، وانزلقت بندقيته من طراز FAMAS F1 بعيدًا عنه عدة ياردات عبر الأرضية.

"**أربعة مصاب** "**!**جاء النداء عبر سماعة **زاك**؛ كان صوت **دان**، وكان **دان** لا يزال في الخارج في الشارع المليء بالرصاص المتطاير.

صرخ **زاك** في الميكروفون" :**أقوم بالتغطية النارية شمالًا؛ سيفتح اثنان الباب بجوار الشاحنة. أدخلوا ميلو إلى هنا "!**أخرج **هايتاور** بندقيته من النافذة وأطلق رشقات قصيرة في الزقاق. دون أن ينظر، كان يعلم أن **براد** سيكون قد هرع بالفعل إلى الباب الخلفي للمبنى لمساعدة الآخرين على الدخول.

فعل **زاك** ما بوسعه للحفاظ على الذخيرة، لكن سلاحه نفد قريبًا. طلب التغطية، لكن الرجال الآخرين في فريقه كانوا لا يزالون منخرطين تمامًا في إنقاذ زميلهم المصاب. أسقط **هايتاور** بندقيته الفارغة وسحب مسدسه من طراز Sig من جراب فخذه، وأطلق النار من النافذة وفي الشارع بيده اليمنى، واضطر إلى إخراج رأسه وكشف جذعه العلوي للقيام بذلك، بينما كانت يده اليسرى تتحسس قنبلة يدوية في جيب على صدره.

عندما ثبت مزلق مسدسه مفتوحًا مع إطلاق آخر طلقة، ظهر سييرا خمسة على يساره وفتح النار بمدفعه الرشاش الصغير .Uzi ألقى **زاك** القنبلة لأبعد ما يستطيع في الشارع" .**قنبلة "!**ثم تراجع إلى داخل الغرفة لإعادة التلقيم وتقييم الوضع.

جلس أربعة على الأرض. وبمدفعه الرشاش HK في يديه، غطى الباب الذي دخل منه هو واثنان آخران المبنى. كانت ساقه اليمنى السفلية ملطخة بالدماء، وفحصها ثلاثة بسرعة. كان اثنان قد عبر بالفعل الغرفة الكبيرة، دافعًا المكاتب والكراسي بعيدًا عن طريقه، وكان ينظر من نافذة على الجانب الجنوبي، محاولًا العثور على مخرج سريع لتحريك الفريق مرة أخرى. لاحظ **هايتاور** أن سييرا اثنين كان يعرج وهو يتحرك.

أعاد **زاك** التلقيم؛ كان لديه ستة مخازن بنادق متبقية. لم تبدُ طلقاته المتبقية البالغ عددها 150 طلقة الكثير من الذخيرة، بالنظر إلى أنه قد استهلك بالفعل تسعين طلقة في قتال متقطع لم يتجاوز الخمس دقائق.

وبينما كان يتحرك عبر الغرفة للالتقاء بـ**براد**، ألقى نظرة على جروحه. كان هناك ثقب رصاصة نظيف ومستدير تمامًا تقريبًا في ساعده الأيمن. كان الدم يسيل منه، ويبلل قميصه البني ومعداته، لكن يده وذراعه بدتا تعملان بشكل جيد. ثم وجد جرح خروج فوق مرفقه مباشرة. كانت كلتا الذراعين واليدين مغطاة بالدماء، لكنه لم يجد أي إصابات أخرى بخلاف بعض السحجات من الزجاج المكسور على خديه، تحت نظاراته الواقية مباشرة.

"**ثلاثة، هل يستطيع المشي؟** "سأل **زاك** في الميكروفون عندما وصل إلى جانب اثنين.

"إيجابي. أعتقد أن شظيته متصدعة، وهو يفقد الدم. سيحتاج إلى علاج في أسرع وقت ممكن، لكنه يستطيع المشي لبضع دقائق، على أي حال".

"هذا يكفي. الجميع معي، سنخرج من هنا الآن. لن ندع هؤلاء الحمقى يحيطون بنا".

الفصل السادس والثلاثون

سمع **كورت** إرسال **زاك** إليه وهو لا يزال يركض مع **أوريكس**، وبعد نصف دقيقة، **دوى** صوت اصطدام في الأفق. وأخبرته الإرسالات المتواصلة على جهازه اللاسلكي أن فريق "ويسكي سييرا" قد نجح في الخروج من الشارع، لكن كان من الواضح أنهم غارقون في ورطة حتى آذانهم.

لكن **كورت** كانت لديه مشاكله الخاصة. فقد اندفع هو و**أوريكس** إلى كوخ مكتظ بالسكان المحليين، للاختباء من فصيلة جنود كانت تهرول باتجاه الساحة. كانت الغرفة مظلمة وقذرة ومفتوحة، والضوء الوحيد يتسلل من ثقوب في الجدران حيث لا تتطابق ألواح الصفيح المتموجة مع الأخشاب الطافية.

ثبّت **جنتري** مسدسه "غلوك" على صدغ الرئيس. كان **الرجل الرمادي** يلهث من عناء الركض وضخ الأدرينالين في عروقه، ويتأوه من الألم مع كل نفس حيث كانت العضلات حول السهم تشتد وتتشنج. وبينما كان يفعل كل هذا، حدّق في عائلة مكونة من تسعة أفراد كانت تجلس على الأرض وتبادله النظرات. كان في الغرفة أطفال، صغار سمر بعيون واسعة كبيرة، نظراتهم أوضحت لـ**جنتري** أنه أغرب مشهد وقعت عليه أعينهم في حياتهم.

أظهرت عيون البالغين بعض الخوف والمفاجأة أيضًا، لكن ما فاق ذلك كان غضبًا مشوبًا بالكبرياء، من أن هذا الرجل الأبيض بمسدسه وسجينه يقتحم ببساطة منزلهما المتواضع ويهددهما بمجرد وجوده. كانت حياة هؤلاء الناس وليدة المشقة والتقشف والمرض والكدح والجوع وغياب الحرية والإرادة الحرة. فخطر آخر يضاف إلى حياتهم، وإهانة جديدة لوجودهم، قوبلت بمزيج من السخرية والغضب يفوق إحساسهم بالرعب.

رغم أن البالغين قد لاحظوا أن هذا الرجل الأبيض لم يوجه سلاحه إلى أي شخص سوى الرجل الذي يرتدي البدلة.

لم يكن لدى هؤلاء الناس أدنى فكرة أنهم في حضرة زعيم بلادهم. فهو لم يكن يعني شيئًا في حياتهم.

تجاهل **كورت** السهم المغروس في ظهره قدر ما يستطيع أي شخص تجاهل شيء كهذا. من شدة الألم، أدرك أنه مغروس بعمق في عظمة لوح كتفه، لكنه كان لا يزال قادرًا على تحريك ذراعه وكتفه. أدرك أنه كان محظوظًا لأنه لم يصبه بقوة أكبر. فلو كان قد اخترقه لثلاث بوصات أعمق، لكان النصل قد مزّق أعلى قلبه ولكان الآن ميتًا، ممددًا على وجهه في الزقاق حيث أصيب. خمّن أن رامي السهام لا بد أنه أطلق عليه من مسافة بعيدة، أو أنه كان امرأة أو فتى صغيرًا؛ وإلا، لكان المقذوف الحاد قد اخترقه بالكامل بالتأكيد.

كان الألم لاذعًا كالجحيم، لكنه لم يكن قاتلًا، رغم أنه كان متأكدًا من أنه لن يمر وقت طويل قبل أن يرتطم الجزء البارز من السهم بجدار عن غير قصد ويفسد صباحه تمامًا. حاول مرة أخرى أن يمد يده إلى الخلف ويمسك بالسهم، لكنه لم يستطع الوصول إليه. فكر للحظة في أن يطلب المساعدة من أحد السكان المحليين لانتزاعه من ظهره، لكن كل ما أراده الآن هو الخروج من هذه البلدة اللعينة، ولم يكن يرغب على الإطلاق في التوقف لإجراء ما سيكون بالتأكيد عملية بطيئة ودقيقة ينفذها شخص لن يثق به لإنجازها بشكل صحيح.

سرعان ما اختفى الجنود من الطريق. أومأ **كورت** برأسه لرب الأسرة، في إشارة غير مجدية للامتنان على عدم إثارة المتاعب، وإظهار للأسف على الإزعاج، ثم خرج مجددًا إلى الطريق مع **أوريكس** .وصلا إلى السيارة؛ كانت متوقفة حيث قال **زاك** إنها ستكون، وأدخل **كورت** **عبود** فيها دون عناء، ثم ركض إلى جانب السائق. كان من الصعب عليه الدخول إلى المقعد مع وجود السهم في ظهره وحقيبته لا تزال على كتفيه؛ اضطر إلى الانحناء إلى الأمام وإرجاع

مسند الظهر والالتفاف قليلًا إلى اليسار. أخيرًا، أدار المفتاح، فدار المحرك.
شعر بقميصه المبلل بالدم يلتصق بظهره.

بينما كان يغير وضع ناقل الحركة في السيارة الصغيرة ذات البابين، حلّقت المروحية فوق رأسيهما مباشرة على ارتفاع لا يزيد عن مائة قدم. كان الضجيج مدويًا، وخفقان المراوح خبيثًا لدرجة أن **كورت** انحنى في مقعده.
واصلت المروحية طريقها، مباشرة نحو إطلاق النار من معركة "ويسكي سييرا" على بعد نصف ميل إلى الشمال.

رفع قدمه عن القابض، وضغط على دواسة الوقود، فانطلقا إلى الأمام. تسببت الحركة في ارتطام السهم بقوة بالمقعد خلفه.

"اللعنة "!صرخ، والألم يشبه وميض لهب أزرق في ظهره ويمتد إلى ذراعه ورقبته. وهو يصرخ، التقت عيناه بعيني الرئيس المذعور. انفجر **كورت** فيه، وقد تملكه الأدرينالين والغضب في تلك اللحظة" :**ما هذا الهراء يا رجل؟ أي نوع من البلدان المتخلفة اللعينة هذه التي تديرها؟ سهم لعين؟ هل تمزح؟ "**تركت يد **كورت** اليمنى عجلة القيادة، وتكورت في قبضة، وسدد لكمة لوجه **عبود** .وبفعله هذا، احتك السهم مرة أخرى بالمقعد، فصرخ من جديد.

كان فريق "ويسكي سييرا" قد خرج من مبنى المكاتب إلى الزقاق شرقًا. ثم تقدموا كفريق واحد عبر حي من الخيام والأكواخ، المصنوعة من الخيش والقماش أو الصفائح المعدنية وقطع غيار السيارات الصدئة التي تحولت إلى أبسط أشكال المساكن. ومن خلال التعرج نحو الشمال الشرقي عند كل فرصة، كان **زاك** ورجاله يغيرون اتجاههم لتضليل مطارديهم، وفي نفس الوقت يشقون طريقهم ببطء نحو الماء. كانت المروحية تحلق فوقهم، لكن فريق

"ويسكي سييرا" كان يندس تحت السقائف ويلتصق بجدران المباني ويواصل الركض. إذا كانت من طراز "هيب" —— ولم يرها **زاك** ليتأكد —— فقد تكون مزودة بذخائر جو ــ أرض مثبتة على نقاط تعليقها. وحتى لو لم تكن كذلك، فلا يزال بإمكانها حمل عشرين جنديًا بكامل عتادهم، وهو عدد أكثر من كافٍ لإثارة المتاعب لفريق "ويسكي سييرا."

تباطأ ركضهم عبر الحي الفقير بشكل كبير بسبب **ميلو** .كانت ساقه اليمنى ملطخة بالدماء، وقدمه لا تسعفه. أصبح يعرج، وتخور قواه دقيقة بعد دقيقة، وكان هذا مجرد شيء آخر لا يستطيع **سييرا واحد** فعل أي شيء حياله.

كان **زاك** نفسه يفقد الدم، لكن جرح ذراعه لم يكن حتى ضمن أولوياته العشر في تلك اللحظة.

ومع ذلك، كان من اللافت للنظر السهولة التي تمكنوا بها من قطع الاتصال بقوات الحكومة. فتصميم الحي العشوائي الشبيه بالجحر، مع العديد من الممرات التي لا يتجاوز عرضها خمسة أقدام، جعله مكانًا رائعًا ليس للاختباء فحسب، بل للتحرك دون أن يُرصدوا من أي مسافة.

كان **زاك** وفريقه ليبتعدوا أكثر عن آخر نقطة اشتباك مع العدو لولا كل هذه الحركة في الأزقة والممرات. كان المدنيون في كل مكان الآن. رجال ونساء وأطفال سمر يركضون في كل اتجاه، وعربات "الريكشا" التي يكاد عرضها يبلغ عرض الممرات التي تسير فيها، تخنق السكان المحليين الذين لا يستطيعون الابتعاد عن طريق الأجانب الملطخين بالدماء، الصارخين، حاملي السلاح، حتى لو حاولوا. مرتين، ضرب **هايتاور** حرفيًا مؤخرة بندقيته "تافور" في جانب كوخ صغير لدفع زاوية المبنى، بجدرانه وسقفه، بما يكفي ليتمكن هو ورجاله من المرور. كانوا يلوحون ببنادقهم لأي شيء يتحرك في طريقهم، لكن هؤلاء المدنيين لم يرغبوا في أن يكونوا طرفًا في هذا القتال، لذلك لم يضطر **سييرا واحد** ورجاله إلى إطلاق النار على أي من السكان المحليين حتى الآن.

وصل فريق "ويسكي سييرا" إلى نهاية حي الأكواخ والخيام ووجدوا أنفسهم على حافة. أمامهم، انحدر تل شديد الانحدار، خالٍ تمامًا من النباتات، لمسافة خمسين ياردة إلى طريق، على الجانب الآخر منه يقع السوق. كانت هناك أكشاك مغطاة بالخيام وأكشاك خشبية وأكشاك في الهواء الطلق تمامًا حيث تُعرض المنتجات أو البضائع الأخرى ببساطة على قماش على التراب، ولكن كان هناك أيضًا مبنى أسمنتي يمتد لثلاث بنايات ويضم متاجر دائمة ومرافق تخزين صغيرة ومستودعات.

في دراسة الفريق للبلدة، أُطلق على هذا المبنى اسم "مول ألفا."

على الجانب الآخر من هذه المباني كان هناك صف آخر من المباني الدائمة، أُطلق عليه اسم "مول برافو"، وشرق هذا مباشرة كانت حافة المياه.

وبينما كان واحد يفكر في إصدار أمر لرجاله بالنزول من التل، صاح **سييرا خمسة** من مؤخرة الفريق الصغير المكون من خمسة رجال.

"عدو في الخلف "!أطلق رشقة من مدفعه الرشاش "عوزي" ."**ها قد أتوا "!**لقد عثرت عليهم قوات الحكومة.

أدرك **زاك** في لحظة أنه سيتعين عليهم كشف أنفسهم على التل. كانوا بحاجة للوصول إلى المباني الأكثر صلابة لتكون لديهم أي فرصة لصد القوات التي تطاردهم.

كانت المروحية على بعد ربع ميل إلى الغرب وتحلق على ارتفاع منخفض، لكنها بدأت في انعطافة بسيطة ستعيدها إلى موقع **زاك** في غضون عشرين ثانية" .**هيا بنا. ثلاثة، ساعد أربعة "!**

أفلت **ميلو** المصاب من قبضة **دان**، واستدار نحو العدو المقترب في الزقاق، وجثا على ركبتيه.

"اذهبوا أنتم! سأبقى هنا لأصدهم"!

أمسك **زاك هايتاور** بالرجل الشاب من عتاده، وجذبه لينهض" .**يا بطل! أغلق فمك اللعين**

ونفذ ما أُمرت به! هذا ليس فيلمًا هوليووديًا، اللعنة".

"سيدي"!

دفعه **زاك** بقسوة نحو **دان**، الذي أمسكه من خصره، وبدأوا جميعًا في النزول من التل.

في غضون ثوانٍ، فقد **هايتاور** توازنه على المنحدر. كانت الأرض صلبة كالحجر، مغطاة بطبقة سميكة من الغبار الجاف. لم يكن لحذائه أي فرصة للتشبث، لذا بينما كان يركض، سقط إلى الأمام وتدحرج وانزلق أسفل التل. وما إن وصل إلى الأسفل، ونهض على قدميه، واستدار حتى انزلق **براد** و**سبنسر** بجانبه. قفز **سبنسر** على قدميه واستدار للتغطية، لكن حزام بندقية **براد** كان قد علق في عتاده، واستغرق وقتًا أطول للوقوف.

كان **دان** و**ميلو** لا يزالان ينزلقان على التل على مؤخرتيهما، رافعين أسلحتهما أمامهما للتوازن ولمنع فوهاتها من الاتساخ بالتراب، عندما رأى **زاك** جنودًا سودانيين يظهرون على الحافة. أسقط هو و**سبنسر** جنديًا برشقة في صدره على بعد خمسين ياردة، مما دفع بقية الرماة من قوات الحكومة إلى الانبطاح للاحتماء في قمة التل.

صرخ **هايتاور** فوق رشقة تغطية طويلة أخرى من **سبنسر**، وأمر **براد** بمساعدة **دان** في إدخال **ميلو** في أول باب في أول متجر في "مول ألفا". كان ضابط العمليات شبه العسكرية المصاب البالغ من العمر تسعة وعشرين عامًا خارج القتال الآن تقريبًا؛ لم يكن يستطيع النهوض على قدميه دون أن يسحبه الرجلان الآخران بدرعه وعتاده الضخم. تحركوا، ونفدت ذخيرة بندقية **سبنسر**.

"غطّني "!نادى **سييرا خمسة.**

"أغطيك "!أجاب **زاك**، جاثيًا على ركبتيه وأطلق طلقة واحدة على رأس ظهر في قمة التل. ذهبت طلقته منخفضة، وحفرت في التراب الصلب محدثة انهيارًا صغيرًا من الغبار والصخور.

أعاد **سبنسر** تلقيم سلاحه وعاد إلى القتال تمامًا في اللحظة التي حلّقت فيها المروحية فوق التل مباشرة أمامهم. استطاع **زاك** الآن أن يؤكد أنها كانت، في الواقع، مروحية Mi-17 "هيب"، وهي مروحية روسية الصنع لم يكن معروفًا أن حكومة السودان تمتلكها. لم يُطل التفكير في هذا الكشف، حيث فتحت المروحية النار بمدفع رشاش ثقيل معلق من أحد أبراجها الخارجية.

"تحرك "!صرخ **سييرا واحد** لـ **سييرا خمسة**، واستدار الرجلان ليركضا نجاة بحياتهما.

الفصل السابع والثلاثون

أدخل **كورت** سيارة سكودا أوكتافيا الصغيرة عبر البوابة المفتوحة لمنزل خاص على بعد عشرة كيلومترات شمال غرب **سواكن** .كان الجدار البني يرتفع ثمانية أقدام من كل جانب، ومن مظهر البوابة الأمنية، توقع **جنتري** أن يرى مسكنًا كبيرًا في الداخل، لكن بمجرد دخوله من البوابة وجد مبنى صغيرًا من طابق واحد فقط، بنوافذ بلا زجاج وعدة رؤوس من الماعز السائبة تمضغ القش في جميع أنحاء الفناء الترابي.

وكانت سيارة مرسيدس **محمد** البيضاء القذرة هناك، متوقفة في زاوية خلفية من الفناء.

لم يعد **كورت** يسمع صوت إطلاق نار في الأفق، وكان جهاز الراديو المتصل بسماعة رأسه خارج نطاق أي إرسال، لذلك لم تكن لديه أي فكرة عما يجري مع **زاك** وفريقه في **سواكن** . لم يتمكن من رؤية المروحية في مرآة الرؤية الخلفية، لكن ذلك لم يعنِ شيئًا، حيث كانت المروحية تحلق على ارتفاع منخفض جدًا بحيث لا يمكن رؤيتها من هذه المسافة على أي حال.

كان **أوريكس** يتصرف بهدوء. عشرون مليغرامًا من الأوكسيكونتين قد تكفّلت بذلك. ظل واعيًا —— ومتنبهًا، إلى حد ما —— لكنه لم يبدُ حقًا وكأنه يكترث لما يحدث. جلس بهدوء في مقعد الراكب، مربوطًا بحزام الأمان ويداه مقيدتان معًا في حجره، وكان ينظر فقط من النافذة إلى المشهد أثناء القيادة كأنه زائر يرى البلاد التي يحكمها للمرة الأولى. لقد مرا بالعديد من عربات الحمير المليئة بالناس الفارين من المدينة، يائسين لتجنب أي جنون كان يحدث في شوارعهم الهادئة عادة في صباح يوم أحد هادئ. كانت هناك أيضًا حركة المرور التجارية الصباحية المعتادة، وحتى على هذا البعد من المدينة، كانت الشاحنات والحافلات

والجمال وعربات الحمير تملأ الطريق بكثافة، حتى أمام هذا المنزل. وكان **أوريكس** يستوعب كل ذلك. لم يكن يبتسم، ولم يكن مذعورًا، كان فقط يراقب الجميع يمرون.

كان على الحالة التي أرادها **جنتري** تمامًا.

أما **كورت**، من ناحية أخرى، فكان بائسًا. كان الألم الحاد في ظهره يزداد حدة مع كل مطب في السيارة الصغيرة، وكانت هناك مطبات كثيرة جدًا على الطريق من **سواكن** .كان العرق يسيل في عينيه، وكانت حشرة تشبه ذبابة الخيل وتخفق بجناحيها كطائر صغير قد ضايقته طوال الطريق، مما جعله يضربها وينحني ويتسبب حتمًا في غرس السهم اللعين أعمق في كتفه.

أوقف **كورت** السيارة وألقى نظرة على **أوريكس** .لا، إنه لن يذهب إلى أي مكان. خرج من السيارة ووقف مستقيماً للمرة الأولى منذ خمس عشرة دقيقة. سحب مسدس الجلوك وأمسكه بجانبه.

لم يكن **محمد** ظاهرًا في أي مكان. افترض **كورت** أنه كان يجلس في سيارته منتظرًا، لكنه لم يستطع الرؤية من خلال النوافذ المعتمة ولم تكن لديه أي فكرة عما إذا كان مسؤول الشرطة في السيارة أم في المنزل.

بينما كان يقترب، خرج **محمد** من المرسيدس. كانت يداه فارغتين، لذا أعاد **كورت** مسدسه إلى جرابه. بدا الرجل الطويل من قبيلة البجا مضطربًا، وهو ما لم يفاجئ **كورت** على الإطلاق.

سار **محمد** باتجاه **كورت**، الذي توقف على مقربة من سيارته. من الواضح أن الشرطي لم يلاحظ الرجل الأسود في المقعد الأمامي، ولم يلاحظ على ما يبدو السهم في ظهر **كورت** .يا

له من شرطي، فكر **كورت**، لكن عقل الرجل كان يركز على ارتباكات أخرى في الوقت الحالي" .**ماذا حدث؟ يقولون في الراديو إن هناك إطلاق نار. الكثير من إطلاق النار"!**

"نعم، الوضع جنوني هناك".

"هل كانوا يطلقون النار عليك؟ الجيش كان يطلق النار عليك؟"

"بعضهم".

"هل فعلتها؟ "سأل **محمد**.

هز **كورت** كتفيه" .**لقد فعلت ما جئت لفعله، نعم".**

"ولكن إذا كنت هنا... على من يطلقون النار الآن؟"

نظر **كورت** خلف كتفه، متجاوزًا السهم في ظهره، ونحو سيارته. تبع **محمد** عيني الرجل الأبيض.

"من هذا؟"

"رجل التقطته في الطريق"، قال **كورت**.

بحذر، ولكن ليس بحذر كافٍ، مر **محمد** بالرجل الأبيض وانحنى لينظر من خلال نافذة الراكب المفتوحة. تصلّب جسده من الصدمة. سرعان ما نهض مرة أخرى" .**إنه فخامة الرئيس. لا أفهم. ظننت أنه كان من المفترض أن"——**

استدار **محمد**، وضاقت قزحيتا عينيه الواسعتين على كاتم الصوت على بعد ثلاث بوصات من جبهته.

لم يسمع طلقة الرصاص التي قتلته.

"من هذا الرجل؟ "سأل **عبود** بينما كان **كورت** يساعده على الخروج من السيارة. كان الأمريكي قد التقط مفاتيح سيارة الرجل من التراب، ولف الرأس الدامي في بطانية. ابتعد عن الرئيس وبدأ يجر **محمد** من ذراعيه إلى مؤخرة سيارته.

"شرطي محلي. كان يعمل لصالح الأشخاص الذين استأجروني لاغتيالك".

"ماذا؟ "ثم، **"خائن"!**

فتح الأمريكي صندوق المرسيدس. مع اختراق السهم لعضلات جذعه العلوي، كان رفع الوزن الميت من على الأرض ، ثم دحرجته إلى الخلف عذابًا. لكنه أنجز المهمة. ثم نظر إلى **عبود"** .**كيف حال قلبك؟** "فتح سحاب حقيبته وأخرج زجاجة ماء بلاستيكية شفافة.

"قلبي؟ "سأل **عبود**، غير متأكد مما إذا كان قد فهم السؤال" .**أشعر بغرابة قليلة في رأسي. لكن قلبي بخير. لماذا؟"**

"صحتك جيدة؟ ضغط الدم؟ أي مشاكل في الجهاز التنفسي؟"

اقترب **عبود**، ووقف خلف السيارة بجانب الرجل الأبيض الذي كان السهم في أعلى ظهره وتساؤلاته الغريبة. ألقى الرجل زجاجة الماء في الصندوق مع الجثة. أي نوع من الجنون كان هذا الشيطان الأبيض جزءًا منه؟

"أنا بصحة جيدة جدًا. ما هذه الاستفسارات عن حالتي؟ ولماذا تعطي رجلاً ميتًا زجاجة ماء؟"

نزع **كورت** ربطة عنق الرئيس من حول رقبته، ثم فك الأزرار المتبقية من قميصه الأبيض المنشّى. سحبه من بنطاله الأسود وتركه يتدلى بحرية، كاشفًا عن قميص داخلي أبيض برقبة على شكل" .V **إنها ليست له. اقفز للداخل".**

"أقفز؟"

"ادخل الصندوق. الآن"!

"مع"——

سحب الرجل الأبيض **عبود** من مؤخرة رأسه، ووجهه أكثر مما دفعه إلى مؤخرة السيارة، ثم استخدم سكينًا قابلاً للطي لقطع حبل فتح الصندوق الداخلي. دفع الرجل السوداني الضخم الجثة الميتة جانبًا ليمتثل لتعليماته. لم يكن يريد أن يعصي هذا الرجل.

لم يكن يريد مساعدة الرجل الذي يحاول اختطافه. لم يكن يريد الصعود إلى السيارة السيدان المظلمة مع هذه الجثة الدامية لخائن لوطنه.

لكنه أكثر من أي شيء آخر، لم يكن يريد أن تتحول عملية الأمريكي إلى الخطة ألف.

على بعد عشرة كيلومترات جنوب شرق موقع **جنتري**، تمكن **زاك هايتاور** من إدخال جميع رجاله إلى أول مبنيين من مبنيين طويلين متماثلين ومنتظمين من طابقين. كان للمركز التجاري مظهر بناء بارد وفعال يخص وكالة غير حكومية، وكانت هناك أكشاك خشبية مصنوعة يدويًا ذات أسقف منخفضة مبنية بشكل عشوائي حوله. كان أشبه بسوق شعبي حضري رخيص منه إلى مركز تجاري أمريكي. كانت أرضية المبنى بالداخل مليئة بالتراب، كما لو أن مياه الأمطار من التل قد جرفت الطوابق الأرضية خلال موسم الأمطار. أيضًا، إلى

جانب البضائع المعروضة للبيع داخل الأكشاك المغلقة والمحاطة بالبوابات، كانت القمامة في كل مكان في الساحة المفتوحة، كما لو أن واضعي اليد كانوا شائعين. لم يكن هذا مفاجأة كبيرة، بالنظر إلى أن هذه المباني كانت أكثر أمانًا بكثير من المنازل الفعلية لغالبية أولئك الذين يعيشون في **سواكن** وحولها. افترض **هايتاور** أنه يجب أن يكون هناك بعض الأمن هنا، ولكن يبدو أن الأمن قد أخلى المكان عندما جاء خمسة رجال بيض داميين وعيونهم متوحشة، يرتدون زي الجنود ويطلقون نيران الرشاشات على المروحيات والقوات الحكومية، وهم يتدحرجون وينزلقون أسفل التل في الخارج.

كان صف المباني مبنيًا بقوة ولكنه بالتأكيد ليس منيعًا. كانت هناك نوافذ على ارتفاع الخصر بدون زجاج، ومداخل بدون أبواب، وخلف هذا المركز التجاري كان هناك آخر، كتلة مماثلة من المحلات التجارية مكونة من طابقين، وعشرات النوافذ حرفيًا وسطح طويل يمكن لشخص ما من خلاله الحصول على خط رؤية إلى نافذة مفتوحة في موقع **ويسكي سييرا**.

وكانت المروحية اللعينة تحلق فوقهم مباشرة الآن.

كانت ساق "أربعة" في حالة فوضى، تنزف من عدة نقاط. خمّن **زاك** أنه فقد ما يزيد عن لتر من الدم بالفعل. معظم الرجال لم يكونوا ليقفوا على أقدامهم، ناهيك عن الاستمرار في القتال، لكن **ميلو** كان من قوات البحرية الخاصة سابقًا؛ لقد تم دفعه جسديًا إلى أبعد مما وصل إليه 99.99 بالمائة من بقية السكان الأمريكيين، لذا يمكنه تجاهل جرح المعركة هذا لبضع دقائق أخرى.

ولكن، عرف **زاك**، بمجرد أن يفقد لترين، سيسقط، فاقدًا للوعي أو قريبًا من ذلك. كان يائسًا للعثور على مأوى لرجاله، وللعناية بجراح "أربعة"، ولتجميع الذخيرة، ولأخذ أنفاسهم اللعينة.

كانوا على بعد ثلاث بنايات من البحر الآن. استخدم "اثنان" فأسًا لفتح ثقب في جدار محل سلال صغير يؤدي إلى مؤخرة مكتب بريد. كانت الساعة قد تجاوزت السابعة صباحًا بقليل،

لذا كان المكتب لا يزال مغلقًا، لكن كانت هناك أصوات قادمة من الجانب الآخر من الباب الأمامي والنوافذ المغلقة. تحرك الفريق إلى الغرفة، منخفضين وخلف المنضدة. ذهب "خمسة" إلى الباب الأمامي، وفتحه قليلاً، ثم أغلقه بسرعة. استدار إلى "سييرا واحد"، الذي كان قد اتخذ موقعًا لتغطية الثقب في الجدار الذي زحفوا من خلاله للتو.

"لا أمل يا زاك. قوات حكومة السودان في كل مكان. إنهم يترددون، ويفكرون في الأمر، لكنهم سيروننا إذا خرجنا من الغطاء".

"مفهوم"، قال **هايتاور** .كان يعلم أن هذه القوة التي تواجهه لا بد أنها تفكر على الأقل في احتمال أن يكون رئيس دولتهم أسيرًا لدى الرجال الذين يطلقون النار عليهم. كان ينبغي أن يجعلهم ذلك يفكرون مرتين قبل الاشتباك، مما يمنح ميزة لـ **ويسكي سييرا** .لكن هذا كان وضعًا فوضويًا ومربكًا، وعرف **زاك** أنه لا يمكنه الوثوق بتدريب ومنطق عدوه لكبح نيرانهم.

أومأ إلى درج معدني دائري يرتفع إلى ثقب مظلم فوقهم. بدا أشبه بمساحة تخزين صغيرة منه إلى طابق ثانٍ" .**ثلاثة، اصعد وحاول الوصول إلى السطح، لكن احذر من تلك المروحية. نريد أن نستمر في التحرك جنوب شرق، نحو الميناء".**

امتثل **دان**، ضابط العمليات شبه العسكرية ذو اللحية الداكنة. تحرك بسرعة وبندقيته الهجومية الفرنسية الصنع FAMAS F1 مرفوعة نحو الظلام. عندما ذهب، نظر **زاك** إلى "اثنين"، ثم أومأ إلى "أربعة" .**"علينا إيقاف نزيفه، وإلا سيتمكنون من تتبعنا".**

بدأ "اثنان" يعرج نحو "أربعة" قبل أن ينهي **زاك** فكرته. كان "أربعة" يحرس الثقب في الجدار بمدفعه الرشاش بينما نزل "اثنان" على ركبتيه بجانبه وبدأ في إخراج الإمدادات الطبية من جيبه الصغير على صدره.

بعد دقيقة، حلقت المروحية على ارتفاع منخفض وببطء، محاولة إلقاء نظرة داخل نوافذ الطابق الثاني.

"دان ".استخدم **زاك** الراديو الخاص به للاتصال بـ "ثلاثة" على السطح.

"نعم يا زعيم؟"

"أحتاج منك أن تفعل شيئًا حيال تلك المي-17".

توقف، ثم جاء الرد" :**أود ذلك يا رئيس، لكنني تركت صاروخ ستينغر الخاص بي في سروالي الآخر".**

ضحك **براد** و **ميلو** .كان **سبنسر** في رواق يؤدي إلى غرفة مفتوحة، يبذل قصارى جهده لتغطية نصف دزينة من نقاط الدخول بنفسه. صرخ **زاك"** :**ثلاثة، يجب أن تسقط تلك المروحية. لا يهمني كيف تفعل ذلك، لكن لا تنزل حتى تسقط تلك المي-17، هل تسمعني؟"**

تردد، لكن الإجابة كانت حازمة" .**مفهوم يا زاك".**

"سنمرر لك رشاش HK الخاص بأربعة. إنه أفضل من بندقيتك FAMAS" نظر **زاك** إلى "أربعة"، الذي على الرغم من استلقائه وظهره مسنودًا على الحائط ومغطى بالدماء من ركبته اليمنى إلى أسفل، لم يبدُ سعيداً بالتخلي عن سلاحه. سلمه إلى **براد** الذي بدوره أعطى بندقيته F1 للرجل المصاب. ركض **براد** صاعداً الدرج بالرشاش الكبير. بعد بضع ثوانٍ، نزل وسلاح **دان** حول عنقه وعاد للعمل على الساق الدامية.

تحدث **هايتاور** في سماعة رأسه" .**لا توجد طريقة للخروج من هذه المدينة مع وجود تلك الطائرة فوق رؤوسنا. بمجرد أن نكون على الطريق المفتوح، لن يكون هناك مكان للاختباء**

من الجو. سندافع عن هذا المبنى حتى يتم التعامل مع تلك المروحية. إذا تمكن دان من إزاحة المي_17 من الطريق، سنتجه شرقًا، إلى خط الماء. سننسحب للخروج من هنا. هل الجميع فهم ذلك؟"

"أربعة لا يستطيع السباحة يا زعيم"، قال "اثنان."

نظر **زاك** إلى "أربعة"، الذي كان وجهه يبيض من فقدان الدم. قال "أربعة" :"**اللعنة على هذا الهراء. سأسبح إذا أخبرتني أن أسبح"**.

نظر **زاك** مرة أخرى إلى "اثنين". هز **براد** رأسه بقوة. بدأ **ميلو** في الاحتجاج، لكن **هايتاور** رفع يده" .**توقف عن هذا الهراء الرجولي الآن. لا أحد معجب "**.ثم أرسل إلى الفريق" .**حسنًا، سنتجه إلى الماء على أي حال، ونجعلهم يطاردوننا، ثم نختفي. سنتراجع على أرض قمنا بتغطيتها بالفعل. إذا كنا محظوظين، فسيعتقدون أننا ذهبنا للسباحة. سنحتاج إلى استخدام القليل من الخداع"**.

أومأوا جميعًا كرجل واحد. لقد فهموا المخاطر. عرفوا أنه لن يأتي أحد لإنقاذهم. عرفوا أنهم يعتمدون على أنفسهم.

وعلى **الرجل الرمادي**.

وصل **زاك** إلى الهاتف الفضائي على صدره وضغط على الرقم ستة على لوحة المفاتيح. لاحظ ذراعه الدامية مرة أخرى، وتساءل كم من الوقت سيظل قادرًا على العمل إذا لم يستطع إيقاف النزيف. دفع القلق من ذهنه بينما أجاب **جنتري**.

سأل "سييرا واحد" :"**أهلاً يا أخي، هل الأمور سيئة في جانبك بقدر ما هي سيئة هنا؟"**

"أنا وأوريكس في أمان. بدا الأمر وكأنكم كنتم في اشتباك عنيف جدًا".

"لا نزال في اشتباك ".

"هل لديك الخطة تشارلي؟ "كان تهكم **جنتري** موجهًا إلى الخطة برافو، التي لم تسر على ما يرام.

"بالتأكيد".

"أشك في ذلك".

توقف من الجانب الآخر" .**أنا أعمل على ذلك. أين أنت؟"**

"نحن على بعد خمسة عشر كيلومترًا شمال غرب. لقد غيرت السيارة التي غادرت بها المدينة. لم يتبعنا أحد".

"حسنًا، اللعنة يا فتى، يبدو أنك في وضع جيد مقارنة بنا. نحن محاصرون، لدينا جريحان، والذخيرة قليلة. لقد تراجع الجيش، على أمل أن تتمكن هذه المروحية الهيب التي تحلق فوقنا من قصفنا حتى لا يضطروا إلى كشف أنفسهم مرة أخرى. أعتقد أنهم إما لا يعتقدون أننا نحتجز رئيسهم، أو أنهم لا يهتمون".

"مروحية هيب؟ لم أكن أعرف أن قوات حكومة السودان تستخدم مروحيات مي-17".

"إنها بالتأكيد هيب".

"من هما الجريحان؟ "سأل كورت.

"أصيب ميلو برصاصة في ساقه. لقد سيطرنا على فقدان الدم، لكنه لن يخرج من هنا بقوته الخاصة".

"والآخر؟"

"خادمك المطيع".

"هل أنت قادر على العمل؟"

"بالتأكيد، أنا أقضي على هؤلاء الأوغاد وكأن لا غدًا. لقد أصبت بخدش بسيط في ساعد يدي التي لا أطلق النار بها، على الرغم من أنه في يوم مثل هذا، كل الأيدي تطلق النار".

"اللعنة. جريح واحد هنا أيضًا".

"من؟"

"من تظن بحق الجحيم يا زاك؟ لقد أرسلتني وحدي، أتذكر؟"

"أعلم ذلك يا أحمق. لم أكن أعرف ما إذا كنت تتحدث عن أوريكس".

"أوريكس بخير".

"هل أصبت بخدش بسيط؟"

"شيء من هذا القبيل".

"أين أصبت؟"

"أعلى الظهر، بسهم".

"آآآ، كرر ما قلته أخيرًا؟"

"لقد أصبت بسهم لعين. لم أخرجه بعد. أنا أستعد لذلك".

"إذًا هناك سهم يبرز من ظهرك؟ حقًا؟"

"مؤكد".

"ما هذا بحق الجحيم؟ لا أحد يطلق السهام هنا".

"حسنًا، لم أرجع للخلف وأصطدم به يا زاك! لم أر مطلق النار أبدًا. هذا أفضل من تلقي رصاصة 7.62 من إحدى رشاشات PKM التي يطلقها الجيش هناك".

"سهم. يا للعجب".

"اسمع يا زاك. يمكنني الوصول إليكم. أنا أدخل إلى مخبئي الآن. يمكنني ربط أوريكس بقيد بلاستيكي في عمود دعم وأعود إليك مسرعًا. لدي مسدس الجلوك ومخزن واحد متبقٍ، ربما أستطيع"—

"سلبي. ابق في مكانك واحرس الشحنة في الوقت الحالي. لا أحتاجك أن تندفع بتهور وتخسر الرئيس في العملية. سنستمر في محاولة الخروج من هذا المأزق بأنفسنا".

"مفهوم".

"كيف ستخرج ذلك السهم؟"

"سأطلب من الرئيس مساعدتي".

صفّر زاك" .قد لا يكون ميالاً للتعاون".

"نعم. سأضطر إلى إقناعه".

"حسنًا، حظًا موفقًا في ذلك. ولكن بينما أنت هناك تلعب ألعابك الصبيانية، فإن الكبار يطلقون نيران أسلحة حقيقية في منطقتي. لذا أمّن هدفك الرئيسي ورتب أمورك واتصل بي مرة أخرى".

"مفهوم".

أنهى **زاك** المكالمة. تمامًا عندما نظر لأعلى مرة أخرى، ضرب إطلاق نار من مدفع رشاش ثقيل الجانب الشمالي من المبنى، مما أدى إلى تناثر الجص والخرسانة في هواء الغرفة المترب كدخان كثيف. انبطح الرجال الثلاثة على صدورهم وردوا بإطلاق النار على الجدار. صرخ **زاك** في الميكروفون" :**هيا يا دان! نظّف السماء اللعينة بالفعل "!**لكن كلماته غَرِقَت في الضجيج الهائل.

الفصل الثامن والثلاثون

بحلول الثامنة صباحًا، كان فريق "ويسكي سييرا" محاصرًا بالكامل من الغرب ومن الأعلى. كان **سبنسر** قد تراجع إلى الغرفة مع الرجال الآخرين. تلقى رشقة من ثلاث طلقات من رشاشAK-47 في درع صدره الكبير وكان ينزف من عدة إصابات بشظايا في رقبته ووجهه.

كان **دان** لا يزال على السطح. وجد بعض التغطية من المروحية وكان يحاول اغتنام فرصة لإسقاطها، لكنه سيحتاج إلى كشف نفسه للقيام بذلك، وكانت المروحية "هيب" تحوم بالقرب بشكل خطير لا يسمح بالمحاولة. أما أعضاء الفريق الأربعة الآخرون فكانوا منبطحين على أرضية الطابق الأول. المدفع الرشاش المثبت على مؤخرة سيارة الجيب التي كاد **براد** أن يصطدم بها سابقًا قد وجد طاقمًا لتشغيله، وكان يسحق الجزء من المركز التجاري حيث يختبئ فريق "ويسكي سييرا". لم يستطع **زاك** وفريقه حتى رفع رؤوسهم للرد على النيران، فقد كان هجوم العدو كاسحًا.

"دان، هل يمكنك الوصول إلى جانب السطح لإطلاق النار على هذا المدفع الرشاش؟"

"مستحيل تمامًا يا سيدي. المروحية هيب تحوم تمامًا أمام موقعي. إذا أخرجت رأسي، فسأفقده. لا يمكنني حتى الاشتباك معها حتى تبتعد ".جاء ضجيج المروحية عبر سماعات الرأس مع إرسال **سييرا ثلاثة.**

"علم".

صاح **براد** متجاوزًا ضجيج النيران القادمة" :**سيقومون بمحاصرتنا من الجانبين في ثانية واحدة"!**

"أعلم، "وافق **زاك** .كانت وظيفته، كقائد للفريق، أن يفكر في مخرج من هذا المأزق الذي يبدو مستحيلًا.

نظر إلى الرواق. بخلاف النوافذ والباب الأمامي، كان المخرج الوحيد من الغرفة" **.سبنس، هل تعتقد أن قوات الحكومة قد استولت على الغرفة المجاورة بعد؟"**

"لا أشك في ذلك. هناك الكثير من المداخل من الشارع".

أومأ **هايتاور** برأسه" **.حسنًا. جميع العناصر، إليكم ما سنفعله. هذه الخطة ليست مثالية، لكنها كل ما لدي. براد، عند أمري، سترمي كل قنابل الدخان لديك إلى أقصى مسافة ممكنة من النافذة باتجاه الغرب، حاول إيصالها إلى الطريق بيننا وبين المدفع الرشاش. دان، ابق منخفضًا، لكن ارمِ قنابل الدخان من السطح في نفس الاتجاه، إلى أقصى مسافة تستطيعها".**

"علم يا سيدي".

"سبنسر، ارمِ قنابل الدخان من النافذة إلى الشرق، في السوق بين المركزين التجاريين. هل تسمعني؟"

"أسمعك بوضوح".

"سأطلق الدخان مع سبنس. ثم، عند أمري، يخرج سبنسر من النافذة إلى الشرق، يطلق النار على المروحية هيب، وينطلق بأقصى سرعة. ستحاول جر المروحية لملاحقتك. وبمجرد أن تفعل ذلك"——

أكمل **دان** الإرسال" **.سأفرغ ثمانين طلقة من بندقيةHK في مؤخرتها".**

"رجل جيد. ثم يواصل سبنسر طريقه إلى مول برافو. يحاول إيهام قوات الحكومة بأننا انتقلنا إلى هناك، بينما يواصل بقيتنا التوجه جنوبًا في هذا المجمع عبر الطابق الثاني".

"علم، "قال **سبنسر** .كان الخروج إلى العراء هكذا بمثابة حكم بالإعدام، لكن الرجل لم يظهر لحظة تردد أو ذرة خوف.

"سنلتقي في أقرب وقت ممكن، "قال **زاك.**

"يبدو جيداً، "قال **سييرا خمسة** .لا يزال لا يوجد أي إشارة تدل على أنه يعرف أنه على الأرجح على وشك الموت.

"براد، ميلو مسؤوليتك".

"هو معي، لكن سيتعين علينا التخلص من معداته حتى يتمكن من مواصلة التحرك".

"افعل ذلك ".توقف للحظة ليقوم **براد** بنزع سترة الهجوم وحقيبة الظهر وحزام المعدات عن مريضه المصاب. ثم قال" :**حسنًا يا رفاق، لنفعل هذا. انطلقوا"!**

انطلقت قنابل الدخان في أقواس من النوافذ ومن على السطح. هرع الرجال الذين كانوا تحت نيران مباشرة إلى ركبهم .**ميلو**، رغم إصابته وضعفه، تدحرج على ركبتيه وأطلق النار من سلاحه المستعار، وألقى قنبلة يدوية متشظية إلى الغرب.

"قنبلة"!

في غضون ثوانٍ، انبعث دخان أحمر وأبيض كثيف من العبوات في الشوارع على جانبي المبنى.

كان **سبنسر** قد فك الكثير من المعدات عن ظهره ووركه، ومعه فقط مدفعه الرشاش "عوزي" ومسدس وبضعة مخازن ذخيرة، قفز من نافذة المتجر، وبدأ يركض عبر أربعين مترًا من أكشاك السوق والأرض المفتوحة في محاولة للوصول إلى المركز التجاري الآخر. كان محجوبًا إلى حد ما بالدخان الأبيض والأحمر الكثيف، لكن المروحية "هيب" فوقه وخلفه استدارت على محورها وانقضت في الهواء خلفه.

تباطأ العميل الأسمر الضخم واستدار ليطلق النار عليها، رافعًا سلاحه الضعيف لرشقة طويلة، لكن المروحية أطلقت النار أولًا. مزقت المدافع الرشاشة الأكشاك الخشبية على يساره ويمينه، فاستدار **سبنسر** وبدأ يركض مرة أخرى.

اقتربت المروحية أكثر، مبتعدة عن سطح المبنى خلفها. خرج **دان**، **سييرا ثلاثة**، من مخبئه المنخفض ورفع المدفع الرشاش إلى كتفه.
صوّب منظار النقطة الحمراء للبندقية الضخمة على مجموعة المروحة الخلفية في مؤخرة الطائر الكبير. فتح النار برشقات سريعة متحكم بها لمقاومة الارتداد، ولم يتوقف، مطلقًا ثمانين طلقة ومحولًا فوهة البندقية إلى اللون الأبيض المحموم.

ظهرت نفثة صغيرة من الدخان الأسود في ثوانٍ. ارتجفت الطائرة وانحرفت إلى اليمين، متخلية عن مطاردتها للرجل في السوق. مالت أكثر فأكثر. ظن **دان** أنها تحاول العودة والاشتباك معه، لكن انفجارًا في مجموعة المروحة، أكبر بكثير من نفثة الدخان الأصلية، أرسل المروحية Mi-17 لتدور حول المحور العمودي لمروحتها الرئيسية.

كانت على ارتفاع ثمانين قدمًا في الهواء، خارجة عن السيطرة تمامًا، فانسحب **دان** إلى بئر السلم وهو يحذر **سييرا خمسة" :سبنس! إنها تسقط بقوة! ابتعد عن السوق"!**

اصطدم ذيل المروحية Mi-17 بالطابق الثاني من المركز التجاري الذي كان يحتله **زاك** وغالبية الفريق. انحدرت إلى الأمام وارتطمت بالأرض بمقدمتها أولًا. كان سقوطًا من ثلاثين

قدمًا أو نحو ذلك، لكن الآلة الضخمة كانت تتحرك بسرعة، والانفجار وكرة اللهب الناتجة ضمنا عدم وجود ناجين.

عرف **هايتاور** بالضبط ما حدث للمروحية "هيب"، رغم أنه لم يرها تتلقى ضربات بندقية **دان** ولم يشاهدها ترتطم بالأرض بين المركزين التجاريين. لكنه سمع كل الضجيج والإرسالات من رجله على السطح، وعندما انفجرت المروحية، كان هو والرجلان معه يخرجان للتو من بئر السلم في الطابق الثاني ويمران بجانب نافذة، والضوء والحرارة على كتفه الأيسر لم يتركا مجالًا للشك في مصير المروحية Mi-17 ومن كانوا على متنها.

واصل الرجال الثلاثة طريقهم في رواق قصير، حيث التقوا بـ**دان** تمامًا عندما نزل من سلم من السطح. أمسك كل من **براد** و**دان** بـ**ميلو**، وقاد **زاك** الطريق بينما كانوا يحاولون الابتعاد عن آخر نقطة اشتباك مع العدو.

"من واحد إلى خمسة، "نادى **زاك** في سماعته بينما كان يتحرك بحذر عبر متجر بضائع متنوعة طويل كان قد تلقى على ما يبدو قدرًا كبيرًا من نيران المدافع الرشاشة الثقيلة. كل شيء في الغرفة، من أوراق وسلال منسوجة وفخار خزفي، كان محطمًا أو ممزقًا.

"من واحد إلى خمسة. هل تسمعني يا خمسة؟ "لا شيء" **.من واحد إلى خمسة. سبنس؟"** ساد الصمت في سماعات الفريق.

دخل **كورت** الكوخ المسقوف بالقش، وقام بتمشيطه بمسدسه "غلوك" في أقل من خمس ثوانٍ. كانت الجدران في الغالب من الخيش، وبرميل سعة خمسة وخمسين جالونًا قد تم تسطيحه لاستخدامه كباب. شُبكت إطارات ممزقة مع أخشاب طافية وخشب رقائقي ومواد نفايات أخرى لتدعيم الخيش على الجدران.

كان الداخل مظلمًا وحارًا، والهواء راكدًا وكثيفًا، وغابت روائح الطعام والدخان من نيران الطهي، مما جعل الأمريكي يفترض أن أصحاب الكوخ قد غادروا منذ فترة ولن يعودوا قريبًا. أزال بعض خيوط العنكبوت، وركل بعض القمامة في الزاوية ليتأكد من عدم وجود أي شخص يختبئ هناك أو أي شيء خطير يخرج زاحفًا، ثم استخدم سكينه لشق ثقوب في الجدران القماشية لتوفير الضوء والتهوية.

كان محظوظًا في العثور على هذا المخبأ. بعد إرسال **هايتاور** الأخير، قرر **الرجل الرمادي** عدم الذهاب إلى المستنقعات كما كان يخطط في الأصل. بدلًا من ذلك، أراد أن يكون أقرب إلى **سواكن** في حال احتاج للعودة إلى هناك للمساعدة في إجلاء فريق "ويسكي سييرا". لذا، انحرف عن الطريق الرئيسي، وسار بلا هدف في طريق ترابي منعزل، مر ببضع عربات تجرها الحمير وقرية صغيرة واحدة، باحثًا عن أي مكان لإيقاف السيارة والعثور على بضع دقائق من السلام. كان الكوخ المهجور محاطًا بأعشاب طويلة وبالكاد يمكن رؤيته من الطريق، وعلى الفور علم أنه سيفي بالغرض، على الرغم من أن الأعشاب بدت بالتأكيد مليئة بجميع أنواع الثعابين السامة والحشرات الغاضبة.

وضع **جنتري** سلاحه في جرابه وعاد على خطواته بحذر إلى سيارة "سكودا" ليخرج حمولته البشرية من الصندوق الخلفي.

كان **أوريكس** مستيقظًا ومتنبهًا. كانت عيناه متسعتين ومليئتين بعلامات متناوبة من الارتياح والازدراء وقليل من القناعة التي سببها المخدر. كان قد شرب زجاجة الماء بأكملها وتمكن بطريقة ما حتى من تمزيق قميصه الداخلي. كان قميصه الأبيض ملتصقًا به حرفيًا، متشبعًا بالعرق. ورأسه الأصلع الكبير يقطر عرقًا.
بدأت رائحة الموت تفوح من الصندوق.

"**أنت لست مع الحكومة الأمريكية**، "أعلن **أوريكس** وهو يُقتاد نحو الكوخ" .**طريقة إعدامك لذلك الرجل. طريقة ضربك لي، ورميي في الصندوق. حديثك عن المال والاغتيال. هذه ليست أفعال جندي أمريكي**".

"**لا**".

توقف الرئيس واستدار" .**أنت مرتزق**".

دفعه **جنتري** إلى الأمام" .**بعد خصم النفقات، أنا في الحقيقة أقرب إلى جندي من الطبقة المتوسطة**".

"**أعرف من أرسلك لقتلي**".

"**حقًا؟**"

"**بالطبع. الأمر واضح. من يملك الموارد لدفع أتعابك والتخطيط لهذا، ويكرهني بما يكفي لبدء كل هذا؟ أولئك الممثلون الأمريكيون الذين يعادونني بشدة ويملكون الكثير من المال. لقد رأيتهم على التلفاز لسنوات، يتحدثون إلى الكونغرس، ويصنعون أفلامًا من الأكاذيب يسمونها أفلامًا وثائقية. كنت أعلم أن هؤلاء الكفار سيحاولون يومًا ما اغتيالي**".

لم يكن **كورت** في مزاج للثرثرة. كان النصل الشائك في ظهره يسبب تشنجًا وتقلصًا مؤلمًا في كل عضلاته؛ حتى المشي أصبح صعبًا الآن. وبينما اقتربا من المدخل المفتوح، قال" :**هذا صحيح. سأصبح نجمًا كبيرًا في هوليوود عندما ينتهي هذا. نجم شباك وكل هذا الهراء**".

"**وأنا أعرف أيضًا من أرسلك لاختطافي** ".خفت صوته في النهاية، وتوقف عند مدخل المبنى الصغير" .**أين نحن؟ ما هذا المكان؟**"

"واصل السير".

"ماذا ستفعل"—

ضربه **كورت** بقوة على جانب رأسه بمؤخرة المسدس. ترنح الرجل الضخم، واستدار نحو الكوخ، وبدأ يسير إلى الأمام دون طرح المزيد من الأسئلة. بمجرد دخوله، واصل طريقه إلى وسط الغرفة ذات الإضاءة الخافتة، ثم استدار. استطاع **جنتري** رؤية حيرته.

"هل تعمل مع البدو؟"

"اخرس".

نفض **عبود** حيرته وبدأ في عرض صفقة. لم يكن **كورت** يتوقع أقل من ذلك" .**يمكنني أن أرتب لدفع المزيد لك، أكثر مما تتقاضاه للقيام بهذا، أؤكد لك".**

"اخرس".

"ليست أموالًا من بنوك سودانية، لا. لدي حسابات في جميع أنحاء العالم. أصدقاء في الغرب وفي آسيا. قد يكون هذا حدثًا ماليًا أكبر لك مما تدركه الآن. يمكنك فقط مضاعفة ما تتقاضاه وسأرى"—

"اخرس واستمع "!وضع **كورت** مسدسه في جرابه مرة أخرى، والألم بادٍ على وجهه وهو يمد يده عبر جسده ويزيل حقيبة ظهره بحذر عن طريق فك أحزمة الكتف. ثم بدأ في تمزيق قميصه البني، متأوهًا ومتجهمًا. بعد عدة شدات، تمزق القميص، ووقف عاري الصدر في الكوخ الخافت" .**أحتاجك لمساعدتي في إخراج هذا".**

"السهم؟"

"لا، بقعة القهوة على بنطالي. نعم! السهم"!

ارتفعت حاجبا الرئيس الكثيفان" .**ماذا لو لم أوافق على مساعدتك؟"**

"سأقتلك".

استطاع **كورت** رؤية التروس تدور في دماغ **عبود** .عرف الرجل الماكر أن خاطفه يحتاج شيئًا منه. كان يحاول الآن إيجاد طريقة لاستغلال ذلك لصالحه.

"ماذا ستفعل من أجلي إذا ساعدتك؟"

"لن أقتلك. ليس بعد".

أبطأ ذلك التروس قليلًا.

"ماذا علي أن أفعل؟"

"سأستلقي على الأرض، ووجهي للأسفل. أحتاجك أن تضع قدمك في منتصف ظهري، وتمسك بالسهم خلف رأسه مباشرة، وتسحبه من العظم".

كان هناك وميض جديد في عيني الرئيس، وعرف **كورت جنتري** بالضبط ما كان يفكر فيه" . **سترغب في غرس السهم في ظهري أو رقبتي عندما تسحبه. إذا فعلت ذلك، فمن الأفضل أن تجد المكان في رقبتي الذي سيقتلني على الفور، لأنني سألتف وأطلق عليك ست عشرة رصاصة إذا لم تفعل".**

"لماذا ست عشرة؟"

"لأن مسدسي لا يحتوي إلا على ست عشرة رصاصة. تذكر، لقد أعطيتك الكثير من المخدرات هناك في سواكن. أنت أبطأ مما تعتقد، وأضعف مما تعتقد، والآن، لست بنصف الذكاء الذي تظن أنك عليه. عليك أن تفكر في أفعالك بحذر شديد قبل محاولة أي شيء غبي، لأنني أقسم أنني سأفجر خصيتيك اللعينتين وأشاهدك تتلوى حتى تنزف حتى الموت إذا لم تنجح".

علق الصمت في الهواء مثل الحرارة الخانقة. أظهر وجه **أوريكس** الصورة الذهنية البغيضة التي كانت ترقص في رأسه.

أخيرًا، سأل **كورت" :هل أنت مستعد لتجربة هذا؟"**

توقف الرئيس **عبود** لوقت طويل. أخيرًا قال" :**سيكون هذا مؤلمًا للغاية بالنسبة لك".**

"وهذه مشكلة بالنسبة لك، لماذا؟"

"قد تعتقد أنني أحاول قتلك بينما أحاول فقط المساعدة".

"أتوقع الألم في ظهري، حيث يوجد السهم. إذا شعرت بألم في أي مكان آخر، فسيفقد رئيس السودان خصيتيه. هذا يعني لا مزيد من الطغاة الصغار لك. هل تفهم؟"

أومأ **عبود** .سحب **كورت** مسدسه وشق طريقه ببطء إلى ركبتيه، ثم على بطنه. كان السهم في لوح كتفه. لن يخرج بسهولة، وعندما يخرج، عرف **كورت** أنه سينزف بغزارة. كان لديه مجموعة إسعافات أولية صغيرة لكنه لا يملك طريقة حقيقية لتضميد جرح لا يمكنه رؤيته أو الوصول إليه، ووجود رئيس السودان يضمد جرحه بدا غريبًا جدًا لدرجة لا تحتمل.

وبينما كان خمول **أوريكس** الناجم عن المخدرات وقدرته المتضائلة يعملان لصالح **كورت** كخاطف، فإنهما بالتأكيد لم يفيداه كمريض. فكل ما يعرفه هو أن بكري عبود الضخم قد

يسقط فوق السهم بدلًا من سحبه، وبالتالي يثبّت **كورت** على أرضية هذا الكوخ القذر كفراشة في مجموعة حشرات.

بأي طريقة نظر بها إلى الأمر، عرف **الرجل الرمادي** أن هذا سيكون مريعًا. أراد تناول بعض المسكنات، لكنه كان في خضم عملية ضخمة. مجرد أن فكرة المخدرات خطرت بباله في هذه اللحظة كانت مخيبة للآمال بالنسبة له.

تحسس **كورت** مسدس "غلوك" في يده اليمنى. لبعض الوقت لم يسمع أو يشعر بشيء. تساءل عما إذا كان **أوريكس** يحاول التسلل من الباب. أخيرًا، نادى صوت الإفريقي الجهوري من الأعلى" .**هل يمكنك فك يدي؟ سيجعل من الأسهل بالنسبة لي"—**

"لا وألف لا. فقط امسكه واسحبه".

شعر بضغط نعل حذاء كبير بين لوحي كتفه، والتحريك المؤلم للسهم في عضلته وعظمه عندما تم الإمساك به، ثم سحبة مبرحة جعلت عيني **جنتري** تمتلئان بالدموع وحنجرته تطلق صرخة حادة متصدعة. لم يتوقف الحرق والتمزق. بشكل غريزي، انقلب **كورت** على ظهره، ورفع مسدسه "غلوك" على المهاجم فوقه، وحرك طرف إصبعه من واقي الزناد إلى الزناد.

صوّب على هدفه، على بعد قدمين فقط من فوهة المسدس.
وقف **أوريكس** فوقه، ويداه مقيدتان معًا وتحجبان عينيه.
سقط السهم الملطخ بالدماء من بين أصابعه على صدر **جنتري**.

لقد فعلها. لم يحاول **أوريكس** أي شيء، وأدرك **كورت**، أنه كان على وشك أن يطلق النار عليه بين عينيه رغم كل شيء.
لم يهدأ الألم في كتفه، لكنه نهض على قدميه، ووجد نفسه أكثر قدرة على الحركة فقط لأنه لم يعد مضطرًا للتحرك بحذر لتجنب الاصطدام بالمقذوف الطويل.

"جيد".

"ما اسمك؟"

"نادني ستة ".

"سيد ستة . حسنًا. ويمكنك أن تناديني بالرئيس"——

"سأناديك بما أريده أنا. الآن، أيها الأحمق، أحتاج إلى إجراء مكالمة هاتفية، لذلك أحتاجك أن تجلس في الزاوية وتكون فتى مطيعًا. هل يمكنك فعل ذلك؟"

الفصل التاسع والثلاثون

تمكن **زاك** وثلاثة من رجاله من الخروج من آخر منطقة قتل. بعد سقوط المروحية، بدا أن قوات حكومة السودان تتراجع خوفًا وفي محاولة لإعادة تجميع صفوفها. سار **هايتاور** ورفاقه في رواق الطابق الثاني من "المركز التجاري ألفا" عبر مغاسل ومتاجر سجاد ومخابز وغرف تخزين. اشتبكوا مع رجلين من قوات حكومة السودان تفاجآ برؤيتهم، وبالتأكيد ندما على ذلك في تلك الثواني القليلة الأخيرة قبل أن يُقتلا بصمت بالخناجر. استولى **براد** و**دان** على بنادق من طراز Type 81 من جثتي الرجلين، حيث كانت أسلحتهما قد وصلت إلى المخزن الأخير. أعطى **براد** بندقيته من طراز FAMAS لـ**ميلو** ليستخدمها كعكاز مؤقت، مما زاد من قدرة فريق **ويسكي سييرا** على الحركة بشكل كبير. في نهاية المركز التجاري، عادوا إلى الطابق السفلي، حيث رأوا مشاة حكومة السودان في الشارع ينسحبون بضع بنايات، لذا أعطى **زاك** الأمر للرجال بالخروج من الغطاء والتوجه عبر السوق، على بعد بناية واحدة أقرب إلى الماء، إلى صف المباني الخرسانية الآخر الذي أطلق عليه اسم "المركز التجاري برافو."

أدى تحطم المروحية الكبيرة إلى اندلاع حريق في السوق، وساعد الدخان الأسود المتصاعد من الوقود والأقمشة والمطاط والخشب على إخفاء الفريق المستنزف أثناء عبورهم الأرض المفتوحة. لم يتلقوا أي نيران مضادة من قوات حكومة السودان المنسحبة، وبدا من المرجح أن إعادة تموضعهم قد مرت دون أن يلاحظها أحد. كان الأمر أبعد من أن يأمل فيه، ولكن حتى الآن، لم ير أي دليل على أن الخصم يعرف مكانهم.

شهد **هايتاور** ما يكفي من المعارك في حياته ليدرك أن الشيء الرئيسي الذي كان في صالحهم هو الارتباك من جانب عدوهم. كان على يقين من أن الجيش السوداني ليس لديه أي فكرة أنهم يواجهون خمسة رجال فقط، وأن هؤلاء الرجال الخمسة لا يحتجزون رئيسهم كدرع

بشري. لو كانوا يعلمون أن التهديد الوحيد يكمن هنا في هذه المباني بجوار السوق بالقرب من الماء، لكانوا ببساطة ركزوا كل قواتهم هنا، وقصفوا المراكز التجارية بقوة، وقتلوا كل ما يتحرك في الداخل.

خمسة رجال، بغض النظر عن جودة تدريبهم، لا يستطيعون فعل أي شيء ضد هذا النوع من الهجوم.

وبدأ الأمر يبدو وكأن خمسة رجال قد أصبحوا أربعة. لم يرسل **سبنسر** أي إشارة منذ اختفائه من النافذة لتحويل انتباه المروحية قبل عشر دقائق. كان من الممكن أنه فقد جهاز الراديو الخاص به أو أن الإشارة بين المباني قد انقطعت، لكن "سييرا واحد" اعتقد أنه من المرجح أن "سييرا خمسة" قد عبر السوق، ليصطدم بقوة متفوقة من مشاة حكومة السودان على الجانب الآخر.

ومع ذلك، كان **زاك** ورجاله يتجهون الآن بحذر عبر "المركز التجاري برافو" في محاولة للعثور على رفيقهم.

اهتز هاتف **هايتاور** الفضائي. ضغط على زر الرد، الذي أوصل المكالمة إلى سماعة رأسه التكتيكية.

"أهلاً يا ستة. هل تستمتع بالاسترخاء على الشاطئ مع كأس من الشراب؟"

جاء صوت **جنتري** عبر الخط" .**نحن في أمان. وأنتم؟"**

"غارقون حتى آذاننا. على بعد حوالي خمسين ياردة من الماء، ثلاث بنايات شمال الجسر. لا نزال في اشتباك متقطع. لم نتمكن من التخلص من قوات حكومة السودان لفترة كافية للانسلال. كيف حال ظهرك؟ هل واجهت أي محاربين آخرين في طريقك؟"

"سأنجو. هل تحتاجني هناك؟"

"هل أنت متأكد من أنك تستطيع تأمين أوريكس؟"

"مؤكد. سأقيده وأخدره. لن يذهب إلى أي مكان".

"حسنًا، إذن امتطِ جوادك وتعال إلى هنا في أسرع وقت ممكن. نحتاجك لتحضر لنا وسيلة نقل، وتعطينا تقريرًا عن الموقف فيما يتعلق بتركيز قوات العدو في الشوارع. كنت أفكر في أنك قد تتمكن من الدخول بتخفٍ من الغرب، وتدبر لنا وسيلة نقل، ثم تقترب بما يكفي لقيادة انسحابنا إليها".

"اللعنة يا زاك، هل تريدني أن أحضر لك وجبة طعام فاخرة من لحم البرجر وأنا في طريقي؟"

ضحك **زاك** وهو يجثو في متجر يصنع ويبيع الأواني والمقالي الصفيحية. كان **براد** في المقدمة، يؤمن مدخلاً ببندقيته من طراز Type 81 التي استولى عليها. كان **دان** في الخلف مع **ميلو** . **"يا رجل، أين تعلمت أن تكون وقحًا إلى هذا الحد؟** "كان سؤالًا بلاغيًا؛ عرف **زاك** الإجابة" .**لحم البرجر الوحيد هنا سيكون فريق ويسكي سييرا ما لم تأتِ وتنقذ مؤخراتنا من على النار".**

سمع **زاك** التنهد، لكنه عرف أيضًا أن عميله السابق سيمتثل مع قليل من التذمر والشكوى . **"مفهوم، أنا في طريقي. سأستخدم الراديو عندما أدخل النطاق".**

"فتى جيد. في طريقك إلى هنا، أريدك أن تتصل بالسفينة هانا وتخبرهم أين خبأت الرئيس. فقط في حال لم ينجُ أي منا، يمكنهم المجيء لأخذه".

"مفهوم. ستة، انتهى".

استغرق الأمر نصف ساعة من **جنتري** لتأمين **أوريكس**، وتغيير قميصه بآخر أقل تمزقًا وتلطخًا بالدماء، وتغطية رأسه بعمامة، وسحب الوقود من شاحنة بضائع متوقفة لتزويد المرسيدس بالوقود، والعودة إلى حدود مدينة **سواكن** .كاد أن يأخذ الشاحنة ويترك المرسيدس خلفه، لكن السيارة السيدان الديزل القديمة والثقيلة كانت تخدمه جيدًا في الوقت الحالي، ولم يتم كشفها من قبل العدو، وبدت الشاحنة كخردة، حتى بالمعايير المتدنية لما يمر كمركبات آلية هنا. متجهًا عائدًا إلى منطقة الهدف، مر بشاحنات عسكرية وسيارات شرطة تتحرك في جميع الاتجاهات، ومدنيين حائرين يفعلون الشيء نفسه.

في الأعلى، رسمت طائرتا مقاتلتان أمريكيتان قديمتان من طرازF5 ، يقودهما سلاح الجو السوداني، مسارات دخانية على شكل الرقم ثمانية في السماء الزرقاء الساطعة.

لا يبدو أن هناك الكثير من التماسك في تحركات القوات العسكرية، وهو ما اعتبره **جنتري** علامة جيدة. من مظهر الأمر، لم يكن لدى السودانيين أي فكرة عن حجم قوة المعارضة التي يواجهونها. مع تحركات **جنتري** إلى الجنوب الشرقي من الساحة، والعميلين في المباني في الساحة، والشاحنة التي تشق طريقها بإطلاق النار في جميع أنحاء المدينة، والاشتباك القصير مع جيش تحرير السودان في الغرب، لا بد أن ذلك قد رسم صورة تكتيكية مربكة للغاية للقادة العسكريين في حكومة السودان. مع الحجم الهائل لإطلاق النار وتقارير الراديو الصاخبة التي تبلغ عن اشتباكات مع العدو في جميع الاتجاهات، ربما اعتقدوا أن الرئيس قد اختُطف من قبل قوة محلية قوامها مئة رجل.

بينما خفض **كورت** سرعة سيارته المرسيدس للتنقل في الممرات الضيقة بين صفين من الأكواخ، انطلقت سيارة جيب عسكرية من زقاق على يمينه ومرت أمامه مباشرة وهي تواصل طريقها شمالًا. عند الطريق المعبد، خرجت شاحنة حمولتها طنان مليئة بالجنود إلى حركة المرور بجانبه، وكادت تصطدم بها شاحنة مماثلة متجهة شرقًا.

لم يكن هناك إطلاق نار في المدينة، واختفت المروحية. دوت صفارات الإنذار، وتصاعد عمود رفيع من الدخان الداكن فوق الميناء والبحيرة إلى الشرق.

بدا الأمر وكأن معركة قد دارت هنا، وبدا أن المعركة قد انتهت.

أوقف **جنتري** السيارة في ملعب كرة قدم ترابي مفتوح على بعد أربع بنايات غرب الساحة. على الفور اقترب منه رجال يحاولون بيع اللفت، حتى مع وجود ما يعادل معركة كبرى على بعد بضعة مبانٍ قبل أقل من ساعة. تساءل من بحق الجحيم سيفكر في شراء اللفت لحساء تلك الأمسية في وقت كهذا، وأبعدهم بإيماءة من يده، محاولًا إبقاء لحيته ونظاراته الشمسية وعمامته تغطي أكبر قدر ممكن من وجهه ورأسه أثناء تحركه. اشترى ثوبًا أبيض طويلًا من بائع في كشك ضحل على بعد بناية من ملعب كرة القدم، ودخل زقاقًا ليرتدي زيه الجديد.

كان رجال الشرطة في كل مكان الآن. خمّن **جنتري** أن معظمهم لا بد أنهم أتوا من **بورتسودان**، على بعد أربعين ميلاً إلى الشمال. إذا كان الأمر كذلك، فسيكونون قد وصلوا للتو، وواجهوا فوضى وارتباك المشهد، وسيحاولون جمع المعلومات، وسيكونون غير متأكدين من الاختصاص القضائي ويتنافسون على فرض السيطرة مع رجال الشرطة المحليين والجيش وجهاز الأمن الوطني. الآن سيكون آخر وقت ممكن لإنجاز أي شيء في **سواكن** لبقية اليوم، وعرف **كورت** أنه بحاجة إلى الإسراع. رأى أمامه نقطة تفتيش غير منظمة للشرطة بجوار هيكل طويل من الخشب والصفيح المموج يغطي مئات الأقفاص الخشبية، كل قفص يأوي دجاجة أو ديكًا. كان العشرات من السكان المحليين يتجولون. قلة منهم فقط كانوا يمارسون أعمالهم؛ معظمهم كانوا يقفون ويتحدثون، محاولين التقاط الشائعات حول ما يجري. كان بعضهم يتعرض للمضايقة من قبل رجال الشرطة عند نقطة التفتيش، لذلك بحث **كورت** عن طريق مختلف.

كاد الغبار الذي أثارته المركبات في الشوارع أن يحجب الطريق بالكامل، مثل عاصفة ترابية مصغرة. بالكاد استطاع **جنتري** الرؤية لمسافة خمسين قدمًا، وأمل أن يواجه رجال الشرطة والعيون الفضولية الأخرى في الشوارع نفس المشكلة حتى يتمكن من الاقتراب من هدفه بمزيد من الثقة.

لتجنب نقطة التفتيش، انعطف يسارًا في زقاق. في ثوانٍ، تاه. كان هناك عدد قليل جدًا من الطرق الرئيسية في هذه المدينة، وكان من السهل أن تشعر وكأنك عالق في متاهة من الممرات العشوائية بين الأكواخ التي تمتد لأميال. لكن المدينة كانت تقع على منحدر لطيف باتجاه الميناء، وكان هدف **جنتري** يقع عند الميناء، لذلك استمر **كورت** في التحرك نزولًا وبعيدًا عن الناس، وسرعان ما قاده ذلك إلى الساحة.

في ضوء النهار، بدت الساحة أصغر حجمًا، وأكثر قذارة وازدحامًا. كانت مليئة بالرجال والوحوش والآلات. اختلطت الجمال والماعز والحمير بالمركبات العسكرية وسيارات السيدان الحكومية و"التقنيات"، وهي شاحنات تويوتا صغيرة مثبت عليها رشاشات في الخلف ومليئة بالرجال. كانت طائرتا هليكوبتر للنقل جاثمتين في الساحة، وجنودهما قد خرجوا بالفعل للبحث عن خاطفي رئيسهم. دوت صفارات سيارات الإسعاف من جميع أنحاء المنطقة المفتوحة، وكان الرجال يصرخون ويصيحون في بعضهم البعض. تم إلقاء نصف دزينة من الجنود القتلى في كومة من قبل إخوانهم في السلاح، وكان الجرحى في كل مكان. رأى **كورت** عيادة مؤقتة للمدنيين المصابين. حتى من مسافة بعيدة، بدت بعض الجروح خطيرة، وسرعان ما أشاح بوجهه عنهم، قلقًا من وجود أطفال مصابين، ولم يستطع تحمل مشاهدة معاناتهم.

"كان علينا تدمير القرية لإنقاذها"، تمتم تحت أنفاسه وداخل عمامته الحارة.

اهتز هاتفه الثريا على وركه تحت ملابسه، وجاءت المكالمة عبر سماعة رأسه السرية. أجاب بتوضيح" .**أنا على وشك الوصول إليك يا واحد. أحتاج حوالي خمس دقائق أخرى**".

"هذا جيد. لقد انتظرنا مؤخرتك لفترة طويلة حتى أن مالك العقار يطالبنا بإيجار الشهر الأول والأخير. كيف حال المدينة؟"

"إنها تزداد اختناقًا، وهناك الكثير من قضايا الاختصاص التي يجب على كل هذه المنظمات تسويتها. بالإضافة إلى القتلى والجرحى في كل مكان مما يزيد من الارتباك. نحن بحاجة إلى الاستفادة من هذه الفوضى. وقت التحرك هو الآن".

"سلبي، لا يمكننا الانسحاب بعد".

توقف **كورت** في مكانه" .**لماذا؟**"

"سيرا خمسة مفقود. أحتاج أن أعرف ما حدث له".

"مفهوم. سأجد لنا وسيلة نقل وأستعد. ستة، انتهى".

كان لدى **زاك** رجاله الثلاثة مستعدين للتحرك بعد ثوانٍ من إنهاء **كورت** للمكالمة. كانوا قد أمضوا النصف ساعة الأخيرة على السطح في الطرف الشمالي من "المركز التجاري برافو"، على بعد لا يتجاوز أربعين مترًا شرق المكان الذي تحطمت فيه المروحية في السوق بين المركزين التجاريين. لكن موقعهم على السطح لم يمنحهم أي رؤية. وجدوا قماشًا مشمعًا أخضر ممزقًا ومتعفنًا مدعومًا بأخشاب طافية وأسلاك، قام أحدهم بتخزين الحطب وخزانات المياه الفارغة تحته، وقد انحنى فريق **ويسكي سييرا** في أعمق فجوات الهيكل

للحصول على أقصى قدر من التخفي. جلسوا هناك وانتظروا، ونزفوا وعرقوا، وأبعدوا العقارب عن بعضهم البعض بأطراف أصابعهم المغطاة بالقفازات.

كان الرجال الأربعة قد ضمدوا أنفسهم قدر الإمكان. ضمّد **زاك** ساعده وأوقف النزيف بفعالية، واستهلك الماء والأملاح من حصصه الغذائية لتعويض ما فقده في تعرقه الغزير، وجمع كل مخازن الذخيرة الجزئية في مخزن واحد من ثلاثين طلقة في بندقيته، بالإضافة إلى مخزن محمل جزئيًا في صدرته القماشية. أصبح **براد** الآن يحمل بندقية من طراز Type 81 محملة بالكامل. كان قد أصاب ظهره وركبته أثناء تحطم الشاحنة. اعتقد أنه ربما كسر ضلعًا أو اثنين في جانبه الأيمن لكنه لم يبلغ عن نفسه كإصابة لـ"سييرا واحد". كان **دان** يحمل بندقية من طراز Type 81 مستولى عليها أيضًا. كان **دان** العضو الوحيد غير المصاب في الفريق.

استقرت حالة **ميلو** في الوقت الحالي. استخدم **دان** كميات هائلة من الشريط اللاصق لتثبيت بندقية **براد** F1 على ساقه كجبيرة صلبة، وأعاد تضميد ساق الشاب الكرواتي الأمريكي المحطمة. لكن "سييرا أربعة" كان بدون بندقية؛ كان يحمل فقط مسدسًا من طراز H&K عيار 9 ملم، وقد تُركت كل دروعه ومعداته خلفه أو تم توزيعها على الفريق حتى يتمكن من مواصلة الحركة. احتج بقوة على كل ما تم فعله من أجله، وأصر على أنه بخير، لكن تبجحه أثار غضب العملاء الأكبر سنًا والأكثر خبرة. لقد فهموا حالته أفضل منه، وعاملوه باحترافية، حتى لو كانوا يوبخونه باستمرار لمحاولته إخبارهم بأنه بخير.

غادر الرجال الأربعة السطح في طابور تكتيكي، ونزلوا طابقين في درج معدني صغير ومظلم، وانتهوا في زقاق يمتد من الشرق إلى الغرب. تعثر **ميلو** مرتين على الدرج. ثم أمره **زاك** بإبقاء مسدسه في يده اليمنى وكتف **دان** في يسراه. ساعد هذا في توازنه.

كان الزقاق يمتد باتجاه الميناء، وسار الفريق ببطء. سُمعت أصوات رجال على الجانب الآخر من باب خشبي، وتجمع فريق **ويسكي سييرا** حوله، لكن الأصوات تلاشت. اختلطت

صفارات الإنذار في الأفق بزئير وصيحات الجمال الغليظة. بذل الفريق قصارى جهدهم لتجاهل كل الضوضاء التي ليست ذات أهمية تكتيكية. سرعان ما وصلوا إلى فم الزقاق، وهنا خرجوا بحذر إلى مرمى البصر من الميناء.

كان **دان** أول من خرج من الزقاق، إلى الشارع المفتوح أمام الماء. تحرك الآخرون خلفه عن كثب.

توقف **دان** فجأة في مكانه" .**اشتباك من الأمام"!**

الفصل الأربعون

على بعد خمسين ياردة أمام مدخل الزقاق، فوق المياه الخضراء الصافية قبالة جزيرة **سواكن القديمة**، كان هناك زورق دورية ساحلي تابع للبحرية السودانية. كان طوله مائة قدم، ووقف رجال على سطحه خلف مدفع رشاش عيار 12.7 ملم. وسرعان ما وجهوا فوهة السلاح الضخم نحو الرجال البيض الذين ظهروا أمامهم.

توقف **زاك** فجأة بجانب **دان**. صاح **زاك**: "**تفرقوا**"**!**، فانقسم رجاله يسارًا ويمينًا. أمسك **هايتاور** بنفسه بـ**سييرا أربعة** المصاب ودفعه إلى اليمين، وسقط معه داخل متجر لحياكة وبيع شباك الصيد.

لقد ولّى زمن التحركات المنسقة جيداً. لا مزيد من تغطية ميادين الرماية، أو القفز من ساتر إلى آخر. بدأ الرجال الأربعة يركضون ويزحفون ويقفزون فوق العقبات بأسرع ما يمكن.

كان دوي مدفع الزورق الرشاش شيطانيًا. رصاصاته نشرت المبنى فوق رأس **زاك**. أمسك **بميلو** من مقبض السحب في درعه الواقي الأسترالي، واكتشف أن المتجر به غرفة خلفية، وأن الغرفة الخلفية بها باب معدني ملتوي، ركله **هايتاور** ليفتحه، مستديرًا على ظهره على الأرضية الترابية ودافعًا بكعبي حذائه بقوة نحو الأقفال. عبر الباب كان هناك متجر آخر، ثم رواق يتجه جنوبًا. زحف **زاك** على يديه وركبتيه، ساحبًا **ميلو** معه.

دوى مدفع الدورية مرة أخرى، ممزقًا الخشب والمعدن والحجر والقماش فوق رؤوسهم. انشطر إبريق من مادة التشحيم السوداء إلى نصفين على رف فوقهم، وسكب الشحم الدافئ على معداتهم وملابسهم.

جاءت رشقة ثالثة من المدافع، ثم ساد الصمت للحظة.

همس **زاك** في الميكروفون" :**فريق ويسكي، أبلغوا عن وضعكم**".

"سييرا ثلاثة، أنا بخير. أنا مع اثنان. سماعته سقطت، لكنه بخير".

تنفس **زاك** الصعداء بسرعة" **.واحد وأربعة بخير. هذا سيجلب الجيش إلينا بسرعة. يجب أن نخرج من هنا. سييرا ستة ، هل تستقبل على هذه القناة؟"**

أجاب **كورت**" :**مؤكد، واحد."**

"جيد. عندما تأتي من أجلنا، لا تتجه شرق مول برافو. ذاك ليس قارب الحب هناك في الخارج".

"علم. أي إشارة من سييرا خمسة؟"

"سلبي. لا يبدو أنه وصل إلى حافة المياه، وإلا لكنا سمعنا تلك اللعينة ذات الحزام تطلق النار عليه. سنتحرك شمالًا بضع بنايات لنرى ما يمكننا رؤيته. وجميع العناصر: أبقوا رؤوسكم منخفضة بينما نعيد التجمع".

أمضى **كورت** الخمس عشرة دقيقة التالية في إنهاء مشروع كان قد بدأه للتو عندما انطلقت نيران مدافع الدورية الرشاشة على بعد ربع ميل إلى الشرق. كان قد صادف فرقة من أربعة جنود مشاة شباب من قوات الحكومة تحرس طريقًا ترابيًا إلى الشمال الغربي من الساحة. انتهى الطريق عند الطريق المعبد الوحيد الذي يخرج من **سواكن** غربًا، حيث يتصل بالطريق السريع الذي يمتد شمالًا إلى **بورتسودان** وجنوبًا إلى بقية البلاد. كانت هناك محطة وقود عند التقاطع. كانت المحطة حديثة بشكل مدهش، بالنظر إلى الطبيعة الريفية للبلدة. عزا **كورت**

هذا إلى حقيقة أنها تقع على الطريق السريع، وأن السودان يمتلك بالفعل نظامًا قويًا نسبيًا للسفر بالحافلات بين المدن الكبرى.

كانت سيارة الجيب الخاصة بالجنود متوقفة في الساحة غير المعبدة لمحطة الوقود، وكان مدفع رشاش روسي خفيف من طراز PKM مثبتًا في الخلف تحت غطاء بلاستيكي أسود. تجمع العديد من السكان المحليين حول المحطة، يجدون ملجأ هناك بعد فرارهم من وسط **سواكن**، وكان الجنود مشغولين بالحشد الذي يتجول في المكان.

مشى **كورت** نحو سيارة الجيب، حريصًا على إبقاء عمامته تغطي وجهه بالكامل تقريبًا، وألقى نظرة في الداخل. لم تكن المفاتيح في السيارة، مما يعني أنه كان بحاجة إلى معرفة أي من الجنود هو السائق.
كانت هناك خطة تختمر في رأسه، لكنه في الوقت الحالي كان بحاجة فقط إلى انتظار **زاك**.

كان المركزان التجاريان والأكواخ والمتاجر المقامة حولهما تعج بالنشاط الآن. في كل مكان كان الجنود يتحركون وأسلحتهم مرفوعة، يصرخون على المدنيين للابتعاد عن الطريق، والمدنيون يصرخون في المقابل. سدت دواب الحمل الأزقة، وكانت سلسلة بشرية من رجال نحفاء كالقضبان يلقون الماء على آخر بقايا الحريق في السوق الذي أحاط بالمروحية المتفحمة والبقايا المحترقة بداخلها. دفع الجنود هؤلاء الرجال بعيدًا أيضًا، لكن السكان المحليين أعادوا تشكيل صفهم وعادوا إلى العمل، فقد كانت حاجتهم ماسة للحفاظ على مصادر دخلهم التي تكفيهم بالكاد للعيش من خلال منع متاجرهم وبضائعهم من التحول إلى دخان أسود مع المروحية.

لكن **زاك** و**براد** و**دان** و**ميلو** لم يكونوا يتحركون، لم يكونوا يهربون أو يشقون طريقهم إلى بر الأمان. بدلًا من ذلك، كانوا مستلقين على بطونهم، على بعد خمسين ياردة شمال المركزين

التجاريين، في الطابق الثاني من مبنى من الطوب اللبن مكون من طابقين ومحاط بجدار منخفض. كان الرجال جميعًا ينظرون من الممر المقوس المفتوح إلى الشرفة، وعبر الشرفة، وفوق الجدار، وفوق الطريق، وعبر منخفض رملي يؤدي شرقًا إلى الميناء. على الجانب الآخر من المنخفض، على بعد حوالي مائتي متر، كانت محطة الحافلات.

وخارج محطة الحافلات، جالسًا في التراب، ومسندًا إلى جدار ومحاطًا بأكثر من عشرين جنديًا، كان هناك رجل أسمر مفتول العضلات، مصاب بوضوح لكنه حي بوضوح.

سييرا خمسة.

من خلال منظار بندقية **هايتاور** "تافور" ذي التكبير الرباعي، السلاح الوحيد المتبقي لدى الفريق والمزود بمنظار، كان بإمكانه رؤية أن قميص **سبنسر** قد نُزع، وأنه ينزف من وجهه ورقبته وكتفيه، وأن الدم يلطخ سرواله البني. كان جذعه مغطى بلمعان العرق الممزوج بالبريق القرمزي لدمه. كان مكبل اليدين خلف ظهره، وكان واعيًا، ورجل مدني يركع أمامه ويتحدث إليه. بين الحين والآخر، كان يدير وجه الأمريكي نحوه ليسأله سؤالًا، ثم يصفعه أو يلكمه. عرف **زاك** أن **سبنسر** لن ينطق بكلمة ردًا على القليل من المعاملة الخشنة، لكنه عرف أيضًا أن المعاملة القاسية التي يتعرض لها الآن ستتدهور في ثوانٍ إلى تعذيب حقيقي.

ولم يكن هناك شيء يمكنه فعله لإنقاذه.

"من سييرا واحد إلى سييرا ستة".

"تفضل يا ستة".

"هل أنت مستعد لمحاولة الإجلاء؟"

"مؤكد. أحتاج فقط أن أعرف أين أنتم. بمجرد أن تجدوا خمسة، فلنفعل ذلك. كل ثانية ننتظرها هي ثانية أخرى أخاطر فيها بكشف أمري".

نقل **زاك** إحداثياته الدقيقة ثم قال" :**لقد أمسكوا بخمسة. نحن نراه. إنه حي لكن لا يمكن الوصول إليه".**

لم تأتِ أي إرسالات عبر سماعات الرأس لعدة ثوانٍ. أخيرًا أجاب **كورت**" :**حسنًا. أفهم أن لديك خط رؤية مباشر؟"**

أومأ **زاك** برأسه في الغرفة المظلمة. هبت ستارة بيضاء قذرة في النسيم الحار أمامه، وحجبت رؤيته لرجله للحظات. عرف **زاك** ما كان يسأله **كورت** .كان **كورت** محترفًا بين المحترفين. بالطبع فهم ما يجب القيام به.

حرر **هايتاور** أمان بندقيته "تافور"، جاعلاً سلاحه في وضع الإطلاق" .**مؤكد، ستة . لدي خط رؤية مباشر. إنه في محطة الحافلات شمالنا مباشرة".**

كسر إرسال **جنتري** التالي صمتًا قصيرًا" .**سأفعلها أنا. سأنزل التل وأحصل على رؤية واضحة. فقط ابقوا في أماكنكم، وسأهتم بالأمر".**

لم يقل الرجال الثلاثة الآخرون في الغرفة مع **زاك** شيئًا. عرف **هايتاور** أنهم جميعًا فهموا ما سيحدث، لكن **جنتري** وحده من عرض القيام بذلك.
كان **كورت جنتري** رجلًا لا مثيل له.

"كلا يا فتى. أقدر ذلك، لكن هذه مهمتي. هذا ما يدفعون لي من أجله، على ما أعتقد".

"هل أنت متأكد؟"

"مؤكد. فقط أخبرني أنك مستعد لإجلائنا".

"لقد أعددت تمويهًا هنا. سأحتاج حوالي ثلاثين ثانية لأكون في طريقي، ودقيقتين أخريين لأكون فوقكم تمامًا".

"علم. استعد. نتحرك عند إشارتي".

كان **دان** الأقرب إلى **زاك**، على بعد قدمين فقط من كتفه الأيسر. مد يده وربت على ذراع رئيسه، وضغط عليه ضغطة متعاطفة.

نفض **هايتاور** يده.

كان الجميع في الفريق يعرفون ما يوشك أن يحدث. لقد لعبوا وفقًا لمجموعة من القواعد التي تضمنت هذا الاحتمال.

"اللعنة، "قال **زاك** بهدوء. كان الرجال الذين يبرحون **سبنسر** ضربًا يحجبون الآن تسديدته؛ كانت شبكة التصويب في منظاره مصوبة على عظمة عصعص رجل من الشرطة السرية. أراد **هايتاور** أن يضغط على الزناد، لكن قتل ضابط من جهاز الأمن الوطني لم يكن يستحق كشف موقعهم.

في هذه المرحلة، كان هناك شيء واحد فقط يستحق كشف موقعهم: منع **سييرا خمسة** من الكشف عن هويته أو مهمته للسودانيين. لن يفعل ذلك طواعية، لكنه سيفعله تحت التعذيب، ولم يكن هناك سوى طريقة واحدة لإيقاف ذلك.

في تلك اللحظة، ضيق **هايتاور** عينيه في منظاره. كانت هناك جلبة من نوع ما على الجانب الآخر من رجل الشرطة السرية. ركض الجنود إلى الأمام، وسقط أحدهم على ظهره في التراب، واستدار آخر وسقط على ركبتيه. دُفع ضابط جهاز الأمن الوطني الذي كان يحجب رؤية **سييرا واحد** جانبًا، ثم ظهر **سييرا خمسة**، ملطخًا بالدماء وعاري الصدر، ويداه مكبلتان خلفه.

"**ستة ، نفذ في غضون خمس ثوانٍ،** "قال **زاك**.

"**أنفذ في خمس، علم،** "جاء الرد المقتضب.

ركض **سبنسر** مبتعدًا عن حشد الرجال، مظهرًا توازنًا ولياقة لا تصدق للقيام بذلك. نطح جنديًا آخر برأسه وتقدم عشر ياردات أقرب إلى موقع **هايتاور**، بالقرب من حافة المنخفض الرملي.

"**إنه يحاول الهرب،** "قال **ميلو**، وهو يراقب دون منظار.

"**لا، ليس كذلك،** "قال **زاك** بهدوء. رمش" .**إنه يحاول مساعدتي في الحصول على تسديدة أفضل**".

إلى الغرب، سمعوا طلقات مسدس ودوي انفجار، تمويه **كورت**، وفي منظاره رأى **زاك سبنسر** يسقط على ركبتيه، ورأى فمه الملطخ بالدماء يتحرك في صرخة، وبعد لحظة وصل الصوت البعيد إلى موقع **هايتاور**.

"**أطلق**"!

"**أُطلق ".**ضغط **سييرا واحد** على زناد بندقية "تافور"، وأرسل طلقة عيار 5.56 ملم عبر السبطانة، وعبر الممر المقوس، وعبر المنخفض، لتستقر في جبهة رجله. ارتد رأس **سبنسر** إلى الخلف، وسقط جثة هامدة في التراب، واستقر جسده فوق ذراعيه المقيدتين.

في غضون ثوانٍ، بدأت نيران قريبة تخترق جدران الغرفة، وتطايرت الستارة البيضاء وتمزقت، وحوّل الغبار المتصاعد من ارتطام الفولاذ بالطوب اللبن الهواء حول الأعضاء المتبقين من فريق "ويسكي سييرا" إلى اللون البني الدخاني.

الفصل الحادي والأربعون

"سيرا ستة يتحرك! الوقت المقدر للوصول أربع ـ خمس ثوانٍ"!

أقر **زاك** بإرسال **كورت" .ستة في طريقه، مفهوم"**.

انطلق **كورت** بسيارة الجيب المكشوفة خارج محطة الوقود. خلفه، ارتفعت ألسنة اللهب سبعين قدمًا في الهواء من خرطوم وقود مشتعل كان يدور ويرتد عبر الخرسانة، ويتأرجح بعنف في جميع الاتجاهات من مضخة البنزين.

قُتل جنديان بنيران **كورت**، بينما أُصيب اثنان آخران بطعنات في الكبد وسقطا على وجهيهما في الشارع. ركض المدنيون للنجاة بحياتهم، فارين من خرطوم الوقود المشتعل الذي كان يشعل كل شيء في طريقه بعقل جامح خاص به. اصطدمت الحافلات الصغيرة والحافلات ببعضها البعض في محاولة للابتعاد عن المحطة. السكان المحليون في الشارع، الآمنون من النيران، وجدوا أنفسهم الآن مضطرين للقفز بعيدًا عن طريق سيارة الجيب العسكرية التي انحرفت في قوس واسع للدوران، متجهة الآن إلى أسفل التل ويقودها ذلك الخواجة المجنون ذو العمامة الذي بدأ هذه الكارثة.

اتجه **كورت** شرقًا بأقصى سرعة تسمح بها سيارة الجيب. كان غطاء الرشاش المثبت على القاعدة خلفه قد انخلع؛ وفي مرآة الرؤية الخلفية، كان يرى السلاح يرتد مع تموجات المسار الترابي غير المستوي.

عبر قطيع من الجمال المعقّلة أمامه، فلف عجلة القيادة يمينًا، واقتحم كشكًا خشبيًا يبيع الفاكهة، مرسلاً عشرات من عناقيد الموز المعلقة بالحبال تتطاير في الهواء. واصل اقتحامه للجانب الآخر من الكشك ليجد نفسه على بعد بناية واحدة جنوب الطريق الذي كان سيقوده

إلى موقع اختباء فريق **ويسكي سييرا**. في تلك اللحظة، توقفت سيارتا جيب عسكريتان عند التقاطع أمامه.

اللعنة!

مر **كورت** بجانبهما بسرعة، واستدارتا خلفه وبدأتا في مطاردته.

"أعداء خلفي يا زاك"!

"مفهوم".

"هل يمكنك التوجه بناية واحدة جنوبًا، أم أحتاج للمجيء إليكم؟"

"سنلتقي بك في الزقاق، منعطف يساري خلف الفندق. عندما تقلنا، تحرك جانبًا. براد سيقود ".ثم أضاف، **"لم تكن يومًا سائقًا ماهرًا".**

"مفهوم ".لم ينكر **كورت** اتهام **هايتاور**.

كانت الممرات والأزقة عبارة عن ازدحام خانق من البشر والحيوانات والآلات وغيرها من العوائق أمام عميل يحاول الإسراع في سيارة. ضغط **جنتري** على بوق السيارة وهو يقود. سدت عربة ريكشا وعربة حمار تحمل برميل ماء سعته خمسة وخمسون جالونًا الطريق أمام **كورت** في مساره الجديد، لذا لف عجلة القيادة، واتجه يمينًا بناية أخرى، ثم انعطف يسارًا بحدة مرة أخرى. هنا اضطر إلى الضغط على المكابح لتجنب حشد صغير من الأطفال والأغنام في الشارع، وكان يعلم أن سيارتي الجيب العسكريتين اللتين تطاردانه كانتا خلفه مباشرة. سرعان ما سحب مكبح الطوارئ، ووثب على مقعد السائق وقفز إلى الخلف، وإصابة كتفه تحتج حتى من خلال تأثيرات تسكين الألم لكميات الأدرينالين الهائلة التي كانت تجري في عروقه. انعطفت سيارتا الجيب، وتزحلقتا وتوقفتا أيضًا، وتشكلت سحابة

غبار ضخمة باقية من هذا الفعل. أدار **كورت** رشاش PKM نحو المركبتين، وسحب مقبض التلقيم لإدخال طلقة. كان قريبًا بما يكفي ليرى عيني سائق أقرب سيارة جيب تتسعان في مفاجأة، وأصدر الجندي الأسود صوت احتكاك في ناقل الحركة، ساحبًا مقبض التروس بعصبية إلى وضع الرجوع للخلف. وجّه **كورت** السلاح مباشرة إلى غطاء محرك سيارة الجيب وسحب زناد السلاح الروسي الكبير.

طَقْ.
كان السلاح فارغًا.

اللعنة!

سحب **كورت** مسدسه من طراز Glock 19 وأطلق مخزنًا كاملاً على سيارتي الجيب وهما تتراجعان حول الزاوية، وأجسادهما الخضراء تصطدم ببعضها البعض أكثر من مرة في محاولة يائسة للفرار من نيران المسدس المدمرة. لم يكن رشاشًا يتغذى بحزام طلقات، لكن في تلك اللحظة كان المسدس عيار تسعة مليمترات أثمن بكثير.

بمجرد أن اختفيا عن الأنظار، قفز عائدًا إلى المقعد الأمامي، وحرر المكبح، وانطلق إلى الأمام.

لقد أطفأ المحرك عن طريق الخطأ وهو يرفع قدمه عن القابض فجأة.

انفجر الزجاج الأمامي بجوار رأسه في شبكة عنكبوتية من الشقوق عندما أصابته طلقة بندقية.

"تبًا "!أعاد تشغيل المحرك وانطلق إلى الأمام مرة أخرى.

بعد ثلاثين ثانية، وصل أخيرًا إلى نقطة الالتقاء، ووجد الأعضاء الأربعة الباقين من فريق **ويسكي سييرا** منخرطين في اشتباك ناري عنيف، وأسلحتهم تصدر أصوات فرقعة وطقطقة

وهم يطلقون الرصاص باتجاه صف من المباني في نهاية الزقاق شرقًا. انفجرت قنابل العدو قبل أن تصل إلى أهدافها بقليل، وصفرت النيران المضادة بجانبهم. وضع **كورت** سيارة الجيب في وضع التوقف وقفز إلى الخلف ـــ مرة أخرى كرهه كتفه الأيسر لفعل ذلك ـــ وبدأ العمل على الفور في تحميل علبة ذخيرة في الرشاش. صعد "سييرا اثنان" إلى مقعد السائق. كان **براد** يحمل الآن مسدسًا فقط، أطلقه فوق الزجاج الأمامي.

بعد ثوانٍ، قفز **هايتاور** إلى مقعد الراكب، واتخذ موقع إطلاق نار أمامي، وانحنى "اثنان" خلف عجلة القيادة لإعادة تلقيم مسدسه ووضع سيارة الجيب في وضع الحركة. خرج "سييرا ثلاثة" بعد ذلك من خلف صف من البراميل بجوار مولد كبير؛ على ظهره كان "سييرا أربعة"، وفي يده اليمنى مسدس سوداني من طراز "مارا"، افترض **كورت** أنه قد استولى عليه من عدو سقط. ألقى **دان** بزميله الجريح في صندوق الجيب بجوار **كورت** ثم قفز فوقه.

ضغط **براد** على دواسة الوقود، وأدار سيارة الجيب إلى اليسار، مما جعل **كورت** يترنح في الخلف؛ فقط قبضته على الرشاش هي التي أبقته منتصبًا. أعاد **كورت** تلقيم السلاح المحمّل الآن وفتح النار برشقة على البراميل عند الزاوية وهم ينطلقون. على الفور اشتعل الوقود في الداخل، ووقع انفجار هائل عبر الزقاق، وأخفى الدخان الأسود انسحاب الأمريكيين.

في أقل من دقيقة، كانوا على الطريق المعبد الذي يؤدي إلى خارج المدينة.

مرا مرتين بمشاة أثناء تنقلهما في متاهة الأزقة في الأحياء الفقيرة، لكن سرعة وارتباك المواجهات السريعة أبقت كلا اللقاءين دون إراقة دماء. ظل "سييرا ثلاثة" عند قدمي **جنتري**، ومسدسه وعيناه موجهتان على القطاع من الساعة السادسة إلى التاسعة [14] حول المركبة. لم يكن مسدسه يستطيع أن يفعل ما يستطيعه رشاش "ستة"، لكنه إذا رأى تهديدات، كان يعلم أنه

---

[14] **القطاع من الساعة السادسة إلى التاسعة** : هي تقنية عسكرية سريعة لتحديد الاتجاه: تخيل ساعة حولك، حيث تشير **الساعة 12** دائمًا للأمام مباشرة، **والساعة 6** للخلف، **والساعة 3** لليمين، **والساعة 9** لليسار.

يستطيع توجيه **الرجل الرمادي** للاشتباك معهم بسلاح الجيب الثقيل. كان يعلم أيضًا أن **الرجل الرمادي** سيغطي من الساعة الثالثة إلى السادسة، وأن **براد** و**زاك** سيغطيان ربعي الدائرة أمامهما.

كان "سييرا أربعة" في الخلف أيضًا، لكنه كان فاقدًا للوعي الآن من فقدان الدم.

انحنى **كورت** أقرب إلى رأس **زاك** وصرخ فوق ضجيج السيارة المسرعة" :**يا! إذا انعطفت يسارًا هنا، يمكنني أن أجد لنا وسيلة نقل جديدة"!**

فكر **زاك** في الأمر لأقل من ثانية" .**لنقم بذلك "!**أمر **براد** باتباع تعليمات **كورت** .انعطفوا جنوبًا عند قمة تل واصطدموا مباشرة بنقطة تفتيش عسكرية. كان هناك ما لا يقل عن عشرة من مشاة حكومة السودان في منتصف طريق تصطف على جانبيه جدران طينية لمنازل خاصة. وجّه **كورت** رشاش PKM وفجّر شاحنة صغيرة متوقفة، مما أدى إلى انفجار الشاحنة وإطاحة الرجال على التراب على بعد عشرين ياردة. أطلق جنود آخرون النار على الأمريكيين وهم ينطلقون بسرعة خمسين ميلاً في الساعة. انطلق **براد** عبر الدخان وخرج من الجانب الآخر. إلى يسار الجيب، تدحرج جندي مشاة جريح مستلقٍ على ظهره في الشارع بسرعة على ركبتيه، ورفع سلاحه، وأمطر المركبة المكشوفة بنيران بندقية آلية من على بعد خمسة عشر قدمًا. كان **كورت** يطلق النار في الاتجاه المعاكس وبالتالي رأى التهديد متأخرًا، لكنه أدار رشاش PKM نحو إطلاق النار، وأطاح بالجندي على جدار بني في بقعة من الدماء، ثم نظر إلى جسده المكشوف، متوقعًا تمامًا أن يجد أنه قد أصيب.

بأعجوبة، لم يكن قد أصيب.

"تمسكوا "!صرخ **براد**، وجثا **كورت** في الجيب ويداه على الرشاش تمامًا عندما انطلقت المركبة في الهواء عند قمة مرتفع في الطريق، مما أدى إلى ارتطامها بقوة على محورها قبل أن تستقر وتغادر المنطقة.

بعد بضع ثوانٍ، مد **براد** يده إلى صدرته، محتضنًا نفسه بذراعه اليمنى بينما كان يقود بيسراه . **"اللعنة".**

"ما الأمر؟ "سأل **زاك**، ولا يزال يمسح قطاعه.

"أعتقد أنني كسرت ضلعًا لعينًا عندما ارتطمنا هناك".

"هل أنت بخير؟ "سأل **هايتاور**.

"نعم، أنا بخير، أنا فقط"——

دفع هذا الانقطاع في الرد رأس "سييرا واحد" إلى الالتفات نحو سائقه. واصل **براد** الإمساك بعجلة القيادة بيده اليسرى، وقدمه تكاد تلامس الأرض، لكن يده اليمنى كانت مرفوعة أمام وجهه.

كانت أصابعه مغطاة بدم كثيف وغني.

"يا ابن الـ"...

سقطت يد "سييرا اثنان" ببطء في حجره، وتمايل رأسه إلى الجانب ثم سقط إلى الأمام باتجاه عجلة القيادة.

"ثلاثة، قُد "!سحب **زاك براد** من مقعد السائق وعبر جسده. كان الجانب الأيسر بالكامل من جذع "اثنان" غارقًا في الدماء. اخترقت طلقة عدو جانبه بين إبطه ودرعه.

زحف **دان** فوق المقعد الخلفي وانزلق خلف عجلة القيادة بينما بدأت سيارة الجيب تنحرف إلى اليسار. ضغط على دواسة الوقود وانعطف في الوقت المناسب لتجنب الاصطدام بكومة حصى عالية بجانب الطريق.

جثا **جنتري** فوق **دان** بعد ثوانٍ وصرخ ليُسمع" .**يا رجل. أعتقد أنك مصاب. هناك دماء جديدة في كل مكان هنا، ولا أجد أي تسرب في جسدي"!**

بينما كان يقود، تحسس **دان** جسده. بعد عدة ثوانٍ، انحنى **جنتري** مرة أخرى.

"رصاصة في الكتف الأيسر"!

نظر **دان**، ووجد أنه قد أصيب بطلق ناري في أعلى مقدمة كتفه الأيسر، على بعد أقل من بوصتين من الوريد الوداجي في عنقه. نزف بغزارة لكنه استمر في القيادة.

سرعان ما وصلوا إلى المنزل حيث التقى **كورت** بـ**محمد** في وقت سابق من اليوم. كانت سيارة سكودا سيدان الصغيرة لا تزال في الفناء. استغرق الأمر من **جنتري** دقيقتين للعثور على المفاتيح حيث ألقاها في الغبار. خلال ذلك الوقت، أخذ **دان** الجريح البندقية الوحيدة المتبقية مع الفريق وحرس البوابة الأمامية، وقام **زاك** بالإنعاش القلبي الرئوي لـ**براد** على الأرض بجوار الجيب.

"هيا يا برادلي! لا تتخاذل أمامي أيها الجبان! تحامل على نفسك "!صرخ في رجل، كان بإمكان **كورت** أن يدرك حتى من عبر الفناء، أنه ميت بوضوح. لكن **زاك** لم يكن يريد أن يرى ذلك بنفسه. تساءل **كورت** عما إذا كان "سييرا واحد" يحاول إحياء كل من "سييرا اثنان" و"سييرا خمسة" بهذا العلاج العقيم.

لم يستسلم **زاك** لمدة خمس دقائق تقريبًا. بحلول ذلك الوقت، كان **جنتري** قد وضع "سييرا أربعة" المصاب في مؤخرة السكودا، مع تضميد **دان** بشكل سطحي وجلوسه بجانبه. ساعد **زاك** في وضع جثة "سييرا اثنان" في الصندوق. ثم قاد **كورت هايتاور** إلى مقعد الراكب. تولى

كورت القيادة، وغادرت المركبة بوابة المنزل واتجهت شمالًا، ورجال الحرب البيض الأربعة مختبئون خلف النوافذ المعتمة.

الفصل الثاني والأربعون

بعد عشرين **دقيقة**، مرت سيارة السكودا تحت سرب من أربع مروحيات تابعة للجيش السوداني كانت تتبع الطريق السريع من **بورتسودان** نزولًا نحو كل تلك الأحداث في **سواكن** . واصلت المروحيات طريقها واختفت في مرآة **جنتري** الخلفية.

لم ينطق **هايتاور** بكلمة. بدا منهكًا تمامًا، محبطًا، شبه فاقد للوعي. كان أربعة المصاب غائبًا عن الوعي في المقعد الخلفي، وبدا **ثلاثة** وكأن فقدان الدم المعتدل من جرح كتفه، بالإضافة إلى إرهاق الصباح، قد استنزفه بالكامل.

بعد فترة، اعتدل **زاك** في مقعده بصعوبة. جعل **كورت** ينحني إلى الأمام فوق عجلة القيادة وهو يقود، وسحب **سييرا واحد** الرداء عن كتفه ليتفحص جرحه.

"تفوح من ظهرك رائحة كريهة".

"أعلم، "أجاب **كورت** بذهن شارد، وهو يمسح السماء أمامه بحثًا عن مروحية أخرى. لم يكن هذا الفريق الصغير من الجرحى شبه العزل في وضع يسمح له بقتال أي شخص. كان **جنتري** يائسًا لإبقائهم بعيداً عن أي تهديد يفوق نزلة برد.

"أعرف أن هذا المكان قذر، لكن كيف يكتسب جرح مثل هذه الرائحة المتعفنة في أربع ساعات؟"

"لا أعرف. هل لديك أي مضادات حيوية؟"

"لا . لم نحضر سوى أدوات الإسعافات الأولية الأساسية. وقد استخدمنا معظمها، أليس كذلك يا داني؟"

"نعم يا سيدي ".لكن **سييرا ثلاثة** أخذ بعض الضمادات النظيفة من جرح كتفه، ومزقها، وناولها لـ**زاك**.

أخذ **هايتاور** بعض الشريط اللاصق من حقيبته الطبية ووضع شاش **ثلاثة** فوق الثقب في ظهر **جنتري** لوقف المزيد من النزيف. كانت مهمة سريعة، أفضل بقليل من لا شيء" .**ستنجو. عندما نصل إلى هانا، سنعالجك"**.

"ممتاز، "قال **كورت** .لم يكن قلقًا جداً بشأن ذلك، رغم أنه كان يؤلمه كالجحيم.

أصدر هاتف **هايتاور** المتصل بالأقمار الصناعية طنيناً في جيب صدره. كان الجهاز مسودًا بالتراب والسخام والزيت والدم، لكنه على الأقل كان لا يزال يعمل. كان **سييرا واحد** قد نزع سماعة رأسه أثناء محاولته إنعاش **سييرا اثنين**، لذا ضغط ببساطة على زر مكبر الصوت.

"سييرا واحد يتحدث".

كان المتصل **ديني كارمايكل** .لم تكن هناك "مرحبًا" أو "كيف حالك؟."

"تلقيت للتو اتصالًا من البيت الأبيض. يقولون إن السفير الأمريكي في السودان يسأل عما إذا كان هناك نوع من تورط الوكالة فيما يصفه، وأنا أقتبس، حادث شبيه بسقوط البلاك هوك في بورتسودان. كيف يفترض بي أن أرد على ذلك؟"

ابتسم **زاك**، ورأسه مستند إلى مسند الرأس وعيناه مغمضتان. كان وجهه أسود من القذارة وأحمر من الدم الذي تلطخ به كل شبر من جسده تقريبًا، باستثناء حيث أبقت نظارته الواقية الفوضى بعيداً.

"حسنًا يا سيدي، لو كنت مكانك، لقلت إن معلومات وزارة الخارجية سيئة تمامًا مثل معلومات محطة وكالة المخابرات المركزية في السودان. نحن على بعد أربعين ميلًا جنوب بورتسودان".

"ليست هذه هي النقطة، أليس كذلك؟ هل لدينا، أو هل كان لدينا، حادث شبيه بسقوط البلاك هوك؟"

"بالتأكيد لا. لم تزودنا بأي مروحيات بلاك هوك لتسقط أصلًا".

"لا تكن وقحًا معي يا واحد. هل أمنت أوريكس؟"

"إنه مؤمّن".

"هل أجلّيته إلى هانا؟"

"لا. لكن هذا هو البند التالي على قائمة مهامي".

"هل هو مع سييرا ستة ؟"

"آه، لا. ستة معنا، أو ما تبقى منا. لقد فقدت اثنين من العملاء بنيران العدو. شكرًا لسؤالك عن رجالي، بالمناسبة".

التفت **كورت** لينظر إلى **هايتاور** .كان من الصادم، حتى بعد كل ما حدث في الساعات القليلة الماضية، أن ينفجر **زاك** في وجه رئيسه بهذه الطريقة.

أظهر رد **ديني** أن تركيزه كان على مهمة "نوكتورن سافاير"، وليس على صحة أعضاء فريق "ويسكي سييرا" ."**من مع أوريكس الآن؟"**

أجاب كورت جنتري وهو يقود" :أوريكس مؤمّن. لن يذهب إلى أي مكان".

"لماذا لستما في نفس المكان اللعين؟"

"فريق ويسكي سييرا كُشف أمره. عدت للمساعدة. لم أعرّض مهمة نوكتورن سافاير للخطر".

"وماذا لو قُتلت؟"

"لقد أرسلت موقع أوريكس إلى هانا قبل أن أنطلق".

كان غضب ديني وإحباطه واضحين في صوته" .ليست مهمة الرجال على متن هانا إجلاء أوريكس من السودان. هانا لا تملك عملاء من عيارك المفترض يا ستة ، على الرغم من أنني لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى خيبة أملي في قدراتك على اتخاذ القرار في الأسبوع الماضي! كان يجب عليك إخراج أوريكس من البلاد قبل العودة من أجل الآخرين".

بدأ كورت في الرد، لكن زاك أمسك بالهاتف وقربه من فمه" .لدي إصابات بنسبة مائة بالمائة! قتيلان! لقد أمضينا للتو ما يقرب من أربع ساعات في قتال قوة مشاة قوامها عدة مئات من الجنود، مع دعم جوي. مشاة ودعم جوي لم يكن من المفترض أن يكونا هناك. ودعمنا المحلي، الدعم الذي كان من المفترض أن يكون هناك، لم يظهر إطلاقًا"!

"معلوماتي من محطة السودان هي أنهم ظهروا، وإن كان بعد بضع دقائق".

"ربما دفعت محطة السودان أربعمائة ألف دولار لعربة يجرها حمار مليئة بالمنبوذين ليطلق كل منهم مخزن ذخيرة في زقاق ثم يهرب، لكن بخلاف ذلك، لم نحصل على أي مساعدة على الإطلاق".

ساد صمت طويل. توقع **كورت** بعض الندم، لكن شيئًا من ذلك لم يأتِ" .**ومع ذلك، ما كان يجب أن تسمحوا بكشف أمركم. وما كان يجب على ستة أن يحيد عن مهمته لإخراجكم من ورطتكم. كنتم تعرفون المخاطر** ".سُمع تنهد منزعج عبر الإرسال" .**الآن... تمالكوا أنفسكم وواصلوا مهمة نوكتورن سافاير. سأفعل ما بوسعي للتفاوض بشأن التداعيات السياسية هنا. هذا كل شيء** ".انقطع الخط.

أسقط **زاك** الهاتف في حجره. تدحرج على ساقيه إلى الأرض. كان متعبًا جدًا لدرجة أنه لم يستطع التقاطه وإعادة تثبيته على صدره.

قال **كورت**" :**اللعنة يا زاك. رئيسك وغد".**

"حدثني عن ذلك".

بعد ساعة، أوقف **كورت جنتري** سيارة السكودا عند الكوخ المختبئ في أعشاب المستنقعات، وخرج، ودخل ومسدسه مرفوع أمامه. كان الكوخ المظلم كما تركه، وإن كان أشد حرارة وخنقة.

وكان **أوريكس** كما تركه **كورت** أيضًا. كان **جنتري** قد حقن الرئيس السوداني بمحقنة معبأة مسبقًا بمهدئ من شأنه أن يفقده الوعي لمدة ساعتين تقريبًا، ثم قيّد يديه خلف ظهره وحول عمود الدعم المركزي المتين للكوخ. عند عودته، كان جالسًا متربع الساقين، ورأسه متدلٍ كما لو كان نائمًا. بين ركبتيه، ترك **جنتري** زجاجة ماء مفتوحة. لم يكن يعرف حقًا كيف كان **عبود** سيشرب منها وهو مقيد هكذا. ولكن كما تبين، بدا أن الرئيس قد نام طوال الوقت.

قبل ثلاثين دقيقة، كان **كورت** قد أنزل الأعضاء الناجين من فريق "ويسكي سييرا"، وأحد قتيليهم، عند نقطة الالتقاء على شاطئ المحيط على بعد أربعة عشر ميلًا شمال **سواكن** .

اختبأ الرجال على الفور هم وزميلهم الساقط في مستنقع كثيف من أشجار المانغروف. ناول **زاك كورت** جهاز استقبال صغير يلتقط إشارة من جهاز إرسال على متن "هانا" حتى يتمكن من معرفة مكان القارب في جميع الأوقات، حتى لو انقطعت الاتصالات لسبب ما.

كانت الخطة الأصلية أن يأتي القارب المطاطي "زودياك" من "هانا" إلى الشاطئ لاصطحاب الفريق، لكن لم يكن هناك أي طريقة لمحاولة ذلك في وضح النهار الآن. بدلًا من ذلك، سيقود أحد أفراد طاقم سفينة وكالة المخابرات المركزية غواصة صغيرة تتسع لشخصين إلى المستنقع ويصطحب كل رجل على حدة. سيستغرق إتمام عملية الإجلاء هذه بقية اليوم، لكن شعر الجميع أن هذا أفضل بكثير من بقاء أربعة رجال مصابين جالسين في مياه مالحة حتى صدورهم لمدة ثماني ساعات في انتظار الالتقاء الليلي بواسطة "زودياك."

تلقى **كورت** تعليمات بالعودة إلى مخبئه وتجهيز **أوريكس** للتحرك في أي لحظة. لن يعود أحد قبل وقت متأخر من المساء للقيام بالرحلتين الأخيرتين لإخراج رئيس السودان و**الرجل الرمادي**، ولكن إذا تم كشف موقع الالتقاء بطريقة ما، فسيحتاج **جنتري** إلى أن يكون مستعداً لاستكشاف موقع جديد بنفسه.

فك **كورت** وثاق **أوريكس** من عمود الدعم في الكوخ، ومدده على ظهره، ثم وضع بجانبه زجاجة الماء وكيسًا من الزبيب كان في حقيبة ظهره.

أمره" :**كُل**".

لم يتحرك **أوريكس**.

"أنت لست فاقدًا للوعي أيها الأحمق. لقد زال مفعول المنوم الذي أعطيتك إياه".

ظل الرئيس مستلقيًا بلا حراك.

"يا رجل، لست في مزاج للعب الآن".

لم يتحرك الرجل.

ركع **كورت** فوقه ورفع ذراعه اليسرى الممتلئة في الهواء من معصمه. تظاهر **جنتري** بأنه يقيس نبضه، لكنه أمسك بالذراع فوق وجه الرجل المستلقي وأفلتها. لو كان فاقدًا للوعي، لكانت اليد قد ارتطمت بأنف الرئيس، لكنها بدلًا من ذلك هبطت ببطء ثم سقطت بشكل مسرحي إلى الجانب.

قال **كورت** بغضب" :**اجلس** ".لم يبدِ الرجل أي ردة فعل.
أخرج **كورت** أداة متعددة الاستخدامات من حقيبته، وفتح قطاعة الأسلاك، ووضع إصبع الرئيس الخنصر بين الكماشتين المعدنيتين الباردتين.

على الفور، فتح الرئيس **عبود** عينيه. ابتسم بخجل، وأسنانه البيضاء تشكل تباينًا صارخًا مع وجهه الأسود الفاحم" .**هذه خدعة ذكية، إمساك ذراع المريض فوق وجهه هكذا وإفلاتها".**

"سعيد لأنها أعجبتك. انهض، وإلا سأقطع هذا الإصبع. تسليمك إلى المحكمة الجنائية الدولية بتسعة أصابع بدلًا من عشرة جيد تمامًا بالنسبة لي".

جلس **أوريكس** في التراب. أخذ الماء وشرب نصفه قبل أن يضع الزجاجة مرة أخرى.

"أشعر بالغثيان".

"فقط من الأدوية. سيزول قريبًا. وربما لديك ارتجاج خفيف من بيج بانج هذا الصباح".

أومأ **أوريكس** .سأل" :**كيف حال ظهرك؟"**

"أشعر وكأن أحمقًا أطلق علي سهمًا. كيف تظنني أشعر؟"

"هل أنقذت رجالك من رجالي؟"

نظر **كورت** في عيني الرجل" .**بعضهم**".

أومأ **أوريكس** ببطء" .**يؤسفني فقدان الأرواح من كلا جانبي المعركة اليوم**".

"هذا مريح بشكل لا يصدق يا وغد".

غطى تعبير من الإهانة الصادقة وجه **عبود** .وبقي على حاله وهو يسأل" :**ماذا سيحدث الآن؟**"

"سننتظر".

"كم من الوقت؟"

"لا أعرف".

"لا تعرف؟"

"لا أحد يخبرني بشيء، "قال **كورت** وهو يخرج أشياء من حقيبته" .**في الوقت الحالي، تناول غداءك وتوقف عن سؤالي".**

هز **أوريكس** كتفيه وفتح كيس الزبيب. بدا أكثر استرخاءً مما توقعه **جنتري** .وبينما كان يلتقط قطع الفاكهة الصغيرة، قال" :**سيد ستة ، يجب أن تعترف بأنني لا أسبب لك أي مشكلة. لا أعرف لماذا تظهر كل هذا الغضب تجاهي".**

بدأ **كورت** في خلع قميصه. جعل اللسع الحارق العميق في عظم لوح كتفه هذا الفعل بائسًا . **"تذكر، كنت قادمًا لتفجير رأسك، لذا بصراحة لا أعتقد أنك تُعامل بشكل سيء".**

"كنت أتحدث عن كلماتك لي. ضربك لي في سواكن. أنت لست صورة الجندي الأمريكي الشريف التي تحاول بلادك تسويقها للعالم".

"أنا لست جنديًا أمريكيًا شريفًا".

"إذن ماذا أنت؟"

"أنا الرجل الذي يرسلونه عندما لا يستحق بعض الأوغاد أن يُعاملوا بشرف".

وبينما كان **أوريكس** يمضغ الزبيب ببطء، نظر عبر الظلام إلى آسره" **.ولكن يا سيدي، هذه هي مهنتك. أنت هنا بسبب ما يعتبره الغرب جرائم حرب في إقليم دارفور. هذا لا يخصك شخصيًا، ولأجازف بالقول، لا يخص أفراد عائلتك. لا يوجد سبب لتعامل هذا الأمر كثأر شخصي. ألا يمكننا الحفاظ على علاقتنا على المستوى المهني بينما نحن معًا؟"**

لم يرد **كورت** .بدلًا من ذلك، فتح زجاجة مطهر صغيرة أخرجها من حقيبته. انحنى إلى الأمام، ومد يده إلى الخلف، وبذل قصارى جهده لسكبه حيث يمكن أن يسيل على كتفه ويدخل جرحه.

واصل **أوريكس**" :**في السيارة. ضربتني في لحظة غضبك لأنك لا تستطيع السيطرة على نفسك. غضبك أكثر بدائية، أكثر انحطاطًا، من المنطق الهادئ الذي أطبقه على الحرب في دارفور والتي وجهت لي بسببها اتهامات من قبل محكمتكم الصورية هذه".**

تجهم **جنتري** عندما تغلغل الدواء في الثقب المتورم في ظهره. لكنه نظر إلى **عبود** عبر مساحة ثلاثة أقدام من الفضاء الخافت" **.هل تعتقد أنني ضربتك لأنني كنت خارج السيطرة؟"**

"بالطبع فعلت. رأيت ذلك في عينيك. كنت خائفًا وغاضبًا، وسيطر عليك انفعالك. فانفجرت غاضبًا"——

"انظر في عيني الآن. هل أنا مسيطر على نفسي؟"

"نعم. في هذه اللحظة أنت كذلك، ولكن"——

لكم **كورت عبود** في وجهه مرة أخرى. ارتد رأس الرجل الممتلئ إلى الخلف ثم إلى الأمام، وتورمت شفته واحمرت على الفور.

"ما خطبك؟ "غطى **أوريكس** وجهه وهو يصرخ.

ألقى **جنتري** حاوية المطهر الفارغة في الحقيبة" .**شتى أنواع الأشياء".**

"مجنون".

"أجل. قد ترغب في تذكر ذلك".

الفصل الثالث والأربعون

أمضى **جنتري** التسعين دقيقة التالية وهو يأمر الرئيس **عبود** بالصمت، بينما كان يتلوى من عذاب الألم في ظهره. ومما زاد من بؤس ذلك المساء، تلك الحرارة والرطوبة الخانقتان. مرتين، بحث **كورت** في حقيبة ظهره عن أقراص الهيدروكودون، لكنه في كلتا المرتين امتنع عن تناولها. كان ألمه حقيقيًا، وكذلك كانت حاجة جسده الماسة إلى لحظة راحة من العذاب، لكن **كورت** كان يعلم أنه يجب عليه التحمل وانتظار اتصال من **زاك**.

اتصل **زاك** أخيرًا حوالي الرابعة مساءً. كان هو و**ميلو** قد عادا إلى السفينة **هانا**؛ وسيصل **دان** في الغواصة الصغيرة في غضون ساعة. أُخبر **كورت** أنه من المحتمل أن يستخدموا نفس نقطة الانسحاب في مستنقع المانغروف، حيث لم يتم كشفها. سيكون وقت الالتقاط منتصف الليل، مما يعني أن على **جنتري** أن ينتظر بصبر للساعات السبع القادمة أو نحو ذلك قبل أن يأخذ **أوريكس** إلى الماء.

أنهى **كورت** المكالمة مع **زاك** ونظر إلى **أوريكس** .حدق الرئيس فيه بدوره. كان رأسه الأصلع الأسود مغطى بقطرات عرق تتدلى كالحلي، تتلألأ كلما هبت نسمة دافئة وحركت أحد جدران الخيش الممزقة بما يكفي لتسلل ضوء الشمس وإضاءتها. كانت يداه غير مقيدتين.

نظر **كورت** بعد ذلك إلى حقيبة ظهره. سبع ساعات، لا شيء ليفعله سوى الجلوس هنا والمعاناة... فكر في الألم والتشنج في العضلات المحيطة بموضع الألم وحقيقة أنه سيحتاج إلى أن يكون جسده وعضلاته في أقصى درجات المرونة لأي طارئ بمجرد أن يبدأ التحرك مرة أخرى. الوسيلة الوحيدة لتحقيق ذلك، قال لنفسه، هي الحصول على بعض الراحة من الألم الآن.

لم يكن بحاجة إلى الكثير من الإقناع.

بعد ستين ثانية، كان معصم **أوريكس** الأيمن مقيداً بقيد بلاستيكي إلى الدعامة المركزية للكوخ. كانت ذراعه اليسرى حرة لشرب الماء أو تناول الطعام أو لإخراج عضوه والتبول في التراب إذا رغب في ذلك. تأكد **جنتري** من عدم وجود أي شيء في متناوله يمكن أن يستخدمه كسلاح أو أداة. قال **كورت** لنفسه إن **أوريكس** آمن، ويمكن لـ**أوريكس** أن يعتني بنفسه لفترة.

بعد ذلك، فتح الأمريكي حقيبة ظهره، وتجاوز أقراص الهيدروكودون مباشرة، وأخرج أقوى حقنة مورفين أعطتها له وكالة المخابرات المركزية. مزق الحاقن المحمّل مسبقًا من عبوته المعقمة ونزع الغطاء البلاستيكي ليكشف عن الإبرة.

تراجع **أوريكس** خائفًا.

"لا تقلق"، قال **جنتري**" .**هذه لي"**.

حقن عشرين مليغرامًا من الأفيون القوي في ذراعه اليسرى. على الفور جلس وأسند ظهره إلى جدار الكوخ، بعيداً عن متناول أسيره.

في غضون دقيقة ونصف، بدأت جفونه ترتعش، وصغرت حدقتا عينيه، وبدأ الألم في الانحسار.

رأى **أوريكس** بوضوح تأثير الحقنة على آسره.
"جنون. أي نوع من الجنود أو الجواسيس يتعاطى المخدرات أثناء مهمة؟"

"اصمت"، قال **جنتري** .بدأت الغرفة من حوله تتلاشى في ضباب لطيف. ثم قال، بنبرة دفاعية أكثر من اللازم" :**الألم سيبطئني لاحقًا إذا لم أخفف من حدته الآن"**.

"وهيروينك لن يبطئك؟"

"إنه ليس هيروينًا أيها الأحمق"، رد **كورت** بحدة، لكنه كان يعلم أن تأثير المخدر مشابه لتأثير الهيروين، على الرغم من أن نشوته لا تدوم طويلاً.

"أنت مدمن مخدرات"، قال **عبود** ببرود.

"وأنت طاغية يمارس الإبادة الجماعية. فدعك مني".

أي شعور بجلد الذات قد شعر به **جنتري** لتناوله المخدر القوي أثناء مهمة تلاشى في ثوانٍ، حيث أفسحت نشوة التأثير الأولي للمخدر الطريق لشعور مبالغ فيه بالراحة. في غضون عشر دقائق من حقن نفسه، كان قد انخرط في محادثة عميقة مع **عبود**، وهو تحول بمقدار 180 درجة عن سلوكه السابق.

لكن **كورت** لم يكن عاجزًا تمامًا. خلال محادثتهما المهذبة على مدار النصف ساعة التالية، سأله **أوريكس** عن اسمه الحقيقي وعنوان منزله، وطلب استعارة هاتفه، وسأل عما إذا كان يمكنه إلقاء نظرة فاحصة على مسدسه الرائع. كان **الرجل الرمادي** تحت تأثير أفيون يغير المزاج، لكنه لم يكن مجنونًا. في كل مرة كان يبتسم بصدق. وعندما طُلب منه المسدس، ضحك حتى وأجاب بأن **عبود** قد قام بمحاولة جيدة.

بحلول الخامسة إلا ربع، كان **كورت** في سلام في الكوخ المظلم. لقد كان سلامًا مستحدثًا كيميائيًا، وسلامًا في وقت غير مناسب على الإطلاق لمحارب مثل **جنتري** .وبينما كان يتحدث مع **أوريكس** أو يحدث نفسه، وجد نفسه فخورًا بشكل لا يصدق بوجوده في هذه المهمة، فخورًا بإرساله مع رجال **ويسكي سييرا** الشجعان، رحم الله روحي اثنين منهم، وفخورًا بثقة **ديني كارمايكل** الأسطوري.

وعيناه مغمضتان في هدوء ، بدأ يغفو، والتخدير الشديد يتغلب على فقدان التحفظ الذي جعله ينخرط في محادثة عميقة مع أسيره. تمامًا عندما تمايل رأسه إلى الجانب، أصدر هاتفه صفيرًا.

حدق **كورت** فيه، وعيناه متسعتان كصحنين. نظر إلى **أوريكس** وابتسم" .**يا إلهي. أنا في ورطة".**

أجاب على الهاتف" .**ألو؟"**

قال **هايتاور" :حسنًا يا ستة، علينا تقديم الجدول الزمني".**

"يا إلهي. أمم... لا أعرف. كيف تسير الأمور هناك على القارب؟"

"بخير، لكني سأحتاج منك استطلاع موقع آخر للالتقاط. أعتقد أن الجانب الشمالي من غابة المانغروف سيكون أفضل عند انخفاض المد. اذهب إلى هناك وانظر ما إذا كان خاليًا من المدنيين. هناك بعض البدو الذين بنوا هياكل على طول"——

"تقصد... الآن؟"

"لا يا صاح. على راحتك اللعينة. بالطبع أعني الآن".

"أوه، حسنًا. أعني، لا. لا تغضب... لكني بحاجة للبقاء هنا لفترة أطول قليلاً".

"لتفعل ماذا؟"

نظر **كورت** إلى السقف. لاحظ النسيج المعقد للقش؛ حتى في الظلام، كان الأمر كما لو أن كل قشة من القش السميك لها شخصيتها الخاصة، وهدفها الخاص، ومسارها الخاص عبر الآخرين وهي تتداخل وتخرج من——

"لتفعل ماذا يا ستة؟"

"هيا يا زاك. لا تغضب. أنا فقط بحاجة إلى "...تلاشى صوت **كورت**.

"ما خطبك بحق الجحيم؟"

"لا شيء. أتمنى لو استطعت رؤية سقف هذا الكوخ، إنه جميل بشكل لا يصدق. إنهم يجففون القصب ثم يربطونه في حزم صغيرة، ثم يربطون تلك الحزم معًا لعمل حزم أكبر—— "

"يا إلهي، كورت! هل أنت تحت تأثير مخدر ؟"

ضحك **كورت** في الهاتف.

"أين أوريكس؟"

"إنه يجلس هنا. هل تريد التحدث إليه؟"

"اللعنة لا، لا أريد التحدث"——

"ها هو".

نهض **كورت**، وحمل الهاتف إلى **عبود**، الذي مد يده ببطء وأخذه بيده غير المقيدة.

"أنت تتحدث إلى الرئيس بكري علي عبود. من هذا؟"

لم يجب **هايتاور** في البداية. عندما تحدث كان بطيئًا ومترددًا" .**ماذا حدث لرجلي؟"**

"رجلك قد حقن نفسه بنوع من المهدئات".

"عن طريق الخطأ، تقصد؟"

نظر **أوريكس** إلى **جنتري** .كان قد عاد إلى الحائط واتكأ عليه. كانت عيناه مفتوحتين، مثبتتين على سقف الكوخ، ورأسه مسنود إلى جدار الخيش والأخشاب الطافية.

"عمدًا. عمدًا جدًا، في الواقع".

كان من الواضح أن **زاك هايتاور** لم يعرف كيف يرد على هذا" .**حسنًا. اسمع... لدي المزيد من الأصول في المنطقة. إذا حاولت استغلال هذا الموقف و"——**

"لا تقلق يا سيد CIA. قبل أن يقرر رجلك الاستمتاع بوقته، تأكد من تقييدي. عمليتكم تأخرت، لكني غير قادر على الهروب".

"أعد الهاتف إليه".

نظر **أوريكس** إلى هاتف الثريا وابتسم. ضغط على زر أحمر لإنهاء المكالمة. كانت عينا "ستة" لا تزالان على السقف. كانتا شاردتين، وجفونه تتدلى منخفضة. حاول الرئيس السوداني يائسًا أن يتذكر رقم هاتف مكتبه، أو حراسه الأمنيين... أي شخص. نعم، سكرتيرة في قصره الرئاسي بالخرطوم؛ قفز الرقم إلى رأسه. لم يكن يعرف أين هو بالضبط، لكنه كان يستطيع تحريك جيش بأكمله إلى المنطقة شمال **سواكن**، وجنوب **بورتسودان**، وغرب الساحل وشرق تلال البحر الأحمر بأمر واحد. كان لا يزال يعتقد أنه من المحتمل أن "ستة"، إذا استطاع، سيقتله إذا شعر أن عملية اختطافه لم تعد ممكنة. ولكن إذا بقي "ستة" عاجزًا لفترة، فقد يكون هناك ما يكفي من الوقت للإنقاذ!

بدأ يضغط على الأرقام في الهاتف.

نظر مرة أخرى إلى خاطفه وهو يرفع الهاتف إلى أذنه.

كان المسدس الأسود الصغير ذو كاتم الصوت الطويل مصوبًا بين عينيه" .**سأحتاج إلى استعادة ذلك"**.

"نعم".

"محاولة جيدة، على كل حال"، قال الأمريكي.

نام **جنتري** لمدة ساعتين واستيقظ عند الغسق. كان لا يزال تحت تأثير المورفين بشكل كبير، ولا يزال يشعر بأنه خالٍ نسبيًا من الألم في ظهره، على الرغم من أن النشوة قد تبددت بما يكفي لجعله يخشى محادثته التالية مع **هايتاور** .كان **أوريكس** نفسه قد غفا في الحر، واستغل **كورت** لحظة الهدوء ليرتشف ماءً معبأً ويأكل لوح طاقة للجنود. بينما كان يمضغ، التقط الهاتف بفتور ورأى أن "سييرا واحد" قد اتصل ست مرات في الساعتين الماضيتين.

وضع **كورت** الهاتف مرة أخرى في التراب وأنهى عشاءه. ثم أشعل نارًا صغيرة، مستخدمًا العشب والأغصان وقطعًا أكبر من الأخشاب الطافية المتناثرة. بالكاد كان بحاجة إلى الدفء، لكن الضوء كان مفيداً الآن بعد أن حل الظلام على الساحل الشرقي للسودان.

"كيف تشعر؟ "سأل **أوريكس** من وسط الغرفة. رفع **جنتري** نظره ليراه واقفًا، وظهره إليه وهو يقضي حاجته بمساعدة يده الحرة.

"الظهر أفضل. بقية جسدي تشعر بالروعة ".ابتسم **كورت** من دعابته.

"هاتفك لا يتوقف عن الرنين".

"نعم"، قال **كورت" .سأحتاج إلى معاودة الاتصال بهم بعد قليل. في غضون ساعتين سأكون أجر مؤخرتك إلى الساحل. وفي غضون يوم أو يومين، ستكون محبوسًا "**.ابتسم له **كورت، "أعتقد أنك ظننت أن قتل أربعمائة ألف من أبناء وطنك لن يكون له جانب سلبي، أليس كذلك؟"**

"لقد قتلت اليوم عددًا من الناس أكثر مما قتلت أنا يا صديقي".

"لسنا أصدقاء".

جلس **أوريكس** مرة أخرى ومسح وجهه، فانتشر لمعان العرق على جبهته. تراقص ضوء النار الناعم على ملامحه الأبنوسية في انعكاس الرطوبة" .**أعتقد أننا أكثر من أصدقاء. نحن إخوة تقريبًا".**

"عليك أن تنظر في المرآة".

"أعني، أن حساسيتنا متشابهة. وكذلك مسار عملنا المختار. كلانا يقتل، وكلانا قرر أن ذلك لا يزعجنا".

"لقد كدت أن تبيد شعبًا. أنا وأنت لسنا"——

"إذًا ليس فعل القتل هو ما يزعجك. إنه مجرد حجم القتل. لكن يمكنني أن أجادل بأن ما أفعله، أفعله من خلال السياسة ، وليس بيدي. أعتقد أن قتل رجل، وجهًا لوجه، يتطلب قسوة أكبر من قتل شعب عبر القوانين وإعلانات الحرب. أنت الرجل الأكثر خطورة هنا. فقط فكر في عدد الأشخاص الذين ستقتلهم إذا كنت تدير دولة، أو جهاز مخابرات. كنت ستذبح كل من تعارضه".

انحنى **بكري علي عبود**، رئيس السودان، قريبًا جدًا الآن، ورأسه فوق الخشب المشتعل مباشرة، ولمعان العرق يتوهج على وجهه" .**مثلي تمامًا... يا أخي** ".ابتسم" .**أنا وأنت، يا سيد ستة، نفس الشيء. مبيدو حطام البشرية** ".ترك **أوريكس** العبارة معلقة في الظلام للحظة" .**فقط أنا أفضل في ذلك منك، لذا أعتبر أكثر شرًا منك. من المثير للاهتمام كيف أن منظور المرء يوجه مفهومه للصواب والخطأ**".

حرك **جنتري** النار بعصا طويلة. أدرك أن الأفيون فيه هو ما يجعله يواصل المحادثة" .**لقد كنت أفضل مني، لكن الحفلة انتهت. ستحبس لبقية حياتك**".

ابتسم **أوريكس** مرة أخرى.

راقبه **كورت** في ضوء النار" .**لا تبدو قلقًا جدًا بشأن قضاء بقية أيامك خلف القضبان**".

"**أوه، لو كان هذا حقًا سيكون مصيري، لكنت مضطربًا للغاية، أؤكد لك. لكني لن أقضي بقية أيامي خلف القضبان**".

"**ليس إذا غيرت رأيي وأطلقت النار على مؤخرتك هنا**".

ضحك الرئيس **عبود** ضحكة منخفضة ومنتظمة" .**لا أعرف ما إذا كان يمكنك تشغيل سلاحك في حالتك الحالية**".

"**جرّبني**".

"**لا، لا**"، لوح **أوريكس** بيده" .**يسعدني أن تكون مرافقي إلى أوروبا**".

"**إلى السجن**"، قال **كورت**.

"أوه، لبضعة أشهر، أنا متأكد من أنك على حق. لكن عروضًا قُدمت لي، عروضًا رفضتها حتى الآن، ستسمح لي بطلب المنفى في أي من الدول الثالثة العديدة. ساحل العاج قريبة من الوطن، لكني أميل في الوقت الحالي إلى جزيرة كاريبية معينة تم اقتراحها. أستمتع بالسيجار من حين لآخر، على الرغم من أنني أتوسل إليك ألا تخبر زوجاتي".

جلس **كورت** مستقيمًا، ولا يزال متربعًا، على جدار الكوخ" **.هراء".**

"دبلوماسية"، أجاب **بكري علي عبود** بابتسامة.

"الأوروبيون سيتركونك تذهب؟"

هز الرئيس رأسه ببطء. كشف عن أسنانه في ابتسامة" **.ليس فقط الأوروبيون. الأمريكيون أيضًا".**

صُعق **جنتري** .كان يعلم أنه في حالة سيئة جداً لتقييم التعبيرات الدقيقة التي يطلقها الجهاز الحوفي للرئيس، للتحقق من أدلة الخداع. لكن الوغد بدا واثقًا من نفسه بلا شك.

ظلت ابتسامة **عبود**، لكنه قال من خلالها، بلكنة أمريكية مبالغ فيها" :**كما قلت أنت من قبل. لا أحد يخبرك بأي شيء، أليس كذلك يا سيد ستة؟"**

"لماذا؟ "تشقق صوت **جنتري**.

"من أجل خير العالم"، ضحك **عبود** مرة أخرى" **.ماذا تعتقد أنه سيحدث لو تم اغتيالي في مسقط رأسي على يد متمردي جيش تحرير السودان؟ حرب أهلية أكبر بعشر مرات مما لدينا الآن، باستثناء أن هذه ستكون أسوأ. الصين تريد نفطها، لذا ستدعم خليفتي كما فعلت معي. لكن روسيا ستدعم انقلابًا عسكريًا على الخلافة المدنية، وستساعد جيراننا في الغرب. ستغزو تشاد، وتأخذ شمال دارفور، وتسلم الجزء الأكبر من النفط هناك للروس**

كدفعة. ستتعرض مخيمات النازحين للتهديد، وستضطر بعثة الأمم المتحدة والاتحاد الأفريقي في دارفور (يوناميد) إلى الخروج، لأن الاتفاق الأصلي كان معي وليس مع حكومة تشاد. ستدفع الصين خليفتي نحو حرب شاملة مع تشاد لاستعادة القطاع A12،
وخليفتي، في الأساس، رجل ضعيف. سيخضع لإرادتهم بطرق لن أوافق عليها أبدًا. يمكن للصين أن تمتلكه بالأسلحة والسلطة والمال".

"بعد عام واحد من رحيلي، ستكون شرق أفريقيا مركزًا لصراع القوى العظمى، وسيموت عشرات الآلاف، وسينزح مليون آخر".

"ولكن ألن يكون لاختطافك نفس التأثير؟"

"ستكون هناك فوضى قصيرة المدى، لكني سأوافق على شروط عُرضت علي سرًا منذ ثلاث سنوات. إذا كشفت عن تفاصيل مخالفات روسيا هنا في السودان، إذا أخبرت أتباعي، بشكل مباشر وقوي، أن الروس مستعدون لإذكاء نيران الحرب ضدنا، فلن يكون هناك نفوذ روسي على المواطنين، وبالتالي، لن تكون هناك حرب أهلية. إذا لم تكن هناك حرب أهلية، فمن المشكوك فيه أن تغزو تشاد. يمكنني حتى أن أعلن أن الصين كانت متورطة في اختطافي. سيضر هذا بالمصالح الصينية في المنطقة ويعيد ثروات السودان إلى السودانيين".

"الصين لم يكن لها علاقة بهذا الاختطاف".

هز عبود كتفيه" .أتباعي سيصدقونني. هناك أدلة تدعمني أيضًا. القوات الخاصة الصينية كانت تدرب قواتي سرًا في بورتسودان، لتوفير الأمن للقطاع A 12على طول حدود تشاد. الصين كانت تعلم جيدًا أن روسيا تطمع في نفطها، وكانوا يعلمون أن روسيا تريدني ميتًا. يمكنني إقناع الشعب السوداني بأنني والصين اختلفنا، لذا قرروا إبعادي عن الصورة عن طريق مقايضتي".

"هذا عبقري"، قال **كورت** .اشمأز من قول ذلك.

"اشكر زملائك في العمل. كان كل هذا جزءًا من مؤامرة وكالة المخابرات المركزية، مؤامرة لإجباري على تسليم نفسي طواعية إلى المحكمة الجنائية الدولية. كما قلت، رفضت عرضهم بالمنفى ".هز كتفيه بطيبة خاطر" **.لذا ها أنت هنا لفرض العرض".**

"إذًا أنت أكثر فائدة حيًا من ميت".

هز **عبود** كتفيه" **.على ما يبدو. أخرجني من هنا حيًا، وسألعب دوري. كما قلت في الصباح الباكر في سواكن، أنا وأنت في نفس الفريق. فقط أنت لم تكن تعرف حقيقة هذا القول".**

رن هاتف الثريا.

الفصل الرابع والأربعون

"مرحبًا يا زاك".

"هل عدت إلينا، أم أنك لا تزال محلقًا في عالم آخر؟"

"أنا بخير وجاهز للعمل، أعتذر عما حدث سابقًا. كنت أتألم بشدة وأخذت بالخطأ جرعة خاطئة من"—

"انسَ الأمر. لدينا مشكلة. لقد انهارت العملية بأكملها".

"ماذا حدث؟"

"لانغلي تقول إننا قضينا على بعض الصينيين".

"أعد ما قلت؟"

"لقد قتلنا بعض الصينيين".

استرجع **كورت** ما أخبره به **أوريكس** للتو" .**مقاتلون".**

"لا شك في ذلك، ولكن يبدو أن هذا لا يزال أمرًا محظورًا".

عرف **كورت** من كانوا" .**قوات خاصة، هنا لتدريب السودانيين في بورتسودان".**

"نعم، هذا ما يعتقده ديني. على الأرجح من وحدة التنين الطائر التابعة لهم. محطة السودان لم تكن تعلم بوجودهم في البلاد أصلًا".

"اللعنة يا زاك. ما مدى سوء الأمر؟"

"ليس جيداً، من الواضح. لانغلي تتفاوض مع البيت الأبيض الآن. البيت الأبيض لم يوافق على الدخول في صدام مع قوة عظمى".

مسح **كورت** العرق عن عينيه. كان الجرح في ظهره قد تحسن بفضل الأدوية، رغم أنه كان لا يزال يؤلمه" .**كم عدد الصينيين الذين قتلتموهم يا رفاق؟"**

"ما يقرب من ثلاثين، على ما يبدو. نخمن أن مروحية Mi-17 التي أسقطها دان كانت مليئة بالجنود وطاقم الطائرة. وهذا يفسر هذا العدد من القتلى. لكن بجدية، ما المشكلة الكبيرة في ذلك؟ أليس عددهم يناهز المليارين؟ لن يفتقدهم أحد".

"من الواضح أن دان لم يخطئ هدفه".

"ها. نعم، لا شك في ذلك".

"ماذا ستكون تداعيات هذا الأمر؟"

"تخمينك لا يقل قيمة عن تخميني. يجب أن أعيد الاتصال بديني في غضون ثلاثين دقيقة. في أسوأ الأحوال، سننسحب".

"مع عبود، تقصد؟"

"دعنا ننتظر حتى نسمع منهم".

"علم، ستة ، انتهى".

اتصل **زاك** مرة أخرى بعد التاسعة مساءً بقليل. كان **كورت** قد أمضى الخمس والأربعين دقيقة الماضية في التحدث مع **أوريكس** حول العرض الذي تلقاه من الغرب. بدا مستعداً لفعل كل ما يلزم لتجنب السجن وشق طريقه إلى **كوبا** كرجل حر.

كان الأمر مقززًا، لكن **كورت** فهم أنه بلا شك أفضل النتائج في قائمة طويلة من النتائج السيئة.

قال **زاك**" :**ستة ، أحتاجك أن تبتعد عن أوريكس بما يكفي حتى لا يتمكن من سماع جانبك من هذه المحادثة".**

"مفهوم، انتظر لحظة ".نظر **كورت** إلى **أوريكس**، الذي كان لا يزال مكبلًا إلى العمود المركزي للكوخ، ثم استدار وغادر الكوخ الصغير. في الخارج، في برودة المساء، جلس القرفصاء عند المصد الخلفي لسيارة السكودا" .**حسنًا، أنا وحدي".**

"لدي تغيير كبير في أوامر عمليتك يا ستة . هل أنت مستعد لهذا؟"

"مؤكد، تفضل".

توقف **زاك** للحظة. ثم قال" :**يقول الصينيون إن اشتباك هذا الصباح في سواكن أسفر عن مقتل ستة وعشرين مستشارًا مدنيًا غير مقاتل".**

"هراء. لم يكونوا مدنيين".

"بالطبع لا. إنهم يكذبون بوقاحة لا مثيل لها، لكنهم يستطيعون فعل ذلك، والجميع سيصدقهم".

"أكمل".

"لقد ارتعدت فرائص البيت الأبيض رسميًا. إنهم لا يريدون أي علاقة بهذه العملية بعد الآن. يبدو أنهم كانوا يعملون سرًا على صفقة تجارية ضخمة مع الصينيين، وكانوا سيعلنون عنها الشهر المقبل في بكين".

"إذًا؟"

"إذًا أمر البيت الأبيض مدير المخابرات الوطنية بأن يأمر ديني بأن يأمرنا بالانسحاب فورًا، أن نترك كل شيء ونغادر. إنهم لا يريدون أي بصمات لوكالة المخابرات المركزية بالقرب من عملية السودان، خوفًا من أن يعرض ذلك الصفقة للخطر".

"وماذا عني؟"

"سأصطحبك في الغواصة. يمكنني أن أكون في مستنقع المانغروف عند منتصف الليل. هل يمكنك الوصول إلى هناك بحلول ذلك الوقت، أم أنك بحاجة إلى جرعة أخرى من مخدراتك؟"

"يمكنني أن أكون هناك، ولكن ما تأثير كل هذا على عملية نوكتورن سافاير؟"

"لم يعد هناك عملية نوكتورن سافاير، وعلينا جميعًا أن ننسى وجودها أصلًا. لقد سُحب البساط من تحت أقدامنا. نحتاج فقط إلى الخروج من المياه السودانية، والنزول إلى إريتريا، وألا يُكشف أمرنا. محطة السودان ستلقي باللوم كله في هذا على جيش تحرير السودان".

نظر كورت إلى الأعشاب التي تتمايل في نسيم المساء" .ولكن... ماذا بحق الجحيم يفترض بي أن أفعل بعبود؟"

قال زاك ببرود" :اقضِ على ذلك الوغد".

تردد كورت" .ولكن... هو الشخص الوحيد الذي يمكنه إقناع شعبه بما يفعله الروس".

"ليس من المفترض أن نكون هنا. لا توجد طريقة يمكننا من خلالها تسليم عبود إلى المحكمة الجنائية الدولية الآن. فكر في الأمر! إذا سلمنا عبود للأوروبيين، سيعلم الشيوعيون الصينيون بذلك، وسينسحبون من الصفقة".

"لكن عبود حيًا أهم من كونه ميتًا. أليس هذا ما كان يفكر فيه البيت الأبيض طوال الوقت؟"

"نعم، لكن إسقاط المروحية الصينية غير قواعد اللعبة".

هز كورت رأسه غير مصدق" .إنها مجرد اتفاقية تجارية. ما قيمة صفقة تجارية واحدة في المخطط الكبير للأشياء؟"

"إنها تجعل السياسيين يبدون بمظهر جيد".

"وكذلك إنهاء إبادة جماعية في إفريقيا"!

"ليس بالمخاطرة بحرب مع قوة عظمى! المواطن الأمريكي العادي لا يريد أن يسمع عن تبادلنا لإطلاق النار مع الصينيين من أجل بعض المتوحشين الذين يعيشون في أكواخ طينية".

"الصينيون لن يذهبوا إلى الحرب بسبب هذا".

"ماذا أصبحت الآن، دكتور في العلوم السياسية؟ أنت عميل ميداني، ولست دبلوماسيًا. للدبلوماسيين عملهم ولك عملك. يجب أن يموت عبود! اقتل ذلك الوغد! هذا أمر"!

لكن **جنتري** لم يستسلم" .**الطريقة الوحيدة لوقف ما سيحدث هي بوجود عبود حيًا، أمام كاميرا، يشرح لشعبه تورط الروس والصينيين في الشؤون الداخلية لبلاده. كان هذا هو الدافع الأصلي وراء نوكتورن سافاير، لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي سينجح. لا يمكن القيام بذلك بأي طريقة أخرى".**

"حسنًا، هذا لن يحدث. ستطلق النار عليه وتأتي بمؤخرتك إلى الطرف الشمالي من مستنقع المانغروف من أجل الإجلاء. ما خطبك بحق الجحيم؟ ظننت أنك ستسعد بتفريغ بعض الرصاصات المجوفة في جمجمة ذلك النذل".

"هيا يا زاك! إذا أجلّينا عبود من هنا، وأوصلناه إلى لاهاي، يمكننا إيقاف حرب"!

"ليست وظيفتنا إيقاف حرب! وظيفتنا هي أن نقوم بعملنا، وعملنا هو التخلص من عبود، وإلقاء جثته على جانب الطريق، ثم نخرج بسلام من هنا"!

تصلب فك **كورت**، وأسند رأسه إلى المصد الخلفي لسيارة السكودا" .**أحتاج إلى التفكير في الأمر".**

"التفكير في الأمر؟ من تظن نفسك بحق الجحيم؟ أنت تفعل ما"——

"سأعاود الاتصال بك. ستة ، انتهى ".أنهى **كورت** المكالمة. أسقط الهاتف على العشب ودفن رأسه بين يديه.

اللعنة. عرف **كورت** أنه يستطيع الوقوف الآن، والعودة إلى الكوخ، وإطلاق رصاصة من عيار تسعة مليمترات في رأس رئيس جمهورية السودان دون أدنى شعور بالندم على الفعل. كان الرجل وحشًا، معتوهًا وخطيرًا.

اذهب واقتله. فقط انهض واذهب لقتله.

لكنه فهم المنطق القائل بأن قوة **أوريكس** يمكن الآن توجيهها ضد الفظائع واستخدامها للخير. نعم، كان من الهراء التام أنه في نهاية المطاف سيضحك أخيرًا. سيقضي وقته مع العاهرات في هافانا بعد حياة من القتل والفساد.

لكن بحق الجحيم، فكر **كورت**، تلك مشكلة ليوم آخر. يمكن لـ**جنتري** نفسه أن يذهب إلى **كوبا** على نفقته الخاصة ويسوي تلك الحسابات. سيقتل **عبود** على جرائمه، ولكن ليس قبل تقليل الفوضى الوشيكة في سودان ما بعد **عبود**.

وهذا لا يمكن أن يحدث إلا بوجود **عبود** حيًا.

لقد تلاعب به الروس، كذبوا عليه وتلاعبوا به لدرجة أنه كاد يساعد في إشعال حرب، والآن، أدرك أن قتل **أوريكس** سيعني أن **لانغلي** قد تلاعبت به ليفعل الشيء نفسه.

لا. لن يقتل **عبود** .لا يستطيع. سيحضره إلى المحكمة الجنائية الدولية لوقف حرب ومنع أخرى.

سيؤدي ذلك، بلا شك، إلى إعادة تفعيل عقوبة القتل فور رؤيته، لكنه كان الأمل الوحيد لآلاف السودانيين الأبرياء. وضع **كورت** رأسه بين ركبتيه وغطاه بيديه. أدرك أنه يريد اقتحام الكوخ ليس لإطلاق النار على **عبود** ولكن بدلًا من ذلك لحقن نفسه بالمزيد من المورفين.

كانت آثاره تتلاشى بسرعة، مع تبدد صعوبة التركيز بسبب أحداث الدقائق العشر الماضية.

التقط **كورت** هاتف الثريا واتصل بـ**زاك** مرة أخرى.

أجاب **هايتاور** على الفور. عرف **كورت** أنه لا بد أنه كان غاضبًا، لكنه أخفى ذلك جيدًا" .**هل عدت إلى رشدك يا صديقي؟"**

صمت طويل" .**لا يمكنني فعل ذلك يا زاك".**

شعر **كورت** بالتوتر على الطرف الآخر من الخط. لم يعصِ **زاك هايتاور** مرة واحدة في سنواتهم الخمس معًا في فرقة البلطجية حتى، بالطبع، ذلك اليوم الذي انهار فيه كل شيء.

أخيرًا تحدث **زاك** .كان صوته خفيفًا، لكن التهديد كان أكثر من واضح" **.اسمع يا فتى، لقد فقدت بالفعل اثنين من أفضل الرجال اليوم. لا أريد أن أخسرك أنت أيضًا. دعنا نصنع من الليمون شرابًا حلوًا. أطلق النار على ذلك الوغد، واذهب إلى حيث يمكنني أن آتي وأصطحبك، وسنبحر أنا وأنت نحو غروب الشمس. ستسقط لانغلي عقوبة القتل، وسنقدم تقاريرنا، ونقضي حاجتنا، ونحلق، ونستحم، وفي غضون اثنتين وسبعين ساعة سنكون نشرب بيرة بادوايزر في حانة فندق في بيثيسدا. واحدة لنا وواحدة لرفاقنا. هل هذا جيد؟"**

"بقدر ما يبدو ذلك رائعًا يا زاك، فإنه لن يحدث. سأفعل ذلك وحدي إذا اضطررت، لكنني سأوصل عبود إلى المحكمة الجنائية الدولية حيًا".

تأجج الغضب في صوت **زاك هايتاور**، وكأن كل كلمة كانت دليلًا على كيفية نمو إحباطه بشكل كبير" **.كيف بحق الجحيم ستفعل ذلك؟ هل لديك قارب، طائرة، جيش؟"**

صمت مشحون، ثم "لا" هادئة.

"لا، ليس لديك، أليس كذلك؟ سأخبرك بما لديك. لديك ثقب في ظهرك تفوح منه رائحة كريهة لدرجة أنها يمكن أن تسقط نسرًا من على عربة قمامة. هذا ما لديك! أنت بحاجة إلى طبيب أكثر بكثير من حاجتك إلى حملة فردية حمقاء لإنقاذ أكثر رجل مكروه على وجه الأرض. أعرف أنك تعتبر نفسك الحارس الوحيد، لكنك في مهمة مستحيلة إن وجدت مهمة كهذه. من وجهة نظري، تحتاج إلى أربعة أشياء لتحقيق هدفك. تحتاج إلى رجال، وأسلحة، ومعدات، وشجاعة. كورت، لديك الشجاعة، سأعترف بذلك. لكنك تفتقر بشدة إلى كل الفئات الأخرى. لن يتمكن أي عميل منفرد من إخراج ذلك الوغد من السودان! لديك الجيش السوداني، وجهاز الأمن الوطني، والجمهور الغاضب يطاردونك. الجميع

يبحث عن رئيسهم ويحاول القضاء على الرجل الذي خطفه... هل تريد حقًا أن تتحداني فوق كل ذلك؟"

"هل ستلاحقني؟"

قال **هايتاور** دون تردد" :**نعم، سأفعل. أقسم بالله إذا لم تقضِ على أوريكس في هذه الثانية، سأبلغ ديني بذلك، وكلانا يعرف أنه سيرسلني خلفك. لا أحد منا يريد أن يحدث ذلك يا كورت".**

صمت طويل آخر" .**إلى اللقاء يا زاك".**

صمت مرة أخرى، هذه المرة من جانب **هايتاور** .ثم قال" :**لا يا جنتري. سأراك أنا، مباشرة من خلال منظار بندقيتي ريمنغتون 700. تمامًا قبل أن يتحول رأسك إلى ضباب وردي. أردنا أن نجعلك جزءًا من الفريق مرة أخرى، لكن أتعرف ماذا؟ لقد عملت منفردًا لفترة طويلة جدًا؛ لم تكن لتنسجم أبدًا يا صديقي. أعتقد أنه كان حتميًا أن ينتهي الأمر هكذا".**

أنهى **زاك** المكالمة.

نهض **كورت** من مكانه الذي قضى فيه الساعة الماضية، مسندًا إلى مصد السيارة. وخطا ببطء عائدًا إلى الكوخ. كان **أوريكس** هناك، بالطبع. واقفًا في منتصف الغرفة المظلمة. كان من الواضح أنه لم يسمع تفاصيل المحادثة الهاتفية، لكنه بالتأكيد التقط بعضًا من نبرتها.

"ماذا يحدث؟"

"لا شيء. يجب أن نتحرك ". كان **كورت** قد أعطى موقع الكوخ لعملاء وكالة المخابرات المركزية على متن "هانا". عرف أنه بحاجة للخروج من هنا قبل أن يأتي **زاك** أو أي شخص آخر لزيارته.

"أخبرني يا ستة . ما كل هذا الجدال؟"

قطع **كورت** قيد الرئيس البلاستيكي من العمود المركزي بسكين صغير قابل للطي. لم يقل شيئًا للرجل وهو يغلق النصل ويعيده إلى جيبه.

"ماذا يحدث؟ "كان **عبود** مضطربًا للغاية. تخيل **كورت** أنه هو نفسه كان ليكون أكثر توترًا الآن لولا بقايا المخدرات في جسده. تساءل عن مدى تأثيرها عليه. هل سيكون قادرًا على القيادة؟ هل سيكون قادرًا على إيجاد مخبأ جديد دون أن يصطدم بكل الأشخاص الذين يبحثون عنه وعن آسره الآن؟

بدأ **أوريكس** يسأل مرة أخرى عن المكالمات الهاتفية. وقف **كورت** أمامه وأخرج قيدين بلاستيكيين جديدين من حقيبة ظهره لتقييد يدي الرجل أمامه. قبل أن يفعل ذلك، هز **كورت** كتفيه.

فليكن" .**لقد صدرت لي الأوامر بقتلك".**

"من قبل الممثلين الأمريكيين ".قالها الرجل الأسمر الضخم كتقرير، لكن كان من الواضح أنه يسأل. سحب يديه إلى الخلف وبعيدًا.

"لا. وكالة المخابرات المركزية تريدك ميتًا أيضًا. إنه إجماع شبه تام، في هذه المرحلة. أعطني يديك".

تشوه وجه **أوريكس** بالصدمة، وكأنه قد سُكب عليه ماء بارد من دلو ثلج" .**لا! كان لدينا اتفاق. إنهم يحتاجونني حيًا. الأوروبيون"—**

"اخرس! يجب أن نخرج من هنا حتى أتمكن من التفكير دون القلق بشأنهم"—

"يمكنني مساعدتهمفي"—

"اهدأ! أعطني يديك"!

"لا يمكنهم تغيير الترتيب هكذا"——

سحب **كورت** مسدسه "غلوك". أبطأته المخدرات، وارتعشت ذراعه المتصلبة وهي تحمل السلاح. ضغطه على حلق **عبود**.

"قلت، اهدأ بحق الجحيم"!

ارتفعت يدا **أوريكس** استسلامًا، ثم اتجهتا نحو المسدس.

الفصل الخامس والأربعون

كان الرئيس **عبود** رجلاً ضخمًا، أطول وأعرض وأكثر سماكة من **جنتري** بفارق كبير، لكنه كان يبلغ من العمر ستة وستين عامًا ولم يكن يمتلك حتى مقدارًا ضئيلاً من التدريب في العقل والعضلات والروح الذي يتمتع به المحارب الأمريكي. كان من المفترض ألا تكون المواجهة متكافئة على الإطلاق.

ولكن بسبب المورفين. أطاح **عبود** بمسدس الجلوك بضربته الأولى، ولف يدًا لحمية حول كل من معصمي الأمريكي، وسحب جسديهما معًا. تحرك "ستة" ببطء وتباطؤ، ولم يدرك حتى أنه يتعرض للهجوم في الثواني القليلة الأولى من الحركة. ظن أن **أوريكس** كان يفقد صوابه فقط بسبب احتمال أن يُسحب دعم وكالة المخابرات المركزية من تحت قدميه، وكان يصفع **كورت** كطفل محبط.

ولكن عندما ارتطم **جنتري** بالأرض، مصطدمًا بظهره المصاب تحت وطأة وزن الرئيس السوداني الضخم، اتضحت له خطورة الموقف من خلال واقعه المتبلد بسبب حواسه المخدرة. لم تكن المخدرات كافية لمنع ومضة الألم المبرح التي سجلها كتفه ثم انتقلت إلى دماغه. صرخ، وانهالت عليه سلسلة من اللكمات من الأعلى. غطى **كورت** وجهه، وركز على الألم في ظهره لإيقاظ الأدرينالين لديه، ولإعادة تنشيط ذاكرته العضلية وإبعاد هذا الوغد الضخم عنه.

من ضوء النار الصغيرة، حددت عينا **كورت** الضيقتان اللكمة التالية، وهي خطافية يمينية كانت في طريقها بالفعل من الأعلى. قطع **جنتري** الهجوم بهجوم مضاد من جانبه: لقد حطم أنف **عبود** بقوة. سقطت خطافية الرئيس بعد ربع ثانية، لكنها كانت ضعيفة وسيئة التوجيه،

وتحولت القبضة بسرعة إلى يد امتدت إلى وجهه وهو يسقط على ظهره، ممسكًا بأنفه المكسور ويمسح الدم المتدفق من منخريه المتورمين.

ركل **جنتري أوريكس** لإبعاده تمامًا، وتدحرج، وبدأ يزحف باحثًا عن المسدس. وجده بجوار الحائط، والتقطه وهو يقف، ثم أمسك بـ**أوريكس** من ياقة قميصه وسحبه إلى وضع الوقوف. في غضون ثوانٍ، كان قد قيد يدي الرجل المتأوه خلف ظهره بقيد بلاستيكي، وبعد دقيقة، انطلقت سيارة سكودا تمزق الأعشاب الطويلة في طريقها عائدة إلى الطريق الرئيسي.

فكر **جنتري** في خياراته، ولم يستغرق ذلك وقتًا طويلاً، نظرًا لقلتها. لم يكن لديه أي فكرة إلى أين هو ذاهب، بخلاف مجرد العثور على مخبأ جديد حتى يتمكن من وضع خطة. فرك **أوريكس** وجهه بالمفروشات في المقعد الخلفي للسيارة لأنه لم يستطع استخدام يديه لمسح الدم، وكان يئن ويشتم بهدوء باللغة العربية السودانية.

رن الهاتف. لم يكن لدى **جنتري** أي رغبة في الاستماع إلى التماس آخر من **زاك** لفعل ما أُمر به، لكنه أجاب على الهاتف على أي حال. كان الغضب والأدرينالين من القتال في الكوخ لا يزالان يجعلان مشاعره في أوجها.

قال **كورت**" :**لقد انتهى وقت الكلام أيها الوغد. إذا كنت ستلاحقني، فتعال، لأنني كلما أسرعت في قتلك نهائيًا، أسرعت في الخروج من مخبئي وإنجاز مهمتي**"!

لكن لم يكن **زاك** على الطرف الآخر من الخط. كان **ديني كارمايكل** .قال" :**يا بني، لقد شرح "سييرا واحد" المشكلة المطروحة. أنا أتصل لأرى ما يمكنني فعله لتصحيحها**".

كان **كارمايكل** خائفًا، قلقًا من وجود أحد رجاله في مهمة مارقة. استطاع **كورت** سماع ذلك في صوته.

"أنا آسف يا سيدي. قتل أوريكس في هذه المرحلة سيخلق كارثة لست مستعدًا لأن أكون جزءًا منها".

"أتفهم ما تشعر به. لقد كنت أحد مهندسي عملية "نوكتورن سافاير". طوال الوقت، كنا نعلم أنه إذا تمكنا من القبض عليه حيًا، فيمكن أن يكون مفيدًا جدًا لنا ولبلده. ولكن لسوء الحظ لا يمكننا ترك أي أثر على وجود وكالة المخابرات المركزية أو أي عميل أمريكي في سواكن بالأمس. إذا ظهر دليل، فستكون لدينا أزمة قوى عظمى دولية هائلة، والتي بصراحة، أهم بكثير من حرب أهلية في دولة من دول العالم الثالث".

"إذًا أنت توافق على أنه ستكون هناك حرب. حرب أهلية بدعم من الصينيين والروس؟"

"حرب أهلية، نعم، على المدى القصير من المرجح ذلك. لكننا لا نرى القوى العظمى تلعب دورًا نشطًا".

"ربما ليس لديكم الأصول في مكانها لرؤية ذلك يحدث".

"أؤكد لك، لدينا اتصال وثيق بمسؤولين رفيعي المستوى في الحكومة السودانية".

"ما مدى قرب اتصالكم؟"

"قريب للغاية".

"ما مدى رفعة المسؤولين؟"

"رفيعون للغاية".

"حسنًا، أنا لدي الرئيس اللعين يجلس في المقعد الخلفي لسيارتي، لذا عندما تتمكن من الحصول على مصدر أعلى وأقرب من ذلك، ربما ستثير إعجابي".

ساد صمت طويل" .**هناك صفقة تجارية مهمة قيد الإعداد".**

لم يهتم **جنتري** على الإطلاق" .**نعم، لذا ربما سنتلقى الضربة من الصينيين. هذا مقرف. لكننا سنتجاوز الأمر".**

"هذا ليس من شأنك أن تقرره".

"في الواقع، هو كذلك. الرئيس معي. وأعتزم إيصاله إلى المحكمة الجنائية الدولية حيًا. سأفعل الشيء الصواب هنا. هناك الكثير من الناس في هذا البلد يعتمدون على ذلك. لقد كانت لديكم الفكرة الصحيحة؛ كانت "نوكتورن سافاير" هي العملية الصحيحة. نعم، لقد أُفسدت بشكل يائس لأن محطة السودان لا تفرق بين ألفها وكوعها، لكننا كنا على وشك تحقيقها. سأنهي هذا الأمر. أنتم يا رفاق في لانغلي بحاجة إلى إدراك أن ما أفعله هنا هو الشيء الصواب، وتحتاجون إلى إعادة التفكيرفي"——

تحول سلوك **ديني** الهادئ والممتعض في جميع محادثاتهم السابقة في لحظة إلى صراخ وسباب حاقد" .**ليس لدي وقت للاستماع إلى عظة من حثالة مثلك! دعني أشرح لك شيئًا. السنوات الأربع الماضية كانت نزهة بالنسبة لك. هناك أشخاص هنا لديهم صداقة قديمة تجاه كورت جنتري. لقد قمت بعمل جيد لفترة طويلة مقابل شكر ضئيل، وقد أكسبك ذلك قدرًا كبيرًا من الاحترام في قسم الأنشطة الخاصة. عندما صدر أمر إطلاق النار عليك فور رؤيتك، كان هناك البعض في البيروقراطية هنا على وشك التمرد في قناعتهم بالقضية، وعانت عملية القضاء عليك بسبب ذلك".**

"لكن الآن، سيد جنتري، الآن لم يبقَ رجل واحد في الوكالة في صفك. لن أعيد تفعيل أمر إطلاق النار فورًا فحسب، بل سأرفعه إلى قمة قائمة الأولويات. لن يكون الأمر مجرد تتبع نصف ناجح عبر نظام إيكيلون، ومذكرات بين الإدارات وطلب مراقبة من الإنتربول. بل سيكون فرقًا منسقة من فرق صيد وقتل من المستوى الأول، وضباط عمليات شبه عسكرية

من قسم الأنشطة الخاصة، ومجموعة التطبيقات القتالية، وفرق بالوكالة من صائدي الجوائز. سأرتب شخصيًا لتسخير كل أصول قسم الأنشطة الخاصة المتاحة ضدك".

"لن يكون هناك صخرة كبيرة بما يكفي لتزحف تحتها، أو ضابط اتصال أحمق بما يكفي لرعايتك، أو دولة وقحة بما يكفي للسماح لك بدخول حدودها".

"زاك سيطاردك. سيوقفك، وسيقتلك. قد يظل لديك نبض لبعض الوقت يا سيد جنتري، ولكن اعتبارًا من هذه اللحظة بالذات... حياتك قد انتهت"!

لم يقل **كارمايكل** أي شيء آخر. وكذلك **كورت** .كان يحب أن تكون له الكلمة الأخيرة... ولكن في هذه اللحظة بدا الأمر كما لو أن الكلمات الأخيرة في هذا الموضوع قد قيلت. لا يمكن لأي رد ذكي أن يخفف من تأثير خطبة **كارمايكل** الحادة. هذا الرجل لم يكن يهدد بأي شيء لا يملك القدرة على تنفيذه.

بعد توقف طويل للغاية، تحدث الرجل من لانغلي بهدوء. بدا لـ**كورت** كما لو أنه كان يغلق الهاتف وهو يفعل ذلك.

"هذا كل شيء".

الفصل السادس والأربعون

كان يوم الثلاثاء هو أول يوم لعودة **إيلين والش** إلى مكتبها الصغير في **لاهاي** منذ مغادرتها إلى **السودان** قبل خمسة أسابيع. عرض عليها مشرفوها في مكتب المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية أسبوعًا لتعتني بنفسها عند عودتها من **أفريقيا**، لكن الكندية البالغة من العمر خمسة وثلاثين عامًا لم تأخذ سوى يومًا للذهاب إلى طبيب أمراض جلدية محلي لفحص وجهها المصاب بحروق الشمس، وطبيب عام لإعطائها وصفة طبية للصداع النصفي الذي كانت تعاني منه منذ انفجار الشاحنة على الطريق إلى **ديرة**.

عندما ظهرت عبر أبواب المصعد إلى مكتبها، صُدم زملاؤها برؤيتها. تسربت مقتطفات من مغامرتها. غطت وسائل الإعلام الدولية هجوم قافلة **سبيرانزا إنترناسيونالي** ومقتل **ماريو بيانكي** المشهور عالميًا واثنين من موظفيه المحليين على يد ميليشيا **الجنجويد** .لم يكن هناك ذكر في التقارير عن وجود غربيين آخرين في القافلة، لكن **إيلين** نفسها تحدثت إلى الرؤساء الإداريين في مكتب المدعي العام، وتسللت القصة إلى الطوابق السفلية مثل الماء المصبوب عبر شقوق في الأرضية. من هناك، أخبر المساعدون الإداريون لكبار المسؤولين الأصدقاء وأصدقاء الأصدقاء الذين يعملون في جميع أنحاء المبنى. أضفت حروق الشمس الشديدة والنظرة الحزينة والبعيدة في عينيها مصداقية للشائعات، وعرفت **إيلين** أنه لن يمر وقت طويل قبل أن تضطر إلى إرسال بريد إلكتروني تشكر فيه الجميع على اهتمامهم، وفي نفس الوقت تطلب من الجميع احترام خصوصيتها وتفهم أنها لم تكن مستعدة بعد للحديث عما شهدته في **دارفور**.

على جهاز الكمبيوتر الخاص بها أمامها كان هناك تقريران، لم ينتهِ أي منهما. الأول كان تقرير حادثة كان عليها أن تضع فيه كتابةً كل ما يمكنها تذكره عن اكتشافها لطائرة **روسوبورون**

إكسبورت الروسية في **دارفور** والرجال على متنها، بالإضافة إلى أي أسماء وشهود إثبات، وما إلى ذلك، وما إلى ذلك. كانت قد فتحت القالب فقط ووضعت معلومات تتعلق بخطتها الأولية لدخول **دارفور** بوثائق مزورة. حتى هذا الجزء من الوثيقة كان من الصعب عليها كتابته. لقد حدث الكثير منذ وقتها في **الخرطوم**، والتسلل حول مكاتب المنظمات غير الحكومية الأخرى بحثًا عن طريقها إلى **دارفور**، لدرجة أنه بدا أنه قد تم إحالته إلى جزء من دماغها المخصص للذاكرة البعيدة.

الآخر كان تقريرها عن مقتل مسلحين جريحين وعزل على يد أمريكي مجهول الهوية طار إلى **الفاشر** مع الطائرة الروسية. كادت أن تنتهي من هذا التقرير. لم تستطع إخراجه من ذهنها، لكنها لم تكن متأكدة مما إذا كانت تكتبه في محاولة لتطهير أفكارها من الفظاعة، أو ما إذا كانت ستقدم التقرير بالفعل وتفتح تحقيقًا في هذا الرجل. كانت ممزقة بين التزامها الرسمي ومشاعرها تجاه هذا الغريب. لقد ساعدها وأقنعها بأنه ليس شريرًا، لكنها كانت قلقة من أنه فرد يتأرجح على الحافة، رجل يجب إيقافه قبل ارتكاب المزيد من الفظائع.

وماذا عن خبر اختطاف رئيس **السودان** خلال معركة ضارية مع المتمردين على الساحل الشرقي للبلاد؟ هل يمكن أن يكون لـ"ستة" أي علاقة بذلك؟ كان التوقيت مناسبًا، لكن "ستة" لم يبدُ كرجل يمكنه السيطرة على قوة من المتمردين السودانيين.

بالكاد كان يسيطر على نفسه.

رن هاتف مكتبها" .**إيلين، هناك شخص يطلق على نفسه اسم 'ستة' على الهاتف من أجلك."**

"سآخذه ."ثم، "**مرحباً؟"**

"لقد مرت ثلاثة أيام. اعتقدت أنك ستكونين قد أمسكت بي الآن."

"أين أنت؟"

بدلاً من إجابة على سؤالها، قال" :**علينا أن نتحدث."**

"هذا... الوضع، الذي يجري في السودان الآن. لا توجد معلومات كثيرة... أعرف أنه كانت هناك معركة. الرئيس مفقود. حدث ذلك تمامًا عندما قلت إن شيئًا ما سيحدث، لذلك في البداية افترضت أن لديك بطريقة ما علاقة بـ"...

"لدي عبود. إنه معي هنا."

كان صوتها ناعمًا لكنه حاد" .**يا إلهي."**

"جنون، أليس كذلك؟"

تنفست **إيلين** بعصبية في الهاتف. نظرت من باب مكتبها، ثم وقفت بسرعة وأغلقته، وكادت أن تسحب الهاتف من مكتبها وهي تفعل ذلك" .**ماذا... من أنت... ماذا ستفعل... لماذا تتصل بي؟"**

لم يكن هناك رد في البداية. استطاعت أن تسمع دقات قلبها.

"هل تريدينه؟"

"ماذا؟"

"عبود. إنه لك إذا أردته."

"أنا؟"

"نعم. وفقط لكي تعلمي، لم أقتل أي صينيين. هذا في الأخبار هذه الأيام، كما أسمع."

"نعم، هو كذلك."

"لم أكن أنا. لقد اختطفت عبود، لكنني الآن لا أعرف حقًا ماذا أفعل به."

كان صوت **إيلين** لا يزال بالكاد همسًا" .**ألم... تفكر في ذلك مسبقًا؟"**

"نعم... الخطط تتغير. الصفقات تفشل. أنت تعرفين كيف تسير الأمور."

"صحيح ."لم يكن لديها أي فكرة عما كان يتحدث عنه.

"انظري. لديه معلومات عن روسيا والصين. يقول إن البلدين سيبدآن حربًا بالوكالة على السودان ما لم يفعل شيئًا لإيقافها."

"نعم، كانت هناك شائعات."

"ما رأيك؟"

"حسنًا... أنا لست خبيرة في ذلك؛ أنا أكثر انخراطًا في الأسلحة"...

"أنا متأكد تمامًا من أنك أكثر شخص خبير يمكنني الحصول عليه على الهاتف للدردشة في الوقت الحالي. أسألك ما رأيك."

"أعتقد أن الرئيس عبود على حق تمامًا."

أخبرها **كورت** بما علمه. اعترفت بمعرفة جزء من القصة، لكنها كانت مفتونة بأن معلومات "ستة" جاءت مباشرة من رئيس **السودان** نفسه.

"يقول إنه كانت هناك صفقة قيد الإعداد ليسلم نفسه إلى المحكمة الجنائية الدولية."

نظفت حلقها وتحدثت بنبرة عادية" .**فوق مستوى راتبي يا ستة."**

"حسنًا، ما رأيك في هذا؟ ما رأيك أن تذهبي وتخبري كبار المسؤولين في منظمتك أنه إذا تمكنوا من إيجاد طريقة لاصطحابي وعبود من ساحل البحر الأحمر، فيمكنهم الحصول عليه. يجب أن يرفع ذلك مستوى راتبك قليلاً."

غضبت **إيلين" .أنا لست هنا من أجل المال."**

"حسنًا، تبرعي به للجمعيات الخيرية؛ لا يهمني. أريد فقط إيقاف تفاقم الوضع هنا."

"هل هذا هو دافعك الوحيد؟"

"نعم."

"كيف يمكنني تصديق ذلك؟"

"لقد صدرت لي الأوامر بقتل اللعين. أود أن أقتل اللعين. أعتقد أنك، من بين كل الناس، يمكنك تصديق ذلك. لكنني لن أفعل، لأنني أعتقد أنه يمكنه في الواقع إنقاذ الأرواح."

تخيل **جينتري** أن **إيلين** لا تزال في حالة صدمة إلى حد ما بسبب ما حدث في **دارفور** .كان يعلم أنها ربما لا تثق به، وكانت هذه المحادثة الهاتفية بالتأكيد حدثًا سرياليًا آخر يواجه دماغها صعوبة في معالجته، لذلك لم يتفاجأ بترددها لفترة طويلة. أخيرًا نظفت حلقها .
"سأصعد الآن، وأتحدث إلى المدعي العام نفسه. سنجد طريقة للمجيء والحصول على عبود."

"ممتاز."

"هل ستأتي إلى لاهاي معه؟"

شم **كورت" .وأحرم المحكمة الجنائية الدولية من مطاردة عقيمة أخرى؟"**

ضحكت. كانت لديها ضحكة جميلة، حلقية وغير مصطنعة. كان **كورت** متأكدًا تمامًا من أنه لم يسمعها من قبل. أجابت أخيرًا" :**لم أبدأ عملية إعداد لائحة اتهام ضدك."**

"'بعد'، تقصدين؟"

توقف آخر. استطاع **جينتري** أن يعرف من الفواصل بين كلماتها أنها كانت تتصارع مع هذه القضية بالذات" .**هناك رجل صالح في داخلك يا ستة. أستطيع أن أراه من خلال شقوق قشرتك الصلبة."**

"هل أنت طبيبة نفسية الآن؟"

"أخبار سيئة. لا يتطلب الأمر طبيبًا نفسيًا لرؤية الشقوق فيك."

"أنت لا تعرفني."

غيرت الموضوع" .**أعرف أنك لست من وكالة المخابرات المركزية. لقد أجريت بعض المكالمات. تقول مصادري إنه ليس لديهم أي شخص في دارفور."**

"كما أخبرتك."

"ولكن إذا لم تكن من وكالة المخابرات المركزية، فمن أنت؟"

"لا يهم."

"بالتأكيد يهم يا ستة. لن تساعدك المحكمة الجنائية الدولية إذا لم تعرف مع من تتعامل."

"أنا متعاقد خاص."

"طرف خاص استأجرك لاختطاف الرئيس وتسليمه إلى المحكمة الجنائية الدولية؟"

"نعم."

"ثم أخبروك بقتله."

"صحيح مرة أخرى."

توقفت لفترة طويلة، غير مصدقة، ربما. أخيرًا، **"من هو هذا الطرف الخاص؟"**

"لا أستطيع إخبارك."

"يجب عليك ذلك."

عرف **كورت** أن الأمر سيصل إلى هذا. حاول أن يصطنع وجها جادا، على الرغم من أنه كان يتحدث على هاتفه الفضائي" .**حسنًا. لقد تعاقدت مع مواطنين أمريكيين عاديين. أشخاص في صناعة الفنون والترفيه، بشكل أساسي** ."أعطاه أوريكس نفسه هذه الفكرة.

"في الفنون و... إذًا... هل تقول إن نجوم السينما يدفعون لك للقيام بذلك؟"

"حسنًا. نعم. أعتقد أنني كذلك."

"هذه هي قصتك؟"

ابتسم. كانت امرأة ذكية. أذكى من أن تصدقه، ولكن أيضًا أذكى من ألا ترفض الرئيس المسلم إلى منظمتها على طبق من فضة. كانت ستلعب اللعبة" .**وأنا متمسك بها"**، أجاب.

"حسنًا ."قيل ذلك بنبرة قلقة، وكأنها لم تكن متأكدة من أنها ستتمكن من بيع هذه الخيال لرؤسائها أفضل مما فعل "ستة" لها" **.سأتصل بك مرة أخرى. هل أنت آمن في الوقت الحالي؟"**

تنهد **كورت" .أوه نعم، مرتاح كحشرة يا إيلين."**

"سأسرع."

الفصل السابع والأربعون

بزغ الفجر فوق مياه البحر الأحمر الهادئة بينما كان **كورت** يقود سيارة سكودا شمالًا على الطريق الساحلي السريع الذي يمتد من **بورتسودان** إلى الحدود المصرية. من نافذة السائق كان بالكاد يرى تلال البحر الأحمر، ومن جانب الراكب، متجاوزًا وجه **أوريكس** المكدوم وغير المبالي، نظر إلى الماء حيث تحول سواد الظلام إلى نعومة ما قبل الفجر.

قبل ساعة، كان قد التف غرب **بورتسودان** تحت جنح الظلام، والآن كانت سيارة سكودا تملك الطريق المسطح لنفسها. كان **كورت** قلقًا من نقاط التفتيش العسكرية، ولكن لم يكن هناك أي منها. كان قد رأى عدة سيارات شرطة قبل ساعات، لكن في سيارته المظلمة لم يشعر أبدًا بالانكشاف.

انعطف الطريق الساحلي إلى الداخل لبضعة أميال، باتجاه التلال ولكن ليس بعيداً إلى هذا الحد شرقًا، ثم عاد مرة أخرى إلى الشمال. في السابعة صباحًا، انعطف عن الطريق السريع واتبع مسارًا من الرمل والتراب والمرجان يتجه عائدًا نحو الماء. مر ببلدات صغيرة على جانبي الطريق. كانت أعلى من الطريق على هضاب صخرية تستمر حتى البحر.

استغرق الأمر يومًا كاملاً للمحكمة الجنائية الدولية لوضع خطة لاستلام **أوريكس**، ولم يكن **كورت** مطلعًا على العديد من التفاصيل. كل ما كان يعرفه هو أنه كان عليه قيادة نفسه وأسيره إلى منتجع ساحلي للغوص يديره هولنديون على بعد عشرين ميلاً فقط من الحدود المصرية وانتظار استلامه من قبل فريق من محققي المحكمة الجنائية الدولية كانوا في طريقهم من اليونان. لن تكون **إلين والش** معهم، ووجد **كورت** هذا مؤسفاً، على الرغم من أنه لم يكن يريد تعريضها للخطر.

لم يكن لدى **جنتري** نفسه أي نية للمغادرة مع فريق المحكمة الجنائية الدولية. لا، سيضع **أوريكس** في الزورق السريع، أو المروحية، أو السيارة الرياضية متعددة الاستخدامات، أو كيفما كان سيتم إخراج الرئيس، ثم سيذهب **كورت** في الاتجاه الآخر. خمّن أنه يمكنه الحصول على قارب غوص صغير من المنتجع والتوجه شمالًا نحو مصر. سينفد منه الوقود قبل الحدود، ولكن بعد ذلك ربما يمكنه الرسو وطلب توصيلة إلى الشمال، وعبور الحدود في الصحراء ليلاً مع بعض البدو الودودين.

سيتعين عليه القيام بكل هذا مع عدوى مستعرة في ظهره وبدون مضادات حيوية أو مسكنات للألم. كان قد سكب آخر ما لديه من مطهر على جرحه قبل أن ينطلق هو و**أوريكس** من مخبئهما الثاني في المساء السابق، وكان قد تخلص من المخدرات في حفرة بعد خمس عشرة دقيقة، لشدة رغبته في استهلاكها. سيتعين عليه الاستغناء عن فترة راحة من العذاب، وأخبر نفسه أن هذا سيجعله أقوى وأكثر حدة وأكثر استعدادًا لما هو قادم.

ولكن في الغالب، جعله ذلك أكثر بؤسًا.

لا يزال لديه جهاز الاستقبال الذي يبث إحداثيات GPS للسفينة **هانا** .كان قد أخذ الوقت لتفكيك الجهاز بأداته متعددة الاستخدامات للتأكد من عدم وجود جهاز إرسال تتبع مخبأ في الداخل كان سيرسل موقعه الخاص إلى **هايتاور** والسفينة **هانا** .أخبره جهاز الاستقبال أن قارب وكالة المخابرات المركزية لا يزال إلى الجنوب الشرقي، في المياه الدولية. لم يتصل به **هايتاور** منذ يوم ونصف، وكان **كورت** قلقًا من الصمت الطويل. يمكن أن يكون **زاك** في أي مكان، إما على متن **هانا**، أو عائدًا إلى الولايات المتحدة، أو واقفًا في الطريق أمامه مباشرة بقاذفة مضادة للدبابات. كان **زاك** أكثر خوفا من قوات حكومة السودان، وجهاز الأمن الوطني، وبالتأكيد أكثر خوفا من المحكمة الجنائية الدولية.

انعطف الطريق غير المعبد إلى الشمال واستمر، لكن طريقًا خاصًا أدى نحو المحيط والمنتجع. في ضوء الشمس المتنامي بسرعة، استطاع **جنتري** رؤية مبنى رئيسي متوسط الحجم، وعلى كلا جانبيه أكواخ صغيرة فردية على الشاطئ، تظهر كظلال أمام الشمس البرتقالية التي تكشف ثلثها على خط أفق البحر الأحمر. لكن سلسلة ثقيلة كانت تتدلى على ارتفاع ثلاثة أقدام عن الطريق، مقفلة بأعمدة عمودية في الإسمنت على كلا الجانبين. لم تبد السلسلة قوية بشكل خاص، ولكن لم يكن هناك أي طريقة لسيارة سكودا السوداء الصغيرة أن تصطدم بها بنجاح ثم تستمر في السير.

مئتا متر، كثبان رملية منخفضة على كلا الجانبين، أعشاب بحرية بنية تهب بلطف في النسيم الدافئ. سيتعين عليهما السير بقية الطريق.

أوقف **كورت** السيارة على جانب الطريق.
"**اخرج**"، أمر **عبود**.

"**لم أكن هنا من قبل**"، قال الرئيس" .**لكني أعرف ما هذا المكان. هناك انحلال هنا. تم العثور على الكحول مرة واحدة، قبل خمس سنوات. لم نتمكن من معاقبة المالكين، وهما زوجان أوروبيان، بأكثر من الغرامات. أعتقد أنه ربما تم إغلاق مكانهما لصيف واحد** ".
استنشق من خلال أنفه المصاب" .**كفار**".

"**اخرج**"، أمر **كورت** مرة أخرى. خرج من جانب السائق وتحرك بسرعة حول مقدمة السيارة، وفتح باب جانب الراكب، وأمسك بالرئيس من قميصه، ورفعه على قدميه.

"**متى ستصل وسيلة النقل؟**"

"**لا أعرف**".

"**كيف سيتجاوزون قوارب خفر السواحل؟**"

دفعه **كورت** إلى الأمام نحو الأكواخ" .**لا أعرف**".

"إلى أين ستذهب السفينة عندما تغادر هنا؟ على طول الطريق إلى ميناء في الغرب أم سن"—

"لا أعرف".

"سيد ستة. ليس لديك خطة حقيقية، أليس كذلك؟ دعني أتواصل مع بعض معارفي في الغرب. يمكنني اتخاذ ترتيبات تكون مرضية للجميع".

"لا".

"نحن، يا صديقي، في نفس الفريق تمامًا هنا. أنت تفهم ذلك الآن، أليس كذلك؟ سأتصل ببعض الأشخاص الذين تعاملت معهم لسنوات عديدة. إنهم مخلصون لي جداً"—

"هذا ما أخشاه"، قال **كورت** بذهول. دفع الرئيس إلى الأمام مرة أخرى على الطريق المليء بالرمال، مرورًا بلافتة منخفضة باللغة العربية، لكن عينيه كانتا إلى اليمين، في الأفق، في ظلال الصباح العميقة. على بعد حوالي ستمائة متر، نصف كيلومتر خلف الساحل إلى الجنوب، ارتفعت التضاريس بحدة عند الهضبة الصخرية. هناك، في ظلال الصباح، انعكست الشمس على نوافذ وأسقف الصفيح للمباني المنخفضة المربعة. لم يستطع **كورت** رؤية أي حركة، ولا أي علامة على الحياة على الإطلاق، لكنه شعر بالانكشاف مع ذلك.

قطع ما يزيد قليلاً عن نصف الطريق إلى الأكواخ دون مزيد من الاحتجاج من **عبود** .ثم استدار الرئيس فجأة. كانت عينا **كورت** قد انجرفت مرة أخرى إلى الجنوب، لكنه سرعان ما أعاد انتباهه إلى أسيره.

"أريدك أن تعدني بوعد. إذا بقينا هنا غدًا، فسيكون الأمر خطيرًا جدًا لكلينا. لك بشكل خاص، لأنه على عكسك، لا يزال لدي بعض الأصدقاء هناك، يبحثون عني، ويريدون مساعدتي. إذا بقينا هنا لمدة أربع وعشرين ساعة، يمكنك أن تكون متأكدًا من أن شخصًا ما، أحد الموظفين، أحد المالكين، شخص رأى السيارة على طول الطريق إلى الشاطئ، شخص ما سيبلغ عنا. ثم سيأتون، و"هم" أعني الجميع. الصديق والعدو سينقضون علينا. لقد كنت جنرالًا قبل أن أكون رئيسًا بوقت طويل، وقد اخترت لنا أرضًا لا يمكن الدفاع عنها على الإطلاق. ظهرنا إلى المحيط، وواجهتنا إلى عشرات الآلاف من الأمتار المربعة من الكثبان الرملية. هذا مكان مؤسف لنا للقتال"—

"اصمت".

—"وأنت لا تعرف حتى متى ستصل المساعدة، أو بأي شكل ستأتي المساعدة؟ أعتقد أنه كان بإمكانك اختيار أفضل"—

"اصمت "!قال **كورت** مرة أخرى، دافعًا **عبود** إلى الأمام، غاضبًا أكثر من أي وقت مضى من الرجل، بشكل أساسي لأن الرجل كان على حق تمامًا في كل ما قاله. كانت هذه فوضى، محاولة إخراج رجل واحد هذه في منطقة محظورة من قبل قوة غير معروفة.

دفع **كورت** الرئيس مرة أخرى. جعله ذلك يشعر بتحسن طفيف لتحويل بعض تركيز غضبه على شخص آخر غير نفسه.

رن هاتفه.

سبعون مترًا متبقية.

أجاب عليه. أمل أن تكون **إلين** بتفاصيل من شأنها أن تحسن مزاجه" .**نعم؟"**

"ما الأخبار يا كورت؟ كيف تعاملك الحياة؟"

اللعنة. كان **زاك**، ومحادثة مع **زاك** الآن لن تفعل شيئًا جيدًا لمزاج **جنتري**.

ومع ذلك، فكر **كورت**، ربما يمكنه الحصول على بعض المعلومات من "سييرا واحد". إذا كان **زاك** يتصل، فهذا يعني أن **زاك** لا يتسلل خلفه في تلك اللحظة بالذات" .**الأمور لا يمكن أن تكون أفضل من ذلك يا هايتاور. شكرًا لسؤالك".**

ستون مترًا.

"حقًا؟ هل عدت إلى رشدك وسحبت سكينًا على حلق حبيبك بعد؟"

"بالتأكيد".

"لماذا لا أصدقك؟"

"لأنه لا توجد ثقة كافية في العالم".

"نعم. هذا مؤسف، أليس كذلك؟ انظر يا أخي، أردت فقط أن أعطيك بعض الأخبار الجيدة لأنه، على الرغم من هراءك، أعتقد أنك ربما يمكنك استخدامها".

استدار **عبود** وهو يمشي، وحاول أن يسأل **كورت** من على الهاتف، لكن **جنتري** دفعه إلى الأمام بذراعه مرة أخرى.

"أخبار جيدة؟ حسنًا، أعتقد أنني سأقبلها".

"خمّنت ذلك. ها هي. اليوم يا صديقي، هو يوم حظك".

خمسون مترًا.

"حسنًا. سأصدقك. لماذا اليوم هو يوم حظي يا زاك؟"

ساد صمت طويل. اعتقد **كورت** أنه يستطيع سماع وجه **زاك** وهو يحك الميكروفون، ولحيته الخفيفة تخدش الميكروفون. أخيرًا، أجاب "سييرا واحد" ."**اليوم هو يوم حظك، لأنك هدفي الثانوي، وأنا متأكد تمامًا من أنه لن يكون لدي سوى وقت لإطلاق طلقة واحدة".**

أربعون متــــــهاه؟

توقف **كورت** في مكانه. رفع رأسه إلى الجنوب. إلى المباني على بعد حوالي سبعمائة متر. وميض من الضوء في ظل صباحي عميق يومض من سطح أعلى مبنى على الهضبة.

في أقل من نصف ثانية، أدار **جنتري** رأسه مرة أخرى إلى الرئيس **عبود**، ودفع جسده إلى الأمام نحو الرجل الماشي، ومد كلتا ذراعيه، وأسقط الهاتف الفضائي. في نفس اللحظة صرخ أيضًا بكلمة واحدة.

"انبطح"!

ارتفع كتفا الرئيس **بكري علي عبود** في مفاجأة من الصرخة من الخلف. ثم بدا الجانب الأيمن من عنقه يرتجف، كما لو صُفع بقوة. انفجر الجانب الأيسر من عنقه، وتناثر الدم والأنسجة نحو الكثبان الرملية إلى الجانب الشمالي من الطريق، تاركًا **أوريكس** مقطوع الرأس على الفور باستثناء بعض الجلد والعضلات المتبقية. دار رأسه حول محوره وتدلى إلى الخلف بينما ارتخى جذعه وسقط مباشرة على الطريق الرملي.

هبط **كورت** فوقه بينما كان الدم يتدفق، وأدرك أن الرجل قد مات في لحظة أخرى، ثم تدحرج عن **عبود** لينبطح على الطريق.

"لا "!صرخ في الهواء، تمامًا عندما تدحرج دوي طلقة بندقية قنص عبر الكثبان الرملية. أدى اصطدامه بجسد الرئيس وارتطامه بالأرض إلى ألم مبرح في لوح كتفه. ومع ذلك، كان الألم الذي شعر به لفقدان الرئيس، وفقدان هدف مهمته، وفقدان فرصته لوقف الحرب الأهلية والغزو الوشيك، هو المهيمن في ذهنه.

مستلقيًا على الأرض الآن، نظر إلى المباني. كان السطح الذي جاءت منه رصاصة القناص خلف قمة كثيب رملي مدبب بجوار الطريق، لكن **كورت** كان يعلم أن **زاك** سيعيد تموضعه بعد تلك الطلقة، وإذا تمكن من الصعود إلى أعلى التل، فيمكنه الحصول على خط رؤية لموقع **جنتري** على الطريق. لذا تسلق **كورت** على ركبتيه وانطلق إلى الأمام، والتقط هاتف الثريا في طريقه إلى الكثبان الرملية. غطس في أخدود صغير بجانب الطريق، وتدحرج إلى يمينه، إلى الشرق، عائدًا نحو السيارة، وانبطح مرة أخرى.

لكم بقبضته الملطخة بالدماء الرمل مرارًا وتكرارًا في إحباط تام، وحرارة الصباح الخانقة تلتصق بملابسه والرمال والغبار اللزجان يغطيان جلده حيث تلطخ دم **عبود**.

"رائع "!كان صوت **زاك** عبر الهاتف في يد **كورت** .سرعان ما رفعه إلى أذنه" **.ستمائة وتسعون مترًا، ضوء خافت في رياح جانبية بقيمة نصف ثمانية أميال في الساعة. كانت تلك طلقة بجودة سييرا ستة، يجب أن تعترف بذلك"!**

ضغط **كورت** جبهته في التراب والرمل. كل إرهاقه، وعدواه، كل شيء امتص الحياة منه الآن. بدأ ينتحب ويرتجف.

استمر صوت **هايتاور** المجلجل في التدفق من السماعة الصغيرة" **.أنت وغد سريع. لو لم تكن مريضًا إلى هذا الحد بظهرك المتقرح، أراهن أنك كنت ستتمكن من الوقوف في طريق رصاصتي من عيار 308 وتلقي تلك الطلقة بدلاً من حبيبك. كم هذا رائع يا كورت؟ في عيد الميلاد الماضي قتلت رئيس نيجيريا السابق، وأنا للتو قتلت رئيس السودان الحالي.**

أعطنا الوقت، وقد ننظف أنا وأنت هذه القارة اللعينة، ما رأيك؟ انتظر لحظة. انسَ ذلك. لن تعيش طويلاً بما يكفي لقتل أي شخص آخر. إما أن العدوى ستقضي عليك، أو الآلاف من حمقى قوات حكومة السودان الذين يلاحقونك سيقضون عليك، أو أنا سأقضي عليك".

استمر **كورت** مستلقيًا هناك ويرتجف، كما لو كان من برد شديد، انهيار جسدي وعقلي شبه كامل. كان جسده وملابسه مغطيين بالرمل الأحمر الملطخ بالدم. ابتلع الهواء للحظة طويلة قبل أن يقول" :**لقد كانت لديك... فرصة واحدة لمنعي من قتلك. كنت في مرمى نيرانك، وقد اخترت خيارك. لقد اخترت بشكل سيء يا زاك".**

ساد صمت على الخط. شعر **كورت** بالقلق على الطرف الآخر.

"مهما يكن يا صاح. عليك فقط أن تبقى في تلك الحفرة وتموت. سأكون خارج البلاد قبل أن تتمكن من إخراج شظايا دماغ عبود من بين أسنانك. وإذا تمكنت من الخروج من السودان، فقد أخبرني ديني بالفعل أنني سأقود فرقة العمل المكلفة بمطاردتك".

"سأوفر عليك بعض الوقت. تعال إلى هنا الآن. سأكون في انتظارك".

"أود ذلك يا أخي، لكن أعتقد أنني سأخرج من هنا قبل أن يظهر رجال القانون ليروا أمر ذلك الرئيس الميت الملطخ على قميصك مثل صلصة البيتزا. لكني لن أكون بعيداً. ميلو ودان وبقية الرجال على متن هانا قد غادروا مسرح العمليات بالفعل. لم يبقَ سوى أنا وأنت الآن ".ضحك" **.أوه نعم، بالإضافة إلى خمسمائة ألف عضو من القوات المسلحة السودانية".**

"وسأحرق كل واحد منهم للوصول إليك يا زاك. ستة، انتهى".

تحدث **هايتاور** بينما كان **جنتري** يهم بإنهاء المكالمة" .**كورت، "سييرا ستة" كان واحدًا منا، وأنت لم تعد واحدًا منا. اسمك الرمزي لم يعد "سييرا ستة"، لقد عاد اسمك "فايوليتور". أنت العدو مرة أخرى. فقط في حال كنت تحسب النقاط. واحد، انتهى** ".أغلق **زاك** الهاتف.

كان **كورت** مريضًا للغاية، نصف ميت في حفرة، يفوقه العدو عددًا وسلاحًا وخداعًا. لقد فشل. استلقى في الرمال بينما ظهر قرص الشمس الكامل بين الأكواخ على الماء. ببطء، نهض على ركبتيه وبدأ يزحف نحو المنتجع، ورأسه منخفض في حال كان **زاك** لا يزال يحدق من خلال منظار بندقية على الهضبة.

الفصل الثامن والأربعون

غاب قمر الشهر؛ كان البحر الأحمر يعكس ويضاعف ضوء ملايين النجوم، لكن ضوءها لم يكن كافيًا ليرى **جنتري** سفينة **هانا** في الأفق. ضيّق عينيه وهو ينظر إلى الجنوب الشرقي، متابعًا مؤشر الاتجاه في جهاز تحديد المواقع الذي في يده. كان على بعد أقل من ميل واحد، لذا أطفأ محرك القارب المطاطي الصلب الذي يتسع لأربعة أشخاص.

أخبره جهاز تحديد المواقع أيضًا أنه على بعد أربعة أميال من الشاطئ الآن، لكنه لم يستطع رؤية اليابسة في الظلام. ومع إطفاء المحرك، ساد فراغ شامل، ظلام في كل الاتجاهات إلا إلى الأعلى، والأعلى كان لانهائية لا يمكن لمسها.

لم يكن المحيط هادئًا. كان يرتفع ويهبط في صمت، لا أمواج متكسرة أو قمم بيضاء هنا، مجرد تموجات هادئة ترفع **الرجل الرمادي** وقاربه عاليًا في الهواء ثم تخفضه مرة أخرى. كان الإحساس به يفوق رؤيته في الظلام، لكن انعكاسًا عرضيًا على سطح الماء أراه تلالًا ووديانًا في كل مكان، تلالًا ووديانًا من المياه السوداء التي تتموج مع تيارات البحر الأحمر السفلية.

لقد كان يومًا طويلًا. بعد أن شق طريقه إلى منتجع الغوص، وجده خاليًا إلا من الزوجين مالكي المكان. كان الضيوف الغربيون القلائل قد تم جمعهم جميعًا ونقلهم بالشاحنات إلى **بورتسودان** لإجراء مقابلات مطولة، في محاولة يائسة من جهاز الأمن الوطني للعثور على خاطفي الرئيس. قدّم **كورت** للزوجين الهولنديين أعظم معروف يمكن أن يتخيله. صوّب مسدسه غلوك نحو رأسيهما وقيّدهما في غرفة الطعام. كان يعلم أن السودانيين سيجدون جثة الرئيس في مكان قريب، وكان يعلم أن هذين المسنين سيخضعان للاستجواب. لو أنه، بأي شكل من الأشكال، جعلهما شريكين له بعد وقوع الجريمة، فربما كانا سيتلعثمان في أقوالهما

أو يقدمان نوعًا من الأدلة التي تجرمهما. كان من المحتمل جدًا أيضًا أن يكون جهاز الأمن الوطني قد زرع أجهزة تنصت في جميع أنحاء المنتجع الغربي كإجراء روتيني.

لذا، أتقن **جنتري** دور المهووس الملطخ بالدماء حتى النهاية، صرخ وأمر الأوروبيين المذعورين. أخذ منهما طعامًا وماءً وإمدادات طبية وشاحنة صغيرة وقاربًا مطاطيًا صلبًا بمحرك خارجي ومعدات غوص دون حتى إيماءة شكر. قاد الشاحنة عشرة أميال جنوبًا، وانتظر في مستنقع للمانغروف حتى حل الظلام، ثم انطلق نحو **هانا**، متبعًا الإحداثيات على جهاز تتبع المواقع.

كان يعلم أن العضوين الناجيين من فريق "ويسكي سييرا" بخلاف **زاك** قد تم إجلاؤهما بالفعل من المنطقة، مع بقية الطاقم. كان أمل **جنتري** أن **هايتاور** لا يزال على البر الرئيسي يبحث عنه، لكنه كان يعلم أنه من المحتمل أن يكون **زاك** قد عاد إلى **هانا** .فهو يمتلك الغواصة الصغيرة، بعد كل شيء، لذا يمكنه الذهاب والعودة بسهولة كما يشاء. أراد **كورت** الوصول إلى **هانا** لاستخدامها في الهروب من السودان. فكرته السابقة حول عبور الحدود كانت محض خيال الآن. عندما يتم العثور على جثة الرئيس، سيصبح ذلك الجزء من البلاد غير قابل للعبور بنسبة مائة بالمائة.

لذا، بحث **جنتري** في المحيط الأسود عن اليخت بفكرة سرقته والإبحار به إلى بر الأمان، رغم أنه لم يكن يعرف شيئًا تقريبًا عن قيادة اليخوت.

تحرك قارب **كورت** مع سطح البحر المتموج بهدوء. أشار جهاز تتبع المواقع إلى أن القارب ليس بعيدًا، لذا انتظر **جنتري** ليركب موجة ترفعه أعلى من الأمواج الأخرى حتى يتمكن من رؤية اليخت في الأفق.
هناك، على بعد ربع ميل، صورة ظلية أشد سوادًا على بحر من الرمادي الداكن. لا يظهر ضوء

واحد على متنه.
لا أحد هنالك ؟

ربط **كورت** حقيبة شبكية حول خصره. بداخلها كان مسدسه "غلوك 19"، الذي لم يتبق فيه سوى سبع طلقات، وسكين قابل للطي، وهاتفه المتصل بالأقمار الصناعية في كيس بلاستيكي مقاوم للماء.
بعد ذلك، ارتدى سترة التحكم في الطفو على كتفيه، والتي كانت أسطوانة الغوص مثبتة عليها بالفعل. ثم وضع قناعه وأنبوب التنفس والزعانف. أخذ بضع أنفاس اختبارية من منظم الهواء، وانزلق بصمت في الماء الدافئ.

وبينما كان يسبح، ركز على مهمته ليبعد عقله عن الألم المبرح في كتفه الأيسر، ألم كان موجودًا دائمًا، لكنه كان يقفز إلى واجهة وعيه في كل مرة يمد فيها ذراعه إلى الأمام في سباحة الصدر.

سرعان ما شرد عقله عن المهمة، وانتقل إلى واحدة من مئات المعلومات التي استقاها عن مسرح العمليات هذا، سواء من خلال قراءة مواد **سيد** أو مواد **زاك** .هذه المعلومة بالذات لم تكن تبدو مهمة في ذلك الوقت، لكنها في الوقت الحاضر كانت حاسمة بشكل مطلق.
قرش الممرضة، قرش أبيض الطرف، قرش الشعاب الرمادي، قرش المطرقة: الأنواع الأربعة من أسماك القرش الشائعة في البحر الأحمر.
واصل **كورت** السباحة، غاضبًا من أنه لا يستطيع إخراج فكرة أن تأكله سمكة جائعة من رأسه.

بقي تحت السطح مباشرة وكان يتفقد البوصلة على ساعة يده من وقت لآخر ليتأكد من أنه يتجه في الاتجاه الصحيح. بعد عشر دقائق، طفا على السطح بصمت، وانتظر لحظة ليرتفع

مع موجة للحصول على رؤية أفضل. جاءت الموجة بعد قليل، وكان اليخت هناك، على بعد حوالي سبعين ياردة.

وبينما بدأ يهبط مع الموجة مرة أخرى، لفت مقدمة اليخت انتباهه. كان اسم القارب مكتوبًا على الهيكل الأسود عند المقدمة، بأحرف بيضاء أو صفراء.

أحرف عربية.

ما هذا بحق الجحيم؟

لم ير **هانا** من قبل، لكنه كان شبه متأكد من أنه لم يكن متنكرًا كقارب عربي. لا، كان أكثر من متأكد. أخبره **زاك** أنهم قدموا أنفسهم للسودانيين على أنهم أستراليون. كان من الصعب فعل ذلك بيخت يحمل اسمًا عربيًا.

سبح **جنتري** مقتربًا، وهو يضيق عينيه في الظلام محاولًا قراءة الاسم على المقدمة. على بعد أربعين ياردة، تمكن من تمييز الحروف، لكن لغته العربية المكتوبة كانت أسوأ من لغته المنطوقة.

نطق الحروف بصوت عالٍ. "ف ــ ا ــ ط ــ م ــ ة ." **فاطمة**.

ليست **هانا**.

لكن منارة التوجيه كانت تصدر من اليخت، مما يعني بوضوح أن شخصًا ما قد أخذ جهاز الإرسال من **هانا** ووضعه على هذه السفينة.

شخص ما؟ لا، ليس أي شخص.

زاك هايتاور.

كما أشار ذلك إلى شيء آخر لـ**كورت**.

"اللعنة"، قال في نفسه.

كان هذا فخًا لعينًا.

نظر **كورت** خلفه في الظلام. لم تكن هناك أي فرصة للعثور على القارب الصغير الذي تركه خلفه قبل عشر دقائق في عرض البحر.
كان عليه أن يواصل.

أنزل قناعه مرة أخرى على عينيه وبدأ في الغطس مرة أخرى لكنه أوقف نفسه. ظن أنه سمع ضوضاء. نفض الماء من أذنيه وأمال رأسه.
رجل يصرخ.

بووم! طلقة نارية، فورية ولا لبس فيها عبر بحر الليل الهادئ، **غطس** **كورت** **تحت** **سطح** الماء خوفًا من أن يكون قد رُصد.
لكن لا. استمر الأمر تحت الماء. المزيد من إطلاق النار. سلاح يرد على آخر، ثم آخر. كان هناك بندقية صيد في الاشتباك، استطاعت أذن **كورت** المدربة تمييزها، لكن مسدسًا كان يطلق النار أيضًا. سريع ومتحكم به.
صرخة أخرى. طفا **كورت** على السطح مرة أخرى محاولًا فهم ما يسمعه.

شعر بجسده يرتفع في الماء الدافئ، واندفع صعودًا نحو النجوم، ورأى **جنتري** ومضات الضوء في السماء فوق اليخت حتى قبل أن يدخل اليخت في مجال رؤيته.
ثم كان هناك. رأى **كورت** اليخت، لكن لم يكن أحد ظاهرًا على السطح.
كانت هناك طلقة أخرى من إطلاق النار وومضات في النوافذ المستديرة. بدا القتال لـ**جنتري** وكأنه يدور في الطوابق السفلية للسفينة التي يبلغ طولها ثمانين قدمًا.

ساد الصمت للحظة، لكن هذا الهدوء كسره صوت محرك خارجي صغير يعود إلى الحياة.
بعد ثوانٍ، ظهر قارب خشبي صغير من خلف مؤخرة **فاطمة**، رجل واحد على متنه يتحكم في المحرك، ودفع دواسة وقود المحرك الصغير إلى أقصى حد وهو ينطلق في الظلام.

ماذا كان كل ذلك بحق الجحيم؟ تساءل **كورت** عما إذا كان **زاك** على متن القارب وفاجأته مجموعة من الجنود.

سبح فوق الماء بقية الطريق، مراقبًا بحذر سطح اليخت وطوابقه العليا. أرهف السمع لأي ضوضاء بخلاف الصفعات اللطيفة لأمواج القارب المغادر على جانب الهيكل الكبير المصنوع من الألياف الزجاجية، لكن لم يكن هناك شيء.

حتى وصل إلى سلم الصعود في مؤخرة اليخت. في تلك اللحظة، انطلقت طلقة مسدس واحدة صغيرة العيار من الطوابق السفلية. ورد عليها على الفور تقريبًا مسدس أكبر.

صمت مرة أخرى، باستثناء الأمواج المتلاطمة.

خلع **كورت** زعانفه، وفك معدات الغوص، وتركها تنجرف بعيدًا. أمسك بالسلم وصعد ببطء وحذر وهدوء قدر استطاعته. تدحرج فوق حاجز الحماية وهبط على سطح خشب الساج بقدميه الحافيتين، وتجهم مع موجة الألم الجديدة في كتفه، ورفع مسدسه "غلوك" المبتل بالماء ولكن الموثوق به أمامه. تحرك بحذر إلى الممر المؤدي إلى الطوابق السفلية لليخت المظلم.

كانت أول جثتين عند أعلى الدرج. رجلان أسمران في زي قتالي، مصابان بطلقات نارية في الصدر. لم يبدُ الرجلان وكأنهما من البحرية السودانية، لكن ذلك لم يكن مفاجئًا. كانت البحرية السودانية صغيرة جداً، ومهمة اليوم، وهي تفتيش وإعادة تفتيش كل جسم عائم قبالة سواحلها، كبيرة جداً، لدرجة أنه كان من المحتمل جداً أن يكون جيش الحكومة قد استولى ببساطة على قوارب وبحارة لنقل الجنود إلى جميع اليخوت وسفن الشحن وقوارب الصيد للصعود إليها وتفتيشها.

بجانب جثتيهما كانت هناك بنادق كلاشينكوف ذات أخمص سلكي. أراد **كورت** أن يلتقط واحدة لكنه قلق من إحداث ضوضاء أثناء قيامه بذلك.

لطخ الدم خشب الماهوجني لدرجات الممر. تبعه **كورت** نزولًا، ومسدسه في وضع الاستعداد.

دخل الصالون السفلي ورأى المذبحة في الضوء الأخضر الخافت الصادر من حوض سمك على الحائط. رجلان أسمران آخران، ميتان، ورجل أبيض واحد، مستلقٍ على ظهره في منتصف الأرضية، وقدماه باتجاه **جنتري** والدرج.

كان أعزل؛ وصدره ملطخ بالدماء.
لكنه لم يكن ميتًا.

أضاء **كورت** الضوء العلوي للصالون السفلي، مبقيًا سلاحه مصوبًا على الرجل الجريح. ناداه من الجانب الآخر من الغرفة" .**زاك؟**"

سأل **هايتاور** دون أن ينظر في اتجاه **جنتري**" :**أتعرف لماذا يسمونه جرح الصدر الماص؟** " كان صوته ضعيفًا.

أومأ **كورت** ببطء وأجاب" :**لأنه مريع**".

أومأ **زاك** بنعاس. كانت ذراعه اليمنى مضمدة بكثافة فوق وتحت الكوع حيث أُصيب قبل يومين.

سأل **جنتري**" :**ماذا حدث؟**"

"مسدس احتياطي لعين. كنت أظن أنني تعلمت درسي بعد أن أصبتني بذلك المسدس الصغير في عام 2006".

نظر **كورت** مرة أخرى إلى الرجلين عند أسفل الدرج. كان لدى كليهما بنادق صيد بجانب جثتيهما، لكن مسدسًا آليًا صغيرًا كان ملقى أيضًا بجانب يد أحد الرجلين.

بدا الرجل ميتًا بوضوح الآن، لكن **كورت** أطلق النار على مؤخرة رقبته على أي حال، ثم أعاد مسدسه "غلوك" إلى حقيبة خصره" .**لمن هذا القارب؟"**

"لا أعرف. لقد صعدت قوات الحكومة على متن كل ما يمكنها صعوده على طول الساحل، وسحبت الكثير من الناس إلى بورتسودان، في محاولة للعثور على شخص لديه علم باختطاف الرئيس. ظننت أنه إذا صعدت على متن أحد اليخوت الفارغة، فلن يعود أوغاد الحكومة لتفتيشها مرة أخرى. لم يكن هناك سبب لوجود هؤلاء الرجال هنا. أعتقد أنهم عادوا لنهبه، وكان حظنا سيئًا أن اصطدمنا ببعضنا البعض".

"وماذا عن الغواصة الصغيرة؟"

نظر **هايتاور** إلى **جنتري** من خلال شقين ضيقين في عينيه لعدة ثوانٍ" .**أغرقتها. أوامر ديني. كنت سأستخدم هذا القارب للنزول إلى إريتريا".**

تأمل **كورت** قائد فريقه السابق لعدة ثوانٍ. قال" :**يمكنني إيقاف النزيف. تثبيت حالتك. إخراجنا من هنا".**

"لا، شكرًا".

"كما تشاء. ستموت إذا لم تحصل على بعض المساعدة".

"سيكون هناك زورق حربي تابع للحكومة فوقنا في غضون دقائق قليلة. ربما يكون قائد القارب الصغير الذي أحضر هؤلاء الرجال على الهاتف مع البحرية بالفعل".

"إذًا من الأفضل أن أنشغل. سأضمد جرحك، ولكن قبل أن أفعل أي شيء، أريد بعض الإجابات منك".

"دعك من هذا يا كورت".

"لماذا تم التخلي عني؟ من أصدر أمر القتل فور الرؤية؟ ماذا فعلت خطأ بحق الجحيم؟"

"عندما يصل الزورق الحربي، لن يصعدوا على متننا، بل سيفجرون هذا اليخت المدلل عن بكرة أبيه. كل تلك الحركات المثيرة لكورت جنتري، الرجل الرمادي، وحركات النينجا اللعينة لن تساعدك عندما يفتح مدفع سطحهم النار".

"ظننت أنك تريدني ميتًا".

"مرحبًا، ليس هذا ما أريده؛ إنها وظيفتي. إذا وضعت مسدسًا في يدي الآن، سأطلق النار عليك، لكنني لا أعتقد أن هذا سيحدث، لذا ربما ستقبل نصيحة مهنية صغيرة وتذهب للسباحة. قد يتمكن هذا اليخت من الإبحار بسرعة خمسة وعشرين عقدة؛ يمكن لزورق دورية ساحلي سوداني أن يسير بسرعة خمس وثلاثين، ويلحق بنا في أي وقت".

لم يكن **كورت** يستمع. أراد إجابات" .**من تخلى عني؟ هل كان مات هانلي؟"**

كانت عينا **زاك** زجاجيتين، لكنهما دارتا في إحباط على الرغم من ذلك" .**لا أعرف".**

"هل كان لويد؟"

تجعد حاجبا **زاك** الآن. نظر إلى الأعلى" .**من لويد هذا بحق الجحيم؟"**

ارتخى كتفا **كورت** .ثم هز كتفيه" .**هذا ما قلته أنا".**

الفصل التاسع والأربعون

"زاك! اسمع. لم تفت الفرصة بعد. يمكنني أن أعالجك. يمكنك الانسحاب من هذا الأمر. فقط أخبرني من أصدر أمر قتلي ولماذا".

"اللعنة يا ستة. لن أتحرك، ولن أتكلم".

"ما خطبك بحق الجحيم؟"

"أنا جندي صالح يا كورت. أوامري هي أن أجعلك ميتًا. وليس أن أبقيك حيا إذا استطعت إنقاذي، وعندها تصبح مهمتي لاغية. اسمع يا رجل، أنت شخص جيد. أنا أشجعك هنا، حقًا. لكني لن أرفع إصبعًا لمساعدتك. لا أستطيع فعل ذلك. سيتعارض ذلك مع أوامر عمليتي".

"أنت مجنون تمامًا".

ابتسم **زاك** .استطاع **جنتري** رؤية الألم على وجهه" **.أنا فقط أؤدي عملي. ينبغي على المزيد من الأوغاد أن يؤدوا عملهم وحسب. لا أقصد إهانة شخصية يا "فايوليتور"."**

"اللعنة يا زاك "!أصرخ بها **كورت** في إحباط. وقف هناك فوق رئيسه السابق، وفكر للحظة طويلة، ثم غادر الصالون وركض طابقين صعودًا إلى قمرة قيادة السفينة. هنا وجد صندوق إسعافات أولية. في ثوانٍ عاد، وركع بجانب "سييرا واحد."

أدار **زاك** رأسه ببطء ليواجهه" **.ماذا تفعل بحق الجحيم؟"**

"أنت تعرف ما أفعله. أنت وغد، لكني لا أستطيع أن أقف هنا وأدعك تموت ".مزق **جنتري** قميص **زاك**، كاشفًا عن الجرح. كان صغيرًا، على بعد بوصتين تحت حلمته اليمنى، وعرف **كورت** أن الرصاصة لا بد أنها اخترقت الرئة. مد يده تحت **زاك** ليتحسس جرح الخروج.

"إذا عالجتني، سأقتلك"!

"لا، لن تفعل".

نظر **هايتاور** إلى السقف بعينيه النعستين وهز رأسه ببطء في عدم تصديق" .**تقديرك للرجال سيئ للغاية يا كورت".**

"حدثني عن ذلك".

بعد خمس دقائق، كان **جنتري** قد استقرت حالة **هايتاور**، على الأقل في الوقت الحالي. لم يكن هناك جرح خروج، مما يعني وجود رصاصة أو شظايا رصاصة في مكان ما في تجويف صدره المصاب. استخدم **كورت** غلافًا مطويًا من مجلة من خزانة الكتب وشريطًا لاصقًا من صندوق الإسعافات لإنشاء صمام فوق جرح الصدر يسمح للهواء بالخروج من رئتي **هايتاور** عند الزفير، ولكن لا يسمح بدخول الهواء إلى تجويف الصدر عند الشهيق.

كان هذا كل ما يمكنه فعله في الوقت الحالي.

ثم ترك **كورت زاك** وعاد طابقين صعودًا إلى دفة قيادة السفينة. في غضون دقائق، كان قد شغل جميع الأنظمة، وتجاهل كل شيء تقريبًا باستثناء المحركات والبوصلة وعجلة القيادة والطيار الآلي. ركض إلى السطح وتأكد من أن المرساة لم يتم إنزالها. كان متأكدًا من وجود طريقة للتحقق من الدفة، لكنه خمّن أن النظر بالعين سيكون أسرع من محاولة معرفة أي

شاشة كمبيوتر تعرض تلك المعلومة. امتنع عن تشغيل أي أضواء؛ أراد التحرك بخلسة قدر الإمكان نحو المياه الدولية كما يمكن ليخت فاخر يبلغ طوله ثمانين قدمًا. كان يعلم أنه لن يصل إلى ممر شحن لبعض الوقت، لكنه أمل أن أي حركة بحرية مدنية هناك في الظلام لديها رادار على متنها، لأن **كورت** لم يكن يعرف كيفية تشغيل تلك الوظيفة بالذات في الشاشة الكبيرة متعددة الوظائف في وسط دفة القيادة المصنوعة من خشب الماهوجني والنحاس، ولم يكن يريد الاصطدام بقارب آخر.

دفع **كورت** دواسة الوقود برفق، واندفع القارب الكبير إلى الأمام. عندما وصلت المركبة إلى عشرين عقدة، ضبط الطيار الآلي للحفاظ على المسار الحالي ثم ركض عائدًا إلى الطابق السفلي.

دخل **كورت** الصالون السفلي ليجد **هايتاور** يزحف على جنبه، في منتصف الطريق تحت طاولة تطوى من الحائط. تتبع **كورت** عيني الرجل الجريح إلى مسدس دوار قصير السبطانة من التيتانيوم على الأرض بجوار الحائط، على وشك أن يلمسه **هايتاور** .كان نفس المسدس الذي ضغطه **زاك** على جبهة **جنتري** في سانت بطرسبرغ. ببطء، زحفت ذراع **هايتاور** اليسرى على الأرض، تصل إلى المسدس.

لم يكن على **كورت** أن يسرع؛ لقد خطا عبر الأرضية وركل المسدس بعيدًا.

قال **جنتري**" :**لا أعتقد أنك كنت جادًا في تلك المحاولة**".

أومأ **زاك**؛ أغلقت عيناه مرة أخرى" .**قلبي لديه أمور أخرى ملحة ليهتم بها في الوقت الحالي** ".تألم من الألم" .**استرواح صدري. ضغط الهواء في تجويف الصدر يوقف قلبي**".

"**إذا وعدت بالتوقف عن محاولة قتلي لدقيقة، يمكنني مساعدتك**".

"لا وعود"، قال **زاك**، لكنه تدحرج على ظهره وصرخ من الألم وهو يفعل ذلك. كان أنفاسه ضحلة ومجهدة. فتح **كورت** سكينه بسرعة، ووجد بقعة بين الضلعين الثاني والثالث على الجانب الأيمن من صدر "سييرا واحد"، ثم أحدث ثقبًا ضحلًا عبر الجلد والعضلات. صرخ **زاك** .على الفور خرج الهواء من الثقب بصوت صفير خفيف. ذهب **كورت** إلى حوض السمك في الزاوية، وسحب بعض الأنابيب المطاطية ومرشحًا من الماء، وعاد إلى مريضه. أدخل الأنبوب في الجرح الأحدث من جرحي الصدر، وثبّت المرشح في الطرف المفتوح ووضعه على الأرض بجوار ذراع **زاك**.

"عندما نخرج من هذا، سنحتاج أنا وأنت إلى معظم المضادات الحيوية في العالم الغربي".

سعل **زاك** .ظهر القليل من الدم على شفتيه" **.بجدية يا صاح. الزورق الحربي سيصل في أي دقيقة. إلى أين تظن أننا ذاهبون؟"**

جلس **كورت** بجانب **زاك**، منهكًا ومتألمًا ومريضًا من العدوى في ظهره. أخرج الهاتف الفضائي من حقيبته" **.حان وقت التذلل للروس قليلاً".**

تمكن **كورت** من الوصول إلى **سيدورينكو** في المحاولة الثالثة" **.مرحبًا يا سيد. إنه "جراي". لقد تم الأمر".**

"نعم، الخبر في كل مكان. الرئيس عبود مات. الجميع في موسكو مسرورون جدًا".

"هل تم العثور على الجثة؟"

"نعم. بالقرب من منتجع على بعد ستين ميلاً شمال سواكن. مثير للفضول جدًا".

تنفس **كورت** الصعداء بتردد" .**نعم. سأشرح كل شيء عندما أراك. لكن علينا تقديم موعد الانسحاب. يجب أن أخرج من هنا فورًا".**

"حقًا؟"

"نعم. الأجواء مشحونة جدًا للاختباء كما خططنا في الأصل".

"أهكذا؟ "لم يحمل صوت **سيد** أيًا من حماسه السابق. شعر **جنتري** بالمتاعب.

"نعم. أنا مصاب".

"مصاب؟"

"يا! سيد! توقف عن الأسئلة. نعم، أنا مصاب. أحتاج بعض المساعدة".

"أخشى أن حزمة مزاياك لا تشمل التأمين الصحي يا سيد "جراي"."

لم يقل **كورت** شيئًا. ارتعشت عضلات فكه.

واصل رجل المافيا الروسي" .**عبود مات، هذا أعرفه. لكني أعرف أيضًا أنك لم تقتله. لقد قُتل على يد قناص بينما كنت تحاول حمايته، لإخراجه من البلاد وتسليمه إلى المحكمة الجنائية الدولية. لقد استخدمت عمليتي للوصول إلى الرئيس، من أجل القبض عليه حيًا لصالح جهة أخرى".**

تبًا" .**من أين سمعت هذا الهراء؟"**

جاء رد **سيد** بصرخة مفاجئة، وأصبحت لهجته السان بطرسبرجية أكثر وضوحًا والكلمات أقل فهمًا" .**أتظنني أحمق! حسنًا يا كورتلاند جنتري، أيها الرجل الرمادي، أنا لست أحمق. يمكنك البقاء هناك والموت من أجل خيانتك"!**

"سأقتلك يا سيد"!

"لقد أخبرتني للتو أنك لا تستطيع البقاء على قيد الحياة بدوني، والآن تهددني بما ستفعله بي؟ ها. لقد كنت رجلاً خطيرًا يا جنتري، ولهذا أعجبتني. لكنك لست خطيرًا جدًا الآن، وأنت وحيد، ومصاب، وخائف. ولست مثيرًا للاهتمام أيضًا. كان لدي رجل لديه مشكلة. قريبًا لن يكون هناك رجل ولا مشكلة "!ضحك **سيد** وهو يغلق الهاتف.

"اللعنة"، قال **كورت** .أسقط الهاتف على الأرض بجانبه واستلقى على جدار الصالون. كانت العدوى تستنزف آخر احتياطياته من الطاقة.

ظن أن **هايتاور** فاقد للوعي، لكن مريضه أدار رأسه ببطء. وعيناه لا تزالان مغلقتين، سأل :
"ماذا قال سيد؟"

"قال، بكلمات أخرى، "اللعنة عليك"."

اشتدت شفتا **زاك** الجافتان المتشققتان في ابتسامة طفيفة. كان صوته ناعمًا" .**اللعنة يا صاح. رئيسك وغد"**.

"نعم. من كان يظن؟"

"واجه الأمر، لن يأتي أحد لإنقاذنا. أنا منبوذ، وأنت العدو. نحن تعريف الفشل بعينه. يمكنك العودة سباحة إلى الشاطئ؛ هذا هو خيارك الوحيد تقريبًا".

مد **كورت** يده فوقه إلى حانة صغيرة وأمسك بزجاجة ماء. صرخ ظهره من الألم وهو يفعل ذلك. فك الغطاء وأخذ بضع رشفات. سكب بضع قطرات على رأسه. بعقل شارد، نقر بأصابعه على زجاجة الماء، وساقاه ممدودتان على السطح الذي يرتفع وينخفض.

لم يُنطق بأي كلمة بين الرجلين لمدة دقيقة. شعر **كورت** بكل ثانية تمر. ظن أنه شعر بالقارب ينجرف إلى اليمين قليلاً، لكنه أبعد الفكرة عن ذهنه. لقد تم ضبط البحار الآلي، لذا يجب أن يكون المسار صحيحًا.

"أنا منفتح على الاقتراحات يا "واحد""، قال **جنتري** بفتور. لكن لم يكن هناك رد. كان "سييرا واحد" فاقدًا للوعي، على الرغم من أن تنفسه أفضل من ذي قبل مع إدخال الأنبوب لتصريف تراكم الهواء. سيظل من المحتمل أن ينزف حتى الموت إذا لم يصل إلى مستشفى قريبًا.

مد **كورت** يده إلى حقيبة الإسعافات الأولية ليرى ما هي مسكنات الألم الموجودة فيها. تساءل عما إذا كان العرب الذين يملكون هذا اليخت الفاخر من النوع الذي يمتنع عن مثل هذه الزلات.

ارتفع حاجبا **كورت** .خطرت له فكرة مفاجئة.

لمَ لا بحق الجحيم؟

مد يده إلى الهاتف مرة أخرى وأسند رأسه إلى جدران المقصورة المصنوعة من خشب الساج. طلب رقمًا بإبهامه ووضع الهاتف على أذنه.

رنة، رنتان، خمس رنات. نظر **كورت** إلى ساعته.

خشخش الهاتف عندما تم الرد عليه. أظهر مقياس البطارية أن الجهاز ينفد من الطاقة بسرعة.

"**خدمات شلتنهام الأمنية**"، قال صوت امرأة.

"**دون فيتزروي**".

"**هل لي أن أسأل من المتصل؟**"

"**كورت**".

"**بالتأكيد يا سيدي. لحظة واحدة**".

كان التوقف وجيزًا. كان الهاتف على وشك الموت. من المحتمل أن يكون لدى **زاك** هاتف ثريا خاص به في مكان ما هنا، لكن **كورت** كان متعبًا جدًا للبحث عنه.

دون فيتزروي، السير **دونالد فيتزروي**، كان ضابط اتصال **كورت جنتري** قبل **غريغور سيدورينكو**. في ديسمبر السابق، اختلف الرجلان، وتعهد **كورت** بالابتعاد عن العقل المدبر للتجسس الإنجليزي طالما هو على قيد الحياة، حتى لو أصبح يائسًا.

لكن الأحداث اليائسة، كما رأى **كورت** الآن، تتطلب إجراءات يائسة.

جاء صوت **فيتزروي** المنخفض والأجش عبر الخط" .**حسنًا، مرحبًا يا فتى. كيف حالك؟**"

"**لقد مررت بأيام أفضل، لأقول لك الحقيقة**".

"**يؤسفني سماع ذلك. ما الخطب؟**"

"**هل كنت تتابع الأخبار؟**"

ضحكة عصبية" .**الأخبار الوحيدة التي تهم رجلاً مثلي تحدث على الساحل الغربي للبحر الأحمر. آمل حقًا ألا تكون متورطًا في كل هذه الجلبة؟"**

تنهد **كورت" :أعتقد أنني نواة تلك الجلبة تقريبًا".**

توقف آخر. ثم، **"يا إلهي. الهمسات تقول إنها من عمل وكالة المخابرات المركزية. إذن أنت عدت مع الوكالة؟"**

"بشكل غير رسمي".

"إلى أي مدى غير رسمي؟"

"حسنًا... في الواقع، إنهم يحاولون قتلي".

"تبدو علاقة غير رسمية دموية إذن. في الواقع، أليس هذا عكس أن تكون "معهم"؟"

"الأمر معقد بعض الشيء، نعم".

على الفور قال الإنجليزي" :**كيف يمكنني أن أخدمك؟"**

"بهذه البساطة؟ أنا في ورطة حقيقية يا دون. يمكنك استغلالي حتى آخر قطرة لو أردت. ليس لدي أي أوراق ضغط".

"سنسوي الأمر لاحقًا. أنت رجل تفي بكلمتك. دعنا نحاول إخراجك من هناك".

تردد **كورت**، ثم قال" :**هل لديك أي أصول على الإطلاق في المنطقة؟"**

"سأحتاج إلى إجراء بعض المكالمات. لا شيء من شبكتي، لكن لدي زملاء في إريتريا، وفي مصر. ربما بحلول ظهر الغد"——

"سلبي. لا أستطيع الانتظار. يجب أن أحصل على شيء أسرع".

بدا **دون** مرتبكًا للحظة. غرقت معنويات **كورت** المرتفعة قليلاً من جديد مع التأخير. أغمض عينيه وأسند رأسه مرة أخرى. ثم فتحهما.

"لدي قارب. أنا أتحرك بسرعة عشرين عقدة باتجاه المياه الدولية".

"قارب؟ حسنًا، هذا شيء".

"لكن البحرية الحكومية السودانية في طريقها. لا أستطيع التفوق عليها ".أعطى كورت إحداثياته العامة لـ**فيتزروي**، الذي دونها على عجل.

"يجب أن تحاول مراوغة السودانيين".

"لو كان لدي شيء أهدف إليه، سفينة أو قارب أو حتى عوامة لَعينة أتمسك بها، لشعرت بتحسن كبير".

قال دون" :**يجب أن يكون هناك منارة استغاثة محمولة على متن القارب. ابحث عنها فورًا. سأتصل بصديق يعمل كضامن بحري في لويدز أوف لندن، للحصول على قائمة بكل قارب أو سفينة أو يخت على بعد ثلاث ساعات منك. إذا كنت لا أعرف مالك أو مشغل إحدى تلك السفن، فسأجد بالتأكيد شخصًا يعرفه. اتجه شرقًا مباشرة من موقعك، اخرج إلى البحر بأسرع ما يمكن، لأبعد ما يمكن. عندما تكون في المياه الدولية وبعيدًا عن السودانيين، أطلق منارة الاستغاثة الخاصة بك".**

"مفهوم. شكرًا يا دون".

"اشكرني لاحقًا. لديك بحرية لتهرب منها ".أغلق **كورت** الهاتف وركض عائدًا إلى قمرة القيادة لتسريع المحركات.

الفصل الخمسون

عثر **كورت** على جهاز راديو استغاثة FM محمول في قمرة القيادة، ووضعه في حقيبة خصره، ثم عاد إلى دفة القيادة. وهناك، دفع مقابض السرعة إلى أقصى حد. لم يتبق سوى أقل من ساعة على طلوع النهار، وكان **جنتري** قد وجه مقدمة قاربه تمامًا حيث ستشرق الشمس بلونها البرتقالي المحترق. كل ما كان يأمله هو أن يظل على قيد الحياة ليرى شروقها.

فجأة، غمر ضوء ساطع قمرة القيادة. انحنى **كورت** غريزيًا، والتفت في كل الاتجاهات باحثًا عن مصدر الشعاع المبهر. وجده في المؤخرة على الجانب الأيمن، كشاف ضوئي لا يبعد أكثر من مائة ياردة.

انطلق المدفع الرشاش المزدوج عيار 12.7 ملم لزورق الدورية الساحلي بعد ثانية واحدة، ممزقًا قمرة القيادة ومخترقًا خشب الماهوجني والبرونز والزجاج.

غطس **جنتري** إلى السطح بجانب الدفة، مستغلًا أرضية خشب الساج المصقولة بعمق لينزلق كالأفعى نحو الدرج المؤدي إلى الطوابق السفلية. انزلق على الدرج ووجهه للأسفل، وكتفه يكاد يقتله من الألم، لكن خوفه من المعدن الأسرع من الصوت كان له الأسبقية في أولوياته.

على السطح الرئيسي، انتظر **كورت** فترة هدوء قصيرة من النيران شبه المستمرة وأمسك بكلتا البندقيتين اللتين سقطتا من الرجلين الميتين عند الممر. كان السلاحان قديمين وسيئي الصيانة. عرف **كورت** أن إطلاق النار على الزورق الحربي سيكون تهورًا استثنائيًا، لكن عدم إطلاق النار عليه سيسمح له بالاقتراب كما يشاء، وتسليط كشافه على اليخت المنكوب، وإمطار مدفعيه الرشاشين ذهابًا وإيابًا حتى يرضى قلبه، إلى أن تتوقف المحركات ويغرق اليخت في المياه السوداء.

لم يكن **كورت** ليجعل الأمر بهذه السهولة بالنسبة لهم.

زحف إلى المقدمة، وبقي بعيداً عن الأنظار. بدا أن مدافع 12.7 ملم الصاخبة تركز على الدفة، وخط الماء، ومؤخرة السفينة، على الأرجح لتدمير أجهزة التحكم والمراوح وإيقاف تراجع القارب إلى المياه الدولية، وكذلك لقتل أي شخص يختبئ في الطوابق السفلية. لكن المقدمة كانت لا تزال محاطة في الغالب بالظلال الداكنة للصالون العلوي وقمرة القيادة، واستغل **جنتري** هذا لإخفاء حركته.

قلب مفتاح الاختيار في السلاح إلى الوضع الآلي الكامل، وصوّب المنظار الحديدي لبندقية AK-47على شعاع الكشاف، وأدخل إصبعه في واقي الزناد. في الوقفة القصيرة التي أخذها لتركيز حواسه قبل أن يطلق النار، لاحظ أن السطح تحته لا يتحرك إلى الأمام في خط مستقيم. لا، لقد شعر بانجذاب ملحوظ وقوي جداً إلى اليمين في المركب البالغ طوله ثمانين قدمًا. لم تكن لديه أي فكرة عن السبب، وخمّن فقط أن المدافع الرشاشة قد ألحقت أضرارًا بالدفة بالفعل.

طرد هذا من ذهنه وضغط على الزناد. انفجر الضوء في وميض من الشرر. فجأة، غرق يخت **فاطمة** في الظلام، وأصبح الزورق الحربي عبر الماء هو النقطة المضيئة، حيث كشفت نوافذه وإضاءته الكهربائية جميع الرجال على السطح.

أطلق **كورت** ما تبقى من مخزن ذخيرة بندقية AK الأولى في الوضع الآلي الكامل على الرجال، فقتل اثنين وأرسل البقية للغطس على سطح المركب البالغ طوله مائة قدم. عندما نفدت ذخيرة سلاحه، أسقطه **كورت** وركض إلى الجانب الأيسر من اليخت. كان يعلم أن الوميض الساطع للبندقية قد جذب الانتباه، وكان بحاجة للابتعاد عن المقدمة قدر الإمكان. عاد إلى الدرج المؤدي إلى الطوابق السفلية تمامًا في اللحظة التي بدأت فيها المدافع الرشاشة

على الزورق تتقيأ الفولاذ الساخن مرة أخرى. على الدرج، رأى أن قاربه يغرق الآن، مائلًا إلى الجانب الأيسر، على الرغم من أن قوة دفعه الأمامية لا تزال تسحب إلى اليمين.

عاد **كورت** إلى الصالون السفلي ونزل على يديه وركبتيه. كان تحت خط الماء وبالتالي آمنًا في الغالب من إطلاق النار المباشر. وجد **زاك** مستلقيًا في نفس المكان. كان صدره العاري مغطى بالضمادات المؤقتة ولمعان كثيف من العرق. كانت عيناه مفتوحتين وترمشان.

"**بحرية لَعينة،** "قال **زاك** بينما زحف **كورت** بجانبه. أرسلت موجة عابرة من المدفع الرشاش شظايا وزجاجًا ومياه بحر في جميع أنحاء الصالون فوق رؤوسهم مباشرة. بعد ثوانٍ، توقفت المحركات، وبدأ يخت **فاطمة** ينجرف.

لكن إطلاق النار استمر. كان على **كورت** أن يصرخ ليُسمع" .**سنصعد إلى السطح"!**

"لا تنسَ واقي الشمس".

"إننا نغرق. سيتعين علينا النزول من الجانب الأيسر. ربما يمكننا الانتظار قليلًا، ونبث إشارة استغاثة على جهاز VHF عندما يغادرون".

"لن ينجح ذلك. نحن لسنا قريبين من المياه الدولية. سيسمع السودانيون الاستغاثة، ويعودون، ويكملون المهمة".

"لن أغرق ذلك الزورق البحري. ليس لدي أي بديل آخر".

أسند **زاك** رأسه إلى الخلف" .**افعل ما يجب عليك فعله يا صديقي. سأبقى هنا".**

توقف إطلاق النار من المدفع الرشاش فجأة. نظر **كورت** حوله. لاحظ أن زجاجة الماء التي تركها على الأرض في وقت سابق قد تدحرجت إلى الجانب الأيسر. في غضون ثوانٍ، بدأت أشياء أخرى في الغرفة تنزلق على السطح المصقول كالمرآة.

قال **كورت**" :**لقد تعطلنا تمامًا. لا بد أن غرفة المحرك تمتلئ بالماء. لكن لماذا لا يطلقون النار؟**"

لم يقل **زاك** شيئًا.

"**سأعود حالًا** ".صعد **كورت** الدرج على يديه وركبتيه. كان اليخت يغرق بسرعة لا تصدق. كان يميل بالفعل إلى اليسار بزاوية عشر درجات. على السطح، استلقى بشكل مسطح، بحيث كان مخفيًا عن الجانب الأيمن بسبب الميل إلى اليسار. زحف إلى حاجز الحماية وألقى نظرة خاطفة بحذر، باحثًا عن الزورق الحربي. كانت السفينة البحرية تبتعد عن المنطقة، بعيدًا عن اليخت، ولم يستطع **كورت** أن يتخيل السبب. سرعان ما نظر إلى السماء، قلقًا من وجود طائرة مقاتلة بقنبلة أو أي هجوم آخر يستلزم هروب زورق الدورية. لكن السماء المرصعة بالنجوم كانت صافية.

كان على وشك أن يستدير لينزلق عائدًا إلى الممر عندما لاحظه، فوق خط الماء، أسفل موقعه مباشرة عند حاجز الحماية. في الظلام، كان يلمع ويتدلى هناك كورم كبير رطب على هيكل **فاطمة**.

كان متصلًا بالهيكل بكابلات وأكواب شفط، وكان تحت خط الماء قبل أن يبدأ اليخت في الميل بشدة إلى الجانب المقابل.

على شكل سيجار، أسود كالعقيق اليماني، وطوله عشرون قدمًا، مروحة ودفة مغلقتان في الخلف، ومظلة بلاستيكية شفافة في الأعلى.

غواصة صغيرة.

هز **كورت** رأسه غير مصدق وهمس بابتسامة صغيرة" :**زاك، يا لك من وغد لعين**".

أدرك **كورت** الآن سبب انحراف القارب بقوة إلى اليمين عند السرعة العالية. أهمل **هايتاور** ذكر ذلك لأن مهمته الأساسية كانت قتل **الرجل الرمادي** .ومهمته الثانوية ستكون إنقاذ

حياته. كان لدى **كورت** احترام لا يصدق لتركيز **سييرا واحد** على المهمة، حتى لو أثار ذلك غضبه.

نظر **كورت** مرة أخرى إلى زورق الدورية السوداني وأدرك أنهم لا بد أنهم رأوها أيضًا. ولكن يبدو أنهم اعتبروها طوربيداً كبيرًا وقرروا التراجع خشية أن تؤدي إحدى طلقات مدفعهم الرشاش إلى تفجيرها.

استدار **الرجل الرمادي**، وانزلق على السطح شديد الميل إلى الممر، وعاد إلى الصالون. كان **زاك** لا يزال على ظهره.

"هل كان سيقتلك أن تخبرني عن الغواصة؟"

"كنت آمل أن تقتلك إذا لم أفعل".

"هل ستخبرني كيف أقودها؟"

"لم تقد غواصة صغيرة من قبل؟"

"من بحق الجحيم قد قاد غواصة صغيرة؟"

ابتسم **زاك** ولم يقل شيئًا.

"لا أفترض وجود دليل تعليمات ملقى في مكان ما".

لا رد.

"أشعر برغبة في نزع ذلك الأنبوب الآن يا زاك".

لا رد.

"يا إلهي، عندما أنتهي من إنقاذك، أقسم أنني سأقتلك ".ركع **كورت** ورفع **زاك** على كتفه المصاب. صرخ من الألم.

صرخ **زاك** أيضًا من عذاب رفعه من ذراعه اليمنى المضمدة، لكن **جنتري** لم يفعل شيئًا ليشعر مريضه بالتحسن.

الفصل الحادي والخمسون

أغلق **كورت** المظلة الصغيرة. من صعوبة حركة آلية الإغلاق، وغياب مقبض جيد للإمساك به من داخل زجاج البليكسيغلاس، تولد لديه انطباع بوجود نوع من الأزرار أو المقابض التي من شأنها أن تؤدي إلى إغلاق وإحكام تلقائي، لكن **كورت** لم يتمكن حتى من رؤية العدادات والمقاييس أمامه في الظلام، لذا كان عليه الاكتفاء بشدها بقوة بأطراف أصابعه.

كان قد تمكن من إدخال **هايتاور** إلى الداخل دون أدنى مساعدة منه. بحلول الوقت الذي عادا فيه إلى السطح، كان اليخت يميل بزاوية خمس وعشرين درجة. بذل **كورت** كل ذرة من القوة في ذراعه السليمة في سبيل سحب **زاك** إلى السياج ورفعه فوق الجانب. وبينما انزلقا معًا على الهيكل المبلل نحو الغواصة، سقط الهاتف الفضائي من جيب **جنتري** وارتد إلى المحيط. وجد **كورت** مزلاجًا على السطح الخارجي للمظلة وفتحه. كافح لإدخال جسد **هايتاور** الثقيل كجثة هامدة في وضعية الاستلقاء الخلفية. ربط **كورت** حزامه كما يربط حزام طفل في مقعد سيارة وانزلق إلى الأمام.

بمجرد أن أحاطت به قمرة القيادة الصغيرة، أخذ بضع ثوانٍ ليستعيد أنفاسه المنهكة. ثم نادى على راكبه غير الراغب" :**هيا يا صاح! أعطني تلميحًا! ماذا أفعل؟"**

"أود المساعدة يا أخي. لكن أوامري هي إنهاء حياتك. هذه طريقة ملتوية نوعًا ما لتحقيق هدفي، ولكن "...أصبح صوته أضعف بكثير بعد إجهاد الحركة، حتى لو ظل موقفه ثابتًا تمامًا.

"اللعنة على أوامرك. لنذهب في جولة"!

لم يرد **زاك**.

عاد **كورت** إلى تحسس أدوات التحكم.

ملأ صرير عالٍ ومفاجئ الهواء، وسقطت قذيفة في الماء على بعد خمسة وعشرين ياردة من الغواصة. اهتزت المركبة الصغيرة، وتناثر الماء الرغوي على زجاج البليكسيغلاس كما لو أن إعصارًا مصغرًا يمر فوقها.

"أعتقد أن استراحة التدخين قد انتهت"، تمتم **هايتاور** من المقعد الخلفي.

"تبًا "!بدأ **كورت** يمرر أصابعه على جميع العدادات أمامه، ولم يجد شيئًا يبدو صحيحًا لقلبه أو لفه أو ضغطه. أراد تفعيل كل شيء؛ ربما لا يزال الأمر سيصل إلى ذلك، لكنه كان خائفًا من القيام بذلك. لم يكن لديه أي فكرة حقًا عما يورط نفسه فيه، فقط أن البديل هو الجلوس على سفينة تغرق وتفادي القذائف شديدة الانفجار من مدفع سطح زورق الدورية.

مرر أصابعه بسرعة أكبر على أدوات التحكم، بحثًا عن نوع من أزرار الطاقة، والذي تخيله أكبر وأكثر بروزًا مما وجدته أطراف أصابعه حتى الآن في الظلام. انتقلت يداه بعد ذلك إلى كلا جانبيه، إلى خارج مساند الذراعين المصنوعة من الفينيل، على طول الجدران. على الجانب الأيسر، أمسكت يده برافعة بسيطة مع كرة تمتد ثلاث بوصات أفقيًا من الحائط. كانت في وضع "لأعلى". مع عدم وجود أي شيء آخر يبدو صحيحًا، سحب الرافعة.

على الفور، انفصلت مقدمة الغواصة عن الكابل المتصل بكأس الشفط على هيكل اليخت. انخفضت المقدمة باتجاه الماء، واصطدم **جنتري** إلى الأمام بأدوات التحكم في قمرة القيادة.

كان قد أهمل ربط حزام مقعده كما فعل مع **هايتاور** خلفه.

صرخ من الألم. بكل قوته انحنى إلى الوراء، وتحسس فوقه بحثًا عن رافعة خلف تلك التي سحبها، ووجدها وسحبها لأسفل.

انفصل الكابل الخلفي، وانزلقت الغواصة القزمية عن الجانب المائل لليخت **فاطمة** وغطست خمسة أقدام في الماء الأسود، والمقدمة أولاً.

عند ارتطامها بالبحر، استقامت المركبة للحظة، واستغل **كورت** الوقت ليتلمس طريقه عائدًا إلى مقعد قمرة القيادة. كان الأمر صعبًا، لكنه نجح، ولم يكد يشبك المشبك حتى شعر بثقل الجاذبية على جانبه الأيمن. كان الماء حول فقاعة البليكسيغلاس أخضر داكنًا معتمًا، لذلك انتظر **جنتري** حتى تعود الغواصة إلى السطح ليتمكن من تحديد اتجاهه.

انتظر لمدة خمس ثوانٍ حتى تطفو، وطوال ذلك الوقت شعر بالسحب يزداد قوة إلى اليمين، كما لو أن الغواصة بدأت تتدحرج بطريقة ما.

عند عشر ثوانٍ أدرك أنها تتدحرج، لكن يبدو أن السحب إلى اليمين قد توقف. كانت الغواصة لا تزال مغمورة.

سحب السكين الصغير القابل للطي من جيبه، وأمسكه في حجره، ثم أفلتها.

طارت السكين لأعلى، وكادت تصيب ذقنه وأنفه، قبل أن ترتد على المظلة البلاستيكية وتنزلق إلى الأمام.

أدرك **كورت** حينها أنهم مقلوبون، وأنهم يغرقون.

"زاك! زاك "!انسدت أذنا **جنتري**، وقاوم موجة من الذعر. لم يكن لديه أي وعي بالموقف الآن، مدفونًا تمامًا كما كان في مركبة ميتة في مياه مظلمة.

لم يرد **هايتاور**.

فوقه سمع قذيفة تصيب اليخت، انفجار من مرحلتين، الأولى هي الرأس الحربي والثانية، بلا شك، خزانات الوقود. هزت موجة صدمة قاع الغواصة.

لم يستطع **جنتري** الانتظار أكثر. مد يديه أمامه، ووجدت سبابته اليمنى زرًا، زرًا عشوائيًا، حيث كان هناك العشرات، ولم يستطع حتى رؤية لونه ناهيك عن أي كتابة عليها.

اللعنة. ضغط عليه.

لا شيء.

انسدت أذناه مرة أخرى، ودخل ضغط مستمر في رأسه. لم يكن لديه أي فكرة عن عمق المياه هنا، لكنه لم يكن يريد الاستمرار في الهبوط ولا الاصطدام بالقاع، خاصة والمظلة أولاً.

مد يده إلى الزر التالي. ضغطه. ثم ثالث. ثم رابع. تساءل عما إذا كان يطلق الوقود أو يفتح باب شحن أو يشغل تسلسل تدمير ذاتي.

لم يكن **كورت** يعرف أي شيء لعين عن الغواصات.

ضغط على زر خامس، وعلى الفور أضاءت إضاءة الأشعة تحت الحمراء الدافئة المقصورة.

كان رأسه يؤلمه بشدة، واجتاح الغثيان جسده من أمعائه إلى مؤخرة عنقه.

مع الضوء الجديد، مسح بسرعة عشرات الخيارات، بحثًا عن أي شيء لتشغيله. توقفت إصبعه عند زر يحمل علامةHUD ، وضغطه دون تردد. ظهرت شاشة العرض العلوية بالليزر، وعرضت جميع أنواع البيانات على الزجاج الأمامي أمامه. زادت السرعة والعمق

الحالي كل ثانية، واستدار أفق اصطناعي ببطء في اتجاه عقارب الساعة، ودار مؤشر البوصلة بثبات حول القرص.

أراد وعيًا بالموقف، وحصل عليه. الآن، بعد أن أخبره الكمبيوتر الموجود على متن المركبة أنه يتجه لولبيًا نحو حتفه، أدرك أنه لم يكن يريد تلك المعلومات حقًا بعد كل شيء.

ازداد الألم في رأسه سوءًا. تقيأ ماءً وعصارة صفراوية؛ انطلق بعضها من خلال أنفه وتبع مسار الجاذبية، وسال في عينيه. مسح الحرق بذراعه المتعرقة، ووضع يده على عصا التحكم على يمينه، وحاول تصحيح وضع المركبة، لكن لم يكن لها أي تأثير على الإطلاق. دفع الرافعة التي اعتبرها دواسة وقود بيده اليسرى. مرة أخرى، لا شيء. ضرب بقدميه اليسرى واليمنى العاريتين، باحثًا عن دواسات دفة لم تكن موجودة.

تجاوزت الغواصة ستين قدمًا.

قاوم **كورت** موجة أخرى من الغثيان وزيادة أخرى في الذعر. ثم توقف عن العبث بأدوات التحكم، ووضع يديه في حجره.

"زاك. هل أنت مستيقظ؟ "كان صوت **كورت** هادئًا الآن، لا أثر للذعر أو التهديد للرجل الآخر في الغواصة المحكوم عليها بالهلاك.

"نعم. أستمتع بالجولة يا أخي ".كان صوت **زاك** ضعيفًا بشكل لا يصدق. أدرك **كورت** أنه من المحتمل أن يموت قريبًا، بغض النظر عما حدث لـ**كورت** .ومع ذلك، عرف **جنتري زاك** جيدًا. لم يكن هادئًا كما تظاهر.

زاك هايتاور لم يكن يريد أن يموت أيضًا.

"لا أستطيع تشغيل هذا الشيء ".سحب **جنتري** مسدس Glock-19 ورفعه في الضوء الأحمر ليراه راكبه الخلفي" .**لكنك تستطيع تشغيل هذا الشيء".**

"حقًا؟ تهددني بإطلاق النار علي؟ هذا كل ما لديك يا صاح؟ مثير للشفقة حقًا".

تجاهله **كورت** .قال" :**لقد تدربت بدون أكسجين على أعماق مئة وثلاثين قدمًا. إذا فجرت هذا الفتحة في الدقيقة التالية، وأغرقت الغواصة، ووصلت إلى السطح، أعتقد أنني أستطيع العثور على بعض الحطام العائم من اليخت لأتمسك به. بقليل من الحظ، يجب أن أعود إلى الشاطئ بحلول الغسق".**

"ثم ماذا؟"

"أخرج من السودان".

"صحيح. هذا سيحدث".

توقف **كورت** .ثم قال" :**أنا الرجل الرمادي اللعين، أتذكر؟ سأفعلها".**

هدوء تام في المقعد الخلفي الآن.

"لكن هذه رحلة لا أستطيع أن آخذك معي فيها. أنت تفهم، أليس كذلك يا أخي؟ "قلد "سييرا واحد."

مرة أخرى، لم يرد **زاك** .اعتبر **كورت** ذلك علامة جيدة. لم يكن **هايتاور** يفقد الكلمات أبدًا.

"إذًا سأعيش، وستموت. مما يعني أنك أخطأت. لو ساعدتني في الغواصة، لكنا نجونا معًا، مما يعني أنك كنت ستعيش لتقتلني في يوم آخر. نجاح نهائي للمهمة عبر تأخير

مؤقت لحلها. حتى ديني كارمايكل سيوافق على أن هذه استراتيجية صالحة لجندي جيد مثلك. أنت فقط لست ذكيًا بما يكفي لتعرف صفقة جيدة عندما تراها".

لا يزال لا شيء من الخلف.

"أنا متأكد من وجود طريقة أفضل لفتح هذه الفتحة، لكن التحكم الوحيد الذي أعرف كيفية تشغيله في هذا الحوض اللعين هو زناد هذا المسدس. أتمنى لو أستطيع ترك مسدس الجلوك خلفي لتطلق النار على نفسك قبل أن تغرق، لكنه قد يكون مفيدًا على الشاطئ".

ظل **زاك** صامتًا. أمل **كورت** أنه يفكر ولم يغفو للتو.

كان رأس **جنتري** يؤلمه بشدة. شعر بأن جيوبه الأنفية ستنفجر في أي ثانية من الضغط والقيء الحمضي في أنفه.

"تجاوزنا مئة وعشرة أقدام ".بدأ **كورت** يملأ رئتيه بالهواء. تنفس عميق سريع لزيادة سعة الرئة. بين الأنفاس قال" :**كان من دواعي سروري الخدمة تحت قيادتك معظم الوقت يا زاك. سأرسل رسالة إلى لانغلي وأخبرهم أنك غرقت مع السفينة** ".بضع أنفاس عميقة أخرى.

دفع **كورت** فوهة المسدس إلى مظلة البليكسيغلاس، وانحنى بعيدًا عنها.

سعل **زاك** بضعف.

تبًا، فكر **كورت** .إنه لن يصدق الأمر.

"وداعًا"، قال **جنتري**، مماطلًا للحظة أخرى، ثم حرك إصبعه إلى الزناد وامتص نفسًا عميقًا وكاملاً من هواء المقصورة.

ها نحن ذا.

"أسفل ركبتك اليمنى. قرص مكتوب عليه .BAL أدره إلى اليسار بالكامل لتحييد الصابورة. بجانبه زر مربع مكتوب عليه .PROCON هذا هو التحكم في الدفع. اضغطه الآن ".كان صوت **زاك** ضعيفًا، لكن الكلمات خرجت بسرعة بالتأكيد.

خفض **جنتري** المسدس، ووجد القرص وأداره، ثم وجد الزر وضغطه. على الفور ملأ صوت معدني عالٍ رأسه المؤلم. ظهر عرض كمبيوتر ثنائي الأبعاد للغواصة على شاشة العرض العلوية. بدأ كصورة على شكل سيجار، ولكن عندما توقف الضجيج المعدني، كان للصورة أجنحة وزعانف ذيل وبدت كطائرة مقاتلة ذات محرك واحد.

"أعطها بعض الدفع. لمسة فقط".

أمال **كورت** دواسة الوقود، وشعر بهدير محرك طفيف وشعر بحركة أمامية لطيفة. ارتفعت قراءة شاشة العرض العلوية التي كانت صفرًا ببطء من 5 بالمائة إلى 10 بالمائة إلى 20 بالمائة وهو يدفع دواسة الوقود أكثر قليلاً.

"الآن، استخدم عصا التحكم لتسويتها. إنها تتحكم بالأسلاك. الارتفاع، الانحراف، الدوران، كلها يتم التحكم فيها بواسطة عصا التحكم. نوعًا ما مثل طائرة ".سعل **زاك". لقد حطمت طائرة مرة، أليس كذلك؟"**

"هبوط اضطراري"، أوضح **كورت** .كان قد انتقل من استسلام شبه ما بعد الذعر لموته الوشيك إلى نشوة شبه مبتهجة باحتمالاته العالية للبقاء على قيد الحياة، كل ذلك في الثلاثين ثانية الأخيرة.

"كان ذلك في كييف، أليس كذلك؟"

"تنزانيا يا زاك. كنت هناك".

"ولكن مرة أخرى، في كييف؟ لقد تحطمت هناك أيضًا، أليس كذلك؟"

"لا تعليق".

بسرعة، كان قد سيطر على الهبوط، ثم استقرت الآلة. بضع ثوانٍ أخرى، وكان لديه مؤشر البوصلة يشير شرقًا.

"المصابيح الأمامية"، أمر **زاك** من الخلف.

"أين؟"

"هل سبق لك أن كنت في سيارة أيها الغبي؟ ستجده في نفس المكان".

مد **كورت** يده إلى اليسار أمامه، ونعم، تحسس مفتاح الإضاءة تمامًا كما هو في معظم المركبات ذات العجلات التي قادها.

شغله.

وصرخ في صدمة" .**يا إلهي"!**

تحركت الغواصة بسرعة على طول قاع المحيط الرملي، الذي لم يكن أكثر من عشرة أقدام أدناه.

بدأ **كورت** يتنفس بسرعة قليلاً. سحب عصا التحكم إلى الخلف ودفع دواسة الوقود إلى 40 بالمائة.

"حسنًا. الآن، قرص بأربعة مواضع على يسارك، حوالي الساعة الحادية عشرة".

مع الأضواء الحمراء الخافتة كان من الصعب العثور عليه، لكن **كورت** أمسك به بأصابعه.

"أدره بالكامل. أجهزة تنقية الأكسجين. نحن نتنفس ثاني أكسيد الكربون لبعضنا البعض في الوقت الحالي. هذا سينظف الهواء".

"مفهوم".

بعد أن أرشد صوت **زاك** المتعب **كورت** من خلال تشغيل نظام O2 وتنشيط مستشعرات تجنب الاصطدام بالليزر في الغواصة، قاد **كورت** الغواصة شرقًا لدقيقة أخرى، ليتعود على المركبة. بمجرد أن وثق بأنه أتقن الأمر، نادى على **هايتاور** مرة أخرى، **"كيف أبلي؟"**

"أنت فاشل. لا تستطيع قيادة السيارات اللعينة؛ لا تستطيع قيادة الطائرات اللعينة. من المحتمل أن تقود هذا الشيء إلى مؤخرة حوت في دقيقة".

استطاع **كورت** سماع الارتياح المخبأ في توبيخات الرجل المصاب.

بعد ساعتين، شعر **كورت** باليقين من أنهم في المياه الدولية. كان يسمع أنينًا ناعمًا وأزيزًا عرضيًا من الرجل خلفه. هذى **زاك** بشكل غير مفهوم في مرحلة ما. عرف **جنتري** أن **هايتاور** لا يزال يمكن أن يموت من جرحه أو من عدوى، حتى لو وصل إلى رعاية طبية من الدرجة الأولى في الساعات القليلة القادمة. سيتعين على السير **دونالد** أن يبذل جهداً كبيرًا لإنقاذهما.

لم تغب المفارقة عن **الرجل الرمادي** .كان قد أنقذ السير **دونالد** قبل بضعة أشهر، وأخبر نفسه أنه لن يثق به مرة أخرى أبدًا، والآن كان الفارس البدين أمل **كورت** الأخير.

طفَت الغواصة أخيرًا في الثامنة والربع صباحًا. كانت الشمس قد ارتفعت جيدًا الآن، مباشرة قبالة مقدمة المركبة الصغيرة. استخدمها **جنتري** لتوجيه نفسه حيث كان من الصعب قراءة شاشة العرض العلوية مع ضوء النهار الساطع الذي يخترق قمرة القيادة. قام **كورت** بتنشيط منارة FM وانتظر.

تمايلا صعودًا وهبوطًا في عرض البحر.

بعد العاشرة بقليل رأى السفينة. كانت ناقلة ضخمة، وبينما كانت تلوح في الأفق فوق الغواصة، تلوح في الأفق فوق رأس **جنتري** عند خط الماء، بدت عالية مثل ناطحة سحاب ومهيبة بهيكلها الأسود النفاث. استغرقت السفينة ما يقرب من نصف ساعة من أول رؤية حتى تم إنزال سلم إلى الغواصة وفتح **كورت** مظلته. نادى طلبًا للمساعدة، ونزل رجلان على سلم منفصلين، وأمّنا **هايتاور** في حزام، ورفعاه ثلاثة طوابق إلى السياج.

تسلق **كورت** السلم بقوته الخاصة، على الرغم من أن كتفه كان يحترق من الإجهاد، وتقيأ في الحرارة بينما كانت السفينة الضخمة ترتفع وتنخفض وهو معلق على جانبها. كاد أن يصل إلى القمة عندما مر بالأحرف الكبيرة على قوس الجانب الأيسر. كان عليه أن يميل إلى الوراء ليقرأ اسم المركبة التي أنقذته.

"مجموعة لوران شيربورغ".

"مثالي"، قال. كان لدى **كورت** تعاملات مع **مجموعة لوران**، الشركة متعددة الجنسيات الضخمة التي حاولت قتله في العام السابق. لم يعتقد أبدًا أنه سيتسلق طوعًا على متن إحدى سفنهم، ولكن مرة أخرى، الأوقات العصيبة تتطلب إجراءات يائسة.

واصل **كورت** صعود السلم إلى السياج وتم سحبه فوق الجانب من قبل طاقم من الإندونيسيين.

تم وضع **زاك** على نقالة وتم نقله بسرعة. سقط **كورت** نفسه على السطح، ورفعه من ذراعيه وساقيه، ثم جره أكثر من حمله إلى رواق بارد في البنية الفوقية للسفينة. في غضون دقائق طلب المورفين، وظهرت حقنة، وبعد ذلك بوقت قصير، فقد وعيه.

عندما استيقظ، كان قد تم نقله بالفعل إلى قارب آخر، وهي سفينة شراعية طويلة يملكها قطب إعلامي ويلزي، وكما اتضح، صديق صديق للسير **دونالد** .سأل **كورت** عن حالة الرجل الذي تم إحضاره على متن الناقلة معه، لكن طاقم سفينته الجديدة لم يكن لديهم أي معلومات.

بعد أربعة أيام، وصلوا إلى ميناء **الإسكندرية**، وتسلل **كورت جنتري** إلى الشاطئ واختفى. لم يره طاقم السفينة الشراعية يغادر أبداً.

لقد استيقظوا صباحًا ووجدوه قد رحل.

خاتمة

من بين جميع الدول الثمانين حول العالم التي باعت إليها **روسوبورون إكسبورت** أسلحة، استمتع كبير طياري Il-76 **جينادي أورلوف** أكثر بتوقفاته في **فنزويلا** .لم يكن ذلك بسبب الحياة الليلية في **كاراكاس**، التي تضررت من الديماغوجية الشيوعية التقشفية التي تقدم بها الرئيس **هوغو تشافيز** في السنوات القليلة الماضية. ولم يكن ذلك بسبب جمال البلاد الطبيعي الوعر، حيث نادرًا ما كان لدى **جينادي** أكثر من يوم واحد حتى رحلته العائدة إلى **روسيا** وبالتالي وقت غير كافٍ لمغادرة **كاراكاس** نفسها، الغابة الحضرية الضبابية التي يبلغ عدد سكانها خمسة ملايين.

لا، استمتع **جينادي** بفنزويلا بسبب امرأة. امرأة واحدة، وهو ما لم يكن القاعدة بالنسبة لرجل مبتهج مثل **جينادي أورلوف**. في رحلاته إلى **بوليفيا**، على النقيض من ذلك، كانت هناك ثلاث نساء أُجبر على الاختيار من بينهن. في **كوبا**، كان هناك سبع، على الرغم من أن اثنتين أصبحتا كبيرتين في السن قليلاً لذوق **أورلوف**. في **فيتنام**، كان هناك ما يقرب من عشر سيدات استمتع بصحبتهن لليلة واحدة، على الرغم من أن نصفهن قبلن الدونغ أو بطاقات الائتمان مقابل الخدمة، ولم تكن أي منهن قادرة على منع عينيه المتجولتين أو أجزاء جسده الأخرى من الشرود لو كان لديه أي توقفات لمدة ثمانية وأربعين ساعة في **مدينة هو تشي منه**.

لكن ملكة جمال **فنزويلا** كانت مختلفة. كانت المرأة الوحيدة في البلاد التي كان يراها. لقد التقى بها على الإنترنت، وهو أمر معتاد للزوج والأب الروسي البالغ من العمر أربعة وأربعين عامًا. على مدى الثمانية عشر شهرًا الماضية، قام برحلة واحدة على الأقل شهريًا إلى **كاراكاس**، لنقل صواريخ أو قطع غيار سفن حربية أو على ما يبدو كل عنصر رئيسي من

كتالوج الجيش الروسي باستثناء بندقية الكلاشينكوف، حيث رخصت الحكومة الروسية مصنعًا في **ماراكاي**، **فنزويلا**، لإنتاج AK-103s محليًا. وتقريبًا في كل مرة كان يأتي فيها إلى **كاراكاس**، كانت **تانيا ديل سيد** البالغة من العمر تسعة وعشرين عامًا تنتظره في جناح صغير في **غران ميليا كاراكاس**، الذي يمكن القول إنه أفخم فندق خمس نجوم في كل **فنزويلا** . كانت **تانيا** أمينة صندوق في وكالة لكزس، وكان لديها صديقة تعمل كحارسة في **غران ميليا**، وكلتا المرأتين تبادلتا قروضًا ليلية سرية لسلع وخدمات أصحاب عملهما. بينما كانت **تانيا** تستمتع بطيارها الروسي الوسيم في جناح صغير، كانت **ماريا** تتجول في شارع أفينيدا برينسيبال دي لاس مرسيدس في سيارة SC10 مكشوفة "مستعارة" من المعرض.

بعد أسبوعين من رحلته إلى **الفاشر**، ودع **جينادي أورلوف** وطاقمه بعضهم البعض في محطة النقل البري بمطار **سيمون بوليفار**، مع خطط لرؤية بعضهم البعض بعد ظهر اليوم التالي لرحلة العودة. ركض الروس الأربعة الآخرون عبر أمطار غزيرة في وقت متأخر من بعد الظهر للقفز إلى حافلة نقل لتوصيلهم إلى نزل مطار قريب، بينما صعد **جينادي** في سيارة أجرة مع تعليمات بالإسراع به إلى **غران ميليا**.

بعد خمسة وثلاثين دقيقة، كانت أحذية **جينادي أورلوف** المبللة بالمطر تصدر صوتًا في قاعة جميلة في الطابق السابع من الفندق، وحقيبة طيرانه القماشية البالية وحقيبة ليلية من النايلون تتدحرج خلفهما. جعل توتر **جينادي**، العصبي والجنسي على حد سواء، يشعر وكأنه عاد إلى المدرسة. وصل إلى الغرفة 709 ووجد الباب مفتوحًا قليلاً. فضوليًا ولكن غير قلق، **دفع** الباب مفتوحًا قليلاً.

كانت بتلات الورد ملقاة في مسار واسع عبر منطقة الجلوس، تختفي في الممر المضاء بالشموع إلى غرفة النوم. كانت موسيقى لاتينية ناعمة، أغنية حزينة لماريا تيريزا تشاسين، تعزف على جهاز الاستريو.

ابتسم **جينادي** .آه، هذا مرة أخرى.

في الداخل، ترك حقائبه عند الباب وهو يغلقه ويقفله. خلع حذائه المبلل ونزع جواربه المبللة، وسرعان ما سحب وردة بيضاء طويلة الساق من باقة على طاولة القهوة، وسار في الممر. توقف عند الباب ليتذوق اللحظة، ورائحة شمع الخزامى من الشموع، وملمس البتلات الرطبة بين أصابع قدميه، وعطر **تانيا**، الذي كان يفوح بلطف في الهواء.

فتح **جينادي** الباب، وعيناه تتبعان البتلات على طول الطريق إلى السرير.

جلست **تانيا** على السرير، بكامل ملابسها. كانت ذراعاها مقيدتين خلف ظهرها عند المرفقين، وقد تم تكميمها بجوارب نسائية، وكانت عيناها واسعتين من الخوف وحمراوين ومنتفختين وتذرفان الدموع.

سمع **جينادي** صوت مطرقة مسدس يتم تجهيزها خلف رأسه.

أسقط الوردة.

كلمات إنجليزية" :**ارفع يديك. امشِ إلى الخلف في الممر. ببطء.**"

فعل **جينادي أورلوف** ما قيل له. تلاقت عيناه المذعورتان بعيني **تانيا** .حاولت أن تقول شيئًا، لكن لم يخرج من فمها سوى سلسلة من النغمات العالية وربع كوب من اللعاب عبر الجوارب النسائية.

بمجرد العودة إلى غرفة المعيشة، تم خفض صوت الموسيقى. انتظر عدة ثوانٍ للحصول على تعليمات، ولكن عندما لم تأتِ، وضع أكبر قدر ممكن من الرجولة في صوته وقال" :**أنا أستدير ببطء.**"

جلس رجل يرتدي بدلة في كرسي جلدي، وظهره إلى الحائط البعيد، ومعطف مطر مطوي بجانبه. كانت كلتا يديه فارغتين الآن؛ كانتا تستريحان على ركبتيه. إلى يسار الرجل، كانت العاصفة الرعدية تعصف في النافذة، والضوء على وجهه يأتي من الخارج، ومن خلال الماء المتدفق أسفل الزجاج، بدا وكأن وجهه يذوب أمام عيني **أورلوف**.

الوجه. عرف **جينادي** ذلك الوجه.

كان القاتل الأمريكي الذي أقله إلى **السودان**، الشخص الذي تسبب له في الكثير من المتاعب. حاول الروسي ألا يظهر توتره" .**ما الجديد؟"**

"لا شيء كثير."

"ماذا تريد؟"

"بدايةً، أريد أن أتحدث الإنجليزية. اجلس."

جلس **جينادي** على الأريكة مقابل الأمريكي. تحرك ببطء وحذر، لكن الرجل الملتحي في الكرسي الجلدي لم يعطِ أي مؤشر على وجود تهديد. بدا أنحف بطريقة ما مما كان عليه في **السودان** .بدا وجهه شاحبًا ونحيلًا، على الرغم من أن وجهه كان محجوبًا إلى حد ما بالإضاءة المنعكسة من المطر.

تحول الطيار الروسي إلى اللغة الإنجليزية" .**حسنًا. ماذا تريد؟"**

"أريد أن أتحدث معك."

"لقد سببت لي الكثير من المشاكل بعد الفاشر."

هز الأمريكي كتفيه" .**على ما يبدو كل شيء على ما يرام الآن. لا تزال تطير بأسلحة لروسوبورون إكسبورت."**

"ولماذا لا أكون؟ لم أفعل شيئًا خاطئًا."

"بخلاف انتهاك العقوبات، تقصد."

استرخى **جينادي** قليلاً. لوح بذراعه وكأنه يبعد ذبابة عن وجهه" .**سياسة. ليس لي علاقة بتلك القرارات. أنا مجرد طيار."**

هز الأمريكي كتفيه" .**كل منا لديه خبرته."**

ابتلع **جينادي**، وأوقف نفسه عن السؤال عن خبرة الأمريكي. كان يعلم أنه قاتل، ولم يرغب في إثارة ذلك.

"هل... فعلت أي شيء لتانيا؟"

"يعتمد ذلك على تعريفك لـ 'أي شيء'. لقد وضعت مسدسًا في وجهها. لقد ربطتها. لقد أخفتها حتى تبولت على نفسها ، في الواقع. نعم، لقد فعلت 'شيئًا' لها ."بدا الرجل بعيداً للحظة. لكن عينيه عادتا إلى **جينادي** في ثانية" .**إنها جاسوسة، بالمناسبة** ."قالها بلا مبالاة.

"ماذا؟"

"نعم. إنها من المخابرات العامة."

حدق **جينادي** مرة أخرى. لم يفهم.

"مكتب المخابرات العامة."

لا يزال لا يفهم ما قيل له.

تنهد الأمريكي، محبطًا" .**جاسوسة فنزويلية. لقد سحبت سلكًا منها** ."أخرج جهاز تنصت صغير بهوائي لا يزيد عرضه عن خيط من معكرونة السباغيتي المبللة أمامه، ثم ألقاه عبر طاولة القهوة إلى **أورلوف**.

أمسكه **جينادي** ونظر إليه. وضعه على الطاولة" .**أنت تكذب**."

"لا... أنا أقتل. أنا لا أكذب."

صدق **أورلوف** .لعدة ثوانٍ نسي تقريبًا الأمريكي الذي أمامه. أراد أن يقف ويعود إلى غرفة النوم ليضرب تلك العاهرة اللاتينية الكاذبة، ويستغل تلك القيود التي تمسك بذراعيها.

لكن الأمريكي؟ ما هي زاويته؟

"أنت تعمل لصالح جريجور سيدورينكو. أخبرني جهاز الأمن الفيدرالي بذلك عندما استجوبوني بشأن اختفائك. هل أنت هنا لحمايتي من المخابرات الفنزويلية؟"

"لا."

"إذًا ماذا؟"

"هل تعرف زوجتك بأمر العلاقة؟"

ضاقت عينا جينادي" .**ليس هذه، لا. لكنها ستتفهم. إنها تعلم أنني رجل تحبه العديد من النساء.**"

"خاصة أولئك اللواتي يُدفع لهن للنوم معك."

تنهد الروسي. هز كتفيه" .**أنا أحب زوجتي.**"

"**هل أبدو وكأنني أهتم بزواجك اللعين؟**"

"**إذًا ما هذا؟**"

"**لا أعرف ما الذي يخطط له الفنزويليون بالمعلومات الاستخباراتية التي حصلوا عليها منك، ولكن عليك أن تسأل نفسك ما إذا كنت قد قلت شيئًا واحدًا في السرير مع تانيا ديل سيد الجميلة لا تريد أن يعرفه جهاز الأمن الفيدرالي. شيء سلبي عن الوطن؟ عن عملك؟ شيء مهم يمكن أن يضرك إذا سمعته أجهزة أمن الدولة الروسية؟**"

هز **جينادي** كتفيه" .**أنا مجرد طيار. وروسي فخور. لم أقل شيئًا يقلقني.**"

"**هل أنت متأكد؟**"

أومأ الروسي ببطء، ربما ليس متأكدًا تمامًا ولكنه غير راغب في الكشف عن أي شيء لهذا الأمريكي.

بدا الأمريكي غير متأثر" .**أحتاجك أن تفعل شيئًا من أجلي. أنا مستعد لدفع الكثير من المال لك.**"

"**ماذا تريدني أن أفعل؟**"

"**شيء تفعله جيدًا بالفعل. تحدث.**"

"**أتحدث عن؟**"

"تحدث عن الطيران إلى دارفور. تحدث عن نقل قاتل من المافيا الروسية للقيام بمهمة لأمن الدولة الروسية. تحدث عن أنواع وكميات الأسلحة التي أدخلتها إلى البلاد، أسلحة لن تظهر على أي فواتير. أظهر جرائم روسيا للغرب، وأظهر للسودانيين أن الروس قتلوا زعيمهم."

"ماذا سيثبت ذلك؟"

"ما يفترضه الكثير من الناس بالفعل. لكنه سيضغط على روسيا، ويجعلهم يُطردون من البلاد. يضر بنفوذهم. قد يمنع حربًا."

"لماذا بحق الجحيم أفعل شيئًا مجنونًا كهذا؟ سيقتلني جهاز الأمن الفيدرالي إذا فعلت."

"ليس إذا لم يتمكنوا من الوصول إليك."

هز **جينادي** رأسه. كانت هذه المناقشة جنونًا، وخارجة تمامًا عن السؤال" .**لدي عائلة. يمكنهم الوصول إليهم. زوجتي وأطفالي الثلاثة"...**

"خمسة أطفال، في الواقع ."قال الأمريكي، وصوته مهدد" **.لا بد أن من الصعب مواكبة ذلك، أليس كذلك؟ ثلاثة مع زوجتك، مارينا، في وسط موسكو، بالإضافة إلى فتاة تبلغ من العمر ست سنوات مع مينا، عاملة مصنع تايلاندية، وصبي يبلغ من العمر اثني عشر عامًا مع إلميرا، مضيفة طيران تونسية."**

"نعم"، قال **جينادي** ببطء، خائفًا الآن من أن الرجل الخطير يعرف الكثير عنه" **.لكن عائلتي في موسكو، حتى لو لم يتمكن جهاز الأمن الفيدرالي من الوصول إلي. إذا تحدثت عن السودان، سيقتلهم سيدورينكو أو جهاز الأمن الفيدرالي."**

"فريق من المحكمة الجنائية الدولية في موسكو الآن. تتصل بزوجتك وتخبرها، وسأتصل بالفريق، وسيتم إخراج عائلتك من روسيا، إلى بر الأمان، في غضون ساعة."

هز **جينادي** رأسه دون تحفظ" .**مستحيل. فقط ارحل الآن يا أمريكي، ولن أبلغ عن هذا. لكن لا"...**

"ستكون عائلتك آمنة إذا قلت نعم لعرضي. وستكون رجلاً ثريًا. ستستقر في الغرب بحياة جديدة. حياة جيدة. ولكن إذا قلت لا "...انحنى الأمريكي إلى الأمام. ابتعد وجهه عن انعكاس مياه المطر لكنه أصبح أسودًا حيث فقد الضوء من الخارج" .**لن تكون لديك حياة على الإطلاق."**

"هل تهدد بقتلي؟"

هز الأمريكي رأسه" .**أتمنى لو كان الأمر بهذه السهولة. لكننا بحاجة إليك. أنت مهم. أنت تعرف أشياء مهمة. نحتاجك لإيقاف الحرب."**

"إذًا، ماذا أنت"...

"تتحدث إلى المحكمة الجنائية الدولية، أو سآخذ منك ما هو أغلى عليك."

ارتخى وجه **جينادي أورلوف** .شعر بضعف في أحشائه هدده بفقدان السيطرة على أمعائه. كان الرجل الذي أمامه قاتلاً بدم بارد، لا قلب له" .**أطفالي؟"**

لم يتم تبادل أي كلمات لمدة نصف دقيقة في غرفة المعيشة. أخيرًا جلس الأمريكي مرة أخرى، وأضاء قليلاً، وقال" :**لكنني لا أرى الأمر يصل إلى ذلك."**

"سأقتلك"!

هز القاتل رأسه ببطء" .**لا، لن تفعل**."

كان غضب **جينادي** مطلقًا. لكن خوفه من الرجل الذي أمامه كان قويًا بنفس القدر. لم يجرؤ على مهاجمته. كان طيارًا، وليس قاتلاً. بدلاً من ذلك، فكر في أطفاله، وفي مأزقه، وانهار ببطء. بكى بهدوء لفترة طويلة على أريكة الغرفة المظلمة. لم يكسر السكون سوى بكائه والمطر في الخارج. جلس القاتل الأمريكي بهدوء في الكرسي.

بعد عشرين دقيقة، وقف **كورت** في كشك هاتف في شارع **أفينيدا إل ريسيرو**، على بعد مبنى واحد من فندق **غران ميليا** .كان المطر يهطل بغزارة، وكان معطفه مبللاً، مما أدى إلى تكثف البخار على الزجاج داخل المساحة الضيقة. في الخارج، ازدحم المارة بالمظلات على الرصيف، متجهين إلى المقاهي والحفلات الموسيقية والفنادق والحانات. كانوا يتحركون مثل الماء المندفع على طول المزراب أمام **جينتري**.

ركزت عيناه على الماء وتابعت قطع القمامة التي تطفو بجانب كشك الهاتف، وهي تسافر مع التيار. كان يعلم أنه يجب أن يمسح الحشد من حوله بحثًا عن تهديدات ـــ كان في مهمة، بعد كل شيء ـــ لكن المخدرات في مجرى دمه أرسلت دماغه في مهام صغيرة لا فائدة منها. تتبع علبة عصير مسحوقة مرت بسرعة وشاهدها تدور في شبكة معدنية في طوفان. بحث عن قطعة أخرى ليتبعها في طريقها إلى...

"**هذه إيلين والش**."

نسي **كورت** للحظة أنه كان يمسك الهاتف بأذنه. سرعان ما أعاد تركيزه وقال" :**لقد وافق. لقد نقلته إلى غرفتي: 422. لم أرغب في تركه هناك مع الفتاة**."

"**سأقوم باصطحاب عائلته على الفور. سنستجوبه هنا في الفندق الليلة**."

"**أنت هنا؟ في كاراكاس؟**"

"لقد وصلت قبل ساعة."

شاهد **كورت** النهر الصغير من مياه الأمطار يتدفق في الشارع بينما اختار كلماته التالية بعناية" .**هل أنت هنا من أجل جينادي أورلوف، أم أنك هنا من أجلي؟"**

كان هناك توقف طويل" .**أنا هنا من أجل أورلوف. لقد قررت أن أترك أحداث الطريق إلى ديرة، في الطريق إلى ديرة. لن يتم توجيه اتهام لك بما حدث."**

"شكرًا."

"ستة، أنا قلقة عليك. لا أعرف ماذا قلت لأورلوف ليجعله يوافق على تقديم أدلة للمحكمة الجنائية الدولية، لكنني أفترض أنه لم يكن شيئًا أوافق عليه."

"لم يكن شيئًا أوافق عليه. لكن الغايات تبرر الوسائل."

"من أجلك، آمل أن تؤمن بذلك. لقد أخبرتك أنني كنت قلقة من أنك قد تصبح أكثر ما تكره."

"أنا بخير"، قال، لكن نبرته لم تقنع **إيلين** ولا نفسه.

"اسمع. لمَ لا نلتقي الآن؟ في الردهة. يمكن لأورلوف أن يجلس ويغلي بمفرده مع فريقي. سنتناول مشروبًا سريعًا، وسترى أنني لست هنا لأضعك في الأصفاد، وسألقي نظرة عليك، فقط للتأكد من أن تلك الشقوق التي كنت قلقة بشأنها لم تكبر."

ابتسم **كورت** قليلاً. لم يكن سعيداً، لكنها كانت لحظة من الرضا.

"من فضلك؟ "ضغطت.

"عشر دقائق. أحتاج إلى إجراء مكالمة أولاً."

"عظيم. ربما لن تتعرف علي بعد الاستحمام والملابس النظيفة."

ابتسم **كورت** مرة أخرى" **.أبدو كما أنا تقريبًا، أخشى ذلك."**

ضحكت" **.أراك بعد عشر دقائق"**، وأغلقت الخط. عرف **كورت** كيف يقرأ الأصوات. كانت **إيلين** سعيدة ومتحمسة.

مشروب واحد لن يضر بشيء.

وضع المزيد من النقود في الهاتف واتصل برقم مكتوب على قطعة صغيرة من الورق مأخوذة من جيبه. عندما تم الرد على الخط، وضع القصاصة في فمه وابتلعها.

"مرحباً يا دون. لقد تم الأمر."

قال السير **دونالد فيتزروي" :هل صدق قصة أن المرأة كانت عميلة استخبارات؟"**

"لقد فعل."

"كانت تلك فكرة رائعة يا فتى. هل زرعت الخوف من جهاز الأمن الفيدرالي فيه؟"

"لا. لم يرف له جفن. لا شيء يخفيه، على ما أعتقد."

توقف" **.أرى. إذن استخدمت وسائل أخرى لتأمين مساعدته."**

"لقد فعلت."

كان صوت **فيتزروي** قويًا، وأكثر جدية من المعتاد" **.لا تبدو سعيدًا."**

"لا أشعر بالسعادة. أخبرته أنني سألاحق أطفاله."

توقف طويل آخر. شعر **جينتري** وكأن الرجل على الطرف الآخر من الخط كان يحكم عليه. ولكن بعد ذلك، **"لقد ساعدت في منع حرب يا كورت."**

لم يقل **جينتري** شيئًا.

"لا أحد يريد أن يرى كيف تُصنع النقانق، لكن الجميع يحب النقانق. إنها مهنة قذرة، تهديد عائلة المرء. يجب أن أعرف. لكنها فعالة للغاية. وكان لا بد من القيام بها."

"نعم"، قال **كورت**، مرة أخرى بشكل غير مقنع.

أسند جبهته على زجاج كشك الهاتف وشاهد الماء مرة أخرى، يتدفق بشكل أسرع دقيقة بدقيقة مع اشتداد المطر.

أراد فقط أن يغلق الهاتف ويذهب لرؤية **إيلين** .كان يفكر بالفعل في مشروبين الآن. ربما يمكنهما حتى ركوب سيارة أجرة، والابتعاد عن الفندق، والعثور على مكان صغير لتناول العشاء، بعض الحانات المحلية الهادئة بدون عمل لها أو قلق له. كان سيحب ذلك. كان بحاجة إلى ذلك.

"أحتاج إلى إجازة"، قال في الهاتف ولكن لنفسه في الغالب.

"تحتاج إلى أكثر من إجازة يا فتى. استمع بعناية لما سأقوله لك. في جميع أنحاء العالم، إنهم يلاحقونك."

"من؟ "رفع **كورت** رأسه عن الزجاج.

"الجميع. الحكومة الروسية، الحكومة الأمريكية، نازيو سيد سيدورينكو. الأمر ليس كما كان من قبل؛ هذه المرة بدوام كامل. وكالة المخابرات المركزية تنشر مجساتها في جميع أنحاء الأرض. سيعملون مع أي شخص، ويدفعون أي ثمن للعثور عليك. من فضلك خذ بنصيحتي. أينما كنت الآن، مهما كنت تفعل... اهرب. انهض واذهب واستمر في الذهاب. لا تخبرني أين، بحق الله. سيصلون إليّ للوصول إليك. لا تخبر أحدًا. إنهم قريبون، وسيجدونك إذا لم تهرب على الفور."

"وماذا عن المحكمة الجنائية الدولية؟"

"المحكمة الجنائية الدولية؟ لم أر أي شيء عن مطاردة المحكمة الجنائية الدولية لك. كنت سأعرف ذلك جيدًا أيضًا. المنظمات الدولية غربال استخباراتي. لا، قد تكون تلك المنظمة بالذات هي المجموعة الوحيدة التي لا تلاحقك في الوقت الحالي."

نظر **كورت** إلى أضواء فندق **غران ميليا** في الشارع من خلال المطر على زجاج البليكسيجلاس. قال" :**أنا أفهم."**

واصل **فيتزروي** الحديث، بسرعة وعصبية. بدا وكأنه هو الفريسة بدلاً من **جينتري" .وانسَ كل مخبأ لديك؛ لا تصل إلى حساباتك المصرفية؛ تجاهل كل الأموال التي كسبتها والتي ليست في جيبك الآن. إنهم يضغطون على السويسريين، يائسين للحصول على معلومات عن أموالك. سيتردد السويسريون لبعض الوقت، لأن هذا ما يفعلونه، لكن السويسريين سينهارون قريبًا بما فيه الكفاية، لأن هذا أيضًا ما يفعلونه. افعل ما يجب عليك فعله من أجل المال، ولكن ابق بعيدًا عن الشبكة. اهرب، استمر في الذهاب. جنون الارتياب المطلق هو فرصتك الوحيدة للبقاء على قيد الحياة."**

"نعم ."تحرك رأس "الرجل الرمادي" على محور الآن، صعودًا وهبوطًا في الشارع. بدا أن المخدرات في دماغه تتبخر مع تدفق الأدرينالين.

"ستة أشهر، تسعة أشهر، كلما اضطررت لذلك، لا تتصل بي، ولكن اتصل بشخص يعرفني، ابحث عن طريقة للتواصل، وسأعود إليك. إذا كنت تريد عملاً، سأعطيك عملاً. إذا كنت بحاجة إلى مال فقط، سأجد طريقة لإيصال شيء إليك للمساعدة."

"شكرًا يا دون."

"لم أفعل شيئًا يا كورت. ديني لك لم يُسدد بهذا. اهرب الآن، اذهب، ولا تنظر إلى الوراء."

"أنا جاد، أنا أقدر حقًا"...

"اهرب يا فتى! أغلق الهاتف واذهب"!

"لقد ذهبت"، قال **كورت**، وأغلق الهاتف. خرج من الكشك ونظر إلى الأضواء الساطعة للفندق للحظة، ولكن للحظة فقط، ثم أشاح بنظره.

نحو الظلام.

ذاب في حركة المشاة واختفى في تدفق حشد المساء، مثل مياه الأمطار الدافئة في البالوعة.

ـ تمت ـ

ON TARGET

الهدف

ما القتل إلا وظيفة كورت جنتري، لكنه يتحول لمسألة شخصية في الجزء الثاني من رواية الرجل الرمادي لصاحبها مؤلف النيويورك تايمز الأكثر مبيعًا مارك غريني.

قبل أربع سنوات تعرَّض كورت جنتري للخيانة من قبل رؤسائه في جهاز السي آي إيه وكي ينجو بحياته لم تكن أمامه سوى التضحية ببعض زملائه. الآن باعتباره قاتلًا محترفًا معروفًا باسم الرجل الرمادي فهو يكسب عيشه من تصفية آخرين، لكن حين يظهر فجأة زميل قديمٌ له ظنَّه ميتًا يطارده ويريد تجنيده لصالحه، فتنقلب حياته الدموية بشكل تراجيدي بائس.

ما يريده الزميل القديم من الرجل الرمادي تحويل عملية اغتيال لاختطاف مما يجعلها شبه مستحيلة، لكن المهمة الأصعب هي محاولة إعادة انتمائه لجهاز السي آي ايه بعد انقلابه عليه.
وهكذا بين مافيا الروس التي لا ترحم وتريد خدماته القتالية من جهة، وبين خطط واستراتيجيات أجهزة الأمن الأمريكية من جهة أخرى، يشعر الرجل الرمادي أنه ينازع فصيلين داخله طوال مهمته، وكي يخرج من هذه المعمعة سليمًا أو حيًا عليه أن يُريق الكثير من الدماء.

هذه الرواية هي Bourne الألفية الحالية.
مؤلف النيويورك تايمز الأكثر مبيعًا جيمس رولينز

كتابة مصقولة مثل نصل حادٍّ.
مؤلف النيويورك تايمز الأكثر مبيعًا ديفيد ستون

تصميم الغلاف
إياد إسماعيل

9 789778 202656


المؤلف الأكثر مبيعاً رقم
1 في نيويورك تايمز
مارك
غريني
"أعشق الرجل الرمادي."
—لي تشايلد، المؤلف الأكثر مبيعاً رقم 1 في نيويورك تايمز
انتقام
رواية من سلسلة الرجل الرمادي

الجزء الثالث
إنتقام

انتقام

BALLISTIC

للمزيد من الترجمات

t.me/wadistreambooks

تُرجم هذا الكتاب بدعم من مبادرة ترجم

مبادرة ترجم

Tarjim Initiative

هيئة الأدب والنشر والترجمة

Literature, Publishing & Translation Commission

Translation funded by the Tarjim Initiative

ترجمة / كاميليا

مارک غرینی

MARK GREANEY

انـــتـــقـــــــام

BALLISTIC

للمزيد من الترجمات

t.me/wadistreambooks

تمهيد

جثا صائد البشر في مقدمة الزورق، ومسح ببصره الضفة البعيدة بينما كانت تتكشف تدريجيًا خلف منعطف النهر. تدرّجت خضرة الغابة المطيرة الكثيفة لتتحول ببطء إلى قرية بنية بدائية؛ مستوطنة من التراب المدكوك والأخشاب وصفائح الصدأ المموجة القائمة عند حافة الماء.

سأله بصوت عالٍ موجهًا حديثه للهندي الذي يتولى توجيه المحرك الخارجي:

– "أهذا هو المكان؟"

لم تكن لغته البرتغالية قد تحسنت خلال الأشهر الماضية إلا بحكم الضرورة القصوى.

أجابه السائق:

– "نعم يا سيدي. هذا هو المكان".

أومأ صائد البشر برأسه، ومد يده نحو جهاز اللاسلكي المحشور بين ركبتيه.

لكنه تريّث. كان عليه أن يتأكد أولًا.

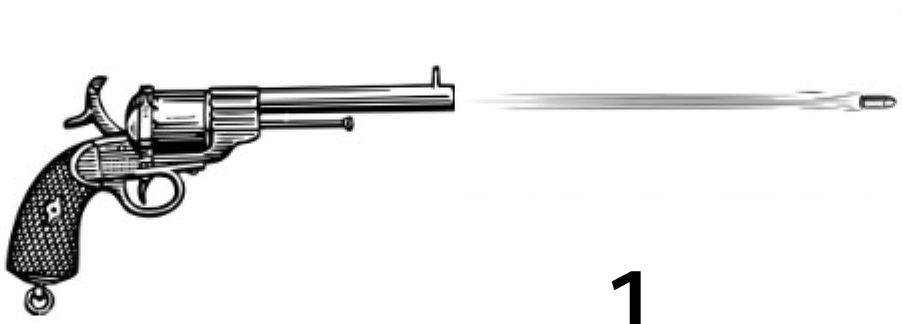
سبعة أشهر. سبعة أشهر مرت منذ أن جاءه الاتصال في أمستردام. تشاور عاجل مع صاحب العمل، رحلة طيران عبر الأطلسي إلى كاراكاس، انطلاق جنوني إلى ليما، ثم الاتجاه جنوبًا.

جنوبًا بلا توقف. حتى وصل هو وطريدته إلى حافة العالم، قبل أن تلتف المطاردة لتعود نحو الشمال.

شمالًا بلا هوادة.

كان يتعقب آثار الهدف، بشكل أو بآخر، طوال هذا الوقت. إنها المطاردة الأطول في مسيرته المهنية الحافلة.

وستنتهي هنا. بطريقة أو بأخرى، ستنتهي مطاردة كورتلاند جينتري هنا والآن.



1

خارج كيتو، كان صائد البشر قد اقترب كثيرًا من غايته. بل إنه استدعى فريق تصفية، لكنهم وصلوا ليجدوا المكان خاليًا. كان تصرفًا أحمق منه، فالبداية الخاطئة قد تطفئ حماسهم في المرة القادمة؛ لن يصرخ محذرًا من ذئب وهمي مجددًا. التقط أثرًا جديدًا للهدف في شمال تشيلي، وتلميحًا لوجوده أبعد قليلًا على طول ساحل المحيط الهادئ، لكن الرائحة ضاعت منه في بونتا أريناس.

ظل الأمر كذلك حتى وصل ريو وجاءته ضربة حظ. طالب دنماركي يدرس الـ "جوجيتسو" رأى ملصق "مطلوب" للإنتربول أثناء وجوده في سفارته لاستخراج بدل فاقد لجواز سفره. كان الطالب قد التقى بشاب أبيض آخر في صالة "دوجو" داخل الأحياء العشوائية "الفاغيلا". لم يكن في الأمر شيء يذكر، لولا أن الدنماركي كان خبيرًا بفنونه القتالية، ولاحظ أن أسلوب الرجل الأبيض في القتال يشي بإتقانه لتخصصات أخرى: نزعات قتالية صلبة ووحشية حاول جاهدًا إخفاءها عمن حوله. تذكر الدنماركي ملصق المطلوبين. لم يكن الشبه واضحًا تمامًا، لكن دافعًا ما ألزمه بإبلاغ السلطات. كان هناك شيء في ذلك الرجل بالصالة قد أثار قلقه. نظرة، حدة ما، ولمحة من الارتياب بدت على ال طالب الأبيض، وكأنه أدرك أن الدنماركي كان يقيمه لسبب ما.

تلقى صائد البشر خبر المشاهدة، ووصل على متن طائرة خاصة بعد ساعات قليلة. لم يحضر المشتبه به إلى الدرس في ذلك اليوم، ولا في اليوم التالي. استعان صائد البشر بتعزيزات محلية للقيام بالعمل الميداني؛ قام عشرات الرجال بتمشيط الأحياء العشوائية مسلحين بالصور والنقود. تعرض الكثير منهم للضرب أو التهديد في الأزقة الخطرة لتلك العشوائيات الخارجة عن القانون، بل إن أحدهم سُرق وسُلبت محفظته وطُعن في ذراعه. لكن المسح الميداني أتى أكله: شخص ما تحدث؛ شخص ما أشار بإصبعه؛ وشخص ما همس بعنوان.

ذهب صائد البشر ليلقي نظرة بنفسه. لم يكن قناصًا محترفًا، فهو لم يطلق النار من سلاح منذ أيامه في الجيش الملكي الهولندي حين كان يقاتل الأنغوليين في السبعينيات. لكنه لم يرغب في استنفار مسلحيه لمطاردة سراب آخر، لذا ترك ثمانية رجال مسلحين في أول الشارع وتقدم ومعه اثنان فقط. كان حيًا بائسًا متهالكًا، ومبنى تكسوه القذارة، وممرًا بالطابق الثالث تفوح منه رائحة البول ينتهي بمدخل مظلم. ارتجفت يدا صائد البشر وهو يستخدم مفتاحًا لغرفة مجاورة ويتسلل للداخل، بينما كان مسلحاه خلفه مباشرة.

تحرك جسد بشري كخيال خاطف من السرير العلوي؛ ومض شريط حياة صائد البشر أمام عينيه. ثم رُفعت حقيبة ظهر على كتف ذلك الخيال، وفي لحظة قفز من النافذة هابطًا طابقين كاملين. اندفع صائد البشر خلفه؛ أطلق المسلحان نيرانهما ليمزقا السرير والجدار وإطار النافذة خلف الخيال الهارب. أعاد الرجلان تلقيم سلاحيهما بينما وصل صائد البشر إلى النافذة، ليراقب الهدف يهبط ويتدحرج إلى سطح مجاور، ثم يسبح عبر زقاق ضيق إلى مبنى آخر وكأنه سنجاب طائر، قبل أن يقفز ويتدحرج وصولًا إلى مستوى الأرض،

بينما كانت انفجارات الطلقات ذات العيار الصغير تلاحقه في الشارع بعد أن عاد المسلحان للمشاركة في القتال متأخرين.

اختفى الهدف. والسرير الذي غادره لم يترك أي دليل سوى دفء جسده الذي لا يزال عالقًا ببطانيته المهترئة.

كان ذلك قبل عشرة أسابيع.

يوم الأحد الماضي، جاء اتصال من فونت بوا، على بعد مئات الأميال شمالًا عند نهر الأمازون. كان صائد البشر قد أعد قوائم بالمهن المحتملة التي قد يعمل بها الهدف. كانت هناك المئات، من عامل صفائح معدنية إلى جندي مرتزقة. وفي مكان ما أسفل القائمة، دُوّن مجال "الإنقاذ البحري"، نظرًا لخبرته في الغوص وشجاعته الفطرية. كانت هناك شركة صغيرة على أحد روافد الأمازون النائية قد وظفت رجلًا أجنبيًا أبيض جاء بلا سابق معرفة، وهو حدث غريب بلا شك في أدغال البرازيل. لذا طار صائد البشر إلى فونت بوا وعرض صورة على صاحب القارب الذي يوصل البضائع الجافة صعودًا بالنهر إلى المستوطنات.

والآن، ها هو صائد البشر هنا.

تحسس الراديو بين ركبتيه. مكالمة واحدة وستهبط طائرتان مروحيتان ضخمتان مكدستان بالمسلحين للانتشار؛ لقد خططوا لهجومهم مستعينين بصور الأقمار الصناعية ولوح تخطيط في غرفة الفندق الخاصة بالمراقب في فونت بوا. مكالمة واحدة ستحيل هذه الغابة العذراء إلى جحيم، وتنهي حياة الهدف الذي ظل صائد البشر الهولندي يلاحقه طوال هذه الأشهر السبعة الطويلة.

ولكن، يجب أن يتأكد أولًا.

قفز قرد عوّاء من شجرة ليطش الماء، ثم هرع عائدًا إلى الضفة واختفى وسط النباتات الكثيفة.

بعد ثوانٍ، تباطأ الزورق واصطدم بالإطارات المطاطية المربوطة بجانب الرصيف. همّ مالك الزورق بإيقاف المحرك الخارجي.

قال صائد البشر:

– "لا، اتركه يعمل. لن أتأخر لحظة".

رد المحلي، الذي بدا كنوع من الهمج الهنود:

– "هذا يهدر الوقود يا سيدي. يمكنني تشغيله مجددًا في خمس ثوانٍ".

قال الرجل الأبيض بحزم:

– "قلتُ اتركه يعمل".

صعد إلى الشاطئ، وبدأ بصعود التلة الترابية باتجاه رجل يتسكع بجوار كوخ مقام على ركائز ضيقة. سيحصل الهولندي على تأكيد بأن هذا هو المكان، وبعدها لن ينتظر لمشاهدة الألعاب النارية. كان يحمل مسدس "ويبلي" قديم الطراز في جراب تحت كتفه، لكنه كان مجرد استعراض للقوة هنا بين همج الغابة. القتل لم يكن وظيفته.

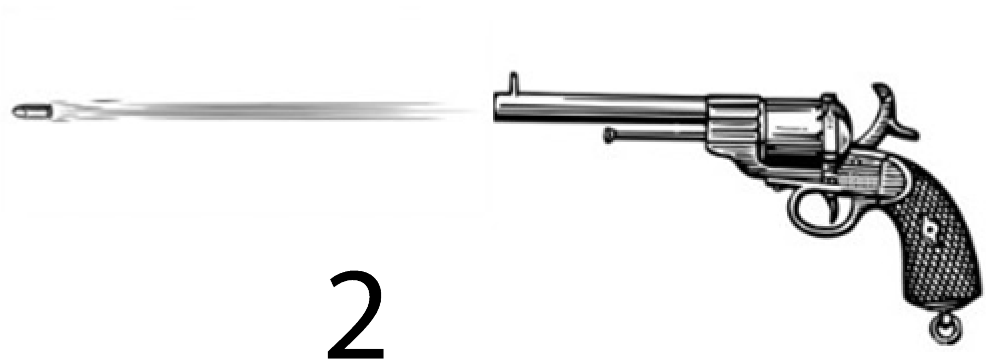
سيستخدم الراديو، وبهذا تكون مهمته قد انتهت. سيعود أدراجه عبر النهر إلى فونت بوا لينتظر في الفندق.

كان ماورو يجلس في الظل، ينتظر عودة والده بصيد الصباح. في العاشرة من عمره، اعتاد ماورو الخروج مع والده لجمع الشباك، لكنه بقي اليوم ليساعد عمه في بعض الأعمال، وكان قد وصل لتوّه إلى الرصيف حين ظهر الزورق الذي يقل الرجل الأبيض. راقب العجوز وهو يشق طريقه صعودًا نحو التلة، ويتوقف أمام السكير، وينخرط معه في حديث. أخرج الرجل الأبيض ورقة بيضاء من جيب صدره وعرضها على السكير، ثم ناوله بعض النقود.

نهض ماورو ببطء. تردد.

أومأ الرجل الأبيض برأسه، وعاد متجهًا نحو الزورق، ورفع جهاز اللاسلكي إلى فمه.

سار ماورو الصغير باتجاه ممر ضيق يؤدي بعيدًا عن الأرصفة، بعيدًا عن قريته. وبمجرد أن أصبح داخل الحماية المظلمة لمظلة الغابة، انطلق الصبي يعدو بأقصى سرعة مكنته منها قدماه الحافيتان المتصلبتان.



2

شد كورت جينتري كابل الإمداد ليحصل على قليل من الارتخاء، ثم استدار عائدًا نحو الحطام الماثل أمامه. مد يده المغطاة بالقفاز ليتحسس طريقه نحو هيكل غرفة القيادة الحديدي الضخم الخاص بالزورق البخاري الغارق. لم تكن الرؤية في النهر العكِر تتجاوز اثنتي عشرة بوصة في هذا الوقت من الظهيرة، وعلى عمق ثلاثين قدمًا تحت السطح البني الداكن للمياه الدافئة. وحين وجد موضعه، عدّل زاوية المصباح المثبت على خوذته، ورفع مشعل اللحام مجددًا، ثم ضيّق نطاق اللهب ليصبح مجرد شوكة متوهجة. شرع ببطء في تسليط النار البيضاء الحارقة على الحديد ليبدأ قطعًا جديدًا.

فجأة، سحبته سلسلة من ثلاث جذبَات قوية عبر الحبل بعيدًا عن هدفه.

قال بصوت مسموع تردد صداه داخل خوذته النحاسية:

– "سحقًا".

كان جهاز اللاسلكي في خوذة الغطس معطلًا، لذا اعتمد الفريق على الجذب بالحبل للتواصل. ثلاث جذبَات قصيرة وقوية تعني "اصعد إلى السطح فورًا"؛ وهو ما يعني أنه سيحتاج، في أقل تقدير، إلى عشر دقائق أخرى للعودة إلى الأسفل عبر الطحالب والطبقة الزيتية للعثور على موضعه مرة أخرى.

لكنه لم ينتظر. "اصعد إلى السطح فورًا" لم تكن رسالة تحتمل التجاهل. قد يكون الأمر تافهًا، لكنه قد يعني أيضًا خللًا في المعدات، وهو أمر خطير، أو ربما رُصدت ثعابين أو تماسيح أو سرب من أسماك البيرانا بالقرب من موقع الغطس، وهو أمر قد يكون مميتًا بلا جدال.

شق سطح الماء بعد أربع دقائق؛ كانت معداته وأثقاله تجعل من المستحيل عليه الطفو، لذا سحب نفسه عبر الحبل نحو الشاطئ. وحين غمر الماء خصره، مسح المادة اللزجة الخضراء عن اللوح الأمامي الشفاف لخوذته، لكنه لم يتمكن من رؤية طريقه بوضوح عبر القصب الكثيف والحشائش الطويلة على ضفة النهر إلا عندما فك المزالج ورفع غطاء الرأس الثقيل.

كان زميلاه، تياغو ودافي، يقفان فوقه؛ كلاهما غواص إنقاذ متمرس، لكن لم يكن أي منهما مجهزًا للنزول اليوم. ضاغط هواء واحد فقط كان يعمل، لذا تقاسموا الوقت بينهم: رجل في القاع، واثنان لمراقبة التماسيح، أو الأناكوندا، أو البيرانا.

صاح بهما كورت:

- "ما الأمر؟"

لم تكن لغته البرتغالية بجودة إسبانيته، لكنها كانت تؤدي الغرض. أشار أحدهما بإبهامه نحو الجانب الآخر من بحيرة صغيرة تفرعت من النهر كورم خبيث، ورأى كورت الفتى الصغير ماورو يقف هناك على الممر المؤدي إلى الرصيف. كان الصبي يرتدي قميصًا رياضيًا لفريق "برشلونة" يحمل اللونين الأحمر والأسود، ومزينًا باسم لاعب بلغاري لم تطأ قدماه ملعب ذلك النادي منذ منتصف التسعينيات، وكان حافي القدمين. لم يسبق لكورت أن رأى ذلك الطفل الأسمر يرتدي حذاءً قط.

فوجئ جينتري بأنه استُدعي إلى السطح للحديث مع الصبي، ومع ذلك لوّح له وابتسم. لكن ابتسامته تلاشت في لحظة. كانت عينا الطفل متسعتين، وجسده متوترًا.

ثمة خطب ما.

خاض كورت بصعوبة على طول الضفة المستنقعية التي تحيط بالبحيرة، بينما كانت الأوحال تمتص قدميه. صعد إلى حيث يقف الصبي البرازيلي، واقتاده عبر الممر لبضعة أمتار قبل أن يسأله:

– "ما الجديد؟"

أجاب الصبي:

– "أنت قلت لي أن آتي إليك إذا رأيت رجلًا أبيض".

تصلب جسد كورت هو الآخر، وقال:

– "أجل، لقد فعلت".

– "رجل عجوز. وحيد. عند الرصيف".

– "هل تحدث إلى أحد؟"

– "نعم، سأل أمادو سؤالًا. وأراه ورقة. وأعطاه بعض المال. ثم تحدث الرجل الأبيض في جهاز اللاسلكي الخاص به".

سأل جينتري:

– "جهاز اللاسلكي؟"

انصرفت عينا جينتري عن الطفل لتحدقا في الممر المؤدي للرصيف، على بعد كيلومتر واحد عبر الغابة المطيرة الكثيفة. وبدأت يداه بالفعل في خلع بدلة الغطس المهترئة، مجردًا نفسه إلا من ملابسه الداخلية.

ناداه تياغو من الخلف، ربما ليخبره أن وقت الغداء لم يحن بعد، لكنه تجاهله.

سأل الصبي:

– "أين هو الآن؟"

– "رحل. عاد إلى الزورق واتجه صعودًا في النهر".

أومأ كورت برأسه، وتمتم لنفسه بالإنجليزية:

– "صائد البشر".

سأل الطفل:

– "ماذا؟"

– "أحسنت. لقد أبليت حسنًا يا ماورو. شكرًا لك".

– "على الرحب يا جيم".

بعد ثوانٍ، كان كورت جاثيًا على ركبتيه بجانب معداته على الجانب الآخر من البحيرة. تبعه الصبي إلى الضفة ووقف يرقبه وهو يفتح حقيبته القماشية الكبيرة. أخرج منها بندقية صيد سوداء قصيرة الماسورة (Sawed-off) ذات مقبض خشبي مسدسي الشكل. انتزع محفظته من الحقيبة؛ كانت منتفخة بعملات "الريال" البرازيلي، ومدّ بها نحو الصبي قائلًا:

– "هذا لك. خذ بعضًا منه، وأعط الباقي لوالدتك".

أخذها ماورو وعيناه متسعتان بالدهشة والارتباك، وسأل:

– "هل سترحل؟"

تحركت يدا جينتري بسرعة وهو يرتدي بنطالًا بنيًا متسخًا وقميصًا قذِرًا بلون الكريمة وبأكمام طويلة، وأجاب:

– "أجل يا فتى. حان وقت رحيلي".

– "ماذا عن كلبك؟"

بدأ كورت يربط حذاء تنس قديمًا فوق قدميه المبللتين، وقال:

– "لم يكن كلبي، كان فقط يتسكع حول مخيمي. إنه كلب طيب. اعتنِ به، وسيعتني هو بك، اتفقنا؟"

أومأ ماورو برأسه، لكنه في الحقيقة لم يكن يفهم شيئًا مما يحدث. لم يرَ في حياته شخصًا يتحرك بهذه السرعة. الناس في قريته لا

يرحلون فجأة، ولا يتخذون قرارات في لحظة. لا يسلمون محافظهم للأطفال، ولا يغيرون حياتهم لمجرد ظهور رجل عجوز أحمق في زورق.

كان عمه محقًا. "الغرينغوس[1]" مجانين.

سأل الأمريكي الغريب:

– "إلى أين ستذهب؟"

– "لا أعرف. سأدبر..."

توقف كورت في منتصف الجملة. وأمال رأسه إلى الجانب وهو يرفع حقيبة ظهر صغيرة محشوة من الحقيبة الكبيرة ويثبتها على ظهره.

سمع ماورو الصوت أيضًا، فقال:

– "طائرة مروحية".

هز كورت رأسه، والتقط البندقية ووقف، ثم ثبتها بإحكام بشريط لاصق على الجانب الأيمن لحقيبة ظهره، بحيث يكون المقبض لأسفل وفي متناول يده. كان هناك منجل مثبت بطريقة مماثلة على اليسار.

قال:

– "لا. طائرتان. اركض إلى منزلك يا فتى. أدخل إخوتك وأخواتك، وابقوا هناك. سيصبح الأمر صاخبًا وجحيميًا هنا".

ثم فاجأ "الغرينغو" الفتى ماورو لآخر مرة. ابتسم. ابتسم ابتسامة عريضة ومسح على شعر الصبي الأسود الأكرت، ولوّح لزميليه دون أن ينبس بكلمة، ثم انطلق يعدو نحو الغابة.

اندفعت مروحيتان على ارتفاع منخفض خارجتين من قرص الشمس وفوق رؤوس الأشجار، يضرب هدير مراوحهما النباتات

[1] الغرينغو *Gringo*: مصطلح يستخدم في أمريكا اللاتينية للإشارة إلى الأجنبي، وغالباً ما يقصد به مواطنو الولايات المتحدة الأمريكية.

تحتهما وهما تتسابقان في تشكيل ثنائي. كانتا من طراز Bell 212، وهي نسخة مدنية من طائرة "تويين هيوي"، تلك الطائرة العتيقة والقديرة التي كانت حاضرة في كل مكان مع القوات الأمريكية في حرب فيتنام.

في تاريخ الطيران المأهول، لم توجد آلة تألف التحليق فوق مظلات الغابات أكثر من الـ "هيوي".

كانت المروحيتان مملوكتين للشرطة الكولومبية، لكنهما أُعيرتا مع طاقميهما إلى قوات الدفاع الذاتي المتحدة في كولومبيا (AUC)، وهي قوة دفاع شبه يمينية، وشبه منحلة، قاتلت من وقت لآخر ضد القوات المسلحة الثورية الكولومبية (FARC)، وجيش التحرير الوطني (ELN)، وهي الجماعات المتمردة اليسارية في كولومبيا. ظنت الشرطة الكولومبية أن الإعارة كانت لإرسال فريق الكوماندوز المكون من عشرين فردًا إلى منطقة جبلية لقتال الـ FARC، لكن الحقيقة أن الـ AUC كانت تعمل كمرتزقة مستأجرين عبر الحدود في غابات الأمازون.

لن يبلغ الطيارون عن هذا الاختلاس للموارد؛ فقد كانوا يتقاضون أجرًا مجزيًا.

كان كل رجل في الوحدة يرتدي بدلة تمويه خضراء وقبعة أدغال. وكان كل رجل يحتضن بندقية قتال ضخمة من طراز HK G3 بين ذراعيه، ويحمل مخازن ذخيرة إضافية، وقنابل يدوية، وجهاز لاسلكي، ومنجلًا مثبتًا على صدره ومربوطًا بخصره.

جلس قائد الوحدة في المروحية المتقدمة، وصرخ بأعلى صوته ليطغى على ضجيج محرك "برات آند ويتني" موجهًا حديثه للجنود التسعة الجالسين معه:

– "دقيقة واحدة! إذا رأيتموه، أطلقوا النار عليه! وإذا أطلقتم النار، اقتلوه! إنهم لا يحتاجونه حيًا!"

ثم صحح نفسه قائلًا:

– "إنهم لا يريدونه حيًا!"

ردت جوقة من الأصوات طغى زئيرها على صوت المحرك:

– "عُلم أيها القائد!"

أصدر الأمر نفسه عبر جهازه اللاسلكي للرجال في المروحية الثانية.

بعد لحظة افترقت المروحيتان؛ انحرفت طائرة القائد بقوة إلى اليسار، وخفضت مقدمتها نحو نهر صغير متعرج ينساب كالأسفلت باتجاه الجنوب.

انطلق كورت كالرصاصة مخترقًا بقع ضوء الصباح المتراقصة عبر المظلة الشجرية فوقه، واثقًا من خطواته. تابع الركض في ممر الغابة، وأذناه تلاحقان صوت المراوح خلفه. سرعان ما تحول الإيقاع الموحد للمروحيات إلى إيقاعين منفصلين حين تفرقتا. هبطت إحداهما خلفه، على الأرجح في الفسحة المستنقعية التي تبعد مائة ياردة عن موقع الغطس.

أدرك جينتري أن الرجال سيغوصون حتى ركبهم في الوحل، وهذا سيكسبه بعض الوقت للابتعاد. أما المروحية الأخرى فتجاوزت موقعه، متجهة لليسار، على ارتفاع أقل من رؤوس الأشجار؛ ومن المؤكد أنها كانت تمسح النهر. ستقوم بإنزال الجنود لقطع الطريق عليه في مناورة حصار.

وداعًا للوقت الإضافي.

زاد كورت من سرعته. اختفت الابتسامة عن وجهه، لكن الأمريكي البالغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا شعر بالثقة والقوة بينما كانت ذراعاه وساقاه تدفعانه للأمام.

الأدرينالين، ذلك الصديق القديم الذي لم يصادفه منذ فترة، تدفق عبر جسده ومد عضلاته وعقله بالطاقة.

كان هنا لتسعة أسابيع، تسعة أسابيع طيبة، لكنه نادرًا ما مكث في مكان واحد طوال هذه المدة في حياته كشخص بالغ. وكما أخبر فتى القرية، لقد حان وقت الرحيل.

هبط فريق القائد بالحبال السريعة على ضفة النهر؛ سقط الأربعة الأوائل على مرافقهم في الوحل ووجهوا بنادقهم الـ HK نحو الغابة لتوفير غطاء للأربعة التالين بينما ينزلقون. تحركت المجموعة الثانية صعودًا نحو الطريق الترابي، وانخفضوا أرضًا لتغطية الاتجاهين. هبط القائد ونائبه أخيرًا، وركضا نحو الطريق، ليتحركا في مقدمة الرتل.

تلقى القائد اتصالًا يفيد بأن الرجال من المروحية الأخرى كانوا يشقون طريقهم بصعوبة عبر مستنقع؛ لعن بصوت عالٍ بالإسبانية وصرخ في رجاله ليسرعوا الخطى.

ركض جينتري عبر مخيمه الصغير. لم يستغرق الأمر طويلًا. كان المخيم مجرد خيمة بها فراش للنوم، وحفرة نار محاطة بالحجارة، وممر مطروق جيدًا يؤدي إلى مرحاض حفر يدويًا، وأرجوحة شبكية مغلفة بناموسية، وبعض المقتنيات المعلقة في شبكة على شجرة. سُرَّ لرؤية الكلب غير موجود؛ كان وقت الغداء قد اقترب بما يكفي ليعرف ذلك الناجي الصغير ذو القوائم الأربع، فيهرع إلى مطعم القرية الوحيد ذي السقف المصنوع من القش بانتظار البقايا، قبل أن يشق طريقه إلى النخيل الظليل حيث يعود الصيادون بصيدهم اليومي. هناك يمكنه أن يستريح قليلًا قبل أن يقاتل كلاب القرية الأخرى للحصول على فرصة لنيل بقايا طعم الأسماك الملقاة من القوارب.

كان كورت يدرك جيدًا أن الجدول اليومي للكلب أكثر تنظيمًا من جدوله هو.

كان يحتفظ بمسدس "براوننج" في حقيبة مغلقة داخل خيمته، لكنه لم يضيع الوقت لاستعادته. بدلًا من ذلك، التقط ولاعة من داخل الباب القماشي لخيمته التي تتسع لرجلين، وعلبة صغيرة من وقود الطهي كانت ملقاة بجوارها. في ثوانٍ، سكب الزيت فوق الخيمة، ومقتنياته المعلقة بالشجرة، وحتى الأرجوحة. أشعل النار في منزله دون لحظة توقف واحدة أو ذرة ندم، وألقى الولاعة على الأرض، ثم اتجه نحو جدول صغير يبعد خمسين قدمًا.

صاح رجل من جهة يسار جينتري. ومن نبرة صوته الحادة المتهللة، أدرك أنه قد رُصِد.

إنهم قريبون.

قفز جينتري في الجدول الذي يغطي الماء فيه كاحليه، وانطلق يعدو نحو الجنوب، وتفجرت خطواته في الماء الجاري.

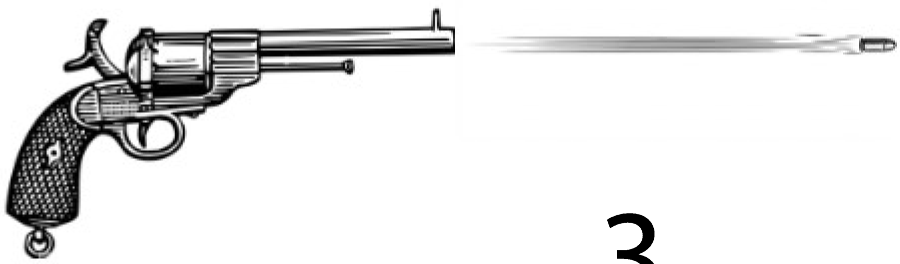
انزلق القائد على ظهره أسفل الضفة وسقط في الجدول البارد. ثبت قدميه في الماء ورفع سلاحه في اللحظة التي انعطف فيها الهدف لليسار، ليخرج عن مجال رؤيته وتصويبه. ركض الرجال متجاوزين قائدهم، وكل منهم مسكون بهوس المطاردة، منتشٍ بفرصة القتل.

خفض القائد بندقيته وركض معهم. كان يعلم أن هناك طريقًا أمامه يؤدي إلى النهر، لكنه كان يعلم أيضًا أن هذا الجدول لا يصب مباشرة في ذلك الطريق. افترض أن هناك ممرًا صغيرًا يتجه إليه الهدف، ممرًا أصغر من أن تكتشفه صور الأقمار الصناعية عبر المظلة الثلاثية للغابة. كل ما يحتاجه القائد ورجاله هو الاقتراب بما يكفي لرؤية المكان الذي سيخرج منه الهدف من مجرى الجدول ليعود إلى الغابة، وحينها ستكون مسألة وقت فقط قبل أن يمسكوا به على الممر. الغابة ستكون أكثف من أن يختبئ فيها، والطريق الترابي أكثر استقامة من أن يتيح لرجل هارب تفادي الرصاص المنطلق من بنادق القتال الثقيلة عيار 7.62 ملم التي يحملها هو ورجاله.

انعطف القائد مع رجاله، وتطاير الزبد الأبيض ليصل لارتفاع صدور الجنود العشرة وهم يركضون معًا. رأى أمامه الرجل ذا البشرة الداكنة والشعر الطويل وحقيبة الظهر، ويداه فارغتان. أطلق أحد رجاله في مقدمة التدافع رصاصة، فمزقت كرومًا متدلية من شجرة فوق رأس الهدف بمسافة كبيرة. في تلك اللحظة، انحنى الرجل لليسار، وخرج راكضًا من الماء ليصعد الضفة الشديدة الانحدار، واختفى في الثقب الأسود لممر مشاة صغير. طاردته رصاصة أخرى من بندقية رجاله نحو الغابة.

صاح الكولومبي:

– "ها هو ذا! أعلى الضفة!"



3

دوت طلقة بندقية، فمزقت الفروع والشجيرات فوق رأس جينتري وهو يركض هابطًا تلاً طفيف الانحدار. كان القتلة يتبعونه كظله؛ فزاد من سرعته أكثر، واشتعلت فخذاه حرقة بينما كان حمض اللاكتيك يتدفق من مجرى دمه ليغمر ألياف عضلاته.

لقد رسم خطوات هذا الهروب بدقة، وأجرى عدة تجارب وهمية، واختار هذا المسار تحديدًا ليعظم من تأثير المخاطر الطبيعية للغابة. مخاطر طبيعية جعلها هو أكثر فتكًا عبر وسائل غير طبيعية خطط لها بعناية.

امتدت يده اليسرى للخلف لتقبض على مقبض المنجل المثبت بجانب حقيبة ظهره. حرره من قيد الشريط اللاصق، وبضربة قوية واحدة شق شجيرة إلى يمينه. خلف الشجيرة، التقط مسارًا أصغر، أكثر ظلمة تحت المظلة الشجرية وتغطيه الجذور والكروم، وهنا ركض كورت على رؤوس أصابعه ورفع ركبتيه عاليًا كي لا تشتبك قدماه بالعوائق في طريقه. لقد رآه مطاردوه وهو يغادر المسار الرئيسي؛ لم يكن لديه شك في ذلك. سيلحقون به في ثوانٍ. ألقى المنجل جانبًا أثناء ركضه؛ كان يعشق ذلك النصل وكان من المرجح أن يحتاج إليه قريبًا، لكن كان عليه أن يصب كل تركيزه على حركة قدميه السريعة والاعتماد على الذاكرة العضلية في أطرافه العلوية لفك البندقية من الجانب الأيمن لحقيبته. سحب المقبض المسدسي وأرجح السلاح

ليصبح أمامه، موجهًا فوهته نحو الأعلى مباشرة وهو يركض، ممسكًا به بكلتا يديه، والماسورة أمام وجهه تمامًا.

انحدر المسار عبر تل آخر، تحيط به أشجار ضخمة ذات جذوع سميكة من كل جانب. فتح عينيه على وسعهما ليمتص كل ذرة ضوء متاحة، وحولهما عن المسار لثانية واحدة باحثًا عن الشجرة المناسبة تمامًا، والغصن المناسب تمامًا، ووجده.

دوت طلقة أخرى خلفه – سمع الفرقعة الأسرع من الصوت وهي تمر بجوار أذنه اليسرى. لم يكن الصيادون يبعدون عنه أكثر من ثلاثين ياردة؛ سيعبرون الأرض التي يطأها الآن بعد سبع أو ثماني ثوانٍ.

مثالي.

واصل جينتري الركض، ومر تحت الشجرة، تحت الغصن الذي بحث عنه في الضوء الخافت، وأطلق النار من بندقيته نحو الأعلى مباشرة أمام وجهه. لقّم طلقة أخرى وأطلق النار مرة ثانية؛ فارتد السلاح بعنف ليضرب مفاصل كتفه.

على ارتفاع خمسين قدمًا فوقه، تلقت خلية نحل أفريقي قاتل، بحجم سبعة أقدام في أربعة، طلقتي الخرطوش المزدوجتين في قاعدتها مباشرة؛ أدت الضربات إلى تفتيت قاع الخلية وفصل الهيكل الضخم بالكامل عن الغصن، ومثل بيانو يهوي من شجرة، سقطت الخلية نحو المسار، محطمة الفروع في طريقها لترتطم بالأرض بقوة.

كان كورت قد تجاوز حافة مرتفع صغير، وقفز في الهواء ليعتلي شجرة سرو ساقطة، في اللحظة التي تحطمت فيها الخلية على الأرض خلفه بعشرين ياردة.

كان الكوماندانت رجلًا لائقًا بدنيًا في الثلاثينيات من عمره؛ ومع ذلك، لم يستطع مجاراة سرعة الرجال الأصغر سنًا في قوته. كان تقريبًا الأخير في الطابور بينما كانوا يركضون أسفل التل؛ وفي الظلام الدامس رأى شرارة اللهب من بندقية صيد. امتص الهواء الرطب للغابة الخضراء دوي الطلقة. ورغم أنه كان محمومًا بالمطاردة مثل رجاله، إلا أن الكوماندانت احتفظ ببديهة حاضرة مكنته من الانحناء عند سماع الطلقة الثانية، وهذا ما جعله في مؤخرة المجموعة تمامًا على المسار الضيق.

كان قد بدأ للتو في رفع قدميه مرة أخرى عندما رأى الجسم الضخم أمامه يسقط مخترقًا أشعة الضوء الباهتة القليلة التي تسللت عبر المظلة الشجرية.

لم يعرف ما هو؛ ولم يكن ليخمن ماهيته ولو منح مليون عام. فقط عندما ارتطمت الكتلة الطويلة الضخمة بالأرض، لتبتلع فعليًا أول رجلين في الرتل داخل نوع من السحابة السوداء، صاح محذرًا فريقه بصرخة مرتبكة وغير محددة.

وفقط بعد الصرخات الأولى، وبعد أول لسعة حارقة مفاجئة على ساعده فوق المكان الذي ينتهي فيه قفازه ويبدأ جلده المكشوف، وبعد أن أحاط الضباب المتفجر، والمحتشد، والمظلم برجاله أمامه – فقط بعد كل هذا، أدرك الأمر.

نحل. آلاف – لا، عشرات الآلاف من النحل الهائج غطت جنوده الذين كانوا يصرخون ويتلوون بذعر. في ثوانٍ، بدأت البنادق تطلق النار عشوائيًا نحو السماء في فعل يائس ومثير للشفقة؛ ركض جنود مدربون جيدًا نحو الأحراش الكثيفة المحيطة بالمسار، وسقطوا يرفسون ويضربون الهواء كالمجانين.

لُسِع الكوماندانت في وجهه، وفي رقبته، ومرة أخرى في ذراعه، فتعثر ثم استدار ليركض عائدًا إلى أعلى المسار، عائدًا إلى التل،

مخترقًا أطراف السرب المجنون المكون من سجائر مشتعلة غاضبة تطعنه من كل الجهات، ووابل مستمر من المطر الحمضي الكاوِي، وسحابة لزجة من كرات صغيرة من الحمم المنصهرة.

صرخ، وضغط زر جهاز اللاسلكي، وصرخ أكثر، ثم سقط، وتعمقت اللسعات في جلده.

كاد أن ينهض على قدميه، لكن رجاله الهاربين – وكل منهم يصارع الذعر والألم وانعدام الرؤية شبه الكامل بسبب الحشرات الدوارة والمحتشدة – أسقطوه مرة أخرى على صدره وهم يتراجعون باتجاه الجدول.

دس الكوماندانت ركبة تحت جسده ليدفع نفسه للأعلى مرة أخرى، لكن السحابة السوداء ابتلعته؛ اشتعلت كل نهاية عصبية في جسده، وتحسس مسدسه ليقاتل عشرة آلاف مهاجم.

واصل كورت الركض، مبتعدًا عن الصرخات وإطلاق النار المتقطع في الغابة خلفه. تخيل دزينة من الرجال، لكن ذلك كان مجرد تخمين. لم يلتفت ولا لمرة واحدة لينظر إلى مهاجميه. بنى تقديره للعدد على حقيقة أن الصوت المميز للمروحيات أخبره أنها من طراز "هيوي"، والجميع في عالم كورت جينتري يعرفون أن الـ "هيوي" يمكنها حمل أربعة عشر "قردًا مدججًا بالسلاح".

عززت صرخات الألم تخمينه. عواء المعاناة البشرية بدا وكأنه صادر عن حوالي دزينة رجال. مما يعني أن المروحية الأخرى ستحمل على الأرجح العدد نفسه. لماذا قد يغيرون حجم فرقهم القتالية؟

حلقت المروحيتان عاليًا في دوائر؛ لقد أنزلتا رجالهما، وستنتظران الأمر بالعودة لجمعهم.

خرج جينتري من الغابة الكثيفة ووصل إلى الطريق الرئيسي، وانعطف جنوبًا، ومبطئًا سرعته إلى الهرولة. لم تكن لديه أدنى فكرة عن مكان الفريق الآخر الآن؛ إذا كانوا قد خرجوا من المستنقع، فقد يكونون على هذا الطريق نفسه، لكن إذا كانوا كذلك، فهم على بعد كيلومتر واحد على الأقل في الخلف.

سمح لنفسه بلحظة استرخاء وهو يهرول، لكن اللحظة انتهت فجأة حين سمع شاحنة تقترب من الخلف. لم يكن في القرية سوى شاحنة واحدة؛ شاحنة مسطحة قديمة يملكها أحد زملائه وتستخدم فقط لنقل الحديد المُستخرج عبر هذا الطريق من موقع الحطام إلى الرصيف للنقل إلى فونت بوا.

أبطأ كورت واستدار، متوقعًا رؤية دافي خلف عجلة القيادة.

لكن لا، على بعد مائة ياردة رأى شاحنة دافي، لكنها كانت مكتظة برجال مسلحين يرتدون قبعات الأدغال، وبينما استدار جينتري ليركض بحياته، سمع طلقات البنادق.

صاح جينتري:

– "تبًا!"

اندفع خارجًا عن الطريق، عائدًا إلى الغابة الكثيفة، يشق طريقه عبر الكروم والشجيرات وسعف النخيل الذي يضاهي حجم إطارات الشاحنات، يائسًا في محاولته لجعل نفسه صغيرًا، وسريعًا، وزلقًا.

بينما كان يدفعه جسده وسط تشابك النباتات السفلية، عمل على خطة جديدة. خطته القديمة كانت بسيطة. كان لديه زورق مخبأ تحت الجسر الصغير على بعد مائة وخمسين ياردة فقط للأمام. كان يخطط للركض عبر الطريق، والانزلاق أسفل الضفة، ثم الهروب عبر القارب الصغير، حريصًا على تجنب المروحيات بالبقاء تحت الأشجار المتدلية فوق حافة النهر.

لكن الآن، سيتعين عليه الاقتراب من الجسر من ناحية أعلى النهر، وهو ما يمثل عقبة استثنائية. أو دزينة عقبات أو أكثر، حسب طريقة نظرك للأمر.

كانت ضفتا النهر شمال الجسر مغطاتين حرفيًا بالتماسيح.

تماسيح ضخمة لعينة.

بينما كان كورت يشق طريقه بقوة عبر النمو النباتي شبه المنيع، استقر على خطته الجديدة – خطة ستتطلب مهارة لم يكن واثقًا من امتلاكه لها، وتنفيذًا لم يكن واثقًا من قدرته عليه، وحظًا لم يكن واثقًا من إمكانية التعويل عليه.

لكنها كانت أفضل من الرقص على الطريق لتفادي الرصاص المنهمر من شاحنة مليئة بالبنادق.

سمع الرجال يدخلون الغطاء النباتي خلفه. أطلق القليل منهم نيران بنادقهم نحو الأشجار والشجيرات. كان كورت يعلم أن مساره سيغلق نفسه بمجرد مروره؛ لم يعد قلقًا بشأن الرجال. عيونهم لا تستطيع رؤيته وبنادقهم لا تستطيع الوصول إليه.

لكنه كان قلقًا. كان قلقًا بشأن التماسيح اللعينة أمامه.

تصاعد إطلاق النار. بدا الأمر وكأن الرجال يحاولون تمزيق طريقهم عبر الغابة بالرصاص. لن يفلح ذلك، ليس قبل أن يبتعد كورت. لكن هذا لا يعني أن شظية رصاصة محظوظة لا يمكنها اختراق طريقها لتستقر في مؤخرة رأس الأمريكي.

انخفض كورت أكثر، واندفع زاحفًا على يديه وركبتيه، كاشطًا جلدهما حتى الاحمرار في هذه العملية. مزق شباك عنكبوت بحجم شباك الصيد واستخدم ماسورة بندقيته لإسقاط أفعى عاصرة من غصن منخفض حتى يتمكن من المرور تحتها دون خوف من أن يلتف الثعبان الغاضب حول عنقه.

سرعان ما خرج من الغابة إلى تل يطل على ضفة النهر. على بعد أربعين ياردة إلى يساره، كان الجسر الخشبي يقف مغريًا تحت الشمس. كان قاربه الصغير يتمايل في الظل تحته، تغطيه قطعة قماش مشدودة كالطبل لحمايته. أسفله، وعلى مسافة لا تقل عن خمس وعشرين ياردة من الأربعين ياردة المحاذية للماء، كانت دزينة من التماسيح تتراوح أحجامها بين ستة وستة عشر قدمًا تتشمس في أشعة منتصف الصباح.

وجد جينتري كرمة سميكة تتدلى من الضفة بشكل قطري إلى يساره، تمتد فوق ضفة النهر وتتصل بأعلى وأبعد غصن لشجرة "كابوك" يبلغ ارتفاعها مائتي قدم وتتدلى فوق النهر كذراع عملاقة.

ربما لن توصله الكرمة إلى الجسر تمامًا، لكنها ستوصله إلى الضفة المجاورة له مباشرة. كان ذلك بعيدًا بما يكفي عن التماسيح، وسيكون ذلك كافيًا تمامًا.

كان قد ألقى منجله قبل عشر دقائق، لذا وجه فوهة بندقيته الواسعة نحو النقطة التي تخرج منها الكرمة من الأرض الصلبة.

ثم تردد. لاهثًا من الجهد، متألمًا من الكشوط على يديه وركبتيه والخدوش ولسعات الحشرات التي نالها على طول الطريق، وقف هناك فحسب، وبندقيته جاهزة للإطلاق. لقد تأرجح على الكروم في أمسيات كثيرة مع أولاد القرية؛ كان يثق في قوتها وقدرتها على نقله من هنا إلى هناك.

لكن في مخيلته، رأى خطته هذه تنحرف نحو كارثة محققة. في الواقع، لم يستطع حتى استحضار صورة ذهنية للثواني الخمس عشرة القادمة وهي تمر بسلام دون عقبات.

ساعدته رشقة طويلة غاضبة من بندقية آلية، انطلقت على بعد ثلاثين ياردة خلفه في الغابة، على صب تركيزه على المهمة التي بين يديه. أطلق "خرطوشة" من بندقيته نحو الكرمة، فانشقت وتنسّلت

بشكل مثالي، ليلتقطها بيده الحرة قبل أن تتأرجح بعيدًا. وبعجالة، أعاد تثبيت البندقية في حقيبة ظهره مستخدمًا يدًا واحدة، ثم قفز في الهواء ليقبض على الكرمة من أعلى نقطة تمكن من الوصول إليها. أطبقت يداه الحمراوان المتألمتان بقوة، والتفت ساقاه بإحكام، وبدأ التأرجح منطلقًا من التل وفوق الزواحف الهائلة في الأسفل.

قذفت به الكرمة فوق الضفة القريبة؛ ليمر فوق تماسيح ناعسة كانت تستمد الدفء عند حافة الماء. كان العديد من تلك التماسيح يستلقي وفكوكه المدججة بالأسنان مشرعة على مصراعيها، لتبريد أجسادها عبر استنشاق الهواء، مشكلة بذلك مشهدًا مشؤومًا للغاية لمن يتأرجح فوقها.

كانت قبضته محكمة؛ وكشّر وجهه من شدة الجهد لكنه صمد بينما حملته الجاذبية الآن فوق سطح الماء، وساقاه ممدودتان أمامه، وركبتاه تعتصران الكرمة، وعيناه مثبتتان على منطقة هبوطه عند الضفة بجوار الجسر.

كانت الكرمة مرنة وخضراء وسليمة؛ وكان بإمكانه الاعتماد عليها للعبور.

لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لغصن الشجرة الشاهق الذي تتدلى منه. فقد اتخذ النمل الأبيض عشًا له على طول التحدّب حيث يتفرع الغصن عن الفرع الأكبر، مما أدى إلى وهن المفصل. لولا حركات جينتري البهلوانية، لصمد الغصن لعام آخر، حتى يدفع موسم الأمطار الرياحَ عبر القارة، فينقصم الخشب الهش في إحدى العواصف.

لكن هذا الغصن لم يُكتب له عام آخر. كان مقدرًا له أن ينهار الآن.

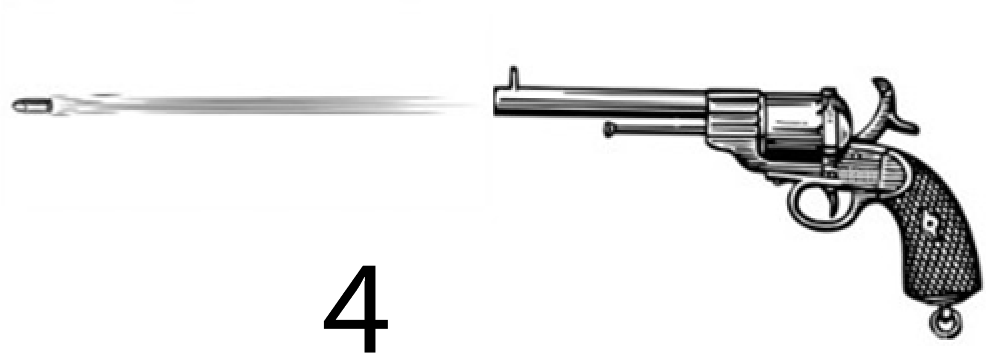
تحقق سيناريو جينتري الأسوأ على مرحلتين.

تمثلت الأولى في انزلاق بسيط للكرمة عند غصن الشجرة؛ حدث ترنح ثم توقف مفاجئ. كان كورت بعيدًا تمامًا عن اليابسة، يعلو الماء بعشرة أقدام على الأقل وينطلق بسرعة. حافظ على قبضته، لكنه نتر

رأسه بعيدًا عن وجهته المقصودة ليرفعه نحو نقطة اتصال شريان حياته بالشجرة.

وبالكاد تمكن من تركيز عينيه المتسعتين على تلك النقطة البعيدة، في اللحظة التي تصدع فيها غصن الشجرة وانكسر.

أدى زخم اندفاع جينتري، مع امتداد ساقيه أمامه، إلى دوران جسده للخلف دورة كاملة في الهواء، على ارتفاع عشرين قدمًا. وجد نفسه ووجهه للأسفل حين أحكمت الجاذبية قبضتها، فهوى نحو الماء وهو يطلق صرخة رعب بدائية.



4

أقفلت جينتري الكرمة؛ فقد أصبحت عبئًا عليه الآن.

ارتطم بالسطح الأسود للماء ببطنه، مدركًا تمام الإدراك أن التماسيح على ضفتي النهر ستكون جميعها مستيقظة، ومتأهبة، ومستشيطة غضبًا.

بينما كان يغوص في الظلام وقد اعتصرت الصدمة الهواء من رئتيه، استغرق وقتًا أطول مما أراد ليتخلص من حقيبة الظهر. غاصت الحقيبة به في الوحل؛ فالنهر لم يكن عمقه هنا يتجاوز سبعة أو ثمانية أقدام. وبعد أن تخلص من الحقيبة، انتزع البندقية وحررها. إن السباحة مع حمل بندقية عيار 12 لهو أمر مثير للسخرية، لكن تركها في الأسفل وسط الوحل بينما تجوب زواحف بحجم قوارب لأربعة رجال في الأعلى، لهو الجنون بعينه.

بعد أن أمسك بسلاحه، دفع جينتري القاع بقدميه ليندفع كالسهم نحو السطح، وفقد إحدى فردتي حذائه في تلك الأثناء. ركل الأخرى ليتخلص منها بمجرد أن برز رأسه خارج الماء. نفض شعره الطويل المبتل عن عينيه، واستدار عائدًا نحو أقرب ضفة، التي كانت تبعد خمسًا وعشرين ياردة.

انزلق تمساحان ضخمان إلى الماء أمام عينيه، متجهين صوبه.

لاحظ أن الضفة المجاورة لمكان دخولهما النهر قد خلت؛ وكان على

يقين بأنه تأرجح فوق وحش هائل بطول ستة عشر قدمًا في تلك البقعة قبل ثوانٍ معدودة.

استلقى كورت على ظهره في الماء وراح يركل بجنون، مبقيًا رأسه مرفوعًا وسلاحه ذو المقبض المسدسي موجهًا نحو الضفة. كانت سباحة ظهرية نصفية غير متناسقة، لا تستمد سرعتها من كفاءتها بل من شدة عنفوانها.

لا تلتهم التماسيح عادة وجباتها وهي حية. بل تقتل فريستها عبر الإطباق عليها بفكوكها التي تشبه الملازم، ثم الدوران بها في الماء لإغراقها.

لكن كورت كان يعلم أنه، ككائن بشري هش، لن يموت غرقًا. العضة لن تقتله فورًا، لكن الدوران والتخبط وضربات الذيل العنيفة ستحطم عنقه وتكسر جسده، وتحوله إلى دمية قماشية هامدة، حتى قبل أن تمتلئ رئتاه بمياه النهر السوداء الساخنة.

كان أمامه عشرون ياردة ليصل إلى قاربه؛ سيتجه مباشرة نحو الزورق المتمايل متجنبًا الضفة الآن، فالتماسيح أسرع على اليابسة منها في الماء. كاد الذعر أن يتملكه؛ فقد أدرك أنه لم يلقِ نظرة حتى على الجانب الآخر من النهر ليرى كم عدد تلك المسوخ الجائعة التي قد تخرج للحصول على وجبة غداء سهلة وسريعة من اللحم الطازج بوزن مائة وسبعين باوندًا.

بَدَلًا من ذلك، ركّز بصره على الزبد الأبيض الذي تثيره ركلات قدميه الحافيتين المتلاحقة.

ها هو ذا. وصل إليه أول وحش كبير؛ بدا كجذع شجرة رمادي ضخم وسط الزبد، حتى فُتح فمه الكبير على بعد بوصات من أطراف أصابع قدمي جينتري. وبصرخة رعب، باعد كورت بين ساقيه ورفع البندقية.

نقرة فارغة.

لم يقم بضخ طلقة جديدة إلى حجرة النار بعد أن استخدم البندقية لقطع الكرمة.

أصبح الزاحف فوقه الآن.

غرس فوهة البندقية داخل فم الوحش. في الثانيتين اللتين توقف فيهما عن الركل بدأ يغوص في الماء، وشعر بمخالب الحيوان الأمامية تخدش ساقه وهما يغوصان معًا. تسببت الضربة في الفم بتراجع التمساح للحظة وجيزة، واغتنم جينتري تلك اللحظة لضخ طلقة جديدة في حجرة بندقيته عيار 12 بينما كان يغوص أعمق، ووجهه للأعلى، داخل النهر.

غاص بالكامل الآن، ودفع سلاحه للأعلى حتى شعر برقبة الزاحف فوقه، وضغط الزناد بيد واحدة.

بوووم!

دفعه ارتداد السلاح إلى عمق أكبر، عمق كافٍ لتجنب الذيل الضخم للحيوان الذي كان يدور ويضرب سطح الماء بجنون. استدار كورت وسبح بسرعة لأسفل ومبتعدًا، محاذيًا قاع النهر للحظة بينما كان يقترب من قاربه. اندفع عائدًا للسطح وضخ طلقة جديدة في المغلاق بينما كان يستدير، ليجد تمساحًا جديدًا يهاجمه، وفمه قد بدأ ينفتح ليبدأ قبضة الموت. كان طول هذا الوحش لا يتعدى عشرة أقدام، لكنه يظل مميتًا تمامًا.

أطلق جينتري النار على الوحش الرمادي بين عينيه.

كانت طلقة الخرطوش المزدوج تعادل تقريبًا عشر طلقات متزامنة من مسدس عيار 32. ومن مسافة تلامس مباشر مع وجه زاحف، حتى لو كان ضخمًا، فإن الجرح قاتل لا محالة. لكن سكرات الموت لمخلوق قوي كهذا لا تقل خطورة عن هجومه، ومرة أخرى اضطر كورت للركل والالتواء وضرب الماء للابتعاد.

كان يعلم أيضًا أن الدم الجديد في الماء سيجذب مئات من أسماك البيرانا في ثوانٍ؛ كان عليه الخروج من هناك فورًا لأسباب أكثر من أن تُحصى. لفظ الظرف الفارغ، ولقم طلقة جديدة، وركل الماء بجنون تجاه زورقه.

سمع فرقعات الرصاص الأولى بينما كان يمسك بقاربه الصغير تحت الجسر، لكنه تجاهلها حاليًا. بيد حرة، فك الأربطة التي تثبت الغطاء القماشي من مربطين. ألقى البندقية فوق الغطاء وسحب نفسه لداخل الزورق. اندفع فم ضخم مفتوح لتمساح طوله اثنا عشر قدمًا من الماء خلفه، متتبعًا ساقيه صعودًا فوق حافة القارب الصغير، لكن الفكين أطبقا دون أن يمسكا شيئًا. إلا أن الساق الأمامية للحيوان وصلت إلى داخل الزورق، وهدد ثقله المتخبط بقلب القارب الصغير وكورت بداخله. أمسك كورت بالبندقية وأطلق النار بيد واحدة على رقبة الزاحف، ليقلبه عائدًا خارج القارب.

حاول ضخ طلقة جديدة، لكن سلاحه كان فارغًا. كانت بقية ذخيرته في حقيبة الظهر في قاع النهر، لذا ألقى البندقية جانبًا وسحب بقية الغطاء القماشي لتركه يسقط في الماء. أطاحت رشقة طويلة أخرى من نيران البندقية بالرذاذ داخل القارب، لكن مخزن سلاح الجندي البعيد فرغ قبل أن يتمكن من إصابة الزورق أو الأمريكي.

انبطح كورت مسطحًا في قاع الزورق الذي يبلغ طوله عشرة أقدام، وأنزل مروحة المحرك الخارجي في الماء، وضغط زر التشغيل، وسحب الحبل.

دبت الحياة في الآلة بهدير قوي، ولم يضع جينتري وقتًا، موجهًا زورقه الصغير عكس التيار، مبتعدًا عن البنادق والتماسيح والبيرانا.

بعد دقيقة شرق الجسر، كان لا يزال يلهث ويسعل مخرجًا ماء النهر من حلقه. نظر لأسفل ورأى بنطاله المبلل ممزقًا عند الفخذ الأيسر. كان هناك جرح قطعي طويل ينزف حيث خدشه التمساح الأول

بمخالبه. كان الجرح خطيرًا نسبيًا وقد يحتاج بضع غرز في أعمق أجزائه، لكنه أدرك أن هذه النتيجة أفضل بكثير مما يستحق. ارتجف جسده عند التفكير في ذلك الوحش القادم من عصور ما قبل التاريخ وهو فوقه في الماء.

ثم أطلق تنهيدة طويلة. ونظر لأسفل إلى قاربه، إلى ما يشكل الآن مجموع ممتلكاته الدنيوية بالكامل.

مصباح يدوي بلاستيكي قديم، وزجاجة سعة لتر واحد من وقود المحرك الخارجي، وبندقية صيد بالرمح يعلوها الصدأ.

هذا كل شيء.

مسح كورت شعره الطويل عن عينيه، ووزن بندقية الرمح بيده الحرة، ثم زاد من سرعة المحرك، موجهًا القارب صعودًا في النهر باتجاه فونت بوا.



5

وقف صائد البشر وحيدًا في غرفته بالفندق، ومسح العرق عن وجهه، ثم فتح نافذة الطابق الثاني ليدخل بعض الهواء النقي، الذي وإن كان أبرد قليلًا من هواء الغرفة العفن، إلا أنه كان يحمل رائحة السمك المتعفن وروث الحمير.

غالب موجة من الغثيان.

أطفأ جهاز اللاسلكي وألقاه في حقيبته. كانت بقية ملابسه محزومة بالفعل. لم يتبق سوى إغلاق سحاب الحقيبة، ليخرج من هذا الجحيم الرطب المثير للاشمئزاز. في غضون عشر دقائق سيكون عند الرصيف يصعد اللوح الخشبي للباخرة المتجهة إلى كواري. وبعد يومين سيصل إلى مدينة حقيقية، حتى لو كان يتحدث بلكنة مكسرة مقارنة بهذا المستنقع الخلفي الذي لا يعدو كونه بقعة قهوة منسية على الخريطة. يومان آخران وسيكون في ماناوس، وهناك سيركض كعداء أولمبي نحو المطار، ليلحق برحلة إلى ريو أو ساو باولو ثم يعود إلى وطنه في أمستردام.

حينها فقط سيتنفس الصعداء. سيأخذ يومًا أو يومين للاعتناء بحديقة التوليب خاصته، ثم يعيد تجميع صفوفه. ويستعيد أثر هدفه.

سيعثر على كورت جينتري مرة أخرى. وفي المرة القادمة – أخبر نفسه بقرار حاسم – سيحضر فريقًا من القتلة المحترفين الذين لن يفسدوا العملية برمتها.

لم يستطع تصديق ما حدث حتى الآن. قُتل ستة رجال من أصل عشرين. بمن فيهم قائد الـ AUC. خمسة منهم بلسعات نحل لعين، والآخر بعد انزلاقه في نهر يعج بالتماسيح. هل هذا معقول؟ أبلغته المروحيات لاسلكيًا بأنهم عائدون عبر الحدود إلى كولومبيا ومعهم قتلاهم وأحياؤهم.

وتركوه هنا وحيدًا.

أوغاد.

طرقٌ على الباب.

سرت قشعريرة في عمود صائد البشر الفقري البالغ من العمر اثنين وستين عامًا. استدار مبتعدًا عن النافذة وسحب المسدس القديم عيار 32 من جرابه الجلدي تحت إبطه. رفعه بيد مرتجفة.

ببطء وهدوء خطا الخطوات الأربع نحو الباب، وسلاحه مرفوع أمامه.

سأل:

– "من هناك؟"

جاء الرد:

– "سيدي؟ هل تحتاج مساعدة في حقائبك؟"

فتح صائد البشر المزلاج وقلب القفل، مخفيًا مسدسه خلف الباب وهو يفتحه.

تنهد بارتياح. كان أحد أولئك الهمج الصغار من مكتب الاستقبال.

قال:

– "لا. يمكنني تدبر أمري".

– "حاضر سيدي. العبّارة تغادر خلال عشرين دقيقة".

بإيماءة، استدار الخادم وعاد نزولًا عبر السلم المتهالك.

أغلق صائد البشر الباب. وأحكم قفله مجددًا. أعاد مسدسه العتيق إلى جرابه وهو يستدير ليغلق سحاب حقيبته.

على الجانب الآخر من الغرفة، كان كورتلاند جينتري، هدفه طوال تلك الأشهر العديدة، يقف بجوار النافذة. كان جينتري ذا لحية قصيرة وشعر أطول مما ظهر في أي من الصور التي يحتفظ بها صائد البشر، لكنه كان هو بلا شك. كان يرتدي قميصًا بلون الكريمة، مفكوك الأزرار، ومبللًا، وقذرًا. وبنطالًا قطنيًا بنيًا، ممزقًا عند الفخذ وملطخًا بالدماء.

وكان يحمل بندقية صيد بالرمح في يده اليمنى.

تحسس صائد البشر مسدسه في جراب الكتف وهو يصرخ من الصدمة.

دوى صوت النابض القوي لبندقية الرمح في هواء الغرفة الحار.

شعر صائد البشر بجسده يرتطم بقوة بالباب الخشبي خلفه؛ وانفردت ذراعاه على وسعهما بعيدًا عن جسده.

فقط حين نظر للأسفل، بعيدًا عن هدفه، رأى أن سهمًا طويلًا من السلاح قد اخترقه. كان مسمَّرًا إلى الباب من خلال معدته. بللت الدماء باطن ساقيه وهي تسيل من الجرح.

بعد أن استغرق الوقت اللازم لاستيعاب ما حدث، رفع صائد البشر بصره ببطء ليعود إلى هدفه.

ألقى الأمريكي بندقية الرمح الفارغة على السرير الصغير المزدوج واقترب. ومع تزايد ضعفه، حاول صائد البشر بوهن أن يتحسس المسدس تحت إبطه مرة أخرى.

أزاح الرجل الرمادي يد صائد البشر برفق عن الجراب وسحب المسدس. فحصه، وهز كتفيه، ثم دسه في بنطاله عند أسفل ظهره.

قال الأمريكي:

– "أنت تلاحقني منذ تشيلي، أليس كذلك؟"

فوجئ صائد البشر برقة صوت الأمريكي. لقد عاش الهولندي ودرس كورت جينتري لأكثر من نصف عام، لكنه أدرك الآن أنه لم يسمعه يتحدث قط، ولم يتساءل حتى عن نبرة صوته.

اشتعل الألم في أحشاء صائد البشر. وتمدد الضعف في أطرافه، وفي عينيه. ومع ذلك قال:

– "منذ كيتو".

ابتسم كورت جينتري. كان وجهه قريبًا من وجه صائد البشر، ونبرته لا تزال هادئة ومألوفة وكأنهما أب وابنه.

قال:

– "لم أشعر بك في الإكوادور".

ثم رفع حاجبيه مضيفًا:

– "كانت مطاردة رهيبة، أنا وأنت".

ارتخت ساقا صائد البشر، وصرخ من الألم المنبعث من السهم الذي يخترق بطنه. وبسرعة، أمسك به الرجل الرمادي، وثبته ضد الباب، ساندًا إياه ليخفف عنه قدرًا من العذاب. نظر الأمريكي في عيني صائد البشر.

– "أنت تعرف كيف تسير الأمور. رجال مثلي. لا نملك تغيير ما نحن عليه. ليس خطأنا. الرجل الذي أرسلك... كان يعرف من أنا. وما أنا. هو من قتلك. لست أنا".

كانت عينا صائد البشر خاويتين. ومع ذلك، أومأ قليلًا.

تابع كورت:

– "أعطني اسمه، وسأجعله يدفع الثمن".

بعد لحظة، انفتح الفم. وسال خيط من الدم على ذقن الهولندي. حاول التحدث؛ خرج صوت صغير لكن بلا كلمات.

مال كورت مقتربًا من وجه الرجل.

جفل الهولندي من الألم؛ وعادت الحياة إلى عينيه قليلًا، ممزوجة بتركيز جديد. كان يريد التحدث.

وأخيرًا فعل. بصوت خافت جدًا اضطر جينتري للميل حتى كاد يلامس شفتي الرجل ليسمعه يقولها.

– "سيدورينكو".

ابتعد جينتري. وانتصب واقفًا بالكامل أمام الرجل. أومأ برأسه. غريغور سيدورينكو، زعيم المافيا الروسية ورب عمل كورت القديم، كان لا يزال ناقمًا على ما يبدو بسبب خديعة دبرها جينتري في الربيع الماضي.

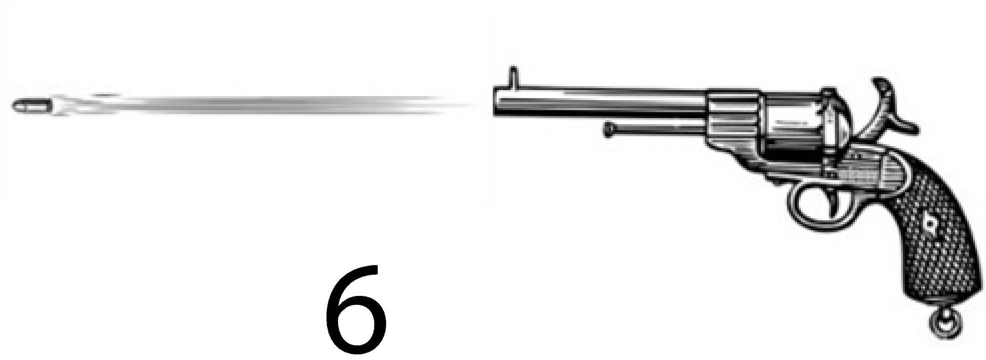
قال جينتري:

– "سأعاقبه لأنه أرسلك إليّ. يمكنك أن ترتاح الآن".

سحب جينتري الرمح من الباب، ومن الرجل؛ لم يشعر صائد البشر بالحركة، ولا شعر بنفسه وهو يُنقل إلى السرير. راقب الأمريكي يمدده، ويرفع قدميه واحدة تلو الأخرى ليخلع حذاءه، لكنه لم يشعر بشيء.

كان يريد أن يرتاح. لانت عيناه أكثر، وكان آخر ما رآه قبل أن تنغلق جفونه هو هدفه يفتش حقيبته، ويأخذ محفظته وحقيبة الإسعافات الأولية وبعض الملابس، ويغادر عبر الباب الأمامي.

أغمض صائد البشر عينيه حينها، وفكر في زهور التوليب خاصته. لن يراها قريبًا بعد كل شيء، ويا له من أمر مؤسف.



6

صعد الرائد إدواردو غامبوا، البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا، ببطء إلى السطح. كان غطاء رأسه المصنوع من "النيوبرين" الأسود، وطلاء وجهه المقاوم للماء الأسود، وقناع السباحة الأسود، وجهاز التنفس الخفي في فمه، كلها عوامل ساعدته على الاندماج في السواد الحالك للمياه عند الساعة الثالثة صباحًا في خليج بانديراس.

على بعد خمسين مترًا أمامه، طفا يخت فاخر بطول مائة وعشرين قدمًا، تضيئه من الخلف الأضواء الاصطناعية الليلية لـ "الماليكون"، الممشى الخشبي الممتد على طول وسط مدينة بويرتو فالارتا. وإلى الشمال، عند الساعة العاشرة بالنسبة لـ غامبوا، تلألأت أضواء منطقة الفنادق الساطعة في المدينة كاليراعات.

كان اليخت يُدعى "لا سيرينا"؛ وكان يرسو هنا على بعد سبعة أميال داخل الخليج، بعيدًا عن ممرات الشحن المؤدية إلى الميناء أو المرسى، لكنه قريب بما يكفي من الشاطئ ليتمكن مالكه وحاشيته من الاستمتاع بكل ما تقدمه بويرتو فالارتا. كان طويلًا وأنيقًا وجميلًا، وتتوجه مروحية "يوروكوبتر" سوداء حديثة ترقد على مهبط الطائرات فوق السطح الخلفي العلوي. لكن إدواردو غامبوا تجاهل أناقة السفينة أمامه وركز بالكامل على جوهر المهمة. بعد أربعين دقيقة تحت الماء، كانت رؤيته الليلية في ذروتها. بعينه المجردة رأى حارسين على سطح

التشمُّس العلوي يقفان بالقرب من المقدمة. وتخيل العدد نفسه على الجانب المقابل.

ببطء، ارتفع رأس آخر من الماء على يمين إدواردو. ثم آخر. ثم ثلاثة رجال آخرين على يسار إدواردو. ثم رجلان آخران خلفه مباشرة.

ثمانية غواصين في المجمل يطفون في الماء على بعد خمسين مترًا من "لا سيرينا". وبعد إيماءة من الرائد إدواردو غامبوا، أفرغ كل منهم بضعة أونصات من الهواء من أجهزة التحكم في الطفو، وككتلة واحدة هبطوا ببطء عائدين تحت السطح الأسود، دون ترك أي أثر لوجودهم.

كان غامبوا ورجاله من الـ (GOPES)، مجموعة العمليات الخاصة، وهي نخبة العمليات الخاصة للشرطة الفيدرالية المكسيكية. لكن هؤلاء الشرطيين الثمانية كانوا نخبة بمستوى لا يعرفه إلا القلة. سُحبوا من وحدات شرطة وكوماندوز عسكرية أخرى ونُظموا بشكل منفصل عن بقية الـ (GOPES). شكلوا معًا قوة ضاربة خاصة تدار سريًا من قبل النائب العام في مكسيكو سيتي.

مهمتهم؟ التصفية خارج نطاق القانون لأباطرة المخدرات الكبار في المكسيك.

هدفهم الليلة؟ مالك "لا سيرينا"، المدعو دانيال ألونزو دي لا روشا ألفاريز. في عالم يحمل فيه الجميع لقبًا، عُرف دي لا روشا ببساطة بالأحرف الأولى من اسم عائلته، DLR، وتُلفظ بالإسبانية "دي، إلي، إري".

كان دي إل آر زعيم "لوس تراهيس نيغروس" (البدلات السوداء)، وهي واحدة من أبرز المنظمات الإجرامية لتجارة المخدرات والخطف في البلاد.

بعد أربع دقائق، عاد اثنان من فريق غامبوا للظهور عند مؤخرة "لا سيرينا". كان مارتن ورمسيس قد خلعا معدات الغوص، وأقنعتهما وزعانفهما، وتسلقا بحذر السلالم البحرية إلى السطح السفلي. كانا

يحملان رشاشات "شتاير تي إم بي" مزودة بكاتم للصوت، وكانا جاهزين وهما جاثيان عند أعلى السلالم. ساعدتهما معدات الرؤية الليلية على تفقد السطح باتجاه المطبخ والمقدمة. بعد لحظة تحدث رمسيس في سماعة الرأس.

– "نحن على متن المركب، نتحرك نحو الموقع".

كان غامبوا قد تحرك بمحاذاة الهيكل من الجانب الأيسر مع اثنين آخرين من فريقه. همس في جهازه اللاسلكي:

"Entendido" –(عُلم)

بعد دقيقة، رفع مارتن ورمسيس نفسيهما عبر سلم مهبط الطائرات، وتسلقا بصمت في الظلام. ثم انبطحا على الجانبين المتقابلين للمروحية، وأسلحتهما مصوبة نحو الحراس الأربعة على سطح التشمُّس، على بعد حوالي سبعين قدمًا للأمام. كانت مهمة مارتن ورمسيس منع أي محاولة للهروب بالمروحية أثناء الهجوم، وتصفية حراس السطح عند تلقي الأمر من قائدهما.

قال رمسيس في سماعته:

– "الفريق الأول، listo" (جاهز).

رد غامبوا مرة أخرى من السطح المتموج للخليج:

– "Entendido".

خلع معدات الغوص بينما كان يتحدث، ثم قال:

– "الفريق الثاني، نفذ".

جاء الرد:

– "جاري التنفيذ".

وبدأ ثلاثة رجال بتسلق سلسلة المرساة عند الجانب الأيسر للمقدمة، على بعد أربعين قدمًا أسفل الحراس على سطح التشمُّس.

بعد دقيقتين كان الرجال على متن المركب، ومسحت أسلحتهم المكتومة سطح القيادة.

– "الفريق الثاني، listo".

قال غامبوا:

– "الفريق الثالث، vamos" (لننطلق).

وارتفع هو ورجلان آخران يقطرون ماءً من السلالم الخلفية، وتسلقوا إلى السطح العلوي، ومروا بجانب قارب نجاة كبير مغطى بغطاء قماشي مشدود، وبدأوا التحرك للأمام بحذر. وصلوا إلى الممر المؤدي للمطبخ، وسمعوا ضوضاء ورأوا أضواءً قادمة من الغرفة الكبرى أمامهم، فرفعوا نظارات الرؤية الليلية. دخلوا الغرفة ببطء، ووجدوا حارسين جالسين على أريكة جلدية بيضاء ضخمة أمام تلفزيون بلازما مقاس 52 بوصة.

تكفل غامبوا بالرجل على اليسار، وأطلق عليه رصاصة واحدة اخترقت جمجمته وهو يقف. ابتلع صوت معركة نارية مطولة في التلفزيون دويّ سلاحه المكتوم.

أطلق الضابط خلف غامبوا النار على الحارس الأيمن ثلاث مرات في الصدر؛ سقط الحارسان عائدين إلى الأريكة، وسقطت المسدسات من أيديهما، وانتشرت برك الدماء لتلتقي بين جثتيهما على الجلد الأبيض.

تحرك الفيدراليون الثلاثة عبر الغرفة بسرعة الآن. كان التلفزيون يعرض فيلمًا ميزه إدواردو بسهولة: Los Trajes Negros 2 (البدلات السوداء 2)، الجزء الثاني من سلسلة أفلام مكسيكية شهيرة تمجد حياة ومآثر دانيال دي لا روشا، الرجل النائم في الجناح الرئيسي المجاور.

أحمق متغطرس، فكر غامبوا. كان من الشائع لزعيم المخدرات النرجسي أن يعرض أفلامًا تمجد شروره على يخته. واصل غامبوا عبور الغرفة ورجاله متكدسون خلفه ودخل الممر المؤدي للجناح الرئيسي. مروا بجناحين آخرين للضيوف؛ سيقومون بتطهيرهما بعد

التعامل مع دي لا روشا، لكنهم لم يتوقعوا أن يكونا مشغولين. كانت مراقبة "لا سيرينا" لمدة ثمان وأربعين ساعة قد أشارت إلى أن دانيال كان على متن اليخت الليلة مع عدد قليل من الحراس وطاقم يخته فقط.

بمجرد تمركزهم عند باب الجناح الرئيسي، انتظر الفريق الثالث. وفي غضون ثوانٍ، وعلى بعد طابق واحد فوقهم، أعلن الفريق الثاني أنهم خارج أماكن إقامة الطاقم.

– "جميع الفرق، التنفيذ في ثلاث. Uno... dos... tres".

على مهبط المروحية، أطلق مارتن ورمسيس رصاصتين مكتومتين من رشاشاتهما الـ "شتاير" في رأس كل حارس على سطح التشمُّس.

فتح الفريق الثاني كلاً من أماكن إقامة الطاقم ومقصورة القبطان؛ صوب رجل سلاحه نحو سرير القبطان، بينما أشعل اثنان آخران الأنوار في أماكن الطاقم وصوبا أسلحتهما نحو الرجال الثمانية المتوقع نومهم هناك.

ركل الفريق الثالث، بقيادة الرائد إدواردو غامبوا، باب الجناح الرئيسي. شغّلوا المصابيح المثبتة تحت مواسير رشاشاتهم لكنهم وجدوا الغرفة غارقة بالفعل في الضوء. كانت شاشة البلازما مقاس 52 بوصة في هذه الغرفة تعمل أيضًا؛ وكانت تبث مقابلة مع دانيال دي لا روشا. كان يتحدث إلى مراسل خارج الكاميرا. تجاهله غامبوا واندفع نحو السرير الضخم بحجم "كينغ سايز".

كانت هناك كتلة كبيرة تحت الملاءات الحريرية هي هدفه.

لكن قبل أن يصل إلى السرير، وسلاحه مرفوع للإطلاق، لفت انتباهه صوت عن يمينه.

– "مرحبًا بك في (لا سيرينا)، أيها الرائد إدواردو غامبوا".

كان صوت دي لا روشا. رفع غامبوا بصره في صدمة. كان دي إل آر على التلفزيون ينظر مباشرة في عيني غامبوا. بدا وكأنه في استوديو، يرتدي بدلته السوداء الإيطالية الأنيقة التي لا تفارقه.

– "قاتل حكومي، هنا، لتصفيتي. Dios mio! (يا إلهي)". قالها الوجه الوسيم على الشاشة بابتسامة خفيفة؛ كان شعره المالس، وسكسوكته، وشاربه الرفيع تلمع بالسواد؛ وعيناه مثبتتان وكأنهما تخترقان غامبوا.

نظر إدواردو للخلف نحو باب الممر. كان رجلاه يحدقان في التلفزيون وعيونهما متسعة.

عبر سماعة الأذن سمع الرائد الفريق الأول يبلغ:

– "تم تصفية الأهداف الأربعة جميعًا".

ثم الفريق الثاني:

– "رائد... معظم هذه الأسرّة فارغة. هناك ثلاثة رجال فقط هنا. لا يوجد قبطان".

ثم، من التلفزيون، واصل دي لا روشا مخاطبة الضابط الفيدرالي المذهول:

– "رائد غامبوا، دعني أسألك شيئًا. إذا كنت تعمل لدى الفيدراليين، وأنا أملك الفيدراليين، فأين يتركك هذا أنت ورجالك؟"

نظر غامبوا إلى الكتلة في السرير، ورفع الملاءات بيده المغطاة بالقفاز.

متفجرات "C4" بلاستيكية، مائة باوند على الأقل في قوالب موصولة معًا ومثبت بها صاعق أحمر.

تمتم غامبوا:

– "Qué chingados?" (ما هذا بحق الجحيم؟)

جاء الصوت من الشاشة:

– "هل حصلت على إجابتك بعد؟ موتى! يتركك هذا أنت وفريقك اللعين muerto, pendejo! (موتى، أيها الأحمق!)".

استدار إدواردو غامبوا مبتعدًا عن القنبلة، وضغط زر الإرسال في جهازه اللاسلكي صارخًا:

– "إنه فخ! غادروا القارب!"

استدار رجال إدواردو أمامه، وبدأوا يركضون عبر الممر. ركض خلفهم؛ كانوا قد وصلوا لتوهم إلى الصالون، وتجاوزوا للتو التلفزيون الذي يعرض الفيلم الممجد لجرائم دانيال ألونزو دي لا روشا ألفاريز، عندما انفجر وميض من خلفهم. ابتلعهم عصف اللهب الحارق، وقضوا نحبهم في الانفجار المذهل للسفينة التي تبلغ قيمتها ثلاثة وثلاثين مليون دولار.

كان دانيال دي لا روشا يطفو في الماء، على بعد مائة ياردة من حطام "لا سيرينا" الجميلة. انتظر بصبر بينما قام إميليو وفيليبي، حارساه الشخصيان، بنفخ قارب النجاة الطارئ، ثم ساعداه على الصعود.

بمجرد صعود الثلاثة إلى القارب المطاطي الصغير، ألقوا معدات الغوص التي كانوا يرتدونها منذ انزلاقهم من قارب النجاة الخشبي على السطح العلوي إلى مياه خليج بانديراس. تمكنوا من السباحة لمائة ياردة قبل أن يُقتل الرجال الأربعة الذين تُركوا على سطح التشمُّس، وهذا أخبر دانيال بأن الوقت قد حان للضغط على جهاز التحكم عن بعد المقاوم للماء الذي بدأ التسلسل في كل من مشغل الـ DVD الخاص به وقنبلته.

والآن، راقب هو ورجاله ألسنة اللهب تشتعل فوق الماء. تمنى ألا يطول الوقت قبل أن تأتي دورية إطفاء الميناء المحلي لإنقاذ "الناجين

الثلاثة". كان دانيال يعلم أنه سيصبح "شهيدًا حيًا" بعد هذا العمل العدواني من قبل الفيدراليين؛ بل إنه في الحقيقة عمل لشهور ليستغل هذه اللحظة.

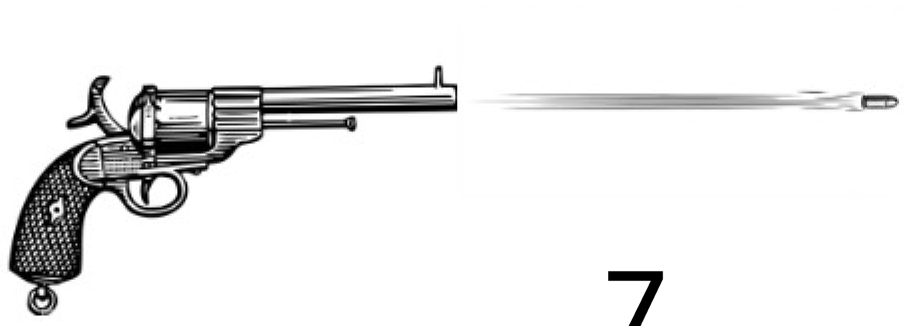
سيفتقد "لا سيرينا"، بلا شك. لكنها مؤمّن عليها، ومروحيته "يوروكوبتر" مؤمّن عليها، والعديد من الأعمال الفنية التي لم تكن حتى على متن اليخت مؤمّن عليها. على أي حال، لقد حان الوقت للتحديث. كانت هناك جوهرة بطول مائة وستين قدمًا رآها قبل بضعة أشهر في فورت لودرديل، وسيجعل رجاله يبدأون العمل فورًا على المالك لتشجيعه على بيعها.

كان الرقيب مارتن أوروزكو فرنانديز والرقيب رمسيس سينفويغوس كورتيلو يطفوان في الماء الأسود. كلاهما مصاب: حروق في ساقي رمسيس ستصرخ ألمًا في الماء المالح بمجرد أن يتبدد الأدرينالين بما يكفي ليشعر بها، والتواء طفيف في المعصم الأيسر لـ مارتن سيجعل من سباحة السبعة أميال نوعًا خاصًا من الجحيم.

لكنهما سباحان ممتازان، وبذلات الغوص خاصتهما تساعد على الطفو. لن يغرقا.

لكن ذلك لم يجعل أيًا منهما يشعر بتحسن يذكر.

لأن بقية فريقهما قد ماتوا، وكان واضحًا لكليهما أنه تم الإيقاع بهما من قبل قادتهم، وقادتهم هؤلاء موجودون في مكان ما على الشاطئ الذي يسبحان نحوه. قلة قليلة فقط كانت تعلم بهجوم الليلة، وأدرك رمسيس ومارتن أن واحدًا على الأقل من تلك القلة قد سرب المعلومات لـ دي لا روشا.



7

كقاعدة عامة، كان كورت يفضل محطات الحافلات في دول العالم الثالث. فهنا، يمكنه مراقبة الناس بأدنى قدر من التدقيق المتبادل، والجلوس بمفرده في زاوية مظلمة، وامتصاص تجارب الآخرين. إن ورطته الشخصية، وحقيقة أن العديد من الأشخاص شديدي الخطورة يريدونه ميتاً، فرضت عليه حياة العزلة، والابتعاد عن البشر، وعدم الثقة فيهم بشكل عام. ولهذا السبب، كان الأمريكي البالغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا يتعرف على الحياة اليومية الطبيعية والعائلة والعلاقات بالوكالة، وغالبًا ما يكون ذلك في محطات الحافلات. مراقبة أب يوبخ طفله المشاغب، أو زوجين شابين يتعانقان ويضحكان معًا، أو رجل عجوز يتناول عشاؤه وحيدًا.

عاش كورت بهذه الطريقة حصريًا لمدة خمس سنوات، وهي المدة التي قضاها العميل السابق لوكالة الاستخبارات المركزية (CIA) هاربًا من الوكالة نفسها، متفاديًا أمر تصفية فورية بمجرد رؤيته. لكن الجلوس وحيدًا ومراقبة الآخرين وهم يعيشون حياتهم كان، بدرجة أو بأخرى، هو حياة كورت طالما أمكنه التذكر.

مرت تسعة أيام منذ مغادرته البرازيل؛ وسافر برًا منذ ذلك الحين – مستخدمًا الدراجات والحافلات وسيرًا على الأقدام وصولًا إلى أمريكا الوسطى. لم يمكث لأكثر من ست ساعات في مكان واحد.

وها هو الآن يجلس في محطة حافلات بمدينة غواتيمالا، في انتظار "حافلة دجاج" تقله إلى الغابة الشمالية قرب الحدود مع المكسيك وبليز.

كان يملك القليل من المال الآن، لكن ليس الكثير. باع مسدس صائد البشر في السلفادور، ولا يزال يحتفظ ببعض اليوروهات التي أخذها من محفظة الهولندي. لكنه اشترى ملابس مستعملة في بنما وحقيبة رياضية قماشية خضراء ليحملها فيها. هذا، بالإضافة للطعام وتذاكر الحافلات، لم يكلف الكثير. يمكن لـ جينتري تدبر أمره بأقل مما يحتاجه أي أمريكي آخر تقريبًا؛ ومع ذلك، ستصبح السيولة النقدية مشكلة عما قريب.

تتدلى شاشة تلفزيون بالأبيض والأسود من عمود معدني في زاوية غرفة الانتظار. كانت تبث برنامجًا حواريًا من مكسيكو سيتي يظهر فيه متحولون جنسيًا يصرخون في وجوه بعضهم البعض حول ترهات ما. لم يُعِر كورت التلفزيون اهتمامًا كبيرًا؛ بل كانت عيناه مثبتتين على الرجل العجوز وطبق الأرز أمامه. كان هو الرجل الذي يمسح الأرضية القذرة وينظف المراحيض بروتينية هنا في المحطة؛ لقد جلس القاتل الأمريكي هنا لفترة كافية لرؤية الرجل أثناء عمله. والآن يجلس عامل النظافة على طاولة بالمقهى وينقر في طعامه، يمتص الأرز لأنه لا يملك أسنانًا كافية ليفعل به شيئًا آخر. هل يضطر للعمل طوال الليل؟ وهل هناك من ينتظره في المنزل عند الصباح؟

وجد كورت نفسه ينسج قصة للرجل، وفي نواحٍ كثيرة كانت تعكس قصته هو.

لم يتوقع كورت أن يعيش طويلًا مثل ذلك العجوز، ووجد في ذلك عزاءً منحرفًا لأنه لم يكن يريد أن يكون وحيدًا وعجوزًا في آن معًا.

كانت القرية في الأمازون بمثابة صحوة له. عندما وصل كورت هناك، كان قد سافر لخمسة أشهر متواصلة. بضعة أسابيع في ريو،

وبضعة أسابيع في كيتو، وبضعة أيام في عشرين مدينة أخرى. طوال ذلك الوقت كان يفكر في التوقف؛ لم تفارق الفكرة ذهنه قط. اعتقد أنه يريد العثور على مكان للإقامة، وعمل يقوم به، وأناس حوله، والذين، بطبيعة الحال، لن يعرفوا هويته الحقيقية أبدًا لكنهم سيعرفونه كشخص ما، وهو أمر مختلف تمامًا عن السفر، حيث لا يكون معروفًا ولا ملاحظًا من قبل من حوله.

وقد وفرت له قرية الأمازون كل هذا. كان الناس لطفاء، ولم يكونوا فضوليين للغاية. ساعده التقشف على التركيز ودفعه بعيدًا عن إدمان المسكنات الذي تركه خلفه، شيئًا فشيئًا، في كل بلدة مر بها منذ كاراكاس في أبريل الماضي.

كان نظيفًا من المخدرات لمدة شهرين بحلول وقت وصوله إلى الأمازون، وساعدت التمارين والعمل المستمر والخطر الناجم عن لا شيء أكثر شرًا من طبيعة الخالق، ساعدت جسده على نسيان تلك التفاهات المبتذلة مثل الرغبة في استرخاء تمنحه حبة دواء.

لكن كان هناك جانب سلبي. لقد أدرك أن الأشياء التي كان يسعى إليها – الاستقرار، والأمان النسبي، والروتين – لم ترضه. كان يشمئز من الاعتراف بذلك، لكن عندما جاء ماورو الصغير وأخبره بقدوم صائد البشر، شعر بإحساس لا يمكن إنكاره بالراحة يغمر جسده.

إثارة. أدرينالين. هدف.

لم يعجب ذلك كورت جينتري، لكنه لم يعد يستطيع إنكاره.

بعد قرية الأمازون، وبعد الارتياح العبثي لهجوم مروحيات مليئة بالمسلحين، أصبح أمر واحد واضحًا له.

كورت جينتري هو الرجل الرمادي، والرجل الرمادي يعيش من أجل هذا القرف.

كان كورت جالسًا على كرسي بلاستيكي مسندًا رأسه إلى الجدار وقدميه مرفوعتين على حقيبته القماشية. لكنه اعتدل في جلسته ليحرك ظهره، ويثني ثم يمدد العضلات العلوية في كتفه الأيسر حيث يزعجه نسيج ندبي من جرح سهم قديم، إذ يحتاج التصاق الأنسجة لتمارين تمدد يومية جيدة ليبقى مرنًا.

بدأت نشرة الأخبار المسائية على التلفزيون الصغير، واستمع إليها كورت بشرود دون النظر للشاشة، ملتقطًا كلمات هنا وهناك بينما كان يميل للأمام ويلف ذراعيه حول جسده ليمدد العضلات تحت لوحي كتفيه.

لم تلفت كلمات "بويرتو فالارتا" انتباهه، ولا "يخت" أو "انفجار". لكن الكلمة الإسبانية asesinato (اغتيال) جعلته يدير رأسه. كان لديه اهتمام مهني حاد بقصص الاغتيالات.

شاهد فيديو لحطام يتصاعد منه الدخان في المحيط، التقطته مروحية عند الفجر. ثم صورة لرجل إسباني وسيم يرتدي بدلة سوداء أنيقة من ثلاث قطع. قال المذيع إن اسم الرجل هو دانيال دي لا روشا، وهناك تكهنات بأنه كان هدفًا لعملية تصفية رسمية من قبل الشرطة الفيدرالية المكسيكية. لم يستطع كورت فهم كل شيء، لكنه التقط أن دي لا روشا قد نجا وأن رجال الشرطة الذين فجروا اليخت قد ماتوا جميعًا.

يا للهول، فكر كورت. تلك عملية تصفية فاشلة بحق. لماذا تفجير اليخت؟ لماذا لم يطلقوا النار على ابن العاهرة وهو على اليابسة فحسب؟

تغيرت الصورة على الشاشة مرة أخرى، لتظهر صورة رسمية لرجل بزي الشرطة يجلس أمام العلم المكسيكي. كان يرتدي قبعة

أنيقة، وتزين الأوسمة معطف زيه العسكري، وكان وجهه الحليق جادًا وصارمًا.

أمال كورت رأسه جزءًا من البوصة. ورمش مرتين بسرعة. عدا ذلك، لم يحرك ساكنًا. اكتفى بالمشاهدة.

واصل المذيع الحديث فوق صورة الشرطي، وركز جينتري على الكلمات، وضبط سمعه على القواعد النحوية، وبذل قصارى جهده للفهم.

– "وتقول المصادر إن الرائد إدواردو غامبوا من مجموعة العمليات الخاصة بالشرطة الفيدرالية قاد محاولة اغتيال دانيال دي لا روشا. وكما ذُكر سابقًا، قضى غامبوا وجميع رجاله في انفجار اليخت، إلى جانب أربعة من حراس دي لا روشا وثلاثة من طاقم (لا سيرينا). ولم ينجُ سوى دي لا روشا واثنين من مساعديه".

إدواردو غامبوا.

همس كورت بصوت خافت:

– "إدواردو غامبوا".

غادرت الصورة الشاشة، وظهر إعلان تجاري لبيع خطط الهاتف المحمول، لكن جينتري كان لا يزال يرى الوجه.

– "إدواردو غامبوا".

قالها مرة أخرى بصوت خافت. ثم قال:

– "إيدي".

رمش كورت مجددًا، وأسقط وجهه الملتحي بين كفيه، وعاد بذاكرته إلى الشهر الذي قضاه في الجحيم.

لاوس

قبل سنوات من الوقت الحاضر

سحب أربعة جنود يرتدون معاطف المطر العسكرية الخضراء الأمريكي من مؤخرة الشاحنة ودفعوه عبر العاصفة الرعدية، صعودًا في الممر الموحل. تعثر مرة في الطريق إلى الكوخ الخشبي: يداه وقدماه المكبلتان أجبرته على التحرك ببطء أشد مما رآه حراسه معقولًا، ولم يكن ثوبه الطويل المبلل بالمطر وقدماه الحافيتان لتساعداه على ثبات خطواته فوق الحجارة الزلقة. نكزه أحد اللاوسيين في ظهره ببندقية "SKS" قديمة ليحث جينتري على الإسراع. بمجرد وصوله تحت سقف شرفة الكوخ، سقط كورت على ركبتيه، لكن الحراس جذبوه واقفًا وتركوه يترنح هناك بينما فُتح الباب. تمايل مع رياح العاصفة وهو يقف وينتظر؛ وأخيرًا، أدخلوه المبنى.

خلع الجنود معاطف المطر وعلقوها على أوتاد بالجدار بينما خرج ضابط من خلف مكتبه وفتح بابًا لدرج يهبط إلى الظلام. ترنح كورت مرة أخرى، وكاد يسقط، لكن أيادي قوية على ظهره وكتفيه وجهته أسفل السلالم الضيقة. في الأسفل فُتح باب مغلق آخر، ودُفع جينتري للأمام على أرضية من الطوب، وأزيلت أغلاله. فتح الجنود الأربعة زنزانة حديدية ودفعوه بداخلها.

سقط في زاوية الزنزانة، وتركوه هناك بثوبه المبلل، بينما صكت القضبان المعدنية خلفه مغلقة. أغلق الجنود باب القبو خلفهم بعنف، وأقفلوه، ثم تراجعوا صعودًا عبر الدرج.

كان جينتري قد سقط على نشارة خشب عفنة؛ امتلأ فمه بها فبصقها بينما كان ممددًا على جنبه. فتح عينيه وجاهد ليتفقد المكان. كان هناك زوج مطوي من البيجامات بلون أزرق فاتح ملقى على الأرض بجانبه؛ بالكاد استطاع تمييزه. كان هناك ضوء خافت ينبعث من فتحة تهوية عالية بالجدار فوقه؛ تسلل أثر ضئيل من الإضاءة

الخافتة برفق إلى حيث يرقد جينتري، لكنه لم يكشف شيئًا عن الغرفة حوله.

لم يستطع رؤية بوصة واحدة أبعد من ذراعه الممدودة على النشارة.

تمتم لنفسه:

– "تبًا. هذا رائع بحق الجحيم".

نادى صوت رجل بأمل من الظلام أمامه، من داخل قضبان الزنزانة، ربما على بعد اثني عشر قدمًا من طرف أنف كورت:

– "إنجليزي؟"

لم يرد جينتري.

بعد قليل سمع حركة، صوت شخص يجلس، واحتكاك ملابس بالجدار الحجري.

سأل الصوت بلهجة أمريكية، ربما ذات خلفية أجنبية:

– "هل تتحدث الإنجليزية؟"

تجاهل كورت السؤال.

واصل الصوت في الظلام:

– "أنا هنا منذ أسبوعين. قضيت اليومين الأولين أبحث عن كاميرات أو أجهزة تنصت. صدقني، هؤلاء الـ pendejos (الحمقى) ليسوا متطورين إلى هذا الحد".

حرك كورت نفسه ببطء إلى وضع الجلوس، واستند بظهره إلى القضبان الحديدية. أومأ للظلام. وهز كتفيه قائلًا:

– "أتحدث الإنجليزية".

فوجئ بمدى ضعف صوته وبحته.

– "هل أنت أمريكي؟"

– "أجل".

– "وأنا كذلك".

قال كورت:

– "أنت تتحدث بلكنة غريبة".

صدرت ضحكة مكتومة من الصوت غير المرئي.

– "ولدت في المكسيك. وجئت إلى الولايات المتحدة حين كنت في الثامنة عشرة".

– "إذًا أنت بعيد جدًا عن وطنك".

– "أجل. ماذا عنك؟ ما الذي فعلته لينتهي بك المطاف هنا؟"

– "لست متأكدًا أين الـ(هنا) بالضبط".

– "نحن على بعد ساعتين شمال غرب فيينتيان في معسكر عسكري يرمون فيه مهربي الهيروين الأجانب. إنه ليس سجنًا رسميًا؛ لا يوجد قاضٍ أو محاكمة أو صليب أحمر أو أي شيء من هذا القبيل. يحضرون المتاجرين هنا لاستجوابهم، وانتزاع أسماء مورديهم، وعندما يتأكدون من أنهم عصروا كل ما لديهم، يأخذونهم إلى معسكر عمل ويجبرونهم على بناء الطرق حتى يسقطوا موتى. يقولون إنه خلال ثلاثة أسابيع سينتهي موسم الأمطار وستكون الطرق سالكة، وحينها سيُرحّل الجميع هنا إلى معسكرات العمل".

قال كورت بعد سعال آخر:

– "يا للمصيبة".

– "ما كمية المخدرات التي ضبطوك بها؟"

أغمض كورت عينيه وأمال رأسه للخلف مستندًا للجدار الحجري البارد. وهز كتفيه.

– "لم أكن أهَرِّب المخدرات".

– "بالتأكيد لم تكن، يا صاح. فقط أخبرهم أنه سوء تفاهم".

– "في الواقع جئت لإنقاذ عميل غبي من إدارة مكافحة المخدرات قبض عليه هؤلاء البلهاء الذين يديرون هذا المكان".

صمت طويل للغاية. ثم ضحكة مكتومة جديدة. ثم ضحكة قوية بدت في غير محلها تمامًا في هذا القبو المظلم. ثم صوت حركة في الظلام. في الضوء الخافت القريب من وجه كورت، ظهر رجل ملتحٍ. بدا مكسيكيًا، في أواخر العشرينيات، وأقصر من كورت بعدة بوصات. كان يرتدي بيجامة زرقاء فاتحة، وكان الجلد حول عينيه ملطخًا بكدمات باهتة، واضحة حتى في الظل العميق. مد يده قائلًا:

– "إيدي غامبل. إدارة مكافحة المخدرات، مكتب فينيكس الميداني، في مهمة خاصة لصالح قسم بانكوك الميداني".

صافحه كورت بضعف.

– "مرحبًا، غامبل؟ كيف تسير مهمتك الخاصة تلك؟"

– "وكيف تسير مهمتك أنت، ese (يا صاح)؟"

ابتسم كورت؛ آلمته عضلات فكه.

– "ليست أفضل من مهمتك، أظن".

– "إذًا أنت هنا لإنقاذي، ها؟"

أومأ جينتري برأسه.

ضرب إيدي غامبل حشرة عن جبهته وسأل:

– "هل هذا هو الجزء الذي تهبط فيه باقي وحدتك بالحبال من العوارض وننطلق جميعًا خارجين من هنا بحقائب نفاثة؟"

نظر كورت نحو السقف المنخفض.

– "يا رب، أتمنى ذلك".

لم يحدث شيء. نظر مرة أخرى إلى غامبل. وهز كتفيه.

– "أظن لا".

سأل إيدي:

– "مع من تعمل؟"

– "لا أستطيع القول".

– "لدي تصريح أمني (سري للغاية)".

علق جينتري مازحًا:

– "الفتيات يعجبهن ذلك، أليس كذلك؟"

كانت عيناه قد اعتادتا على الضوء الخافت، فمسح الزنزانة الآن، ولم يجد شيئًا سوى دلو فضلات وحوض ماء وبضع بطانيات مهترئة كأثاث.

– "أعني... أنا واثق من أنك تستطيع إخباري لمن تعمل".

– "آسف يا بطل. أنا مصنف تحت (كود سري)".

(كود سري) يعني أن من يعرفون كودًا معينًا فقط هم المطلعون على مجموعة من المعلومات.

– "أراهن أن الفتيات يعجبهن ذلك".

– "سيعجبهن لو استطعت إخبارهن، لكن عليهن معرفة الكود أولًا".

ضحك غامبل على هذا، وعلى الموقف.

– "يمكنك المجيء لإنقاذي، لكن لا يمكنك إخباري لمن تعمل؟"

– "إدارة مكافحة المخدرات تبحث عنك. تصادف وجودي في المنطقة، نوعًا ما، فأرسلني قومي لأستطلع الأمر".

– "ثم؟"

هز كورت كتفيه.

– "سوء حظ. مرضت. كنت ألتقي ببعض جهات الاتصال، وفقدت الوعي. استيقظت في المستشفى. كان لدي هوية زائفة للإقامة فقط؛ لم تكن أوراقي جيدة بما يكفي لتدقيق المستشفى، فاتصلوا بالشرطة. لم تكن أوراقي قريبة حتى من الكفاية للشرطة، فاتصلوا بالاستخبارات العسكرية. مسحت الاستخبارات العسكرية مؤخراتها بأوراقي، ببساطة، وها أنا ذا".

مد غامبل يده ووضعها على جبهة جينتري.

– "هل لسعتك أي بعوضة؟"

– "عبرت نهر الميكونغ قبل حوالي أسبوع ونصف. الحشرات اللعينة أكلت مؤخرتي. أظن أنهم لا يحصلون على الكثير من اللحم الأبيض هنا".

– "ألم في الظهر، آلام عضلية، تقلصات معدة، دوار؟"

أكمل كورت قائمة أعراضه:

– "إعياء، ألم مفاصل، قيء".

قال إيدي بجدية:

– "لديك ملاريا".

– "شكرًا يا دكتور، لكنني اكتشفت ذلك بالفعل".

نظر غامبل إلى جينتري طويلًا قبل أن يقول:

– "يا أخي، هذا حكم بالإعدام في مكان كهذا. تحتاج لأدوية. ماء نظيف. طعام صلب لا تزحف فيه الصراصير. لن تحصل على ذلك هنا".

هز كورت كتفيه.

– "سأكون بخير".

نهض إيدي بسرعة، بسرعة جعلت جينتري يجفل. تحرك غامبل نحو القضبان وبدأ يصرخ مناديًا الحراس أعلى الدرج. لم يستطع كورت فهم كلمة واحدة. لم ينزل الحراس، وبعد لحظة جلس غامبل مرة أخرى، والغضب بادٍ عليه.

– "يجب أن ننقلك لمستشفى".

– "لقد سحبوني للتو من مستشفى، تذكر".

– "¡Pendejos!"

– "ماذا تعني؟"

– "إنها إسبانية. تعني شيئًا مثل... حمقى أو ما شابه".

أومأ كورت.

– "وهل كانت تلك لغة لاوسية التي تحدثت بها للحراس؟"

– "تايلاندية. ليست نفسها تمامًا، لكنها قريبة بما يكفي للعمل الحكومي".

– "توقعت أن عميل في مكافحة مخدرات ذا جذور مكسيكية كان سيُرسل لأمريكا اللاتينية. أظن إن كنت تتحدث التايلاندية، فسيرسلونك هنا".

– "يتم إرسالي لكل مكان. قبل هذه الوظيفة كنت في البحرية لست سنوات، في الفرق (Teams). ذهبت لكل مكان، والتقطت بعض اللغات في الطريق".

– "الفرق(Teams)؟ كنت في القوات الخاصة البحرية (SEAL[2])؟"

– "الفريق الثالث".

أومأ كورت، باحترام قدر المستطاع وهو يسند رأسه للجدار.

– "أنت هنا منذ أسبوعين. إذا كنت فردا من الـ SEALs كان يجب أن تكون قد هربت الآن، وقضيت أسبوعًا تضاجع فتيات الشاطئ على الساحل، ثم عدت للوطن مع وقت فائض".

تحفز غامبل في الظلام. أدرك كورت أن الرجل لم يعجبه تلميح أنه ضعيف.

– "بالتأكيد، يمكنني الخروج من هنا. ينزل حارسان لاقتيادي لكوخ الاستجواب كل صباح. يمكنني كسر عنقيهما. يمكنني خطف سلاح جانبي والركض لمرآب السيارات. يمكنني تشغيل سيارة بأسلاكها في ثوانٍ. يمكنني تحطيم البوابة الأمامية، والركض للميكونغ".

– "لكنك بقيت لأنك تحب الطعام؟"

أظهر تعبير وجه غامبل عدم التصديق.

---

[2] تُعتبر فرق "*SEALs*" التابعة للبحرية الأمريكية (وهو اختصار لمصطلح *Sea, Air, and Land* أي البحر والجو والأرض) نخبة القوات الخاصة، ويُعزى ذلك إلى التدريب القاسي والمُضني الذي يخضعون له، بالإضافة إلى طبيعة المهام شديدة الخطورة التي توكل إليهم.

– "يا أخي... أنا من إدارة مكافحة مخدرات. لست أنتمي القوات الخاصة البحرية بعد الآن، وبالتأكيد لست سنجابًا سريًا، ولا كودًا مصنفًا، ولا رجلًا خارقًا مثلك. لا يمكنني الركض وقتل الجيش اللاوسي".

أومأ كورت ببطء. كان يعمل وفق قواعد اشتباك مختلفة تمامًا، لكنه لم يكن ليعترف بذلك لـ إيدي.

سأل غامبل:

– "ماذا عنك؟ هل يمكنك إخباري بخلفيتك؟ أعني، لم تولد مصنفًا بكود سري، أليس كذلك؟"

– "نسيت كل شيء قبل هذه الوظيفة".

– "تبًا، الـ CIA تعبئكم أنتم العملاء المنفردين بإحكام، أليس كذلك؟"

لم يعلق كورت. لم يعترف بأنه CIA.

منحه غامبل لحظة، ثم قال:

– "حسنًا. ماذا عن اسم؟ هل لديك اسم؟"

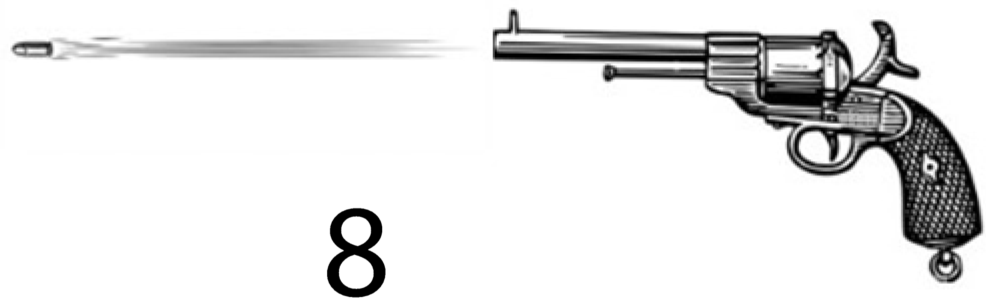
هز الأمريكي المريض المستند للجدار كتفيه مرة أخرى.

– "كُشف غطائي. يمكنك تأليف اسم لي. أي شيء تحبه".

هز غامبل رأسه. وهز كتفيه.

– "حسنًا، amigo (يا صديقي). أعتقد أنني سأسميك (سالي)".

ضحك كورت حتى هبط صدره، وسعل حتى تكور في وضع الجنين، يعتصره الألم.



8

غادر عقل جينتري التاريخ القديم في لاوس، ليعود إلى هنا والآن، ونظر للأسفل نحو قبر إدواردو غامبوا، والتربة الجافة المحفورة حديثًا والمتفتتة حول الشاهد.

مات الرائد غامبوا منذ ثمانية أيام، واستغرق انتشال رفاته من المحيط الهادئ ثلاثة أيام، وكانت جنازته أول أمس، ومع ذلك، قام الناس بالفعل بتشويه الصليب الخشبي الأبيض بطلاء الرش.

Hijo de puta! (ابن عاهرة).

Cabrón (تيس)، وهي شتيمة إسبانية تشبه "أحمق" أو "حقير."

Pendejo كان إيدي نفسه من علم كورت معنى الكلمة التي تزين الآن شاهد قبره.

تصلبت عضلات فك كورت غضبًا. لم يفهم. من بحق الجحيم قد يغضب من إيدي؟ يبدو أن هناك خفايا للقصة أكثر مما سمعه عبر الراديو عند كشك الشطائر في تشياباس. كان جينتري قد التقط تقرير متابعة مدته دقيقتان حول تفجير اليخت، وذُكر إدواردو غامبوا مرة أخرى كقائد العملية الميت.

لا شك في ذهنه. إدواردو غامبوا هو الرجل الذي عرفه باسم إيدي غامبل.

لم يرَ كورت إيدي ولم يسمع منه منذ لاوس. لم تكن لديه أدنى فكرة أن رجل مكافحة المخدرات قد عاد إلى المكسيك، وهذا الأمر

حيره بشدة. لماذا بحق الجحيم قد يرغب أي شخص في مغادرة الولايات المتحدة للمجيء إلى هنا ومحاربة تجار المخدرات وفساد الحكومة؟ ألم يكن هناك ما يكفي من الجريمة والهراء في الولايات المتحدة لإبقاء إيدي سعيدًا هناك؟

لم يبدُ أن رحلة ميدانية كانت ضرورية.

عندما رأى كورت تقرير وفاة إيدي، كان في طريقه إلى تامبيكو، على ساحل الخليج المكسيكي. سمع أن الكثير من سفن الشحن الأوروبية ترسو في الميناء هناك، وكان يريد إيجاد طريقة للعودة إلى نصف الكرة الشرقي لمواجهة وقتل مشغله السابق غريغور سيدورينكو، الرجل الذي يسعى الآن بنشاط، جنبًا إلى جنب مع وكالة الاستخبارات المركزية، لتدميره.

لكن التقرير الإخباري الثاني من بويرتو فالارتا غير الأمور. ذكر أن الرائد غامبوا سيُدفن في مسقط رأسه سان بلاس، على بعد تسعين دقيقة صعودًا بالساحل من مكان وفاته.

شعر كورت أنه إذا كان قريبًا إلى هذا الحد، على بعد رحلة حافلة ليوم واحد فقط، فعليه على الأقل الذهاب وتقديم واجب العزاء.

وها هو ذا، يقف على تلة صخرية تبعد ميلًا ونصف الميل عن المحيط الهادئ. كانت المقبرة شديدة الانحدار حوله مغطاة بأضرحة رخيصة مصنوعة من الصفائح المعدنية والمشمع والبلاستيك والكتل الخرسانية. وبين هذه النصب التذكارية الأكبر للموتى، كانت هناك شواهد قبور أقل زخرفة، تتناثر حولها الشموع والتماثيل البلاستيكية والزهور الصناعية. كانت السحالي السمينة تتشمس على الصخور المحطمة أو تطارد بعضها البعض حول كتل ضخمة من أشجار الموز تنمو بريًا وسط العشب الطويل. هبت نسمة ظهيرة حارة لتسفي شعر جينتري الطويل في عينيه وهو ينظر إلى المثوى الأخير لصديقه القديم.

محدقًا في الشتائم المكتوبة بطلاء الرش، سأل نفسه: لماذا كل الناس هنا غاضبون جدًا من إيدي؟

لاوس

قبل سنوات من الوقت الحاضر

عام 2000

كان إيدي غامبل محقًا بشأن كون معسكر الاعتقال العسكري في بان نام فونغ ليس مكانًا لرجل مصاب بالملاريا. تدهورت حالة كورت الضعيفة مع كل يوم يمر وسط طعام رديء، وأرضية باردة من نشارة الخشب، وظروف غير صحية تمامًا.

أصبحت مهمته لإنقاذ إيدي نكتة في اللحظة التي أُلقي فيها معه في الزنزانة، لكن الآن أصبح إيدي هو من يحاول يائسًا إنقاذ "سالي".

مرة واحدة يوميًا، كان جينتري يُسحب صعودًا عبر الدرج، ويُقتاد عبر المجمع الصغير إلى مبنى خشبي، ويُلقى على الأرض أمام مكتب، ويستجوبه ضابطان عسكريان لاوسيان يتحدثان القليل من الإنجليزية ويبقيان عينًا واحدة على مباريات فنون القتال "مواي لاو" العنيفة المعروضة على تلفزيون صغير مثبت بالجدار. كان الرجلان يشربان الماء العذب من زجاجات بلاستيكية كبيرة لتعذيب أسيرهما المريض والعطش. سألاه مرارًا وتكرارًا كيف دخل البلاد ومن جاء لمقابلته وعشرات الأسئلة الأخرى، دون أي شك بأنه عميل استخبارات للولايات المتحدة الأمريكية. لم يقدم كورت أي إجابات، بل طلب فقط دواءً وبطانية ووسادة وماءً عذبًا. وفي كل يوم كان المحققون يرفضون.

باستثناء بضع صفعات مفتوحة اليد على الرأس، لم يضربوه، لكنهم استخدموا مرضه ضده، واعدين إياه بأنه لن يحصل على علاج للملاريا حتى يوقع اعترافاً.

وفي كل يوم يُسحب عائدًا لأسفل الدرج، ويُرمى في نشارة الخشب، ليؤخذ إيدي بعد ذلك لدوره أمام المحققين الكسالى.

بعد أسبوع تدهورت حالة جينتري الجسدية لدرجة أنه بالكاد كان يستطيع الزحف نحو الدلو المعدني الذي يتشاركه مع غامبل كمرحاض. بدأ إيدي برعاية "منقذه"، ومساعدته في قضاء حاجته، وغسله بالماء لتنظيفه، وحتى منحه نصف حصته اليومية من البطاطس والخبز المتعفن واللفت، المدعومة أحياناً بعلبة صغيرة من المرق البارد المصنوع من عظام الحيوانات. كان غامبل يخفف حمى جينتري بتبليل جبهته القرمزية باستمرار بجورب مبلل، وفرك ذراعيه وساقيه عندما تداهمه القشعريرة. احتج كورت على كل ما يُفعل لأجله، وحث عميل مكافحة المخدرات باستمرار على التركيز في إيجاد طريق للخروج من المعسكر بمفرده.

كان كورت يزداد ضعفاً لدرجة تعجز معها عضلاته عن الحركة، لكن عقله المدرب جيدًا لم يفقد القدرة على التخطيط.

– "اسمع يا إيدي. ربما نكون على بعد بضعة أميال فقط من نهر الميكونغ والحدود التايلاندية. إذا هربت من هنا، فلديك فرصة للعودة إلى الوطن. لكن عندما يأخذوننا إلى معسكرات العمل، سنكون في الجبال، على بعد أسابيع من الحضارة، وأسابيع من معبر حدودي. إذا لم تخرج من هنا قبل أن نذهب للمعسكرات، فاللعبة انتهت".

هز إيدي رأسه فقط.

– "لن أتركك هنا، ولن أسمح لك بالذهاب لمعسكر العمل وحدك. ستموت".

– "أنا ميت على أي حال يا صاح. عليك التركيز فيما يمكنك فعله. عليك الخروج من هنا".

لكن إيدي كان عنيدًا؛ واصل العناية بزميله الضعيف في الزنزانة ولم يحاول الهرب بمفرده.

مع قضاء اثنين وعشرين ساعة يوميًا معًا ولا شيء آخر لفعله حرفيًا، قضى كورت وإيدي وقتًا هائلًا في الحديث. كان الحوار متعثرًا بسبب رفض جينتري المطلق الكشف عن أي معلومة عن نفسه، لكن إيدي كان ثرثارًا. تحدث عن حياته ونشأته في بلدة صغيرة على ساحل المحيط الهادئ في المكسيك، ورحلته عبر الحدود إلى تكساس كمهاجر غير شرعي، وسنواته الطائشة في عصابة "شيكانو" في ريفرسايد بكاليفورنيا، ثم قراره الانضمام للجيش سعيًا للحصول على الجنسية الأمريكية.

انضم إيدي للبحرية لأن والده كان صيادًا، لكنه أدرك سريعًا أنه هو نفسه لا يريد العيش على قارب. تأهل لاختيار القوات الخاصة البحرية (SEAL) وتفوق في التدريب الوحشي، وكسب احترام الكادر وزملائه المجندين في الطريق. بعد عامين ونصف من التدريب قبل الانتشار وأربع سنوات في "الفريق الثالث"، ترك الجيش وانضم لإدارة مكافحة المخدرات. حياته في جنوب كاليفورنيا منحته كراهية للمخدرات وتجارها، وعمل بشكل أساسي متخفيًا في أجزاء مختلفة من العالم.

بعد أسبوعين من جلبهما لمنشأة اعتقال بان نام فونغ، كان كورت مستلقيًا مستيقظًا في الظلام، وقشعريرة العرق تهدد بدفعه للجنون، مستمعًا لـ إيدي وهو يثرثر بلا توقف عن أخته الصغيرة، لوريتا، وكيف يفتقدها ويكره تركه لها في قرية الصيد الصغيرة التي نشأ فيها عندما انتقل للولايات المتحدة. انجرف عقل جينتري بعيدًا عن تاريخ حياة غامبل وتحول للمشكلة الراهنة. ركز كل انتباهه على

تذكر كل شيء يراه كل يوم عندما يُؤخذ من زنزانته، ويُجر عبر المعسكر الصغير، ويُرمى في كوخ الاستجواب. كانت السماء تمطر دائمًا؛ كانت هناك شاحنات وسيارات جيب تغوص بوصات في طرق الحصى والوحل، وربما عشرون حارسًا مسلحين ببنادق كلاشينكوف "AK-47" وبنادق "SKS" صينية الصنع.

أحيانًا، كان يرى سجناء آخرين، معظمهم من الـ "همونغ" – أقلية عرقية تعرضت للتنكيل لعقود من قبل الـ "باثيت لاو"، الحكومة الشيوعية اللاوسية. هؤلاء الرجال لم يكونوا متورطين في تهريب الهيروين أكثر مما كان جينتري؛ لقد اصطدموا فقط بالشيوعيين المحليين في السلطة وكانوا يعانون بسبب ذلك.

بينما كان يبذل قصارى جهده لتجاهل ثرثرة إيدي المستمرة – كان يتحدث الآن عن رغبته في شراء شاحنة "فورد" جديدة للاحتفال عندما يخرج من هنا – لمعت فكرة في ذهن جينتري. بدأ في تفحصها فورًا لاكتشاف الثغرات، محاولًا إيجاد نقاط الضعف في خطته. كانت هناك ثغرات: بعضها يمكنه ترقيعه بتغييرات تكتيكية طفيفة، وبعضها كان عليه تركه مفتوحًا. لا توجد خطة مضمونة تمامًا؛ وقد تعلم ذلك بالطريقة الصعبة خلال خمس سنوات في الميدان.

بينما كان عقل جينتري يتسابق، تحدث غامبل عن عائلته.

– "أرسل ثلثي راتبي لأمي وأبي، أفعل ذلك منذ تجنيدي. ومع ذلك أتمنى لو أستطيع فعل المزيد لـ لوريتا. هي في التاسعة عشرة الآن، فتاة رائعة؛ بالنظر إليّ لن تصدق كم هي جميلة. أريد إحضارها للولايات المتحدة، لكنها لا تريد المجيء. تقول إنها تريد الذهاب للجامعة وإيجاد وظيفة هناك".

توقف إيدي، لفترة طويلة جعلت كورت يلتفت للصمت النادر.

– "يجب أن نخرج من هنا يا (سالي). لدي الكثير من الناس يعتمدون عليّ في الوطن".

– "ستعود للوطن. أعدك".

– "لن أتركك يا صديقي. أخبرتك بذلك".

غير كورت الموضوع ليتبع سيل أفكاره.

– "هاي، قلت إن بإمكانك تشغيل سيارة بأسلاكها، أليس كذلك؟"

فوجئ إيدي بتغير الحديث، لكنه تدحرج على ذراعه، وابتسم ابتسامة عريضة وفخورة.

– "في ريفرسايد كانوا يسمونني (إيدي السريع) لأنني كنت أستطيع سرقة أي سيارة في أقل من ستين ثانية".

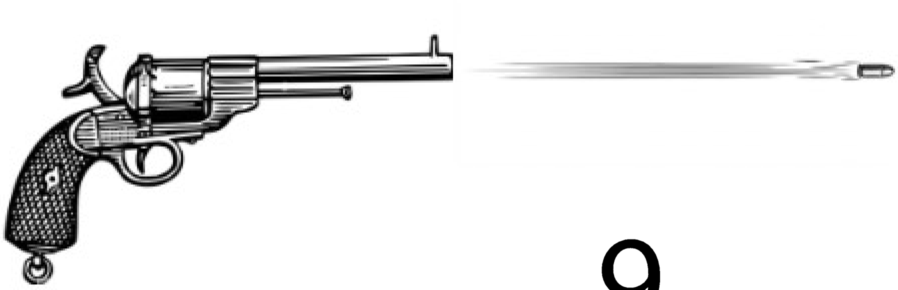
أومأ جينتري.

– "(إيدي السريع). هل ما زلت تستطيع فعلها؟"

– "أجل. لم يمر وقت طويل. لماذا تسأل؟"

– "مجرد فضول".

ترك كورت الأمر. وعاد للعمل على خطته.



9

سأل صوت أنثوي من خلفه:

– "Señor?" (سيدي؟)

انتفض كورت، منتزعًا من تلك الليلة في مرتفعات لاوس، وعائدًا إلى ظهيرة دافئة يعصف بها النسيم على ساحل المحيط الهادئ في المكسيك.

لم يكن مفاجئًا أنها تحدثت بالإسبانية. كانت بلهجة وجد جينتري صعوبة في فهمها.

– "إذا كنت تريد كتابة شيء ما، هل يمكنك فعل ذلك الآن حتى أتمكن من طلائه؟ أفضل ألا أضطر للعودة في وقت لاحق اليوم. إنها مسافة طويلة للعودة إلى الطريق لشخص في حالتي".

التفت كورت نحو صوت المرأة. كانت تقف خلفه وأسفل منه، على بعد بضعة أقدام أسفل التل على ممر ترابي متعرج ينحدر من الطريق المرصوف بالحصى المؤدي إلى سان بلاس. كانت وحيدة، وشعرها الداكن مشدودًا للخلف بإحكام، وفستانها القطني الأبيض يتطاير مع النسيم الدافئ. كانت تحمل علبة طلاء بيضاء صغيرة وفرشاة بيديها، وحقيبة كبيرة على كتفها.

كانت في الخامسة والثلاثين أو نحو ذلك. جميلة جدًا.

وحاملًا جدًا.

أجاب كورت بالإسبانية:

– "أنا آسف. ظننت أن هذا الرجل شخص أعرفه. كنت مخطئًا".

نزل عن التلة باتجاه الممر الترابي، وهمّ بالمرور بجانب المرأة مع إيماءة خفيفة، متجنبًا التواصل البصري، لكنها اعترضت طريقه. رفعت رأسها عاليًا وأرجعت كتفيها للخلف، متحدية إياه بجرأة.

توقف كورت.

– "من الذي تبحث عنه؟ إنها بلدة صغيرة. أنا واثقة من أنني أعرف كل عائلة مدفونة في هذه المقبرة".

كان واضحًا أنها تعلم أنه يكذب، ومن نظرة تعبيرها الحائر، أدرك كورت أن لكنته لفتت انتباهها.

تردد. لقد كُشف أمره، ولا جدوى من التمادي في كذبة واضحة.

قال وهو يهز كتفيه:

– "كنت أعرف إيدي. كنت في المنطقة فقط. فكرت في المرور. آسف. علي اللحاق بحافلة. عن إذنك".

حاول المرور بجانبها مرة أخرى، ومرة أخرى، تحركت لتعترض مساره.

– "إيدي؟ هل أنت أمريكي؟" تحولت للحديث بالإنجليزية.

– "نعم".

ظلت حذرة؛ لم تبتسم أو تومئ. لكن ببطء مدت يدًا صغيرة، وصافحها كورت.

– "هل أنت زوجة إيدي؟"

– "اسمي إيلينا. نعم، كنت زوجة إيدي".

– "اسمي جو". اختلق الاسم من العدم.

تأمل المرأة للحظة. وسأل بأسف:

– "هل كان إيدي ينتظر طفلًا؟" جفل كورت حتى والكلمات تخرج من فمه.

– "نعم كان ينتظر طفلًا. صبي".

لم يقل شيئًا. اكتفى بالإيماء.

– "هل كنت مع إدواردو في البحرية؟"

– "لا".

– "آه، إدارة مكافحة المخدرات؟"

– "لا".

تجعدت الملامح الناعمة لوجهها ذي اللون الكراميلي وهي تفكر.

– "عرفته في كاليفورنيا أو ما شابه؟"

تردد. كان يكره إخبار الناس بالحقيقة. لم تكن طريقته في العمل. قرر البقاء غامضًا.

– "منذ زمن طويل، أنقذ زوجك حياتي، وخاطر بحياته ليفعل ذلك. هذا حقًا كل ما يمكنني قوله لك".

شعر بعينيها عليه لفترة طويلة. مرتين اختلس النظر إليها ووجدها تحدق في وجهه؛ وفي المرتين أدار رأسه عائدًا إلى القبر.

ابتسمت. وقالت:

– "لقد أنقذ حيوات كثيرة، أظن. هنا وفي الولايات المتحدة. كان رجلًا طيبًا".

– "أنا آسف حقًا..."

– "هل أنت هنا من أجل حفل التأبين؟"

– "حفل التأبين؟"

– "غدًا، في بويرتو فالارتا، سيكون هناك حفل تأبين للضباط الثمانية الذين ماتوا في الخليج. نتوقع حضورًا كبيرًا من السكان المحليين لتكريم تضحيتهم. هل ستكون هناك؟"

تردد جينتري.

– "أود ذلك. لكن علي العودة إلى الطريق السريع".

– "يا للأسف".

بدا على إيلينا أنها لا تصدقه، وهو ما يعني لـ كورت أنها تملك جهازًا جيدًا جدًا لكشف الكذب.

– "أحتاج لطلاء الصليب مرة أخرى".

صعدت التلة وركعت، مترنحة بسبب تغير مركز ثقلها. وبينما كانت تفتح علبة الطلاء، نظرت خلف كتفها، وابتسمت، وقدمت دعوة جديدة.

– "يجب أن تأتي معي للمنزل الآن. ستكون عائلة إدواردو بأكملها هناك، وبعض الأصدقاء، وأقارب ثلاثة من الرجال الآخرين الذين قُتلوا. الجميع في منزلنا الليلة لتناول العشاء؛ وفي الصباح سنذهب جميعًا معًا للتأبين. سيسعد والدا إيدي جدًا بلقاء صديق لـ إدواردو من الولايات المتحدة".

– "أتمنى لو أستطيع، لكن من الأفضل أن أعود إلى..."

– "لقد قطعت كل هذه المسافة. كنت أنت وإدواردو صديقين. ماذا سيظن بي وهو ينظر إليّ من السماء إذا لم آخذك للمنزل وأقدم لك وجبة تقديرًا لعنائك؟"

ركعت وبدأت العمل وكأن الأمر قد حُسم – غطت الكتابات السوداء بالطلاء الأبيض النقي.

أراد كورت الاعتراض أكثر، لكنه لم يستطع إنكار حاجته لشيء جيد ليأكله. فمع ما تبقى من نقوده، كان يملك بالكاد ما يكفي لشق طريقه عبر البلاد إلى تامبيكو وشراء بضع شطائر أو سندويشات "تاكو" من باعة الشوارع على الطريق. لن يجادل زوجة إيدي في هذا.

أشار إلى الكتابات المسيئة.

– "من فعل ذلك؟"

قالت:

– "Cabrones" (أوغاد). ثم نظرت لـ كورت بابتسامة اعتذار.

– "مجرد أناس من معجبي دانيال دي لا روشا".

سأل كورت، مذهولًا بعض الشيء:

– "زعيم المخدرات لديه نادي معجبين؟"

– "أوه، يقولون إنه رجل أعمال شريف. يقولون إنه فعل الكثير من الخير لهذه المنطقة. يقولون إن زوجي تصرف دون إذن. لكن إدواردو كان يعرف كل شيء عن دي لا روشا؛ لم يكن ليلاحقه لو كان رجلًا طيبًا".

أنهت عملها. قطرت بضع بقع بيضاء ساطعة على التراب البني المفتت أسفل الشاهد.

– "سنحضر له شاهد قبر جميلًا. بمجرد أن تتوقف الكتابات. الأمر لا يستحق العناء الآن".

ثم وقفت. تركت كورت يأخذ علبة الطلاء والفرشاة، وبدآ السير نحو مخرج المقبرة.

لاوس

قبل سنوات من الوقت الحاضر

عام 2000

وجد الذباب والصراصير والجرذان طريقها إلى زنزانة القبو؛ تكفلت الرائحة الكريهة والمقززة للفضلات البشرية بجذبها. أصبح كورت أضعف يومًا بعد يوم: فقد عشرين باوندًا منذ المستشفى، وأصبح جلده الآن جافًا وخشنًا من نقص السوائل والفيتامينات. وباستثناء الرحلة اليومية لكوخ الاستجواب، لم يكن لديه أي نشاط بدني ولا ضوء طبيعي أو هواء نقي.

في نهاية الأسبوع الثاني، أخبر المحققون إيدي أنه سيُنقل هو وزميله السجين إلى معسكرات العمل في غضون ثلاثة أيام. طالب إيدي

مرة أخرى بغضب بنقل زميله للمستشفى أو على الأقل إعطائه دواءً للملاريا، لكن اللاوسيين لم يبدوا أي اهتمام على الإطلاق بمهرب مخدرات غربي شاب. استشاط إيدي غضبًا، وهاجم محققيه، ولم يُردع إلا بأخمصي بندقيتين كبيرتين من نوع "SKS" ضُربا في قاعدة جمجمته. أُعيد، فاقدًا للوعي، إلى القبو مع ورم دموي ضخم في مؤخرة رأسه. ثم سُحب جينتري لـ "جلسته".

عندما أُخبر كورت عن الرحلة الوشيكة شمالًا لمعسكرات العمل، صدم محققيه.

– "حسنًا، لقد سئمت من هذا القرف. سأعطيكم أسماء جهات اتصالي في فيينتيان، وأرقام الحسابات المصرفية، وأخبركم من أين نأخذ الخشخاش وكيف ننقله عبر الميكونغ إلى تايلاند".

تحولت عينا الرجلين عن مباراة "مواي لاو" في التلفزيون لتنغرزا في الرجل الهزيل، الغارق في العرق، الجالس أمامهما.

أمر الرجل الأكبر رتبة:

– "نعم. إذن تتكلم الآن!"

– "لا. من الأفضل أن أكتب كل شيء. أسهل لكم لتفهموه".

أومأ الرجلان.

– "نعم".

– "لكنني أريد بعض الأشياء منكم".

– "ماذا تريد؟" خيم شك جديد ليطفئ تعبير الرضا على وجهي الرجلين.

– "صديقي مصاب. أريد رأسه مضمدًا. مضمدًا بعناية".

لوّح الرجل الأكبر بيده في الهواء.

– "لا مشكلة".

– "أريد بطانية دافئة وجافة. وأريد زجاجة من ذلك الماء الذي تشربونه". وأشار لإبريق بلاستيكي سعة لترين على الطاولة. أومأ المحققان مرة أخرى.

– "ماذا أيضًا؟"

– "أظن أن بعض الورق وشيئًا للكتابة سيكون جيدًا".

ضمّد الحراس رأس إيدي بينما كان كورت مستلقيًا بالقرب منه في الزنزانة ويوبخهم بصوته الواهن وإيماءاته الضعيفة، آمرًا إياهم باستخدام المزيد من الشاش والمزيد من الشريط اللاصق. في البداية حاول غامبل دفعهم بعيدًا، مصرًا على أن الورم برأسه لا يحتاج للتحنيط كي يشفى. لكن كورت كان مصرًا، وأخيرًا رضخ إيدي وترك كورت يتولى مسؤولية رعايته الطبية.

حصل كورت على دفتره وقلمه وبطانية صوف جديدة، وكتب ملاحظات طوال فترة ما بعد الظهيرة والمساء. أثناء الليل فتح الزجاجة وشرب معظم الماء النظيف بنفسه، ولم يمرر سوى الرشفات الأخيرة القليلة للرجل الذي أبقاه حيًا. أخذها إيدي وأنهاها بنهم، لكن فقط بعد أن أكد له كورت أنه أخذ كفايته.

عندما أُحضر الطعام اليومي في الصباح التالي، فاجأ كورت زميله.

– "سآخذ كل طعامك".

– "لا، سأعطيك النصف. حمل مؤخرتي المتعرقة فوق الدلو يحرق الكثير من السعرات يا صديقي".

سحب كورت كلا الطبقين القصديريين أمامه وهو يتحدث.

– "اسمع، أحتاج لطاقة إضافية اليوم".

– "لماذا؟ ماذا سيحدث؟"

– "إذا لم ينجح الأمر، أفضل ألا تعرف. قد يكون ذلك أفضل لك".

بدا إيدي قلقًا.

– "هيا يا (سالي). لست في حالة تسمح لك بمحاولة أي شيء. دعني أتحدث للحراس اليوم؛ إذا ظنوا أنك تتنازل عن بعض المعلومات وقدمت أنا بعض المعلومات المضللة، فربما يأتون بذلك الدواء الذي تحتاجه".

– "لا... الأمر لا يتعلق بحصولي على دواء. الأمر يتعلق بالخروج من هنا بحق الجحيم".

بدأ كورت الأكل من الطبقين. نظر غامبل إليه بجوع. وبين قضمات اللفت ورشفات مرق العظام، قال كورت:

– "أوه نعم، شيء آخر. أحتاج لكل ضماداتك".

ببطء، ودون أي فكرة عما يحدث بحق الجحيم، نزع إيدي غامبل الشاش والشريط اللاصق عن رأسه وناوله إياه.

قضى كورت النصف ساعة التالية مستلقيًا على جنبه تحت بطانيته، وظهره لزميله السجين. سأل إيدي مرارًا وتكرارًا عما سيحدث، لكن زميله في الزنزانة لم يجب.

جاء الحراس لاقتياد إيدي لاستجوابه. وبينما كانوا يغادرون، نادى كورت:

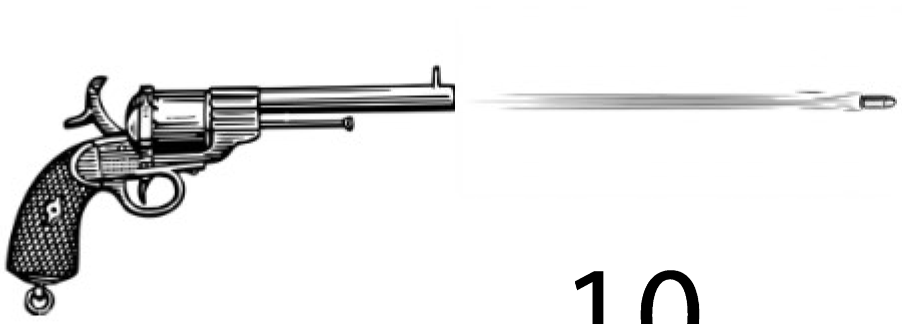
– "أخبرهم أنني أحتاج قلمًا آخر. نفد حبر هذا القلم. إذا أحضروه قبل أن أصعد، فستكون قائمتي جاهزة".

نظر إليه إيدي طويلًا قبل نقل الرسالة. كان واضحًا أنه يدرك أن شيئًا ما على وشك الحدوث، وكان قلقًا أكثر منه متحمسًا.

عندما انغلق الباب على إيدي والحارسين، استخدم كورت كل القوة التي منحتها إياه زجاجة الماء النظيف والوجبتان الكاملتان ليزحف نحو باب الزنزانة. أخرج القلم الذي أُعطي له في اليوم السابق، وكسره، ثم أزال أنبوب الحبر من المقبض البلاستيكي. مد يده عبر القضبان، وزلق رأس القلم داخل القفل، وتحسس المسننات بيد مرتعشة لكنها متمرسة. لقد عبث بالقفل لعدة أيام متتالية بينما كان

إيدي نائمًا، واستخدم قطعًا من القش لاستكشاف تجاويفه وكشف أسراره. مستخدمًا إحدى القطع البلاستيكية المكسورة كأداة شد، أدار الأسطوانة. لقد أنجز هذا العمل الفذ آلاف المرات حرفيًا في تدريبه ببرنامج تطوير الأصول المستقلة التابع لـ CIA في "هارفي بوينت"، بولاية كارولينا الشمالية، وكان هذا القفل في الواقع أسهل بكثير في التغلب عليه من معظم الأقفال التي تدرب عليها.

انفتح باب الزنزانة في ثوانٍ.



10

سار كورت برفقة إيلينا لما يقرب من ميل عبر شوارع سان بلاس؛ بدت المرأة الحامل مرتاحة تمامًا رغم الجهد المبذول، وإن غطى العرق بشرتها البنية الفاتحة. مروا بمطاعم على جانب الطريق، ومحطة الحافلات؛ وتنزهوا بجانب كلاب شاردة نائمة في ساحة البلدة، ودجاج ينقر بحثًا عن الحشرات في مكب نفايات. اتجهت إيلينا جنوبًا، ودخلت سوق خضار مفتوحًا واشترت بضعة أكياس من البطاطا الحلوة والمانجو. كان لدى كورت أسئلة لها؛ لم يستطع منع نفسه. عرف أنها من غوادالاخارا، والتقت بـ إيدي عندما كان عميلًا لإدارة مكافحة المخدرات يعمل هناك، وتزوجا قبل وقت قصير من عودته للهجرة إلى المكسيك للانضمام للشرطة الفيدرالية قبل خمس سنوات. اشتريا منزلًا في سان بلاس ليكونا بالقرب من عائلته، إذ لم يكن لديها أقارب مقربون.

غادر كورت وإيلينا السوق، وانعطفا في شارع ضيق وقذر يُدعى Calle de Canalizo. ورغم أنه غير معبد، إلا أنه كان محاطًا بعقارات متوسطة الحجم ذات بوابات، وبعد بضع دقائق من السير، دخلت إيلينا عبر بوابة مفتوحة. تبعها كورت في ممر قصير نحو منزل رمادي من طابقين مبني بالكتل الخرسانية ومحاط بنبات الجهنمية والكروم. منزل إيدي.

كانت الكلاب تركض وتلعب في الحديقة الأمامية وسط العديد من السكان المحليين؛ بينما تجول رجال ونساء شرطة يرتدون قمصان بولو صفراء وهراوات على أحزمتهم في الممر والساحة الأمامية.

كانت هناك شاحنة "فورد F-350 سوبر ديوتي" فضية ضخمة رابضة في الممر. كانت مزينة بنوافذ معتمة، ورف من الكشافات الضوئية، ورافعة كبيرة في المقدمة، والكروم يكسوها بالكامل، وملصق قديم للبحرية الأمريكية على النافذة الخلفية. شاحنة إيدي، لم يكن لدى كورت أدنى شك. تذكر حديث غامبل عن حبه لشاحنات "فورد" الضخمة، ورؤية المركبة الساكنة جعلت كورت يشعر بالحزن.

قادته إيلينا لداخل المسكن البسيط. في غرفة المعيشة الأمامية، كان هناك عشرات الأشخاص واقفين وجالسين، يتجاذبون أطراف الحديث بينما تصدح موسيقى الأكورديون الصاخبة من مسجل "بوم بوكس" على الأرض. وقف كورت خلف إيلينا وهي تحيي زوجين مسنين؛ ثم قدمتهما كوالدي زوجها، إرنستو ولوز. لم يكونا يتحدثان الإنجليزية، لذا قدم كورت نفسه بالإسبانية كصديق قديم لابنهما من الولايات المتحدة.

كانت لوز غامبوا في الستينيات من عمرها، قصيرة وممتلئة، بوجه عريض يظهر ابتسامة ودودة وحزنًا عميقًا في عينيها في آن واحد. كان زوجها أطول وأنحف، ربما أكبر بخمس سنوات، مع تجاعيد عميقة وداكنة تغطي وجهه. حياة كاملة قضاها على متن قارب صيد صغير في المحيط الهادئ مع الرياح والشمس تركت أدلة محفورة بالملح للسنوات والبحر على جلده. بدا مرتابًا قليلًا من الأمريكي الواقف في غرفة معيشة ابنه الميت، لكن الرجلين تصافحا ورحب إرنستو بـ "خوسيه" في سان بلاس.

ناولت إيلينا المنتجات التي اشترتها من السوق لفتى في السادسة عشرة، قدمته كابن أخ لـ إدواردو، واختفى الفتى باتجاه الجزء الخلفي

من المنزل المفروش ببساطة. ثم اصطحبت المرأة الحامل الأمريكي في جولة، وعرفته على عمات وأعمام إدواردو، وعدد آخر من أبناء وبنات الإخوة، وشقيقين، والعديد من الأصدقاء من المنطقة.

وضع سيزار غامبوا، أحد أعمام إيدي، زجاجة بيرة "باسيفيكو" باردة في يد كورت وتبادل المجاملات مع الأمريكي في الممر الخلفي للمنزل، بينما اختفت إيلينا لتحية المزيد من الضيوف. بينما كانا يتحدثان، نظر كورت حوله إلى الصور المعلقة في الممر. كانت الجدران مزينة بصور زفاف إيدي وإيلينا. تذكر كورت تلك الابتسامة العريضة من لاوس – حينها وجد أنه من المدهش أن الرجل استطاع الابتسام في وقت كهذا. كانت هناك أيضًا عدة صور لـ إيدي مع رجل أمريكي أشيب الشعر على قارب صيد. في إحدى الصور كانا يحملان معًا سمكة "مارلين" ضخمة. السمرة، ونظارات "راي بان"، والابتسامات تغطي وجوههما.

ثم مسح جينتري الصور المؤطرة لـ إيدي وهو أصغر سنًا بكثير مع فريق "SEAL" الخاص به. وقف الرجال بأسلحتهم. بدا إيدي شابًا ولائقًا بشكل لا يصدق، ورغم أن بقية الرجال معه كانوا أطول برأس من الأمريكي المكسيكي، بدا إيدي غامبل مرتاحًا و"مسيطرًا".

نقرت إيلينا على كتف كورت من الخلف. استدار كورت ليجد نفسه واقفًا أمام الرجل العجوز الذي رآه للتو في الصورة مع إيدي وسمكة المارلين. كان قصيرًا، في السبعين أو نحو ذلك، ويرتدي قبعة زرقاء للبحرية الأمريكية.

تبًا، فكر كورت. غرينغو.

تحدثت إيلينا بالإنجليزية:

– "خوسيه، أود أن أقدمك لأحد أصدقاء إيدي الأعزاء، القبطان تشاك".

قال الرجل العجوز وهما يتصافحان:

– "تشاك كولين، البحرية الأمريكية، متقاعد".

كانت قبضته طويلة وشرسة في محاولة واضحة للترهيب؛ وعيناه لا تشيان بأي ثقة. كان عجوزًا، لكنه كان رشيقًا ولائق بدنيًا، ومن المؤكد أنه يعتني بنفسه جيدًا بحق الجحيم.

تابعت إيلينا الحديث، ربما استشعرت انعدام الثقة المبدئي بين الرجلين:

– "كان خوسيه صديقًا لـ إدواردو".

تجعد وجه كولين الخشن المسمر في ابتسامة ممتعضة:

– "حسنًا، أي صديق لـ إيدي هو صديق لي".

لكن كورت أدرك أنه لم يكن يعني ذلك. نظر جينتري إلى مظهره الخاص، وعلم أنه يبدو أشبه بمرافق لفرقة "هيفي ميتال" من أن يحظى باحترام ضابط بحرية سابق سبعيني. مع الارتياب الواضح علي وجهه الآن، سأل كولين:

– "كيف عرفتَ إيدي بالضبط؟"

– "التقيتُ به عندما كان في إدارة مكافحة المخدرات".

سأل كولين بابتسامة وكأنها مزحة:

– "إذًا، هل أنت في مكافحة المخدرات، أم أنه اعتقلك ذات مرة؟"

لكن جينتري شعر بأن العجوز يعتبر "ذا الشعر الطويل" الواقف أمامه إنسانًا يستحق الارتياب. بدأ كولين في قول شيء آخر، بلا شك ملاحظة توبيخية أخرى. لكن إيلينا عادت وقاطعت المحادثة.

– "كدت أنسى. تعال يا جو. لدينا المزيد من الناس لتقابلهم. يمكنكما الحديث على العشاء".

كانت مسافة قصيرة عبر الممر الضيق إلى المطبخ. هنا كانت نصف دزينة من النساء من مختلف الأعمار يحضرن الوجبة؛ يستخدمن كل سطح مستوٍ ممكن في الغرفة الصغيرة لتقطيع الفواكه والخضروات، وتبريد البيرة بالثلج، وتحريك القدور الكبيرة من الحساء

والأرز، ودهن الخبز الطازج من الفرن بالزبدة. قُدمت اثنتان كعمات لـ إيدي، وأخرى كأخت زوجته.

عند الحوض، كانت امرأة ذات شعر أسود قصير تغسل البطاطا الحلوة؛ كانت ترتدي مئزرًا وظهرها لـ كورت وإيلينا، لكنها استدارت لتسأل زوجة إيدي سؤالًا.

انغرزت عينا كورت في عينيها، ووجد نفسه عاجزًا عن تحويل نظره. كانت جميلة، بشكل استثنائي، لكن ليس مثل إيلينا. كانت أصغر حجمًا، ببشرة بلون القهوة بالحليب، أغمق قليلًا من بشرة زوجة إيدي. عيناها البنيتان المتألقتان كانتا ضخمتين، نصف مخفيتين تحت غرة نفختها بعيدًا عن وجهها وهي تجفف يديها بالمنشفة. كانت تشبه الصبيان تقريبًا في بنيتها وحركاتها، وأظهر كتفاها لمحات من العضلات تحت بلوزتها البيضاء البسيطة ذات النقوش الزهرية المخيطة يدويًا.

قالت إيلينا:

– "هذا جو من لوس إيستادوس يونايدوس (الولايات المتحدة). جو، هذه..."

أكمل كورت الجملة:

– "أخت إيدي الصغيرة. لوريتا".

قالها بصوت خافت، بتبجيل. استطاع رؤية الكثير من صديقه القديم فيها. في سيل من الذكريات، عادت إليه الأسابيع في تلك الزنزانة اللاوسية الملطخة بالقاذورات. كان إيدي يتحدث عنها بلا توقف، وكان ندمه الوحيد بشأن الهروب إلى أمريكا هو ترك تلك الفتاة الصغيرة خلفه. كان يرسل معظم راتبه الضئيل كمجند إلى الوطن، ليعيل والديه وأخته عن بعد، لكن كان من الواضح بشكل مؤلم أنه شعر بأنه تخلى عن الطفلة بتركها خلفه هنا في سان بلاس.

أنهت لوريتا تجفيف يديها بقطعة قماش وتقدمت؛ صافحت كورت، وشعر بعينيها عليه. تمتم بشيء ما بالإسبانية عن كونه صديقًا قديمًا لأخيها. بدت كلماته غبية في أذنيه.

تحدثت إليه بالإنجليزية:

– "لا أحد يناديني لوريتا منذ وقت طويل. أنا لورا. تشرفت بلقائك".

قال كورت:

– "Igualmente" (وأنا كذلك). مشيرًا لها بإمكانية الاستمرار بلغتها الأم إذا رغبت.

سألت:

– "هل كنت مع إدواردو في البحرية؟"

لكن إيلينا تدخلت بسرعة:

– "لا يمكنه الحديث عن كيفية معرفته بـ إدواردو. نوع من المهام السرية، أعتقد".

وغمزت لـ كورت. كان هناك حزن في عينيها لكنه ممزوج بمرح تآمري أيضًا.

أومأ كورت، وقال:

– "كان ذلك منذ فترة. كان شابًا رائعًا".

أومأت لورا:

– "نعم".

نظر في عينيها ووجد نفسه يتراجع للخلف. واصل بالإسبانية من أجلها:

– "قضيت... الكثير من الوقت مع إيدي. تحدث عنك. كنت مجرد طفلة حينها، أظن".

تلعثم باحثًا عن شيء آخر لقوله، لكن لم يأتِ شيء أصيل.

– "لقد تحدث عنك".

ابتسمت في البداية، لكن في ثوانٍ ضاقت عيناها المستديرتان واحمر وجهها. وبدأت تبكي.

قالت بابتسامة محرجة:

"Lo siento" –(أنا آسفة).

رفعت مئزرها ومسحت عينيها الدامعتين به، ثم غادرت الغرفة بسرعة.

تجاهلت إيلينا هذا العرض العاطفي؛ كانت قد تحركت بالفعل وبدأت العمل على البطاطا الحلوة في الحوض.

وقف كورت هناك بمفرده في وسط المطبخ، خائفًا الآن من قول كلمة لعينة أخرى.

تبًا لك يا جينتري.

لاوس

قبل سنوات من الوقت الحاضر

عام 2000

لعشر دقائق، استند كورت بظهره إلى الجدار المجاور لباب الدرج وزجاجة الماء في يده.

لقد ملأ الزجاجة البلاستيكية الفارغة بالزغب من البطانية الصوفية والشاش من رأس إيدي، ولف الجزء الخارجي بقطعة من البطانية مغطاة بالشريط الطبي الأبيض. هدد هذا المجهود بإدخاله في النوم لساعات. قاومه بكل قوته. كان قد بدأ يغفو للتو عندما سمع شخصًا ينزل السلم.

هب جينتري واقفاً. استنشق الهواء العفن الملوث برائحة فضلاته، مالئًا رئتيه بالأكسجين الذي يحتاجه ليمنحه دفعة من القوة للحظات القادمة.

انفتح الباب. دخل حارس يحمل قلمًا. توقف وهو يغلق الباب، ملاحظاً الآن أن السجين ليس في الزنزانة.

تحرك كورت جينتري من خلف الباب، واصطدم بالرجل بعناق الدب، وطرحه أرضًا بثقل جسده.

نهض كورت على ركبتيه. أمسك برأس الجندي المذهول بكلتا يديه، ورفعه، وضرب به الأرضية الحجرية. مرة، مرتين، ثلاثاً.

ظلت عينا الشاب مفتوحتين ومتجمدتين في الموت. سقط كورت فوقه. منهكًا تمامًا.

بعد ثوانٍ، مد قدمه الحافية ودفع الباب ليغلقه. استعاد عافيته أخيرًا بما يكفي لسحب المسدس الصيني من طراز "Type 77" من حزام اللاوسي. كان يطلق خرطوشة ضعيفة عيار 7.65 × 17، وكان جينتري ليكره الرهان بحياته عليه، إلا في الوضع الذي وجد نفسه فيه الآن. جاهد للعودة زاحفاً عبر الأرضية، مكافحًا موجة من الإسهال أرادت الخروج من أمعائه وهو يتحرك، وأخيرًا وصل للباب ولزجاجة مائه. حشر فوهة السلاح في عنق الجهاز البلاستيكي المحشو، وتأكد من تثبيته قدر الإمكان، وحاول النهوض على قدميه.

لا فائدة. لم يملك الطاقة ولا التوازن للوقوف.

سيتعين عليه القتال وهو مستلقٍ على ظهره.

ستعمل زجاجة الماء ككاتم صوت كافٍ للمسدس الصغير، على الأقل لطلقة أو اثنتين. سيكون دوي المسدس مكتومًا، لكنه لن يكون صامتاً بأي حال، فالكاتم لا يمكنه فعل شيء حيال الدوي الصوتي المصغر الناتج عن كسر الرصاصة لحاجز الصوت.

ومع ذلك، فإن هذا الكاتم المرتجل، تمامًا مثل أرقى كواتم الصوت العسكرية، صمم ليس لجعل السلاح صامتًا بل لجعله لا يبدو كصوت طلق ناري عند الإطلاق.

ناظرًا للجندي الميت بجانبه على الأرض، عدل كورت خطته التشغيلية مرة أخرى. كان قد خطط لسحب الرجل لداخل الزنزانة وتغطيته ببقايا البطانية لخداع الحراس العائدين مع إيدي. لكن العميل الأمريكي كان يعلم جيدًا أنه إذا لم يستطع حتى الوقوف بمفرده، فهو بالكاد يملك القوة لسحب الوزن الميت عبر الأرضية.

بدلًا من ذلك، استلقى على ظهره، على بعد خمسة أقدام من الباب، وانتظر.

غفا، واستيقظ فزعًا حين سمع مفتاحًا في قفل الباب أمامه. كان يود لو دخل إيدي والحراس الغرفة وأغلقوا الباب خلفهم حتى لا يُسمع طلق النار المكتوم في الأعلى. لكن مع الجثة الملقاة على بعد بضعة أقدام من الباب، علم أن ذلك غير ممكن. لذا بمجرد أن أُدير المفتاح وفُتح المزلاج، جلس جينتري، متمنيًا بشدة أن يكون هناك حارس أو اثنان فقط مع إيدي.

لكن كان هناك خمسة رجال ينزلون الدرج الضيق في طابور واحد. كانوا جميعًا مبللين من العاصفة الرعدية بالأعلى، ومتراصين بإحكام، لا يفصل الواحد عن الآخر أكثر من خطوتين؛ وكان إيدي غامبل الثالث في الطابور. كان الحارس الأول لا يزال يده على مزلاج الباب عندما دخل. أمسك جينتري المسدس بيده اليمنى وثبّت الكاتم منزلي الصنع بإحكام على الفوهة بيده اليسرى. وقبل أن يتمكن الجندي الأول من رد الفعل، وجه كورت زجاجة الماء نحو وجه الرجل وأطلق طلقة واحدة. انفجرت نهاية الزجاجة بفرقعة عالية لكن يمكن السيطرة عليها، وارتد رأس الجندي للخلف. سقط للخلف على الأرض ويداه ترتفعان لوجهه الملطخ بالدماء.

لم يتردد كورت. رفع المسدس والكاتم الذي يتصاعد منه الدخان للأعلى وأطلق النار على الرجل أمام إيدي مباشرة. لم يكن اللاوسي قد بدأ حتى في التحرك نحو سلاحه قبل أن يتلقى رصاصة صغيرة في العين اليمنى، وسقط ميتًا على الفور.

اشتعل الصوف في كاتم صوت كورت وتصاعد منه الدخان الآن، وكان الدوي الثاني ضعف الأول. رفعه باتجاه إيدي غامبل، الذي بحكمة سقط على ركبتيه عند الدرجة السفلية للسلم. أطلق كورت النار على الرجل خلفه في الحلق تمامًا بينما كان مسدس الجندي يرتفع لمواجهة التهديد المفاجئ في القبو.

هذه المرة، تحطمت زجاجة الماء المشتعلة تمامًا، مرسلة شظية بلاستيكية حادة في إبهام كورت الأيسر. كان الطلق مكتومًا، بلا شك، لكن أعلي صوتًا بكثير من الطلقتين الأوليين. أصبح السلاح الآن عديم الفائدة كأداة سرية. ألقى كورت الزجاجة جانبًا ووجه المسدس نحو الحارس المتبقي.

لم يمد الجندي الأخير في الطابور يده لسلاحه؛ بل استدار ليركض عائدًا أعلى الدرج. استدار إيدي غامبل، وتسلق فوق اللاوسي المتخبط ووريده الوداجي يتدفق دمًا، وأمسك بالرجل الهارب من كاحله. صرخ الجندي وهو يسقط، وارتطم وجهه أولًا، ثم تدحرج عائدًا لأسفل، ساحبًا رفيقه الجريح وسجينه معه أثناء سقوطه. تدحرجت الأجساد الأربعة أسفل الدرج واصطدمت بـ جينتري عند قاعدة السلم، لتتجمع فوق الجندي الأول الذي قُتل، ستة رجال في كرة من الأذرع والسيقان المتشابكة. غطى الدم المتدفق من جرح حلق الضابط المحتضر الجميع وكل شيء بتيار قرمزي سميك وحار.

انتهى المطاف بـ كورت على ظهره، وسقط المسدس من يده، ومنعه ضعفه من المشاركة في القتال الدائر فوقه. كان إيدي والحارس الرابع يرفسان ويلكمان ويعضان ويخربشان بعضهما البعض بينما

استلقى جينتري هناك فقط، ذراعاه ممدودتان على وسعهما. تدحرجت المعركة بعيدًا عنه، تاركة الرجل ذا جرح الحلق، الميت الآن من فقدان الدم، ملقى عبر قدميه. حجم غامبل وقوته وتدريبه منحه في النهاية الأفضلية ضد الجندي. وأخيرًا، بعد صراع وحشي دام ثلاثين ثانية، سدد إيدي لكمة قاصمة نظيفة لوجه الحارس، أفقدته الوعي تمامًا.

تدحرج إيدي عن اللاوسي يلهث من الإنهاك لكنه سرعان ما تعافى وزحف نحو جينتري. كانت عينا إيدي متسعتين من الصدمة. وبين لهاثه وأزيز صدره قال:

– "انهض يا أخي! علينا الخروج من هنا!"

لم يكن كورت ليذهب لأي مكان بقوته الذاتية. هز رأسه فقط وأصدر الأوامر.

– "اسمع جيدًا. خذ سلاحًا من أحد هؤلاء الحراس. ارتدِ معطف مطر واخرج من الباب الأمامي وكأنك تملك المكان. اذهب لمرآب السيارات يسار كوخ الاستجواب. ستحتاج لاختيار سيارة يمكنك تشغيلها بأسلاكها. انطلق!"

رد غامبل:

– "ليس بدونك يا صديقي".

وسحب مسدسًا من أحد الحراس القتلى ثم رفع كورت وحمله على ظهره.

– "استسلم للأمر! لا يمكنك إخراجي من هنا!"

لكن غامبل تجاهل التعليق. وبينما كان يعاني في طريقه ببطء صعودًا عبر الدرج، ساحبًا نفسه للأعلى بكلتا يديه على الدرابزين الخشبي، مصارعًا الوزن الميت للرجل الضعيف والمريض فوقه، خارت ركبتاه أكثر من مرة. لكنه وصل لأعلى الدرج، خارجًا للكوخ ذي الغرفة الواحدة، ووجده فارغًا. أنزل كورت للأرض ثم التقط معطفين أخضرين كانا معلقين على أوتاد بجوار الباب. ألبس جينتري واحدًا

وأخذ واحدًا لنفسه. كافح كورت للوقوف على قدميه بمفرده، مستعينًا بالمكتب لمساعدة نفسه على التسلق. أنزل الرجلان غطاء الرأس فوق وجهيهما وخرجا معًا، وجينتري يستند على صديقه.

كان مطر الصباح المتأخر ينهمر في صفائح أفقية تقريبًا، حاجبًا الرؤية عن أبراج الحراسة وشرفات الأكواخ الأخرى حول المجمع المشبع بالماء. تعثر كورت، فأمسك به إيدي بقوة أكبر، وسارا مباشرة عبر خمسين ياردة من الممرات نحو مرآب السيارات. مروا بالقرب من مستودع صغير بما يكفي لرؤية مجموعة من أربعة جنود بالداخل، ينظرون إليهم في المطر. لم يلاحقهم الرجال، لكنهم لم يصرفوا نظرهم أيضًا.

في المرآب وجد الرجلان دزينة من سيارات الجيب، والسيارات، والشاحنات الصغيرة، والشاحنات المسطحة. أنزل إيدي جينتري في المقعد الخلفي لسيارة سيدان صينية صغيرة، ثم قفز في المقدمة وانخفض أسفل عمود التوجيه.

كافح كورت لرفع نفسه ليرى من النافذة. سمع أصوات رجل مكافحة المخدرات وهو يكسر عمود التوجيه البلاستيكي، ويلعن بالإسبانية وهو يصارع لتشغيل المركبة بأسلاكها بأيدٍ مبللة تمامًا، وإضاءة ضعيفة، والتهديد المستمر بالموت الوشيك.

رآهم جينتري عبر المطر المنساب على الزجاج الخلفي. جنديان يقتربان من خط السياج، بنادقهما ذات الأخمص الخشبي تتدلى من أكتافهما، وأغطية معاطفهما تحجب وجوههما مثل "حاصد الأرواح". كانا يسيران مباشرة نحو إيدي وكورت.

قال كورت:

- "هاي! (إيدي السريع)؟ ستكون (إيدي الميت) خلال حوالي خمس عشرة ثانية إن لم تجعل هذا الشيء يتحرك".

– "لم أسرق واحدة من هذه من قبل. لا ينبغي أن يستغرق الأمر أطول من ذلك".

– "دبر أمرها! لدينا ضيوف قادمون!"

– "حسنًا! علي فقط أن..."

دار المحرك. نظر كورت ليرى إيدي يرسم علامة الصليب على نفسه، ثم يقبل أطراف أصابعه ويلمس بها لوحة القيادة للسيارة الصغيرة. وضع ناقل الحركة في وضع القيادة، ونظر للخلف لـ جينتري، وقال:

–"Vamanos"

تدحرجت السيدان الصينية للأمام فوق الحصى ومياه الأمطار. انعطف إيدي نحو البوابة الرئيسية للمجمع، باذلًا قصارى جهده للقيادة ببطء وبشكل طبيعي. نظر كورت من النافذة الخلفية مرة أخرى. كان الجنديان قد أنزلا بنادقهما. بدا عليهما الارتباك للحظة فقط. ثم رفع كلا الرجلين أسلحتهما نحو السيدان المغادرة.

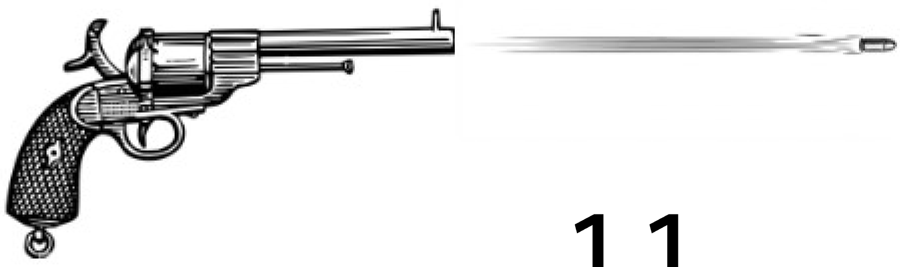
صرخ كورت:

– "تحرك!"

تحطم الزجاج الخلفي، وتناثر الزجاج في المقعد الخلفي، وضغط إيدي غامبل على دواسة الوقود.

انطلقوا بسرعة عبر المطر؛ أخبرتهم فرقعات البنادق من الأعلى أنهم أسفل برجي الحراسة التوأمين داخل مدخل المجمع مباشرة. صرخ إيدي لراكبه ليتمسك، وحطمت السيارة الصغيرة ذات الأبواب الأربعة البوابة الخشبية والسلكية، في اللحظة التي أطاحت فيها المزيد من الطلقات ببقية الزجاج الخلفي. أدى منعطف حاد لليسار إلى انزلاق السيارة على الطريق الممهّد، لكن غامبل انعطف مع الانزلاق وعدّل مسار المركبة تمامًا عندما وصلت إطاراها الأيمنان إلى حافة الأسفلت.

تركت السيدان التي بها الهاربان الأمريكيان السجن خلفها.



11

بينما كان الشفق يخيم على ساحل المكسيك المطل على المحيط الهادئ، قُدم العشاء على عدة طاولات نزهة مصطفة في الفناء الخلفي الكبير لمنزل إيدي. وعلى الممر الخلفي، استقر قارب قديم من طراز "بوسطن ويلر" بطول ثلاثة وعشرين قدمًا ومكشوف السطح على كتل خشبية. واستندت إلى الجدار قرب البوابة الخلفية دراجتان هوائيتان؛ بينما تدلت صنارات الصيد من خطافات بجوار المرآب الصغير. كانت هذه أشياء إيدي، وشعر جينتري بالغرابة للجلوس هنا بينها دون صديقه القديم. في لاوس، لم يمتلك إيدي سوى طاقم بيجامة أزرق فاتح قذر، تمامًا مثل كورت. لا شيء آخر. أما الآن وقد أصبح كورت في عالم إيدي، فقد رأى ما كان إيدي يستمتع بفعله، ومن كان إيدي يحبهم، ولم يستطع جينتري منع نفسه من الشعور بأنه يتطفل على عالم إيدي.

أحصى كورت اثنين وثلاثين شخصًا على الطاولات، بمن فيهم عائلة غامبوا، وعائلات عدد قليل من ضباط الـ "GOPES" القتلى الآخرين، وأصدقاء محليين، وعدة أفراد قُدّموا له كمسؤولين عن النصب التذكاري في بويرتو فالارتا. نما عدد رجال الشرطة المحليين غير المسلحين، الذين رآهم سابقًا يراقبون التجمع، ليصبح قوة من ثمانية أفراد يتجولون في الممر، وفي الشارع أمام المنزل، وحتى يقومون بدوريات في الحديقة حول طاولات العشاء. لم يعرف سبب

وجودهم، وما إذا كانوا يعتقدون بإمكانية حدوث نوع من المتاعب، أو حتى ما سيفعلونه حيال ذلك إذا ظهرت المتاعب.

لم يكن كورت جينتري يعرف أي متاعب حقيقية يمكن إخمادها بصفارة وعصا.

تجولت ثلاثة ديوك بنية اللون في الحديقة أيضًا؛ وبدت دورياتها مشابهة بشكل غريب لدوريات رجال الشرطة العزل. تمدد قطيع صغير من الكلاب المهجنة مختلفة الأحجام بالقرب من رواد العشاء، تتوسل للحصول على بقايا الطعام. شعر كورت بارتباط بدوافعهم البدائية. فهو، بشكل أو بآخر، يفعل الشيء نفسه هنا.

جلس القبطان تشاك كولين على رأس صف الطاولات غير الرسمية، وظهره للمطبخ وشواية فحم كبيرة بجانب الجزء الخلفي من المنزل فوق كتفه الأيمن. كانت سحالي سوداء طويلة تركض صعودًا وهبوطًا على الجدار الجصي الأبيض خلف رأسه.

وُضع كورت في الطرف المقابل، مواجهًا لـ كولين؛ الذي حدق فيه العجوز بصمت لفترات طويلة. على يمين جينتري كانت إيلينا وأهل زوجها، وبذل قصارى جهده للبقاء خارج محادثتهم. بدلاً من ذلك، انهمك في تناول سمك "مارلين" مشوي ممتاز، وسلطة طازجة وخضروات أكثر مما تناوله في أي وقت مضى في حياته دفعة واحدة، وشرب بيرة باردة لدرجة أن الزجاجات كانت تلسع أطراف أصابعه.

تخيل كورت أن العديد من وجبات العشاء مثل هذه قد أقيمت هنا، في هذا المكان نفسه، مع جلوس إيدي غامبل في الكرسي الذي يشغله كولين الآن.

لاحظ كورت العجوز الأمريكي يحدق فيه بتركيز مرة أخرى، عبر طول الطاولات، وفوق اثنين وثلاثين طبقًا كبيرًا من الطعام. بذل كورت قصارى جهده لتجاهله. وبدلًا من ذلك، وجد جينتري نفسه يحدق في شخص آخر.

في لورا.

كانت في منتصف الطاولة على يمينه، تجلس بين عمتيها وتركض باستمرار إلى المطبخ لجلب المزيد من الأطباق والأوعية والزجاجات والمقالي المليئة بالطعام والشراب.

نظرت باتجاهه مرة، وربما مرتين. من المؤكد أنها ضبطته يحدق فيها. تمنى ألا يبدو في نظرها كما يبدو كولين بالنسبة له، يراقب كل ما يفعله بشكل مفضوح.

لم يكن هذا احتفالًا. كانت المحادثات خافتة وهادئة؛ كان الحضور حزينين وغاضبين. وظف كورت تدريبه في قراءة الناس وهو يمسح الطاولة ببصره ذهابًا وإيابًا، محاولًا تمييز ما يدور بالضبط في رأس كل شخص.

كان بارعًا في هذا. كان بارعًا لدرجة محزنة، مستشفًا البؤس والغضب الفردي لثلاثين شخصًا، معظمهم فقدوا للتو شخصًا مهمًا بالنسبة لهم. شخصًا قويًا وشجاعًا. شخصًا أفضل من البقية.

نظر كورت إلى طبقه، وغرف شوكة من شرائح الموز المقلي. أخبر نفسه أنه سيشرب بيرة أخرى ثم ينطلق.

لاوس

قبل سنوات من الوقت الحاضر

أغسطس 2000

سأل إيدي من المقعد الأمامي:

– "هل أنت مصاب؟"

فحص كورت جسده بحثًا عن ثقوب دامية. وعندما لم يجد شيئًا، أجاب:

– "أنا بخير".

ثم سحب نفسه للأعلى في المقعد لينظر من بقايا النافذة الخلفية.

– "سيكونون خلفنا بمسافة قريبة، لكن هذا الطقس سيساعدنا. سيبقي المروحيات بعيدة عن الجو".

لكن عقل غامبل كان مشغولًا بشيء آخر.

– "أرجوك أخبرني أن لديك تصريحًا (Sanction) لقتل هؤلاء الحراس؟ لا أريد الهرب من هنا فقط لأذهب مباشرة إلى سجن ليفنوورث[3]".

– "لدي تصريح".

– "إذًا يمكنك ببساطة تصفية من تشاء، دون طرح أسئلة؟" لم يصدق ذلك.

– "ابقَ في جانبي الجيد، ولن تكتشف ذلك". تمتم جينتري وهو يتكئ بظهره على المقعد؛ كان متعبًا وضعيفًا لدرجة أنه شعر بالغثيان، وكان حتى مجرد الحفاظ على وضعية الجلوس أمرًا شاقًا للغاية. لقد استنفد 110 بالمائة من كل طاقته في الهروب، حتى مع حمل غامبل له لجزء من الطريق.

لم يعد مفيدًا لأحد الآن.

– "بجدية. قل لي إننا بخير".

– "نحن بخير. أنت لم تقتل أحدًا".

– "أقسم أنني أود بشدة معرفة من تعمل لصالحه. أعني، لقد عملت مع الـ CIA، وهم لا يبدون ولا يتصرفون مثلك".

– "أعتقد أنك بحاجة للتركيز على الطريق يا إيدي. الجيش اللاوسي سيقيم حواجز طرق بأسرع ما يمكن".

---

[3] **سجن ليفنوورث** هو منشأة عسكرية أمريكية للجرائم الخطيرة، وأي فرد عسكري، بغض النظر عن تخصصه، يمكن أن يُسجن هناك إذا أدين بارتكاب جريمة قتل.

تنهد رجل مكافحة المخدرات بإحباط لكنه فعل ما قيل له. لم يمر أكثر من خمس دقائق حتى انتهى الطريق عند تقاطع على شكل حرف T. انعطف غامبل يمينًا، قاصدًا نهر الميكونغ.

كان كورت قد غفا، لكنه استيقظ عندما توقفت السيارة في الطريق وبدأت في الرجوع للخلف. بعد بضع ثوانٍ، استداروا عائدين.

– "ما الأمر؟"

أجاب إيدي بنبرة خطيرة:

– "حاجز طريق. عسكري. على بعد ربع ميل. أربع مركبات. خمسة عشر جنديًا مترجلًا على الأقل".

نظر كورت من النافذة ولاحظ أن المطر قد توقف.

– "حسنًا. جد مكانًا للتخلص من السيارة. عليك المتابعة برًا. لا يمكن أن تكون المسافة بعيدة جدًا. يمكنك الوصول للنهر إذا اتجهت جنوبًا. جد شخصًا لديه قارب، اغرس مسدسك في وجهه، واطلب بأدب توصيلة عبر النهر إلى تايلاند".

ساد الصمت في السيارة لعدة ثوانٍ. قال كورت:

– "ستذهب وحدك".

كان من الواضح أن غامبل كان قلقًا بشأن الشيء نفسه.

– "اسمع يا (سالي)، ربما يمكننا..."

– "لا. أنا لا أستطيع المشي، وأنت لا تستطيع حملي. لن أذهب لأي مكان".

بدا إيدي وكأنه يصارع نفسه بشدة، لكن من الواضح أن كورت كان محقًا. أخيرًا، أومأ إيدي.

– "سأجد مخبأً لك. سأغطيك وأحدد المكان بطريقة ما. سأذهب لطلب المساعدة، وأعود، وآخذك بأسرع ما يمكن".

أدرك كورت أن إيدي لم يصدق أن جينتري سينجو الليلة في العراء.

– "اعبر النهر إلى تايلاند. أخبر جماعتك أين تركتني. جماعتي سيأتون ويأخذونني".

حاول جينتري أن يبدو مقنعًا، لكنها كانت كذبة. لن يأتي أحد لأجله. كان يعرف ذلك، وبالتأكيد، لا بد أن إيدي قد شك في ذلك.

بعد عشرين دقيقة، غاص سقف السيدان الصينية تحت سطح بركة ماء. خرجت فقاعات الهواء من السيارة بصوت قرقرة، وسرعان ما هدأت المياه وعادت أوراق زنابق الماء لتغطي الفجوة التي أحدثها دخول المركبة بالقرب من الضفة. استلقى كورت جينتري بالجوار على ظهره، على بعد خمسة وعشرين قدمًا من حافة الماء وخمسين قدمًا أسفل منحدر حاد من الطريق، وجسده محمي بالعشب الطويل.

غطاه إيدي بأوراق الموز وأحاطه بجدار صغير مرتجل من الحجارة والأغصان. على بعد بضعة أقدام فقط، كان ممر مشاة صغير يمتد جنوبًا مرورًا بالبركة، باتجاه نهر الميكونغ.

كان جينتري غير مرئي من الطريق بالأعلى، لكن إذا غامر أي شخص بالنزول من التلة، فمن المحتمل أن يلاحظ الشذوذ بحجم رجل وسط العشب.

ركع إيدي بجوار جينتري؛ وبالكاد استطاعا رؤية بعضهما البعض عبر أوراق الشجر.

قال كورت بضعف:

– "ستكون هناك ذخائر غير منفجرة (UXO) بالخارج". كان إيدي يعرف أن الـ UXO تعني ذخائر لم تنفجر. "لقد ألقينا قنابل على هذا البلد أثناء فيتنام أكثر مما ألقيناه على ألمانيا في الحرب العالمية الثانية. الكثير من تلك القنابل لم ينفجر؛ إنها فقط هناك في الغابة،

تنتظر شخصًا يمر ويركلها. لا تحاول الخروج عن المسار المطروق هنا".

نظر إيدي أسفل الممر.

– "نصيحة جيدة. كنت أعلم أنني أحضرتك لسبب وجيه". تحولت نبرة غامبل للجدية. "لن يكون لديك طعام، لكن الماء (H_2O) لن يكون مشكلة. فقط أبق فمك مفتوحًا ودع المطر يقطر من أوراق الموز".

– "حسنًا".

– "سأحرص على أن يعود أحدهم لأجلك، أقسم بذلك".

– "بالتأكيد. شكرًا على كل شيء. يومًا ما ستكون زوجة رائعة لشخص ما".

ضحك إيدي. وتردد. كان من الواضح أنه ممزق بشأن ترك رفيقه السابق في الزنزانة خلفه.

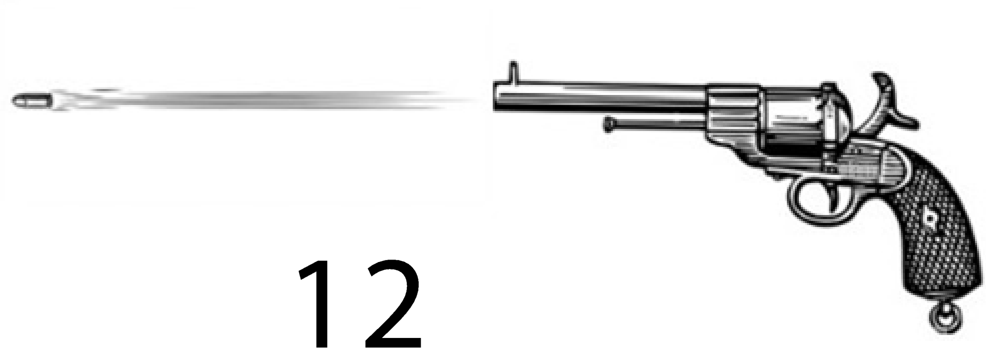
– "سأراك خلال يومين، كحد أقصى. ستكون في مستشفى في بانكوك تغازل ممرضات جميلات، وسأتوقف لإحضار شيء لك. أي طلبات؟"

ابتسم كورت. سيجاريه في هذا الخيال إذا كان ذلك سيساعد إيدي على إنقاذ نفسه.

– "جعة الجذور (Root beer) ستكون رائعة".

– "لك ذلك". ربت إيدي على جبهة كورت عبر الأوراق. "أراك قريبًا يا صاح".

وقف وبدأ يمشي نحو الممر باتجاه الجنوب.



12

نظر كورت إلى ساعته، فإذ بها قد تجاوزت التاسعة مساءً. كان بعض ضيوف العشاء قد انصرفوا بالفعل، بينما جلس آخرون في جماعات متفرقة في الحديقة الخلفية، وعلى ممر السيارات بجوار القارب، وفي أنحاء الطابق السفلي من المنزل. أما رجال الشرطة المحليون، فكانوا يذرعون المكان ذهابًا وإيابًا عند أطراف الحفل. كانت لورا وإيلينا قد قدمتا لكل شرطي طبقًا وافرًا من العشاء وكوبًا بلاستيكيًا كبيرًا من شراب الـ «هورشاتا» المثلج؛ ذلك المشروب بنكهة القرفة والفانيليا والمصنوع من الأرز المغلي وبذور السمسم. كان رجال الشرطة يتناولون طعامهم وقوفًا، حريصين على إبقاء أعينهم شاخصة نحو البوابة المؤدية إلى الشارع.

رشف كورت رشفة أخرى من زجاجة جعة «باسيفيكو» الرابعة التي تصبب منها العرق البارد، وبدأ يتساءل أين سيقضي ليلته. لا بد أن حافلات «سان بلاس» قد توقفت عن العمل في مثل هذه الساعة، ولا أملك مالاً أبدده على الفنادق. فكر أنه قد يجد مقعدًا في الحديقة المركزية الصغيرة التي تبعد بضعة شوارع إلى الشمال، ثم يستقل أول حافلة صباحية عائدًا إلى «بورتو فالارتا».

كان هناك خيار آخر؛ فقد علم من الآخرين أن الكابتن كولين، ضابط البحرية الأمريكي المتقاعد، يعيش في «بورتو فالارتا». فكر كورت في سؤاله أن يقلّه معه، لكن الفكرة لم تدم طويلاً. إن قضاء

تسعين دقيقة في سيارة مع ذلك العجوز المتصلب يعني خضوعي لتدقيق لا يرغب فيه طريد دولي مثلي.

شعر جينتري بالرضا حين لاحظ أن بقية الحشد قد نسوا أمره؛ كان يجلس وحيدًا عند طاولة نزهة صغيرة بالقرب من الجدار الخلفي للمجمع، بعيدًا عن صفوف المصابيح المتدلية فوق الحديقة والمشاعل المشتعلة المغروسة في الأرض هنا وهناك، وبعيدًا عن الأحاديث التي كانت تدور من حوله. رمق البوابة الخلفية بنظرة؛ كانت مغلقة لكنها لم تكن موصدة، وكان الظلام خلفها يناديه.

سينسل الآن دون أن يلحظه أحد؛ فقد جاء ليقدم واجب العزاء، وقد فعل. حان وقت الاختفاء الآن.

هذا هو الإجراء المعتاد لـ «الرجل الرمادي».

أنهى كورت زجاجته، ثم نهض ببطء.

– "ما بالي أجد نفسي مدفوعًا بالفضول تجاهك؟"

التفت كورت ليجد كولين يقف على بعد عشر أقدام خلفه، ممسكًا بزجاجة «تيكيلا» في يد، وبضع كؤوس بلاستيكية صغيرة فوق فوهتها، وفي يده الأخرى ثمرتان من الليمون الأخضر اللامع.

– "لا أدري."

أجابه كولين دون أن ينتظر ردًا، وجلس على طاولة النزهة الصغيرة مقابل كورت، ووضع الزجاجة أمامه:

– "هل تشاركني شرابًا؟"

أخرج كولين سكينًا صغيراً من جيب سرواله العسكري القصير، وقطع لكل منهما فصًا من الليمون.

تردد كورت قائلاً:

– "يجب أن أرحل."

– "إلى أين أنت ذاهب يا بطل؟"

– "آه... سأعود إلى بورتو فالارتا..."

– "ليس الليلة، إلا إذا أردت إنفاق مائة دولار على سيارة أجرة. لقد قالت إيلينا إنك وصلت بالحافلة."

– "حسنًا... سأجد فندقًا هنا."

– "يمكنني أن أقلك معي إلى هناك."

عاد كورت وجلس مكانه. صب كولين سائلًا شفافًا كثيفًا في كأسين صغيرين، وناول أحدهما لـ جينتري. رشف كورت الـ «تيكيلا»، وعض على فص الليمون، ثم غيّر الموضوع ليبعد الدفة عن نفسه:

– "كيف عرفت إيدي؟"

اتكأ كولين إلى الخلف وابتسم، ثم خلع قبعته التي تحمل شعار المدمرة «يو إس إس بوكانان» ورفعها للأعلى. لمع شعره الفضي تحت ضوء المشاعل المشتعلة في الحديقة.

سأله كورت:

– "هل التقيته على سفينتك بالقوات البحرية؟"

هز الكابتن رأسه نفياً:

– "كلا، كلا. لم أعرفه قط في البحرية. التقيته في بورتو فالارتا قبل نحو أربع سنوات. كنت أركض على الشاطئ كل صباح، أو هكذا كنت أفعل. أما الآن فقد أصبح الأمر مجرد مشي سريع، لكنه أسرع من مشي معظم العجائز الأجانب المترهلين هنا. المهم، في أحد الصباحات، وبعد انتهائي من الركض، اقترب مني رجل مكسيكي صلب الملامح على الممشى الخشبي. ظننت في البداية أنه يطمع في محفظتي، لكنه أشار إلى قبعتي، وسألني عن خدمتي العسكرية. بدأنا الحديث، وقال إنه كان في البحرية أيضًا. فكرت بالطبع أنها البحرية المكسيكية، ولكن حين علمت أنه كان عضوًا سابقاً في قوات النخبة «SEALs»، كدت أصعق من المفاجأة."

تابع قائلاً:

– "أصبحنا أنا وإيدي صديقين. كنا نذهب للصيد على قاربي كلما كان في بورتو فالارتا. لقد جلست هنا، على هذه الطاولة تحديدًا، في ليالٍ كثيرة. كان إيدي يجلس حيث تجلس أنت الآن."

تنهد كولين قليلاً. كان كبيرًا بما يكفي ليختبر الكثير من الفقد في حياته، ومع ذلك، استطاع كورت أن يلمس مدى الجرح الذي خلفه موت صديقه الشاب في نفسه.

– "قضيت ساعات طوال وأنا أتعرف على ذلك الشاب النبيل."

– "نعم يا سيدي."

أعاد كولين قبعته فوق رأسه وانحنى للأمام:

– "عليّ أن أخبرك، غريب يظهر في منزله فور مقتله... كيف يبدو لك هذا الأمر؟"

هز جينتري كتفيه:

– "أنا مجرد رجل جاء ليودعه. لو كان الأمر بيدي، لما كنت هنا الآن."

أومأ كولين برأسه، ورشف الـ «تيكيلا» بتفكر، ثم نظر خلف كتفه نحو المنزل المكتظ بالناس:

– "ستكون الأيام القادمة قاسية عليهم. إيدي يُعتبر وغدًا في نظر الكثيرين هنا. الصحافة تصوره كأنه مجرد «سيكاريو» آخر."

– "سيكاريو؟"

– "قاتل مأجور. الرأي السائد هو أنه ورجاله كانوا يعملون لصالح كارتل[4] منافس لـ «دي لا روشا». بعد مقتله، جاءت الشرطة الفيدرالية وشرطة ولاية نايريت إلى هنا، وفتشوا كل مقتنياته الشخصية، وصادروا حاسوبه وأسلحته، حتى راتبه التقاعدي تم إيقافه بانتظار

[4] كارتلات المخدرات في أمريكا الجنوبية هي منظمات إجرامية نشأت خلال النصف الثاني من القرن العشرين للسيطرة على زراعة وتصنيع وتهريب المخدرات، خصوصًا الكوكايين، عبر شبكات عنف وفساد عابرة للحدود. ازدهرت في دول مثل كولومبيا وبيرو وبوليفيا، وبلغ نفوذها ذروته في الثمانينيات مع كارتلات ميديلين وكالي، قبل أن تتفكك أو تتحول إلى شبكات أصغر وأكثر سرية.

التحقيق. هراء محض؛ لقد مات وهو ينفذ الأوامر لحماية الناس هنا، لكنهم يروه مجرد شرطي فيدرالي فاسد آخر."

– "لماذا يظنون ذلك؟ أنا لا أفهم شيئًا مما يحدث هنا."

– "لا يهم يا بطل. ستغادر غدًا، ولا جدوى من تعلم تعقيدات الحكمة المحلية السائدة."

أدرك جينتري أن العجوز كان يوبخه، ويعامله كأنه مجرد متشرد عابر، وهو ما أثار حنقه. كان كورت مستعدًا للموت من أجل إيدي غامبل، لو كان هناك إيدي غامبل لا يزال حيًا ليموت لأجله.

– "أخبرني."

– "لماذا؟"

– "لأن الأمر يهمني. ولأنني أظن أن لديك بعض الآراء حول هذه المسألة."

مد كورت يده إلى زجاجة الـ «تيكيلا»، وصب كأسين آخرين.

أومأ كولين ببطء وقطع فصين آخرين من الليمون:

– "كان إيدي يقود فريقًا من ثمانية رجال. كانت وحدته تتلقى الأوامر مباشرة من المدعي العام في مكسيكو سيتي، الذي فوضه الرئيس بتصفية كبار زعماء الكارتلات في المكسيك."

– "تصفيتهم؟"

أومأ كولين.

– "فرقة اغتيالات رسمية؟"

– "بالضبط."

لم يرف لـ كورت جفن، وقال:

– "تابع."

– "كان إيدي ورجاله بارعين. لقد اغتالوا زعماء أربعة من أكبر ستة كارتلات في الداخل المكسيكي خلال الأشهر الستة الماضية. وكان دانييل دي لا روشا سيكون الخامس."

– "لكن الفريق بأكمله أُبيد في العملية."

– "للأسف، نعم."

– "لا أفهم لماذا فجر اليخت."

هز كولين رأسه:

– "ولا أنا. هناك الكثير مما لا أفهمه. بالطبع لم يخبرني إيدي قط عن التفاصيل العملياتية، كان الأمر مجرد دردشات عابرة هنا وهناك."

رشف كورت شرابه وسأل:

– "ما قصة هذا الدعم الشعبي لهذا الحثالة «دي لا روشا»؟"

لوّح كولين بذراعه في دائرة واسعة:

– "ليس هنا فقط، بل في كل مكان. هناك أفلام وكتب وأغانٍ عنه. إنه مشهور، كنجم روك. كان والده أسطورة أيضًا؛ أدار كارتل «بورفيديو دي لا روشا» في الثمانينيات والتسعينيات، وعمل مباشرة مع الكولومبيين لنقل بضاعتهم إلى الولايات المتحدة. لكن دانييل لم يعتمد على فضل والده؛ بدلاً من ذلك انضم إلى الجيش ثم إلى وحدة «غافيس»، وهي وحدة نخبة من قوات الصاعقة والمظليين في الجيش. تدرب في الولايات المتحدة في «فورت بينينج» و«فورت براج»، وفي مدرسة الأمريكيتين. ترك الجيش عندما قتلت الحكومة والده في عام 1999. سُجن دانييل نفسه لبضع سنوات، وعندما خرج، أحاط نفسه بزملائه العسكريين السابقين، رجال من وحدته الكوماندوز. إنهم مجموعة متماسكة حقًا، يظهرون كمزيج بين رجال الأعمال والقوات شبه العسكرية. لديهم جميعًا نفس قصات الشعر، ويرتدون نفس البدلات، ويحافظون على لياقتهم، ويسافرون دائمًا في قافلة كأنها عملية عسكرية. بدأت الصحافة تطلق عليهم اسم «لوس تراجيس نيغروس»... أي «البدلات السوداء»."

وتابع:

– "منذ خروجه من السجن، ظل دي لا روشا نظيفًا من الناحية الرسمية؛ هو يملك شركة طيران محلية تنقل المسافرين من المدن الكبرى على الساحل إلى البلدات والقرى الصغيرة في أنحاء جبال سييرا مادريس. لديه الكثير من الأعمال الأخرى أيضًا؛ بساتين، مزارع، ومصانع خشب. كلها أعمال مشروعة تمامًا. يدعي أن أمواله تأتي من هناك، ويبدو أنه اشترى ما يكفي من موظفي الحكومة لدرجة ألا أحد يجرؤ على فحص ميزانياته."

– "لكنك متأكد تمامًا أنه يتاجر في الكوكايين؟"

أنهى العجوز رشفة من الـ «تيكيلا» قبل أن يهز رأسه:

– "يتعامل دي لا روشا في بعض الكوكايين، والهيروين، والماريجوانا، لكن ليس هذا مصدر ثقله المالي. تدير «البدلات السوداء» ثاني أكبر كارتل للـ «فوكو» في العالم."

– "فوكو؟"

– "كريستال ميث. معظم الكارتلات المكسيكية لا تتخصص في مخدر معين، بل تسيطر على منطقة أو طريق توزيع، وتتاجر في أي شيء؛ الماريجوانا، الكوكايين، الميث، اختطاف الرهائن، وحتى الأقراص المدمجة المقرصنة. لكن دي لا روشا لديه نموذج عمل خاص به، يجمع بين التصنيع والتوزيع. يُفترض أنه يمتلك مختبرات معالجة ضخمة للكريستال ميث –يسمونها المختبرات العملاقة– في مكان ما في جبال سييرا مادريس. لكن لا أحد يعرف مكانها، وحتى لو عُثر عليها، أشك في إمكانية ربطها مباشرة بـ دي لا روشا."

– "لا أزال لا أفهم سر حب الناس له هنا."

شعر كورت أن كولين قد بدأ يأنس إليه نوعًا ما، فقد خفتت نبرة التحفظ التي كانت تغلّف حديثه سابقًا:

– "معظم تجار المخدرات أشباح، لكن دانييل ليس كذلك. إنه يتحكم في صورته كنجم سينمائي، ولا يشبه الصورة النمطية لزعماء

الكارتلات. عمره تسعة وثلاثون عامًا فقط، لديه ستة أطفال، لا يخون زوجته، يرتدي ملابسه كأنه أمير ويلز، ويدعم نصف الجمعيات الخيرية الرسمية في البلاد. هنا في نايريت، وفي خاليسكو، وميتشواكان، اتُّهمت شرطة الولاية بحمايته. ومن المؤكد أن هذه الاتهامات صحيحة."

رشف كورت شرابه ونظر إلى النجوم الساطعة في السماء. انحنى كولين للأمام وقال:

– "لا تفكر في دانييل دي لا روشا كتاجر مخدرات، بل فكر فيه كـ «روبن هود». إنه يعيل المحتاجين، ويحمي الضعفاء، ويدعم القضايا المشروعة هنا أكثر من أي شخص آخر."

– "إذن، السكان المحليون لا يهتمون بما تفعله هذه المخدرات؟"

– "لا أحد، أكرر لا أحد في المكسيك يأبه لملايين المدمنين في الولايات المتحدة الذين يريدون هذا المنتج. لا أحد هنا يشعر بالأسف تجاههم لأنهم يدمرون حياتهم. هم يكرهون القتل الذي يجلبه تجار المخدرات إلى هنا، بالتأكيد، فمن لا يكره ذلك؟ لكن المواطن العادي في الشارع يعرف أن آخر وسيلة لمواجهة تجار المخدرات هي دعم الشرطة أو الحكومة في هذه الحرب. الفساد هنا هائل ومتفشٍ. وأي شخص يملك عقلاً يعرف أن هناك طريقتين فقط لحماية نفسك وعائلتك؛ إما أن تبتعد تمامًا عن طريقهم، أو تنضم إلى الكارتلات. وخمن ماذا يا بطل؟ الانضمام إلى الكارتلات يدر مالاً أكثر بكثير من الجلوس في المتفرجين، فضلاً عن أنه أكثر أمانًا بكثير."

وكما توقع كورت، كان كولين عجوزًا ممتلئًا بالآراء الحادة.

– "الشرطة، القضاة، الجنود، العمد... لا يمكنك الثقة بأحد هنا. يبدأ الكثيرون بأفضل النوايا، لكن تجار المخدرات يضعونهم أمام خيار واحد: بلاتا أو بلومو."

تمتم كورت:

– "الفضة أو الرصاص."

– "الترجمة الأفضل هي المال أو الرصاص. سيعطيك تاجر المخدرات أحدهما، ولك الخيار."

أومأ كورت برأسه، ثم أشار إلى رجال الشرطة الواقفين في الحديقة الخلفية:

– "هؤلاء الشرطيون هنا، الرجال والنساء الذين يحملون الهراوات. يبدو أنهم يرون في إيدي رجلاً صالحًا."

لوّح كولين بيده في الهواء، وكأنه ينحي ذكرهم جانبًا:

– "هؤلاء شرطة محليون، شرطة «سان بلاس». نعم، هم يحبون العائلة. إرنستو، والد إيدي، يعيش هنا منذ الأزل. لكن الشرطة في بورتو فالارتا؟ فاسدون حتى النخاع. شرطة الولاية؟ لا يمكن الثقة بهم. وكذلك قطاعات واسعة من الفيدراليين. حتى الجيش المتمركز في هذه الأنحاء فاسد. أنا لا أعرف حتى ماذا أظن بشأن وحدة إيدي نفسها، مجموعة العمليات الخاصة. يبدو الأمر مريبًا نوعًا ما أن يتم سحق جميع منافسي دي لا روشا الإقليميين في الأشهر القليلة الماضية، باستثناء واحد."

– "من هو المستثنى؟"

– "رجل في الشمال في جبال سييرا مادريس يُدعى كونستانتينو ماديغال بوستامانتي. يلقبونه بـ «إل فاكيرو»، أي «راعي البقر». إنه وغد أكبر حتى من دي لا روشا. يقول البعض إن وحدة الكوماندوز التابعة لـ إيدي كانت تعمل سرًا لصالح كارتل «مادريغال»، لتصفية كل المنافسين."

قطب كورت حاجبيه:

– "إذا كانت هناك قائمة بالأوغاد الذين يجب تصفيتهم، فكيف نعرف أن مادريغال لم يكن مجرد الاسم الأخير في القائمة؟"

ابتسم كولين بمرارة:

– "المكسيكيون لا يفكرون بهذه الطريقة. نظريات المؤامرة هنا في كل زاوية."

سبق لـ كورت أن سمع هذا الكلام؛ فالثقافة اللاتينية ليست غريبة عليه.

– "إذن يا كابتن، من هم الأخيار؟"

تأمل كولين السؤال لبرهة طويلة، وكأنه لغز رياضي مستعصٍ:

– "أنا أعرف أن إيدي كان رجلاً صالحًا. ولا أصدق مؤامرة «مادريغال» لثانية واحدة. وبعض الفيدراليين الآخرين أخيار، لا شك في ذلك."

– "وكيف أعرف الفيدرالي الصالح حين أراه؟"

– "يمكنك تمييزهم عن الشرطة المحلية؛ يرتدون بدلات سوداء، ودروعًا واقية، وأقنعة تزلج. وسياراتهم ودراجاتهم ومروحياتهم مكتوب عليها (PF)، أي الشرطة الفيدرالية."

كان هذا هو نوع المعلومات الاستخباراتية التي اعتاد جينتري جمعها في نحو ثلاثين منطقة عمليات أخرى عمل فيها أو سافر إليها خلال مسيرته، سواء كعميل لوكالة الاستخبارات المركزية أو كقاتل مأجور خاص.

– "إذن... الأخيار يرتدون الأقنعة هنا. عليّ أن أعتاد على هذه الفكرة."

– "نعم، ولكن الكثير من الأشرار يرتدونها أيضًا."

– "ممتاز."

نظر كورت إلى أربعة من رجال الشرطة المحليين يتسكعون في الفناء، متكئين على دراجاتهم الجبلية المتهالكة. كانت لورا تقف بينهم، وتعيد ملء أكوابهم البلاستيكية بالـ «هورشاتا» التي تصبها من إبريق بلاستيكي.

– "لماذا يبدو أن رجال الشرطة الذين في صفنا هم من يحملون العصي والدراجات، بينما يحمل رجال الشرطة في الطرف الآخر البنادق والمروحيات؟"

– "ربما اخترنا الفريق الخطأ."

تجرع كورت الـ «تيكيلا» دفعة واحدة وقال:

– "بدأت أظن أن إيدي هو من فعل ذلك."

نظر إليه كولين بتفكر:

– "أتمنى لو كنت أعرف من تكون حقًا يا جو."

نطق العجوز الاسم المستعار بطريقة توضح أنه يدرك تمامًا زيفه.

غيّر كورت الموضوع مرة أخرى:

– "لماذا عاد إيدي إلى وطنه؟ هل تحدثت معه في ذلك؟"

لوّح كولين بيده:

– "لينقذ بلده. ليحارب إرهابيي المخدرات. لينقل المهارات التي اكتسبها في الولايات المتحدة إلى هنا حيث يمكنها أن تقدم أعظم فائدة."

– "ولكن؟"

– "ولكن ليس لهذا السبب عاد."

التفت كولين نحو ممر السيارات، وأشار إلى لورا غامبوا، شقيقة إيدي الصغرى:

– "لقد عاد من أجلها. مائة بالمائة. قُتل زوج لورا قبل خمس سنوات في الشمال. كان ملازمًا في الجيش. تعرضت شاحنته لكمين نصبه الـ «ماتاميليتاريس»، وهم عصابات خاصة من القتلة المأجورين الذين يقتلون العسكريين. تعرض للضرب، وأُقتلعت عيناه وهو لا يزال حيًا، ثم أُطلق عليه الرصاص كالكلب. حُرق جسده في برميل سعة خمسة وخمسين جالونًا، وعُلّق رأسه على وتد سياج على مرأى من حدود أريزونا. كانت لورا حطامًا بعد ذلك."

وتابع:

– "لديها شقيقان آخران، لكنهما لا نفع منهما. سكيران. أحدهما ميكانيكي سيارات عاطل، والآخر بائع أجهزة منزلية عاطل."

أشار كولين إلى الرجلين البدينيْن الواقفين عند باب المطبخ، وهما يدخنان ويشربان؛ رودريغو وإغناسيو. بدا كلاهما ثملاً للغاية. كان كورت قد قرأ لغة جسدهما أثناء العشاء؛ واستطاع أن يجزم أن أيًا منهما لا يرغب في التواجد هنا.

– "عندما مات زوج لورا، ترك إيدي وكالة مكافحة المخدرات، وانتقل إلى هنا في «سان بلاس»، وبدأ العمل مع الفيدراليين."

أخذ كولين نفسًا طويلاً:

– "أفترض أن لورا الصغيرة تلوم نفسها الآن على موت إيدي. لقد كان الأمر عليها أقسى حتى مما كان على إيلينا أو والديه."

– "اللعنة."

خطر لـ كورت لأول مرة الليلة أن الروابط العائلية الوثيقة لها عيوبها كما لها مزاياها.

وكأنها تنتظر إشارتها، خرجت إيلينا من الباب الخلفي وسارت عبر الحديقة نحو الرجلين، وقالت بالإنجليزية:

– "جو... لقد أعددتُ فراشك، يمكنني أن أريك مكانه عندما تنتهي أنت والكابتن تشاك من شرابكما."

– "شكرًا لكِ، لكن يجب أن أعود إلى بورتو فالارتا."

هزت إيلينا رأسها برفض. لم يكن كورت قد التقى بهذه المرأة إلا قبل بضع ساعات، لكنه أدرك بالفعل أنها قوية الإرادة بشكل هائل.

– "ستبقى معنا. ليلة واحدة فقط. فرانسيسكو، عم إيدي، سيتوجه بسيارته إلى «سايوليتا» في الصباح الباكر؛ سأجعله يوصلك إلى محطة الحافلات في فالارتا."

أمسكت بيده وضغطت عليها؛ وبدت كأنها أهينت بصدق لمجرد تفكيره في مغادرة منزلها في جوف الليل. نظر كورت إلى كولين، فابتسم الأخير ورفع حاجبيه وأومأ برأسه.

قال جينتري:

– "أظن أنني سأبقى."

انتقل كولين إلى الإسبانية ليتحدث مع إيلينا. لم يعرف كورت إن كان العجوز فخورًا بتمكنه من اللغة أم أنه يحاول إبعاد الأمريكي الآخر عن الحديث.

– "اسمعي يا إيلينا، هل فكرتِ مجددًا في صرف النظر عن الاحتجاج غدًا؟"

تدخل كورت لكن بالإنجليزية:

– "أي احتجاج؟"

أجابت إيلينا:

– "أخبرتك، في بورتو فالارتا."

– "لقد سميتِهِ تأبينًا."

هزت كتفيها:

– "بالنسبة لي، ولأفراد العائلة الآخرين هنا، هو تأبين. سنتحدث بالنيابة عن أحبائنا الموتى. لكن الكابتن تشاك يعتقد أنه سيتحول إلى مظاهرة ضد «البدلات السوداء»."

ثم نظرت إلى العجوز الأمريكي وقالت:

– "هو لا يريدني أن أذهب."

قال كولين:

– "إنهم يتوقعون حشدًا كبيرًا. لا أظن أنها فكرة جيدة لامرأة حامل في شهرها السابع أن تكون وسط كل هذا الغوغاء. هناك الكثير من الغضب والتوتر بعد..."

تلاشت صوته قبل أن يكمل.

فقالت إيلينا:

– "بعد مقتل إدواردو وهو يقاتل ضدهم. أعرف ذلك يا تشاك، ولهذا السبب تحديدًا يجب أن أذهب."

لم يملك كورت إلا أن ينحاز لجانب الكابتن:

– "أنا أتفق مع الكابتن. أنتِ حامل، ولا داعي لأن تكوني في وسط أعمال شغب؛ تدافع واشتباكات—"

قاطعته قائلة:

– "لن تكون أعمال شغب، وسأكون على المنصة، لا وسط الحشود. سأكون بخير."

هز كولين رأسه:

– "لا يعجبني هذا. لم يكن إيدي ليرغب في أن تكوني وسط كل ذلك."

– "إدواردو كان سيذهب، وأنت تعلم ذلك."

– "نعم،" قال كولين، "إيدي كان سيذهب هناك مع فريق تكتيكي وبندقية هجومية، وكان سيحمي الاحتجاج من كل التهديدات التي يشكلها الوحوش الذين يدعمون «دي لا روشا». لكنه لم يكن ليريدكِ أن تكوني هناك، ولا عائلته، ولا ابنه الذي لم يولد بعد. الأمر خطير للغاية."

ابتسمت إيلينا للعجوز لفترة طويلة:

– "أنت تقلق عليّ كثيرًا يا كابتن تشاك." ثم تابعت بامتنان: "لقد كنت صديقًا رائعًا للعائلة."

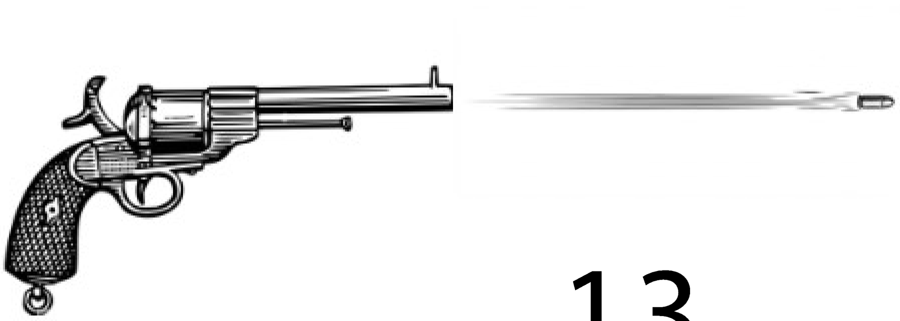
اعتدل كولين في جلسته وقال بصوت واثق:

– "وسأظل كذلك ما حييت. موت إيدي لم يغير ذلك."

أعجب كورت بالعجوز، حتى وإن لم يكن العجوز معجبًا به بنفس القدر. تمنى كورت لو كان هناك ما يمكنه فعله من أجل إيلينا وعائلة غامبوا، لكنه لم يجد شيئًا. ودع كولين وهو يتوجه نحو سيارته في

الأمام، ثم تبع إيلينا إلى الداخل، مارًا بما لا يقل عن اثني عشر شخصًا آخرين وجدوا لأنفسهم زوايا صغيرة مع أغطية ووسائد للنوم. صعدت به إلى غرفة نوم صغيرة، حيث بسطت له فراشاً مع غطاء ووسادة.

كانت جدران الغرفة مطلية بطلاء حديث بلون أزرق سماوي. تخيل كورت أن إيدي هو من طلاها بنفسه من أجل ابنه الذي لن يقدّر له رؤيته أبدًا.



13

لاوس

قبل سنوات من الوقت الحاضر

أغسطس 2000

التصقت رطوبة الظهيرة بجلده كما تلتصق المحاريات بهيكل السفينة. راح جينتري يغيب عن الوعي ويفيق طوال ما تبقى من الظهيرة. تسببت حمى الملاريا في ارتعاش جسده بشدة مما أدى لإزاحة بعض أوراق الموز عن جلده، لكنه تمكن من حماية نفسه من الشمس بإعادة سحب الغطاء النباتي فوق جلده المكشوف.

جاء الليل حاملًا معه الخلاص من الشمس. كما جلب معه نسيمًا كان قويًا بما يكفي لبعثرة غطائه الواقي، لكنه لسبب ما لم يكن قويًا بما يكفي لإبعاد البعوض. بيد واهنة، غرف الطين من الأرض بجانبه، ولطخه بكثافة على وجهه ورقبته محاولًا تغطية أكبر قدر ممكن من جلده، لكن ذلك لم يجدِ نفعًا حقًا.

أرقته لسعات الحشرات طوال الليل، وركضت العناكب فوق جسده، ولم يبق في جعبته أي طاقة لقتلها أو حتى نفضها عنه. اكتفى بالاستلقاء هناك كجذع شجرة ساقط بينما شقت المخلوقات مساراتها فوقه.

تسببت الحمى في تورم دماغه داخل جمجمته، ومع هذا التورم انفصل عن الواقع وبدأ يرى خيالات. عدة مرات اعتقد أنه مات؛ لم يعد

يشعر بألم أو حرارة أو جوع أو ضعف، بل شعر فقط بخفة وسكينة. لكن الرؤى كانت قاسية؛ داعبته بسكينتها كسراب الصحراء، وتماما كما في الصحراء، عندما تبددت، جلبت معها يأسًا متجددًا.

رأى شاحنة بيك أب "شيفي" كبيرة تتوقف بجوار البركة. ترجل منها والده وتشيس، شقيقه الأصغر. أشارا إليه لينهض ويقفز إلى المقصورة؛ أخبراه أنهما متجهان إلى المدينة لتناول فطائر "البان كيك"، ويريدانه أن يأتي معهما.

تحدث كورت إليهما، ومع حركة أحباله الصوتية الخشنة، تبددت الرؤية، تاركة إياه في المكان نفسه الذي رقد فيه لأربع عشرة ساعة.

تبًا.

أراد الموت. لم يرد أن يكون حيًا عندما تشرق شمس الصباح التالي.

تحت ضوء القمر الساطع، حامت مروحية فوق رأسه مباشرة، وهبطت بجوار البركة، وقفز منها موريس، مدربه الرئيسي في الـ CIA ومعلمه القديم.

صرخ المحارب المخضرم من حرب فيتنام، مناديًا كورت باسمه الحركي:

– "انهض بمؤخرتك الكسولة يا (فايوليتور)!"

لم يرد كورت في البداية. هز رأسه فقط. وفكر في نفسه: أنا متعب للغاية واللعنة.

– "تشارلي[5] لا يهمهم إن كنت متعبًا!"

أجاب كورت بصوت مسموع:

– "لا أستطيع يا سيدي. لا أستطيع".

لكن عندما تحدث، وحين أحدث ضجيجًا حقيقيًا في الليل، اختفت الرؤية. كان وحيدًا. واهنًا، متألمًا.

[5] تعبير عسكري يعود لحرب فيتنام، حيث "تشارلي" يرمز للعدو، والمعنى الضمني :العدو لا يمنحك رفاهية الإنهاك.

يحتضر.

لكنه لم يمت تلك الليلة؛ وعاش ليرى الصباح. كانت ساعات النهار الثلاث التي سبقت العواصف هي الأسوأ في محنته. صلى من أجل المطر، وعندما هطل، برده وروى عطشه، لكن الوحل المحيط بجسده تسبب في تجمع المياه، وأصبحت أعمق. شعر بضع مرات أن جسده يتحرك قليلًا، كان يطفو وسط هطول المطر فوق الأرض المشبعة بالماء. تساءل عما إذا كان سينجرف إلى داخل البركة، وارتعب من فكرة الغرق في المياه العكرة.

لكن من حسن الحظ أن المطر هدهده لينام.

استيقظ على صوت الطيور، ثم أصوات، أصوات بشرية. عرف أنه النهار، فقد توقف المطر، والشمس التي اخترقت أشعتها الهواء الرطب كانت تلسع جلده.

سمع الأصوات مرة أخرى؛ افترض هذه المرة أن الأصوات ليست أكثر من بداية لرؤية أخرى. لم يشعر بالبهجة أو الخوف؛ اكتفى بالاستلقاء هناك، بالكاد حيًا ولكنه ينجرف بعيدًا.

كانت الأصوات خافتة في البداية، لكنها أصبحت أعلى، وكأن المتحدثين يقتربان. بدأ كورت يدرك أنه لا يحلم، وأنه لا يتخيل هذا، وشعر بشعور باهت بالقلق. لم يكن معه سلاح، وكأن الأمر يهم – فهو لم يكن ليتمكن من إزاحة صمام الأمان بإبهامه أو سحب الزناد، ناهيك عن تحديد التهديد وتوجيه السلاح نحو هدف.

كانت الأصوات تحيط به الآن، وكانوا يتحدثون اللاوسية. لقد وجدوه، وبالنسبة له، فليأخذوه. بإمكانهم إطلاق النار عليه هنا والآن؛ سيكون ذلك بالتأكيد أفضل من سحبه أعلى التل ورفعه إلى مركبة لترتطم به في الطرق البائسة في طريق عودته إلى زنزانة سيموت فيها حتمًا في غضون ساعات.

تبًا للأمر، فكر، وعقله صافٍ بشكل لا يصدق في هذا الموضوع بالذات. سيقاتلهم. هؤلاء الأوغاد الصغار لن يأخذوه إلى أي مكان.

ركع رجلان فوقه، وأزاحا القليل من أوراق الموز المتبقية التي تغطي جسده. رفع يده ليلكم أحدهما، لكن ذراعه اهتزت قليلًا فحسب بجوار جسده. لم تكن هناك أرجحة، ولا لكمة.

جاء المزيد من الرجال، ورُفع عن الأرض إلى الهواء؛ صرخ احتجاجًا ثم ألمًا حين جُذبت ذراعه اليسرى في اتجاه مختلف عن بقية جسده. شعر بنفسه يُسحب صعودًا أعلى التل؛ وسمع بنادق الرجال تقرقع ضد المعدن على أحزمتهم وهي تتأرجح بحرية؛ أُسقطت ساقاه مرة، وسقط الرجال معهما، وصرخوا ونبحوا في وجوه بعضهم حتى رُفع مرة أخرى.

الصفع المنتظم، صفع الأحذية في الوحل بينما يتركون البركة الطينية خلفهم.

كانت لغتهم المقتضبة المبهمة كمعاول ثلج تُغرس في أذنيه.

رفعوه إلى الطريق أخيرًا وسحبوه نحو شاحنة "فان" سوداء. حُمل جينتري برأسه أولًا ووجهه للأعلى، لكن رأسه كان يتدلى مقلوبًا ويقفز مع خطوات الجنود. فُتح الجزء الخلفي للشاحنة السوداء، وكان مظلمًا بالداخل. تحدث الرجال بسرعة وخشونة فيما بينهم، وكأنهم يتجادلون. لم يعنِ زيهم العسكري شيئًا له، لكن أسلحتهم كانت بنادق "كلاشينكوف" وبنادق "SKS" طويلة، مثل رجال الشرطة المحليين وحراس السجن تمامًا.

أزلقوه إلى داخل الشاحنة، وأُغلقت الأبواب. ترنحت الشاحنة وانطلقت مسرعة، تتقافز فوق الحصى بمحاذاة الطريق المعبد. حاول كورت رفع رأسه لكنه استسلم، ودحرجه من جانب لآخر. استغرق الأمر لحظة، لكنه سرعان ما أدرك أن أحدًا من الجنود لم يصعد معه.

كان وحيدًا.

هاه؟

لا، لم يكن وحيداً. تحرك خيال من مقعد الراكب الأمامي إلى الخلف؛ كانت عضلات رقبة كورت الضعيفة قد أراحت رأسه عائداً على السطح الصلب للشاحنة، وتدحرج باتجاه الجدار.

امتدت يد إلى جبهته وكأنها تقيس حرارته.

– "أخبار سيئة يا (سالي)، لم يحالفني الحظ مع (جعة الجذور). أحضرت لك بعض (بيرلاو). إنها الجعة المحلية. هل يفي ذلك بالغرض؟"

ابتسم كورت وحتى ذلك آلمه؛ فلسع وجهه المحروق بالشمس. لكن موجة من الارتياح المسكن للألم بدأت في قلبه وانطلقت عبر جسده في كل الاتجاهات. أجبرت طاقة جديدة عضلات رقبته على العمل لمرة أخيرة. التفت نحو إيدي. شعر بدموع تتجمع في عينيه، وقاومها. كان صوته خافتاً وخشناً.

– "هل هي باردة، على الأقل؟"

هز إيدي رأسه. كانت عيناه واسعتين ومرتاحتين. اتسعت ابتسامة إيدي غامبل الكبيرة وهو يتحدث:

– "ساخنة كالجحيم يا أميجو. وطعمها يشبه بول الياك قليلاً. آسف".

– "الجنود. هل هم من تايلاند؟"

– "لم أغادر البلاد. لم يكن لديك وقت لي كي أخرج وتعود مجموعة أخرى لتجدك، لذا ذهبت إلى فيينتيان. طلبت رد بعض الجميل الذي كسبته مع قوة متمردة. ليسوا أشداء بالقدر الذي يظنونه، لكنني افترضت أنهم جيدون بما يكفي لمساعدتي في انتشال رجل من الوحل ورميه في شاحنة".

رفع كورت ذراعه بكل قوته، فأمسكها غامبل وهزها.

قال كورت:

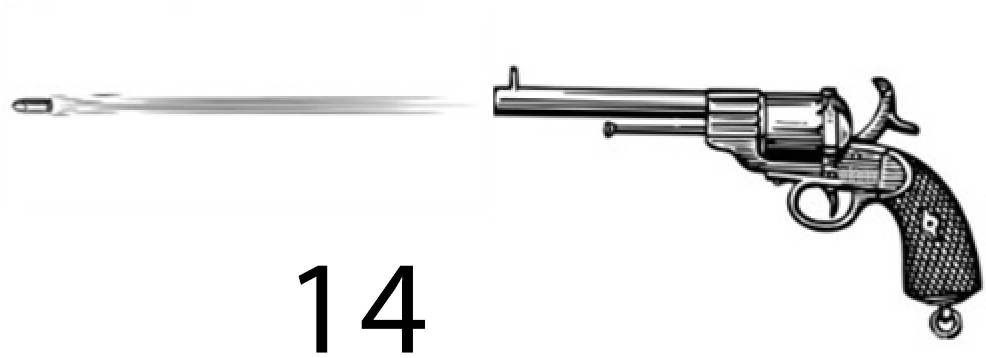
– "شكرًا لعودتك".

ابتسم غامبل، وسحب حقيبة ظهر كبيرة من بين المقاعد الأمامية، وفتحها، وبدأ بإخراج أكياس سوائل وحقن وأدوية.

– "إذا بدأت بالبكاء، سأخبر رفاقك في الـ CIA. ولن تسلم من لسانهم أبدًا".

جهز محقنة وريدية وغرزها في ذراع جينتري.

– "لنعدك إلى الوطن يا أميجو".



14

في تمام الحادية عشرة صباحًا، كان كورت يقف في طابور وئيد الحركة لابتياع تذكرة حافلة من «المحطة المركزية في بورتو فالارتا»؛ المحطة الرئيسية في المدينة. كانت حقيبته القماشية الخضراء ملقاة على الأرض أمامه، وكل دقيقة أو اثنتين، كان يركلها بقدمه لتتحرك للأمام مع كل خطوة يخطوها في الطابور.

لقد استيقظ مبكرًا، وطوى فراشه، ثم هبط الدرج في صمت متجاوزًا الضيوف النائمين على الأرض، وغادر وحيدًا عبر باب المطبخ. استقل أول حافلة صباحية من «سان بلاس»، وظل يحدق من النافذة نحو المحيط الهادئ طوال الرحلة التي استغرقت ثلاث ساعات. كان يفكر في إيدي.. في عائلته.. في شقيقته. حاول كورت طرد هذه الأفكار من رأسه مرارًا، لكنه وجد الأمر عسيرًا؛ فقد كانت مشاعر قديمة خامدة تنهش وجدانه؛ حنين، ووحدة، ورغبة جامحة.

كان بحاجة ماسة للخروج من هذا المكان اللعين.

ولهذه الغاية، وضع خطة؛ سيشتري تذكرة إلى «غوادالاخارا»، ومن هناك، وبعد يوم أو يومين، سيستقل حافلة إلى «مكسيكو سيتي»، ثم يشق طريقه إلى «تامبيكو». قدر أن عبور البلاد بالسرعة التي خطط لها سيستغرق أسبوعًا أو أكثر.

كانت المحطة تعج بالحركة، لكن سرعة الطابور تحسنت قليلاً. لم يكن يفصله عن شباك التذاكر سوى أربعة أشخاص حين أجرى مسحًا

أمنيًا روتينيًا للمكان؛ فانقبضت عضلة كتفه ودقت أجراس الإنذار في رأسه.

لقد دخل المحطة بخطوات عسكرية واثقة ومندفعة: الكابتن تشاك كولين.

كان كولين يجري مسحًا للمكان هو الآخر، ولم يساور كورت أدنى شك في أن العجوز يبحث عنه، محاولاً تمييزه وسط حشود المسافرين. أشاح جينتري بوجهه بدافع العادة؛ فهو يعلم أنه قادر على التملص من الرجل والبقاء متخفيًا حتى يغادر. لكن شيئًا ما في مشية كولين، وتلك النظرة الحادة الباحثة في عينيه، استوقفه.

أدرك كورت أن ثمة خطبًا ما.

خرج «الرجل الرمادي» من الظلال، وحمل حقيبته على كتفه، ثم انسحب من الطابور وسار نحو الأمريكي الوحيد الآخر في تلك القاعة المكتظة. سأله بحذر:

– "ما الخطب؟"

لم يخفِ كولين مفاجأته؛ فقد كان يبحث بيأس عن رجل تجسد فجأة أمامه. لكنه استعاد رباطة جأشه بسرعة وقال:

– "قالت إيلينا إنك لم تنتظر حتى لوداعنا."

هز كورت كتفيه:

– "أخبرها أنني أودعها الآن."

صوب كولين نظرة حادة نحو جينتري لفترة، وكان من الواضح أنه يريد قول شيء ما، لكنه تردد مرتين. وأخيرًا، تنحنح قائلاً:

– "أيها الشاب، لست مدركًا تمامًا من أنت أو ما هي حقيقتك، لكن يراودني انطباع بأنك قد تكون مفيدًا الآن. وأيًا كنت، فأنا أؤمن أنك تريد فعل الصواب تجاه عائلة إيدي."

أمال كورت رأسه قليلاً، ثم أومأ موافقًا وقال ببطء:

– "بالتأكيد."

أومأ الكابتن وتابع:

– "لقد توجهت إيلينا ومعظم أفراد عائلتها إلى التجمع الشعبي بوسط المدينة."

لم يتفاجأ كورت، وعلق قائلاً:

– "نعم، هذا ما قالته الليلة الماضية."

– "أنا أسكن في وسط المدينة. وهذا الصباح استيقظت على صوت سيارة تجوب الشوارع بمكبرات صوت؛ كان المنادي يحث الجميع على الخروج للمشاركة في التأبين هذا الصباح والاحتجاج على «قتلة الحكومة». يتحدثون عن الأمر منذ الصباح في الإذاعة. هناك موجة عارمة من الاستياء في المحطات المحلية تجاه محاولة الاغتيال التي قامت بها الشرطة الفيدرالية، والمذيعون يشجعون عناصر... معينة... على الخروج وإسماع أصواتهم. أنصار دي لا روشا وعصابة «البدلات السوداء». السلطات تقول إنها تتوقع الآلاف؛ سيغلقون الشوارع. الأمر يبدو... مريبًا. سأكون هناك تحسبًا لوقوع أي شيء، وأود منك أن تأتي أيضًا. فلم أعد شابًا كما كنت."

– "هل تتوقع حقًا حدوث مشاكل؟"

– "مشاكل منظمة؟ ربما لا. ولكن في هذه اللحظة، يمتلك (دي إل آر) معجبين في بورتو فالارتا أكثر مما يمتلك إيدي غامبل. الأمر يعتمد على طبيعة الحشد، وتوجه رجال الشرطة الذين يغلقون الطرق، ومدى شحن أنصار دي لا روشا للجمهور، وعدد السكارى والحثالة الذين قد يندسون في الاحتجاج... يا إلهي، يمكنني أن أرى هذا الموقف يخرج عن السيطرة بسهولة شديدة."

دون تردد، رفع كورت حقيبته القماشية الخضراء عن الأرض وربت على كتف الرجل العجوز قائلاً:

– "قرار صائب يا تشاك. لننطلق."

توجها جنوبًا في سيارة كولين الحمراء من طراز «كروس فوكس». كانت حركة المرور خانقة، لكن الأمريكي البالغ من العمر اثنين وسبعين عامًا كان ينسل بين السيارات ببراعة. أدرك كورت أنه لم يكن ليقود في هذه الشوارع بنصف مهارة هذا العجوز.

راح كولين يطلعه على التفاصيل أثناء القيادة:

– "اليوم هو الإثنين، لذا ستكون هناك سفينة سياحية في الميناء. آلاف السياح يتجولون الآن في «الماليكون»، وهو الممشى المحاذي للشاطئ. بالإضافة إلى أن السكان المحليين يتوافدون على وسط المدينة في أيام الإثنين. الشوارع ستكون ضيقة حتى بدون هذا الاحتجاج. أعرف مكانًا يمكنني ركن السيارة فيه شرق موقع الحدث، فوق التلة مباشرة."

سأله كورت:

– "كيف هو موقع هذا التجمع؟"

– "يُدعى «باركي هيدالغو». كان حديقة في السابق، لكن المدينة أزالت العشب والأشجار والسوق، فأصبح الآن مجرد ساحة أسمنتية مسطحة ومفتوحة تقع فوق مرآب سيارات تحت الأرض. مساحة الساحة تبلغ نحو خمسين ياردة مربعة، وتبعد حوالي ثلاثة شوارع عن الشاطئ. هناك درج كبير ينطلق من الساحة جهة اليسار ويؤدي إلى شارع فوق التلة؛ حيث تقع كنيسة «تالبا»."

– "هل توفر الكنيسة إشرافًا بصريًا على الموقع؟"

– "إشراف بصري؟ يا بني، لم أكن قط جندي مشاة، لكني أفهم ما تعنيه. نعم، ربما توفر ذلك. لست متأكدًا تمامًا."

– "وماذا عن الجهة الأمامية للساحة؟"

– "مجرد طريق مزدحم بوسط المدينة. ثلاثة مسارات، كلها في اتجاه واحد، وتكون الحركة فيها مشلولة في مثل هذا الوقت. توجد مبانٍ على الجانب الآخر؛ عقارات تجارية. مكتب طبيب أسنان يقع

هناك تمامًا. وهناك بعض أعمال البناء الجارية إن لم تخني الذاكرة. كل المباني بارتفاع أربعة طوابق تقريبًا."

قال كورت بينما بدأت خطة عمل تتبلور في رأسه:

– "أحتاج إلى هاتف."

– "خذ هاتفي." ومد كولين يده نحو هاتف الـ «BlackBerry» المعلق في حزامه.

– "كلا، أحتاج إلى هاتف خاص بي، كي أتمكن من التواصل معك بعد أن نفترق."

– "ولماذا نفترق؟ يجب أن نبقى بالقرب من إيلينا والعائلة. إنها حامل في شهرها السابع؛ لو رمى أحدهم زجاجة جعة فلن تتمكن من الابتعاد بسرعة. إرنستو ولوز ليسوا بعمري، لكنهم ليسوا في كامل لياقتهم أيضًا. لورا يمكنها تدبر أمرها، لكن شقيقي إيدي لا فائدة منهما؛ أما أعمامه وأخواله فهم أناس بسطاء من الجبال، وربما لم يروا حشدًا بهذا الحجم من قبل. نحن بحاجة لحماية العائلة."

– "سنفعل ذلك. ثق بي، لنقم بالأمر على طريقتي."

نظر كولين إلى كورت بطرف عينه وهو يقود وسط الزحام الذي يزداد اختناقًا:

– "ساعدني لأفهم ما هي المهارات التي ستقدمها لنا في هذا الموقف؟"

تصلبت ملامح كورت الصارمة ببطء وقال:

– "لو كنت مسلحًا، لكنت قدمت مهارات أكثر بكثير."

تنهد الكابتن:

– "لا نريد فعل أي شيء يزيد الوضع سوءًا. اندفاع أحدهم في استعراض بطولي لن—"

– "أنا لا أبحث عن البطولة. إذا لم تسُؤ الأمور، فلن تشعر بوجودي حتى."

– "جيد."

– "هذا التجمع... هل تتوقع وجود الصحافة هناك؟"

– "بكل تأكيد."

مد كورت يده إلى كولين، وسحب قبعة «يو إس إس بوكانان» من فوق رأسه، ثم وضعها على رأسه هو وأنزلهما إلى الأسفل قليلاً لتغطي عينيه. نظر إليه كولين وهو يقود، فأوضح كورت قائلاً:

– "أنا خجول قليلاً أمام الكاميرات."

– "هل يجب أن أسأل عن السبب؟"

هز كورت رأسه ونظر إلى الطريق:

– "صدقني، لا تريد ذلك."

عاد كولين ليركز في الطريق؛ وازدادت التجاعيد في وجهه عمقاً بفعل التفكير والقلق.

– "ماذا فعلت يا بني؟"

– "أنا تمامًا مثل الأخيار الآخرين هنا. هناك ما يكفي من الأشرار حولي، ولا أريدهم أن يروا وجهي."

أومأ كولين برأسه، لكن كان من الواضح أنه لا يزال مرتابًا. مد يده إلى المقعد الخلفي وسحب قبعة «بوكانان» مماثلة من الأرض ووضعها فوق شعره الفضي. توقفا عند متجر ضخم، واندفع كولين إلى الداخل، ليعود بعد بضع دقائق ومعه هاتف محمول وسماعة أذن سلكية. كان كورت قد أخرج الأجهزة من غلافها قبل حتى أن تخرج السيارة من موقف المتجر.

كان التأبين قد بدأ بالفعل حين ركنا السيارة على بعد بضعة شوارع خلف كنيسة «تالبا» الحجرية الكبيرة، فوق تلة شديدة الانحدار تطل على الساحة. تتبعا ضجيج الحشد، وكانت موسيقى وطنية مسجلة تصدح من نظام صوتي رديء بينما هما يهبطان التلة. توقفت

الموسيقى، وبدأت امرأة تتحدث إلى الحشد. لم يكن صوت إيلينا غامبوا، لكن كورت ظن أنه صوت إحدى زوجات رجال الشرطة الأخريات اللاتي حضرن العشاء الليلة الماضية. كانت تهاجم تجار المخدرات، وانعدام الفرص لشباب المكسيك، والفساد في جهاز الشرطة المحلي. لم يفهم جينتري أكثر من نصف الكلام، لكنه بدا مشتتًا وغير مترابط، رغم إلقائه بحماس شديد. تجاوز هو وكولين بعض رجال شرطة «بورتو فالارتا» المحليين الذين كانوا يحرسون حاجزًا خشبيًا، في اللحظة التي وصفت فيها المتحدثة جهازهم بأنه «في جيب الإرهابي» دانييل دي لا روشا. رمق رجال الشرطة المتظاهرين بنظرات غاضبة، بينما كانت أيديهم اليمنى تستقر على مقابض مسدساتهم.

قال كورت وهما يبدآن في شق طريقهما وسط الباعة المتجولين والمتسكعين عند قمة الدرج الحجري الطويل الذي يمتد بمحاذاة الساحة الكبيرة:

– "هذا الموقف قد ينقلب إلى كارثة."

قال كولين باقتضاب:

– "أجل." وكان ينظر من فوق السور نحو المنصة، بحثًا عن عائلة غامبوا.

كان الهبوط عبر ذلك الدرج الكبير يتطلب مزيجًا من الدبلوماسية والعدوانية. كان كورت ينقر على كتف شخص ويطلب منه الإذن بالمرور بأدب، ثم يزيح الشخص الذي يليه ببدنه ليفتح الطريق لنفسه وللعجوز. كانت الساحة التي تقع أسفله إلى اليسار مكتظة تمامًا؛ ما لا يقل عن ألفي شخص محشورين في مربع واحد من المدينة للاستماع إلى الخطاب. شعر كورت بالقلق من وجود البعض في الحشد ممن جاءوا لإثارة المتاعب، وربما آخرين من هواة المشاكل الذين يأملون في بعض الإثارة.

وأخيرًا، عند أسفل الدرج، قال كورت:

– "لماذا لا تقترب أنت من العائلة؟ كن مستعدًا لتحريكهم بعيدًا عن قلب الحدث إذا ساءت الأمور."

– "حسناً. ولكن ماذا عنك؟"

التفت كورت ببطء في دائرة كاملة، ثم نظر إلى كولين:

– "أحتاج للبقاء عند الأطراف. لأستشعر حركة الحشد، والشوارع.. لأفهم الجو العام."

– "وكيف سيحقق ذلك أي شيء؟"

– "أنا بارع في هذا الأمر. لقد أحضرتني إلى هنا لأنك تظن أنني قد أكون مفيدًا. فدعني أساعد."

أومأ كولين:

– "اتصل بي إذا رأيت شيئًا."

– "لنفتح خط التواصل الآن، ونبقي الخط مفتوحًا بيننا."

اتصل كولين بـ جينتري، ووضع سماعته في أذنه، وفعل كورت الشيء نفسه وأجاب. قال «الرجل الرمادي» في الميكروفون:

– "بالتوفيق."

وافترق الرجلان في اتجاهين مختلفين.

بتحركه غربًا وسط تلك الكتلة البشرية، بعيدًا عن المنصة، استطاع كورت على الفور تمييز مثيري الشغب في الحشد. كانت هناك مجموعات من المعارضين هنا وهناك؛ وسمع من حوله تعليقات غاضبة، ومشادات، وحتى بعض التدافع. تمتمت امرأة بأن الشرطة الفيدرالية لا ينبغي أن تفجر القوارب في الخليج، فردت عليها امرأة

أخرى بحدة بأن (دي إل آر) هو ابن عاهرة، والأسف الوحيد هو أنه نجا.

خلال ستين ثانية من مغادرة الكابتن، رصد جينتري رجالاً من الواضح أنهم لا ينتمون لهذا المكان. رجال أشداء، بملامح صخرية، يراقبون من حولهم بدلاً من التركيز على الخطيب. مر بشخصين من هؤلاء في مسافة لا تتجاوز بضع ياردات، وصنفهما كعملاء سريين يعملون لصالح الشرطة، أو الحكومة، أو ربما حتى لصالح أحد كارتلات المخدرات.

رأى كورت نتوءات عند خصورهم؛ دليل على أن الرجال يحملون مسدسات مخبأة تحت أحزمة سراويلهم الجينز. كان وجود رجال شرطة بملابس مدنية في مظاهرات أمريكا اللاتينية أمرًا شائعًا؛ وهو شيء سبق لـ كورت أن رآه في البرازيل وغواتيمالا وبيرو ونصف دزينة من الأماكن الأخرى. غالبًا ما لا يكونون بالخطورة التي يبدون عليها، ومع ذلك، كان يعلم أن عليه مراقبة هؤلاء الأوغاد.

تحدث كورت في ميكروفونه:

– "تشاك، هل وصلت إلى إيلينا؟"

– "تقريباً. سأصعد إلى المنصة مع العائلة. هناك متحدث واحد آخر بعد هذه المرأة ثم يأتي دور إيلينا. عندما تنتهي من خطابها، سأبذل قصارى جهدي لإعادة الجميع إلى أعلى الدرج بعيدًا عن هذا الزحام."

– "علم."

وصل كورت إلى الشارع ذي المسارات الثلاثة أسفل ساحة «باركي هيدالغو». كانت هناك بضع سيارات وشاحنات مركونة بجوار الرصيف، لكن لم تكن هناك حركة مرور. بدلاً من ذلك، كان شرطة المدينة يغلقون الشارع من الشمال، وما لا يقل عن مائتي شخص

يقفون في منتصف الطريق أو على الرصيف المجاور، وأعينهم شاخصة نحو المنصة.

أنهت المتحدثة كلامها، فتلقّت تصفيقًا مهذبًا من البعض وصيحات استهجان غاضبة من الآخرين. مر جينتري برجل آخر صلب الملامح لم يصفق ولم يعر المتحدثة أي اهتمام؛ بل تلاقت عيناه بعيني الغريب الملتحي الذي يشق طريقه شرقًا قبل أن يحول نظره إلى جزء آخر من الجمهور.

استقر نظر كورت على مبنى يطل على الساحة. كان الطابقان الأول والثاني مكتملين؛ ويضمان مكتب طبيب أسنان، ووكالة سفر، وصيدلية، وبعض المكاتب الأخرى. لكن فوق مستوى الشارع، كان الطابقان الثالث والرابع قيد الإنشاء؛ عوارض حديدية، وقضبان تسليح، وكتل أسمنتية، وأسلاك كهربائية، وسقالات، ونوافذ واسعة ومظلمة تطل على الحشد والمنصة بالكامل. بالنسبة لرجل مثل كورت جينتري، بدا هذا الموقع واعدًا. كان هذا هو «موقع الإشراف»، المكان الذي يمكنه من خلاله الحصول على رؤية شاملة للحدث.

بدأ يسير نحو المبنى.

كان المتحدث التالي على المنصة رجلاً، وهو مدعٍ عام في الولاية. بدأ يشيد بالمسيرة القصيرة واللامعة للرائد إدواردو غامبوا، تمهيدًا لإلقاء زوجة الضابط الراحل بضع كلمات.

بمجرد تحرره من الزحام الخانق، توجه جينتري نحو زقاق يمتد غربًا حتى الشاطئ. وعلى يساره، انفتح قوس يؤدي إلى ممر يمر تحت المبنى غير المكتمل. عند القوس، مر بمدخل متجر للحيوانات الأليفة؛ حيث تدلت دزينة من أقفاص الطيور من سقف الممر بجوار نوافذ المتجر، مما اضطره للانحناء أثناء سيره. وبتحركه ببطء في الممر الضيق، تفادى المزيد من طيور الحسون والدرة التي كانت تزقزق في أقفاصها الخشبية البارزة في طريقه. كان الحمام يتبختر عند قدمي

جينتري وهو يتحرك ببطء نحو ضوء يلوح في الأفق؛ حيث توجد بئر سلم عند نهاية الممر المظلم.

وفجأة، وعلى بعد ثلاثين قدمًا أمامه، ظهر ظل من جهة اليسار.

توقف كورت في مكانه. عبر رجل الممر تحت الضوء، من غرفة على اليسار نحو بئر السلم على اليمين. كان الرجل متشحًا بالسواد من رأسه حتى أخمص قدميه، ووجهه مغطى بقناع تزلج أسود.

كان يبدو كأنه من الشرطة الفيدرالية، أو على الأقل يرتدي ملابسهم، لكن حركاته وتصرفاته المريبة لم تكن تصرفات شرطي جاء ليحفظ الأمن. تجمد جينتري في مكانه، متمنيًا ألا ينظر الرجل نحو الممر المظلم أثناء مروره وأن يواصل طريقه نحو السلم.

لم ينظر الرجل، وتابع سيره، وقبل أن يختفي عن الأنظار، لمح كورت رشاشًا قصيرًا أسود اللون في يد «الفيدرالي» اليسرى.

ثم سمع كورت صوت سيارة تدخل الزقاق خلفه. التفت فرأى حافلة مصفحة سوداء تابعة لقوات التدخل السريع التابعة للشرطة الفيدرالية تتوقف مباشرة تحت القوس عند متجر الحيوانات الأليفة الذي جاء منه، مما أدى فعليًا إلى محاصرته في الداخل ما لم يجد مخرجًا آخر.

وقف كورت وحيدًا في الممر لما يقرب من نصف دقيقة، غير متأكد مما يجب فعله. أمامه، في مكان ما فوق السلم، يوجد رجل مسلح يبدو أنه يخطط لأمر سيء. وخلفه، لا يعلم كم من رجال الشرطة المريبين يظهرون على بعد زقاق واحد من الحدث.

– "كولين، هل تسمعني؟"

كان الاستقبال سيئًا للغاية في الممر. سمع كورت صدى صوت الرجل الذي يتحدث في مكبرات الصوت في سماعة هاتفه، لكنه لم يستطع سماع تشاك.

اللعنة. بدأ يتوجه نحو بئر السلم.

كان باب الطابق الثاني مغلقًا، ولم يظن كورت أن الرجل قد دخل منه، وإلا لسمع صدى صوت المزلاج في بئر السلم وصولاً للممر. همس في ميكروفونه مجددًا محاولاً مناداة الكابتن كولين، لكن الاستقبال في بئر السلم كان أسوأ من الممر.

خلع حذاءه الرياضي ليتمكن من التحرك دون أن يتردد صدى وقع أقدامه في المكان، وبدأ يصعد الدرج الأسمنتي بجواربه فقط.

في الطابق الثالث، غادر كورت بئر السلم ودخل منطقة البناء في المبنى، بحثًا عن ذلك «الفيدرالي» الوحيد المسلح بالرشاش. كان الطابق غير المكتمل يضم نوافذ مفتوحة تطل على ساحة «باركي هيدالغو» والشوارع المحيطة. توقع أن يجد الشرطي المقنع هناك، وسط الظلام ومواد البناء، لكن لم يكن هناك أحد. تقدم جينتري للتحقق من الحشد في الأسفل.

كانت الساحة مكتظة عن آخرها؛ ومن هذا الموقع المرتفع، استطاع رؤية الازدحام الرهيب بشكل أوضح. أنهى المتحدث كلماته وسلم المنصة لـ إيلينا غامبوا؛ فغرق المكان في التصفيق والهتافات التي طغت على الصراخ والشتائم، لكن كورت استطاع تمييز المعسكرات المختلفة في التجمع. تدافع، وتلويح بالأصابع، وإيماءات غاضبة أخرى تعبر عن الاستياء كانت مندسة وسط أولئك الذين جاءوا بوضوح لتكريم الرجال الراحلين.

ثم بدأت أبواق السيارات تدوي بصخب في الأسفل وإلى يمينه، طاغية على صوت التصفيق. سيارة واحدة، ثم اثنتان، وأخيرًا خمس شاحنات ضخمة بيضاء من طراز (SUV) شقت طريقها ببطء وسط تلك الكتلة البشرية. كانت تتحرك في الاتجاه المعاكس في الشارع ذي الاتجاه الواحد. واصلت الشاحنات الكبيرة إطلاق أبواقها، وكان السائقون يلوحون بغضب من النوافذ ليجبروا الحشد على الانقسام. وأخيرًا، توقفت الشاحنات البيضاء الضخمة، وبدأ الرجال يترجلون

منها. كان دخولهم للحدث دراميًا لدرجة أن إيلينا غامبوا نفسها توقفت عن إلقاء كلماتها الافتتاحية لترى ما يحدث.

تساءل كورت إن كان هذا جزءًا من التأبين، لكن نظرة واحدة نحو المنصة بددت تلك الفكرة؛ فقد بدا الذهول والتخبط على وجوه العائلات والمتحدثين الواقفين هناك أمام القادمين الجدد. كان شرطة «بورتو فالارتا» يتسكعون عند أطراف الحشد، لكنهم لم يتحركوا نحو المركبات أو الرجال؛ بل وقفوا يتفرجون مثل بقية الحاضرين.

على استحياء، بدأت إيلينا غامبوا تتحدث مرة أخرى، تشكر المنظمين على إقامة هذا التأبين وتشكر الجمهور على حضورهم لتكريم عمل زوجها ورفاقه الراحلين. لكن كورت أبقى عينيه معلقتين بالشاحنات. خرج رجل بلحية صغيرة ويرتدي بدلة سوداء وربطة عنق من الشاحنة الثانية. راقبه كورت وهو يتناول مكبر صوت يدويًا من رجل يرتدي ملابس مماثلة ويصعد فوق غطاء محرك الشاحنة الضخمة. وفورًا، وقبل أن ينطق بكلمة، انطلقت صيحات الهتاف وشهقات الرعب من الحشد في آن واحد.

قال الرجل:

– "داماتس إي كاباييروس! سيداتي وسادتي! انتباهكم من فضلكم."

كان صوته يبدو ضئيلاً وأجوف مقارنة بنظام الصوت الذي يخرج منه صوت إيلينا.

تحدث كورت في سماعته:

– "مهلاً تشاك، هل تسمعني؟"

– "أسمعك بوضوح."

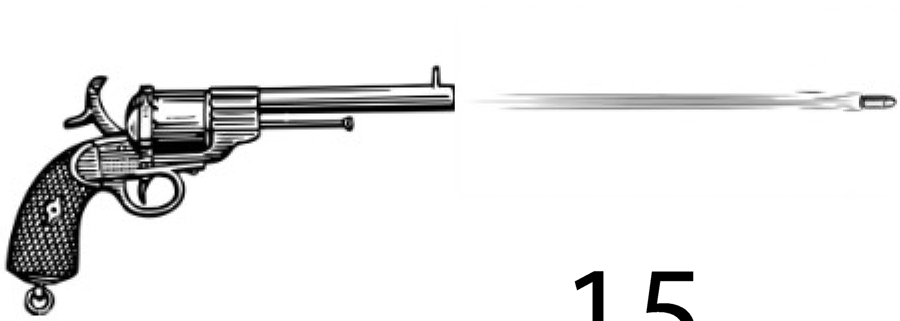
– "من هو هذا الوغد؟"

ساد صمت لثانية. نظر جينتري عبر الساحة، وميز كولين وسط الناس الذين يقفون خلف المنصة، وكان يشرئب بعنقه ليرى الشاحنات البيضاء والرجل الذي يقف فوقها. وسرعان ما هتف العجوز الأمريكي:

– "يا للهول! إنه هو!"

– "هو مَن؟"

– "هذا هو دانييل دي لا روشا."



15

لم يصدق كورت وقاحة هذا الرجل. هذا الحدث بأكمله أقيم لتخليد ذكرى رجال الشرطة الذين ماتوا أثناء محاولة قتله، وها هو يظهر، في إهانة صارخة للشرطة ولعائلات هؤلاء الرجال الذين سقطوا.

سأل كورت:

– "ما الذي يفعله هنا؟"

– "يفعل ما يفعله دائمًا. يقدم عرضًا مسرحيًا".

اختلط الارتباك بالقلق في دماغ جينتري. فكر في الرجال بملابس مدنية الذين رآهم في الحشد. هل كانوا (سيكاريوس)، قتلة مأجورين يشكلون جزءًا من حاشية دي لا روشا؟ أم كانوا يعملون لدى كونستانتينو مادريغال، عدوه اللدود؟ هل هناك ما هو أكثر من مجرد تهديد السكارى والمشاجرات وزجاجات البيرة؟

– "لا يعجبني هذا. أخرج العائلة من هنا. الآن".

– "حاولت للتو. إيلينا لن تتزحزح حتى تنهي كلمتها".

قال كورت:

– "تبًا".

وأسرع عائدًا إلى الدرج للعثور على الرجل المقنع الموجود معه في المبنى.

واصل دي لا روشا التحدث عبر مكبر الصوت، وكان كورت يسمع كل كلمة، وما لم يفهمه، كان يركبه من سياق الحديث.

– "لقد جئت أمامكم اليوم، لأخبر الناس والسلطات بأنني لست مختبئًا. ليس لدي ما أخفيه! محاولة الاغتيال ضدي على يختي فشلت، gracias (شكرًا) لحاميّ ومنقذي فقط. محاولة الاغتيال قام بها sicarios (قتلة) حكوميون يعملون مباشرة بأوامر إل فاكيرو، السيد كونستانتينو مادريغال بوستامانتي، تاجر المخدرات الحقيقي، المجرم الحقيقي الذي يهدد المنطقة وأمتنا المسكينة. مادريغال وعصابات الشرطة المرتشية التابعة له يريدونني ميتًا لأنني أملك أدلة على فساد حكومي على أعلى المستويات في مكسيكو سيتي! بيدي هذه أحمل أسماء الفاسدين العاملين لصالح مادريغال".

حول دي لا روشا انتباهه من الحشد العام إلى إيلينا غامبوا المذهولة، التي لا تزال تقف خلف الميكروفون على المسرح.

–" Señora (سيدتي)، أطلب عفوك لقول هذا، لكن اسم زوجك موجود في هذه القائمة"!

صرخت إيلينا في الميكروفون على المنصة:

– "!Mentiroso" (كاذب!).

تجاهلها دي لا روشا، وخاطب الحشد مرة أخرى بشكل عام.

– "جئت اليوم، واضعًا حياتي في خطر، لأنني أؤمن بأنه لا ينبغي أن يكون هناك تجمع لدعم القتلة والأشرار وضباط الشرطة غير الشرفاء..."

استمر في التحدث، وبدا الحشد منقسمًا في رد فعله الآن؛ بدا أن وصول "البدلات السوداء" قد أرهب البعض وحشد البعض الآخر، حتى مع إثارة غضب الكثيرين في الحشد.

لكن كورت جينتري عزل كل ذلك. كان قد عاد إلى بيت الدرج الآن ومتجهًا للأعلى، باحثًا عن الفيدرالي المتلصص. في أعلى بيت الدرج بدأ يتحرك عبر طابق مظلم آخر مليء بغبار البناء، مرة أخرى باتجاه النوافذ المطلة على الحديقة.

ثم رآه، أمامه في الظلال. كان الرجل المقنع يحمل الرشاش، وجاثيًا خلف الجدار الخرساني، مخفيًا جسده وناظرًا للأسفل باتجاه الحشد. استطاع كورت سماع صوت إيلينا عبر مكبر الصوت، تحاول الرد ومجادلة دي إل آر بينما كان الحشد يهتف ويستهجن كلماتها في آن واحد.

سحب الشرطي جهاز لاسلكي من حزامه، وبدأ يتحدث فيه بصوت خافت. لم يستطع كورت سماع ما يُقال. اقترب قليلًا بقدميه المرتديتين الجوارب فقط، ملازمًا للجدران.

دلف إلى الغرفة المظلمة مع الضابط الآن، وتحرك يسارًا بمحاذاة الجدار نحو الزاوية، وانبطح خلف كومة منخفضة من ألواح الجبس الملقاة على الخرسانة المغبرة.

تحدث الشرطي مرة أخرى، ومرة أخرى، لم يستطع جينتري تمييز حديثه الخافت، لكن كورت لم يثق بالرجل على الإطلاق. لماذا يكون هنا بالأعلى، جاثيًا، يهمس بتآمر في جهازه اللاسلكي لشخص ما؟ لم تبدُ هذه تصرفات شرطي أثناء تأدية واجبه.

ببطء، رفع الشرطي سلاحه؛ ميزه جينتري على أنه "كولت 635"، المسمى "شورتي"، وهو رشاش عيار 9 ملم. رفع الفيدرالي الماسورة فوق الكتل الخرسانية ووجهها للأسفل نحو الحشد. لم يتحرك جينتري بعد، ولم يعرف ما الذي يحدث بحق الجحيم. هل الشرطي هناك لحماية الموجودين على المسرح، وهل رأى تهديدًا ما؟ أم أنه يخطط لقتل إيلينا غامبوا؟ لم يكن الـ "كولت" بندقية قنص، لكن رشقة طويلة من السلاح قد ترسل ثلاثين طلقة عيار 9 ملم منطلقة لمسافة مائة وخمسين قدمًا نحو المنصة، لتطرح كل الواقفين هناك قتلى على الأرض.

تبًا، فكر كورت. لم يعرف ما عليه فعله. إذا كان هذا الرجل من الأخيار، فبالتأكيد لا يريد قتله، لكن إذا كان من الأشرار، فهو لا يريد الجلوس والمراقبة بينما يمزق الأبرياء بالرصاص.

لم يكن يعلم، لكن غريزته أخبرته أن الوضع أمامه يفوح برائحة كريهة، وقد شُحذت غريزته وصُقلت عبر سنوات وسنوات من الخطر. وفي لحظة شبه حسم، وقف جينتري في الغرفة المظلمة، ومشى عبر الأسمنت على رؤوس أصابعه المرتدية الجوارب نحو الرجل المتشح بالسواد. خمسة عشر قدمًا، عشرة أقدام، خمسة أقدام خلفه. كانت خطواته صامتة، وما صدر عنها من صوت ابتلعه ضجيج الشارع والحديقة.

ركع كورت للأسفل، بعيدًا عن مجال رؤية النافذة المفتوحة، خلف الشرطي الجاثي مباشرة.

– "مرحبًا".

دار الضابط الفيدرالي المكسيكي على عقبي قدميه، والتف رأسه بسرعة ليقابل لكمة يسارية وحشية من القاتل الأمريكي. بفرقعة وطقطقة، التقت القبضة بالوجه. طارت نظارات الشرطي الداكنة، وارتجفت عيناه الواسعتان، وارتخى الرجل، وسقط ككيس طحين بوزن مائة وأربعين باوندًا نحو الأسمنت. أمسكه كورت، بشكل أو بآخر، ومدد الرجل الفاقد للوعي على ظهره. وبسرعة، أخذ جينتري سلاحه.

نظر كورت للأسفل عبر كتلة تشبه "السباغيتي" من الأسلاك الكهربائية وكابلات الهاتف الممتدة من موقعه المرتفع هنا، عبر الشارع إلى أعمدة بالأسفل عند مستوى الشارع بجوار الحديقة. تحت هذه الأسلاك، أسفل موقعه مباشرة، رأى مجموعة جديدة من الشخصيات المتشحة بالسواد تشق طريقها عبر الحشد في الشارع. كانوا من الشرطة الفيدرالية أيضًا، وجاءوا من الزقاق حيث الشاحنة المدرعة.

كانوا يرتدون ملابس مطابقة تمامًا للشرطي الممدد عند ركبتي جينتري.

أسفل كورت وإلى يمينه، واصل دي لا روشا الثرثرة في مكبر الصوت. حاولت إيلينا غامبوا التحدث مرتين أخريين، لكن في المرتين واصل الرجل ذو الملابس الأنيقة الواقف في الشمس على غطاء محرك السيارة البيضاء الحديث، مجبرًا إياها على الاستسلام والوقوف فقط عند المنصة. قال شيئًا عن عدم وجود لائحة اتهام، وشيئًا عن فساد مجموعة العمليات الخاصة بالشرطة الفيدرالية، وشيئًا عن كيف أن الأغاني وأفلام الحركة مجرد ترفيه وليست أساسًا للحكم على رجل بأنه مذنب. لوّح بأوراق مطوية في يده، "قائمته" للمتآمرين ضده، وهاجم كونستانتينو مادريغال ورجاله.

حدق كورت للأسفل في الفيدراليين الذين يشقون طريقهم عبر الحشد. بدأ الحشد نفسه في التدافع والابتعاد عنهم. خمسة شرطيين على الأقل، وربما أكثر؛ كان من الصعب إحصاء عددهم بالطريقة التي تحركوا بها داخل الكتلة النابضة والمرتدة من المدنيين حولهم، والجميع يحترق تحت شمس الظهيرة الحارقة.

صرخت إيلينا الآن باتجاه دي لا روشا:

– "Señor أنا أتحدث نيابة عن زوجي الميت! ستسمح لي بالانتهاء"!

تحدث كورت في ميكروفون هاتفه المحمول:

– "لديك خمسة أو أكثر من الأوغاد المريبين يشقون طريقهم نحو المنصة وسط الحشد. ضباط فيدراليون".

سمع كورت كولين ينقل هذه المعلومة لـ لورا، ورآها تخطو خلف منصة القراءة لتتحدث لـ إيلينا. دفعت إيلينا أخت زوجها بعيدًا برفق وهي تواصل مخاطبة دي لا روشا.

نظر كورت مرة أخرى للفيدراليين. كان المدنيون يهرعون حرفيًا بعيدًا عن طريقهم الآن، لكن الرجال المقنعين تحركوا بعدوانية عبر المواطنين، دافعين بأيديهم وأذرعهم، ثم... نعم. أسلحة! حيث كانت أيديهم فارغة من قبل، رأى الآن معدنًا أسود. لقد سحبوا أسلحتهم: رشاشات "كولت" للبعض ومسدسات نصف آلية سوداء للبعض الآخر.

كل مشهد وصوت وحاسة سادسة رآها أو سمعها أو شعر بها جينتري منذ وصوله للساحة أصبحت منطقية فجأة؛ تشكلت كلها معًا في كتلة صلبة من اليقين في أحشائه.

لقد فهم الآن.

لن يكون هناك شغب.

ستكون هذه مذبحة، وهو يملك رؤية شاملة لها من الأعلى.

– "اسحبها من على المسرح يا تشاك! الأمر على وشك أن يصبح صاخبًا!"

صرخ العجوز ردًا عليه:

– "حسنًا!"

سمع كورت القبطان يصرخ في إيلينا:

– "Vamanos!" (لنذهب.)!

نظر كورت للأعلى وعبر الحشد المكون من ألفي شخص في الوقت المناسب ليرى الأمريكي ذا الشعر الأبيض وقبعة البيسبول الزرقاء يمسك إيلينا من ذراعها.

وفجأة دوت طلقة نارية.

نظر كورت عائدًا للفيدراليين، لكن رأسه تبع فورًا مصدر الصوت، أسفل منه وإلى يمينه. انفتح فمه من الصدمة. أسقط دانيال دي لا روشا مكبر الصوت، ويداه مفرودتان بعيدًا عن جسده؛ وأرسلته طلقة ثانية يترنح للخلف، متعثرًا عن غطاء محرك سيارة "شيفروليه

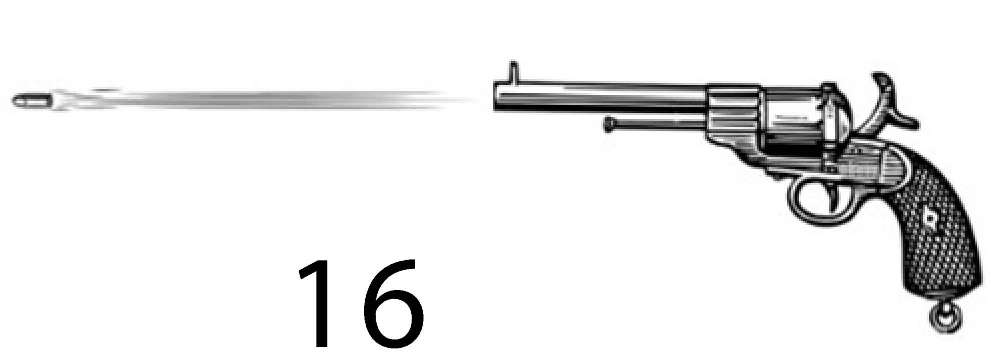
سوبربان" الضخمة البيضاء وساقطًا في أذرع حراسه الشخصيين البدلات السوداء.

تصاعد دخان مسدس من وسط الحشد أمام السيارة الرياضية متعددة الاستخدامات.

تمتم جينتري لنفسه:

– "يا للهول".

لم يتوقع حدوث ذلك بالتأكيد.



16

– "لقد اغتال أحدهم دي لا روشا."

قالها كورت عبر الميكروفون، لكن دويّ رصاصٍ انفجر أمامه إلى اليسار أجبر رأسه على الالتفات مجددًا. كان رجال الشرطة الفيدرالية المتشحون بالسواد يطلقون النار عشوائيًا على الحشد وهم يندفعون نحو المنصة، حاصدين في طريقهم أرواح المدنيين الذين عجزوا عن الفرار.

كانت الشاحنات البيضاء الضخمة تطلق أبواقها بصيحات هستيرية، وإطاراتها تصرخ فوق الأسفلت وهي تحاول بكل قوتها التراجع والفرار من وسط تلك الكتلة البشرية.

أدرك كورت أن عليه التدخل؛ فلا يمكنه الوقوف مكتوف الأيدي وهو يشهد هذه المجزرة الجماعية.

انتصب «الرجل الرمادي» واقفًا أمام نافذة الطابق الرابع المفتوحة. استلّ قضيبًا حديديًا (مفصلة من حديد التسليح) بطول قدمين من كومة أدوات بجانبه، وأمسك به بقبضة محكمة في يده اليمنى، بينما علّق حزام بندقيته الـ «كولت» القصيرة حول عنقه بيده اليسرى. وبخطوات هادئة بجواربه الصامتة، اعتلى حافة النافذة الأسمنتية. وبنظرة خاطفة وسريعة إلى الأسفل، قفز محلقًا فوق الحشد، فوق الصرخات وأبواق السيارات وأزيز الرصاص، ليهوي نحو الشارع من ارتفاع أربعة طوابق.

أثناء سقوطه، سمع صوت رشاش قصير يفرغ مخزنه بالكامل في تتابع جنوني إلى يساره.

علق جينتري الخطاف الحديدي حول حزمة من أسلاك الهاتف التي تتدلى تحت النافذة بثلاث أقدام فقط، ودفع يده اليمنى تحت الأسلاك مقبضًا على الطرف الآخر من القضيب الحديدي وهو يهوي، ضاغطًا بكل ما أوتي من قوة بكلتا يديه. وبخلعٍ عنيف كاد يفتك بكتفيه، تلقفته الأسلاك ونجح في التشبث بها. اندفع جسده وساقاه بقوة نحو اليمين، ليدور في الهواء بشكل أفقي تقريبًا قبل أن تستعيده الجاذبية، ويبدأ بالانزلاق بزاوية حادة نحو ساحة «باركي هيدالغو»، بينما كان الحديد يمزق الطبقة المطاطية لأسلاك الهاتف أثناء انحداره السريع.

كان يندفع الآن فوق الشارع، محلقًا فوق فوضى عارمة من البشر المكدسين الذين يحاولون يائسين فك اختناق الزحام والفرار من فوهات البنادق.

على ارتفاع ثلاثين قدمًا في الهواء، كان ينزلق بأقصى سرعته، مصارعًا للبقاء متشبثًا بالأسلاك. طار هاتفه وسماعته السلكية بعيدًا عن جسده ليهويا في الشارع بالأسفل. تفرق الحشد الواقف أمام الدرج الأسمنتي الفاصل بين الرصيف والساحة أمام وابل الرصاص المنهمر من الشمال والجنوب؛ وأدى دوي انفجار رصاص جديد بالقرب من الدرج المؤدي إلى كنيسة «تالبا» إلى دفع البعض في اتجاه معاكس لبقية الجموع، مما خلق ما يشبه حلبة صراع من الأجساد المتخبطة والمتساقطة على الرصيف بالقرب من العمود المعدني حيث تنتهي أسلاك الهاتف.

اختار كورت هؤلاء التعساء ليكونوا منطقة هبوطه. وبينما كان ينزلق بسرعة البرق، أفلت القضيب الحديدي وقدميه لا تزالان على ارتفاع ثماني أقدام عن الأرض، وهو في منتصف المسافة فوق الشارع

ذي المسارات الثلاثة. طار في الهواء، وضم ركبتيه إلى صدره، لمح رجلًا ضخمًا بملابس مدنية يمسك بجهاز لاسلكي في يد ومسدس فضي في الأخرى. اصطدم كورت بظهره بقوة، ليتدحرج هو والرجل البدين بعنف، مرتطمين بمن سقطوا قبلهما على الرصيف.

صارع كورت للنهوض، وكان أسرع من أي شخص آخر أطاح به هجومه الانتحاري من الطابق الرابع. ركض فوق ظهر شاب كان ممددًا ووجهه للأسفل على الأسمنت، ثم قفز فوق سور صغير يمتد بمحاذاة الرصيف، متجهًا نحو الدرج الذي خطط كولين لاستخدامه لإخراج عائلة غامبوا من الساحة.

انفجر وابل جديد من الرصاص من جهة الأمام، فتعالت صرخات الحشد. رجال ونساء وأطفال، الكل يركض ويتصارع ويصرخ هربًا من هذه المذبحة. راح كورت يبحث عن مصدر النيران أثناء ركضه، مائلاً بجسده ومستخدماً يده الحرة كحربة لإزاحة المذعورين والمندهشين من طريقه وهو يتقدم نحو مصدر التهديد. وصل الآن إلى أولى الضحايا: جثث مزقها الرصاص، ومدنيون جرحى يتلوون من الألم، تضاعفت معاناتهم بدهس الآخرين فوقهم وهم يحاولون الفرار من هذا الجحيم. شق كورت طريقه مع الحشد نحو الدرج الطويل المؤدي إلى الشارع والكنيسة؛ وأمامه سد بشري منيع من البشر المذعورين الذين يصرخون وهم يقاتلون في طريقهم نحو الدرج بحثًا عن الأمان.

في هذه الأثناء، كان تشاك كولين قد نجح في نقل إيلينا وعائلتها بعيدًا عن المنصة؛ وسرعان ما أرشدها هي ولورا وإرنستو ولوز نحو الدرج المؤدي بعيدًا عن «باركي هيدالغو». كان يتحرك معهم، تارة خلفهم وتارة بجانبهم أو أمامهم، وفقًا لما تفرضه فوضى الحشد المتلاطم، بقية أفراد عائلة غامبوا الثمانية: خالا إيدي وخالاته، وشقيقاه الأكبر، وزوجة أخيه، وابن أخيه البالغ من العمر ستة عشر عامًا. وانضم إليهم أفراد من عائلات ضباط الشرطة الفيدرالية

الآخرين الذين قُتلوا في حادثة «لا سيرينا»، فارّين من المنصة نحو الدرج. لكن الحشد كان كثيفًا لدرجة أن خطة هروب كولين المستعجلة تعثرت على الفور. بدا إيقاع إطلاق النار المنتظم وكأنه فوق رؤوسهم تمامًا، لكنهم بالكاد استطاعوا التنفس، ناهيك عن التحرك بعيدًا. وبعد ما بدا له دهرًا من التدافع، نجح كولين أخيرًا في إيصال عائلة غامبوا إلى الجدار المحاذي للدرج. وبدأ يقاتل ويشق طريقه بمحاذاته للوصول إلى الانعطافة المؤدية للأعلى، لكن أمواج المتظاهرين المذعورين الذين يتحركون في الاتجاه المعاكس كانت تدفع خطته للوراء.

وأخيرًا، استدار عند قاعدة الدرج وتقدم الركب، ممسكًا بيد إيلينا، يتناوب بين الالتفات للخلف للتأكد من عدم تخلف أحد من العائلة، والمسح البصري للأمام نحو الدرج وسط الفوضى العارمة، بحثًا عن أي تهديد أو فرصة تسرع من فرارهم من دائرة الخطر.

دوت طلقات أخرى من الخلف، من مناطق متفرقة في الساحة والشارع، ومن أنواع مختلفة من الأسلحة. كانت لورا تتبع والديها، وتدفع بوالدها الذي كان، مع زوجته، يختنقان عند أسفل الدرج، وقد تكدسوا كالحطب وسط الآخرين.

من فوقهم مباشرة، صاح كولين:

– "انطلقوا! انطلقوا! تحركوا! تحركوا!"

كان يتحدث الإسبانية بطلاقة، لكنه صرخ بالإنجليزية، واثقًا أن معناه واضح للجميع.

طوال تقدمه البطيء والمضني عبر الساحة المكتظة، لم يستطع كورت رؤية أكثر من بضع أقدام أمامه. صارع الكتل البشرية، مستخدماً قبضتيه ودافعًا وخادشًا ليشق طريقه.

– "تحركوا! تحركوا! تحركوا!"

وبالقرب من الدرج، وهو يقفز فوق الجثث والجرحى في طريقه، لمح ثلاثة من القتلة المأجورين «السيكاريو» المتنكرين بزي

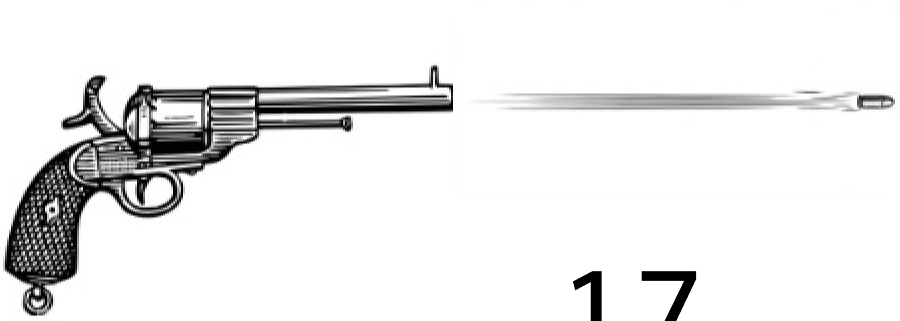
الفيدراليين، وظهورهم إليه. كان هؤلاء الرجال يندفعون للأمام وهم يعيدون تلقيم رشاشاتهم التي يتصاعد منها الدخان، غافلين تمامًا عن وجود عدو مسلح خلفهم. كان الرجال يرتدون سترات ضخمة واقية من الرصاص، لذا وبحزم قتّال، جثا القاتل الأمريكي على الرصيف الساخن، ليصنع مسارًا لطلقاته لا ينفذ عبر أهدافه ليصيب الأبرياء. أطلق بعناية دفعة قصيرة من الرصاص على مؤخرة رأس كل رجل منهم، تحت الخوذة مباشرة. سقطوا وتدحرجوا للأمام وسط المدنيين الهاربين؛ وطارت رشاشات الـ «كولت» ومسدسات الـ «بيريتا» من أيديهم لتسكت إلى الأبد. أمسك كورت بندقيته بيده اليمنى وأطلق النار مرة أخرى على الرجال الممددين على الأرض، مصوبًا رصاصتين إلى جبهة كل منهم وهو يتجاوزهم.

وصل إلى مجموعة من المدنيين الذين تجمدوا من الخوف؛ كانوا بوضوح عائلة واحدة، وكان الأب شبه هستيري وهو يحاول حماية زوجته وأطفاله الثلاثة من الرصاص المتطاير والأجساد التي ترفس وتتخبط، محاولاً الابتعاد عن كل ذلك. وفور أن تلاقت عينا كورت بعيني الرجل المذعور، انتفض رأس المكسيكي جانبيًا، وانفجرت الدماء من فكه. أدار جينتري رأسه ليجد أحد المحرضين بملابس مدنية في الحشد يعيد تصويب مسدسه الفضي الضخم، بعد أن أخطأ كورت في طلقته الأولى. انحنى كورت وتدحرج على الأرض ككرة بولينج، مرتطمًا بالآخرين من حوله، لكنه نجح في تفادي طلقة أخرى من المسدس لا شك أنها أصابت شخصًا بريئًا خلفه.

أفرغ «الرجل الرمادي» مخزن بندقيته الـ «كولت» (9 ملم) في أحشاء الرجل البدين من على بعد اثنتي عشرة قدمًا، مما أدى إلى إصابته بتشنجات قبل أن يسقط جثة هامدة.

ألقى كورت الرشاش الذي نفذت ذخيرته، وزحف للأمام على يديه وركبتيه، ثم استل مسدس القتيل الذي كان لا يزال ينبعث منه الدخان.

انتصب واقفاً، وانطلق راكضًا نحو الدرج؛ كان سلاحه الجديد يتصبب دمًا، وكان يدفع ويزيح بل ويصوب المسدس نحو الأبرياء ليجبرهم على إخلاء طريقه اللعين. بذل كل ما في وسعه للحاق بـ كولين وعائلة غامبوا الهاربة، الذين كانت تحجبهم مئات الأجساد التي تتدافع في كلا الاتجاهين على الدرج الواسع المؤدي إلى الشارع أمام كنيسة «تالبا». وفي لحظة ما، وجد نفسه يتسلق مقعدًا خشبياً، ليقفز عاليًا فوق ظهور ورؤوس الحشد، وكأنه يركب أمواجًا بشرية فوق تجمع بشري مكتظ من سكان «بورتو فالارتا» الذين شلهم الرعب عن الحركة.



17

كان تشاك كولين يسبق كورت ويعلوه بثمانين قدمًا، وقد تجاوز منتصف السلم بقليل، وخلفه مباشرة عائلة غامبوا وبقية أفراد عائلات الـ GOPES. فجأة خف الازدحام عن يمينه، فقرر القبطان المتقاعد توجيه مجموعته في ذلك الاتجاه. دفع إيلينا لتتقدمه وتجاوزه، ليتمكن من إمساك يد لوز وسحبها وسط الفوضى المتلاطمة من الناس الصارخين حولهم.

عند قمة الدرج، وعلى بعد ثلاثين قدمًا أخرى، شق ثلاثة من رجال الشرطة الفيدرالية طريقهم عبر الحشد على دراجات "سوزوكي" نارية ثم ترجلوا؛ سحبوا مسدساتهم من الحافظات المثبتة على أفخاذهم، ونظروا أسفل الدرج باتجاه إطلاق النار. لوحوا للحضور الفارين من التأبين بالمرور، حاثين إياهم على الركض للنجاة بحياتهم، وبدوا وكأنهم يغطونهم بأسلحتهم، باحثين عن تهديدات في الساحة بالأسفل.

المزيد من إطلاق النار. المزيد من أبواق السيارات. المزيد من الصراخ والصياح.

والمزيد من صرخات الاحتضار والألم.

قادت إيلينا غامبوا عائلتها صعودًا عبر الدرج الآن. أبطأت حين لاحظت الفيدراليين، لكنها رأت دراجاتهم النارية، تمامًا مثل دراجة إدواردو؛ وزيهم الرسمي، تمامًا مثل زي إدواردو؛ وأقنعة التزلج ونظاراتهم الشمسية، تمامًا مثل التي كان يرتديها إدواردو. صعدت

الدرج المزدحم بأقصى سرعة سمح بها جسدها الحامل. أشار إليها الشرطي الذي يقف فوقها مباشرة عند قمة الدرج بيده الحرة لتتقدم، بينما كان يمسح الحشد بضراوة بحثًا عن تهديدات.

دوت طلقات أخرى خلف إيلينا بينما كانت تهرع نحو ما ظنت أنه بر الأمان لدى زملاء إدواردو.

دفع تشاك كولين لوز للتحرك مجددًا، وتأكد بسرعة من أن لورا تمسك إرنستو من خصره وتدفعه للأمام خلف زوجته. كان الأعمام والعمات والفتى والشقيقان قد اندفعوا للأمام؛ وتجاوزوا كولين على الجانب الأيسر من السلم. التفت ضابط البحرية الأمريكي المتقاعد ذو الاثنين وسبعين عامًا ليرى إيلينا تتقدم بسرعة على اليمين؛ كانت قد سبقته بينما كان يساعد والدة إيدي. أسرع ليصل إلى قمة الدرج في نفس لحظة وصولها ليتمكن من حمايتها من أي خطر هناك أيضًا، وليوجهها نحو الزقاق خلف الكنيسة حيث رُكنت سيارته.

كان لا يزال خلفها ببضعة أقدام وإلى يسارها عندما رأى الشرطي، عند قمة الدرج، وعلى بعد سبع درجات فوق إيلينا.

وقف الفيدراليان الآخران إلى يساره. وجميعهم يصوبون مسدساتهم الآلية أمامهم. وكحركة رجل واحد، تحولت فوهات أسلحتهم عن التهديدات في أسفل الدرج، واستقرت بدلًا من ذلك على عائلات رجال الـ GOPES القتلى المندفعين نحوهم.

هؤلاء الرجال لم يكونوا يحمون أحدًا. لقد كانوا قتلة.

راقب تشاك في رعب مطلق بينما كانت ماسورة مسدس تشير مباشرة إلى زوجة إيدي غامبوا الحامل.

تحرك القبطان كولين أسرع مما تحرك طوال أربعين عامًا، قاذفًا نفسه للأعلى، واثبًا الدرجات الأربع، وحاشرًا جسده بين السلاح والمرأة.

نبح المسدس رصاصًا، ومزق الألم أحشاء العجوز، ومع ذلك تشبث بالشرطي، وجذبه بقوة في عناق دب.

بدأ الشرطيان المقنعان الآخران بإطلاق النار أيضًا، وصبّا الرصاص أسفل الدرج على عائلة غامبوا وهم يقتربون من القمة.

أُصيب القبطان كولين مرة أخرى في القفص الصدري برصاص الرجل الذي يمسكه، فارتخت ذراعاه عن العناق، وانزلق ببطء لأسفل جسد الشرطي، جاثيًا على ركبتيه عند قمة الدرج الحجري. وببطء أشد، تهاوى للأمام على صدره بينما صرخت إيلينا.

ولتجنب الحشد على السلم، قفز جينتري بقدميه المرتديتين الجوارب عاليًا ليعتلي الدرابزين الحجري العريض والشديد الانحدار الذي يمتد على الجانب الأيمن للدرج؛ وبدأ يركض صعودًا باسطًا ذراعيه للتوازن، والمسدس الذي أخذه من المسلح بملابس مدنية يبرز من يده اليمنى. صرف نظره عن قدميه للحظة ونظر للأعلى نحو اضطراب جديد في الحشد الكثيف المتكدس عند قمة الدرج. وقبل أن تتمكن عيناه من تثبيت المشهد، دوت طلقة مسدس ورأى كورت إيلينا. كان القبطان أمامها، وأمامه وقف فيدرالي متشح بالسواد.

فهم كورت كل شيء في لحظة. كان الشرطي يستهدف زوجة إيدي وطفله الذي لم يولد بعد، وقد ألقى العجوز تشاك كولين بجسده فوق السلاح.

المزيد من الطلقات، ونيران المسدسات السريعة تشتعل، ورأى كورت الضابطين الآخرين يقتلان عائلات مجموعة العمليات الخاصة أثناء صعودهم نحوهم.

انطلق جينتري صعودًا على الدرابزين الحجري. رفع مسدس "سميث آند ويسون" الفضي ووضع ناشن السلاح الأمامي على مؤخرة رأس إيلينا غامبوا، ثم أزاح التصويب جزءًا من البوصة إلى اليمين، وأطلق طلقة واحدة من عيار "357 ماغنوم".

غادرت الرصاصة السلاح، وعبرت صعودًا وفوق الحشد على الدرج، ومرت على بعد بوصتين يمين أذن إيلينا غامبوا، لتضرب قاتل تشاك كولين في عظمة الترقوة اليسرى فوق سترة الـ "كيفلار" الواقية، مفجرة العظم والدم والعضلات من كتف الرجل، وتديره بعنف ليسقط أرضًا، بينما طار مسدسه من يده ودار في الهواء فوقه كلعبة دوّارة.

كان كورت لا يزال على بعد ثلاثين قدمًا من القمة. استمر إطلاق النار، واستدار الحشد خلف آل غامبوا ككتلة واحدة وبدأوا بالركض للأسفل الآن، هربًا من هذا الخطر الجديد فوقهم. قفز بعض الأصغر سنًا والأكثر قدرة على الحركة فوق الدرابزين، ساقطين من ارتفاع خمسة عشر إلى خمسة وعشرين قدمًا نحو حديقة "باركي هيدالغو" الخرسانية بالأسفل للنجاة من الرصاص المتطاير. تقاطع بعض هؤلاء الأشخاص مع خط نيران جينتري، ومنعوه من الحصول على تسديدات نظيفة على القاتلين المتبقيين من الشرطة.

أصبح كورت قريبًا من القمة الآن؛ وأخيرًا، حصل على خط رؤية لهدف أمامه. كان كلا الشرطيين جاثيين خلف دراجتيهما، يعيدان تلقيم مسدسيهما. صوب كورت نحو الرجل الأول، وبدأ يضغط على الزناد وهو يقفز عن الدرابزين إلى الدرجات، لكن مرة أخرى اعترض أحدهم طريقه. في نصف نبضة قلب، رفع إصبعه عن الزناد.

كانت إيلينا، وهي تسقط للخلف؛ كان الحشد قد أفرغ الجزء العلوي من الدرجات، وخلفها لم يكن ينتظرها سوى الخرسانة الصلبة لمسافة عشرة أقدام.

ألقى جينتري بنفسه نحوها، مسقطًا المسدس ليحرر كلتا يديه. هبط خلفها وأمسك بها؛ زلق ذراعيه حول رأسها وبطنها، وانزلق كلاهما مع الجثث الأخرى المتدفقة أسفل الدرج.

تلقى كورت وطأة الارتطام أثناء سقوطهما؛ وأبقى زوجة إيدي آمنة ورأسها وبطنها محميين بينما كانا ينزلقان. رشقة طويلة من بندقية آلية

أسفله ركزت جهود جينتري على إيقاف انزلاقه، والوقوف على قدميه، والدفع للصعود مجددًا. رفع إيلينا بين ذراعيه، واحتضنها، وصارع وزنها وهو يصعد، دافعًا جسده رغم الألم في ظهره وذراعيه الناتج عن الارتطام بالدرجات. عدل مسار صعوده لليسار، باذلًا قصارى جهده لإبقاء مدنيين آخرين بينه وبين المسلحين بالأسفل.

عن يساره، تساقط رجال ونساء وأطفال؛ ومن طرف عينه رأى عمي إيدي وإحدى عماته في كومة من القتلى والجرحى تتدفق أسفل الدرج، مخلفين لطخات طويلة من الدماء الطازجة عبر الدرجات وهم يتدحرجون وينزلقون.

واصل التسلق وإيلينا بين ذراعيه. وضع قدمه على المسدس الذي أسقطه، وأخذ لحظة ليركع ويلتقطه؛ ارتجفت فخذاه من جهد النهوض مجددًا وهو يحمل زوجة إيدي الحامل. وسرعان ما اندفع العدد الهائل من المدنيين، تدافع بشري لا هوادة فيه، من خلف كورت، ودفع أولئك الذين لم يكن لديهم مكان للركض سوى مباشرة عبر القتلة، دفعوا القتلة المأجورين عند قمة الدرج للخلف، وطرحوهم أرضًا، وبحلول الوقت الذي وصل فيه جينتري إلى الرصيف بالأعلى، كان رجال الشرطة قد تخلوا عن دراجاتهم وبدأوا التراجع شمالًا، يعيدون تلقيم أسلحتهم المستنزفة مرة أخرى وهم يفعلون ذلك.

نظر كورت لأسفل إلى جثة تشاك كولين. كان ممددًا على وجهه وملتويًا بعنف، مفرودًا على الدرجات الثلاث العليا؛ وسقطت قبعة "يو إس إس بوكانان" عن رأسه واستقرت بجانبه. وضع جينتري إيلينا برفق، وبحث عن السلاح السائب الذي أسقطه الرجل الذي أطلق عليه النار في الترقوة، لكنه لم يجد له أثرًا.

صرخ:

– "تبًا!"

وهو محاط بالموتى والجرحى والمذعورين، والآن دوت رشقات نارية أخرى عند أسفل الدرج.

18

عند الطريق الممتد فوق ساحة باركي هيدالغو، وأمام الكنيسة مباشرة، كان جينتري ممسكًا بيد إيلينا غامبوا، ورأسه يلتفت يمنة ويسرة بحثًا عن أي ناجٍ من عائلة زوجها الراحل. وعلى بعد، كان المدنيون المذعورون يركضون صرعى الخوف، لكنه لم يلمح أيًا من أحباء إيدي بينهم.

أخيرًا، تناهى إليه صوت يناديه من الباب الأمامي لكنيسة «فرجين دي تالبا»:

– "جو! نحن هنا!"

كان المنادي هو دييغو، ابن أخ إيدي ذو الستة عشر ربيعًا، وهو يشير للأمريكي بالدخول إلى الكنيسة. عبر هو وإيلينا الشارع ذا المسار الواحد وركضا معًا إلى الداخل.

كان قدس الأقداس واسعًا ومظلمًا، تتردد في أرجائه صرخات وعويل الذين احتموا به كأنها أصداء أجراس جنائزية. كان هناك قرابة العشرين شخصًا داخل المبنى العتيق، معظمهم من أقارب ضباط وحدة «GOPES»، يقفون مرتجفين معًا بالقرب من المذبح. كانوا يتبادلون العناق والنحيب، ويواسي بعضهم بعضًا في مصابهم. ووقف فوقهم كاهن بردائه الأبيض، واضعًا يديه على خصريه، وقد علت وجهه ملامح الذهول والحيرة والخوف.

توقف جينتري عند المدخل للحظة ليتفحص حال إيلينا. وبدا جليًا أنها تحت تأثير صدمة عنيفة؛ فقد هرب الدم من وجهها تمامًا، وهو ما استطاع تمييزه حتى تحت ضوء الشموع الخافت وأشعة الشمس الضئيلة التي كانت تتسلل عبر نوافذ الزجاج الملون. ومع ذلك، لم يبدُ عليها أثر لإصابة جسدية. أحكم قبضته على يدها وبدأ يتحرك معها بين المقاعد الخشبية؛ كان دييغو يتحدث إليه، لكن كلماته كانت سريعة ومضطربة لدرجة عجز معها عن فهم ما يقول.

سألته إيلينا بصوت خافت:

– "هل نحن في أمان؟ هل انتهى الأمر؟"

أجابها كورت بصدق:

– "أشك في ذلك تمامًا."

وواصل تحركه معها نحو المذبح.

لم يكن هناك وقت لإحصاء الناجين؛ فكل من كان هناك سيعينه كورت على النجاة، لكنه لم يكن لينتوي العودة أبدًا إلى الخارج حيث لا يزال دويّ الرصاص مستمرًا. كان واثقًا من أن معظم أفراد عائلة غامبوا قد قضوا نحبهم، لكن لوز وإرنستو كانا واقفين عند المذبح دون أذى، وكذلك لورا، شقيقة إيدي الصغرى. تنفس كورت الصعداء حين رآها.

صاح دييغو:

– "لقد قتلوا والديّ!"

فهم كورت قوله هذه المرة، لكنه لم يدرِ بمَ يجيب، فخرجت كلماته بالإسبانية جافة وعملية:

– "سنقلق بشأن هذا لاحقًا."

وعندما رفع بصره، رأى العديد من الناجين عند المذبح وقد جثوا على ركبهم للصلاة، بينما ظل الكاهن العجوز بجبته يقف فوقهم دون أن يشاركهم فعلهم.

حمقى!

حدث كورت نفسه، ثم قاطع صلواتهم صائحًا:

– "مهلاً! ما هذا الذي تفعلونه؟ علينا أن نلوذ بالفرار من هذا المكان اللعين..."

ثم انتقل إلى الإسبانية:

– "لا وقت لهذا!"

التفت إليه الساجدون بأعين لا تزال شاخصة بذهول الصدمة. بدأ يركض نحوهم عبر الممر الأوسط.

نهضت لورا والتفتت؛ فأدرك كورت أنها تحمل مسدسًا من طراز «بيريتا» في يدها اليمنى، وهو على الأرجح السلاح الذي لم يتمكن من العثور عليه بجانب الشرطي الذي أرداه قتيلاً عند قمة الدرج. رفعت المسدس بسرعة نحوه، فتوقف في مكانه كأنه صُعق، ورفع ذراعيه ببطء.

– "لورا. لا بأس. ضعي السلاح أرضًا. سيكون كل شيء بخير."

بدلاً من ذلك، رأى عضلات ساعدها المفتولة تتقلص وهي تضغط على الزناد. ارتمى كورت منبطحًا على أرضية الممر الأوسط بينما دوت رصاصتان فوق رأسه مباشرة. وعبر الصدى المتردد في المكان والطنين الذي أصاب أذنيه، سمع وقع جسد يرتطم بالأرض خلفه عند مدخل الكنيسة. التفت خلف كتفه ليرى أحد رجال الشرطة الفيدرالية ساجدًا على وجهه عند الباب المفتوح على بعد أربعين قدمًا، وبجانبه رشاش من طراز «كولت» ينزلق فوق البلاط.

لقد أردته قتيلاً برصاصة في الرأس.

قال كورت وهو ينهض ببطء:

– "حسنًا. لمَ لا تحتفظين بهذا السلاح معكِ الآن؟"

أومأت برأسها في ذهول؛ فمن الواضح أنها كانت تعاني من صدمة لا تقل عن صدمة إيلينا، لكنها –بكل تأكيد– كانت تجيد الرماية ببراعة.

قال جينتري بالإنجليزية:

– "أيها الجميع، استمعوا إليّ!"

ثم تدارك نفسه وانتقل للإسبانية:

– "أين سياراتكم؟"

أجابه إرنستو غامبوا، والد إيدي، نيابة عن المجموعة:

– "إنها في المرآب الموجود أسفل ساحة باركي هيدالغو."

شتم كورت بصوت عالٍ؛ فسياراتهم تلك أصبحت الآن وكأنها في الجانب المظلم من القمر، ولن يعودوا إلى هناك أبدًا. كما لم يكن بمقدوره نقل الجميع في سيارة تشاك الصغيرة ذات البابين المركونة خلف الكنيسة، حتى لو كان يملك مفاتيحها، وهو ما لم يكن يملكه.

تقدم نحو الكاهن الذي وقف ساكنًا كتمثال المسيح المصلوب خلفه، وقال:

– "سيتعين علينا استعارة سيارتك أيها الأب."

هز العجوز رأسه بإصرار:

– "هذا غير وارد! حافلة الكنيسة ملك لأبناء الرعية، وهم بحاجة إليها!"

دون تردد، سحب كورت مطرقة مسدسه الذي كان لا يزال يمسكه بجانبه. تردد صدى الطقة المعدنية في أرجاء المكان المظلم:

– "يمكن لأبناء رعيتك أن يحصلوا على حافلة، أو يمكنهم أن يحصلوا على كاهن. الخيار لك."

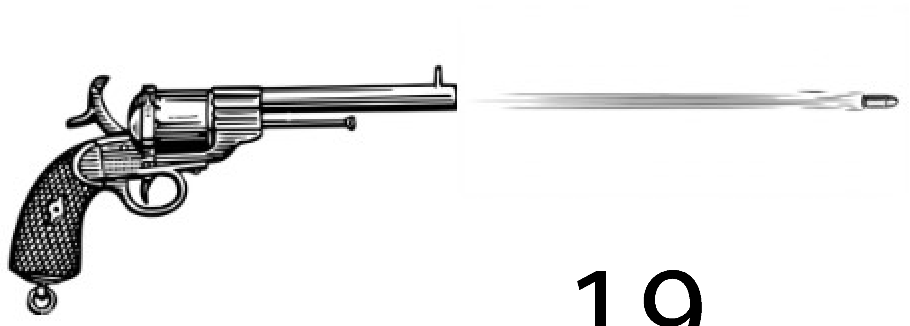
حدق الكاهن في السلاح، ثم مد يده ببطء داخل جبته، وأخرج مفاتيحه وناولها له.

أومأ جينتري برأسه:

– "قرار حكيم أيها الأب."

لمح كورت بطرف عينه نظرة قاسية من لورا غامبوا؛ فخمن أن وازعها الكاثوليكي قد طغى على منطقها العملي في تلك اللحظة. لكنه لم يملك ترف الوقت للمجاملات. وتجاهل نظرات اشمئزازها، وأرخى مطرقة المسدس قبل أن يغرزه في حزامه، ثم اقتاد المدنيين عبر الباب الخلفي للكنيسة إلى الحافلة. فكر للحظة في العودة لاستعادة بندقية الـ «كولت» التي سقطت من الشرطي القتيل عند الباب، لكنه لم يدرِ كم من الوقت سيمضي قبل أن تقتحم فرقة أخرى من القتلة الكنيسة للإجهاز على الناجين.

امتلأت الحافلة بالركاب، وجلس كورت خلف المقود، بينما جلست إيلينا في مقعد الراكب الأمامي، وانطلقوا مسرعين نحو الشمال.



19

على بعد ثلاثة أميال شرقي وسط مدينة بورتو فالارتا، كانت خمس سيارات دفع رباعي بيضاء ضخمة من طراز Suburban Half-Ton تقف في صف منتظم على طريق جبلي مكسوٍّ بالحصى، ومحركاتها تعمل في هدوء. وقف السائقون الخمسة خارج أبوابهم المفتوحة، يرتدي كل منهم قميصًا بياقة صلبة، وسترة تكتيكية فضفاضة مائلة للصفرة، وسروالًا عسكريًا بلون «الكاكي». قبَض كل واحد منهم بيده على رشاش من طراز Mendoza HM-3 الذي يصرفه الجيش المكسيكي. وبجانب السيارات، انتشر خمسة رجال آخرين من الحراس الشخصيين، يرتدون بدلات سوداء متطابقة ذات قصة إيطالية فاخرة، وقد جثا بعضهم أو وقفوا متأهبين، شاهرين بنادق AK-47، التي يطلقون عليها اسم «قرون الماعز» نظرًا لمخازن ذخيرتها الطويلة والمقوسة. كانت عيون هؤلاء الرجال وفوهات بنادقهم شاخصة نحو أسفل التلة، ترقب المدينة القابعة في الأسفل.

في فسحة تبعد نحو عشرين ياردة عن قارعة الطريق، جثا دانييل دي لا روشا فوق العشب، مطأطئ الرأس في ضراعة، وقد علت وجهه الوسيم ملامح مشدودة تفيض بالتركيز. كانت يده اليسرى تقبض على يد الرجل الجاثي بجانبه، إميليو لوبيز لوبيز، الحارس الشخصي لـ دي لا روشا وقائد وحدة حمايته. أما يده اليمنى، فكانت تضغط على يد

قائد جناح الاغتيالات والخطف في عصابة «البدلات السوداء»، خافيير "العنكبوت" ثيبيدا دوارتي.

تحلق حول هؤلاء الثلاثة سبعة عشر رجلًا آخرين، ما بين جاثٍ وواقف بوقار. كان الجميع يرتدون بدلات رسمية سوداء متطابقة من ثلاث قطع، ويحملون مسدسات عند خصورهم أو في جرابات تحت أكتافهم، بينما حمل «العنكبوت» وآخرون رشاشات Micro Uzi قصيرة.

تراصَّ الرجال العشرون بضيق شديد، حتى تشابكت أيديهم، أو التفت أذرعهم حول أكتاف بعضهم، أو ببساطة التصقت أجسادهم ببعضها البعض، ليشكلوا عقدة بشرية متماسكة من الأخوة، وقد نكسوا رؤوسهم أمام ضريح لافت للأنظار مقام على جانب الطريق.

كان دانييل دي لا روشا هو الأقرب إلى الضريح. أفلت يده من قبضة «العنكبوت» للحظات، ليرفع وردة بيضاء من فوق العشب عند ركبتيه، ويضعها عند قدمي هيكل عظمي يبلغ طوله ست أقدام، مصنوع من الجص ومتربع على عرش من الخشب الرقائقي. كان رأس الهيكل العظمي يرتدي شعرًا مستعارًا أسود طويلاً، ويغطيه خمار شفاف. أما جسده وأطرافه، فقد وُريت في ثوب زفاف أرجواني طويل يتلألأ تحت أشعة الشمس، رغم أنه كان محميًا جزئيًا من عوامل الجو بسقف معدني صغير أُقيم فوقه. كانت اليد اليمنى للهيكل العظمي الأنثوي تمسك بمنجل من الخشب والحديد، بينما قبضت يدها اليسرى على شمعة نذرية مشتعلة.

غرس دي لا روشا وردته البيضاء الوحيدة بين عشرات الزهور المتنوعة والشموع العديدة التي ذاب معظمها ليترك بقعًا ملونة من الشمع فوق البلاطة الأسمنتية أسفل «عرش العظام» هذا. وإلى جانب الزهور والشموع، تناثرت عشرات القرابين الأخرى المقدمة لهذا الرمز:

سجائر، وأموال سائلة، وزجاجات «تيكيلا»، ورصاص، وأقراص مدمجة، وثمار تفاح.

تربع الهيكل العظمي في سكون وسط كل هذا الغنيمة، شاخصًا ببصره في فراغ مع ابتسامة صخرية باردة.

بعد انتهائه من تقديم وردته، أعاد دانييل يده لتمسك بيد قائد فدائييه؛ أغمض عينيه بشدة وتمتم بصلاة لـ «سانتا مويرتي[6]»؛ أو «قديسة الموت». كانت هناك مئات الأضرحة المشابهة لهذا الضريح المقيم على جانب الطريق والمنتشرة في أنحاء البلاد، فقد تبنى الفقراء والمستضعفون هذا الرمز، وكذلك الكثيرون ممن يعملون في تجارة المخدرات.

تحدث دانييل بصوت منخفض يملؤه الورع:

– "أيتها الموت المجيدة والقوية؛ أشكركِ لأنكِ أنقذتني اليوم، ولأنكِ أوقفتِ الرصاصات التي كانت تسابق الريح نحو قلبي وحنجرتي، ولأنكِ حميتني وحميتِ إخوتي من كيد المعتدين."

وتابع:

– "يا قديسة الموت، لقد أنقذتني اليوم. أنتِ كنزي العظيم، فلا تتركيني أبدًا؛ لقد أكلتِ الخبز وأعطيتني الخبز، وبما أنكِ المالكة القوية لقصر الحياة المظلم وإمبراطورة الظلام، أريدكِ أن تمنحيني فضلكِ بأن تجعلي أعدائي تحت قدمي، أذلاء نادمين."

استمر في الصلاة بصوت مسموع، بينما كانت «البدلات السوداء» يلتصقون به في خشوع، في حين انشغل الرجال العشرة عند السيارات بمراقبة الطريق النازل نحو المدينة، وهم يختلسون النظر إلى ساعاتهم بقلق.

---

[6] سانتا مويرتي (*Santa Muerte*) تعني قديسة الموت، وهي شخصية شعبية في المكسيك تُجسَّد على هيئة هيكل عظمي يُعبد طلباً للحماية والشفاء والرزق. ارتبطت عبادتها بالطبقات المهمَّشة، ثم اشتهرت بعلاقتها بعالم الجريمة وكارتلات المخدرات، التي تلجأ إليها طلباً للحصانة والقوة في مواجهة الموت.

كان نيستور كالبو، الذي يبلغ من العمر سبعة وخمسين عامًا ويعد الأكبر سنًا في الدائرة المقربة لعصابة «البدلات السوداء» بأكثر من عقد من الزمان، منغمسًا في زحام الصلاة عند الضريح، لكنه لم يستطع منع نفسه من فتح إحدى عينيه واختلاس نظرة إلى ساعته الـ Rolex. تناهى إلى مسامعه صرير صفارات الإنذار القادمة من «فالارتا»، وهدير المروحيات التي تحلق غرب موقعهم مباشرة، وأدرك أن المئات من رجال الشرطة والجيش يهرعون الآن لتأمين موقع المجزرة التي وقعت للتو. وسرعان ما سينتشرون للبحث عن أدلة أو مسلحين في التلال، وسيأتون إلى هذا المكان لا محالة.

أتمنى لو نرحل قبل أن يحل ذلك "الحين".

كان القلق ينهشه بسبب هذا المجهول؛ فبصفته مديرًا للاستخبارات، كان عمله يقتضي معرفة كل شيء، قبل أن يطرح رئيسه أي سؤال. ومنذ مغادرته ساحة «باركي هيدالغو» قبل أقل من خمس عشرة دقيقة، تلقى بضع تحديثات سريعة من مصادره في الموقع، وعلم أن العديد من عائلات الـ GOPES قد أُبيدوا تمامًا كما هو مخطط له، ولكن الجائزة الأكبر، عائلة الرائد إدواردو غامبوا، تمكنوا من الفرار. لا شك أن هناك المزيد من المعلومات المتاحة الآن؛ فهاتفه المحمول لم يتوقف عن الاهتزاز منذ أن أمر دي لا روشا القافلة الهاربة بالتوقف عند أول ضريح لـ «سانتا مويرتي» صادفوه وهم يفرون من الخطر. لكن كالبو كان لديه عمل يجب إنجازه، وكان يرى أن هذا التوقف السخيف لأجل هذه الطائفة الهزلية التي يقدسها زعيمه وغالبية زملائه هو قمة الحماقة.

لكنه لم يكن يملك سوى الوقوف والانتظار؛ فزعيمه كان مؤمنًا بالخرافات، والوقوف بين المفتون وصنمه لم يكن فكرة سديدة قط، خاصةً عندما يكون هذا المفتون هو من يوقع شيكات راتبك ويحمل سلاحًا.

لقد طلب دانييل دي لا روشا من «قديسة الموت» علامة؛ فهو يعلم أنها لا تقدم شيئًا دون مقابل، وقد منحته هدية عظيمة اليوم. أراد رد الجميل لها، وكان يشعر بضرورة ذلك، مدركًا أن الوردة البيضاء ليست شيئًا يذكر. فماذا تريد منه؟ وكيف يوفيها حقها؟ انتظر في صمت وهو جاثٍ على ركبتيه لثلاث دقائق. صمت رجاله من حوله؛ فسيمنحونه كل الوقت الذي يحتاجه عند الضريح. حتى العجوز نيستور كالبو، الذي كان يرتعد حنقًا الآن بسبب هذا التأخير، كان يدرك تمامًا عواقب إزعاج دي لا روشا.

ساد السكون، ولم يقطع صمته سوى زقزقة العصافير في الأشجار والخشخشة المتقطعة الصادرة من أجهزة اللاسلكي في السيارات خلفه، وبالطبع أصوات المروحيات والصفارات عند المحيط. لم يكن هناك شيء آخر، لدرجة أنه كان يسمع نبضات قلبه، وهذا الوعي بالذات جعله يركز أخيرًا على الكدمات الموجودة في صدره وحنجرته، حيث استقرت الرصاصات دون أن تخترق جسده.

أجل!

انفتحت عيناه ببطء، واتسعتا بذهول. نظر إلى صدره، فرأى الثقب في طية صدر سترته اليسرى، وفي لحظة، أدرك أنه وجد العلامة. خلع ربطة عنقه بسرعة، ثم نزع سترته، وخلع صدارته وقميصه الأبيض الفاخر الذي كان يكاد ينفجر من عضلات كتفيه وذراعيه. بدأ يفك أزرار القميص لكنه وجد يديه ترتعشان بشدة، من فرط حماسه لما كان يوقن أنه سيجده.

كفَّ عن هذه المهمة الدقيقة، وبدلاً من ذلك مزق قميصه؛ فتطايرت الأزرار العاجية في الهواء في كل اتجاه كطلقات الرش. تراجع الرجال الذين كانوا يلتصقون به أثناء الصلاة إلى الوراء ليتسنى له خلع قميصه، كاشفًا عن صدره وظهره المفتولين، وعن جرابي المسدسين الفضيين التوأم عيار 45 المعلقين عند خصريه.

نظر دانييل ألونزو دي لا روشا ألفاريز إلى جسده، إلى كدمة حمراء وحيدة حيث استقرت الرصاصة الأولى، فوق قلبه تمامًا. كانت الكدمة تتمركز بدقة ـ في منتصف بطن الوشم الضخم لـ «سانتا مويرتي» المرسوم على صدره؛ حيث تمد التمثال الهيكل العظمي يدًا مستعطفة للأمام.

كانت الكدمة ـ في بطن المرأة.

اغرورقت عينا دي لا روشا بالدموع؛ فقد وجد العلامة. عرف الآن ما تريده منه راعيته، وعرف كيف يرد لها الجميل.

– "نيستور؟"

صرف نيستور كالبو، أكبر الرجال سنًا، نظره عن ساعته بسرعة وأجاب:

– "أمرك يا زعيم."

– "زوجة الرائد، لقد نجت، أليس كذلك؟"

– "أجل يا زعيم."

– "وهي حامل؟"

– "أجل يا زعيم."

– "أين «العنكبوت»؟"

– "أنا هنا يا زعيم."

نهض دانييل دي لا روشا ببطء، وفعل الجاثون بجانبه الشيء نفسه، وإن ظل إميليو لوبيز لوبيز منحنياً لوقت كافٍ ليلتقط سترة زعيمه وصدارته وربطة عنقه وقميصه من على الأرض. ألقى بها جميعًا لأحد الحراس الشخصيين الآخرين واقترب من (دي إل آر).

وقف دي لا روشا وجهًا لوجه أمام ضريح الجمجمة ذات العينين الغائرتين تحت الخمار الأبيض الشفاف. قبّل أطراف أصابعه ومد يده ليضغط بها على أسنان الجص المبتسمة:

– "أيها «العنكبوت»... جِدِ المرأة. واقتل الجنين. لقد نطقت «سانتا مويرتي» بحكمها."

– "أمرك يا زعيم."

بعد دقيقة واحدة، عادوا إلى سيارات الـ Suburban الخمس واتجهوا شرقًا. ركب (دي إل آر) في المقعد الأوسط من السيارة الثالثة، مرتديًا سترة بدلتها، رغم أنه ترك القميص والصديرية وربطة العنق. كان معه في السيارة السائق وإميليو حارسه الشخصي، و«العنكبوت» قائد جناحه المسلح، واثنان من أفضل قناصة «العنكبوت». كما كان يركب معهم نيستور كالبو، رئيس استخبارات (دي إل آر) ومستشاره الشخصي. شعر دانييل بعدم ارتياح كالبو، فالتفت إلى صف المقاعد خلفه وابتسم لمستشاره العجوز:

– "ما الخطب يا نيستور؟ ألا تعجبك زياراتي لـ «الفتاة النحيلة»؟ ألا تزال لا ترى قوة «سانتا مويرتي»؟"

هز العجوز ذو اللحية الرمادية كتفيه قائلاً:

– "لم تكن «العذراء الموت» هي من أوقفت الرصاصات المنطلقة نحو قلبك، بل كانت بدلة الـ Kevlar التي ترتديها، والتي يبلغ ثمنها مائة وعشرين ألف بيزو، وكان الخياط في «بولانكو» هو من صممها، وكان اقتراحي أنا بأن يرتديها الجميع في الدائرة المقربة للمنظمة كل يوم." ثم هز كتفيه وانحنى بسخرية: "اعتذاري للعذراء المقدسة الجالسة هناك على جانب الطريق وفوق رأسها روث الحمام."

ضحك دي لا روشا بصوت عالٍ، مدويًا في ضيق المساحة داخل السيارة المكتظة. كان كالبو مضحكًا عندما يستشيط غضبًا، وكان دانييل يعلم أنه يثير حنق الرجل إلى أقصى حد، وهو ما كان يمنحه متعة كبيرة. في الحقيقة، كان زعيم «البدلات السوداء» يقدر الصدق والصراحة من رجاله، لكن النظام الطبيعي للأمور كاد يمحو الآراء الشخصية لتابعيه من أحاديثهم اليومية؛ فقد قتل موظفين وشركاء لم

يتفق معهم مرات عديدة، ورغم أنه وجد ذلك ضروريًا، إلا أنه أدرك أن هذا الفعل قد كتم أنفاس الصراحة في بيئة عمله.

لكن نيستور كالبو كان الصديق الصدوق لوالده، وكان عبقريًا في عالم الكارتلات. وبصفته رئيسًا للاستخبارات في «البدلات السوداء»، كان يعمل كوسيط في علاقات (دي إل آر) مع الحكومة والشرطة والجيش، ولذلك كان كالبو يعلم أنه في مأمن من العقاب العنيف. كان دي لا روشا يحب هذا العجوز النكد كما يحب والده –فلتحفظ «سانتا مويرتي» روحه الخالدة– وكان مستعدًا للاستماع لـ نيستور وهو يقول ما يشاء، حتى لو كان تجديفًا.

أشار دانييل إلى الكدمة في حنجرته:

– "هل ترى هذا يا نيستور؟ هل ترى أين أصابتني الرصاصة الثانية؟"

– "في عقدة ربطة عنقك؟"

– "أجل!"

– "في عقدة ربطة عنقك المصنوعة من الـ Kevlar؟"

– "تباً لك يا نيستور، أعلم أن ربطة العنق كانت واقية من الرصاص، لكن الرصاصة كادت تصيبني فوقها بوصة واحدة، لتخترق حنجرتي."

هز نيستور كتفيه:

– "إذن، استنتاجك هو أن هيكلاً عظميًا من الراتنج يرتدي ملابس نسائية قد تحكم بطريقة ما في مسار الرصاصة؟ لو لم تصر على الذهاب إلى التجمع في المقام الأول، والوقوف فوق شاحنة بمكبر صوت، جاعلاً من نفسك هدفًا سهلاً، لما احتجت إلى سحر فتاتك العظمية. وحتى بدون هذه المحاولة لاغتيالك، فإن فرق الاغتيال التي جهزها «العنكبوت» لمهاجمة من هم فوق المنصة قد خلقت بيئة خطرة لم يكن ينبغي لك تعريض نفسك لها."

تحدث «العنكبوت» ثيبيدا بغضب:

– "كان رجالي يعرفون مكان الشاحنات، وكانوا يعلمون بضرورة توجيه كل النيران نحو المنصة. الرجل الذي أطلق النار على الدون دانييل لم يكن من فدائييَّ."

بدأ دي لا روشا في دخول المشادة، لكن نيستور أمسك بهاتفه المهتز للرد على مكالمة. فالتفت دانييل إلى إميليو، قائد حمايته، الجالس إلى يمينه:

– "الرجل الذي أطلق النار عليّ، هل نلت منه؟"

– "أظن ذلك يا زعيم."

– "تظن؟"

– "كنت في الجانب الآخر من الشاحنة، لكن أحد رجالي يقسم أنه قتل ذلك الوغد اللعين."

– "مهمتك، لا تنسَ، هي قتل الأوغاد اللعناء قبل أن أُقتل أو أُصاب. لو أُصبتُ، لكنتَ الآن في عداد الموتى، أنت تعلم ذلك، أليس كذلك؟"

قال إميليو:

– "لقد شرفتنا «عذراء الموت» بهدية اليوم."

حدق دانييل في الرجل طويلاً، ثم ابتسم ابتسامة عريضة ومد يده وعانقه:

– "بالفعل لقد فعلت يا صديقي."

والآن اهتز هاتف دي لا روشا. نظر إلى الشاشة وأجاب؛ كانت زوجته:

– "أهلاً يا مامي. لا، لا، أنا بخير والحمد لله. أوه، حاول بعض الحمقى إطلاق النار عليّ لكنهم فشلوا. لقد تولى إميليو ورجاله الأمر. كيف حال الأطفال؟ ممتاز. حسناً يا حبيبتي، قبّليهم جميعًا نيابة عني، سأعود للمنزل قريبًا."

أغلق دي لا روشا الهاتف، وارتشف جرعة من الماء شعر بحرقتها وهي تنزلق في حلقه بسبب الكدمة في حنجرته.

– "زعيم؟" كان المنادي هو نيستور كالبو، وهو يعيد هاتفه إلى جيبه.

– "ما الخطب أيها الملحد؟" سأله بابتسامة.

لم يبادله كالبو الابتسامة، وقال:

– "كان هذا اتصالي مع الشرطة المحلية. كان هناك «غرينغو» (أمريكي) في ساحة «باركي هيدالغو»."

– "أجل، رأيته، ذلك العجوز ذو القبعة الزرقاء على المنصة."

– "كلا، ليس هو، بل آخر. شاب ذو قبعة زرقاء ولحية. لقد قتل خمسة من رجالنا الفيدراليين وواحداً من شرطة «بورتو فالارتا» العاملين لصالحنا."

حدق دي لا روشا فيه لفترة طويلة، واحمرّ وجهه ببطء. وأخيرًا، صرخ فيه:

– "ستة فدائيين؟ لم أفقد ستة رجال في وقت واحد منذ عامين وأنا أحارب كونستانتينو مادريغال والحكومة. مَن يكون هذا اللعين بحق الجحيم؟"

أغلق «العنكبوت» هاتفه وأجاب على السؤال:

– "علمتُ أنه هرب مع عائلة غامبوا. لا أعرف مَن يكون، لكنني سأكتشف أمره."

صاح كالبو من المقعد الخلفي:

– "أنا أعمل على ذلك أيضًا."

– "وماذا عن عائلات قتلة الشرطة؟"

– "عشرون قتيلاً على الأقل."

هز دي لا روشا رأسه، لا يزال مندهشاً من ظهور أجنبي من حيث لا يدري والقضاء على فرقة كاملة من فدائيي «العنكبوت» المتنكرين

بزي الفيدراليين. لم يكن من المفترض أن تسير الأمور هكذا؛ كان من المفترض أن يقتل «الفيدراليون» كل من فوق المنصة ثم يختفون. الآن هناك جثث لرجال شرطة يمكن التعرف عليهم، وقد يُربط بعضهم بمنظمته. ومع ذلك، كان يعلم أنه لن يكون هناك تحقيق واسع النطاق؛ فالحكومة هنا في جيبه، وكذلك الإعلام والكثير من ضباط الثكنة العسكرية في الطرف الشمالي من المدينة. ستكون هذه فوضى، لكنها ستمر.

على أي حال، كان لديه نيستور ليتولى التبعات السياسية؛ فذلك لم يكن همَّ دي لا روشا الأساسي. سينصب دوره في اليومين القادمين على العلاقات العامة.

وعلى استرضاء «سانتا مويرتي» عبر قتل ابن الرائد غامبوا الذي لم يولد بعد، ووضع جثمانه فوق ضريحها.



20

قاد كورت جينتري حافلة الكنيسة شمالًا، مغادرًا ولاية خاليسكو ليدخل حدود ولاية نايريت. وطوال الطريق، كانوا يُنزلون الناجين من العائلات الأخرى عند المطار ومحطة الحافلات ومكتب لتأجير السيارات؛ فكل واحد منهم لم يكن يبتغي سوى الفرار بعيدًا عن جحيم بورتو فالارتا.

ولم يتبقَّ معه في الحافلة الآن سوى من نجا من عائلة غامبوا: إيلينا زوجة إيدي، وشقيقته لورا، وشقيقه إغناسيو، وابن أخيه دييغو، ووالداه إرنستو ولوز.

كان مذياع الحافلة مضبوطًا على محطة لا تبث سوى أخبار إطلاق النار في بورتو فالارتا. بدأت التقارير تتحدث عن أحد عشر قتيلًا، ثم ارتفع العدد إلى اثنين وعشرين، حتى استقر أخيرًا عند ثمانية وعشرين قتيلًا، من بينهم رجل الأعمال البارز وزعيم المخدرات المشتبه به دانييل ألونزو دي لا روشا ألفاريز، وثلاثة من شرطة بلدية بورتو فالارتا، وخمسة من الفيدراليين، ومواطن ألماني، وآخر أمريكي. كما أُصيب نحو ثلاثين آخرين من المدنيين ورجال الشرطة. كانت الفرضية الأولية تشير إلى أنه بعد إطلاق النار على دي لا روشا –إما على يد مغتالين حكوميين أو قتلة مأجورين من كارتل «مادريغال»– اندلع اشتباك عشوائي بين القتلة والشرطة والحراس الشخصيين

وسط الحشد، مما أدى إلى أبشع حمام دم تشهده البلاد منذ قرابة خمسة أشهر.

جلست لورا غامبوا خلف كورت، وكانت تمده بإرشادات الطريق وتعليمات دورية:

– "انعطف يسارًا هنا."

ثم تتابع:

– "سيكون الأمر خطيرًا أمام القاعدة العسكرية؛ لنأخذ طريق الشاطئ."

و:

– "سيكون هناك حاجز عند سايوليتا؛ يمكننا العودة إلى الطريق السريع بعد تجاوزه."

بدت خبيرة بشكل مريب بالشوارع والطرق السريعة وأنماط المرور في بورتو فالارتا، وكانت هادئة ومسيطرة على نحو احترافي يثير العجب، على عكس الخمسة الآخرين في الحافلة الذين لم يكفّوا عن الصراخ والنحيب. تساءل كورت إن كانت لورا في حالة صدمة أو إنكار، أم أنها خبرت من الاضطراب والخطر والفقد في حياتها ما جعلها –إلى حد ما– تتقبل هذا الواقع بصلابة.

كانت إيلينا تجري مكالمتها الهاتفية الرابعة الآن. تركها كورت لشأنها لفترة، مدركًا أن رغبتها المحمومة في معرفة من نجا ومن قضى ستستنزف كل كيانها. لكنه لم يعد يطيق هذا الخرق الأمني الصارخ؛ فصاح بها محذرًا:

– "اغلقي الهاتف فورًا."

تجاهلته إيلينا تمامًا، وواصلت الاتصال بالأصدقاء والمستشفيات والعيادات في بورتو فالارتا، محاولةً تقصي أخبار شقيق إيدي وأعمامه وأخواله.

حتى تلك اللحظة، لم تخرج من مكالماتها بأي خبر يقين. وفقط من خلال تبادل الأخبار بين أفراد العائلة داخل الحافلة، بدأت تتضح معالم مصير أحبائهم:

– "لقد قُتل رودريغو.. لقد فقدتُ ابنًا آخر!"

– "رأيتُ الخال أوسكار؛ أُصيب في بطنه، وأظنه فارق الحياة!"

– "كانت الخالة إسبيرانزا بجانبي تمامًا؛ كانت تصرخ، ثم فجأة سكتت وسقطت."

– "أظن أن عائلة أورتيجا كانت أمامنا، لكنهم لم يكونوا في الكنيسة.. أتمنى أنهم.."

– "لقد رأيتُ السيد أورتيجا ملقى في الشارع؛ كانت ساقه تنزف، لكنه كان حيًا."

– "لقد مات الكابتن تشاك.. هل رأيتموه؟"

لم يشترك كورت في حديثهم؛ فإسبانيتهم الصارخة والمضطربة كانت غير مفهومة بالنسبة له تقريبًا، وكان عقله منشغلًا بخطة هروبهم.

ثم فكر في هروبه هو؛ فعليه إيصالهم إلى منزلهم ثم الاختفاء من هنا قبل أن تأتي الشرطة لاستجواب عائلة غامبوا.

راحت إيلينا تطلب رقم أحد الأقارب الذين كانوا على المنصة، دون أن تدري إن كانت تلك المرأة لا تزال على قيد الحياة لتجيب.

صاح الأمريكي خلف المقود:

– "أنهي المكالمة!"

أومأت برأسها لكنها استمرت في الإنصات لصوت الرنين، متمنيةً أن يجيب أحد.

فتح كورت النافذة بجانبه، ومد يده لينتزع الهاتف من يد إيلينا غامبوا بقوة، ثم ألقى به خارجًا على الطريق السريع.

– "لماذا فعلت ذلك؟"

– "يمكنهم تعقب مكالماتكِ.. أنتِ مستهدفة."

– "مستهدفة؟"

– "نعم. أولئك الشرطيون الفيدراليون كانوا يطلقون النار على كل من كان فوق المنصة. لم يكن هناك شيء عشوائي فيما حدث للتو."

– "لقد قُتل دي لا روشا.. لماذا يقتله أحدهم ثم يقتل عائلات رجال الـ «GOPES»؟"

– "لا أدري. التفسير الوحيد الذي يتبادر إلى ذهني هو وجود أكثر من جماعة وسط الحشد؛ جماعة تحاول تصفيتكم، وجماعة أخرى تحاول تصفيته هو." هز كورت رأسه ممتعضًا: "هذا المكان غارق في الفوضى اللعينة."

وضعت إيلينا رأسها بين يديها وانفجرت في البكاء.

قال كورت مخاطبًا نفسه أكثر من الركاب الستة:

– "علينا تبديل هذه السيارة."

سألت إيلينا:

– "لماذا؟ ما خطب هذه الحافلة؟"

– "هذا يسمى الأمن العملياتي. لقد غادرنا موقع الجريمة بهذه الحافلة؛ وعلينا استبدالها بأخرى «نظيفة»."

نظرت إيلينا حولها في أرجاء الحافلة وقالت:

– "إنها نظيفة بما يكفي."

تحدثت لورا من المقعد الخلفي:

– "إنه يقصد سيارة لم ترتبط بموقع الحدث. جو، من أين سنحصل على سيارة أخرى؟ لقد تجاوزنا آخر مكتب لتأجير السيارات عند المطار."

– "يمكننا الحصول على أي سيارة نريدها.. أنا أملك مسدسًا، أتذكرين؟"

ساد الصمت في الحافلة لعدة ثوانٍ، ولم يُسمع سوى نشيج لوز غامبوا الخافت في الخلف. وأخيرًا، قالت لورا:

– "لا يمكنك سرقة سيارة أخرى."

– "أتراهنين؟"

– "هذا مخالف للقانون."

ضحك كورت بتعجب:

– "ماذا؟ هل أنتِ شرطية؟"

– "نعم."

– "حسنًا." هز كورت رأسه وواصل القيادة، ثم نظر ببطء إلى لورا عبر مرآة الرؤية الخلفية: "هل تتحدثين بجدية؟"

– "نعم."

تدخلت إيلينا في الحديث وهي تمسح أنفها بمنديل، وقالت بنبرة استخفاف:

– "إنها تعمل في «شرطة السياحة» في بورتو فالارتا.. ليست شرطية حقيقية."

ردت لورا بحدة على زوجة أخيها:

– "بل أنا ضابطة شرطة حقيقية. وتدريبي ومسؤولياتي تمامًا مثل—"

انفجرت إيلينا في الصراخ ردًا عليها، واحتدم النقاش بين المرأتين. استعاد كورت توازنه ببطء من هول الصدمة، وأدرك الآن لماذا كانت لورا خبيرة بالشوارع والحواجز وأنماط المرور. ثم انحاز إلى صف شقيقة إيدي ضد إيلينا؛ وكأنه رجل يركض متهورًا نحو حقل ألغام، دخل في هذا الشجار النسائي اللاتيني:

– "الشرطة «الحقيقية» قتلت الكثير من الأبرياء اليوم، وقد رأيتُ كيف تصوب لورا، لذا أنا سعيد لأنها في صفنا."

نظر مجددًا في المرآة نحو شقيقة إيدي:

– "لماذا لم تخبريني أنكِ من الشرطة؟"

هزت كتفيها:

– "لم تسألني."

– "آه."

لماذا أجد نفسي دائمًا مضطرًا لمجاهدة نفسي كي أصرف بصري عنها؟

أجبر نفسه على التحديق في الطريق أمامه.

تابعت لورا:

– "على أي حال، عندما مات إدواردو، تم إيقافي عن العمل. يقول الكثيرون إنه تصرَّف دون إذن، وكان عليَّ الخضوع للتحقيق وتبرئة ساحتي قبل العودة للعمل."

– "هذا هراء."

– "أعلم، لكن هذا ما قالوه. لقد صادروا سلاحي عندما أخذوا أسلحة إيدي من منزله."

– "لا يزال معكِ ذلك الـ «بيريتا» الذي استخدمتِه في الكنيسة."

هزت رأسها:

– "كلا. أعطيته للقس ليحتفظ به. لا يمكن ضبطي ومعي سلاح."

تنهد كورت. هو أيضًا لا يمكن ضبطه ومع السلاح، لكن ذلك لم يمنعه من الاحتفاظ بواحد الآن. تمنى لو أنها لا تزال مسلحة. ترك الأمر، ورفع بصره مجددًا لتلتقي عيناه بعيني لورا في المرآة لنظرة طويلة، وقال:

– "لقد أبليتِ بلاءً حسنًا هناك."

قالت:

– "وأنت أيضًا.. شكرًا لك."

شخص بصر كورت نحو الطريق لثانية، ثم عاد للمرآة؛ كانت لورا غامبوا لا تزال تحدق فيه، فقالت:

– "أرجوك، لا تسرق سيارة أخرى."

استمر تلاقي الأعين لفترة طويلة، قبل أن يشيح جينتري بنظره أخيرًا:

– "كما تشائين يا حضرة الضابطة."

بدأت عائلة غامبوا الصلاة معًا؛ قادت لورا الصلاة، وكان صوت إرنستو هو الأعلى، بينما تمتم إغناسيو بكلمات غير مفهومة، ولم تستطع لوز سوى المشاركة بنشيج خافت مع الكلمات. وبعد الصلاة، خفت وطأة الحديث؛ ظل الناجون الستة يحدقون من النوافذ بينما يقود كورت. كان هو نفسه منهكًا من الجهد والخطر، وشعر بحزن عميق على ذلك العجوز البحّار. أدرك جينتري أن كولين كان رجلًا فذًا؛ وكان ليودّ قضاء ليلة أخرى في شرب الـ «تيكيلا» معه وسماع قصصه. بل – يا للهول– كان سيسعد حتى بتوبيخ العجوز له بسبب شعره الطويل وإجاباته الغامضة.

لكن ذلك العجوز النكد رحل كبطل.

وحدث نفسه أن هذا بحد ذاته ميتة تليق به.

وصلوا إلى منزل إيلينا قبل الثالثة مساءً بقليل. سارع إرنستو بفتح التلفاز وجلس أمامه، بينما انسحبت لوز إلى المطبخ لتبدأ في تقديم ما تبقى من طعام الليلة الماضية. تناول إغناسيو الضخم جعة من الثلاجة وخرج للخلف ليدخن، واختفى دييغو في الحمام، بينما كانت إيلينا ولورا تجوبان المنزل وهما تتجادلان بصوت عالٍ حول ما ستفعلانه تاليًا.

لم يفهم كورت كلمة واحدة مما دار بين المرأتين. وقف في غرفة المعيشة مع إرنستو أمام التلفاز، يشاهد التقارير الإخبارية من فالارتا؛ حيث كان أحد المراسلين يبث تقريره من داخل المشرحة المحلية

وسط صفوف من الجثث المصطفة على الأرض. كانت الملاءات والأغطية الملطخة بالدماء تغطي الجثث الطازجة، ولا يظهر منها سوى الأقدام، مع بطاقات تعريف ورقية معلقة في إبهام القدم اليسرى لكل جثة بخيط أحمر.

أدرك أن الشرطة ستصل إلى منزل إيدي عاجلاً أم آجلاً. لم يدرِ أي نوع من الشرطة سيكونون، ولا إن كانوا أصدقاءً أم أعداءً. تمنى لو أن ما تبقى من هذه العائلة يملك الحكمة لمغادرة البلدة لفترة، وربما اللجوء إلى أصدقاء أو أقارب في جزء آخر من البلاد حيث لا تغلغل لعصابة «البدلات السوداء».

لكن غريزة البقاء المتجذرة في نفس كورت بدأت تعمل بأقصى طاقتها أثناء الطريق، وتجلى مأزقه بوضوح أمام عينيه. عائلة غامبوا لم تخرج من دائرة الخطر بعد، لكن لديه مشاكله الخاصة؛ فهو في البلاد بشكل غير قانوني، وقد أردى للتو حشدًا من الناس قتلى، معظمهم يرتدون شارات أمنية، وأي شرطي سيصادفه سيرغب بالتأكيد في استجوابه حول ذلك.

لم يعد هناك الكثير ليفعله الآن سوى الاختفاء. لا يريد البقاء حتى وصول السلطات. فبالرغم من كل تلك المواعظ الرنانة التي تلقيها الحكومة المكسيكية حول معاملة الولايات المتحدة للمهاجرين غير الشرعيين، فإن أي مهاجر غير شرعي يُضبط في المكسيك لا يحصل على أكثر من زنزانة في السجن.

خمن أيضًا أن وسائل الإعلام ستظهر هنا قريبًا؛ فسكان هذا المنزل كانوا في التأبين، والستة الموجودون هنا هم على الأرجح أكبر عائلة نجت ممن كانوا فوق المنصة عندما اندلعت المعركة، ولم يكن المراسل الذي يظهر على الشاشة يفلح كثيرًا في إجراء مقابلات مع شهود العيان الذين يحملون بطاقات التعريف في أقدامهم.

بدأ كورت يتحرك نحو إرنستو ليوضح له سبب رحيله الآن ويتمنى له ولعائلته الحظ الطيب. لكن فجأة، انقطعت صورة المراسل لتظهر ساحة باركي هيدالغو. كانت هذه لقطات للواقعة نفسها بوضوح؛ الساحة كانت مكتظة، والكاميرا مصوبة من مكان مرتفع يطل على الشارع. التقط المصور لحظة إطلاق النار على دي لا روشا وسقوطه من فوق غطاء محرك الشاحنة، ثم اهتزت الكاميرا ودارت؛ وتحرك الناس أمام العدسة، وبدا أن المصور تعثر ثم استعاد توازنه وسط تدافع من حوله.

جلس كورت على حافة الأريكة يشاهد إعادة لما حدث في يومه.

دوي الرصاص، ولفافات الدخان الرمادي فوق الحشد، ثم.. لا.. مستحيل..

تباً.

لقد رصدته الكاميرا.

أطلق كورت أنيناً مكتومًا بينما كان التلفاز يعرض صورة رجل ملتحٍ يرتدي قبعة بيسبول زرقاء، وسروالًا قماشيًا مكرمشاً، وقميصًا بنيًا، وهو يستخدم قضيبًا حديديًا منحنياً لينزلق عبر سلك هاتف فوق الشارع، وبندقية قصيرة الماسورة تتدلى من صدره، قبل أن يسقط ويختفي وسط الحشد.

لم يساور كورت جينتري أدنى شك في أن عدة رجال ونساء في «لانغلي» بولاية فيرجينيا، يمسكون بأكواب القهوة في أيديهم، يشاهدون الآن هذه اللقطات نفسها على شاشة ضخمة في غرفة مظلمة. وفي هذه اللحظة، سيقوم أحدهم بتعديل نظارته، وينحني قليلًا للأمام، ويقول لمن حوله: "يا للهول! أليس هذا هو «فايوليتور»؟"

كان كورت يعلم أن هذا يحدث الآن وكأنه معهم في الغرفة. سيتردد اسمه الرمزي في وكالة الاستخبارات المركزية عبر المستويات العليا للوكالة، وكل من عمل معه سيحصل على صورة محسنة لذلك

الأحمق الذي يحمل بندقية الـ «كولت» القصيرة وهو ينزلق بين أعمدة الهاتف، ليتمكنوا من تحديد هوية موظفهم السابق الذي يحمل حاليًا أمرًا بالقتل فور الرؤية.

ثم ستأتي شعبة الأنشطة الخاصة (SAD). تلك الشعبة التابعة للسي آي إيه تريد رأسه، والآن بعد أن عرفوا مكانه، ستحط الطائرات التنفيذية القادمة من فيرجينيا في مطار بورتو فالارتا خلال ساعات، لا أيام.

قالها كورت بصوت عالٍ، وكانت تلك هي الإنجليزية الوحيدة التي نُطقت في منزل عائلة غامبوا ذلك اليوم:

– "لا بد أن أخرج من هذا الجحيم فوراً."

نهض مرة أخرى ليغادر؛ وبذل كل ما في وسعه كي لا يركض مسرعًا في غرفة المعيشة.

لكن شاشة التلفاز تغيرت مرة أخرى، بعيدًا عن ساحة باركي هيدالغو. كانت مقابلة مع دانييل دي لا روشا. افترض كورت أنها مقابلة قديمة. كان الرجل الوسيم ذو القصة المهذبة واللحية المحددة بدقة يرتدي بدلتها السوداء المعتادة وربطة عنقه السوداء؛ كان يجلس في كنيسة كاثوليكية بسيطة على مقعد خشبي بسيط؛ وبجانبه مراسلة تمسك بميكروفون وتتحدث بصوت خافت يملؤه التوقير. كانت جميلة، وتبذل قصارى جهدها لتبدو جادة ومهنية، لكن لغة جسدها كانت تفضح لخبير مثل جينتري انجذابًا شديدًا لضيفها.

– "أخبرنا عما حدث اليوم يا سيد دي لا روشا."

– "لقد جئتُ إلى الساحة لأرفع صوتي ضد فساد مكتب المدعي العام، واضطهادهم غير العادل لي. إن تأبين القتلة الذين ماتوا وهم يعملون لصالحه كان أمرًا مخزيًا—"

كان إرنستو يجلس على الأريكة إلى يمين كورت تمامًا. وبما أن الإسبانية هي لغته الأم، فقد فهم ما يحدث قبل الأمريكي. صرخ بصوت عالٍ أرعب كورت:

– "تباً! الوحش لا يزال حيًا!"

كلا، فكر كورت، مستحيل أن يتلقى هذا الوغد رصاصتين في صدره ويجري مقابلة بعدها بثلاث ساعات.

كان هذا بثًا مباشرًا، ولم يبدُ على ذلك الوغد المتغطرس خدش واحد. لقد رآه كورت بوضوح أثناء إطلاق النار، سواء عيانًا أو في إعادة التلفاز قبل قليل. كان يعلم أن الرجل لم يكن يرتدي درعًا واقيًا، ولا حتى سترة «كيفلار».

– "بعد أن أُصبتُ برصاصة، ظننتُ أنها النهاية؛ فكرتُ في زوجتي وأطفالي، ولكن بينما كان زملائي يسرعون بي إلى المستشفى، قلتُ لهم: مهلًا يا رفاق، انتظروا لحظة، لا أظن حتى أن الرصاص قد اخترق جسدي. لقد كانت معجزة، والحمد لله."

رسم علامة الصليب على صدره ثم مسح الدموع من عينيه. ناولته المراسلة منديلاً، فأخذه مع إيماءة شكر. بالنسبة لـ كورت، بدا كل هذا تمثيلًا، وكأنه يؤدي نغمات محددة مسبقًا من الإيمان والحزن والضعف والسحر. ابتسم (دي إل آر) للمراسلة وقال:

– "شكرًا لكِ.. أنا آسف، لقد كان يومًا عصيبًا بالنسبة لي."

نظر جينتري حوله ليجد لوز وإيلينا ولورا في الغرفة معه الآن. دخل دييغو من الممر، وحتى إغناسيو دخل من الخارج بعد سماع صرخة والده. رأى كورت الغضب الأحمر في وجوههم؛ وتمنى لو كان بيده ما يفعله لأجلهم؛ فهم الآن في ورطة أكبر مما كان يظن.

لكن سحقاً.. عليَّ الرحيل.

بنهاية مقابلة دي لا روشا، كانت المراسلة قد وقعت تمامًا تحت سحره. سألته بقلق بادٍ على وجهها:

– "ماذا تود أن تقول للمشاهدين أيضًا يا سيد دي لا روشا؟"

– "لقد حاول عملاء حكوميون يعملون لصالح كارتل مادريغال قتلي مرتين في الأسبوعين الماضيين لأنني أملك معلومات تربطهم ببعضهم البعض. إنني آسف على الفقد الهائل في الأرواح اليوم في ساحة باركي هيدالغو، لكن هذه ليست سوى البداية إذا سُمح للشرطة بقتل من يريدون نيابة عن الإرهابي كونستانتينو مادريغال. من الواضح بالنسبة لي، وأنا متأكد أنه واضح للسلطات الفيدرالية في مكسيكو سيتي، أن السيد مادريغال هو من أمر بالمجزرة في بورتو فالارتا هذا الصباح لمعاقبة الـ «GOPES» على فشلهم في قتلي قبل أسبوعين. ستستمر هذه المأساة طالما بقي كونستانتينو مادريغال حرًا طليقًا."

بينما كان يتحدث، كان أفراد عائلة غامبوا ينصتون بتركيز شديد باستثناء لوز. اختفت المرأة ذات الخامسة والستين عامًا في الممر نحو المطبخ، وعادت بعد ثوانٍ وهي تحمل صينية عليها أطباق من الـ «إمبانادا» المقلية والفاصوليا والموز والسلطة؛ وهي بقايا طعام الليلة الماضية. تأوه كورت داخليًا وهي تحاول تقديم الغداء له.

التفتت لورا نحو كورت:

– "ماذا نفعل الآن؟"

نظر جينتري خلفه، ليرى مع مَن تتحدث بحق الجحيم. لم يكن هناك أحد غيره.

– "عفوًا؟"

– "ماذا الآن؟ ما هي خطتنا؟"

– "لماذا تسألينني أنا؟"

بدت لورا مرتبكة:

– "ظننتُ.. ظننتُ أنك ستخبرنا بما يجب علينا فعله."

– "ليس لدي أدنى فكرة عما يجب عليكم فعله الآن. أنا لا يفترض بي حتى أن أكون في المكسيك. عليَّ أن أنجو بنفسي وأخرج من هنا."

– "تذهب؟ هل ستتركنا هنا؟"

– "أنتم تعيشون هنا."

– "وهل تعتقد أنه يجب علينا البقاء؟"

بالطبع لا ينبغي لهم ذلك، وكورت يعلم هذا جيدًا. لكنه لا يملك أصدقاء ولا معارف في المكسيك. في الحقيقة، لم يكن يملك أصدقاءً حقيقيين في أي مكان.

– "أنتم لا تريدون المجيء معي؛ أضمن لكم ذلك. ابحثوا عن مكان آمن، واتصلوا ببعض الأصدقاء الذين يمكنهم المساعدة."

تجاوزت إيلينا شقيقتها، وقالت المرأة الحامل بنبرة استعطاف:

– "نحن لا نعرف مَن يمكننا الثقة به."

– "وأنا أيضًا لا أعرف. لستُ من أهل البلاد."

– "لقد وثقنا في الـ «GOPES» حتى قُتل إيدي.. ووثقنا في الكابتن تشاك.. ونحن نثق بك."

اللعنة.

قال كورت:

– "بالتأكيد كان لـ إيدي بعض الأصدقاء هنا، في الحكومة أو الجيش، يمكنهم حمايتكم."

ارتفع صوت إيلينا، والذعر يتسلل إلى قلبها وهي تدرك أن الرجل الذي أنقذ حياتهم على وشك الرحيل:

– "لقد أُبيدت وحدته بالكامل. ويبدو من المرجح أن رؤساءه متورطون في الفساد. إلى مَن نلجأ الآن؟"

– "وماذا عن الولايات المتحدة؟"

هزت إيلينا رأسها:

– "عمل إيدي في العمليات السرية لثلاثة عشر عامًا، معظمها خارج البلاد. والعمل السري لا يصنع أصدقاء. كان له أصدقاء في البحرية، لكني لا أعرفهم. لا يمكنني الظهور فجأة، وأنا حامل وأهرب من القتلة، لأطلب المساعدة من أشخاص لا أعرفهم."

شعر كورت بأنه محاصر. كانت العائلة بأكملها تحدق فيه، فتراجع خطوة غير واعية للوراء حتى ارتطم بالجدار الأسمنتي. وبصوت خافت، هز كتفيه:

– "أنا.. لا أعرف. أعتقد أن عليكم الابتعاد عن هنا. لكن إلى أين تذهبون.. وماذا تفعلون.. ومَن تثقون به؟ ليس لدي أدنى فكرة. لا أستطيع مساعدتكم. أتمنى لو كنت أستطيع."

ساد صمت طويل. نظر جينتري بلهفة نحو الباب الأمامي في الطرف الآخر من الغرفة؛ وكأنه يبعد أميالًا.

هز الشاب دييغو رأسه باشمئزاز، ثم استدار واختفى في الممر. لم يكن يفهم كل الإنجليزية التي قيلت، لكنه أدرك حقيقة أن «جو» قرر الرحيل.

قالت لورا:

– "يمكنك مساعدتنا.. لقد ساعدتنا بالفعل، وتوليت زمام الأمور.. إطلاق النار وكل ما حدث في بورتو فالارتا.. أنت—"

أرادهم كورت أن يفهموا:

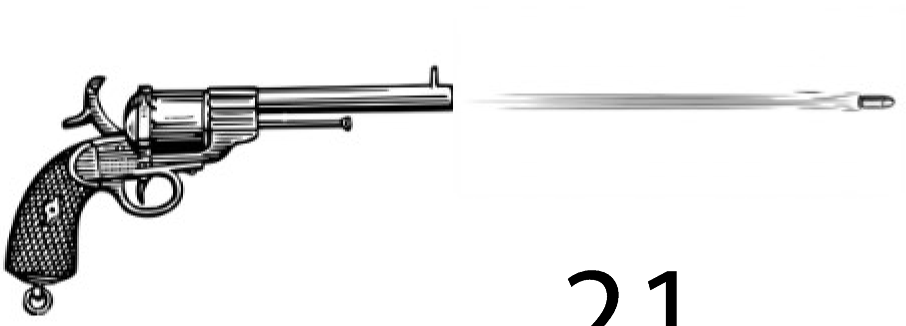
– "إطلاق النار وكل ذلك.. هذا تخصصي تقريبًا. لا أجيد فعل أي شيء آخر. خطتي انتهت بمجرد اختفاء الأشرار. عليكم فقط مغادرة البلدة.. والابتعاد عن «البدلات السوداء». لن أكون مفيدًا لكم في ذلك."

بدأت إيلينا تتوسل إليه للبقاء.

– "اتركيه وشأنه." صرخت لورا مقاطعةً زوجة أخيها، "لقد انتهى أمره معنا! وهذا حقه." ثم نظرت إليه وقالت: "شكرًا لك على كل شيء. سنكون بخير." لم تكن مهارات كورت في التواصل الاجتماعي كافية

ليدرك إن كانت تقصد ذلك أم أنها تسخر منه، لكن الشكوك كانت تساوره.

أومأ كورت برأسه، وصافح الجميع متمنيًا لهم الحظ الطيب، ثم خرج من الباب الأمامي وغادر.



21

سار كورت جينتري عبر السوق الممتد بمحاذاة الطريق شمال ساحة البلدة، قبالة كنيسة سان بلاس. كان الألم يعتصر قلبه تعاطفًا مع آل غامبوا، لكن يقينه كان راسخًا: إن لم يغادر هذا المكان فورًا، فسيكون مصيره الموت على يد وكالة الاستخبارات المركزية أو رجال غريغور سيدورينكو، أو في أحسن السيناريوهات بؤسًا، سيُلقى به في سجن مكسيكي لافتقاره للأوراق الثبوتية أو لقتله عناصر من الشرطة الفيدرالية.

راح يبرر قراره بترك العائلة المنكوبة خلفه، مقنعًا نفسه بأن وجوده بينهم يجلب الضرر أكثر مما يحقق النفع. فـ إرنستو يتمتع بعلاقة طيبة مع الشرطة المحلية، وهي علاقة ستنهار حتمًا إذا أدركوا أنه يؤوي هاربًا تطارده الحكومة الأمريكية والشرطة المكسيكية على حد سواء.

وماذا لو هبط القتلة الروس في سان بلاس؟ حسنًا، سيثير ذلك حفيظة الشرطة المحلية حقًا.

سيكونون بخير. لورا وإيلينا وديبغو ولوز وإرنستو. سيلتف حولهم السكان المحليون ويحمونهم كما فعلوا الليلة الماضية. لقد أوصل دي لا روشا رسالته عبر إطلاق النار في فالارتا؛ وآل غامبوا الآن تحت الأضواء، لذا سيكونون في مأمن.

كما شرح كورت لإيلينا ولورا، تكمن فائدته في الاشتباكات المسلحة. لكنه ذكّر نفسه بأن وجوده يمثل عائقًا في معظم المواقف الأخرى. يا إلهي، لقد ظهر على شاشة التلفاز!

والرجل الرمادي اللعين لا يظهر على شاشات التلفاز اللعينة!

تجاوز الكنيسة واقترب من محطة الحافلات، متأرجح الذراعين بحرية أثناء سيره. حقيبته القماشية بقيت في سيارة تشاك كولين، لذا لم يكن يحمل سوى محفظة ومسدس مخفي بثلاث طلقات حية. مر بصالون حلاقة ومتجر لمستلزمات التجميل، وواصل المشي للحظة، ثم أبطأ خطواته.

لفتت انتباهه لافتة صفراء كبيرة على جدار أحد المتاجر. بدت كأي إعلان آخر؛ لمدرسة، أو تأمين سيارات، أو مشروب غازي.

لكنها لم تكن كذلك.

كانت مختلفة تمامًا.

«انضم إلى صفوف رعاة البقر في كارتل مادريغال. نقدم مزايا وتأمينًا على الحياة ومنزلاً لعائلتك وأطفالك. توقف عن العيش في الأحياء الفقيرة وركوب الحافلات. سيارة جديدة أو شاحنة، الخيار لك. سيحصل أفراد الشرطة أو الجيش أو مشاة البحرية على مكافأة خاصة للانضمام إلينا».

كُتب رقم هاتف في الأسفل بجوار صور لعائلة سعيدة ومبتسمة.

تسمر كورت في مكانه. قرأ الإعلان مرة أخرى، متأكدًا من استيعابه. نعم، لقد فهمه تمامًا.

ما هذا الجحيم؟ هل توظف عصابة المخدرات علنًا؟

هذا المكان مجنون تمامًا.

قال رجل عجوز يجلس على مقعد أمام المتجر، وقد لاحظ ذهول كورت:

– "يسمونها رايات المخدرات (Narcobanderas). إعلانات توظيف للكارتلات. أمر لا يصدق، أليس كذلك؟"

من الواضح أنه لاحظ فك كورت المتدلي دهشةً؛ وإلا لظن أن الرجل الملتحي مهتم بالوظيفة.

نظر كورت إلى الرجل وقال:

– "مادريغال ينشرون هذه الإعلانات، والشرطة لا تزيلها؟"

هز العجوز كتفيه:

– "يفعلون ذلك أحيانًا."

الحمد لله. ليس الجميع فاسدًا.

– "هذا جيد."

رد العجوز:

– "نعم، الشرطة التي تدعم دي لا روشا (DLR) تزيل أحيانًا إعلانات مادريغال. أو يكتبون عليها ملاحظة في الأسفل تقول إن «البدلات السوداء» يقدمون خطة تأمين على الحياة أفضل من «رعاة البقر»."

هز كورت رأسه غير مصدق.

تجار المخدرات في كل مكان، حتى هنا. مثل ورم خبيث، تغلغلت الكارتلات في كل مناحي الحياة على ساحل المحيط الهادئ في المكسيك.

لا يمكنني خداع نفسي. لورا وإيلينا والبقية ليس لديهم أي فرصة.

ولكن، ماذا عساي أن أفعل؟

نظر كورت نحو الشارع باتجاه محطة الحافلات، وخطا خطوتين في ذلك الاتجاه، ثم توقف مجددًا.

تردد. تردد كامل ومطبق.

تبًّا لك يا جينتري.

بعد جدال عائلي طويل في غرفة المعيشة، تولت لورا غامبوا كوراليس القيادة المؤقتة للناجين من عائلتها، إضافة إلى إيلينا غامبوا غونزاليس، زوجة أخيها الراحل. أعلنت لورا قرارها بضرورة مغادرة سان بلاس بعد الظهر، والتوجه إلى صديق للعائلة يقع منزله على بعد ساعة تقريبًا باتجاه الداخل في مدينة تبيك. كان الرجل محاميًا بارزًا، وكانت واثقة من مساعدته لهم.

تعبت إيلينا من الجدال، فرضخت لرغبة أخت زوجها، ثم تمددت على الأريكة لتريح ظهرها المتعب وقدميها المتورمتين. في البداية قاوم إرنستو ولوز قرار الرحيل؛ فسان بلاس هي موطنهم، لكن عندما أقسمت لورا أنها لن ترحل بدونهما، وافقا على مضض.

فقد دييغو والديه اليوم. ورغم أنه نظريًا في عهدة إرنستو ولوز، إلا أنه كان ناضجًا بما يكفي لاتخاذ قراراته بنفسه. كان بإمكانه الخروج من الباب الخلفي والقفز على دراجة والابتعاد لو أراد، لكنه بقي مع العائلة.

كان يعلم أن جده إرنستو عجوز، وأن عمه إغناسيو وغد عديم الفائدة.

أدرك دييغو أنه يجب أن يكون رجل البيت. لم يكن قرارًا سهلاً. هو نفسه باع حشيش سينالوا لراكبي الأمواج والرحالة الأمريكيين في بويرتو فالارتا وسايوليتا، لذا كان عمليًا عضوًا في تنظيم مادريغال، وإن كان في أدنى درجات السلم. لكن ذلك بات من الماضي. الأمر ليس متعلقًا بالمال أو الصواب والخطأ؛ بل بالعائلة، وبالبقاء. سيفعل كل ما يلزم لضمان سلامة عائلته.

كان إغناسيو قد وصل إلى حالة السُكر النصفي بفضل البيرة والتكيلا خلال الساعة الماضية. وافق على الذهاب مع العائلة إلى تبيك

دون جدال. لم تكن لديه عائلة خاصة، ولا مكان يذهب إليه سوى العودة لمنزله الواقع شمال بويرتو فالارتا.

ورغم كؤوس التكيلا المعتقة والبيرة في دمه، لم يكن سكرانًا لدرجة تمنعه من إدراك أن ذلك لم يعد خيارًا بعد أحداث اليوم.

شعرت لورا بالرضا لوجود خطة، لكنها كانت ستشعر بتحسن أكبر لو بقي «جو» للمساعدة. خاب أملها في الغريب الأمريكي لرحيله. لقد أنقذ حياتهم جميعًا؛ لم ترَ ما فعله في حديقة هيدالغو، لكن وفقًا للأخبار، قتل أحدهم ستة من القتلة المأجورين (sicarios) الذين أطلقوا النار على الحشد. وبما أن لورا أطلقت النار على واحد فقط، فقد استنتجت أن هذا الأمريكي الغامض تكفل بالبقية.

كان ثمة انجذاب أيضًا، لكنها كبتته الآن بعد رحيله. لم تنظر لرجل منذ سنوات، منذ أن عُذب زوجها حتى الموت على يد تجار المخدرات في الشمال. لكنها نظرت إلى جو. لم تعرف السبب. تساءلت إن كان السبب مجرد معرفته بـ إدواردو في تلك السنوات التي اقتصرت علاقتها به على مكالمات هاتفية وبطاقات بريدية من مدن بعيدة. جعلها ذلك تشعر بالقرب من الأمريكي، وكأنهما صديقان من الماضي.

والآن، جاء الأمريكي الغامض ورحل، ظهر واختفى في غضون أقل من أربع وعشرين ساعة، وأخرج نفسه من حياتها.

مع كل ما حدث اليوم، لم تفهم حقًا لماذا تهتم.

أمرت العائلة بالاستعداد للرحيل. سيتكدس الستة في شاحنة إدواردو الكبيرة من طراز F-350. بدأ والدها بالحزم، ودخلت والدتها المطبخ لتجهيز الطعام والشراب، وأخذ دييغو الشاحنة لملئها بالوقود وإضافة الزيت.

استراحت إيلينا على الأريكة، وخرج إغناسيو للتدخين والشرب في الخلف.

رن الهاتف في غرفة المعيشة لأول مرة منذ عودة العائلة. أجابت إيلينا.

– "ألو؟"

– "مساء الخير يا إيلينا. كيف حال العائلة؟"

– "من معي؟"

– "اسمي دانيال."

شهقت إيلينا قبل أن تتكلم. لقد ميزت الصوت.

– "دانيال دي لا روشا؟"

– "في خدمتك. لم نلتقِ رسميًا اليوم. ولم أحظَ بفرصة لقاء زوجك رسميًا أيضًا. يا للأسف على ما حل بإدواردو."

انقطع نَفَس إيلينا:

– "أنا... رأيتك تُصاب بالرصاص."

ضحك قائلاً:

– "يا سيدتي، إذا كان زوجك القوي، المدرب على القتل بيد الـ «غرينغوس» (الأمريكيين)، قد عجز عن قتلي، فهل تظنين حقًا أن قتلي بتلك السهولة؟ لا، ليس بي خدش واحد."

– "لماذا تتصل بي؟ ماذا تريد؟"

– "سأخبرك بما أريد. لن يعجبك الأمر، لكنني سأخبرك. أريد طفلك. يجب أن يدفع ابنك ثمن جرائم زوجك. أعطني طفلك، وستنجين بحياتك. لن أهددك أنت أو عائلتك بعد ذلك."

– "طفلي؟ ستقتل طفلي؟"

– "نعم، لكن الأمر ليس بهذا السوء. اسمعي، سأجعل الأمر سهلاً للغاية. اذهبي إلى طبيب، وسأتحدث إليهم وأشرح الوضع. سيعتنون بك ويأخذون منك ما أريد فقط. إذا فعلتِ هذا، ستنقذين حياتك وحياة بقية أفراد عائلتك الذين نجوا من حديقة هيدالغو هذا الصباح،

وستنقذين حياة كل من يحاول منعي من أخذ طفلك. بمن فيهم الـ «غرينغو» الغامض."

– "تريد... طفلي؟ هل أنت مجنون؟"

– "أنا بعيد كل البعد عن الجنون. أنا رجل أعمال عقلاني. وأقدم لك عرضًا لفترة محدودة. وافقي الآن وإلا ستندمين."

– "أنت معتوه. اتركني وعائلتي وابني الذي لم يولد بعد لنحزن على كل ما سرقته منا!"

تغيرت نبرة دي لا روشا المهذبة، لتصبح لاذعة كالأسيد:

– "اسمعي أيتها العاهرة! زوجك حاول أن يسرق مني! حياته لم تسدد ثمن المتاعب التي سببها. حياته لم تكن تساوي القذارة العالقة بحذائي! سلميني ذلك الطفل وإلا سأقتل كل..."

أغلقت إيلينا غامبوا الهاتف بقوة، ورفعت يديها إلى وجهها، وأطلقت صرخة مدوية. ضمت لورا زوجة أخيها بين ذراعيها واحتضنتها بقوة. وبدأت تصلي بصوت عالٍ وهي واقفة في غرفة المعيشة.

– "يا رب، احمِنا!"

انفتح الباب الأمامي، فالتفتت المرأتان نحوه معًا. كان جو، الأمريكي.

تلعثمت لورا في حيرتها، مذهولة:

– "هل... نسيت شيئًا؟"

نقل وزنه بتوتر من قدم لأخرى قائلاً:

– "يمكنني فقط حراستكم الليلة. وغدًا إذا لم تهدأ الأمور، يمكنني الاختباء في قارب إيدي إذا جاءت الشرطة."

أخبرته إيلينا فورًا عن مكالمة دي لا روشا. أحاط كل من لوز وإرنستو وديبغو ولورا بإيلينا وهي تتحدث. توترت عضلات فك كورت

عندما نقلت المرأة الحامل مطلب زعيم المخدرات بحياة طفلها الذي لم يولد بعد.

سأل:

– "لماذا؟ لماذا الطفل؟"

– "لا أعرف. ربما لأنه ذرية إدواردو الوحيدة."

قال كورت بصوت خافت وهو يهز رأسه:

– "إرثه. هذا الوغد قادم من قرون وسطى لعينة."

فكر لبضع ثوانٍ ثم قال:

– "عليكم الهرب. يجب أن تخرجوا من هنا فورًا."

قالت لورا:

– "نحن ذاهبون إلى تبيك. لدينا صديق هناك، محامٍ بارز. يمكنه..."

قاطعها كورت:

– "لا. لا أصدقاء. يمكن لفرقة «البدلات السوداء» تتبعكم إلى أي صديق يعيش قريبًا. تحتاجون لمكان منعزل، مكان يمكنكم الاختفاء فيه ليوم أو يومين حتى نعرف من يقف في صفكم."

تردد قليلاً ثم أضاف:

– "إذا كان بإمكانكم التفكير في مكان كهذا... سأرافقكم، فقط لأتأكد من وصولكم إليه."

حك إغناسيو بطنه الضخم ونظر إلى كورت:

– "لدينا أبناء عمومة يملكون مكانًا في مازاتلان. يمكننا الذهاب إلى هناك."

– "لا. لا أصدقاء، ولا عائلة."

تدخلت لورا:

– "أعرف مكانًا."

سأل جينتري:

– "أين؟"

– "مزرعة قديمة في أعالي جبال «سييرا مادري»، تبعد ثلاث أو أربع ساعات من هنا، حسب حالة الطرق. تملكها عائلة زوجي الراحل، لكنهم كبروا في السن وانتقلوا إلى المدينة. وحسب علمي، المزرعة غير مأهولة."

أعلن كورت للعائلة:

– "هذا هو المكان الذي سنذهب إليه."

لقد عاد لتولي القيادة.



22

لو كان الأمر يقتصر على كورت وحده، لغادر المكان منذ أمد بعيد، فدقيقة واحدة كانت ستكفيه للتواري عن الأنظار عقب اتخاذ القرار بالتوجه إلى مزرعة في أعالي الجبال. لكنه لم يكن وحده؛ إذ كان ثمة ستة آخرون سيرافقونه في هذه الرحلة. وبالنسبة لرجل مثل "الرجل الرمادي"، كان يشعر وكأن له ذيلاً طويلاً ثقيلاً يتدلى من خلفه، ذيلاً يزحف وراءه مكشوفاً، ويتعثر بكل ما يصادفه في طريقه. لم يكن بمقدوره ببساطة أن يخرج من بوابَة الحديقة الخلفية إلى الزقاق، ويختفي وسط الغبار؛ بل كان عليه انتظار ثلاث نساء، وطفل، وسكير سمين، وعجوز حتى يجمعوا شتات أنفسهم. حاول في البداية استعجالهم، لكنهم لم يفعلوا شيئاً سوى الموافقة على أنه لا وقت لديهم لإضاعته، ثم استمروا في لملمة أشيائهم ووضعها ثانية وهم يهرعون في أرجاء المنزل.

وبينما كان كورت ينتظر، تولى مهمة الحراسة؛ كان يحمل مسدساً من نوع "ريفولفر" فيه ثلاث رصاصات فقط. وضعه خلف ظهره أسفل قميصه وهو يقف بجوار شاحنة إيدي. كانت الشاحنة كبيرة بما يكفي لسبعتهم، بالكاد، لكنها كانت أيضاً مركبة دفع رباعي قوية قادرة على السير في الطرق الوعرة إذا لزم الأمر. بل كانت مزودة بمصابيح كاشفة ضخمة فوق سقف المقصورة، قد تفيدهم في طرق الجبل القاسية. كان دييغو قد أطلع كورت على تفاصيل المقصورة، وكيفية تشغيل أزرار

التحكم في الإضاءة والرافعة، وكيفية استخدام جهاز التحكم عن بعد لتشغيل المحرك دون وضع المفتاح في مكان التشغيل.

لم يكن التجول في مركبة ضخمة ومبهرجة خيار جينتري المفضل بكل تأكيد، فهي تجذب أنظار الشرطة الفاسدين الذين قد يستهدفون هذه العائلة، لكنه على الأقل جعل دييغو يستبدل لوحات الأرقام الأمامية والخلفية بلوحات سيارة لورا، وهي سيارة "هوندا" صغيرة ببابين. كان يأمل أن تكون هذه الخديعة كافية لمنحهم بضع ساعات من الأمان بعيداً عن سان بلاس.

بينما كان كورت ينتظر "ذيله" بفارغ الصبر، ظل يراقب البوابة القابعة في نهاية الممر الصغير. لم يمضِ على وقوفه هناك سوى دقيقتين حتى ظهرت شرطية من بلدية سان بلاس في منتصف العمر عند البوابة، وأخذت تسترق النظر فيه من بين القضبان. تذكرها كورت من مأدبة العشاء في الليلة السابقة؛ كانت واحدة من أفراد الشرطة الذين وقفوا في الحديقة الخلفية. لقد عانقت لورا عدة مرات؛ وهو أمر لاحظه دون شك لأنه كان يراقب لورا باهتمام. أومأ كورت لها بيده محيياً، لكنها اكتفت بالتحديق فيه. كانت هيئتها قد تغيرت عن الليلة الماضية، وتساءل عما تعرفه عن تورطه في أحداث بورتو فالارتا.

علينا الرحيل فوراً!

قال ذلك لنفسه، لأن تكرار الأمر على مسامع آل غامبوا لن يكون سوى هباء منثور.

تراجعت الشرطية بعد ثوانٍ، ليحل محلها شرطي آخر من سان بلاس عند البوابة. سرعان ما انصرف هذا الرجل أيضاً، ولكن بعد فترة وجيزة، سمع كورت صوت طنين جهاز لاسلكي للشرطة في الشارع خلف الجدار، فأدرك أن الشرطي – وربما الشرطية أيضاً – لا يزالان واقفين هناك. تمنى لو كانوا هنا لحماية عائلة غامبوا، رغم أنه

لم يكن هناك الكثير مما يمكنهم فعله بهراواتهم الغبية إذا ظهر "البدلات السوداء".

توقفت شاحنة صغيرة بيضاء مهترئة نزل منها شرطيان ثالث ورابع. ترجلا من المقصورة، ومثلهم مثل الآخرين ظلوا واقفين في الشارع. خرج دييغو من المنزل، وساعده جينتري في قذف حقيبتي ظهر كبيرتين في حوض شاحنة إيدي من طراز F-350.

وصل شرطيان آخران غير مسلحين على دراجتين هوائيتين وأخذا ينظران عبر البوابة. شعر كورت وكأنه قرد في حديقة حيوان مع كل تلك العيون التي تراقبه من خلف القضبان الحديدية. استشعر القلق في حركات رجال شرطة البلدية وهم ينظرون نحو الممر بينما يتحدثون إلى زملائهم. وأخيراً، تقدم أحدهم - ربما كان الأقدم بينهم - وحدق في جينتري بحدة عبر القضبان. قرر كورت البحث عن إرنستو ليجعله يتحدث إليهم.

عاد إلى الداخل، واخترق المنزل بأكمله، وشعر بالانزعاج حين وجد لورا تقود الجميع - باستثناء إرنستو - في صلاة أخرى في غرفة المعيشة، فاندفع خارجاً إلى الحديقة الخلفية. هناك وجد العجوز جالساً وحده في الساحة الخلفية، عند الطاولة المجاورة لمشروع إيدي لترميم قارب "بوستون ويلر".

كان يبكي، وينتحب في عزلته.

اللعنة، فكر كورت، وكأننا نملك ترف الوقت لهذا.

تحدث بصوت خفيض لكنه ملح:

- "سامحني يا إرنستو، الشرطة بالخارج."

نظر العجوز إلى جينتري وقال باقتضاب:

- "لقد فقدتُ ابناً آخر وأخوين اليوم."

لم يجد الأمريكي رداً سوى قوله:

- "أنا آسف."

– "ابنتي."

– "لورا؟"

– "هل ستحميها؟"

– "سأفعل كل ما في وسعي. من أجلكم جميعاً."

مد غامبوا يده ومررها على الهيكل الناعم لقارب إيدي.

– "أرجوك يا خوسيه. أرجوك ساعدني لإنقاذ ما تبقى من عائلتي."

– "سأعتني بـ لوريتا. من الأفضل أن تذهب لترى ما يريده رجال الشرطة."

نهض إرنستو، ومد يده، وعانق الأمريكي عناقاً حاراً. تيبس جسد كورت كلوح خشب؛ لم يكن قادراً على تخيل الألم القابع في قلب الصياد العجوز، لكنه لم يكن يملك شيئاً ليفعله حيال ذلك.

سار إرنستو عبر المنزل ثم خرج نحو البوابة؛ تبعه كورت مراقباً حركاته من الخلف، ورأى كيف تجسدت الخسارة الفادحة التي تحملها العجوز في كتفيه المتهدلتين ورقبته المحنية. بدا والد إيدي قوياً من الناحية الجسدية رغم تقدمه في السن، لكنه كان منهاراً من الداخل.

فتح العجوز البوابة؛ فوقف أمامه الضابط ذو البنية الضخمة والشارب الكثيف.

– "الرقيب مارتنيز. هل سمعت بما حدث؟"

أجابه الرقيب:

– "نعم يا سيد غامبوا. أنا آسف جداً."

تعانق الرجلان عناقاً رسمياً مشوباً بالبرود. بقي كورت في الخلف بجوار الشاحنة؛ لم يكن يريد أن يتسبب وجوده – وأي شكوك قد يثيرها – في خلق مشكلات.

قال إرنستو:

– "البقاء هنا ليس آمناً لنا. لقد حاول (البدلات السوداء) قتلنا اليوم. سنغادر فوراً."

نظر رقيب الشرطة نحو الشارع للحظة، ثم قال:

– "أنا آسف يا إرنستو، ولكن يجب أن أطلب منك عدم مغادرة سان بلاس."

– "ولماذا؟"

– "في الواقع.. أنا لا أعرف السبب. لقد تلقينا اتصالاً من مدير شرطة ولاية ناياريت في تيبيك؛ وقد أمرني أن أطلب منكم البقاء."

أومأ إرنستو برأسه:

– "فهمت."

خرج بقية أفراد العائلة من الباب الأمامي الآن، وهم يحملون حقائب وعلباً مختلفة، مما جعل شاحنة إيدي تصل إلى أقصى حدود طاقتها الاستيعابية مع وجود سبعة ركاب. حملوا أمتعتهم في الشاحنة، وسرعان ما شقت لورا وإيلينا طريقهما إلى الشارع للوقوف مع إرنستو. وبعد فترة وجيزة، تبعهم بقية أفراد العشيرة. استمر إرنستو والرقيب في مناقشة الأمر.

كان الرقيب مهذباً، لكنه طلب من العائلة مرافقته مع رجاله إلى المركز المحلي، حيث سينتظرون تعليمات أخرى. شكره إرنستو على عرض الحماية، لكنه لم يأمر عائلته بمرافقة رجال الشرطة.

بدأ نوع من المواجهة الودية للغاية يتشكل هناك في الشارع الحار.

دخل جينتري وسط الحشد، متلهفاً لتحريك رفاقه. كفانا هذا الهراء المهذب، فكر في نفسه. فرغم وديتهم وعدم تشكيلهم تهديداً مباشراً، إلا أن هؤلاء الشرطيين – بتأخيرهم لعملية هروبهم من "البدلات السوداء" – بدأوا يتحولون بسرعة إلى تهديد لعملية كورت.

تحدث بالإسبانية:

– "أيها الرقيب. أنت تطلب منهم البقاء، وهم يقولون لك (لا). لم يعد هناك ما نناقشه. وداعاً."

ثم نظر إلى العائلة وقال:

– "الجميع إلى الشاحنة. نحن مغادرون."

قال رقيب الشرطة:

– "يا سيد، أنت حر في الذهاب. لم نؤمر باحتجازك، لكن على عائلة غامبوا المجيء معنا إلى المركز." ثم التفت ثانية إلى إرنستو غامبوا: "سنحميكم جميعاً هناك. تفضلوا من هذا الطريق."

ابتسم الشرطي لهم وأشار إلى شاحنته الصغيرة، وكأن على السبعة جميعاً أن يتكدسوا في حوضها الخلفي. لم تكن هذه المركبة تبلغ نصف حجم شاحنة إيدي الضخمة.

سأل كورت:

– "هل هم قيد الاعتقال؟"

– "بالطبع لا. نود فقط حمايتهم في الوقت الحالي."

– "لن يذهبوا إلى أي مكان إلا معي. الآن.. ابتعد عن الطريق."

– "يا صاحبي، إذا كنت تتدخل في عمل الشرطة، فيمكنني اعتقالك."

– "يمكنك أن تحاول."

حدق كورت في الرجل الضخم بصرامة، لكنه لم يضع في حسبانه كبرياء الضابط ورجولته. كان بإمكان كورت أن يطحن هذا الرجل الأربعيني المترهل في التراب دون أن يتصبب عرقاً. لكن هذا الرجل لم يكن ليتراجع عن مواجهة جسدية.

تبادل الرجلان نظرات حادة. قال مارتنيز:

– "أرني أوراقك."

لم يرمش لـ جينتري جفن:

– "أوراقي ناقصة بعض الشيء."

– "جواز سفرك؟ بطاقة الدخول؟"

اكتفى كورت بهز رأسه، ونظرته الفولاذية ثابتة:

– "لا شيء."

– "كيف دخلت البلاد؟"

– "لقد رشوّتُ أحد زملائك في تشياباس ليسمح لي بعبور الحدود الغواتيمالية. يبدو أن هناك الكثير من الشرطيين الفاسدين في المكسيك."

ارتعش شارب الرقيب بخلجة عصبية، لكن بقية جسده ظل ثابتاً كالصخر. ظل الرجلان يحدقان ببعضهما لفترة طويلة. كاد كورت يرى التروس تدور في رأس هذا الرجل: ما مقدار المتاعب التي سيسببها هذا "الغرينغو"؟

تقدم إرنستو للأمام، كاسراً صراع النظرات، ومخففاً من حدة المواجهة الوشيكة.

– "حسناً يا رقيب، كل شيء على ما يرام. نحن نقبل عرض الحماية. سنأتي معك."

– "لا تركب تلك الشاحنة."

قالها كورت لـ إرنستو، لكن العجوز وزوجته المطيعة سارا نحو مركبة الشرطة. خفض شرطيان محليان الباب الخلفي واستعدا لمساعدة الزوجين على الصعود. كرر كورت قوله لـ إيلينا وهي تمر بجانبه في الشارع. بدت متوترة ومرتبكة، لكنها مستسلمة لحقيقة أنهم لن يغادروا سان بلاس بسرعة بعد كل شيء.

مرت به لورا الآن، وتحدثت إلى جينتري بصوت خافت:

– "هؤلاء أصدقاؤنا. ليس لهم علاقة بتجار المخدرات."

– "لكنهم لا يستطيعون حمايتكم. إذا جاء القتلة المأجورون، أو إذا أرادت الشرطة الفيدرالية أخذكم، فلن يتمكنوا من إيقافهم. إذا جاءت شرطة الولاية أو الجيش–"

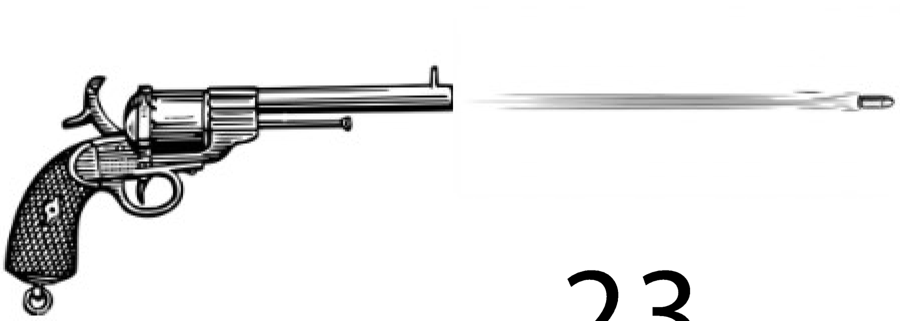
في تلك اللحظة، جعل دويٌّ قادم من أعلى الشارع الجميع يلتفتون. انعطفت ثلاث شاحنات صغيرة زيتية اللون من الطريق المؤدي إلى الساحة ودخلت شارع كاناليزو، وهو الشارع الذي يقطنه آل غامبوا. كان يقف في أحواض الشاحنات ويستند إلى أسقف مقصوراتها جنديان من الجيش المكسيكي في كل مركبة، يرتديان سُترات واقية من الرصاص خضراء ضخمة ويحملان بنادق G3 سوداء كبيرة. وخلفهم في أحواض الشاحنات كان هناك جنديان آخران مسلحان يواجهان الخلف، وأسلحتهما موجهة نحو الشارع. وبإحصاء السائق والراكب في كل مقصورة، أدرك كورت أن ثمانية عشر سلاحاً ومسلحاً قد وصلوا للتو إلى مكان الحادث.

كرر كورت قوله، لنفسه أكثر مما هو لـ لورا:

– "أو الجيش."

بدت رصاصات الماغنوم الثلاث من عيار .357 التي يملكها الآن وكأنها أسوأ من عدم امتلاك أي سلاح على الإطلاق.

توقفت مركبات الجيش، وترجل الجنود وقفزوا منها، وبدأوا يتحدثون مع رجال شرطة سان بلاس الستة، الذين بدا الآن أنهم غير مستعدين بتاتاً لحماية أي شخص، بملابسهم المكونة من قمصان "بولو" زرقاء فاتحة وهراوات خشبية.



23

مرت خمس دقائق ولم يُحسم شيء، بل على العكس، زاد الموقف حرجًا وتعقيدًا. وصلت شاحنة أخرى مكتظة برجال الشرطة المحلية، ليرتفع عددهم الآن إلى أحد عشر شرطيًا. اصطف عناصر شرطة سان بلاس في مواجهة ثمانية عشر جنديًا من جيش الدفاع الوطني. وقف رقيب الشرطة وملازم الجيش يتجادلان وسط الشارع؛ بدأ النقاش مهذبًا، لكنه سرعان ما احتدم واشتعل.

خلفهما، اندلع تدافع بين الطرفين. استند جندي إلى إحدى شاحنات الشرطة، فدفعه شرطي شاب بعيدًا عنها. صرخ الملازم في رجاله، فصوبوا أسلحتهم نحو الشرطة. كان الجو مشحونًا بالتوتر واستعراض القوة والرجولة بما يكفي لإشعال معركة تضاهي تلك التي اندلعت في بويرتو فالارتا في وقت سابق من اليوم.

كان إغناسيو غامبوا، شقيق إيدي، مستندًا إلى جدار منزل أخيه، محتميًا بظله الشحيح. وحين ارتفعت فوهات البنادق، رفع الرجل الضخم يديه مستسلمًا. ولكن عندما لم يحذُ أحد حذوه، أنزلهما ببطء.

استنتج كورت من جدال ملازم الجيش أنه تلقى أوامر من رؤسائه في قاعدتهم ببويرتو فالارتا باقتياد آل غامبوا إلى هناك. بينما أوضح رجال شرطة سان بلاس أنهم تلقوا تعليمات من رؤسائهم بإبقاء العائلة هنا حتى وصول شرطة ولاية خاليسكو لاصطحابهم وتسليمهم لشرطة بويرتو فالارتا لاستجوابهم بشأن اشتباك حديقة هيدالغو.

لم ترغب عائلة غامبوا في الذهاب مع أي من الفريقين. رأى كورت الشك في عيون إرنستو وعائلته؛ فكلا الجهازين الموجودين في الشارع يزعم تنفيذ أوامر الجهة نفسها في بويرتو فالارتا، لكن أوامرهما كانت، في الجوهر، متناقضة تمامًا.

نعم، هذا هراء محض. فكر كورت. على الأقل، إحدى المجموعتين اللتين تتقاتلان للسيطرة على عائلة إيدي تكذب. لم يكن صعبًا عليه تخيل أن كلا الفريقين يعمل لصالح تجار المخدرات أو عناصر فاسدة داخل أجهزتهم، سواء بشكل مباشر أو دون علم. ومع تحول المواجهة بين الطرفين إلى خصومة شخصية، ومع تحول الجدال العقيم إلى تهديدات ومزيد من التدافع والنظرات الغاضبة، ازداد يقين جينتري بأن صراع القوة هذا الذي يدور في الشارع المترب لا علاقة له بالسلطة القضائية، بل بالجائزة التي وضعها دي لا روشا على رؤوس آل غامبوا، وكان كلا الفريقين، أو سادتهم على الأقل، عازمين على نيلها.

وقف آل غامبوا وجينتري في الشارع أمام المنزل. كانت الشاحنة محملة وجاهزة للانطلاق في الممر؛ فكر كورت للحظة في محاولة تحميل العائلة أثناء انشغال الجميع بالجدال والهروب ببساطة، لكن عندما شكل الجنود فرقًا على جانبي الطريق، ألغى الفكرة. لا، سيجلسون هنا وينتظرون ليروا من سيفوز في هذا الجدال، من سيفوز بجائزة «عائلة غامبوا».

لم تكن الشرطة المحلية لتصمد في قتال حقيقي، لكن الرقيب مارتنيز الضخم والغاضب كان يتمتع بشخصية قيادية شرسة، ولم يكن ليتراجع.

فجأة، شق الأجواء طنين بعيد لمحركات عالية الكفاءة قادمًا من الشمال. استمر الصوت وتضخم؛ بدت الآلات مختلفة عن أي شيء آخر في هذه البلدة الصغيرة المليئة بالسيارات القديمة والشاحنات المتهالكة والدراجات الترابية التي تنفث دخانًا رماديًا أكثر من

القاطرات. أدار المسلحون في الشاحنات فوهات بنادقهم شمالًا نحو الآلات المقتربة، لكنهم تبادلوا النظرات مع قائدهم بحثًا عن التوجيه.

أدرك كورت أن المشهد لو رآه غريب لكان هزليًا: ستة وثلاثون شخصًا، لا أحد منهم لديه أدنى فكرة عمن هو قادم أو ماذا سيفعلون حين يصل، يقفون هناك محاولين الظهور بمظهر الحزم والصلابة، مدركين أن أي ضيف جديد في هذه الحفلة قد يقلب الموازين تمامًا.

انعطفت دراجتان ناريتان نحو شارع كاناليزو قادمتين من شارع سينالوا، الطريق الواقع أمام الساحة الكبرى. حتى من مسافة مائة ياردة، ميز كورت الزي الرسمي، والخوذات، والأقنعة، والنظارات الداكنة الخاصة بالشرطة الفيدرالية (Policía Federal). كانت دراجاتهم بيضاء ذات حواف خضراء، ولاحظ جينتري أنها دراجات «سوزوكي» رياضية قوية؛ اندفع الرجال بسرعة وثقة نحو الحشد المتجمهر أمام منزل غامبوا.

كان الأمر واضحًا. رغم أن عنصري الفيدرالية كانا أقل عددًا بكثير، إلا أنهما، في نظرهما، كانا سيدي الموقف.

لم يساور جينتري شك يذكر في أن هؤلاء الأوغاد بملابس النينجا ينتمون للوحدة ذاتها التي أطلق عليها النار قبل ثلاث ساعات ونصف في فالارتا. تساءل عما إذا كان هذان الاثنان هما القاتلان اللذان وقفا أعلى الدرج يمطران عائلات القوات الخاصة بالرصاص أثناء محاولتهم الهروب من الحديقة.

رجح بقوة أنهما كذلك.

تمتم بسخرية خافتة:

– "مرحى، لقد نَجَوْنا."

للحظة، مجرد لحظة عابرة، فكر في التسلل بعيدًا، والتراجع إلى ممر آل غامبوا، ثم الهروب عبر بوابة الحديقة الخلفية. كان بإمكانه ترك كل هذا خلفه؛ كان بإمكانه النجاة.

كان بإمكانه الهرب.

لكنه لم يهرب.

أوقف الرجلان دراجتيهما في منتصف الطريق. كانا يحملان رشاشات «كولت 635» على ظهريهما، وفوهاتها موجهة لأسفل، ومسدسات سوداء في أغماد مثبتة على الفخذ. كانت أحذيتهما سوداء لامعة؛ وارتديا نظارات شمسية وخوذات وأقنعة تزلج تخفي وجوههما تمامًا. أنزلا مساند الدراجات في حركة واحدة، وأطفآ المحركين في وقت واحد، وترجلا بانسجام تام. تحركا وسط جمهرة شرطة القرية وجنود الجيش العاديين بهدوء واثق وهالة لا تُنكر من السلطة.

في البداية، سار الشرطيان الفيدراليان عبر الجنود، وتجاوزا عائلة غامبوا، وتوجها مباشرة إلى الرقيب المسؤول عن الشرطة المحلية. تولى أحد الوافدين الجدد الحديث؛ وتكلم بصوت خافت مع الشرطي البدين. حاول مارتنيز المجادلة، لكن الفيدرالي أسكته، ووضع يدًا ودودة مرتدية قفازًا على كتف الرجل، وواصل الحديث.

حاول مارتنيز مرة أخرى، نافخًا صدره هذه المرة، لكن الفيدرالي الأصغر حجمًا هز رأسه فقط، وواصل الحديث بصوت خافت ولكنه حازم.

بعد أقل من ستين ثانية من المحادثة، أومأ رقيب الشرطة المحلية، والتفت إلى الرجال والنساء الآخرين بقمصانهم وقبعاتهم، وأمر الجميع بالعودة إلى واجباتهم السابقة. لقد حُسم الأمر.

الفيدراليون يتولون القيادة.

لم يفاجأ جينتري بأن شرطة سان بلاس كانت أول من تراجع. بدا الرقيب محبطًا، إما لأنه يعرف مدى غضب رؤسائه منه، أو لأنه أدرك ضياع المكافأة التي وعدته بها «البدلات السوداء»، لكنه بدا شاكرًا مع ذلك لأن سلطة عليا جاءت لتخليصهم من المواجهة التي كانت تختمر بينهم وبين الجنود.

لكن رحيل هؤلاء الرجال والنساء ذوي العصي والدوافع الضعيفة لم يملأ كورت جينتري بالثقة. أبقى عينيه على البنادق القتالية الثقيلة التي كانت تلوح في اتجاهه. تلاشت شاحنات البيك أب والدراجات الهوائية ودوريات المشاة بسرعة، والتفت الفيدرالي الأكثر طلاقة وبدأ يتحدث الآن إلى ملازم الجيش. كان هناك صراخ وجدال من جانب الجندي، لكن لم يقابله سوى صوت هادئ وحازم من جانب ضابط إنفاذ القانون. بالكاد استطاع كورت فهم كلمة من أي طرف، لكنه أدرك أن «النينجا» كان يقول إن عائلة غامبوا والـ «غرينغو» (الأمريكي) سيُعادون إلى بويرتو فالارتا، وأنه وزميله سيتوليان مرافقة العائلة والأمريكي إلى هناك.

انتهى النقاش.

كان كورت قد خاطر ببقائه، وأصبح الآن في المركب نفسه مع البقية. استند بظهره إلى الجدار الخرساني المطلي بالجير الأبيض المحيط بمنزل آل غامبوا، بجوار لورا. دخل إرنستو ودييغو إلى المنزل وأحضرا المقعد الطويل من إحدى طاولات النزهة في الفناء الخلفي، ووضعاه في الظل لـ لوز وإيلينا. جلست المرأة العجوز وزوجة ابنها الحامل تروّحان عن نفسيهما بقطع من صحيفة التقطتاها من المزراب على جانب الطريق.

بعد حديث طويل من الشرطي المتشح بالسواد، مالت لورا، التي كانت تقف عند كتف كورت، لتهمس في أذن الأمريكي:

– "هل فهمت ذلك؟"

لم يلتقط كلمة واحدة من جدال الرجال في الدقيقة الماضية.

– "لا، ماذا يحدث؟"

– "يقول الفيدرالي إنه يعد بإخبار «لا آرانا» (العنكبوت) بأن وحدة الجيش هذه تستحق مكافأة لاحتجازها العائلة حتى تمكن هو وزميله من القدوم وتولي الحراسة."

فكر كورت للحظة.

– "العنكبوت؟ من بحق الجحيم هو «العنكبوت»؟"

– "خافيير سيبيدا."

– "حسنًا، ومن هو خافيير..."

– "أحد كبار رجال دي لا روشا. من «البدلات السوداء». يقولون إنه زعيم القتلة المأجورين (sicarios) التابعين لدي لا روشا."

– "ممتاز."

– "نحن في خطر يا جو."

أراد أن يقول لها «لا تقولي!»، لكنه نظر إلى الفتاة، إلى عينيها البنيتين الواسعتين، وتمالك نفسه.

– "سنكون بخير."

– "ماذا سنفعل؟"

– "لا أعرف بعد."

– "إذن كيف تقول إننا سنكون بخير؟"

– "لدي ثلاث رصاصات. وهناك شرطيان. سنذهب مع الشرطيين وسنكون بخير."

اتسعت عينا لورا.

– "جو... أرجوك لا تقتلهما. يمكننا تجريدهما من السلاح و..."

قال جينتري:

– "لن أقتلهما إلا إذا أجبراني على ذلك."

لكنه كان يتوقع تمامًا أنهما سيجبرانه.

بدا أن صفقة الفيدراليين مع الجنود تؤتي ثمارها. كانت ديناميكية مثيرة للاهتمام لرجل مثل كورت جينتري؛ شرطيان بأسلحة خفيفة مقابل ما يقرب من عشرين جنديًا مدججين بالسلاح. لم يلمس الشرطيان أسلحتهما؛ ولم يصرخا في أجهزة الراديو لطلب الدعم؛ ولم يصرخا أو يهددا. شك كورت في أن الشرطيين كانا أكبر سنًا، وأكثر

ثقة بنفسيهما، ومخيفين لملازم الجيش الشاب، وقد فرضا سلطتهما وثقتهما عليه بكلمات مهذبة، كقفاز رقيق يغلف قبضة حديدية، لفرض إرادتهما.

كان كورت متيقناً من أنهما رجلان سيئان، لكنه كان يشجعهما في هذه المعركة الصغيرة.

ونجح أسلوب الترهيب الهادئ. أمر الملازم رجاله بالتراجع والعودة إلى المركبات. وفي غضون ستين ثانية، اختفت شاحنات الجيش الثلاث المحملة باتجاه الجنوب، منعطفة يسارًا خارج شارع كاناليزو، مخلفة وراءها سحابة من غبار الطريق.

راقب الفيدراليان الجنود وهم يغادرون ثم استدارا لمواجهة العائلة.

بدلًا من ذلك، وجدا نفسيهما يحدقان في فوهة مسدس الـ «غرينغو» على بعد خمسة أقدام.

تحدث الشرطي الذي كان يتولى الكلام ببطء بينما ارتفعت ذراعاه استسلامًا. كانت لغته الإنجليزية ممتازة.

– "أبعد مسدسك عن وجهي يا أميجو (صديقي)."

– "لو كنتُ صديقك، لما كان مسدسي في وجهك، أليس كذلك؟ انزلا على الأرض! كلاكما! وجهاكما للأسفل، وأيديكما ممدودة."

– "عليك أن تستمع إلي بعناية شديدة يا سينيور (سيدي)."

– "إن لم تمرغ أنفك في التراب الآن يا سينيور، سأفجر رأسك اللعين. كومبريندي (مفهوم)؟"

جثا الرجلان ببطء على ركبتيهما ثم انبطحا على الشارع الحار المترب.

– "أنت لا تفهم. نحن لسنا فيدراليين عاديين مثل الرجال الذين قتلوا آل غامبوا."

عقد كورت حاجبيه.

– "أوه، رائع. أنتم مجرد قتلة مأجورين عاديين. هذا يجعل قتلكما أقل تعقيدًا."

– "لا. نحن من «مجموعة العمليات الخاصة» (GOPES). عملنا تحت قيادة الرائد غامبوا. جئنا هنا لحماية عائلته من «البدلات السوداء»."

أبقى كورت مسدسه ثابتًا نحو الرجلين الممددين أمامه.

– "هراء. قُتل كل أفراد فريق إيدي على اليخت."

– "لا. لقد نجونا. واختبأنا لحماية عائلاتنا."

ركع كورت فوق المتحدث.

– "إذن من أين جاء ذلك الدم على بنطالك؟"

كان كورت قد لاحظ بقعًا حمراء متناثرة على فخذ الفيدرالي.

همّ الضابط بالنهوض، لكن جينتري ضغط بفوهة المسدس على مؤخرة رأسه، مجبرًا الرجل على الحديث ووجهه في التراب؛ أزاحت كلماته الغبار والرمال عن الأسفلت الأسود مشكلة دائرة صغيرة.

– "كنا قادمين إلى هنا بسيارتي، لكننا سمعنا بثًا على قناة الراديو التي تستخدمها «البدلات السوداء». كان اثنان من القتلة الفيدراليين قادمين لقتل إيلينا. قتلناهما على بعد خمسة عشر كيلومترًا جنوب هنا، ثم أخذنا دراجتيهما."

لم يعرف كورت ماذا يصدق، لكن نبرة الرجل كانت مقنعة للغاية. ورغم أن محادثتهما كانت مزيجًا من لغتين، إلا أن جينتري التقط نبرة صدق. لكنه أراد الحصول على انطباع من الرجل الآخر. ركع بجانب الفيدرالي الملثم الآخر، الذي لم يتحدث بعد. وضع فوهة المسدس على مؤخرة عنقه.

– "هل تتحدث الإنجليزية؟"

هز الرجل رأسه. تحول كورت إلى الإسبانية.

– "بويينو (حسناً)، وماذا لديك لتقوله عن نفسك أيها كابرون (الوغد)؟"

لم يُجب الرجل، لكنه نظر لأعلى نحو كورت، مديرًا رأسه ببطء ليفعل ذلك. زحفت يده اليمنى على الأسفلت الساخن نحو وجهه، وخلع خوذته، ونظارته الشمسية، ثم قناعه.

كان خده الأيمن وفكه باللونين الأسود والأزرق، كدمة قبيحة بحجم قبضة اليد. فكر كورت في الرجل الذي كان في المبنى قيد الإنشاء مقابل حديقة هيدالغو. الرجل الملثم الذي أفقده وعيه بلكمة على الفك.

– "هل أنا من فعل ذلك؟"

قال الضابط:

– "سي (نعم)."

مع التورم، بدا صوته وكأن كرة تنس محشورة في فمه.

– "هاه..."

فكر كورت في الأمر. هل يعقل أن الرجل كان هناك حقًا لتوفير الحماية للعائلة؟ لم تكن هناك طريقة ليعرف؛ لقد أفقده الوعي تمامًا قبل بدء القتال.

اكتفى كورت بالقول:

– "آسف."

رد الرجل:

– "نو هاي بروبليما (لا مشكلة)."

لكن جينتري تخيل أن فك الرجل سيشكل مشكلة له لبضعة أيام.

– "ما اسمك؟"

– "مارتن. الرقيب مارتن أوروزكو فرنانديز."

وبالعودة إلى الضابط الأول، سأل كورت:

– "ماذا عنك؟"

– "أنا الرقيب رمسيس سينفويغوس كورتيلو."

– "أين تعلمت التحدث بالإنجليزية بهذه الطلاقة يا رمسيس؟"

– "عندما كنت صبيًا عشت ست سنوات في إلباسو، تكساس."

– "هل أنت أمريكي؟"

– "لا."

– "فهمت. كنت مهاجرًا غير شرعي؟"

نظر رمسيس إلى الأمريكي الجاثي فوقه.

– "أفضل مصطلح «مهاجر غير موثق»."

– "أراهن أنك تفضل ذلك."

ابتسم المكسيكي خلف قناعه وقال:

– "وماذا عنك؟ رأيت ما فعلته اليوم. أنت قاتل محترف (assassin)."

– "أفضل مصطلح «جلاد لا يملك أوراقًا ثبوتية»."

أومأ رمسيس برأسه.

– "أنت مع الحكومة الأمريكية؟"

– "لا. أنا مجرد صديق قديم لإيدي تعثر وسقط وسط هذا الهراء كله."

– "وبقيت للمساعدة؟"

تحدث رمسيس بالإسبانية إلى مارتن للحظة، ثم وجه انتباهه مرة أخرى إلى الـ «غرينغو» المسلح.

– "هل تمانع إن وقفنا؟"

– "ببطء."

هذه المرة سمح لهما كورت بالوقوف، لكنه أبقى المسدس موجهًا نحوهما. نفضا الحصى والغبار عن زيهما الأسود.

– "ماذا كنتما تفعلان في حفل التأبين؟"

شرح رمسيس:

– "شككنا في حدوث متاعب. جئنا فقط لمراقبة عائلات زملائنا. تولى مارتن المراقبة من أعلى؛ وبقيت أنا في الأسفل وسط الحشد. رأيت المسلحين يقفون في الجوار، عملاء معروفين لـ «البدلات السوداء». ثم ظهر دي لا روشا بنفسه."

سأل كورت، وقد ظن أنه يعرف الإجابة:

– "ثم؟"

– "ثم... أطلقت عليه النار. مرتين."

أضاف بنبرة حيرة لا تخطئها الأذن:

– "لم أخطئ الهدف. لا أعرف كيف نجا. ثم بدأت المجزرة."

صدقه كورت. عينا هذا الرجل، صوته، لغة جسده، كل ذلك كان يشير إلى أنه محتار بشأن ما حدث تمامًا مثل جينتري. أعاد كورت مسدسه إلى بنطاله وطلب من الفيدراليين اللحاق به إلى داخل منزل إيدي. كان الجميع قد عادوا بالفعل إلى داخل البوابة؛ انتهى آل غامبوا من تحميل شاحنة الـ F-350 الآن، ومرة أخرى، كانت لورا تؤم عائلتها في الصلاة، شاكرة الرب على انتهاء المواجهة في الخارج.

سأل كورت الشرطيين:

– "إذن خطتكم هي التظاهر بالموت والتسكع هنا؟ لا تبدو خطة محكمة."

– "لا يمكننا الذهاب إلى منازلنا؛ لا نريد أن ينكشف أمر نجاتنا. لو عُرف ذلك... ستنتهي عائلاتنا مثل الآخرين اليوم. نحن رجال ميتون – نعلم ذلك – لكن عائلاتنا في أمان. وإذا تمكنا من المساعدة في حماية عائلة الرائد غامبوا، فتلك ميتة نتشرف بها. إذا كنتم ستغادرون الآن، فسنرافقكم بالدراجات لتأمين الطريق أمامكم. سيتعين علينا التخلي عن الدراجات النارية في وقت ما، لكن في الوقت الحالي أعتقد أننا أكثر أمانًا باستخدامها."

أومأ كورت برأسه. للحظة فكر في استخدام هذا كذريعة للمغادرة مرة أخرى. الآن أصبح لدى إيلينا أصدقاء، رجال أكفاء سيحمونها وعائلتها. لكن لا، أدرك كورت أنه يحاول فقط مساعدة نفسه بهذا التفكير؛ ربما كان هذان الرجلان أفضل من نصف دزينة من رجال الشرطة الفاسدين العاديين أو قتلة الكارتل، لكن هناك حشودًا من رجال الشرطة الفاسدين وقتلة الكارتل يجوبون المكان. لم يكن بوسع كورت أن يغسل يديه من هذا الوضع برمته لمجرد أن آل غامبوا حصلوا على بندقيتين إضافيتين في صفهم.

لا، سيبقى بجانبهم طالما احتاجوا إليه، وسيعمل مع هذين الرجلين.

لكنه، كما أخبر نفسه، سيبقي عينه عليهما. الثقة لم تكن مطروحة على الطاولة.



24

تجاوزت الساعة التاسعة حين بلغوا "الهاسيندا". قطعوا المسافة كاملة بخزان وقود واحد؛ إذ لم يتوقف كورت بتاتاً، وأثبتت شاحنة الدفع الرباعي الضخمة قيمتها التي لا تُقدر بثمن في تلك الطرق الجبلية الصخرية الوعرة. وكما وعدت لورا، كان هذا المخبأ معزولاً تماماً، يحتضنه وادٍ صغير يحميه من الجهات كافة. كانت القافلة الصغيرة قد مرت ببلدة "تيكويلا" قبل ثلاثين دقيقة، ثم سلكت طريقاً عبر أميال وأميال من مزارع نبات "الأغاف" لتصل إلى هنا، غير أن التضاريس المحيطة بالعقار نفسه كانت عبارة عن غابات كثيفة وحقول غير مستصلحة.

اتبع كورت إرشادات لورا، متصدراً الطريق بشاحنة إيدي، تتبعه دراجتان ناريتان من طراز "سوزوكي". انعطفوا من الطريق ذي الحارة الواحدة إلى ممر مرصوف بالحصى ينتهي عند بوابة حديدية علاها الصدأ، تحت قوس مبني من حجارة مبيضة. وعلى جانبي القوس، امتد جدار من الجص الأبيض يتلاشى في ظلام المساء، وخمن كورت أنه يحيط بالعقار كاملاً. ترجل رمسيس عن دراجته وقطع القفل السلسلي بقطاعة براغي وجدها في صندوق الأدوات خلف شاحنة إيدي؛ ثم دفع البوابة، فسمع جينتري صرير مفاصلها الصدئة المحتجّ رغم أن نوافذ شاحنته كانت مغلقة بإحكام لاتقاء هواء الجبل البارد.

استأنف الشرطيان ركوب دراجتيهما ليتصدرا الركب الآن؛ وتبعتهما القافلة المكونة من ثلاث مركبات عبر ممر طويل وتليّ ممهد بحجارة "الكوبرستون" التي نأت بها الأرض المتموجة عن مكانها. نمت الأعشاب الضارة في حزم كثيفة بين الحجارة المخلخلة وغير المستوية، وكانت الأشجار المهملة على جانبي الممر تحتك بجوانب الشاحنة بينما كانوا يصعدون نحو المبنى الرئيسي. بدا العقار وكأن أحداً لم يسكنه منذ سنوات؛ إذ لم تظهر المشاهد التي أنارتها مصابيحهم الأمامية سوى نباتات برية، وتلال قاحلة غطاها الصنوبر والصبار والسرو وأشجار الليمون والبرتقال، إضافة إلى الكروم المتدلية والأعشاب الطويلة.

أوضحت لورا أن العقار بأكمله، سواء داخل الجدران أو لأميال خارجها، كان في السابق "هاسيندا" ضخمة، وهي مزرعة لنبات "الأغاف" بُنيت في عشرينيات القرن التاسع عشر. كان المجمع المسور يقع في قلب المزرعة، وأشارت بيديها إلى عدة مبانٍ حجرية مهدمة في الغابة الخلفية، غطتها الكروم وأزهار "الجيرانيوم" و"الأزاليا".

سرعان ما وصلوا إلى "البيت الكبير"، وهو المنزل الرئيسي في مجمع "الهاسيندا". خُيل لـ جينتري أن البيت مسكون بالأشباح في هذا الظلام، بجدرانه الوردية المتآكلة وجصه الأبيض العتيق وحجارته المحطمة. تسلق نبات "المونيدا" – وهو لبلاب أخضر ينمو بسرعة وكثافة – أركان البناء، والتف حول الأعمدة الممتدة على طول الشرفة الأمامية المقوسة، وتسلل عبر المشغولات الحديدية في شرفة الطابق الثاني ليصبح جزءاً من العمارة نفسها. توقفت الشاحنة والدراجتان في ممر حصوي مستدير تتوسطه نافورة قديمة. فوق النافورة، انتصب تمثال لملاك صخري، في نصف حجم امرأة تقريباً؛ كانت أجنحته محطمة، وعيناه البيضاوان تحدقان في كورت عبر الزجاج الأمامي

للسيارة. أطفأ المحرك والمصابيح، فبدت النافورة أسفل الملاك – حتى في ضوء القمر – وكأنها غارقة في الطحالب والنفايات.

فجأة، ظهر ضوء وحيد في نافذة بالطابق الثاني؛ كان باهتاً ويرتجف مثل لهب شمعة.

ثمة أحد هنا.

قالها كورت وهو يلتفت إلى لورا، فاتسعت عيناها دهشة.

– "هذا مستحيل، لا يمكن أن يكون أحداً. لم يسكن أحد هنا منذ ثلاث سنوات."

ترجل جينتري من الشاحنة وبدأ يسير فوق الحصى الذي أحدث صوتاً تحت قدميه. تبعته لورا مسرعة وأمسكت بذراعه؛ كانت أصابعها صغيرة لكنها قوية، وحازمة.

– "علينا الرحيل. لا يمكننا تعريض حياة أي شخص آخر للخطر."

– "وإلى أين سنذهب؟ إيلينا مستلقية في حوض الشاحنة منذ أربع ساعات في طرق وعرة. إنها بحاجة للراحة. علينا البقاء هنا، الليلة على الأقل."

بدت ملامح القلق على وجه لورا، لكنها لم تستمر في الجدال. تبعت "خوسيه" والضابطين المكسيكيين صعوداً عبر درجات متآكلة نحو باب ضخم من خشب البلوط والحديد. طرقه جينتري، بينما كانت يده اليمنى تحوم فوق مقبض المسدس المحشور في حزامه. تقدمت لورا لتصبح بجانبه وقالت:

– "قد يكون حارساً أو مزارعاً من أقرب قرية تسلل إلى هنا. دعني أتحدث إليهم."

– "تفضلي."

بعد دقيقة، فُتح الباب ببطء؛ ووقف رجل في ممر مظلم مرصوف بالبلاط بعيداً عن الباب، وكانت فوهة بندقية صيد طويلة مصوبة نحو

صدر كورت جينتري. تسلل ضوء القمر إلى الداخل، ليضيء الرجل العجوز وكأنه شبح رمادي.

لم يسحب جينتري مسدسه؛ فقد تفهم ريبة الرجل، وتمنى من كل قلبه أن تنجح شقيقة إيدي في شرح الموقف لهذا العجوز سريعاً بما يرضيه.

شهقت لورا صدمة، ووضعت يدها الصغيرة على فمها، ثم استجمعت شتات نفسها وقالت بصوت خفيض:

– "طاب مساؤك يا سيد كوراليس. هذه أنا، لورا، زوجة غييرمو."

– "غييرمو؟"

– "نعم، غييرمو. ابنك."

كان الرجل طاعناً في السن؛ هذا ما استنتجه كورت على الفور. كان أكبر سناً من إرنستو بكثير، وله شارب أبيض يتدلى على جانبي وجهه. وبدا من هيئته أنه كان نائماً على وجهه، فقد كان شعره الخشن يتطاير في اتجاهات عشوائية.

– "نعم يا سيد كوراليس. كيف حالك؟"

سأل العجوز:

– "هل غييرمو هنا؟"

أجابت لورا بهدوء:

– "لا يا سيدي. غييرمو ليس هنا."

في تلك اللحظة، ظهر طيف شبحي آخر خلف الرجل العجوز في بقعة ضوء القمر المنبعثة من الباب المفتوح. تحرك الخيال نحو الباب من أعماق المنزل.

صاح صوت امرأة عجوز:

– "لوريتا؟"

– "إينيز، كيف حالكِ؟"

– "أنا بخير يا صغيرتي."

اندفعت العجوز إلى ضوء القمر وعانقت شقيقة إيدي بقوة، ثم قالت:

- "يا لويس، أنزل السلاح ودعهم يدخلون."

خفض العجوز سلاحه، وتقدم للأمام وعانق كورت. قال بالإسبانية:

- "غييرمو، يا بني. لقد افتقدتك."

اتضح على الفور، من كلمات السيد كوراليس وتصرفاته، أن والد زوج لورا يعاني من نوع من الخرف.

بعد خمس دقائق، كان السكان والضيوف الأحد عشر جميعاً يجلسون في غرفة جلوس واسعة تضاء بالشموع. كان هناك درج يؤدي إلى طابق ثانٍ يطل على الغرفة المعتمة، لكن الظلام كان حالكاً فلم يتمكن جينتري من رؤية ما وراء الدرابزين. أحضرت إينيز، حماة لورا، زجاجة من عصير البرتقال الطازج الفاتر وسكبته في أكواب مكسورة وأقداح بلاستيكية، ووضعت هذا القِرى على طاولة قهوة خشبية طويلة. وُضعت بجانبه زجاجة "تيكيلا"، لكن وحده إغناسيو الصامت والمتجهم هو من مزج العصير بجرعة منها.

كان "البيت الكبير" ضخماً، لكنه بدا وكأنه ينهار حرفياً فوق رؤوس الزوجين المسنين. تدلت خيوط العنكبوت الكثيفة في الزوايا المظلمة لغرفة الجلوس، وغطى الغبار الأرضيات، بينما كانت الأثاثات القديمة – رغم متانة صنعها من جذوع البلوط والأرز – تئن تحت وطأة الجلوس عليها. كانت الأسقف عالية، والأرضيات من البلاط الحجري، وفاحت في الهواء المعتم رائحة شمع العسل والغبار والعفن. كانت الأصوات تتردد أصداؤها كلما ارتفعت فوق مستوى الهمس، وساد المكان جو يشبه الأديرة؛ لم يتخيل جينتري العيش في مكان موحش كهذا.

كانت سحالي سوداء وخضراء رشيقة تنسلّ على الجدران والأسقف، تظهر وتختفي في الظلال الطويلة التي تلقيها أضواء الشموع.

لم يرغب كورت في السؤال، لكن تولد لديه انطباع قوي بأنه لا توجد كهرباء في المنزل باستثناء مولد غاز صغير يسمع ضجيجه خارج المطبخ. كانت إينيز تحمل مصباحاً يدوياً صغيراً تستخدمه لتصل إلى الشمعدانات في الزوايا المظلمة للغرفة الكبيرة، فتشعلها بأعواد ثقاب خشبية، مما أضفى مزيداً من الضوء وهالة أكثر رعباً على المشهد.

جلس لويس كوراليس في مقعد ضخم بمساند جانبية، وكانت عيناه تتنقلان في أرجاء الغرفة، يراقب ضيوفه المتأخرين. أدرك جينتري أن عقله كان في مكان آخر تماماً، ولم يستغرق الأمر طويلاً ليدرك أن العجوز الأخرى لم تكن في كامل قواها العقلية هي الأخرى. ومع ذلك، وبينما كانت لورا تشرح بعناية وصدق سبب ظهورهم، بدت إينيز واعية بما يكفي لتفهم الورطة التي وضعتها فيها زوجة ابنها.

دعت إينيز كوراليس الجميع للبقاء بقدر ما يشاؤون، معلنة أن الحاضرين جميعاً في "حفظ الله"، ثم قادت المجموعة إلى ممر معتم، وطلبت منهم التكاتف حول "نيتشو" – وهو محراب صغير في الجدار – حيث وُضع تمثال خشبي صغير للسيد المسيح وسط حلقة من شموع النذور. استغرقت بضع دقائق لإشعالها، فأنار توهج أحمر الضريح الصغير ووجوه الجميع، ثم طلبت من لورا أن تقود المجموعة في الصلاة. لم يفهم كورت الكثير منها، وربما لم تكن لتألف أذناه الكلمات حتى لو كانت بالإنجليزية، لكن الجميع بدا وكأنهم يحفظون اللحن؛ وسمع تفاوت درجات الإيمان في الأصوات من حوله.

بعد الصلاة، ذهبت لوز مع إينيز لمساعدتها في إيجاد مكان مريح لتستلقي فيه إيلينا. لا بد أن تلك الرحلة الوعرة كانت قاسية على المرأة

الحامل، لكن كورت لاحظ بتقدير أنها لم تشتكِ مرة واحدة، بل ولم تجادل طوال الطريق.

انتحى جينتري بـ لورا جانباً بينما كانوا يفرغون حقائب الظهر من السيارة، وسألها بصوت خفيض:

– "ما خطبهما؟"

– "من؟"

– "الزوجان العجوزان."

هزت كتفيها وقالت:

– "إنهما (مجانين) قليلاً."

– "(قليلاً) فقط؟"

– "هذه الهاسيندا ملك لعائلة كوراليس منذ أكثر من مئتي عام. عاش لويس هنا طوال حياته؛ كان (خيمادور)، أي مزارع (أغاف). لكنه مصاب بألزهايمر. أما إينيز.. فأعتقد أنها تفقد عقلها هي الأخرى. انهارا تماماً بعد وفاة غييرمو؛ فقد كان كل شيء بالنسبة لهما."

– "لماذا ظننتِ أنهما لن يكونا هنا؟"

– "لقد انتقلا إلى غوادالاخارا، إلى دار للمسنين. لكن إينيز أخبرتني أنه لم يكن لديهما المال للبقاء، فعادا إلى هنا. لم أكن لأحضركم إلى هنا لو علمتُ أنهما–"

– "لا بأس."

– "بل بأس شديد؛ ليس من الأمان بقاؤهما هنا."

– "ربما يمكنهما الذهاب إلى مكان ما أثناء وجودنا هنا."

هزت لورا رأسها وقالت:

– "انظر إليهما يا خوسيه. إلى أين سيذهبان؟ علينا حمايتهما."

– "أنا لا أعِدكِ حتى بقدرتنا على حماية أنفسنا. إذا اكتشف (دي لا روشا) مكاننا، فسيضرب هذا المكان بقوة. سيقتل قتلتُه المأجورون الجميع ليصلوا إلى إيلينا."

بدت لورا وكأنها على وشك البكاء، لكنها بدلاً من ذلك اكتفت بالتحديق في الأفق البعيد، نحو الغابة في مقدمة العقار.

– "هذا منزلهما؛ إذا كان على أحد الرحيل، فهو نحن."

– "أجل، لكننا نحن من يحاول زعيم المخدرات قتلهم، لذا سنبقى هنا حتى نقرر وجهتنا التالية."

لم تتغير تعابير لورا، وفي النهاية التفتت إلى كورت وقالت:

– "الأمر كله بيد الله على أي حال."

– "ربما، ولكن مع احترامي التام له ولقدره، سأتأكد بنفسي من إغلاق الأبواب كافة."

قبيل العاشرة، تجول كورت في أرجاء العقار داخل الجدران مع مارتن ورمسيس. اتفق الثلاثة على أن هذه "الهاسيندا" الكبيرة والمنعزلة في الجبال مكان رائع للتخفي، لكنها ستكون موقعاً بائساً للدفاع إذا ما تأزم الموقف. كانت الأسوار المحيطة بالعقار بارتفاع عشرة أقدام، لكنها مغطاة بالكروم ويمكن تسلقها بجهد يسير؛ الشرفة الخلفية الضخمة والحديقة يمكن مراقبتهما من شرفة الطابق الثاني، لكن العقار يمتص الكثير من النباتات والأشجار البرية والتماثيل، إضافة إلى قناة مائية حجرية عمرها أربعمئة عام وتعريشة طويلة من القرميد، مما يوفر للأعداء المتقدمين نحو "البيت الكبير" غطاءً وحماية من أي اتجاه تقريباً.

كانت هناك مبانٍ عديدة داخل الأسوار؛ كنيسة حجرية بسيطة بسقف قرميدي، ومخزن للحديقة في حجم الكثير من المنازل المكسيكية، وحظيرة خشبية متهالكة وإسطبلات، مما جعل هذه الهاسيندا تبدو كقرية صغيرة مسورة أكثر من كونها قلعة.

كان من الجلي لـ كورت أنهم لن يستطيعوا البقاء هنا طويلاً. إذا وجدهم "البدلات السوداء" هنا، فسيتم تطويقهم، واختراق الجدران، واقتحام المبنى.

بينما كانوا يسيرون في الظلام، يتفقدون السور المحيط للتأكد من إغلاق البوابات بإحكام وعدم وجود ثغرات، تعثروا في نباتات "الأغاف" الحادة والمغزلية. وبينما كانوا يبذلون قصارى جهدهم لشق طريقهم، سأل كورت رمسيس:

– "كيف نجوتما من يخت (دي لا روشا)؟"

أجاب المكسيكي بهدوء، وكاد صوته يضيع في الظلام:

– "كان دورنا هو قطع الطريق على هرب (دي لا روشا) عبر المروحية وقتل الحراس على السطح العلوي. كان (الرائد) في الأسفل مع فريق يهاجم غرفة النوم. كل ما أعرفه هو أنه تحدث عبر اللاسلكي وأمرنا بالخروج من اليخت فوراً، وأن الأمر كان فخاً. كنا فوق مهبط المروحيات، فقفزنا كلانا في الماء، ثم انفجر اليخت. استغرق وصولنا إلى الشاطئ عشر ساعات."

– "إذن أنتما بالتأكيد لم تحضرا القنبلة."

هز رمسيس رأسه مؤكداً:

– "لا، تلك (منتيرا).. أي كذبة؟ نعم، دخلنا لقتل (دي لا روشا)، ولم تكن لدينا أي نية لترك أي شخص حياً على متن اليخت. هذه حرب قاسية؛ أعداؤنا لا يأخذون أسرى، فلماذا نفعل نحن؟ لكن لا.. لم نتسلل نحو (لا سيرينا) لنضع قنبلة عليها. لو كان ذلك صحيحاً، لألصقنا القنبلة بالهيكل وسبحنا بعيداً؛ لم يكن ثمة داعٍ للصعود على متنها."

صدقه كورت، فذلك كان التفسير المنطقي الوحيد. بطريقة ما، تم تسريب خبر محاولة الاغتيال لـ (دي لا روشا).

– "من كان يعلم بالهجوم على (لا سيرينا)؟"

هز رمسيس كتفيه. كانوا قد وصلوا إلى بركة كبيرة تمتد حتى حافة العقار تقريباً؛ ساروا تحت أشجار الصفصاف الباكية على طول

جانبها البعيد، واضعين أيديهم اليمنى على جدار العقار المغطى بالكروم لحفظ توازنهم على الضفة الضيقة.

– "فقط الرائد غامبوا ونحن الاثنين، والخمسة الآخرون في فريقنا، بالإضافة إلى من هم أعلى منا رتبة، ليس في قوات (GOPES) ولكن في الحكومة الفيدرالية."

– "ومن يكون هؤلاء؟"

– "المدعي العام فقط، والمدعي الخاص المكلف بالمشروع."

– "إذن هو واحد من هذين الرجلين؟"

ضحك رمسيس قليلاً وهم يسيرون:

– "يمكنني حصر الأمر أكثر. كان الرائد غامبوا يشعر طوال الوقت أن المدعي العام يعمل لصالح كونستانتينو مادريغال."

توقف كورت في الظلام للحظة:

– "كان إيدي يعلم أن رئيسه يأمره بتنفيذ رغبات كارتل مادريغال؟"

هز رمسيس كتفيه، لكن كان من الواضح أنه يريد لـ كورت أن يفهم موقفهم:

– "كان الرائد غامبوا يقول دائماً: (لن نصل أبداً إلى الرجل الأخير، لأن الرجل الأخير هو من يخطط لكل هذا). كان.. ما هي الكلمة؟ (فاتال) بخصوص هذا الأمر."

صحح له جينتري:

– "قدرياً (Fatalistic)."

– "نعم. كانت المعلومات الاستخباراتية دقيقة جداً، وكان يعلم أن (الكارتيلات) تستخدمنا كقوة وكيلة. كان يعلم أن مادريغال ورجاله سيكونون آخر من في قائمة الكارتيلات، لذا افترض أن مادريغال هو من يحرك خيوطنا. لكننا لم نتوقع أبداً أن نتعرض للغدر في عملية (دي

لا روشا). الشيء الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه هو أن المدعي الخاص، ربما، كان في جيب (دانيال دي لا روشا)."

– "إذن ما تقوله هو أن المدعي العام يعمل لحساب مادريغال، والمدعي الخاص يعمل لحساب (دي لا روشا)."

أكد رمسيس قوله:

– "ونحن عالقون في المنتصف."

تمتم مارتن عبر فكه المتورم:

– "بالضبط (Exactamente)."

كان قد التقط ما يكفي من الإنجليزية ليدلي بدلوه في الأمر.

قال كورت بصوت مسموع ولكن لنفسه:

– "لا يمكن الوثوق بأي شخص في السلطة، أليس كذلك؟"

ضحك رمسيس بلا مرح:

– "هل أدركت هذا للتو؟ حسناً يا صديقي، الآن يمكنني قولها: أهلاً بك في المكسيك."

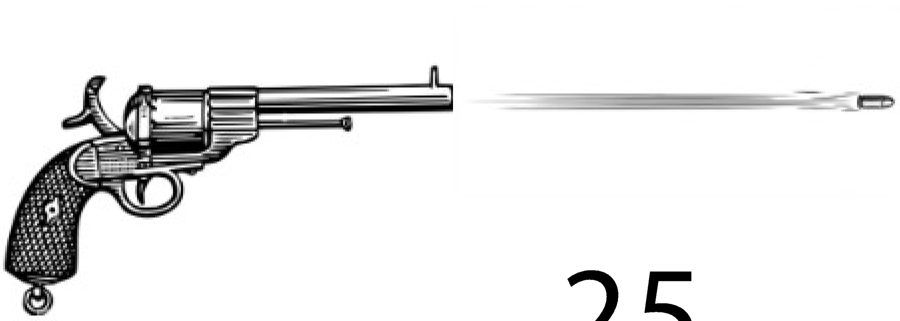
يا للهول، فكر كورت. لقد عمل في عمليات خطيرة في حياته، وتعامل مع أوغاد يلوحون بأعلام الحرية أو العدالة أو الشرف لإخفاء أهدافهم الدنيئة، لكنه لم يواجه قط فساداً متجذراً في مجتمع بهذا الشكل الكامل. إذا كان كل ما قاله "تشاك كولين" و"رمسيس" صحيحاً – وهو أمر مرجح تماماً بالنظر لما شهده وعاشه خلال ثلاثين ساعة في غرب المكسيك – فإن آل غامبوا ليس لديهم أحد يمكنهم الوثوق به.

فكر كورت في مدى سوداوية موقف إيدي وهو يعمل عالماً بهذه الظروف، متلقياً معلوماته من رؤساء فاسدين لهم أجنداتهم الخاصة من أجل تنفيذ اغتيالاته. لكن كورت تفهم الأمر؛ كانت تلك هي القواعد هنا.

قواعد بائسة، لكنها كانت القواعد الوحيدة المتاحة.

كان إيدي يعلم طوال الوقت أنه في خطر، وأنه قد توغل بعيداً جداً. تساءل كورت إن كان صديقه القديم يتوقع أصلاً أن يعيش طويلاً بما يكفي ليرى ابنه. لا سبيل لمعرفة ذلك، لكن التفكير في ذلك الثقل الجاثم على صدر صديقه المرح أحزن كورت بشدة.

نمت داخل كورت عزيمة جديدة. عزيمة على.. إنقاذ شيء ما لـ إيدي غامبل. ولـ "تشاك كولين". نصر صغير، رد اعتبار بسيط، وخزة في عين أولئك الذين سلبوا كل شيء من هذين الرجلين الطيبين.



25

عندما عاد كورت ورجال فرقة «GOPES» إلى المنزل الكبير، تفقدوا المبنى بحثًا عن أفضل المواقع لنشر الحراس ولمراقبة المحيط. كانت العمارة الإسبانية القديمة – كتلك التي شيدت في المكسيك في سبعينيات القرن الثامن عشر – تستلهم الكثير من الأبنية الموريسكية التي زينت أفق إسبانيا الأندلسية. ومن أبرز سماتها «الميرادور» (mirador)؛ وهي شرفة أو فناء مكشوف، غالبًا ما يكون مسقوفًا ومزينًا بقنطرة تمنح إطلالة شاملة على المكان. كان هذا المبنى مشيدًا على شكل حدوة حصان، يواجه جزؤه المقعر جهة الجنوب، محيطًا بالفناء الواسع والمسبح المستطيل. وكانت هناك ثلاث شرفات في الطابق الثاني من المنزل الكبير، تطل على الممر الأمامي، والفناء، والجدار الخلفي، وبستان أشجار الفاكهة الكثيف الذي ينتهي عند الجدار المحاذي للبركة.

لم تكن المراقبة من الأعلى بالأمر العسير هنا.

أجرى الرجال جردًا سريعًا لأسلحتهم. ومن بين الأشخاص الأحد عشر المتواجدين في المنزل، اقتصرت الترسانة المتاحة على رشاشين قصيرين من طراز «كولت» بحوزة رجلي «GOPES»، وبندقية الصيد العتيقة مزدوجة الفوهة الخاصة بـ لويس كوراليس مع علبة ذخيرة من طلقات صيد الطيور، ومسدسي «بيريتا» عيار 9 ملم مع مخزنين لكل منهما، ومسدس «ماغنوم .357» ضخم يحوي ثلاث طلقات حية.

لم يملكوا أية معدات للرؤية الليلية، بل مجرد كشافين يدويين رخيصين ومتهالكين، ولا أية أسلحة يمكنها حقاً إصابة هدف من مسافة بعيدة.

نعم، أدرك جينتري أن الأمر قد يتحول إلى كارثة إن هاجمهم الأوغاد. وإن كان الهجوم شرسًا، فسينتهي كل شيء في غضون دقائق.

انعقد اجتماع ثانٍ في غرفة الجلوس الكبيرة عند العاشرة والنصف مساءً. كان لويس كوراليس قد عاد إلى غرفة نومه ليستريح، لكن بقية المجموعة كانت حاضرة بالكامل. تمددت إيلينا على الأريكة رافعة قدميها المتورمتين على وسادة بينما تولت حماتها تدليكهما، في حين وقف البقية مستندين إلى الجدار أو جالسين على الكراسي والطاولات التي كساها الغبار. سلم كورت مسدس مارتن لـ لورا؛ فقد علمتها أكاديمية الشرطة وشقيقها الشرس والمفرط في حمايتها كيفية إطلاق النار، وأدرك كورت من تصرفاتها في فالارتا أنها لا تتردد في تصفية الأوغاد الذين يستحقون الموت. أما المسدس الآخر فكان من نصيب دييغو الشاب. لم يسبق له أن أطلق النار من قبل، لذا أخذته لورا جانبًا وأعطته درسًا سريعًا في تحديد موقع صمام الأمان ومفهوم مخزن الذخيرة وآلية التصويب.

لم يتوقف إغناسيو عن شرب التكيلا منذ الجولة الأولى قبل ساعتين، فقرر كورت والفيدراليان أنه لن يكون ذا نفع في أي معركة. وبغضب، أرسل إرنستو ابنه البالغ من العمر خمسة وأربعين عامًا إلى غرفة نوم في الطابق الثاني.

تحدثوا عن الوضع الأمني لبعض الوقت، رغم أن آل غامبوا استبعدوا بشدة احتمال تعرضهم لأي خطر هنا في المزرعة. لكن كورت أصر على ضرورة الاستعداد بأقصى ما يمكن، وبعد أن استجوب إينيز حول الأماكن الآمنة في العقار، أرشدت المجموعة إلى باب متفرع من

المطبخ يقود إلى درج ضيق وشديد الانحدار، يهبط إلى ممر جوفي مظلم. ينتهي الممر بقبو حجري طويل، كان يُستخدم في الماضي – عندما كانت المزرعة قيد التشغيل – لتخزين براميل التكيلا. نقلت النساء ما يكفي من الأغطية إلى الأسفل للجميع، ليخلقن مخبأً ومهجعًا للنوم، لكن إيلينا ولوز وإينيز فقط هن من استلقين للنوم فورًا.

وافق كورت على القبو كخط دفاع أخير؛ فقد رأى فيه ميزة كونه مخفيًا إلى حد ما، وأي قوة مهاجمة ستضطر لحشد كل رجالها في ممر يمكن للمدافعين عن القبو تحويله إلى مصيدة موت مميتة.

لكنه أدرك أيضًا أنه لا يوجد مخرج آخر، ولا سبيل للهروب.

تبًا للأمر، قرر في نفسه. هذا أقصى ما يمكننا فعله في هذا المنزل العملاق المظلم والموحش. لم يملكوا ترف اختيار مواقعهم الدفاعية.

أخذ كورت بندقية لويس واحتفظ بمسدسه المسروق. قبل أن يعود الرجل العجوز إلى فراشه، كان قد تجول في المكان لبعض الوقت، مناديًا كورت باسم غييرمو عدة مرات أخرى. في الصباح، من يدري كيف سيفسر ما يجري في منزله؟ لم يكن جينتري ليسمح لرجل عجوز مشوش بالتجول في المزرعة حاملاً بندقية صيد. فلدى كورت ما يكفي من المشاكل المحتملة خارج أسوار المزرعة.

كانت البندقية قديمة وبسيطة، والذخيرة التي تطلقها لن تكون فعالة إلا من مسافة قريبة جدًا، لكنها أفضل من لا شيء. كان قد طلب من مارتن رشاشه القصير، لكن الضابط المكسيكي نظر إلى الـ «غرينغو» وكأنه فقد عقله تمامًا.

تمتم من بين فكيه المتورمين:

– "لن أعطيك سلاحي."

لم يلمه كورت، ولم يكلف نفسه عناء سؤال رمسيس.

كانت هناك مسألة أمنية أخرى، مسألة كبيرة، ولم يرَ كورت طريقة جيدة للتعامل معها. فلكي يجدوا مخرجًا من هذه الورطة، أو

يستدعوا الصحفيين للمساعدة، أو يتواصلوا مع شرفاء الجيش أو أي شخص ذي سلطة لإنقاذهم، سيتعين على آل غامبوا استخدام الهاتف. وبطبيعة الحال، ستتصل إيلينا بأشخاص سيخضعون حتمًا لمراقبة تجار المخدرات، سواء بشكل مباشر أو عبر وسطاء في الشرطة الفاسدة. خشي أن يزل لسان أحدهم بكلمة تكشف موقعهم، أو أن يلفت انتباه الأشرار إلى أن إيلينا تختبئ في مكان ما، وأن هذه المزرعة الكبيرة المهجورة التي يملكها أصهار أخت زوجها قد تكون هي ذلك المكان.

بدا الربط بين هذه الخيوط أمرًا مستبعدًا، لكن كورت تعلم – خلال فترة عمله مع وضد تجار المخدرات – أن المال والقتل المتوفرين في هذه الصناعة يكفيان لتحفيز موارد وبشر لا حصر لهم للعمل. عدد كافٍ من الرجال يتتبعون خيوطًا كافية، سيقودون في النهاية أعداء آل غامبوا إلى «عائلة كوراليس».

وكان الرجل الرمادي يدرك استحالة انتصار فريقه في معركة مفتوحة، لذا كان يدعو الله أن يكون هو ومن سيضحي بحياته لحمايتهم قد رحلوا منذ فترة طويلة حين يصل الأوغاد.

لكن تلك كانت مشكلة الغد. منع الجميع من استخدام هواتفهم المحمولة أو الخط الأرضي في المزرعة قبل الصباح، لأن أي هجوم ليلي على هذا المكان المظلم سيكون بمثابة مجزرة.

قضى نيستور كالفو فترة ما بعد الظهر والمساء بأكملها في الفناء الخلفي الذي حوله إلى مكتب مؤقت. كانت مروحيتان تابعتان لدي لا روشا قد نقلتا رجال «البدلات السوداء» العشرين من بويرتو فالارتا إلى قصر فخم يقع على بعد ثلاثين دقيقة جنوب غرب غوادالاخارا.

هنا، وكما هو الحال في جميع المنازل الآمنة الخمسة عشر التي تملكها

قيادة الكارتل، كان المبنى والمناطق المحيطة به يخضعون لدوريات يشنها عشرات الحراس المسلحين، جميعهم مدربون عسكريًا على العمليات الخاصة. وهناك طوق أمني خارجي – يضم رجالاً من المشاة العسكريين ممن أثبتوا ولاءهم للتنظيم عبر سنوات من الخدمة – يجوبون الطرق السريعة والفرعية في شاحنات بيك أب. حتى على سطح القصر، كان هناك فريق حراسة مجهز بصواريخ مضادة للطائرات، تحسبًا لأي محاولة من الشرطة أو الجيش أو كارتل منافس لضرب المكان من الجو.

دخن كالفو سيجارًا كوبيًا واحتسى رشفات من رُم دومينيكي دافئ بينما كان يطبع ملاحظاته على حاسوبه المحمول، وظل على اتصال هاتفي دائم بجهات الاتصال الاستخباراتية التابعة له في بويرتو فالارتا، وعيناه تتابعان شاشة التلفاز الكبيرة التي أُحضرت من إحدى غرف النوم ووُصلت بطبق الاستقبال الفضائي عبر نافذة الحمام.

كان رئيس مخابرات «لوس تراجيس نيغروس» (البدلات السوداء) يراقب ردود الفعل الدولية على المجزرة، والاستجابة الحكومية الرسمية في مكسيكو سيتي، والقنوات الخلفية مع الجيش والحكومة والشرطة التي تبقيه على اطلاع دائم.

كان كل هذا العمل يتطلب عشرة رجال لإنجازه، لكن كالفو كان مسيطرًا، والحق يقال، كان يعشق هذا العمل. المؤامرات، المفاوضات، الظهور الإعلامي، والتهديدات في الغرف المغلقة. كان هذا عالمه، ووجد فيه متعة فائقة.

لكن كان لديه واجب آخر اليوم، وهو أمر أزعجه إلى أقصى حد. فـ دانيال الشاب، رئيسه، كان مهووسًا تمامًا بالعثور على جنين في بطن أمه وإزهاق روحه إرضاءً لنزوة صنم غبي. كان دي لا روشا يولي اهتمامًا بنظرات تمثال بلاستيكي على طاولة سريره يفوق اهتمامه

بتقارير رئيس مخابراته، وقد أمر كالفو بالتركيز على تنفيذ رغبات التمثال الصغير، بدلًا من إدارة شؤون ثاني أكبر كارتل في المنطقة.

ومن أجل هذه الغاية، ومن أجل هذه المهمة السخيفة والعبثية، أجرى كالفو واستقبل أكثر من خمسين مكالمة هاتفية خلال الساعات الثلاث الماضية. ورغم أن قلبه لم يكن في هذه المهمة، ورغم أنه وجد أن تشتيت انتباهه وتوجيه رجال «البدلات السوداء» ومواردهم ورأس مالهم السياسي نحو هدف تافه كحياة طفل لم يولد بعد هو مضيعة غبية وغير احترافية ومتهورة للوقت – إلا أن نيستور كالفو كان محترفًا من الطراز الرفيع، وقد قام بعمله.

وقام به على أكمل وجه، بدليل أنه تمكن بالفعل من تحديد الموقع التقريبي لعائلة غامبوا.

اندفع دي لا روشا خارجًا من الباب الخلفي. كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا، لكنه كان لا يزال يرتدي بدلته وربطة عنقه؛ وكان وجهه حول شاربه ولحيته المشذبة حليقًا ونظيفًا من أجل العشاء مع رجاله، فبدا في غاية النضارة تمامًا كما كان حين رآه كالفو لأول مرة في الثامنة من صباح اليوم السابق.

قال دي لا روشا:

– "قال إميليو إنك تريد التحدث؟"

أجاب كالفو:

– "سي (نعم) يا دانيال."

– "أخبرني أنك وجدت شيئًا!"

– "لقد وجدت شيئًا."

اقترب دانيال، وجلس على أريكة من الجلد والخيزران بجوار المكتب. صب لنفسه كأسًا من الرُم من طقم كريستال «ووترفورد» بجوار رئيس مخابراته، واستند بظهره إلى الأريكة ووضع ساقًا فوق الأخرى.

قال:

– "ما هو؟"

– "تعلم بالفعل أن القاتلين الفيدراليين اللذين نجيا من الـ غرينغو في حديقة هيدالغو قد قُتلا في ناياريت في طريقهما لتصفية إيلينا غامبوا."

– "نعم."

– "أفاد شهود عيان على الهجوم في الطريق بأن رجلين يرتديان زي الشرطة الفيدرالية قتلا رجالنا."

– "فيدراليون قتلوا فيدراليين؟"

– "سي (نعم)."

– "هل فعل رجال مادريغال هذا؟"

– "لا أظن ذلك."

– "إذن، إذا لم يكن رجال «لوس فاكيروس» (رعاة البقر)، فما تفسيرك للأمر؟"

– "لدي نظرية."

ابتسم دانيال قائلاً:

– "بالطبع لديك يا مستشاري."

أومأ كالفو برأسه وتابع:

– "على متن يخت «لا سيرينا» – كم كان عدد رجال القوة المهاجمة بقيادة العقيد غامبوا؟"

– "ثمانية."

– "وكم جثة تم انتشالها؟"

أومأ دي لا روشا مفكرًا، وارتشف الرُم الدافئ من الكأس الكريستالي وقال:

– "ست جثث فقط."

– "بالضبط. اثنان لم يُعثر عليهما قط. واليوم، يظهر فيدراليان ويقتلان رجلينا. وتشير جهات اتصالي في الشرطة الفيدرالية إلى عدم وجود حالات هروب في منطقة ناياريت؛ وجميع العناصر المناوبة في مواقعها. بالطبع، لا يزال من المحتمل أن يكون رجال خارج الخدمة هم من فعلوا ذلك، ولكن لماذا؟ الشخص الوحيد الآخر في المنطقة الذي يملك أي سيطرة على القوات الحكومية هو كونستانتينو مادريغال، ولكن إذا كان هؤلاء الرجال يعملون لصالح «رعاة البقر»... فاشرح لي كيف يستفيد مادريغال من قتل مأجورين في طريقهم لقتل زوجة ضابط فيدرالي ميت."

اقتنع دي لا روشا بنظرية كالفو، وقال:

– "كونستانتينو لا يفعل شيئًا لا يعود عليه بالنفع."

– "أتفق معك. أعتقد أن هناك احتمالاً كبيرًا بأن اثنين من رجال غامبوا لا يزالان على قيد الحياة، وقد نجوا بطريقة ما من الانفجار على يخت «لا سيرينا»، وقتلوا رجلينا، وأنقذوا آل غامبوا من الشرطة المحلية والجيش في سان بلاس، وهم الآن يعملون على حماية ما تبقى من عائلة إدواردو غامبوا."

– "إلى جانب غرينغو، على ما يبدو."

– "نعم."

– "حسنًا... إلى أين يقودنا كل هذا؟"

كان كالفو قد فتح خريطة طرق على المكتب، فأدارها نحو الزعيم، وبينما انحنى دانيال إلى الأمام، وضع نيستور إصبعًا مشذبًا على مدينة في الداخل.

قال دانيال:

– "تيكويلا؟ اشرح لي."

– "شوهدت دراجتان ناريتان من طراز سوزوكي تابعتان للشرطة الفيدرالية، تمامًا كتلك التي يملكها رجالنا، على الطريق بالقرب من

تيكويلا. وكانت برفقتهما شاحنة فورد كبيرة، مشابهة لتلك التي يملكها الرائد الراحل غامبوا."

– "هل نسيطر على الشرطة المحلية في تيكويلا؟"

– "بالتأكيد."

نهض دي لا روشا، وتجرع ما تبقى من الرُم في فمه.

– "ممتاز! أرسلهم إلى الطرقات. اكتشف أين يختبئ هؤلاء الأشخاص. أخبر «سبايدر» (العنكبوت) بتجميع قوة محلية من القتلة المأجورين ووضعهم في مواقعهم. سنجد آل غامبوا، وسنقتلهم جميعًا حيث يختبئون!"

تنحنح نيستور، ونقر بأصابعه على المكتب المصنوع من خشب البلوط.

– "دانيال. لقد أوصلنا رسالة مذهلة اليوم. العثور على امرأة غامبوا وقتلها أمر في متناول أيدينا تمامًا، لكن ما الذي سيحققه ذلك أكثر؟ لماذا لا نطوي هذه الصفحة فحسب؟"

نظر دي لا روشا إلى الفناء، وتأمل عتمة الليل. تنهد قائلاً:

– "سأخبرك لماذا. يسيطر مادريغال على جزء من الفيدرالية، تمامًا كما لديه رجال في الشرطة المحلية، والشرطة القضائية، وشرطة الولاية، ويمكنني تقبل ذلك. لكن «GOPES»؟ لا... هؤلاء الرجال أنقياء للغاية. إذا بدأوا العمل لصالح مادريغال، فعليّ أن ألقنهم..."

قاطعه كالفو:

– "لا يوجد سبب للاعتقاد بأن الرائد غامبوا كان يعلم أنه ينفذ أجندة كونستانتينو مادريغال."

لوح دانيال بيده مبعدًا الفكرة.

– "كان غامبوا ذكيًا، لكنه اعتقد أنه أذكى مما هو عليه في الواقع. ظن أنه سيستخدم معلومات مجموعة مادريغال ثم يقتل مادريغال بنفسه. أنا لا أحب الرجال الأذكياء الذين لا يلتزمون بالقواعد. وأريد أن

أثبت لأي رجل آخر يظن أنه نقي وشريف ومثالي وذكي إلى هذا الحد، أنني سأبدأ بقتله، وسأنتهي بقتل كل ما أحبه في حياته."

لم ينبس كالفو ببنت شفة.

تابع دي لا روشا:

– "ستجد إيلينا غامبوا. وسيتولى رجال «سبايدر» قتلها وقتل طفلها وكل من يحيط بها."

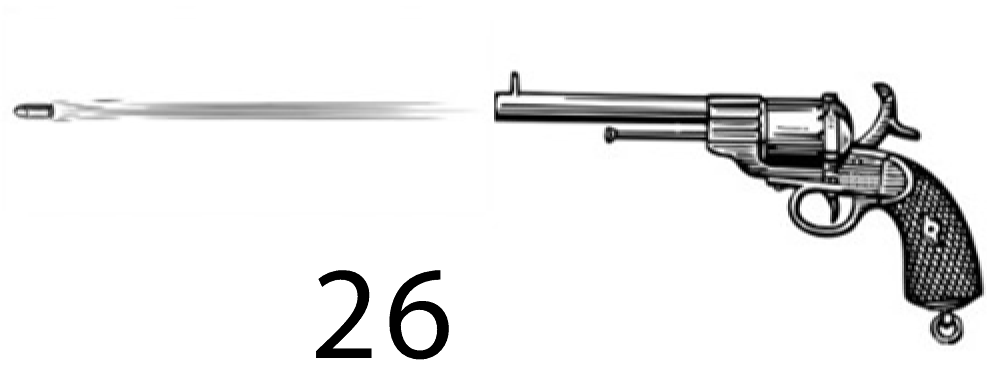
أومأ كالفو لرئيسه. لا مجال لتغيير رأيه.

– "سي (نعم) يا زعيم."

استدار دي لا روشا ليدخل المنزل، لكنه توقف ونادى مستشاره.

– "ونيستور، لا تجادلني في هذا الأمر مرة أخرى."

– "سي (نعم) يا زعيم."



26

لم يكن بـ "الهاسيندا" كهرباء، لكنها كانت تضم هاتفاً أرضياً، وقد رنّ في تمام الساعة الثانية صباحاً، مفزعاً كل من في البيت وموقظاً النائمين. كانت لورا قد صعدت لتوها من القبو، فهرعت إلى غرفة الجلوس الرئيسية المضاءة بالشموع لتجيب. التقطت السماعة عند الرنة السادسة، في اللحظة ذاتها التي دخل فيها كورت الغرفة عبر الباب المؤدي إلى الشرفة الخلفية، بعد أن أمضى الساعتين الماضيتين في التحضير لهجوم كان يصلي ألا يأتي أبداً.

– "آلو؟"

أجاب صوت من الطرف الآخر:

– "صباح الخير، أعتذر لإزعاجكم في وقت مبكر كهذا. هل يمكنني التحدث إلى السيدة إيلينا غامبوا؟"

رفعت لورا بصرها نحو كورت، وقد شحب وجهها تماماً، وهمست:

– "دي لا روشا."

دون تردد، اندفع كورت عبر العتمة، قاطعاً بلاط الغرفة الفسيحة المغطى بالغبار. مدت لورا الهاتف إليه، فجذبه ووضعه عند فمه.

صاح بصوت هادر ترددت أصداؤه بين الجدران الحجرية وفي الممرات المظلمة المهجورة، حتى اهتز زجاج النوافذ القديم:

– "أخبرني أنك تتحدث الإنجليزية، أيها الوغد!"

ساد صمت طويل، تبعه ضحك مكتوم.

– "آه.. الأمريكي. ذاك الذي يتقافز كالقرد على شاشات التلفاز. كم هو جميل أن أتحدث إليك أخيراً، وجهاً لوجه."

– "لا أدري أي مسخ أنت، لكن استهداف طفل لم يولد بعد لا يجعل منك رجلاً بأي حال، يا سافل."

– "لن تفهم ذلك؛ فالفوارق الثقافية بيننا تخلق فجوة واسعة في منظوماتنا الفكرية. ولسوء حظك، أتوقع أنك ستقف عائقاً في طريق هدفي، لذا ستموت مع السيدة غامبوا."

ضحك كورت بغضب:

– "لسانك أمهر بكثير من قتال رجالك. لقد قتلتُ نصف دزينة منهم بالفعل، أتذكر؟"

– "نعم، سمعتُ كل شيء عن أفعالك. أنت بارع حقاً فيما تفعله. هل لديك أدنى فكرة عن مقدار المال الذي قد تجنيه لو عملتَ لحسابي؟ اسمع، من الواضح أنني عرفتُ أين تختبئون، ولدي رجال خارج أسوار الهاسيندا الآن. أنت والعائلة محاصرون تماماً."

– "ونحن مسلحون جيداً. قل لرجالك أن يتفضلوا ليأخذونا."

كان بقية أفراد عائلة غامبوا قد دخلوا الغرفة، حتى إغناسيو وقف عند الدرج، متكئاً على الجدار، يصغي إلى طرف واحد من محادثة بلغة لا يفهمها.

ضحك دي لا روشا ثانية:

– "اهْدَأ يا صديقي. استمع إليّ فقط. سنسمح لكم بالاستسلام والمغادرة. إذا أردت، يمكنك أخذ الجميع معك باستثناء إيلينا. نحن نريدها هي فقط."

– "لا اتفاق بيننا."

– "إذن هذه آخر مرة نتحدث فيها. ستكون ميتاً قبل الفجر، وبما أن هذا خيارك، فلا بأس عندي."

انقطع الخط. عبث كورت بالهاتف للحظة ليتأكد؛ نعم، لقد قُطعت أسلاك الهاتف الأرضي.

أمرهم كورت بحزم:

– "ليتحقق الجميع من هواتفهم المحمولة."

ولمدة دقيقتين، سادت حالة من الهرج في أرجاء المكان بينما كان أفراد العائلة يتسابقون للوصول إلى هواتفهم ومحاولة التقاط أي إشارة.

لكن دون جدوى.. لقد عُطل برج الاتصالات في المنطقة.

اللعنة.

أدرك جينتري أن تعطيل الهواتف المحمولة يتطلب طاقة بشرية وقدراً من الاستخبارات لدى خصمه. علم حينها أنهم لن يواجهوا مجرد مجموعة من عمال المزارع المكسيكيين السمان بقبعات القش، بل إن دي لا روشا قد نجح في حشد فرقة مدربة بشكل جيد، حتى هنا في هذه القفار.

كان مارتن ورمسيس عند مدخل الطابق الثاني؛ حيث عاد كل منهما من موقعه في جهتين متقابلتين من "البيت الكبير". كان أحدهما يغطي المرصد الشمالي، والآخر يغطي الجنوبي. بقي كورت في الطابق السفلي، وأخذ يطيل النظر في كل فرد من أفراد عائلة غامبوا. لم يحاول تجميل الواقع المرير، بل اكتفى بقوله:

– "إنهم قادمون."

لم يتحرك أحد.

– "أين لويس؟"

قالت إينيز:

– "إنه في فراشه."

– "هل يمكنكِ إقناعه بالنزول إلى القبو؟"

هزت رأسها بأسى:

– "لا، لن يفهم ما يحدث، ولن يوافق على الذهاب."

أومأ كورت برأسه. لم يكن لديه وقت للقلق بشأن لويس الآن. تنهد وهو ينظر حوله إلى قوته البائسة المكونة من تسعة أشخاص. لطالما كان "الرجل الرمادي" أداة للتنفيذ لا للإدارة؛ لم يكن يوماً قائداً. تمنى لو كان يملك خطاباً بليغاً يشحذ به همم رجاله، لكنه لم يدرِ ماذا يقول. الأمر كله سينحصر بينه وبين رمسيس ومارتن ولورا. أما هؤلاء المساكين الآخرون.. فقد كان يأمل فقط ألا يطلقوا النار على بعضهم البعض بالخطأ حين يبدأ الهجوم.

تمتم كورت لنفسه:

– "نحن في ورطة."

نهضت إيلينا التي كانت تجلس على الأريكة وقالت:

– "يمكننا إيقافهم."

اكتفى جينتري بالنظر إليها؛ حاول قول شيء مشجع لكنه لم يجد ما يسعفه.

أعلنت إينيز أن لديها خبزاً في الفرن وعليها إخراجه، وتبعتها لوز إلى المطبخ. اختفت العجوزان قبل أن يتمكن جينتري من توضيح أن هناك أموراً أكثر أهمية في هذه اللحظة.

التفت إلى الباقين في الغرفة وإلى الضابطين اللذين ينظران من الأعلى:

– "هناك أربعة مقاتلين مدربين هنا، واثنان منا فقط يملكان أسلحة حقيقية. أما أنا، فلا أملك سوى مسدس نصف فارغ وبندقية صيد عمرها خمسون عاماً، وكأنني في خضم مواجهة من مواجهات (الغرب القديم) اللعينة."

لم يفهم أحد هذا التشبيه، واكتفوا بالنظر إلى حاميهم الأمريكي. رأى في عيون إيلينا ولورا وإرنستو ودييغو وإغناسيو نظرات ملؤها الثقة.. نظرات ملؤها الأمل.. ونظرات الحمقى.

تسارعت أفكاره؛ كان يفكر في الهجوم الوشيك وما يمكنه فعله.

قالت إيلينا:

– "يا خوسيه، لا تيأس منا. قد لا نكون جميعاً جنوداً، لكن يمكننا المساعدة. كل واحد منا يستطيع فعل شيء!"

فاحت رائحة الخبز الطازج من المطبخ.

تنهد كورت محبطاً:

– "يا إيلينا، لن نتمكن من (خبز) طريقنا للخروج من هذه المحنة!"

احمرّ وجه إيلينا غامبوا غضباً وإحباطاً، بينما ضحك رمسيس في الطابق العلوي.

– "بخلاف رشق أعدائنا بفطائر (الشيميشانغا)، هل لدى أحدكم أي فكرة أخرى؟"

رفعت لورا غامبوا مسدسها قائلة:

– "نعم، لدي فكرة. ما رأيكم أن نردي أولئك (الأوغاد) قتلى حين يأتون؟"

هز كورت كتفيه:

– "حسناً.. نعم، أفترض أن هذه هي الخطة." ثم تيبس جسده وأردف: "ليذهب كلٌ إلى موقعه. أنتم تعرفون ما عليكم فعله."

اندفع كورت ماراً بالعائلة نحو أول مجموعة من الشمعدانات وأطفأ الشموع هناك. مر بهم ثانية في غرفة الجلوس وهو يتجه نحو الباب الخلفي وتمتم:

– "حظاً موفقاً."

توقف يده على المزلاج، والتفت لينظر إليهم نظرة أخيرة. وقفوا كالتماثيل الحجرية في الظلام يحدقون فيه، بينما خرجت لوز وإينيز من المطبخ تحملان صينية من لفائف الخبز.

صرخ فيهم بصوت غلبه الإحباط الشديد:

– "تحركوا، تباً لكم! إيلينا ولوز وإينيز إلى القبو! إرنستو إلى ممر القبو لحماية النساء؛ دييغو وإغناسيو إلى المطبخ لحراسة مدخل القبو؛ لورا عند شرفة الطابق العلوي لتكشف هذه الغرفة! أطفئوا كل الشموع في طريقكم. تحركوا! الأمر ليس بهذا التعقيد اللعين! وابتعدوا عن النوافذ!"

تفرق الجميع في اتجاهات مختلفة، وشعر كورت ببعض الراحة حين رآهم يتجهون – تقريباً – نحو المهام الموكلة إليهم.

قال لنفسه:

– "اللعنة."

رفع بصره نحو الطابق العلوي؛ كان مارتن قد عاد إلى موقعه، لكن رمسيس ظل ينظر إليه. قال الضابط المكسيكي من وسط الظلام:

– "حظاً موفقاً يا صديقي."

أجابه كورت:

– "سنحتاجه بالتأكيد."

ثم خطا خارج الباب الخلفي إلى قلب الظلام.

تكونت الموجة الأولى من ستة عشر رجلاً. لم يكونوا من نخبة القتلة المأجورين، لكنهم كانوا رجالاً قساة بلا رحمة، مدربين على استخدام السلاح، ومدفوعين من قِبَل قيادتهم لتنفيذ رغبات زعيم الكارتل.

في قاموس الكارتيلات المكسيكية، يُطلق على هؤلاء الرجال اسم "سولدادوس" (جنود)، أو بلقب أكثر ازدراءً وهو "إيستاكاس"، أي "أوتاد الأسوار". لم يكونوا من الصفوة، لكنهم كانوا قادرين على الوقوف بسلاحهم وتنفيذ ما يُطلب منهم.

تراوحت أعمارهم بين السابعة عشرة والحادية والستين؛ كان بينهم أبوان مع ابنيهما، وزوجان من الإخوة. خدموا جميعاً في الجيش، وكان أحدهم ضابطاً سابقاً، مما جعله قائداً لهذه المجموعة المرتجلة من القتلة.

لم يكن هؤلاء الرجال أفضل من يمكن لـ "البدلات السوداء" استدعاؤهم، لكنهم كانوا الأقرب إلى الهاسيندا، ولهذا السبب تم اختيارهم. كانوا جميعاً يعيشون في هذه التلال والجبال، وقد عمل معظمهم معاً في مهام سابقة لحساب عصابة "البدلات السوداء". ثلاثة منهم كانوا من الشرطة القضائية لولاية خاليسكو، وستة آخرون من شرطة بلدية بلدة تيكويلا القريبة. كانت سيارات شرطة الولاية والبلدية تقف بجانب الطريق الترابي خلف الجدار الخلفي للهاسيندا، بجوار شاحنتين وثلاث سيارات قديمة.

كان "العنكبوت" قد اتصل بقائد منفذيه في هذه المنطقة بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً، واستغرق الأمر ثلاث ساعات كاملة لحشد هؤلاء المرتزقة. قاموا بإسقاط برجين للاتصالات باستخدام شاحنة وسلاسل حديدية، ثم انتظروا أمراً عبر اللاسلكي لقطع خط الهاتف الأرضي.

كان معظمهم يحمل بنادق صيد تابعة للشرطة أو بنادق "M1 كاربين" – وهي بندقية أمريكية قديمة لا تزال منتشرة في المكسيك، يستخدمها غالباً حراس الأمن في البنوك والمتاجر. ورغم قدمها مقارنة بالبنادق الحديثة، إلا أنها تطلق رصاصاً قوياً من عيار .30 وتؤدي المهمة بكفاءة.

وكما توقع جينتري وضابطا الـ (GOPES) عند فحصهم للميدان، جاء الهجوم عبر الجدار الخلفي، حيث تسلل المهاجمون وهبطوا في الظلام.

تحركوا عبر الأعشاب الطويلة في ثنائيات، وعيونهم معلقة بالمبنى المظلم الذي يبعد خمسين ياردة خلف الشرفة والمسبح. انحنوا خلف أشجار الليمون والبرتقال البرية، ثم ركضوا في خطوط متعرجة قصيرة ومجهدة نحو التماثيل، واختبأوا خلفها أيضاً.

باتوا قريبين الآن؛ وصل الستة عشر جميعاً إلى حافة الشرفة الخلفية، على بُعد خمس وسبعين قدماً من الرواق حيث تقع الأبواب الخلفية للغرفة الرئيسية التي بدت وكأنها تدعوهم للدخول. بدأت مجموعات الرجال مناورة تقدم غير منظمة، كاد بعضهم يصطدم ببعض، بينما انحنى آخرون خلف أحواض الزرع بجوار المسبح.

على بُعد خمسين قدماً، وقف ضابط الجيش السابق، القائد الفعلي لهذه المجموعة، وأشار بيده للجميع بالتقدم. لم يتوقع أن يصل إلى هذا الحد دون مقاومة، ولم يخطط لأن يقتحم الجميع من المدخل ذاته، لكن أبواب الشرفة كانت الأقرب، وبمجرد دخول المنزل، يمكن لرجاله التفرق وبدء المذبحة. كان الرجل يتخيل بالفعل مكافأة المال التي سيمنحه إياها "العنكبوت".

صرخ قائلاً:

– "هجوم! (Ataque)"

فجأة، ودون سابق إنذار، دوى زئير محرك ضخم إلى يمين موقعه على الشرفة، على الجانب الآخر من المسبح المستطيل. كانت شاحنة ضخمة قد وُضعت بطريقة ما بمحاذاة الجدار الخارجي للرواق وغُطيت بالكروم، بعيداً عن الممر الأمامي ومخفية تماماً عن الأنظار. وقف الرجال الستة عشر كالتماثيل المحيطة بهم لثوانٍ معدودة من الذهول القاتل، حين اشتعلت مصابيح الشاحنة الـ F–350 العالية ومجموعة الأضواء الكاشفة، لتغمر الشرفة الخلفية بأكملها بضوء أبيض باهر.

استدار القائد نحو مصدر الضوء، واضعاً يده فوق عينيه لاتقاء وهجه، ورفع بندقيته بيد واحدة ليطلق النار على مصدره.

لكن على بُعد عشرة أقدام من مقدمة حذائه، في المسبح الأسود القذر، لفت انتباهه صوت وحركة.

كان "الرجل الرمادي" قد أمضى قرابة ثلاث دقائق تحت الماء، بعد أن قضى الدقائق العشر السابقة ولم يبرز من السطح اللزج المليء بأوراق الشجر المتعفنة سوى رأسه وبندقيته. حين سمع الصفير الخافت من مارتن الذي يشير إلى قدوم المهاجمين، غطس تماماً وهو يتنفس عبر أنبوب من قصب البامبو، مغمض العينين، ينتظر صوت الشاحنة ليخبره أن وقت العمل قد حان. كان رمسيس قد شغّل المركبة باستخدام جهاز التحكم عن بعد حين صار القتلة على مسافة قريبة كافية.

حين برز كورت على السطح، حرص أن يكون وجهه بعيداً عن المصابيح الكاشفة الضخمة. رأى الأهداف أمامه كصيد سهل، ولم يظهر أي رحمة. ارتفع من الماء، باصقاً أنبوب البامبو من فمه، وصوّب بندقية الصيد المزدوجة نحو أول رجل رآه، وأطلق خرطوشاً في بطنه الضخمة.

دوى صوت الانفجار!

فوقه، وإلى يمينه، سمع رشقات قصيرة من مدفع رشاش عيار 9 ملم؛ كان رمسيس يطلق النار من المرصد في الطابق الثاني. كما انطلقت طلقة مسدس أخرى من مستوى الأرض، قادمة من باب الشرفة. لم يعرف كورت من أطلقها، فلم يكلف أحداً بهذا الموقع.

دوى صوت انفجار آخر!

أفرغ الطلقة الثانية، ليرسل أكثر من مئة حبة فولاذية صغيرة إلى جذع رجل يرتدي زي الشرطة الأخضر، فاستدار الرجل وسقط على الشرفة. تلاحقت رشقات الماء من حوله، فغطس ثانية تحت أوراق

زنابق الماء ليعيد حشو بندقيته تحت الماء. كان يحتفظ بالخراطيش في جيوبه الأمامية، فاستبدل طلقتين جديدتين بالقديمتين، ودفع نفسه نحو الجزء الضحل من المسبح ليخرج من الماء في مكان غير الذي غطس فيه.

اندفع للأعلى ثانية من الماء الأسود إلى هواء الليل البارد، فوجد هدفين قد تجاوزا موقعه وهما يركضان نحو "البيت الكبير"، فأطلق النار على ظهريهما، ليسقطا مترنحين للأمام. غطس مجدداً ليعيد الحشو ويسبح إلى جزء آخر من المسبح.

سقط ستة من القتلة في أقل من عشر ثوانٍ؛ أما من كانوا في الخلف فقد تراجعوا بعيداً عن الأضواء الساطعة وارتموا في الأعشاب الطويلة. لكن رجلين، كلاهما من شرطة ولاية خاليسكو، كانا يتقدمان على الجانب الأيمن للمسبح، قرب الشاحنة، حين تم تشغيلها. أطلقا النار على الشاحنة ببندقيتيهما من طراز M1، فأصابا المصابيح الأمامية لكنهما لم يطالا الأضواء الكاشفة، ثم ركضا بجانبها بينما بدأ رجالهما يطلقون النار في اتجاههما بالخطأ.

نجح الرجلان في الوصول إلى الرواق الممتد خلف المنزل. كان الظلام هنا دامساً وآمناً من نيران زملائهما العشوائية. ركضا مبتعدين عن أبواب الشرفة، وبعد قرابة دقيقة من المسير بمحاذاة جدار الجص، وجدا نفسيهما ينعطفان عند الزاوية الجنوبية الغربية للمبنى. واصلا المسير في الظلام الحالك بمحاذاة الجدار المتشابك بكروم "المونيدا" الكثيفة. خلفهما، خفتت أصوات إطلاق النار لتتحول إلى طلقات متفرقة وانفجارات مجيبة.

وصلا إلى نافذة على مستوى الأرض. كانت مغلقة، لكن أحدهما استخدم كعب بندقيته لتحطيم الزجاج. مد يده وفتح المزلاج، ثم دفع النافذة ودخل، وتبعه شريكه.

لم يكن الشرف أو الواجب أو المجد هو ما يحركهما، بل المال. المال الذي سيحصلان عليه من هذه العملية، والمكانة التي سينالانهما في بلدتهما حين ترتفع أسهمهما لدى عصابة "البدلات السوداء".

وجدا نفسيهما في مكان مظلم، وبالكاد تمكنا من تمييز أثاث البلوط الضخم لغرفة نوم رئيسية. على الجانب الآخر من النافذة كان هناك باب كبير مغلق. كان الشرطيان واثقين تماماً من أن صوت تحطم الزجاج لم يلحظه أحد في الداخل، خاصة مع استمرار تبادل إطلاق النار المتقطع بالخارج. وقفا وبدأا في عبور الأرضية المبلطة نحو الباب، وحين قطعا أكثر من نصف المسافة، لفت انتباههما حركة مفاجئة على يسارهما.

جاء صوت من الظلام:

– "غييرمو؟ بني؟ هل هذا أنت؟"

أطلق كلا الرجلين النار من بندقيتيهما؛ وفي ضوء وميض الإطلاق، رأيا رجلاً عجوزاً يجلس في فراشه. انفجر صدره، وهوى من جانب السرير، وانقلب رأساً على عقب ليستقر جثة هامدة ومنحنية في زاوية الغرفة.

التقى رمسيس ومارتن في الصالة الكبيرة، كلاهما استجاب لصوت إطلاق النار داخل المنزل. تكاتفا، وتقدم مارتن في الأمام، وتحركا بمناورة تكتيكية متقنة تسمح لهما بمهاجمة الأعداء في الأمام مع حماية بعضهما البعض. وصلا إلى زاوية الممر، ثم سمعا خلف الانعطاف مباشرة طلقتين من مسدس وصراخ امرأة.

اندفع ضابطا القوات الخاصة حول الزاوية وكأنهما جسد واحد: مارتن في الأمام جهة اليسار، ورمسيس خلفه مباشرة جهة اليمين. وجّها أضواء أسلحتهما نحو الممر، فوجدا لورا غامبوا كوراليس جاثية

على ركبتيها أمام باب مفتوح، ظهرها لهما، ومسدسها موجه نحو ظلام غرفة النوم الرئيسية.

في تلك اللحظة، دوت طلقة أخرى ووميض ضوء من داخل الغرفة. طار رمسيس ثينفويغوس إلى الخلف وسقط على الأرض مع أنّة مكتومة بينما خرج الهواء من رئتيه دفعة واحدة.

فتح مارتن أوروزكو النار داخل الغرفة، ممطراً المدخل فوق رأس لورا مباشرة برصاص عيار 9 ملم. وبينما كان يطلق النار، تخطى جهة اليمين ليغطي شريكه الساقط. فرغت ذخيرته في ثلاث ثوانٍ، فجثا على ركبتيه ليعيد الحشو.

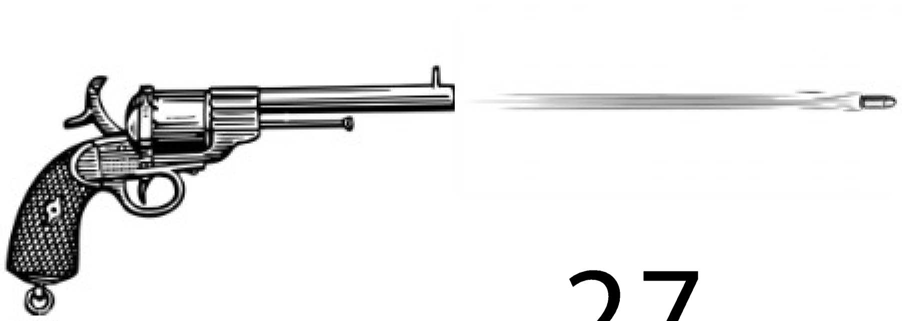
لكن لم يعد هناك إطلاق نار من الغرفة.

اندفع مارتن الآن متجاوزاً لورا، وبواسطة الضوء المثبت على بندقيته، رأى شرطيين من شرطة الولاية جثتين هامدتين بجوار النافذة المفتوحة، وجداراً مليئاً بالثقوب والكسور من أثر الرصاص، ثم على الأرض في الجانب الآخر من السرير، رأى جسد لويس كوراليس المنهار.

كانت لورا قد دخلت خلفه، وأطلقت صرخة وهي تركض لتنكبّ على والد زوجها.

تركها مارتن وعاد إلى شريكه في الممر. شعر بالارتياح حين رأى رمسيس يستند على مرفقيه، وكان (الغرينغو) هناك أيضاً، جاثياً فوقه في الظلام. كان الأمريكي مبللاً بالكامل. لقد تلقى رمسيس رصاصة مباشرة في صفيحة السيراميك الواقية على صدره؛ مما أفقده القدرة على التنفس للحظات، لكنه لم يُصب بأذى. نظر الرجال الثلاثة إلى بعضهم البعض، وتنفسوا الصعداء.

لقد انتهت المعركة.. في الوقت الحالي.



27

جلس كورت مع مارتن ورمسيس على الميرادور الجنوبي، وعيونهم شاخصة نحو الجهة الخلفية من العقار. كان كورت قد خلع قميصه المبلل واستبدله بآخر من قماش الدينيم، أخذه من خزانة لويس، لكنه لم يعثر على سروال جاف يناسب مقاسه في أي مكان بالمنزل. رائحة دخان البارود النفاذة ما زالت معلقة في الأجواء، وسرعان ما ستستبدل برائحة الجثث الملقاة في الفناء. كان كورت قد قرر بالفعل أنه إذا بقي هو وآل غامبوا هنا حتى طلوع الفجر، فسيربط الجثث بأحواض حجرية ويدحرجها جميعًا في المسبح. لم تعد رؤية جثث البالغين الموتى أو رائحتها تزعجه في شيء، لكن معنويات المدنيين عديمي الخبرة هنا في «المنزل الكبير» ستنهار إذا اضطروا للحركة حول جثث منتفخة بفعل الشمس وتزحف عليها الحشرات وسحالي الإغوانا.

في الداخل، تناهى إلى مسامعه صوت النساء وهن يبكين، ثم يصلين بصوت عالٍ، ثم يعدن للبكاء. انهارت لورا تمامًا عندما عثرت على جثة لويس، وبدا واضحًا أنها تلوم نفسها على موته. قامت إينيز ولوز وإيلينا بتغطية الرجل ببطانية في المكان الذي مات فيه، وحسب علم كورت، كان لا يزال هناك.

كان يعلم أن جثة العجوز ستبدأ بإطلاق الرائحة بحلول الظهيرة.

بمجرد انتهاء الاشتباك واختفاء القتلة المأجورين (sicarios) الناجين مرة أخرى في الظلام باتجاه الجدار الجنوبي للمزرعة، تفقد كورت شاحنة إيدي. تبخرت آماله في هروب سريع عندما وجد ثلاثة من إطاراتها الأربعة مثقوبة جراء وابل الرصاص الذي تعرضت له المركبة بعد أن أشعل الأضواء. كانت هناك ثقوب في الغطاء والشبكة الأمامية والرفرف الأمامي الأيسر، لكن المحرك كان لا يزال يعمل، في الوقت الحالي على الأقل.

لكن ذلك لم يكن ذا قيمة تذكر لشاحنة بإطار واحد منفوخ.

بين نوبات بكائها وصلواتها ولحظات التحديق الجامد في الفراغ، أخبرت إينيز كوراليس كورت أن الحظيرة الواقعة شرق المنزل الكبير تحتوي على شاحنة زراعية قديمة. لم يتم تشغيل محرك الشاحنة منذ سنوات، لكن حسب علمها، كانت الشاحنة صالحة للعمل. ورغم أن إغناسيو كان في حالة سكر شديد، إلا أنه كان ميكانيكي سيارات، لذا أرسل إرنستو ابنه إلى الحظيرة للتحقق من إمكانية استخدام المركبة لمساعدتهم جميعًا – وعددهم عشرة – على الهروب.

وضع كورت الشاب دييغو على الميرادور الشمالي لمراقبة واجهة العقار؛ زوده ببندقية «كاربين» أخذها من أحد رجال الشرطة القتلى، وأمره بتثبيتها على كتفه وتوجيهها نحو الهدف وسحب الزناد مرارًا وتكرارًا حتى يأتي أحد المحترفين ليحل محله.

تحدث رمسيس بصوت خافت إلى الأمريكي:

– "أبلينا بلاءً حسنًا. فقدنا واحدًا من أصل أحد عشر. وهم فقدوا ثمانية من أصل، لا أدري، خمسة عشر أو عشرين ربما. بالإضافة إلى أننا حصلنا على بنادق وذخيرة."

لم ينظر كورت إلى النصف الممتلئ من الكوب.

– "نعم، لكن الناجين حصلوا على كل المعلومات التي يحتاجونها. يعرفون أننا قلة؛ يعرفون أننا لا نستطيع تغطية جميع نقاط الدخول؛ يعرفون التصميم العام للمنزل. هؤلاء الرجال كانوا القوة التي تمكن دي لا روشا من إرسالها إلى هنا في غضون ساعتين. لم يكونوا نخبة قواته بأي حال من الأحوال."

تنهد ثم أضاف:

– "علينا الخروج من هذا الجحيم. لن نصمد أمام هجوم آخر."

– "إلى أين نذهب؟"

– "أنا منفتح على الاقتراحات."

أقر كورت.

لم ينبس أي من الفيدراليين ببنت شفة.

كان كورت متعبًا، محبطًا إلى أقصى حد، وبلا خطة تمامًا، وتجلى إحباطه في تعليقه التالي:

– "إذن، بخلافكما، هل تقولان إنه لا يوجد مكسيكي واحد جدير بالثقة في المكسيك كلها؟"

علق الاتهام في الهواء للحظة.

أجاب رمسيس سينفويغوس أخيرًا، بنبرة غضب لا تخطئها الأذن:

– "أعرف الكثير من الأشخاص الجديرين بالثقة. جنود، وشرطة، ومدنيون، وموظفون حكوميون. هناك الكثير من أبناء وطني ممن يستطيعون الموت، ويموتون بالفعل، وهم يقاتلون تجار المخدرات. لكن إقحامهم في هذا الأمر سيعرضهم للخطر. الفساد موجود في جميع مستويات كل مؤسسة في هذا البلد، بفضل الستين مليار دولار التي تنفقونها أنتم الـ «غرينغوس» (الأمريكيون) كل عام لتغذية ذلك الفساد."

هز كورت كتفيه.

– "لا تلمنا على حربكم الأهلية."

– "وكأنكم أنتم الأمريكيون لم تخوضوا حربًا أهلية بأنفسكم، أليس كذلك؟"

تجاهل كورت التعليق، لكن رمسيس لم ينتهِ بعد.

– "لو لم يكن هناك طلب، يا صديقي، لاضطر دي لا روشا وأمثاله إلى أن يصبحوا مزارعي قمح أو أي شيء تافه آخر. تحدث إلى مدمني المخدرات اللعينين في الولايات المتحدة؛ فهم يتحملون جزءًا كبيرًا من المسؤولية عن كل هذا الموت والقتل. كان المزيد من أبناء وطني ليكونوا جديرين بالثقة لو لم يكن المزيد من أبناء وطنك أبناء عاهرات عديمي القيمة يخرقون قوانينكم، وبذلك يزعزعون استقرار أمتنا!"

أومأ كورت برأسه في الظلام. وصلت الرسالة، والرسالة مفادها أنه كان يتصرف بحماقة.

– "آسف يا صاح. أنا فقط غاضب."

بعد لحظة، قال رمسيس:

– "لا بأس. كلنا كذلك."

عبث الرجال الثلاثة بأسلحتهم وحدقوا في عتمة الليل.

سمعوا صوت إغناسيو يحاول تشغيل محرك الشاحنة في الحظيرة، على بعد خمسين ياردة إلى يسارهم. كان شقيق إيدي السكير قد جعل بادئ التشغيل يدور، لكن حتى الآن لم يشتغل المحرك.

تنهد كورت. إذا لم يتمكنوا من تشغيل الشاحنة، فقد انتهى أمرهم. وحتى لو تمكنوا، لم يكن لديه أدنى فكرة إلى أين يمكنهم الهروب هنا في المكسيك. لم يكن من سكان المنطقة...

مهلاً. خطرت فكرة بباله.

– "وجدتها."

سأل رمسيس:

– "ماذا وجدت؟"

– "قلت إن الولايات المتحدة يجب أن تتحمل بعض المسؤولية. ماذا لو استطعنا إدخال إيلينا وعائلتها إلى الولايات المتحدة؟ دي لا روشا لا يملك المؤسسات هناك."

– "لا، لا يملكها."

– "لا يمكن أن يكون الدخول إلى الولايات المتحدة بتلك الصعوبة. أبناء بلدك ينجحون في ذلك طوال اليوم."

أومأ رمسيس برأسه.

– "في العام الماضي كنت في مكسيكو سيتي، ملحقاً بوكالة التحقيقات الفيدرالية (AFI). إنها تشبه الـ FBI في الولايات المتحدة. اكتشفنا «غرينغو» يعمل في القنصلية الأمريكية يبيع أوراقاً لدخول الولايات المتحدة. كان لدينا كل ما نحتاجه لاعتقال هذا الأمريكي وإيقافه، لكن العملية أُلغيت. لم نخبر الأمريكيين حتى بما عرفناه."

– "لماذا لا؟"

– "برأيك لماذا؟ المكسيك تجني أموالاً طائلة من عبور الناس للحدود. لم يكن هناك سبب لإيقاف هذا الرجل. توقعت أننا ربما نحاول مساعدته."

– "حسناً. إذن أنتم جيران سيئون. كيف يساعدنا هذا في..."

– "أعرف من هو هذا الرجل. يمكنك شراء تأشيرات لآل غامبوا، وإدخالهم إلى الولايات المتحدة."

فكر كورت في الأمر للحظة.

– "ماذا لو لم يكن معنا أي مال؟"

قالت لورا:

– "أنا أملك المال."

كانت قد دخلت الميرادور من ردهة الطابق الثاني، وجلست خلفهم تستمع إلى ثلاثة رجال لم تكن تعرفهم قبل ثمان وأربعين ساعة وهم يناقشون مصير عائلتها.

التفت كورت إليها.

– "تملكين المال؟"

– "هناك معاش تقاعدي من الجيش لغييرمو، زوجي الراحل. أحصل على مبلغ صغير كل عام. يمكنني سحبه بالكامل دفعة واحدة إذا أردت، رغم وجود غرامة."

– "كم يمكنك الحصول عليه؟"

– "خمسمائة ألف بيزو."

أجرى كورت الحسابات في رأسه.

– "ستون ألف دولار؟"

نظر إلى رمسيس.

– "هل هذا يكفي؟"

هز الفيدرالي كتفيه.

– "لثمانية أشخاص؟ لا فكرة لدي. لكنني متأكد أنه يكفي لجذب انتباه رجل السفارة."

نظر كورت مرة أخرى إلى لورا.

– "هل ستفعلين هذا؟ هل ستتخلين عن كل هذا المال من أجل إيلينا ووالديك و..."

– "بالطبع سأفعل."

بدت مستاءة من السؤال.

– "هذه عائلتي. سأفعل أي شيء من أجلهم."

– "وهل ستذهبين إلى الولايات المتحدة؟"

هزت رأسها.

– "يجب أن يذهبوا هم. أمي وأبي، وإيلينا ودييغو. لكن ليس أنا. موطني هو المكسيك. لا أريد المغادرة."

سأل كورت بذهول:

– "لماذا لا؟"

– "لا أستطيع ببساطة أن أحزم أمتعتي وأترك كل شيء خلفي."

– "لماذا لا؟"

كرر سؤاله، ثم أضاف:

– "أنا أفعل ذلك طوال الوقت."

نظرت إليه طويلاً في عتمة الليل.

– "إذن لن تفهم معنى أن تنتمي لمكان ما."

في الأسفل، حاولت الشاحنة الدوران مرة أخرى. كان جينتري يسمع صوت البطارية وهي تضعف، وتفقد المزيد من شحنتها مع كل دورة فاشلة للمفتاح. بعد محاولة ثالثة طويلة وعقيمة لتشغيل الشاحنة، سمع من في الميرادور إغناسيو يسب بصوت عالٍ.

– "إخو دي بوتا (ابن عاهرة)!"

قال كورت:

– "حسنًا، الأولويات أولاً، ما زلنا بعيدين جدًا عن الخروج من هنا."

تحرك رمسيس ومارتن إلى أجزاء أخرى من المنزل الكبير؛ كان هناك جناح غربي كامل يحيط بفناء بالقرب من الكنيسة الصغيرة يحتاج إلى دورية من حين لآخر، حيث لم يكن هناك ميرادور يغطي ذلك الجانب. لكن لورا جلست بجوار كورت على الشرفة؛ شربا قهوة سوداء قوية ونظرا معًا إلى الفناء الخلفي.

قالت لورا بعد فترة:

– "هذا المنزل رائع، أليس كذلك؟"

ضحك جينتري بخفوت، ونظر إلى العقار المهمل.

– "نعم، إنه خرابة لعينة."

شعر بأن لورا تنظر إليه للحظة، ثم أشاحت بوجهها.

– "أنا أحبه. كنا أنا وغييرمو سنعيش هنا عندما ينهي خدمته في الجيش."

تبًا لك يا كورت. في وقت ما، في يوم ما، بطريقة ما، حاول فقط أن تقول شيئًا لائقًا.

– "أعني... إنه لطيف... فقط يحتاج إلى بعض الترتيب."

سمع ضحكتها الخافتة؛ حتى أنها ترددت خلفهما في غرفة النوم. كان سماعها جميلاً، رغم أنها بطريقة ما لم تتناسب مع شخصيتها الحزينة والجدية والوقورة.

– "أنت محق. كان إصلاحه سيستغرق سنوات. لكن غييرمو أراد رعاية والديه، وإعادة تشغيل المزرعة، وإنجاب أطفال هنا، وتحويله إلى مكان سعيد."

قال كورت:

– "أنا آسف على كل شيء."

أجابت:

– "وأنا أيضًا."

بعد ساعتين، كان إغناسيو لا يزال في الحظيرة يعمل على الشاحنة. تولى كورت مكان دييغو عند نافذة الطابق الثاني فوق الباب الأمامي على الجانب الشمالي من المنزل. تمدد منبطحًا، ناظرًا إلى خط الأشجار والممر الصخري المتعرج الذي ينحدر ثم يختفي بعيدًا عن ضوء القمر الخافت في طريقه إلى البوابة الأمامية، على بعد مائة متر أو أكثر إلى الشمال.

تحسس بندقية لويس القديمة الملقاة على البلاط بجانبه. كان قد أعطى بنادق «M1 كاربين» للآخرين، وأخذ بعض خراطيش الخردق (double-aught buckshot) من إحدى البنادق المأخوذة من شرطي قتيل من تيكويلا، لكنه ترك سلاح الرجل في الفناء لأن الماسورة تضررت في الاشتباك. وجد كورت بندقية ضخ أخرى أسقطها شرطي

قتيل من ولاية خاليسكو، لكنه كان مرتاحًا لملمس وأداء تلك القطعة الأثرية الطويلة والثقيلة ذات الطلقتين، فقرر الاحتفاظ ببندقية لويس كسلاح أساسي له.

كان يشعر بالنعاس، لكن لوز أحضرت له لتوها المزيد من القهوة السوداء القوية للغاية، والتي ستساعده على الصمود لبضع ساعات أخرى.

كان بحاجة إليها من أجل التنبيه وكذلك الدفء؛ فقد كانت درجة الحرارة أقل من عشر درجات مئوية، ولم يكن يرتدي سوى سترة الدينيم وسرواله المبلل بينما كان مستلقيًا ومعرضًا لنسيم الليل على الشرفة.

تبًا، أراد الخروج من هذا الجحيم.

تم إحراز بعض التقدم في هذا الصدد. انتزع إرنستو ودييغو البطارية من شاحنة إيدي «F-350» ونقلاها إلى الحظيرة؛ وتم سحب وقود جديد من المركبة الأحدث ونقله إلى القديمة. كانت المسألة مجرد وقت قبل أن يتكدسوا جميعًا كالسردين في علبة، وينطلقوا نحو البوابة الأمامية بينما يتقدمهم مارتن ورمسيس على دراجتيهما الناريتين ورشاشاتهما القصيرة تطلق النار، آملين في الكثير من الحظ للخروج من هنا أحياء.

فرك كورت عينيه المحترقتين، وقاوم النوم للمرة الثالثة في هذه الدقيقة.

نظر إلى ساعته: 4:06 فجرًا. كان يعلم أنه إذا تمكنت «البدلات السوداء» من تجميع طاقم آخر في الوقت المناسب، فسيأتون قبل الفجر. لا سبيل لأن لا يأتوا؛ ليس لديهم سبب لانتظار ضوء النهار.

لقد تجاوز الوقتُ أفضلَ توقيت للهجوم في الحالات الطبيعية. في البداية كان الأمريكي سعيدًا؛ أمل أن تكون قوته الصغيرة، بصدها للموجة الأولى، قد دفعت العدو للتراجع ومغادرة المزرعة لفترة من

أجل إعادة التجميع. لكن لا، لم يكن الأمر كذلك على الإطلاق. فتوقيت الساعة الثالثة صباحًا لضرب موقع العدو يعتمد عادةً على نوبات الحراسة القياسية.

وعدوه يعلم أنه لا يوجد ما يكفي من الرجال هنا لحراسة هذا المجمع بأكمله في المقام الأول، ناهيك عن التناوب للراحة وتناول الطعام.

نعم، أدرك كورت، أعداؤه أذكى منه. لم يفكر حتى في الاحتمال حتى الآن. سيضربون مرة أخرى قبل الضوء الأول. بغض النظر عن عددهم، كثيرين كانوا أم قلة.

هيا يا إغناسيو، أيها السكير الوغد. اجعل تلك الشاحنة تعمل!



28

تألفت الموجة الثانية من اثني عشر رجلاً فقط، لكنهم كانوا أوفر تدريباً، وأفضل عتاداً، وأدق استخباراتاً، وأحكم خطةً من تلك المحاولة الفاشلة الأولى. كان الاثنا عشر جميعاً من رجال "المارينز" – مشاة البحرية المكسيكية – وقد انطلقوا نحو "الهاسيندا" من قاعدتهم في غوادالاخارا بأوامر مباشرة من سبايدر سيبيدا نفسه.

ورغم أنهم كانوا جنوداً نظاميين، إلا أنهم كانوا يسترزقون بالعمل كقتلة مأجورين لحساب "البدلات السوداء". كانوا متمرسين في تكتيكات اقتحام الوحدات الصغيرة، ومسلحين بمدافع رشاشة من طراز HK MP5، وقنابل صدم، وسترات واقية، ويرتدون بدلات زيتية اللون تندمج ببراعة مع المشهد الجبلي الأخضر الداكن لجبال "سييرا مادري" قبيل الفجر. استجوبوا الناجين من الهجوم الأول عبر الجدار الخلفي؛ أولئك "الأوتاد" المذعورين الذين فروا عائدين إلى الأمان دون أن تستقر في أجسادهم شظايا بنادق الرش أو رصاصات عيار 9 ملم، حيث صُدرت إليهم الأوامر بالبقاء لشرح طبيعة ما سيواجهه الفريق التالي. بدأ رجال المارينز في تجهيز عتادهم بجانب شاحنتهم ذات الطنين، بينما انزوى الشرطيون يدخنون في توتر، ويقصون عليهم كل ما رأوه.

فحص الجنود أسلحتهم وأجهزة اللاسلكي فحصاً أخيراً، وانقسموا إلى ثلاث مجموعات، تضم كل منها أربعة رجال، ثم انصرفوا عن الهواة المنهكين، وبدأوا الزحف نحو أسوار الهاسيندا.

اقتحمت مجموعة "ألف" – أو أنتونيو وفق الأبجدية الصوتية – العقار بتسلق بوابة مقفلة بالسلاسل عند الجدار الغربي، وسط الأعشاب الطويلة ونبات "الأغاف" الأزرق البري. اندفعوا نحو المنزل المظلم في ثنائيات، يغطي كل زوج زحف الزوج الآخر. وصلوا إلى صومعة غلال حجرية مهدمة، واقتربوا من الكنيسة الصغيرة التي تبرز من الجانب الغربي لـ "البيت الكبير".

أما مجموعة برشلونة، فقد تسلقت الجدار الخلفي، قرب المنطقة التي عبرت منها الموجة الأولى قبل ثلاث ساعات. وبمجرد دخولهم أرض الهاسيندا، انحرفوا يميناً، وتسلقوا السياج الخشبي للحظيرة، وتحركوا خلف إسطبل قديم من الخشب المتآكل، يختارون مواضع أقدامهم بعناية لتجنب التعثر بالحجارة والأخشاب والنفايات.

بينما اقتحمت مجموعة كارمن الهاسيندا من الشرق، وهبط أفرادها خلف أشجار الصفصاف قرب البركة. تحركوا حول المبنى ثم إلى مقدمته، موجهين اهتمامهم وتقدمهم نحو حظيرة قديمة من الحجر والخشب، حيث سمعوا صوت محرك احتراق داخلي يحاول يائساً أن يشتعل.

في غضون دقائق، وصلت مجموعة برشلونة إلى التعريشة الممتدة على الجانب الشرقي من الشرفة. تواصلوا عبر اللاسلكي مع مجموعة أنتونيو ووجدوهم في مواقعهم غرب البيت الكبير. كان هذا الفريق قد أرسل أحد رجاله نحو الكنيسة المنفصلة القريبة من المنزل لاستطلاع ضوء يمكن رؤيته من خلال شقوق الحجارة القديمة.

بعد سبع دقائق من اختراق السور، كانت الفرق الثلاثة المستعدة، المكونة من اثني عشر رجلاً، في وضع يسمح لها بضرب المدافعين عن الهاسيندا في آن واحد من ثلاث جهات.

فرك كورت عينيه ثانية، وبدأ ينظر إلى ساعته.

دوى صراخ من الجانب الآخر للمنزل. صوت رجل.. أهو مارتن؟

ثم دويّ طلقة بندقية.

كان انضباط جينتري يدفعه للبقاء في موقعه ومراقبة الأشجار والممر الأمامي. لم تكن سوى أطراف أشجار الصنوبر تتمايل، ولا حركة أخرى في هذا الجانب من المنزل.

اللعنة، اللعنة، اللعنة.

كل تدريباته تملي عليه الصمود في مكانه، وألا يلتفت، وأن يثق في خطته وتحصيناته وزملائه المدافعين، وأن يلتزم كل منهم بقطاع النيران المسؤول عنه. لو تعرض قطاع مارتن للهجوم، فسيكون رمسيس ولورا على جانبيه، وبإمكانهما رؤية ما يحدث، والرد بشكل أفضل بكثير منه وهو هنا في الطرف المقابل من المبنى.

ثق بهم. لا تترك موقعك. ثق بخطتك فحسب.

دوت طلقة أخرى، تلتها رشقة كاملة من مدفع رشاش.

ركز جينتري قلقه، وحوله إلى نظرة ثاقبة في الظلام أمامه.

لا شيء. لا حركة، لا هجوم. لا شيء على الإطلاق.

ثق بخطتك يا كورت.

مزيد من إطلاق النار، ومزيد من الصراخ خلفه.

ثق بخطتك يا كورت!

وقع انفجار. قنبلة صدم انفجرت داخل المنزل في الطابق الثاني.

اللعنة! ثق بخطتك يا كورت!

ثم ارتفع صوت لورا غامبوا. صرخة.. ثم عويل.

لتذهب الخطة إلى الجحيم.

انتصب كورت جينتري على ركبتيه، ثم وثب واقفاً، وحمل بندقية الرش الثقيلة بيده اليمنى، واستدار وركض عائداً إلى المنزل بأقصى سرعة، تاركاً موقعه خلفه.

بمحض الصدفة وحدها، رأى القاتل الأول. ركض كورت في غرفة الجلوس المظلمة بمحاذاة الجدار الغربي؛ كان القوس المؤدي للمطبخ أمامه وإلى يساره، وإلى يمينه القوس المؤدي لغرفة الطعام الرسمية. كانت خطته تقتضي تجاوز هذه الغرفة للوصول إلى السلالم ومنها إلى الشرفة حيث موقع لورا في نهاية الممر.

لكن هناك في الظلام، وعلى بُعد أقل من عشر أقدام، ظهرت الفوهة السوداء لسلاح من غرفة الطعام. اتخذ جينتري قراره في وثبة واحدة؛ أطلق قدميه للأمام، وهوى على البلاط الحجري البارد كلاعب بيسبول ينزلق نحو القاعدة الأخيرة. انزلق متجاوزاً قوس غرفة الطعام على جنبه الأيمن، رافعاً فوهة بندقيته الطويلة نحو مصدر التهديد. وبينما هو ينزلق، رأى القناص في الظلام؛ كان الرجل قد سمع صوتاً بلا شك، لكنه لم يصوب سلاحه بعد نحو مصدر الصوت.

ضغط كورت فوهة بندقيته في إبزيم حزام جندي المارينز بينما توقف جسده على الأرض، وضغط أحد الزنادين، ليضخ تسع رصاصات من عيار .33 في أحشاء الرجل، مما كاد يشطره نصفين ويقذفه في الهواء ليطير خلف دوي الانفجار ووميض اللهب القصير. سقط جسده الممزق فوق طاولة غرفة الطعام، وهناك بدأت أطرافه تختلج وتنتفض بينما كانت التيارات الكهربائية من جهازه العصبي المركزي تتسرب إلى عضلاته المحتضرة.

انتصب جينتري على ركبتيه قبل أن يستقر جسد الرجل على الطاولة. لم يرَ أين طار سلاح القتيل، ولم يرد إضاعة الوقت في البحث

عنه في الظلام، فنهض وواصل ركضه، وهو يعيد حشو الفوهة التي يخرج منها الدخان بيده بينما بلغ الدرج.

قفز ثلاث درجات في وثبة واحدة.

تجدد إطلاق النار من موقعين الآن. عند قمة الدرج، انعطف يميناً، وسمع دوياً هائلاً آتياً من غرفة في نهاية الممر. ومن خلال الدخان والغبار والظلام، رأى لورا غامبوا تتراجع بسرعة من غرفة النوم الرئيسية. كان مسدسها مصوباً للأمام، لكن كورت رأى بوضوح أن مزلاجه قد ارتد للخلف، ما يعني أنها أفرغت رصاصتها الأخيرة.

كتف كورت كتفه بكتفها وهي تترنح للخلف نحوه في الممر، وأمسك بها قبل أن تسقط أرضاً. خشي في البداية أن تكون قد أصيبت، لكنه سرعان ما أدرك الآثار المعتادة لقنبلة ارتجاجية؛ كانت حدقتا عينيها متسعتين، وكانت تترنح بعنف وهي جاثية.

سألها:

– "كم عددهم؟"

كان جسدها صغيراً لكنه صلب وعضلي، فساعدها على الوقوف ثانية.

استعادت توازنها قليلاً ونظرت إليه:

– "لا أدري. إنهم من المارينز. لقد ظهروا فجأة في الممر!"

– "هل هم داخل المنزل؟"

– "نعم! إنهم في كل مكان!"

أمسك كورت بذراع لورا بقوة، واستدار وركض عائداً في الممر، مبتعداً عن المرصد نحو الجزء الشرقي من المنزل، مروراً بالشرفة المطلة على غرفة الجلوس المظلمة.

لم يمنع إطلاق النار القريب إغناسيو غامبوا من إجراء تعديل أخير على "المكربن". كما لم تمنعه الدموع التي غبشت رؤيته وانهمرت على وجهه. وبضوء شمعة حمراء وحيدة وضعها فوق المحرك، أنهى ربط البرغي الأخير. أغلق غطاء المحرك بعد ثوانٍ، وترنح نحو باب الركاب المفتوح، وسحب زجاجة "تيكيلا" نصف فارغة من فوق السقف الصدئ لشاحنة "دوج" القديمة.

تجرع منها جرعة كبيرة وطويلة.

ازدادت حدة طلقات ورشقات الأسلحة من عيارات مختلفة خلفه في "البيت الكبير" مع اشتداد وطأة المعركة. استدار إغناسيو وقذف زجاجة التيكيلا عبر الحظيرة؛ لترتطم بالجدار الحجري وتتحطم إلى شظايا كريستالية مبللة. ثم صعد خلف عجلة قيادة الشاحنة القديمة ومد يده نحو المفتاح. بدارة واحدة اشتغل المحرك؛ سعل واهتز قليلاً، لكن قوته كانت كافية وثابتة بما يبعث على الثقة.

وضع إغناسيو رأسه بين يديه وبكى.

كان يعلم طوال الساعة الماضية، بينما كان يعمل، أنه سيشغل الشاحنة، وسيجلس خلف المقود، وسينطلق هرباً من هذا المكان اللعين تاركاً الجميع خلفه.

والديه، شقيقته، ابن أخيه.. وابن شقيقه الذي لم يولد بعد.

لم يكن بمقدوره فعل شيء لإنقاذهم، وكان هذا السبيل الوحيد لإنقاذ نفسه.

أشعل المصابيح الأمامية.

لا أحد ينجو من حكم إعدام أصدرته عصابة "البدلات السوداء". البقاء مع عائلته يعني الانتحار، والانتحار يتطلب قوة يعلم إغناسيو غامبوا جيداً أنه لا يملكها. لم يكن مثل شقيقه الأصغر إدواردو، يقاتل أعداءه ببسالة ويعيل عائلته وأصدقاءه دوماً.

ولم يكن مثل شقيقته الصغرى، لوريتا، تضحي بنفسها وتعتصم بإيمانها.

لا، لم يملك إغناسيو غامبوا شجاعة البأس ولا قوة الإيمان. كان مجرد رجل، رجل ضعيف فحسب، وكان خائفاً.

كان يشبه شقيقه رودريغو؛ ضعيفاً، خائفاً، لا يبحث إلا عن خلاصه الشخصي. لقد رأى رودريغو يُصاب برصاصة في جبهته صباح أمس في متنزه "هيدالغو"، وشاهد دماغه يتناثر. كان إغناسيو يشبه شقيقه في أمور كثيرة، لكنه لم يرد أن يبلغ به الشبه حد الموت.

قال إغناسيو لنفسه: لا، لن أموت. سأهرب، وسأعيش!

لم يخبر الآخرين، لكنه كان يعرف مكاناً لن يطاله فيه "البدلات السوداء". كان لديه أصدقاء يعيشون في "دورانغو"، في ديار آل مادريغال. هناك عشرات، بل مئات القرى التي لن يجرؤ "دي لا روشا" وصبيانه ببدلاتهم الإيطالية على دخولها. نعم، إذا وصل إلى جبال "سييرا مادري" في "دورانغو"، فسيتعين عليه العمل لحساب "رعاة البقر" (الفاكيروس)، سيزرع الماريجوانا أو الكوكايين، أو يتاجر بهما، أو يقتل الآخرين من أجلهما.. وما المشكلة في ذلك؟ خير له من أن ينتهي به المطاف مثل رودريغو أو إدواردو.

لم يخبر عائلته من قبل، لأنهم لن يذهبوا معه. ولم يخبرهم الآن، لأنهم لن يذهبوا معه.

سيذهب وحده.

مسح الدموع عن عينيه بذراعه المشعرة المتصببة عرقاً، وعشّق ناقل الحركة.

كان ينوي تحطيم الأبواب المزدوجة المغلقة في مقدمة الحظيرة، لكنها انفتحت قبله بصرير واضح. ظهر رجلان في ضوء مصابيحه.

رفعا سلاحيهما نحوه.

صرخ: "لا!" وضغط بقدمه على دواسة البنزين بكل قوته.

فتح القاتلان النار بمدافع MP5، فحطما الزجاج الأمامي وغطاء المحرك واخترقت الرصاصات جسد الرجل الضخم خلف المقود، ومزقت الرصاصات المكسوة بالنحاس جسده الذي بدأ يختلج وينتفض بينما كانت الشاحنة تتدحرج للأمام متجاوزة إياهما، ثم انحرفت يساراً حين ارتطم وجهه بعجلة القيادة، وتباطأت مع انزلاق قدمه الميتة عن الدواسة، لتستقر بهدوء عند النافورة الحجرية في منتصف الممر المستدير.

أعاد القاتلان حشو بنادقهما وأطلقا النار ثانية على جسد الرجل السمين الذي لا يزال يرتجف.

لم تكن إينيز كوراليس في المكان الذي ينبغي أن تكون فيه. قبل ثلاثين دقيقة، كانت هي وإيلينا ولوز في القبو، كما أمرهم (الغرينغو)، مستلقيات على الفراش، وعلى ضوء شمعة نذرية وحيدة، صلين وتحدثن عن أحبائهن الراحلين. لكن بعد ساعة، أخبرت السيدتين أنها بحاجة لاستخدام الحمام، وسارت في الممر، متجاوزة إرنستو غامبوا الذي كان يغفو على الدرج الحجري. وعند قمة الدرج مرت بالشاب دييغو، المستلقي على أرضية المطبخ لكنه كان مستيقظاً، فأخبرته أنها ستعود حالاً. لكنها دخلت غرفة الجلوس، وعبرتها إلى ممر طويل يؤدي إلى الجناح الغربي من "البيت الكبير". عبرت فناءً صغيراً مفتوحاً، وسارت في رواق ذي جدران حجرية باردة، ودخلت مخزناً مغبراً في الطرف البعيد، وشقت طريقها في الظلام نحو باب يؤدي إلى الخارج.

كان الليل ساكناً إلا من نسيم بارد لطيف؛ اتبعت ممراً حجرياً غطته الأعشاب وكروم "المونيدا"، وسلكت هذا الدرب المهجور نحو الكنيسة القديمة. فتحت الباب الخشبي المتآكل ببطء؛ لم تجرؤ على إصدار أي صوت قد ينبه الأمريكي أو رجال الشرطة إلى مغادرتها

المنزل، خشية أن يأتي أحدهم ويعيدها إلى القبو. وعندما دخلت، أغلقت الباب بإحكام ليحجب ضوء الشموع.

كانت قد أحضرت ولاعة، واستخدمتها لإشعال شمعة، وضعتها على المذبح الصغير عند الجدار البعيد، ثم جثت على ركبتيها ببطء حتى لا يئن المقعد الخشبي أو ينكسر تحت ثقلها. أشعلت بضع شموع أخرى، بما يكفي لإنارة الصليب النحاسي أمامها. وببطء، اختلطت رائحة شمع العسل والفتيل المحترق برائحة العفن والغبار في الهواء، وبدأت إينيز كوراليس خيمينيز، ابنة التاسعة والسبعين، في الصلاة.

اندلع إطلاق النار في الخارج بعد وقت قصير. التفتت نحو الباب، وعيناها متسعتان في الضوء الخافت، لكنها هدأت روعها، وعادت لصلاتها. لقد جاءت إلى الكنيسة وحيدة، لتصلي من أجل زوجها الذي فارق الحياة منذ ثلاث ساعات فقط. ستصلي من أجله هنا، في الكنيسة التي عُمد فيها وهو صبي، وحيث جاءا لإشعال الشموع فور زفافهما عام 1957، وحيث تعلم ابنهما، غييرمو، محبة المسيح. الرصاص في الخارج لم يغير من جمال هذا المكان وأهميته في حياتها وحياة عائلتها.

عادت إلى الصليب، وبدأت تصلي بصوت مسموع، ممسكة بالشمعة في يدها.

انفتح الباب خلفها بعنف؛ وعصف تيار الهواء بضوء الشموع في الكنيسة الصغيرة، مرسلاً ظلالاً طويلة تتمايل على الجدران.

تيبس جسدها من المفاجأة والخوف، لكنها لم تلتفت لترى من الداخل. اكتفت بخفض رأسها ورسم علامة الصليب على صدرها بسرعة.

أطلق أحد قتلة المارينز رصاصة واحدة على مؤخرة رأسها بمسدس من طراز "كولت .45". اندفع جسدها الضئيل المنهك للأمام

فوق المذبح، لتستقر جثتها عند قدم الصليب، بينما طارت الشمعة من يدها وانطفأت مع الحركة.

كان دييغو وجده يربضان عند قمة الدرج المؤدي للمطبخ، ويطلقان النار من بندقتيهما على شبح في غرفة الجلوس. كان ذلك الرجل هو من بدأ بإطلاق النار عليهما أولاً؛ وعلم دييغو يقيناً أن العمة لورا، أو (الغرينغو) الملتحي، أو الضابطين الفيدراليين اللذين عملا مع عمه إدواردو، لن يفعلوا ذلك، فاستنتج أن هذا الرجل القابع في الظلام خلف وميض الرصاص هو عدوهم.

لم يتلقَ الفتى ذو الستة عشر ربيعاً ولا الرجل السبعيني أي تدريب على مثل هذه الأمور، لذا لم يتركا مسافة كافية بينهما. كانت أكتافهما تتلامس حرفياً وهما يقاتلان، مما منح مهاجمهما ميزة التصويب نحو هدف واحد. كما أنهما لم يعلما كيف يغطي أحدهما الآخر أثناء إعادة الحشو؛ بل كانا يطلقان النار متى شاءا، ويتوقفان متى شاءا، ويعيدان الحشو متى نفدت ذخيرتهما. خلق هذا ثغرات طويلة وخطيرة في القتال، مكنت عدوهما من التسلل مقترباً لإيجاد زاوية إطلاق أفضل.

انتصب إرنستو على ركبتيه ليسحب مخزن ذخيرة ثالثاً من جيب سرواله، وانحنى ليصرخ بشيء في أذن دييغو، وفجأة دار جسده تسعين درجة، وأسقط بندقيته، وأمسك بكتفه الأيمن من الأعلى. انزلق بظهره حتى منتصف الدرج، وصرخ من أثر الاصطدام الذي شعر وكأنه ركلة بغل في كتفه.

عند أسفل الدرج ظهرت زوجته وبيدها شمعة؛ وبدأت في الصعود نحوه وهي تصرخ وتبكي؛ فصاح بها آمراً إياها بالعودة إلى القبو، ومؤكداً لها أنه بخير.

ورغم الخدر الذي أصاب ذراعه والقشعريرة الباردة التي اجتاحت جسده كموجة باردة تضرب قاربه الصغير، بدأ في تسلق الدرج ثانية ليقاتل بجانب حفيده، ماداً يده نحو بندقيته الخشبية في طريقه.

خاض رمسيس ثينفويغوس قتالاً مريراً ضد رجلين في المرصد الجنوبي بالطابق الثاني. في البداية كان يقاتل بجانب لورا، شقيقة العقيد غامبوا، لكن قنبلة صدم ألقيت من المرصد نحو الصالة العلوية وانفجرت بينهما. تعثرت لورا عائدة نحو الممر بعيداً عن الأنظار، لكن رمسيس استجمع قواه بسرعة واندفع للأمام بدلاً من التراجع. رأى رجلين في المرصد يستعدان للهجوم، لكنه باغتهما بتكتيك هجومي شرس. فر الرجلان منه بالقفز من الشرفة نحو الساحة في الأسفل، وحين وصل إلى السياج ونظر لأسفل، رأى جندي المارينز يختفيان في الليل حول الجانب الغربي من "البيت الكبير". كان على يقين أن القتلة سيعيدون تجميع صفوفهم ويحاولون الاقتحام من الطابق الأرضي، فركض نحو الدرج، وهبط منه، وانعطف نحو الممر المؤدي للجناح الغربي.

ركض في الممر، ماراً بعدة غرف، ثم انعطف بحدة ودخل فناءً يتكون من أروقة مفتوحة تحيط بحديقة من الأعشاب الضارة مع نافورة ضخمة مليئة بالنفايات في منتصفها. كان ضوء السماء ينير المكان بما يكفي ليرى طريقه فوق البلاط الحجري. ركض نحو مدخل في الطرف البعيد.

طهر الغرفة التي تلي الممر بمدفعه الرشاش، فوجدها مخزناً قديماً، واكتشف أيضاً باباً واسعاً مفتوحاً على الخارج.

أدرك في لحظة أن الرجال أصبحوا داخل المنزل بالفعل.

في مكان ما خلفه.

عاد رمسيس ثينفويغوس أدراجه. كان لا يزال يسمع إطلاق النار في الطرف البعيد من المنزل، لكنه علم أن الرجلين اللذين رآهما قبل قليل لا يمكن أن يصلا إلى هناك في هذا الوقت القصير. عاد إلى الفناء، متتبعاً الرواق الشرقي-الغربي نحو الشرق، ثم انعطف شمالاً ليعود للممر المؤدي للجزء الرئيسي من "البيت الكبير".

وبينما هو يركض، التفت للحظة نحو الحديقة، متسائلاً إن كان أحد يختبئ في الأعشاب الطويلة.

وحين أعاد بصره للأمام، وجد رجلاً هناك، على بُعد ثلاثين قدماً، يركض في الرواق المبلط نحوه.

جندي مارينز بكامل عتاده القتالي، يحمل مدفع MP5.

رأى المكسيكيان بعضهما في اللحظة ذاتها. ورفعا سلاحيهما وقد اتسعت عيونهما مفاجأة وخوفاً.

أطلق المارينز نيران مدفعه نحو الممر، ليمطر الضابط الفيدرالي بالرصاص. وأطلق رمسيس نيران مدفعه "كولت 635" نحو الممر، ليرد الرصاص على القاتل.

سقط رمسيس ثينفويغوس أولاً؛ شعر بلسعة حارقة في عضلة ذراعه اليمنى، وأخرى في كتفه الأيمن، ثم تهشمت خوذته وطارت عن رأسه في الهواء. استدار وهو يواصل إطلاق النار، لتخرج رصاصات خارقة من فوهة سلاحه وتصيب القاتل في ذراعه اليمنى، ثم في صدره، مما أدى لترنحه وسقوطه أرضاً.

سقط كلاهما على ظهريهما فوق البلاط البارد، لا يفصل بينهما سوى خمس وعشرين قدماً، والدماء تنزف منهما في الرواق المظلم. كانت أسلحتهما الرئيسية قد فرغت، فجلس كلاهما يحاول يائساً إعادة الحشو، يعيقهما جراحهما والدماء اللزجة التي غطت أسلحتهما ومخازن ذخيرة احتياطية.

صاح رمسيس وهو يتقلب على وركه الأيمن:

– "أيها الوغد (¡Cabrón!)"

أخرج المخزن الفارغ، واستخدم الذراع ذاتها لسحب مخزن ممتلئ من سترة القتال، وهو يصارع لإعادة الحشو.

أجابه جندي المارينز صارخاً:

– "أيها الفيدرالي اللعين (¡Chingado federale!)"

تردد صدى صوته في الرواق وعبر الفناء. لقد يئس من إعادة حشو بندقيته، فدفعها بعيداً، ومد يده اليسرى عبر جسده، ومع صرخة ألم، سحب مسدسه من الجراب المثبت على فخذه الأيمن. صارع قصوره الذاتي ليتقلب على يساره ويوجه طلقة نحو خصمه.

شد رمسيس على أسنانه مقاوماً الألم الحارق لجروحه، وصرخ بشتيمة أخرى في وجه القاتل، وأدرك أنه مهزوم لا محالة. صارع لسحب مقبض التعمير في البندقية بيده الواحدة السليمة؛ ورفع بصره ليرى المسدس الأسود يبرز في نهاية ذراع القاتل، ورأى القناص يزحف على البلاط وسط بركة دمائه المتسعة ليوجه سلاحه نحو طلقة الموت.

علم رمسيس أنه لن يتمكن من تجهيز سلاحه قبل أن يرفع عدوه سلاحه. لا يمكنه سحب مقبض التعمير بيد واحدة دون إسناد كعب البندقية على البلاط، ولا وقت لديه لذلك. لم يكن يحمل مسدساً، فقد أعطاه لشقيقة الرائد غامبوا، ودون بندقية محشوة، لا سبيل له للمواجهة. فترك البندقية تسقط على الأرض، وجلس هناك فوق البلاط البارد. مد ساقيه أمامه واسترخى، فكر في عائلته، وانتظر الموت.

أما جندي المارينز المستند على جنبه أمامه، فقد افتر ثغره عن ابتسامة رغم ألم جراحه وهو يرفع سلاحه. رأى بوضوح أنه سيسبق الضابط الفيدرالي بالطلقة القاتلة.

تنفس رمسيس ثينفويغوس بعمق وتنهد. وراقب قاتله وهو يستمتع بتلك اللحظة.

صرخ رمسيس:

– "كل القذارة (¡Come mierda!)"

وفجأة، وبصمت وسرعة تضاهي نسيم ما قبل الفجر الذي ينسل عبر الهاسيندا، اندفع الأمريكي من خلف الزاوية إلى الرواق المبلط خلف جندي المارينز. كان يحمل بندقية الرش القديمة ذات الفوهتين المزدوجتين، وعيناه مصوبتان نحو حجرة الانفجار المفتوحة في السلاح. كان يحاول إعادة حشوها وهو يركض، لكن عندما أدرك المشهد أمامه، اتسعت عينا (الغرينغو).

راقب رمسيس (الغرينغو) وهو يلقي بخرطوشتي البندقية الجديدتين خلف كتفه، ثم رأى الضابط المكسيكي الجريح الأمريكي وهو يقذف البندقية الضخمة في الهواء أمامه بينما يركض بأقصى سرعة.

لم يعلم القاتل المأجور شيئاً عن الخطر الذي يتربص به خلف ظهره. فقد أخذ وقته لتصويب مسدسه من طراز "سيغ ساور" نحو الرجل الجريح الجالس أمامه.

دارت بندقية الرش ذات المقبض الخشبي في الهواء، والتقطها (الغرينغو) بكلتا يديه من جهة الفوهة بينما اقترب من جندي المارينز الغافل. أمسك الأمريكي السلاح من فوهته، وتراجع بذراعيه للخلف وهو يركض، ثم أرجح البندقية بكل قوته – كما يطيح لاعب البيسبول بمضربه ليرسل الكرة خلف الأسوار، أو كما يفرغ لاعب غولف كل ذرة طاقة خلف رأس مضربه – فارتطم كعب البندقية المصنوع من خشب الجوز بمؤخرة رأس القاتل، في اللحظة ذاتها التي بدأ فيها المكسيكي يضغط على زناد مسدسه.

كان وقع ارتطام الخشب الصلب باللحم والعظم مقززاً، كصوت تحطم ثمرة بطيخ على الطريق بعد سقوطها من شاحنة مسرعة. تردد

الصدى عبر الفناء، وتناثرت الدماء لتغطي البلاط وعمود الجص الموجود أمام القاتل مباشرة.

لم يكن القاتل ليموت أسرع من ذلك حتى لو قُطع رأسه. هوى للأمام خلف رذاذ تألق في ضوء القمر، وسقط على وجهه، واختفى مسدسه تحت جسده.

أطلق رمسيس زفيراً طويلاً من الراحة والنشوة بينما أسقط الأمريكي بندقيته وركض في الممر ليتفقده.

وفي تلك اللحظة، ظهر جنديان آخران من المارينز خلف (الغرينغو)؛ ارتكبا خطأً بالنظر يميناً أولاً بدلاً من اليسار، فرأى رمسيس الرجلين قبل أن يريا هدفيهما. لكنهما استدركا الأمر في ثانية وبدأا يلتفتان نحو اليسار، ورفعا بندقتيهما.

صرخ رمسيس في الأمريكي وهو يدفع بندقيته القصيرة بقوة فوق البلاط نحوه:

– "خلفك! (¡Atrás!)"

ثم صرخ: "عمّرها! (¡Cárgalo!)". فهم (الغرينغو) الملتحي الأمر على الفور، فارتمى بجسده ماداً ذراعيه، وانزلق على صدره ليصل إلى السلاح.

هز دوي الرصاص وانفجارات النيران الكثيفة الممر الضيق. تمزق الجص والحجر من الجدران فوق الرجلين مباشرة، مرسلاً شظايا حادة من مواد بناء عمرها مئتا عام في الهواء كدبابير مدفوعة بمحركات نفاثة. قبض جينتري على الرشاش الملطخ بالدماء على بُعد أقل من عشر أقدام من رمسيس، وانقلب على ظهره وهو يسحب مقبض التعمير في البندقية الصغيرة، وبدأ بإطلاق النار حتى قبل أن يحدد أهدافه تماماً.

وبينما كانت رصاصات القاتلين تنخفض لتضرب الجدران على جانبي كورت ورمسيس، كانت نيران جينتري تتقدم فوق البلاط،

مخلفة صدعاً يشبه شقوق الزلازل يطارد الرجلين على بُعد أربعين قدماً. انفجر القرميد مخلفاً شرارات ودخاناً يقترب أكثر فأكثر من الرجلين، حتى ترنح القاتلان للخلف، يدوران وينتفضان من أثر الرصاصات المتعددة حتى سقطا ميتين.

صاح كورت: "اللعنة!" لكنه لم يسمع صوته؛ فقد كانت أذناه تطنان. أبقى عينيه ومنظار بندقية "الكولت" التي كادت تفرغ موجهة نحو الجثتين في ضوء القمر المشوب بالدخان. وخلفه، سمع رمسيس يزحف للأمام.

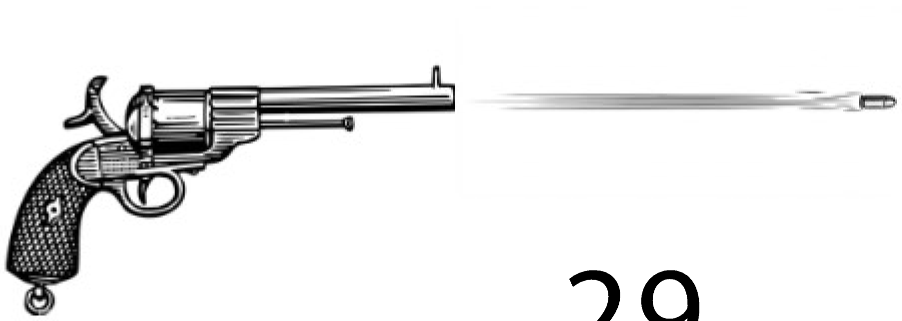
سأل كورت دون أن يبعد عينيه عن السلاح:

– "هل أنت بخير يا صديقي؟"

زحف رمسيس حتى استلقى بجانب كورت على الجانب الأيسر. بصق رمسيس حفنة من الجص والتراب والعرق، وأجاب بالإنجليزية بلهجة ساخرة ومتعبة:

– "أجل يا صاحبي.. كان ذلك رائعاً."

اكتفى كورت بالضحك. كان يعلم أن الأدرينالين الذي يسري في عروقه سيبقيه متوتراً طالما ظل هذا الطنين في أذنيه. وبعد ذلك، سينهار جسده من شدة الإنهاك.



29

تلملم شمل معظم المدافعين الناجين في غرفة المعيشة بعد ربع ساعة. أنبأهم صياح ديك بأن الفجر قريب، لكن السماء في الخارج ظلت حالكة السواد كالفحم. وقف جينتري واضعًا يديه على خصرتيه، وبقع الدماء تجف على سترة الدينيم من صدره حتى أعلى بنطاله. كانت لحيته تلمع بقطرات العرق. عاد لتوه من الممر الخارجي، حيث عثر على جثة شقيق إيدي ملقاة عبر المقاعد الأمامية لشاحنة المزرعة القديمة.

بإنهاك، أعلن للحاضرين:

– "مات إغناسيو."

قالت لوز:

– "مات وهو يحاول إنقاذنا."

أجاب كورت:

– "لا ريب في ذلك."

رغم أن الشك كان يملأ كل ذرة في كيانه. وأكدت نظرة سريعة إلى إرنستو ظنون جينتري بأن والد إغناسيو نفسه لم يصدق أن ابنه قد قضى نحبه كبطل هو الآخر.

لكن لم ينبس أي منهما ببنت شفة.

تحلق أفراد عائلة غامبوا الخمسة المتبقون معًا على الأريكة، وقد انخرطوا في البكاء والنحيب. كان إرنستو يبدو شارد الذهن تمامًا في

هذه اللحظة؛ ترقرقت الدموع في عينيه، لكنه لم يكن متفاعلًا في حزنه كالبقية. كانت زوجته تضمّد كتف زوجها باجتهاد، بينما أبقى إرنستو ذقنه مرفوعًا متجاهلاً الألم، ومحدقًا في الزوايا المظلمة للغرفة.

واصل كورت سرد الأخبار السيئة، وتولت إيلينا الترجمة لمن لا يفهم:

– "أصيب رمسيس، تلقى رصاصتين، لكنه وغد صغير صلب. سيقاتل إذا هوجمنا مرة أخرى."

كان رمسيس في المطبخ الآن، يسكب تكيلا صافية من زجاجة على ذراعه وكتفه. كان الألم مبرحًا، لكن التكيلا عملت كمخدر لا بأس به. والضمادات التي صنعتها إيلينا بتمزيق ملاءات الأسرة ستساعد في وقف تدفق الدم.

نظر كورت بعد ذلك إلى لورا:

– "ماتت إينيز أيضًا. عثرنا عليها في الكنيسة الصغيرة."

توقف قليلاً. حاول التفكير في شيء «مناسب» لقوله.

– "رحلت بسرعة. دون ألم."

أومأت لورا برأسها بذهول. كان التعب والصدمة قد خففا من وقع الضربة. لاحظ كورت أنها لم تبكِ حتى.

تابع كورت:

– "أخشى أن هناك المزيد. الشاحنة لن تبرح مكانها. إنها غربال من الثقوب ومحطمة. و..."

سأل دييغو:

– "و؟"

كان يمسك ببندقية «إم 1» في يده وكأنها بطانية أمان. لقد أطلق النار منها عشرين مرة على الرجل الذي كان هنا في هذه الغرفة قبل عشرين دقيقة، ورغم عدم وجود جثة أو أثر دم يغادر الغرفة، شعر دييغو بأنه حمى عائلته بصد المهاجم.

– "وعندما كنت في الخارج، سمعت شاحنات في المسافة البعيدة، خلف أسوار المزرعة."

– "شاحنات؟"

– "نعم. بدت أصواتها كشاحنات مصفحة كبيرة."

حدقت لورا بعينيها المحتقنتين بالدم. لقد فهمت. أومأت برأسها:

– "فيدراليون."

أومأ كورت موافقًا:

– "سأفترض أنهم ليسوا أصدقاء. نصف دزينة من الشاحنات ربما. أخمّن أن هناك خمسين رجلاً بالخارج خلف السور."

كان كورت مصدومًا كالبقية. بدت الغرفة وكأن الحياة قد امتُصت منها تمامًا. وكأن رجال دي لا روشا، رغم أنهم لم ينجزوا مهمتهم بعد، قد قتلوا بالفعل جزءًا كبيرًا من إرادة المدافعين في البقاء على قيد الحياة.

بحث كورت في عقله عن بصيص أمل، مهما كان ضئيلاً.

تبًا، تمنى لو كان قائدًا، ضابطًا، محفزًا. اللعنة، تمامًا كما قيل له مرات عديدة من قبل، شعر في هذه اللحظة أنه مجرد «رَكّال أبواب». مجرد «تابع للاقتحام». «قرد يحمل سلاحًا».

أخيرًا، حاول التخفيف قليلاً:

– "أما بالنسبة للأخبار الجيدة... فهناك القليل منها. الفجر يكاد يبزغ، ولا أعتقد أنهم سيهاجموننا أثناء النهار. إنهم يعرفون أن لدينا مجموعة من الأسلحة الجديدة تحت تصرفنا، ولا يمكنهم قتالنا من داخل شاحناتهم المصفحة، لذا لدينا مهلة حتى حلول الظلام لنجد مخرجًا من هذه الورطة. سنبتكر شيئًا ما."

أدرك كورت أن هذا لم يكن بالضبط الخطاب الذي كان سيلقيه الجنرال باتون في وقت كهذا.

هزت لورا رأسها:

– "جو، أنت لم تنم... لا يمكنك العمل هكذا..."

– "سأكون بخير."

صرفها بحركة من يده. لم يكن لديه وقت للحديث عن حاجته للقيلولة.

– "لقد فتشت قتلى مشاة البحرية، وبالإضافة إلى الرشاشات، عثرت على أجهزة راديو، ومنظار، وهاتف محمول. يبدو أنهم غيروا رموز الراديو الخاصة بهم بالفعل. ولا بد أن الهاتف مراقب أو يجري تتبعه، والبرج في هذه المنطقة معطل، لكن يمكننا الاحتفاظ به. قد يكون مفيدًا في وقت ما."

ناقشوا جميعًا فكرة الذهاب إلى الولايات المتحدة لبضع دقائق، ثم عاد الجميع إلى مواقعهم الدفاعية. تولى كورت نوبة الحراسة على الميرادور الخلفي، الذي لا يزال الطريق الأكثر احتمالاً لأي هجوم. طلب من مارتن ودييغو ورمسيس ولورا التجول في المنزل، ومراقبة جميع النوافذ قدر المستطاع، وأُمر إرنستو الجريح والمسن بالاستلقاء مع لوز وإيلينا في القبو. أعطت لورا والدها مسدسًا ليمسكه، لمنحه شرف الاستمرار في لعب دور رمزي في حماية عائلته.

بعد عشرين دقيقة، تمدد كورت على شرفة الطابق الثاني، مواجهًا الشرق، وراقب ضوء الفجر الناعم يتدفق ببطء فوق الغابة. ظهر بياض الجدار الخلفي للعقار ببطء، وكأنه يُرسم أمام عينيه على قماش أسود.

ورغم أن كورت لم يتوقع هجومًا في وضح النهار، إلا أنه أدرك خطرًا جديدًا. فمع ضوء النهار تظهر احتمالية وجود قناصة في التلال البعيدة؛ وسيتعين على أي شخص يخرج إلى هذه الشرفات أن يزحف على يديه وركبتيه ليبقى تحت مستوى السور.

استمر الديك في الصياح.

الديك اللعين.

امتلأت عروق كورت بالأدرينالين ثم استنزفت مرات عديدة في الساعات الأربع والعشرين الماضية، وكان بحاجة ماسة للنوم الآن، الآن وقد حان وقت بدء يوم جديد.

سمع ضجيجًا من بعيد، على الجانب الآخر من الجدار مباشرة، واتضحت رؤيته مع تدفق جديد للأدرينالين. صراخ رجل. ركز كورت انتباهه على جزء الجدار الذي جاء منه الصوت؛ استطاع بالكاد رؤية الشريط الأبيض على بعد ستين ياردة من موقعه. صرخة أخرى، وفي تلك اللحظة طار شيء داكن عبر الهواء، فوق الجدار، وفوق كروم الجاكاراندا، وارتطم بالعشب الطويل، وارتد عاليًا وبشكل أخرق مثل كرة بيضاوية. تدحرج واستقر في الأعشاب القصيرة، على بعد خمس وعشرين ياردة من الحافة البعيدة للمسبح العكر.

ظهر رمسيس ومارتن على الشرفة بجوار جينتري. كانا يجوبان المنزل في دورية، ورأيا ذلك أيضًا.

سأل مارتن:

– "ما هذا؟"

أخذ كورت المنظار الذي سحبه من أحد الجنود القتلى ونظر من خلاله؛ لم يكن الضوء كافيًا للعدسات الصغيرة، لكنه استطاع رؤية الشكل المستدير الملقى هناك في العشب.

– "نو سي (لا أعرف)."

سأل مارتن:

– "قنبلة؟"

قال كورت:

– "إذا كانت قنبلة، فنحن بخير."

كانت لا تزال بعيدة بما يكفي عن المنزل.

سأل رمسيس وهو يعبث بالضمادة الدامية على ذراعه:

– "رأس؟"

كان الجميع يعلمون أن تجار المخدرات يعشقون قطع الرؤوس.

ضحك مارتن بخفوت:

– "هل رأيته يرتد؟ هذا ليس رأسًا."

ضحك رمسيس أيضًا، رغم أنه جفل من ألم جروحه وهو يفعل ذلك.

– "نعم. ليس رأسًا."

انخرط كورت في هذه الكوميديا السوداء بينما كان يمسح طول الجدار بنظره.

– "بالإضافة إلى ذلك، كنا سنعرف لو كان ينقصنا أي رأس. نحن بكامل رؤوسنا، أليس كذلك؟ هل يجب أن نجري عدًا للرؤوس؟"

ضحك رمسيس وترجم لمارتن، الذي ضحك هو الآخر. كان كورت يعلم أنهم جميعًا يقتربون من الهذيان بسبب التوتر والإرهاق.

وضع كورت المنظار وفرك عينيه. رشف آخر بقايا القهوة التي أحضرتها لوز في وقت سابق.

بعد بضع دقائق تحسن الضوء مع شروق الشمس وتوهج الصباح فوق قمم «سييرا مادري» إلى الشرق. تناول كورت المنظار مرة أخرى، وضيق عينيه، وأمال رأسه، متمنيًا أن يزداد ضوء النهار ويريه ما هو موجود هناك.

لم يكن هناك شك في أن القتلة أرادوا منه رؤيته. لقد نادوا ليضمنوا أن أحدهم ينظر إلى هناك تمامًا عندما ألقي الجسم فوق الجدار.

فجأة، اختفت دعاباته الناجمة عن الهذيان؛ انتابه شعور عميق بالشؤم تجاه هذا... الشيء، هناك في العشب.

أيًا كان، فقد عرف شيئًا واحدًا فقط: لا يمكن أن يكون خيرًا.

مهلاً... سطع ضوء أكثر قليلاً على الجانب الأيسر من الجسم. اتضح ببطء.

– "إنها... إنها كرة قدم."

أطلق زفرة ارتياح بطيئة. وحبس بعض النفس. هل يعقل أن تكون مجرد كرة قدم رُكلت فوق الجدار في السادسة صباحًا؟

سأل مارتن:

– "هل عليها رسالة؟"

واصل كورت النظر؛ كان يحتاج فقط إلى قليل من الضوء الإضافي على الجانب الأيمن.

ظهرت لورا على الشرفة الخلفية. لم يكن لدى كورت أدنى فكرة عما إذا كانت تدرك خطر القناصة البعيدين، لكنها قلدت الرجال الثلاثة، ونزلت على يديها وركبتيها وهي تزحف من غرفة النوم. لم تصدر يداها وركبتاها أي صوت على البلاط الحجري وهي تحاذي الأمريكي وتتمدد مسطحة.

– "إلى ماذا تنظرون؟"

شرح مارتن أن شخصًا ما ركل كرة فوق الجدار الخلفي. راح هو ورمسيس ولورا يخمنون بشأن ذلك، لكن كورت لم يشارك في المحادثة. كانت عيناه مثبتتين في المنظار.

ما هذا بحق الجحيم؟

تسلل المزيد من الضوء إلى الوادي. أجبر عينيه على الاتساع لامتصاص المزيد من الضوء. نعم، هذا ساعد.

لقد كان...

لا... ليس ذلك.

يا إلهي.

أغمض جينتري عينيه بقوة.

الآن عرف. همس لنفسه بالإنجليزية:

– "أي نوع من المرضى أنتم بحق الجحيم؟"

سألت لورا:

– "كي (ماذا)؟"

أنزل كورت منظاره ونظر نحو شقيقة إيدي.

– "لورا. أريدك أن تجدي لي كيسًا بلاستيكيًا كبيرًا، ومنشفة، وزجاجة ماء، وأحتاج هاتفك الخلوي."

– "الهاتف لا يعمل."

– "هل به كاميرا؟"

– "سي (نعم)."

– "أحضريه لي."

– "بور كي (لماذا)؟"

صرخ فيها بحدة:

– "فقط افعلي ذلك!"

كان متوترًا وغاضبًا، لكنه استدرك نفسه:

– "أرجوكِ."

استدارت وزحفت خارجة من الشرفة.

سأل رمسيس:

– "ما الأمر؟ ماذا رأيت؟"

– "أنا... لست متأكدًا."

قال مارتن:

– "إنها مجرد كرة قدم، صحيح؟"

نهض كورت على ركبتيه، وأمسك بالبندقية مزدوجة الفوهة في يده، وبدأ يزحف عائدًا عبر الباب إلى الطابق الثاني من المنزل.

– "أتمنى ذلك."

بعد خمس دقائق كان في الفناء، رابضًا بانخفاض خلف حوض زراعة مليء بزهور الأزاليا. استغل التشجير الكثيف وبقي ملتصقًا بالأرض قدر الإمكان بشريًا وهو يشق طريقه عائدًا إلى المسبح، متوقفًا كل بضعة أقدام للتنصت بحثًا عن أصوات بشرية وللتأكد من غياب

أصوات الحيوانات. سمع تغريد الطيور وحتى نقيق الضفادع عند المسبح، وهذا أرخى أعصابه قليلاً. كان واثقًا إلى حد معقول بأنه الشخص الوحيد في الحديقة الخلفية للمزرعة، واستخدم هذه الثقة ليدفع نفسه قدمًا. إذا قفز القتلة فوق الجدار، الذي لا يزال يبعد عنه أربعين ياردة، فهو يدرك تمامًا أنه سيكون في ورطة كبرى. سيتمكنون من رؤيته مستلقيًا هناك في العشب. ولم يكن معه سوى سلاح يطلق طلقتين دون إعادة تلقيم، وإعادة التلقيم من جيب مليء بخراطيش الصيد لن تكون عملية فعالة للغاية.

حمل البندقية كملاذ أخير، لكنه كان يعلم أن آخر شيء يريد الانخراط فيه الآن هو معركة بالأسلحة النارية.

كان رمسيس ومارتن في الأعلى على الميرادور، يغطيانه برشاشات «MP5» المأخوذة من الجنود القتلى، لكن بخلاف ذلك، كان وحيدًا.

مر بعدة جثث من موجتي القتل الأوليين لدي لا روشا. كان كورت ومارتن ورمسيس قد جردوا الجثث بالفعل من أي معدات أو معلومات مفيدة، لذا استخدمها الآن فقط للتخفي وهو يزحف عبر الفناء، بمحاذاة المسبح العفن المليء بالبعوض والضفادع، المسبح الذي سبح فيه قبل خمس ساعات.

سمع أصواتًا مرة أخرى على الجانب الآخر من الجدار. صرخة عالية، قهقهة، كضحكة شخص مجنون، فتوقف عن زحفه المنخفض. لم يستغرق الأمر أكثر من بضع ثوانٍ ليدرك أنهم لن يهاجموا – من ذا الذي يكشف موقعه ليأتي بعدها فوق الجدار، مكشوفًا للمدافعين الذين نبههم للتو؟ لا، أدرك كورت أنهم يحاولون جذب انتباه المدافعين عن المزرعة ليلاحظوا الشيء الذي قذفوه فوق الجدار قبل خمس عشرة دقيقة.

أقلق هذا جينتري بقدر ما يقلقه الهجوم المباشر تقريبًا.

بدأ يتحرك مرة أخرى، مغطيًا البلاط البارد بسرعة أكبر الآن، رغم أنه لم يرغب فعليًا في الوصول إلى وجهته. لقد رأى ما يكفي عبر عدسات المنظار ليدرك ما سيجده. لقد أحضر الكيس البارز من حزام بنطاله وزجاجة الماء التي تتدحرج داخله والكاميرا في جيبه الخلفي لسبب وجيه.

أحضر المنظار معه أيضًا. ليس لأنه سيحتاجه هنا، وهو يزحف على الفناء ببطنه كثعبان عشب. لا... أخذه لأنه لم يرد لمن هم في المنزل أن يروا كرة القدم. أن يروا ما سيفعله. سيفعل هذا وحده، ويتعامل مع الوضع المريع بأفضل طريقة ممكنة، ثم يشرح هذا الوضع المريع لمن في المنزل بأفضل ما يستطيع.

كانت المعنويات حاسمة لمجموعة تحت الحصار، وقد أصبحت المعنويات مريعة في بيت الموت هذا، والآن، كان جينتري متأكدًا تمامًا أن المعنويات على وشك الانهيار والسقوط في الهاوية اللعينة.

دخل العشب الطويل، وتجاوز المزيد من جثث الشرطة الفاسدين والقتلة المدنيين المرتزقة، وواصل التقدم نحو الجسم الملقى في العشب أمامه.

بفضل مئات التجارب الحرفية في حياته والأشياء التي رآها خلال تلك التجارب، كان كورت جينتري رجلاً يستحيل تقريبًا إثارة اشمئزازه.

لكن وجهه تقلص حين وصل إلى الكرة في العشب، وارتد جسده قليلاً حين لاحظ الدم الملطخ على الأرض بجوارها، ولم ترغب يده في الامتداد ودحرجتها نحوه. لكنه فعل؛ مد ذراعه ووضع أطراف أصابعه على الكرة وسحبها إليه. شعرت يده بشيء بارد وطري وهو يفعل ذلك، وكاد يتقيأ هناك في العشب. تمالك نفسه وهو يسحب الكرة قريبة منه وينظر إليها.

كان وجه إنسان مرتخٍ ومترهل، وجه شاب، قد خيط بخيوط جلدية سوداء سميكة على الكرة التي تلطخت بالدم وبقع العشب. كانت كتلة من العشب عالقة في أحد محجري العينين الفارغين. لم تكن لديه فكرة عن صاحب الوجه، لكنه كان متيقنًا أن شخصًا ما في المنزل سيعرفه.

لم يكن هذا مجرد مواطن محلي عشوائي تم تقطيعه وتحويله إلى لعبة مروعة.

لا، هذا حبيب لشخص ما.

فرد من عائلة أحدهم.

هذه رسالة. استسلموا، اخرجوا، أو سيموت كل من تحبون.

وضع كورت الكرة في الكيس، ونهض على ركبتيه، وركض منخفضًا عائدًا نحو سقيفة حديقة حجرية متهالكة. كان الداخل عفنًا ومظلمًا؛ ترك الباب مفتوحًا ليمنحه ضوءًا كافيًا للعمل، وأخذ الكرة ذات الوجه المخيط عليها، وغسلها بالماء من الزجاجة البلاستيكية. ثم أخذ المنشفة وجفف الوجه ونظفه قدر الإمكان. كاد هذا الفعل يصيبه بالغثيان، لكنه لم يرَ بديلاً آخر لخطته. عندما أصبح الوجه نظيفًا قدر استطاعته، لم يكن بالإمكان تسميته «مقبولاً»؛ فحصه لفترة طويلة. كان بالكاد يمكن التعرف عليه كجزء من إنسان؛ الخياطة تمزقت عند الجبهة وتدلت قطعة من الجلد؛ ضغطها كورت عائدة إلى مكانها. كانت الذقن مشدودة للأسفل بشدة، مما سحب الوجه خارج أبعاده الطبيعية كعكس لعملية شد وجه فاشلة.

أنّ جينتري، وقاوم موجة ثالثة من الغثيان، وأخرج الهاتف المزود بكاميرا.

بعد عشر دقائق كان جينتري قد عاد إلى غرفة الجلوس الضخمة في المنزل. وضع مارتن على الميرادور الخلفي ورمسيس عند الباب

الأمامي؛ كل رجل الآن مسؤول عن مائة وثمانين درجة من الأرض، وهو وضع بعيد عن المثالية، لكن كورت أدرك حاجته لجمع عائلة غامبوا معًا. جلس كورت على كرسي أمام إيلينا، ولورا، وإرنستو، ولوز، ودييغو.

خطر له أن يحتفظ بهذه المعلومة لنفسه، لكي لا يقضي تمامًا على معنويات من في المنزل بإعطائهم أخبارًا مريعة. لكن المعلومات كانت مهمة. كانت شحيحة جدًا في الوقت الراهن، وكان بحاجة لمعرفة من اكتشفه القتلة وقتلوه. هل كان مخبرًا؟ شخصًا قد يسلط موته ضوءًا من نوع ما على الأعداء والأصدقاء في هذا الصراع؟

لا، قرر كورت، هذا سر أخطر من أن يُكتم.

أدرك كورت أنه لا توجد فرصة لعينة لأن يقول الأشياء الصحيحة الآن، أو أن ينقل الخبر لأي أحد بأي طريقة يمكن تفسيرها على أنها مريحة أو لطيفة. أخبر نفسه أنه غير مدرب على تقديم المواساة وأنه لا طائل من إضاعة الوقت في المجاملات عندما تكون هناك مسائل حياة أو موت يجب الاهتمام بها.

لكن لم يغب عن ذهن القاتل الأمريكي أن هذا مجرد عذر يستخدمه لتجنب حتى محاولة التواصل مع بشر آخرين بطريقة طبيعية ورحيمة.

قرر الآن، ولأجل مصلحة هذه العملية، أنه سيبذل جهدًا على الأقل لنقل هذا الخبر بأفضل طريقة ممكنة.

– "لقد تلقينا رسالة."

سألت إيلينا:

– "أي نوع من الرسائل؟"

قلق كورت من أن تكون هي من يعرف الرجل الميت على كرة القدم وأن الصدمة قد تؤثر بطريقة ما على حملها.

لا حيلة لي في ذلك، أخبر نفسه الآن. شعر بجسده يتوتر، متخليًا عن خطة الإلقاء اللطيف.

– "اسمعوا. أنا آسف، لكنني سأقولها وحسب. قُتل رجل ما على يد القتلة؛ تم قطع وجهه وخياطته على كرة قدم. رُكلت الكرة فوق الجدار الخلفي، وهي الآن في كيس بسقيفة الحديقة؛ إنها في مكان مرتفع وآمنة من الحيوانات. التقطت صورة للوجه تحسبًا لأن يتمكن أحدكم من التعرف عليه."

تردد.

– "أعني... تحديد هويته."

ظلت العائلة جالسة هناك. تحدق فيه بذهول.

– "سيكون شخصًا يعني الكثير لأحدكم. ربما لكم جميعًا. أنا آسف."

فهم جمهوره المغزى الآن، وتحولت الوجوه التي اعتصرها التوتر بالفعل بسبب القلق الجديد إلى أقنعة من الرعب والألم. لكن إرنستو أومأ برأسه، وقال بصوت خافت:

– "أرني إياها. إذا لم أعرف من هو، سأمررها. لا داعي لأن ينظر الجميع إن لم يضطروا لذلك."

أومأ كورت، وفتح الصورة على الهاتف، وسلمها لوالد إيدي.

ازدادت تجاعيد العجوز عمقًا، لكنه لم يبدِ أي عاطفة أخرى. أدار الهاتف يمينًا ثم يسارًا بيده اليسرى؛ كانت يده اليمنى بلا فائدة الآن بسبب الجرح في كتفه. استغرق وقتًا طويلاً محاولاً تمييز وجه في شريط اللحم الممدد المثبت على الكرة. بعد لحظة طويلة، لحظة رأى فيها جينتري أن الرجل يريد تجنيب بقية عائلته ألم النظر، هز كتفيه وحسب.

قال:

– "لو سييينتو (أنا آسف). لا أعرف هذا الشاب."

مد دييغو يده وأخذ الهاتف من جده. وضع يده على فمه من الصدمة لكنه أبعدها، باذلاً قصارى جهده للتماسك؛ رجولته الشابة جُرحت بما اعتبره بوضوح عرضًا للضعف.

بعد عشر ثوان قال:

– "لا أعرف."

أخذت لوز غامبوا الكاميرا، نظرت، ومررتها بسرعة. بدت الأكياس البنية تحت عينيها، حصيلة أيام من الحزن والتوتر وقلة النوم، وكأنها تتقلص قليلاً، لكنها هزت رأسها. ثم جاء دور لورا، لم تبكِ، لكن وجهها احمرّ. رسمت علامة الصليب وتمتمت بصلاة صامتة للرجل الميت.

لكنها لم تعرف من هو.

كانت إيلينا الأخيرة. أراد الجميع حمايتها، لكنها أخذت الكاميرا ونظرت إلى الصورة. نشجت بصوت خافت لكنها هزت رأسها.

تبًا، فكر كورت. لا بد أنه شخص ما؛ لماذا يتكبدون كل هذا العناء إن لم نكن نعرف المسكين؟ طلب من الجميع التأكد، النظر مرة أخرى؛ وجد نفسه غاضبًا لأنهم لم يتمكنوا من معرفة من قُتل لمجرد الوصول إليهم.

لكن لا، لم يعرف أحد في الغرفة الوجه.

تساءل إن كان من الممكن أن يكون شخصًا ذا صلة بآل كوراليس. لا يمكن لـ «البدلات السوداء» أن يعرفوا بالتأكيد من قُتل في المنزل، ربما هم فقط...

لا. ليس هذا.

اتضح له الأمر ببطء؛ تمنى لو فكر فيه قبل إجبار هؤلاء المساكين أمامه على النظر مرة أخرى. لكنه فكر فيه الآن، لذا أرسل لورا إلى موقع رمسيس ودييغو إلى موقع مارتن. طلب من إيلينا ولوز وإرنستو الذهاب إلى القبو ومحاولة الحصول على بعض الراحة.

بعد دقيقة جلس ضابطا «GOPES» أمامه. شرح كورت الوضع، وفهم كلا الرجلين.

أخذ رمسيس الكاميرا بفظاظة من الأمريكي، وأمسكها بذراعه السليمة، ونظر إليها بينما حدق مارتن من فوق كتفه. راقب كورت وجوههم فقط؛ ضبط نفسه وهو يرغب في رؤية ومضة تعرف من أحد العسكريين المتمرسين.

ونال مراده. احتقن وجه مارتن أوروزكو وارتجفت عيناه، وانخفضتا بينما غادر عقله الحاضر وعاد بذاكرته إلى الوراء. استطاع جينتري رؤية كل ذلك في وجهه. إنه شخص يعرفه، شخص مقرب، شخص يعرفه منذ زمن طويل.

عزيز عليه.

فقط من التعابير على وجه مارتن، قال جينتري بصوت خافت:

– "إنه أخوك."

نشج مارتن الاسم:

– "بابليتو."

انهمرت الدموع بحرية من عينيه وهو يتمتم بالإسبانية:

– "يا إلهي، أبناء العاهرات قتلوا أخي الصغير."

تراوح وجه الفيدرالي بين الغضب والرعب واليأس المطلق.

– "إنه مجرد... كان مجرد تاجر في كويرنافاكا. لم يكن جنديًا... لم يكن يمثل شيئًا لهم."

عانق رمسيس سينفويغوس رفيقه بذراعه غير المصابة، وهز رأسه حزنًا واشمئزازًا.

قال كورت:

– "لكنك أنت تمثل شيئًا لهم. أنت هنا."

أومأ مارتن، ووجهه شارد.

– "إنهم يعرفون أنك حي."

التفت إلى رمسيس.

– "مما يعني أنهم على الأرجح..."

قال رمسيس بجدية:

– "يعرفون أنني حي أيضًا."

لم يستطع كورت سوى تخيل ما يدور في رأسه. بالتأكيد، كان يفكر في زوجة، إخوة، أخوات، آباء، أطفال.

في أوقات كهذه، كان كورت جينتري يقدر كونه وحيدًا.

قال مارتن وهو لا يزال ينظر إلى صورة وجه أخيه الصغير الممزق:

– "سيدفع هؤلاء الـ بينديخوس (الأوغاد) الثمن."

فكر جينتري في الموقف للحظة وهو يستعيد الهاتف المحمول. اتخذ قرارًا سريعًا ووضع يده برفق على كتف مارتن.

– "اسمع جيدًا يا صديقي. أريدك أن ترحل. أريدك أن تذهب لحماية بقية عائلتك."

هز المكسيكي رأسه بقوة.

– "لا. أنا هنا لحماية عائلة الرائد غامبوا..."

– "أنت تعلم أنك مكشوف. إذا تمكنوا من الوصول إلى فرد واحد من عائلتك، فيمكنهم الوصول إليهم جميعًا. لا يمكنني إبقاؤك هنا، تفكر فيما يحدث في الخارج. لا يمكنني القلق من أنهم سيفعلون شيئًا يجعلك تنقلب علينا..."

– "أنا لن..."

– "أنا أصدقك. أصدق أنك تؤمن بذلك. لكنني لن أسمح لك بالبقاء في هذه العملية. أفضل طريقة لمساعدتنا هي بالابتعاد، وسحب ورقة الضغط من يد العدو. أنت تعرف ذلك يا صديقي."

فهم مارتن. أومأ ببطء.

قال كورت:

– "عليك محاولة الهروب فورًا."

أومأ مارتن. ظلت عيناه شاردتين.

– "شكرًا لك."

نظر كورت إلى رمسيس الآن.

– "وأنت أيضًا يا صديقي. إذا عرفوا أن مارتن نجا من انفجار اليخت، فهم على الأرجح يعرفون أنك نجوت أيضًا. لا يمكنهم حراسة المحيط بأكمله طوال الوقت؛ إذا تمكنتما من الوصول إلى الجدار دون أن يتم رصدكما، وإذا ذهبتما في اتجاهين متعاكسين من المزرعة، يمكنكما انتظار اللحظة المناسبة للتسلق والركض عبر حقول الأغاف."

هز رمسيس رأسه.

– "جو، أنت وآل غامبوا لن تصمدوا ساعة واحدة بعد حلول الظلام. لا أحد آخر لديه أي تدريب أو قدرة على..."

– "لا يهم. انظر. سيلاحقون عائلتك إن لم يفعلوا ذلك بالفعل. سيقتلونهم، يعذبونهم؛ أنت تعرف كيف يعمل هؤلاء الأوغاد."

– "لن أتركك لتموت."

– "أحتاج منك أن تهرب."

– "ماذا ستفعل؟"

قال جينتري:

– "لدي خطة، لكن لا يمكنني إخبارك بها تحسبًا للقبض عليك من قبل «البدلات السوداء»."

فكر رمسيس في الأمر، وأومأ ببطء. أخرج هاتفًا من جيب سترته التكتيكية. جفل مع الحركة، فجروح الرصاص في ذراعه كانت مؤلمة بوضوح. سلم هاتفه لجينتري.

– "أريدك أن تبقي هذا معك. إذا خرجت من هنا، سأصل إلى هاتف. سأتصل بالرجل في السفارة الأمريكية الذي يمكنه تأمين

تأشيرات لآل غامبوا إلى الولايات المتحدة. إذا تمكنت من الوصول إلى مكسيكو سيتي، سأرتب لقاءً."

– "ممتاز."

– "لكن سيتعين عليك إخراجهم من المزرعة، بعيداً عن كل هؤلاء القتلة في الخارج، بمفردك. كيف بحق الجحيم ستقوم بـ..."

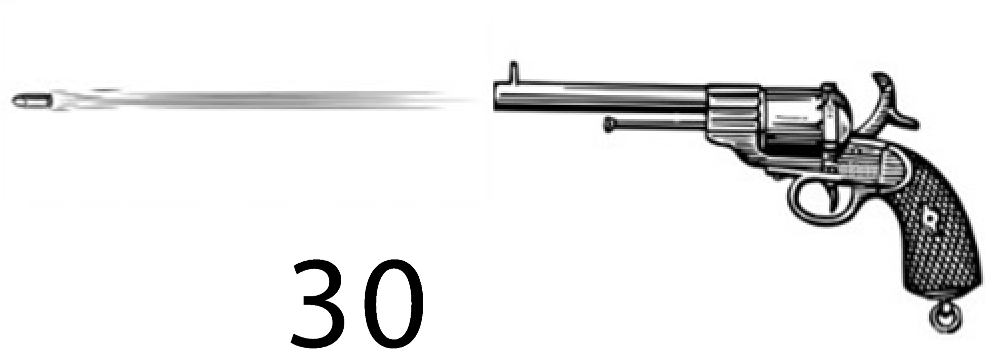
– "سأنجز الأمر."

لم يكن مارتن جزءًا من هذه المحادثة. كان يحدق بذهول في البلاط أمامه. نظرته تائهة؛ افترض كورت أن أفكاره كانت مع شقيقه الصغير بابلو.

أعاد كورت مارتن إلى النقاش عبر استعراض أفكار لتسلهما خارج المزرعة في وضح النهار. رأى كورت أنه من المستبعد أن ينجو كلاهما، لكنهم اتفقوا جميعًا، إذا ذهبا في اتجاهين متعاكسين في نفس الوقت، فإن أحدهما سيحظى بفرصة معقولة.

بالطبع، استخدام دراجتيهما الناريتين سيكون انتحارًا. كان هناك أكثر من مائتي ياردة من الممر الممتد من المنزل الكبير إلى البوابة الأمامية، وسيعرف العدو بمحاولة الهروب قبل وقت كافٍ للتجمع هناك وقتل سائق الدراجة قبل أن يتمكن من الفرار.

لذا سيتعين عليهما محاولة الهروب سيرًا على الأقدام، وسيتعين عليهما القيام بذلك في وقت واحد، وقرر الثلاثة أن مارتن ورمسيس يجب أن يذهبا الآن.



30

تعانق ضابطا القوات الخاصة عند مدخل الممر الأمامي؛ فبعد أن ودّعا (الغرينغو) ومن نجا من آل غامبوا وتمنيا لهم حظاً طيباً، بدآ في حزم زجاجات الماء ولفائف الخبز في جيوبهما، واستوليا على أسلحة كاملة الذخيرة من جثث المارينز المتناثرة حول المنزل. زامنا ساعتيهما، وناقشا توقيت تسلق الأسوار؛ على أن يتجه مارتن شرقاً ورمسيس غرباً.

سار الرجلان متجاوزين دراجتيهما الناريتين السريعتين، وانطلقا في اتجاهين متفارقين، بينما عاد كورت إلى الداخل.

كانت الساعة التاسعة صباحاً فحسب، وكان كورت قد بلغ منه الإنهاك مبلغه. كان يحمل في رأسه خطة للخلاص، أو شيئاً من هذا القبيل، لكنها كانت خطة واهية كخيط العنكبوت وهو يدرك ذلك تماماً. ولفرط وهنها، قرر إرجاء إخبار آل غامبوا بها لأطول فترة ممكنة، يقيناً منه بأنها ستصيبهم بالذعر، لكنه علم أيضاً أنها السبيل الوحيد المتاح لنجاتهم.

توقف كورت في المطبخ ليتجرع بعض القهوة الطازجة، ثم حملها معه إلى المرصد الخلفي، حيث جلس فوق البلاط يرتشفها ببطء.

نظر إلى ساعته. بعد عشر دقائق من الآن، يفترض أن يكون رمسيس ومارتن قد بلغا السور في جهتين متقابلتين من الهاسيندا. لم

يكن بمقدوره رؤية أي منهما من مكانه، فاكتفى بالجلوس والانتظار، مصلياً ألا يسمع دوي أي إطلاق نار.

مضت خمس دقائق. صعدت لورا لتطمئن عليه، وسألته إن كان بإمكانها أخذ قسط من الراحة في القبو. أخبرها أن تغتنم بضع ساعات للنوم لأنها ستحتاجها لاحقاً، فلبثت بجانبه دقيقة أخرى، وشكرته على كل ما قدمه. أجابها بأنه لا داعي للشكر؛ حدق كل منهما في عيني الآخر المتعبتين لبضع ثوانٍ، ثم انسلت عائدة نحو الأسفل.

تتبعتها عيناه المنهكتان. يا لجمالها! فكر في صلابتها وحزمها اللذين يمتزجان بلين وعطف نادرين. تساءل كيف سيكون شعور لمسها، أو أن تلمسه هي، وأن يكونا معاً في مكان هادئ وآمن.

اللعنة، لقد بدأتُ أهذي.

هز كورت رأسه محاولاً طرد تلك الأفكار. ومع ذلك، أدرك الآن أن صديقه إيدي كان محقاً بشأن شقيقته منذ سنوات طويلة؛ إنها حقاً امرأة استثنائية.

نظر كورت إلى ساعته. لقد حان الوقت. في هذه اللحظة تحديداً، يُفترض أن يكون كلا الرجلين فوق السور – أحدهما في الشرق والآخر في الغرب – يترقبان ثغرة في دوريات الفيدراليين الفاسدين، آملين في قهر المستحيل والفرار نحو الحرية.

لا طلقات نارية. هذا مؤشر جيد. حتى الآن لم يحدث أي—

فجأة، دوى زئير محرك دراجة نارية في الممر الأمامي على الجانب الآخر من "البيت الكبير". ما هذا الهراء؟ من ذا الذي—

وثب كورت واقفاً، وركض من الشرفة إلى غرفة النوم ثم إلى الممر، واجتاز الدرج قفزاً ليبلغ غرفة الجلوس، ثم اندفع ماراً بالمطبخ. كان دييغو هناك، فلحق بـ كورت وهما يقتحمان ممر المدخل ويفتحان الباب الأمامي.

انطلق مارتن أوروزكو فرنانديز كالسهم على دراجته من طراز "سوزوكي"، مثيراً سحابة من الغبار والحصى خلفه. مر بالشاحنة المحطمة حيث تقبع جثة إغناسيو، واندفع في الممر بسرعة جنونية، ممسكاً بمدفع HK MP5 بيده اليمنى ومصوباً إياه للأمام. ترنحت الدراجة فوق الحجارة، لكنه أحكم سيطرته عليها بيد واحدة وهو يسبق الريح نحو الغابة متوارياً عن الأنظار، متجهاً مباشرة نحو البوابة الأمامية.

نحو قبضة العدو مباشرة، الذي سيهرع بالتأكيد نحو مصدر الضجيج، ويحكم الحصار هناك استعداداً لسحق الدراج وصاحبه.

كان هذا الفداء سيمنح رمسيس، الرابض عند الجدار الغربي، الوقت والفرصة للفرار.

اندلع إطلاق نار كثيف في المدى البعيد عند البوابة الأمامية، طغى صوته على عويل المحرك. وقف كورت على الشرفة الأمامية، بندقيته في يده، وهز رأسه بأسى. لقد قدم مارتن حياته ثمناً ليشتري لصاحبه بضع ثوانٍ غالية لتبلغ قدماه طريق الحرية. في مكان ما إلى يسار جينتري، على بُعد مئات اليردات، سيسمع رمسيس صوت الدراجة، ودوي الرصاص عند البوابة، وسيدرك ما يفعله صديقه من أجله الآن.

تخيل كورت كيف سيتدحرج رمسيس ثينفويغوس – بجرحيه النازفين – من فوق السور ويركض عبر الطريق الترابي، مندفعاً نحو حقول "الأغاف" والدموع تملأ عينيه.

استمر الرصاص في البعيد.

توقف محرك الدراجة.

ثم خفتت حدة إطلاق النار، حتى تلاشت تماماً.

تمنى كورت من أعماقه أن يكون مارتن قد نال ثأره، وقتل بعضاً من هؤلاء الأوغاد، واسترد حق شقيقه البريء بابلو الذي عُذب وقُتل ظلماً.

عاد جينتري ودييغو إلى داخل المنزل دون أن ينبسا ببنت شفة.

بعد عشر دقائق، ومع سكون الجبهة التي فر منها رمسيس، علم كورت أن مارتن قد نجح في مهمته الأخيرة.

لقد نجا رمسيس.

بحلول الظهيرة، لم يبقَ في المنزل مستيقظاً سوى كورت ولورا. كانت لوز وإيلينا تنامان في عتمة القبو، بينما انهار دييغو من التعب على أريكة غرفة الجلوس، وجلس إرنستو يغفو على كرسيه في المرصد فوق الباب الأمامي، وفي حجره مدفع MP5. بدأ جرح كتفه يلسعه ويحترق، لكن زوجته أعطته ما يكفي من الأسبرين والتيكيلا لتسكين الألم قليلاً، وأصر العجوز على المشاركة في الدفاع عن العقار.

لقد رفض تماماً الاختباء في القبو مع النساء بعد الآن.

بقي كورت في المرصد الخلفي؛ جالساً فوق البلاط البارد في الظل. غلبه النعاس مراراً، لكنه لم ينعم بأكثر من ستين ثانية من الراحة. حاول ابتكار مخرج للجميع، لكن الحل الوحيد الذي لاح له بدا وكأنه طلقة في عتمة دامسة.

لفت انتباهه ضجيج في الساحة بالأسفل؛ فانحنى للأمام، جاثياً بين الأعمدة الحجرية التي نال منها الرصاص في المواجهة الأولى، حين استخدم رمسيس هذا المرتفع لإطلاق النار على الرجال في الساحة الغارقة في ضوء شاحنة "فورد". كانت شاحنة إيدي العزيزة ترتطم الآن بين الشجيرات كجثة حيوان نافق، منهارة على جانب واحد بلا حراك، بعد أن تلقت ما لا يقل عن مئة رصاصة وخرطوش.

هناك، في الساحة بالأسفل، رأى لورا. كانت تجثو فوق جثة رجل يرتدي زي شرطة بلدية تيكويلا. تساءل كورت في البداية إن كانت تبحث في الجثة عن سلاح أو مال أو أي شيء ينفعهم.

همّ كورت بمقاطعتها من الأعلى ليؤكد لها أنه استخلص كل ما هو ذو قيمة من تلك الجثة المثقوبة بالرصاص، ولكن قبل أن ينطق بكلمة،

رأى شقيقة إيدي الصغرى ترسم علامة الصليب ومسبحتها في يدها، وبدأت تصلي.

كانت تصلي من أجل أرواح الرجال الذين قتلوا شقيقها للتو، وحاولوا إبادة كل من في هذا البيت!

هز جينتري رأسه؛ لم يستوعب هذا القدر من التسامح أو الغفران.

لم يكن هذا عالمه على الإطلاق.

لم يكن عالمه، ومع ذلك قرر أن يخاطر من أجله.

وجد إيلينا في المطبخ تصب لنفسها الماء من جرة كبيرة، فطلب منها المجيء إلى غرفة الجلوس. بقي إرنستو في نوبة حراسته، وظلت لوز في القبو، لكن جينتري أراد التحدث إلى إيلينا ولورا ودييغو.

– "اسمعوا، حتى لو وصل رمسيس إلى بلدة ما، أو عثر على هاتف أو سيارة، فلا يمكننا الرهان على وصوله قبل حلول الليل. الفيدراليون سيضربون المكان بمجرد أن يجن الظلام؛ هذه حقيقة لا ريب فيها."

سألت إيلينا:

– "وماذا سنفعل إذن؟"

– "عليّ أن أحاول اختراق الحصار، لجلب المساعدة أو العثور على سيارة–"

قاطعته لورا بنبرة من توقع الأمر:

– "اذهب يا خوسيه. لقد فعلت كل ما بوسعك. لم نكن لنصل إلى هنا لولاك. شكراً جزيلاً لك على كل شيء."

شعر كورت برغبة في الدفاع عن نفسه.

قالت إيلينا وكأنها تقر حقيقة واقعة:

– "أنت ترحل عنا إذن."

رأى كورت في عينيها أنها لا تملك أي أوهام بشأن نجاتها أو نجاة طفلها بدونه.

– "أنا لا أهرب منكم؛ كل ما في الأمر أننا لا نستطيع–"

– "لا بأس."

قالتها وهي لا تصدقه؛ كان ذلك جلياً.

التفت إلى لورا:

– "إذا تمكنتُ من الوصول إلى البلدة، فسأحصل على شاحنة أو ما شابه. سأعود إلى هنا قبل أن تدركوا غيابي."

– "وكيف ستتجاوز القتلة المأجورين؟"

لم يكن جينتري مستعداً لمناقشة تفاصيل خطته، إذ لم تكن لديه خطة حقيقية لما سيفعله بمجرد عبور السور، لكنه كان يثق، إلى حد ما، في قدرته على تدبر أمره إذا خرج ورأى تضاريس المنطقة من منظور آخر.

– "لقد فعلها رمسيس. سأتوجه إلى ذلك الجانب من العقار."

بدأت إيلينا تفقد هدوءها، وعلم كورت أنها لا تفكر إلا في جنينها:

– "رمسيس كان لديه مارتن الذي ضحى بحياته ليخلق له تشتيتاً. هل تريد من أحدنا أن—"

– "بالطبع لا. يمكنني التسلل وحدي." تردد قليلاً وهو ينظر في تلك العيون المتعبة والمنهارة: "أنا أمارس هذا العمل منذ زمن طويل."

سألت إيلينا بغضب:

– "التسلل والهرب؟"

أقر كورت:

– "نعم.. لكني سأعود."

كان من الواضح أن إيلينا ودييغو لم يصدقاه. نظر إلى عيني لورا البنيتين الواسعتين، فرأى فيهما عطفاً وتفهماً، لكنه لم يدرِ يقيناً ما الذي يدور في خلدها.

انتزع كورت قميصاً مموهاً من جثة أحد المارينز عند الباب الخلفي. كان الرجل قد أُصيب في رأسه، لذا جفت الدماء حول ياقة

القميص، لكن جينتري تجاهل الأمر، وخلع سترته الجينز وارتدى قميص القتيل.

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ظهراً حين بدأ كورت يشق طريقه عبر المنزل نحو الجناح الغربي. كانت الشمس في كبد السماء فوق الجبال، يتخلل ضوءها غيوم متفرقة. عادت إيلينا إلى القبو دون وداع، لكن لورا ودييغو تبعاه إلى الممر.

– "ابقيا هنا. واصلا الحراسة، ولكن إذا هاجم القتلة، فلا تحاولا الدفاع عن المنزل. اذهبا إلى القبو وقاتلاهم من هناك. يمكنكما إلحاق ضرر كبير بأي قوة مهاجمة تحاول اقتحام ذلك الممر الضيق."

لم يذكر كورت الوجه الآخر لهذه الحقيقة: أن القوة المهاجمة يمكنها أيضاً إلحاق ضرر هائل بقوة مدافعين محصورة في حفرة صغيرة بلا مخرج.

سأل دييغو بعد أن لاحظ أن خوسيه لا يحمل سلاحاً:

– "ألن تأخذ معك بندقية؟"

– "لا."

– "ولماذا؟"

– "أنتم بحاجة لكل قطعة سلاح وكل رصاصة. كما أنها لن تنفعني؛ فإذا بدأتُ إطلاق النار هناك خلف السور، فسيكون فوق رأسي خمسون رجلاً في رمشة عين."

هز دييغو رأسه محبطاً:

– "لا، ليس هذا هو السبب. أعتقد أنك تفعل ذلك لأنك تشعر بالذنب. أنت تهرب، وتريد إراحة ضميرك بقولك: (لقد تركتُ لهم كل الأسلحة، فماذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك؟)."

أراد كورت أن يخبر الفتى أن عليه تعلم الثقة بالناس، لكنه كبح جماح نفسه. لا، في الواقع، لم يكن دييغو بحاجة لتعلم الثقة هنا؛ فهذه

نصيحة لا تجدي نفعاً في هذا المكان. فـ كورت نفسه لم يكن يثق بأحد، لأسباب لا تقل وجاهة عن أسباب دييغو.

كلا المكسيكيين اللذين يقفان أمامه تعرضا للغدر والكذب والخيانة من قبل. فكيف له أن يخبرهما أنه مختلف؟

لا يمكنه إخبارهما؛ بل عليه أن يثبت لهما ذلك بالأفعال.

استدار وتركهما هناك في الممر.

استغرق زحف كورت معظم وقت الظهيرة. وبينما كان يسحب جسده عبر الأعشاب، كان يصغي لطلقات الرصاص المتقطعة التي تنطلق من "البيت الكبير" كل عشر دقائق تقريباً. كان يتوقع أن ينتظر رجال "دي لا روشا" حتى حلول الليل قبل الهجوم، لكنه علم أنه لا يمكن استبعاد قيامهم بإرسال كشافين أو مخربين خلال النهار لاستطلاع ما يواجهونه. والسبيل الوحيد الذي رآه لمنع ذلك، أو على الأقل إبطاء تحركاتهم، هو توجيه لورا ودييغو لإطلاق النار كل بضع دقائق في اتجاهات مختلفة. فإذا فعلوا ذلك بأنماط عشوائية ومتقطعة، فقد يظن المتسللون الفيدراليون أنه تم اكتشاف أمرهم، فيلزمون أماكنهم أو يتراجعون خلف سور الهاسيندا.

تمنى كورت لو كان بمقدوره التحرك بسرعة أكبر، فهو يعلم أن الوقت لا يرحم، لكن مع التلال والجبال المتموجة في الأفق، لم يكن بمقدوره الركض مكشوفاً عبر العقار؛ إذ سيقتنصه القناصة في الحال.

كان الزحف البطيء مقايضة ضرورية لتجنب هذه النهاية.

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة والنصف حين وصل إلى السور. انسل تحت أشجار الصفصاف الباكية، وأخرج زجاجة ماء صغيرة وتجرعها. كان مجهداً وقد لفحته الشمس؛ ركبتاه وساعداه ويداه كانت مخدوشة وملطخة بالدماء، وكتفاه وأسفل ظهره يئنون من التعب. شعر بأن أنسجة الندبة في لوح كتفه الأيسر – حيث نفذ سهم قبل سبعة أشهر – مشدودة ومؤلمة؛ فمد يده ودلك المنطقة وهو

يستريح. بعد دقائق معدودة في الظل، نهض وسار بمحاذاة الضفة الضيقة، وتعثر في الطين مرة أو مرتين وهو يتوغل تحت أغصان الأشجار الكثيفة. رأى أفعى ماء تطفو نحوه في البركة العكرة، فتجاهلها وواصل المسير قليلاً، ثم تسلق شجرة تصل أغصانها إلى ما فوق السور.

من علياء مكانه، استطاع أخيراً رؤية الطريق الترابي الذي يمتد خلف سور الهاسيندا مباشرة. من موقعه هذا، يمكنه التأرجح والهبوط فوقه، ثم الركض للجانب الآخر، والارتماء بين نباتات "الأغاف" الزرقاء الطويلة التي تنمو وسط الأعشاب الكثيفة.

همّ بفعل ذلك لولا مرور شاحنة حمراء من جهة اليمين. كانت محملة برجال يحملون بنادق، ثمانية في المجمل، مروا تحت موقعه مباشرة، وهم يهتزون مع وعورة الطريق، حتى اختفوا خلف السور إلى يساره على بُعد مئة ياردة.

كان الرجال من فلاحي المنطقة، يرتدون سراويل الجينز وقبعات القش، لكنهم لم يكونوا يفلحون حقولهم؛ بل استأجرهم أحدهم للقيام بدورية حول المحيط.

بعد ثوانٍ، ظهر فيدرالي على دراجة نارية قادماً من الاتجاه المعاكس.

وبحلول الوقت الذي اختفى فيه الدراج خلف الزاوية الجنوبية للسور الخارجي، كان كورت يسمع دوي محرك شاحنة أخرى. ظهرت الشاحنة؛ كانت سوداء وتحمل شعار الشرطة الفيدرالية (PF). وقف ضابطان في حوضها ممسكين بقضيب الحماية بيد، بينما يسندون بنادق M4 فوق سقفها باليد الأخرى.

بالتأكيد لم يشهد هذا الطريق الزراعي القديم مثل هذا الازدحام منذ أن كانت الهاسيندا مزرعة قائمة ومعملاً لإنتاج التيكيلا.

انزوى كورت في أعماق الشجرة، متخذاً وضعاً مريحاً نوعاً ما، واستعد للانتظار هناك حتى الغسق. كان يأمل في حدوث ثغرة ما بينما يستعد المهاجمون لاقتحام "البيت الكبير"، ليغتنم تلك اللحظة.

لكن الانتظار حتى وقت الهجوم يعني أنه لن يملك أي فرصة للوصول إلى الطريق الرئيسي للاستيلاء على مركبة أو إيجاد أي وسيلة لمساعدة من في "البيت الكبير" قبل بدء الهجوم الشامل.

لا، فالانتظار للحظة الأخيرة للفرار سيجبره على الإسراع لإنقاذهم.

كان لا يزال بمقدوره، دون أدنى شك، أن ينجو بنفسه. كان بإمكانه انتظار بدء الغارة على المنزل خلفه، ثم الهبوط من السور إلى الظلام في الخارج، والمضي قدماً في حقول "الأغاف" والغابات، وسيعيش. كان بإمكانه التخلي عن هذه القضية الخاسرة؛ ليعيش ويقاتل في يوم آخر؛ ليعود إلى أوروبا ويستهدف غريغور سيدورينكو، رجل العصابات الروسي الذي طارده حتى غابات الأمازون. كان بإمكانه قتل "سيد" واستعادة نتف من حياته الضائعة. كان بإمكانه العثور على عمل، ونسيان دانيال دي لا روشا وهذه الحرب الأهلية المروعة في المكسيك، وألا يلتفت خلفه أبداً.

كل هذا كان يتوق لفعله.

لكنه لم يستطع التخلي عن الخمسة الذين ينتظرونه خلف السور.

لقد كانوا يعولون عليه، فقط لأنه لا يوجد غيره، لكن ذلك لم يكن يهم. سيساعدهم إن استطاع، وإن لم يستطع، فسيموت وهو يحاول.

لن يتركهم خلفه.. لا يمكنه فعل ذلك.

31

عند الغسق، تراجعت وتيرة الدوريات بشكل ملحوظ؛ تخيل جينتري اجتماعًا يُعقد عند البوابة الرئيسية، وتصور قائد العملية وهو يشرح خطة الهجوم لمجموعة كبيرة من الرجال الجاثين على التراب وأسلحتهم تتدلى من أعناقهم.

أدرك كورت أن عليه التحرك بسرعة. فأي هجوم سيتضمن حتمًا قوة حصار تحيط بالأسوار من جميع الجهات، متأهبة لمنع أي شخص من الهرب.

في السادسة مساءً، وجد الجانب الشرقي بالكامل من جدار المزرعة خاليًا، فتزحلق من الشجرة، وتدلى بذراعيه، ثم قفز المسافة المتبقية إلى الطريق الترابي ذي المسار الواحد، متدحرجًا على الأرض لامتصاص الصدمة القوية في كاحليه وركبتيه وعموده الفقري.

وبسرعة البرق، انطلق عبر السطح الصلب ودفن نفسه في الأعشاب الطويلة لحقل الأغاف الأزرق الكثيف. جثا هناك للحظة، منصتًا لأي صرخات أو طلقات نارية أو مركبات مقتربة. وحين لم يسمع ما يثير قلقه، نهض وبدأ يتحرك شمالاً عبر العشب بمحاذاة الطريق، مستعدًا للغطس في أوراق الشجر لتفادي الدورية التالية.

كان الوادي قد اكتسى بسواد حالك بحلول الوقت الذي انعطف فيه عند الزاوية الشمالية الشرقية لجدار المزرعة. وبينما كان يشق طريقه عبر الأحراش، مرت نصف دزينة من شاحنات البيك أب ببطء

على الطريق إلى يمينه؛ كان يقودها مدنيون، وجلس المزيد من المدنيين في الخلف حاملين بنادق. كانوا عمال مزارع محليين، جرانجيروس. رجال ذوو بشرة لوحتها الشمس بشدة، بشوارب وقبعات رعاة البقر، كانوا عمالة يدوية من الحي، ربما عُرض عليهم أجر أسبوع مقابل عمل يوم واحد. هؤلاء العمال غير المهرة لن يشاركوا في الهجوم. لا، هؤلاء الرجال سيقومون فقط بدوريات حول المحيط، وربما يقيمون بضعة حواجز طرق، فقط للتأكد من أنه إذا تمكن أي شخص في المزرعة من الإفلات أثناء الهجوم على المبنى، فسيتم القضاء عليه قبل أن يغادر الوادي.

كان كورت يعلم أنهم ليسوا قتلة أشرارًا. ربما ظنوا أنهم يعملون لصالح الشرطة الفيدرالية وليس لصالح «البدلات السوداء»، رغم أنه لا سبيل للتأكد من ذلك. لم يكونوا مستفيدين من أرباح المخدرات في المكسيك بأي معنى يذكر؛ كانوا مجرد عمال صادفهم القليل من الحظ في العمل. كان لدى «البدلات السوداء» إمكانية الوصول إلى كل العمالة التي قد يريدونها أو يحتاجونها، وعلم كورت أنه يجب أن يتذكر ذلك إذا خرج من هذا الوادي اللعين.

كان كورت يعلم أن هؤلاء ليسوا بالضرورة رجالاً سيئين. لكنهم كانوا يقفون في طريقه، وسيقتلهم دون تردد.

أمامه في المسافة، عند البوابة الأمامية للمزرعة على بعد مائتي ياردة، رأى كورت المصابيح الأمامية لعدة مركبات على طول الطريق. سيارات مصفحة سوداء ضخمة على طراز قوات التدخل السريع (SWAT)، وشاحنات بيك أب، وسيارة سيدان متهالكة، وحتى مركبة قيادة متنقلة ضخمة تابعة للشرطة الفيدرالية بحجم حافلة. قرر الاقتراب أكثر، ربما للاستيلاء على سلاح أو رهينة أو سيارة يمكنه قيادتها مباشرة إلى المنزل الكبير وإنقاذ عائلة غامبوا. تحرك حول مرعى مفتوح، وتوغل في غابة صغيرة منخفضة من أشجار الصنوبر،

واقترب من هدفه. كان هناك عشرات وعشرات من الرجال المسلحين هنا لمنعه من تنفيذ هذه الخطة، لكنه واصل التحرك نحوهم في الليل. سمع نباح الكلاب لكنه أدرك أن رائحة كل الرجال الآخرين، وكل الكلاب الأخرى في هذا الشأن، ستجعلها عديمة الفائدة كأجهزة إنذار مبكر.

على بعد خمسين ياردة، انخفض أكثر. كان قريبًا بما يكفي لرؤية الفيدراليين في زي قوات التدخل السريع؛ وقد انقسموا بالفعل إلى فرق قتالية. أعاد عشرات الرجال فحص أسلحتهم وربطوا مخازن ذخيرة إضافية بأجسادهم. سمع كورت الفرق القتالية تجري فحوصات الاتصال الخاصة بها. عشرات أجهزة الراديو تصدر أصواتًا وتطن وتطقطق عبر المساء البارد.

ثم تفرقت الفرق تمامًا، عشرة أو اثنا عشر رجلاً لكل وحدة، وتكدس البعض في شاحنتين مصفحتين للشرطة الفيدرالية ميزهما جينتري كشاحنات «فورد بات» (BATT)، أو ناقلات تكتيكية مصفحة باليستيًا، ودبت الحياة في المركبات السوداء الضخمة. وصعدت مجموعة أخرى من اثني عشر رجلاً على متن شاحنتي بيك أب. حتى من هذه المسافة، استطاع جينتري أن يرى الشاحنات البيضاء تنخفض بفعل ثقل الرجال ومعداتهم.

انعطفت الشاحنتان يمينًا عند الطريق حول المزرعة واختفتا في المسافة. وانعطفت إحدى مركبات الـ «بات» الكبيرة يسارًا وتوجهت ببطء في اتجاه كورت.

بقيت مركبة الـ «بات» الأخرى عند البوابة الأمامية ومحركها يعمل. شاهد كورت الفيدراليين يصعدون إليها، وأُغلق الباب الجانبي وأُحكم إقفاله. ثم اصطفت وحدة أخرى خلفها في تشكيل. وجلست مركبة القيادة المتنقلة المصفحة التابعة للشرطة الفيدرالية خلف بقية المركبات؛ وكان رجال يأتون ويغادرون عبر باب جانبي.

مرت الشاحنة المتجهة شرقًا على بعد خمسين ياردة من كتفه الأيسر، وكان كل شيء خارج مصابيحها الأمامية الساطعة أسود بالنسبة للسائق، وعلم كورت أنه لن يُرى.

فهم خطة هجوم الفيدراليين الآن، تقريبًا. ثلاث وحدات، كل منها تضم عشرة رجال، ستهاجم المزرعة في وقت واحد من الجنوب والشرق والغرب. وستتجه قوة أكبر، ربما عشرون أو خمسة وعشرون رجلاً، مباشرة عبر الممر الرئيسي.

أما عمال المزرعة ذوو قبعات رعاة البقر وبنادق الخردق فكانوا خارج الأسوار على المحيط، يطوقون الحدث في مجموعات على جميع جوانب المزرعة كقوة حصار غير منظمة.

إذن هذا هو الوضع. ستون ضابط شرطة فيدرالية مكسيكية مدربين تدريبًا عاليًا ومدججين بالسلاح، بالإضافة إلى أربعة وعشرين محليًا مسلحًا يقفون في الخلف للدعم.

ضد امرأة حامل، وامرأة مسنة، ورجل عجوز مصاب، وفتى في السادسة عشرة من عمره، وفتاة تبكي وتتلو المسبحة على أرواح أوغاد خسروا حياتهم البائسة وهم يحاولون كسب قوت يومهم بقتلها.

اللعنة، فكر كورت. أظن أنه حان وقت الخروج في مشهد مجد ملحمي.

كان جينتري على بعد خمس وعشرين ياردة فقط من مؤخرة مركبة الـ «بات» عند البوابة الأمامية عندما تحركت للأمام، ودخلت المزرعة ببطء وثقل. هرول رجال الشرطة المشاة خلفها في رتلين. كان الممر المؤدي إلى المنزل الكبير متعرجًا ووعرًا ومليئًا بالمطبات بطول مائتي ياردة، وتحركت الشاحنة المصفحة الثقيلة ببطء صعودًا نحو التل، واختفت في الغابة؛ كانت مصابيحها الأمامية والخلفية تومض عبر الأشجار وتصنع رقصة مرعبة من الظلال المشؤومة طوال الطريق عائدة إلى البوابة.

اختفت الكلاب صاعدة الممر مع دورية المشاة.

نزل كورت على ركبتيه، وزحف عبر الأحراش والأعشاب وحول نباتات الأغاف البرية بحجم طاولات المطبخ. تحرك أبطأ وأكثر هدوءًا مع كل بوصة من التقدم؛ توقع وجود حراس هنا حول مركبة القيادة، ورغم أنه لم يرَ أحدًا بعد، كان يعلم أن أي صوت يصدره سينتقل عبر سكون الليل.

سرعان ما وجد نفسه عند الطريق بين شاحنتي بيك أب متوقفتين. كان على بعد أقل من خمسين قدمًا من البوابة؛ وكان بإمكانه سماع مجموعة من الرجال يتحدثون فوق طنين وحدة الطاقة المساعدة لمركبة القيادة المصفحة الكبيرة.

نظر أمامه، عبر الطريق، وفي خندق تصريف ضحل على الجانب الآخر، رأى جثة ميتة، عارية حتى الخصر. حتى في ضوء القمر، كان لا يزال بإمكانه رؤية الكدمة السوداء الكبيرة على فك الرجل.

لقد كان الرقيب مارتن أوروزكو؛ اخترقت عشرات رصاصات ساقيه وذراعيه وصدره. وكانت هناك رصاصة رحمة أخيرة في منتصف جبهته.

تمتم كورت:

– "آسف يا صديقي."

وواصل تقدمه على يديه وركبتيه.

ناظرًا حول الشاحنة التي على يساره، نحو البوابة، متجاوزًا مركبة القيادة، رأى خمسة أو ستة مزارعين مكسيكيين يحملون بنادق صيد، وتستند أخمص بنادقهم على أوراكهم.

كان معظم الرجال يقفون عند البوابة مباشرة، وكأنهم يحاولون التقاط لمحة من الحدث على بعد مائتي ياردة عبر الغابة. أظهرت وضعيات أجسادهم ونبرات أصواتهم حماسهم. كانوا متفرجين؛ لم

يعتقد أحد منهم لثانية واحدة أن أيًا منهم سيكون في خطر أو حتى سيُستدعى لإطلاق النار من بنادقهم القديمة.

أدرك كورت أنه يستطيع تشغيل إحدى شاحنات البيك أب هذه في أقل من دقيقة. وبها يمكنه الانطلاق عبر الممر، وتجاوز الشاحنة المصفحة والرجال، وحمل آل غامبوا فيها ثم القيادة عبر المزرعة، والاختراق عند إحدى البوابات الصغيرة على الجدار الغربي، مع الحرص على تجنب القتلة المأجورين الذين سيهاجمون من ذلك الجانب.

سيكون الأمر سهلاً.

باستثناء الألف رصاصة مغلفة بالنحاس التي ستنطلق نحوه ونحو من يحاول حمايتهم بسرعة ثلاثة آلاف قدم في الثانية، كل واحدة منها قادرة على تحويل رأس بشري إلى رذاذ وردي.

خطة شاحنة البيك أب فاشلة من البداية.

إذا كانت لا تزال هناك سيارة مصفحة هنا عند البوابة الأمامية، وإذا كانت تلك السيارة المصفحة مفتوحة والمفاتيح في مكان التشغيل، فحينها سيكون في وضع ممتاز.

لكن مركبات الـ «بات» قد رحلت، ومعها أي فرصة لـ...

خرج ضابط شرطة فيدرالية شاب من الباب الجانبي لمركبة القيادة التي بحجم مقطورة، وأُغلق الباب خلفه. التفت الضابط بعيدًا عن المزارعين، وسار عبر الطريق إلى الشجيرات على الجانب البعيد، وفك حزامه. ارتجف وهو يحاول إجبار نفسه على التبول بسرعة؛ وأمال رقبته ليبعد البندقية المعلقة أمامه عن مجرى البول الوشيك.

نظر جينتري إلى الباب المقفل لمركبة القيادة، وتساءل عما إذا كان الرجل الذي يأخذ استراحة الحمام يحمل مجموعة مفاتيح. تمنى لو لم تكن الشاحنة كبيرة جدًا إلى هذا الحد اللعين. ومع ذلك، كانت مصفحة. كان لديها التصفيح اللازم لإيقاف رصاصة بندقية تمامًا؛

وزجاجها الأمامي السميك سيتحمل عشرات الإصابات المباشرة قبل أن يتحطم.

ستكون قيادة المركبة شبه مستحيلة بالنسبة لكورت، لكنه كان يعلم أنه لا يملك رفاهية الاختيار في هذه اللحظة.

اللعنة.

عبر الطريق الضيق، رفع الضابط بنطاله وأغلق سحابه، ثم مد يده في جيب بنطاله. ميز جينتري بريق سلسلة مفاتيح.

قفز كورت إلى قدميه، وانقض كالكوبرا.

ركض منخفضًا وبسرعة عبر الطريق بينما بدأ الشرطي في الالتفاف عائدًا نحو مركبة القيادة. كانت مجموعة رعاة البقر وعمال المزرعة على بعد خمسة وعشرين قدمًا من كتف جينتري الأيسر ولا يزالون ينظرون أعلى الممر نحو المنزل الكبير.

تحرك جينتري كالظل عبر السطح الصلب، وسحب سكينته في اللحظة الأخيرة، وفي حركة متزامنة غرسها بين الضلوع العائمة للرجل الملتفت على جانبه الأيسر وغطى فم الفيدرالي بيده اليمنى. دفع السكين حتى المقبض وواصل دفع الرجل للأمام داخل الشجيرات؛ أدار كورت النصل كالمفتاح وهو يتبع الرجل إلى داخل الأحراش وسقط معه، وفوقه، على الأرض الصلبة.

استخدم كورت وزنه الميت فوق الرجل لكبح ركلاته وتخبطه. ربما كان هذا الرجل لاعب كرة قدم، فكر جينتري؛ كان لائقًا بدنيًا للغاية، وجسده لم يلتزم بالقواعد. توقع كورت أن يرتخي الرجل في خمس ثوانٍ؛ استغرق الأمر ما يقرب من عشرين ثانية قبل أن تفارق الحياة أطرافه. وجد كورت نفسه منهكًا، وكأنه كان يحاول البقاء فوق حصان جامح بينما يمنعه من إصدار أي صوت طوال المحنة. مد كورت يده للأمام، وسحب المفاتيح من بين الشجيرات. تحسسها للحظة، واستقر

على خيارين محتملين لباب المركبة. أمسك بهما بين أصابعه والتقط البندقية بيده الأخرى.

ثم نهض. وتوجه نحو مركبة القيادة المصفحة.

بعد ثوانٍ كان في الداخل. أغلق الباب خلفه، وانعطف يميناً، بعيدًا عن مقدمة المركبة ونحو المقصورة الخلفية. نادى رجل من الكابينة، موجهًا سؤالاً لشريكه الذي بات الآن ميتًا في الأحراش. سحب كورت سكينه، وبدأ يستدير للتعامل مع السائق الآخر، لكنه توقف حين لاحظ رفًا معدنيًا يمتد بارتفاع الرأس على طول جانب واحد من الكابينة.

كانت هناك جميع أنواع الأسلحة والذخيرة تستقر في الرف أو تتدلى من خطافات فوقه.

اتسعت عينا جينتري، وارتسمت على وجهه ابتسامة قاسية.

– "أوه، يا للجحيم نعم."

استدار، وتوجه إلى الأمام لقتل السائق.

قاد الـ «كوماندانت» (القائد) رجاله صعودًا في الممر نحو واجهة المنزل. كانت المركبة المصفحة التي تتقدمهم تحميهم من أي تهديد بإطلاق النار من النوافذ أو شرفات المنزل الكبير، لكن رجاله انتشروا عرضيًا مع اقترابهم من المبنى وتحركوا الآن ببطء وحذر في الليل. أبطأت الشاحنة وتوقفت وسلطت أضواءها الساطعة على الباب الأمامي.

في الظروف العادية، لم يكن القائد ليقبل بشن هجوم أمامي مباشر نحو مبنى حجري محصن. لكن بعد إرسال مراقبين صباحًا ورؤية العقار من الداخل، أدرك مدى حجب الرؤية عن الممر من المنزل نفسه. فبفضل النمو الكثيف للشجيرات والأشجار على كلا الجانبين، والأقواس عند الباب الأمامي، وحتى الأعشاب الطويلة بين الحجارة

المرصوفة، فإن تقدم خمسة وعشرين رجلاً في رتلين مباشرة عبر الممر عند الظهيرة سيكون أكثر سرية مما لو قفزوا فوق الجدار الخلفي في منتصف الليل.

ومع ذلك، انتظر حتى حلول الظلام ثم ساعة أخرى لأن المدافعين ربما كانوا يتوقعون هجومًا بمجرد أن يغطي الظلام المكان. والآن، في التاسعة مساءً، لم يعد بإمكانه الانتظار أكثر. لقد حان الوقت لضرب هؤلاء الـ «كابرونيس» (الأوغاد) عديمي القيمة في المنزل، وقتل كل كائن يتحرك – كل رجل وامرأة وطفل، ثم الكلاب والقطط والدجاج والماعز.

أراد التحقق مع الفرق الأخرى التي من المفترض أن تكون تقترب الآن من الاتجاهات الأخرى، لكن يبدو أن أحد ضباطه اللعينين قد ضغط زر الإرسال في جهاز اللاسلكي الخاص به، مما منع القائد من إرسال الأوامر أو السماع من أي من رجاله الآخرين. انتظر ثلاثين ثانية ليدرك هذا الأحمق خطأه ويصلح جهازه، لكنه ظل غير قادر على التواصل.

في غضون عشرين ثانية أخرى سيكون مستعدًا للدعوة للهجوم، وإذا لم يصلح هذا الـ «إخو دي بوتا» (ابن العاهرة) جهازه اللعين، فإن القائد سيعلق الـ «بينديخو» (الأحمق) من...

خلفه، لاحت أضواء عبر الغابة. تتحرك صاعدة الممر نحو المنزل.

نظر إلى الرجال من حوله وهو يغوص بسرعة خلف جدار حجري منخفض يحيط بدائرة وقوف السيارات أمام المنزل الكبير. كان عليه الخروج من الممر قبل أن تكشفه المصابيح الأمامية المقتربة.

استدار عائدًا، وحدق في الأضواء، ولم يصدق ما رآه.

كانت مركبة القيادة المتنقلة تقفز بجموح صاعدة الحجارة المرصوفة نحو موقعه.

لقد ترك السائقين في المركبة عند البوابة الأمامية، لكن لم يكن لديهم أي سبب على الإطلاق حتى لتشغيل المحرك، ناهيك عن المشاركة في الهجوم.

رغم أن جهازه اللاسلكي لم يكن يعمل، إلا أنه ضغط الزر وصرخ فيه:

– "كابرونيس! ما الذي تفعلانه بحق الجحيم؟"

على بعد خمسين ياردة، أضاءت مصابيح الفرامل الحمراء للمركبة في الغابة.

توقفت المركبة في الغابة، وبدأت في الالتفاف داخل الحدود الضيقة للممر.

التفت القائد مرة أخرى نحو المنزل. أيًا كان ما يفعله سائقوه، فقد أضاعوا أي فرصة للمفاجأة. نهض وفتح النار على واجهة المنزل ببندقية «M16» الخاصة به؛ كانت هذه الطريقة الوحيدة لبدء الهجوم دون استخدام جهازه اللاسلكي عديم الفائدة.

حذا الرجال على جانبيه حذوه؛ تطاير الشرر من واجهة الحجر عند اصطدام رصاصاتهم واخترقت الباب الخشبي.

سمع القائد صوتًا وسط إطلاق النار، فالتفت نحو الضجيج. وفي ذهول تام، وقف من خلف الجدار المنخفض وأنزل بندقيته إلى خصره.

كانت مركبة القيادة المصفحة الضخمة تتحرك صاعدة الممر الصخري بالخلف (بوضعية الرجوع)، وسرعتها تزداد كل ثانية. قفزت الشاحنة الزرقاء الضخمة واهتزت، وهيكلها يئن تحت وطأة أطنان من الفولاذ الباليستي.

لقد قاد القائد سيارات مصفحة بما يكفي ليعرف أن الرؤية من مرآة الرؤية الخلفية سيئة؛ كان هذا السائق الـ «بينشي» (اللعين) يسرع بشكل أعمى صاعدًا نحو المنزل الكبير بسرعة لا يستطيع السيطرة عليها.

- "ألتو! توقف!" صرخ القائد في جهازه؛ وبدا أن مشكلة الميكروفون قد حُلت، رغم أن كل جانب آخر من هذا الهجوم كان يتحول إلى ميردا (قذارة) أمام عينيه. اندفعت المركبة للخلف نحو الشاحنة المصفحة الأخرى، الـ «بات» التي كانت متوقفة في دائرة وقوف السيارات وتسلط مصابيحها على المنزل الكبير المظلم.

المركبة المصفحة التي كانت تفعل ما يفترض بها فعله بحق الجحيم!

بدت مركبة القيادة وكأنها ستنقلب وهي ترتطم بالأرض بسرعة أربعين ميلاً في الساعة؛ وكادت تصطدم بالمركبة الأخرى بفارق لا يزيد عن قدم، مطيحة بالمرايا الجانبية للسائق في كلتا الشاحنتين.

فجأة، أدرك القائد الواقف عند الجدار ثلاثة أشياء بتتابع سريع: أولاً، إذا كان سائقه يجد صعوبة في رؤية ما وراءه من قبل، فالآن بعد أن تحطمت مرآته وتطايرت في الممر خلفه فلن يتمكن من رؤية أي شيء. ثانيًا، أن سائقه ليس سائقه! وثالثًا – أن مركبة القيادة الفيدرالية المنطلقة بسرعة أربعين ميلاً في الساعة كانت ستتحطم صاعدة الدرج الأمامي للمنزل.

أفلت كورت زر الإرسال وألقى الراديو على أرضية الشاحنة ثم داس بقوة على البنزين. تسارعت المركبة الثقيلة ببطء صاعدة الممر بالخلف، تقفز وترتطم صاعدة التل. كان قد ربط حزام الأمان، وهذا فقط ما سمح له بإبقاء قدمه مثبتة بقوة على الدواسة. الاهتزاز العنيف داخل المركبة الثقيلة من الأعلى جعله يشعر وكأنه دمية خرقة يهزها عملاق. ومع ذلك، لم يرفع قدمه عن البنزين للحظة.

كان يصوب، إن جاز التعبير، تقريبًا نحو الباب الأمامي للمنزل الكبير، لكن عندما فقد مرآته، تخلى عن أي ادعاء بالدقة في تصويبه. بدلاً من ذلك داس الوقود حتى النهاية، وتمسك بعجلة القيادة من أجل

حياته، وضغط رأسه بقوة إلى مسند الرأس، غير متأكد متى سيأتي الاصطدام أو حتى ما إذا كان سينجو منه.

شعر باصطدام عنيف هزه بقوة، وألصقه بمقعده، وتسبب في انزلاق قدمه عن دواسة البنزين، لكنه علم أنه لم يصطدم بالمنزل بعد. وبينما كان قاع المركبة يكشط الحجر، حدد أنها نافورة الملاك في وسط الممر. أخبره هذا أنه يتجه بعيدًا جدًا إلى اليسار ليضرب الأبواب الأمامية بشكل مباشر.

أدار عجلة القيادة قليلاً إلى اليمين، وضغط بقدمه لأسفل على الدواسة مرة أخرى بينما مسحت نيران الأسلحة الآلية اللوح الزجاجي السميك للنافذة الأمامية. مر بسرعة البرق بجوار شاحنة المزرعة المعطلة وجثة إغناسيو غامبوا في المقعد الأمامي.

تحطمت حافلة كورت المصفحة مباشرة صاعدة درجات المنزل الكبير؛ اصطدمت بعنف وحشي بالجانب الغربي من القنطرة وحولت أبواب البلوط التي يبلغ عمرها مائتي عام إلى حطام وشظايا.

توقفت المركبة بعنف. ضرب كورت ناقل الحركة لوضعه في التوقف، وفك حزامه، واستدار إلى الخلف. خلفه، تحول إطلاق النار المتقطع والمتردد الذي طارد الشاحنة صعودًا في الممر الآن إلى وابل كثيف مع إدراك الشرطة الفيدرالية السريع أن هذه لم كانت مركبة طائشة تابعة لهم، بل محاولة هروب للعائلة المحاصرة.

في الخلف سقط جينتري مرتين، متعثرًا من صداع رأسه الدوار وضائعًا للحظة في الظلام، متعثرًا فوق الأسلحة التي سقطت من رفوفها. بعد ثوانٍ استعاد توازنه، ووجد العنصرين اللذين كان يبحث عنهما، وفتح الأبواب الخلفية.

ركع دييغو في غرفة الجلوس خلف الأريكة وأطلق النار على حركة في الفناء الخلفي. كان جده قد صعد إلى الطابق العلوي لإطلاق النار

من الميرادور، لكنه لم يسمع جده يطلق النار من بندقية «M1» منذ أكثر من دقيقة.

مزق وابل من النيران الآلية واجهة المنزل. ركع دييغو خلف الأريكة وكأنها ستمنحه نوعًا من الغطاء؛ رفع رأسه فقط عندما سمع هدير محرك. تحطمت مؤخرة شاحنة زرقاء ضخمة في مدخل المنزل الكبير واستمرت عدة أقدام داخل المبنى. في ذعر وقف دييغو وأطلق النار بمسدسه، ولم تصنع الرصاصات سوى شرارات على الباب الخلفي. طقطق سلاحه مفتوحًا وفارغًا.

تعثر الصبي البالغ من العمر ستة عشر عامًا في إعادة التلقيم، وأسقط مخزنًا على أرضية البلاط، وطارده إلى حافة كرسي مجنح قبل استعادته وتثبيته في مقبض مسدسه. قبل وقت طويل من عودة سلاحه إلى القتال، طارت الأبواب السوداء للمركبة مفتوحة، ورأى دييغو رجلاً جاثمًا هناك في الشاحنة ومعه سلاحان ضخمان في يديه.

– "دييغو! إنه أنا! إنه..."

في خضم الإثارة نسي كورت اسمه المستعار.

– "إنه الـ غرينغو! اجلب الجميع إلى هنا وفي الشاحنة! أنديلي (بسرعة)!"

استغرق الصبي خمس ثوانٍ كاملة ليستوعب، لكن عندما فعل، أومأ برأسه، واستدار على حذائه الرياضي، وركض نحو المطبخ. صرخ وهو يركض:

– "مي أبويلو (جدي) في الطابق العلوي!"

أومأ كورت، لكنه لم يصعد إلى الطابق العلوي؛ بدلاً من ذلك استدار نحو المدخل الأمامي المحطم. كانت هناك مساحة ضيقة بين الشاحنة الضخمة والحجر والجص المحطم، لكن جينتري وجد وضعية إطلاق نار، ورفع يده اليمنى. كان يمسك بها قاذفة قنابل يدوية محمولة من طراز «Hawk MM-1»، محملة باثنتي عشرة قذيفة شديدة

الانفجار. كان السلاح ثقيلاً وضخمًا وعادة ما يستخدم كورت كلتا يديه لإطلاقه، لكن السلاح لم يتطلب كلتا اليدين. ضغط الزناد الثقيل، ومع صوت يشبه انبثاق سدادة ضخمة من زجاجة شامبانيا مهتزة، غادرت القنبلة الأولى الماسورة.

بووم!

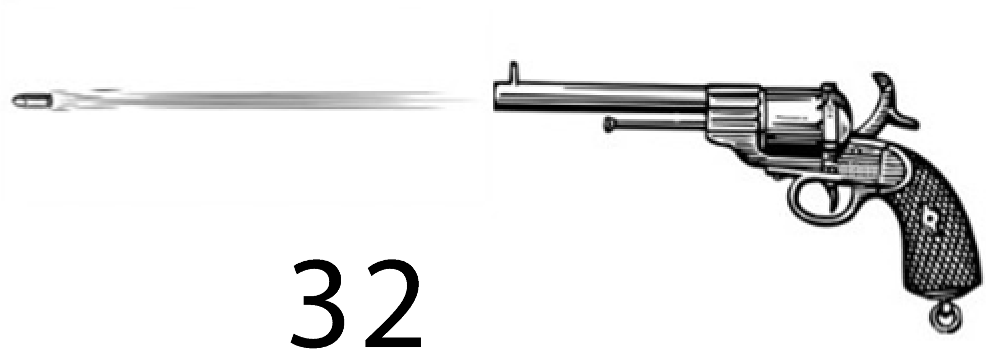
على بعد أربعين ياردة، انفجرت نار ودخان وتراب متطاير وفيدراليون في الهواء. أطلق ثلاث مرات أخرى على الجدار المصطف بالمهاجمين قبل خفض السلاح، ورفع جهازًا مطابقًا كان يمسكه بيده اليسرى، وأطلق ثلاثة صواريخ محملة بعامل «CS»، وهو غاز مسيل للدموع قوي لتفريق الحشود. وبينما كانت العبوة الأخيرة لا تزال في الهواء، استدار في الاتجاه الآخر، وأطلق طلقات من كلا السلاحين واحدة تلو الأخرى؛ تقوست القذائف عبر المنزل، وعبر الأبواب الزجاجية المنزلقة المحطمة إلى الفناء، وفوق المسبح، وانفجرت في الحديقة خلف المنزل الكبير.

عاش كورت على الحظ، لكنه لم يتوقع حقًا إصابة قاتل واحد يهاجم الجزء الخلفي من المنزل. لا، أراد فقط أن يظهر لهم أن القواعد قد تغيرت؛ هجومهم الجبان على نساء وطفل ورجل عجوز سيعرضهم الآن لقذائف شديدة الانفجار تُحشر في حلوقهم اللعينة.

أطلق قذيفة غاز واحدة في الردهة الممتدة من الغرفة الرئيسية إلى الغرب، آملين بشدة أن يخرج الجميع من هنا قبل أن يتدفق الغاز عائدًا إلى الداخل ويجعل غرفة المعيشة هذه لا تطاق.

أسقط قاذفة الغاز وهو يركض صاعدًا الدرج؛ كانت أثقل من أن يحملها مع قاذفة المتفجرات. انعطف يمينًا، وصرخ مناديًا إرنستو، متمنيًا بشدة لو أنه أمسك ببندقية أو مسدس أو أي شيء آخر غير سلاح لا يمكنه استخدامه في المدى القصير للردهة.

انعطف نحو الميرادور الخلفي، ورأى الرجل العجوز هناك، ممددًا على ظهره في بركة من الدماء.



32

ارتعش جفنا إرنستو، واستلّ نفساً ضحلاً متهدجاً، ثم رفع بصره نحو الأمريكي الواقف فوقه في تلك الشرفة المظلمة.

انحنى جينتري فوق حافة المرصد وأطلق قذيفتين شديدتي الانفجار نحو حركة رصدها تحت ضوء القمر بجوار الحظيرة البعيدة؛ فتطايرت شظايا الخشب والحجارة وألسنة اللهب بارتفاع عشرين قدماً في الهواء.

جثا كورت ثانية بجانب إرنستو وسأله:

– "هل تستطيع المـ..."

لكنه رأى الحقيقة الآن؛ كانت ساق العجوز اليسرى مضرجة بالدماء، ملتوية إلى الجانب بشكل فظيع، لا يمسكها سوى نتف من اللحم ونسيج جينزه الممزق. غطت الدماء بلاط المرصد في العتمة؛ فقد أصيب والد إيدي إصابة مباشرة في عظمة الفخذ برصاصة من بندقية عالية القوة.

نظر كورت إلى وجه الرجل، فكانت عيناه قد شخصتا إلى الأعلى، وخرج الزفير الأخير من رئتيه.

بسرعة، انحنى جينتري فوقه وهمس في أذنه:

– "سأعتني بهم. سآخذهم إلى مكان آمن. جميعهم."

ثم انتصب واقفاً واندفع عائداً إلى داخل المنزل، بينما كانت جدران الجص تتحول إلى غبار من حوله تحت وطأة الرصاص.

سعل أفراد العائلة واختنقوا من غاز "CS" (الغاز المسيل للدموع) بينما كان جينتري يسوقهم نحو مؤخرة الشاحنة. استعاد قاذف "هوك" الذي يحوي قنابل الغاز، وأفرغ ما تبقى من قذائف في الممر والأشجار المحيطة، وهو يصلي من أعماقه أن يكون تصويبه في الاتجاه العام للأعداء. وعندما نقر الزناد على أسطوانة فارغة، ترك السلاح يسقط على بلاط المدخل، وتسلّق إلى داخل مركبة القيادة المتنقلة خلف العائلة. كانت لوز أمامه مباشرة، وكانت تنظر متجاوزة كتفه نحو المنزل المظلم الذي غطاه الدخان.

– "إرنستو؟ إرنستو؟"

لم يكن في صوتها أي ذعر، رغم كل ما كان يحدث حولها. اكتفى كورت بدفعها إلى داخل الحافلة، وألقى قاذف القنابل شديدة الانفجار على المقعد المبطن بجوار إيلينا، ثم أغلق الباب خلفه وأوصده.

– "أنا آسف، عليّ أن..."

لفظ كورت كلمة "أقود" في اللحظة التي قُذف فيها جسده بقوة نحو الباب. سقطت لوز بين ذراعيه حين أدرك أن المركبة بدأت تنطلق للأمام، وإطاراتها الخلفية تقفز فوق درجات "البيت الكبير"، وأن من يجلس خلف المقود يضغط على دواسة البنزين بكل ما أوتي من قوة.

زحف للأمام عبر الممر الوسطي، بينما كان اهتزاز الشاحنة وارتطام هيكلها يتقاذفانه يمنة ويسرة؛ ورشق الرصاص جدران التصفيح من الجانبين، محدثاً طنيناً متواصلاً كوقع وابل من المطر في قعر الجحيم.

في المقصورة الأمامية، وجد لورا خلف عجلة القيادة؛ كانت تنحني برأسها للأسفل، تحاول يائسة استيضاح الطريق عبر زجاج أمامي – رغم تماكسه – قد غدا أبيض بالكامل من أثر رصاصات كسته بالشقوق من طرف إلى آخر.

صرخت:

- "لا أرى شيئاً!"

مد كورت يده فوق جسدها وأحكم ربط حزام الأمان حولها، وهو يصرخ في أذنها:

- "لا تقلقي! قودي فحسب! أي مكان أفضل من هنا!"

اصطدموا بجانب إحدى السيارات المدرعة، ثم انحرفوا تماماً عن الممر ليخوضوا في مرعى، وعندها أدارت لورا المقود بقوة لتصحيح خطئها لدرجة أن الشاحنة ارتفعت على عجلتين للحظة قبل أن ترتطم بالأرض وتعود لتقفز فوق الممر الصخري.

في مؤخرة الشاحنة الطويلة، كانت معدات الشرطة تتطاير وتصطدم ببعضها البعض، مرتطمة بـ إيلينا ولوز ودييغو.

اصطدمت لورا بشجرة صغيرة، مما دفع المركبة بقوة نحو اليسار وقذف بـ جينتري نحو لوحة القيادة.

صرخ كورت وهو يزحف نحو مقعد الراكب الأمامي:

- "قيادتكِ أسوأ من قيادتي!"

فتح الباب المصفح الثقيل وانحنى بجسده للخارج؛ إذ كان عليهم معرفة اتجاههم بأي ثمن، حتى لو اضطر لتعريض نفسه لنيران العدو.

صرخ بالإنجليزية:

- "يميناً! إلى اليمين!"

فأدارت لورا المقود نحو اليسار.

صرخ ثانية:

- "إلى اليمين! جهة اليمين (Derecha)!"

صححت خطأها، ولم تبالغ في الانحراف هذه المرة.

- "آسفة! أنا آسفة!"

أخذ كورت يوجهها وهو يسمع أزيز الرصاص يمر بجانبه. ارتطم الرصاص بالباب الخلفي واللوح الجانبي؛ فسحب جينتري جسده

للداخل للحظة ثم أخرج رأسه بسرعة خاطفة ليساعد لورا في شق طريقها عبر الغابة في ذاك الممر الطويل والمتعرج.

دخلوا وسط الأشجار بعد عشرين ثانية، فأصبحوا في مأمن من قتلة "البيت الكبير"، لكن كورت كان يعلم يقيناً أنهم لم يخرجوا من "عنق الزجاجة" بعد. فالرجال في الأعلى يملكون أجهزة لاسلكي، وهذا يعني أن الشاحنات والمركبة المدرعة المتوقفة قرب البوابة الأمامية ستبدأ الآن في التحرك لسد المخرج.

أدخل كورت رأسه ثانية إلى المركبة. كانت لورا قد عثرت على زاوية صغيرة في الزجاج الأمامي لم تتحول إلى بياض الدخان من أثر الرصاص؛ فانحنت نحوها، مشدودة بحزام الأمان، تحاول يائسة الرؤية من ذلك الثقب الصغير.

صرخ كورت نحو الخلف:

– "دييغو، أعطني قاذف القنابل!"

نادى دييغو من خلفية المركبة المظلمة:

– "ماذا؟"

صرخت لورا بالترجمة، وفي غضون ثوانٍ ظهر الشاب دييغو حاملاً الجهاز الأسطواني الرمادي الضخم. اختطفه كورت منه وتمركز بجسده كله خارج المركبة الآن، قدماه على عتبة صغيرة أسفل باب الراكب، يده اليمنى تمسك بالباب المفتوح، ويسراه تقبض على قاذف "MM-1" وتسنده فوق الباب الأمامي. ومع اهتزاز الشاحنة وترنحها فوق الممر الوعر، وجد جينتري أن التصويب يكاد يكون مستحيلاً.

اقتربوا من البوابة الأمامية الآن؛ ركزت لورا بصرها عليها، لكن كورت صرخ بها من خارجه:

– "سأصنع لنا مخرجاً آخر."

– "ماذا؟"

كان كورت يعلم أن قصف السيارات بقنابل شديدة الانفجار سيعطلها بلا شك، لكن الواقع ليس كأفلام هوليوود؛ فالمركبات لن تنفجر لتطير في عنان السماء ثم تهبط بعيداً عن طريقه بكل بساطة.

لا، سأحاول فتح ثغرة في ذلك الجدار القديم تكون واسعة بما يكفي لمرورنا.

كان للقاذف "MM-1" مدى تصويب فعال يصل إلى مئة وخمسين متراً في الظروف المثالية. أما الظروف التي وجد جينتري نفسه فيها، فكانت أبعد ما تكون عن المثالية، لكن لم يكن أمامه خيار سوى المحاولة.

وكما توقع، اعترضت مدرعة الشرطة الفيدرالية "بات" البوابة المفتوحة، وكانت مصابيحها الأمامية تحدق فيه وكأنها عيون مستهزئة، تتحداه أن يستمر في التقدم.

صوّب جينتري قاذفه على بُعد عشر ياردات إلى الشرق من البوابة.

دوى صوت الإطلاق، ثم...

انفجار!

أخطأت طلقة كورت الأولى وانفجرت على بُعد ياردات قليلة قبل جدار الجص.

صرخت لورا:

– "لقد أخطأت الهدف!"

وتساءل كورت كيف استطاعت فجأة رؤية كل هذا عبر الزجاج.

أطلق النار ثانية، وأصاب جدار الهاسيندا بدقة متناهية. تطايرت النيران والحجارة والغبار الأبيض في العتمة. أطلق جينتري قذيفة أخرى، وأصاب الهدف مجدداً، لكنها كانت بعيدة عن أثر الانفجار السابق. رأى الآن فجوات سوداء في الجدار، بينها "عمود" حجري

بعرض خمسة أقدام. صوّب بأقصى ما يمكنه من دقة نحو تلك القطعة المتبقية، وضغط على الزناد.

لكن سلاحه كان قد فرغ.

اللعنة. تسلق كورت عائداً للداخل، وألقى القاذف على الأرض في الخلف بين آل غامبوا، وأحكم ربط حزامه بسرعة.

صرخ:

– "اقتحميه!"

صرخت لورا بسؤالها، والذهول يغلف صوتها:

– "أقتحمه؟"

– "في المنتصف تماماً! وبأقصى سرعة!" ثم التفت نحو الخلف وصرخ في بقية العشيرة الصغيرة: "تمسكوا بأي شيء!"

بدأ إطلاق النار أولاً؛ فقد تقدم بعض المزارعين عند البوابة الأمامية أمام السيارات المدرعة، وداعب رصاص بنادقهم جدران ونوافذ الشاحنة الضخمة التي كانت تقترب منهم كالمارد.

اقتحمت لورا ماريا غامبوا كوراليس الجدار الذي يعود عمره لمئتي عام بتلك المركبة ذات الستة أطنان، فسحقته محولة إياه إلى حجارة وغبار وكروم "مونيدا" متطايرة. كان الارتطام داخل الشاحنة زلزالياً؛ إذ انهار الزجاج الأمامي المتضرر تماماً، وتحطم وتناثر بعيداً، وانزلق فوق غطاء المحرك القصير. ذُهل الركاب من شدة الصدمة، لكن رؤية لورا التي اتسعت الآن للطريق أمامها ساعدتها كثيراً في القيادة؛ فأدارت المقود لليسار، واصطدمت ببعض الشجيرات المنخفضة، وصدمت اللوحة الخلفية اليسرى لشاحنة "داتسون" قديمة.

أدى الارتطام إلى دوران الشاحنة الصغيرة وسط الطريق كأنها لعبة، مما أجبر المسلحين على الارتماء طلباً للنجاة، وتطايرت قبعات القش في الهواء كأوراق شجر تعبث بها الرياح.

فك كورت جينتري حزام أمانه، وجثا على ركبتيه، وزحف نحو مؤخرة الحافلة. التقط قاذف "MM-1" وهرع نحو صندوق قنابل مثبت على الجدار بجانب الباب الخلفي. انهمك في العمل هناك للحظة؛ بينما اكتفى دييغو ولوز وإيلينا بمراقبته تحت الضوء الأحمر الخافت.

بعد عشر ثوانٍ أخرى، صرخ كورت:

– "لورا، أوقفي الشاحنة!"

– "هل جننت!"

– "افعلي ما أقول!"

أبطأت الشاحنة سرعتها، وفتح كورت الباب الخلفي. كاد يسقط للخارج؛ فقد كانت ساقاه واهنتين من أثر ارتطام التصادم. وفي العتمة، على بُعد مئة وثلاثين ياردة في الخلف، كان العشرات من قتلة الشرطة الفيدرالية الذين تُركوا في "البيت الكبير" يشقون طريقهم الآن في الممر نحو السيارات المتوقفة هناك. حمل جينتري قاذف القنابل، وصوّب عبر منظاره الحديدي، وأطلق خمس قنابل مسيلة للدموع نحو السيارات والشاحنات.

وعندما انتهى، وقبل أن ترتطم آخر قنبلة عند البوابة، ألقى القاذف في الطريق وتسلّق عائداً إلى الشاحنة. صاح نحو لورا في المقدمة:

– "لننطلق! (¡Vamanos!)"

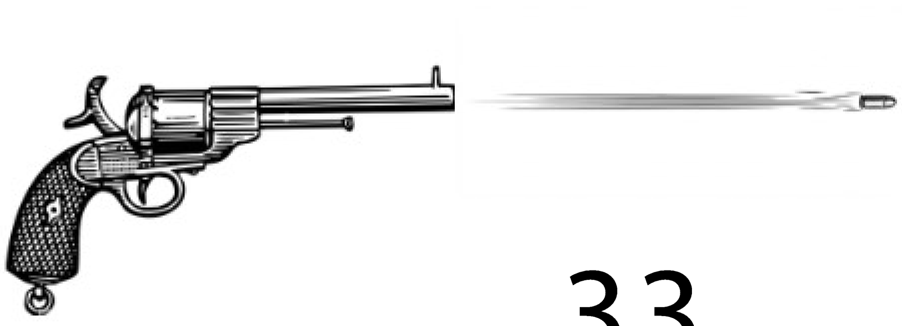
عشّقت لورا ناقل الحركة في تلك الدبابة الضخمة. اهتزت الشاحنة وكأنها تئن تحت وطأة ما عانته؛ فقد أخضعوا مركبة القيادة لقدر من الإهلاك يفوق بكثير ما يمكن أن تتحمله أي مركبة، لكنها أبقتهم على قيد الحياة.

عندما وصل جينتري إلى المقعد الأمامي، سألته لورا:

– "إلى أين نحن ذاهبون؟"

ارتمى في مقعد الراكب وأحكم ربط حزام الأمان حول خصره، وأجابها بصراحة:

– "لا أدري، اللعنة!"



33

إذا كان كورت قد كره ترك شاحنة إيدي المذهلة خلفه، فإن التخلص من الشاحنة المصفحة، رغم تضررها، كاد يقضي عليه. كانت متهالكة ويتصاعد منها الدخان، وإطارات «ران فلات» (التي يمكن السير عليها وهي مثقوبة) تتمزق مع كل ميل إضافي، والزجاج الأمامي قد طار بالكامل، لكن مركبة القيادة المتنقلة الضخمة ما زالت تبدو متينة وآمنة. ومع ذلك، لم يكن هناك سبيل لقيادتها لفترة طويلة دون لفت الأنظار، وكانت إعادة تزويدها بالوقود مستحيلة دون جذب حشد من الزبائن لإلقاء نظرة عن كثب على مركبة القيادة الفيدرالية المليئة بآثار الرصاص.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف عندما توقفوا خلف ساحة لقطع غيار السيارات في بلدة «لا فينتا ديل أستيليرو»، وهي ضاحية تقع غرب غوادالاخارا مباشرة. ابتعدوا عن الطرق الرئيسية قدر الإمكان، وتجنبوا عمليًا كل زحام المرور المتأخر لليلة الثلاثاء. وبلا زجاج أمامي، كان الهواء البارد في الشاحنة لا يُحتمل تقريبًا، خاصة بالنسبة لـ لورا خلف عجلة القيادة. كانت ذراعاها الضئيلتان مكسوتين بجلد الوزة (قشعريرة) الذي بدا واضحًا حتى في الضوء الخافت، وبحلول الوقت الذي وجدوا فيه الساحة، كانت ترتعد.

ترتعد وتبكي. كان موت والدها مجرد عقاب شنيع آخر لقلبها.

شعر كورت بالأسى الشديد لأجلها، وأراد أن يمد يده ويلمسها، أن يمسك يدها وهي تقود، ليخبرها أن كل شيء سيكون على ما يرام.

لكنه لم يفعل.

لم يفعل لأنه لم يعرف كيف يواسي الفتاة الحزينة الجميلة.

ولم يفعل لأنه لم يؤمن حقاً بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

وقف أفراد العائلة الأربعة على جانب الطريق وانتظروا بينما تسلق جينتري سياجًا وهبط داخل ساحة الخردة. دلكت لوز غامبوا ذراعي ابنتها لتدفئتها، وانتقلت إيلينا من قدم متورمة إلى أخرى، ممسكة ببطنها المنتفخ لتخفيف الضغط عن ظهرها. وقف دييغو يراقب ويداه على خصره. بدأت الكلاب تنبح خلف السياج بينما كانت العائلة تصلي معًا.

بعد عشر دقائق دار محرك، وانزلق باب من الصفيح المعدني مفتوحًا مع دفعات وأصوات تأوه. ظهرت حافلة «فولكس فاجن» قديمة بلون حساء البازلاء الأخضر، ومصابيحها مطفأة؛ انسحبت إلى الشارع، ثم قفز كورت للخارج، وأغلق دييغو البوابة خلفها.

هرول كورت عائدًا إلى السيارة المصفحة للحظة، وعاد ومعه زوج من مسدسات عيار 9 ملم ومخزن إضافي لكل منهما. مرر سلاحًا واحدًا إلى لورا ودس الآخر في حزام بنطاله.

نظر إلى دييغو:

– "قد لا تبدو بحال جيدة، لكن المحرك دار فورًا. وضعت عليها بعض اللوحات، لذا لا ينبغي أن تواجه أي مشاكل مع شرطة الطريق السريع. اتجه شمالاً، واصل السير طوال الطريق حتى الحدود. ناموا بالتناوب. واحد ينام، واثنان مستيقظان. عندما تصلون إلى تيخوانا، اذهبوا إلى فندق وانتظرونا. بعد يومين من اليوم، اذهبوا إلى المعبر الحدودي في الساعة العاشرة صباحًا. انتظروا ثلاثين دقيقة. إذا لم نكن

هناك، غادروا وعودوا في الساعة الثالثة مساءً. إذا لم نكن هناك، كرروا الأمر في اليوم التالي. لن نتمكن من التواصل. لا هواتف، لا اتصال. إذا قُبض علينا، أريد أن يبدو الأمر وكأننا لا نعرف مكانكم أو كيفية الاتصال بكم."

أومأ الصبي الصغير برأسه. استطاع كورت أن يرى أن دييغو قد أدرك أنه الآن رجل العائلة، وقد تحمل المسؤولية بطريقة قدرها جينتري. الصدمة والحزن سيأتيان لاحقًا، كما علم كورت، ولكن هذا فقط إذا نجوا حتى ذلك الوقت.

– "سنتصل أنا ولورا بـ رمسيس. على افتراض أنه لا يزال حيًا وأنه تواصل مع الأمريكي في السفارة، سنذهب إلى مكسيكو سيتي لاستلام المال والأوراق."

سألت إيلينا:

– "وإذا لم تظهروا في تيخوانا خلال يومين أو ثلاثة؟"

– "سيتعين عليكم محاولة عبور الحدود بمفردكم."

نظر الجميع إليه بصمت. هز كتفيه:

– "هذا كل ما لدي. لم أقل إنها خطة جيدة."

مسحت إيلينا الدموع من عينيها، وتقدمت، وعانقته بقوة؛ شعر بالطفل، طفل صديقه القديم، يركل ضده. اتسعت عيناه.

همست إيلينا في أذنه:

– "لقد فعلت الكثير من أجلنا يا خوسيه. كان إدواردو ليفخر بمعرفة أن لديه صديقًا مثلك."

عانقته لوز أيضًا، وتمتمت بصلاة ما. لم يستطع فهمها، وبينما كانت تتحدث إليه، لم يستطع النظر في عينيها. المأساة التي حلت بهذه المرأة العجوز في الأسبوعين الماضيين كانت تفوق الخيال، حتى لرجل له تاريخ مثل كورت جينتري.

عانق الجميع لورا؛ وبالطبع كانت هناك دموع، وغني عن القول، كانت هناك صلاة أخرى. ثم اقتربت العائلة من بعضها البعض.

راقبهم كورت من مسافة عشرة أقدام.

تمتم تحت أنفاسه وهم يتعانقون ويواسون بعضهم:

– "رائع. عناق جماعي لعين آخر."

في النهاية، انطلقت حافلة الفولكس فاجن بقرقعة. تمنى كورت بشدة أن تكمل الرحلة، لكن في هذه المرحلة، كان الوقت قد حان ليبدأ القلق بشأن عمليته الخاصة.

بحلول الواحدة والنصف صباحًا كانوا على الطريق إلى مكسيكو سيتي. كان كورت قد سرق دراجة نارية من سقيفة في منطقة سكنية على بعد بضع بنايات من ساحة الخردة. أرادت لورا ترك رسالة مجهولة تعرب فيها عن أسفها الشديد وتعد بإرسال المال إلى هذا العنوان بمجرد أن تتمكن من ذلك، لكن كورت لم يسمح بذلك. بدلاً من ذلك، حفظت صورة المنزل الصغير في ذهنها وأخبرت جينتري أنها ستجد طريقة لتعويض سكانه.

كانوا على بعد 325 ميلاً من مكسيكو سيتي. سيستغرق الأمر ست ساعات على الأقل من القيادة الشاقة، لكن مع قليل من الحظ قد يصلون بحلول موعد فتح بنكها في العاشرة. بمجرد ابتعادهم بضعة أميال عن ضواحي غوادالاخارا، توقف كورت في الظلام واتصل برمسيس باستخدام الهاتف الذي تركه لهم. كانت لورا قد لفت نفسها ببطانية قذرة عثرت عليها لوز في مؤخرة الفولكس فاجن، وغطت في النوم على العشب بينما أجرى كورت المكالمة.

أجاب رمسيس سينفويغوس من الرنة الأولى. شعر جينتري بالارتياح لسماع أن ضابط «GOPES» قد تمكن من الهرب من المزرعة، لكن رمسيس سأل فورًا عن مارتن ومحرك الدراجة النارية

الذي سمعه وهو يقفز فوق الجدار. أكد كورت بأسف أن أوروزكو ضحى بحياته ليتمكن صديقه من الهرب.

تقبل رمسيس الخبر بجلد، ثم قال إنه اتصل برجل السفارة الأمريكية، وأخبره عن شخص يحتاج إلى عدة مجموعات من الوثائق على وجه السرعة. وافق المسؤول القنصلي الأمريكي على لقاء في الساعة الثانية مساءً في مكسيكو سيتي، وأعطى رمسيس الموقع لجينتري.

قاد كورت ولورا لمدة ساعتين أخريين ثم توقفا للتزود بالوقود. عندما خرج كورت من دورة المياه، بدأ يترنح قليلاً في طريقه عائدًا إلى الدراجة. لاحظت لورا ذلك وعرضت القيادة لبعض الوقت. لم تسمح رجولة كورت له بالركوب خلف امرأة طولها خمسة أقدام على دراجة نارية، خاصة وهي تقود. أدرك مدى سخافة هذا، لكنه أدرك أيضًا أن لورا ربما لم تنم كثيرًا مثله في اليومين الماضيين، لذا ركبا لبضعة أميال على الطريق السريع ثم خرجا، ووجدا غابة كثيفة من الشجيرات بمحاذاة طريق ترابي عبر مرعى متموج، وأخفى كورت الدراجة.

قال كورت وهو يضبط ساعته:

– "تسعون دقيقة نوم. لا أكثر."

استلقيا بجانب بعضهما في العشب البارد. وفورًا، غطت شقيقة إيدي الصغيرة جينتري بجزء من بطانيتها، وضمته إليها طلبًا للدفء.

قالت وهي تضع رأسها في تجويف كتفه وتريح ذراعها العارية النحيلة عبر صدره:

– "أنا آسفة. أشعر ببرد شديد."

لم يقل كورت شيئًا.

سألت لورا:

– "هل أنت بخير؟"

– "نعم."

حدق كورت في السماء المرصعة بالنجوم وحاول السيطرة على دقات قلبه المتسارعة.

رغم إنهاكه الشديد، استغرق الأمر خمسًا وأربعين دقيقة ليغفو.

تعتبر المنطقة الفيدرالية لمكسيكو سيتي، المعروفة ببساطة لدى المكسيكيين باسم «دي إف» (el de-efe)، واحدة من أكبر المدن في العالم. تشير التقديرات إلى أن ما بين خمسة عشر وعشرين مليون نسمة يعيشون ضمن حدودها العامة، والكثير منهم يعيشون في فقر مدقع بضواحي أشبه بالعشوائيات.

وصلت لورا وكورت إلى ضواحي مكسيكو سيتي في العاشرة صباحًا، لكن مع الامتداد المترامي للمدينة الكبرى، كان أمامهما ساعة أو أكثر من القيادة للوصول إلى وجهتهما الأولى. كان الوقت قد تجاوز الحادية عشرة بقليل عندما دخلا وسط المدينة. نظفا نفسيهما في حمام مطعم وجبات سريعة، ثم أنزل كورت لورا أمام بنكها في شارع باسيو دي لا ريفورما المحفوف بالأشجار. كره تركها تغيب عن ناظريه، لكنهما اتفقا على أن دخول كورت معها قد يثير الشكوك. افترض أن صوره غير الواضحة على التلفاز كانت حديثة بما يكفي لجذب الانتباه إلى لورا غامبوا، شقيقة قائد الفريق الذي أُبيد أثناء محاولته قتل أحد أكبر وأشرس زعماء الكارتل في البلاد. لذا ستدخل وحدها، وتنتظر أموالها وحدها، ثم تجلس في الحديقة بالخارج بانتظار عودة كورت من مهامه الخاصة.

أعطاها هاتف رمسيس لحالات الطوارئ، لكنهما لم يملكا ما يكفي من المال ليشتري كورت هاتفًا لنفسه. لم يكن لديه أدنى فكرة بمن ستتصل إذا واجهت مشكلة، لكنه بدا التصرف الصحيح. كان لديها مسدس «بيريتا» في حقيبتها، وكانت تعرف كيف تستخدمه، وهذا ما طمأنه. راقبها كورت وهي تختفي خلف الأبواب الزجاجية العاكسة؛ نظر إلى ساعته ثم استدار مبتعدًا على مضض.

كان لدى جينتري قائمة مهام طويلة لينجزها بينما تسحب لورا أموالها. احتاج لاستكشاف موقع لقاء الظهيرة مع رجل السفارة، واستخدام آخر ما تبقى معه من مال لتزويد الدراجة بالوقود مرة أخرى، ثم العثور على مكان لائق لحجز غرفة فندقية. سيحتاج لورا وأموالها لحجز الغرفة، لكن كورت أراد التجول في الشوارع للحصول على انطباع عن مكان آمن.

أجرى استطلاعه ومسحه الأمني، وزود الدراجة بالوقود، وعاد إلى البنك بعد تسعين دقيقة من مغادرته. كانت لورا في الحديقة على طول الممشى، جالسة على مقعد حديقة وتشرب القهوة. كانت قد اشترت كوبًا لكورت، فاقترب منها وجلس ومد يده ليأخذه.

سحبت الكوب بسرعة، ونظرت إليه وكأنه رجل مجنون، ثم استرخت عيناها.

- "كيف تظهر فجأة من العدم هكذا؟ أنت مثل الشبح."

تجاهل كورت التعليق، ولم يكن ليخبرها أن عقودًا من التدريب والخبرة الميدانية جعلت من القدوم والذهاب بتكتم تصرفًا لا شعوريًا.

- "هل واجهتِ أي مشاكل في البنك؟"

- "لا شيء على الإطلاق. كانوا مندهشين قليلاً لأنني سحبت كل المال، لكنهم لم يطرحوا أي أسئلة. كانوا لطفاء جدًا."

- "أين المال؟"

أخرجت لورا حقيبة ظهر قماشية صغيرة من كيس تسوق وسلمتها له.

- "ها هو. إنه معك الآن. أنا أثق بك."

علق كورت الحقيبة على كتفه، وابتسم وهو يقودها عبر الشارع إلى الموقف حيث ركن الدراجة النارية.

- "لو كانت نيتي سرقتك، لكانت الأيام الثلاثة الماضية طريقة بائسة للقيام بذلك."

ضحكت قليلاً دون أن تبتسم حقاً.

كانت السفارة الأمريكية على بعد خمس دقائق فقط سيرًا على الأقدام في شارع باسيو دي لا ريفورما. في الأمام، أقيمت حواجز حديدية ضخمة وحواجز أسمنتية في الممشى الممتد بطول الشارع. وفي كل مكان عُلقت لافتات كتب عليها «ممنوع التصوير» بالإنجليزية والإسبانية على السياج. جلس رجال شرطة المنطقة في دورياتهم أو ساروا جيئة وذهابًا على الرصيف؛ وكانت رشاشات «عوزي» (Uzi) عيار 9 ملم القديمة والقوية ذات الأخمص المطوي تتدلى من أحزمة جلدية على أكتافهم.

لم يبدُ أن دولة المكسيك ترحب كثيرًا بالسفارة الأمريكية، ولا بدا المبنى مكانًا جذابًا لزيارة المواطن المكسيكي.

لكن هكذا هو حال العالم.

اشترى كورت ولورا هاتفين محمولين جديدين وتناولا الغداء في مطعم مظلم قبل لقائهم؛ جلسا في الجزء الخلفي من غرفة الطعام الصغيرة وظهورهما للجدار. كان كلاهما متعبًا جدًا لدرجة تمنعهما من الحديث كثيرًا؛ شربا قهوة مع الكثير من السكر ونقرا في طبق لحم الخنزير المشوي والأرز والفاصوليا، بانتظار الساعة الثانية بعد الظهر.



34

كان اللقاء في مركز تجاري لا يبعد سوى دقائق قليلة سيراً على الأقدام من السفارة. ترك كورت مرافقته لورا في ردهة الطعام بالطابق الثاني، ثم نزل إلى دورات المياه المجاورة لمقهى "ستاربكس". كان يعرف الطريق جيداً، فقد استطلع المكان قبل ساعتين فحسب.

دخل كورت دورة المياه متأخراً خمس دقائق، ليجد جهة الاتصال في انتظاره؛ كان رمسيس قد أخبره أن اسمه جيري فليجر. كان فليجر ينحني فوق المغسلة ويحدق في المرآة، وتولد لدى جينتري انطباع بأن الرجل كان مشغولاً بالعبث ببثرة في أنفه.

بدا شاباً في أوائل الثلاثينيات، طويلاً ونحيفاً، بشعر بني فاتح قصير ومجعد، ووجه ضيق يوحي بأنه نادراً ما يرى ضوء الشمس الطبيعي. كان يرتدي سروالاً قماشياً أسود بلا حزام، وقميصاً أبيض قصير الأكمام بياقة رسمية، وربطة عنق رفيعة تبدو مصنوعة من البوليستر أكثر من القطن.

سأل الشاب:

– "روميو؟"

تنهد جينتري مجيباً:

– "جولييت."

كانت كلمة السر من فكرة فليجر، ورآها كورت فكرة حمقاء. مد موظف السفارة يده، فصافحه كورت؛ وشعر وكأنه يصافح قطعة باردة من شرائح السمك النيء.

قال الشاب الأمريكي وعيناه جاحظتان:

– "حسناً، فلنبدأ بالأهم. يجب أن أخبرك أن هذا الأمر غريب."

– "ما الغريب في الأمر؟"

– "أعني.. أنا أقوم بهذا الهراء طوال الوقت، أرتب الأوراق لمن لا يريدون الانتظار في الطوابير، لا مشكلة في ذلك. لكن (صاحبنا) الذي اتصل بي أخبرني أنني سأقابل (غرينغو).. وهذا هو الغريب."

– "أحتاج إلى أوراق لعائلة يجب أن تصل إلى الولايات المتحدة فوراً."

– "وكيف أعرف أن هذا ليس فخاً أو شيئاً من هذا القبيل؟"

– "هل أبدو لك كمن يعمل في السفارة؟"

كان شعر كورت الطويل متسخاً ومتلبداً، ولحيته لم تُهذب منذ خمسة أشهر.

هز فليجر رأسه قائلاً:

– "هذا كل ما لديك؟ لا شيء آخر يطمئنني؟ هيا يا صاحبي."

– "انظر يا جيري، أنا أعرف الرجل الذي اتصل بك لترتيب هذا اللقاء، وأعرف العائلة التي تريد الأوراق. أنا مجرد حلقة وصل هنا، فلا تتوتر. إذا استطعت توفير ما نحتاجه بسرعة، فستكون هذه أسهل صفقة تجريها في حياتك."

أومأ فليجر ببطء، ثم كرر الإيماءة بسرعة أكبر. لاحظ كورت في حركات الشاب النزقة والمضطربة أثراً لنوع من المواد المخدرة.

من الواضح أن جيري يتعاطى شيئاً ما.

تأوه كورت في سره. يا للروعة، هذا الوغد يتعاطى الكوكايين.

تابع فليجر حديثه بلسان سريع وحركات يدوية مضطربة:

– "أعني.. في العادة، أتعامل مباشرة مع المكسيكيين الراغبين في الهجرة." هز جيري كتفيه وأردف: "لا أقوم بذلك عادة تحت أنظار مواطن أمريكي مثلي." رفع أصابعه في الهواء ملوحاً بعلامة النصر بكلتا يديه، مقلداً ريتشارد نكسون بأسلوب ركيك: "مواطني الأمريكي العزيز.. ها ها، (ديك المحتال)، أليس كذلك؟"

– "بالضبط.." تباً له. "إذن.. بالأوراق التي ستوفرها، هل يمكنهم عبور الحدود مباشرة؟"

أومأ برأسه:

– "كل ما يحتاجونه للعبور من (تخوانا) أو (مكسيكالي) وتجنب (طرق الفقراء)."

– "وما هي طرق الفقراء؟"

أجاب بحركة جافلة من ذراعه:

– "أنت تعرف.. الصحراء، نهر (ريو غراندي)، تسلق السياج بالزانة، أو الزحف كجرذان الأنفاق في المجاري. لدي زملاء في (خوارين) و(تخوانا) و(ماتاموروس) يفعلون ما أفعل، يوصلون مواطني المكسيك الكادحين عبر الحدود لإنعاش الاقتصاد الأمريكي، لكنني الوحيد الذي يمكنه ترتيب عبورك وأنت مرفوع الرأس. بل سأمنحكم تأشيرات عمل وبطاقات خضراء (غرين كارد). سيبدو كل شيء قانونياً تماماً لأنه سيكون قانونياً بالفعل."

– "بكم؟"

ابتسم جيري:

– "للصفقة كاملة؟ لدي عرض خاص اليوم. كل شيء بسعر مخفض، خمسة عشر ألفاً فقط لكل (رأس)."

ارتفعت حواجب كورت من السعر ومن اللفظ العنصري الذي استخدمه.

– "العائلة مكونة من أربعة أفراد."

– "ستون ألفاً إذن."

– "ما رأيك في خصم للكمية؟"

ضحك جيري وصفق بيديه مرة واحدة، ثم أمال رأسه جانباً. وبعد ثوانٍ قليلة أومأ بتفكير. كان كورت قد صوّب نحوه نظرة تهديد، ولم يدرِ إن كانت ستجدي نفعاً أم لا.

– "ليكن.. خمسون ألفاً."

عشرة آلاف دولار ثمن نظرة واحدة.. ليس سيئاً. تساءل كورت لو أنه استل مسدسه، فهل كان سيشطب خمسة آلاف أخرى؟

– "يمكننا تدبير المبلغ. كيف ستسير الأمور؟"

– "أحتاج إلى بطاقات الهوية الشخصية للجميع. سآخذ المعلومات وأستخرج لك كل ما تحتاجه."

مد كورت يده في حقيبة الظهر وأخرج مجموعة بطاقات الهوية لعائلة غامبوا. تذكر أن رخصة قيادة إرنستو لا تزال بينها، فبحث عنها واستلها، ثم وضعها في جيبه مع غصة ألم خفيفة. سلم البطاقات لـ فليجر وسأله:

– "كم سيستغرق الأمر؟"

تفحصها فليجر، بينما كان كورت يراقبه بحذر. كان يعلم احتمال أن يدرك هذا الأمريكي أنه يتعامل مع أفراد عائلة كانت مستهدفة في تجمع "بورتو فالارتا"، لكن لو تعرف على كنية غامبوا، فلم يظهر عليه أي أثر لذلك.

– "حتى الغد. يمكنني تسليمها لك وقت الغداء.. الغداء المكسيكي أعني، أي في الثانية ظهراً. في الوقت نفسه والمكان نفسه."

– "هذا مناسب."

– "هل تملك هاتفاً؟ قد أحتاج للاتصال بك لمزيد من المعلومات."

تردد جينتري:

– "أي معلومات؟"

– "يا صاحبي، صدقني، هناك دائماً بيانات ناقصة في البطاقات ولا أريد مجرد تخمينها. هؤلاء الأشخاص سيعيشون بهذه الهويات في الولايات المتحدة، ويجب أن تكون كل التفاصيل دقيقة تماماً."

أخرج كورت هاتفه الجديد، وأملى الرقم على جيري فليجر.

قال جيري:

– "حسناً، أحتاج إلى دفعة مقدمة.. خمسون بالمئة."

أخرج كورت حزمة المال من حقيبته وسحب منها خمسة وعشرين ألف دولار، وسلمها للشاب الأمريكي الذي عدّها بنفسه، ثم حشرها في جيبه.

دخل صبيان إلى دورة المياه، وتوجها مباشرة نحو المراحيض دون الالتفات للأمريكيين.

افترق الرجلان بإيماءة رأس. خرج كورت أولاً، بينما عاد جيري إلى المرآة ليواصل عبثه بتلك البثرة.

كاد كورت يصاب بالذعر حين لم يجد لورا في ردهة الطعام عند عودته. أخذ يلتفت يمنة ويسرة، ماسحاً حشود وقت الغداء بعينيه، وبدأ يشق طريقه عائداً نحو السلم الكهربائي.

أمسك بهاتفه ليحدثها، لكنه لمح فتاة صغيرة بشعر أسود قصير مقصوص بعناية تقف في طابور عند صندوق الدفع في متجر للملابس الرجالية. لوحت له وابتسمت قليلاً.

حين خرجت، قالت:

– "لقد اشتريت لنا بعض الملابس الجديدة، آمل أن تعجبك."

أراد أن يوبخها، لكنه أدرك في اللحظة ذاتها أنها استغلت وقتها بحكمة؛ فكلاهما يحتاج لملابس جديدة. لقد أحسنت الصغيرة لورا صنعاً، وأخبرها بذلك.

ابتسمت له، ثم سارا معاً بخطوات يثقلها النعاس نحو مخرج المركز التجاري.

اختار جينتري فندقاً في شارع "دونسيليس"، على بُعد مربع سكني واحد شمال الكاتدرائية الوطنية في الحي التاريخي "ثينترو هيستوريكو". كان المبنى صغيراً ومنزوياً عن الشارع الرئيسي خلف بوابة يحرسها أمن؛ وكان يضم موقفاً صغيراً مخفياً لركن دراجته النارية المسروقة. قبض موظف الاستقبال ثمن الغرفة نقداً وسلمهما مفاتيح غرفة في الطابق الثالث بها سريران منفردان؛ كان كورت قد طلب غرفة تطل على الشارع، وشعر بالرضا حين عاين زاوية الرؤية من النافذة.

رغم الإنهاك الذي حل بـ لورا، إلا أنها ابتهجت بموقع الفندق، إذ يقع مباشرة مقابل كنيسة "سنيورا ديل بيلار"، وهي كنيسة باروكية ضيقة لكنها مزخرفة بإتقان، عمرها مئتان وخمسون عاماً، وكانت في السابق مدرسة للفتيات. بمجرد دخولهما الغرفة، أخبرت كورت برغبتها في الذهاب إلى الكنيسة لتصلي. فالتفت عيناه بملل وهمّ بمرافقتها، لكنها اقترحت عليه البقاء في الغرفة ليرتاح. قبض على المسدس الذي استله لتوه من سرواله، وأعاده مكانه في حزامه مغطياً إياه بقميصه، وتبعها خارج الباب.

– "سنبقى معاً يا لورا."

– "جميل. هل ستصلي معي؟"

هز جينتري كتفيه وهما يبلغان الدرج:

– "صلي أنتِ من أجلنا نحن الاثنين، وسأكتفي أنا بالحراسة."

عبرا الشارع المزدحم ودخلا الكنيسة؛ جلس كورت على أحد المقاعد الخشبية بينما جثت لورا بجانبه وحنت رأسها. أبقى كورت عينيه المتعبتين مفتوحتين، تترصدان كل الاتجاهات، رغم أنه لم يكن في المصلى سوى بضعة أشخاص يبدو أنهم مهتمون بخلاص أرواحهم أكثر من اهتمامهم بتصفية كورت أو الفتاة التي معه.

كان المذبح عالياً ومذهباً، والجدران على جانبي المصلى مزينة بالذهب والتماثيل. انبعثت موسيقى هادئة من مكبرات الصوت، وكان الهواء البارد يعبق بالسكينة في ضوء خافت يتسلل عبر الزجاج المعشّق وينعكس على الجدران الذهبية والزخارف.

بدأ كورت يغرق في النوم، ولم تتفتح عيناه ثانية إلا حين عادت لورا لتجلس بجانبه على المقعد.

جلست ويداها مطويتان في حجرها، وعيناها معلقتان بالصليب فوق المذبح. قالت بصوت خفيض:

– "أنت لست مؤمناً، أليس كذلك؟"

– "أنا.. لم أتربَّ في الكنيسة، ولا أعرف كيف تسير كل هذه الأمور."

نظرت إليه وابتسمت؛ كانا يجلسان وكتفاهما متلامسان.

– "دعني أُريك."

– "شكراً، ليس اليوم. أنا متعب حقاً."

– "الإيمان سيمنحك الطاقة التي تحتاجها."

– "النوم هو ما سيمنحني الطاقة التي أحتاجها."

بدا عليها الخيبة، فسألت:

– "ربما في وقت آخر؟"

– "بالتأكيد."

ثم تقدمت لورا نحو حامل حديدي لشموع النذور ووضعت نقوداً في صندوق التبرعات. بدأت تشعل الشموع واحدة تلو الأخرى، وتهمس بصلاة لكل شمعة. بعد الشمعة الثالثة، أدرك كورت أنها تشعلها من أجل الراحلين من عائلتها.

وقف بجانبها، وظهره للجدار، يراقب الباب الأمامي وشرفة الجوقة والمصلين الآخرين. كان لديها الكثير من الشموع لتشعلها.

في طريق العودة إلى الفندق، لمحت لورا متجراً صغيراً، فاتفقت مع كورت على شراء بعض المؤن حتى لا يضطرا للمخاطرة بالخروج ثانية قبل موعد لقاء الغد. اشتريا خبزاً وعصيراً وماءً ولفائف "تورتا"، وعادا إلى الغرفة قبيل الخامسة.

ارتمت لورا فوراً ووجهها لأسفل على أحد السريرين وأغمضت عينيها.

أمسك كورت بحقيبة الملابس التي اشترتها من المتجر ودخل الحمام. غسل حمام طويل عرق وأوساخ أيام مضت. توقف لبرهة متأملاً دوامات بلون الدم في قعر حوض الاستحمام؛ وتساءل عن أي من ضحاياه الكثر قد وصل رذاذ دمها إلى جلده، وكيف ظل هذا الدم عليه طوال هذا الوقت. غسل شعره الطويل بالشامبو، فانسال منه مزيد من الدم، ومعه نتف من العشب والحصى الصغير وشظايا الزجاج وبقايا البارود. تجمعت تلك الحطام في الماء حول قدميه، وراح يراقبها وهي تدور أو تستقر، حسب نوعها.

كانت تلك البقايا بالنسبة له مذكرة توثق الأيام القليلة الماضية؛ تجمع "بورتو فالارتا"، الهاسيندا، الشاحنة المدرعة، ورحلة الدراجة النارية.

مجرد النظر إلى كل ذلك جعله يشعر بإنهاك يفوق أي وقت مضى.

أغلق الماء، وخرج من الحمام، وجفف جسده بالمنشفة، ثم نظر في الحقيبة.

سروال "كاكي" مكوي، قميص من الكتان بلون القشدة، حزام أسود بإبزيم فضي مربع، جوارب سوداء وحذاء رياضي أسود، كان أكبر من مقاسه بنصف درجة لكنه مناسب بما يكفي. ارتدى ملابسه بسرعة، وشعر بملمس الثياب الجديدة رائعاً على جسده النظيف.

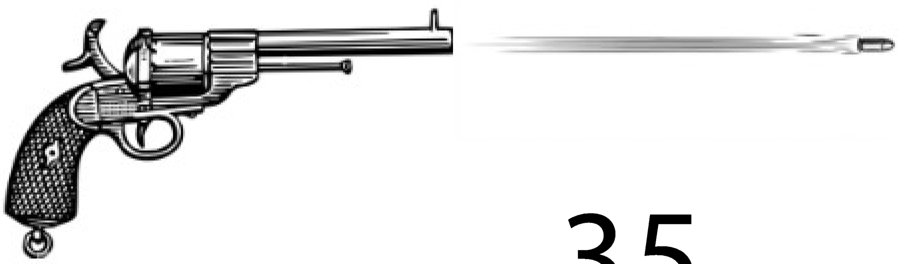
ورغم علمه بأنه قادر على النوم ليوم كامل، إلا أنه شعر وكأنه رجل جديد.

عاد إلى غرفة النوم، واستلقى على سريره، ووضع مسدس "بيريتا" فوق صدره، ونظر نحو لورا.

كانت قد انقلبت على ظهرها؛ عيناها مغمضتان، ويداها ترتاحان فوق بطنها، وصدرها الصغير يعلو ويهبط مع أنفاسها.

كانت أجمل امرأة رآها في حياته على الإطلاق.

أجبر نفسه على إشاحة نظره عنها، وانقلب على جنبه، وفي غضون دقائق، غط في نوم عميق.



35

توقفت سيارتنا دفع رباعي من طراز «Yukon XL Denali» بيضاوان أمام المطعم الفاخر في حي «زابوبان» بمدينة غوادالاخارا قبيل الساعة الثامنة مساءً. بقي السائقون خلف عجلات القيادة في المركبات المصفحة، بينما ترجل أربعة رجال إلى الطريق، وراحوا يتفحصون السيارات في الشارع والمارة العابرين. ارتدى الرجال بدلات سوداء إيطالية التصميم، وكانت أيديهم فارغة، وتحركاتهم سريعة وفعالة، لكنها لم تخلُ من التهذيب وهم يشقون طريقهم وسط المارة نحو الباب الأمامي للمطعم. هناك وقفوا، وظهورهم إلى الحائط، وقاموا جميعًا بفك أزرار معاطفهم، بينما مسحت عيونهم الشارع في كل الاتجاهات.

كانت ثلاث سيارات شرطة تابعة لغوادالاخارا تقف في الصف الثاني بالشارع. انعكست أضواؤها الوامضة على الزجاج لمسافة مبنى كامل في كل اتجاه. ترجل شرطيان من كل مركبة وبدأوا في توجيه حركة المرور لمواصلة السير في الشارع، مانعين أي شخص من التوقف بالقرب من واجهة المطعم.

ترجل أربعة رجال آخرين من سيارات الدفع الرباعي البيضاء اللامعة وتحركوا مباشرة عبر الأبواب البرونزية المزدوجة للمطعم. كان هؤلاء يرتدون بدلات سوداء أيضًا، ويحملون أجهزة راديو يدوية وحقائب نايلون سوداء فارغة. استقبل المدير ومسؤول القاعة الرجال

في الردهة أمام البار، وتحدثوا للحظة، ثم انقسم الرجال الستة إلى فريقين.

اقترب مسؤول القاعة واثنان من «البدلات السوداء» من كل طاولة مضاءة بالشموع وتحدثوا بصوت خافت إلى الزبائن. صودرت الهواتف المحمولة؛ وطُلب من الرجال الوقوف وفتح معاطفهم، وتم تفتيشهم بتهذيب قدر ما تسمح به تلك العملية الخشنة. فهم بعض الزبائن ما يجري، بينما جهل الأغلبية السبب. وسرعان ما استقرت هواتف جميع الرواد في حقائب النايلون السوداء. ألقى مسؤول القاعة إعلاناً على مسامع رواد صالة الطعام: «تناولوا طعامكم، واشربوا، واستمتعوا بوقتكم، فجميع وجباتكم ستكون مدفوعة الثمن من قبل زبون سيدخل بعد قليل». علت شهقات الدهشة، وسمع قليل من التصفيق، واختُلست نظرات إلى ساعات اليد.

ستكون ليلة طويلة.

في غضون ذلك، قام ثلاثة رجال بتفقد قاعة الولائم المعدة، ونظروا تحت الطاولة، حريصين على عدم بعثرة المفارش أو أدوات المائدة أثناء ذلك. مسحوا المكان بحثاً عن أجهزة تنصت وناقشوا الترتيبات مع الندل. ثم دخلوا المطبخ؛ قادهم المدير بينما اصطف الموظفون وخضعوا لتفتيش سريع، حتى النساء في الخلف خضعن للتفتيش الذاتي. ثم فُتشت خزانة المؤن، والمبرد الكبير، ومناطق التخزين الجاف، وحتى المجمد (الفريزر).

كان الجميع في المطبخ معتادين على هذا الروتين.

وصلت ست بدلات سوداء أخرى في سيارة « Yukon XL Denali» بيضاء ثالثة؛ توجه رجلان مباشرة عبر صالة الطعام، وتساءل الزبائن عما إذا كان أحدهم هو فاعل الخير لهذه الأمسية. لكنهما توجها إلى المطبخ وخرجا من الباب الخلفي. فتحا معطفيهما واتخذا مواقع الحراسة في الزقاق. أما الأربعة الباقون فقد دخلوا صالة

الطعام قادمين من المساء البارد، وتحركوا بدقة عسكرية نحو الزوايا الأربع للغرفة. مرة أخرى، فُتحت المعاطف ومسحت العيون كل شيء أمامهم دون أن تثبت على شيء واحد.

تحدث أحد أول الواصلين عند الباب في جهاز الراديو الخاص به.

بعد خمس دقائق توقفت ثلاث سيارات دفع رباعي بيضاء أخرى أمام المطعم. دخلت مجموعة كثيفة من الرجال ببدلات سوداء متطابقة؛ لم يكن بوسع أحد إحصاء عددهم بسبب سرعة وتلاصق الكتلة البشرية، لكنهم كانوا بالتأكيد اثني عشر فردًا. ملابسهم وتسريحات شعرهم، وحتى لحاهم وشواربهم المشذبة، كان كل شيء متطابقًا تقريبًا. مروا عبر صالة الطعام؛ واشرأبت أعناق الزبائن على طاولاتهم وهم يحدقون بذهول؛ أمالت امرأة كأس نبيذها وهي ترجع للخلف محاولة تمييز المشهور بينهم.

هل هو مصارع ثيران شهير؟ هل هو المغني الذي يحيي حفلاً في «أوديتوريو تيلميكس» الليلة؟

لم يعرف أحد من هو، لأنه لم يستطع أحد التمييز بين رجل وآخر. في ثوانٍ تحركت الكتلة البشرية إلى قاعة ولائم خلفية، وأُغلق الباب، ووقف اثنان من أصحاب البدلات عند الباب مواجهين للمطعم.

سرت همهمات وتكهنات في صالة الطعام الرئيسية. قال العديد: «لوس تراجيس نيغروس» (البدلات السوداء)، لكن لم يومئ أي من الرجال الواقفين ببدلاتهم السوداء أو يردوا.

سرعان ما بدأت الطاولات بطلب المزيد من النبيذ، وسكب الندل الكؤوس بسخاء. فُرقعت سدادات الشمبانيا، وتحولت غرفة الطعام الرصينة إلى ساحة احتفال.

جلس دانيال دي لا روشا (DLR) على رأس طاولة الولائم الطويلة، يرتشف الويسكي الاسكتلندي، ويحدق في شمعة صغيرة على مفرش الطاولة الأبيض المنشى. انتزع اللب الطري من شريحة خبز

فرنسي مقرمش وكوره كرة صغيرة قبل أن يقذفها في فمه. كانت الطاولة معدة لاثني عشر شخصًا، لكن الآن يجلس معه خمسة فقط. كان الرجال الآخرون يجوبون الغرفة وهم يتحدثون في الهواتف المحمولة أو أجهزة الراديو؛ وانزوى اثنان في الزاوية حول حاسوب محمول وضعوه على طاولة تقديم.

وقف إميليو لوبيز لوبيز، الحارس الشخصي لـ دي لا روشا وقائد قوات حمايته، مستندًا إلى الجدار على بعد أقل من خمسة أقدام خلف رئيسه.

عرض نادل يرتدي الأبيض قائمة الطعام على الزعيم، لكنه لوح بيده رافضًا، وطلب من النادل أن يخبر الطاهي بإعداد شيء خفيف له. اختفى النادل، وعاد انتباه دي لا روشا إلى الشمعة.

لم يكن يومًا جيدًا. نجت إيلينا غامبوا من الهجوم على المزرعة في الجبال بالقرب من تيكويلا وهربت. قُتل تسعة عشر من مشاة البحرية، والفيدراليين، وشرطة ولاية خاليسكو، وشرطة بلدية تيكويلا، وجميعهم تحت سيطرة «سبايدر» (العنكبوت) سيبيدا، بالإضافة إلى اثنين من الفلاحين، وجُرح عدد أكبر بكثير.

كان كالفو قد استخدم سحره، وذكرت الأخبار أن الرجال ماتوا ميتة الأبطال وهم يقاتلون فلول قتلة كارتل مادريغال الذين هاجموا التجمع في بويرتو فالارتا، لكن فوضى كهذه لا تختفي ببساطة أو بسرعة أو بتكلفة زهيدة. سيكون هناك رد فعل عنيف من كونستانتينو مادريغال، ومن الحكومة في مكسيكو سيتي، ومن صحافة أجنبية متطفلة لا يستطيع كالفو التأثير عليها بسهولة.

جلس المزيد من الرجال الآن، وانفرجت أسارير دي لا روشا قليلاً. كان مع إخوته؛ كانوا معًا، وسيجتازون هذه الفوضى اللعينة . سيتم العثور على آل غامبوا، وسيموتون، ولن تكون الموجة التالية من «الأبطال» العاملين لصالح «GOPES» سريعة في ملاحقته.

تحدثوا عن الأيام الخوالي، وعن أيامهم معًا في الجيش. كان دانيال واحدًا من الرفاق الآن، وكان يستمتع بلحظات كهذه. كان يحب الابتعاد عن ممتلكاته، والخروج إلى مكان مختلف، حتى لو تطلب الأمر عشرين حارسًا شخصيًا وساعات من التنسيق مع الشرطة المحلية.

نهض دي لا روشا من كرسيه. وقف الآخرون الجالسون معه، لكنه أشار لهم بالجلوس. خطا نحو محراب في الزاوية، وجثا أمام تمثال لـ «سانتا مويرتي» (القديسة الموت) وُضع هناك خصيصًا له، وصلى وحيدًا.

عندما انتهى، سكب كأسًا مزدوجًا من الويسكي لـ «العذراء» وتركه هناك في المحراب بجانبها، ثم عاد إلى طاولته.

كان نيستور كالفو يجوب المكان وهو يتحدث في هاتفه، لكنه غادر غرفة الطعام للحظة، وعاد بعد دقائق، ثم جلس في مقعده على يمين دانيال. مال نحو أذن سيده.

– "تحدثت طوال الظهيرة مع رجل من السفارة الأمريكية. نحن نستخدمه من حين لآخر، لهذا وذاك."

وصل طبق دانيال. فيليه سمك موسى، زبدة غير كثيرة. صلصة مانجو. وهليون. أومأ برأسه، ورفع شوكته، فابتعد النادل وتنفس الصعداء. لم يرفع دانيال نظره وهو يرد على نيستور:

– "هذا وذاك؟ من حين لآخر؟ حسنًا. أنت لا تخبرني بالكثير. ماذا عن هذا الـ «غرينغو»؟"

– "إنه يساعد «سبايدر» في الحصول على أوراق لرجاله لدخول الولايات المتحدة إذا كان هناك شخص نحتاج لملاحقته هناك."

أومأ دانيال برأسه، وقضم قطعة من السمك الساخن. لم يظهر وجهه أي تعبير.

تابع كالفو:

– "إنه... أنا أتحدث عن الأمريكي الشمالي (norteamericano)، اتصل بأحد رجالي بعد ظهر اليوم، يقول إن لديه معلومات قيمة، لكنه لن يعطيها إلا لك مباشرة. اتصلت به وأخبرته أن يذهب إلى الجحيم. لقد طار مباشرة من العاصمة الآن ليتحدث إلينا. اتصل بي من المطار. أقنعته أخيرًا بإخباري بما يعرفه، وأرسلت رجلاً لاصطحابه وإحضاره إلى هنا."

– "إذن لم يذهب إلى الجحيم؛ بل جاء إليّ."

هز نيستور كتفيه:

– "سترغب في سماع هذا."

– "هل تم تفتيشه؟"

– "في المطار ومرة أخرى، الآن فقط، في الحمام. من الرأس إلى القدمين."

الآن هز دي لا روشا كتفيه وأومأ برأسه، ولم يرفع نظره عن طبقه وهو يأكل.

– "أدخله."

أومأ نيستور عبر قاعة الولائم لرجل متمركز عند الباب. خرج الرجل، وعاد بعد ثوانٍ برفقة جيري فليجر.

كان الأمريكي أشعث الهيئة، ولا شك أن ذلك بسبب التفتيش الخشن الذي خضع له لتوّه في الحمام. بقميصه الأبيض قصير الأكمام المجعد وربطة عنقه السوداء الرفيعة، بدا رثًا تمامًا في غرفة الطعام الجميلة وسط الرجال المصففين بعناية ببدلاتهم باهظة الثمن. قاده الحارس إلى الطرف الأقصى من الطاولة على يسار دي لا روشا. وقف دانيال وصافح جيري.

قال جيري بابتسامة عريضة:

– "سعيد بلقائك يا صاحب السعادة."

تنهد دانيال. يالهؤلاء الغرينغوس.

– "لا تنادني بهذا. تفضل بالجلوس."

جلس الرجلان مرة أخرى. نظر دي لا روشا إلى النادل الواقف بمحاذاة الجدار خلفه.

– "أنجيلو، أحضر لصديقي الأمريكي الأبيض بعض النبيذ الأبيض."

سُكب كأس من النبيذ الأبيض وتجرع جيري جرعة كبيرة. عاد دانيال إلى سمكه. وبين اللقيمات سأل:

– "ماذا يمكنني أن أفعل لك؟"

– "أنا سعيد حقًا لأنك لم تُصب بأذى في ذلك اليوم."

– "وأنا كذلك."

– "في الأخبار... الرجل الذي حاول قتلك على يختك. زوجته كانت في التجمع في بويرتو فالارتا."

توقف دي لا روشا عن الأكل. ونظر إلى جيري.

تابع فليجر:

– "قال السيد كالفو إنك قد تكون مهتمًا بمعرفة مكانهم؟"

– "قد أكون مهتمًا، نعم."

– "جاءني أمريكي اليوم في مكسيكو سيتي. يريد مني تأمين تأشيرات أمريكية مزورة لثلاث نساء وصبي."

نظر دي لا روشا إلى الغرينغو:

– "ومن هؤلاء الـ «موخادوس[7]» (mojados)؟"

– "لوز روزاريو غامبوا فوينتس، وإيلينا ماريا غامبوا غونزاليس، ولورا ماريا غامبوا كوراليس، ودييغو غامبوا فوينتس."

صرخ دي لا روشا:

– "سبايدر!"

[7] «موخادوس» تعني حرفياً «المبللون»، وهو وصف محلي لمن يعبرون نهر ريو غراندي سباحة لدخول الولايات المتحدة.

مما أذهل فليجر وجعله ينتفض في كرسيه. كان خافيير «سبايدر» سيبيدا عند الكمبيوتر في الزاوية، لكنه استدار وهرع نحو سيده . جعل دانيال جيري يكرر ما قاله لزعيم القتلة المأجورين.

سأل سيبيدا بأمل:

– "هل هم في مكسيكو سيتي؟"

– "لا أعرف. أعرف فقط أن الـ غرينغو هناك."

– "متى ستقابله مرة أخرى؟"

– "الثانية ظهر الغد."

هز دي لا روشا رأسه:

– "سبع عشرة ساعة. هل من طريقة للوصول إليه أسرع من ذلك؟"

– "نعم يا سيدي. حصلت على رقم هاتفه المحمول. ظننت أنه ربما لديك طريقة لتتبع..."

قاطعه صوت منادياً عبر الغرفة:

– "إستيبان."

كان سيبيدا هو من قاطع فليجر هذه المرة. إستيبان كالديرون كان الخبير التقني لـ «البدلات السوداء»؛ عمل كمشغل لاسلكي في فريق القوات الخاصة الخاص بهم، وكان يحمل شهادات في الاتصالات والهندسة الكهربائية. هرع إلى المكان، وناقش المكسيكيون العقبات التقنية التي ينطوي عليها العثور على شخص عبر إشارة هاتفه المحمول في مدينة مزدحمة مثل العاصمة الفيدرالية.

أخيرًا، عندما استقر الرأي على أنه مع توفر ما يكفي من المعدات والرجال والقليل من الوقت يمكن تحديد موقع الهاتف المحمول بدقة، عاد دي لا روشا إلى فليجر. كان الأمريكي قد نُسي تمامًا في الدقائق الخمس الماضية، من قبل الجميع باستثناء إميليو والحراس

المصطفين على الجدار بالطبع. كان جيري قد تجرع كأسًا كاملاً من نبيذ «شاردونيه» ونصف كأس آخر أثناء انتظاره.

قال دي لا روشا:

– "ماذا تريد يا أميجو؟"

– "امتنانك الأبدي."

حدق دانيال فيه فقط. استطاع دي لا روشا أن يرى من تصرفات الرجل أنه يتعاطى بعضًا من «المنتج» الذي تتاجر فيه «البدلات السوداء».

عندما رأى جيري كيف فشلت دعابته فشلاً ذريعًا، أصبح جديًا:

– "بصراحة، لا شيء يذكر. أريد الأمريكي فقط."

– "الأمريكي؟ تريد منا أن نأخذ العائلة، وتريد أنت أن تأخذ الـ غرينغو معك."

– "نعم."

– "وما هي مصلحتك فيه؟"

– "على ما يبدو، هو مطلوب من قبل الحكومة الأمريكية. كانت السفارة تضج بعد ظهر اليوم بحديث عن رجل طليق هنا. إذا كان هو الرجل الذي يلاحقونه، وأعتقد أنه كذلك، فهناك مكافأة. كنت أفكر في أن أزودكم بالمعلومات، ثم توفرون أنتم... مجموعة من الرجال للقبض عليهم. تأخذون أنتم آل غامبوا، وتسلمونني الأمريكي لأسلمه للسفارة. ثم تعطونني أموال المكافأة مقابل معلوماتي."

أخذ دي لا روشا رشفة طويلة من نبيذه:

– "لماذا يريد الأمريكيون الشماليون هذا الـ غرينغو؟"

– "لا أعرف. شيء سري للغاية. هناك رجل ظهر بعد ظهر اليوم يتسكع حول السفارة، بالتأكيد جاسوس من وكالة الاستخبارات المركزية (CIA). على ما يبدو، هذا الجاسوس والغرينغو المطلوب كانا

يعملان معًا سابقًا، وهو يتسكع في الانتظار للتعرف عليه إذا قبضت عليه الشرطة الفيدرالية."

أومأ دانيال برأسه مفكرًا، والتقطت عيناه نظرة كالفو. نهض الرجلان وابتعدا عن الطاولة، ليجدا زاوية هادئة في قاعة الولائم.

قال نيستور:

– "إذا كانت الـ CIA تريد هذا الغرينغو بشدة، فقد يكونون مستعدين لعقد صفقة مقابله."

– "كنت أفكر في الشيء نفسه. ما الذي يملكونه ونريده نحن؟"

– "إنها وكالة الاستخبارات المركزية. أي معلومات استخباراتية قوية لديهم عن مادريغال قد تكون مفيدة."

مسد دي لا روشا لحيته الصغيرة:

– "سيعرفون من هم جهات اتصاله الحكومية في بيرو، وفي الإكوادور، وفي كولومبيا."

– "من المؤكد أنهم قد يعرفون كل ذلك."

– "هل سيقايضون تلك المعلومات مقابل هذا القاتل الغرينغو؟"

– "سأبدأ فورًا في معرفة ذلك. سأقوم بإعداد سلسلة من الوسطاء للتواصل مع السفارة، لربطنا بـ الـ CIA. سنقيم مدى شغفهم بهذا الرجل."

– "في كلتا الحالتين، نحتاج لأن يقودنا جيري إلى إيلينا."

تحمس نيستور لاحتمال مقايضة الغرينغو بمعلومات من الـ CIA. ستكون ضربة استخباراتية هائلة ضد المنافس اللدود لمنظمتهم.

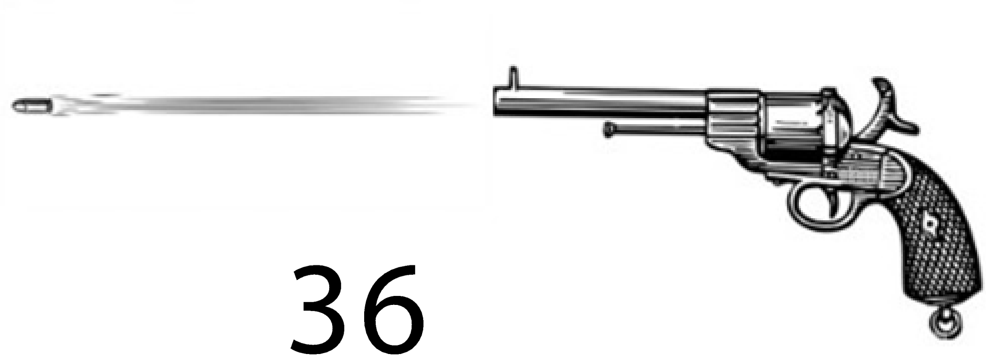
لكنه كان أقل حماسًا عندما عاد رئيسه إلى المهمة الأصلية، وهي قتل زوجة ضابط الشرطة الحامل.

ومع ذلك، وافق كالفو، وخرج هاتفه من جيبه في ثوانٍ. قبل التعامل مع الاستخبارات الأمريكية سيحتاج إلى إنشاء سلسلة من القنوات الخلفية، وهذا سيستغرق وقتًا.

خاطب دانيال قاعة الولائم المكتظة برجاله:

– "يا رجال، سنغادر فورًا إلى العاصمة!"

نهض جيري فليجر، ورفع كأس نبيذه عالياً في نخب. تجاهله المكسيكيون في قاعة الولائم؛ وبدلاً من ذلك تجمعوا بسرعة حول دي لا روشا، ليخرجوا ككتلة واحدة ويحدوا من فرصة أي محاولة اغتيال ضد سيدهم .



36

في تمام العاشرة، كان كل من كورت ولورا قد استيقظا؛ جلسا متقابلين فوق السريرين المنفردين، يتناولان ما تبقى من عشائهما الفاتر، ويصغيان إلى صوت مطر خفيف يقرع نافذة غرفة الفندق. كانت لورا قد استحمّت، فتدلت غرتها المبللة فوق عينيها، وارتدت ثيابها الجديدة: قميصاً أسود من طراز "بولو" وسروال جينز أزرق.

كانت مسبحتها تتدلى من عنقها.

فكر كورت في أن هندامها يبدو عملياً للغاية، وبدت فيه فاتنة إلى أبعد الحدود.

لقد استعدا للبقاء في الغرفة طوال الليل؛ إذ فصل جينتري جهاز التلفاز عن الكهرباء، ودفعه مع قاعدته الخشبية ليسد به الباب، وأضاف إليه خزانة أدراج من خشب البلوط. فأي شخص سيحاول اقتحام الغرفة، لن يحتاج إلى مفتاح فحسب، بل سيتطلب الأمر كتفاً قوية وعدة دفعات عنيفة.

ساد صمت مطبق حتى فرغا من طعامهما، ولكن بمجرد أن استقرت البقايا في سلة المهملات، بدأت لورا تسرد قصصاً عن عائلتها وصباهما في سان بلاس. وإن كانت تتوقع من كورت أن يبادلها الحديث عن طفولته، فقد خاب مسعاها.

عندما نضبت قصصها ولم تبدأ قصصه، سألته مباشرة:

– "شقيقي.. هل كان مثلك؟"

– "بأي معنى؟"

– "بأي معنى كان.. أقصد الطريقة التي تقاتل بها، وكيف قمت بحمايتنا. هل كان إدواردو مثلك تماماً؟"

– "كان إيدي رجلاً طيباً، وصنديداً. لكن حين عرفته؟ لا.. لم يكن مثلي؛ لم يكن قاتلاً."

قالت بصوت واثق:

– "لا أعتقد أنك قاتل."

– "إذن لم تكوني منتبهة لما حدث."

– "بلا، أنا أفهم أنك قتلتَ أناساً، بالطبع فعلت. لكنك فعلت ذلك فقط لتنقذنا وتنقذ نفسك. لقد فعلتَ الصواب وما يمليه عليك الواجب. الرجال هنا الذين يُسمّون (قتلة) لا يفعلون ذلك لأسباب نبيلة، بل لأسباب دنيئة فقط."

لم يرد كورت، واكتفى بارتشاف الماء من زجاجته.

تابعت لورا:

– "إن الرب يعمل من خلالك. يجب أن تعرف ذلك."

خرج من فم كورت صوت امتزجت فيه الضحكة بالشهقة، وسالت قطرات ماء على ذقنه.

– "لستُ واثقاً من ذلك."

– "أنا واثقة؛ لقد أرسلك لترعانا."

– "أنتِ تجعلين الأمر يبدو بسيطاً للغاية."

تأملت تعليقه ملياً، محدقة في عينيه بتركيز شديد أجبره على إشاحة نظره عنها.

– "لا.. ربما ليس بهذه البساطة. لكني أؤمن.. أؤمن أنك أُرسلت إلينا في اللحظة التي احتجناك فيها."

– "كان هناك نحو اثني عشر شخصاً يحتاجون إليّ، والآن لم يتبقَ سوى أربعة. ماذا عن الآخرين؟"

بدأت لورا في البكاء.

رفع جينتري بصره نحو السقف. يا للّعنة، لِمَ قُلْتُ ذلك؟

هدأ نحيبها، فنهضت واقتربت من سريره وجلست بجانبه، متربعة في مواجهته.

– "هل تؤمن بالخير والشر؟"

شعر جينتري بنبضات قلبه تتسارع مع اقترابها. حدق في أرجاء الغرفة وقال:

– "أنا أؤمن بما رأته عيناي."

– "وماذا يعني ذلك؟"

– "أؤمن بالشر."

– "ألم ترَ أي خير في هذا العالم؟"

نظر إليها كورت ثانية؛ فشعر بالدماء تتدفق في جسده وتدفئ وجهه ويديه.

– "رأيت خيراً، بالتأكيد. لكنه ليس كافياً."

– "حسناً، أنا أؤمن بما أراه بعيني؛ وأنا أرى الكثير من الخير فيك يا خوسيه. أنت رجل طيب."

– "أعتقد أن علينا محاولة النوم. سنكون على الطريق طوال نهار الغد–"

اقتربت لورا أكثر، مقاطعة حديثه:

– "هل لديك أحد؟"

– "ماذا؟"

– "زوجة.. حبيبة؟"

– "لا."

– "لا يمكن للمرء أن يبقى وحيداً إلى الأبد."

ابتسم وأشاح بنظره:

– "لن أعيش إلى الأبد."

– "أقصد.. فوق هذه الأرض. الرب لا يريد للإنسان أن يعيش وحيداً."

لم يحر كورت جواباً.

– "لقد عشتُ وحيدة لخمس سنوات، منذ وفاة غييرمو. أعرف معنى الوحدة، ومدى صعوبة كبت كل شيء بداخلك لعدم وجود من تشاركه حياتك. لكني أملك إيماني، ولولاه.. يا خوسيه، لا أعرف كيف لقلبك أن يصمد."

– "قلبي بخير."

كان كورت يعرف ذلك لأنه كان يسمع خفقاته تدق في صدره.

– "ليس في العالم ظلام فحسب يا خوسيه، ثمة الكثير من النور."

– "دوائري الاجتماعية تختلف تماماً عن تلك الأمور السعيدة."

لم تفهم قصده تماماً، لكنها أجابت وكأنها فهمت:

– "أنت تقوم بعمل الرب."

– "أنا مجرد رجل عادي يا لورا، لستُ شيئاً مميزاً."

– "لا، بل أنت مميز. الشيطان يقاتل من أجل هذه الأرض، ويفعل ذلك بالشر. وأنت تقاتل ضد الشر هنا." هزت كتفيها وتابعت منطقها: "أنت تقاتل الشيطان، إذن أنت تقوم بعمل الرب."

قال: "شكراً."

أحياناً كان يتساءل عما يفعله بحق الجحيم؛ فرأي هذه الفتاة لم يكن لـ كورت سوى مجرد رأي، لكن سماعه كان جميلاً رغم كل شيء.

كرر قوله: "يجب أن ننام." لكنها لم تبرح سريره.

– "هل يمكنني البقاء معك؟ كما فعلنا ليلة أمس؟ هل يمكنني البقاء بالقرب منك؟"

– "بالتأكيد."

قالها بتظاهر باللامبالاة، وكان متأكداً أنها أدركت زيفها.

مد يده وأطفأ الأنوار، واستلقى بملابسه وحذائه، ومسدسه على الطاولة بجانبه.

انكمشت بجانبه، وأسندت يدها على صدره ووضعت رأسها المبلل على كتفه. ورغم قصر قامتها، إلا أن جسديهما شغلا السرير المنفرد بالكامل. وسرعان ما تحركت ساقها لتستقر فوق ساقيه.

كانت الأنوار مطفأة، لكن عيني كورت ظلتا مفتوحتين؛ حدق في السقف الذي لا يراه، محاولاً جعل أنفاسه هادئة وضحلة.

سألته: "هل أنت خائف؟" وظن أنها تشير إلى خفقات قلبه المتسارعة.

أجاب بسرعة: "لا، ليس على الإطلاق."

– "تقصد أن كل هؤلاء الناس الذين يحاولون قتلنا لا يثيرون رعبك؟ أنا ميتة من الخوف."

– "آه، ذلك الأمر. نعم.. أنا فقط.. أعتقد أنني مدرب على استخدام طاقة الخوف لصالحي. أشعر بالخوف حين أكون في خضم العمل.. لكني تدربت على توجيهه وألا أتجمّد مكاني."

– "يبدو الأمر وكأنه علم من العلوم."

– "إنه كذلك بالفعل."

راق له الحديث في هذا الموضوع؛ فقد صرف ذهنه عن ساقها التي كانت تنثني عند الركبة وترتاح فوق فخذيه الآن.

– "أنا محظوظة لأنك تحميني."

– "لقد رأيتُ قتالكِ، أنتِ أيضاً تلقيتِ بعض التدريب."

– "نعم، حين كان إدواردو حياً، كان يأخذني كثيراً للتدرب على الرماية. كان من المهم بالنسبة له أن أكون مستعدة لأي شيء رغم أنني كنت مجرد شرطية سياحة. كما تدربتُ على (الكيك بوكسينغ) أيضاً."

– "لاحظتُ أنكِ في حالة بدنية جيدة."

قالت بصوت ضاحك: "حقاً؟" وشعر جينتري بحرارة الخجل تسري في وجهه. بدأت يدها على صدره تتحرك جيئة وذهاباً ببطء.

– "أقصد.. كان واضحاً أنكِ تمارسين الرياضة. هذا جيد؛ قد تحتاجين لتلك المهارات ثانية قبل أن ينتهي كل هذا. إذا واجهنا (البدلات السوداء) على الطريق، فلا يمكننا أن نتوقع منهم–"

– "خوسيه؟"

– "نعم."

– "هل يمكنني تقبيلك؟"

نعم، فكر في نفسه، لكنه قال:

– "لا أعتقد أنها فكرة صائبة."

– "ولماذا؟"

لم يعرف كورت لماذا. بدأ يتلعثم بكلام عن إيدي، وعن حاجتهم للنوم، وعن أنها لا تعرف حقيقته أو ما هو عليه.

– "هذا جنون يا خوسيه. كان إدواردو يريدني أن أجد شخصاً آخر، أن أجد رجلاً طيباً."

– "لورا.. أنا لستُ رجلاً طيباً. أنا مجرد رجل، مجرد شخص يحاول المساعدة."

– "إذن ساعدني."

– "أساعدكِ في ما–"

– "ساعدني أنا."

ارتمت فوقه، وحنت وجهها نحو وجهه، وقبلته برقة على شفتيه. اتسعت عيناه، ولم يبادرها، لكنه لم يبتعد. قبلته ثانية، فتصلب وجهه وجسده كالحجر، حتى القبلة الثالثة حين أغمض عينيه ببطء.

فتحهما وقال: "انتظري."

أجابته: "لا." وضغطت بثقلها عليه، ولفّت ذراعيها خلف عنقه، وقبلته بعمق أكبر هذه المرة.

كان بإمكانه رؤيتها؛ فحين فتح عينيه، كانت قد اعتادت على ظلام الغرفة، ورأى عينيها مغمضتين بإحكام، وغرتها المبللة تتمايل مع حركات رأسها وهي تقبله: شفتيه، وجنتيه، عينيه، وعنقه.

فجأة، توقفت وجلست؛ وضغط ثقلها فوق خصره. لاحظ أن يديه قد استقرتا فوق وركيها، فأمسك بهما هناك.

نظرت إليه من الأعلى، وكان يراها بوضوح الآن في الضوء المتسلل من النافذة.

– "اسمك ليس خوسيه."

اكتفى جينتري بهز رأسه.

– "أخبرني باسمك الحقيقي. لا أريد أن أناديك (خوسيه) بينما نمارس الحب."

ارمش كورت بعينيه. نمارس الحب؟ هز رأسه ثانية.

قالت: "أخبرني بما يناديك به أصدقاؤك، بما كان يناديك به الناس حين كنت صغيراً، شيئاً له معنى بالنسبة لك."

كاد كورت أن يقول "فايوليتر"، وهو اسمه الرمزي؛ فهو متقارب في الإنجليزية والإسبانية، لكنه لم يردها أن تناديه بذلك. فكر للحظة وهمس:

– "يمكنكِ مناداتي بـ (ستة)."

سألت بحيرة امتزجت بالرغبة في عينيها:

– "ستة؟"

– "نعم."

– "حسناً.. ستة."

اقتنعت بالإجابة، فخلعت قميصها، وفكّت حمالة صدرها وتركتها تسقط على الأرض بين السريرين. بدأت في فك أزرار قميص كورت؛ وضع يديه فوق يديها للحظة، محاولاً إبعادهما عن الأزرار، لكنه في الحقيقة لم يردها أن تتوقف. فكر في إيدي وإرنستو، الرجال الذين قد

يفعلون أي شيء لحماية هذه المرأة، ثم فكر في الرجال الذين يريدون إيذاءها. لقد كان يحميها، لكنه الآن لم يعرف إن كان يؤذيها باستسلامه لمبادرتها. انحنت للأمام وقبلته، فأغمض عينيه وفتح فمه، غير واثق بتاتاً من أنه يحسن التصرف.

رنّ هاتفه المحمول.

تجاهله.

تجاهلته هي أيضاً.

استمر في الرنين، ثم توقف، ثم بدأ ثانية.

أتمزحون معي؟

ظلت تتجاهله.

بصعوبة أخرج الكلمات: "لا بد أنه موظف السفارة." ومد يده نحو الهاتف، لكنها أمسكت برأسه بقوة وأبقت شفتيها ملتصقتين بشفتيه.

اضطر لمقاومتها قليلاً ليبتعد: "آلو؟"

– "أهلاً بك يا ابن وطني. عذراً على الاتصال المتأخر، فأنا أعمل ساعات إضافية هنا في مكتبي ولدي بضعة أسئلة."

– "نعم.. لا مشكلة."

سأل جيري كورت بضعة أسئلة متفرقة عن المهن السابقة لأفراد آل غامبوا الأربعة. قال إن من الضروري تحديد نوع من الوظائف لتأشيرات عملهم، ورغم أنه يمكنهم اختراع أي شيء، إلا أن المعلومات الأدق في الوثائق ستجعلها تصمد بشكل أفضل أمام التدقيق على الجانب الآخر من الحدود.

تشاور كورت مع لورا وأجاب على أسئلة فليجر. كان نصفه يأمل أن يخمد هذا الانقطاع لهيب الشغف بينه وبين لورا؛ فقد شعر بالذنب تجاه أفعاله ونواياه مع الشقيقة الصغرى لصديقه القديم. لكن نصفه الآخر كان يتمنى أن يعودا إلى حيث توقفا قبل رنين الهاتف.

بعد خمس دقائق، عاد جينتري ولوريتا إلى حيث توقفا. بقيت فوقه، تقبل وجهه وكأنه كنز ثمين، بينما كانت ذراعاه القويتان تطوقان جسدها بإحكام.

عندما جذبته للأعلى لتخلع قميصه، انتابه التوتر؛ فقد كان يدرك كم مضى من الوقت منذ آخر مرة جمعته فيها غرفة بامرأة. قال بصوت خفيض، وكأنه يخاطب نفسه أكثر مما يخاطب لورا:

– "أنا لستُ.. مدرباً على هذا."

– "مدرباً؟ ماذا تقصد؟"

– "لا تشغلي بالكِ."

اصمت يا جينتري، كفَّ عن هذه الثرثرة اللعينة.

– "هل تعتقد أن معظم الناس يتلقون تدريباً على هذا الأمر؟"

– "لا.. أنا فقط–"

– "هل تظن أنني خبيرة من نوع ما؟"

– "لم أقصد–"

– "أنت غريب يا ستة. تعجبني حقاً، لكنك غريب الأطوار."

– "أجل."

ظل كورت شاعراً بالارتباك لبرهة أخرى، بل وتشتت انتباهه حين سمع وقع أقدام في الممر، لكن الوقع تلاشى، وتبعه تلاشي كل ما كان يكبله من حياء.

شعر بأطراف أصابعها الصغيرة تلامس حزامه، ثم أحس به يُنزع عن خصره. فكت أزرار سرواله الكاكي، ولم يمنعها – بل اكتفى بالمراقبة. وبينما كان يتحرر من ثيابه، عاد جسدها يلتصق به. وضعت يدها اليمنى على فخذه الأيسر، فجفل متأوهاً بصوت مسموع.

– "أنا آسفة."

قالتها وهي تتفحص ساقه، ثم مررت أطراف أصابعها برقة فوق جرح غائر – كان قد مضى عليه قرابة ثلاثة أسابيع.

– "ما الذي حدث؟"

– "تمساح."

قالها جينتري وعقله شارد عن ذاك الرافد من روافد الأمازون بآلاف الأميال.

ضحكت لورا:

– "تمساح؟ (Crocodilo)؟"

نطقتها بالإسبانية وضحكت ثانية:

– "لا أصدقك. أنت تخفي الكثير من الأسرار."

وضعت يدها على صدره، فوق قلبه تماماً، ثم أبعدتها وبدأت تقبله هناك.

– "احتفظ بأسرارك يا ستة ، احفظها في قلبك، لكن أرجوك، اترك لي فيه متسعاً صغيراً. حسناً؟"

– "حسناً."

وعندها، لم يعد بمقدوره المقاومة أكثر. اعتدل في جلسته ببطء، وقبل شفتيها، ثم قلبها برفق لتستلقي على ظهرها. أحس بجسدها دافئاً صلباً، غير أن عضلاتها المشدودة القوية كانت تتوارى خلف بشرة ناعمة مطواعة. شعر بتسارع نبضات قلبها، فبث في نفسه الطمأنينة؛ أدرك أنهما في هذا الأمر معاً، وأنها لم تكن تراقبه ببرود كمدربة تقيّم أفعاله. حين كانت حركته تهدأ، كانت تجذبه نحوها، وحين كان يزفر بعمق، كانت تطوق فمه بفمها. كلما أمال رأسه نحو الباب أو النافذة، أمسكت برأسه بين يديها وأعادته إليها. وعندما كان يتألم من جرح فخذه، كانت تجذبه فوقها وتقبله حتى يتبدد الألم.

حتى تلاشت الأبواب والنوافذ تماماً، ولم يعد هناك خطر ولا ألم؛ لم يبقَ في هذا الوجود إلا هما، فوق سرير صغير، آمنين من كل سوء.

لقد مارسا الحب لساعات.

استيقظ جينتري من نوم هو الأعمق منذ سنوات. شعر بدفء الشمس يغمر السرير من حوله.

كانت هناك، ملتفة حول جسده بإحكام، وجهها الصغير يستند إلى ثنية ذراعه، ويدها اليسرى ترتاح فوق صدره. أنفاسها، ودفء جسدها، وعبير بشرتها؛ كان كل شيء مذهلاً.

لم يكن كورت يدرك من قبل أن للبشرة عبقاً.

لم تتحرك؛ فنظر إلى وجهها، ولم يلمح سوى شفتيها الممتلئتين وطرف أنفها. كان شعرها الأسود القصير مبعثراً، بينما يمسك شريط مطاطي صغير بخصلاته الطويلة خلف أذنيها.

تذكر إيدي، فاجتاحت جسده موجة من الذعر.

هل هذا خطأ؟

هاجمته مشاعر الذنب العاطفي من حيث لا يحتسب؛ فلم يسبق له أن شعر بمثل هذا في حياته. فكر في وقوفه أمام قبر صديقه ليودعه، ليجد نفسه بعد ثلاثة أيام يمارس الحب مع شقيقته الصغرى – ذاك الكيان الذي نذر الصديق الراحل حياته لحمايته.

فتحت عينيها ونظرت إليه.

سألها بحذر:

– "هل أنتِ بخير؟"

قبلته، فنسي ذعره ذاك.

– "كم الساعة؟"

– "لقد تأخر الوقت. علينا أن نتحرك."

– "إلى أين نحن ذاهبون؟"

– "نحتاج سيارة، محشوة بالوقود وجاهزة للانطلاق. بمجرد لقاء فليجر واستلام الوثائق، سنتجه شمالاً نحو الحدود. سنتناوب على

النوم، وسنواصل السير طوال الليل. ينبغي أن نصل بحلول الثالثة من عصر غدٍ لنلتقي بعائلتكِ."

تنهدت قائلة:

– "سنسرق سيارة؟ يبدو أنه سيتعين عليك مساعدتي في العثور على عمل في الولايات المتحدة لأرد ثمن كل هذه المركبات لأصحابها."

أدرك كورت أنها تفترض عبوره الحدود مع عائلتها. كان قد أخبرهم بأنه لا يملك أوراقاً، لكنها ربما ظنت أنه رتب الأمر مع جيري.

اللعنة. لم يرد تضليلها، لكنه لم يستطع إخبارها بأنه سيكون في خطر داخل الولايات المتحدة لا يقل عن خطره هنا في المكسيك. شعور جديد بالذنب داهمه من زاوية أخرى:

هل مارست الحب معه لمجرد ظنها أنهما سيبقيان معاً حين ينتهي كل هذا؟ وهل ثمة سبيل أصلاً لبقائهما معاً؟

ضمته إليها بإحكام وهي تتمطى متثائبة.

سألته بابتسامة تلوح في صوتها:

– "أحقاً يجب أن ننهض الآن؟"

سمع كورت وقع أقدام في الممر، فتجاهله ليجيبها:

– "نعم، لابد من ذلك؛ فسرقة سيارة في مدينة لا نعرفها تتطلب بعض الوقت."

– "هل يمكننا الذهاب إلى كنيسة (السيدة العذراء)؟ لبضع دقائق فقط؟"

تنهد كورت؛ كان ينبغي له توقع ذلك، فبطريقة ما أنسته تلك الليلة ولعها بالكنائس.

– "لخمس عشرة دقيقة لا أكثر، وإلا فلن نتمكن من–"

صمت كورت فجأة.

– "ماذا؟ (¿Qué?)"

حول انتباهه بصمت نحو الباب في الطرف الآخر من الغرفة.

- "ماذا؟"

اعتدل في جلسته بسرعة، والتقط مسدس الـ بيريتا من الطاولة الجانبية وصوبه نحو الباب الذي كان يتوارى خلف التلفاز وخزانة الأدراج. أمال رأسه قليلاً دون أن ينطق ببنت شفة.

ساد الصمت لثوانٍ. لم تنطق لورا بكلمة أخرى، بل توقفت أنفاسها وهي تراقب الظهر العضلي للأمريكي الجالس على السرير. لاحظت ندبة بشعة فوق لوح كتفه الأيسر، لكن قلبها كان قد بلغ حنجرتها. هل سمع شيئاً؟

لم يتحرك كورت؛ ظل سلاحه مصوباً نحو الباب، ورأسه مائلاً يتنصت لأي صوت. نهض ببطء - لم يكن يرتدي سوى سرواله الداخلي - وأمال رأسه يميناً ليلقي نظرة من النافذة على الشارع في الأسفل، بينما بقي مسدسه موجهاً نحو الباب.

نظر إلى شارع دونسيليس؛ بضع سيارات مركونة، لا حركة مرورية، ولا مارّة. كان كل شيء هادئاً.. أهدأ مما ينبغي لصباح عادي.

فجأة، لاح حذاء أسود أمام وجهه، يتدلى من الأعلى متأرجحاً نحو النافذة. همَّ برفع مسدسه لمواجهة التهديد، لكنه سمع دوي انفجار الباب خلفه. تأرجحت فوهة سلاحه، عالقة بين خطرين.

تحطم زجاج النافذة؛ وعلى بُعد ثلاث أقدام من صدره العاري ووجهه، تناثرت الشظايا البلورية، وارتطم الحذاء الأسود به مباشرة.

طار جينتري إلى الخلف، وأفلت المسدس من يده اليمنى وهو ينقلب في الهواء. في لمحة خاطفة، لمح الضابط الفيدرالي الذي هبط من النافذة؛ سقط الرجل بقوة على ظهره لكنه استعاد توازنه بسرعة، واعتدل في جلسته ورفع مدفع MP5 نحو الرجل الملقى على الأرض في الطرف الآخر من الغرفة.

وإلى يساره، سمع كورت انفجاراً ثانياً؛ فتطاير التلفاز وخزانة الأدراج عبر الغرفة ليرتطما بالجدار. ومن خلف الركام، رأى رجالاً

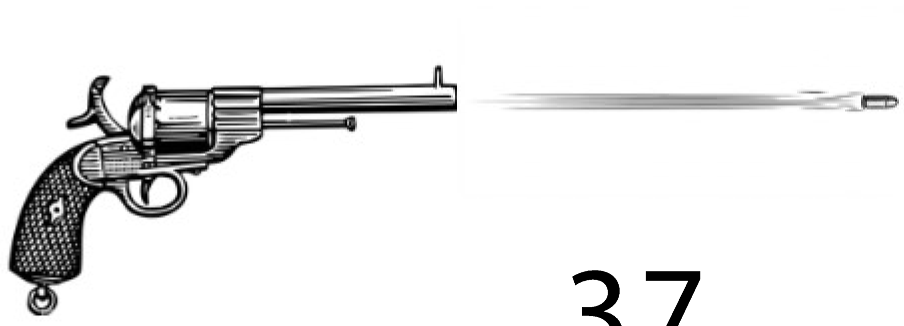
يقتحمون المكان: اثنان، ثم أربعة، فستة. ضباط فيدراليون بأقنعة ونظارات واقية، مدججون بالبنادق الرشاشة والدروع الواقية. بدوا أكثر هيبة وترهيباً وسط هالة الدخان المنبعثة من الشحنات المتفجرة التي حطمت الباب والعوائق.

تناهى إلى مسمعه صوت تحطم الزجاج بينما كان الهابط من النافذة يحاول الوقوف على قدميه.

كان لورا تصرخ.

رفع كورت يديه وتحدث إليها قائلاً:

– "لا تتحركي! افعلي ما يأمرون به! لقد وقعنا في قبضتهم."



37

كانت الحرارة شديدة على أرضية السيارة السيدان الخلفية. ثلاثة أزواج من الأحذية السوداء تدوس على ظهر كورت ومؤخرته وساقيه لتبقيه منكبًا على وجهه؛ ولم يزد الشريط اللاصق على فمه، والأصفاد التي تقيد يديه خلف ظهره، والقناع الأسود فوق رأسه الوضع إلا اختناقًا. في بعض المرات كان العرق في عينيه يحرقه بشدة لدرجة أنه صرخ، مكتومًا بالشريط. وفي كل مرة يصدر فيها هذا الصوت، كان كعب حذاء في مؤخرة رأسه يسكته. شعر بالجروح على صدره من زجاج النافذة، وشعر بالرطوبة الدافئة لدمه وعرقه على الحصائر المطاطية تحته. حاول تحويل ثقله للأمام إلى كتفيه لتخفيف الألم، لكن هذا ضغط وجهه بقوة أكبر داخل القناع وجعل التنفس شبه مستحيل.

شعر بطرف كاتم صوت رشاش «MP5» يضغط في أسفل ظهره؛ كان يوخز فقراته القطنية مع كل مطب في الطريق.

كان راديو السيارة يعزف موسيقى «باندا» (banda) بأعلى صوت؛ إذا كان هناك حديث بين الرجال فوقه، لم يستطع سماعه وسط الأكورديونات الصاخبة والصنوج المدوية.

افترض كورت أن لورا قد ألقيت في مركبة أخرى؛ كان قد التقط لمحة عبر النافذة لعدة سيارات سيدان عادية بأربعة أبواب تتوقف أمام الفندق بينما كان يتم تقييده وتكميمه في غرفة الفندق. كما اختلس نظرة إلى شقيقة إيدي قبل وضع القناع وإطفاء الأنوار. كانت عينا لورا

الكبيرتان متسعتين ذعرًا؛ قلبها الرجال على وجهها فوق السرير وقيدوها هناك.

كانت عارية.

لم يكن لدى جينتري أدنى فكرة عما إذا كان هؤلاء شرطة حقيقيين، أو حتى لو كانوا حقيقيين، إن كانوا أخيارًا أم أشرارًا. لم يعرف إلى أين يأخذونه؛ حتى المواطن (ciudadano) الذي ولد ونشأ في مكسيكو سيتي لم يكن ليتمكن من تحديد موقعه بعد عشرات الانعطافات وهو مقنع ومنكب على وجهه.

أخيرًا، توقفت السيارة، وسُحب من كتفيه؛ جعل العرق الذي يغطي جسده قفازات الرجال تنزلق وهم يصارعون للإمساك به. اقتيد كورت قسرًا إلى الأمام، وشعر بضوء الشمس يغادره وسمع أصداء غرفة كبيرة. واصل السير، ودخل ما بدا وكأنه مصعد بضائع بصوته وحركته، ونزل ما لا يقل عن ثلاثة طوابق.

بمجرد الخروج من المصعد، دُفع للأمام بضع ياردات ثم أُدير، وفُكت قيود يديه، ثم ضُغط جسده مقابل قضبان معدنية باردة. سياج، ربما؟ مُدت ذراعاه في وقت واحد وقُيدتا بعيدًا عن جسده، رجلان لكل طرف. رُكلت بواطن ساقيه حتى باعد بينهما، وقُيدت كاحلاه بأصفاد، وساقاه متباعدتان تمامًا. ظهره وذراعاه وساقاه ومؤخرته تضغط على المعدن البارد.

دخل مقص طويل وبارد في سرواله الداخلي. حاول الارتداد بعيدًا عن المعدن الحاد، لكنه لم يستطع الهرب. قُصت ملابسه الداخلية عن جسده، وأصبح عاريًا تمامًا، مقيّدًا وممدود الأطراف على معدنٍ بارد. بدأ يرتجف من شدّة البرد.

عندها فقط، نُزع القناع عن رأسه. حجب البخار رؤيته للحظة وهو يتصاعد من شعره ولحيته؛ تقاطرت حبات العرق الغليظة من رموشه

على خديه، مسببة دغدغة وهي تسيل عبر شعر وجهه وصولاً إلى ذقنه.

كانت الغرفة عبارة عن قبو حجري مربع، عشرين قدمًا في عشرين، بسقف منخفض وأرضية أسمنتية. أضاء مصباح عارٍ معلق في المركز وسط الغرفة ومعظم الجدران، لكنه ترك الزوايا غارقة في ظلام دامس. فاحت رائحة العفن في الغرفة، لكنها لم تكن الرائحة الوحيدة.

شم أيضًا رائحة الموت التي لا تخطئها الأنف. كان هذا «مسلخًا» بشريًا، غرفة تعذيب. كانت هناك دماء جافة على الجدران، وتلطخت الأرضية الأسمنتية بجداول سوداء من الدم تقود نحو المصرف في وسط الغرفة.

قبالة كورت كان الباب الخشبي لمصعد البضائع. وبجانبه درج ضيق بلا باب.

وقف أربعة رجال في الجوار – اثنان يرتديان زي الشرطة الفيدرالية. كانا قد خلعا الأقنعة والنظارات الواقية والخوذات، لكن رشاشاتهما كانت تتدلى من أحزمة الصدر.

أما الرجلان الآخران فكانا يرتديان مآزر جلدية. كانا مكسيكيين؛ لم يكونا شرطيين؛ وبدا عليهما التجهم والشر. أحدهما كان قصيرًا وبدينًا؛ رأسه أصلع ومغطى بالعرق الذي لمع تحت الضوء. كان يعمل بجد على نوع من الطاولات المتحركة على بعد لا يزيد عن ستة أقدام أمام جينتري وإلى يساره. الآخر كان شابًا، ربما في العشرين من عمره، يرتدي مثل الأكبر سنًا.

أيقن جينتري أن هؤلاء سيكونون جلاديه.

لم يكن هناك أي من عناصر «البدلات السوداء» في الغرفة، وهو ما اعتبره كورت في البداية علامة جيدة، لكن كان عليه البحث بجهد ليرى ذلك الجانب الإيجابي. على بعد بضعة أقدام أمام السياج

الحديدي أو الشبكة التي صُفد جسده العاري إليها الآن، كانت هناك بطارية سيارة موضوعة على عربة جر، وتلتف أسلاك صعودًا إلى أداة معدنية غريبة على الطاولة المتحركة. وامتدت المزيد من الأسلاك الملتفة من هذا الجهاز لتنتهي بمشابك كبيرة مثبتة على السياج الذي قُيد إليه جينتري.

كان كورت خبيرًا بهذه الأمور. فهو يعرف جهاز التعذيب بالصدمات الكهربائية حين يراه. وحالياً، كان عاريًا تمامًا وموصولاً بواحد.

قال الرجل البدين بالإسبانية:

– "مرحبًا بك في الجحيم. سأكون مرشدك السياحي ونحن نزور النهاية المروعة، والمؤلمة، والبطيئة لحياتك."

لم ينبس جينتري بكلمة.

قال الرجل القصير البدين الأصلع وهو لا يزال منشغلاً بعمله:

– "ينادونني بـ «إل كارنيسيريتو» (الجزّار الصغير)."

كان يرتب الأدوات على الطاولة المتحركة بينما يتحدث. مناشير، ومثاقب يدوية، ومطرقة من الفولاذ المقاوم للصدأ تلمع في ضوء المصباح العاري. سكاكين، وملاقط، ومقرضات جراحية، وأدوات طبية أخرى غطت الأسطح الأفقية للطاولة. ودون أن يرفع نظره عن معداته، تابع قائلاً:

– "أنا أعمل لصالح الدون دانيال. أنا أنتج الألم، وأنتزع المعلومات ممن يترددون في تقديمها. أنا بارع للغاية فيما أفعله."

حاول كورت التصنع بعبارة رجولية، رغم أنه لم يشعر بها حقًا:

– "لا بد أن والدتك فخورة بك."

شد وركل ضد قيوده، وأدرك أنه لن يستطيع تخليص نفسه من هذه الأداة الجهنمية.

باختصار، لقد انتهى أمره تمامًا.

اكتفى إل كارنيسيريتو بالابتسام.

– "هذا هو تلميذي."

لوّح بيده السمينة نحو الشاب ذي المئزر. ثم عاد لعمله على الطاولة. أدار قرصًا على الجهاز قليلاً، فشعر كورت بالكهرباء تدغدغ عموده الفقري. نظر الرجل البدين إلى مؤشر على وجه الجهاز الأسود. يبدو أنه كان مجرد اختبار، لأنه لم يسبب ألمًا. أدار القرص مرة أخرى لخفض الطاقة ونظر إلى ضحيته.

– "الكهرباء هي مجرد وسيلة واحدة تحت تصرفي. خلال الساعات القليلة القادمة ستتحمل معاناة لا توصف."

تقدم إل كارنيسيريتو للأمام، مقتربًا من جسد كورت، ومد يده مرتديًا قفازًا مطاطيًا، وبدأ بنزع شظايا الزجاج من الجروح في صدر الأمريكي التي تسبب بها الفيدرالي عندما اقتحم النافذة. جفل كورت من الألم لكنه حاول إبقاء وجهه جامدًا قدر الإمكان؛ لم يرد تشجيع هذا السادي بإظهار مدى ألمه.

ابتسم الرجل؛ رأى كورت بوضوح أن فكرة قد خطرت ببال الجزار. استدار بسرعة وخطا نحو تلميذه، وأصدر أمرًا بصوت خافت. أومأ تابعه برأسه وغادر الغرفة مسرعًا عبر الدرج.

بينما كان يركض صاعدًا الدرج وبدأت أصداء وقع أقدامه تتلاشى، سُمعت خطوات جديدة تنقر قادمة من الأعلى. رجلان، ميز جينتري ذلك، أحدهما يرتدي حذاءً ثقيلاً والآخر حذاءً ناعمًا.

في غضون ثوانٍ وصل الرجلان الجديدان إلى الزنزانة. أحدهما ببدلة سوداء. شاب ومهندم، بشعر قصير ولحية صغيرة وشارب، وهو المظهر الشائع لقيادات المنظمة الإجرامية. كان يحمل مدفعًا رشاشًا من طراز «HK UMP» يتدلى من حمالة على كتفه الأيمن.

تناقضت بدلة الرجل الفاخرة ووجهه النظيف مع المناظر والروائح المريضة في قبو الجحيم هذا.

والرجل الذي بجانبه تناقض مع الزنزانة أيضًا. كان أمريكيًا. أبيض البشرة، نحيلاً، بشعر بني مجعد. ارتدى قميصًا رسميًا قصير الأكمام ومجعدًا وبنطالاً كاكيًا.

قلب كورت عينيه.

جيري فليجر.

عبس كورت في وجهه حين دخل إلى الضوء. قال كورت بجفاف:

– "يا زميلي الأمريكي."

نظر موظف السفارة الأمريكية الشاب حول الغرفة، وقد أذهله بوضوح المكان الذي وجد نفسه فيه. كان مصدومًا، وفي موقف يفوق قدرته على التحمل، وخائفًا. حاول إخفاء ذلك، لكن كورت رأى الرعب على وجهه.

سأل جيري الرجال بالإسبانية وهو يدخل الغرفة:

– "لماذا لا يزال حيًا؟"

ظل فليجر ينظر حول الغرفة؛ بوضوح، كان يستطيع شم رائحة الموت، ورؤية البقع على الجدران والأرضية. كان يعرف ماهية هذا المكان. وما يحدث فيه. نفض الفكرة عن رأسه ونظر إلى كورت.

– "أنا رجل أعمال يا صاح. هذه هي الطريقة الأمريكية. أصررت على المجيء إلى هنا... لحماية مصالحي في هذه الصفقة."

قال كورت:

– "سيقتلون الفتاة؛ يريدون قتل زوجة أخيها وطفلها الذي لم يولد بعد."

أومأ جيري برأسه. من الواضح أنه كان يشك في هذا على الأقل إن لم يكن يعرفه بالتأكيد.

– "حظهم سيئ إذن."

– "فعلت هذا من أجل المال؟"

أومأ جيري ثم هز كتفيه.

– "إنه أكثر من مجرد مال، في الواقع. أنا أسجل موقفاً."
– "أي موقف؟"
– "الموقف هو، يا صاح، أنني أكره هذا المكان."
– "تكره المكسيك؟"
– "بالطبع. ألا تكرهها أنت؟"
لم يرد جينتري.
– "نعم، حسناً، أنت تضاجع فتاة مكسيكية (beaner) مثيرة، لذا لا بد أنك تحب المكان، أليس كذلك؟"
– "أنت دبلوماسي مدرب؟ يا للمسيح."
– "هل سبق لك أن زرت الدنمارك؟"
كذب كورت:
– "لا."
– "الدنمارك هي الروعة بحد ذاتها. ذهبت للجامعة في الدنمارك؛ أتحدث الدنماركية، وأعرف شوارع كوبنهاغن الخلفية مثل ظهر يدي. عُينت في الخارجية، وإلى أين يرسلني أولئك البلهاء في «فوغي بوتوم» (مقر الخارجية) بحق الجحيم؟ الدنمارك؟ فنلندا؟ النرويج؟ كلا واللعنة! المكسيك! هل تمزحون معي؟ أربع سنوات أختم تأشيرات لآكلي الفاصوليا[8]. تباً لذلك! طالما أنا عالق هنا، سأجني بعض المال على الطريق."
– "وتجني المال بتسليم لورا إلى دي لا روشا؟"
ابتسم جيري.
– "أوه... أنت لا تفهم، أليس كذلك."
– "أفهم ماذا؟"

[8] مصطلح *"Beaners"* أو آكلي الفاصوليا: يعود إلى الثقافة الشعبية الأمريكية، حيث ارتبطت الفاصوليا (*beans*) كأحد الأطعمة الأساسية بالمطبخ المكسيكي. استخدم اللفظ لاحقًا بشكل عنصري مهين للإشارة إلى المكسيكيين.

– "أنا أسلم الفتاة لـ دي لا روشا، نعم. لكن تلك خدمة مجانية. أنا أجني مالي من تسليمك لـ وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)."

هز جينتري رأسه. وقال ببطء:

– "جيري، جيري، جيري. فكر في الأمر لثانية. ماذا ستفعل «لانغلي» (مقر الـ CIA) عندما يكتشفون أن موظف شؤون قنصلية يعمل مع «البدلات السوداء»؟ لن تحصل أبدًا على ذلك التعيين في كوبنهاغن."

ابتسم جيري مرة أخرى، وكأنه أذكى ألف مرة من الرجل العاري المقيد بالسلاسل.

– "«لوس تراجيس نيغروس» (البدلات السوداء) يقومون بالتسليم لـ الـ CIA، ثم يعطونني المكافأة. أحصل على المكافأة، وأغادر من هنا. خارج المكسيك، وخارج وزارة الخارجية."

– "لقد خططت لكل شيء، أليس كذلك؟"

– "لدي اتفاق مع الرجل الكبير نفسه. دي لا روشا."

– "الصفقات مع الشيطان عادة لا تؤتي ثمارها على المدى الطويل يا فتى."

– "إنه رجل أعمال. وأنا رجل أعمال. الأمور طيبة."

ثم نظر إلى الجزار الصغير، الذي كان يقف بصبر بينما يتحدث الرجلان الإنجليزية. قال جيري بالإسبانية:

– "هل هذه نوع من آلات الصدمات الكهربائية؟"

أومأ إل كارنيسيريتو برأسه.

– "إذن اصعق هذا الـ بينديخو (الأحمق) مرة واحدة من أجلي يا زعيم."

ابتسم الجزار الصغير والتقط محفظة جلدية قديمة من الطاولة.

– "افتح فمك، من فضلك. لا يمكننا أن ندعك تقضم لسانك ونحن لا نزال بحاجة إليك للتحدث."

فعل كورت ما أُمر به؛ كان يعرف ما هو قادم، وكان يعلم أن الجلد في فمه سيساعد. أبعد لسانه عن أسنانه، وعض بقوة، وأدار الجزار الصغير القرص.

سرت الكهرباء في جسد كورت، من أصابع قدميه إلى شرجه إلى عنقه. تقوس ظهره، وجحظت عيناه، وانبعثت صرخة مرتعشة من أعماق حلقه خلف المحفظة.

بعد بضع ثوانٍ أُعيد القرص إلى الأسفل. لمع عرق جديد على وجه السجين وصدره.

توقف المعذب للحظة. سحب المحفظة من فم سجينه.

– "أين إيلينا غامبوا؟"

– "كيف تقول «تبًا لك» بالإسبانية؟"

أُعيدت المحفظة إلى فم جينتري، وعض عليها. نبضت الكهرباء عبر جسده مرة أخرى. ارتد رأسه للخلف بشكل لا يمكن السيطرة عليه، ليرتطم جمجمته بالشبكة الحديدية خلفه.

توقف التعذيب. أزيلت المحفظة. وتكرر السؤال.

– "أين إيلينا غامبوا؟"

– "سحقا لك..."

أُعيدت المحفظة إلى مكانها. ازدادت الصدمات قوة، والألم حدة؛ ومزقت التشنجات العضلية جسده في كل الاتجاهات.

راقب صاحب البدلة السوداء والفيدراليان ما يحدث.

أشاح جيري فليجر بنظره بعيدًا.

بعد دقائق، سمح خلل فني في الآلات لكورت بفترة راحة من العذاب. عمل الجزار الصغير على جهاز الصدمات الكهربائية، وعاد تلميذه نازلاً الدرج ومعه كيس بقالة.

تابعت رؤية جينتري المشوشة حركات الشاب وهو يخطو إلى الطاولة ويخرج الأغراض من الكيس.

إبريق بلاستيكي فارغ، وكيس كبير من الملح، وزجاجة تكيلا رخيصة ورديئة، وكيس كبير من الليمون الأخضر.

أنّ كورت وترك المحفظة الجلدية الممزقة الآن تسقط من فمه إلى الأرض. وندم فورًا على إظهار رعبه. فهذا لن يؤدي إلا إلى تشجيع الرجل البدين. حول الجزار الصغير انتباهه عن الآلة، وبدأ في تقطيع الليمون إلى أنصاف. قطع التلميذ الليمون أيضًا؛ وبدوا معًا كثنائي من السقاة في حانة شاطئية. بمساعدة مساعده، عصر الرجلان العصير في الإبريق ثم ألقيا القشور بعد العصير.

سكب المساعد الكحول فوقه، وفتح إل كارنيسيريتو كيس الملح.

حتى أن كورت تمكن من إلقاء دعابة ساخرة:

– "سأتناول كأسي بلا ملح."

راقب المكسيكيون الثلاثة الآخرون في الغرفة بفضول. ضحكوا ونكتوا فيما بينهم، لكن كورت لم يكن في مزاج للتركيز على ترجمة مرحهم ليفهمه.

عندما امتلأ الإبريق بالتكيلا والملح وعصير الليمون، رفعه المعذب وسار نحو السجين العاري. رفعه أمام وجه كورت، وصفعه بضع مرات ليتأكد من انتباهه، ثم عبث الجزار بقطعة صغيرة من الزجاج المكسور العالقة أسفل الحلمة اليمنى للأمريكي مباشرة.

– "هل يمكنك تخيل كيف سيكون شعور هذا داخل جروحك المفتوحة والمتورمة؟"

ابتسم الرجل وهو يتحدث.

لم يقل جينتري شيئًا.

– "سأسألك أين تختبئ السيدة غامبوا. ولكن من فضلك... من فضلك، أتوسل إليك، لا تخبرني. أريد أن أفعل هذا بك!"

ضحك تجار المخدرات في الخلف عند المصعد. ونظر جيري بعيدًا.

أومأ كورت برأسه، وأخذ نفسًا طويلاً، ثم بصق في وجه المكسيكي الصغير القاسي. ركض مساعد الجزار الصغير ولكم كورت في أنفه.

لم يمسح الرجل البدين البصاق. بل ابتسم وقال:

– "أنت فقط تجعل وظيفتي أكثر متعة. في غضون ساعتين عندما أنشر رأسك عن جسدك الحي الذي يتنفس ويتلوي، سأشعر بالشفقة. شفقة لأن اليوم قد انتهى."

وبهذا رفع الإبريق، وسكب الخليط اللاذع ببطء على جسد الأمريكي العاري والمكشوط، وفرك السائل بيديه داخل الجروح المفتوحة، ومرغه فيها، وقهقه بصوت عالٍ كاد يطغى على صرخات السجين.

بعد دقيقة استُدعي المصعد إلى السطح. وضع المسلحان الفيدراليان في الغرفة أيديهم على سماعات الأذن، ونظر صاحب البدلة السوداء إلى هاتفه ورأى أنه فاتته مكالمة، غير قادر على سماع الرنين وسط صرخات العذاب في الغرفة الصغيرة.

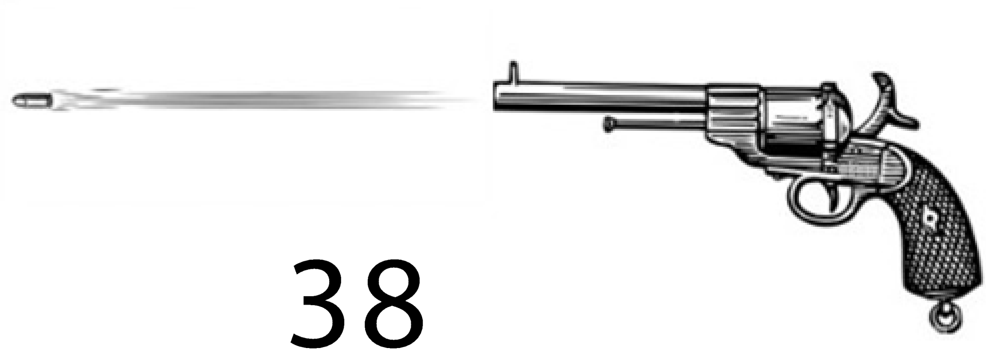
قبل أن يتمكن من تحديد هوية المتصل، تصلب أحد الشرطيين قليلاً، ونظر إلى إل كارنيسيريتو، وقال:

– "دي لا روشا هنا."

استمر كورت في الأنين من العذاب.

بعد ثوانٍ بدأ المصعد في النزول مرة أخرى؛ استغرق الأمر ثلاثين ثانية لتصل المقصورة بصوت ارتطام مكتوم. ارتفع الباب الخشبي. خرج ثلاثة رجال ببدلات سوداء، بدوا باهتين في الضوء.

تلوى كورت من الألم، منسيًا من قبل الآخرين في الغرفة. مرت عدة ثوانٍ قبل أن يتمكن من التعافي من الارتعاش المتبقي في عضلاته بما يكفي للتعرف على دانيال دي لا روشا في وسط القادمين الثلاثة الجدد.



38

أخذ دانيال دي لا روشا يتفحص (الغرينغو) من أخمص قدميه إلى مشاش رأسه. وقف في زاوية تلك الغرفة الباردة المظلمة كل من جيري فليجر، وإل كارنيسيريتو (الجزار الصغير) – ذاك الفتى اليافع الذي يتخذه دانيال ربيباً له – وكارلوس، الرجل الثاني في سطوة سبايدر، إضافة إلى الشرطيين اللذين أنزلا كورت من السيارة. تقدم كل من دانيال وإميليو وسبايدر خطوات نحو السجين.

توقف دانيال على بُعد ثلاث أقدام من أنف الأمريكي، وتمتم بذهول:

– "أهذا أنت؟ أنت حقاً؟"

اكتفى الأمريكي بالتحديق فيه.

وبالإسبانية، قال الرجل الذي يرتدي ثياباً لا تشوبها شائبة:

– "كنت أتوقع... لا أدري، ربما رامبو؟"

انفجرت الغرفة بضحكات صاخبة، ثم استطرد بالإنجليزية:

– "لقد سببت لي بعض المتاعب يا صديقي. والفضول يقتلني... لماذا؟"

لم يحرك (الرجل الرمادي) ساكناً، ولم يدرِ إن كان قادراً على النطق أصلاً، فقد كان يشعر باصطكاك أسنانه من شدة البرد والألم.

هز دي لا روشا كتفيه، وألقى نظرة على العربة المتنقلة التي تحمل الآلة والأدوات الجراحية، ثم عاود النظر إلى السجين وسأل:

– "أي نوع من التسلية كنت تمارسها مع صديقنا هنا يا (غوردو)؟"

أجاب الجزار:

– "حتى الآن، مجرد بعض الصعقات الكهربائية. كما استغللتُ الجروح التي غطت جسده من أثر الزجاج المحطم."

رفع الإبريق الذي فرغ الآن، فاستنشق دي لا روشا رائحته، وقطب حاجبيه لبرهة قبل أن يفتر ثغره عن ابتسامة.

– "مارغريتا الغرينغو."

– "نعم يا دون دانيال."

– "ممتاز. ألم تستخدم مهماز الحمير بعد؟"

– "ليس بعد. هل ترغب في المشاهدة؟"

أمال دانيال رأسه ونظر إلى رجاله متهكماً:

– "هل أرغب في المشاهدة؟" ثم التفت إلى جينتري: "وحدك أيها المخنث من قد يرغب في رؤية ذلك. أنا أدفع له المال حتى لا أضطر لمشاهدة مهماز ماشية يُحشر في خصيتيك ثم يُصعق بالكهرباء."

عضّ كورت على شفته السفلى ليمنعها من الارتجاف.

التفت دي لا روشا إلى جلاده وسأله:

– "أي أخبار عن امرأة آل غامبوا؟"

– "لا شيء. لقد تحدث مع الأمريكي الآخر بالإنجليزية، ولم أفهم ما قاله، لكنه لم يقل لي أي شيء ذي قيمة. هذا الرجل صلب للغاية."

رمق دانيال فليجر بنظرة خاطفة، ثم التفت إلى كارلوس الذي كان يتقن الإنجليزية وكان حاضراً وقت المحادثة التي دارت بين الأمريكيين.

– "لا شيء يا زعيم."

عاد دي لا روشا ليتفحص الرجل المصفد إلى السياج.

– "تلك ندبة جميلة فوق وركك. وأرى جرح رصاصة قديماً في فخذك أيضاً." تقدم خطوة ليتفحصه عن قرب: "عمره عام واحد على الأكثر." ثم أدار رأس كورت نحو اليسار بأطراف أصابعه: "حرق في عنقك... أقدم بكثير. خمس سنوات؟"

لا إجابة.

– "وهذه الجروح الصغيرة على وجهك وذراعيك؟ والكدمات على صدرك؟" هز دانيال كتفيه بلامبالاة: "أرى أنك لست غريباً عن الألم. ربما تقاوم محاولاتنا لانتزاع المعلومات منك."

استطرد قائلاً:

– "لا يهم. فشقيقة زوج إيدي في قبضتنا. سمعتُ أنكما نمتما معاً ليلة أمس. هل استمتعت بمذاق ثقافتنا يا صديقي؟ النساء اللاتينيات مشتعلات، مفعمات بالعاطفة، أليس كذلك؟ إذا لم تتحدث، فسنبدأ العمل عليها. والتقنيات المتاحة لدينا ستنتزع تلك العاطفة منها في دقائق، وسنحولها إلى جثة هامدة في غضون ساعة." ابتسم دي لا روشا لـ جينتري ثم سأله بحدة: "أين إيلينا غامبوا في هذه اللحظة؟"

هز كورت كتفيه بأقصى ما سمحت به ذراعاه المشدودتان.

– "من الواضح أننا نعلم أنك كنت تحاول تدبير وسيلة لإدخالها إلى الولايات المتحدة."

لم يصدر عن الرجل المعذب أمامه أي رد فعل.

– "لن تغادر المكسيك." ثم أردف الرجل الوسيم الذي يرتدي البدلة السوداء: "لماذا تهتم؟ هي ليست من عائلتك. هل لديك عائلة أصلاً؟" صمت كورت، فتابع دي لا روشا: "أؤمن أن العائلة هي أهم شيء في الوجود. ألا تؤمن بذلك أنت أيضاً؟"

استغرق جينتري لحظة ليتمالك نفسه، وحاول جاهداً أن يبدو صوته قوياً:

– "أعتقد أن عائلتك ستفتقدك كثيراً حين تموت."

– "ها ها، تهديد؟ أخيراً ينطق ليهددني؟ يا كارنيسيريتو؟"

– "أمرك يا زعيم."

– "الجو بارد هنا بالأسفل. ارفع درجة الحرارة."

– "أمرك يا زعيم."

أدار الرجل السمين القرص دون أن يضع بقايا المحفظة في فم ضحيته، ففقد جينتري صوابه؛ خرج جسده عن سيطرته، وتطهر عقله من كل فكرة إلا الرغبة المحمومة في الهرب من الألم والبحث عن الخلاص. كان قلبه يدق في صدره كما حدث حين كان تحت الماء والتمساح فوقه، عاجزاً عن العثور على بندقيته بينما تقترب تلك الأنياب القارضة أكثر فأكثر...

خفف "الجزار الصغير" من قوة التيار.

هوى رأس جينتري للأمام من شدة الإنهاك. ونظر للأسفل، فرأى أنه يبول على الأرض دون إرادة منه. كان العرق يتصبب من جسده العاري ممتزجاً ببوله وقطرات دمائه. وشعر بالامتنان لأنه تمكن من تجنب قضم لسانه.

حين رفع رأسه أخيراً، رأى لورا تُدفع داخل الغرفة من جهة الدرج، يداها مصفدتان أمامهما، ورجل من "البدلات السوداء" يدفعها من الخلف. سلمها الرجل لـ سبايدر، ثم استدار واختفى عائداً نحو الأعلى.

رغم كل العذاب، شعر كورت بالخزي والمذلة لأن مثانته قد خانته أمام عينيها.

كانت ترتدي سروالاً قطنياً أزرق وقميصاً أبيض بلا أكمام. كانت عينها اليمنى متورمة بلون أحمر مسود، وشفتاها غليظتين من أثر الضرب. وحتى في ذلك الضوء الخافت، رأى كورت أن قبضتي يديها كانتا مخدوشتين وملطختين بالدماء.

لقد كانت تقاوم.

فتاة شجاعة.

اقترب دانيال منه:

– "كدت تبول على بدلتي. كان ذلك سيغضبني كثيراً."

التفت دي لا روشا إلى الرجل الذي يمسك لورا من كتفيها:

– "سبايدر، أحضرها إلى الضوء، اجعلها تجثو على ركبتيها أمام الـ(غرينغو) الخاص بها. سنرى مدى عمق حبهما."

دفع الرجل المرأة الضئيلة لتسقط فوق الإسمنت، على بُعد أقدام قليلة من جينتري. سحب قائد منفذي دي لا روشا مسدساً فضياً من طراز .45 أوتوماتيك وسلمه لزعيمه. أمسك دانيال دي لا روشا السلاح وضغطه فوق رأس لورا وشعرها الأسود القصير.

– "إذا لم تخبرني الآن، في هذه اللحظة، بمكان إيلينا غامبوا، فسأفجر هذا الرأس الجميل. لن أعدّ إلى ثلاثة، ولن أكتفي بتهديدك بجرحها؛ سأقتلها ببساطة، هنا والآن، إلا إذا كانت الكلمات التالية التي تخرج من فمك هي مكان اختباء أرملة الرائد غامبوا."

صرخت لورا في الغرفة الضيقة:

– "لا تقـ..."

هوى دي لا روشا بمقبض المسدس .45 على رأسها، فسقطت لورا فوق الإسمنت القذر. ترنحت وهي تحاول جاهدة العودة لوضعية الجثو.

رفع كورت رأسه ونظر إلى دانيال دي لا روشا. وببطء شديد، أومأ برأسه، وتحدث بصوت خفيض:

– "حسناً. حسناً. استمع إليّ بعناية فائقة."

سحب دي لا روشا مطرقة المسدس، وضغطه بقوة أكبر على رأسها:

– "أنا أصغي إليك يا صديقي."

أومأ كورت ثانية، ثم هز كتفيه بلامبالاة:

- "أطلق النار على تلك العاهرة. لا يهمني أمرها."

اكتفى دي لا روشا بالتحديق فيه وفمه مفتوح قليلاً من الدهشة. التفت إلى "صاحب البدلة السوداء" خلفه:

- "إنه وغد متحجر القلب، أليس كذلك يا سبايدر؟ يذكرني بك."

ثم عاود النظر لـ جينتري: "هذه خدعة. خدعة جيدة جداً، لكنك تخادع. أنت تهتم بما سيحدث لها." صمت مفكراً لبرهة طويلة؛ فمن الواضح أنه لم يتوقع رد الفعل هذا من الأمريكي.

قال جينتري:

- "لم أتطوع لهذا الهراء. ذاك الأمريكي العجوز، كولين، دفع لي خمسة آلاف دولار لأرعى عائلة صديقه الراحل لبضعة أيام. ألفان مقدماً، وثلاثة آلاف أخرى بعد عودتنا من بورتو فالارتا. لم يقل شيئاً عن استهداف كارتل لعين لهم."

قطب دي لا روشا حاجبيه الداكنين، واستوعب الكلمات الإنجليزية بدقة، ووزنها بعناية.

- "أنت موظف أمن خاص؟ حارس شخصي؟"

- "كنت كذلك. لقد تقاعدتُ للتو."

تشاور دي لا روشا مع سبايدر لبرهة بصوت خفيض لم يفهمه كورت. ثم عاد والتفت إليه وهو يهز رأسه:

- "لا. لا يا سيد. لا أصدقك. محاولة جيدة، لكن رجال شريكي أخبروه أنك هربتَ من الهاسيندا، ثم عدتَ إليها، معرضاً نفسك لخطر جسيم، لإنقاذ عائلة غامبوا. هذه ليست تصرفات أي مسلح مأجور سمعتُ عنه من قبل."

همَّ كورت بالكلام، لكن دانيال واصل حديثه؛ فلم يكن رجلاً اعتاد أن يقاطعه أحد.

- "أتعلم؟ ربما لن أقتلها الآن. ربما سأترك أكثر قتلتي المأجورين سادية ووضاعة يغتصبونها حتى الموت. سيستغرق الأمر وقتاً أطول،

نعم، لكنه سيكون أكثر إرضاءً لرجالي. ربما سأجعل (إل كارنيسيريتو) يفعل ذلك الآن أمام عينيك."

نظر كورت إلى الرجل السمين الأصلع الذي يرتدي المئزر الجلدي. وكان الجلاد يلعق شفتيه بترقب.

رنّ هاتف محمول. أخرجه إميليو من الجيب الأمامي لسرواله وبحث في الشاشة، ثم قدمه لزعيمه. أخذه دي لا روشا، ونظر إلى الاسم، وبزفرة حارة، فتحه.

– "نيستور، ألا يمكن للأمر أن ينتظر؟" صمت قصير ثم قال: "حسناً."

أبعد المسدس عن رأس لورا واستبدله بقدمه، وضغط بحذائه الإيطالي بقوة على مؤخرة جمجمتها، دافعاً الفتاة الضئيلة نحو الأرض الإسمنتية. وحين صارت ملقاة فوق الإسمنت المبلل بالبول، استدار ومشى نحو الدرج.

تحدث "الجزار الصغير" مع سبايدر. حاول كورت أن يتواصل بصرياً مع لورا، لكنها ظلت جاثية على ركبتيها، يداها المصفدتان ممدودتان فوق الإسمنت أمامها، ورأسها منكس. أراد أن يتحدث، أن يخبرها أن فرصتها الوحيدة للنجاة هي أن يتصرف وكأنه لا يبالي إن عاشت أو ماتت. كانت مقامرة يائسة، لكنه لم يرَ بديلاً آخر.

كان عليه أن يكون بارداً كالثلج، وأن يوهمهم أن حياتها لا تشكل أي ورقة ضغط عليه.

ثم رفعت بصرها إليه من الأرض، وكانت عيناها تفيضان بالحيرة.. وبالانكسار. تولد لدى كورت انطباع بأنها لم تفهم أن مناورته كانت لمصلحتها؛ لقد صدقت هراءه بأنه لا يبالي بأمرها.

أشاح كورت بوجهه عن عينيها الحزينتين ونظر إلى زعيم المخدرات في الطرف الآخر من الغرفة. استطاع سماع مقتطفات من جانب دي لا روشا في المكالمة الهاتفية، لكن معظمها كان إما سريعاً

جداً أو مشحوناً بالعامية المكسيكية لدرجة يصعب على جينتري فهمها. ومع ذلك، التقط بعض ما دار في الحوار.

– "لا اتفاق. أحتاج وقتاً لانتزاع المعلومات. أربع وعشرون ساعة... حسناً، يمكنهم إرسال رجل واحد للمعاينة، لكن لا يمكنهم اللمس... قتله؟ لا بأس بذلك... حسناً، لكنهم لن يحصلوا على الجثة إلا حين ننتهي منه. اجعل هذا واضحاً."

أنهى دي لا روشا المكالمة وعاد إلى القبو، وتشاور بصوت خفيض مع سبايدر لبرهة. دار بينهما جدال قصير، لكنه سرعان ما هدأ. ثم وجه حديثه لسجنائه:

– "تغيير في الخطط. ثمة من سيأتي للتعرف على قطعة القذارة هذه."

سأل جيري من الزاوية:

– "من؟"

– "شخص (غرينغو) من وكالة الاستخبارات المركزية CIA."

خرج تعليق جيري التالي في نبرة توسلية باكية:

– "الاستخبارات المركزية ستأتي إلى هنا؟ الآن؟"

أومأ دي لا روشا برأسه:

– "يصرون على التأكد من أن هذا هو الوغد الذي يبحثون عنه. إذا كان هو الشخص المنشود، فسينصرف رجل الاستخبارات، وعندها يمكننا العمل على هذا الأمريكي اللعين هنا لانتزاع المعلومات التي نحتاجها." نظر إلى جينتري وتابع: "بعد ذلك، يريدون منا قتله وإلقاء رأسه قرب السفارة."

اندفع فليجر من الزاوية المظلمة نحو دي لا روشا:

– "انتظر! لا! إذا كان (الجاسوس) في الطريق، فعليّ الخروج من هنا! لا يمكنني السماح لهم برؤيتي! سأدخل السجن بتهمة العمل معكم!"

هز دي لا روشا كتفيه؛ فمن الواضح أنه لم يكن يبالي بمصير جيري فليجر. ومع ذلك قال:

– "ستبقى هنا مع جائزتك؛ أليس هذا ما طلبته؟ ليعطِ أحدكم جيري قناعاً." سحب أحد الفيدراليين قناع وجه (بالاكلافا) من جيب سرواله الجانبي، وألقاه للأمريكي الذي سحبه فوق رأسه، وهو يصارع لتعديل ثقوب العينين. وحين استقر القناع، نظر إلى جينتري. كان من الجلي أن السجين يمكنه كشف هويته رغم القناع. لم تكن هذه الخطة منطقية أبداً. قال من خلف القناع النايلوني:

– "سيد دي لا روشا، ماذا لو–"

– "يكفي ثرثرة!" وجه دانيال المسدس .45 نحو جيري، فصمت الأخير على الفور وتراجع ملتصقاً بالجدار ويداه مرفوعتان استسلاماً.

التفت دي لا روشا إلى كورت:

– "أنت لا تملك الكثير من الأصدقاء، أليس كذلك؟ الاستخبارات المركزية تتوق لأن أقتلك."

سأل جينتري:

– "وماذا ستحصل أنت في المقابل؟"

– "ستزودنا الاستخبارات المركزية بمعلومات من إدارة مكافحة المخدرات DEA[9] حول صلات كارتل مادريغال بحكومات في أمريكا الجنوبية."

تقدم جيري خطوة نحو الضوء ثانية:

– "والمال، أليس كذلك؟ ما زلت سأحصل على–"

وجه دي لا روشا المسدس نحو فليجر مرة أخرى:

– "المال أم الرصاص؟ (Plata o plomo؟)"

– "المال يا زعيم. المال بكل تأكيد." تراجع فليجر ثانية.

---

[9] إدارة مكافحة المخدرات DEA : اختصار *Drug Enforcement Administration*، وهي وكالة فدرالية أمريكية مختصة بمكافحة المخدرات، تأسست عام 1973، وتتولى ملاحقة شبكات تهريب المخدرات داخل الولايات المتحدة وخارجها، وغالباً ما تعمل في أمريكا اللاتينية ضد الكارتلات بالتعاون مع الجيوش والحكومات المحلية.

تابع دي لا روشا:

– "لذا سأتركك الآن؛ فشركائي يصرون على ألا أكون هنا حين يصل رجال الاستخبارات المركزية. لكني سآخذ عاهرتك الصغيرة معي. سيُحضر الجاسوس هنا للتعرف عليك ثم يُصرف. وسيكون أمام (الجزار الصغير) الساعات الأربع والعشرون القادمة ليكتشف ما تعرفه عن إيلينا غامبوا، وسيكون أمامي بقية حياتي لأكتشف ما تعرفه الصغيرة لوريتا عن إيلينا غامبوا."

ساد الصمت الغرفة.

– "السؤال الوحيد هو، من منا سيستمتع أكثر بعمله؟"

أمسك سبايدر الفتاة من شعرها وجذبها لتقف على قدميها، فصرخت من شدة الحركة. نظر دي لا روشا إلى جينتري نظرة أخيرة وهو يتجه نحو الباب:

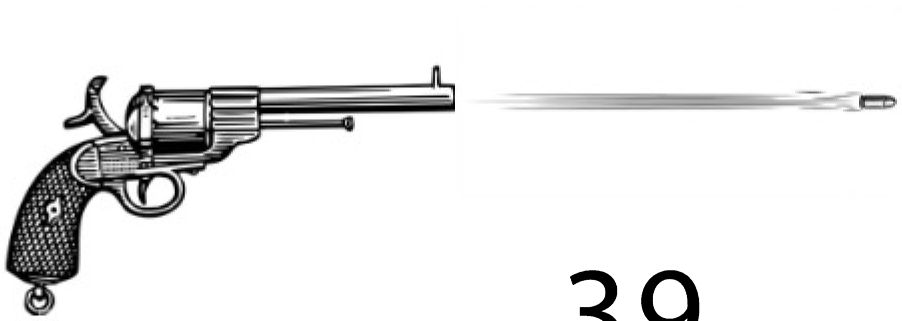
– "لقد كلفتني الكثير، والآن ستدفع الثمن."

وبينما كان يدخل ممر الدرج، نادى عائداً نحو الغرفة:

– "يا كارنيسيريتو، ساعد صديقنا الأمريكي جيري هنا، وعذب هذا السجين عذاباً يجعله عاجزاً عن النطق حين يأتي الجاسوس للتعرف عليه."

أجاب الرجل السمين:

– "أمرك يا زعيم." وأدار القرص فوق الطاولة إلى أقصى جهد كهربائي ممكن.



39

اصطحب رجال «البدلات السوداء» رجل وكالة الاستخبارات المركزية من حديقة «تشابولتيبيك»؛ وكما هو مرتب مسبقًا، كان يرتدي ربطة عنق حمراء ويقف على درجات «المتحف الوطني للأنثروبولوجيا». كان رجلاً ضخمًا، بشعر أشقر يلامس ياقته، وعنق مكتنز تكاد ذقنه تختفي فيه. وكان يزداد سمنة بمرور الدقائق أيضًا. كان قد انتهى لتوه من التهام مخروط آيس كريم بنكهة «دولسي دي ليتشي» (مربى الحليب)، اشتراه من كشك مقابل الدرجات، وكان يمسح يديه السميكتين من البقايا اللزجة حين وصلت سيارة «البدلات السوداء».

كان هذا الرجل يومًا ما في قمة لياقته البدنية، لكنه أهمل نفسه. فوظيفته الحالية لا تتطلب الحفاظ على لياقته.

توقفت شاحنة رمادية أمامه في شارع «لاس غروتاس»، وانزلق الباب الجانبي، وصعد الرجل الضخم من الـ CIA إلى الداخل.

امتدت أربعة أزواج من الأيدي المتمرسة لتفتيشه فور انطلاق الشاحنة جنوبًا نحو شارع «باسيو دي لا ريفورما». أُخذت حقيبته وفُتشت، ووضع غطاء على رأسه وخضع لتفتيش دقيق، وسُحبت محفظته من بنطاله البوبلين، ورُفع قميصه الأبيض ذو الأزرار للتحقق من وجود أجهزة تنصت.

كان يعلم أن الأيدي التي تتحسسه الآن هي ذات الأيدي التي ستقتله إذا تلقت أوامر بذلك من أسيادها.

انعطفت الشاحنة يسارًا، وهو ما لاحظه رجل الـ CIA من تحت عصبة عينيه، لكنه لم يتوقع حقاً أن يتمكن من تمييز الوجهة التي يُقتاد إليها.

لقد زار مكسيكو سيتي من قبل، نعم، لكن هذه لم تكن منطقته.

جلس بهدوء بين مرافقيه وهم يقودون عبر الزحام؛ لقد ركب شاحنات وهو معصوب العينين، محاطاً بمسلحين محليين، مرات أكثر مما يود تذكره. في بيروت، في كوسوفو، في تايلاند، في الصومال، وفي أماكن أخرى قذرة حول هذا الكوكب البائس.

عادة ما كان يُحشر ككومة غسيل في سيارة أو شاحنة ليُنقل إلى موقع سري لمقابلة جهة اتصال. لكن هذا كان مختلفاً. كان هنا، في المكسيك، وليس أي موظف بائس آخر من الوكالة، لسبب واحد ووحيد.

كان يمتلك قدرة يفتقر إليها الكثيرون.

كانت لديه القدرة على التعرف بشكل قاطع على كورتلاند جينتري، الاسم الكودي «فايوليتور»، رمز النداء «سييرا ستة»، والملقب بـ «الرجل الرمادي»، في ثانية واحدة.

ولِمَ لا؟ لقد عملا معًا لخمس سنوات.

قضى رجل الـ CIA الضخم اليومين الماضيين في بويرتو فالارتا، بانتظار إشارة من ضباط الحالة المحليين بالعثور على الهدف. اشتبه في أن فريق تصفية من «قسم الأنشطة الخاصة» (SAD) قد انتقل إلى مسرح العمليات أيضًا، لكن لن يكون هناك أي تواصل بينه وبينهم.

صباح الأمس، طار إلى مكسيكو سيتي للانتظار في السفارة ترقبًا لظهور الرجل الذي تشتبه «لانغلي» في كونه الموظف السابق رقم واحد غير المرغوب فيه. كانت السفارة مغطاة بصور الرجل الذي

ينزلق على خطوط الهاتف فوق الاشتباك في بويرتو فالارتا. من الصورة وحدها، لم يكن لدى رجل الـ CIA الضخم في الشاحنة أي فكرة عما إذا كان هذا زميله السابق أم لا، لكن الحيلة بدت بالتأكيد كشيء قد يحاوله «فايوليتور»، وكشيء يمكنه تنفيذه بنجاح.

والأهم من ذلك، كان رجل الـ CIA يعلم جيدًا أن الرهان ضد كورتلاند جينتري خاسر دائمًا. عندما يتعلق الأمر بالقتال عن قرب، باقتحام الأبواب والقضاء على الأشرار في الغرفة، بإرسال وحدة سرية صغيرة ضد عدو أكبر واحتمالات أضعف، كان «سييرا ستة» هو الأفضل.

لذا، اشتبه رجل الـ CIA في أنه كورت؛ كان هنا، وكان يتبادل إطلاق النار مع تجار المخدرات.

فليرحم الرب تجار المخدرات.

تم الربط أيضًا بين جينتري وقائد فريق «GOPES» الذي فُجر قاربه. كان إدواردو غامبوا قد عمل في إدارة مكافحة المخدرات (DEA) لسنوات، وتشارك هو و«فايوليتور» زنزانة سجن في لاوس لبضعة أسابيع قبل أكثر من عقد.

رابط واهٍ. واهٍ في أحسن الأحوال، لكنه لم يكن واهيًا بما يكفي ليمنع «لانغلي» من الاتصال برجل الـ CIA الضخم، وإيقاظه من سريره وحشره في طائرة «لير» تابعة للشركة، ونقله بسرعة إلى المكسيك ليجلس على مؤخرته السمينة بانتظار فرصة للتعرف الإيجابي على الهدف.

والآن يتأرجح ذهابًا وإيابًا، كتفًا بكتف مع شاحنة محملة ببلطجية من منظمة دانيال دي لا روشا، «البدلات السوداء»، وهم مجموعة من الأوغاد الأشرار حقًا يزعمون أنهم يحتجزون «فايوليتور»، أو شخصًا يشبهه كثيرًا، في مكان ما بمكسيكو سيتي. هؤلاء الحمقى لم يكونوا بحاجة للمال، لذا لم تكن المكافأة هي ما يسعون خلفه. كانت مقايضة

(quid pro quo) تم ترتيبها في مستويات أعلى بكثير من راتب رجل الـ CIA. أزعجه أن «لانغلي» قد تتعاون مع هؤلاء الرجال، لكن ديني كارمايكل، الرئيس الحالي للخدمة الوطنية السرية، كان مهووسًا بالنيل من «فايوليتور»، لذا الله وحده يعلم كيف سيرد ديني كارمايكل المعروف لـ دي لا روشا إذا سلمه كورت.

فكر رجل الـ CIA في كل ذلك.

كورت. فايوليتور. سييرا ستة. الرجل الرمادي.

الوغد الذي دمر حياتي.

توقفت الشاحنة للحظة. ظن الأمريكي أن هذه نهاية الطريق، لكن لا. تحركوا للأمام مرة أخرى وانعطفوا يمينًا؛ تمايل مع الرجال الذين يحاصرونه.

إذا كان تقييم الوكالة صحيحًا، وإذا كان هذا بالفعل «فايوليتور»، ففي غضون دقائق ستتاح للأمريكي الفرصة ليُعلم جينتري بحجم المتاعب التي تسبب بها.

وكانت لدى رجل الـ CIA أوامره. لقد أُمر بالتعرف على «فايوليتور»، نعم، لكن لم يكن هذا كل شيء.

أُمر أيضًا، إذا سمحت له «البدلات السوداء»، بالبقاء ومشاهدة كورت جينتري يموت.

أدرك كورت لبعض الوقت أنه يفتقد الصدمات الكهربائية لكامل الجسم التي كانت توفرها بطارية السيارة. مرتين خلال جلسة صعق استمرت عشر دقائق على يد «إل كارنيسيريتو» (الجزار الصغير) وجهازه البائس، تسبب كورت في حرق مفتاح القاطع على اللوحة. استخدم الجهاز القديم صمامات احترقت، وتم استبدالها، لكن

الأمريكي كان قادرًا على تحمل عقاب أكثر من أي شخص تم توصيله بالسياج من قبل. لذا وُضع الجهاز جانبًا لاستخدام طريقة جديدة عليه.

عصا صعق الحمير.

في البداية، لمس إل كارنيسيريتو صدر جينتري الدامي بالطرفين الحادين فقط. كانت الصدمة أكثر حدة من الكهرباء الشاملة التي كان يتلقاها من آلة الصدمات. خلقت العصا لسعة وحرقًا، وكان الأمر مريعًا لكن ليس بسوء بؤس تمزيق العضلات الذي تسببه عصارة بطارية السيارة المرسلة عبر السياج. ثم استخدم الجزار الصغير عصا صعق الحمير في أماكن أكثر وأكثر إيلامًا على جسد جينتري، مركزًا انتباهه حتمًا على أعضاء سجينه التناسلية. صعقه هناك مرتين. في المرة الأولى لم يثبت الطرفين بشكل صحيح، واكتفى الجهاز بالطنين. لكن في المرة الثانية غرز الكماشة بقوة في خصيتي الأمريكي، وضغط الزر، وتقيأ كورت لمسافة ستة أقدام تقريبًا داخل الغرفة.

انفجر المكسيكيون الخمسة ضاحكين.

سرعان ما أغمي على الـ «غرينغو»، لكن أملاح الشم أعادته إلى جلسة تعذيبه، لئلا يفوته أي من الأجزاء الممتعة.

وقف جيري فليجر مستندًا إلى الجدار الجانبي؛ كان قد أشاح بوجهه عن القسوة منذ فترة طويلة، واكتفى بالتحديق في الطوب المتعفن أمامه. ارتجف جسده؛ أخبر نفسه أن السبب هو الهواء البارد الشبيه بالمشارح في قبو الزنزانة، لكن لم يكن ذلك السبب على الإطلاق.

كان خائفًا.

تساءل عما إذا كان كل هذا يستحق مليون دولار.

نظر جيري خلف كتفه عندما تهادى المعذب نحو دلو مطاطي على الأرض بمحاذاة الجدار واستخرج منه قضيبًا حديديًا مغمورًا جيدًا.

جفل جيري مرة أخرى وأدار رأسه عائدًا إلى الزاوية. استمع بينما تحدث سيد الزنزانة إلى سجينه بصوت خافت وهو يجهز الأداة:

– "لقد عانيت الكثير بالفعل يا صديقي، والطريقة الوحيدة لمنع المزيد من المعاناة هي إخباري أين يمكننا أن نجد السيدة غامبوا."

كان الجهاز الطويل يقطر زيتًا أسود، ورفعه الجزار الصغير وكأنه نوع من الجوائز.

كان رأس كورت متدليًا، لكنه نظر إليه رغم ذلك. راقب فليجر عضلات جسد الرجل تتقلص اشمئزازًا.

كان يعرف أين سيذهب ذلك الشيء.

عادت الحياة للمصعد مرة أخرى، وبدأت المقصورة بالهبوط ببطء.

عاد القضيب إلى الدلو، لكن المعذب قال:

– "سنعود لمتعتنا بعد لحظة يا صديقي. لديك الآن بعض الوقت للتفكير في الأمور."

فتح باب البضائع، واقتيد رجل ضخم مقنع يرتدي بدلة بوبلين ساحلية استوائية إلى الداخل بواسطة الرجلين بزي الشرطة الفيدرالية. لم تكن ذراعا الرجل الضخم مقيدتين. وُضع مباشرة تحت الضوء في وسط الغرفة، ثم نُزع عنه الغطاء. ارتد للخلف من وهج المصباح العاري ثم ركز على المشهد أمامه.

السجين العاري، الدامي والمبلل، المقيد بالسياج المعدني المثبت في الجدار والمثبت بأعمدة حديدية في الأرضية الأسمنتية. الأسلاك الممتدة إلى العربة المتحركة، ثم إلى البطارية على الرافعة.

استغرق الرجل الأشقر بضع لحظات أخرى للنظر حوله، لتقييم الرجال الستة الآخرين في الغرفة معه، ولشم الهواء. استنشق رائحة اللحم البشري المتعفن. نظر حوله بلامبالاة لبضع ثوانٍ أخرى، وبدا

غير مكترث بكل ما يراه، وكأن غرف التعذيب ليست شيئًا يستحق المشاهدة.

ثم تكلم، وكلماته هادئة وواثقة وكأنه رجل مرتاح في هذه الأجواء. قال بالإسبانية:

– "يبدو أنكم بدأتم الحفلة بدوني يا رفاق."

عرف كورت أن زميلاً سابقًا من الوكالة قادم للتعرف عليه. توقع تمامًا أن يحدق وجهًا لوجه مع زاك هايتاور، قائد فريقه السابق في «فرقة البلطجية» (Goon Squad).

لكنه لم يكن زاك هايتاور.

كان هانلي. ماثيو هانلي.

لم يرَ جينتري مات منذ أكثر من خمس سنوات، وحتى في ذلك الوقت لم يقضيا الكثير من الوقت معًا. كان هانلي مسؤولاً تنفيذيًا في قسم الأنشطة الخاصة (SAD)؛ وقد أدار وحدة جينتري القديمة، «قوة المهام غولف سييرا»، من لانغلي، وكان يمرر التعليمات بشكل أساسي عبر قائد الفريق هايتاور، الذي كان ينقل الأوامر لبقية الرجال.

كانت آخر مرة رأى فيها كورت زاك في الربيع الماضي، وأخبره زاك أن هانلي قد خرج من قسم الأنشطة الخاصة وأصبح يمتطي مكتبًا في مكان ما بالعالم الثالث، وكان سقوطه من النعمة خطأ جينتري نفسه.

والآن ها هو هنا، في غرفة تعذيب سرية يديرها كارتل مخدرات وحشي في مكان ما داخل أو بالقرب من مكسيكو سيتي.

لم تُنطق أي كلمات بين الاثنين في البداية. بدلاً من ذلك، خاطب هانلي الرجل البدين خلف الطاولة:

– "هل أنت المسؤول هنا؟"

جاء الرد الفخور:

– "يمكنك القول إن هذا هو مكتبي."

أومأ هانلي برأسه فقط. ثم خطا أقرب إلى جينتري.

قال صاحب البدلة السوداء من الخلف:

– "يجب أن أطلب منك عدم لمس السجين."

تقدم الشرطيان الفيدراليان في الغرفة خطوة للأمام لكنهما توقفا عندما أومأ هانلي برأسه مرة أخرى.

أبقى الأمريكي الضخم يديه بجانبه، لكنه تحرك أقرب إلى السجين. لم يوقف تقدمه البطيء إلا عندما أصبحت وجها الرجلين متباعدتين بضع بوصات.

بدا كورت جريحًا جدًا لدرجة تمنعه من الكلام؛ كانت عيناه متورمتين والقيء يغطي شفتيه الداميتين. وحسب ما استطاع هانلي تمييزه، كان الشاب غائبًا عن الوعي. لكن جينتري تكلم، وكانت كلماته خافتة لكنها قوية بما يكفي، ومسموعة بما يكفي، ليفهمها أي شخص في الغرفة يتحدث الإنجليزية:

– "افعل ما يجب عليك فعله بي يا مات، لكن الرجل في الزاوية دبلوماسي من الخارجية يعمل لصالح «البدلات السوداء»."

استدار مات هانلي، ولمح الرجل في الزاوية. كان قناع «بالاكلافا» الأسود الذي يرتديه فليجر مع البنطال الكاكي والقميص الأبيض قصير الأكمام مزيجًا غريبًا في غرفة يرتدي فيها الرجال الثلاثة المقنعون الآخرون معدات التدخل السريع الكاملة والأسلحة. لم يتكلم فليجر، ولم يتحرك. فقط حدق في المقابل. هز هانلي كتفيه:

– "ليست مشكلتي."

تحدث كورت مرة أخرى، رغم أن الكلمات خرجت عبر تشنجات وتقلصات عضلية:

– "إنه... يدير شبكة إجرامية... يبيع التأشيرات للمهاجرين غير الشرعيين."

حدق هانلي في السجين المقيد:

– "حقًا؟"

ثم التفت إلى فليجر مرة أخرى.

– "كيف هو العمل؟"

– "أنا... أنا لست حقًا. أنا مجرد..."

دوى صوت هانلي، بلكنة غرب فرجينيا العميقة، في الزنزانة الخرسانية:

– "انظر إلي يا ولد!"

– "نعم سيدي؟"

– "انزع ذلك الجورب الغبي عن وجهك."

نظر فليجر إلى كارلوس، صاحب البدلة السوداء في الغرفة، طلبًا للمساعدة، ثم إلى الفيدراليين. ثم إلى الجزار الصغير، ثم إلى الشاب ذي المئزر الجلدي. وقف المكسيكيون جميعًا هناك، ولم يفعلوا شيئًا على الإطلاق. ببطء، خلع جيري القناع. ودسه في جيبه.

سأل هانلي، وصوته يدوي مرة أخرى كالمدفعية:

– "هل أبدو كأحد رجال مكتب المفتش العام؟"

هز جيري رأسه قليلاً جدًا.

– "لا يا سيدي."

– "حسنًا إذن. استرخ. أنا لست مع الخارجية، وبالتأكيد لست هنا من أجلك."

التفت هانلي عائدًا إلى جينتري.

– "أنا هنا من أجل السمكة الكبيرة."

تنفس جيري الصعداء بصوت مسموع. وقال:

– "إذن هذا هو الرجل الذي تبحثون عنه؟"

أومأ هانلي مؤكدًا:

– "إنه هو."

– "رائع. وهناك مكافأة، صحيح؟"

– "نعم."

كرر فليجر:

– "رائع. ماذا فعل؟"

نظر هانلي عن كثب في وجه السجين مرة أخرى. يدرسه.

– "ماذا فعل؟ ماذا فعلت يا فايوليتور؟"

– "فعلت ما أُمرت بفعله. وأنت من أصدرت الأوامر."

– "ليس عندما خرجت عن النص."

لأول مرة رفع كورت رأسه، وكأن غضبه منحه قوة.

– "لم أخرج أبدًا عن النص. اتبعت أوامر عمليات زاك بحذافيرها. دائمًا! ثم أمرت الفريق بقتلي!"

– "هذا ماضي قديم."

– "إذن لماذا أنت هنا؟"

ابتسم هانلي. تراجع خطوة عن جينتري ونظر حول الغرفة.

فحص هانلي معدات المعذب على العربة المتحركة. وتحدث بالإسبانية:

– "جميل. بدائي، لكنه جميل."

– "بدائي (Primitivo)؟ ماذا تعني؟ هذا هو الأفضل..."

– "كلا يا دبدوب، كنا نستخدم قذارة كهذه في أواخر الثمانينيات."

قال ذلك بالإسبانية، لكنه التفت إلى كورت وتحول إلى لغته الأم.

– "لقد صعقت مجموعة من بلطجية نورييغا بواحدة من هذه الألعاب السيئة في قاعدة هوارد الجوية أثناء عملية «القضية العادلة[10]»."

مد هانلي يده إلى القرص. وعاد للإسبانية:

– "هل تسمح لي؟"

---

[10] عملية القضية العادلة (*Just Cause*) : عملية عسكرية نفذتها الولايات المتحدة في ديسمبر 1989 لغزو بنما، بهدف الإطاحة بالديكتاتور البنمي مانويل نورييغا المتهم بالاتجار بالمخدرات وتهديد المصالح الأمريكية. انتهت العملية باعتقال نورييغا ومحاكمته في الولايات المتحدة، وشكّلت واحدة من أبرز التدخلات العسكرية الأمريكية في أمريكا اللاتينية أواخر القرن العشرين.

ابتسم الجزار الصغير قليلاً.

– "بالطبع، لكنه صلب. لقد حرقت صمامين على هذا الـ غرينغو... هذا الأمريكي الشمالي، أعني."

نظر هانلي إلى كورت، وأدار القرص. أرسل صدمة كهربائية قوية إلى الجهاز العصبي المركزي لتابعه السابق. تشنج جسد جينتري وانتفض؛ توترت كل عضلة؛ بدت الأوتار في فكه كأوتار غيتار مشدودة تحت جلده.

بعد أن خفض القرص، ضحك هانلي بخفوت.

– "هذا لا يصبح قديمًا أبدًا."

نظر إلى الرجل البدين.

– "إنه ضعيف قليلاً، أليس كذلك؟"

– "البطارية مستنفدة. لقد امتص هذا الرجل معظم طاقتها."

– "إنه صلب."

تقدم كارلوس، الرجل الثاني بعد سبايدر، وتحدث بالإنجليزية:

– "الآن وقد عرفت أننا نملك الرجل الذي تبحث عنه، سنعيدك إلى حديقة تشابولتيبيك. بمجرد أن ننتهي من السجين، سنلقي رفاته بالقرب من السفارة كما اتفقنا."

أومأ هانلي برأسه.

– "لديه بعض المعلومات تحاولون استخراجها، أم أن كل هذا مجرد تسلية وضحك؟"

نظر كارلوس إلى الأمريكي الأشقر. لم يفهم عبارة (تسلية وضحك shits and grins).

– "تسلية... و... ضحك؟"

– "السجين. تحتاجونه ليخبركم بشيء ما؟"

أومأ كارلوس برأسه فقط.

نظر هانلي إلى الدلو على الأرض. والقضيب المعدني يبرز منه.

– "أوه... فهمت. الأمر سيصبح حميميًا هنا."

استمر في النظر حوله. إلى الأدوات الجراحية على الطاولة، وإلى رف مليء بالأوعية، والقيود، والشريط الكهربائي، وغيرها من الأشياء المتفرقة. نظر مرة أخرى إلى الرجال في الغرفة من حوله.

لم يتكلم أحد.

تابع هانلي:

– "أود البقاء للاستجواب."

هز كارلوس رأسه.

– "لن يكون ذلك ممكنًا. لا نعرف كم من الوقت سيستغرق الأمر."

– "مؤسف."

قال هانلي، ثم التفت مرة أخرى إلى جينتري.

– "هاي، أيها الوغد. استيقظ. هل لديك أي فكرة عن مقدار الألم الذي سببته لي؟"

تدلى رأس كورت مرة أخرى، لكنه تمكن من الابتسام.

– "لست أول من يخبرني بذلك."

– "كنت سأصل لمراتب عليا. كنت في طريقي للصعود."

– "ثم ماذا حدث؟"

– "ثم في يوم ما أتلقى خبرًا بأن أحد مقتحمي الأبواب لدي أفسد الأمر. كانت سقطة كان يمكن أن تكون مدمرة سياسيًا للغاية للولايات المتحدة. عُقدت صفقة، صفقة بيننا وبين دولة أخرى، وتم الاتفاق. إذا قمنا بتنظيف فوضانا بأنفسنا، إذا تخلصنا من الطرف المسيء، فإن هذه الدولة الأجنبية ستتغاضى عن الأمر."

– "لذا قيل لي إن جينتري يجب أن يموت. ماذا بحق الجحيم كان علي أن أفعل يا كورت؟ أرسلت زاك والرجال إلى مكانك. شعرت بالقرف حيال ذلك، لكن كانت لدي أوامري. والشيء التالي الذي أعرفه هو أنك ذبحت فريقك بالكامل."

– "أنا ملم بالقصة."

– "كل تلك القذارة انهالت على رأسي. والآن، ها أنا ذا: واحد وخمسون عامًا ومساعد رئيس محطة في هايتي اللعينة. هناك تقاعد، وهناك النفي إلى الجانب المظلم من القمر. أكره الحرارة؛ أكره المرض، والحشرات، والعواصف، والمخدرات؛ أكره كل جزء لعين من حياتي الآن. وكل ذلك لأنك لم تستطع أن تكون ولدًا مطيعًا وتموت كجندي لعين!"

بصوت أعلى وأعلى، تطاير البصق من شفتيه المنتفختين.

– "أنت، يا قطعة القذارة عديمة القيمة، دمرت حياتي اللعينة!"

تقدم كارلوس، البدلة السوداء الوحيدة في الغرفة.

– "كفى! الشاحنة جاهزة لإعادتك إلى الحديقة."

نظر هانلي إلى المكسيكي للحظة وكأنه نسي وجود آخرين في الغرفة معه. رفع يديه معتذرًا.

– "حسنًا. لو سيينتو (آسف)، أميجو."

التفت مرة أخرى إلى جينتري.

– "أتمنى لو كان بإمكاني البقاء ومشاهدتك تموت، يا ابن العاهرة، لكن علي الذهاب."

استدار مبتعدًا، واستدار المكسيكيون من حوله أيضًا. ثم التفت مرة أخرى إلى السجين لآخر مرة.

– "وداع قصير، مقولة صغيرة تعلمتها من أسلافي في الوطن القديم."

نظر إلى جينتري وتحدث ببطء:

– "توغو زاكروي روت إي ديرجي إيه زا شيو."

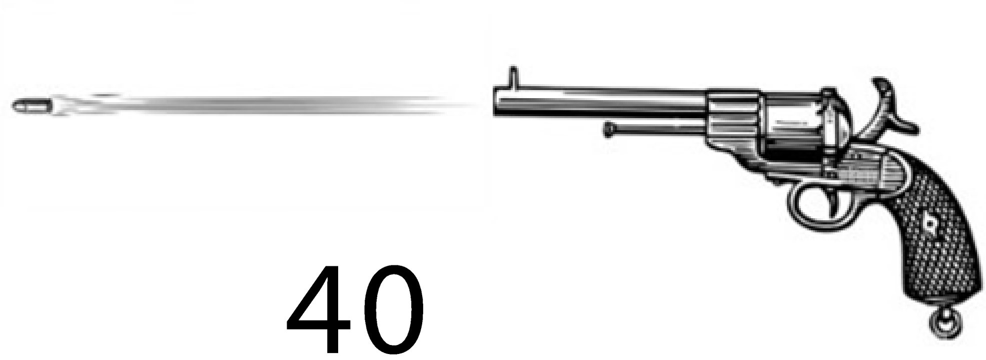
عقد كورت حاجبيه المبللين بالعرق.

كانت روسية.

غريب.

عائلة مات هانلي كانت اسكتلندية.

استدار هانلي نحو المصعد، وخطا خطوتين متجاوزًا رجال الشرطة، وفور وصوله بمحاذاة طاولة الجزار الصغير المليئة بأدوات التعذيب، أطلق ذراعه اليسرى وأمسك بمشرط طويل ورفيع.



40

استدار كارلوس نحو مصعد البضائع؛ فرفع رجال الشرطة الفيدرالية أيديهم عن أسلحتهم ليعيدوا الغطاء فوق وجه هانلي.

تألقت النصال الجراحية تحت ضوء المصباح العاري حين اخترق الخنجر الهواء. غرس هانلي النصل في عنق "صاحب البدلة السوداء" الذي يقف أمامه، فخرق شريانه السباتي مما أدى إلى اندفاع نافورة من الدماء عرضياً عبر الغرفة. وبينما كان رجل العصابة يمسك موضع ألمه، دار هانلي مئة وثمانين درجة نحو رجال الشرطة، وقبض على الرجلين الأقصر قامة من سترات الذخيرة، ثم أدارهما ودفعهما بكل ما أوتي من ضخامة وقوة نحو كورت والسياج الحديدي. أُخذ الشرطيان على حين غرة، فترنحا وسقطا ليرتطما بالشبكة المعدنية على جانبي جينتري. استخدم كورت يديه الممدودتين والمقيدتين عند المعصمين ليمسك بكل منهما؛ أحدهما من ياقة بزته، والآخر من حمالة بندقيته.

أطاح هانلي بـ "الجزار الصغير" بعيداً عن الطاولة؛ ثم أدار قرص آلة الصعق الكهربائي إلى الحد الأقصى. وبالكاد تمكن جينتري من مد يده وتطويق مؤخرة عنق أحد الفيدراليين، حتى انتفض الرجلان فوراً تحت تأثير تيار بطارية السيارة. حاول الشرطي الآخر الاندفاع بعيداً عن السياج، لكن قبضة جينتري على حمالة بندقيته كانت له بالمرصاد؛ فترنح الفيدرالي عائداً على عقبيه، واصطدم بالمعدن ليتصل بالجهد

الكهربائي. بدأ هو الآخر يتلوى تحت وطأة التيار العنيف الذي اخترق جهازه العصبي المركزي.

تلقى مساعد الجلاد عدة رشقات من دماء الشريان المنبعثة من "صاحب البدلة السوداء" على وجهه، مما جعله يستدير بعيداً عن الموقف ليمسح عينيه. وأخيراً، التفت وسحب سلاحاً من تحت مئزره. رأى هانلي التهديد فدفع الشاب بذراعه بقوة مثبتة، وحشره ضد الجدار الملطخ بالدماء، وانتزع المسدس الأوتوماتيكي الصغير من طراز .380 أرجنتيني الصنع من يد المساعد المرتجفة. أدار مات المسدس، وضغطه على جبهة المساعد، وأرداه قتيلاً دون تردد.

ثم أطلق مات رصاصتين في أحشاء "إل كارنيسيريتو" الضخمة، ليسقطه فوق أرضية القبو الباردة وهو يمسك بطنه. خفض هانلي قرص الكهرباء، واستدار نحو السياج الحديدي والرجال الثلاثة هناك: أحدهم عارٍ ومصفد، والاثنان الآخران بملابس القوات الخاصة (SWAT) يسقطان الآن على الأرض مذهولين ومنهكين.

وقف ماثيو هانلي فوق الفيدراليين العاجزين وأطلق رصاصة في رأس كل منهما، لينهي حياتهما.

كان جيري فليجر قد ارتمى على الأرض في الزاوية. كان ظهره إلى الجدار الإسمنتي بجوار المساعد القتيل، وتلطخ قميصه الأبيض ذو الأكمام القصيرة برذاذ الدماء وكأنه تصميم قماشي ملون. صار وجهه شاحباً كبياض قميصه قبل عشر ثوانٍ، وكانت عيناه مفتوحتين وترمشان بسرعة. حدق في الأمريكي الأشقر الواقف في منتصف الغرفة.

كان المكسيكيون منبطحين على الأرض في وضعيات ملتوية غير طبيعية. انقلب مئزر "الجزار الصغير" ليغطي وجهه؛ كان لا يزال حياً وينزف بغزارة من معدته.

أطفأ ماثيو هانلي الضوء العلوي، لتغرق الغرفة في ظلام شبه تام، ولم يبقَ سوى بصيص ضوء خافت ينبعث من الدرج. ثم انتزع مدفعاً رشاشاً من عنق أحد الفيدراليين القتلى، جاثياً على الأرض أسفل جينتري ليفعل ذلك. استدار في وضعية القرفصاء، وسحب مقبض التعمير في السلاح، وصوبه نحو الدرج.

سأل بلهجة عملية جادة، وبتركيز شديد استعداداً للتهديد القادم:

– "كم عددهم؟"

كان جينتري في شبه غيبوبة؛ فتلك الصعقة الأخيرة التي وجهها هانلي بنفسه كادت تودي بحياته. ومع ذلك، تمتم بتخمين:

– "لا أدري. ربما شرطيان فيدراليان، أو أكثر."

– "حسناً."

سُمع وقع أقدام عدة على الدرج، تركض للأسفل.

انتظر هانلي.

بقي كورت معلقاً بقيوده، مجرد مشاهد يشعر بأنه مكشوف تماماً.

ظهر رجال الشرطة الفيدرالية بملابسهم السوداء في عتمة الدرج؛ فأطلق مات هانلي رشقات على سيقانهم ليسقطهم، ثم أتبعها برشقات أخرى في وجوههم وأعناقهم، مصيباً إياهم فوق دروعهم الواقية. سقط رجلان، ثم ثالث. وتلقى رابع رصاصة في حنجرته فترنح عابراً الباب قبل أن يهوي في منتصف الغرفة؛ طارت بندقيته من يديه وارتطمت بالإسمنت.

تدحرجت البندقية لتستقر في حجر جيري فليجر. وحين أدرك موظف السفارة ماهيتها، اتسعت عيناه أكثر، ودفع السلاح عنه وكأنه أفعى مجلجلة حية. استقر السلاح عند قدميه، فأخذ يرفسه بعيداً بهستيريا ويداه مرفوعتان للأعلى.

لم يرد أن يكون له أي صلة بتلك البندقية؛ وأوضح ذلك بجلاء تام. لم يكن ينوي المقاومة، ولم يرد إعطاء هانلي أي سبب لإطلاق النار عليه.

التقط هانلي السلاح الجديد وتقدم نحو الدرج، لكنه لم يسمع أو يرَ أحداً غيرهم.

حين عاد إلى غرفة التعذيب، أشعل الضوء العلوي ثانية، فأصدر "الجزار الصغير" أنيناً. كان يمسك معدته الملطخة بالدماء بقبضته، وينظر إلى الأمريكي المسلح بعينين يملؤهما الخوف والحيرة.

أشار هانلي بسبابة مدفع MP5 نحو الجلاد السمين وسأل جينتري:

– "هل تحتاجه في شيء؟"

هز جينتري رأسه:

– "كلا."

دون تردد، أطلق هانلي ثلاث رصاصات أخرى في صدر الرجل، فتوقف أنينه للأبد.

بعد ثوانٍ من السكون، قال كورت:

– "شكراً يا مات."

أعاد هانلي حشو السلاح بمخزن جديد استله من صدر أحد الفيدراليين القتلى. وبينما كان يعبث بمزرار تحرير المخزن لتلقيم السلاح، قال:

– "لتذهب إلى الجحيم يا فيوليتر. أنا لا أحبك أكثر من هؤلاء الأوغاد."

– "حسناً."

بدأ هانلي في فك القيود عن معصمي جينتري:

– "يسرني أنك لم تقضم لسانك. كنتُ قلقاً من أنك قد نسيت لغتك الروسية."

– "لقد طلبتَ مني إغلاق فمي بإحكام والإمساك بالرجال من حناجرهم."

– "من رقابهم في الواقع، لكن التشبيه قريب."

أزال هانلي قيدي الذراعين ثم فك قيود الكاحلين. ترنح كورت للأمام، وسقط على ركبة واحدة، ثم جلس على الأرض الإسمنتية الباردة. كانت عضلاته تؤلمه وتختلج بشكل لا إرادي. كانت ساقه اليمنى ترتجف بعنف لدرجة أنه ضغط عليها بيديه نحو الأرض ليخمد حركتها.

كان مات قد بدأ بالفعل في نزع الحذاء والسروال من جثة أحد رجال الشرطة القتلى. توقف عما يفعله ليمد يده نحو مسدس "بيرسا" عيار .380 الذي أخذه من ربيب الجلاد، ودحرجه عبر الأرض نحو كورت.

أومأ هانلي برأسه نحو جيري فليجر، الذي لا يزال جالساً في الزاوية يرتجف خوفاً.

– "لقد تركتُ ذاك الأبله لك. يمكنك قتله إن أردت، لا يهمني أمره حقاً."

– "كلا، أنا أحتاجه."

أومأ فليجر برأسه بقوة؛ وعيناه تلمعان بأمل جديد.

– "هذا صحيح! هذا صحيح يا صاحبي! أنت تحتاجني!"

– "لستُ بحاجة إليك لترقص."

– "لأرقص؟ ماذا تقـ..."

التقط كورت المسدس الذي قدمه له رئيسه السابق، وأطلق النار على ظهر قدم جيري فليجر اليسرى؛ فظهر ثقب مستدير بحافة ممزقة من الجورب والجلد فوق حذائه البني.

حدق الشاب في حذائه الملطخ بالدماء لعدة ثوانٍ قبل أن يشرع في الصراخ.

جفل هانلي من أثر الصياح والعويل، وألقى سروالاً تكتيكياً أسود نحو جينتري.

– "هل كان عليك فعل ذلك؟"

واصل كورت لَهثه؛ واستلقى منبطحاً على الأرض الباردة للحظة ليستريح من أثر التعذيب، وقال بلهجة فاترة:

– "لا أريده أن يهرب. لستُ في حالة تسمح لي بمطاردته الآن."

صرخ جيري وبصق، وانبعثت منه شتائم بذيئة كالمياه المنطلقة من خرطوم إطفاء:

– "سأقتلك أيها اللعين، يا ابن العاهرة المريض..."

زحف جينتري على يديه وركبتيه نحو الرجل الجريح في الزاوية؛ فكان المسدس "الستانلس" يطقطق فوق الإسمنت أثناء حركته. جلس ثانية، وضغط فوهة السلاح فوق ظهر يد فليجر اليمنى، مثبتاً إياها فوق الإسمنت:

– "لا أظنني بحاجة إليك لتطبع على الآلة الكاتبة أيضاً."

– "لا!"

تردد كورت قليلاً:

– "هل ستحاول تأديب لسانك؟"

– "لا! أعني نعم! نعم!"

– "حسناً، أوقف النزيف. ستكون بخير."

نهض جينتري ببطء على ساقين مرتجفتين، وعبر الغرفة نحو رف، وتناول منشفة ولفافة شريط لاصق كهربائي، وألقاهما نحو الرجل الذي أخطأ في التقاطهما وهو يتلوى على الأرض، فاضطر للزحف على مرفقيه للحصول عليهما، وهو يصرخ ويبكي ويسب طوال الوقت.

ارتدى كورت السروال التكتيكي فوق جسده العاري ببطء، ولا يزال مذهولاً وبطيء الحركة من أثر الصدمات الكهربائية. نزع هانلي قميصاً داخلياً من حارس آخر وسلمه له.

وبعد دقيقة أخرى، كانا يتجهان نحو الدرج.

وصلا إلى مقدمة المستودع؛ كانت الساعة الثامنة مساءً، ولم يصادفا أحداً في العقار سوى بعض الكلاب المحبوسة في حظيرة طويلة. كان دي لا روشا قد غادر منذ زمن بعيد، كما علم كورت، ومعه لورا غامبوا. وبنظرة خاطفة حول المكان، رأى براميل من الحمض مصفوفة بجانب الجدار، يطفو فوق سائلها شعر بشري؛ وهي البقايا الوحيدة للضيوف السابقين في بيت الموت هذا.

ترنح هو وفليجر خارجين من الباب بينما كان هانلي يشغل سيارة في الشارع بالأسلاك. وفي غضون دقائق، انطلقوا خارج الحي في سيارة "فورد ستيشن" مسروقة. تولى هانلي القيادة؛ إذ منعت التشنجات العضلية المتواصلة كورت من القيادة. أما فليجر فكان في الصندوق الخلفي؛ فقد استخدم كورت بقية الشريط اللاصق لتقييد يديه خلف ظهره. وحين اقتربوا من تقاطع مزدحم، مسح مات لافتات الشوارع وقال:

– "حسناً، أعرف أين نحن. حي تيبيتو. منطقة سيئة، لكنها ليست بعيدة عن الحضارة."

– "إلى أين نحن ذاهبون؟"

– "سنجد مكاناً للتحدث بعد قليل. ثم يمكنك أخذ السيارة، وسأستقل أنا سيارة أجرة نحو السفارة. سيعلم رجال دي لا روشا بما حدث إن لم يكونوا قد علموا بالفعل. لا يُنصح بالبقاء في العاصمة طويلاً."

قادوا السيارة في صمت مطبق معظم الوقت؛ وكانت أنات جيري وشتائمه المنبعثة من الصندوق مسموعة رغم أنها مكتومة. انهمك

جينتري في محاولة السيطرة على عضلاته؛ كان يشعر بوهن في ذراعيه وساقيه كأنهما من مطاط، وعضلات بطنه تؤلمه، بينما كان ظهره وعنقه ينبضان بالوجع. كانت هناك حروق كهربائية على ظهره، وردفه، ومعصميه، وكاحليه. وكان يرتدي سروالاً قصيراً جداً وقميصاً أبيض ضيقاً، عليه أثر دم خفيف عند الياقة.

كان كورت حافي القدمين.

كان يحمل مسدس "بيرسا ثاندر .380" نصف أوتوماتيكي مع مخزن جديد استله من جيب سروال مساعد الجلاد القتيل. لم يكن سلاحاً قوياً، لكنه كان صغيراً وسهل الإخفاء. وبينما كان عقل كورت يصارع للسيطرة على جسده، خصص جزءاً من تفكيره لرسم خطة، وتلك الخطة المتنامية والمتطورة تتطلب تواري الأنظار. فمدافع MP5 وحتى مسدسات "بيريتا" الضخمة التي يحملها الفيدراليون لن تجدي نفعاً.

كان مسدس "بيرسا" ضعيفاً، لكن إخفاءه كان في غاية السهولة.

أما هانلي فقد استولى على "بيريتا" لنفسه تحسباً لمواجهة رجال العصابات أو قطاع الطرق أثناء هربهم.

فوجئ كورت حين توقف هانلي عند متجر صغير (بوديغا) في شارع "جمهورية الإكوادور" وقفز من السيارة دون كلمة. عاد في أقل من دقيقة وفي يده زجاجة "تيكيلا". اندمج ثانية في حركة المرور وحشر الزجاجة بين ساقيه، وفتح غطاءها، وتجرع منها جرعة كبيرة.

عرضها على جينتري.

– "لا، شكراً."

– "ستساعدك في تخفيف التشنجات العضلية. خذها."

قبل كورت الزجاجة، وتجرع منها جرعة حذرة، فجفل، ثم أتبعها بجرعة أطول. صارع لابتلاعها، ثم أعاد الزجاجة لـ هانلي.

– "لو كنتَ قد أحضرتَ ست علب من بيرة (تيكاتي)، لكان بإمكاننا إقامة حفلة."

تجرع مات، وضحك، ثم تجرع ثانية:

– "كلا، الخمر المركز أكثر كفاءة. لا وقت للبيرة يا فيوليتر."

وأخيراً، انعطف هانلي بالسيارة بعيداً عن الطريق، ودخل زقاقاً نحو الجهة الخلفية لموقع بناء. وجد منحدراً يؤدي إلى موقف سيارات مغطى أسفل فندق لم يكتمل بناؤه بعد. قفز لتحريك برميلين برتقاليين من الطريق، ثم واصل المسير نحو الموقف المظلم.

ركنوا السيارة، وفتح جينتري الصندوق الخلفي ليتمكن جيري من استنشاق بعض الهواء. تركوا باب السيارة مفتوحاً للحصول على الضوء ومشوا نحو الخلف. كان فليجر مستلقياً على ظهره وساقه مرفوعة؛ ونظر بذعر إلى الجاسوسين الأمريكيين اللذين يحدقان فيه تحت الضوء الخافت.

– "أرجوكم لا تقتلوني. أقسم أنني سأفعل كل ما تـ..."

تجرع هانلي جرعة طويلة أخرى من الزجاجة:

– "اخرس وإلا أغلقتُ الصندوق."

صمت جيري.

أمسك هانلي بكتف كورت، واقتاده إلى زاوية المرآب، حيث لا يزال ضوء مقصورة الفورد الباهت يصل إليهما. وقفا معاً؛ أخذ كورت الزجاجة وشرب مزيداً من التيكيلا، آملاً من أعماقه أن تخمد الرجفة في عضلاته.

أعادها لـ مات، فتجرع الأمريكي الأشقر الضخم جرعة طويلة قبل أن يسأل:

– "إذن، ما الذي تفعله هنا في المكسيك بحق الجحيم، تصارع رجال العصابات؟"

– "لقد تعثرتُ في هذا الأمر فحسب."

– "لم يكن ذلك تصرفاً ذكياً. حرب المخدرات هذه مجنونة، وأسوأ من كولومبيا. هل رأيتَ يوماً شيئاً بهذا السوء؟"

– "نعم.. رأيت."

نظر هانلي إلى جينتري ثم أومأ برأسه ببطء:

– "لا بد أنك قمت ببعض العمل في البوسنة."

أجابه كورت موافقاً جزئياً: "ربما." ترك هانلي الأمر؛ فهو لا يعرف الكثير عن عمل جينتري قبل انضمامه لفرقة (Goon Squad) في الـ CIA، ولم يكن بحاجة للمعرفة.

– "قالت لي (لانغلي) إنك كنت تعرف قائد قوات الـ (GOPES)، هذا الرائد غامبوا."

– "نعم، منذ زمن طويل."

– "والآن يلاحق دي لا روشا عائلته."

أومأ كورت: "هذا ما كنتُ أتعامل معه."

– "تمنيتُ لو كان بإمكاني تقديم الدعم لك، لكن من الناحية الرسمية، جهة عملي لا تهتم لـ غامبوا، وبينما يهتمون بك، فإن اهتمامهم يقتصر على التأكد من موتك."

– "لماذا ساعدتني؟"

هز مات كتفيه: "لقد دمرتَ حياتي بالفعل، ولكن بما أنها تدمرت، فليس هناك الكثير مما يمكنهم فعله بي بعد الآن."

لم يفهم كورت، فتابع هانلي موضحاً:

– "انظر، كنتَ ستفعل الشيء نفسه من أجلي. في فرقة الـ (Goon Squad)، قمتَ بعملك وأتقنته. وبالطبع دافعتَ عن نفسك حين انقلبنا عليك؛ لا يمكنني لومك على ذلك. ولن أجلس ببساطة لأشاهد كارتل دانيال دي لا روشا اللعين يعذبك حتى الموت. قد تكون (شخصاً غير مرغوب فيه) لدى كبار القادة في (لانغلي)، لكني لم أدخل هذا المجال لأشاهد زعماء المخدرات المكسيكيين يقتلون الوطنيين الأمريكيين."

أومأ كورت جينتري برأسه، واتكأ بظهره على الخرسانة الباردة.

قال مات هانلي:

– "ليست هذه المرة الأولى التي يرسلني فيها ديني للتحقق من هويتك."

– "حقاً؟"

– "قبل بضع سنوات، كنتُ في باراغواي آنذاك." ضحك بسخرية مكملاً: "لم أكن أدرك كم كانت حياتي رغيدة في باراغواي. هايتي اللعينة يا فتى، ليس لديك أدنى فكرة عما يدور هناك."

– "ليس لدينا الكثير من الوقت."

– "على أي حال، وقعت تلك الحادثة في كييف. شحنني ديني كارمايكل على متن طائرة خاصة تابعة للوكالة من أسونسيون إلى كييف بسرعة جعلت رأسي يدور. كانوا يحاولون التأكد مما إذا كنتَ أنت المنفذ هناك، وكأن رجلاً واحداً يمكنه القيام بكل ذلك، لكننا كلانا يعلم أنك لم تكن الفاعل."

أومأ جينتري برأسه. حدق فيه هانلي بحدة، وأدرك كورت أن الرجل يبذل قصارى جهده لقراءة تعابير وجهه بحثاً عن أي رد فعل، لكن وجه كورت كان لا يزال يختلج إثر التيار الكهربائي الذي مزق جهازه العصبي؛ فلم تكن أي من إشارات نظامه الحوفي صالحة لتعمل كجهاز كشف كذب في حالته الراهنة.

استسلم هانلي قائلاً:

– "على الأقل، نلتُ رحلة مجانية إلى أوروبا بسبب ذلك الأمر."

لم يصدر أي رد من جينتري.

ابتسم مات ثانية:

– "لطالما كنت الكتوم الصامت، ذاك الذي ينجز معظم العمل دون تذمر. أما زاك هايتاور فقد كان ثرثار المجموعة."

– "كيف حال زاك؟"

– "كيف حاله؟ أهذا سؤال جدي؟ إنه ميت. لقد ماتوا جميعاً."

– "من هم الذين ماتوا؟"

– "كل رجال (فرقة البلطجية). لقد قتلتهم جميعاً يا صاحبي. أفرغت رصاصات مسدس (ديرينجر) عيار .44 في صدر زاك هايتاور، وقذفت به من النافذة. لقد فارق الحياة في موقع الحادث."

يا للهول، فكر كورت.

يبدو أن مات هانلي مغيب تماماً عما يحدث.

لقد نجا زاك من تبادل إطلاق النار ذاك، بل إن كورت نفذ معه عملية في شمال أفريقيا قبل سبعة أشهر. أصيب زاك بجروح بليغة في السودان، ولم يكن كورت متأكداً يقيناً مما إذا كان قد نجا منها، لكن من الواضح أنه يعرف عن كواليس "دائرة الأنشطة الخاصة" أكثر بكثير مما يعرفه مات هانلي.

لقد أصدرت وكالة الاستخبارات المركزية أمراً بتصفية "الرجل الرمادي" بمجرد رؤيته، ومع ذلك، لم يكن هو الغريب عن الدائرة بقدر ما كان ماثيو هانلي.

– "من الذي أصدر أمر قتلي بمجرد الرؤية؟"

نظر هانلي إلى زجاجة التيكيلا، وكأنه يقيس مقدار ما احتساه:

– "ديني كارمايكل هو من اتصل بي، وأخبرني بضرورة التخلص منك."

– "ولماذا؟"

– "لا أعرف. صدقاً لا أعرف."

– "هذا هراء."

– "كارمايكل يعرف، وآخرون في القيادة العليا يعرفون أيضاً. قيل لي إنك العدو، وعليّ تنفيذ أمر القتل بمجرد الرؤية. عُرضت عليّ وثيقة (إقرار رئاسي) بهذا المعنى؛ ذكرت شيئاً عن تورط دولة أجنبية، وسألتُ ديني عن ماهية الأمر، فأخبرني أن هناك صفقة أُبرمت بين

أشخاص بمستويات أعلى بكثير من رتبتي، وأن عليّ أن أغلق فمي اللعين وأنفذ الأمر. أخبرتُ ديني أن الطريقة الوحيدة لضمان سحقك هي إلقاء قنبلة (JDAM) على رأسك، لكنه أمرني باستخدام الفريق لتصفيتك. أخبرتُ زاك، وهو بدوره أخبر البقية، والآن.. جميعهم موتى."

تجرع هانلي جرعة كبيرة وطويلة من السائل الشفاف، ورآه كورت يترنح قليلاً من أثرها.

ضحك للحظة:

– "اعتبر أنك لم تسمع أي شيء من هذا القبيل مني." ثم استغرق في الضحك مجدداً: "سأُطرد من عملي لا محالة."

نظر كورت إلى رئيسه السابق بذهول:

– "مات.. بسبب ما فعلته هناك في القبو، لن يكتفوا بطردك فحسب."

– "سجن فيدرالي؟ فرقة اغتيال عند بابي؟ كلا، سأقنعهم بأنك هربت بطريقة ما. لقد كسبتُ عيشي لسنوات من خلال خداع أصدقائي وزملائي." ابتسم، لكن جينتري رأى التوتر في عينيه. ثم أضاف: "كان الأمر يستحق العناء لإبادة أولئك الأوغاد."

– "مات.. ستقتلك (لانغلي) لأنك أنقذتني."

هز هانلي كتفيه:

– "سيتعين عليّ حبك القصة. سأقول إنك شققت طريقك خارجاً من القبو بالرصاص، واتخذتني رهينة، وأوسعتني ضرباً، ثم ألقيت بي على جانب الطريق بينما كنت تفر مع ذاك الأحمق من السفارة." توقف قليلاً ثم تابع: "يجب أن تبدو الحبكة متقنة. أفكر في كدمات حول العينين، وربما ضلع مكسور."

هز كورت رأسه ببطء.

– "هل لديك فكرة أخرى؟"

– "أنت من قلتها؛ يجب أن تبدو الحبكة متقنة."

أطلق هانلي زفيراً طويلاً، وأومأ برأسه وكأنه كان يتوقع هذا.

تجرع ثلاث جرعات أخرى من التيكيلا بتتابع سريع، ثم استند بظهره إلى جدار مرآب السيارات. قذف الزجاجة بعيداً نحو الظلام لتتحطم، ثم أشار إلى نقطة في أعلى كتفه:

– "هنا تماماً. افعلها يا فيوليتر!"

سحب كورت مسدس (بيرسا ثاندر .380) من جيب سرواله.

تراجع بضع خطوات للخلف ورفع السلاح. راقبه هانلي بعينين منقبضتين تحسباً للألم والعذاب القادم.

– "أرجوك لا تخطئ الهدف يا فتى."

أشاح كورت بصره عن منظار سلاحه ونظر في عيني الرجل المشدودتين.

– "أنا آسف."

– "آسف على ماذا؟"

انخفضت فوهة المسدس.

– "لا!"

أطلق كورت النار على ماثيو هانلي في معدته. وضع هانلي يديه على الألم الحارق في جانبه الأيمن، بينما انساب الدم الدافئ بين أصابعه الغليظة. تلهث بصوت خافت:

– "بحق الرب يا كورت."

هوى ضابط الحالة ضخم الجثة على ركبتيه، ثم سقط على الإسمنت البارد، وانقلب على بطنه يتلوى من الألم.

أطلق كورت النار ثانية، أصاب هانلي في الجزء الخلفي من كتفه الأيمن.

صرخ جيري فليجر:

– "يا إلهي!"

كان قد اعتدل في جلسته داخل صندوق السيارة ورأى ما حدث عند الجدار. التفت إليه كورت، واندفع نحو السيارة وسلاحه مرفوع، فانكمش جيري داخل الصندوق. أغلق جينتري غطاء الصندوق بقوة، ثم عاد إلى الرجل الذي يتمرغ على الخرسانة.

كان هانلي مستلقياً على ظهره الآن؛ حاول الابتعاد عن "الرجل الرمادي" زحفاً لكنه لم يستطع.

قال كورت وهو يقف فوق الرجل الضخم:

– "لن يصدق أحد قصة رصاصة في الكتف تبدو وكأنها مأخوذة من كتاب تدريب، خاصة حين تأتي من رجل مثلي."

– "كان بإمكاني إقناعهم أيها السافل! كان بإمكاني جعلهم يصدقون!"

– "هيا، كف عن العويل. رصاصة الكتف اخترقت الجسد وخرجت، ورصاصة المعدة استقرت في كومة الشحم الكبيرة لديك. هل أنت الرجل الوحيد في هايتي الذي يزداد وزنه هذه الأيام؟"

– "سأنزف حتى الموت!"

– "كلا، لن تموت. اسمع، لن يشك أحد في (لانغلي) في أنك كنت تساعدني حين يكتشفون أنني أطلقت عليك النار ثلاث مرات."

كان هانلي يصارع الصدمة، لكن عينيه اتسعتا:

– "ثلاث مرات؟"

وقف كورت، وصوب المسدس بسرعة مرة أخرى، وأطلق النار على فخذ رئيسه السابق الأيسر.

صرخ الرجل الضخم:

– "يا ابن العاهرة!" ثم انقلب على جنبه وأمسك بساقه.

– "اسمع يا مات، أنا أسدي إليك معروفاً. كارمايكل يعرف أنني لا أكتفي بلكم من يحاول قتلي. لم أصب أي أعضاء حيوية أو شرايين؛ ستكون بخير. بل ستكون في وضع أفضل مما لو ظن ديني أننا

متواطئان. اضغط على معدتك، ولا تقلق بشأن ساقك أو كتفك، لم أصب أي مقتل."

– "يسهل عليك قول ذلك! سحقاً لك يا فيوليتر! لقد أنقذتُ حياتك!"

– "وأنا أنقذ حياتك الآن! حسناً يا مات، عليّ الرحيل."

– "ستتركني؟ أنا أنزف حتى الموت أيها اللعين!"

– "كلا، لن تموت. ستصبح بطلاً أسطورياً ـ في أروقة (لانغلي)؛ الرجل الذي نجا من مواجهة مسلحة مع (الرجل الرمادي). أليس هذا أمراً رائعاً؟"

– "ليس رائعاً على الإطلاق، يا ابن الـ..."

جثا كورت على ركبتيه، وربت على رأسه:

– "ستشكرني، أقسم لك." ربت عليه ثانية بسرعة: "يجب أن أذهب. شكراً لك مرة أخرى."

نهض كورت وسحب هاتف جيري من جيبه، وتفقد الإشارة.

– "هناك شريطا إشارة. اتصل بالسفارة."

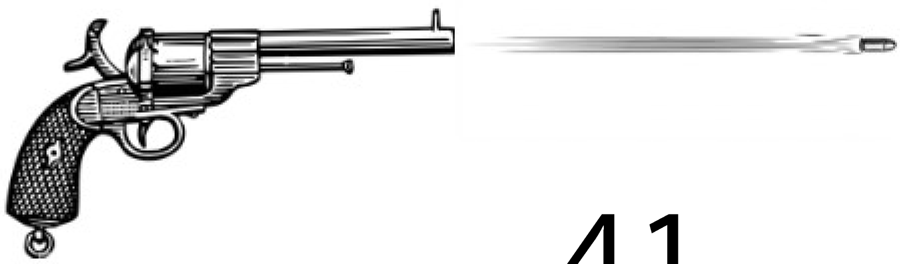
ألقى الهاتف فوق بطن هانلي الضخمة، وصعد خلف عجلة قيادة السيارة الـ "فورد"، وانطلق خارجاً من مرآب السيارات.

بقي هانلي ملقى ـ في الظلام، ممسكاً بمعدته وكتفه. صرخ بأعلى صوته:

– "فيوليتر اللعين!"

تردد صدى صرخته ـ في أرجاء المرآب الخالي.

ثم أبعد يده عن كتفه ليتصل بالهاتف بأصابعه الملطخة بالدماء.



41

في تمام الساعة التاسعة مساءً، كان دانيال دي لا روشا يجلس مسترخيًا على الأريكة في غرفة المعيشة بمنزله الكائن في إحدى ضواحي كويرنافاكا، التي تبعد حوالي خمس وأربعين دقيقة عن مكسيكو سيتي. كان أطفاله يتحلقون حوله؛ بعضهم في حضنه، والبعض الآخر يتوزعون على طول الأريكة، بينما افترشت زوجته الأرض عند قدميه. كانت الأسرة تتابع عبر شاشة البلازما الضخمة مباراة في الدوري بين فريقي شيفاس دي غوادالاخارا وكروز آزول، وهما من صفوة فرق كرة القدم في المكسيك.

انطلقت رنة هاتف دي لا روشا من الجيب الأمامي لسرواله الرياضي الأسود، مما أثار حنقه الشديد؛ فقد أصدر تعليمات صارمة لرجاله بألا يزعجه أحد الليلة تحت أي ظرف.

لفت رنين الهاتف انتباه زوجته أيضًا، فرمقت زوجها بنظرة غاضبة قائلة:

– "لقد وعدتَ ألا يزعجنا..."

نظر إلى الهاتف وقاطعها معتذرًا:

– "آسف يا حبيبتي. إنه نيستور؛ لابد أنه أمر جلل."

ردت بضيق:

– "لقد طلبتُ ليلة واحدة من الهدوء مع عائلتي."

أسكتتهم ابنته الكبرى غابرييلا، ذات التسع سنوات، وهي تحاول التركيز في المباراة.

جاء صوت نيستور عبر الهاتف:

– "دانيال... لقد هرب الأمريكي. قتل كارلوس، وإل كارنيسيريتو، وأطاح بنحو ستة أو سبعة من الفيدراليين؛ أطلق النار على رجل الاستخبارات المركزية وهرب مع فليجر. يبدو أن أحدهما مصاب؛ فقد وجدنا أثر دماء يمتد من المبنى وصولًا إلى..."

قاطعه دانيال هاتفًا:

– "مهلًا! نيستور..."

نهض دانيال فجأة، وكاد طفله الرضيع ذو التسعة أشهر يسقط من حضنه لولا أن تلقته الأريكة. اندفع دي لا روشا خارج غرفة المعيشة، وركض بجواربه نحو مكتبه ثم أغلق الباب خلفه.

صاح في الهاتف:

– "أتقول لي إن ذلك الوغد الأمريكي اللعين الذي رأيته في مسلخ تيبيتو، مقيدًا كقطعة لحم إلى الجدار، وشبه ميت، ومحاطًا بعشرات المسلحين، قد تمكن بطريقة ما من الفرار؟"

أجابه نيستور:

– "نعم يا زعيم. أنا أتتبع خيطًا الآن. سيارة فليجر مفقودة؛ وأفترض أنهما استوليا عليها. لقد نشرت رجالي في كل أنحاء المدينة لتمشيط..."

قاطعه دانيال بحدة:

– "ما الذي يحدث بحق الجحيم؟ لم يفعل ذلك وحده. لا بد أن شخصًا ما ساعده."

– "ربما."

– "لا توجد ربما. إنه مادريغال! لا بد أنهم لوس فاكيروس!"

– "سأتحقق من الأمر يا زعيم."

– "أريدك أن تتصل بالاستخبارات المركزية فورًا وتخبرهم أن لوس فاكيروس هم من أطلقوا النار على رجلهم!"

– "نحن لا نعرف ذلك بعد يا دانيال."

صرخ دانيال:

– "أنا أعرف ذلك! أعلم أن كونستانتينو مادريغال يقف وراء هذا!"

تنهد كالفو (نيستور) عبر الهاتف وقال:

– "سأبحث في كل الاحتمالات، وخاصة أي معلومات تشير لتورط شبكة مادريغال."

– "حسنًا، نحن نعرف وجهتهم إذًا، أليس كذلك؟ تيخوانا!"

– "جيري فليجر لم يزور التأشيرات."

– "إذا كان يعمل معهم، فربما فعل ولم يخبرك."

أجابه كالفو بصوت منهك:

– "هذا وارد يا دون دانيال. سأوجه الجميع للتركيز على الحدود والطرق المؤدية إليها."

– "جيد. ابقَ عينك على مادريغال يا نيستور. هل تفهمني؟"

– "أمرك يا زعيم."

أنهى دي لا روشا المكالمة ثم ضغط زرًا على مكتبه قائلًا:

– "إميليو. جهز السيارات. سنغادر فورًا."

عاد إلى غرفة المعيشة، فوجد زوجته تقف عند المدخل.

سألته:

– "ما الأمر؟"

– "العمل. إنه العمل دائمًا يا حبيبتي."

– "أسترحل مرة أخرى؟"

أومأ دانيال برأسه وقال:

– "نعم. أنا آسف، ولكن يجب أن أذهب."

كان كورت يجلس في كنيسة «سيدة العمود»، في المقعد ذاته الذي جلس عليه في اليوم السابق. لكن لورا غامبوا كوراليس لم تكن بجانبه هذه المرة. حدق في المذبح، وفي الصليب، وفي شموع النذور المشتعلة. ملأت رائحة البخور والشمع أنفه.

وفكر فيها.

كان جيري فليجر الآن محشورًا في الصندوق الخلفي لسيارته الخاصة. قضيا ساعتين في التخلص من سيارة الفورد، واستقلا سيارة أجرة للعودة إلى شقة فليجر في لا زونا روزا، حيث جمعا بعض الملابس، ومبلغ خمسة وعشرين ألف دولار بالبيزو كان كورت قد أعطاها لـ جيري كدفعة أولى، وهاتفًا محمولًا، وبعض الأغراض المتفرقة. كدسا كل ذلك في سيارة جيري. ربط كورت كيسًا من الثلج على قدم جيري للسيطرة على التورم، لكن عرج جيري كان شديدًا لدرجة اضطرت كورت لمساعدة الأمريكي الهزيل في كل خطوة.

وفي الطريق إلى الطريق السريع 85 للتوجه شمالًا، قرر جينتري الانعطاف نحو الكنيسة. من الناحية العملية، كانت خطوة غير ضرورية، وربما خطيرة نوعًا ما، رغم شكه في أن عملاء «البدلات السوداء» لا يزالون يحومون حول شارع دونسيلس.

لم يستطع تحديد سبب وجوده هنا أو ما يفعله بالضبط. لكنه أراد المجيء، والجلوس، والتفكير، ولو لبضع دقائق.

فكر في لوريتا، وتساءل عما تتعرض له الآن، وماذا تظن به في هذه اللحظة.

كانت عضلاته لا تزال تؤلمه، لكن الارتجاف توقف. كاحلاه ومعصماه كانت محروقة ومتقرحة، لكنه سينجو. الجروح على صدره كانت تلسعه، وهي بحاجة لبعض العلاج، لكنها لم تكن عميقة لدرجة

القلق من فقدان الدم، وسيكون ألمها حافزًا ليبقى مستيقظًا ومركزًا للساعات القليلة القادمة. وبعد ذلك... بعد ذلك سيفكر في الطبابة.

كان لديه خطة، نوعًا ما. كانت خطة واهية، لكنها فعل، وفي أوقات كهذه، كان جينتري يفضل الفعل على الجلوس وانتظار الأقدار.

فكر في لوريتا مرة أخرى، وتساءل إن كان يحبها.

ثم فكر في إيدي، وفي إيلينا والطفل، وفي الحياة التي تركها إيدي خلفه.

تساءل كورت إن كان يعرف أصلًا معنى الحب.

جال ببصره في أرجاء الكنيسة. لم يكن هناك سوى قلة من المصلين، لكنه تأملهم، وتساءل عن قدرتهم على الحب.

لا، قرر كورت. هو ليس مثلهم. لم يتدرب على الحب.

بل تمت برمجته على الكراهية.

والآن، هو مستعد للقتل.

نهض ببطء وغادر مقعده. لم يصلِّ. لم يرسم علامة الصليب، ولم يتقدم نحو المذبح ليركع أمامه.

لكنه خاطب المصلوب. من الممر الأوسط، وقبل أن يستدير نحو الباب، تحدث بصوت خافت. لم تكن صلاة، بل كان طلبًا. طلبٌ صيغ بنبرة تهديد من شخص، كما أخبر لورا بالأمس، لا يعرف كيف تسير هذه الأمور السماوية.

همس قائلًا:

– "إنها تثق بك. إنها من رعاياك. عليك مساعدتها. أن تعتني بها. لا يمكنني فعل ذلك وحدي."

بعد تلك الزيارة الخاطفة للكنيسة، تحول «الرجل الرمادي» إلى آلة عملية بحتة. قاد السيارة إلى مطار بينيتو خواريز الدولي؛ وقبل

الوصول بدقائق، جعل فليجر يستخدم الهاتف المحمول الجديد لاستئجار سيارة باسمه من مكتب «هيرتن» في المطار. ركنا سيارة جيري في مواقف الفترات الطويلة، وتسلموا السيارة المستأجرة، وقادوها إلى جزء آخر من المطار. ثم استقلا سيارة أجرة للعودة إلى المدينة، وتحديدًا إلى منطقة ريفورما، ومن هناك استقل كورت وجيري حافلة عامة إلى ساحة زوكالو. وعلى بعد مبنيين طويلين جنوب الساحة الرئيسية، وبينما كان جينتري يسند فليجر الأعرج، وجدا موقف سيارات فندق غير مراقب، وهناك قام القاتل الأمريكي بتشغيل سيارة فورد موستانغ وسرقتها.

في الثانية وخمس وأربعين دقيقة صباحًا، ترك جينتري وفليجر مدينة مكسيكو سيتي خلفهما وتوجها شمالًا نحو باتشوكا، في رحلة استغرقت تسعين دقيقة. تخلصا من السيارة المسروقة في باتشوكا، وانتظرا على مقعد في حديقة مقابل محطة الحافلات الرئيسية حتى فتحت أبوابها في السادسة صباحًا، ثم استقلا أول حافلة متجهة شمالًا إلى خواريز. كانا سينزلان قبل خواريز ليستقلا حافلة إقليمية إلى تيخوانا.

أربع وعشرون ساعة على الطريق.

بينما كانا يجلسان معًا في مؤخرة الحافلة، نطق جيري بأول كلمات لا تتضمن شكوى أو شتائم منذ ساعات:

– "لماذا فعلنا كل ذلك؟"

– "كل ماذا؟"

– "لقد قضينا عشر ساعات نقفز من مركبة لأخرى. قدمي تقتلني يا رجل. أحتاج إلى طبيب."

أجابه كورت:

– "لقد أحرقنا أثرنا. لا توجد طريقة تمكّن «البدلات السوداء» من العثور علينا. سيبحثون عن سيارتك وسيجدونها في المطار. سيظنون

أننا أردنا إيهامهم بأننا ركبنا طائرة، لكنهم أذكى من ذلك وسيكتشفون أنك استأجرت سيارة. سيجدون السيارة المستأجرة هناك في المطار، وربما يعتقدون أننا سافرنا جوًا بالفعل، لكن إن كانوا محترفين، سيراجعون شركة التاكسي ويعرفون أننا حاولنا تضليلهم. ثم إذا كانوا بارعين ومحظوظين، قد يكتشفون أمر الموستانغ التي سُرقت على بعد أميال من حيث أنزلتنا سيارة الأجرة، لكنني أشك في ذلك بشدة."

فرك فليجر ساقه بملامح متألمة مع اشتعال الأعصاب بسبب التورم.

قال كورت:

– "وحتى لو تمكنوا من كشف كل ذلك، يجب أن يكونوا أكثر دقة من مكتب التحقيقات الفيدرالي ليعثروا على الموستانغ في باتشوكا، وحتى لو فعلوا، لم تكن هناك كاميرات مراقبة في المحطة، ولقد دفعنا نقدًا، لذا لا توجد فرصة أن يتعقبونا الآن."

– "ولكن ألن يخمنوا أننا ذاهبان إلى تيخوانا؟"

أومأ جينتري برأسه وقال وكأن الأمر بديهي:

– "أوه، بالطبع. سينتشرون في كل أنحاء تيخوانا عندما نصل، وسيمشطون الحدود، متأهبين لقتلنا جميعًا."

قال فليجر:

– "هذا رائع. وحتى لو لم يفعلوا، فأنت ستقتلني عندما ينتهي كل هذا."

– "ليس إذا فعلت ما أقول."

– "هراء. لقد رأيت ما فعلته برجل الاستخبارات المركزية، الرجل الذي أنقذ حياتك. لقد أطلقت النار عليه بدم بارد."

هز كورت كتفيه وابتسم بوهن:

– "كان لا بد من ذلك."

– "صحيح. ستقول الشيء نفسه عني بعد يومين."

– "فقط إذا حاولت التذاكي."

أخرج جينتري زوجًا من الأربطة البلاستيكية من جيبه، كان قد اشتراها من متجر بقالة في العاصمة. صنع منهما سلسلة من حلقتين، وضع يده اليسرى في إحداهما ويد جيري اليمنى في الأخرى، ثم شد الوثاق. وجد كورت بطانية نوم صغيرة توفرها الحافلة، فألقاها فوق حجره وحجر جيري. لأي شخص ينظر إليهما، كانا يبدوان رجلين يمسكان بأيدي بعضهما. لاحظت عجوز تجلس في الجهة المقابلة من الممر هذا المشهد الذي ظنته عاطفيًا، فأصدرت صوتًا يعبر عن استهجانها.

سأل جيري:

– "إذًا نحن ذاهبان إلى تيخوانا رغم علمنا أنهم سيكونون عند الحدود بانتظار عبور عائلة غامبوا؟"

– "دعني أشرح لك ما سيحدث يا جيري. سنذهب إلى الحدود. إلى تيخوانا. وعندما نصل، ستقوم إيلينا ولوز ودييغو بعبور الحدود. ومهمتك أنت هي الترتيب لعبورهم من هذا الجانب، وسنجلس أنا وأنت في غرفة فندق ما، نجلس وحسب وننظر إلى بعضنا البعض، حتى أتلقى اتصالًا هاتفيًا من إيلينا تخبرني فيه أنهم وصلوا بسلام إلى الولايات المتحدة. إذا لم أتلقَّ ذلك الاتصال، وإذا لم ينجحوا في العبور يا جيري، ستموت ميتة بطيئة جدًا وبشعة جدًا هناك في تلك الغرفة. لديك فرصة واحدة لترتيب عبور آمن ومضمون لهم، لذا من الأفضل أن تبدأ بالتفكير في حل سريع."

بدأ جيري يهز رأسه قبل أن ينهي كورت كلامه:

– "لا يمكنني أبدًا ضمان نجاح العبور! نعم، لو كانت لدينا الوثائق، لكان بوسعي أن أعدك تقريبًا. لكن مع عملية تهريب ليلية،

هناك متغيرات كثيرة جدًا. أنا دائمًا أقول للناس إنني سأعبر بهم خلال محاولتين أو ثلاث."

رد كورت بجمود:

– "هؤلاء الناس لا يملكون محاولتين أو ثلاثًا. إذا قُبض عليهم ودخلوا النظام، فإن دي لا روشا سيخفيهم من الوجود. لديك طلقة واحدة لإصابة الهدف."

– "أقول لك، لا يمكنني أن أعد بشيء!"

هز كورت كتفيه، وأغمض عينيه، ثم أسند رأسه إلى الخلف وسحب البطانية لتغطي كتفيه قائلًا:

– "حسنًا، في هذه الحالة يا جيري، ستموت."

42

جلس دييغو غامبوا فوينتس على مقعد في الحديقة العامة، على بعد ثلاثمائة ياردة من المعبر الحدودي المؤدي إلى الولايات المتحدة. راحت عيناه تتفرسان في وجوه كل من حوله ممن تجاوزوا العاشرة. كان يتملكه رعب حقيقي من أن يلمحه "الأشخاص الخطأ"، وكان على يقين بأن هؤلاء الأشخاص يملأون المكان.

كان هذا يومه الثالث في هذا المكان، ومع مرور كل يوم، كان يقينه يزداد بأن خوسيه والعمة لورا لن يظهرا، وأن الرجال الذين يجوبون الحديقة يعملون لصالح «البدلات السوداء». ورغم أن حرارة الجو لم تكن مرتفعة، إلا أن العرق كان يتصبب من خلف نظارة دييغو الشمسية الداكنة الكبيرة، ومن فروة رأسه المحلوقة بالكامل تقريبًا.

لقد اتبع تعليمات جو (خوسيه) بتغيير مظهره، تمامًا كما فعلت العمة إيلينا وجدته. بقيتا في الفندق، على بعد بضعة أميال جنوبًا، مختبئتين، لعلمهما الأكيد أن «البدلات السوداء» قريبون للغاية.

لقد حالفهم بعض الحظ في اليوم السابق؛ إذ رصد أعضاء كارتل تيخوانا رجالًا جددًا في المنطقة، وظنوهم أفرادًا من عصابة منافسة تحاول التوغل في منطقة نفوذهم، فكان رد فعلهم هو الرد الوحيد الذي يعرفونه عند تهديد مصالحهم: فتحوا النار. وبأعجوبة، لم يُصب أو يُقتل أي مدني، لكن وتيرة إطلاق النار اليومي بالرشاشات في شوارع تيخوانا ارتفعت بشكل ملحوظ منذ ذلك الحين، حيث أُرسل المزيد من

مقاتلي الكارتل للبحث عن هؤلاء الزوار الجدد الذين يهددون هذا المعبر المربح، ولإخافتهم.

سمع دييغو وعائلته أصوات إطلاق النار، لكنهم لم يعرفوا سبب معركة الشوارع بين العصابات إلا من خلال أخبار المساء. تمنوا أن يعني هذا أن تجار مخدرات تيخوانا يوفرون لهم – دون قصد – مستوى من الحماية، مما يمنح «البدلات السوداء» شيئًا آخر يقلقون بشأنه أثناء وجودهم هنا في الشمال.

لم يرغب دييغو في الخروج اليوم، ولا الانتظار في الحديقة لموعد اللقاء المحدد في الثالثة عصرًا. لم يتوقع رؤية عمته أو "الغرينغو" الأمريكي، ولم يعجبه مغادرة الفندق. كان يعلم أنه سيكون الشخص الذي عليه في نهاية المطاف مغادرة مخبئه والتواصل مع المُهرِّب المحلي لمحاولة العثور على وسيلة نقل عبر الحدود، لكنه كان يفضل الانتظار بضعة أيام قبل المحاولة. لم يكن لديهم مال يذكر، ولا اتصالات، وكان الخوف من رجال «البدلات السوداء» يسيطر عليهم تمامًا.

إن عبور الحدود بمفردهم سيكون مهمة شاقة.

مر رجل بجوار المقعد؛ لم يلاحظ دييغو اقترابه حتى. كان شعره محلوقًا بشفرة قصيرة جدًا؛ استطاع دييغو تمييز ذلك رغم ارتداء الرجل قبعة بيسبول. كانت لحيته الصغيرة وشاربه كثيفين لكنهما مشذبان بعناية حول وجهه؛ وعيناه مخفيتان خلف عدسات عاكسة. كان يرتدي قميصًا قطنيًا طويل الأكمام وبنطال جينز فضفاضًا، وهو الزي المعتاد للعمال، وليس الملابس الأنيقة التي يرتديها رجال الكارتل. ولكن عندما أبطأ الرجل خطواته أمام دييغو، تسمر الشاب المكسيكي في مكانه خوفًا.

قال الرجل بهدوء بالإسبانية:

– "اتبعني."

عرف دييغو اللكنة. والصوت.

إنه خوسيه. الأمريكي.

لقد غير مظهره بالكامل لدرجة أن دييغو تردد، حتى عندما عبر الرجل الحديقة وجلس على دراجة نارية صغيرة (فيسبا) والتفت إليه. نهض الصبي عن المقعد بتردد؛ تساءل كيف وصل جو بالدراجة وعبر الحديقة دون أن يلاحظه. بدا وكأنه تجسد من العدم.

عندما وصل دييغو إلى الـ "فيسبا"، أدار جو المحرك، وأشار لـ دييغو بالركوب خلفه، ثم انطلقا في الشارع دون أن يتبادلا كلمة واحدة.

أعاد كورت الدراجة إلى المتجر الذي استأجرها منه جيري بعد ظهر ذلك اليوم، ثم استقل سيارة أجرة مع دييغو عائدين إلى الفندق حيث تقيم لوز وإيلينا. ذُهلت المرأتان من التغيير الجذري في مظهر الأمريكي. واتفقتا على أنه، بالملابس المناسبة، يبدو وكأنه بالفعل أحد أفراد «البدلات السوداء».

ومثل دييغو، حاولت المرأتان تغيير مظهرهما. صبغت لوز شعرها باللون الأحمر؛ لم يبدُ طبيعيًا، لكنه لم يكن غريبًا أيضًا لامرأة في مثل سنها. أما إيلينا غامبوا غونزاليس فارتدت فستانًا زهريًا أبيض يبدو جديدًا، وقصت شعرها قصيرًا بتسريحة تشبه تسريحة أخت زوجها لورا. وضعت نظارة شمسية كبيرة وانتعلت حذاءً بكعب عالٍ. لكن إيلينا كانت لا تزال حاملًا. قدر كورت الجهد الذي بذلته للتنكر، لكنه لم يتخيل أن قتلة «البدلات السوداء» سيتجاهلون سيدة حاملًا لمجرد أن شعرها أقصر من شعر هدفهم.

جمع دييغو وكورت المرأتين واستقلوا سيارة أجرة جديدة أقلتهم إلى سوبر ماركت، وهناك ركبوا جميعًا سيارة أجرة أخرى اتجهت بهم جنوبًا إلى محطة حافلات نقل محلي. عندما غادرت السيارة، قاد جينتري العائلة مسافة مائة ياردة في الشارع، ثم انعطفوا يسارًا في زقاق ضيق ووصلوا إلى نُزل يعمل بنظام الساعة، يبدو مريعًا.

كانت عاهرات شاحبات يقفن في المقدمة، لكن جينتري قاد آل غامبوا متجاوزًا إياهن وصعد بهم طابقًا واحدًا عبر السلالم الخلفية. أدخل مفتاحه في قفل غرفة صغيرة بلا نوافذ.

كان الظلام دامسًا بالداخل. كان كورت قد منع الحديث طوال الرحلة عبر المدينة، لذا بمجرد أن أغلق الباب، سألت إيلينا:

– "لماذا نحن هنا؟"

كرد عملي، أضاء كورت نور الغرفة. سرير مفرد متدلٍ في وسطه، غطاء مهترئ، وحقيبة ظهر ملقاة فوقه. بعينيه، أشار جينتري للعائلة بالنظر إلى الحمام.

كان جيري مقيدًا بسلك هاتف وشريط لاصق إلى أنابيب السباكة في الحمام الضيق القذر؛ رأسه مسند على البورسلين الملطخ بالقاذورات، وقدمه المصابة مرفوعة على حافة حوض الاستحمام الكئيب.

سأل فليجر بينما يطل عليه جينتري من خلف المكسيكيين الثلاثة الواقفين في المدخل:

– "لماذا تأخرتم كل هذا الوقت؟"

وجه كورت حديثه لآل غامبوا قائلًا:

– "لقد انكشف أمرنا."

سألت إيلينا:

– "أين لورا؟"

تنهد وقال بالإسبانية ليفهم دييغو ولوز:

– "«البدلات السوداء» اعتقلوها."

صرخت لوز وجلست على السرير وبدأت في النحيب.

بكت إيلينا هي الأخرى وسألت:

– "كيف؟"

أشار كورت نحو الأمريكي المقيد إلى المرحاض وقال:

– "اشكري هذا الحقير هناك."

نظرت إيلينا إلى فليجر، فأشاح فليجر بوجهه عنها، وحدق في أمّ أربعة وأربعين تزحف عبر الأرضية المكسوة ببلاط مزيف قذر.

سأل دييغو:

– "ماذا... ماذا سنفعل الآن؟"

– "سأوصلكم جميعًا إلى الولايات المتحدة. وبعدها سأذهب لاستعادتها."

صاحت إيلينا:

– "لا! لا، لن أغادر بدون لورا."

– "بلى، ستغادرين. أحتاج لإبعادك أنتِ والعائلة عن الطريق."

سأل دييغو:

– "كيف سنستعيد عمتي؟"

جلس كورت على السرير بجوار لوز وقال:

– "سأجعل دي لا روشا يعيدها. سأجعل حياة دي لا روشا جحيمًا، ولن أتوقف عن تنغيص حياته حتى يطلق سراح لورا. وعندما يفعل ذلك... سآخذها وأرحل."

سأل دييغو:

– "هل ستتركه حيًا؟"

– "هدفي الوحيد هو إنقاذ لوريتا."

قالت إيلينا:

– "دي لا روشا قتل إدواردو."

– "أعرف ذلك، وودِدت لو أجعله يدفع الثمن. لكنني لا أتوقع أن يكون ذلك ممكنًا، لذا سأركز على إنقاذ لورا."

حدقت إيلينا غامبوا طويلًا وبقوة في كورت. لم يفهم النظرة التي رمته بها في البداية، لكن ببطء بدأ الأمر يتضح له. لقد قال شيئًا، أو نقل شيئًا، أو أظهر نوعًا من العاطفة تجاه لورا أدركته إيلينا.

أشاح بوجهه، لكنها اقتربت منه، وأمسكت بكلتا يديه، وضغطت عليهما بقوة. أبقى عينيه مثبتتين على الجدار، ثم خفضهما نحو فليجر، الذي كان يتلوى على البلاط بجوار المرحاض.

سمع زوجة إيدي تكبت دموعها. لقد فهمت أن الأمر بات شخصيًا الآن؛ قرأت ما بين سطور كلمات كورت وأفعاله.

لابد أن إيلينا أدركت أنها تسبب له الحرج، فالتفتت دون أن تنبس بكلمة، وجلست مع حماتها واحتضنتها بقوة؛ والدموع تنهمر من وجهيهما. رفعت لوز رأسها نحو الرجل الذي تعرفه باسم خوسيه. قالت:

– "شكرًا لك يا خوسيه. شكرًا جزيلًا لك."

رد عليها بالإسبانية:

– "أنا لم أبدأ بعد."

كان جيري قد أمضى حرفيًا رحلة الحافلة التي استغرقت أربع وعشرين ساعة بأكملها، وصباح اليوم التالي في تيخوانا، يعمل على خطته لتهريب آل غامبوا إلى الولايات المتحدة. لم يكن قد انتهى تمامًا من إحكام خطته قبل أن يأخذه القاتل الأمريكي لاستئجار الدراجة، ثم يعيده إلى النُزل، ويقيده إلى المرحاض، ويتركه وحيدًا لساعات.

وغد عديم الرحمة.

في الليلة السابقة، أثناء وجوده في الحافلة المتجهة شمالًا، رتب جيري مع جهة اتصال إجرامية في تيخوانا لتزكيته لدى مُهَرِّب مخضرم. أخبره المهرب أنه يجهز لمجموعة كبيرة من أربعين مهربًا للماريجوانا لعبور الحدود إلى الولايات المتحدة بالقرب من تيكاتي في وقت متأخر من مساء بعد غد. قيل لـ جيري إن مجموعته يمكنها مرافقتهم بشرط أن يحملوا حزم الماريجوانا الملفوفة بحبال القنب

أثناء الرحلة، ووافق جيري على الفور. ثم أُعطي الزمان والمكان الدقيقين للعبور.

بعد ذلك، استعان بمعارفه في نوغاليس، وتحديدًا بشخص يدين له بخدمة. أوصله الرجل بشبكة مخدرات تعمل في تلك المنطقة. أُخبر عن نفق يمتد من نوغاليس عبر الحدود إلى أريزونا، وطوال الصباح في تيخوانا، عمل على هاتفه المحمول الجديد للتواصل مع الأشخاص المناسبين في الأماكن المناسبة. وأخيرًا، بعد أن تم جمع آل غامبوا وتحريره من قيد المرحاض بواسطة "الرجل الرمادي"، أكمل جيري فليجر الترتيبات بمزيد من المكالمات إلى نوغاليس وتوسون، وبوعود لكل شخص تحدث معه.

وعود كانت في معظمها أكاذيب.

الأكاذيب التي سردها جيري فليجر في الساعات الأربع والعشرين الماضية ستجعل الكثير من الناس يسعون لقتله، ولم يكن لدى موظف السفارة الأمريكية أدنى شك في ذلك. كانت خطته ستخدع بعض أكثر الرجال حقارة وانتقامًا وخطورة في شمال المكسيك، وهي منطقة تشتهر بالرجال الخطرين. كل هؤلاء الرجال يعرفون اسمه الحقيقي، وشركاءه في العمل، ومكان عمله. لن تكون هناك عودة للعمل كالمعتاد عندما تنتهي هذه المحنة.

لكن جيري فليجر كان أكثر رعبًا من "الرجل الرمادي". إذا نجا بطريقة ما من هذه المحنة، فسيتعامل مع كل ما سيأتي بعدها. أما الآن، فكان لديه مهمة ليقوم بها.

43

انطلق كورت وجيري وآل غامبوا بشاحنة «فورد لوبو» مسروقة نحو الشرق طوال الصباح، ووصلوا إلى نوغاليس قبل الظهيرة. وهناك نزلوا في فندق صغير لا يكاد يختلف في بؤسه عن ذلك الذي تركوه في تيخوانا.

قضوا فترة بعد الظهر جالسين، يأكلون ويتجاذبون أطراف الحديث. كانت عائلة غامبوا تصلي، بينما انشغل كورت وجيري بتفقد جروحهما الحمراء المتقرحة، في انتظار حلول الظلام.

كانت خطة جيري تتمحور بالكامل حول النجاة بجلده. كان يعتزم إبلاغ إدارة مكافحة المخدرات في اللحظة الأخيرة عن عملية تسلل لمهربي الماريجوانا بالقرب من تيكاتي، وسيدس معلومة تفيد بأن الهيروين يتم تهريبه مع الماريجوانا، كما سيبالغ في تقدير عدد "البغال" (الحمالين) من أربعين إلى مائة.

وكان يأمل بشدة أن يؤدي ذلك إلى سحب أي تشديد أمني من الجانب الأمريكي لنفق نوغاليس خلال الوقت الذي تحتاجه عائلة غامبوا لعبور الحدود.

كانت هذه هي الطريقة المثلى لزيادة فرص العائلة في النجاة؛ لأن مصير آل غامبوا كان بالنسبة لـ جيري فليجر مسألة حياة أو موت.

في الثامنة مساءً، قيد كورت زميله جيري إلى مرحاض الحمام، ثم غادر الفندق مع آل غامبوا. قادوا شاحنة الـ «لوبو» حتى وصلوا إلى

الحدود عند الشارع الدولي، ثم انعطفوا يميناً ونزلوا تلة صغيرة. كان السياج الحدودي على يسارهم، عبارة عن صفائح من الصفيح الصدأ وطبقات قليلة من الأسلاك الشائكة. وعلى يمينهم كانت تتناثر بعض المنازل البسيطة على التلة. انتهى الطريق الإسفلتي، فتابعوا سيرهم على الحصى والتراب لمسافة خمسين ياردة، ثم توقفوا أمام كوخ خشبي.

كان هناك رجل يقف بالخارج. وقبل حتى أن يترجل كورت من خلف المقود، أدرك أن الرجل يخفي مسدسًا تحت قميصه الصوفي الثقيل.

كان هذا هو المُهرّب. سيعبر مع العائلة، ويقابل وسيلة النقل الخاصة بهم إلى توسون، وسيصاحبهم طوال الطريق.

رمق المُهرّب الأمريكي بنظرة فاحصة، ولم ينبس ببنت شفة.

لم يرتح كورت لهذا الأمر ولو بمثقال ذرة. حياة هؤلاء الثلاثة، أو الأربعة إذا احتسبنا ابن إيدي الذي لم يولد بعد، كانت كلها تعتمد على أفعال هذا الحثالة تاجر المخدرات الذي يرمقه بنظرات عدائية.

لكن لم يكن لدى كورت ولا آل غامبوا أي خيارات أخرى. كان عليهم الوثوق بـ جيري. ليس لأمانته أو إخلاصه. لا، فهو لم يكن يفعل ذلك لتلك الأسباب، بل كان يفعل ذلك من أجل الحفاظ على حياته، ورأى كورت أن هذا الدافع كان كافيًا.

أشار المُهرّب لآل غامبوا بالتقدم نحو الكوخ، ووقف كورت معهم لحظة في الظلام على الطريق الترابي.

قالت له إيلينا وهي تنتحب:

– "لن أستطيع شكرك أبدًا."

رد عليها:

– "فقط اعبروا بسلام. ابحثي عن أصدقاء إيدي القدامى. رجال البحرية، ورجال مكافحة المخدرات. إنهم أناس طيبون، وسيساعدونكم. أنجبي ذلك الطفل."

ابتسمت وقالت:

– "سأفعل ذلك."

احتضنته والدموع تملأ عينيها، ثم أضافت:

– "أرجوك أنقذ لورا. أنت فرصتها الوحيدة. وأرجوك كن حذرًا."

استدارت واتجهت نحو الكوخ. صافح كورت الفتى دييغو وقال:

– "أنت المسؤول الآن؛ أنت تفهم ذلك، أليس كذلك؟"

– "نعم سيدي."

– "عمك إيدي ذهب إلى الولايات المتحدة وهو شاب، وصنع لنفسه نجاحًا. بغض النظر عن الكيفية التي انتهت بها حياته... لقد كانت له حياة."

أومأ دييغو برأسه، ونظر إلى السماء المرصعة بالنجوم قائلًا:

– "سأكون فخورًا بأن أعيش مثل عمي إدواردو."

استدار واختفى داخل الكوخ.

احتضنت لوز الشاب كورت لفترة طويلة. تمتمت بصلاة قصيرة ثم رسمت علامة الصليب، واستدارت ومضت مبتعدة.

وجد كورت نفسه يحاول فهم الكلمات التي قالتها. يحاول أن يجد فيها السلوان. أن يشعر بالقوة من دعائها المقدس.

لكنه لم يفهمها. ولم يشعر بأي تغيير.

عندما غادرت العائلة، التفت كورت حوله. كان بإمكانه الرؤية فوق السياج من موقعه، نوعًا ما. على الجانب الآخر كانت هناك بضعة مستودعات؛ أضواؤها مضاءة لكنها كانت ساكنة وصامتة الآن. كان هناك طريق يمتد صاعدًا تلة من الشجيرات؛ كان مرئيًا بفضل ضوء

القمر والنجوم، يبدو مثل شريط حلوى طويل يتموج نحو الشمال، في عمق الليل البعيد.

تلك كانت أمريكا. هناك تمامًا. قريبة جدًا لدرجة شعر أنه يستطيع مد يده ولمسها.

لم يرَ كورت بلده منذ خمس سنوات. لم تعد وطنه؛ بل كانت على الأرجح أخطر بلد في العالم بالنسبة له.

ربما باستثناء المكسيك.

ومع ذلك، تطلع نحو تلك الأرض المتموجة بشوق، كما لو أن التراب والرمال والشجيرات الجافة أمامه هي أرض اللبن والعسل.

كان المنظر جميلًا بشكل لعين.

شعر بالغيرة من المكسيكيين الثلاثة الذين أرسلهم لتوّه عبر الحدود.

كان يحب بلده، رغم أن قوى نافذة في بلده لم تبادله الحب. لقد نزف من أجل ذلك البلد. وقتل من أجل ذلك البلد.

وسيموت من أجل ذلك البلد، إن لم ينتهِ به الأمر ميتًا من أجل شيء آخر.

كان لديه حساب يجب تصفيته يومًا ما مع ديني كارمايكل وآخرين في المستويات العليا من وكالة الاستخبارات المركزية.

لكن هذا مؤجل لوقت لاحق. لاحق جدًا.

تصلبت نظرات كورت الحزينة والمتأملة، وتبدد التعبير الحالم عن وجهه ليحل محله تعبير بارد ونظرة تصميم صارمة. صعد إلى الشاحنة وتوجه عائدًا إلى الفندق لانتظار مكالمة هاتفية.

جاء الاتصال في السابعة صباحًا. كانت إيلينا؛ لقد نجحوا. ترك آل غامبوا المُهرّب خلفهم وأصبحوا بمفردهم في توسون، ومعهم تذاكر حافلة إلى سان فرانسيسكو. أعطت كورت رقم الهاتف المحمول الذي اشترته لتوها من محطة الحافلات. كان جينتري قد اتفق معهم على

كلمة سر مسبقة. إذا كانوا في أمان، ستخبره أنهم ذاهبون للبحث عن فندق (Hotel). وإذا كانوا تحت ضغط أو إكراه، ستستخدم كلمة نُزل (Motel).

قالت "فندق"، فأطلق كورت تنهيدة ارتياح طويلة. ومع ذلك، جعلها تعطي الهاتف لـ دييغو. استمع جينتري بتركيز شديد لصوته بحثًا عن أي نبرة توحي بالإكراه، لكنه، مثل عمته، بدا صوته منهكًا وحسب.

أغلق الهاتف ونظر إلى جيري. كان فليجر يجلس على السرير الآخر في غرفة الفندق الصغيرة. لم يغمض له جفن. كان ألم قدمه ينبض بشدة، وخوفه من موته الوشيك أبقاه مستيقظًا.

نظر جيري إلى "الرجل الرمادي" وسأله:

– "ستقتلني على أي حال، أليس كذلك؟"

هز كورت رأسه نافيًا:

– "لا. لقد نفذت ما طلبته منك. لن أقتلك."

لم يصدقه جيري:

– "حقًا. سأنهض الآن وأستدير لأخرج من الباب، فتطلق النار عليّ؟"

هز جينتري رأسه مرة أخرى:

– "لا يا جيري... يمكنك البقاء هنا. لقد دفعت إيجار الغرفة حتى الغد. أنا سأغادر."

بدا فليجر مرتبكًا. أومأ ببطء وقال:

– "كما تشاء."

لم يكن يصدق كورت.

تابع كورت:

– "أريدك أن تستقيل من وظيفتك. لقد انتهى عملك لصالح الولايات المتحدة. هل فهمت ذلك؟"

أومأ جيري بسرعة، وقد بدت عليه ملامح المفاجأة والأمل الآن:

– "علم. لا يمكنني العودة إلى هناك على أي حال. ستتقاتل الكارتلات فيما بينها للحصول على فرصة قتلي الآن. ولكن... ماذا يجب أن أفعل؟"

هز جينتري كتفيه بلامبالاة:

– "أي شيء. اعرج طوال الطريق إلى كوبنهاغن، لا يهمني. كل ما أريده ألا أسمع عن عملك لصالح الولايات المتحدة بأي صفة كانت."

– "لك ذلك يا صاحبي. أنا خارج اللعبة."

– "وأحتاج منك خدمة أخرى."

– "حسنًا."

– "مادريغال."

– "ماذا عنه؟"

– "أحتاج للتحدث إليه. وجهًا لوجه."

أسند جيري فليجر رأسه إلى الجدار خلف السرير وقال بأسى:

– "يا رجل، لا أحد يتحدث إلى «إل فاكيرو» شخصيًا."

– "هراء. دبر الأمر."

– "اسمع. أنا أعرف الكثير من «رعاة البقر» (لوس فاكيروس). وبعضهم قادة كبار في الكارتل. لكنني لا أعرف أي شخص يمكنه أن يضعك أمام مادريغال نفسه. إنه شبح. طيف."

أصر كورت:

– "أحتاج للتحدث إليه. رجل لرجل."

هز جيري رأسه وكأن الأمر مستحيل. لكنه توقف ببطء. ونظر إلى الرجل الذي يحدق فيه بصرامة.

قال جيري:

– "دعني أحزر. هذا شيء آخر تحتاجني لفعله، وإلا ستطلق النار عليّ مجددًا."

– "لقد بدأت تفهم الأمر يا جيري."

تطلع فليجر في الفراغ، وعيناه تائهتان لفترة طويلة. وأخيرًا قال:

– "دعني أجري بعض الاتصالات."



44

جلس جينتري على حافة الرصيف، بينما كانت أشعة الشمس الساطعة والغبار المنبعث وعوادم الحافلات والسيارات المارة تتسلل إلى كل مسام جلده المكشوف.

مرَّ صبيٌّ يمتطي صهوة جواد، وألقى نظرةً فاحصةً على الرجل الجالس على الرصيف؛ كان مأخوذًا بالدهشة لرؤية غريب في بلدته.

ألقى كورت نظرة خاطفة على يديه، فوجدهما ترتجفان؛ بل كانتا تنتفضان انتفاضًا. لطالما كانت يداه ثابتتين كالصخر، مهما بلغت مستويات الأدرينالين التي تتدفق في عروقه. لقد تعلّم كيف يروّض خوفه، وكيف ينحّيه جانبًا في مؤخرة عقله، ليوجّه طاقته بالكامل نحو المعضلة التي تواجهه، مؤمنًا بنفسه وبقدرته على التغلب على أي خطر يحدق به.

لكنه وجد نفسه الآن يفتقد ذلك الإيمان.

شعر بغصة في حلقه.

مجرد توتر فحسب يا جينتري. مجرد توتر لعين. لا مشكلة.

تجرّع رشفة من مشروب الكولا وقضم قطعة من شطيرة "التورتا" الخاصة به. كان لحم الخنزير سميكًا ولاذع المذاق، غير أن شمس صحراء سونورا الحارقة، ممتزجةً بقلقه العميق، قد أجهزت على ما تبقى من شهيته.

أما الرجال المحيطون به، فقد أثاروا حنقه إلى أقصى حد. لم يمضِ على وجوده في البلدة أكثر من خمس دقائق منذ ترجّل من الحافلة القادمة من هيرموسيو، حتى بدأ أول المتحرشين به هجومه. اقترب منه شاب مفتول العضلات يرتدي قبعة من القش، وسار بمحاذاته بينما كان كورت يتجه نحو وسط المدينة.

سأله الشاب:

– "من أنت؟"

واصل كورت سيره دون اكتراث.

عاد الشاب يسأل:

– "ما اسمك؟"

لم يعره كورت حتى نظرة عابرة.

– "ماذا تفعل هنا؟"

مرة أخرى، لم يتلقَّ الشاب ردًا من الزائر الغريب. فكّر كورت: إذا كان قد أثار ريبة هؤلاء الأشقياء المحليين بمجرد ظهوره، فكيف سيكون رد فعلهم حين يسمعون لكنته الأمريكية؟

تعمد الشاب دهس قدم جينتري.

توقف كورت عن السير، واستدار ليواجه الرجل. وفي لمحة بصر، استعرض في ذهنه أربع طرق مختلفة لقتله في أقل من ثانيتين.

لكنه تراجع؛ فهو يرغب في الوصول إلى وجهته بأقل قدر ممكن من الضجيج، وقتل الناس لن يخدم هدفه في التخفي.

تابع كورت مسيره، وسرعان ما تبعته عصبة من الرجال المحليين، كان الكثير منهم يحمل أسلحة. انتزع أحدهم قبعة كورت وقذف بها مثل قرص طائر في الشارع القذر. وركض مراهق آخر خلف جينتري ليركله بقوة في مؤخرته بمقدمة حذائه الجلدي. تعثر كورت للأمام، لكنه استعاد توازنه واستمر في المشي.

الآن، ها هو يجلس على الرصيف أمام متجر "تيندا" في وسط هذه البلدة الصغيرة. أما الرجال الذين كانوا يطوقونه فقد اختفوا فجأة؛ لا شك أن أحدهم تلقى مكالمة أو رسالة نصية، وصدرت الأوامر للمحليين بإخلاء السبيل. لم يسمع كورت صوت أحد، لكنه تخيل أن نظرة أو إيماءة كانت كافية لجعل هؤلاء الأوغاد يبتعدون عن طريقه.

كانت يداه ترتجفان وهو يرفع المشروب إلى فمه. لم تكن الحروق التي خلفها التيار الكهربائي على معصميه بالغة السوء – مجرد حروق تشبه حروق الشمس – لكن التجربة برمتها تركت أعصابه مهتزة، حتى بعد مرور أربعة أيام. والآن، كان على وشك أن يضع نفسه مرة أخرى تحت رحمة رجال لا يعرفون الرحمة، مما زاد من رعشة يديه وتوتره.

اقتربت سيارة صالون ببطء. توقفت سيارة بنية اللون ذات أربعة أبواب في محطة الوقود عبر الشارع، ثم تجاوزت المضخات وتوقفت تمامًا. ترجّل منها رجلان يحملان بنادق "كيرنوس دي شيفو" – كلاشينكوف – في أيديهما. كانا يرتديان ملابس رعاة البقر؛ أحذية مدببة، وقمصان بيضاء مطرزة بخيوط حمراء. كان لهما شاربان كثيفان دون لحى، وأحذيتهما مصنوعة من جلد النعام الرمادي.

إنهما "الفاكيروس" أو الرعاة؛ المرتزقة التابعون لـ كونستانتينو مادريغال.

عبر المسلحان الشارع باتجاه "الغرينغو" الذي نهض ببطء، مبعدًا يديه عن جسده.

مرت سيارة شرطة بلدية، أبطأت سرعتها قليلًا، ثم تابعت طريقها دون تدخّل. هكذا هي الأمور في هذه البلدة؛ مسلحون ببنادق هجومية يعبرون شارعًا مزدحمًا ويوجهون أسلحتهم نحو رجل يرفع يديه، لكن هذا ليس شأنًا يثير اهتمام الشرطة هنا.

ففي نهاية المطاف، هذه هي مدينة ألتر في صحراء سونورا، معقل كارتل مادريغال.

صوّب "الفاكيروس" أسلحتهم من مستوى الخصر، وكانت الفوهات موجهة مباشرة إلى صدر كورت.

في غضون دقائق، فُتّش كورت ودُفع به داخل السيارة التي اتجهت جنوبًا خارج البلدة. توقفت السيارة في أخدود على جانب الطريق، وهناك أُمِر كورت بالترجل، ففعل. انطلقت السيارة مسرعة نحو الجنوب، مخلفةً إياه وسط سحابة من الغبار.

ولم يكد الغبار يتلاشى حتى توقفت سيارة "كاديلاك إسكاليد"؛ بدا جليًا أنها كانت تتبعهم من المدينة. انخفضت نافذة خلفية، وظن كورت للوهلة الأولى أن مادريغال بداخلها، لكنه كان مجرد "راعي بقر" آخر. كان هذا الرجل شابًا سمينًا، يرتدي نظارات "ري بان" الشمسية، ويضع قبعته القشية على حجره، بينما كان يلوح بمسدس ضخم من طراز "كولت بايثون" أمام وجهه ليراه جينتري بوضوح.

تحدث بالإنجليزية قائلًا:

– "أريد أن أرى أثر الشمس على جلدك أيها الغرينغو."

– "عفوًا؟"

– "اخلع ملابسك. كلها."

تهدلت أكتاف كورت استسلامًا وقال:

– "بالتأكيد."

خلع ملابسه حتى بقي بملابسه الداخلية، لكن الرجل السمين أشار بمسدسه نحوها، فاضطر لخلعها أيضًا. وقف عاريًا فوق التراب الساخن بجواربه، حتى أمره السمين بخلعها هي الأخرى. أخذ يقفز من قدم إلى أخرى؛ فالحروق التي في معصميه وكاحليه كانت تكفيه، ولم يكن يرغب في إضافة حروق أخرى في باطن قدميه.

ترجّل ثلاثة رجال من السيارة الرياضية، وشرعوا في تفتيش ملابسه بدقة وكأنهم يبحثون عن قمل. وبعد أن فحص الرجال الثلاثة كل قطعة بعناية فائقة، رشقوها نحو جينتري ليرتديها. لكنهم فتشوا

الملابس دون ترتيب؛ فكانت ملابسه الداخلية هي آخر ما أُعيد إليه، لذا ظل واقفًا يضم كومة الملابس المغبرة بين ذراعيه منتظرًا.

أخيرًا، ارتدى ملابسه، وكانت الشمس تلسع فروة رأسه عبر شعره القصير أثناء ذلك. صعد إلى المقعد الخلفي للسيارة بجانب الرجل السمين، الذي غرز فوهة الـ "كولت بايثون" في ضلوعه. لم ينبس جينتري ببنت شفة، بل ظل ينظر للأمام بينما انطلقت السيارة نحو الجنوب.

توقفوا عند مهبط طائرات صغير على أطراف قرية مجهولة الاسم. كانت الأرض منبسطة وجافة، والمزارع المحيطة بها مربعة الشكل ومنظمة بعناية، يعتني بها مزارعون كادحون يستعينون بالحمير. كان المهبط ترابيًا، والطائرة الرابضة في نهايته بدت وكأن عمرها أربعون عامًا؛ كانت من طراز سيسنا 210، وهي طائرة بمحرك مراوح صغير، مثالية لتهريب المخدرات عبر المكسيك. وبفضل هيكلها المتين وأجنحتها العالية، كان بإمكانها الهبوط في أكثر الممرات غير المسجلة وعورة، تلك التي يشقها رجال الكارتل في قلب الطبيعة.

صعد كورت والرجل السمين إلى الطائرة. وبالإضافة إلى الطيار الذي كان يرتدي قبعة بيسبول ويضع مسدسًا من عيار (0.45) في جراب جلدي بجانب مقعده، كان هناك رجلان آخران داخل المقصورة الضيقة ذات المقاعد الستة، يحمل كلاهما بندقية "كلاشينكوف" في حجره. تساءل كورت عما إذا كانا قد فكرا يومًا في مدى صعوبة إطلاق النار من هذه الأسلحة داخل هذه المساحة الضيقة أثناء الطيران.

هكذا كانت تعمل عقلية جينتري. لم يكن لديه سبب للاعتقاد بأنه في خطر وشيك، ولكن بينما كانوا يربطون أحزمتهم ويشغل الطيار المحرك، وضع كورت خطة لقتل أو شل حركة أو نزع سلاح كل من في الطائرة خلال – حسب تقديره – ثلاث ثوانٍ. سيترك الطيار حيًا وفي

وعيه، وسيجرده من سلاحه، آملًا أن يمتثل لأوامره بالهبوط. وإن لم يفعل، فسيطلق النار على رأسه ويهبط بالطائرة بنفسه.

لم يكن كورت طيارًا بارعًا؛ فقد سبق له أن هوى بطائرات عدة بطريقة جعلتها مجرد حطام معدني ملتوٍ وزيت مدخن، وفي إحدى المرات، لم يعد من الممكن التعرف عليها كطائرة أصلًا.

لذا، تمنى من كل قلبه أن يلتزم الجميع بحسن السلوك خلال هذه الرحلة المتجهة إلى جبال "رعاة البقر".

اهتزت الطائرة فوق المدرج، ثم تمايلت وهي تجاهد للتحليق في السماء. أدرك جينتري أنهم يتجهون جنوبًا، وبعد فترة ظهر المحيط الهادئ على يمينه. مرت الرحلة دون أحداث تذكر؛ وهبطوا في منتصف الظهر في مهبط سري آخر، عبارة عن فسحة صغيرة محاطة بأكواخ ذات أسقف معدنية في الجبال الخضراء لسلسلة سييرا مادري الغربية. لم يكن كورت متأكدًا مما إذا كانوا لا يزالون في سونورا أم أنهم وصلوا إلى سينالوا، أو ربما ناياريت، حيث بدأ كابوسه المكسيكي عند قبر إيدي غامبوا.

أينما كانوا، فقد كان واثقًا من أن جيش مادريغال من "الفاكيروس" سيكونون في كل مكان.

وكان حدسه في محله.

ترجّل من الطائرة وتبعه الرجل السمين، فاستقبلتهم شاحنة كبيرة محملة برجال يرتدون قبعات رعاة البقر ويحملون بنادق كلاشينكوف. صعد كورت إلى صندوق الشاحنة وجلس محاطًا بهم؛ ساروا به داخل قرية ثم صعدوا نحو غابة كثيفة. لاحظ جينتري أن الطريق، رغم كونه غير ممهد، كان في حالة جيدة بشكل استثنائي. أما الارتجاجات والاهتزازات التي عانى منها في خلفية الشاحنة، فلم تكن بسبب الحفر، بل تعود إلى "الماتشيزمو" – روح الاستعراض الذكوري – والعداء الواضح تجاه "الغرينغو" من قبل "الفاكيروس".

كان الطريق عالي الجودة لأنه بُني وصِين من قبل كارتل مادريغال. وبدا ذلك جليًا عندما مرت الشاحنة بمركز حصين مبني من جذوع الأشجار المقطوعة، يقف خلفه رجلان يديران مدفعًا رشاشاً من عيار (0.30) يغطي الطريق. وتحت الغطاء الكثيف لغابات سييرا مادري، ظهرت صفوف من المباني البسيطة، يتجول حولها رجال يعملون بنشاط؛ بعضهم عراة الصدور والبعض الآخر يرتدي قمصاناً وجينز، وجميعهم يحملون السلاح.

لم تكن هذه المنشأة لمعالجة المخدرات كما ظن كورت؛ بل بدت وكأنها قاعدة للمتمردين. كانت حصناً في قلب الغابة، ورغم خلوها من الأسوار أو أبراج الحراسة، إلا أن عزلة الموقع والعدد الهائل من الأسلحة والمسلحين يعني أن اقتحام هذا المكان يتطلب كتيبة كاملة من قوات "الرينجرز" الأمريكية.

توقفت الشاحنة فجأة؛ فاصطدم كتف كورت بكتف الرجل المجاور له، وتلقى بضع عبارات غاضبة غير مفهومة، ثم نزل من الصندوق.

أُخضع كورت لتفتيش ذاتي مهين مرة أخرى، هناك في العراء؛ حيث وقف الأطفال والنساء وكبار السن حول الأكواخ يراقبون مشهد "الغرينغو" العاري. كانت الكلاب والدجاج تحوم حوله بينما كان ينتظر إعادة ملابسه إليه.

راقبه الرجال ذوو قبعات رعاة البقر والبنادق بينما يعيد ارتداء ملابسه، ثم قادوه عبر ممر طويل وضيق، مرورًا بمواقع للمدافع ورجال مسلحين يمتطون الحمير والخيول. كانت العيون تراقبه من بين الأشجار ومجاري الأنهار الجافة التي تتلوى على طول الطريق. أضيفت درجات خشبية في بعض الأماكن، وكان هناك بوابات من الأسلاك الشائكة يحرسها ثلاثة رجال. نظر كورت إلى الصخور فوقه، فرأى خيالات البنادق وقبعات الرعاة ترتسم تحت ضوء الشمس الساقط من خلفهم.

بمجرد عبور كورت للبوابة، انفتح الممر على مجموعة من المباني الكبيرة تحت مظلة من أشجار الصنوبر والتنوب. كانت الهياكل عبارة عن غرف بسيطة مبنية من الطوب الإسمنتي ومسقوفة بالصفيح؛ يتوسطها طريق، ورجال مسلحون يحرسون كل باب. كانت الخيول وبعض الحمير تقف عند مرابطها وأحواض المياه. قادوه بمحاذاتها نحو مبنى كبير يشبه المستودع في منتصف الطريق.

عند الباب الأمامي، وضع الرجل الذي على يمين كورت طرف مسدسه على صدغه الأيمن، وفعل الرجل الذي على يساره الشيء نفسه مع صدغه الأيسر. تقدم رجل ثالث أمام كورت ووضع فوهة مسدسه على جبهته، بينما نغزه مسدس رابع في مؤخرة رأسه.

قال الرجل المسؤول بالإسبانية:

– "جيد. سندخل الغرفة ببطء. خطوة بخطوة."

بدأ يتراجع إلى الخلف، وتحرك الموكب كله ككتلة واحدة. شعر كورت وكأنه جسد عنكبوت، تتحرك الأرجل والأذرع من حوله بانسجام تام.

بينما كانوا يعبرون المدخل، والأسلحة تضغط وتصطدم بوجهه ورأسه، قال جينتري:

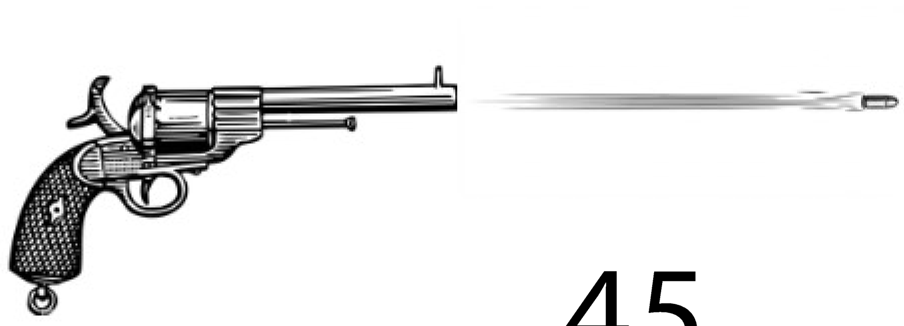
– "أنتم أكثر الحراس الشخصيين جبنًا ورعدة رأيتهم في حياتي."

ابتسم الرجل الذي في المقدمة وقال:

– "لو كنا جبناء، لأطلقنا النار على مؤخرتك البيضاء منذ كنا في ألتر."

استمر الموكب في التحرك داخل الغرفة الكبيرة، وتابع الرجل وهو يمشي بظهره:

– "من فضلك، لا تضطرنا لنثر أشلاء رأسك فوق مائدة غداء السيد مادريغال."



45

جال بصر كورت من فوق كتف الرجل، فرأى أن الغرفة عبارة عن قاعة اجتماعات من نوع ما. صُفَّت بمحاذاة الجدار البعيد طاولات نزهة خشبية تكدست عليها أصناف الطعام والمشروبات الغازية. وتناثر في المكان اثنا عشر رجلًا مسلحًا يراقبون الموكب الذي يتقدم نحوهم عبر الأرضية الترابية. عند طرف الطاولات، وفي مواجهة كورت، جلس رجل وحيد أمامه طبق من الفاصوليا، يغمس فيه قطع خبز التورتيلا المصنوع من الذرة. أنهى قطعة التورتيلا ثم تجرع رشفة طويلة من جعة «تيكاتي» من العلبة مباشرة.

وقف خلفه ستة رجال؛ جميعهم يعتمرون قبعات قش بسيطة أو قبعات بيسبول.

لم يرفع الرجل نظره إلى الأمريكي المحاط برجاله المصوبين بنادقهم نحو رأسه إلا بعد أن أعاد علبة الجعة إلى الطاولة. تنحى الرجل الذي كان يقود كورت جانبًا، وخفض مسدسه قليلًا، لكنه أبقاه مصوبًا نحو صدر «الرجل الرمادي».

أخيرًا، تمكن كورت من رؤية الرجل الذي جاء لمقابلته بوضوح.

كان كونستانتينو مادريغال يبدو فلاحًا (Campesino) أكثر منه زعيم مخدرات. رجل في الخمسينيات من عمره، ضخم الجثة، يميل إلى الضخامة العضلية أكثر من السمنة، ذو شارب كث وشعر أشعث لا يزال السواد يغلب عليه، ولكن بالكاد. كان قميصه الجينز مفتوحًا،

وصدره المشعر يلمع من العرق على جانبي قلادة بسيطة تحمل صليبًا سلكيًا.

وكان يضع قبعة بيسبول على رأسه.

طوى قطعة تورتيلا أخرى، وغمسها في الفاصوليا السوداء، وقضم جزءًا من الخبز المشبع بالمرق. وبينما كان يمضغ، قال:

– "يسمونك «الرجل الرمادي»... El hombre de gris."

رفع مادريغال علبة الجعة واستخدمها كأداة إشارة، موجهًا إياها نحو جينتري بحدة:

– "لا أحد يحظى بلقاء معي. لا أحد. لكن الجميع يتحدثون عنك. الكل يسألني: (هل رأيت ذلك الغرينغو الأمريكي على التلفاز في بويرتو فالارتا؟). أنت أشبه بنجم سينمائي. كان لابد لي من لقائك."

غمس مادريغال إصبعه المبلل في كومة صغيرة من المسحوق الأبيض على الطاولة بجوار غدائه، ثم حشر إصبعه في فمه ليمتص الكوكايين.

تبع ذلك رشفة من جعة «تيكاتي».

قال كورت:

– "شكرًا لاستقبالي."

– "لقد قتلت الكثير من قتلة «البدلات السوداء». أكثر مما فعل رجالي."

جال ببصره حوله ناظرًا إلى المسلحين وهو يرشف المزيد من الجعة، وكأنه ينتظر تفسيرًا من طاقمه. لم ينبس أحد ببنت شفة.

نظر كورت عن يمينه ويساره، حيث كانت فوهات المسدسات الفولاذية تضغط على وجنتيه من الجانبين.

قال:

– "هل يمكنك أن تأمر رجالك بخفض أسلحتهم؟ أكره أن يعطس أحدهم بالخطأ. لقد جئت إلى هنا مبديًا الاحترام؛ وأطلب منك فقط أن تعاملني بالمثل."

ابتسم مادريغال وهو يطوي قطعة تورتيلا أخرى:

– "أنا أظهر لك الكثير من الاحترام أيها الغرينغو. ألا تظن أن هذا احترام؟ يجب أن ترى كيف أعامل الرجال الذين لا أحترمهم. أنا أعرف ما يمكنك فعله. ربما لا تزال لديك طريقة لقتلي؛ أنا لا أعلم."

– "لم أكن لأستطيع قتلك حتى لو أردت ذلك."

لم يترفع كورت عن القليل من التملق في تلك اللحظة.

– "إذًا، إن لم تكن تلك هي الخطة، فماذا يمكنني أن أفعل لك؟"

– "جئت لأعرض خدماتي، مجانًا."

– "خدماتك؟" (Tus servicios؟)

– "نعم. أرغب في مساعدتك، ومباركتك، لملاحقة «البدلات السوداء»."

لوح مادريغال لرجاله بالتراجع؛ فخفضوا أسلحتهم وتنحوا جانبًا. ومع ذلك، بقي اثنا عشر رجلًا مسلحًا على بعد خمس خطوات من القاتل الأمريكي. نقر زعيم المخدرات بأصابعه الغليظة على طاولة النزهة قائلًا:

– "ألم تكن تفعل ذلك طوال الأسبوع دون مساعدتي؟"

– "أنا أتحدث عن عملية واسعة النطاق."

هز زعيم المخدرات كتفيه، وأشار لـ جينتري بالجلوس.

أخذ كورت كرسيًا معدنيًا على الجانب المقابل من الطاولة. تحدث مادريغال بينما قام رجل يحمل بندقية كلاشينكوف (AK-47) بفتح علبة «تيكاتي» ووضعها أمام كورت.

قال الزعيم:

– "أنا لست في حرب مع دي لا روشا. ولا أريد حربًا معه. هناك ما يكفي من الحروب الدائرة الآن. دي لا روشا لديه منطقة نفوذه، وأنا لدي منطقتي، ولدي ما يكفي من المتاعب في قتال الجيش. أفضل أن أشاهدك وأنت تقتل رجاله دون أن أتورط."

ضحك وأضاف:

– "هذا أكثر متعة."

ضحك الرجال في الغرفة من خلف فوهات بنادقهم.

لم يفهم كورت كل ما قاله مادريغال؛ كانت لهجته لهجة سكان الجبال المكسيكية الثقيلة، مطعمة بعبارات عامية غامضة، بينما تعلم كورت معظم إسبانيته في إسبانيا وأمريكا الجنوبية. نودي على شاب من الجانب الآخر من الغرفة؛ فجاء وجلس بجوار مادريغال.

– "ابني سيترجم. نحن نسميه تشينغاريتو."

ترجم كورت لقب الصبي في صمت، ثم تساءل أي نوع من الرجال قد يسمي ابنه "المضاجع الصغير". لم يطرح كورت السؤال بصوت عالٍ.

كان الفتى بالكاد يبلغ السادسة عشرة؛ يرتدي قبعة بيسبول مطرزًا عليها شعار ذهبي لورقة ماريجوانا. بدا متحمسًا نوعًا ما لاستدعائه إلى الطاولة لتحمل هذه المسؤولية. ترجم تحفظ والده بشأن الحرب مع «البدلات السوداء».

تحول كورت إلى الإنجليزية قائلًا:

– "هل تعلم أن دي لا روشا حصل على معلومات استخباراتية حول جهات اتصالك في أمريكا الجنوبية من قبل وكالة الاستخبارات المركزية؟"

ترجم الصبي. فهز مادريغال رأسه نافيًا:

– "لا. كيف عرفت هذا؟"

– "رجل في الاستخبارات المركزية أخبرني، ودي لا روشا نفسه أخبرني. إنه يريد الوصول إلى جزء من إنتاجك."

– "لن يحصل عليه."

– "ربما لا. وربما سيفعل كل ما في وسعه للإضرار بإنتاجك. هذا سيجعله أقوى، أليس كذلك؟"

استدعى كونستانتينو مادريغال رجلًا آخر. تحدث في أذن الرجل للحظة. ثم عاد بنظره إلى جينتري.

– "والد دانيال دي لا روشا كان رجلًا حكيمًا. منافسًا بالطبع، لكنه كان رجل أعمال جيدًا. أما دانيال فمجنون (Loco). لقد حاول توريطي في محاولة اغتياله التي نفذتها القوات الخاصة (GOPES) على يخته، ثم حاول توريطي في اغتيال عائلات ضباط تلك القوات. لكن هذا أسلوبه، وليس أسلوبي. ضجيج عالٍ، وأعداد قتلى كبيرة. حرب نفسية. كل ذلك الوقت الذي قضاه في الجيش طبخ دماغه، وحوله إلى قاتل مجنون. رجل غير عقلاني. والآن يقولون إنه يعبد وثنًا من أوثان الشوارع في الأحياء الفقيرة."

هز كونستانتينو مادريغال رأسه باشمئزاز وتابع:

– "الجانب التجاري والاستخباراتي من مؤسسته يديره في الواقع مستشاره، رجل محترم يدعى كالفو. كالفو عدوي، لكنني أحترمه. إنه أذكى من عشرة من هؤلاء الحمقى (Pendejos) الأغبياء الذين يعملون لدي."

لوح بذراعه حول الغرفة، فضحك اثنان من رجاله.

نقل مادريغال الأصغر كل هذا إلى جينتري، ثم واصل الأب:

– "إذا اكتشف كالفو مع من أعمل في أمريكا الجنوبية لتصنيع المنتج وإيصاله للمكسيك، وإذا قرر دي لا روشا شن حرب عليّ، فسيكلفني ذلك الكثير من الوقت والمال. المال موجود، لكنني لا أريد إضاعة وقتي في هذا."

قال كورت قبل أن ينهي الابن الترجمة:

– "أستطيع منع ذلك."

– "بإطلاق النار على عدد قليل من رجاله؟"

– "لا. بمساعدتك يمكنني إزعاج عملياته أكثر من ذلك بكثير. يمكنني تحويل انتباهه نحوي، وبعيدًا عنك، ويمكنك اتخاذ خطوات من جانبك لحماية مصالحك في أمريكا الجنوبية. لن يعرف حتى أنك متورط."

عندما انتهت الترجمة، جلس مادريغال صامتًا للحظة. كان الرجل الذي تشاور معه مادريغال سابقًا لا يزال يقف خلفه؛ انحنى الرجل للأمام لكن زعيم المخدرات أوقفه بيده بينما كان يفكر.

لم ينطق ابنه بكلمة أخرى.

أخيرًا، نظر مادريغال إلى جينتري وقال:

– "أنت وحيد. ولا تعمل لصالح الحكومة الأمريكية. هذا ما أعرفه."

أومأ كورت.

– "إذًا لماذا تفعل هذا؟"

– "دي لا روشا لديه شيء أريده."

– "فتاة عائلة غامبوا؟"

سر جينتري لأن هؤلاء الرعاة ذوي المظهر الخشن هنا في مخبأ جبلي ناءٍ يعرفون بشأن لورا. كان هذا يعني أن «لوس فاكيروس» (رعاة البقر) لديهم ذراع استخباراتية قادرة على الوصول لمعلومات حول «البدلات السوداء».

أومأ برأسه:

– "لدي مهمة واحدة، وهي جعل دي لا روشا يطلق سراح لورا لأن الاحتفاظ بها سيكون مكلفًا وخطيرًا جدًا عليه."

– "دانيال الصغير يمكن أن يكون عنيدًا جدًا."

لم يرمش جينتري:

– "وأنا كذلك."

سأل كونستانتينو:

– "ماذا تريد مني؟"

– "معلومات استخباراتية ودعمًا ماديًا."

– "رجالًا؟"

– "لا. أنا أعمل بمفردي."

– "ماذا تعني بـ (دعم مادي)؟"

– "أسلحة وشاحنة بيك أب."

ابتسم مادريغال ابتسامة عريضة. التقط بإصبعه المزيد من الكوكايين المبلل، وأتبعه برشفة أخرى من الجعة المعلبة. ضحك وهو يقول:

– "تبدو كرجل من سينالوا."

ابتسم كورت بدوره:

– "إذًا، هل اتفقنا؟"

– "لقد ولدت في قرية في سينالوا تدعى (ماتالو)."

ترجم كورت اسم البلدة في سره. كانت القرية تسمى "اقتله" بالإسبانية.

تابع مادريغال:

– "«البدلات السوداء» هم ضباط جيش، وسكان مدن، وخريجو جامعات. رجال من مكسيكو سيتي في المقام الأول. إنهم قساة. نعم، قساة للغاية. لكن دي لا روشا ومنظمته ليسوا خارجين عن القانون بالمعنى الحقيقي. نحن، «لوس فاكيروس»؟ نحن الجبال. نحن الخارجون عن القانون. لقد قاتل شعبنا وقتل لمئات السنين. كنا سارقي ماشية؛ وكنا قطاع طرق؛ أغرنا على مخيمات الهنود من أجل

نسائهم، وعلى ثكنات الجيش من أجل بنادقهم؛ وسرقنا البنوك من أجل أموالهم."

رشف الرجل الضخم الجعة وابتسم. أدرك جينتري ذهنيًا أن الرجل كان في حالة من النشوة النفسية.

تابع الزعيم:

– "الآن أصبحت مخدرات إلى الولايات المتحدة، لذا فالمال المتضمن أكثر، لكنني لا أهتم. أنا أمير حرب. لا أهتم بالمال. القتال هو ما أعشقه."

– "سأقاتل دي لا روشا نيابة عنك حتى الجحيم يا سيد مادريغال."

توقف زعيم المخدرات مرة أخرى. مسد شاربه ورشف الجعة.

– "نحن... أعني قادة المؤسسات هنا في المكسيك، لا نمس عائلات بعضنا البعض."

– "لا أخطط لملاحقة عائلته. أطلب فقط معلومات حول عمليات المخدرات الخاصة به. سيصبح الأمر داميًا جدًا، جدًا. لكنه لن يصبح شخصيًا."

ترجم تشينغاريتو. رشف مادريغال جعة «تيكاتي» وفكر قليلًا. أخيرًا، أشار بيده فوق كتفه وقال:

– "هذا هيكتور سيرنا. رئيس استخباراتي. سأجعلكما تعملان معًا بشكل مباشر. لتقليل فرصة وجود الجرذان (Ratones)."

– "جرذان؟"

كانت لغة سيرنا الإنجليزية ممتازة. قال:

– "مخبرون. كل المنظمات لديها منهم. ونحن لا نختلف عنهم."

– "إذًا لديكم وصول لجرذان داخل «البدلات السوداء»؟ أشخاص يمكنهم إعطاؤكم معلومات عن أماكن تواجدهم؟"

– "نحن نراقب تحركات قيادة «البدلات السوداء»؛ بالطبع نفعل. وهم يفعلون الشيء نفسه معنا."

– "إذًا تعرفون أين هم في جميع الأوقات؟"

– "في جميع الأوقات؟ لا. ولكن إذا أبلغوا تحركاتهم لأي شخص قد يكون على جدول رواتبنا أيضًا، فنعم، نسمع بذلك. على سبيل المثال، نعلم أن «البدلات السوداء» سيكونون في بويرتو فالارتا غدًا؛ لقد اتصلوا بأشخاصهم في الشرطة المحلية وأخبروهم بذلك. إذا احتاجوا للذهاب إلى فندق لعقد اجتماع، أو احتاجوا لإغلاق شارع من أجل أمنهم، أو احتاجوا لإخلاء موقف سيارات ليتمكنوا من تناول الطعام في مطعم مجاور – فسنسمع بذلك من جهات اتصالنا في الشرطة المحلية."

قال جينتري:

– "مثير للاهتمام."

ثم نظر إلى مادريغال:

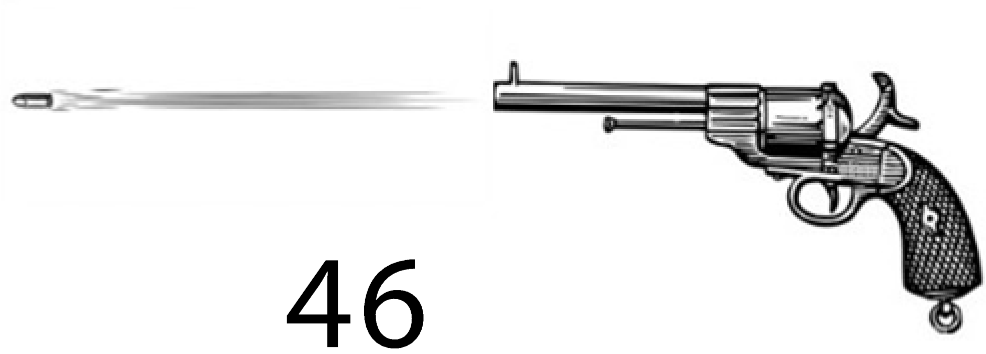
– "هل يمكنك ترتيب وصولي إلى بويرتو فالارتا؟"

قال مادريغال وهو يقف ويمد يده:

– "بالطبع."

مد كورت يده. صافح يد قاتل الرجال والنساء والأطفال؛ معذب المئات؛ رجل يجسد كل ما يعتبره أي شخص عاقل تمثيلًا للشر.

– "شكرًا يا صديقي (Gracias, amigo)."



46

في تمام الثامنة من صباح اليوم التالي، كان كورت جينتري يجلس داخل شاحنة "مازدا" سوداء قديمة في موقف للسيارات عند مرسى "بورتو فالارتا". على بُعد عشرين ياردة من موقعه كانت يخوت وقوارب ترفيهية تُقدر قيمتها بعشرات الملايين من الدولارات تتمايل في وئام فوق سطح الماء. كانت شمس الصباح تمنح دفئها لزوج من زواحف الإيغوانا الرابضة على الصخور على طول المتنزه. ومن نافذة السائق، كان يلوح مبنى سكني فاخر بارتفاع خمسة طوابق، بينما اصطفت من ناحية نافذة الركاب سلسلة طويلة من المتاجر والشركات التي لم تفتح أبوابها بعد، غارقة في سكونها وعتمتها.

كان جينتري يتحدث عبر الهاتف مع رمسيس سيينفويغوس كورتيلو. لقد تواصل رمسيس مع رجال يثق بهم في مدينة مكسيكو، ورغم أنه كان لا يزال يتوارى عن الأنظار، إلا أن كورت اتصل برقم هاتفه القديم، فأرشدته رسالة مسجلة إلى رقم هاتف محمول جديد. اتصل كورت بهذا الرقم، ليعاود رمسيس الاتصال به بعد دقائق معدودة.

كان هدف كورت من الاتصال بهذا الضابط الفيدرالي هو تحذيره؛ فقد أراد أن يحيطه علمًا بأنه يتلقى معلومات ودعمًا من كارتل مادريغال، لكنه حرص في الوقت ذاته على أن يعرف صديقه في الشرطة الفيدرالية أنه لا يعمل لصالح "الفاكيروس".

فبالنسبة لـ كورت جينتري، لم يكن يعمل إلا من أجل لورا.

قال كورت:

– "اسمع يا رمسيس. الأمور ستؤول إلى سوء وقبح شديدين. لا أعرف ما الذي قلته لمن حولك عني، أو عن تعاونك معي."

أجابه رمسيس:

– "لم أقل شيئًا. لقد نقلتُ عائلتي إلى شقة صديق لي في ميامي، والذين أعمل معهم الآن لا يعرفون سوى أنني ومارتن نجونا من الهجوم على اليخت، وأن مارتن قُتل في تيكويلا. هؤلاء الرجال يدركون جيدًا أن كثرة الأسئلة ليست في مصلحتهم."

– "أتثق بهم؟"

أجاب رمسيس دون تردد:

– "أثق بهم تمامًا؛ فقد ذاقوا جميعًا الأمرين على يد منظمة "البدلات السوداء"."

– "حسنًا."

– "هؤلاء رجال شرفاء، ويمكننا مساعدتك في ملاحقة لورا."

صمت كورت قليلًا، وراقب عبر الزجاج الأمامي المتسخ رجلًا أصلع في منتصف العمر يخرج من المبنى السكني، يقود كلبه الصغير من فصيلة "بودل" في نزهة على طول شريط عشبي يحيط بمركز تسوق خارج المرسى مباشرة. ثم قال:

– "إذا كنت تعرف رجالًا شرفاء، فلنحافظ على شرفهم بعيدًا عما سيحدث. ما أنا بصدد القيام به... لا أريد إقحامهم فيه."

– "ما الذي تنوي فعله بالضبط يا جو؟"

– "سأحرق الأخضر واليابس. سأقتل، سأعذب، وسأنتهك كل المحرمات. سأصبّ جحيمي على الأوغاد الذين يحتجزون لورا غامبوا، وسأستعيدها حتى لو اضطررت لإبادة كل ما يقف في طريقي. لن ألتزم بأي قواعد."

– "لا توجد قواعد هنا يا صديقي."

– "أنا أتحدث عن نواميس الإنسانية، وأنا مستعد لانتهاكها واحدًا تلو الآخر."

تمتم رمسيس قائلًا:

– "يا إلهي.. لم أقابل قط شخصًا مثلك، شخصًا يقف في جانبنا ولكنه..."

قاطعه كورت:

– "أنا مختلف عن بقية الأخيار؛ لأنني لا أخشى النزول إلى مستوى أعدائي. إذا كان لديك رجال جيدون هنا، رجال يستطيعون النوم بسلام في الليل، فلا تقحمهم في هذا الأمر. أفضل أن أفعل ما سأفعله بالتعاون مع مادريغال على أن أفعله مع الأخيار، هل تفهم ما أعنيه؟"

– "أنت رجل طيب."

– "شكرًا يا رمسيس، لكنك لن تقول هذا حين أنتهي. ستعتقد أنني أقذر نغل قابلته في حياتك."

– "رقمي معك. سأساعدك بأي وسيلة ممكنة دون إشراك أي شخص آخر. إذا احتجت لأي شيء، أي شيء على الإطلاق، اتصل بي."

– "شكرًا."

أغلق كورت الهاتف، وراقب الرجل وكلبه للحظة، ثم فتح باب شاحنة المازدا.

بعد أربعين ثانية، كان الكلب الصغير وحيدًا ينبح بجنون، بينما التف مقوده حول سارية لافتة أمام متجر لم يفتح أبوابه بعد.

كانت غرفة التخزين الرطبة والمظلمة التي تبلغ مساحتها عشرة أقدام في عشرة أقدام تفوح برائحة العفن. كانت السحالي والعناكب تزحف على الجدران وتتدلى من السقف، مخلفة ظلالًا مرعبة كلما

تحركت أمام كشاف يدوي ضخم وضعه جينتري في الزاوية، موجهًا إضاءته نحو وسط الغرفة.

وهناك، في الوسط، جلس النقيب زافيير غارزا غيرو من شرطة "بورتو فالارتا". وبحسب رئيس استخبارات مادريغال، فإن غارزا لم يكن سوى مأجور يعمل لصالح "البدلات السوداء"، وكان يشرف على العمليات الأمنية للكارتل هنا على الساحل الغربي للمكسيك، من الحدود الغواتيمالية جنوبًا إلى الحواف الجنوبية لـ سينالوا شمالًا. لقد كان عنصرًا أساسيًا في دعم جهود دي لا روشا في المنطقة؛ يحمي شحنات المخدرات، ومنشآت الإنتاج، والبيوت الآمنة، وحتى مواكب دانيال التي كانت تعبر المدينة تحت حماية سيارات الشرطة وأضوائها الساطعة.

انتزع جينتري الشريط اللاصق عن فم الرجل الأصلع، فانتزع معه شعيرات شاربه من جذورها. كانت عين النقيب غارزا اليسرى متورمة ومنغلقة تمامًا، نتيجة ارتطام وجهه بالرصيف خارج غرفة التخزين. كانت يداه مقيدتين خلف ظهره، وملابسه قد مُزقت تمامًا بسكين حاد طويل.

خلال الساعة الأولى، حاول غارزا التفاهم مع كورت، وأعطاه مواقع مختبرات "الميثامفيتامين" التي يعرفها في الجبال جهة الشرق، ظنًا منه أن هذا قد يشتري له حريته. كان يعتقد أن هذا الرجل يعمل بالتأكيد لصالح كارتل آخر، وأنه إذا أقنعه بالتعاون، فإن من أرسله سيدرك أن ضابط شرطة واسع النفوذ ويمتلك أسرار أعمال دي لا روشا سيكون ذا قيمة وهو حي أكثر منه وهو ميت.

لكن حينها، تقدم "الغرينغو" ووقف أمام الضوء. كشف عن نفسه تمامًا؛ لم يبذل الخاطف أي محاولة لإخفاء وجهه عن ضحيته.

وأدرك الشرطي الفاسد فورًا ماذا يعني ذلك.

فهم النقيب غارزا أن أمله الوحيد الآن يكمن في التفاخر بعلاقته بمنظمة "البدلات السوداء". لعلّه يرهب خاطفه ويجبره على إطلاق سراحه.

صرخ قائلًا:

– "لو لمست مني شعرة أخرى، سيرسل دي لا روشا سبايدر خلفك!"

مد الأمريكي يده، وصوّب إصبعه، ثم غرزه بقوة في الجبهة المتعرقة لـ زافيير غارزا، وأتبع تلك الحركة بدفعة قوية.

ثم التفت الأمريكي ونظر خلف كتفه نحو باب المرآب المؤدي لغرفة التخزين، وقال:

– "ومتى سيأتي؟ أرغب بشدة في رؤيته."

– "ستراه أيها الغرينغو!" حاول غارزا كبح غضبه. "اسمع، إذا أطلقت سراحي الآن، فسأنسى ما حدث، ولكن إذا—"

قاطعه كورت:

– "أوه يا زافيير.. لن تنسى هذا أبدًا. ليس لبقية حياتك." ثم نظر كورت إلى ساعته. "تستطيع أن تتذكر لثلاث دقائق أخرى على الأقل، أليس كذلك؟"

صرخ غارزا:

– "ماذا تريد؟"

هز الأمريكي كتفيه ببرود:

– "لا أريد منك شيئًا أيها النذل."

– "لا شيء؟ إذن ما كل هذا؟ ماذا تفعل؟"

– "أنا مجرد قوة من قوى الطبيعة يا زافيير. لقد عشتَ بالسيف..." استدار "الغرينغو" وابتعد نحو زاوية مظلمة، ليعود بعد ثوانٍ حاملًا ساطورًا معدنيًا ضخمًا. "وستموت بالسيف. أو في حالتنا هذه، بساطور اللحم."

– "هل أنت مع "الفاكيروس"؟"

– "لا."

– "مع من إذن؟"

– "مع الولايات المتحدة الأمريكية."

مال غارزا برأسه الأصلع المتعرّق في حيرة:

– "إدارة مكافحة المخدرات (DEA)؟ أنت لست منهم."

– "كلا، لست منهم."

ظن غارزا أنه فهم الآن؛ اعتقد أن هذا الرجل منتقم يعمل لحسابه ضد المخدرات.

– "اسمع، نحن مجرد رجال أعمال. كلنا هنا كذلك. نحن نوفر العرض فقط، وأنتم "الغرينغوز" توفرون الطلب. نحن فقط نستجيب لهذا الطلب."

رد كورت:

– "إذن، الشخص الذي ينتج أفلام اغتصاب الأطفال ليس مسؤولًا طالما أن هناك من يريد شراءها؟"

نظر غارزا إلى خاطفه وقال:

– "أنت لا تعرف شيئًا. أنت مجرد أمريكي ثري. أنت لا تفهم ثقافتنا!"

– "في الواقع، بدأتُ أستوعب الأمر. سأقطع رأسك وأضعه في حقيبة. ألا يبدو هذا جزءًا من ثقافتكم؟"

– "اذهب إلى الجحيم!"

– "على الأرجح سأفعل. ولكن في هذه الأثناء..." جلس جينتري على صندوق بني أمام ضحيته. "أعطني الأسماء والأرقام."

– "ماذا؟"

– "الأسماء والأرقام. أعطني أسماء الآخرين في منظمتك، وسأنهي أمرك بسرعة وخفة."

– "ستقتلني بسرعة وخفة؟"

– "هذا أفضل عرض يمكنني تقديمه لك."

– "وإذا لم أعطك الأسماء والأرقام؟"

نظر كورت إلى ساعته، وهز كتفيه قائلًا:

– "يا صاحبي.. اليومُ بطوله أمامي."

47

توقفت سيارات شرطة بويرتو فالارتا في الشارع عند الساعة التاسعة مساءً. غادر الضباط مركباتهم وبدأوا في توجيه حركة المرور، دافعين بها بعيدًا وآمرين السائقين بمواصلة السير إلى التقاطع التالي.

بعد دقيقة واحدة، توقفت أولى سيارات الدفع الرباعي البيضاء المصفحة ضمن موكب طويل أمام المطعم البحري الجميل.

بدأ عناصر «البدلات السوداء» العاملون ضمن فريق الأمن المسبق جولاتهم في المطعم. سار رجل يبدو صارمًا لكنه مهذب مع رئيس الخدم (maître d’) إلى كل طاولة وجمع الهواتف المحمولة، مخبرًا الزبائن المذهولين بأن تكلفة طعامهم ومشروباتهم ستُغطى بالكامل. تحركت مجموعة من أربعة أفراد من الفريق الأمني عبر المطبخ مع مدير المطعم، وفحصوا المبردات والمجمدات، والممرات وغرف المؤن، والحمامات وأبواب التحميل. وفتشوا الموظفين تفتيشاً دقيقًا من الرأس إلى أخمص القدمين. وقف حارسان مسلحان بمدافع رشاشة من طراز «ماك-10» عيار 45 عند المداخل، بينما قام عضوان أصغر رتبة من الوحدة بدورية في الخلف حاملين بنادق كلاشينكوف (AK-47).

كان دانيال دي لا روشا يجلس في سيارة دفع رباعي مصفحة وبجانبه قائد حراسه وضابط الحماية اللصيقة الخاص به. تلقى إميليو لوبيز لوبيز نداءً لاسلكيًا من قائد وحدة الفريق المسبق يفيد بأن

المطعم مغلق ومؤمن، فأومأ لرئيسه، وفتح سائق الـ «يوكون» الباب الخلفي للمركبة. تشكل فريق من أفضل حراس إميليو حول قائدهم، ودخلوا المطعم. كان إميليو يضع يده اليمنى على مسدسه داخل سترته، ويده اليسرى على أسفل ظهر "زعيمه". كانت سماعة أذن متصلة بجهازه اللاسلكي تنقل له تحديثات من فريقه، وأي تهديد كان سيدفع إميليو لوبيز لوبيز لحماية رئيسه بجسده، وإدارته، ودفعه بسرعة عائدًا إلى سيارات الدفع الرباعي في ثوانٍ.

خلف كتلة قوة الحماية الرئيسية مباشرة كان نيستور كالفو ماسياس، يتحدث في سماعة البلوتوث الخاصة به. وكان خافيير "سبايدر" سيبيدا، قائد قتلة «البدلات السوداء»، وسط الحشد، وكذلك عدد من الموزعين المحليين، ومنفذي الأوامر، ومديري اللوجستيات، وكبير طياري طائرات دانيال العديدة، وبعض المديرين التنفيذيين للتصنيع والمشتريات.

أربعة عشر حارسًا شخصيًا في الموقع ضمنوا سلامة قائدهم، وتسعة عشر آخرون من «البدلات السوداء» ملأوا تقريبًا منطقة تناول الطعام الخاصة في وسط المبنى.

كانت منطقة تناول الطعام الخاصة مفتوحة في الهواء الطلق، يهب عليها نسيم بارد من المحيط ويدور حول الفناء المبلط. جلس دانيال دي لا روشا على طاولة في الجزء الخلفي من القاعة، خلف نافورة طويلة تخرخر مياهها، وتحت قوس شبكي من نبات الجهنمية المشذب بعناية وحب. جلس أعضاء آخرون من «البدلات السوداء» على طاولات رباعية حول الفناء. لم يكن عشاء عمل؛ بل كان مجرد عشاء. كانوا هنا للأكل ثم التوجه شرقًا إلى المنزل الآمن على بعد بضعة أميال في الداخل. كانت هذه أول زيارة لـ دي لا روشا إلى بويرتو فالارتا منذ المجزرة التي وقعت قبل عشرة أيام؛ كان لديه أعمال

يتابعها في المنطقة، وقد أمضى اليوم في العمل مع شركاء شركة الطيران الخاصة به، ومؤسسة تصنيع ونقل المخدرات التابعة له.

خيم الوجوم على الرجال لأن قائدهم كان واجمًا. كان يستشيط غضبًا بسبب الهروب الظاهري لآل غامبوا والغرينغو. افترض تمامًا أنهم شمال الحدود، لكن مطاردته كانت بعيدة عن الانتهاء. في هذه اللحظة، كانت قوته العاملة بالكامل في الولايات المتحدة: في أتلانتا، وشيكاغو، ودالاس، ولوس أنجلوس، وفي اثنتي عشرة مدينة أخرى – كلهم يعملون على العثور على آل غامبوا والغرينغو.

حتى الآن خذله كالفو، وخذله سبايدر، وخذلته منظمته الإجرامية التي يبلغ قوامها خمسين ألف عضو.

لكن ذلك لم يكن مهمًا حقًا. لأن كل ما يهم دانيال هو أن دانيال قد خذلها "هي".

حدق دانيال عبر طاولته إلى زاوية في الفناء، على بعد بضعة أقدام فقط. كان فريق الأمن المسبق قد أحضر ضريحًا لـ «سانتا مويرتي» (القديسة الموت)، وهو تمثال أيقوني للقديسة بطول ثلاثة أقدام، يرتدي أفخم ثوب زفاف مصنوع يدويًا من قبل خياط بارع في مكسيكو سيتي يعمل حصريًا على ابتكار أزياء عالية الجودة وباهظة الثمن لأيقونات سانتا مويرتي. كانت تقف على طاولة مزينة بشموع النذور التي يرتعش لهبها في نسيم البحر؛ لعبت الظلال عبر وجه الهيكل العظمي، مما خلق مظهرًا يوحي بالحركة والحياة.

حدق دي لا روشا في عينيها. بالنسبة له، لم تكن محاجر فارغة في الجص؛ بل كانت نوافذ تطل على الهاوية. بوابات رؤية إلى روح إلهة غاضبة.

وضع نادل يرتدي معطفًا أبيض زجاجة تكيلا فضية من نوع «غران باترون بلاتينوم» على طاولته. وبجانب الزجاجة طبق

كريستالي من الليمون المقطع حديثًا، وطبق كريستالي من الملح، وكأس صغير من الكريستال نفسه.

تجاهل دي لا روشا الملحقات وأمسك الزجاجة من عنقها، وتجرع رشفة من السائل الصافي، وحدق في صنمه، ووعدها بصوت مسموع بأنه سيقدم لها الجزية التي طلبتها.

الطفل الذي لم يولد بعد لعائلة غامبوا.

وقف النادل بشكل محرج وفي يده قائمة طعام، منتظرًا أن ينهي دي لا روشا صلاته. وبينما كان دانيال لا يزال يصلي، تنحنح الرجل.

كان إميليو لوبيز لوبيز يقف بمحاذاة الحائط خلف رئيسه مباشرة؛ تقدم إميليو نحو النادل وأمسكه من ذراع معطفه، وأداره بعنف، واستعد لدفعه بعيدًا لسوء أدبه. لكن دانيال رفع زجاجة التكيلا.

– "لا بأس يا إميليو. شكرًا لك."

ثم نظر إلى النادل وقال:

– "فليقم الطاهي بإعداد شيء خفيف. سمك البلطي المشوي سيكون مثاليًا."

قال النادل:

– "حسنًا جدًا يا دون دانيال (Muy bien)."

واندفع مسرعًا إلى المطبخ، سعيدًا بوضوح لنجاته بحياته بعد خطئه.

جاء نيستور إلى الطاولة، وتحدثا في العمل لبضع دقائق، لكن قلب دي لا روشا لم يكن حاضرًا، وأخيرًا طلب من مستشاره أن يتركه يتناول وجبته وحيدًا. فهم بقية «البدلات السوداء» الرسالة؛ أكلوا على طاولات أخرى وتحدثوا بنبرات خافتة، وعملوا على هواتفهم المحمولة أو أجهزة الكمبيوتر المحمولة الخاصة بهم، يحاولون جاهدين أن يكون أحدهم هو من يحدد أين في العالم تمكنت أهدافهم من الاختفاء.

ظهر نادل مختلف ومعه حساء بطيخ بارد، وراح دي لا روشا يرتشفه بصوت مسموع وهو غارق في التفكير والكآبة. واصل رشف التكيلا بين جرعات المياه المعبأة وملاعق الحساء؛ كان يحدق فقط في الظلام حوله، في رجاله، في النافورة، وفي صنمه على الطاولة في الزاوية. تمايلت الفوانيس الورقية الزخرفية المعلقة عبر الفناء على خطوط فوق رؤوس الرجال مع النسيم.

في غضون دقائق، جاء نادل آخر يرتدي معطفًا أبيض منشى إلى طاولة دي لا روشا؛ كان يدفع عربة بعجلات مغطاة بمفرش وعليها طبق مغطى. بانحناءة خادعة، أخذ الرجل طبق الحساء الفارغ من الطاولة واستبدله بالطبق المغطى.

قال النادل وهو يزيل الغطاء ويضعه مرة أخرى على العربة المتدحرج:

– "صحة وهناء (Buen provecho)."

لم ينظر دي لا روشا إلى الرجل، ولم يرد. أمسك شوكته بيده، ثم نظر بتشتت إلى طبقه وهو يبدأ في تناول عشائه.

انتفضت يده للأعلى وللخلف فجأة.

كان الطبق مغطى بأحشاء حيوانية لزجة، ورأس وهيكل عظمي لسمكة منزوعة العظم تفوح منه رائحة كريهة، وقطع أخرى من النفايات النتنة.

سأل دانيال:

– "ما هذا بحق الجحيم؟"

أجابه النادل باللغة الإنجليزية:

– "هذا يا سيدي، يبدو كقاذورات، وهذا..."

مد يده أمام دي لا روشا، مظهرًا جهازًا يمسكه بقبضته.

– "وهذا يبدو كـ «مفتاح الرجل الميت»."

كان الجهاز بوضوح صاعق تفجير، وكان إبهام النادل يضغط على زر أحمر، ويمتد سلك من الجهاز، عبر راحة كف الرجل، ويختفي داخل معطفه الأبيض.

رفع دي لا روشا بصره إلى النادل.

استغرق الأمر لحظة بسبب الشعر واللحية المشذبين، والبشرة الداكنة والنظارات ذات الإطار الأسود، لكنه عرفه.

إنه الرجل الرمادي.

فتح الأمريكي معطفه وكشف عن سترة بدائية بحبال يتدلى منها قالبان كبيران من مادة صفراء مغلفة بالبلاستيك. بدت مثل أكياس الرمل. قال بصوت هادئ:

– "إذا ترك إبهامي هذا الزناد، ولو لعشر من الثانية، فإن قنبلة نترات الأمونيوم وزيت الوقود هذه ستنفجر، وسيموت كل من هنا. بمن فيهم أنت."

كان إميليو يقف بمحاذاة الحائط؛ ولم يكن يرى سوى ظهر معطف النادل. كان قد تحقق للتأكد من أنه ليس الوغد الوقح نفسه الذي سعل بينما كان رئيسه يصلي قبل بضع دقائق. واطمأن إلى أن هذا نادل جديد، ونأمل أن يكون أكثر احترافية، لذا لم يكلف نفسه عناء الانتباه كثيرًا لتقديم الطعام. لكن الآن لاحظ إميليو أن الرجلين كانا في حديث مع بعضهما. لم يكن من المعتاد أن يتحدث "الزعيم" مع نادل لفترة طويلة كهذه.

خطا إميليو حول جانب الرجل ذي المعطف الأبيض، وعندما فعل، رأى عيني دانيال المتسعتين. وعلى الفور، مد يده داخل سترة بدلته واندفع نحو الطاولة، مدركًا هوية "الرجل الرمادي" في اللحظة نفسها. سحب مسدسه الفنزويلي «زامورانو» عيار 9 ملم وأطاح بكرسي من طريقه ليضغط فوهة المسدس على رأس الغرينغو.

رفع دي لا روشا يديه في الهواء، مذعورًا من أن حارسه الشخصي قد يطلق النار على الأمريكي دون تردد.

– "لا! اهدأ! اهدأ! (Tranquilo!)."

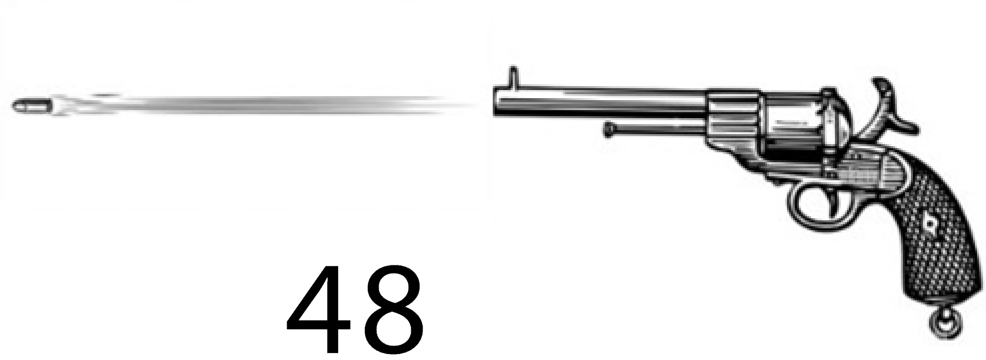
ظهرت الأسلحة في أيدي الجميع في الفناء. مسدسات، ورشاشات، وزوج من بنادق الشوزن ذات القبضة المسدسة. اقترب بعض الرجال من الطاولة بينما تراجع آخرون وصوبوا بعناية. لم يعرف أحد ماذا يفعل، لكنهم جميعًا اتبعوا رغبات قائدهم، وحافظوا على مواقعهم.

– "ليتراجع الجميع بضع خطوات. إميليو، اخفض مسدسك وابتعد، لكن كن مستعدًا. سبايدر، ابق عينك على هذا الغرينغو التافه واقتله إذا حدث لي أي مكروه."

أمسك سبايدر سيبيدا رشاشه الـ «ماك–10» بيد واحدة. ووقف على بعد عشرة أقدام؛ والفوهة مصوبة نحو وجه القاتل الأمريكي.

قال ببطء وثقة:

– "لن تخرج من هنا حيًا أيها الأحمق (Pendejo)."



48

كان كورت جينتري يتجمد من برد لعين. قضى ثلاث ساعات داخل مبرد اللحوم، مرتديًا "بونشو" دافئًا ولكنه ظل جالسًا بلا حراك في زاوية قصية، متخفيًا خلف ذبائح بقر ضخمة تتدلى من السقف. كان قد تسلل إلى المطعم في الثالثة عصرًا مع شحنة الخضروات، حاملًا حقيبتي ظهر خبأهما فوق عربة يدوية محملة بصناديق الفاكهة، ثم قضى ساعتين في غرفة التخزين الجاف قبل أن ينتقل أخيرًا إلى المبرد الضيق بينما كان طاقم العمل المسائي مشغولًا باجتماع وتذوق الأطعمة في صالة الطعام الرئيسية.

انتظر في المبرد حتى وصلته رسالة نصية من ضابط شرطة بالخارج يتقاضى رشاوى من كارتل "البدلات السوداء" و"الفاكيروس" على حد سواء.

انتظر ثلاثين دقيقة أخرى، وجسده يرتجف وأسنانه تصطك ببعضها، ثم غادر المبرد مرتديًا زيًا رسميًا سحبه من رف الكتان، وعثر على عربة طعام متحركة وبعض أحشاء الأسماك الملقاة جانبًا، استخدمها كغطاء لدخوله. ثم، والبرودة لا تزال تنخر عظامه، توجه نحو صالة الطعام بحثًا عن دانيال دي لا روشا.

همس جينتري في أذن دانيال:

– "اؤمر رجالك بالتراجع."

بإيماءة خاطفة من معصمه، أشار "دي لا روشا" لبقية أفراد "البدلات السوداء" بالتراجع بضع خطوات عبر الفناء؛ فكادوا يختفون في عتمة الليل.

لكن كورت رفع يده، وتحدث بصوت مسموع للجميع:

– "ليس الجميع." ثم نظر مجددًا إلى "دي لا روشا". "من من هؤلاء الرجال هو العقل المدبر الحقيقي لعملياتك؟"

تشنج وجه دانيال وكأنه عضلة مشدودة؛ وراقب كورت الشريان السباتي للمكسيكي وهو ينبض بتوتر. تحدث "دي لا روشا" من بين أسنان مطبقة:

– "أنا من يتخذ القرارات كلها."

– "بالتأكيد، أيها العبقري. لكنني وأنت بحاجة للتحدث في العمل، وأراهن أن هناك رجلًا في هذا الجمع تودُّ أن يحضر نقاشنا الصغير." أشار كورت بيده الحرة نحو دمية الهيكل العظمي المحاطة بالشموع في الزاوية. "هذا إلا إذا كانت... دمية الباربي تلك تجيد تدوين الملاحظات." هز رأسه وابتسم، مظهرًا هدوءًا وثقة رجل يمسك بزمام الأمور. "بجدية، ما هذا الهراء بحق الجحيم؟"

بطريقة ما، وجد غضب دانيال وقودًا جديدًا. احمرّ وجهه بشدة حتى تحت الضوء الخافت للفوانيس الورقية المتدلية فوق الفناء. تردد لبضع ثوانٍ، ثم نظر في اتجاه الحشد المظلم من الرجال قائلًا:

– "نيستور، اجلس."

جلس نيستور كالفو على الطاولة بجانب "دي لا روشا". كانت لحيته التي يغزوها الشيب تلمع من أثر العرق المتصبب على جلده.

تفرّس كورت في الرجل الأكبر سنًا للحظة وقال:

– "جميل؛ لقد حضر إشراف الكبار أخيرًا."

جلس "الرجل الرمادي" على الطاولة، وعربة الطعام المتحركة عن يمينه. سأله "دي لا روشا":

– "ماذا فعلت برجل وكالة الاستخبارات المركزية؟"

رد جينتري وهو يهز كتفيه كأن الأمر لا يعنيه:

– "قتلته."

– "والغرينغو من السفارة؟ جيري؟ لقد ساعدك على الهرب، أليس كذلك؟"

– "انسَ أمر جيري؛ فهو مجرد أحمق أمريكي. لديك ما يكفي من الحمقى هنا دون الحاجة لاستيراد المزيد. أعتقد أنك بالغت في تطبيق اتفاقية "نافتا" (NAFTA[11]) قليلًا."

– "ظننتك ستكون بعيدًا جدًا بحلول الآن. لو كان لديك ذرة عقل لهربت. لماذا أنت هنا؟"

– "دعني أشرح لك ما الذي سيحدث لك يا دانيال. وأنت يا نيستور، انتبه جيدًا، لأنني أعول عليك لتكون الطرف العاقل. دانيال، أنا سأدمر تجارتك. سأخرب بيتك؛ سأحرق مخدراتك، وأقتل وسطاءك، وأرهب مورديك، وأحطم قواربك وطائراتك وسياراتك وشاحناتك. سأنتزع كل قرش من أرباح منظمتك، شيئًا فشيئًا، قطعة قطعة."

ابتسم "دي لا روشا" ببرود وقال:

– "إن فعلت ذلك، فسأقتل تلك العاهرة الصغيرة، لورا غامبوا."

– "كلا، لن تفعل، وسأخبرك لماذا. لأنني لن ألمس عائلتك؛ وهذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنك الركون إليه. أنا أريد استعادة لورا، وكل عمليات التفجير التي أعتزم القيام بها هي مجرد "اختبار أداء"؛ لأثبت لك أنني أستطيع الوصول إلى حيث أريد، وفعل ما أريد، وقتما أريد. عليك أن تفكر مليًا وطويلًا في الأماكن التي قد أصل إليها

[11] اتفاقية *NAFTA* هي اختصار *North American Free Trade Agreement*، أي اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية، وُقعت عام 1994 بين الولايات المتحدة، كندا، والمكسيك .تهدف الاتفاقية إلى إلغاء الرسوم الجمركية وتقليل الحواجز التجارية بين الدول الثلاث، لتعزيز التجارة والاستثمار، وتحفيز النمو الاقتصادي في المنطقة.

والأشياء التي قد أفعلها إذا مسست لورا بسوء.. شيء قد يثير غضبي حقًا."

– "أتفعل كل هذا من أجل فتاة؟ بجدية؟"

– "نعم. إذا أعدتها لي، سيتوقف كل هذا الجحيم. ويمكنك العودة لكونك حثالة تتاجر بمخدر "الميث" كما تشاء، ولن أقف في طريقك بعد الآن."

احمرّ وجه "دي لا روشا" غيظًا، وبعد صمت طويل قال:

– "أنت ميت لا محالة يا مأبون. أنت ميت."

هز جينتري كتفيه:

– "اتصل بعشرة من كبار رجالك وقل لهم الشيء نفسه، فمن المرجح أنه في غضون اثنتين وسبعين ساعة، سيكون الكثير منهم قد فارقوا الحياة."

– "أتدرك من نحن يا "رمادي"؟ نحن "البدلات السوداء". كنا إحدى أفضل الوحدات تدريبًا في الجيش المكسيكي، وتدربنا على يد جيشك أنت في الواقع. أنا لست مجرد مهرب مخدرات بسيط من سكان الجبال يرتدي أحذية جلد النعام ويحمل "كلاشينكوف" مثل ذلك النذل مادريغال. لقد تدربت في "فورت بينينج" و"فورت براج"."

– "حين كنت في "فورت براج"، هل رأيت كل تلك القوات شبه العسكرية التي تتدرب هناك؟"

– "نعم، وتدربت معهم. إنهم أفضل الكوماندوز في العالم."

– "أشداء فعلًا، جميعهم بلا استثناء. لكن تذكر هذا: كل واحدة من تلك المنظمات للعمليات الخاصة تضع "قتلي" على رأس قائمة مهامها.. يطاردونني منذ سنوات، ومع ذلك ها أنا أجلس أمامك. أنت لم تواجه قط شخصًا مثلي يا دانيال، ومن الأفضل لك أن تبقي هذه الحقيقة حاضرة في ذهنك."

لم يتكلم نيستور كالفو حتى تلك اللحظة، لكنه الآن هز رأسه وانحنى قليلًا للأمام قائلًا بالإسبانية:

– "ولكن يا سيد، أنت مجرد رجل واحد."

اقترب كورت من نيستور، وثبّت نظراته في عينيه بحدة وصرامة:

– "رجل واحد.. ليس لديه ما يخسره."

نظر "دي لا روشا" إلى مفتاح التفجير التلقائي في يد الأمريكي.

– "أتظنني خائفًا منك؟"

ابتسم جينتري، وبدا سعيدًا حقًا بهذا السؤال:

– "أعتقد أنك مرعوب حد اللعنة. أنا أرى ما وراء قناع "الماتشو" هذا؛ أنت تفكر في عائلتك، وتفكر في الرجال الذين تركتهم حول لورا، وتدعو الله أن تتمكن من الاتصال بهم لإخبارهم بالابتعاد عنها قبل أن يرتكبوا حماقة لا يمكن التراجع عنها. لأنك تعرف ما فعلتُه، وتعرف ما أنا قادر على فعله. لقد تغير كل شيء في عالمك الآن؛ أنت لا تختلف عن آلاف الأوغاد الآخرين على هذا الكوكب؛ نفوذك، نجاحك، قوتك.. كلها نابعة من الخوف. إذا لم تستطع إلقاء الرعب في قلوب الناس، فأنت لا شيء، وستنتهي. حسنًا، خمن ماذا يا صديقي؟ لم تعد أنت أكثر شيء مرعب هنا."

نقر نيستور بأصابعه على الطاولة، وانحنى نحو الأمريكي:

– "أفترض أن لديك خطة للهرب الآن؟"

– "بالفعل." أخرج كورت من جيب سترة النادل هاتفًا محمولًا صغيرًا.

وتابع قائلًا:

– "هناك أربعة أرطال إضافية من متفجرات "الآنفو" مخبأة تحت طاولة في هذه الغرفة. وبينما أغادر المطعم، ما عليَّ إلا ضغط زر واحد" – رفع الهاتف عاليًا – "وسيموت كل من هنا. وبمجرد أن أختفي عن الأنظار، قد ترغبون في التفكير بالركض خارجًا، لأنني لم أقرر بعد

ما إذا كان الأمر يستحق العناء. ربما سأحولكم إلى طعام للكلاب الليلة، وآمل أن يطلق رجالك سراح لورا لأن هناك قانونًا جديدًا يحكم هذه المدينة."

بدا "دي لا روشا" وكأنه سينفجر غضبًا. التفت جينتري عنه ووجه كلماته التالية إلى كالفو، وكأن زعيم "البدلات السوداء" لم يكن موجودًا:

– "عليك أن تُحكم قبضتك على هذا الفتى؛ سيرغب في قلب البلاد رأسًا على عقب ليجدني. لا بأس، دعه يضيع وقته وطاقته. لكن عليك أن تذكره باستمرار بالثمن الفادح الذي ستتكبده منظمتكم بسبب عهد الرعب الذي سأفرضه عليكم. كل ما أريده هو الفتاة، وتسليمها لي لن يكلفكم سنتًا واحدًا. يمكنك أن ترى كيف أن هذا يصب في مصلحتكم، حتى وإن كان هذا الأبله لا يدرك ذلك." نهض كورت واقفًا. "آمل أن يستمع إليك" – أشار إلى تمثال "سانتا مويرتي" في الزاوية – "وليس إلى تلك العجوز الشمطاء المخيفة."

ومع ذلك، رفع جينتري مفتاح التفجير عاليًا بيده اليسرى، والهاتف المحمول بيده اليمنى:

– "اؤمر هؤلاء الأوغاد بأن يدعوني أخرج من هنا."

أومأ "دي لا روشا" برأسه إيماءة طفيفة، وظلت عيناه مسمرتين على الأمريكي. قام كالفو عن الطاولة، وتوجه متجاوزًا النافورة نحو المسلحين في الفناء، آمرًا إياهم بترك "الغرينغو" يغادر دون اعتراض.

قال "دي لا روشا" بصوت خافت:

– "سنلتقي مجددًا يا رمادي."

رد جينتري وهو يهم بالرحيل:

– "إذا حدث ذلك يا دانيال، فسينتهي بك الأمر مثل صديقك المسكين."

مال "دي لا روشا" برأسه مستغربًا، لكن جينتري استدار ومضى خارجًا من الفناء، متجاوزًا صفوف الحراس الشخصيين. وبعد ثوانٍ، غادر المطعم ويداه لا تزالان مرفوعتين في الهواء.

سأل كالفو زعيمه "دي لا روشا" فور عودته إلى الطاولة:

– "ماذا قال لك في غيابي؟" واقترب بقية أفراد الدائرة المقربة من زعيمهم.

– "شيء ما عن انتهائي مثل صديقي." نظر "دي لا روشا" وكالفو إلى بعضهما البعض في صمت للحظة. وسأل دانيال مستشاره الأكبر: "ماذا كان يقصد بذلك؟"

وبحركة مشتركة بطيئة، اتجهت رؤوسهم نحو العربة المتحركة.

– "إميليو، تفحص ذلك."

تقدم إميليو إلى الجانب الآخر من العربة، واستخدم فوهة مسدسه ليرفع طرف مفرش الطاولة الكتاني. ضاقت عيناه وهو يتفرس في المحتوى:

– "إنه رأس يا زعيم."

قال كالفو وهو يرفع حاجبيه بدهشة:

– "أمريكي يقطع الرؤوس.. إنه يظهر لنا أنه يستطيع اللعب وفق القواعد المكسيكية."

سأل "دي لا روشا":

– "رأس من هذا؟"

نظر إميليو مرة أخرى، وانحنى أكثر:

– "أعتقد... أعتقد أنه زافيير غارزا غيرو."

كان غارزا هو أرفع ضابط شرطة في "بورتو فالارتا" تسيطر عليه "البدلات السوداء"، وزميلًا سابقًا لـ دانيال في الجيش. كان "دي لا روشا" يعرف الرجل منذ ستة عشر عامًا؛ يعرف زوجته وأطفاله ووالديه.

نهض "دي لا روشا" هائجًا وصرخ:

– "أبعدوه من هنا!" ثم اندفع نحو سبايدر سيبيدا وأمسك بياقة سترته قائلًا: "اسمعني جيدًا! أريده ملاحقًا، أريده مأسورًا، وأريد تعذيبه بطريقة لم تفعلها بأحد من قبل!"

– "حاضر يا زعيم. لدي رجال في الشارع مستعدون لتعقبه بمجرد خروجك من هنا، وسنمسك به."

– "أقسم لك؛ أريدك أن تصاب بالكوابيس مما ستفعله به! أريدك أن تشعر بالغثيان!"

– "حاضر يا زعيم."

– "اذهب الآن! ولا تريني وجهك إلا ومعك "الرجل الرمادي". أتفهم؟"

– "نعم! نعم!" انطلق سبايدر سيبيدا خارج الغرفة، وهو يرفع هاتفه إلى أذنه أثناء ركضه.

ثم التفت "دي لا روشا" في الغرفة، ووجد إميليو بجانبه تمامًا.

– "ماذا عن رجال فريق التأمين المتقدم الليلة؟"

رفع إميليو لوبيز لوبيز ذقنه قائلًا:

– "لقد جردتهم من سلاحهم بالفعل ووضعتهم تحت الحراسة. والليلة سأحرق هذا المبنى بالكامل، وسأقتل المدير ورئيس الخدم."

– "حسنًا. ولكن هذا فشلك أنت." غرز إصبعه بقوة في صدر قائد قواته الأمنية.

أطرق إميليو رأسه قائلًا:

– "أفهم ذلك يا زعيمي."

التفت "دي لا روشا" نحو كالفو الذي كان يتحدث بالفعل عبر هاتفه المحمول.

– "اتصل بالمنزل؛ أخبرهم ألا يلمسوا تلك العاهرة غامبوا."

أعاد كالفو الهاتف إلى سترته بعد إنهاء المكالمة:

– "تم الأمر."

انفجر الغضب المكبوت داخل "دي لا روشا" ذي التسعة والثلاثين عامًا؛ صرخ وسحب الأطباق والكؤوس من على طاولته، وحطمها بقوة على الجدار الحجري.

اندفع كالفو نحوه قائلًا:

– "دانيال، استمع إلي! اهدأ! كل ما قاله ذلك الغرينغو، وكل ما فعله، كان يهدف للوصول إلى رد الفعل هذا منك! كان يريد إفساد توازنك! لا تنسق وراء خطته! فكّر!"

– "سأتبول على قلبه وهو لا يزال ينبض!"

– "اهدأ!"

– "سأهدأ عندما يقوم أحدهم بواجبه اللعين! لقد سئمت من فشلكم أيها الأوغاد!" استمر في قذف الزجاجات وقلب الطاولات. وحوله، وقف أفراد "البدلات السوداء" يراقبون في صمت؛ لم يجرؤ أحد سوى نيستور على مخاطبته.

وقال نيستور:

– "يمكننا إنهاء هذا يا دانيال! يمكننا إنهاء هذا الآن!"

توقف "دي لا روشا" عن التحطيم، والتفت نحو مستشاره العجوز، ومال برأسه متسائلًا:

– "تريد تسليم الفتاة للغرينغو. تريد التوقف عن البحث عن إيلينا غامبوا."

مد نيستور يده وسوّى ياقة سترة "دي لا روشا" السوداء:

– "أريد وضع حد لهذا الجنون حتى نتمكن من العودة لجني الأموال. جني الأموال للجميع؛ بناء منظمتنا، وتقوية أنفسنا ضد أعدائنا، وحماية أنفسنا من الحكومة ومن الـ—"

– "توقف! توقف عن الكلام الآن يا نيستور، قبل أن أبدأ في فقدان الثقة بك."

– "أنا في خدمتك يا زعيم. ولكن كمستشارك، أشعر أنه من الضروري تذكيرك لماذا نحن هنا، ولماذا نخوض هذه المخاطر. ليس من أجل "غرينغو" عجزت وكالة الاستخبارات المركزية عن قتله أو أسره، وليس من أجل حياة طفل لم يولد بعد لشرطي تعاملنا معه ببراعة منذ أسابيع."

هز "دي لا روشا" رأسه قائلًا:

– "استمع إلي يا نيستور. لديك أوامرك؛ "الرجل الرمادي" يجب أن يموت، وامرأة غامبوا يجب العثور عليها."

دون تنهيدة أو تغيير في تعابير وجهه، أومأ نيستور كالفو ماسياس برأسه:

– "كما قلت، أنا في خدمتك."

– "جيد." التفت "دي لا روشا" إلى رجل آخر من رجاله، قائد عمليات الاختطاف. "روبرتو، انقل امرأة غامبوا، وضاعف الحراسة عليها."

– "حاضر يا سيد."

صرخ مناديًا: "إميليو!" وكان حارسه الشخصي لا يزال خلفه مباشرة. "ضاعف الحراسة حولي."

– "تم ذلك بالفعل يا زعيم."

– "لنرحل إذن، قبل أن يضغط "الرجل الرمادي" على ذلك الزر في هاتفه."

لم يضغط كورت على زر الهاتف المحمول، إذ لم تكن هناك متفجرات مخبأة في فناء المطعم المطل على البحر. فقد أفراد "البدلات السوداء" أثر جينتري وسط زحام "الماليشون"، متنزه شاطئ "بورتو فالارتا" المكتظ. تخلص كورت من زي النادل في أحد الأزقة، ودخل

وخرج من نصف درزن من الحانات والمطاعم، ثم تسلق شاحنة مركونة، وقفز إلى شرفة في الطابق الثاني لمبنى سكني مواجه للشاطئ. سينام الليلة على هذه الشرفة، منكمشاً ككرة على كرسي فناء ناعم، بينما يلفح نسيم البحر وجهه.

تحته، كان رجال "البدلات السوداء" يركضون في الشوارع، ويقودون قوافل من السيارات الرياضية والشاحنات وسط المارة، يمسكون بالأمريكيين ذوي الشعر القصير واللحى الصغيرة، ويدفعونهم نحو الجدران، ويسلطون الكشافات التكتيكية في وجوههم، ثم يتركونهم يكملون طريقهم بإحباط.

كانت الشرطة المحلية مستنفرة هي الأخرى، تطارد "الرجل الرمادي" بناءً على أوامر "البدلات السوداء". تخيل جينتري أن الخبر قد وصل الآن إلى وكالة الاستخبارات المركزية، وأن أي فرق عمليات سوداء أمريكية في المنطقة تتعقبه ستكون في طريقها الآن إلى وسط "بورتو فالارتا".

وتساءل عما إذا كان غريغور سيدورينكو لديه عملاء في المكسيك يطاردونه أيضًا. فإذا استطاعوا العثور عليه في غابات الأمازون، فمن المؤكد أن زعيم المافيا الروسي سيرسل فريقاً إلى هنا.

لكن لم تكن أي من هذه القوات تملك القدرة على تفتيش كل شقة في المدينة بأكملها. هو بأمان هنا لليلة واحدة، وبحلول الصباح سيفقدون الأمل، وسيقنعون أنفسهم بأنه أفلت من شبكتهم مرة أخرى.

تصفح كورت رسائل البريد الإلكتروني على هاتفه، وكلها مرسلة من هيكتور سيرنا، رئيس استخبارات كارتل مادريغال. كانت كل رسالة بمثابة كنز من المعلومات؛ عنوان بنك في مدينة مكسيكو، ورقم ذيل طائرة شحن معروفة بنقل "الميث" والهيروين لصالح "البدلات السوداء"، وعناوين أو إحداثيات أقمار صناعية لبيوت آمنة،

ومستودعات، ومواقف لسيارات مملوكة جميعها لمنظمة "دي لا روشا".

كانت قائمة أهداف كورت تفيض بالفرص.

أرسل رسالة نصية إلى سيرنا، يطلب فيها بعض الأدوات التي سيحتاجها في اليوم التالي. وبمجرد رد سيرنا بتفاصيل عملية تسليم البضائع، وضع كورت الهاتف في جيبه وتطلع إلى النجوم.

سمع صوت مواجهة أخرى في الأسفل؛ رجال غاضبون يصرخون في وجوه مدنيين مرتبكين.

كان جميع قتلة سبايدر يرتعدون منه، وبالتأكيد كان سبايدر يرتعد من دانيال.

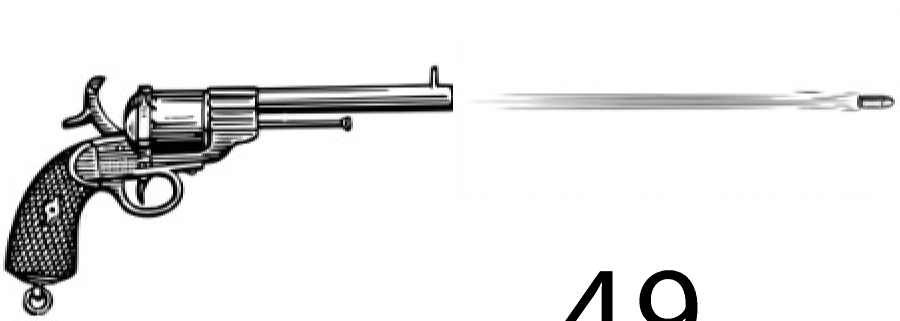
أما كورت، فقد كان يعمل بمفرده، مما حرره من شكوك الآخرين داخل المنظمة، ببساطة لأنه لا يملك منظمة. كان رجلًا وحيدًا، بلا أصدقاء أو رفاق مقربين.

يجب أن أشك في الجميع، وألا أثق بأحد.

كان يفضل هذا على العمل لصالح مجموعة قد تنقلب عليه في لحظة؛ فقد حدث له ذلك في الماضي. وكان يفضل هذا على العمل لصالح مسؤول "مُشغّل" يخدعه ويغدر به؛ فقد حدث له ذلك في الماضي.. مرتين.

استلقى كورت على أريكة "الساج" الوثيرة، وتأمل جمال الليل فوقه، متجاهلاً أصوات الأبواق والقتلة في الأسفل، مدركًا أن هذه ستكون آخر قسط من الراحة الحقيقية له لليالٍ طوال قادمة.

وفكر في لورا.



49

كانت عزبة دانيال دي لا روشا، القابعة في عمق أحد الأخاديد عند سفح جبال سييرا ديل تيغري، هي الأضخم والأكثر فخامة بين أملاكه. أطلق عليها اسم «هاتسييندا ماريسيلا» (عزبة ماريسيلا)، تيمّنًا بابنته الصغرى، وكان يأتي إليها للاسترخاء كلما سمحت رحلاته بذلك. في الوقت الحالي، كانت زوجته وأطفاله في منزلهم بمدينة كويرنافاكا؛ فذلك المنزل أنسب للأطفال، هكذا فكر دانيال، الذي كان حريصًا على إبقاء تماثيل «سانتا مويرتي» بعيدة عن ذلك العقار تحديدًا، ولو من باب استرضاء زوجته الكاثوليكية الورعة.

كانت «هاتسييندا ماريسيلا» قصرًا ضخمًا يعود طرازه لمطلع القرن العشرين، ونُزُلًا للصيد يحيط به مائتا هكتار من الغابات الخاصة. وفرت بلدة مازاميتلا المجاورة قوتها الشرطية لدعم المائة رجل من فريق الأمن الذين يحميون قيادات «البدلات السوداء» عند إقامتهم في السكن، كما توفر مهبط خاص للطائرات، ومهبط للمروحيات، وطريق معبد تنتشر فيه نقاط التفتيش ويؤدي خارج الأخدود صعودًا إلى الطريق السريع نحو غوادالاخارا، مما أمن وصولًا سهلًا وآمنًا لـ دانيال ورجاله.

حتى أن رجال دي لا روشا بنوا محطة توقف على خط السكة الحديدية الذي يمر عبر الغابة، ليتسنى تسليم البضائع الكبيرة عبر قطارات الشحن.

كانت العزبة أيضًا المكان المفضل لـ دانيال للتدرب مع رجاله. كانت هناك جدران تسلق صخرية، وميادين حواجز، وبرج للإنزال بالحبال، وميدان رماية خارجي للمسافات البعيدة، وصالة فنون قتالية (دوجو)، وعدد لا يحصى من الفرص الأخرى لرجال الجيش السابقين لصقل مهاراتهم القتالية. كان دي لا روشا يحلّق بطائرته المروحية من طراز «يورو كوبتر» عبر الأخاديد والوديان، مثيرًا رعب رجاله بطيرانه الذي يتحدى الموت.

في الصباح التالي للعشاء في بويرتو فالارتا، كان دي لا روشا وسبايدر يتدربان في ميدان الرماية الداخلي الضخم بالعزبة. وقف عدد من رجال سبايدر يراقبون، بينما وقف إميليو لوبيز لوبيز خلف "زعيمه" مباشرة، يحميه حتى هنا، في عقر داره.

كان خافيير ودانيال يطلقان النار ببنادق رشاشة حديثة من طراز «FN P90» على أشكال بشرية مطاطية بحجم طبيعي معلقة بخطافات تتحرك على مسارات غائرة في السقف الفولاذي المضاد للرصاص بميدان الرماية. كانت الأهداف تخرج واحدًا تلو الآخر من خلف أبواب فولاذية متأرجحة في الجدار الخلفي للميدان، على بعد أربعين ياردة. وكأنهم مسلحون مهاجمون، كانت الأهداف البشرية تندفع للأمام، تنحرف يسارًا ويمينًا قليلًا، بل وتتوقف خلف سواتر منخفضة من خشب الصنوبر موضوعة على مسارات متحركة بالأرضية.

تناوب سيبيدا ودي لا روشا إطلاق النار على الأهداف المتحركة، عشرات المرات لكل منهما، قبل أن تنحرف الأهداف جانبًا، لتستبدلها موجة تالية من "المهاجمين"، القادمين من الجوانب أو القافزين من خلف الجدران الخرسانية.

كان نظامًا متطورًا للغاية، كلف ملايين الدولارات، حتى أن دانيال وظف موظفِين متفرغين لإدارة الميدان ويعيشان في الملكية.

بسرعة، فرغ سلاح دانيال أثناء إطلاقه النار على هدف يمر قريبًا من اليسار إلى اليمين. أفلت الـ «P90» من يديه؛ فسقطت البندقية وتعلقت مشدودة بالحمالة حول عنقه. مد دي لا روشا يده إلى سترته السوداء، وسحب مسدسه عيار 45، وأفرغ أربع طلقات في الرأس البشري الشكلي قبل أن يختفي عن الأنظار.

صاح أحد أفراد «البدلات السوداء» خلفه:

– "هذا هو الرجل الرمادي يا زعيم!"

وهلل الآخرون.

ابتسم دانيال، وخلع واقيات الأذن عن رأسه قائلًا:

– "أتمنى ذلك. لو حصلت على فرصة أخرى معه، فهذا ما سأفعله! سبايدر خذلني الليلة الماضية وسمح للغرينغو اللعين بالخروج من بويرتو فالارتا حيًا. كلكم خذلتموني!"

نظر قتلة سبايدر إلى الأرض أو إلى السقف حرجًا.

تابع دانيال:

– "بمجرد أن يلتقط عملاء كالفو طرف خيط عن مكانه، سأطردكم جميعًا أيها الحمقى ورجالكم إلى الشارع، ومن الأفضل أن تكون مهارتكم في الرماية بجودة مهارتي."

أومأ الرجال برؤوسهم وسط صمت مطبق.

رفع سبايدر بندقيته الـ «P90» عن الطاولة، وعاد للوقوف عند خط الرماية، لكن إميليو لوبيز لوبيز ربت على ظهر رئيسه قائلًا:

– "دانيال. الآن وقد قمت بالإحماء، الأهداف التالية لك أيضًا."

خفض سبايدر بندقيته وتراجع. هز دي لا روشا كتفيه وأعاد تلقيم مسدسه وبندقيته الرشاشة.

أومأ إميليو لمسؤول الميدان الجالس في كشك عند الجدار الجانبي. ضغط الرجل مفتاحًا، فانفتح البابان في الجدار الخلفي، وجلبت الخطافات المثبتة بالسقف أهدافًا جديدة إلى ميدان الرماية.

لكنها لم تكن أهدافًا شبيهة بالبشر.

بل كانوا بشرًا. رجلان، وجهاهما مهشمان من الضرب، وأفواههما مكممة بالقنب الخشن، وأيديهما مقيدة خلف ظهورهم، وأجسادهما تتدلى بحبال من الخطافات، مربوطة بإحكام حول أكتافهم مما جعلهم يتلوون ألمًا من شدة الجاذبية.

قال إميليو:

– "يا زعيم. هذان اثنان من الرجال المسؤولين عن فريق المقدمة في عشاء الأمس بـ بويرتو فالارتا. بعد ساعات من الاستجواب الليلة الماضية، توصلنا إلى أنهم لم يكونوا يعلمون بوجود «الرجل الرمادي» في المبنى. ومع ذلك، وبسبب فشلهم، أمرتهم بأن يدفعوا الثمن بحياتهم."

خفض دي لا روشا بندقيته، وأومأ ببطء سائلًا:

– "ماذا عن بقية فريق المقدمة؟"

– "مات اثنان آخران أثناء استجوابي لهما. واثنان آخران كانا من العناصر المبتدئة المتمركزة في قاعة الطعام الرئيسية ولم يكونا جزءًا من عملية المسح المسبق للمنشأة. لا أحملهم المسؤولية."

توقفت الخطافات التي تحمل الرجلين المعلقين في وسط الميدان، وتدلت أقدامهما على ارتفاع قدم عن الأرض. تأرجحت الأهداف البشرية جيئة وذهابًا تحت الخطافات.

قال دانيال:

– "أنت تحمل المسؤولين عن الفريق الخطأ."

– "بالطبع يا دانيال."

– "إميليو. هؤلاء رجالك. أنت اخترتهم؛ وأنت دربتهم؛ وأنت أرسلتهم إلى المطعم. أنت المسؤول."

تلعثم لوبيز.

تابع دانيال:

- "أنت تؤمن بالمحاسبة، أليس كذلك؟"

- "بالطبع يا دانيال. أنا أحاسبهم..."

- "أنا أحاسبك أنت. يجب أن تكون معلقًا هناك معهم."

نظر إميليو إلى "زعيمه". لم يحرك عضلة واحدة.

كان سبايدر قد وضع بندقيته على الطاولة، لكنه سحب مسدسه ببطء وأمسكه بجانبه؛ قائد قتلة «البدلات السوداء» يتحدى قائد الحرس الشخصي لـ «البدلات السوداء» أن يجرب أي حركة.

نظر إميليو إلى سبايدر. وتجاوز صدمته قائلًا:

- "لا داعي لذلك. لدي مسدس عيار 9 ملم داخل معطفي في حمالة الكتف. هل أنزعه أم تريد أن يأخذه أحد رجالك؟"

أشار سبايدر بيده الفارغة لأحد رجاله بالتقدم. وقف القاتل خلف إميليو، ومد يده داخل معطفه، وسحب المسدس.

قال إميليو بصوت هادئ، رغم أن ارتعاش شفتيه فضح مشاعره:

- "أطلب منك إعادة النظر يا زعيمي."

- "لقد خدمتني جيدًا يا صديقي."

- "لقد... لقد كان شرفًا لي."

- "من المؤسف أن يأتي غرينغو تافه ويفسد كل شيء."

- "يا زعيمي، لو أعطيتني فرصة واحدة فقط..."

أطلق دانيال دي لا روشا النار على رأس إميليو في مكانه. وفي حركة واحدة، استدار دي لا روشا، وانخفض متخذًا وضعية رماية، وأرسل طلقتين من مسدسه عيار 45 إلى رأس كل من رجليه المقيدين والمتلويين على بعد عشر ياردات في عمق الميدان. سكنت حركتهم، لكن ارتطام الطلقات جعل أجسادهم تتأرجح جيئة وذهابًا.

رقد إميليو لوبيز لوبيز متكورًا عند قدمي دي لا روشا.

وقف دانيال وقال:

– "فرصة أخرى؟ الحارس الشخصي لا يحصل على فرصة أخرى. لقد تعرضت للخطر مرتين في الأسبوع الماضي."

لم ينطق أحد من القتلة بكلمة.

أخيرًا، أعاد دانيال مسدسه إلى غمده وصاح:

– "سبايدر؟"

– "نعم يا زعيمي."

– "أنت حارسي الشخصي الآن."

– "شكرًا لك."

– "لا تشكرني. هل رأيت ما يحدث إذا فشلت مرتين؟"

– "لن أخذلك مرة أخرى."

ترجل المصرفي من طائرة «فيرتشايلد مترولاينر» ذات التسعة عشر مقعدًا، ونزل إلى مدرج المطار في مانزانيلو، التي تقع على بعد ساعتين جنوب بويرتو فالارتا على ساحل المحيط الهادئ. كانت الشمس ساطعة في كبد السماء، فأنزل المصرفي نظارته الشمسية من ماركة «موس ليبو» –التي تبلغ قيمتها 4800 دولار– من أعلى رأسه لحماية عينيه.

كانت سيارة ليموزين بانتظار المصرفي وحارسيه الشخصيين؛ كانوا الركاب الوحيدين على متن الطائرة، لذا بعد أن أخذ وقته في مصافحة الطيار ومساعده، نزل المصرفي الدرج، وكانت حقيبته الجلدية من ماركة «بينيدير» –بقيمة 3000 دولار– هي أمتعته الوحيدة.

اقترب من الليموزين، وفتح السائق الباب الخلفي له. مال المصرفي بجسده ليدخل السيارة، لكنه هوى فجأة للأمام؛ انفجر صدره وتناثرت أشلاؤه على التصميم الداخلي الفاخر من الجلد،

وتلطخت كؤوس الكريستال الطويلة، وسالت الدماء على النوافذ المعتمة.

طارت نظارته الشمسية عن رأسه وتدحرجت عبر أرضية السيارة. وسقطت حقيبته الجلدية من يده وارتطمت بالإطار الخلفي لسيارة الليموزين.

انزلق جسده البدين للخلف عن الجلد اللزج، ثم ارتطم وجهه بمدرج المطار.

قفز الحارسان فوقه بمجرد أن أدركا ما حدث، لكن الأوان كان قد فات.

لم يكن بوسع الحراس فعل شيء الآن سوى حراسة الجثة.

على بعد أربعمائة ياردة، أغلق «الرجل الرمادي» أخمص بندقية «ساكو» القابلة للطي؛ وفي ثوانٍ كان السلاح مخبأً في حقيبة قماشية، وألقيت الحقيبة على أرضية مقعد الراكب في شاحنته الصغيرة السوداء من نوع «مازدا».

لقد قتل المصرفي بطلقة واحدة. كانت رصاصة «لابوا .338» قوة مفرطة لمسافة أربعمائة ياردة فقط -إذ يمكن الاعتماد عليها لإسقاط رجل من مسافة تزيد عن ستة أضعاف ذلك- لكن جينتري وجد الكوخ على التلة القريبة من مدرج المطار مناسبًا لاحتياجاته، وكانت الـ «ساكو» هي السلاح الوحيد بعيد المدى الذي أعطاه إياه هيكتور سيرنا.

لم يكن قلقًا بشأن القوة المفرطة؛ كان قلقًا بشأن النتيجة. وكانت النتيجة واضحة.

بأقل من أونصة من الرصاص، قضى على ستة عشر عامًا من الخبرة في غسيل الأموال.

نعم، كان لدى دانيال دي لا روشا مصرفيون آخرون، ولم يكن هناك نقص في الرجال المؤهلين في المكسيك المستعدين والراغبين في

استبدال الجثة التي ترقد الآن على ظهرها فوق المدرج بينما يحاول حارس شخصي مذعور إجراء تنفس صناعي بلا جدوى. لكن موت المصرفي كان ضربة قوية للجانب المالي من المؤسسة.

لم يضيع كورت ثانية واحدة في الشعور بالندم أو الأسف. لا، بل نظر إلى ساعته وضغط بقوة أكبر على دواسة الوقود.

كان لديه مهمتان أخريان عليه إنجازهما قبل انتهاء اليوم.

– "قُتل غيلبرتو مورينو برصاص قناص عند ظهيرة اليوم."

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً، وكان دي لا روشا يركع أمام أيقونة «سانتا مويرتي». كان يصلي بصمت في مصلاه الخاص هنا في «هاتسييندا ماريسيلا»، لكن نيستور كالفو دخل الغرفة خلفه، وتبادل النظرات مع سبايدر، ثم نادى بالخبر السيئ لـ "زعيمه" الراكع.

– "الرجل الرمادي؟"

– "بكل تأكيد. وكانت تلك مجرد الطلقة الافتتاحية. في الخامسة والنصف، أدى انفجار صغير إلى إشعال النار في أحد مستودعاتنا في كوليما؛ مما دمر شحنة كاملة من الإيفيدرين القادم من الهند. سيؤخر ذلك إنتاج الـ (فوكو) لمدة أسبوع."

قال دانيال، وعيناه لا تفارقان تمثال الهيكل العظمي أمامه:

– "اللعنة. إنه يعمل بسرعة."

– "ثم ضرب مرة أخرى قبل دقائق فقط."

– "أين؟"

– "في كوليما أيضًا. اختطف شاحنة تحتوي على معجون الخشخاش. وقتل السائق. وتمت قيادة الشاحنة لتسقط من فوق جرف."

– "كم كانت كمية المعجون؟"

هز كالفو كتفيه:

– "شحنة الهيروين لم تتضرر بشدة مثل الـ (فوكو)... ربما نحتاج يومين لتعويض الإنتاج."

صلى دانيال للحظة أخرى، وكتم كالفو تنهيدة. حافظ على وجهه خاليًا من التعابير؛ كان سبايدر ينظر إليه، ولم يكن بحاجة لأن يخبر سبايدر رئيسهما بأن مستشاره القديم منزعج من مظاهر ولاء دانيال للدمية البكماء في خزانة الزاوية.

نظر دي لا روشا إلى «سانتا مويرتي» وقال:

– "إنها غاضبة."

هز كالفو رأسه:

– "لا يا دانيال. هو الغاضب. الأمر يتعلق بالرجل الرمادي، أتتذكر؟"

وقف دانيال، وسار عبر مصلاه المظلم نحو مستشاره.

– "رجل واحد، في يوم واحد، يؤثر على عملياتي المالية، وعمليات الهيروين، وعمليات الميثامفيتامين."

– "نعم يا دانيال."

– "أثق بأن لدينا رجالًا في كوليما يبحثون عنه؟"

– "قوة الشرطة بأكملها بالإضافة إلى أصول أخرى في المنطقة. لكنني أفترض أن الرجل الرمادي قد رحل الآن."

– "رحل إلى أين؟"

هز كالفو كتفيه:

– "لا أعلم. لكنني أتساءل عما إذا كان سيلاحق جوانب أخرى من مؤسستنا. الماريجوانا، النقل، الطائرات، الشحن، الاختطاف. طالما هو حي، لن نعرف أين سيظهر تاليًا."

– "من يزوده بالمعلومات الاستخباراتية حول مؤسساتنا؟"

– "شخص على دراية بالنطاق الكامل لعملياتنا. أود القول إنه إما شخص في الشرطة الفيدرالية أو ربما حتى شخص في كارتل مادريغال."

– "أنا أعرف أنه مادريغال."

– "أنت لا تعرف ذلك."

خرج دانيال من الغرفة، وسبايدر يتبعه عن كثب. ولحق بهم كالفو.

كرر دانيال لـ نيستور:

– "إنه مادريغال."

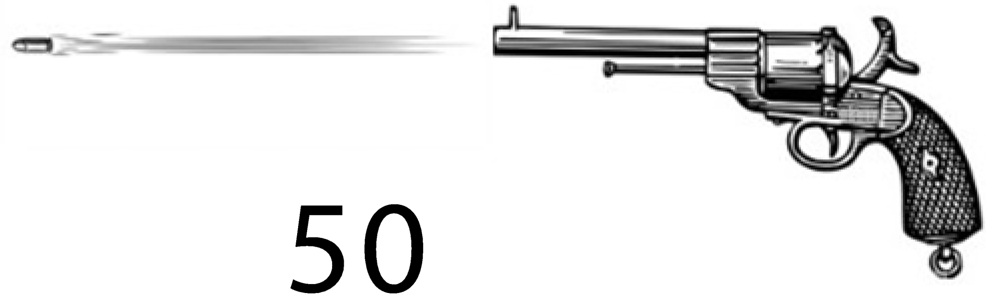
– "هي أخبرتك بذلك، أليس كذلك؟"

توقف دانيال في الممر. والتفت إلى كالفو، وأخذ سبايدر موقعه بجانب رئيسه.

قال دي لا روشا:

– "معلوماتها أثبتت أنها أفضل من معلوماتك في هذا الشأن أيها المستشار. سيكون من الجيد أن ترفع من قيمتك لدي."

استدار دانيال وسبايدر مرة أخرى واختفيا في الممر.



50

اتخذ جينتري ملاذه في منجم فضة مهجور بالقرب من لا روزا بلانكا؛ وهي بلدة جبلية صغيرة تقع على مسافة قريبة من مدينة غوادالاخارا، وتتمتع بمنافذ تؤدي إلى ساحل المحيط الهادئ ومدينة مكسيكو، حيث لا يفصلها عنهما سوى بضع ساعات من القيادة. كان هيكتور سيرنا قد جهز جينتري بشاحنة "مازدا" قديمة، واستخدم كورت مدخل نفق منجمي أفقي مهجور منذ زمن بعيد في جوف الجبل لإيواء السيارة خلال الليل.

زار كورت متجرًا لمعدات التخييم في غوادالاخارا وابتاع معدات بآلاف الدولارات كي لا يقاسي برد الليالي الجبلية القارسة. كان موقده الغازي، وخيمته الصغيرة، وأطعمته المجففة، وآنية المياه الضخمة كافية لسد احتياجاته. أما المولدات التي تعمل بالبطاريات، فكانت تحافظ على شحن هواتفه المحمولة وجهاز تحديد المواقع (GPS)، فضلًا عن توفير الضوء الذي يحتاجه للعمل على مشاريعه المتعددة فوق الأرض الباردة بجوار شاحنته.

كان لدى كورت الكثير من المشاريع التي يعكف عليها داخل نفق المنجم.

وكان لديه أيضًا الكثير من الأهداف التي يعتزم ضربها في أنحاء غرب المكسيك. فخلال اليومين الماضيين، ظل منهمكًا في عمله؛ حيث اغتال أحد زعماء المناطق التابعين لـ "البدلات السوداء" في ناياريت،

ودمر طائرتين في مطار بمدينة تبيك مملوكتين لـ "دي لا روشا"، وأحرق مستودعًا في شمال شرق ماغدالينا.

والآن، حلّ صباح اليوم الرابع من حربه الشاملة على "البدلات السوداء". لم يخلد للنوم إلا بعد الثالثة فجرًا، ومع ذلك استطاع خطف بضع ساعات من النوم المتقطع داخل كيس نومه في حوض الشاحنة. استيقظ مرتين مذعورًا بسبب أصوات قريبة؛ وفي المرتين قبض على إحدى بنادقه من طراز "كلاشينكوف" وخرق عتمة المكان بالكشاف التكتيكي المثبت في مقدمة البندقية، ليشاهد مخلوقات فرائية تقفز هاربة نحو أعماق المنجم المظلمة.

ورغم بدايته المتأخرة ذلك الصباح، كان لدى كورت خطط كبيرة لهذا اليوم. زوده هيكتور سيرنا بمعلومات استخباراتية عن مواقع "البدلات السوداء" في المنطقة، فحددها جينتري على جهاز الـ GPS الخاص به، واضعًا سلسلة من النقاط المرجعية التي ستقوده إلى كل هدف في طريقه نحو الوجهة الأبعد في رحلته. كان يأمل – إذا حالفه الحظ – أن يصل إلى خمسة مواقع قبل نهاية يوم عمله؛ ولم يكن يتوقع العودة إلى منجمه قبل منتصف الليل، رغم أنه لم يكن واثقًا مما إذا كان سيجد شيئًا يدمره أو "سترات سوداء" يقتلهم في كل محطة. كان عليه أن يزن كل عملية تخريب يخطط لها مقابل احتمالات الموت أو الأسر، وأن يختار مواقع تضمن له خروجًا سريعًا ونظيفًا.

قبل الظهر، دخل منطقة مستودعات في غوادالاخارا وراقب عدة عربات قطار تفرغ صناديق أكد له سيرنا أنها تحتوي على مخدر "الماريجوانا" المزروع جنوبًا في تشياباس وغواتيمالا. راقب كورت المشهد من بعيد بمنظاره، وبدا له أن معلومات سيرنا دقيقة، لكن الشاحنات المحملة ظلت متوقفة داخل أسوار المحطة المحصنة لأكثر من ساعة. حاول التقاط إشارات اللاسلكي من أجهزة الرجال الواقفين بجانب الشاحنات، لكن أجهزتهم كانت تستخدم نوعًا من التشفير، ولم

يستطع كورت فهم ما يكفي من حواراتهم لمعرفة سبب التأخير. كان ينوي مهاجمة الشاحنات على الطريق السريع، لكنها لم تظهر أي بادرة للحركة حتى الثانية ظهرًا. وبكثير من التردد، قرر إلغاء المهمة، متلهفًا للانتقال إلى النقطة التالية وتفجير شيء ما قبل انقضاء اليوم.

كان الموقع الثاني مخيبًا للآمال أيضًا؛ إذ كان بيتًا آمنًا لـ "البدلات السوداء"، لكنه عندما اقتحمه محطمًا الباب وفتش الغرف ببندقيته، لم يجد فيه أحدًا، ولا مخدرات، ولا سلاحًا، ولا مالًا. فكر في إحراق البيت، لكنه كان يقع في شارع سكني بحي زابوبان بمدينة غوادالاخارا، ولم يكن واثقًا من قدرته على منع النيران من التهام المربع السكني بأكمله. لذا، عاد إلى شاحنته وانطلق مسرعًا نحو الشرق.

كانت هناك ثلاث وجهات أخرى على قائمة مهامه؛ وتمنى من كل قلبه أن يجد ما يستحق التدمير في واحدة منها على الأقل. نظر إلى جهاز الـ GPS.

المحطة التالية: بيت آمن آخر لـ "البدلات السوداء" في تشابالا.

أمل كورت ألا يكون هذا الموقع خاويًا كسابقه.

كان دانيال دي لا روشا نائمًا على أريكة وثيرة في الشرفة الباردة المطلة على غرفته. كان يحب الشعور بالهواء الطلق؛ فهذا يذكره بأيامه في الجيش، وإن كان الجيش لا يوفر له النوم في شرفة غرفة رئيسية فاخرة داخل مزرعة "هاسيندا" تمتد على مساحة مائتي هكتار من أملاكه الخاصة.

كان سبايدر خلفه، داخل غرفة النوم، جالسًا على كرسي ذي ظهر مرتفع قبالة الباب، وبندقيته من طراز M4 مستقرة فوق حجره، بينما برزت مخازن رصاص إضافية من حقيبة بجانبه.

ودون سابق إنذار، اقتحم نيستور كالفو ماسياس الغرفة. قفز سبايدر واقفاً وهو يرفع سلاحه، لكن الرجل العجوز تجاهله واندفع متجاوزًا إياه، صارخاً في وجه زعيمه النائم في الشرفة:

– "لقد ضرب "الرجل الرمادي" البيت الآمن في تشابالا!"

اعتدل دي لا روشا في جلسته ببطء وفرك عينيه قائلًا:

– "تشابالا؟ يا إلهي! هل سرق الأموال التي خبأناها هناك؟"

رد كالفو:

– "لم يسرقها، بل أحرقها."

لعن "دي لا روشا" بغضب وهو يفرك وجهه:

– "يا للعنة! كم كان المبلغ؟"

– "كله. كان لدينا قرابة سبعة عشر مليون دولار أمريكي معبأة في منصات بانتظار تحويلها إلى البنوك. سأحصل على الأرقام الدقيقة من قسم المحاسبة وأوافيك بها."

– "وأحرقها ببساطة؟ أشعل فيها النار فقط؟"

– "نعم."

– "وماذا عن الرجال الذين كانوا يحرسون—"

قاطعه كالفو:

– "واحد قُتل، وآخر مفقود نفترض أنه—"

صرخ دانيال:

– "والباقون؟ بالتأكيد كان لدينا أكثر من رجلين لحراسة سبعة عشر مليون دولار!"

– "كان هناك اثنا عشر رجلًا. الباقون أحياء؛ لم يدركوا وجود أي مشكلة حتى اندلعت النيران. لم يروا "الرجل الرمادي" قط."

التفت دانيال إلى سبايدر وقال ببرود قاتل:

– "أعدم كل هؤلاء الأوغاد الأغبياء فورًا."

أجاب سبايدر:

– "أمرك." ثم انحنى نحو الردهة وأصدر أوامره لأحد أتباعه، حاسمًا مصير الناجين من حرس بيت تشابالا.

قال كالفو بنبرة فيها شيء من الرجاء:

– "دانيال. خلال أربعة أيام، نفذ هذا الرجل قرابة اثنتي عشرة عملية ضدنا. وبتقدير متحفظ، أرى أن خسائرنا في رأس المال والإنتاج تقترب من خمسين مليون دولار."

– "هل يكلفني أكثر من اثني عشر مليون دولار يوميًا؟"

– "هذا بتقدير متحفظ."

– "ولكن إلى متى يمكنه الاستمرار؟"

تحدث سبايدر بصراحة:

– "يا زعيم. منظمتنا مصممة لمواجهة الجيش، والشرطة الفيدرالية، والكارتلات المنافسة بفعالية. لكننا أقل تجهيزًا لملاحقة رجل واحد يمتلك مهارة "الرجل الرمادي" وقدرته على الحركة. لا توجد وسيلة لمعرفة المدى الذي يمكنه بلوغه قبل أن نمسك به."

تدخل كالفو قائلًا:

– "نعتقد أنه من المحتمل أن يحصل على معلوماته من كارتل مادريغال، لكننا لا نملك دليلًا على أنه يعمل معهم رسميًا."

– "ذكرني باسم نظيرك في "الفاكيروس"."

– "هيكتور سيرنا كامبوس."

– "صحيح. اتصل به، وأخبرهم أنها الحرب."

قال كالفو محاولًا الاعتراض:

– "دانيال، الدخول في حرب مع مادريغال الآن لن يكلفنا إلا المزيد من المال. لا يمكننا—"

صرخ دي لا روشا وهو يندفع من الشرفة إلى داخل الغرفة:

– "لا تخبرني بما لا يمكنني فعله! إنهم يحاربونني بالفعل الآن، عبر هذا الرجل الواحد!"

– "لسنا متأكدين تمامًا!"

صرخ دي لا روشا مجددًا، وتطاير الرذاذ من فمه في نوبة غضب عارم:

– "أنا متأكد! لقد كان هذا الرجل بين يدي! كان أمامي مصفدًا بالأغلال! كان بإمكاني ضغط الزناد وإنهاء هذا الجنون منذ أسبوع! لماذا لم أفعل؟ لماذا لم أقتل ذلك النذل؟ لقد خسرت الكثير من الرجال لأنني لم أضغط الزناد!"

قال كالفو:

– "سيستمر في قتل رجالك إذا واصلت مطاردته. إنه بارع جدًا!"

استعاد دي لا روشا السيطرة على نفسه، وأخذ أنفاسًا عميقة، ثم فرك مؤخرة عنقه وأشار بيده مستهينًا:

– "لا يهم. الرجال يسهل تعويضهم. أما الكبرياء؟ فالكبرياء شيء يصعب التخلي عنه."

ثم التفت إلى سبايدر:

– "لقد اتخذت قراري. اعتبارًا من هذه اللحظة، هي حرب شاملة على "الفاكيروس"."

– "مفهوم يا سيد."

نظر سبايدر في عيني زعيمه وسأل:

– "أينما وجدناهم، في أي مكان في البلاد..."

أكمل دانيال:

– "يُقتلون."

لم يستسلم كالفو بعد، وقال:

– "دون دانيال. أتوسل إليك أن تستمع لي. سبايدر يريد الحرب مع مادريغال فقط ليثبت لك أن رجاله يستطيعون القتال. هم عاجزون عن قتل "الرجل الرمادي" بسبب دهائه ومهارته، لكنهم يستطيعون قنص بضعة رعاة بقر في الشوارع."

حدق سبايدر في نيستور بنظرة أرعبت الكثيرين قبل أن يقطع رؤوسهم:

– "يا زعيم، العجوز يريد تجنب الحرب مع "الفاكيروس" لأنه أصبح ليناً. لقد كنا متساهلين أكثر من اللازم في تعاملنا مع مادريغال لفترة طويلة، وانظر كيف يكافئنا ذلك "الراعي السنالوي"! سنقاتلهم حتى يقتلوا "الرجل الرمادي" أو يسلموه لنا. سيجعل رجالي ميادينهم تصطبغ بدمائهم، وخلال أسبوع سيدرك ذلك "الراعي" أن القاتل الأمريكي ليس إلا عبئًا على عملياته. حينها يمكننا التراجع، إذا أمرت بذلك."

كان دي لا روشا يؤمئ برأسه قبل أن ينهي سبايدر كلامه. التفت إلى كالفو قائلًا:

– "نيستور. أريدك أن تتصل بنظيرك في "الفاكيروس". أخبره أننا نعرف أنهم يحركون "الرجل الرمادي"، وأننا نعتبر هذا إعلان حرب شاملة على مناطق نفوذنا. سنحملهم مسؤولية الخسائر في الأرواح والممتلكات، وسيكون ردنا قاسيًا طالما بقي "الرجل الرمادي" على قيد الحياة."

كان نيستور يشعر بالغضب والإحباط، لكنه لم يتردد؛ فقد كان يمتلك "بارومترًا" دقيقًا لقياس أمزجة زعيمه، ويعرف أن هذا ليس وقت الجدال.

– "حاضر يا دانيال. سأتصل بـ هيكتور سيرنا فورًا وأبلغه أننا في حالة حرب، وسأعطيه الشروط التي نقبل بها السلام."

وقع الهجوم الأول بعد ثلاث وثلاثين دقيقة فقط. تلقى اثنان من القتلة المأجورين الصغار في مازاتلان – كانا مكلفين بمراقبة أحد المساعدين المحليين في منظمة مادريغال – الرسالة النصية التي تعلن فتح باب الصيد ضد "الفاكيروس". وعلى الفور، قاما عن طاولتهما في

مقهى مفتوح، وألقيا الأطباق الورقية الملطخة بصلصة "التامالي" في القمامة، ودخلا متجر المجوهرات عبر الشارع، وأرديا الرجل الذي كانا يتعقبانه قتيلًا، ومعه زوجته واثنان من حراسه الشخصيين.

وبعد تسع دقائق، أوقفت سيارة تابعة لشرطة ولاية خاليسكو شاحنة تقل أربعة من "الفاكيروس" على الطريق السريع الواصل بين بورتو فالارتا وغوادالاخارا. صُفَّ الرجال وأُعدموا رميًا بالرصاص بدم بارد بجانب شاحنتهم، وتُركت جثثهم على الطريق الجبلي الساخن كجيف الحيوانات الدهيسة.

بحلول المساء، كان اثنا عشر آخرون من "الفاكيروس" قد قُتلوا وجُرح سبعة. وسقط أربعة من أفراد "البدلات السوداء" بنيران مضادة، كما أُصيب أحد المارة بشظايا بندقية صيد عندما اندلع اشتباك بين فصائل متناحرة من الشرطة الفيدرالية في مدينة مكسيكو.

كان سقوط اثنين وثلاثين ضحية في الساعات الاثنتي عشرة الأولى من الحرب مجرد البداية.

مر يومان آخران، ظل فيهما كورت يعمل بوتيرة محمومة. كانت المعلومات التي يحصل عليها من سيرنا، رغم جودتها، تبدو ضئيلة مقارنة بما كان يغتنمه أثناء غاراته. في كوليما، انتزع هاتفًا ذكيًا من حارس، ووجد عنوانًا بجانبه كلمة "فوكو" (Foco). كان يعلم أن هذا هو المصطلح المحلي لمخدر "الكريستال"، فتوجه إلى هناك ووجد منشأة تخزين مسورة مليئة بحاويات الشحن. كان هناك عدة حراس، لكن كورت نجح في التسلل إلى المجمع وزرع عدة قنابل "آنفو" كان قد صنعها في منجمه، كل منها مزود بصاعق لاسلكي بسيط. وبمجرد ابتعاده عن محيط الانفجار، طلب رقمًا من أحد هواتفه الكثيرة، فتطايرت ست حاويات من "الكريستال" في سحابة سوداء تشبه فطر عيش الغراب.

توقف على تلة قريبة ليتأمل صنيعه، فرأى رجلًا يهرب مسرعًا من الموقع في سيارة "بي إم دبليو" سوداء. طارده كورت بشاحنته حتى أزاح السيارة الرياضية عن الطريق، ووجد أحد أفراد "البدلات السوداء" يزحف خارج الحطام، فاتخذه رهينة. وبعد أربع ساعات، قضى الرجل نحبه متأثرًا بجراحه، ولكن ليس قبل أن يعطي الأمريكي كنزًا من المعلومات حول عمليات إنتاج "الكريستال" التابعة لـ دي لا روشا في نایاریت وخاليسكو.

قرر كورت التركيز على مخدر "الميث" لبضعة أيام. فوفقًا لقول الرجل المنازع، كان هذا المخدر هو "البقرة الحلوب" لـ دي لا روشا؛ إذ إن إنتاجه مكلف، وبالتالي يسهل تعطيله عبر قتل أو ترهيب العمالة الماهرة أو تدمير البنية التحتية للمختبرات. وبدا هذا لـ كورت أفضل من حرق حقول الماريجوانا أو الخشخاش. سيظل يفعل ذلك إذا سنحت الفرصة، لكن الـ "فوكو" كان الخيار الأفضل لإحداث تأثير سريع وموجع.

قاده هذا إلى أكوبونيتا؛ وهي بلدة صغيرة تقع على ضفاف النهر في الأراضي المنبسطة على الطريق المؤدي إلى مازاتلان. كان لديه بعض العناوين التي استخلصها من رجل "البدلات السوداء" الراحل، وأراد ضربها قبل التوجه إلى الجبال لملاحقة مختبر ضخم (Super Lab).

وقبل ليلة من إشاعة الفوضى، دخل جينتري متجرًا للبقالة للتزود بالفاصوليا والمشروبات الغازية والقهوة سريعة التحضير والماء، ثم دخل حانة مجاورة لاستخدام المرحاض في الخلف. وبعد أن قضى حاجته وغسل جزءًا بسيطًا من القذارة العالقة بيديه، استدار نحو الباب لكنه توقف فجأة.

هناك، على الجدار، كان يحدق فيه وجه رجل في ملصق "مطلوب للعدالة".

شعر بضيق واضطراب لم يشعر بهما منذ سنوات، وسرى القلق في جسده.

لقد كان هو. كانت صورته اللعينة بعينها.

مطلوب للعدالة بتهمة القتل

القاتل الأمريكي المأجور لكارتل مادريغال

وُضع رقم هاتف محمول محلي تحت الصورة.

أدرك جينتري الآن أنه حتى لو نجا من هذا كله، وحتى لو غادر المكسيك، فإن الحكومة الأمريكية ستصنفه كقاتل مأجور لصالح عصابات المكسيك، ولن يتمكن أبدًا من العودة إلى الولايات المتحدة.

هل تستحق الفتاة كل هذا؟

هز كورت رأسه، وكره نفسه لأن هذا السؤال تسلل إلى عقله.

نعم. بالطبع تستحق.

انتزع الملصق الورقي من الجدار وقذفه في سلة المهملات.

فُتح الباب عن يساره بصرير خفيف.

استدار جينتري في لمح البصر وهو يسحب سلاحه، جاثيًا على ركبتيه أمام المغسلة. صوّب مسدسه نحو صدر الهدف، وكان إصبعه قد ضغط بالفعل على أمان الزناد في مسدس "غلوك".

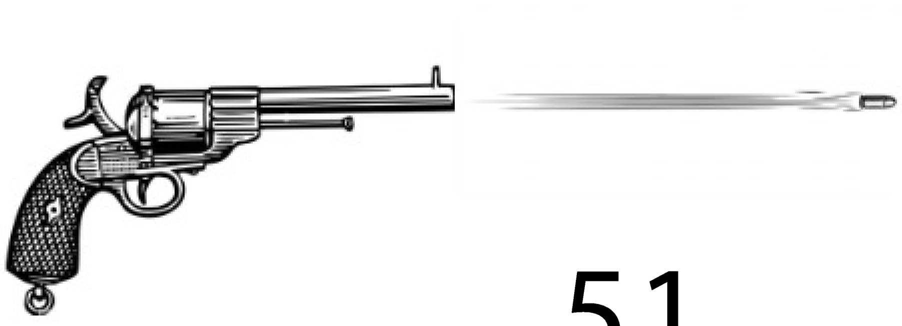
رفع الرجل يديه فوق رأسه وصرخ بذعر:

– "يا إلهي!"

نظر كورت من خلف فوهة مسدسه، وشعر بإصبعه مشدودًا على الزناد الذي لا يرحم، فرأى رجلًا سمينًا يرتدي قبعة رعاة البقر، مجرد فلاح بسيط، رجل جاء إلى الحانة ليقضي حاجته بعد تجرع زجاجتين من الجعة.

أرخى كورت الضغط عن الزناد، ونهض وأعاد سلاحه إلى جرابه، ثم مر بجانب العامل المذعور دون أن يعيره نظرة واحدة.

تبًا لك يا جينتري. تماسك قليلاً.



51

استغرق الأمر من جينتري يومًا كاملًا ليتموضع في مكانه. وطوال ذلك الوقت –بينما كان يقود الـ «مازدا» نحو الجبال، وبينما كان يتسلق ويزحف، أو يختبئ تحت جسر للمشاة والمسلحون يمرون فوقه مباشرة، أو يدقق إحداثيات الـ GPS مقارنة بالموقع الذي حصل عليه من رجل «البدلات السوداء» الميت الآن في أخدود قرب مخبأ المنجم– ظل يلعن هذا التأخير. كان يرغب في ضرب «البدلات السوداء» كل يوم، ولعدة مرات في اليوم الواحد، لذا كان قلقًا من أن قضاء أربع وعشرين ساعة دون فعل شيء سوى التحرك خفية عبر جبال سييرا مادري، نحو موقع قد لا يكون موجودًا أصلًا، سيفقد عمليته الزخم الضروري لنجاحها.

لم يكن يعلم، بالطبع، أن دانيال دي لا روشا قد شن حربًا في اليوم السابق ضد كارتل مادريغال. كان يوم السفر هذا بالنسبة لـ كورت بمثابة يوم سادس من إراقة الدماء بالنسبة لـ «البدلات السوداء»، وحقيقة أن جينتري نفسه لم يشارك في القتال مرت دون أن يلاحظها أحد من «البدلات السوداء».

بقياس عدد الحوادث، وعدد القتلى والجرحى، وعدد القوافل التي ضُربت أو المنازل الآمنة التي تمت مداهمتها، كان الزخم ضد «البدلات السوداء» يتزايد وحسب.

تحرك كورت عبر الظلام؛ كانت نظارات الرؤية الليلية من الجيل الثاني التي وفرها له هيكتور سيرنا أشبه بقطع أثرية مقارنة ببعض المعدات التي استخدمها في ماضيه، لكنها أدت الغرض. عبر قاع وادٍ، واقترب من قرية تعج برجال دي لا روشا لدرجة أنه شم رائحة مواقد الطهي وسمع نباح الكلاب، لكنه بقي خفيًا عن أنظار السكان المحليين. في الواحدة صباحًا، وجد جدول ماء في المكان الذي وصفه رجل «البدلات السوداء» الميت بالضبط، مما رفع معنوياته. تتبعه إلى داخل أخدود حالك السواد؛ وفي المسافة كان صوت شلال يهدر، لكنه لم يكن قريبًا بما يكفي لرؤيته.

واصل التقدم، مسترشدًا بنظارات الرؤية الليلية ونظام الـ GPS، لكن أذنيه، وحاسة شمه، ومعرفته بالبرية وكيفية التحرك خلالها بصمت، هي ما أبقته على قيد الحياة.

بحلول الخامسة صباحًا، كان في موقعه. انزلق إلى منتصف واجهة صخرية تطل على أخدود صغير، ثم توارى كورت تحت قمم الأشجار.

كان الفجر لا يزال بعيدًا بساعتين، لكن كورت شم رائحة التورتيلا والقهوة من مخبئه في الجرف الصخري. صاح ديك. نبحت كلاب وثغت ماعز؛ كانت كل أصوات الحياة البشرية حاضرة. وبين الحين والآخر، كانت رائحة الماريجوانا تتصاعد إلى مخبئه في الجدار الصخري على ارتفاع عشرة أقدام فوق الطريق الترابي.

سرعان ما دوت المحركات، مولدات ضخمة تعمل بالغاز، وبينما كان الضوء الطبيعي يتسلل إلى الغابة من الأعلى، انبعثت إضاءة كهربائية من فسحة على بعد خمسين ياردة أمامه. ظهر مبنى عريض، مصنوع من المعدن الجاهز ومطلي بلون زيتوني باهت، تحت أضواء سيارة جيب كانت تتراجع وتستدير. بعد بضع ثوانٍ مرت تحت موقع كورت، مليئة بالرجال والبنادق.

وبينما لا يزال متدثرًا بالظلام، استعد كورت جينتري للهجوم.

في السابعة من صباح ذلك اليوم، أغلق نيستور كالفو هاتفه المحمول في مكتبه بـ «هاتسيييندا ماريسيلا». كان جالسًا إلى مكتبه منذ الخامسة والنصف، بقميصه وربطة عنقه، بينما سترته ملقاة على كرسي جلدي في الزاوية. كان يشرب عصير المانجو ويرشف القهوة وهو يجري مكالمات ويرسل رسائل بريد إلكتروني لجهات اتصاله في الولايات المتحدة. وبينما كان صراع منظمته مع كونستانتينو مادريغال يتفاقم بمرور الساعات، اضطر لقضاء صباحه في تتبع كل الخيوط المتعلقة بـ إيلينا غامبوا. كانت هناك أدلة تشير إلى أن آل غامبوا غادروا توسون بالحافلة، ربما باتجاه الشمال الشرقي. وبناءً على تلك المعلومة الغامضة والمشكوك فيها، أمضى كالفو تسعين دقيقة في الاتصال بأعضاء شبكته من شيكاغو إلى بوسطن، مكلفًا الناس بالتحقق من جميع مصادرهم، بحثًا عن امرأة مكسيكية حامل، تبلغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا.

كان الأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قش، كما يعلم كالفو، لكن وظيفته كانت أيضًا تنفيذ أوامر سيده.

رن هاتفه المحمول مرة أخرى، كانت أول مكالمة واردة له في ذلك اليوم، ففتح الهاتف وأجاب:

–"Bueno؟"

وبعد خمس دقائق، اندفع خارجًا من مكتبه، يرتدي سترة بدلته المصنوعة من الكيفلار ويغلق الباب خلفه.

كان دانيال دي لا روشا يلكم الكيس الثقيل في الصالة الرياضية كملاكم وزن متوسط متمرس. لم يكن الوحيد على الأرضية الخشبية الواسعة؛ وقف اثنان آخران من «البدلات السوداء» يرتدون ملابس العمل، ويصيحون بعبارات التشجيع له بينما كان يتدرب مع مدربه أو

يضرب كيس السرعة أو يهوي بقبضتيه المرتديتين للقفازات على الكيس الثقيل. كان مدربه يقف خلف الكيس في الزاوية يلقي التعليمات.

وكان خافيير "سبايدر" سيبيدا هناك أيضًا؛ لم يعد يفارق جانب رئيسه الآن، رغم أنه كان يقضي وقته أيضًا في إصدار الأوامر لمرؤوسيه الذين يروحون ويجيئون لتنفيذ رغبات رئيسهم بشأن الحرب مع «لوس فاكيروس».

وكما أصبحت عادته، دخل نيستور كالفو ماسياس، البالغ من العمر سبعة وخمسين عامًا، الغرفة بسرعة، متجاهلًا فريق الأمن والآخرين الواقفين حوله، وسار بتصميم نحو "زعيمه".

رأى دانيال رجله في المرآة المعلقة على الحائط. أرخى ذراعيه للراحة واستدار ليواجه كالفو.

– "تحمل المزيد من الأخبار السيئة، أليس كذلك يا نيستور؟"

– "المختبر الفائق رقم ستة دُمر."

– "ماذا تعني بـ (دُمر)؟"

– "دُمر يا دانيال. كان موجودًا، والآن لم يعد كذلك. هناك حريق. حطام. معادن ملتوية. وجثث. خسارة كاملة للمجمع هناك وكل مواده."

أومأ دي لا روشا برأسه فقط بينما كان مدربه يمسح جبينه بمنشفة.

قال كالفو:

– "لقد دمر «الرجل الرمادي» دفعتين كاملتين من المنتج. بالإضافة إلى المعدات الرأسمالية هناك. وقتل بضعة رجال. بعض الأجانب العاملين هناك اختفوا. لا نعرف إن كان قد اختطفهم أو قُتلوا أو هربوا من تلقاء أنفسهم."

فرد دي لا روشا عضلات صدره وذراعيه، ثم سدد لكمة قوية بيمينه إلى الكيس الثقيل.

قال كالفو بصوت خافت:

– "شيء آخر. سُرق حاسوب محمول من مكتب مدير المختبر. أخبر رجالُنا المديرَ أن كل شيء كان مغلقًا ومشفرًا، باستثناء ملف واحد. كان هناك ملف واحد مفتوح وقت السرقة. هذا الملف كان يحتوي على معلومات حساسة، وعلينا أن نفترض أنها الآن في يد «الرجل الرمادي»."

لكم دي لا روشا الكيس مرة أخرى، ثم التفت إلى مستشاره:

– "أي معلومات؟"

– "العناوين الفعلية لعقاراتنا في المكسيك."

صرخ دانيال:

– "تبًا! هل يعرف مادريغال الآن مواقع جميع عقاراتنا؟"

– "إذا كان «الرجل الرمادي» يعمل لصالح مادريغال... فنعم."

صرخ دي لا روشا:

– "يا ابن العاهرة! (¡Hijo de puta!)."

ولكم الكيس الثقيل بكل قوته. ثم التفت بسرعة إلى مستشاره:

– "كويرنافاكا؟ هل كان منزل كويرنافاكا في الـ..."

– "نعم يا زعيم."

– "نيستور... أطفالي. زوجتي. هذا منزلي بحق الجحيم!"

– "أعرف."

– "قال إنه لن يمس عائلتي!"

– "معذرة يا دانيال، هو لم يمس عائلتك."

لوح دي لا روشا بيده متجاهلًا تعليقه الأخير.

– "ماذا نفعل؟"

مد ذراعيه لمدربه ليبدأ في نزع قفازاته. هرع الرجل الأكبر سنًا لتنفيذ الأمر.

هز كالفو كتفيه وقال:

– "قبل يومين شكونا من أنه كلفنا خمسين مليون دولار. ولكن الآن؟ لتأسيس طرق ومنازل آمنة جديدة، وتغيير قنوات التوزيع من عقاراتنا الحالية إلى الولايات المتحدة؟ قد يكلفنا هذا عشرة أضعاف ذلك المبلغ."

كان سبايدر صامتًا، لكنه قال:

– "يا زعيم، يجب أن نخرجك من هنا، الآن!"

قال دانيال بصوت خافت:

– "عائلتي. انقلوهم."

استدار أحد رجال «البدلات السوداء» خارجًا من الغرفة، وسحب هاتفًا من حزامه للاتصال بفريق كويرنافاكا لنقل زوجة دي لا روشا وأطفاله الستة.

لكنه لم يبتعد كثيرًا. أدخل الرجل رأسه مرة أخرى إلى الغرفة وقال:

– "أنا آسف."

نظر حوله، ولم يعرف لمن يوجه كلامه.

– "لكن إلى أين أطلب منهم الذهاب؟"

قال دانيال:

– "العقار في البرتغال. أوصلوهم إلى المطار في مكسيكو سيتي واجعلوا الطائرة تقابلهم هناك الليلة!"

هز كالفو رأسه:

– "لا. عنوان عزبة فارو كان في الملف."

– "اللعين ."

نطق زعيم المخدرات الكلمة بالإنجليزية. كان قد تعلمها أثناء خدمته في الجيش المكسيكي وتدربه في الولايات المتحدة.

– "إنه يدمرنا."

قال كالفو:

– "لا. لأنك لن تدع ذلك يحدث. ستعيد امرأة غامبوا إلى..."

– "لا!"

أمسك دانيال بـ كالفو من طيتي سترته ودفعه بقوة نحو الجدار المغطى بالمرايا.

– "لن أفعل!"

– "دانيال، هذه الكارثة تكلفنا الكثير من المال، والكثير من الوقت، والكثير من..."

– "لا أهتم! لا أهتم بأي من ذلك. أريد إيلينا غامبوا وهذا القاتل الأمريكي ميتين! والآن يهددون أطفالي؟"

هز كالفو رأسه، غير عابئ بتهديد العنف الجسدي من رئيسه:

– "لا أحد يهدد..."

تدخل سبايدر بينهما في لحظة.

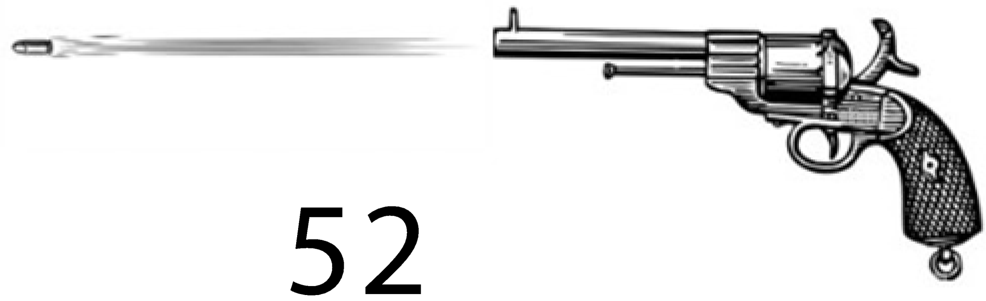
– "يا زعيم. لدينا أصدقاء يمتلكون سلاسل كاملة من الفنادق، والوحدات السكنية، وعقارات من جميع الأنواع. يمكننا إرسال عائلتك إلى أي مكان؛ يمكننا استئجار طابق كامل، أو عزبة كاملة! سأضاعف الحماية على عائلتك، ويمكنك إخبار أطفالك أنها عطلة."

حدق كالفو ودي لا روشا في بعضهما البعض للحظة أخرى، ثم ترك الرجل الأصغر سترة الأكبر. ودون أن يقطع نظرات التحدي، تحدث إلى سبايدر:

– "ضاعف الحراسة عليهم ثلاث مرات. وأبلغ الجميع هنا. سنغادر إلى بويرتو فالارتا خلال ساعة؛ لدينا رجال شرطة يعملون لصالحنا هناك أكثر من أي مكان آخر. سأقود المروحية. أحضروا لورا غامبوا معنا، وسنستولي على أكبر مكان نجده هناك، وسنواصل الحرب على مادريغال حتى تتم تصفية «الرجل الرمادي» والعثور على إيلينا غامبوا."

اندفع كالفو خارج الغرفة دون كلمة أخرى. وبينما كان يسير عائدًا نحو مكتبه، قرر أنه سيفعل ما بوسعه لإنهاء هذا الجنون، بغض النظر عن رغبات سيده.

كان الأمريكي يسميه "الرقابة الأبوية". كانت إهانة لـ دانيال، لكن نيستور أقر في نفسه بأن هناك بعض الحقيقة في كلمات القاتل الأمريكي.



52

وصل كورت إلى نقطة الاستلام المتفق عليها مسبقًا لتسلم الإمدادات من كارتل مادريغال. بدأت مخزوناته من الصواعق ونترات الأمونيوم وزيت الوقود تنفد من جعبته؛ كما كان بحاجة إلى هواتف نقالة "نظيفة"، وبعض السيولة النقدية، ومزيد من الذخيرة لبندقيته من طراز ساكو.

ولكن عند وصوله إلى وحدة التخزين، لمح رجلًا يقف في المقدمة. ظل كورت في شاحنته، على بُعد مائة ياردة من مخبئه، وهو يتفرس عبر منظاره.

لقد كان سيرنا، وكان بمفرده. ينتظر.

اقترب كورت بالشاحنة ثم ترجّل منها، وهو يتفحص رئيس استخبارات "الفاكيروس" بنظرة حذرة وسأله:

– "لماذا أنت هنا؟"

– " إل فاكيرو يريد التحدث إليك."

– "شخصيًا؟"

– "نعم، فورًا."

باغت هذا الطلب جينتري، فقال:

– "ليس لدي وقت للقاءات الشخصية. ألا يمكنني التحدث معه عبر الهاتف؟"

– "كلا، علينا اصطحابك إليه."

– "علينا؟"

– "نعم. لم أرد إثارة ذعرك لذا أبقيتهم بعيدًا عن الأنظار، لكن معي عشرون رجلًا يطوقون المكان."

– "وعمَّ يريد مادريغال التحدث؟"

– "لا علم لي."

حدّق كورت بحدة في وجه مهرب المخدرات القادم من سينالوا، لكنه لم يستطع تبين ما إذا كان صادقًا أم يراوغه. أخذ يزن خياراته؛ شعر أن بمقدوره الإطاحة بـ سيرنا تحت تهديد السلاح والفرار من هنا، ولكن لماذا؟ لا يوجد سبب يدفع مادريغال للنقمة عليه؛ بل على العكس تمامًا، فقد ألحق كورت أضرارًا جسيمة بعمليات الخصم اللدود لـ "الفاكيروس". وبحكم المنطق، كان ينبغي على مادريغال أن يكلف شعراءهم بكتابة قصائد "ناركو كوريدو" – ملاحم غنائية – تمجد بطولات "الرجل الرمادي"، وأن يعرض عليه مساعدة أكبر من ذي قبل.

أومأ كورت برأسه ورفع ذراعيه، فقام سيرنا بتفتيشه وانتزع منه أربعة أسلحة، ثم استخدم جهاز لاسلكي صغير لاستدعاء فريقه. وفي غضون ثوانٍ، ظهرت عدة شاحنات ضخمة من طراز "دوج" عند المداخل الأمامية والجانبية لساحة التخزين. تقدمت الشاحنات عبر الممرات لتقل سيرنا وجينتري، ثم انطلقت في قافلة متجهة نحو الشمال.

بحلول الظهر، استقل سيرنا وجينتري طائرة بمحرك مراوح صغير متجهة نحو الشمال الغربي، وفي الثانية عشرة والنصف هبطا في مدرج عشبي وسط الجبال. استقلا سيارات "كرايسلر" صالون ضخمة عبر بلدة كبيرة. سأل كورت عن موقعهما، لكن رئيس الاستخبارات لم يكتفِ إلا بالاعتراف بأنهما في جنوب ولاية سينالوا.

بعد مسيرة لم تزد عن عشرين دقيقة، دخلوا بوابات مقبرة شاسعة. كانت السماء صافية والجو باردًا، وبدأ كورت يلحظ مسلحين

يرتدون قبعات القش ينتشرون حول الأضرحة المزخرفة في المساحات الخضراء المنسقة بعناية. لم يكن هذا المكان يشبه المقبرة التي وُري فيها إيدي غامبوا الثرى؛ فهذه السراديب كانت ضخمة، ومبنية من الإسمنت والرخام المنحوت يدويًا وبأثمان باهظة، ذات أسقف مذهبة وتماثيل بالحجم الطبيعي تقف حارسة أمام القبور.

أجاب سيرنا على سؤال لم يطرحه كورت:

– "هذه المقبرة بأكملها مخصصة لرجال مادريغال. هو يأتي إلى هنا كثيرًا لزيارة أصدقائه القدامى. اعتبر دعوته للقائك هنا بمثابة تكريم لك."

كان جينتري على يقين بأنه لم "يُدعَ" تمامًا بالمعنى الودي، لكنه مرر الأمر. تتبعت السيارة الطريق المتعرج بين عشرات المدافن، التي كان بعضها بحجم منازل صغيرة. تميزت مداخلها بصور فوتوغرافية مؤطرة فوق دروع حديدية، وزُينت بمقتنيات غريبة؛ بنادق كلاشينكوف منحوتة من الحجر، وقبعات رعاة بقر رخامية، وتماثيل برونزية لخيول، بل إن واجهات ومقدمات سيارات حقيقية من طراز "كاديلاك" و"دوج" كانت تبرز من البناء القرميدي. وفي إحدى الحالات، بُنيت طائرة "بايبر" ذات محركين من الفولاذ المقاوم للصدأ وبحجمها الطبيعي فوق سطح سرداب ضخم.

وتخيل كورت أن نصف الزهور الملونة في سينالوا قد جُمعت لتزيين هذا المكان.

توقفت السيارة أمام سرداب أصغر حجمًا، بدا بناؤه حديثًا ويحيط به عشرة مسلحين. كان مادريغال نفسه هناك، وبجانبه ابنه المراهق تشينغاريتو. ارتدى "إل فاكيرو" قميصًا أحمر وبنطال جينز، وقبعة قش وحذاءً رياضيًا. ولم يلحظ جينتري أي مظاهر للبهرجة على جسده سوى مشبك حزام ذهبي على شكل رأس حصان وصليب بسيط يتدلى حول عنقه.

استقبل "إل فاكيرو" كورت فور خروجه من السيارة، وصافحه بابتسامة توارت جزئيًا خلف شاربه. وبينما كان يتحدث، تولى تشينغاريتو الترجمة:

– "سبعة أيام يا صديقي. قبل أسبوع واحد تمامًا التقيت بك، ووعدتني بإثارة المتاعب لـ "البدلات السوداء". يجب أن أقول... ظننت أنك ستقتل بضعة منهم، وتدمر بعض الشحنات، ثم تموت. لكنك أثبتَّ لي أنك محارب فذ."

– "شكرًا لك."

– "هل أنت متأكد أنك لم تولد في سينالوا؟"

لم يرد كورت، ولم يجد "النغل الصغير" شيئًا يترجمه.

تابع مادريغال:

– "لقد نلتَ احترامي. ما فعلته في سبعة أيام عجز عنه هؤلاء الأوغاد البائسون في سبع سنوات." أشار بيده نحو رجاله المحيطين به، وضحك تشينغاريتو وهو يترجم الكلمات.

قال جينتري:

– "وهذه هي البداية فقط. خلال أيام قليلة سيكون—"

قاطعه مادريغال، بينما كان ابنه يجهد لمواكبة الترجمة:

– "لهذا السبب أحضرتك إلى هنا. تسعة من رجالي ذُبحوا الليلة الماضية في بورتو فالارتا. وخمسة من شرطة ولاية خاليسكو الذين أتقاضى ولائهم اختفوا في غوادالاخارا أمس؛ ولا شك أن جثثهم ستُلقى على قارعة الطريق خلال الأيام القادمة. وقبل يومين، قُتل اثنا عشر من رجالي، واختُطفت شحنة بضائع."

حدّق جينتري فيه للحظة وقال:

– "لا يهمني إن قُتل قتلتك المأجورون، وسأهين ذكاءك إن تظاهرت بخلاف ذلك."

ترجم تشينغاريتو، فرد مادريغال:

– "لقد فعلها دي لا روشا. هو يشك في أنك تعمل لحسابي، ويعاقبني على هذه العلاقة. أخبرتك أن هذا التعاون لن ينجح إلا إذا ظل طي الكتمان."

– "كان عليك أن تدرك احتمال إلقاء اللوم عليك بسبب أفعالي. أنا متأكد أن لديك مزيدًا من القتلة والمخدرات، أليس كذلك؟"

– "بالتأكيد. يمكنني الاستمرار هكذا لسنوات، فأنت تؤلمه أكثر مما يؤلمني. ولكن، طرأ تغيير على الخطط؛ لن نستمر في حربنا."

– "ماذا تقصد؟"

– "منفعتك بالنسبة لي قد انتهت. لقد أبرمتُ صفقة؛ فمقابل تسليم جثتك إلى "البدلات السوداء"، سأوقف هذه الحرب، فضلًا عن وعود بمكافآت أخرى. لقد وافقتُ على هذا العرض."

قال جينتري بثقة:

– "لقد عقدت هذه الصفقة مع نيستور كالفو."

كان يعلم أن دي لا روشا ليس من النوع الذي يبرم المواثيق مع عدوه اللدود مادريغال؛ فهو يقاتل ويهدد، لكنه لا يذعن.

هز مادريغال كتفيه وترجم ابنه:

– "نعم. نيستور كالفو ماسياس هو عصب منظمة "البدلات السوداء". هو أكثر قوة حتى من دي لا روشا بسبب كل ما يملكه من أسرار. لقد عرض عليَّ أحد مختبراتهم الكبرى المتبقية لإنتاج "الميث"؛ وهي هدية تُقدر قيمتها بمليارات الدولارات بمرور الوقت." ابتسم مادريغال وتابع: "يجب أن تفخر بقيمتك السوقية."

– "فهمت."

هز "إل فاكيرو" كتفيه ثانية وقال:

– "أنا آسف يا صديقي، لكن عليَّ قتلك الآن. وسأكرم خدمتك بهذا السرداب الجميل الذي تراه أمامك."

بدأ الرجال المحيطون يقتربون. التفت كورت بجنون بحثًا عن سيرنا، ووجده وسط الحشد. لم يبدُ رئيس الاستخبارات راضيًا عن هذا الترتيب، لكنه لزم الصمت.

نظر جينتري إلى تشينغاريتو:

– "أنا أستطيع تقديم نفع له أكثر مما يفعل كالفو. أخبره بذلك!"

ترجم الصبي الكلمات، فرد مادريغال:

– "أنت الآن تعطيني ما أريده.. أنا أريد ذلك المختبر الضخم."

ومن الخلف، وُضع كيس على رأس جينتري.

قال مادريغال:

– "ماتالو (Mátalo)."

لم يترجم تشينغاريتو هذه الكلمة؛ فـ كورت يعلم أنها اسم مسقط رأس مادريغال، لكنها أيضًا أمر بالقتل.

اقتله.

سمع صوت سحب أجزاء المسدس خلف رأسه مباشرة. صرخ كورت بكلمة واحدة:

– "كالفو!"

حينها قال مادريغال:

– "انتظر! ماذا قلت؟"

رد كورت بالإسبانية:

– "قلتُ كالفو. يمكنني جلب نيستور كالفو إليك. إن وقوعه في قبضتك يعني نهاية دانيال دي لا روشا و"البدلات السوداء" تمامًا، وأنت تعلم ذلك." لم يستطع كورت رؤية هيكتور سيرنا بسبب الكيس، لكنه ناداه: "هيكتور، ألا تود أن تنبش ما في عقل كالفو؟ أن تكتشف كل ما يعرفه؟"

تحت ذلك الغطاء الأسود، تصبب كورت عرقًا؛ كانت كل عضلات وجهه ورقبته مشدودة، ينتظر رصاصة في الرأس لن يشعر بها أبدًا. لم

يفكر في موته، بل فكر فقط في لورا. تخيلها الآن وحيدة وخائفة، وتخيل الرجال الذين سينقضون عليها بمجرد أن تنتهي حاجتهم لإبقائها سليمة.

كان يتوق بشدة لإنقاذها.

شعر بأيدٍ تدفعه من ذراعيه وظهره نحو السرداب. كانت هناك صرخات وأوامر تُلقى خلفه بينما يسير، ثم انزلق الباب ليغلق وراءه، فحلّ سكون بارد ومظلم.

أُزيل الكيس عن رأسه. وقف رجل عن يمينه وآخر عن يساره، وكلاهما يغرز فوهة مسدسه في صدغه.

أمامه، وبفعل الضوء المتسلل من نافذة زجاجية صغيرة ملونة في خلفية السرداب، رأى مادريغال وابنه وسيرنا.

قال سيرنا:

– "كالفو محمي بشكل جيد."

تحدث كورت بصوت يرتجف من التوتر:

– "وأنا أملك دافعًا أقوى."

قال مادريغال:

– "أنت مستعد لقول أي شيء الآن لتنجو بجلدك. لا أصدق أنك قادر على تسليمه."

سأل كورت بالإنجليزية وتولى الصبي ترجمة فورية:

– "كيف ستثبت لـ كالفو أنني مت؟"

أجاب مادريغال:

– "سأخبره في أي سرداب دُفنت هنا. هو يخطط لإرسال بعض رجاله لرؤية جثتك قبل إغلاق السرداب نهائيًا."

نظر كورت إلى هيكتور سيرنا:

– "أخبره أنك تريد مقابلته شخصيًا هنا لتريه جثتي بنفسك."

– "ولماذا قد يفعل ذلك؟"

– "سيضطر لذلك، لأنه لا يستطيع إخبار دي لا روشا أنكما أبرمتما صفقة. سيلبي أي طلب معقول للحفاظ على سرية هذه المقايضة. كما أنه سيشعر بالفضول لمعرفة الميزة التي قد يجنيها من لقائكما."

هز مادريغال رأسه:

– "لن يوافق. الأمر خطر جدًا بالنسبة له."

– "يمكنك إخباره بأن يحضر معه أي قوة يريدها. أخبره أن يحضر مائة مسلح لضمان عدم وجود كمين. أخبره أن يرسل رجاله قبل يوم كامل لمراقبة الموقع."

– "وهل تعتقد أنك تستطيع تجاوز مائة مسلح؟"

– "بالطبع لا، لكنه لن يحضر هذا العدد. هو يعمل سرًا دون علم زعيمه، لذا سيرغب في إبقاء هذه المباحثات بعيدة عن رادار دي لا روشا. هو ليس أحمق، سيحضر حراسة بالتأكيد، لكنها لن تتجاوز فريقه المعتاد للحماية اللصيقة. عدد يمكن السيطرة عليه كي لا يتسرب خبر الاجتماع في منظمتهم."

– "وهل تستطيع اختراقهم؟"

– "أفترض أن عليَّ فعل ذلك، أليس كذلك؟"

قال مادريغال:

– "ولكن عندما أمسك بـ كالفو، كيف سيساعدك ذلك؟ لن أقايضه من أجل عاهتك الصغيرة غامبوا."

ترجم تشينغاريتو الكلمات، فانتفخت منخرا جينتري غضبًا لكنه تمالك نفسه:

– "بمجرد أن أقبض على كالفو، سأسلمه إليك. لكنني سأخبر دي لا روشا أنني أحتجزه وسأقايضه بـ لورا. سنحدد وقتًا ومكانًا للمبادلة. هذا سيمنحك الوقت الكافي لانتزاع ما تحتاجه من كالفو قبل أن تبدأ

"البدلات السوداء" في البحث عنه، وسيمنحني فرصة للاقتراب من لورا لاستعادتها."

تفرس مادريغال في وجه جينتري طويلًا، ثم ابتسم:

– "أنت تفكر كخارج عن القانون. أنت بارع في التخطيط كأي شخص قابلته في حياتي يا صديقي."

– "دعنا نكتفِ بالقول إن هذه ليست أولى معاركي يا سيد."

– "أنا مهتم بعرضك، لكن هناك مشكلة واحدة."

كان جينتري يعرفها:

– "تخشى وجود مخبرين في منظمتك يعملون لصالح دي لا روشا، فيقومون بتحذير كالفو مسبقًا بخطتنا."

أومأ مادريغال برأسه.

– "لدي طريقة لمنع ذلك."

– "وكيف يمكنك بحق الجـ—"

أمام عيني مادريغال، تحول "الرجل الرمادي" إلى شبح خاطف من الحركة. هبط بجسده إلى الأسفل مباشرة، خارج خط النار للمسدسين المصوبين نحوه. وفي اللحظة نفسها، استدار على عقبيه؛ واندفعت يداه كالصاعقة نحو الأعلى، لتطيح بالمسدسين من أيدي الرجلين. ثم التقط أحد السلاحين بينما كان يدور في الهواء المعتم المليء بالغبار. وبحركة لولبية عاد إلى وضعية الوقوف، وصوب المسدس الضخم نحو صدر كونستانتينو مادريغال.

كل هذا حدث في أقل من ثانية واحدة. تراجع الحارسان اللذان جُردا من سلاحهما إلى الخلف؛ بينما وقف مادريغال وتشينغاريتو وسيرنا يحدقون في ذهول وصدمة مطلقة.

بعد خمس ثوانٍ من الصمت، ترك كورت المسدس يدور حول إصبعه، ليتدلى مقلوبًا من واقي الزناد.

تقدم خطوة ومد يده بالسلاح نحو كونستانتينو مادريغال:

– "تفضل. اقتلني به، أو اسمح لي بحل مشاكلك مع دي لا روشا. إذا كنت لا تثق بأي شخص هنا، فاقتلهم جميعًا، وعندها سيزول خطر التسريب. سأبقى أنا هنا؛ ويمكنك إخبار الجميع أنهم قُتلوا في عراك معي وأنك أجهزت عليَّ في النهاية."

ظل فم مادريغال مفتوحًا من شدة الدهشة. نظر إلى ابنه بانتظار الترجمة، لكن فم تشينغاريتو كان مفتوحًا هو الآخر. وكزه والده، فبدأ الصبي بالحديث. وبينما كان الابن يعيد كلمات جينتري بالإسبانية، نظر مادريغال إلى الآخرين في السرداب وكأنه يتأكد مما إذا كانوا قد شهدوا ذلك الفعل الإعجازي من الأمريكي.

أخذ "إل فاكيرو" المسدس، وأشار به ببطء نحو حارسيه:

– "هذان الاثنان... أثق بهما."

ثم نظر إلى سيرنا:

– "وهيكتور أيضًا. وتشينغاريتو؛ فهو ابني، وهو أذكى من أن يخدعني، أليس كذلك يا بني؟"

أكد "النغل الصغير" بإيماءة من رأسه أنه بالفعل أذكى من أن يغدر بوالده.

التقط أحد رجال مادريغال مسدسه من الأرض؛ واستعاد الآخر سلاحه من زعيمه. وبدا كلاهما في حالة من الصدمة والخجل في آن واحد.

وسرعان ما استعاد "إل فاكيرو" توازنه:

– "كان ذلك عرضًا جيدًا يا صديقي. جيدًا جدًا. كان بإمكانك قتلي في تلك اللحظة ولم تفعل. سأمنحك اليومين اللذين طلبتهما. أنا وهيكتور لن نخبر أحدًا بخطتنا. لكني أعدك، إذا لم يُسلم إليَّ نيستور كالفو حيًا، فسأرسل كل رجالي لمطاردتك."

أومأ كورت برأسه:

– "سيكون بين يديك يا سيد. أعدك بذلك."

للمرة الثانية خلال أسبوع، تجرّع كورت جينتري مرارة التخلي عن كبريائه وصافح كونستانتينو مادريغال. كانت المصافحة هذه المرة أثقل وطأة من سابقتها، والسبب الرئيس هو علمه التام بأن ما قاله للتو لم يكن سوى كذبة صريحة.



53

بعد ست وأربعين ساعة، انطلقت ثلاث سيارات دفع رباعي سوداء مصفحة من طراز «شيفروليه سوبربان» مسرعة نحو الغرب على طريق ذي مسارين في أحد الأخاديد بجنوب شرق ولاية سينالوا. ومضت أضواء حمراء على لوحة القيادة في السيارة القائدة، بينما اخترق السائق المسلح القرى الصغيرة والتقاطعات العرضية دون أي اعتبار لحركة المرور الأخرى.

كان السائق يعلم أن القافلة يجب أن تواصل التحرك، وبسرعة.

في المقعد الأوسط من الشاحنة الثانية، محاطًا باثنين من الحراس الشخصيين الثلاثة عشر الذين تم جلبهم لحمايته، تحدث نيستور كالفو ماسياس عبر هاتفه المحمول مع مساعده. كان نائب كالفو قد أعد مركز عمليات في العقار الجديد بـ بويرتو فالارتا، وكانت مهمته لهذا اليوم إبقاء دي لا روشا مشغولًا وغير مهتم بمكان وجود كالفو.

كان نيستور محترفًا، ولم يكن يحب الكذب على رئيسه، لكنه أدرك أن الوضع الحالي يتطلب "إشرافًا من الكبار". لم يكن ليسمح لقاتل أمريكي، أو تمثال هيكل عظمي سخيف مصنوع من الراتنج، أو سعي مشتت للانتباه وراء جنين مختبئ، بتدمير كل ما بناه في السنوات الماضية.

بمخالفة أوامر قائده الآن والاجتماع بـ هيكتور سيرنا من «لوس فاكيروس» (رعاة البقر)، سيوقف كالفو حرب عصابات مكلفة، وسيقدم جثة خصم رئيسه الأمريكي إليه، وسيحد من نزيف الأموال والأرواح المستمر منذ أسبوع.

سيكون الثمن باهظًا بعض الشيء لإنهاء حرب مادريغال: مختبر ميثامفيتامين في الطرف الشمالي الغربي من ولاية خاليسكو. لكن كالفو اختار هذا العنصر للمقايضة بذكاء. كان بناء المختبر مكلفًا ومستهلكًا للوقت، لكنه كان ضعيف الأداء منذ افتتاحه قبل ثلاثة عشر شهرًا فقط. كانت البنية التحتية في المنطقة رديئة، والحصول على عمالة ماهرة في المنطقة يمثل مشكلة. علاوة على ذلك، ركز الجيش جهوده على القضاء على الماريجوانا في المنطقة، وكان «البدلات السوداء» قلقين باستمرار من اكتشاف المختبر من قبل ملازم شاب في الجيش، خريج جامعة، لا يمكن شراؤه. لذا عرض كالفو استبدال هذه الكارثة المحتملة بحياة الرجل الذي يكلف منظمته ملايين الدولارات يوميًا ومتاعب لا حصر لها.

قرار سهل للغاية.

كان الاجتماع بـ سيرنا هو الجزء الأكثر إثارة للقلق في الصفقة بالنسبة لـ كالفو، لكنه قرر الآن أن مخاوفه لم تكن في محلها. أرسلت قوات أمن كالفو فريقًا متقدمًا لتفقد موقع الاجتماع، وأفادوا بأنه منزل آمن لا يوجد فيه سوى عدد قليل من رجال مادريغال، بمن فيهم سيرنا، ولا توجد قوات أخرى لـ «لوس فاكيروس» في المنطقة.

أمر نيستور حراسه الشخصيين بالسفر بأحمال خفيفة وبعدد قليل اليوم لتقليل فرص اكتشاف دي لا روشا للاجتماع. كان كالفو يعلم أنه لا يستطيع أبدًا إخبار دي لا روشا بهذه المؤامرة الصغيرة. فالمنطق والعقل لا مكان لهما في تفكير "زعيمه"؛ ولن يوافق على أي صفقة مع مادريغال بأي شكل من الأشكال.

وبينما كانت القافلة المكونة من ثلاث مركبات تسرع عبر الأخدود الضيق في طريقها إلى المنزل الآمن في الجبال، واصل كالفو الحديث عبر هاتفه المحمول مع نائبه.

– "دي لا روشا يصر على أن الاستخبارات المركزية تعمل مع مادريغال. يريد منا إرسال قتلة وراء رجال الاستخبارات المركزية في العاصمة. حتى أنه يتحدث مع سبايدر عن هجوم مباشر على السفارة الأمريكية. هذا جنون مطلق!"

على بعد مائتي ياردة أمام سيارات الـ «سوبربان» الثلاث، خرجت شاحنة أسمنت كبيرة إلى الطريق من محجر تجاري للحصى على اليسار. اقتربت الشاحنات السوداء الكبيرة منها بسرعة بينما كانت الخلاطة الضخمة بطيئة الحركة تجاهد لزيادة سرعتها. دارت أسطوانتها الحمراء والبيضاء وهي تترنح صاعدة الطريق.

أطلق سائق سيارة كالفو القائدة بوقه وأومض بأضوائه بسرعة وهو يندفع خلفها.

لم ينتبه كالفو لذلك، وواصل محادثته:

– "الفتاة لم تكن تستحق كل هذا العناء أبدًا؛ عائلة غامبوا لم تكن تستحق كل هذا العناء أبدًا."

وصلت السيارة القائدة خلف شاحنة الأسمنت مباشرة بينما كان الأخدود يضيق عند منعطف. لم يكن هناك سوى أقدام قليلة على جانبي الطريق الأسفلتي الضيق، المحاط بمنحدرات صخرية شديدة الانحدار تجعل التجاوز مستحيلًا. أومض السائق القائد بأضوائه باستمرار وأطلق بوقه. كانت خلاطة الأسمنت تزيد سرعتها لكن ليس بالسرعة الكافية لإرضاء سائقي الأمن الثلاثة المحترفين لـ كالفو. تم تبادل الكلمات عبر اللاسلكي بين سيارات الـ «سوبربان» حول التباطؤ.

ظل كالفو غير مدرك لما يجري.

– "أريدك أن تبلغني إذا جاءك دانيال وبدأ يطرح أسئلة كثيرة عن مكاني. يمكنني الاتصال به في أي وقت وإخباره بأي قصة. لا تحاول خداعه بنفسك. يمكنه شم الكذبة تمامًا كما كان يفعل والده."

ضاق الأخدود أكثر، وتسارعت شاحنة الأسمنت لتصل بالكاد إلى أربعين ميلًا في الساعة. ضغط سائق الموكب القائد على بوقه الآن، وأرجح شاحنته يمينًا ويسارًا خلف الخلاطة، وفتح الراكب الأمامي نافذته، ورفع بندقية الـ «M4» الخاصة به، ولوح بها في الخارج ليراها سائق شاحنة الأسمنت في مرآة الرؤية الخلفية الجانبية.

نظر كالفو للأعلى بسبب استمرار صوت البوق بينما كان يتحدث.

– "لا شيء، مجرد زحام مروري."

نظر للأسفل إلى مفكرة على حجره.

– "نعم، سأعطيهم إحداثيات المختبر الفائق. بمجرد أن نرى جثة الأمريكي الشمالي سأتصل بـ..."

في السيارة القائدة، كان الراكب الأمامي قد فك حزام الأمان وأخرج نصف جسده من النافذة الآن، ملوحًا بالبندقية بغضب في الهواء. أومض السائق بأضوائه وبدأ في الشتم بصوت عالٍ عندما وصلوا إلى أضيق جزء من الأخدود الجبلي. مد يده لجهازه اللاسلكي لتحذير المركبات الأخرى لتستعد لـ...

أمامهم مباشرة، ضغطت خلاطة الأسمنت الكبيرة على مكابحها بعنف، وانزلقت لتتوقف. انطلق تيار من الخرسانة الرطبة بقطر قدمين وبضغط عالٍ من أنبوب التفريغ البالغ طوله خمسة أقدام، وقادت الـ «سوبربان» القائدة مباشرة في الخليط الحصوي قبل أن تكبح. انزلقت بقوة لتصطدم بمؤخرة الخلاطة، وانفتحت الوسائد الهوائية، وغطت الخرسانة غطاء المحرك والزجاج الأمامي. رشت مئات الغالونات من الطين الرمادي المركبة وتناثرت على الطريق الضيق حولها.

طار الحارس الشخصي الذي كان يتدلى من النافذة بالكامل من الـ «سوبربان»؛ انكسر ظهره، وانزلق سلاحه للأمام، متجاوزًا العجلات الأمامية لخلاطة الأسمنت.

خلف ذلك مباشرة صرخ سائق سيارة كالفو:

– "تمسكوا!"

رفع نيستور بصره عن هاتفه، ناظرًا عبر الزجاج الأمامي، وإلى وهج الصباح أمامه، تمامًا في اللحظة التي انغلقت فيها مكابح شاحنته وانزلقت السيارة الرباعية لتصطدم بالشاحنة الأولى.

طار هاتف كالفو من يده، وارتطم بظهر المقعد أمامه. وفعل الحارسان الشخصيان على جانبيه الشيء نفسه.

كان قائد فريق حراسة كالفو يجلس في المقعد الأمامي للراكب بالشاحنة الثانية. وبينما كان يتعافى من الارتطام، ارتفعت بندقيته الـ «M4» من بين ركبتيه، وأمسك بجهاز اللاسلكي وصرخ للمركبة الخلفية:

– "الشاحنة الثالثة! ارجع! ارجع! ارجع!"

وضع السائق الخلفي الـ «سوبربان» في وضع الرجوع للخلف، وفعل سائق كالفو الشيء نفسه.

عاد نيستور إلى مقعده في اللحظة التي رجعت فيها شاحنته للخلف، مما قذفه للأمام مرة أخرى. أمسكه الحارس الشخصي على يمينه وغطاه بجسده. وأثناء ذلك، رأى هو وكالفو وميض ضوء على الجرف الصخري أعلاهما وخلفهما قليلًا. جاء دوي انفجار بعد جزء من الثانية، وبعد لحظة، شاهد كالفو وحارسه بلا حول ولا قوة بينما نسف الانفجار الحجر والتراب بعيدًا عن الشجيرات البنية على الجرف.

انفصلت صخور بحجم المقاعد عن جانب الجرف وتدحرجت نحو القافلة، مكتسحة في طريقها الشظايا الصخرية المسطحة والأشجار والتراب.

صرخ شخص ما في شاحنة كالفو:

- "انتبهوا!"

أخطأ الانهيار الأرضي الهائل مركبة نيستور. وبينما ضغط السائق على مكابحه بقوة، اصطدم رئيس استخبارات «البدلات السوداء» بكتفه في مسند رأسه الجلدي، واصطدم به الرجل الذي ألقى بنفسه فوق جسد كالفو. نظر كالفو من النافذة الخلفية في الوقت المناسب ليرى المركبة الخلفية في القافلة تتلقى الضربة القاضية من كتلة الصخور والتراب والغبار والخضرة؛ أطنان من الأنقاض المتساقطة ارتطمت بالـ «سوبربان»، وأدارت المركبة المصفحة الضخمة 180 درجة حول محورها قبل أن تدفنها مع الرجال الستة بداخلها.

استمرت الخرسانة الرطبة في الانسكاب على المركبة الأولى في القافلة. تعافى السائق من الاصطدام بخلاطة الأسمنت، ودفع الوسادة الهوائية المفرغة بعيدًا عن طريقه، ووضع ناقل الحركة في وضع الرجوع للخلف. دارت عجلات الشاحنة في مكانها، لكنها وجدت ثباتًا وبدأت في الرجوع؛ صرخ الرجال في الشاحنة حول السائق، ورجعت السيارة الرباعية بقوة لتصطدم بمقدمة الشاحنة الثانية. بعد ثوانٍ، رجعت خلاطة الأسمنت نفسها للخلف، عبر مئات الأرطال من الطين الرمادي، واصطدمت بالشاحنة الأولى.

استمر الأسمنت في التدفق من أنبوب التفريغ، مباشرة الآن على غطاء محرك الشاحنة.

وجه الحارسان الشخصيان في المقعد الأوسط للشاحنة الثانية، واحد على كل جانب من نيستور كالفو، سلاحيهما نحو النوافذ، منتظرين الأمر بالخروج من السيارة. تردد قائد الفريق، الرجل في المقعد الأمامي للراكب، وصاح:

- "انتظروا! لا نعرف كم عددهم. كالفو آمن داخل الشاحنة."

جلس الرجال في صمت لبضع ثوانٍ، ثم دبت الحياة في الراديو بصوت رجل مصاب من الشاحنة الخلفية:

– "لدينا جرحى. بعضهم ماتوا، أعتقد. ساعدونا."

غير الحارس القائد القناة وأرسل نداءً للشرطة المحلية.

خلفه، كان نيستور كالفو المصدوم ولكن شديد التركيز قد وجد بالفعل هاتفه المحمول على الأرض، وأنهى المكالمة التي كان يجريها، وبدأ في الاتصال بجهات اتصاله الخاصة في المنطقة.

رآه سائق الشاحنة الأولى أولًا. رجل يرتدي جينزًا أزرق متسخًا، وسترة جلدية سوداء، وخوذة دراجة نارية سوداء بزجاج معتم. تتدلى في يده اليمنى مسدس أسود، وفي يده اليسرى حقيبة ظهر سوداء تتأرجح بجانبه.

– "اللعنة! إنه «الرجل الرمادي»! ."

قال السائق ذلك، ثم أمسك بجهازه اللاسلكي لإبلاغ الشاحنات الأخرى.

لكن الشاحنة الثانية كانت قد رأته بالفعل.

– "إنه الغرينغو!"

صرخ الحارس على يسار كالفو، وفتح بابه الخلفي بقوة، ورفع رشاشه قصير الماسورة.

ثم طار عائدًا إلى الداخل على حجر نيستور كالفو. في جبهته وخده الأيسر ثقوب ممزقة تضخ دمًا أحمر غزيرًا على بدلة كالفو.

دفع المستشار الرجل خارجًا إلى الطريق وارتمى ليغلق الباب، مفلتًا هاتفه في الهواء قبل أن يتم الاتصال.

حاول قائد الفريق فتح بابه للخروج من الجانب البعيد للشاحنة المصفحة والاشتباك مع «الرجل الرمادي» من فوق غطاء المحرك. لكن أمتارًا من الأسمنت الكثيف كانت قد تجمعت بالفعل على جانبه من الشاحنة الثانية، ولم يستطع فتحه.

وبدلًا من ذلك، التفت إلى الرجل خلفه، على يمين كالفو:

– "انظر إن كان بإمكانك الخروج!"

ثم عاد إلى بابه وبدأ في إنزال النافذة.

تدافع سائق الشاحنة الأولى عبر الكونسول الوسطي للمقعد الأمامي، إلى جانب الراكب، وكافح لرفع النافذة الثقيلة المضادة للرصاص التي تركها مفتوحة الرجل الذي قُذف خارجًا أثناء الاصطدام الأولي بشاحنة الأسمنت. تجادل الرجال في المقاعد الخلفية حول ما يجب فعله وصرخوا في أجهزة اللاسلكي الخاصة بهم، محاولين التواصل مع قائد الفريق خلفهم فوق صرخات وتوسلات الناجين من الشاحنة الثالثة.

ظهر الرجل ذو خوذة الدراجة النارية عند نافذة جانب السائق للشاحنة الأولى، وسحب جسمًا مستطيلًا كبيرًا من حقيبة ظهره المفتوحة، ولصقه بقوة على الزجاج الباليستي. عندما ارتطم، أصدر صوتًا يشبه صوت سمكة ثقيلة رطبة، والتصق بالسطح الشفاف. توقف الرجال المسلحون داخل المركبة عن الصراخ وحدقوا فيه للحظة، غير متأكدين مما ينظرون إليه. كانت حاوية سوداء مصنوعة من المعدن، ربما الحديد، ومغطاة بمادة سميكة سوداء تشبه القطران. رأوا «الرجل الرمادي» يلتقط حقيبته عن الأرض ويتراجع للخلف، عائدًا حول جانب خلاطة الأسمنت الضخمة.

صرخ السائق:

– "إنها قنبلة!"

سأل حارس في الخلف:

– "هل نحن آمنون؟"

أجاب أحدهم، واثقًا من أن الزجاج المضاد للرصاص سيحميهم:

– "نعم."

حاول رجل آخر مرة أخرى مناداة قائد الفريق في المركبة الخلفية للحصول على تعليمات، وأعرب آخر عن قلقه من أن زجاج النافذة الجانبية ليس بقوة الدرع الجانبي للسيارة.

أخيرًا، بعد النظر إلى الصندوق اللزج على الزجاج لمدة خمس ثوانٍ، أعطى السائق الأمر:

– "غادروا المركبة!"

التفت ثلاث أيادٍ حول ثلاثة مقابض أبواب مختلفة داخل الـ «سوبربان» السوداء الكبيرة.

وعندئذ انفجرت القنبلة، مرسلة النار، وشظايا الحديد، وشظايا الزجاج الباليستي إلى داخل السيارة خلف موجة صدمة تحركت أسرع من سرعة الصوت. تحول جميع الرجال بالداخل إلى أشلاء في ثمانية أجزاء من المائة من الثانية، واهتزت المركبة الثقيلة على هيكلها الفولاذي المقوى. انفجر الزجاج الأمامي من الداخل للخارج، وتحطم على أنبوب خلاطة الأسمنت، والتهمت النيران الركاب الموتى.

الرجال الأربعة الذين ما زالوا على قيد الحياة في الشاحنة الثانية، بمن فيهم نيستور كالفو، اكتفوا بالمشاهدة. عندما اتضح أن المركبة المصفحة أمامهم، وهي شاحنة متطابقة تمامًا مع شاحنتهم، لم تنجُ من الانفجار، أعطى قائد الفريق الأمر لرجاله بمغادرة المركبة.

كان السائق أول من خرج من بابه؛ سحب مسدسه عيار 45 وهو يترنح خارجًا إلى الطريق.

وسط الدخان الأسود المتصاعد من نوافذ الـ «سوبربان» أمامه، ظهر الرجل ذو خوذة الدراجة النارية، كان لا يزال يحمل الحقيبة منخفضة بيده اليسرى، والآن كان مسدسه مصوبًا عاليًا بيده اليمنى.

بدأ السائق في رفع سلاحه نحو التهديد، لكن ثلاث طلقات في صدره أدارته حول نفسه، وجعلت مسدسه يطير من يديه. طلقة رابعة في الجانب الأيمن من جمجمته كسرت رأسه جانبيًا وقتلته على الفور.

سقط ميتاً على الأسفلت بينما انفتح البابان على الجانب المقابل للسيارة ثم انغلقا مرة أخرى.

داخل الشاحنة الثانية صرخ كالفو في العضوين الناجيين من فريقه:

– "قاتلاه! اخرجوا وقاتلاه!"

تحرك الرجلان من جانب لآخر في مقاعدهما، لكنهما كانا متجمدين من الرعب. اكتفيا بمشاهدة الرجل ذي خوذة الدراجة النارية وهو يقف بجانب شاحنتهم ويمد يده إلى حقيبته.

صرخ أحدهم:

– "لديه قنبلة أخرى!"

لكن الرجل سحب قطعة من الورق المقوى بدلًا من ذلك. دفعها إلى الزجاج الأمامي وقرأ الرجال داخل السيارة الكلمة الوحيدة المكتوبة باللون الأسود عليها:

"كالفو".

جلس الرجال الثلاثة في صمت. كُسر الصمت بصوت ارتطام صندوق حديدي مغطى بالقطران يلتصق بنافذة جانب السائق للـ «سوبربان». ابتعد الرجل ذو الخوذة السوداء عن المركبة، ورفع مسدسه، وانتظر.

بعد اثنتي عشرة ثانية، انفتح الباب الجانبي للشاحنة، وقُذف كالفو بركلة حذاء من أحد عضوي فريقه الأمني. سقط فورًا في الأسمنت الرطب الكثيف الذي زحف عائدا على الطريق إلى جانبه من الشاحنة. انغلق الباب خلفه. شتم وهو يحاول الوقوف مجددًا. تقدم الرجل ذو خوذة الدراجة النارية، ومسدسه لا يزال مصوبًا نحو الـ «سوبربان»، وأمسك بالرجل البالغ من العمر سبعة وخمسين عامًا من ربطة عنقه، وسحبه من الأسمنت إلى جانب الطريق. سار كورت للخلف صاعدًا الطريق، ساحبًا الرجل ذا البدلة السوداء الملطخة

بالأسمنت، وهو لا يزال يغطي السيارة بمسدسه، حتى اختفى حول جانب شاحنة القلاب.

أفلت كالفو ومد يده إلى حقيبة ظهره. أخرج هاتفًا خلويًا أسود وسلمه للمكسيكي.

قال الرجل بالإسبانية:

– "اضغط 4. ثم إرسال (Send)."

فعل كالفو كما طُلب منه. وبمجرد الضغط على زر الإرسال، هز انفجار طريق الأخدود على بعد خمسين قدمًا خلفه. انطلقت الشظايا نحو شاحنة الأسمنت وأمطرت التلة. بعد ثلاثين ثانية تحركت خلاطة الأسمنت للأمام باتجاه الغرب، وكان الرجال الوحيدون الذين بقوا على قيد الحياة في الموقع مدفونين تحت أطنان من الصخور والتراب.

تم اعتراض مكالمة هاتفية من قبل عملاء استخبارات «البدلات السوداء» في الثالثة عصرًا. تم تسجيل المكالمة ثم تشغيلها لـ دانيال دي لا روشا وسبايدر سيبيدا بعد عشرين دقيقة فقط. تم تحديد أن المكالمة أجريت من هاتف محمول، وأن المتصل هو الأمريكي المعروف بـ «الرجل الرمادي». تم استقبال المكالمة على خط أرضي في منزل آمن لـ «لوس فاكيروس» في مازاتلان ثم تم تحويلها إلى الهاتف المحمول لـ هيكتور سيرنا، رئيس استخبارات «لوس فاكيروس».

جرت المحادثة بالكامل باللغة الإنجليزية.

– "من هذا؟"

– "إنه أنا."

– "لماذا اتصلت بهذا الرقم؟ من أين حصلت عليه؟"

– "الرقم الذي أعطيتموني إياه مكشوف لـ «البدلات السوداء». كالفو أخبرني بنفسه. حصلت على هذا الرقم من جيري فليجر قبل بضعة أيام. كنت أعلم أن من يجيب سيتمكن من إيصالي بك في النهاية."

– "هل لديك كالفو؟"

– "نعم."

– "لا يصدق. ومع ذلك، لا يمكن الوثوق بهذا الخط."

– "إنه نظيف."

– "كيف عرفت؟"

– "كالفو لا يعرف عنه شيئًا."

– "ماذا لو كان يكذب؟"

– "إنه خائف جدًا لدرجة تمنعه من الكذب."

صمت.

– "حسنًا جدًا. متى ستسلمه لنا؟"

– "كالفو يقول إن «البدلات السوداء» يعرفون عن المنزل الآمن في تيبيك. نحتاج لتغيير الموقع."

صمت طويل.

– "حسنًا."

– "يمكنني أخذه إلى المنزل الآمن الذي كان ذاهبًا إليه اليوم."

– "لا. من الواضح أنهم يعرفون موقع..."

– "إنه المكان الآخر الوحيد الذي أعرفه. لن يتوقعوا منا تسليمه هناك. لا يوجد سبب للاشتباه بأنهم سيكونون هناك."

– "لا يعجبني الأمر."

– "هل تريده أم لا؟"

– "بالطبع نريده."

تأخير قصير.

– "في أي وقت؟"

– "منتصف الليل."

– "لماذا ليس أبكر؟"

– "أعتقد أن هناك آخرين يبحثون عني. الاستخبارات المركزية. الروس. سيستغرق الأمر بعض الوقت لتغطية آثاري والوصول إلى هناك."

– "نحن سنأتي إليك. أخبرني أين..."

– "منتصف الليل. المزرعة في كونكورديا. سأكون هناك. أحضر الكثير من الرجال والكثير من البنادق."

وانتهت المكالمة.



54

في تمام الخامسة مساءً، اجتمعت قيادة "البدلات السوداء" في الردهة الرئيسية الواسعة لـ كاسا دي لاس أولاس؛ وهي فيلا عصرية ضخمة تبلغ مساحتها أحد عشر ألف قدم مربعة، تطل على الشاطئ جنوب وسط بورتو فالارتا بمسافة خمس عشرة دقيقة على الطريق السريع الفيدرالي (200).

كان القادة المجتمعون تحت حماية أربعة وعشرين قناصًا (سيكاريو) يجوبون أرجاء الضيعة الممتدة على مساحة عشرة أفدنة، وكان هؤلاء بدورهم محاطين بقوات من شرطة بلدية بورتو فالارتا الذين يتقاضون أجورهم من دي لا روشا. كانت دوريات الشرطة تجوب الحي بسيارات الخدمة، بينما استقرت قاربا شرطة سريعان ومسلحان في عرض البحر، خلف خط تكسر الأمواج مباشرة.

تولى سبايدر إدارة الجزء الأكبر من الاجتماع بينما وقف دانيال دي لا روشا بجانبه.

تحدث سبايدر قائلًا:

– "ستشن أربعة فرق هجومًا على مزرعة كونكورديا في الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق بعد منتصف الليل؛ حيث ستهاجم أربع حافلات منفصلة من الجهات الأربع الأصلية. وسيندفع فريق خامس خلف الهجوم الرئيسي بهدف استعادة نيستور وإخراجه من المنطقة. سنلتقي جميعًا هنا ثانية عند الفجر."

ارتشف دي لا روشا من زجاجة مياه معدنية وهو يتطلع عبر النوافذ التي يبلغ ارتفاعها خمسة عشر قدمًا نحو خليج بانديراس. كان مشتت الذهن لأسباب عدة، ليس أقلها أنه لن يشارك في مهمة الإنقاذ لاستعادة مستشاره؛ إذ تقرر أن تعريض دي لا روشا لما سيكون بالتأكيد معركة طاحنة سيشكل خطرًا جسيمًا على المنظمة نفسها.

وحتى سبايدر – قائد الجناح المسلح – سيبقى هو الآخر في الخلف؛ فقد أصدر دانيال أمرًا بذلك، ولم يكن سبايدر راضيًا، ولكن منذ إعدام إميليو لوبيز لوبيز، أصبح سبايدر هو المسؤول الأول عن سلامة دانيال، لذا كان من المنطقي أن يظل بجانبه في المنزل.

لقد سبق لكلا الرجلين قيادة القوات في المعارك، ولم يرغب أي منهما في البقاء في هذا القصر الشاطئي بينما يقاتل جنودهم وينزفون ويموتون على بُعد مائة ميل شمالًا. لكن المنطق فرض نفسه في النهاية.

وكان لدى دانيال شعور بأن البقاء هنا الليلة، مع قوة صغيرة نسبيًا قوامها عشرون مسلحًا، لن يخلو من الإثارة أيضًا.

ومع انتهاء المباحثات حول العملية الوشيكة، وبدء الرجال المتوجهين للقتال في تجهيز أسلحتهم ومعداتهم، غادر دانيال الردهة الرئيسية وصعد إلى غرفة طعام مرتفعة مفتوحة على الصالة الكبرى.

بمجرد وصولهم إلى هذه الفيلا المستأجرة، أمر بإزالة طاولة الطعام الطويلة ووضع تمثال ضخم لمعبودته "سانتا مويرتي" مكانها. استقر الهيكل العظمي على عرشه في منتصف الغرفة، وتدلت خلفه ستائر بيضاء من السقف العالي حتى الأرضية الخشبية، بينما أحاطت الشموع بالعرش وبالغرفة بأكملها. جثا دانيال على ركبتيه أمام قديسته، وتلا صلاة من أجل عائلته، ثم صلاة من أجل موت "الرجل الرمادي".

وفي ختام صلاته، رفع رأسه ببطء نحو وجه "سانتا مويرتي"، ثم نادى على سبايدر. اندفع سيبيدا من وسط رجاله في الردهة وصعد الدرجات الثلاث نحو قاعة الطعام المرتفعة.

– "نعم، دون دانيال؟"

– "هل تعتقد حقاً أن الغرينغو حصل على رقم الهاتف الذي اتصل به اليوم من جيري فليجر؟"

أجاب سبايدر:

– "كلا. كالفو هو من أعطاه هذا الرقم لأنه يعلم أن عملاءه يراقبونه. ذلك العجوز الماكر لا يستهان بدهائه."

أومأ دي لا روشا برأسه قائلًا:

– "نعم، إنه ماكر جدًا."

ظل سبايدر واقفاً بوقار بجانب زعيمه.

التفت إليه دانيال وقال:

– "أريد من كل من سيبقى هنا الليلة أن يكون على أهبة الاستعداد للقتال."

أومأ سبايدر برأسه، وبدا عليه الارتباك:

– "بالتأكيد."

نهض دانيال وغادر غرفة الطعام عبر الستائر، متجهًا نحو جناحه الخاص في الجزء الخلفي من القصر.

تقع مجموعة من الجزر الصغيرة غير المأهولة في خليج بانديراس، على بُعد بضع مئات من الياردات من مسمالويا. تُعرف هذه الجزر مجتمعة باسم لوس أركوس (الأقواس)، وسُميت بهذا الاسم نسبةً إلى التشكيلات الصخرية التي نحتتها أمواج البحر المتلاطمة عبر القرون لتشبه الأقواس. خلال النهار، يزدحم المحمية البحرية المحيطة

بـ لوس أركوس بالغواصين وهواة السباحة وقوارب النزهة، ولكن قبل ساعة واحدة من منتصف الليل، لم يكن هناك في المياه المحيطة بتلك الجزر الصغيرة سوى الأسماك وجراد البحر وطيور "الأطيش" الزرقاء النائمة وغيرها من الطيور البحرية.

وعلى بُعد خمسين ياردة من الشاطئ، كان قاربان خاصان يتمايلان فوق الماء؛ في كل قارب أربعة رجال يضعون بنادق M16 فوق أحضانهم، وكان اثنان منهم في كل قارب يحملان قاذفات قنابل M203 مثبتة أسفل بنادقهما. كما زُود كل قارب بجهاز لاسلكي وكشاف يدوي ضخم بقوة مليوني شمعة لمسح سطح الماء الهادئ في جميع الاتجاهات.

لم تكن القوارب سفنًا حربية، لكن هذين الزورقين المسلحين سيشكلان بالتأكيد عائقًا أمام أي شخص يحاول الوصول إلى الجزء الخلفي من كاسا دي لاس أولاس عبر البحر.

كان كورت جينتري جاثيًا في مياه يصل ارتفاعها إلى خصره، تندفع ذهابًا وإيابًا في التجاويف المظلمة لغار صغير في إحدى صخور لوس أركوس. كانت عيناه تتطلعان وراء القاربين الصغيرين نحو شاطئ الرمل الأبيض خلفهما. كان هناك رجلان يحملان كشافات يدوية يسيران ذهابًا وإيابًا على الرمل، والبنادق تتدلى على ظهورهم، بينما امتد جدار من الصخور البيضاء والمنحدرات البنية على يمين الشاطئ الصغير.

تجاوز بنظره الرجال والشاطئ، وصعد ببصره نحو التلة ليمسح الضيعة الفخمة. بدت وكأنها محطة فضاء؛ هيكل حديث من الزجاج والفولاذ، مليء بالحواف المعدنية الحادة والجدران الزجاجية. كانت النقطة المركزية في الجزء الخلفي من المنزل هي شرفة تمتد على طول

نافذة عملاقة. ومن وراء الزجاج، استطاع كورت بصعوبة تمييز إضاءة خافتة، ربما كانت من الشموع. كانت معظم أرجاء الضيعة مضاءة جيدًا، وافترض كورت أنها محمية بإحكام، ولكن من موقعه هذا، بدا المبنى نفسه مغلقًا وهادئًا.

وفي أعلى نقطة من الجناح الجنوبي للقصر الضخم، استقرت مروحية سوداء من طراز "يوروكوبتر EC135" في ظلام دامس، ولم يحدد ملامحها سوى بضعة أضواء شوارع ومبانٍ متوهجة على تلال بعيدة.

استغرق كورت بضع دقائق لتفريغ قاربه المطاطي الصغير من الهواء ودسّه في ركن جاف داخل الغار بعيدًا عن أنظار الساحل. ثم التفت إلى معداته المرتبة فوق رف صخري فوق مستوى الماء مباشرة؛ ارتدى بدلة الغوص وزعانفه، وعلق حبلًا طويلاً ملفوفًا بأسطوانة الأكسجين، وثبّت مسدس الـ "غلوك" في سترة الغوص، وأرفق حقيبة ملابسه ومخازن الرصاص الإضافية وغيرها من الأدوات بحزام المهام الخاص به.

أخرج هاتفًا محمولاً من حافظة واقية، وشغّله، ثم أجرى مكالمة هاتفية. قال كورت ما كان عليه قوله، ثم أغلق الخط بينما كان الرجل على الطرف الآخر يصرخ ويكيل الشتائم.

أعاد الهاتف إلى الحافظة، وأعاد الحافظة إلى الحقيبة.

في الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة ليلاً، غاص كورت ببطء تحت الماء في الغار، ودفع نفسه بيديه المكسوتين بالقفازات، ثم بدأ في ركل ساقيه، ليبدأ السباحة بعيدًا عن لوس أركوس باتجاه الشاطئ.

مرّ بجانب القاربين بعد عشرين دقيقة، سابحًا على عمق ستين قدمًا تحتهما، وهو يتنفس ببطء وبأقل قدر ممكن من العمق لتقليل الفقاعات الصاعدة. وبعد عشرين دقيقة أخرى، أصبح تحت الأمواج المتكسرة، حيث بدأ قاع المحيط يرتفع نحو الشاطئ. كانت كل موجة

تدفعه للأمام يتبعها تيار يسحبه للخلف، لكنه استمر في الركل ليزيد من تقدمه، وبعد عشر دقائق من الجهد الشاق، شق طريقه نحو الشاطئ. ترك التيار يدفعه جنوب أضواء المبنى، بعيدًا عن الشاطئ المفتوح وإلى منطقة الصخور.

خلع معدات الغوص، وأغلق أسطوانة الأكسجين، وخبأها بين الصخور عند حافة الماء. نزع زعانفه وبدلة الغوص الرطبة؛ ليتضح أنه كان يرتدي تحتها ملابس قطنية سوداء من الرأس إلى أخمص القدمين. انتعل حذاءً ذا نعل ناعم، وسحب قناع تزلج أسود فوق وجهه، ووضع مخازن الرصاص الإضافية في جيوب بنطاله الواسعة، وثبّت مسدس الـ "غلوك" الأسود في الجراب على حزامه.

عند منتصف الليل، بدأ في تسلق الصخور، حريصًا على البقاء بعيدًا عن أنظار الحراس على الشاطئ، أو أضواء الكشافات من القوارب، أو أي حراس يراقبون من نوافذ المنزل.

كان تقدمه بطيئًا وشاقًا، لكنه وصل إلى الجانب الجنوبي من الفيلا، ثم واصل سيره بصمت نحو الواجهة الأمامية، حريصًا على التحرك في الظلال وبدقة متناهية.

كان دانيال دي لا روشا جاثيًا أمام تمثاله المعبود في غرفة الطعام المضاءة بالشموع، بينما كانت الردهة الرئيسية الواسعة ذات السقف العالي مفتوحة وخالية خلفه. كانت الغرفتان تضاءان بنور أكثر من مائة شمعة بيضاء، بالإضافة إلى القليل من الضوء المحيط الذي يتسلل عبر نوافذ الردهة المطلة على الخليج. كانت الشموع المشتعلة على الأرض، وفوق الطاولات، وفي الحوامل الجدارية، تنشر ليس فقط الضوء، بل رائحة الشمع النفاذة أيضًا.

كان دانيال عاري الصدر، وجسده النحيل المفتول بالعضلات مزينًا بالوشوم؛ وشم كبير لـ "سانتا مويرتي" على صدره بألوان

الأحمر والأسود والأزرق، وأسماء أطفاله الستة بخط مزخرف على ظهره. وشوم لأسلحة على عضلات ذراعيه، وشارات وحدات عسكرية على بطنه، وأسماء زملائه القتلى من "البدلات السوداء" منقوشة في كل مساحة فارغة من جسده.

ظل جاثيًا في تضرع، وحيدًا تمامًا في الغرفة المضاءة بالشموع، حتى بدأ رأسه يرتفع ببطء.

لم يلتفت وهو يقول بالإنجليزية:

– "لقد أخبرتني أنك ستأتي."

لم يرد أحد على هذا التعليق. تابع دانيال قائلاً:

– "كنت تعلم أننا نراقب خط الهاتف ذاك؛ لقد جعلتنا نرسل رجالنا إلى كونكورديا لإبعادهم عن هنا."

جاء الرد الآن، بصوت حازم وآمر:

– "لو حركت عضلة لينة واحدة، فسينتهي بك الأمر وأشلاء رأسك منثورة فوق ثوب عشيقتك."

تحرك "الرجل الرمادي" بصمت مقتربًا عبر البلاط الأبيض للردهة الواسعة، ومسدسه الـ "غلوك" مصوّب نحو مؤخرة رأس دانيال دي لا روشا. وبمجرد أن أدرك وجود شرفة في الطابق الثاني تطل على الردهة، استدار على عقبيه، ومسح بسلاحه خط الرؤية، وبحث بسرعة عن أي تهديد في الأعلى. لكن الشرفة كانت غارقة في السواد والسكون، تمامًا كما كان الحال في الردهة، وفي الأمام حيث تحولت غرفة الطعام – كما تصور كورت – إلى غرفة عرش لتمثال هيكل عظمي سخيف.

سأل دانيال:

– "هل يمكنني الوقوف؟"

– "ببطء، وضع أصابعك مشتبكة خلف رأسك أولاً."

امتثل دانيال، واقترب كورت لمسافة عشرين قدمًا تقريبًا، لكنه ظل يجيل بصره في كل مكان، حائرًا من انعدام الحماية حول زعيم الكارتل الجالس أمامه.

– "هل يمكنني الالتفات؟" سأل دانيال بهدوء.

أدار كورت رأسه وسلاحه سريعًا لمسح ما وراءه، ثم عاد لمراقبة الشرفة على يساره وخلفه.

كان المكان خاليًا.. مظلمًا وساكنًا وخاليًا.

– "ببطء."

استدار دانيال وواجه "الرجل الرمادي" الواقف أمامه.

– "لقد أخبرتني أنك ستأتي."

– "لقد قلت ذلك بالفعل. أين لورا؟"

– "أنت لم تسلم نيستور لـ مادريغال."

– "لا، لم أفعل."

ابتسم دانيال قليلاً وقال:

– " إل فاكيرو سيكون غاضبًا منك."

تحدث كورت بلهجة عملية جادة:

– "أين الفتاة؟" ثم استدار مرة أخرى، وهو يحرك فوهة سلاحه بسرعة خاطفة ليمسح كل زوايا المكان.

– "تريد مقايضة نيستور الخاص بي بـ لورا الخاصة بك، أليس كذلك؟"

– "هذا صحيح. استعده، وسأرحل أنا ولورا معًا. الكل رابح."

اكتفى دي لا روشا بهز كتفيه؛ بدأ كورت في التراجع للخلف، آملاً في الوصول إلى جدار كي لا يظل ظهره مكشوفاً للشرفة خلفه.

وبينما كان جينتري يتراجع ليصطدم بأريكة في منتصف الصالة، قال دي لا روشا:

– "نيستور أخبرك أن رجاله يراقبون خط الهاتف، ولهذا السبب اتصلت به."

لم يرد كورت.

تابع دانيال:

– "نيستور أعطاك هذا العنوان أيضًا. لقد خذلني بالتآمر معك، وخذلني أكثر بالتعامل مع مادريغال في المقام الأول؛ بالتفاوض من وراء ظهري لإبرام صفقة تخصك. لقد اكتشفت كل هذا بعد الظهر، ونتيجة لذلك، فقدت ورقة المساومة التي تملكها كل قيمتها."

– "ماذا تقصد؟"

– "أقصد... لو أنك أحضرت كالفو معك الليلة، لكنت قتلته بنفسي."

بدأ كورت يتحرك جانبيًا بمحاذاة الأريكة الطويلة.

– "لذا كما ترى يا صديقي، لقد أتيت إلى هنا وليس معك ما تقايض به من أجل الفتاة."

بدأ عقل كورت يبحث عن مخرج للمأزق، وقال:

– "بل هناك شيء ما."

– "ما هو؟"

– "مقابل حياتها، ستحصل عليّ. تخرج هي من هنا الآن، ونظل واقفين نراقب بعضنا البعض حتى أتأكد من سلامتها، وعندها سأضع سلاحي. أنا مقابلها. موافق؟"

– "هناك مشكلة واحدة في عرضك."

– "ما هي؟"

– "أنا أقبض عليك بالفعل."

سمع كورت صوت وقع أقدام فوقه وخلفه. ظهر اثنا عشر رجلاً على الشرفة؛ توجه ستة منهم إلى يساره، وبقي الستة الآخرون في

مكانهم. افترض أنهم كانوا يراقبون المحادثة عبر دائرة تلفزيونية مغلقة.

كانوا جميعًا يحملون بنادق M4.

تباً.

55

– "لم أرسل كل رجالي القتلة إلى كونكورديا. في الواقع، هؤلاء ليسوا كلهم. لقد احتفظت بقائد ذراعي التنفيذية، تحسبًا لاحتياجي لمساعدته هذا المساء."

نظر دي لا روشا إلى يساره:

– "سبايدر؟"

انفتحت الستارة على يسار العرش. ووقف خلفها سبايدر ببدلته السوداء. كانت ذراعاه مرفوعتين عاليًا في الهواء، تحملان منجلًا طويلًا لامعًا.

وأسفله، على ركبتيها، مكبلة ومكممة، ركعت لورا غامبوا. نظرت إلى كورت في الأسفل بالقاعة، ثم قاومت قيودها.

تحول سلاح كورت نحو جبهة سيبيدا.

– "حرك تلك الشفرة وسأرديك قتيلًا."

ارتجف صوته وتقطع وهو يتحدث.

ضحك دي لا روشا عليه:

– "فكر في الأمر يا صديقي! تطلق النار على سبايدر، ثم يمطرونك كل الرجال هنا بطلقات الرشاشات. وبعد ذلك، وأنت ميت أو تحتضر، أتقدم وأقطع رأسها بنفسي."

فك دانيال تشابك أصابعه وأسقط يديه إلى جانبيه.

– "أعرف ما هو أصعب شيء عليك الآن أيها الغرينغو. ليس إنقاذها، ولا قتلي، ولا النجاة بحياتك. لا، أيها الرجل الرمادي، أصعب شيء في هذه اللحظة هو محاولة عدم التفكير في عبارة (المأزق المكسيكي[12])."

ضحك على نكتته.

– "يمكننا حل هذا يا دانيال. في غضون دقائق هذا..."

– "اصمت!"

صرخ دي لا روشا، ثم استدار خلفه، وفتح الستارة، وسحب صندوقًا صغيرًا. فتحه وأخرج غرضًا منه.

كان كيسًا بلاستيكيًا أسود، وشك كورت فورًا في احتوائه على رأس بشري. وكان محقًا. سحبه دانيال ورفعه عاليًا فوقه. ركز كورت على المنظر المقزز، وحدق في الوجه.

إيلينا؟

لا. إنه رجل.

رمسيس؟

لا... الشعر أفتح.

لم تستطع أضواء الشموع المتراقصة من مائة مصدر أن تعيد الحياة للعينين المفتوحتين الفارغتين. شد كورت فكيه. وقال بصوت عالٍ:

– "جيري."

– "أمسك قتلة سبايدر بصديقك الأمريكي أمس وهو يحاول ركوب سفينة سياحية في كانكون. تحت التعذيب اكتشفنا أن آل غامبوا عبروا الحدود في نوغاليس ووصلوا إلى توسون. كنت ذكيًا في عدم

[12] (المأزق المكسيكي) *Mexican standoff* تعبير اصطلاحي يُستخدم لوصف مواجهة متوترة يقف فيها عدة أطراف مسلحين أو متخاصمين، بحيث لا يستطيع أي طرف التحرك أو الهجوم دون أن يعرّض نفسه لهلاك فوري. النتيجة تكون جمودًا قاتلًا: لا نصر، ولا انسحاب، فقط انتظار لانفجار الموقف أو خطأ واحد ينهي الجميع.

إخباره بالمزيد من خططهم. كان فليجر ضعيفاً. ومع ذلك، عملوا عليه طوال الليل قبل أن يحددوا أنه لا يعرف مكانك."

– "لذا، لم يعرف جيري أين ذهبت إيلينا. لقد كان، في النهاية، عديم الفائدة."

قذف دي لا روشا برأس رجل السفارة الأمريكية عبر الغرفة، نحو النوافذ الضخمة على يمين كورت. تدحرج الرأس إلى زاوية مظلمة واختفى.

– "أحتاج إيلينا غامبوا. عرضت حياة لورا الصغيرة هنا على القديسة، لكنها ضحكت فقط. عرضت عليها حياتك، لكنها أخبرتني أن موتك سيخدمني أنا، وليس هي، وبالتالي، فهو ليس هدية على الإطلاق."

جالت عينا كورت في الغرفة مرة أخرى بينما كان دي لا روشا يتحدث. بخلاف المدخل الذي مر عبره لدخول القاعة، كان هناك مدخل آخر مرئي، قوس على يساره يؤدي، بلا شك، إلى مقدمة المنزل. شك في وجود قوس آخر خلف الستائر في غرفة الطعام. سيؤدي ذلك نحو الجناح الجنوبي للمبنى الضخم.

لم يكن متأكداً من أهمية أي من ذلك، لأن الرجال الاثني عشر الذين يضعونه في مرماهم سيقطعونه نصفين إذا اتجه لأي من المخارج.

قال دي لا روشا:

– "لذا، سأقدم لك هذا العرض الوحيد. أخبرني أين تختبئ إيلينا؛ سأرسل رجالي إلى هناك، وبمجرد أن نحصل عليها، سأدع لورا تغادر."

– "احتفظ بي. سأخبرك."

هز دي لا روشا رأسه؛ وبدا شبه متعب من النقاش.

– "لا اتفاق."

التفت إلى سبايدر:

– "هل تعبت ذراعاك؟"

أبقى سبايدر يديه عاليتين فوق رأسه:

– "نعم يا زعيمي."

– "لن يطول الأمر الآن يا صديقي."

نظر إلى كورت:

– "قرارك. هل تعيش أم تموت؟"

تطلعت عينا لورا البنيتان الكبيرتان إلى كورت. كانت مكممة بقطعة قماش سوداء، لكنها عضتها وحاولت الوقوف. ضغط سبايدر عليها بيد واحدة، وأبقى المنجل فوقها، مستعدًا لقطع عنقها النحيل.

في الخارج، في المسافة، كان هناك صوت لا لبس فيه لبندقية كلاشينكوف تطلق النار بشكل أوتوماتيكي كامل. تصلبت جميع الأجساد في الغرفة عند سماع الصوت. انضم سلاح آخر بعد ثانية. كانوا على بعد بضع مئات من الأمتار، لكن حجم النيران ازداد.

بدأت أجهزة إنذار السيارات في الحي بالانطلاق.

سأل دي لا روشا:

– "من هذا؟ رجال مادريغال؟"

هز كورت كتفيه. كان يعلم أنهم هم، لكن كلما طال أمد الشك كان ذلك أفضل.

– "ربما الاستخبارات المركزية. واحتمال ضئيل أن تكون المافيا الروسية."

كان كورت يعلم أنهم «لوس فاكيروس» لأنه اتصل بـ هيكتور سيرنا بنفسه أثناء وجوده في المغارة بـ لوس أركوس. أخبره كورت أنه يمكنه العثور على كالفو في هذا العنوان. صرخ سيرنا في وجهه بسبب تغيير الخطط، لكن كورت أغلق الخط قبل الاستماع للكثير من غضب الرجل.

بدأ القلق يظهر على دي لا روشا مع استمرار نيران الكلاشينكوف. نبح بأمر لـ سبايدر:

– "ابق خمسة هنا، وأرسل البقية إلى المحيط. اجعل الطيار يجهز مروحيتي."

صرخ سبايدر بأمر للرجال على الشرفة ثم بأمر آخر في جهاز لاسلكي على حزامه. اختفى جميع المسلحين عدا خمسة، والذين بقوا انتقلوا جميعًا إلى الشرفة الشرقية. أبقوا بنادقهم مصوبة نحو «الرجل الرمادي» أثناء قيامهم بذلك.

عاد دي لا روشا إلى الصندوق الذي سحب منه رأس فليجر. استخرج الآن حزام مسدسات كبيرًا. كان يتدلى منه زوج من المسدسات الفضية الأوتوماتيكية عيار 45. ربط الحزام حول خصره، وربط الجرابين حول فخذي بنطاله الأسود، ونظر مرة أخرى إلى «الرجل الرمادي».

– "أنت تجبرني على ذلك، أيها الأحمق."

حول كورت سلاحه بعيدًا عن سبايدر وعاد نحو دي لا روشا.

– "أعط الأمر لـ سبايدر، وسأقتلك أولًا."

ضحك دانيال:

– "غرينغو مغرور تقليدي. أنت رجل واحد بمسدس. إذا أعطيت الأمر لـ سبايدر، فلن تتاح لك فرصة لإطلاق النار على أي..."

أدى انفجار قوي خارج المنزل مباشرة إلى تساقط رقائق صغيرة من الجص من السقف. التفتت جميع الرؤوس نحو الضجيج.

باستثناء واحد. ظل كورت مركزًا على أهدافه، حتى وعقله يتسابق.

اللعنة.

لم يعجب كورت بفرصه، لكنه لم ير أي خيار آخر.

كان لديه خدعة واحدة في جعبته، وسيتعين عليه استغلالها لأقصى حد.

بدا المسدس في يده تمامًا مثل «غلوك 17»، وهو مسدس نصف أوتوماتيكي شائع. بالتأكيد حدده دي لا روشا وسبايدر وجميع المسلحين على الشرفة على أنه كذلك. لكنه كان «غلوك 18». يبدو السلاحان متطابقين تقريبًا، لكن الـ 18 مسدس نادر قادر على إطلاق النار بشكل أوتوماتيكي كامل. فوهته المثقوبة قادرة على قذف رصاصات عيار 9 ملم بمعدل ألف ومائتي طلقة في الدقيقة.

فكر كورت في الأمر في لحظة، محضرًا لخطة هجوم.

سبايدر ومنجله فوق رقبة لورا يجب أن يذهبا أولًا؛ لا مجال للالتفاف حول ذلك. الرجال في الأعلى على يسار كورت كانوا يرتدون بدلات كيفلار أيضًا، تمامًا مثل رئيسهم، ورصاصات كورت عيار 9 ملم لن تخترق الكيفلار، لذا سيتعين عليه إما مسح الخمسة بطلقات رأس منفذة ببراعة أو، على الأقل، دفعهم للوراء قليلًا بطلقة أو اثنتين في دروعهم اللينة ثم الإجهاز عليهم بعد إعادة التلقيم.

لم يكن دي لا روشا يصوب سلاحًا نحوه، كما كان يفعل القتلة على يساره، لكن مسدسيه الـ 45 سيدخلان القتال في أقل من ثانيتين. سيتعين على كورت تنفيذ إعادة تلقيم طارئة للـ «غلوك» بسرعة ودقة مثاليتين، كل ذلك مع تجنب نيران أي من الرجال المسلحين ببنادق الـ «M4» الذين نجوا من وابله الأولي.

ثماني عشرة طلقة ستطلق في الوضع الأوتوماتيكي الكامل بمعدل ألف ومائتي طلقة في الدقيقة. سيفرغ مسدسه في نصف ثانية.

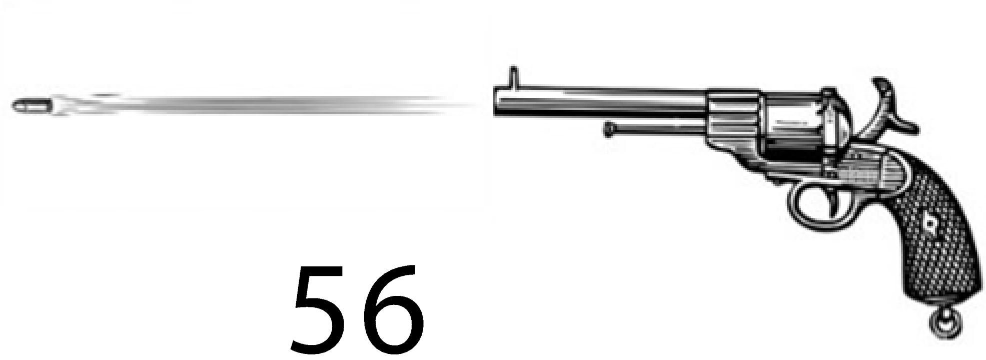
أوه نعم، كان هناك عامل آخر عرف جينتري أنه بحاجة لمراعاته. بمجرد أن يبدأ في إطلاق النار، سيرسل رد الفعل وحده طلقات من بنادق العدو مباشرة حيث يقف. لكي تكون لديه أي فرصة للنجاة،

سيتعين عليه تنفيذ كل هذه الدقة أثناء الغوص بعيدًا عن الطريق، محركًا جسده بأسرع ما يمكن من حيث تصوب الأسلحة الخمسة.

شعر كورت بثقة أنه لا يوجد أحد على وجه الأرض لديه فرصة أفضل لتنفيذ هذا. ومع ذلك، قدر فرص نجاته بأقل من 25 في المائة.

في عالم السلاح، كان هذا يسمى "رشّ الرصاص وتوكّل" (spray and pray).

وكان جينتري على وشك القيام بكليهما.



56

– "أين إيلينا غامبوا؟"

صرخ دانيال دي لا روشا بسؤاله هذه المرة، بينما دَوَى انفجار آخر خارج القصر مباشرة؛ يبدو أن "الفاكيروس" قد أحضروا معهم بعض قذائف RPG.

تابع دانيال قائلًا:

– "سبايدر، إذا لم يجب خلال خمس ثوانٍ، فاقتل هذه العاهرة!"

استجمع كورت جينتري أنفاسه، زفرها ببطء، ثم ألقى نظرة سريعة على لورا قبل أن يعيد بصره إلى دانيال.

أخفض مسدسه بعيدًا عن صدر دانيال الموشوم.

وفي اللحظة نفسها، بدأت يد دانيال تمتد نحو مسدسي الـ (0.45) الفضيين على حزامه. لقد حانت لحظة الحسم؛ فبمجرد أن يصوب دانيال سلاحيه، ستصبح المعادلة مستحيلة الحل.

في ضوء الردهة الخافت، رفع كورت مسدسه بحركة خاطفة غامت لها الأبصار، وحوّل تصويبه نحو اليمين دون أن يبرح مكانه، وضغط على زناد الـ Glock 18. وبمجرد أن استقام المسدس نحو أنف سبايدر سيبيدا، انطلقت رصاصة واحدة من الفوهة وسط سحابة من الدخان والنار. ودون أدنى تردد أو انتظار لرؤية نتيجة رصاصته، لفت كورت جذعه بقوة نحو اليسار، وارتخت ركبتاه ليهوي بجسده مباشرة نحو البلاط أمام الأريكة. لجزئين من الألف من الثانية، كان سلاحه

موجهًا نحو صدر دانيال العاري، لكنه لم يطلق النار؛ فقد كان دانيال في ذيل قائمة أولويات التهديد لديه، إذ لم يسحب مسدسيه بعد، لذا ظل فوهة الـ غلوك صامتة وواصلت مسحها نحو اليسار.

سمع دوي بندقية في الغرفة قبل أجزاء من الثانية من بدء سلاحه في العمل؛ ضغط الزناد في اللحظة التي ارتطم فيها بساطه بالأرض الصلبة؛ تحول مسدسه إلى الوضع الآلي الكامل بينما بدأت الفوهة تمسح قناصة "البدلات السوداء" الخمسة على الشرفة العلوية.

ومن خلف الدخان الرمادي المتصاعد من فوهة مسدسه الآلي، رأى الرجال ذوي البدلات السوداء يترنحون ويتساقطون للخلف وللأمام، بينما كانت رصاصاته من عيار 9 ملم تخترق أجسادهم من اليمين إلى اليسار.

وبسرعة خاطفة، فرغ مخزن السلاح وارتد أجزاؤه للخلف، وكان كورت قد بدأ بالفعل في التدحرج يسارًا فوق الأرض للابتعاد عن نيران الرد. وبينما كان يتدحرج بكتفيه مارًا خلف الأريكة، أعاد تذخير سلاحه ببراعة؛ أسقط المخزن الفارغ بضغطة إبهام على زر التحرير، وسحب بيد يسراه مخزنًا طويلاً يتسع لاثنتين وثلاثين رصاصة من جيب بنطاله القطني. وبعد دورتين كاملتين بجسده، انتصب واقفًا في وضعية القرفصاء المشدودة. ركض للخلف وهو يدفع المخزن الأسود الطويل في مكانه ويسحب الأجزاء ليلقم رصاصة في الحجرة، محاولًا في الوقت ذاته مسح نتائج عمله.

سمع دوي رصاصة أخرى، مما يعني أن ليس الجميع قد سقطوا. رفع سلاحه وهو لا يزال يتراجع للخلف، فرأى سبايدر ملقى على الأرض بجانب لورا، التي سقطت على جانبها بجوار عرش "سانتا مويرتي". وبمسح بصري نحو اليسار، لمح ظهر دي لا روشا الموشوم وهو يفر خلف الستائر الكائنة وراء العرش حيث تجلس التمثال الهيكل العظمي. دَوَى صوت بندقية من الشرفة قبل أجزاء من الثانية من إطلاق

كورت رصاصة واحدة نحو الستائر، ثم أدار تصويبه بسرعة نحو القتلة الخمسة في الأعلى. ضغط الزناد باستمرار وهبط مرة أخرى على ركبتيه، مفرغًا مخزن الرصاص الكامل في موقع "البدلات السوداء" فوقه بينما يهوي بجسده للأمام منبطحًا، محاولًا بيأس إبقاء جسده متحركًا خارج مرمى نيران أعدائه.

انفتح أجزاء المسدس معلنًا فراغه للمرة الثانية، فوثب كورت واقفًا وهو يلقم آخر مخزن كبير لديه. تحرك مجددًا في الغرفة المضاءة بالشموع، وهذه المرة بشكل عرضي أمام النوافذ الممتدة من الأرض إلى السقف. اتجه نحو لورا، وسلاحه مصوب نحو الشرفة؛ كان هناك رجل واحد يتدلى فوق الحافة، وقد علقت حمالة بندقيته بسترة بدلتة مما جعل ذيل السترة يغطي رأسه. لم يرَ كورت أي شخص آخر، حيًا أو ميتًا، لكنه أطلق رشقين قصيرين نحو الأعلى لإجبار أي رؤوس ناجية على البقاء منخفضة.

وبينما كان يتحرك بخطوات جانبية سريعة عبر الغرفة، شعر بهبة ريح باردة خلفه، ورأى النسيم ينساب في الأرجاء بينما اضطربت الشموع والستائر. لقد أدت نيران بنادق القتلة إلى تحطيم النوافذ الضخمة المطلة على خليج بانديراس. هبت ريح بحرية عاتية إلى الداخل، فتمايلت حوامل الشموع وتطايرت الستائر الحريرية، وفي غضون ثوانٍ، اندلعت ثلاث حرائق متفرقة في الردهة.

نظر إلى لورا، وسلاحه لا يزال مرفوعًا نحو الطابق العلوي. كانت المرأة المكسيكية الصغيرة لا تزال ملقاة على جانبها، لكنها نجحت في التقاط ساطور سبايدر بأطراف أصابعها وتحاول قطع قيود معصميها دون أن ترى ما تفعله. ذُهل كورت بمبادرتها وشجاعتها.

قال لها:

– "اتركي الأمر لي."

وأنهى المهمة بسرعة.

كان الخشب بلون القرفة مبللاً بالدماء من حولهما. تمنى كورت أن يكون ذلك دم سبايدر لا دمها هي.. أو دمه هو.

لم يتفقد كورت نفسه بحثًا عن جروح؛ فلا وقت لديه. ساعد لورا على النهوض، فاحتضنته بقوة، ليتشتت تركيزه للحظة عن مسح التهديدات في الغرفة، وعن إطلاق النار في الخارج، وعن الستائر المشتعلة. بادلها العناق بشدة، ونظر في عينيها؛ كانتا واسعتين ومحمرتين من أثر التعب لكنهما تنبضان بالحياة، فضمها بيده الحرة.

أفلتت منه بعد لحظة، ونزعت الغمامة عن فمها، ثم جثت على ركبتيها تفتش سترة سبايدر. سحبت مسدسًا آليًا صغيرًا من طراز "مايكرو أوزي" من جرابه وانطلقت واقفة.

قال كورت:

– "اتبعيني عن قرب. لدي معدات غوص مخبأة عند—"

قاطعته قائلة:

– "علينا قتل دي لا روشا."

– "لا! لسنا بحاجة لذلك! أنا هنا من أجلكِ! لقد استعدتُكِ! هيا لنرحل!"

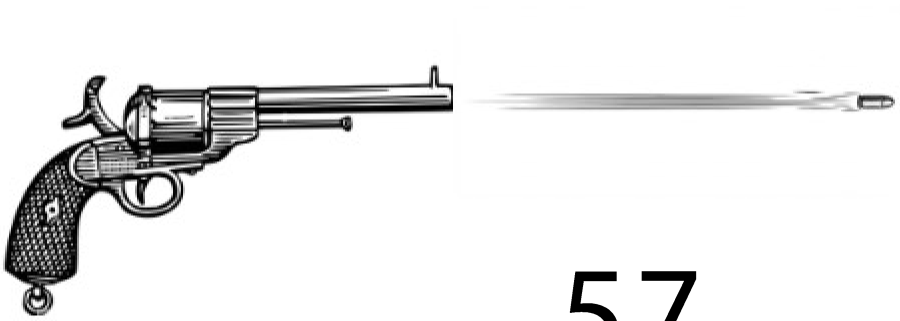
كانت عيناها تفيضان بالمشاعر، ولم يستطع كورت معرفة ما يدور في خلدها الآن. كانت النيران قد امتدت إلى الأريكة والكراسي، وحوّل نسيم البحر الحرائق الصغيرة إلى دوامات من الحطام المشتعل والدخان.

قالت وهي تستدير عنه وتختفي خلف الستارة:

– "لن أتركه حيًا."

صرخ كورت:

– "تبًا!" لكنه تبعها.



57

لحق كورت بـ لورا عند رأس الدرج. كان المكان مظلمًا وساكنًا لولا المعركة الطاحنة التي تدور في أرجاء الضيعة. اختلطت أصوات صفارات إنذار الشرطة مع إنذارات السيارات المدنية، بينما كانت طلقات البنادق المتواصلة تقطع سكون الليل. تبع الدخان المنبعث من الردهة أعقاب جينتري ولورا وهما يتقدمان في ردهة مظلمة. همست لورا بأنها كانت محتجزة في قبو النبيذ منذ وصولها، واعترفت بأنها لا تملك أدنى فكرة عن وجهتهما.

انطلق رصاص آلي كثيف من داخل المنزل الآن؛ بدا أن رجال مادريغال قد دفعوا رجال دانيال إلى الردهة الرئيسية. عثرت لورا على درج آخر، ولاحظ كورت أثرًا للدماء؛ وتساءل عما إذا كان قد أصاب دانيال في ظهره برصاصته العمياء التي أطلقها عبر الستائر. تحركا ببطء وحذر في البداية، ولكن عندما سمعا صوت مراوح مروحية تبدأ في الدوران فوقهما، ركضا نحو الأعلى عبر الظلام.

بمجرد فتحهما للباب المؤدي إلى السطح، رفع كل من كورت ولورا سلاحيهما وأطلقا النار. كان هناك رجل بزي طيار يقف خارج المروحية السوداء والمسدس في يده. أخطأت لورا هدفها، لكن جينتري أرداه قتيلاً بأربع رصاصات دقيقة من مسدسه الـ غلوك. وبينما سقطت جثته على الأرض، زادت سرعة مراوح المروحية من طراز

Eurocopter EC135 وارتفعت بضع بوصات في الهواء، وهي تدور حول محورها موجهة مقدمتها نحو الخليج.

صرخت لورا وهي تركض نحو المروحية:

– "إنه دي لا روشا!"

رد كورت من بين ضجيج المراوح:

– "لقد هرب!"

لكن لورا تجاهلته وركضت عبر السطح نحو المروحية التي بدأت في الإقلاع.

لعن كورت بصوت عالٍ ثم ركض خلفها مجددًا.

كان دانيال دي لا روشا قد أُصيب في كتفه الأيسر العلوي برصاصة ذلك الغرينغو اللعين "الرجل الرمادي"، لكنه سيكون بخير إذا تمكن من الهرب فقط. كان طيار مروحيات محترفًا قضى أكثر من مائة ساعة طيران على هذا الطراز من الـ يوروكوبتر، وكل ما يحتاجه الآن هو الابتعاد عن هجوم "الفاكيروس". كان يعلم أن "الرجل الرمادي" والفتاة يطاردانه عبر الدرج، لذا أطاح بالطيار خارج المروحية، وسلمه أحد مسدساته الـ (0.45)، وأمره بإطلاق النار على أي شخص يظهر على السطح حتى يتمكن من الفرار.

بينما كان يميل بالمروحية الأنيقة نحو اليسار ويبدأ في الارتفاع، انفتح الباب الخلفي وراءه. كان الضجيج أعلى من أن يُسمع دون صراخ، وهذا ما فعله تمامًا وهو يقلع:

– "لقد أمرتك أن تنتظر على السطح لـ—"

شعر فجأة بفوهة مسدس آلي ساخنة تضغط على مؤخرة رأسه.

صرخت الفتاة في أذنه اليمنى:

– "اهبط!"

لم يصدق ما يحدث.

التفت خلف كتفه، فرأى الفتاة، ومن خلفها كان "الرجل الرمادي" نفسه يتسلق للداخل عبر الباب المفتوح. زاد دانيال من سرعة المحرك وحرك عصا التحكم بعنف للأمام، كاد أن يقذف بالأمريكي خارج الباب. وأخيرًا، تمكن الأمريكي من الدخول تمامًا، متدحرجًا على الأرض ومتشبثًا برباط الشحن على الجدار. كانت لورا متمسكة جيدًا بمقعد دانيال، ورغم أن المسدس اهتز بعيدًا عن رأسه للحظة، إلا أنها أعادته بقوة بعد ثوانٍ.

– "اهبط! اهبط وإلا أطلقت النار!"

سألها وهو يصرخ ويضحك في آن واحد:

– "هل ستقتلين الطيار أيتها البلهاء؟"

لم يكن لديه أدنى فكرة عما إذا كان "الرجل الرمادي" يجيد قيادة المروحيات؛ وكان من المرجح أنه يستطيع ذلك، لذا زاد دي لا روشا من السرعة وأخذ يميل بالمروحية بعنف يمينًا ويسارًا، متعمداً إبقاء الطائرة على حافة السقوط. بهذه الطريقة، حتى لو كان القاتل الغرينغو طيارًا، فلن يتمكن من السيطرة على أدوات التحكم في الوقت المناسب لتفادي الاصطدام.

كان يخطط للتوجه نحو وسط مدينة بورتو فالارتا؛ فهو يملك الشرطة هناك، وسيحمونه من هذين المجنونين.

انطلقت المروحية نحو الشمال، وهي تتلوى وتترنح فوق أمواج المحيط على ارتفاع أقدام قليلة. ورغم تركيزه الكامل على الطيران، رفع دانيال يده اليسرى عن رافعة التحكم للحظة ليسحب مسدس الـ (0.45) من وركه الأيسر. أبقاه مخفيًا عن أنظار غامبوا و"الرجل الرمادي"، ووضعه تحت فخذه الأيسر حيث يمكنه الوصول إليه في لمح البصر.

أبقت لورا السلاح مصوبًا نحو رأس دانيال وهي تنظر إلى جينتري.

– "هل يمكنك قيادة هذه الآلة؟"

كان كورت لا يزال يحاول استعادة توازنه؛ فقد استهلك التسلق إلى المروحية بينما يحاول دانيال هزه وإسقاطه كل طاقته. شعر بضلوعه إما مدمومة أو مكسورة، وبألم فظيع في ركبته اليمنى التي ارتطمت بقوة بالأرضية المعدنية للمقصورة.

كررت سؤالها صارخة فوق الضجيج:

– "هل تجيد قيادة المروحية؟"

زحف كورت نحو الباب، حريصًا على التشبث بمقبض خلف مقعد مساعد الطيار لئلا يُقذف للخارج، ثم سحب الباب وأغلقه. فجأة ساد الهدوء داخل الطائرة؛ وأصبح بإمكان الثلاثة التحدث بأصوات شبه طبيعية.

– "يا رقم ستة! أخبرني، هل يمكنني قتل هذا النذل؟ هل تستطيع قيادة المروحية؟"

ضغطت بفوهة الـ "أوزي" بقوة على شعر الزعيم القصير. أخذ يصرخ ويسبها بينما يواصل الطيران شمالاً، محركًا الطائرة بعنف.

لقد تدرب جينتري على الطائرات ذات الأجنحة الدوارة، نعم، ولكن كان ذلك منذ زمن بعيد، والطائرات القليلة التي قادها لم تكن بمثل تعقيد هذه الآلة الضخمة. والآن، وهو ينظر حوله إلى شاشات الكمبيوتر والأقراص والمفاتيح والرافعات والأضواء، عرف الإجابة على سؤالها.

صاح قائلاً:

– "لا! لا تقتليه!"

ضحك دي لا روشا بصوت عالٍ، وسحب عصا التحكم للخلف، فبدأت المروحية في الارتفاع بسرعة.

– "هل سمعتِ ذلك أيتها العاهرة؟ إذا متُّ أنا، ستموتين أنتِ أيضًا!" وابتسم دانيال بعينين مفتوحتين وأسنان كاشرة.

أبقت لورا مسدسها مصوبًا نحو رأسه. كان يحلق بالمروحية للأعلى فأعلى، ويشعر بالأمان مع كل ثانية تمر. اتجه شمالاً نحو الخليج مقتربًا من أضواء وسط مدينة بورتو فالارتا.

كرر قوله وكأنه يريد التأكد من استيعابها للعواقب:

– "لا يمكنكِ إطلاق النار عليّ يا لورا! إذا متُّ أنا، ستموتين أنتِ!"

كانوا الآن على ارتفاع خمسمائة قدم في الهواء.

نظرت لورا إلى كورت بعينيها البنيتين الواسعتين. ورأى جينتري تلك العينين تتحولان إلى شقين ضيقين.

تباً.

التفتت مجددًا نحو دانيال دي لا روشا، وهزت كتفيها قائلة:

– "إذن، أظنني سأموت يا نغل."

– "لا!" صرخ دانيال دي لا روشا.

– "لا!" صرخ كورت جينتري.

لكن صرخاتهما غابت تحت دوي رشق ناري قصير وقوي من مسدس الـ "أوزي". انفجر الجزء الخلفي من رأس دي لا روشا وتناثر فوق الأجهزة المضيئة والشاشات والزجاج الأمامي الضخم. وارتخى ما تبقى من جسده الهامد في حزام الأمان، وسقط مسدس من عيار (0.45) من يده اليسرى.

تباطأ زخم المروحية للأمام وتوقف، ثم بدأت تلتف ببطء نحو اليمين حتى ظهرت أضواء متنزه "الماليشون" بوضوح. مالت الطائرة للأمام، وهبطت مقدمتها لأسفل. غادر الزجاج الأمامي الملطخ بالدماء أضواء المدينة الساطعة وغرق في الظلام بينما اندفع المحيط الأسود لاستقبالهم.

رسمت لورا شارة الصليب وبدأت في الصلاة.

مثل حيوان بري، اندفع كورت زاحفاً فوق لورا غامبوا في طريقه إلى مقعد مساعد الطيار. استخدم يديه وركبتيه ومرفقيه؛ شعر بانعدام

الوزن للحظة، وقبض على ظهر المقعد بيده اليمنى ليثبت نفسه في اللحظة التي أمسك فيها بعصا التحكم في منتصف لوحة الأجهزة. سحبها للخلف بقوة – بقوة زائدة في الواقع – فاعتدلت الطائرة بسرعة خاطفة، مما دفع بصدر جينتري بقوة نحو أجهزة اللاسلكي بين المقاعد. انقطع نفسه من أثر الصدمة، لكنه واصل الزحف للأمام، ملتويًا بجسده وغائصًا الآن ليصل بيده إلى رافعة التحكم في الجانب البعيد من المقعد. أدارها، فزاد من سرعة الدوران والمحرك، وشعر بالمروحية تندفع للأمام مجددًا، لتوقف هبوطها الحلزوني.

لكنه وجد نفسه الآن منبطحًا على وجهه فوق مقعد المروحية التي يقودها، وكان الانعطاف الحاد نحو اليمين يبقيه مثبتًا هناك بفعل القوة الطاردة المركزية. ترك عصا التحكم للحظة، طويلة بما يكفي ليمد يده ويضغط على دواسة منع الدوران اليسرى حتى النهاية. أدت هذه الحركة العنيفة إلى توقف الطائرة المتطورة عن الدوران فجأة، فتدحرج جينتري للأمام فوق المقعد، ليجد نفسه مقلوبًا تمامًا وساقاه في الهواء فوق مسند الرأس.

سألته لورا:

– "ماذا تفعل؟" كانت قد توقفت عن الصلاة لمراقبة تصرفات الأمريكي الغريبة.

صرخ بجنون:

– "ساعديني!" فأمسكت بقدميه ودفعتهما نحو حجر دانيال، وفقدت المروحية زخمها وارتفاعها مرة أخرى بينما كان كورت يصارع للجلوس في المقعد، لكنه استطاع أخيرًا وضع يديه وقدميه في أماكنها الصحيحة وجعل الـ يوروكوبتر تحلق في خط مستقيم ومستوٍ، ولم يكن يفصل بين بطن المروحية وسطح المحيط سوى خمسة وعشرين قدمًا.

انطلقا بسرعة نحو الشمال فوق خليج بانديراس؛ وعلى بُعد مائة ياردة من جهة اليمين، اختفت أضواء المتنزه وظهرت منطقة الفنادق في بورتو فالارتا.

استنشق كورت هواء الليل البارد، وكانت هذه أول تنهيدة عميقة له منذ أن انقطع نفسه.

نظر إلى يساره؛ كان جسد دانيال عديم الرأس تقريبًا يتدلى إلى الجانب، والدماء تقطر على صدره العاري.

كانت لورا لا تزال جالسة خلفه. قالت بابتسامة:

– "لقد قلتَ إنك لا تستطيع قيادة المروحية."

– "اسمعي، أعتقد أن الأفضل هو أن نحاول الهبوط فوق الماء."

– "ومتى يكون الهبوط في الماء أفضل من اليابسة؟"

تردد كورت ثم قال:

– "عندما يكون الطيار فاشلاً."

نظرت إليه لورا وقالت:

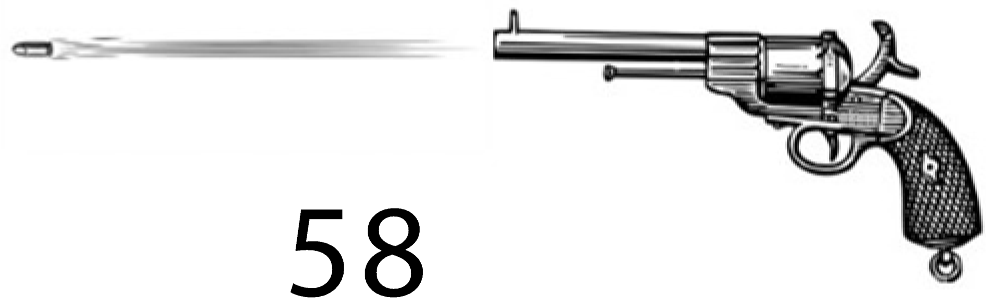
– "أنت لا تمزح، أليس كذلك؟"

– "أخشى ذلك."

قالت: "حسناً إذن." وعادت إلى صلواتها.

بعد خمس دقائق، كانت مروحية Eurocopter EC135 تحوم بارتباك على ارتفاع عشرة أقدام فوق الماء في مرسى فالارتا، شمال المدينة مباشرة. رأى القلائل الموجودون على أسطح يخوتهم في ذلك الوقت من الليل مشهد الطائرة المترددة: مالت لليمين قليلاً، ثم لليسار؛ ثم غطست مقدمتها للأمام، واعتدلت على ارتفاع خمسة أقدام فوق الماء؛ وفجأة، وبشكل غير مفهوم، سكن صوت المحركات الرئيسية وكأنها أُطفئت يدويًا. سقطت الطائرة مباشرة في الماء، وتحطمت المراوح عند الارتطام، وبدأت المروحية في الغرق سريعاً.

وفي غضون ثوانٍ من اختفاء المروحية تحت مياه المرسى السوداء، برز رأسان فوق السطح. وسرعان ما أمكن رؤية رجل وامرأة يسبحان نحو الشاطئ. واختفى الظلان في عتمة الليل، في اللحظة التي ملأ فيها صوت صفارة قارب شرطة الميناء الأجواء.



58

كان نيستور كالفو ماسياس ملقى على جنبه، مكبل اليدين والقدمين داخل بئر المنجم. كان يرتجف ويرتعد، من البرد ومن الخوف على حد سواء. طوال الليل، كانت الجرذان الضخمة تركض حوله، بل وفوقه. لم تكن تخشاه، ولِمَ قد تفعل؟ لم يكن بوسعه فعل شيء لصدها، مقيدًا كما هو، ومع وجود لجام القنب في فمه، لم يستطع حتى الصراخ لإخافتها.

وهكذا قضى الليل في الظلام، وفي البرد، تدوسه وتتبول وتتبرز عليه تلك الجرذان اللعينة (Pinches ratones).

افترض أنه سيموت هنا. سيموت جوعًا أو عطشًا أو يستسلم لعلة أخرى في اليوم التالي. وإذا عاد «الرجل الرمادي»، فماذا إذن؟ رصاصة في الرأس؟

استلقى نيستور يرتجف، يفكر في الجرذان والمرض، وفي الموت جوعًا أو الموت البطيء جفافًا.

ارتعد وتمنى لو يعود «الرجل الرمادي» وحسب، ويضع رصاصة في رأسه لينهي الأمر.

ظهر ضوء في أعلى البئر. وصوت محرك. وسرعان ما ظهرت شاحنة الـ «مازدا» في بئر المنجم وتوقفت. ترجل منها «الرجل الرمادي». من خلال أضواء الشاحنة، استطاع نيستور أن يرى أن

الأمريكي يبدو في حالة مزرية. كانت ملابسه ممزقة؛ ووجهه ينم عن ألم مع كل خطوة يخطوها. عرج نحوه، وجثا بجانبه، ثم سحب مسدسه.

ها قد حانت اللحظة، فكر كالفو. وأغمض عينيه بقوة.

ضغطت فوهة المسدس الباردة على صدغه.

ثم نُزع لجام القنب من فمه.

قال «الرجل الرمادي»:

– "دي لا روشا مات. وسبايدر مات. فأين يضعك هذا؟"

لم يفتح كالفو عينيه:

– "أنا... أنا لا أعرف."

– "أظن أن هذا يجعلك المسؤول عن «البدلات السوداء». أليس كذلك؟"

فتح عينيه الآن، لكنهما حدقتا أمامه، في الجدار البعيد:

– "أنا... لا أعرف."

– "أنا مستعد لعقد صفقة مع قائد «البدلات السوداء»."

تهدج صوت كالفو وهو ينظر الآن إلى «الرجل الرمادي»:

– "نعم؟"

– "إذا أوقفت المطاردة وراء إيلينا غامبوا، سأطلق سراحك."

– "بالطبع! بالطبع سأفعل! لم يكن لي أي اهتمام بـ..."

– "إذا أصاب أي مكروه أيًا من آل غامبوا، سواء هنا أو في الولايات المتحدة، فسأعود."

– "أنا... أنا أفهم."

قطع «الرجل الرمادي» وثاق كالفو وحرره، ثم صعد مرة أخرى إلى شاحنته الـ «مازدا» وقادها مبتعدًا دون أن ينبس بكلمة أخرى.

وقف نيستور كالفو ماسياس في حالة صدمة، ونفض التراب ببطء عن بدلته السوداء، وملس شعره الرمادي إلى الخلف، وبدأ يمشي ببطء نحو مخرج بئر المنجم.

جلس كورت على مقعد خشبي في حرم كاتدرائية «سيدة غوادالوبي» في بويرتو فالارتا. كانت قدماه تتحركان بعصبية وهو ينظر حوله.

منتظرًا. وقلقًا.

ظهرت لورا من باب جانبي للحرم، وجالت ببصرها في القاعة الباردة المضاءة، وابتسمت عندما رأته. اقتربت وتعانقا، ثم أخذته من يده عبر قوس ضيق يؤدي إلى غرفة الملابس الكنسية الصغيرة. وهناك جلسا وحيدين معًا على مقعد خشبي.

تحدثا لبضع دقائق عن الآلام والأوجاع المختلفة التي تعرضا لها في الأسبوع السابق في بويرتو فالارتا. كلاهما يبدو الآن أفضل بكثير مما كانا عليه في آخر مرة رأيا فيها بعضهما البعض: هي تبكي في محطة حافلات على جانب الطريق، وهو يبتعد بشاحنته الـ «مازدا». كان لديهما الوقت منذ ذلك الحين للاغتسال والعناية بجروحهما وتحديد وجهتهما التالية.

كان كورت قلقًا بشأن هذه المحادثة. لم يكن بإمكانه الدخول في علاقة مع هذه الفتاة، بقدر ما داعب ذلك الخيال مخيلته كل ليلة. كان يعلم أن حياته في خطر، وكان يعلم أنه، بخلاف وضعها في الأسابيع القليلة الماضية، فإن مشاكله لن تُحل في أي وقت قريب. لم يكن يعرف كيف يخبرها أنه سيضطر لتركها من أجل مصلحتها. بدا الأمر وكأنه هراء.

لكنه كان مضطرًا لفعله.

دخلت هي في صلب الموضوع بسرعة، مجبرة إياه على تحضير نفسه لخذلانها بألطف طريقة ممكنة.

قالت:

– "يا (ستة). لقد كنت أفكر وأصلي بشأن مستقبلي."

– "حسنًا، أريدك أن تعرفي..."

– "قلبي مطمئن. أعرف ما أريد. وما أحتاج إليه. أعرف ما الذي سيجعلني سعيدة في حياتي."

يا إلهي، فكر كورت. ها نحن ذا.

صمتت قليلًا، ثم قالت:

– "سأدخل الدير. سأصبح راهبة. إنها عملية طويلة، لكن قلبي يعلم أنها الطريق الصحيح لي. أشعر بالنداء. سأبدأ فورًا."

قال كورت بصوت مسموع:

– "يا إلهي."

– "أود أن تأتي لزيارتي. لن أتمكن من رؤيتك. سأضطر للبقاء في عزلة الدير. لكن سيكون من اللطيف أن أسمع أخبارك من وقت لآخر."

جاهد كورت لتمالك نفسه. لم يتخيل بالتأكيد هذا المسار للأحداث.

– "نعم. بالتأكيد. يسعدني ذلك."

– "وأود أيضًا أن أصلي من أجلك."

قال وهو لا يزال يترنح من المفاجأة:

– "افعلي ما يحلو لك."

أمالت رأسها متسائلة:

– "ماذا يعني ذلك؟"

– "يعني، نعم، لديك إذن بالصلاة من أجلي. سأحب ذلك كثيرًا."

– "إن طرق الرب غامضة. وأنت يا (ستة)، أكثر (طريقة) غامضة واجهتها في حياتي."

وجد كورت نفسه راغبًا في تصديق أن الله كان يعمل من خلاله وليس الشيطان نفسه. لكنه لم يكن يعلم. لم يكن يفهم.

لكنه لم يندم على القتل الذي اقترفه، ولا التدابير التي اتخذها هنا. لم يندم لثانية واحدة على قطرة دم واحدة سفكها لإنقاذ المرأة الماثلة أمامه.

كانت جميلة. كانت صالحة. كانت مثالية.

وكانت على قيد الحياة.

قالت:

– "اذهب في رعاية الله يا صديقي."

عانقته، ونظرت في عينيه، ووقفت، ثم اختفت عائدة عبر غرفة الملابس إلى الحرم.

ورحلت.

جلس كورت لبضع دقائق وحيدًا، ثم وقف وعاد إلى الحرم هو الآخر للحظة. بدت القاعة كبيرة وفارغة، لكنها مرحبة بطريقة ما. لقد قضى وقتًا في كنائس حول العالم ولكن لأسباب عملياتية فقط، ولم يشرد ذهنه أبدًا أبعد من تفاصيل عمله.

الآن نظر حوله، ربما للمرة الأولى في حياته، وتساءل عن هذا المكان. هل كان هناك مغزى لكل هذا؟

تحولت عيناه إلى الصليب. حدق فيه طويلًا قبل أن يهمس:

– "شكرًا."

رن هاتفه المحمول. كان الرقم الذي أعطاه لـ هيكتور سيرنا.

خرج من المدخل الجانبي للحرم، إلى ظهيرة مشمسة ولطيفة الجو.

– "نعم؟"

لم يكن سيرنا. كان مادريغال. تحدث بإسبانيته الجبلية، وكافح كورت للفهم.

– "لقد تركت كالفو حيًا؟"

– "نعم."

– "لماذا؟"

– "أعتقد أنك بحاجة لبعض المنافسة."

صمت طويل.

– "كان يجب أن أقتلك عندما أعطيتني ذلك السلاح!"

أقر كورت:

– "نعم. كان يجب عليك ذلك."

– "سأقتلك!"

– "قف في الطابور يا راعي البقر."

– "أنت نكرة، وقطعة من القذارة، وابن عاهرة!"

– "أنا خارج عن القانون."

صمت طويل آخر.

– "إذا قُدِّر للبشر يومًا أن يعيشوا على كواكب أخرى، يجب أن تكون أنت أول من يطرد من هذا الكوكب. الجميع يريدك ميتاً."

– "أجل."

– "شخص ما سينال منك قريبًا. لابد أنك تعرف ذلك."

– "أعرف ذلك. وأجد السلوان في حقيقة أن الكثير من الناس سيحزنون لأنهم لم يكونوا هم من قتلني."

أغلق كورت الهاتف، ثم ألقاه في سلة مهملات تابعة للبلدية على بعد بضعة مبانٍ.

خاتمة

بدت سان بلاس مختلفة لـ جينتري الآن. وصل في الثامنة صباحًا، ووجد الطقس أكثر برودة، ورياح المحيط القادمة من الهادئ تدور بالقمامة في الشوارع بينما السكان المحليون يمضون في طريقهم إلى العمل أو المدرسة.

بدا كورت الآن لاتينيًا تمامًا. نزل من الحافلة مرتديًا سترة جينز وبنطالًا أزرق، وحقيبة ظهر رخيصة واحدة على كتفه؛ بشرته الداكنة ونظارته الشمسية وشعره ولحيته وسكسوكته المشذبة بعناية جعلته يندمج بسلاسة مع الرجال الآخرين في مثل عمره. كان يضع سماعات أذن في أذنيه، موصولة بهاتفه، لكنه لم يكن يستمع إلى الموسيقى.

لا، كانت سماعات الرأس مجرد جزء من الزي التنكري، فالإيقاعات الوحيدة التي كان «الرجل الرمادي» يستمع إليها هي وقع الخطوات خلفه والأحاديث الخافتة لمن حوله. كان متأهبًا وحذرًا هنا في سان بلاس، أكثر مما كان عليه قبل أسبوعين في زيارته الأولى لقرية الصيادين.

كان يعلم أنهم يلاحقونه، ويعلم أنهم قريبون.

لقد توقف عن التركيز على هويتهم... لم يعد الأمر يهم حقًا.

سار في الطريق المؤدي إلى التل، مرورًا بأكواخ الكركند والكنائس الصغيرة وشاحنات مشاة البحرية المسلحة في دورياتهم، وسلك طريقًا آخر شديد الانحدار صعودًا إلى تل وعر. كان قد سلك الطريق نفسه في المرة الأخيرة التي كان فيها في البلدة، صاعدًا للبحث عن قبر إيدي، ثم هابطًا مع زوجة إيدي الحامل. تغير الكثير في ذلك الوقت،

لكن بالنسبة لـ كورت بدا كل شيء كما كان من قبل. اكتسب جروحًا وكدمات وسحجات وحروقًا، لكن سعيه الآن كان هو نفسه كما كان آنذاك.

كانت المكسيك مجرد عثرة في الطريق بالنسبة له.

سار صعودًا نحو مدخل المقبرة، ورأى الأضرحة الرخيصة المصنوعة من الصفيح والأغطية البلاستيكية والكتل الأسمنتية على يساره. مر إغوانا مسرعًا على الطريق أمامه. قرق دجاج في آخر منزل أعلى التل قبل بداية المقبرة ومدخل كنيسة قديمة ومكتب إحصاء يعود تاريخه إلى منتصف القرن التاسع عشر.

لكنه تجاوز المقبرة، واستمر في الصعود. كان مسحًا أمنيًا روتينيًا بالنسبة له، تلقائيًا أكثر منه نابعًا عن أي شعور بالخطر أو التهديد. لقد أصبحت طبيعة ثانية لديه أن يقوم بانعطافات واسعة وكسولة، وأن يتوقف ليتتبع خطواته، وأن ينتظر في الظلال ليرى إن كان أحد يتبعه، وأن يتحرك عبر المشهد الطبيعي كالشبح.

أخيرًا انعطف يسارًا متجاوزًا المقبرة بمسافة جيدة، في مكان أعلى بكثير على التل، ودخل بستانًا من العشب المنخفض تحيط به أشجار موز برية بارتفاع طابقين. توغل أعمق في الأحراش، واستدار نحو المقبرة. لقد قطع كل هذه المسافة، في رحلة حافلة استغرقت ثلاث ساعات، فقط لرؤية مثوى إيدي مرة أخيرة. فكر كورت في ترك شيء هناك، تحت التراب، كذكرى لصديقه.

لكنه لم يكن يحمل الكثير معه.

لم يكن كورت رجلًا عاطفيًا؛ ربما كانت عقليته أقرب ما تكون إلى الطرف النقيض من العاطفة دون أن يُشخّص كمعتل اجتماعيًا. لكنه شعر أنه يجب عليه المجيء إلى هنا، وكان عليه أن يخصص الوقت وينفق المال ويبذل الجهد للعودة إلى المكان الذي بدأ فيه كل هذا بالنسبة له.

شق طريقه عبر بعض الشجيرات.

كانت العودة هي الشيء الصحيح الذي يجب فعله، رغم أنه لم يستطع التعبير عن السبب.

تسلَّق صخرة بيضاء كانت يومًا جزءًا من قلعة إسبانية.

لن ينسى إيدي أو لورا أو إيلينا أو دانيال دي لا روشا، لكنه كان بحاجة لوضع هذا خلفه ليمضي قدمًا.

نزل عن الصخرة وكافح عبر بعض الكروم المتشابكة، وخرج فوق المقبرة مباشرة؛ كانت تبدأ على بعد بضعة ياردات أسفل التل المنحدر.

سيتعين عليه ترك أفكاره عن لورا، وخيالاته عن الحب، ورؤاه عن الرغبة خلفه حتى يتمكن من الاستمرار في قتاله ضد غريغور سيدورينكو.

تسمر كورت في مكانه. وانخفض ببطء إلى العشب.

اللعنة. لم يقلها بصوت عالٍ.

عندما تيقن من أنه متخفٍ، زحف للخلف على مرفقيه وركبتيه، عائدًا إلى الشجيرات والكروم والموز، ثم انحرف عشر ياردات إلى يمينه، وهو لا يزال زاحفًا على بطنه. استغرق الأمر منه ما يقرب من عشر دقائق للقيام بذلك، لكنه جلس بعدها خلف حجر أبيض منحوت، وسحب منظارًا صغيرًا من حقيبته، وتحقق من زاوية الشمس، ثم دحرج جسده حول الحجر الأبيض ورفع المنظار إلى عينيه.

أين؟ أين أنت؟

كان قد استشعر حركة أسفله، في صف المدافن جنوب المكان الذي يقع فيه صليب إيدي. كانت الإغوانا في كل مكان، لكن هذه الحركة لم تكن طبيعية في ذلك المحيط. كانت مصحوبة بوميض ضوء، انعكاس زجاج في شمس الصباح. كان هذا كل ما تمكن من تمييزه قبل

أن يضيء نظام إنذاره الداخلي وينبطح للاحتماء. الآن مسح بمنظاره منطقة الحركة، باحثًا عن أي شيء أثار قلقه قبل بضع دقائق فقط...

هناك.

تبًا.

شخص، رجل، في وضع الانبطاح، على بعد ثمانين ياردة من قبر إيدي. كان يرتدي بدلة مموهة بالكامل، وبدا مثل الشجيرات حوله وأمامه؛ ومن تحت غطاء من الأغصان والأوراق المحلية للمنطقة، برزت فوهة بندقية ومقدمة منظار قنص.

خلف هذا الرجل، ليس بعيدًا، كان شريكه. كان مخفيًا بشكل أفضل، لم تكن لديه فوهة مكشوفة أو منظار يمكن أن يلتقط ضوء الشمس، لكن كورت رآه عندما أدار رأسه.

تبًا. مسح كورت المقبرة الجبلية الآن. لن يكون هناك اثنان منهم فقط. لا توجد منظمة في العالم سترسل رجلين فقط في مهمة لقتل «الرجل الرمادي». لم يستطع كورت العثور على الآخرين، لكنه علم أنهم هناك. ربما هنا معه في الأحراش فوق المقبرة. سيكون مكانًا حكيمًا لإخفاء قوة دعم.

للحظة فقط تساءل من هم. رجال سيدورينكو؟ فرق القتل/الصيد التابعة لشعبة الأنشطة الخاصة (SAD)؟ قوة دلتا؟ رعاة البقر؟ البدلات السوداء؟

هل يهم الأمر أصلًا؟ قرر أنه لا يهم.

حول ناظريه إلى صليب إيدي البسيط.

لم يستطع كورت رؤية سوى الجانب الخلفي منه أسفل التل؛ لم يكن لديه أي فكرة عما إذا كانت هناك المزيد من اللعنات قد طليت عليه. كان قد أحضر في حقيبته طلاءً أبيض وفرشاة. كان يخطط للقيام بالعمل الذي كانت إيلينا تقوم به عندما التقاها، لترميم سمعة إيدي مرة أخرى قبل أن يغادر هذا المكان إلى الأبد.

لكن الأوغاد في الأسفل أفسدوا كل شيء على كورت.

على بعد خمسين ياردة منه يقبع صليب إيدي الوحيد، ولن يحميه أحد في هذه البلدة، ولن يزوره أحد في هذه البلدة. عاجلًا وليس آجلاً، كما أدرك كورت، لن يتذكر أحد في هذه البلدة إدواردو غامبوا إلا باعتباره عضو كارتل آخر، وقاتلًا آخر للمخدرات، وقاتلًا آخر للرجال بلا اسم ولا وجه.

ولم يكن بوسع كورت فعل أي شيء حيال ذلك على الإطلاق. لم يستطع حتى أن يقول وداعًا.

استلقى هناك في الأحراش لمدة ساعة، يراقب القناص، رجلًا ساكنًا وصبورًا مثل كورت نفسه، ثم تراجع عبر الشجيرات، إلى الموز البري، وصولًا إلى الطريق. عاد هابطًا التل، ثم مر مرة أخرى بأكواخ الكركند، واستقل حافلة غادرت به المدينة.

-تمت-

انتقام

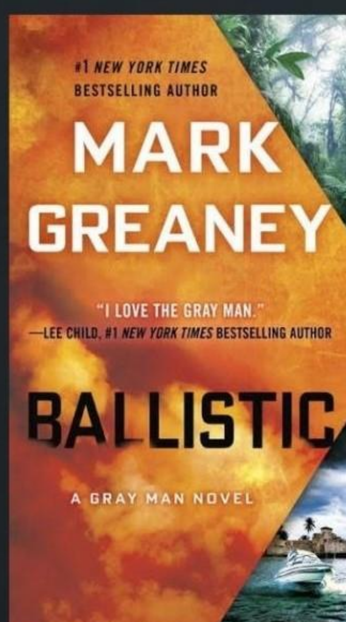
مارك غريني

"اعتقد كورت جينتري, القاتل المحترف السابق بوكالة الاستخبارات المركزية (CIA), أنه وجد أخيراً ملاذه الآمن وسط أدغال الأمازون المطيرة. لكن ماضيه الدموي يأبى إلا أن يدركه؛ حين يجبره زعيم "مافيا" روسي, تحركه نيران الانتقام, على الهروب والعدو مرة أخرى.

يشق كورت طريقه نحو الرجل الوحيد الذي يثق به في هذا العالم... لكنه يصل بعد فوات الأوان. لقد مات صديقه وواراه التراب.

قبل سنوات, أنقذ إيدي جامبوا حياة كورت. والآن, لقى إيدي حتفه غدراً على يد "كارتل" المخدرات المكسيكي سيئ السمعة الذي أفنى حياته محارباً لإسقاطه. وسرعان ما يجد كورت نفسه قد سُحب قسراً إلى أتون حرب لم يرغب بها قط.

ولكن في حربٍ كهذه, تسقط الانتماءات وتتلاشى الجبهات... ولا يتبقى سوى الناجين"



ترجمات مكتبة الوادي
t.me/wadistreambooks

ترجمة / قناة wadistreambooks

@t.me/wadistreambooks